البابا القدّيس
يوحنّا بولس الثاني
نبيّ الرجاء لعصرنا

طبعةٌ أولى

٢٠١٥

*

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسيّة
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب : ١٢٥
هاتف : ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس : ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت - شارع لبنان - هاتف : ٠١/٤٤٨٨٠٦ - تلفاكس : ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة - شارع سيّدة النجاة - مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك - تلفاكس : ٠٨/٨١٢٨٠٧

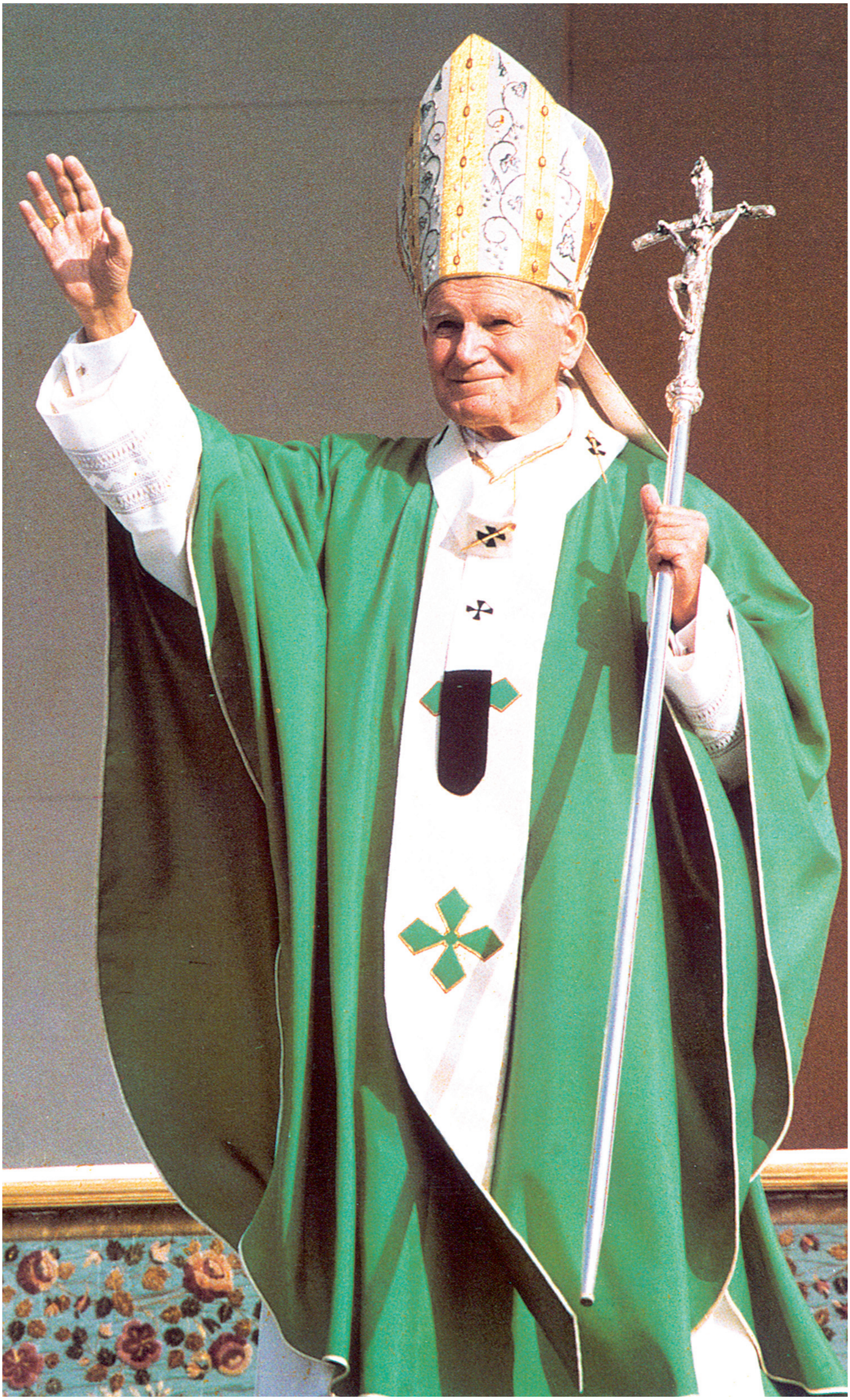

سلسلة النوابغ
٩

البابا القدّيس
يوحنّا بولس الثاني
نبيّ الرجاء لعصرنا

أديب مصلح

منشورات المكتبة البولسيّة

أيّها البابا القدّيس

تلك اللحظة الخالدة، التي فيها اشتبك ناظرانا، تساوي لي دهرًا بأكمله.

فعندما تلقّيتُ جسد الربّ من يدك، قرأت يسوع في سماء عينيك، وبوقوفي أمامك، تحقّقتْ لي أمنيةٌ غاليةٌ، وشاهدتُ قدّيسًا حقًّا، وجهًا لوجهٍ.

والآن، وقد غدوتَ شفيعًا لملايين أبنائك في العالم، تشفّع بهم، كي تثمر البذور الإنجيليّة التي نثرتَها في كلّ جنبات المسكونة، ورويتَها بدمك ودموعك، أبطالاً وقدّيسين يقتفون خطاك.

وتشفّع بالمسؤولين في الكنيسة، كي يعوا سموّ رسالتهم، ويكونوا أوفياء لواجباتهم ومسؤوليّاتهم، وينهجوا نهجك في الاضطلاع بها، ويشهدوا لحبّ يسوع، ويلتزموا بإنجيله.

تشفّع بالكهنة كي يلتزموا بمقتضيات دعوتهم، ويكونوا خدّامًا متفانين للرحمة الإلهيّة، ويدأبوا على إظهار وجه المخلّص الفاتن.

تشفّع بكلّ مسيحيٍّ كي يكون وفيًّا لوعود معموديّته، ولا يتقاعس عن حمل الصليب كلّما اقتضى الوفاء ذلك.

وتشفّع بكلّ إنسانٍ، كيلا يستهين بكرامته وحرّيّته، ولكيلا يغرب عن باله أنّه مخلوقٌ على صورة الله.

تشفّع بالذين يعانون الحرمان والأوجاع، منتظرين بادرة حبٍّ وإخاءٍ، كي يكتشفوا حبّ الله ورحمته، من خلال سخاء متطوّعين للخدمة، يرون يسوع في كلّ صغيرٍ، وضعيفٍ ومحتاجٍ.

وتشفّع بكلّ مناضلٍ ضدّ الظلم، كي يسكنه اليقين بأنّ سلاح الروح والحبّ هو أمضى من كلّ سلاحٍ، لأنّ يسوع، بصليبه وقيامته، قهر الشرّ والموت.

وتشفّع بالبشريّة جمعاء، لكي تتفادى تدمير ذاتها بذاتها، من جرّاء تنكّرها لوصايا الله، وتعاليم الإنجيل، ولكي تتغلّب حضارة الحبّ على حضارة البغض والموت.

مقدّمة

بقلم الأب الياس زحلاوي

هل من حاجةٍ إلى تقديم كتابٍ ينتصب بطلِّه منذ عنوانه، بمثابة منارةٍ ساطعةٍ، في وجه عالمٍ يصرّ على الغرق في المظالم والظلمات؟

أُتيح لي أن أشهد ولادته، فصلاً إثر آخر، كما ولادة سابقيه من كتبٍ استثنائيّةٍ، على نحوٍ بتٌّ معه، كما مع سابقيه، على يقينٍ بأنّه سيشدّ القارئ، كلّ قارئٍ، كما قلّما شدّه كتابٌ في حياته.

أقول ذلك، وأنا على ثقةٍ تامّةٍ بأنّ حجمه الاستثنائيّ سيُحدِث، على الرغم من عنوانه المثير، إحجاماً تلقائيًّا لدى بعض الراغبين فيه، إذ لم يعد بخافٍ على أحدٍ، أنّ اقتحام وسائل الاتّصال الإلكترونيّة، من تلفازٍ وإنترنت وسواهما، جميع المجتمعات العربيّة دون استثناءٍ، حتّى أعماق كلّ فردٍ فيها، قد حقّق انحساراً فعليًّا ومتفاقمًا، ليس لرغبة العرب في القراءة وحسب، بل أيضًا حتّى لقدرتهم على القراءة!

ثمّ إنّ ما يجتاح العالم العربيّ، منذ عشرات السنين، من فوضى عارمةٍ، بلغت، من حيث تشتّت العقول، وتمزّق المشاعر، وتخبّط السياسات، وتفشّي العنف الدمويّ، وتآكل النسيج الاجتماعيّ، ذروتها في الحرب على سورية، قد يحمل الكثيرين على النظر باستهجانٍ إلى إصرار الكاتب على إصدار كتابٍ في مثل هذا الحجم، وفي مثل هذا الزمن!

وفي الحقيقة، فلقد وُجِد من المثقّفين الخلّص، مَن نصحوا المؤلِّف، منذ سنواتٍ بعيدةٍ، بضرورة مجاراة القارئ العربيّ، المبتلى أبداً بآفة الاستعجال، من أجل وضع كتيّباتٍ ليس إلاّ، لا كتبٍ بحجم موسوعاتٍ!

والمعروف عن الكاتب أنّه كان، لعقودٍ خلت، يتعامل مع الكلمة العربيّة، مقالةً هادفةً، وكتبًا صغيرةً مترجمةً، ولكن منتقاةً.

وكان أن أخذ منحًى جديدًا عام ١٩٨٤، إثر تعايشه مع أحداث ظهورات السيّدة العذراء في حيّ الصوفانيّة بدمشق، فوضع كتابين، الأوّل بعنوان «على درب الحياة مع ألكسي كاريل» (عام ١٩٨٤)، ردًّا على مَن ينكر من حيث المبدأ، إمكانيّة حدوث المعجزة. والثاني بعنوان «قدّيسةٌ من بلادنا: مريم يسوع المصلوب»، تناول فيه سيرة راهبةٍ فلسطينيّةٍ، أحاطت بحياتها خوارق حقيقيّةٌ، حيّرت اللاهوتيّين والأطبّاء والمسؤولين الكنسيّين على السواء. وقد تجلّت في هذين الكتابين رصانته ودقّته في البحث، فضلاً عن ملكةٍ لغويّةٍ لديه قلّ نظيرها.

وفي عام ١٩٩١، فاجأني باختياره شخصيّةً استثنائيّةً بحجم «غاندي»، مادةً لكتابٍ له جديدٍ، وقد جمع في سبيله كلّ ما استطاع أن يطاله من كتبٍ باللغات العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة. ولكم كان يسعدني أن أطّلع على هذا المؤلّف الجديد، فصلاً إثر آخر، حتّى كان يومٌ من عام ١٩٩٢، صدر فيه كتابًا يقع في (٧٠٠) صفحةٍ من القطع المتوسّط، عن المطبعة البولسيّة بلبنان، ضمن سلسلةٍ جديدةٍ، شاء أن يطلق عليها اسم «النوابغ».

ويومها اتّضح لعارفي المؤلّف، أنّ له مشروعًا ثقافيًّا واسعًا، ومتعدّد الأبعاد، إنسانيًّا وعربيًّا ومسيحيًّا.

ترى، هل كانت تلك طريقته، في صمته العميق، وإيمانه الصلب، وذكائه الخارق، وحدسه الصائب، من أجل استنهاض كنائس عربيّةٍ، استكانت قرونًا لتمزّقاتها وانهياراتها، حتّى باتت تستجدي، بدل الله ومؤمنيها، غربًا متوحّشًا يسرق خيرة أبنائها، ويسحق شعوبها؟

وهل كانت تلك أيضًا طريقته في مواجهة مجتمعاتٍ عربيّةٍ، استكانت، قرونًا، لسحق الآخرين لها، من غزاةٍ وعثمانيّين وصهاينةٍ، فباتت هي أيضًا تسحق، بدورها، شعوبها، وتحرمهم من أدنى حقوقهم في الحرّيّة والحياة الكريمة، ولا تفطن البتّة لبناء مؤسّساتٍ لهم، علميّةٍ وثقافيّةٍ واجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ،

تساعدهم على النهوض، بحيث تستطيع أن تواجه معهم، عالَمًا متطوّرًا ومتفوّقًا على كلّ صعيدٍ، بدل أن تسرّع عمدًا أو جهلاً، في تهجير الصفوة منهم؟

كلّ ما في الأمر، أنّ مؤلِّفنا كان مصرًّا على مواصلة نهجه الجديد، في التأليف الشامل، بل الضخم، منذ أن وضع مؤلَّفه الكبير الأوّل: «السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي». ذلك بأنّه كان يريد أن يفي الشخصيّات التاريخيّة، التي كان قد انتقاها في سرّه، والتي خصّ بها، شيئًا فشيئًا، كتبه اللاحقة، بعضًا من حقّها في ضرورة معرفة الناس لها، ولا سيّما العرب منهم، معرفةً وافيةً، تبقيهم في عقولهم وذاكراتهم، مراجع تاريخيّةً ودينيّةً وإنسانيّةً، مضيئةً وهاديةً، أو تعيد إحياءهم فيهم، في أزمنة المعادلات الصعبة.

وكان أن صدرت له، عن المطبعة البولسيّة ذاتها، وضمن السلسلة عينها، مجموعة من المؤلّفات النادرة، لا يسع مَن يراها ويتصفّحها، فكيف بمن يطالعها بتمعّنٍ، إلاّ أن ينتهي إلى يقينٍ... واهمٍ، وهو أنّ هذا الاسم يخفي مجموعةً واسعةً من الباحثين العرب، الذين آثروا الاختفاء وراء اسمه!

إلاّ أنّ بصمة المؤلّف هي هي، في جميع هذه الكتب، أسلوبًا وفكرًا، وأفقًا، ورؤيةً، وحجمًا، وصيغةً لغويّةً ساحرةً!

حسبي أن أذكر له، بعد «السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي» (عام ١٩٩٢)، كتاب «فرنسيس... أصلح كنيستي» (عام ١٩٩٢)، وكتاب «صوت من لا صوت لهم: الأب پيير» (عام ١٩٩٧)، وكتاب «حتّى يوجعَ العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة» (عام ١٩٩٨)، وكتاب «أنا الأخت إيمانويل أشهد»... (عام ١٩٩٩)، وكتاب «بولس، رسول يسوع، وقلبه ولسانه» (عام ٢٠٠٣)، وكتاب «جان ڤانييه وسفينته» (عام ٢٠٠٣)، وكتاب «يسوع في إنجيله» (عام ٢٠٠٦)، وكتاب «يسوع في حياته» (جزءان، عام ٢٠٠٦)، وكتاب «أمّ الله، أمّنا» (عام ٢٠٠٩)، وكتاب «مختاراتٌ مريميّة» (عام ٢٠٠٩)، وأُمّ الرحمة (٢٠١١)!...

وها هو اليوم يقدّم لنا وجه البابا القدّيس، يوحنّا بولس الثاني، في مؤلَّفٍ تجاوز بمادّته وحجمه وأبعاده، مؤلّفاته السابقة جميعًا. وإنّي لأرجو لقرّائه الكثيرين أن

ينعموا بمثل ما نعمتُ به، إذ كنت أقرأ فصوله تباعًا، من نشوةٍ روحيّةٍ وإنسانيّةٍ، كانت أبدًا توجّهني في شكرٍ نحو الربّ يسوع، بفعل سهره الجليّ على كنيسته، وبسبب توقيت اختياره مسؤولاً أعلى فيها، وبفعل رعايته الدائمة له وسط المخاطر والأمراض الكثيرة التي واجهته، والمصاعب الهائلة التي لازمت حبريّته، وكذلك أيضًا بفعل ما وهبه من عقلٍ جبّارٍ ومتواضعٍ في آنٍ واحدٍ، وإيمانٍ متّقدٍ مقدامٍ، وقلبٍ كونيٍّ بانفتاحه ومحبّته، وصدقٍ خارقٍ، بل غير مسبوقٍ، في مواجهة أخطاء المسيحيّة الغربيّة عبر تاريخها الماضي، ومعالجة مختلف القضايا الشائكة الراهنة، من لاهوتيّةٍ، وسياسيّةٍ، وعلميّةٍ، واقتصاديّةٍ، واجتماعيّةٍ، وإنسانيّةٍ.

ولا بدّ لي من الإقرار الصادق بأنّي كنتُ أجدني، كلّما طالعت مؤلّفات الكاتب السابقة، أمام حالتين جليّتين من العظمة المتلازمة، هما عظمة من تُكتَب سيرته، وعظمة مَن يكتبها!

وأمّا كتابنا هذا اليوم، «البابا القدّيس: يوحنّا بولس الثاني نبيّ الرجاء لعصرنا»، فإنّي لأستغفر مؤلّفه، وهو قد تجاوز الثمانين قليلاً، إن أعلنتُ بصدقي المعهود، أنّه وضعني أمام يقينٍ لازمني طوال فترة قراءتي له. ومن ثمّ إعادة قراءتي له، وهو أنّي حقًّا إزاء عبقريّتين من صنع الله وحده، لزماننا الاستثنائيّ هذا، وللزمن الصعب الآتي. أجل، عبقريّتان، تألّقت الأولى منهما، في نطاق الكنيسة والعالم، فيما الثانية مدعوّةٌ للتألّق في الآتي من أيّامٍ أراها مشرقةً، على الرغم من الأهوال القائمة، وتلك القادمة، بفعل الوعود الصريحة التي أطلقها كلٌّ من السيّدة العذراء والربّ يسوع، في حيّ الصوفانيّة المتواضع بدمشق.

إلا أنّ كلّ ذلك الإنتاج الفكريّ واللاهوتيّ والإنسانيّ، الثرّ والمدهش، لم يكن ليشبع ما يعتمل في قلب هذا المؤمن وعقله. فقد كان أبدًا يحرص على انتقاء كتبٍ لبعضها مكانةٌ لا بأس بها، في نطاق اللاهوت والفكر والتوجّه التربويّ والإنسانيّ، ويغني بها المكتبة العربيّة، في ترجماتٍ توازي النصوص الموضوعة، متانةً وأناقةً ووضوحًا.

ويطيب لي أن أذكر منها: «أيدٍ ملطّخةٌ بالدم» (عام ١٩٩٥)، و«اذكروا الله»

(عام ١٩٩٥)، و«سيرة المسيح» (عام ٢٠٠٣)، و«حدّثني عن الحبّ»، و«كتاب الحكمة والفضائل المستعادة: خمسون فضيلة لبناء الإنسان» (عام ٢٠٠٧)، و«العذراء في حياتنا» (عام ٢٠٠٧)... كما أنّه وضع منذ قرابة السنتين، سلسلةً من ثلاثة عشر كتيّبًا، تناول فيها كلّها، مختلف ظهورات العذراء المعروفة في جميع أنحاء العالم.

هل تراني بعد كلّ ذلك، أبالغ إن قطعت مع الكثيرين، بعيدًا عن أيّ تملّقٍ أو مديحٍ مصطنعٍ، أنّ هذا الكاتب الفذّ قد أغنى المكتبة العربيّة عامّةً، والمكتبة العربيّة المسيحيّة خاصّةً، بما عجزت جميع الكنائس العربيّة، منذ أن كانت، عن الإتيان بجزءٍ منه، إن من حيث تجدّد حضور يسوع في بعض مختاريه، وإن من حيث الأمانة في البحث التاريخيّ، والغنى في التحليل السياسيّ والاجتماعيّ، أو من حيث العمق في التفكير اللاهوتيّ وسحر النبوغ في اللغة العربيّة؟

أم تراه، في نهجه هذا الذي تفرّد به، كان يحاول أن يحقّق بعض ما كان يحلم بتحقيقه في الكهنوت، حبًّا بيسوع، يوم كان يتدرّج في دراسة اللاهوت، وأُقصيَ عنه قسرًا، لغايةٍ كان الربّ وحدَه، يدرك أبعادها الحقيقيّة؟

ثمّة سؤالٌ أخيرٌ يفرض نفسه، ولا بدّ من مواجهته، كي يتسنّى لهذا الزرع العظيم، الذي أوتي غرسه صديقي المؤلّف أديب مصلح، أن يخصب في هذا الزمن الصعب، وفي الزمن الآتي:

تُرى، هل نالت هذه المؤلّفات في لبنان وخارجه، كلّ ما تستحقّه من اهتمامٍ، ونشرٍ وتعميمٍ، سواءٌ من قبل المؤسّسات الإعلاميّة العربيّة، وبخاصّةٍ المسيحيّة منها، أو خصوصًا من قبل المؤسّسات الكنسيّة، وعلى رأسهم، المسؤولون في كنائس الشرق العربيّ والمغتربات؟...

دمشق ٢٠/٧/٢٠١٤

الجزء الأوّل

«كارول ڤويتيووا»

طالبًا، عاملاً، مسرحيًّا، مقاومًا،
كاهنًا، أسقفًا، رئيس أساقفةٍ، كردينالاً

البيئة البولونيّة

إنّ شخصيّة يوحنّا بولس الثاني ومسيرته متجذّرتان، بعمقٍ، في تراب وطنه، وتقاليد أسرته. فپولونيا بلد نضالٍ وبطولةٍ، لأنّها طالما كانت محطّ أطماع جيرانها المتطلّعين إلى اقتضام أراضيها. وقد تقاسمتها، فعلاً، عام ١٧٧٢، ألمانيا، والنمسا، وهنغاريا وروسيّا. ومع أنّ معاهدة السلام المعقودة عام ١٩١٨، برعاية الرئيس الأميركيّ «ويلسون»، أعادت لپولونيا وحدتها واستقلالها، لم تتخلّ ألمانيا وروسيّا عن مطامعهما فيها. ففي عشرينات القرن العشرين، كان الجيش الأحمر يخطّط لابتلاعها في طريقه إلى احتلال ألمانيا الطامعة، هي أيضًا، في السيطرة عليها، بل في محو اسمها من الخريطة. غير أنّ الجيش الپولونيّ، بقيادة الجنرال «پيلسودسكي» (PILSUDSKI) شنّ حربًا وقائيّةً، منتصرةً، أفضت إلى مدّ حدود پولونيا، قليلاً، إلى الشرق.

وقد نجت منطقة «غاليسيا» مسقط رأس البابا العتيد، الواقعة في جنوب البلاد الشرقيّ، من نقمة الروس، ونَعِمت بفترة سلامٍ مؤقّتٍ، بعد أن كانت قد عنت، خمسين سنةً، للاحتلال النمساويّ. ومنطقة «غاليسيا» تضمّ، في ما تضمّه، مدينة «كراكوڤيا» موئل المسيحيّة الأوّل في پولونيا، والتي كانت عاصمة البلاد بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر. وعلى مسافة خمسةٍ وعشرين كيلومترًا منها، تقبع مدينةٌ صغيرةٌ هادئةٌ تدعى «ڤادوڤيتس» (Wadowice)، هي مسقط رأس البابا العتيد، وكانت تضمّ عشرة آلاف نسمةٍ، منهم العديد من ضبّاط الجيش ورجال القانون. وهي مدينةٌ هادئةٌ، تحيق بها مزارع، وجبالٌ مخضلّةٌ.

منذ فجر تاريخها ارتبطت پولونيا، ارتباطًا وثيقًا، بالثقافة الأوروبيّة الغربيّة، وتبنّت الأبجديّة اللاتينيّة، على نقيض السلاڤيّين الآخرين. وتميّز كاثوليكيّو «پولونيا»

بعلاقاتٍ طيّبةٍ مع أتباع الديانات الأُخرى، وبأواصر مميّزةٍ مع الكنيسة الكاثوليكيّة.

ومع أنّ پولونيا، تعرّضت، على مرّ القرون، لمحاولات تقسيمها، وتجزئتها، وبتر أجزاءٍ من أراضيها، إلاّ أنّها تغلّبت على هذه الاعتداءات، بفضل إيمان شعبها الراسخ بأنّ الغلبة النهائيّة ستُعقَد للمنعة الروحيّة، وأنّ الهزيمة هي للقوّة الغاشمة. فحصّنت استقلالها بسلاح حضارتها، وأدبها، وفنّها، ودينها. ولطالما أكّد ابنها البارّ، البابا يوحنّا بولس الثاني، أنّ الحضارة هي محرّك التاريخ.

وقد برهن الپولونيّون، دائمًا، عن انفتاحهم. فيوم طالب أحد زعمائهم بالاستقلال من روسيّا، أكّد للروس أنّه إنّما يفعل ذلك «من أجل حرّيّتنا وحرّيّتكم». وفي المقبرة الپولونية في إيطاليا، شاهدةٌ تعبّر عن الروح الپولونيّ الصميم، معلنةً: «من أجل حرّيّتنا وحرّيّتكم، وهَبْنا أجسادنا لأرض إيطاليا، وأرواحنا للّه، وقلوبنا لپولونيا».

ولقد أثبت الپولونيّون، دائمًا، تشبّثهم بجذورهم الثقافيّة المسيحيّة. ولا ريب أنّ هذا الوفاء هو الذي مكّن پولونيا من تجاوز جلجلتها التي امتدّت بين عام ١٧٩٥ وعام ١٩١٩، ومن إيجاد مكانٍ لها على الخريطة الأوروپّيّة.

في زمن مولد البابا العتيد، لم يكن، بعدُ، لپولونيا حدودٌ معترفٌ بها دوليًّا، وكانت سبع عملاتٍ متداوَلةً على أراضيها، وأربعة أنظمةٍ قضائيّةٍ مختلفةٍ تحكمها. صناعاتها، ونصف طرق مواصلاتها، وبناها التحتيّة كانت مدمّرةً، ونصف أراضيها الزراعيّة كانت مبوّرةً. ومع ذلك، كانت قد نجحت في تحويل مجرى التاريخ، بدرئها الزحف الروسيّ. كانت غائصةً في المشكلات، ولكن مفعمةً أملاً في مستقبلها، وفخورةً باستقلالها.

كانت جمهوريّة پولونيا الثانية، آنذاك، تتألّف من أجزاءٍ مستعادةٍ من المحتلّين البروسيّين والألمانيّين، ومن الروس، ومن النمساويّين الهنغاريّين. وكان قطاع «غاليسيا» قد استُعيد من الاحتلال النمساويّ الهنغاريّ، الذي أثبت كونه أخفّ أصناف الاحتلال وطأةً، وأقلّها قمعًا، وقد أدرك كلّ پولونيٍّ أن ڤيينّا هي أرحم ببلده وشعبه من موسكو وبرلين، وأشدّ حرصًا على الحضارة الپولونيّة.

طفولةٌ شاقّةٌ

والدا يوحنّا بولس الثاني متحدّران من أسرتَيْن متواضعتَيْن. فجدّه لأبيه كان مزارعًا، ثمّ عمل خيّاطًا. وجدّته لأبيه كانت ابنة خبّازٍ. أمّا جدّه لأمّه فكان «سرّاجًا»، أي صانع أغطيةٍ لعربات الخيل، وكانت جدّته لأمّه ابنة إسكافيٍّ.

والده «كارول ڤويتيووا» (Karol WOJTYLA)، المولود عام ١٨٧٩، في قريةٍ بضواحي «كراكوڤيا»، انخرط، عام ١٩٠٠، في الجيش النمسوهنغاريّ، وعُيّن في كتيبة مشاةٍ. كان هادئًا، منضبطًا، كتومًا، يوحي بالثقة والاحترام، شغوفًا بالثقافة، وبالآداب الپولونيّة، وبالتاريخ، وقد شحذت روحَ الوطنيّة لديه مهنتُه العسكريّة، ومِحَنُ بلاده. وبفضل انضوائه إلى الجيش تمكّن من اللغة الألمانيّة التي لقّنها لأبنائه، إلى جانب اللغة الپولونيّة. كان مستقيمًا وصريحًا، ولا يساوم في ما يتعلّق بالشرف والواجب.

عام ١٩١٨، رُقّي إلى رتبة «نقيب»، وتقاعد، عام ١٩٢٧، في سنّ الثامنة والأربعين، كي ينصرف إلى رعاية ابنه الأصغر الذي كان قد أطلق عليه اسمه، وورّثه الكثير من مناقبه وفضائله.

وقد أخذ «كارول» الابن عن أمّه ملامح وجهه الرقيقة، ونشاطه، وطيبته، وذكاءه، وحضور ذهنه، وتوقّد ناظريه. غير أنّ تلك المرأة، مع كلّ ما تميّزت به من صفاتٍ، لم تطمح، يومًا، إلى أكثر من أن تكون زوجةً وأُمًّا، ومن إشاعة السلام والسعادة في منزلها. وفي سبيل تحسين معيشة الأسرة، كانت تقوم ببعض أعمال خياطةٍ وتطريزٍ مأجورةٍ.

كان الوالدان شديدَي العناية بولديهما والاقتضاء منهما، وحريصَين على تزويدهما، بتربيةٍ متينةٍ، قائمةٍ على الإيمان والفضيلة، اللذين أمسيا أساس مسيرة البابا العتيد وتعليمه. وكانا، إثر قرانهما، قد انتقلا إلى موطن الزوج في «ڤادوڤيتس»، واستقرّا فيه، على مقربةٍ من كنيسة القرية، في الطبقة الأولى من بيتٍ عتيقٍ، المؤلّفة من حجرتين. وقد رُزِقا، أوّلاً، صبيًّا دُعي «إدموند» كانا يسمّيانه، تدليلاً «مونديك»، وقد ترعرع شابًّا رياضيًّا، منيعًا، موهوبًا، وتخرّج طبيبًا.

ثمّ رُزقا ابنةً سمّياها «أولغا»، توفّيت في الأسابيع الأولى من حياتها. وأخيرًا، في ١٩٢٠/٥/١٨ رُزقا ابنهما الأخير، الذي نال سرّ العماد، وهو ابن يومين، تحت اسم «كارول جوزيف»، في كنيسة القدّيسة مريم. وأطلقا عليه، تحبّبًا لقب «لوليك» (Lolek). ولاحقًا، أضحى جرن المعموديّة الذي وُلد فيه على حياة النعمة، مزارًا يقصده كثيرون للتبرّك، ويقصده البابا، كلّما زار موطنه، كي يشكر للربّ هذه النعمة.

وكان يطيب للوالدة التنزّه بصغيرها وهو راقدٌ في عربته، أيّام الصحو، وغالبًا ما كان يصحبهما أخوه «مونديك»، الذي يكبره اثنتي عشرة سنةً، فيساعد أمّه في إنزال عربة أخيه وإصعادها، وفي إعداد إناء الرضاعة له. وغالبًا ما كانت الوالدة تجلس على مقعدٍ في الحديقة، وتهدهد صغيرها في حضنها، فيما يطوف خيالها في أحلام مستقبله. وقد شهدت إحدى جاراتها التي رافقتها، ذات يومٍ، إلى الحديقة العامّة، أنّها انحنت، بغتةً، على عربة طفلها، وهتفت، بإلهامٍ داخليٍّ: «هذا الصغير سيكون عظيمًا جدًّا!».

في أحضان حنان أمّه، ورعاية والده وأخيه الأكبر، ترعرع «لوليك»، ونما، وتقوّى. وفي سنّ السادسة، غشى المدرسة الابتدائيّة الكاثوليكيّة، القريبة من الكنيسة ومن منزل ذويه. وأبدى، منذ الوهلة الأولى، مواهب استثنائيّةً، وشغفًا بالتعلّم، كان والده قد رسّخه فيه. واعترف، هو نفسه، لاحقًا: «**شغفي بالكتب يعود إلى طفولتي. فقد ورّثني والدي عشق المطالعة**».

ولكنّه فقد، باكرًا، لامبالاة الطفولة، وصفو فرحها، بفقدان أمّه، التي انتقلت إلى ديار ربّها، وهي في شرخ شبابها، إذ لم تكن قد تخطّت الخامسة والأربعين، ولم يكن صغيرها أكمل التاسعة من عمره. وعن ذلك الحدث دوّن، في ما بعد: «**لم أكن قد بلغت سنّ مناولتي الأولى، عندما فقدتُ أمّي، التي لم تسعد برؤية هذا اليوم، الذي كانت تتخيّله يومًا عظيمًا. وقد انحفرت وفاتها، بعمقٍ، في ذاكرتي**». وظلّ يحتفظ بصورةٍ لها، على مقربةٍ من سريره، حتّى في الڤاتيكان. وقد أخذ به التأثّر كلّ مبلغٍ، عندما أنشأ پولونيّون مركزًا للأمّهات اللواتي يواجهنَ صعوباتٍ، وأطلقنَ عليه اسم أمّه: «إيميليا».

ومنذئذٍ تولّت رعايته أمٌّ سماويّةٌ لا يغيب لها حضورٌ، وواكبت كلّ خطوات مسيرته، إلى أن احتضنته في السماء، ولطالما أعلنت حبّها له، ورضاها عنه.

وما كاد ينقضي شهرٌ على وفاة والدته، حتّى احتفل، يوم **١٩٢٩/٥/٢٥**، بمناولته الأولى، التي كانت الفقيدة تتلهّف لمواكبتها.

ومنذئذٍ اتّخذ منه كهنة الرعيّة خادمًا للطقوس الليتورجيّة. فكان يهبّ باكرًا، ويهرع إلى الكنيسة، ويخدم، أحيانًا، قدّاسيْن متتالييْن، قبل التحاقه بمدرسته. وقد شهد على ذلك أحد كهنة الرعيّة بقوله: «عندما كان يؤمّ المدرسة، ثمّ المعهد، كان يغشى الكنيسة باكرًا، كي يودع نهاره برعاية سيّدة المعونة، ويدعوها، كلّ يومٍ، بحبٍّ. ولكأنّ موت أمّه دفعه دفعًا بين ذراعي الأمّ السماويّة، ولكأنّ يسوع قال له، يومها: «هذه هي أمّك»».

تظهره صورةٌ له، في تلك المرحلة، مكتوف الذراعين، جادًّا، وسط أترابه في المدرسة، مرتديًا سترةً عسكريّةً مقتطعةً من بدلةٍ قديمةٍ لأبيه. وتظهره صورةٌ أُخرى يلعب الكرة بحماسٍ، ما يشير إلى أنّه كان يقرن الجدّ بالحيويّة، والرزانة بشيءٍ من العفرتة، وما يوحي بامتلاكه ذكاءً نفّاذًا. وتجلّى، في تلك المرحلة من حياته، كلَفه بالرياضة، وفي سنّ العاشرة شرع يتدرّب على التزلّج، ويتأهّب ليصبح بطل الله.

وفاة أخيه، ومثال أبيه

لم توثّق وفاة أمّه علاقته بالأمّ السماويّة، فحسب، بل وطّدتها، أيضًا، بأبيه وأخيه. وقد جهد الوالد في الاضطلاع بدورَي الأب والأمّ، معًا، فغدا يقوم بكلّ أعمال المنزل، ويبذل جهودًا مستميتةً، لكيلا يفتقر «لوليك» الصغير إلى شيءٍ، رغم تضاؤل موارد الأسرة، في أعقاب تقاعد الأب الضابط، ونضوب دخل الوالدة المتوفّاة من أعمال الخياطة والتطريز. ولم يكن الأب الأرمل يتوانى عن رفو وإصلاح ما تمزّق من الثياب، وعن اقتطاع أجزاءٍ من ثيابه القديمة كي يصطنع منها لباسًا لصغيره، ويوفّر لابنه الأكبر ما يمكّنه من متابعة دراسته الجامعيّة، والحصول على شهادةٍ في الطبّ.

وفي أيّام الآحاد، إثر اشتراك «كارول» الأب وصغيره «لوليك» في حضور القدّاس معًا، كانا يقصدان جبلاً قريبًا، حيث يتسنّى للفتى أن يعبث ما طاب له العبث، وأن يطلق سراح طاقاته الجيّاشة.

حتّئذٍ، كان الأخوان قلّما يلتقيان، فقد كانت تفصلهما مسافةٌ شاسعةٌ. ولكن بعدما باشر «إدموند» ممارسة الطبّ في مشفًى حكوميٍّ يبعد نحو أربعين كيلومترًا عن المنزل الوالديّ، غدا الوالد يصطحب ابنه الأصغر إليه، فيتولاّه أخوه الأكبر بعنايةٍ رقيقةٍ، ويغمره بعطفه ومحبّته، ويمضي به لمشاهدة مبارياتٍ رياضيّةٍ حقيقيّةٍ، ويقلّه على كتفيه، كي يمكّنه من المشاهدة المثلى. وبالمقابل كان «لوليك»، في أيّام العطلة، يحاول الترفيه عن نزلاء المستشفى الذي يعمل فيه أخوه.

وغالبًا ما كان الأب وابناه يقصدون مزارًا مكرّسًا لذكرى آلام المسيح وللعذراء، يدعى «Kalwaria»، أي الجلجلة، في ديرٍ يعود تاريخ بنائه إلى القرن السابع عشر، حيث، في إطار طبيعةٍ رائعةٍ، وفي ظلّ أشجارٍ باسقةٍ، ينتشر أربعةٌ وأربعون مصلًّى صغيرًا، على قمم التلال، وكلٌّ منها يقدّم للمتأمّلين مشهدًا من مشاهد الآلام الخلاصيّة، ومن حياة العذراء. وقد أَلِف جدود أسرة «ڤويتيووا» النهوض بدور أدلاّء للحجّاج في ذلك المزار، ومواكبة الصلوات والتراتيل. وقد حفرت زيارات الفتى «لوليك» المتكرّرة إلى ذلك المكان، في ذاكرته، أثرًا راسخًا لا يمّحي. وقد نوّه البابا بهذه الذكريات، في كثيرٍ من التأثّر، بمناسبة زيارته الأخيرة إلى پولونيا، يوم ٢٠٠٢/٨/١٤.

وربّما كان الفتى «لوليك» بحاجةٍ إلى دعم تأمّلاته في آلام المسيح، وحياة الأمّ السماويّة، كي يواجه فاجعة فقدان أخيه الطبيب، الذي ما كادت تنقضي أشهرٌ معدوداتٌ على عمله في المستشفى، حتّى التقط عدوى الحمّى القرمزيّة، التي كانت تتعذّر معالجتها، حينذاك، إذ لم تكن قد اكتشفت، بعدُ، مضادّات الحيويّة. وجديرٌ بالتنويه أنّ المريضة التي كان يعالجها الطبيب الشابّ، والتي سرّبت إليه عدوى دائها، قد كُتبت لها النجاة، في حين وقع، هو، صريع ذلك الداء. وعلى شاهدة اللحد الذي ضمّ جثمانه، إلى جانب جثمان أمّه، دُوِّنت

عبارة: «ضحيّة مهنته، لأنّه كرّس حياته الشابّة لخدمة البشريّة المتألّمة». ولاحقًا، علّق يوحنّا بولس الثاني على ذلك الحدث بقوله: «... **انحفر موت أخي في ذاكرتي، أكثر عمقًا من موت أمّي، بسبب الظروف التي واكبته، ولأنّني كنت قد اكتسبتُ مزيدًا من نضجٍ. وهكذا أصبحتُ، باكرًا، يتيم الأمّ، وابنًا وحيدًا**».

ومنذئذٍ أضحى الأب الضابط المتقاعد، والصبيّ الطالب، اللذان يحملان الاسم عينه، رفيقَيْن لا ينفصلان، في كلّ وقتٍ وكلّ مكانٍ. وقد كتب الكردينال «إتشيغاراي»: «إنّه لمدهشٌ الحبّ الذي جمع الأب وابنه الذي مُني بيتمٍ مزدوجٍ». غير أنّ تلك الفاجعة قد أسهمت في تدعيم قوّة شكيمة الفتى، وإيمانه الراسخ. وقد برهن عن ذلك عندما قالت له إحدى نساء القرية معزّيةً: «يا لك من ولدٍ مسكينٍ. أنا أُشفق عليك بسبب وفاة أخيك»، فاكتفى بالردّ: «**هذه هي مشيئة الله**». وشهدت تلك المرأة: «إنّه تلفّظ بتلك العبارة بقناعةٍ ووعيٍ هزّاني، أنا التي تكبره بثلاثين سنة!».

ردُّ فعله ذاك كان دليلاً على التطوّر العميق الذي اجتازه منذ وفاة أمّه، وقدرته المذهلة ليس فقط على تمثّل الدروس، بل، أيضًا، المِحَن، مهما قست، ولا ريب أنّه كان مدينًا بما انتهى إليه، في هذا المجال، لمثال والده الذي اعتاد مواجهة مِحَن الحياة وفواجعها، لا بمواقف فلسفيّةٍ، بل بإيمانٍ مسيحيٍّ يرى في الألم والحرمان وسيلة قداسةٍ وخلاصٍ. وكان يسوق عيشة تقشّفٍ، لا بضغطٍ من ضآلة موارده، بل بدافع يقينه الراسخ أنّ مقياس قيمة المرء هو خُلُقه لا ماله. واتّضح أنّ العناية الإلهيّة كانت، منذئذ، تعدّ الفتى «كارول» لحمل أثقل الصلبان من أجل مصيرٍ استثنائيٍّ، لم يتوقّعه قطّ.

وفي سبيل تمهيد دربه إلى ذلك المصير، أبقى الله إلى جانبه أبًا منقطع النظير، متأهّبًا لكلّ التضحيات، كي يتيح لعضو أسرته الوحيد المتبقّي، الفُرَص المثلى للترقّي والنجاح، والتحلّي بفضائل الحقّ والاستقامة التي كان متشبّثًا بها. كان حريصًا على تزويده بأوفر زادٍ من العلم، ولكنّه كان أشدّ حرصًا على تزويده بالخُلُق والفضيلة. وقد نهج، إلى هذه الغاية، خير سبيلٍ، سبيل القدوة والمثال. فلطالما شاهد «كارول» الصغير أباه راكعًا يصلّي، صباحًا ومساءً، ومعًا كانا يتلوان

المسبحة الورديّة، ويطالعان الكتاب المقدّس. وعن والده، في تلك المرحلة، باح البابا: «**لم نتكلّم، يومًا، عن دعوة كهنوتيّةٍ، ولكنّ مثاله كان، نوعًا ما، إكليريكيّتي الأولى، إكليريكيّةً منزليّةً. إنّ عنف الضربات التي نزلت به حفرت فيه أعماقًا روحيّةً سحيقةً. مجرّد رؤيتي له راكعًا كان له تأثيرٌ حاسمٌ على سنوات حداثتي. كان من شدّة الاقتضاء من ذاته بحيث لم يجد حاجةً إلى الاقتضاء من ابنه. فمثاله كان كافيًا لتعليم النظام وحسّ الواجب. كان كائنًا استثنائيًّا**». وأمّا عن والدته، فيذكر أنّها كانت تتمنّى، دائمًا، أن يكون أحد ابنيها طبيبًا، والآخر كاهنًا. ولم يُقيَّض لها أن تشهد أمنيّتها تتحقّق. وإن تحطّمت مهنة ابنها الطبيب، منذ مطلعها، إلاّ أنّ ابنها الكاهن مضى في دعوته إلى آخر الشوط، وتسنّم، في ميدانها، أرفع المراتب.

مواهب تتفتّح، وشخصيّةٌ تكتمل

خريف عام ١٩٣٠، كان «لوليك» قد أنهى دراسته الابتدائيّة، فاختار له والده معهد «مارتشين ڤادوڤيتا» (Marcin Wadowita) الحكوميّ، من أجل متابعة دراسته. وكانت دوافع الوالد إلى ذلك الاختيار ثلاثيّةً. فذلك المعهد كان ينعم بسمعةٍ طيّبةٍ، ويرتضي من أبناء الموظّفين المتقاعدين أقساطًا دراسيّةً زهيدةً. وكان الوالد حريصًا على أن يشقّ ابنه درب مستقبله بخيارٍ حرٍّ، وبمنأًى عن كلّ ضغطٍ.

منذ انتسابه إلى ذلك المعهد، أدهش كارول الفتى الجميع، ما خلا والده، بتفوّقه، واجتهاده، وشغفه بالدرس والمطالعة، وبتركيزه، ومستوى ذكائه الرفيع، وذاكرته الجبّارة. منذئذٍ، كان كَلِفًا بالآداب، واللغات، والفلسفة، والشعر، وقد شحذت مطالعاتُه للأدباء والشعراء البولونيّين، هوايتَه للمسرح، وعشقه للبطولة البولونيّة، التي صاغتها مقاومة الاحتلال، ووطّدها الاستقلال المحقّق حديثًا. وانبرى الفتى «كارول» للإشادة بها، ولإنشادها شعرًا، وتمجيدها على خشبات المسارح الوطنيّة. غير أنّه، مع شغفه بالمسرح، لم يحلم، يومًا، بامتهانه، بل اتّخذه منطلقًا إلى التوغّل في معرفة الإنسان، في حياته، وفكره، ونشاطه، ومعاناته، وتطلّعاته، معرفةٍ حوّلها إيمانه إلى محبّةٍ مسيحيّةٍ مكرّسةٍ للخدمة.

وقد أُعجب بمواهبه الأب «زاخر» (Zacher) الذي كان يعلّمه، في المعهد، مبادئ التعليم المسيحيّ، فضمّه إلى فرقته المسرحيّة التي ظلّ عاملاً فيها حتّى عام ١٩٣٧، قُبَيْل تقدّمه لامتحان الباكالوريا، وكان آخر دورٍ لعبه هو دور يوحنّا الإنجيليّ.

ومع أنّه، منذ سنّ الثالثة عشرة، كان ينفق ساعاتٍ طويلةً في العمل، كي يكسب عيشه وعيش والده، كان يحصد، في المعهد، أرفع العلامات، ولا سيّما في اللغة اللاتينيّة، وفي الموادّ الأدبيّة، التي برهن عن تفوّقه في ميدانها.

وفي تلك المرحلة، وفي نطاق مشاركته بحركة الشبيبة المسيحيّة، أسّس «الجمعيّة المريميّة» التي كان لها رئيسًا مدى ثلاث سنواتٍ، وبرهن عن مواهبَ إداريّةٍ مدهشةٍ، جعلت أحد أصدقائه يصرّح: «لو إنّه سافر إلى الولايات المتّحدة، وعمل في شركة «جينرال موتورز»، لما لبث أن تبوّأ رئاسة مجلسها».

خلال السنة الدراسيّة الثانويّة الأخيرة، وبالتحديد في ١٩٣٧/٥/٣، نال سرّ التثبيت، على يد رئيس أساقفة «كراكوڤيا»، آنذاك، «آدم ستيفان ساپييها» (Mgr. Adam Stephan SAPIEHA). وبهذه المناسبة، كان رئيس المعهد قد كلّف «كارول»، بإعداد خطاب ترحيبٍ بالزائر الجليل، وبإلقائه، وقد بلغ تأثّر رئيس الأساقفة بنباهة الطالب أن استوضح مدير المعهد عمّا يعتزم ذلك الشابّ فعله عقب تخرّجه. وكان مدير المعهد مطّلعًا على وَلَع «كارول» بالآداب والمسرح، فاكتفى بالإجابة أنّه لم يقرّر مصيره، بعدُ. ولكنّ الشابّ، الذي كان على مقربةٍ منهما، وتسنّى له التقاط ما دار بينهما، دنا وأعلن أنّه راغبٌ في الانتساب إلى كلّيّة الفلسفة في جامعة «ياجلّون». فاكفهرّ وجه الأسقف، وتمتم: «يا للأسف، يا للأسف!». ثمّ عاد فأعرب عن تمنّيه بأن ينتسب ذلك الشابّ اللامع إلى كلّيّة اللاهوت، وربّما أمعن في الصلاة من أجل هذه النيّة. تُرى هل ثوت دعوة «كارول ڤويتيووا» في تمنّي رئيس الأساقفة وفي صلاته؟

وفي تلك الحقبة تأثّر «كارول» بالأديب الپولونيّ المرموق، «يوليوش سلاڤاكي» (Juliusz Slawacki) الذي توقّع، في إحدى قصائده، أن يُنهض الروح الذي

خلق الكون، ونظّم كلّ مرحلةٍ من مراحل التاريخ، «بابا سلاڤيًّا» يكون لكلّ البشر أخًا، ويضفي على الأحداث أبعادًا كونيّةً، ويؤكّد أنّ قوًى روحيّةً فائقةً تقود التاريخ، وترسم مصير البشريّة.

وقد تأثّر، أيضًا، بالشاعر الپولونيّ «سيپريان كميل نورڤيد» (Cyprian Kamil Norwid)، الذي ارتأى أنّ المسيح أخرج الإنسان من مملكة القدر المحتوم إلى مملكة الحرّيّة.

ومع أنّ «كارول» ظلّ مواظبًا على نشاطه المسرحيّ، اجتاز امتحان البكالوريا بتفوّقٍ وامتيازٍ، وأمسى محطّ إعجاب زملائه ومحبّتهم، وموضع فخر معلّميه واعتزازهم. وكان من البديهيّ أن يُلقي خطاب التخرّج والوداع من المعهد.

كان يتفوّق على الجميع في كلّ شيءٍ، ويكتشف في النصوص معاني وإشاراتٍ لا يلمحها حتّى أساتذته. وقد اعترف أحد رفاقه في الدراسة أنّه لم يكن يخصّص للدراسة وقتًا أطول ممّا هم يخصّصون، ومع ذلك يحصل على نتائج أفضل من نتائجهم، ويبدو غالبًا، أكثر فهمًا من معلّميه، و«عبقريًّا حقًّا». وإلى ذلك، كان ماهرًا في الرياضات البدنيّة، متينًا، هادئًا، تنبعث من ناظريه شرارات خبثٍ تعبّر عن حيويّةٍ داخليّةٍ جيّاشةٍ، تمكّنَ من ترويضها، ولكنّه لم يفقدها، يومًا. ومع ذلك تفادى حسد أترابه وحقدهم بمبادرته إلى مساعدتهم، فأكرههم على احترام ذكائه وتفوّقه، وتقواه وورعه.

وكان قد أسّس فرقة فنٍّ مسرحيٍّ، كان لها المدير والمحرّك، وغالبًا ما أدّى أدوار البطولة. وعقد صداقاتٍ مع زميلاتِ دراسةٍ ومع ممثّلاتٍ، ولكنّه لم يُقِم أيّة علاقةٍ حميمةٍ مع إحداهنّ. وشهد جميع الذين عرفوه، في تلك المرحلة، من كهنةٍ، وأساتذةٍ ورفاقٍ، بصفاء سيرته، ونزاهتها من كلّ لوثةٍ أو شائبةٍ.

وقد شهد أحد رفاق صباه: «كان صبيًّا متين البنية، شجاعًا، وافر الحيويّة، وكان يفرض احترامنا له. كنّا نعلم أنّ والدته هشّة الصحّة، ثمّ توفّيت، وكان لوفاتها وقعٌ بليغٌ على نفسه. كان كريمًا، بشوشًا، مندفعًا إلى الخدمة. وكان جادًّا. وغالبًا ما كان يحضر القدّاس قبل شخوصه إلى المعهد. وكان كلفًا بالرياضة:

التزلّج، والسباحة، ومباريات كرة القدم التي كان يقرع بها جدار الكنيسة، مثيرًا غيظ كاهن الرعيّة، الأب «زاخر».

وشهد الأب «فيجليڤيتش»، الذي لقّنه التعليم الدينيّ: «كان فتًى مديد القامة، ممتلئ الصحّة، مرحًا، مع أنّ طيف أُمّه المتوفّاة كان يتراءى على محيّاه. كان صادقًا جدًّا في علاقته مع رفاقه. وكان يحسن استيعاب الدروس، وعضو جوقةٍ غيورًا».

كان يحظى بتقدير «جيّدٍ جدًّا» طيلة سنتَي دراسته الأخيرتَيْن، وفي امتحان البكالوريا.

وبالإجمال، لقد أعطى لشبابه دفعًا وزخمًا، لم تفلح المِحَن والفواجع التي انهالت عليه في إضعافهما، أو في النيل من عزيمته، بل زادت شخصيّته منعَةً، فأثبت، بمثَله، قول القدّيس «منصور دي پول»: «ليس العالم ما هو عليه، بل ما نحن نصنعه». وقد دعّم إيمانه، الذي كان يولّد لديه الرجاء، بفضيلة الشجاعة، الكفيلة بإضفاء مسحة بهاءٍ على كلّ حياةٍ، ولا سيّما تلك التي يصهرها الألم. هذه الفضيلة النابعة من القلب هي مرادفٌ للمحبّة.

مسلّحًا بهذه الفضائل، واجه «كارول» الشابّ مستقبله.

الطالب الجامعيّ

بعد اضطلاعه بواجب الخدمة المدنيّة — التي ذكر، لاحقًا، أنّه قضاها مكبًّا على تقشير البطاطا — انتقل، مع والده، إلى «كراكوڤيا»، كي يتابع دراسته الجامعيّة في جامعة «ياجلّون»، التي كانت من أعرق الجامعات الأوروپّيّة شهرةً، وحافظت على مكانتها الرفيعة، حريصةً على الوفاء لدعوتها العلميّة والثقافيّة والدينيّة، رغم التقلّبات السياسيّة المتلاحقة، والمِحَن التي عانتها البلاد. عندما أسّستها أسرة «ياجلّون» في القرن الرابع عشر، كانت قد رفعت شعار «العقل خيرٌ من القوّة»، وظلّت، على امتداد ستّة قرونٍ، موئلاً للحضارة المسيحيّة والإنسانيّة. وحسبُها فخرًا أنّها خرّجت البابا الپولونيّ الأوّل، واحدًا من أعظم

باباوات الكنيسة، يوحنّا بولس الثاني، الذي لم يفتر، لحظةً، عشقه لكراكوفيا، بجناحيها: كاتدرائيّة «ڤاڤيل»، وجامعة «ياجلّون». ولطالما روى أنّه كان من المتعذّر الدراسة في تلك الجامعة، بمنأًى عن تأثيرها، أو اجتياز ممرّاتها بلا وَرعٍ وخشوعٍ.

إلى جانب انغماسه في دراسة الفلسفة، أكبّ على التوغّل في علم اللغات والآداب، وعكف على تعلّم الفرنسيّة، وتطوّع للعمل في مكتبة الجامعة.

وفي تلك المرحلة عقد صداقاتٍ متينةً ودائمةً، كان لها أثرٌ حاسمٌ على توجيه مستقبله. فتعدُّد نشاطاته، والحرارة الإنسانيّة التي كانت تنبعث منه، أهّلته لبناء صداقاتٍ تتجدّد باطّرادٍ، ولا ريب أنّ ما كان ينعم به من جاذبٍ إنسانيٍّ تصعب مقاومته، زوّده بكاريسما، غمر إشعاعُها المسكونة جمعاء.

ولا معدى عن الإشارة إلى أنّ «كارول ڤويتيووا» ظلّ توّاقًا إلى مرابع صباه، وفيًّا لأصدقائه. فكان حريصًا على مشاركة أبناء رعيّة قريته «ڤادوڤيتس»، كلّ مناسبةٍ دينيّةٍ، ولم ينسَ، يومًا، حتّى بعد تسنّمه السدّة البابويّة، جميل الذين أحاطوه برعايتهم، كما يتّضح من الرسالة التي وجّهها، بُعَيْد انتخابه حبرًا أعظم، عام ١٩٧٨، إلى كاهن تلك الرعيّة، ردًّا على برقيّة التهنئة بعيد شفيعه القدّيس شارل، والتي جاء فيها:

«أيّها الأب العزيز، راعي أبرشيّة «ڤادوڤيتس»، أشكر لك، من كلّ قلبي، البرقيّة التي أرسلتها باسمك، وباسم الرعيّة، يوم عيدي...

«إنّ قلبي وأفكاري تهفو إلى تلك الجماعة الرائعة، جماعة المؤمنين، الذين أعدّوني لولوج سرّ الكنيسة التي علّمتني حبّ الله والبشر، وأسهمت في إنماء دعوتي الكهنوتيّة، ودعمتني بمثال الحياة المسيحيّة، وما برحت تدعمني بصلاتها.

«أذكر، شاكرًا الله، والديّ المتوفّين، وشقيقي، وأذكر بالشكر الكهنة الحكماء الورعين، وأشكرك، أيّها الكاهن الأسقف، الذي كان لي معلّمًا في المعهد، وأذكر أصدقائي... الذين أحاطوني بعطفهم ومحبّتهم، أذكر معلّميَّ، وجميعكم، يا مواطنيّ في ڤادوڤيتش، القريبين والبعيدين...».

في تلك الأثناء، كانت نُذُر الخطر النازيّ تلوح في الأفق.

حربٌ ومقاومةٌ

لم يكن قد انقضى سوى أحد عشر شهرًا على انتساب «كارول» إلى جامعة «ياجلّون»، حيث أنهى، ببراعةٍ، سنته الجامعيّة الأولى، عندما اجتاحت جيوش هتلر «پولونيا». ففي الأوّل من شهر أيلول **١٩٣٩** – وكان يوم الجمعة الأوّل من ذلك الشهر – ما إن همّ الأب «كازيمير فيجليڤيتش» بالاحتفال بالقدّاس، حتّى دوّت صفّارات الإنذار الحادّة، وعقبها دويّ مضادّات الطائرات، وانفجار القنابل الألمانيّة. وخُيّل إلى الكاهن أنّ «كارول ڤويتيووا» الذي كان قد وعد بالحضور للاعتراف وخدمة القدّاس، لن يحضر. ولكنّ «كارول» لم يخلف وعده، وقام بواجب الخدمة حتّى نهاية القدّاس، ثمّ عاد، جريًا، إلى البيت، يؤرّقه القلق على والده الذي كان الوهن قد نال منه، فأقنعه بالهرب من الطغيان النازيّ، أُسوةً بـپولونيّين كُثُر. كان الوالد العليل يستقلّ، بين فينةٍ وأُخرى، كلّما تيسّر له ذلك، عربةً أو شاحنةً، ولطالما اضطرّ مع ابنه إلى الاحتماء في الخنادق اتّقاءً للقصف. ولكن، بعد أن اجتازا مسافة ١٨٠ كيلومترًا، تبيّنا أنّ الهرب شرقًا قد يدفعهما إلى أشداق الشيوعيّين، وقد يفضي بهما إلى معتقلات سيبيريا. وكان قد هاجهما الشوق إلى «كراكوڤيا»، ولم يطيقا البعاد عن مدينتهما الحبيبة أكثر من ذلك، فآثرا العودة إليها، ومواجهة قسوة الحياة فيها، تحت الجزمة الألمانيّة.

كان «كارول» يحلم في العودة إلى اعتلاء خشبات المسرح، ولكنّ المسرح الذي أَلِف العمل فيه، كان الألمان قد صادروه، واستخدموه لمصالحهم.

وفي هذه الأثناء كانت جامعة «ياجلّون» قد فتحت أبوابها في شهر تشرين الثاني. وإذ كان الأساتذة يتوقّعون اقتحام المحتلّين لها، في كلّ لحظةٍ، فقد باتوا يلقون دروسهم باكرًا، وأقبل «كارول» ورهطٌ من أترابه على الإفادة من تلك الدروس المبكّرة.

ولكنّ هتلر، صاحب القول المأثور: «عندما أسمع لفظة الحضارة، امتشق مسدسي»، كان يمقت الثقافة، ويتوجّس خشيةً من الحضارة الپولونيّة. وفقًا لذلك المنطلق، وضع النازيّون خطّةً لتدمير الثقافة في «پولونيا»، واستهلّوا تنفيذ تلك

الخطّة بخدعةٍ مجرمةٍ، فدعوا إلى محاضرةٍ عن العلمِ يلقيها مسؤولٌ ألمانيٌّ. واستشمّ مثقّفون پولونيّون كُثُرٌ، في تلك الدعوة، شِركًا، فغابوا، غير أنّ مئةً وأربعةً وثمانين أستاذًا جامعيًّا، منهم عاملون، ومنهم متقاعدون، لبّوا الدعوة، وما لبث أن وافى «المحاضر» الألمانيّ، مصحوبًا بثلّةٍ من الجنود، فألقوا عليهم القبض، وساقوهم إلى معتقلٍ حيث قضى الكثيرون منهم نحبهم. ثمّ أعمل الألمان في مكتبة الجامعة ومختبراتها سلبًا، وتخريبًا، وحرقًا.

قُبيْل هذه المجزرة، كان «كارول» قد كتب إلى أحد أصدقائه، معبّرًا عن حلمه في «پولونيا» تكون أفضل من «أثينا» القديمة، بفضل «عظمة المسيحيّة اللامحدودة». ولكنّ هذا الحلم المتألّق، النابع من قلبٍ كريمٍ جيّاشٍ، كان عليه أن يتحقّق في الخفاء، والمقاومة.

ففي مطلع عام **١٩٤٢** اتّخذت جامعة «ياجلّون»، خطوةً جريئةً، فاستأنفت التدريس في خمس كلّيّاتٍ، تدريسًا سرّيًّا. وخاطر مئةٌ وستّة مدرّسين بتدريس نحو ثماني مئة طالبٍ، ليلاً، وغالبًا في منازلهم الخاصّة، معرّضين ذواتهم، في كلّ لحظةٍ، للاعتقال، وكان «كارول» أحد هؤلاء الطلاّب.

بالإجمال كانت الحرب العالميّة الثانية للپولونيّين كارثةً جسيمةً، إذ قضت على ستّة ملايين من أبنائها، يمثّلون ١٨٪ من مجموع سكّانها. وربّما دفعت پولونيا أبهظ ضريبةٍ للهمجيّة النازيّة.

غير أنّ تلك التجربة المريعة كانت حاسمةً في صَوْغ من سيصبح البابا يوحنّا بولس الثاني. فالفظائع والمآسي التي كان عليها شاهدًا، والتقاؤه صوفيًّا علمانيًّا، كما سنفصّل في الصفحات اللاحقة، تضافرت على تكوين روحانيّته القائمة على الصليب، روح الحياة المسيحيّة، ومركز تاريخ البشريّة. وكان للاحتلال أثرٌ حاسمٌ على دعوته الكهنوتيّة. فالصراع الباسل، ذودًا عن القِيَم الدينيّة والأخلاقيّة، في الفترة الممتدّة بين **١٩٣٩** وعام **١٩٤٥**، والذي جسّده، ببطولةٍ، الأب الفرنسيسكانيّ القدّيس «مكسيميليان كولبي»، كان له حافزًا لا يُقاوَم، دعمه موقف رئيس الأساقفة «آدم ستيفان ساپييها»، الذي كان عرف «كارول» أفضل تلاميذ ثانوية «ڤادوڤيتس»، وتمنّى أن ينحو صوب الكهنوت.

وقد وفّرت تجربة الاحتلال لكارول مناسبة الانغماس في دنيا العمل اليدويّ، الذي أسهم لديه في تكوين تعليم الكنيسة الاجتماعيّ. وفي طيّات ذلك الليل الدامس المتمادي، اكتشف المقاومة في سبيل الذود عن الثقافة الوطنيّة، سبيلاً إلى التحرّر. وكان لهذه المقاومة أثرٌ حاسمٌ على تغيير مجرى القرن العشرين برمّته.

محنة النار تلك التي امتدّت ستّ سنواتٍ، وامتزجت فيها همجيّةٌ يتعذّر وصفها، ببطولاتٍ مذهلةٍ، حملت البعض على اعتبار الحياة عبثًا باطلاً، ولكنّها دفعت «كارول ڤويتيووا» في منحًى معاكسٍ تمامًا، مع أنّ ذكرى المحنة القاسية انحفرت ألمًا ممضًّا مقيمًا في أعماقه، فقال عنها، عام **١٩٩٥**: «**بعد مضيّ نصف قرنٍ، ما زال أفرادٌ، وأُسَرٌ، وشعوبٌ بكاملها تحمل ذكريات تلك السنوات الرهيبة: اختباراتٌ مأسويّةٌ موجعةٌ لفراقٍ تمّ بمنأًى عن كلّ أمانٍ وحرّيّةٍ، وصدماتٌ متكرّرةٌ ناجمةٌ عن مجازر مستمرةٍ**».

لقد أشاع النازيّون الرعب حيثما بسطوا نفوذهم، وتمثّلت أوامر الحاكم «هانس فرانك»، في إفهام الپولونيّين أنّه لم يعد للّه مكانٌ لديهم، وأنّه لم يبقَ لأحدهم أيّ حقٍّ، وأنّ واجبهم الوحيد هو الخضوع. وقد أمر بتصفية كلّ زعيمٍ وطنيٍّ أو دينيٍّ من شأنه إذكاء روح المقاومة، والتعامل معه بلا رحمةٍ، واتّخذ كلّ ما استطاع من تدابير تؤول إلى إزالة پولونيا من الوجود.

وقد جهد النازيّون في محو كلّ أثرٍ ثقافيٍّ أو حضاريٍّ في پولونيا. وأنزلوا أقسى ضرباتهم بالكنيسة الكاثوليكيّة، التي أدركوا دورها الجوهريّ في دعم الهويّة الوطنيّة، والثقافة العريقة، عازمين على تدميرها، تمهيدًا للقضاء على المجتمع الپولونيّ بأكمله، ولا سيّما أنّ الكنيسة، قبل الحرب، كانت تضمّ عشرين مليون مؤمنٍ، يصلّون في خمسة آلاف أبرشيّةٍ، يخدمها أكثر من أحد عشر ألف كاهنٍ، وسبعة عشر ألف راهبٍ وراهبةٍ. وقد أثبتت الكنيسة أنّها تعرف كيف تتألّم، وتقاوم.

ففضلاً عن عددٍ لا يُحصى من العلمانيّين، زُجّ ثلاثة آلافٍ وأربع مئةٍ وستّةٌ وأربعون كاهنًا في المعتقلات، حيث لم ينجُ منهم سوى ألف كاهنٍ. وسُجنت، أيضًا، ألفٌ ومئةٌ وسبع عشرة راهبةً، أُعدم منهنّ مئتان وثمانٍ وثلاثون، فعُدَّ

معتقل «داشو» حينذاك، أكبر دير في العالم، إذ كان يضمّ بين جدرانه نحو ألفٍ وخمس مئة كاهن. وأُخضع مئةٌ وعشرون منهم لاختباراتٍ طبّيّةٍ إجراميّةٍ. وقد برهنت طائفةٌ من أُولئك الكهنة عن بطولاتٍ رائعةٍ، مضحّين بحياتهم في سبيل إنقاذ مرضى ومعتقلين آخرين. ولطالما أُعدم كهنةٌ بسبب إحجامهم عن الوشاية بمقاومين، أو لمجرّد استمرارهم في استخدام اللغة البولونيّة، حتّى داخل كراسي الاعتراف، أو لاشتراكهم بتطوافٍ كنسيٍّ بلا ترخيصٍ. وقد أسفرت نتائج الحرب عن تصفية أكثر من ثلث الإكليروس البولونيّ. وفي معظم الحالات كان الضحايا هم أكثر الكهنة علمًا والتزامًا.

وكانت تُفرض عقوباتٌ شديدةٌ على كلّ منضوٍ إلى حركةٍ شبيبيّةٍ كاثوليكيّةٍ. فاضطرّ كاهنٌ مهتمٌّ بالشؤون الاجتماعيّة لتبنّي اسم «الأخت سيسيليا»، كي يُبعد عنه الشبهات.

وبالإجمال، لم يكن متاحًا لأيّ بولونيٍّ أن يأمل البقاء على قيد الحياة حتّى الغد. بل كان يسكن كلَّ مواطنٍ هاجسُ أن يكون له كلُّ يومٍ هو يومه الأخير في هذه الدنيا. وكلّ من كان يخرج من بيته يخشى ألاّ يُقيَّض له الرجوع إليه. فالاعتقالات ناشطةٌ، والنفي، والأشغال الشاقّة أمورٌ رائجةٌ، وتنكيل رجال الأمن بالأبرياء خبزٌ يوميٌّ. ومن تُكتب له العودة إلى منزله، لا يضمن أن يقضي فيه ليلته، فقد يحطّم الجستابو الأبواب، ويقتحمون المنزل، ويسوقون الأبرياء النيام إلى السجون أو إلى مواقع الإعدام. وهدأة الليل تعكّرها طلقات الرصاص على كلّ طيفٍ يتحرّك. الرعب سائدٌ، والخطر داهمٌ في كلّ لحظةٍ. وفوق كلّ ذلك تحرص السلطات المحتلّة على تجويع الناس، وحرمانهم من كلّ مقوّمات الحياة الأساسيّة. وكثيرون ممّن أفلتوا من الموت تحت القمع والتعذيب، قضوا نحبهم جوعًا وبردًا.

ولكن بقدر ما أحكم الجيش النازيّ سيطرته على پولونيا، وأمعن في البطش، اشتدّت المقاومة السرّيّة، عملاً بشعارٍ مأثورٍ: «إن لم تقووا على منع عدوّكم من ابتلاعكم بكاملكم، فعليكم، على الأقلّ، أن تفعلوا كلّ مستطاعٍ كي تمنعوه من هضمكم».

وكانت بطولة اليپولونيّين، في تلك الحرب، أسطوريّةً، فجعلت تشرشل يصرّح أن پولونيًّا واحدًا كان يساوي ثلاثة فرنسيّين. غير أنّ بعض قوّاده صحّحوا هذه المعادلة، مؤكّدين أن پولونيًّا واحدًا كان يساوي عشرة فرنسيّين. وبقطع النظر عن هذه المقارنات، من المحقّق أنّ إحجام بريطانيا وفرنسا عن نصرة پولونيا، في الوقت المناسب، قد أفقدهما فرصةً ثمينةً للجم العدوان الهتلريّ. ولكن، رغم هذه الخيانة، أبلى اليپولونيّون بلاءً رائعًا في دعم مجهود الحلفاء، طيلة الحرب، سواءٌ في ساحة الوغى، أو في ميدان الاستخبارات، عملاً بشعارهم: «من أجل حرّيّتنا وحرّيّتكم».

هذه البطولات أخافت حكّام الاتّحاد السوڤييتيّ، الذين بادروا إلى احتلال پولونيا متذرّعين بحججٍ واهيةٍ. وفي عام ١٩٤٠، عمدت شرطتهم السرّيّة، إلى إعدام أكثر من عشرة آلاف ضابط پولونيٍّ، بدمٍ باردٍ، في غابة «كاتين»، منعًا لقيام جيشٍ پولونيٍّ مستقلٍّ، يُحسبُ له حسابٌ.

وكان من البدهيّ أن تجيش قلوب الشباب بروح المقاومة.

مقاومةٌ ثقافيّةٌ: المسرح الملحميّ

انخرط «كارول ڤويتيووا» في تيّار المقاومة الوطنيّة والدينيّة، التي كان يقودها ويضرم جذوتها رئيس الأساقفة «ساپييها». واستخدم الشابّ، في هذا السبيل، الأسلوب الذي كان يجيده، فأسّس، مع مسرحيٍّ پولونيٍّ لامعٍ، مسرحًا يقدّم ملاحم وطنيّةً، وأطلق العنان لكلّ طاقاته ومواهبه المسرحيّة، فاستأهل تصفيق المشاهدين الملتهب، وغدا المسرح له ضربًا من الرسالة. وخُيّل إلى المقرّبين منه أنّ المسرح سيقصيه عن أيّ دربٍ آخر في الحياة، ولا سيّما الكهنوت. وأكّد قريبٌ له: «سيصبح كارول كاهنًا عندما ستنبت للدجاج أسنانٌ. فهو ليس بسليقته كاهنًا، بل إنّه فنّانٌ صرفٌ، ولا يحيا إلاّ للمسرح». وتذكر ممثّلةٌ كانت زميلته، بشيءٍ من الحنين: «كان بهيّ المحيّا، جميل الصوت، منيع الذاكرة، وشخصيّةً فذّةً. كان تمثيله خاليًا من كلّ تصنّعٍ، وهذا أمرٌ نادرٌ لدى شابٍّ في مثل سنّه.

كان ذلك يسبغ على تمثيله مسحةً أكثر ثقافيّةً، وهو كان يضفي على التمثيل مزيدًا من زهدٍ وتصوّفٍ».

كان يمثّل وهو مشبعٌ إيمانًا، إيمانًا مسيحيًّا، وإيمانًا ببولونيا وثقافتها. وكانت العناية الإلهيّة تُعدّه، من خلال المسرح، لمخاطبة العالم أجمع. وبعد أن أُطفئت، واحدًا فواحدًا، أضواء المسرح، أدخلته العناية الإلهيّة في صحارى متعاقبةٍ، كانت الحرب أولاها وأقساها، ومن خلالها تجلّى حضور الله، بطرقٍ متعدّدةٍ، واتّضح له أنّ خيرًا جمًّا قد ينتج عن شرورٍ كبرى.

كان «كارول» ورفاقه مصمّمين على الصمود في وجه المحاولات النازيّة، الرامية إلى سحق الثقافة البولونيّة، فكانوا يلتئمون دوريًّا، ويلقون قصائد ومقاطع من مسرحيّاتٍ لأدباء بولونيّين مشهورين.

في غروب عام **١٩٣٩**، كتب «كارول» مسرحيّته الأولى، بعنوان «داود»، التي فُقد كلّ أثرٍ لها، وقد وصفها، هو نفسه، بأنّها «قصيدةٌ دراميّةٌ، مستوحاةٌ، جزئيًّا، من الكتاب المقدّس، وجزئيًّا، من تاريخ بولونيا»، وكشف فيها الكاتب المبتدئ عن مساحاتٍ من هواجسه.

وفي ربيع عام **١٩٤٠**، وكان قد بلغ العشرين من سنواته، كتب مسرحيّته الثانية «أيّوب»، مستوحيًا الرواية الكتابيّة، كي يلقي الضوء على معاناة وطنه من الطغيان النازيّ. وفي السياق عينه، كتب، بعد أشهرٍ قليلةٍ، مسرحيّةً أُخرى بعنوان «إرميا»، حيث مزج، أيضًا، الرواية الكتابيّة بتاريخ وطنه، معبّرًا عن معاناة بولونيا. كان المسرحيّون البولونيّون يعتبرون عملهم رسالةً أكثر منه مهنةً، وغالبًا ما كان منزل «كارول» ملجأ زملائه من ملاحقات «الجستابو». كانوا يعملون خلسةً، ولكي يُفلتوا من قبضة الأمن النازيّ، كانوا يغيّرون، باستمرارٍ، أماكن تجاربهم ومسارحهم وعروضهم، حريصين على «إنقاذ حضارة وطنهم من بطش الاحتلال»، أملاً في إنعاش روح الأمّة، تمهيدًا لقيامتها المستقبليّة.

ولا ريب أنّه كان لذلك المسرح أثرٌ حاسمٌ على تكوين شخصيّة «كارول ڤويتيووا»، في نواحٍ متعدّدةٍ. فجرأته في مواصلة إلقاء شعاراتٍ وطنيّةٍ، بهدوءٍ

ورباطة جأشٍ، في حين كانت مكبّرات الصوت، تحت نافذة المسرح المقاوم، تجأر، بوقاحةٍ، شعارات العنجهيّة النازيّة، قد أهّلته للصمود والمواجهة في جميع الأوضاع، حتّى أكثرها إحراجًا وتهديدًا. وقد رسّخ لديه المسرح اليقين بأنّ الكلمة المعلنة بوضوحٍ، وصدقٍ، وقوّةٍ، كفيلةٌ بمواجهة ما يعدّه عالم السلطة واقعًا ثابتًا لا يمكن زحزحته. والكلمة التي كان يعلنها على خشبة المسرح، كانت انعكاسًا لكلمة «الذي، في البدء، كان مع الله، وكان هو الله»، كان يضفي على وطنيّته بعدًا ساميًا، فائقًا، وبذلك يجعل من المسرح طقسًا روحيًّا.

«كارول» يكسب خبزه بعرق جبينه

كان النازيّون يراقبون كلّ شيءٍ، وكلّ فردٍ، ولا سيّما الطلاّب السابقين. فالأنظمة القمعيّة تعاقب «جريمة» التفكير. وكانت الإقامة في «كراكوڤيا» محظورةً على كلّ بالغٍ ما لم يكن مزوّدًا ببطاقة عملٍ، وإلاّ فمصيره الاعتقال، ولا سيّما أنّ المعتقلات النازيّة غير بعيدةٍ عن كراكوڤيا.

وكان لا مفرّ لكارول من العمل، كي ينجو من الاعتقال والإبادة، ولكي يكسب أوَد عيشه وعيش والده العليل، الذي حرمه النازيّون راتبه التقاعديّ.

خلال سنة الحرب الأولى، عمل ساعيًا في مطعم، وكان هذا العمل يفسح له متّسعًا من الوقت لمتابعة دراسته، وللانصراف إلى المقاومة الثقافيّة والنشاطات المسرحيّة.

ومنذ عام **١٩٤٠** استُخدم في مصنعٍ كيميائيٍّ، كان الكلس إحدى موادّه الأوّليّة، فعمل، أوّلاً، في مقلعٍ لاستخراج الكلس. وكان عليه أن يسير، كلّ يومٍ، نصف ساعةٍ ذهابًا، ومثلها إيابًا، من أجل اجتياز المسافة بين مسكنه ومكان عمله. هذا المشوار كان شاقًّا، خاصّةً في الشتاء، عندما كانت درجات الحرارة تتدنّى إلى أقلّ من ثلاثين درجةً تحت الصفر، فيضطرّ إلى دهن وجهه بمرهمٍ يقي بشرته من التشقّق.

وكان المقلع حفرةً عميقةً تحت الأرض، حيث يكدّ ساعاتٍ، في جوٍّ جليديٍّ،

جامعًا فتات الأحجار الكلسيّة الناجمة على أجزاءٍ من المقلع فُجّرت بالديناميت، وتكديسها في مقطوراتٍ، تمهيدًا لنقلها إلى معمل المعالجة القائم على مسافة بضعة كيلومتراتٍ. وكان بين فترةٍ وأُخرى يسترق لحظاتٍ، كي ينعم بشيءٍ من الدفء، من مدفأةٍ حديديّةٍ، لكيلا ينفق قرًّا. وكان العمّال الأصيلون يتعاطفون مع الطلاّب أمثاله الذين أُكرهوا على مشاركتهم عملهم الشاقّ، كي ينجوا بأنفسهم من النفي والاعتقال. وقد أشفق عليه أحدهم، ذات يومٍ، وقال له: «إنّ لك صوتًا رخيمًا، وتجيد الترتيل، فلمَ لا تصبح كاهنًا، وتنجو من هذه السخرة التي لم تُخلق لها؟».

كان عمله يبدأ مع الفجر، ويمتدّ حتّى العصر، ولا يحصل، لقاءه، إلاّ على أجرٍ مغرقٍ في الضآلة، غدا هو مورد الأسرة الوحيد. وفي طريق عودته إلى البيت كان يبتاع ما يجد إليه سبيلاً من فحمٍ للتدفئة، وبطاطا، ونادرًا الزهيد من الخضار والبقول الكفيلة بسدّ رمقه ورمق والده.

في شهر تشرين الأوّل من عام **١٩٤١**، كُلِّف بالعمل في معملٍ كيميائيٍّ ملحقٍ بالمقلع، حيث تعالج الأحجار الكلسيّة، وحيث كانت ظروف العمل أخفّ وطأةً. فقد كان يعمل، ليلاً، في وحدة تنقية الماء، فيضطرّ إلى حمل دلوين من الكلس معلّقَيْن بنيرٍ فوق منكبيه. وينتهز فرصة الاستراحة، بين نقلَتَيْن، كي ينفق بضع دقائق في المطالعة. وعند الصباح، ونهاية دوام العمل، كان العمّال يُمنَحون وجبة طعامٍ خفيفةً، قوامها نصف لترٍ حساءً، وبضع شرحات خبزٍ.

ومع أنّ اقتحام الأمن السرّيّ النازيّ (الجستابو) كان محتملاً في كلّ لحظةٍ، لم يكن «كارول» يتوانى عن مناقشة أمور الدين مع زملاء عملٍ ملحدين، ولا من الركوع للصلاة، بلا خشيةٍ من هزء البعض، متحدّيًا الضجيج، مركّزًا ذهنه على الحوار مع الله. وفي طريق عودته، صباحًا، كان يتوقّف في كنيسةٍ للمشاركة في القدّاس الأوّل، وقد ذكر، بعد ثلاثين سنةً: «**هناك، كنت أستمدّ القوّة على الصمود، في سنوات الاحتلال العصيبة**».

في آناء ليالي العمل تلك، أعمل الفكر في تكريم العذراء الذي مارسه بحرارةٍ

وشغَفٍ في صباه، واستغرق في مطالعة كتاب القدّيس «لويس غرينيون دي مونفور»: «تكريم مريم الحقّ»، الذي احتفظ به، وهو بابا، ملطّخًا بآثار العمل من كلسٍ وزيوتٍ. وتوطّد لديه اليقين بأنّ العذراء، منذ البشارة حتّى صلب يسوع، كانت خير تلميذٍ لابنها، وخير دليلٍ إليه.

وقد وفّر له العمل في المقلع والمصنع الكيميائيّ، فرصةً ثمينةً لاختبار معاناة العامل اليدويّ، وللتعامل مع بشرٍ مختلفين عن أولئك الذين جاورهم وعمل معهم في الجامعة والمسرح. لا ريب أنّه كان بين العمّال، قساةُ رقابٍ، ولكنّه تأثّر بعزّة نفس معظمهم، التي كانت تتجلّى من خلال صداقتهم الخالصة، وتضامنهم، واقتسامهم كلّ شيءٍ، رغم قسوة أوضاع كلٍّ منهم. ولطالما حاورهم في أمورٍ اجتماعيّةٍ، وتعرّف، عن كثبٍ، ظروف عيشهم، وأوضاعهم الأسرويّة، واهتماماتهم، وقيَمهم الإنسانيّة، وقلق أرباب الأُسَر على غد أبنائهم وأحبابهم. وهكذا تبيّن كرامة الكدّ البشريّ التي عبّر عنها في إحدى قصائده، بقوله:

«يومًا فيومًا، تنمو فيّ فكرةٌ: عظمة العمل تسكن داخل الإنسان».

لقد انتهى إلى قناعة أنّ الحيوانات تكدّ، وأنّ البشر وحدهم يعملون. وهم يعملون لأنّهم يحبّون، يحبّون أسرَهم، وأولادهم، وجميع من يعتمدون على عملهم. والعمل، أيضًا، هو مصارعة مادّةٍ مقاومةٍ. وغالبًا ما يولّد العمل غضبًا على المستغلّين، وعلى خيانة بعض الرفاق. ففي دنيا العمل، الحبُّ والغضبُ متلازمان. وهذا التوتّر لا حلّ له إلاّ في كرامة العامل الفائقة، إذ لا يجوز أن يُعدَّ العامل، في أيّة حالٍ، مجرّد أداة إنتاجٍ.

ولاحقًا قيّم البابا يوحنّا بولس الثاني تلك المرحلة من مسيرة حياته، بقوله: **«مع أنّي أدين كثيرًا للسنة الدراسيّة التي قضيتها في واحدةٍ من أكثر الجامعات الپولونيّة عراقةً، إلاّ أنّني لا أخشى القول إنّ السنوات الأربع التالية، في الوسط العمّاليّ، كانت لي نعمةً من العناية الإلهيّة. فالخبرة التي جنيتُها من تلك المرحلة لا تُثمَّن، ولطالما صرّحتُ أنّني أوليها من الشأن أكثر ممّا أولي شهادة دكتورا، مع كلّ تقديري للشهادات الجامعيّة»**.

لا جَرَمَ أنّ تلك التجربة جعلت البابا يوحنّا بولس الثاني أخًا للعمّال اليدويّين، وقرّبته من كلّ كادحٍ يكسب خبزه بعرق جبينه، على غرار شفيعه بولس. وهو، أسوةً بهذا الشفيع قرن العمل اليدويّ بالتبشير.

ذلك الحبر الذي صاغته قسوة الجهد، تعلّم، باكرًا، قيمة العمل ومقتضياته، وما يستحقّه العمّال من احترامٍ وواجبٍ. لقد ولج عالم العمل من بابه الواسع، وسجّل تلك الصفحة من حياته بعرق جبينه، وانتفاخ أصابعه، وتشقّق أقدامه من الصقيع. وبيديه المخشوشنتين، سيرفع، يومًا، الخبز والخمر، ثمرة الحياة وجهد البشر. يداه اللتان جمعتا الحجارة، وبيّضهما الكلس، سيرغب العالم في لمسهما وتقبيلهما، لأنّه، بجهد عمله الشاقّ، عانق كلّ الوجود الإنسانيّ بمآسيه وأفراحه. ولا ريب أنّ إحدى كبريات مميّزات البابا العتيد هي كونه عاملاً حقيقيًّا، على غرار نجّار الناصرة الإلهيّ. ولا ريب أنّ تأثير تلك الخبرة على ما أغنى به تعليم الكنيسة الاجتماعيّ، كان جليًّا وبليغًا.

في هذه الأثناء ما انفكّت الأمّ السماويّة ساهرةً عليه. وقد وضعت في دربه علمانيًّا صوفيًّا، يتمتّع بروحانيّةٍ ثرّةٍ، وسيُشرع له آفاقًا من الإيمان لم يتخيّلها.

مرشدٌ علمانيٌّ صوفيٌّ

كان الآباء الساليزيّون قد حاولوا، رغم الاحتلال، مواصلة عملهم الرسوليّ مع الشبيبة، خلسةً، إلى أن اعتقلهم الجستابو. فكلّف كاهن الرعيّة علمانيًّا ورِعًا بمتابعة رسالتهم، هو «يان تيرانوڤسكي» (Jan Tyranowsky).

كان «يان» المذكور خيّاطًا تقيًّا، وأنيقًا. وقد استمع، يومًا، إلى عظة أحد الآباء الساليزيّين، جاء فيها: «ليس من العسير أن يكون المرء قدّيسًا». فانحفر هذا القول في أعماقه، ودفعه إلى تحويل نهج حياته وفقًا له. فنذر العفّة، وانقلبت حياته اليوميّة صلاةً وتأمّلاً، أشدّ دقّةً من رهبانٍ كثيرين. وأمسى التأمّل، له، تحرّرًا من إعمال الفكر في الهموم الدنيويّة، ومن أطياف التخيّلات، وسبيلاً إلى الحرّيّة، والحياة في حضور الله وحدَه. وقد وصف البابا يوحنّا بولس الثاني

«يان تيرانوڤسكي» : **«إنّه رسول عظمة الله، وجمال الله، وسموّ الله»**. وعن لقائه به قال :

«بين أصدقائي العلمانيّين، في تلك الحقبة، أستذكر رجلاً مغرقًا في البساطة، واحدًا من أولئك القدّيسين المجهولين، المختبئين في عمق الحياة، حيث يسود الليل، عادةً. لقد جعلني أكتشف غنى حياته الداخليّة، حياته الصوفيّة. كان قد قطع دروسه قبل الأوان، كي يعمل خيّاطًا في محترف والده... تحت الاحتلال كان، حقًّا، معلّم الحياة الروحيّة للعديد من الشبّان المنضوين إلى جماعة «الورديّة الحيّة»... بأقواله، وروحانيّته، ومثال حياته المكرّسة كلّيّةً لله، كان يمثّل عالمًا جديدًا كنتُ ما زلتُ أجهله، ورأيتُ جمال النفس الذي أبرزته النعمة».

علاقته هذه بـ«يان تيرانوڤسكي» وثّقت علاقة «كارول» بالأمّ السماويّة. فبعد أن كان، في قريته ڤادوڤيتش، رئيس الجمعيّة المريميّة، تمحورت علاقته بـ«يان» حول «الورديّة الحيّة»، التي كانت تتألّف من مجموعات شبّانٍ، تضمّ كلٌّ منها خمسة عشر فتًى يقودهم شابٌّ ناضجٌ يتلقّى توجيهاته من «تيرانوڤسكي»، الذي كان يستقبل أولئك القوّاد، أسبوعيًّا، في منزله، فيلقّنهم أسس الحياة الروحيّة، وأساليب تقويم سيرتهم اليوميّة، وتنميتها بانتظامٍ. وكانت رؤيته للحياة الروحيّة تنطوي على بعدٍ رسوليٍّ، فممارسة حضور الله يجب أن تقود إلى حياةٍ موقوفةٍ، دائمًا، على خدمة الآخرين. وكان على أعضاء الجماعة أن يلتزموا بصلاةٍ كثيفةٍ، والتوغّل في عيش حضور الله، وإشعاعه، حتّى بلوغ ملء الحياة الروحيّة والتواصل مع الله. وبصفتهم إخوةً في المسيح، كان عليهم أن يتعاونوا في كلّ المجالات، من عملٍ، ودراسةٍ، ومواجهة المشاكل العائليّة.

وكان على كلّ من تمرّس بروح «الورديّة الحيّة»، أن يخلق خليّةً جديدةً مؤلّفةً من شبّانٍ مندفعين، يبثّون فيهم ما اكتسبوه من «يان تيرانوڤسكي» : المسؤوليّة، وضبط النفس، ومعرفة الذات ومواطن ضعفها، والتوغّل في استيعاب معنى الصلاة، والقدّاس، وإعدادهم للممارسات الدينيّة، وتطوير شخصيّاتهم، تمثّلاً بيسوع، وبالإجمال إفادة الآخرين بما تلقّنوا هم أنفسهم.

ومع أنّهم كانوا ينبذون العنف، ويسعون، بالحريّ، إلى إعداد الشبيبة لمرحلة السلم، كانوا يتوقّعون، في كلّ لحظةٍ، تهمة تشكيل خلايا مقاومةٍ، ولم تكن خافيةً عنهم عقوبة هذه التهمة. ولم يُخفوا هذا الخطر عن الشبيبة، الذين لم يثلم الخطرُ عزيمتَهم على المضيّ قُدُمًا، فغدوا يُعدّونهم لبناء الوطن الجديد، ويُثقّفونهم على حضارتهم العريقة في مجالات الأدب، والشعر، والرسم، والنحت، والاهتمام بالقضايا الاجتماعيّة.

ومن بين من بثّ فيهم «كارول ڤويتيووا» روح «الورديّة الحيّة»، كوّن باقةً من الأصدقاء الأوفياء الذين لم يخبُ إخلاصهم له حتّى الرمق الأخير.

ومن خلال «يان تيرانوڤسكي»، اكتشف كارول عالم الصوفيّة، وانتهج درب مغامرته، واكتسبت صلاته كثافةً وعمقًا.

ومنذئذٍ غدا «كارول» بطل صلاةٍ، وطالما وجده أصدقاؤه، وحيدًا، راكعًا على بلاط الكنيسة، غارقًا في التأمّل، دافنًا وجهه، بين راحتيه.

ورغم تربّص الجستابو ومداهماته، نمت «الورديّة الحيّة»، التي غدت مزيجًا علمانيًّا فذًّا من قداسةٍ ذاتيّةٍ، وغيرةٍ رسوليّةٍ، ونمط حياةٍ جديدةٍ كفيلةٍ بصوغ النفوس، وبتأكيد أنّ الحقائق الدينيّة ليست مجموعة محظوراتٍ وحدودٍ، بل هي وسيلةٌ لصنع وجودٍ، يصبح، من خلال الرحمة، جزءًا من حياة اللّٰه، وأسلوب حياةٍ لا يتيح، فقط، الاستعلام عن اللّٰه، بل يتيح الحياة معه.

وكان «كارول» من طلائع «الورديّة الحيّة»، ومن أوائل أعضائها وقادتها. وقد أثمرت هذه الخبرة إضرام الرغبة لديه في ممارسة الرسالة لدى الشبيبة، وتشجيع رسالة العلمانيّين، وترسيخ النزعة النسكيّة والصوفيّة، والسيطرة على الذات، كما أنّها رفدت تكريمه للعذراء بدفعٍ جديدٍ حاسمٍ.

وبالإجمال كان للصوفيّ «تيرانوڤسكي»، تأثيرٌ بليغٌ على ذهن «كارول ڤويتيووا»، وعلى سلوكه. فقد رسّخ لديه اليقين بأنّ القداسة ليست وقفًا على الإكليروس والرهبان، إذ إنّ «تيرانوڤسكي» عاش خبرةً باللّٰه شخصيّةً، وبثّ في تلميذه الشابّ تجربة صلاةٍ، مختلفةً عن الصلاة التي دأب عليها دائمًا، إذ

غدت له الصلاة، منذئذٍ، استحضار اللّه في كلّ لحظةٍ، وفي كلّ مفصلٍ من مفاصل الحياة اليوميّة، ولم تعد مقصورةً على فترات التأمّل.

ولمّا لمس «تيرانوڤسكي» لدى كارول الشابّ ميلاً إلى الشعر، عرّفه بشاعر القرن السادس عشر الصوفيّ العظيم، القدّيس يوحنا الصليب، فأقدم على مطالعة مؤلّفاته، ملتهمًا كلاًّ منها: «تسلّق جبل الكرمل»، «الليل الدامس»، «النشيد الروحيّ»، «شعلة الحبّ الحيّة». ومنه تعلّم التجرّد، والتواصل مع اللّه، والتخلّي عن كلّ أملٍ في المكافأة، ونشدان نعمة اللّه لذاتها، ومعاناة الشعور بغياب اللّه، واجتياز صحراء الظلام والفراغ، حتّى بلوغ التواصل مع حضور اللّه، المجرّد من التخيّلات والأفكار، والذي يغدق سلامًا جمًّا.

ومن خلال «تيرانوڤسكي»، اكتشف «كارول»، أيضًا، قمّةً صوفيّةً شامخةً أُخرى، متمثّلةً في القدّيسة تيريزا الأڤيلاّويّة.

هذا الموقف كان يناقض، مناقضةً تامّةً، عنجهيّة القوّة والسطوة التي كانت النازيّة تمجّدها.

دعوةٌ كهنوتيّةٌ تتأكّد

كان «كارول» يحبو نحو الحادية والعشرين، وقد انتشرت على دربه مشاهد الموت التي كانت، غالبًا، من صنع الطغيان. كان قد ارتبط بأصدقاء. وكانت الدراسة السرّيّة، والتمثيل المتخفّي يملآن ساعات نهاره ومعظم ليله. وكان قد اهتدى إلى مرشدٍ روحيٍّ دفعه على دروب الصوفيّة. ومع ذلك ظلّ والده هو الكائن الأوثق قربًا من قلبه، والذي يتعلّق به تعلّقه بخشبة النجاة، والصلة الوحيدة التي تربطه بماضٍ عزيزٍ. ولكنّ الشيخوخة، والحرمان، والمرض، والأسى على ما انتهى إليه الوطن من إذلالٍ، قد أرهقت ذلك الوالد، وأقعدته، وألزمته فراش المرض والعجز.

يوم ١٨/٢/١٩٤١ عاد «كارول» من عمله ليلاً، مصطحبًا أدويةً وطعامًا لوالده، ففُجعَ برؤيته راقدًا، وقد غادر هذه الدنيا، في صمتٍ ووحدةٍ موحشةٍ،

ولم يكن قد تخطّى الثانية والستّين من العمر. فذرّف الابن الشابّ كلّ ما احتوته مآقيه من دموعٍ، لائمًا نفسه لغيابه حين كان والده يودّع الحياة الأرضيّة، وحيدًا. فهُرع، أوّلاً، إلى مقرّ الرعيّة، وجاء بكاهنٍ منحه مسحة الموتى. ثمّ قضى الليل كلّه راكعًا أمام جثمان الراحل الغالي، يجترّ مرارة اليتم والوحدة.

ومنذئذٍ غدا يُشاهَد، غالبًا، راكعًا أمام ضريح والده، مستغرقًا في الصلاة.

وفي تلك المرحلة، اشتدّ، في داخله، هاتف الدعوة الكهنوتيّة. فالكهنوت هو نداءٌ إلهيٌّ إلى «لبس المسيح» على نحوٍ فريدٍ، وإلى الاستسلامِ الكلّيّ لديناميّة الروح القدس. ولكنّ تلبيته لتلك الدعوة قد استلزمت منه سنةً ونصف السنة من إعمال الفكر، والإنضاج، والتأهّب للتضحية بكلّ آماله ومخطّطاته المستقبليّة. وقد ساعدته على اجتياز هذه الخطوة الحاسمة، قدوة حياة والده الراحل، التي نُسجت بالصلاة والتجرّد والتضحية والبطولة، ما جعل منزلهما، على حدّ تعبير يوحنّا بولس الثاني «إكليريكيّةً منزليّةً أولى»، في حين وصف عمله في المصنع الكيميائيّ، «إكليريكيّته الثانية».

وإلى جانب ذلك، كان راسخ القناعة بأنّ ما من امرأةٍ في العالم كفيلةٌ بتعويضه فقدانه أمّه في صباه، سوى أُمّ الأمّهات، أمّ الله، وبأنّه، بالكهنوت، سيثبت برّه بوالديه.

ومن الدوافع التي اقتادته بقوّةٍ صوب الكهنوت، شعورُه بالدَّين تجاه الكهنة الذين استشهدوا دفاعًا عن إيمانهم، ومواكب الأبطال الذين سقطوا ضحايا وفائهم لوطنهم، ومنهم العديد ممّن لم يتخطّوا مرحلة الشباب، وألقوا على كاهله واجب التضحية، وبذل الذات، على غرار المخلّص الإلهيّ.

وكان للصوفيّ «يان تيرانوڤسكي» دورٌ حاسمٌ في تبديد حيرته، وتوطين عزمه على خيار الكهنوت، الخيار بين المسرح والمذبح. فهو كان يتوخّى، من خلال المسرح، الإشادة بالجمال، بغية جعل العالم أفضل. لقد كان يتوسّم في التمثيل، إسهامًا في عمل «الفداء». ولكنّ «تيرانوڤسكي» أقنعه أنّ العالم لن يتحسّن حالاً بالجمال، بل بالعمل الرسوليّ المباشر.

ولا بدّ من الإشارة إلى تأثير كاهنٍ شيخٍ ورعٍ، كان قد لقّن «كارول» مبادئ المسيحيّة في صغره، وجعله عضوًا في جوقة رعيّته، ثمّ مسؤولاً عن الجوقة وعن خدمة الكنيسة. وبعد أن انتقلا كلاهما إلى «كراكوڤيا»، أصبح له المعرّف والمرشد الروحيّ. وعندما حان الأوان قال له، بوضوحٍ: «إنّ يسوع يدعوك إلى الكهنوت». ومنذئذٍ اتّخذ قرارًا حاسمًا لا عدول عنه، قرارًا أسعد «تيرانوڤسكي»، وأحزن مدير المسرح، الذي لم يضنّ بوسيلة ضغطٍ كي يحمله على التراجع عن عزمه. غير أنّ شعوره الوطيد بواجب التضحية كان أقوى من كلّ المغريات، وأرجح من كلّ الحجج العاطفيّة والمنطقيّة. فلا نجاحه الباهر في المسرح وفي الدراسات العليا، ولا فتنة شخصيّته التي كانت تجتذب إليه الأصدقاء والمعجبين من كلّ صوبٍ، ولا عذوبة تواصله مع الجميع، أفلحت في ثنيه عن تصميمه.

استقامته كانت تبدي له أنّ النِعَم الجمّة التي حظي بها تجعله مدينًا بكلّ شيءٍ تجاه الجميع، وأنّه لا يسوغ له أن يكون أقلّ عطاءً من النماذج الرائعة التي قُيِّض له التمثّل بها. من هوّة ذاكرته كان يطفو مثالُ والده منقطع النظير، ومن أعماق تديّنه كان يبرز رجل الأخلاق. وقد ظلّ، سحابةَ حياته، يقرن الطيبة بالأخلاق، والعطف بالإمعان في البذل، والمحبّة بالواجب، والله بالإنسان. كان ديدنه نشدان الخير والواجب. وحيال فظاعات الحرب والشرّ المطلق، كان يرى أنّ الخير المطلق، وحده، كفيلٌ بردم الفراغ الهائل؛ وحيال الإنسان المسحوق، كان يرى أنّ من واجبه الإسهام، إلى أقصى مدًى، في نهضة الإنسان ورفعته؛ وحيال ازدراء الله، كان موقنًا أنّ إعطاء ذاته كلّيّةً، لله، هو الوسيلة الوحيدة لغسل ذلك التدنيس، والتكفير عنه. ومن كلّ هذه القناعات انبثق شعاره: «**إنّي بكلّيّتي لك**».

كلّ تلك الدوافع والإشارات كانت صوًى ترشده إلى الطريق الذي يتعيّن عليه انتهاجه. وكان العديدون ممّن عملوا معه، وعرفوه عن كثبٍ، قد توقّعوا أن تقوده مسيرته عند أقدام المذبح.

ولكن، ألمْ يكسبه هذا المصير مزيدًا من سموٍّ، وألَمْ يرتقِ به إلى قمّة القداسة؟

إكليريكيٌّ في حماية الربّ

ذُهل مدير المسرح يوم طلب منه «كارول» أن يتوقّف عن تكليفه بأيّ دورٍ جديدٍ، بسبب اعتزامه انتهاج درب الكهنوت. وكذلك انتاب رفاقَه وزملاءَه الذهول والأسى، وعزّ عليهم فقدان صديقٍ فذٍّ، وفشلت مساعيهم الدؤوبة والملحاحة في حمله على العدول عن مقصده، فقد كان قراره نهائيًّا لا رجوع عنه. وبالمقابل يمكن تخيّل فرحة الأسقف «سابييها»، الذي كان قد تمنّى، ذات يومٍ، توجّه التلميذ اللامع «كارول ڤويتيووا» نحو الكهنوت، عندما أتاه كارول، من تلقاء نفسه، وبملء قناعته، طالبًا الانتساب إلى الإكليريكيّة، في خريف عام **١٩٤٢**.

كان الاحتلال الألمانيّ، حينئذٍ، يسعى إلى تحويل الإكليريكيّات مدارس تخرّج موظّفين، ومن ثمّ حظر على كلّ أستاذٍ أكاديميٍّ إلقاء دروسٍ فيها. ولكنّ رئيس الأساقفة تجاهل هذه الأوامر، فمنعه النازيّون من استقبال إكليريكيّين جُددٍ. وأمسى هؤلاء يُستقبلون بصفة أمناء سرٍّ للرعايا، ويتلقّون، سرًّا، دروسًا لاهوتيّةً، معرّضين أنفسهم، كلّ لحظةٍ، للاعتقال، وأحيانًا، للإعدام.

وكان «كارول» أحد الإكليريكيّين القلائل الأوائل الذين سلكوا هذا النهج. فكان يدرس ليلاً، ولا يستلفت الانتباه، متابعًا ظهوره على المسرح، ولكن بوتيرةٍ متباطئةٍ. وفي الآن عينه، كان يواصل عمله في المصنع الكيميائيّ، ممعنًا في تمويه انتسابه إلى الإكليريكيّة.

ولطالما تعرّض لمخاطر قاتلةٍ، ولكنّ العناية الإلهيّة كانت تواكبه، خطوةً خطوةً، وتسارع، دائمًا، إلى إنقاذه، حريصةً على تمكينه من المهمّة الخطيرة التي كانت تعدّه لها.

الخطر الأوّل نجا منه، عام **١٩٣٥**، في سنّ الخامسة عشرة، إذ كان يزور جيرانه الذين اعتاد العبث مع أبنائهم، وتناول وجبة الغداء معهم. وكان شرطيٌّ قد ألِف إيداع مسدّسه في خزانة الأسرة، كلّما رغب في معاقرة الخمرة وأسرف فيها. وفي ذلك اليوم، عثر ابن تلك الأسرة على ذلك المسدّس، فأجلس أخاه الأصغر وكارول جنبًا إلى جنبٍ، محاولاً إخافتهما، وصوّب إليهما المسدّس،

ظانًّا أن الزناد مغلقٌ، وبغتةً انطلقت رصاصةٌ لامست صدغ كارول. ولكن ردّتها اليد الخفيّة التي ستردّ، عام **١٩٨١**، رصاصةَ «علي أغشا».

وفي أثناء الاحتلال الألمانيّ تواترت المخاطر التي نجا منها. وقد روى أنّه كان يشترك مع إكليريكيٍّ زميلٍ له في خدمة قدّاس رئيس الأساقفة كلّ صباحٍ. وذات صباحٍ لم يحضر ذلك الزميل. فما إن انتهى القدّاس حتّى هرع «كارول» مستعلمًا عنه، فأُخبر أنّ الجستابو اعتقله، ليلاً، وبعد فترةٍ وجيزةٍ، ظهر اسمه ضمن لائحة المحكوم عليهم بالإعدام.

في تلك الحقبة التي سادها الخوف والجوع والبرد، وهاجس الاعتقال، كان «كارول» يؤثر أسلوبه الخاصّ في المقاومة، أسلوبًا شخصيًّا، كتومًا، فاعلاً، قائمًا على المحبّة. ومع أنّ خبرة الآلام التي قاساها، واتّكاله على الأمّ السماويّة، كانا يحصّنانه ضدّ الخوف، كان يعلم أنّه مستهدفٌ، فيضاعف تدابير الحذر.

وقد تعرّض لمحاولتي قتل. الأولى عندما صدمه ترامٌ، عام **١٩٤٣**، والثانية، عندما صدمته شاحنةٌ عسكريّةٌ ألمانيّةٌ، في **١٩٤٤/٢/٢٩**، فهوى، فاقدًا الوعي في حفرةٍ، وأفاق في المستشفى، حيث قضى اثني عشر يومًا ملفوفًا بالضمادات، تلتها نقاهةٌ طويلةٌ. على هذه الحوادث المتعاقبة، علّق، لاحقًا، بقوله: «**كنت معرّضًا، كلّ يومٍ للتوقيف، في المنزل، وفي المقلع، وفي المصنع، ولأن يكون المعتقل مصيري. ولكم تساءلت: كثيرون من رفاقي يقضون نحبهم، فعلامَ أنا لا ألقاه!؟ إنّي، اليوم، متيقّنٌ أنّ ذلك لم يكن مجرّد صدفةٍ**».

هذا ما أكّده حادثٌ آخر. فذات ليلةٍ اكتشفت دوريّةٌ نازيّةٌ، جماعة صلاةٍ يقودها «كارول». وإذ همّت بالقبض على أفرادها، استمع قائد الدوريّة إلى «كارول» يتكلّم عن حبّ الله، وعن حبّ القريب الأقوى من الموت، فانقلب كلّ كيانه، وترك الشباب يكملون صلاتهم، ووطّن العزم على الإحجام عن كلّ توقيفٍ غير مبرّرٍ، وكلّ قتلٍ عشوائيٍّ.

وفي يوم الأحد، السادس من آب **١٩٤٤**، الذي سُمّي الأحد الأسود، وحؤولاً دون قيام انتفاضةٍ في «كراكوڤيا»، شبيهةٍ بتلك التي نشبت في

«ڤرسوڤيا»، أطلق النازيّون حملةَ تمشيطٍ واسعةً، أفضت إلى اعتقال أعدادٍ غفيرةٍ من المواطنين، حتّى ممّن كانوا مزوّدين ببطاقات هويّةٍ وعملٍ. وخلع المداهمون المسلّحون باب البناء الذي كان «كارول» يقطن فيه، وفتّشوا كلّ شققه، ولكنّهم أغفلوا القبو الذي كان يسكنه، وحيث كان قد تمدّد على الحضيض، باسطًا ذراعيه على شكل صليب، مستغرقًا في الصلاة، منتظرًا مصيره.

وإثر نجاته من ذلك الخطر الداهم، التجأ ورفيقٌ له إلى مقرّ رئيس الأساقفة، الذي كان قد حُوِّل إلى إكليريكيّةٍ سرّيّةٍ. وبما أنّه عُدَّ «فارًّا» من عمله في المصنع، أصبح «مطلوبًا» من رجال الأمن، الذين بحثوا عنه في كلّ مكانٍ، ولم يقفوا له على أثرٍ.

وفي كلّ هذه الأحداث كان «كارول» يقرأ توقيع اللّه وتدبيره.

عندما كان ما زال عاملاً، كان ينتهز كلّ فرصةٍ متاحةٍ، ولحظات الاستراحة في المعمل، كي ينكبّ على كتب الفلسفة. وقد وصفه أحد رفاق عمله حينذاك، فقال: «كان ينتعل قبقابًا خشبيًّا بقدَمَيْن حافيَتَيْن، ويرتدي بنطالاً قصيرًا من الكتّان، وسترةً واقيةً من المطر. كان قليل الكلام. وعندما كان يطالع في المصنع، كان يفعل ذلك وهو راكعٌ. عمل الليل كان يوفّر له الهدوء اللازم للدراسة، فكان يستعجل الفراغ من أداء المهمّة المطلوبة منه كي يتفرّغ للدرس. وكان بعض الرفاق يشفقون عليه، فيتولّون الحراسة كي ينصرف باطمئنانٍ إلى دراسته. وكانت دروسه ممزوجةً بصلواته الحارّة، التي كان يؤدّيها جهارًا، بمنأًى عن كلّ حياءٍ، وبخشوعٍ مدهشٍ، يحجب وعيه عن كلّ ما يحيط به. وعقب وفاة والده، بات ينفق ساعات وحدته في البيت، منكبًّا على كتب اللاهوت والفلسفة، وعلى ملخّصات الأساتذة التي كان يتوفّق في الحصول عليها. ويضيف إليها مطالعة كتب الصوفيّين الإسبانيّين الكبار، ومعلّمي الروح الأفذاذ.

وقد تميّز، في تلك الفترة، بتجرّده، وتقشّفه، ونزوعه إلى إماتة الذات، والمبادرة إلى إغاثة كلّ محتاجٍ.

ولطالما شوهد، في تلك الفترة، مستغرقًا في الصلاة، غائبًا عمّا يدور حوله،

وقد أَلِف الرقادَ على الحضيض العاري الذي ينزّ بردًا، مرتديًا ثيابًا عاجزةً عن وقايته وإدفائه.

بادئ الأمر، كان يلقى مشقّةً في استيعاب كتب الفلسفة، ولكنّه، بصبره ومثابرته، تمكّن منها، ففتحت له عوالم جديدةً رحبةً. ومنذئذٍ، أثبت أنّه، عندما يتصدّى لأمرٍ، مهما كان عسيرًا، كان يمضي به حتّى آخر الشوط.

ومن الكتب التي كان يطالعها، راكعًا، كتب الروحانيّين الكرمليّين، الذين يستمدّون رمزهم من جبل الكرمل، ومن الحياة النسكيّة التي تستهدف قداسة النفس القصوى. ولا ريب أنّ الصوفيّ القدّيس يوحنّا الصليب، والقدّيسة الصوفيّة تيريزا الأڤيلاّويّة، هما اللذان أشرعا له آفاق هذا العالم الروحيّ، آفاق النعمة، والتأمّل والصلاة. وفي رحاب هذا العالم، توغّل بفضل مطالعته كتابات القدّيسة تيريز الطفل يسوع، وترسّخت، لديه، القناعة، حسب ما صرّح به «**أنّ المسيح يقتضي منّا طهر القلب... يقتضيه صراحةً وجهارًا. وهذا الطهر لا يُكتسب إلاّ بالتضحيات والصراعات الداخليّة**». هذه القناعة حصّنته ضدّ مواكب الغوايات التي كانت تعترض دربه.

من تلقاء ذاته، وقبل التزامه بمقتضيات الكهنوت، ألزم نفسه بالصبوّ إلى أسمى مراتب القداسة. وقد خشي عليه أصدقاؤه، وفي طليعتهم رئيس الأساقفة، أن يقرّر الانضواء إلى ديرٍ نسكيٍّ، فقد كانوا يدركون حاجته إلى العمل مع الآخرين، وحاجة الآخرين إليه.

لقد غرس القدّيس يوحنّا الصليب، في أغوار ذهنه وقلبه، معاني سرّ الفداء، وضرورة العمل على خلاص كلّ فردٍ، فضلاً عن خلاص كلّ شعب اللّٰه. وهذا ما دفعه إلى الاهتمام بكلّ قلبٍ، وشحذ، لديه، نظرة محبّةٍ عميقةٍ، واهتمامٍ يقظٍ، وعطفٍ نحو الجميع، من خلال نظرةٍ إيمانيّةٍ تحيق بكلّ نفسٍ، وترتقي بأنظار الخاطئ صوب وجه المصلوب.

وقد عاش «كارول» كلّ تلك القناعات بسجوّ نفسٍ، ورجاءٍ وطيدٍ. كان الصليب هو مركز فكره وحياته، ومع ذلك لم يجد الحزن والمرارة سبيلاً إليهما.

كان وطيد الإيمان أنّ الصليب الذي يُحمل بشجاعةٍ هو أداة تحرّرٍ، ونبع نِعمٍ، ويفضي إلى القيامة. فسما فوق الألم، ونعم دائمًا بتفاؤلٍ متّزنٍ، قارنًا الصليب بالفرح. وسيدمغ الصليب المنصوب في صلب العالم، والمغروس في قلبه، منذ سنّ التاسعة، كلّ نشاطه المقبل في الكنيسة، وسيحتلّ صميم رسالته الأسقفيّة. ولا سيّما أنّه، منذ فقده أمّه، وجد الأمّ المثلى، أمّ الرجاء، ومعزّية الحزانى.

وقد ازداد حبّه للأمّ السماويّة اضطرامًا، عقب مطالعته كتاب القدّيس «لويس–ماري غرينيون دي مونفور» (Louis-Marie Grignon de Monfort) حول «التكريم الحقّ للسيّدة العذراء القدّيسة» (Traité de la vraie dévotion à la Sainte Vierge). ومن المعروف عن ذلك القدّيس (١٦٧٣–١٧١٦)، أنّه كان يعظ، دائمًا، ممسكًا الصليب بيدٍ، والمسبحة الورديّة باليد الأُخرى.

وقد حرص يوحنّا بولس الثاني، إثر انتخابه، على التعبير عن عرفانه بجميل ذلك القدّيس، فجاء، وجثا عند قبره، وباح للرهبان الحاضرين عن اعترافه بما يدين به له، ولكتابه القيّم. وصرّح، لاحقًا: «**لقد أحدثت مطالعتي لهذا الكتاب منعطفًا حاسمًا في حياتي، توافق مع مسيرةٍ داخليّةٍ طويلةٍ، في أثناء تأهّبي، خلسةً، للكهنوت. حينئذٍ، وقع بين يديّ هذا الكتاب الفريد، كتابٌ لا يكفي المرء أن يطالعه. أذكر أنّني اصطحبته طويلاً معي، حتّى في المصنع، بحيث تلطّخ غلافه الجميل بالكلس. وبرجوعي المتواتر إلى بعض مقاطعه، سرعان ما تبيّن لي أنّه شيءٌ أساسيٌّ. ونتج عن ذلك أنّ تكريمي لأمّ الربّ، في طفولتي، وحتّى في مرحلة مراهقتي، قد تحوّل إلى تكريمٍ نابعٍ من أعماق إيماني، وكأنّه من صميم واقع الثالوث والإفخارستيّا**».

وتأكّد له أنّ تكريم العذراء الذي شحذه، فيه، «دي مونفور»، لا يتعارض وعبادة يسوع التي دفعه إليها يوحنّا الصليب، بل يقود، حتمًا، إليها. وهكذا قرن، دائمًا، بين الفادي، وشريكته في الفداء، ووطّن العزم على وهب الربّ كلّ شيءٍ، بواسطة مريم؛ وهذا ما أكّده من خلال عبارة تكريس ذاته التي اقتبسها من «دي مونفور»: «**إنّني بكلّيّتي لكِ، وكلّ ما هو لي هو لك. إنّي أرحّب بك في كلّ ما يخصّني. فأعيريني قلبك، يا مريم**».

لقد أدرك أنّ حبّ الله، حبًّا كاملاً، يستلزم التمثّل بمريم العذراء، والاستسلام لها، مثلما استسلم لها يسوع الطفل، والذوبان فيها، مثل حجرٍ يُلقى في البحر.

لقد أمسى هدفه واضحًا: أن يصبح كاهنًا حقيقيًّا، كاهن المسيح المخلّص، في كلّ حياته المقدَّمة المبذولة كفّارةً وضحيّةً، بمساعدة مريم، أمّ الكهنوت. وقد اكتشف مثال الكاهن الأعلى في «شفيع الإكليروس»، «خوري أرس» «جان باتيست ماري ڤيانّي» (Jean Baptiste-Marie VIANNEY). ولنستمع إليه يروي:

«في الإكليريكيّة، طالعت، بتأثّرٍ، ... سيرة «خوري أرس»، التي كانت، بكاملها، شهادةً لقدرة المسيح الكاهن... إنّ القدّيس «جان ماري ڤيانّي» يدهش، خاصّةً، بكونه يُبرز قدرة النعمة العاملة، رغم فقر الوسائل البشريّة. لقد تأثّرت، تأثّرًا عميقًا، على نحوٍ خاصٍّ، برسالته البطوليّة، في كرسيّ الاعتراف. هذا الكاهن المتواضع الذي كان يُنفق، كلّ يومٍ، أكثر من عشر ساعاتٍ في سماع الاعترافات، لم يكن يتناول سوى الزهيد من الطعام، ولا يظفر إلاّ بسُويعات راحةٍ معدوداتٍ، ومع ذلك، توفّق، في حقبةٍ تاريخيّةٍ عصيبةٍ، إلى استنهاض ثورةٍ روحيّةٍ في فرنسا... أعتقد أنّه لا يحقّ لنا إغفال مثل هذه النماذج... بوسعنا، بل من واجبنا، الاقتداء بها».

ولطالما أكّد الحبر الأعظم أنّ ذلك القدّيس كان من أبلغ ملهمي كهنوته أثرًا.

وهكذا اتّسعت آفاق «كارول»، الذي اقتادته خبراته الروحيّة المتعدّدة، وهمّ مستقبله إلى مفترقٍ بين الحياة النسكيّة، والكهنوت العامل، فكان، دائمًا، رجل روحانيّةٍ كثيفةٍ دمغت خدمته الكهنوتيّة. فمن المسرح اكتسب الإحساس المرهف بالغير، والتواصل الصادق معهم، ومن التأمّل احتفظ بحدْس الله، ورؤيته في كلّ شيءٍ. وفي كهنوته سيقرن تينك الملكَتَيْن، في سبيل خدمةٍ مثلى.

وقد واكبت العناية الإلهيّة مسيرته، خطوةً خطوةً، نحو المصير الذي أعدّته له. ومع أنّها سقته من الآلام كؤوسًا فائضةً، إلاّ أنّها حمته من المخاطر القاتلة التي انتشرت على دربه.

تأهّبٌ للكهنوت

إذن، بعد أن تحرّر كارول من همّ العمل اليدويّ، ومن واجب تأمين أَوَد العيش اليوميّ، وبعد أن توفّرت له وسائل دراسةٍ شبه طبيعيّةٍ، انصرف باندفاعٍ ودأبٍ، إلى إكمال تأهيله اللاهوتيّ، في إكليريكيّة رئيس الأساقفة السرّيّة.

وكان رئيس الأساقفة، في خضمّ ذلك اليمّ الصاخب، قد شرع يعدّ مشاريع مستقبليّةً، وقد أحاط الإكليريكيّين الذين استضافهم علمًا بأنّه سيتولّى بنفسه إدارة الإكليريكيّة، ونصحهم، في حال ألقى النازيّون القبض عليهم، أن يستسلموا للعناية الإلهيّة. وكان موقنًا أنّ إعادة الانتعاش للمسيحيّة، بعد الاحتلال، تستلزم مجموعةً من الكهنة الديناميّين المندفعين، فعكف على تثقيفهم ثقافةً تلائم هذا الهدف، عبر نظامٍ دراسيٍّ وروحيٍّ وحياتيٍّ صارمٍ.

وسرعان ما برزت مواهب البابا العتيد، واستعداداته الروحيّة؛ ما أثلج صدر رئيس الأساقفة الذي تمنّى، ذات يومٍ، أن ينهج «كارول ڤويتيووا» درب الكهنوت، وإذ به ينطلق تحت ناظريه، على هذا الدرب، بعزيمةٍ مضطرمةٍ، ومواهب متعدّدةٍ.

ليلة ١٨/١٧ كانون الثاني ١٩٤٥، غادر المحتلّون النازيّون «كراكوڤيا»، مخلّفين الدمار حيثما حلّوا. وحرصوا، قبل رحيلهم، على نسف كلّ ما بقي صامدًا من بنًى تحتيّةٍ. وهرع الإكليريكيّون لاستعادة الإكليريكيّة التي كان المحتلّون قد حوّلوها سكنًا لجنودهم، وصُدموا بمشاهد مروّعةٍ. فالنوافذ، كلّها، محطّمةٌ، والأسقف القرميديّة منهارةٌ، والقاعات كلّها تعجّ بالأقذار، وبآثار النيران التي كان الجند يشعلونها على الأرض للتدفئة. وقد تكدّست، في المراحيض، أكوام البراز المتجمّد، فتطوع كارول وزميلٌ له لتكسيره ونقله، بحيث بدت لهما، بعدئذٍ، إعادة بناء الأسقف، وتثبيت القرميد، متعةً ونزهةً.

غير أنّ رجاء البولونيّين في استعادة وطنهم حرّيّته، وحياته الطبيعيّة، سرعان ما تبخّر، إذ سارع إلى احتلال پولونيا نظامٌ سوڤييتيٌّ لا يقلّ عن النازيّة طغيانًا. وفي الآن عينه، كانت قد سُلبت من پولونيا أجزاء هامّةٌ منها، ضُمّ بعضها إلى

الاتّحاد السوڤييتيّ، وبعضها إلى ألمانيا. وكانت قد جُرّدت من نخبتها الفكريّة، وأُخضعت لإيديولوجيّةٍ، لم تستطعْ، يومًا، النفاذ إلى قناعات معظم الپولونيّين.

كانت پولونيا قد أمست نتاج الجيش الأحمر، وجبن أوروپّا الغربيّة وصغارتها. وفي حين كان يُفرض أن تُعَدّ في مصافّ البلدان المنتصرة في الحرب، اتّضح، في الواقع، أنّها كانت خاسرةً على صُعُدٍ عديدةٍ. وعوضًا عن وعود الحرّيّة التي أغدقها الحلفاء، أمست ضحيّة نظامٍ كاذبٍ، خادعٍ، طاغٍ، لاإنسانيٍّ. وبالإجمال، كانت معاهدة «يالطا» كارثةً فادحةً ألّمت بپولونيا، وبدولٍ كثيرةٍ أُخرى، وخدعةً أخلاقيّةً كبرى.

وفيما كانت الحرب تحبو نحو نهايتها، استطاع كارول إنهاء سنة دراسته اللاهوتيّة الثالثة. كان قد انتُخب نائب رئيس جمعيّة الدعم الأخويّ للطلاّب، التي تولّت توزيع الإعانات الأوروپّيّة على الطلاّب المعوزين. ولكنّه، شخصيًّا،كان قد وطّن العزم على مواصلة العيش في تجرّدٍ تامٍّ، وكان، بذلك، قدوةً لزملائه. وقد اتّفق، ذات يومٍ، أن أهداه أحد أصدقائه كنزةً صوفيّةً، وفي ذلك اليوم عينه، جاء متسوّلٌ سائلاً عنه شخصيًّا، وإذ لم يكن يملك ما يتصدّق عليه به، أعطاه تلك الكنزة التي كان في حاجةٍ ماسّةٍ إليها.

في خريف عام ١٩٤٥، باشر سنة اللاهوت الرابعة، تمهيدًا لسيامته الكهنوتيّة. وفي الآن عينه كان يدرّس طلاّب السنة الأولى. وكانت تتجاذبه، في تلك الفترة، نزعتان متباينتان: الحياة الرهبانيّة التأمّليّة التي كان يجتذبه إليها، كَلَفُه بالقدّيس الصوفيّ يوحنّا الصليب، ومن جانبٍ آخر، النشاط في الحقل الاجتماعيّ. وكان قد شدّه صوب تلك النزعة الثانية مثال الأب «مكسيميليان كولبي»، الذي قدّم حياته إنقاذًا لرفيقٍ معتقلٍ، ربّ أسرةٍ كبيرةٍ. لقد كان ذلك الكاهن مثال «يسوع الآخر» الفادي، ونموذجًا للتضحية القصوى التي أمست عنصرًا أساسيًّا في فلسفة البابا يوحنّا بولس الثاني، وتعليمه الرسوليّ. واستشار في الأمر رئيس الأساقفة «ساپييها» الذي قال له: «عليك، أوّلاً، أن تنجز ما باشرته».

وتأهّبًا لسيامته الكهنوتيّة باشر «كارول» خلوةً روحيّةً طويلةً، التزم، خلالها، بنظامٍ اختياريٍّ صارمٍ، وبنشاطٍ فكريٍّ دؤوبٍ وجادٍّ، في جوٍّ يسوده شعورٌ غامرٌ بالقدسيّ. فكان يستغرق في المطالعة، مثلما يستغرق في الصلاة والتأمّل، والممارسات التقويّة، حريصًا على عيش «درب الصليب»، كلّ يوم جمعةٍ. ممارسةٌ لم يتخلَّ عنها، في ما بعد.

وكان رئيس الأساقفة يجهد في أن يوفّر له ولزملائه أفضل مستوًى دراسيٍّ، يؤهّلهم لمواجهة الظروف الصعبة، ولترميم ما دمّره الاحتلال، وفي الآن عينه كان يحثّهم على نجدة ذويهم، وعلى الإسهام في إصلاح الأبنية المهدّمة، وعلى مدّ يد العون للمؤسّسات التي فقدت عناصرها الفاعلة.

لقد لعب رئيس أساقفة كراكوڤيا «ساپييها»، في تلك الحقبة العصيبة، دورًا جوهريًّا، فمثّل السلطة الپولونيّة الشرعيّة في أمّةٍ يحكمها طغيان إدارةٍ غريبةٍ مجرمةٍ. ومع ذلك كان الإكليريكيّون يشهدونه، عند الساعة التاسعة من كلّ صباحٍ، يختلي في المصلّى، كي يودع بين يدي الله همومه، ويلتمس أزره. فقد كان النازيّون يعتقلون كهنته، ويعدمون العديدين منهم، في حين كانت الأُسَر التي فقدت أربابها، بحاجةٍ إلى إعانةٍ عاجلةٍ.

هذه الجهود القيّمة التي بذلها الأسقف «ساپييها»، استحقّت له شكر مسؤولي بلاده، وعرفان مواطنيه بجميله، ورتبة الكرديناليّة التي كرّمه بها البابا بيّوس الثاني عشر، في مطلع عام ١٩٤٦.

وفي تيّاره خفّ «كارول ڤويتيووا»، تعبيرًا عن شكره لما نعم به من حماية السماء، إلى حماية من كانوا يواجهون المخاطر، واضطلع بدور السامريّ العطوف، وكانت تلك، أيضًا، إحدى وسائل تأهّبه ليكون الكاهن الأمثل، أي شاهدًا حقًّا، وبطل محبّةٍ.

وفي نهاية دراسته اللاهوتيّة، تمنّى أساتذته الذين أُعجبوا بذكائه، وجدّه، وقوّة شخصيّته، أن يتابع دراساتٍ لاهوتيّةً عليا في روما، وتلاقت تلك الأمنيّة مع رغبة رئيس الأساقفة، الكردينال الجديد. فكان لا بدّ من تقديم موعد سيامة كارول الكهنوتيّة.

الكاهن

لكي يمكّنه من التسجيل في جامعة لاهوتٍ بروما، ضمن المهلة المحدّدة للتسجيل، ولكي يتجنّب إرجاء هذا التسجيل سنةً كاملةً، ارتأى الكردينال «ساپييها» تقديم موعد سيامته الكهنوتيّة. فمنحه رتبة شمّاسٍ رسائليٍّ في ١٩٤٦/١٠/١٣، ورتبة شمّاسٍ إنجيليٍّ، بعد أسبوعٍ، ورسمه كاهنًا في الأوّل من شهر تشرين الثاني ١٩٤٦، الموافق لعيد جميع القدّيسين. وكان «كارول» قد استعدّ لذلك اليوم العظيم بخلوةٍ روحيّةٍ كاملةٍ، دامت أسبوعًا.

تمّت تلك الرسامة، استثنائيًّا، في مصلّى رئيس الأساقفة الخاصّ، وارتدت طابعًا حميمًا، عبّر عن تقدير الكردينال رئيس الأساقفة للكاهن الجديد، وقد اقتصر الحضور على حفنةٍ من الأصدقاء، غاب عنهم مرشد «كارول» الروحيّ «يان تيرانوڤسكي»، الذي كان طريح الفراش يصارع سرطانًا منتشرًا.

في مطلع القدّاس، تمدّد الكاهن العتيد على الحضيض، باسطًا ذراعيه على شكل صليبٍ، معبّرًا عن التزامه، منذ تلك اللحظة، بأن يكون عبدًا للمعلّم الإلهيّ، بلا تحفّظٍ، وعن خضوعه التامّ للآب، واعتماده عليه، وعن التماسه أزر الروح القدس، ودعاء المؤمنين من أجل تقديس نفسه. وكان لذلك الوضع ولرموزه من الأثر في نفسه، ما جعله يتبنّاه، خفيةً، مرّاتٍ عديدةً، في صلواته الفرديّة، بمنأًى عن الأبصار. وقد عبّر، لاحقًا، عن عمق تأثّره هذا، من خلال إحدى قصائده.

وعندما أزفت الساعة الحاسمة، وضع الكردينال، والكهنة الحاضرون، أيديهم عليه، وباركوا الحلّة الكهنوتيّة التي سيرتديها، ثمّ باركوا اليدين اللتين ستكرّسان وتقدّمان جسد الربّ ودمه المقدّسين، وتغفران الخطايا، وتواسيان المرضى، وتعمّدان الأطفال، وتداعبان الأولاد الصغار، وتدوّنان نصوصًا رائعةً زاخرةً بالتعليم والتبشير.

وقد وجّه له الأسقف كلمةً حافلةً بالمودّة والتقدير، ودعاه إلى أن يكون، دائمًا، «كاملاً في إيمانه وسيرته، صلبًا في ممارسة حبّ الله ومحبّة القريب».

ومن المحقّق أنّ الكاهن الجديد التزم بهذه الوصيّة، طيلة حياته. ولكن هل خطر للأسقف أنّه كان يمنح سرّ الكهنوت لمن سيصبح رأسًا للكنيسة الجامعة، بل واحدًا من ألمع أحبارها، ومن أسماهم قداسةً؟

في ذلك اليوم، كرّس الكاهن الجديد كهنوته لأمّ الله، وأمّ الكهنة، ومنذئذٍ، أعلن لها، سرًّا: «**إنّي بكلّيّتي لكِ**» (Totus Tuus).

وأبى الأب «كارول» مغادرة وطنه، قبل أن يقيم قدّاسًا في كنيسة مسقط رأسه، حيث ألقى الأب «زاخر» عظةً هنّأه بها، على نيل سرّ الكهنوت، وقُيِّض له، في ما بعد، أن يلقي ثلاث عظاتٍ أُخرى، مهنّئًا، على التوالي، بترقيته إلى الأسقفيّة، فإلى رئاسة الأسقفيّة، فإلى الكردِيناليّة. وقد حرص، يومئذٍ، على أن يدوّن، على صفحة سجلّ الكنيسة التي تحمل واقعة معموديّته، واقعة سيامته الكهنوتيّة.

عام ١٩٨٠، وكان قد أضحى البابا يوحنّا بولس الثاني، صرّح: «أنا، منذ سنتين، بابا، ومنذ عشرين سنةً أسقفٌ، غير أنّ الأهمّ شأنًا ما زال كوني كاهنًا». هذا التصريح ينير مفهومه العميق للكهنوت، وللمنزلة السامية التي يحتلّها في نفسه. ولقد حرص، دائمًا، على التأكيد أنّه، جوهريًّا، وقبل كلّ شيءٍ، كاهنٌ، وعلى عيش الكهنوت بكلّ أبعاده، عمقًا واتّساعًا.

منذ البدء، أبى أن يكون أيّ كاهنٍ، فوهب الكهنوت كلّ ذاته، يحدوه رجاءٌ عظيمٌ، ويهتدي بمبدأين رئيسيْن لا يحيد عنهما: الطاعة والتقوى، اللذين تنبثق عنهما كلّ الفضائل الأُخرى. فالتزم بإطاعة رؤسائه، ونفّذ أوامرهم ورغباتهم، ورأى فيهم رعاةً يقودونه إلى الغاية الأمينة المنشودة. وكان معجونًا بالصلاة عجنًا. فربّما أُخذ عليه، أحيانًا تلكّؤه عن المواعيد. ولكنّه لم يتلكّأ، قطّ، عن موعده مع الله، لأنّه كان، دائمًا، معه، في الصلاة.

كان الكهنوت له اقتفاء خطى المسيح، خدمةً للنفوس. ولم يعدّ، يومًا، مواهبه الفكريّة امتيازًا، بل أداةً لخدمة رسالته. ولم يكن قطّ، مجرّد فكرةٍ حيّةٍ، أو صاحب إيديولوجيا، بل حرص، دائمًا، أن يكون كاهنًا فحسب، يتجلّى يسوع

من خلاله. ولم ينفصل، يومًا، عن الواقع، بل كان، دائمًا، رجل ميدانٍ، واتّصالٍ، وتوازنٍ.

ولم يكن له الكهنوت غايةً قصوى يتوقّف عندها، بل كان منطلقًا إلى الأبعد والأسمى. وامتثالاً لرغبة رؤسائه، قصد روما، حيث اكتشف الكنيسة والعالم الرحب.

في روما

كان قد انقضى أسبوعان على سيامته الكهنوتيّة، عندما استقلّ قطارًا، قاصدًا روما، برفقة كاهنٍ آخر. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يغادر، فيها، حدود وطنه. وقد تسنّى له أن يرقب، من نافذة القطار، أماكن لم يكن يعرفها إلاّ على الخريطة: هنغاريا، وألمانيا، وستراسبورغ... وعقب محطّة استراحةٍ في الإكليريكيّة البولونيّة بباريس، استأنف رحلته إلى روما. وفي يوم الأحد الأوّل الذي عقب وصوله إلى العاصمة الإيطاليّة، سنحت له فرصة حضور قدّاسٍ احتفل، في أثنائه، البابا بيّوس الثاني عشر بتطويب أحد مختاري الله.

كان الكردينال «ساپييها» قد دبّر له الإقامة في المعهد الحبريّ البلجيكيّ، الذي كان يؤوي اثنين وعشرين طالبًا لاهوتيًّا، قادمين من شتّى أرجاء المسكونة، ما جعل منه مختبرًا لغويًّا حيًّا، تمكّن فيه الكاهن الجديد من اللغات الأوروپّيّة الرئيسة. وفضلاً عن ذلك، كان ذلك المعهد، موئلاً لنقاشاتٍ لاهوتيّةٍ مستمرّةٍ، وتربةً خصبةً للمبادرات الراعويّة الخلاّقة. وكان جوّ الصداقة الخالصة الذي يسوده، يُنسي النزلاء صعوبات الحياة اليوميّة، الناجمة عن مخلّفات الحرب ومآسيها. وقد أشاد زملاء الأب «كارول» ببساطته، وتواضعه، ومواهبه الخارقة. أمّا هو، فلم ينسلخ، يومًا، عن جذوره، بل ظلّ يطالع الإنجيل، كلّ يومٍ باللغة البولونيّة.

ومنذ ١٩٤٦/١١/٢٦ انتسب إلى الكلّيّة الدومينيكيّة المسمّاة «أنجيليكُم» (Angelicum)، تيمّنًا باللاهوتيّ «الملائكيّ»، توما الأكوينيّ، تحت إشراف لاهوتيّين

مرموقين، منهم «ريجينالد غارّيغو لاغرانج» (Réginald Garrigou Lagrange). واختار الأب «ڤويتيووا»، موضوعًا لأطروحته، «معضلة الإيمان لدى القدّيس يوحنّا الصليب». موضوعٌ استصعبه حتّى أستاذه المشرف على الأطروحة، الكردينال العتيد «پيير پول فيليپ (Pierre-Paul Philippe). فالصوفيّ الإسبانيّ القدّيس لم يتناول، مباشرةً، دراسة الإيمان في مؤلّفاته، ولم يكن، قطّ، منظّرًا، بل سعى إلى اقتياد قرّائه، عبر تطهير الإيمان، إلى أرفع مستويات التأمّل. ولكنّ الأب «ڤويتيووا» حرص على استنباط مقوّمات الإيمان، من خلال استقراء كتابات القدّيس يوحنّا الصليب، رغم صعوبة الموضوع. وفي سبيلِ التعمّق في دراسة تلك الكتابات، أكبّ على التمكّن من اللغة الإسبانيّة، فضلاً عن اللغة اللاتينيّة التي كان يُدرَّس بها اللاهوت، وبها ينبغي كتابة الأطروحات.

هذه الدراسة اقتضت شهورًا طويلةً من البحث الشاقّ، إلى أن رأت الأطروحة النور، وقُدِّمت في ١٩٤٨/٦/١٤. وقد زخر تقييم الأستاذ «فيليپ لها بالثناء، وجاء في تعليقه عليها:

«لم يغفلِ الأب «كارول ڤويتيووا» أيّ نصٍّ ذي بالٍ، وجاء تحليله، دائمًا، صائبًا وعميقًا. هذا العمل الذي أنتجه كاهنٌ حديثٌ شابٌّ، ينمّ عن ذكاءٍ فذٍّ، وإحساسٍ حادٍّ بما وراء الطبيعة وباللاهوت، إحساسٍ يقوده مباشرةً إلى الجوهريّ. ولكن، من خلال تحليل الباحث تنبض نفسٌ، ويتجلّى إحساسٌ مرهفٌ بالوقائع الروحيّة، وتواصلٌ مع المعلّم الصوفيّ، هو الذي حدا الطالب إلى اختيار هذا الموضوع مادّةً لأطروحة الدكتورا».

وقد أوجز الأب «ڤويتيووا» خلاصة أطروحته بتأكيده أنّه يتعذّر على البشر معرفة الآخرين معرفةً حقّةً، إلاّ من خلال نظرتهم إليهم بصفتهم أفرادًا مدعوّين إلى التواصل مع الله. فالله عاملٌ أساسيٌّ لفهم الشخص البشريّ، وكلّ من يحرم البشر الله، يحرمهم أعمق وأثمن ما فيهم، وجوهر إنسانيّتهم. هذه القناعة هي التي دفعت «كارول ڤويتيووا»، كاهنًا، فأسقفًا، فحبرًا أعظم، إلى مصارعة الشيوعيّة، مدى أربعين عامًا، في سبيل الحفاظ على روح پولونيا، ووقايته.

وجديرٌ بالتنويه أنّ اللاهوتيّ الشهير «غاريغو لاغرانج»، كان أحد أعضاء اللجنة التي ناقشت أطروحة الأب «ڤويتيووا»، التي نال عليها علامة ١٨/٢٠، ونال في مناقشتها **٥٠/٥٠**. ولكنّ شهادة الدكتورا لم تكن تُمنح إلاّ بعد نشر الأطروحة مطبوعةً، والأب «ڤويتيووا» لم يكن يملك المال اللازم لطباعة أطروحته، فاضطرّ إلى مناقشتها، ثانيةً، في جامعة «ياجلّون»، عقب عودته إلى پولونيا، كي يحصل على شهادة الدكتورا، في نهاية عام **١٩٤٨**.

حتّئذٍ، لم يكن الأب «كارول» ملمًّا إلاّ بالرئة الشرقيّة من الكنيسة، وكان لا بدّ له من الاطّلاع على «رئتها الغربيّة»، كي يكوّن رأيًا شاملاً عن الكنيسة. وبتشجيعٍ من الكردينال «ساپييها»، رئيس أساقفة كراكوڤيا، قام، أوّلاً، بالتعرّف على معالم روما، بدءًا بآثارها الدينيّة. ثمّ، بمناسبة عيد الفصح، عام **١٩٤٧**، زار رعيّة الأب القدّيس «پيو»، واعترف بين يديه، وتأثّر به تأثّرًا بالغًا، وسيؤول إليه شرف تطويبه قدّيسًا، بعد أن أمسى حبرًا أعظم. ثمّ زار الأمكنة التي كانت مهدًا لجمعيّاتٍ ورهبانيّاتٍ كاثوليكيّةٍ كبرى: الفرنسيسكانيّة، والبينيدكتيّة، والدومينيكيّة.

وفي مقرّ إقامته في المعهد البلجيكيّ، تسنّت له مناسباتٌ عديدةٌ للقاء كاهنٍ بلجيكيٍّ، يُدعى «جوزيف كاردين» (Joseph Cardjin)، كان قد أسّس عام **١٩٢٤** جماعة «الشبيبة المسيحيّة العاملة»، وطالما شدّد، في أحاديثه مع الإكليريكيّين، على أهمّيّة رسالة العلمانيّين في الكنيسة. وكان الأب «كارول»، بصفته عاملاً سابقًا، مؤهّلاً، أكثر من سواه، لإدراك عظمة شأن رسالةٍ علمانيّةٍ قادرةٍ، تحت إشراف الإكليروس، على إعادة تبشير المجتمع. وكانت خبرته الغنيّة مع «يان تيرانوڤسكي»، قد دفعته في هذا المنحى، ورسّخت لديه القناعة بواجب التضامن بين العلمانيّ العامل والكاهن، ولا سيّما أنّه خَبَر، شخصيًّا، وعلى التوالي، الوضعَيْن كِلَيْهما، وأمسى القاسم المشترك بينهما، وصلة الجمع الحيّة بين هذين العالمين: الكنيسة والمجتمع العلمانيّ، اللذين سيسعى، لاحقًا، إلى تمتين الصلات بينهما.

ثمّ، بإيعازٍ وتشجيعٍ من الكردينال «ساپييها»، انتهز فرصة العطلة الصيفيّة، كي يجول في عدّة بلدانٍ أوروپيّة، بغية الاطّلاع على الأساليب الراعويّة المتّبعة فيها. وكان مقصده الأوّل فرنسا، حيث كان للكتاب الذي وضعه، عام **١٩٤٣**، الكاهنان العاملان «هنري غودان» (Henri Godin) و«إيڤان دانييل» (Yvan Daniel)، بعنوان «فرنسا، موطنٌ للتبشير؟» (La France, Pays de Mission?) أصداءٌ مدوّيةٌ. فزار مرسيليا وباريس، واستقرى أساليب التبشير الجديدة، في الأوساط العمّاليّة، وألمّ بخبرات «الكهنة العمّال».

في فرنسا، وهولندا، وبلجيكا، أُخِذ بروعة الكاتدرائيَّات، غوطيّة الطراز، التي شيّدها إيمان الأجداد، لتمجيد الربّ. وفي بلجيكا سعد بقضاء نحو شهرين مع عمّال پولونيّين. وكان لهذه الخبرة التي ذكّرته بمقاسمته عمّال كراكوڤيا وأُسَرهم، حياتهم الشاقّة، نكهةٌ مميّزةٌ، إذ إنّه كان يخوضها، آنذاك، بصفته كاهنًا. هذه الخبرة، على قصرها، كانت تُعدّه للقاءاتٍ عديدةٍ مع عمّال العالم، وللذود عن قضاياهم وحقوقهم لدى الحكومات المحلّيّة، ومن فوق منابر دوليّةٍ.

وفي طريق عودته إلى روما، سنحت له فرصةٌ ثمينةٌ، إذ توقّف في قرية «أرس»، وزار المواقع التي قدّسها «خوريها» الشهير، شفيع الكهنة. وقد أوكل كهنوته إلى شفاعته، ووطّن العزم على التمثّل بفضائله الكهنوتيّة، وعلى أن يكون كاهنًا قدّيسًا لخدمة الله والقريب، في جهوزيّةٍ دائمةٍ لمزاولة سرّ المصالحة.

وبالإجمال أسفرت له تلك الزيارات المتعدّدة عن واقعٍ محزنٍ، واقع إقفار حياة المسيحيّين الأوروپّيين من الروح المسيحيّ الصحيح، وأكّدت له واجبًا لازبًا، واجب إعادة تذكير المسيحيّين بمقتضيات الإنجيل. ومع ذلك رفدته تلك الرحلة الصيفيّة بحصادٍ وفيرٍ، وتجلّت، خلالها، مواكبة العناية له، في كلّ خطوةٍ، إعدادًا لمهمّةٍ خطيرةٍ.

وعاد إلى وطنه حاملاً النجاح، وشهرةً لم يسعَ إليها، ومخزون خبراتٍ أثبتت، لاحقًا، عظمة جدواها.

الراعي

سعد الأب «ڤويتيووا» بالعودة إلى «كراكوڤيا» في شهر تمّوز ١٩٤٨، بعد غيابٍ عنها دام سنتين، وبادر إلى الاستفسار عن أحوال مواطنيه وأخبارهم، ولا سيّما مرشده الروحيّ «يان تيرانوڤسكي»، الذي كان قد أمسى في ديار الحقّ. ولكم حزن لعدم تمكّنه من مؤاساة أيّام مرضه الأخيرة، ولا من المشاركة في مأتمه!

كان رئيس الأساقفة، حينئذٍ، غائبًا في زيارةٍ إلى روما، ولكنّه كان قد أودع، في دار الأسقفيّة، أمرًا بتعيينه في مهمّته الراعويّة الأولى، معاون كاهنٍ في أبرشيّة «نيغوڤيتش» (Niegovic)، التائهة، التي تبعد نحو أربعين كيلومترًا عن «كراكوڤيا»، والتي تشمل خمس قرًى يقطنها نحو خمسة آلاف نسمةٍ. هذا التعيين لكاهنٍ مثقّفٍ، حاصلٍ على دكتورا في اللاهوت، في منطقةٍ ريفيّةٍ شبه مغفلةٍ، أدهش الكثيرين، ولكنّه لم يُدهش الأب «كارول» الواثق بمحبّة الكردينال رئيس الأساقفة، وبحنكته. وفي الواقع، كان رئيس الأساقفة، قد رمى إلى تمرّس الكاهن الجديد بالرعاية الفعليّة، في أصعب الظروف، وأكثرها التصاقًا بالواقع، وفي بيئةٍ قرويّةٍ، تختلف، اختلافًا كلّيًّا، عن البيئة الجامعيّة، ولكي تكون له هذه الخبرة معموديّة النار والصحراء، التي تؤهّله لمواجهة كلّ الظروف، ولمعرفة جميع طبقات الشعب من الداخل، معرفةً ميدانيّةً، مستفيدًا من خبرة كاهن الأبرشيّة الشيخ الورع، الذي أنفق عمره في خدمتها، وفي مواجهة كلّ معضلاتها. وقد ابتغى رئيس الأساقفة، أيضًا، دعم صحّة الكاهن الجديد الذي كانت الدراسة الجامعيّة الجادّة قد أوهنت قواه البدنيّة.

هذا، فضلاً عن قرب المسافة بين الرعيّة وكراكوڤيا، ما كان يتيح للأب «ڤويتيووا» متابعة أبحاثه الجامعيّة، وإكمال تحصيله، والحصول على الشهادات العليا التي كان رئيس الأساقفة راغبًا في أن يحصل عليها الأب «كارول».

باشر الأب «ڤويتيووا» عمله الراعويّ، وقد بلغ الثامنة والعشرين من العمر، في ظروفٍ لم تعرف لها البلاد مثيلاً، قطّ. فالكنيسة لم تكن، فقط، عرضةً

لازدراء ستالين الذي تساءل، ساخرًا، عن عدد كتائب البابا، بل كانت هدف مخطّطه الشيطانيّ الرامي إلى استبدال الثقافة البولونيّة المسيحيّة العريقة، بثقافةٍ إلحاديّةٍ، وإلى فرض تفسيرٍ جديدٍ لتاريخ پولونيا، حيث لا علاقة للفكرة الوطنيّة بالإيمان الكاثوليكيّ، بعد أن جرّدت الحربُ الكنيسةَ من معظم زعمائها.

إضافةً إلى ذلك، كان الخراب سائدًا في البلاد، والفوضى عامّةً. وكان على الپولونيّين إعادة بناء وطنهم، انطلاقًا من الصفر، ومواجهة المشاكل الناجمة عن تهجيرٍ داخليٍّ كثيفٍ. وكان الحكم الشيوعيّ قد نظّم انتخاباتٍ على الطريقة الستالينيّة، بغية إثبات شعبيّته المزعومة الزائفة.

كان كلّ مواطن پولونيٍّ يخشى زائر الفجر، الذي قد ينتزعه من فراشه إلى حيث لن يعود، وكانت السجون غاصّةً، والتعذيب ممارسةً مألوفةً، ورجال الأمن يشيعون الرعب في النفوس، والسيّد الأعظم ليس يسوع ولا بوذا ولا أيّ داعٍ إلى دينٍ معروفٍ، بل جيورجيٌّ ابن إسكافيٍّ، مصابٌ بجنون العظمة، وأهمّ إنجازاته إعدامه ملايين الأبرياء. تلك كانت البيئة التي باشر فيها الأب «كارول ڤويتيووا» عمله الراعويّ.

غير أنّ المسؤولين الكنسيّين كانوا راسخي القناعة، بأنّ مواجهة ذلك الوضع العصيب لا تتحقّق، إلاّ بإنعاش الحياة الروحيّة في الأمّة كلّها. وكانت الكنيسة قويّةً بتاريخٍ عمره ألف عامٍ من النضال الروحيّ والوطنيّ، فلم تخشَ أنظمةً ناشئةً لا مستقبلَ لها، لا بل كانت واثقةً أنّ صمودها في وجه من يجهدون في القضاء عليها كفيلٌ بإكسابها قوّةً ومنعةً، ولا سيّما أنّ ما بذلته من تضحياتٍ، وما برهنت عليه من بطولاتٍ، في أثناء الاحتلال النازيّ، قد أكسبها مصداقيّةً راسخةً. وكانت محاولات ستالين قد أفضت إلى ولادة پولونيا، الأخلص پولونيّةً، والأنقى كاثوليكيّةً، في تاريخها. وقد أدرك قادتها، منذ مطلع الاحتلال السوڤييتيّ، أنّ بقاء الكنيسة مرهونٌ بصمودها ومقاومتها. وفي هذا السبيل كان على الإكليروس أن يلتزم بالقداسة، وأن يعقد مع الرعيّة علاقاتٍ وثيقةً، ويكون لها القدوة.

استقلّ، إذن، الأب «ڤويتيووا» حافلةً اجتازت به بضع كيلومتراتٍ، ثمّ امتطى عربةً دعاه سائقها إلى النزول عند مدخل القرية، وأرشده إلى متابعة طريقه سيرًا على الأقدام، من خلال سنابل القمح التي كان بعضها قد حُصد، وبعضها ما زال يتمايل مع النسيم.

ومنذ اللحظة الأولى اكتشف أبناء تلك المنطقة، في خوريهم الجديد، نمطًا من الكهنوت لم يعهدوه. وقد روى أحد القرويّين كان قد شاهده يدخل القرية سيرًا على الأقدام: «... كان يرتدي صايةً وأحذيةً عتيقةً خَلِقةً، ومحفظةً أخجل أنا أن أمضي بها إلى السوق. واستفسر عن أقرب دربٍ يوصله إلى «نيغوڤيتش». اتّضح لي أنّه غريبٌ، فاستوضحته عن سبب مجيئه، وأجابني أنّه قادمٌ لخدمة الأبرشيّة. ركع أمام مصلًّى صغيرٍ في الطريق، ثمّ نهض ومضى في الوجهة التي دللته إليها».

وعندما انتهى إلى مقرّ الرعيّة، ركع وقبّل الأرض تمثّلاً بخوري «أرس»، الذي استوحى منه روحانيّته، ومعظم مبادراته وتفاصيل سلوكه. ثمّ تخشّع أمام القربان المقدّس في الكنيسة، قبل أن يقدّم نفسه لكاهن الرعيّة، الذي استقبله استقبالاً ودّيًّا، وقدّم له مسكنه الجديد الزريّ المفتقر إلى الماء والكهرباء، وبيّن له حدود رعيّته وما تشمله من قرًى، والمهمّات المطلوبة منه.

كان وضع القرية زريًّا إلى أبعد ما يمكن تخيّله. فلا ماء جارٍ، ولا كهرباء، ولا مجارير، وكان فيضانٌ حديثٌ قد دمّر الطرقات، وقضى على المزروعات. وكانت الأبقار والدواجن تتنزّه، بحرّيّةٍ، بين أشجار الزيزفون. كان كلّ شيءٍ يبدو شاقًّا، ولكنّ ذلك لم ينل من عزيمة الكاهن الجديد، التوّاق إلى مباشرة رسالةٍ راعويّةٍ حقّةٍ تلبّي أمانيه.

ذلك «الكاهن المثقّف»، كما دعوه، كان، باستمرارٍ، ينشد المطلق، حريصًا على توظيف كلّ مؤهّلاته الفكريّة في الخدمة الراعويّة، وكان ذلك أحد عوامل نجاحه. وقد اغتنت كلّ الفئات من رعايته، وهو اكتسب محبّة الجميع الذين أكبروا ورعه وعطفه، وحدبه على الفقراء، وعنايته بالشبيبة.

ذلك الدكتور في اللاهوت، الذي لبّى دعوة الكهنوت متأخّرًا، كان قد خَبَر صعوبات حياة عامّة الناس، وورث عن أبيه حبّه الجمّ لوطنه، متحرّرًا من كلّ كرهٍ للغريب، وكان يعي علاقات پولونيا الثقافيّة والفكريّة المميّزة مع الكنيسة الجامعة، ويثق بقدرة وطنه على إفادة الغرب الذي خان پولونيا، مرّتين، في غضون ستّ سنواتٍ. كان شاهدًا على محنة معاصريه، الذين قاسوا الإذلال على يد عملاء الشرّ، ولكنّه اكتشف دربًا يتخطّى الإذلال والمرارة. وهذا الدرب أفضى به إلى الهيكل، حيث كرّس نفسه لخدمة شعبه.

كان قد أُعطي نعمة الحبّ، وبات عليه أن يختبر هذا الحبّ المقترن بما اكتنز من علمٍ، في حياته اليوميّة، حياة كاهنِ رعيّةٍ فقيرةٍ ترزح تحت نير الحكم الشيوعيّ.

كان عازمًا على أن يكون رسولاً حيثما وضعه الربّ. وكان راسخ الإيمان بأنّه لن يكون خادمًا للبشر، ما لم يكن بأكمله لله. وقد أقعد رسالته على أُسُس الإفخارستيّا والصلاة. كان يتأهّب، متمهّلاً، للقدّاس، وفي أعقابه، كان يستغرق في الشكر، والعبادة الخاشعة. وكان يستمدّ من السجود للقربان المقدّس كلّ الطاقات اللازمة لمواجهة احتياجاته الراعويّة؛ وقد اتّضح له أنّ الراعي، بمنأًى عن حياةٍ روحيّةٍ كثيفةٍ، يضلّ طريقه، ويتحوّل إلى مجرّد مدير مكتبٍ إداريٍّ، يسعى إلى «تدبير الأمور»، بالحُسنى. وقد دأب، دائمًا، على تأمّل صلوات «السواعية» اليوميّة، ولم تكن المسبحة تبارح يده، ولم يتخلّف، مرّةً، عن ممارسة «درب الصليب» بخشوعٍ لافتٍ. كان يحيا على الأرض وروحه مشدودٌ إلى السماء، ولم يغب الله، ثانيةً واحدةً، عن حياته.

ومنذ اللحظة الأولى، أدهش الجميع بفقره وتجرّده المطلق. لقد جاء إلى رعيّته لا يحمل سوى الزهيد الزهيد الذي لا غنى عنه. جاء أفقر من «خوري أرس»، وكان بكلّيّته لله، وبكلّيّته للآخرين. فقره، وصلاته، وغيرته الرسوليّة، كانت ثمرة تكريسه، واستسلامه ليسوع، مثله الأسمى. لم يكن يملك شيئًا، ويتصدّق بما يجود به عليه عطف المؤمنين.

متقشّفٌ في ملبسه، وفي سكنه حيث يكتفي بأربعة جدرانٍ، وبمنضدةٍ للقراءة والكتابة، وبضعة كتبٍ مستعارةٍ. ولا يتوانى عن التصدّق بكلّ ما لا يعدّه ضروريًّا لبقائه. وكلّما توفّرت لديه دُرَيْهماتٌ، كان يبتاع بها خبزًا وحلوى للأطفال الذين يلقّنهم مبادئ التعليم المسيحيّ. وقد جاءته، يومًا، امرأةٌ شاكيةٌ سرقة محتويات بيتها، فتخلّى لها عن اللحاف والوسادة اللذين أهداه إيّاهما أبناء الرعيّة. ربّما لم يرُقْ ذلك لمن أهدوه إيّاهما. ولكنّه، هو، رقد على الحضيض قرير العين، بلا وسادةٍ ولا غطاءٍ.

كان يتنقّل بين القرى، سيرًا على قدميه، أو في عرباتٍ، ويستعير درّاجةً هوائيّةً للشخوص إلى كراكوڤيا. وبدافع حرصه على ترسيخ المبادئ المسيحيّة في أذهان الصغار ونفوسهم، لم يكن يكلّ من التنقّل بين قرى رعيّته الخمس، غائصًا في الوحل، أو في الثلج، بصايته السوداء، ومعطفه الخَلِق اللذين كان يحوّلهما الجليد إلى لوحتين قاسيتين متجمّدتين تلفحان ساقيه، وتسوطانهما، مع كلّ خطوةٍ.

وكان يقبع، بعد الظهر، في حجرته المجرّدة، جاهزًا لتلبية كلّ طلبٍ، وللردّ على كلّ سؤالٍ، فيهرع إلى عيادة المرضى والمحتضرين، مواسيًا، مزوّدًا بالأسرار، وكلّما تسنّت له دقائق فراغٍ، يكبّ على كتاب صلواته، أو على كتب اللاهوت.

كان، في أيّام السبت، يكلّل العرسان الجدُد، وفي أيّام الأحد، بعد القدّاس، يعمّد المواليد. ولم ينسلخ عن هذه العادات، ولو على نطاقٍ محدودٍ، بعد أن تسنّم السدّة البابويّة.

ومنذئذٍ تجلّى كَلَفه بتثقيف الصغار والشباب، وزرع حبّ الله في نفوسهم الفتيّة. وعقد معهم علاقات محبّةٍ خالصةٍ، فكانوا دائمي التوق إلى لقائه والتحدّث معه، ولا ريب أنّ اهتمامه بالشباب، الذي تنامى على امتداد مسيرته، قد آتى الكنيسة ثمارًا يانعةً وفيرةً.

لم يعامل القرويّين كمتخلّفين أو جهلةٍ، بل أنشأ لهم ناديًا، ومسرحًا، واشترك معهم في أداء أدوارٍ مسرحيّةٍ. واعتاد إلقاء محاضرات على الشبّان المقدمين على

الخطبة والزواج. كما أنّه، إحياءً لذكرى «يان تيرانوڤسكي»، أنشأ مجموعة «ورديّةٍ حيّةٍ»، ودرّب أفرادًا من الرعيّة على تفعيلها.

ودأب على إيقاظ البالغين على أفكارٍ جديدةٍ، وعلى مبادراتٍ خلاّقةٍ. ففي صيف عام **١٩٤٩**، كان كاهن الرعيّة الأصيل الشيخ، يحتفل بيوبيل كهنوته الذهبيّ، وحار المؤمنون، في ما يهدونه. فارتأى الأب «ڤويتيووا» أنّ أكثر ما يثلج قلب الكاهن هو بناء كنيسةٍ جديدةٍ من إسمنتٍ وحجرٍ، تقوم مقام الكنيسة الخشبيّة العتيقة المتداعية. ولاقى اقتراحه ترحيبًا متحمّسًا، وبدأ البناء، يوم يوبيل الكاهن. وهكذا أثبت الأب «ڤويتيووا» موهبة إطلاق القرارات الجريئة الخلاّقة، التي تؤول إلى خدمة الكنيسة.

هذه الأنشطة لفتت عيون الشيوعيّين، ولكنّ الأب «ڤويتيووا»، كان محصّنًا ضدّ الخوف، وداعيًا دائمًا إلى انتباذه.

ولا ريب أنّ تلك المنجزات الرائعة، في رعيّةٍ ريفيّةٍ، كانت موضع تقدير رئيس الأساقفة، الذي كان يتطلّع إلى إسناد مهمّاتٍ أُخرى إلى الأب «ڤويتيووا»، ورغب في أن يكون قريبًا منه، كي يفيد الكنيسة من مؤهّلات ذلك الكاهن الشابّ القدّيس الموهوب، الذي يُبدع في كلّ ميدانٍ يكلّف به. فأوكل إليه،عام **١٩٤٩**، رعيّة القدّيس «فلوريان»، وهي من أعظم رعايا «كراكوڤيا» شأنًا، وأسند إليه مهمّة إرشاد الشبيبة، والاهتمام بالشؤون الصحّيّة، فيها. وقد أطلق الأب «كارول ڤويتيووا»، في هذه الرعيّة، أسلوبًا راعويًّا جديدًا، ونسج علاقات صداقةٍ، استمرّت أكثر من نصف قرنٍ.

المرشد الجامعيّ

كنيسة القدّيس «فلوريان» تقع على مسافة خمس دقائق، سيرًا على الأقدام، من وسط «كراكوڤيا» القديمة. وكانت رعيّتها من أكثر الرعايا ديناميّةً، تضمّ طائفةً من أوفر الأُسَر ثروةً، وأغزرها علمًا. وكانت كراكوڤيا عاصمة الفكر في «پولونيا»، ومستودع إرثٍ دينيٍّ وثقافيٍّ ثمينٍ. وفضلاً عن ذلك، كانت «موطن

كارول ڤويتيووا الفكريّ»، ففيها تعلّم، وعلّم، وعقد أمتن الصداقات وأثمنها.

جاءها الأب «ڤويتيووا»، في حقبةٍ كان الحكم الشيوعيّ يكثّف فيها ضغوطه على الكنيسة، ويشدّد رقابته عليها. ففي عام ١٩٥٠ اعتبر المدارس وسائر المنظّمات الكاثوليكيّة، غير شرعيّةٍ، وصادر مئات المؤسّسات التربويّة والجمعيّات الخيريّة.

في شهر نيسان ١٩٥٠، أبرمت الكنيسة مع الحكم اتّفاقًا، جهدت من خلاله في صَوْن ما استطاعت من حقوقها، لقاء تعهّدها بردع المؤمنين عن النشاطات المناوئة «للجمهوريّة الشعبيّة البولونيّة». وقد بذل رئيس الأساقفة جهودًا كبرى لدعم إرشاد الطلاّب الجامعيّين روحيًّا، وأسند للأب «ڤويتيووا» مهامّ مبتكرةً، في هذا الميدان؛ ومع أنّ هذه المهامّ كانت تقتضي منه العمل بين ستّ عشرة وثماني عشرة ساعةً في اليوم، قَبِل التحدّي. وسرعان ما اجتذب أعدادًا غفيرةً من المؤمنين، الذين ارتاحوا لموقفه المتباين عن خنوع بعض الأساتذة الخاضعين، وعصيان آخرين مقاومين. وقد أفلح، خلال اضطلاعه بهذه المهمّة، في إحداث سلسلةٍ من التجديدات في ميادين الفكر، والطقوس الدينيّة، والخدمة الراعويّة، والثقافيّة، أدّت إلى تغيير نمط الإرشاد الروحيّ الطلاّبيّ. وفي الآن عينه، كان حريصًا على تفشيل جميع جهود الستالينيّين، الرامية إلى إعادة صوغ التاريخ والثقافة البولونيَّيْن. وفي هذا السبيل أقام علاقاتٍ مباشرةً ووثيقةً مع الطلاّب الذين سرّب إلى نفوسهم القناعة الوطيدة بوجود اللّه، والطابع الروحيّ الصميم الذي يتميّز به الكائن البشريّ. ومساء كلّ خميسٍ، كان يلقي محاضراتٍ ترسّخ هذه القناعات، ويفسّر لهم، مرحلةً فمرحلةً، العقيدة المسيحيّة، مؤكّدًا أنّ تعاليم الإنجيل كفيلةٌ بالإجابة على التساؤلات البشريّة الأساسيّة، إجابةً أوفر إقناعًا وجدوى من الإجابات الماركسيّة التي أثبتت زيفها وفشلها. وكانت نصوص هذه المحاضرات المصاغة بأسلوبٍ ممعنٍ في الكثافة، تُطبَع وتوزّع خلسةً. وسرعان ما لفتت مواعظ الأب «ڤويتيووا»، انتباه الطلاّب واهتمام المفكّرين. ولم يكن الأب يتوانى عن العمل بنصائح بعض أبناء رعيّته، فانتهج أسلوب كتابةٍ أوفر بساطةً، إرضاءً لمن كانوا يجدون أسلوبه وعرًا، عسير الفهم، كما عمد إلى المواجهة والتحدّي، والتشكيك بأساليب الحكم، بتعابير أشدّ حزمًا.

في تلك الفترة، شرع ينشر مقالاتٍ في صحيفةٍ كراكوفيّةٍ تدعى «اليوميّة الشاملة». ولكنّه، بفضل تمرّسه بالحياة الروحيّة، لم يقع في تجربة النشاط السياسيّ والاجتماعيّ، الذي ينأى ببعض الكهنة عن رسالتهم الأساسيّة.

وكان راسخ الإيمان بأنّ الشباب هم خميرة الكنيسة والمجتمع المسيحيّ الحقّ. فوطّن العزم على مواكبتهم عن كثبٍ. وإمعانًا في التأثير فيهم، وتسريب التعاليم المسيحيّة إلى أعماق نفوسهم، كان يستعيض، أحيانًا، عن القاعات المغلقة التي تنضح سأمًا، بمسارح الطبيعة ومناظرها الخلاّبة، ولا سيّما مناظر الجبال التي كان يرى فيها كاتدرائيّاتٍ مشرعةً على السماء، والهواء الطلق، حيث كان يطيب له أن يحدّثهم. ولطالما اقتادهم إلى رحلات تزلّجٍ، وشاركهم مباريات تجذيفٍ في الأنهار.

بينه وبين الشبيبة لم تنهض مسافاتٌ سوى تلك التي يفرضها احترام الكاهن والمرشد. فلا أُلفةٌ مائعةٌ، ولا حاجزٌ صلبٌ، بل شفافيّةٌ، وثقةٌ، وصداقةٌ. كان، هو، يقدّم لهم ديناميّته، ورؤيته الثاقبة للبشر، والأشياء، والمستقبل، ومعارفه، وسداد حكمه، وتفاؤله، وبالإجمال، مخزونه الذي لا ينضب من الحبّ والطيبة. وهم يقدّمون له توقهم إلى اليقين والرجاء، وثقتهم، واندفاعهم، وسخاءهم. كانوا يرون فيه أبًا، ويكتشفون، بتقديرٍ، توازن خصاله ورهافتها، ومنعةً تجعل منه وسيطًا بين الله والبشر.

وكان إعجاب المؤمنين بعظاته وتعاليمه من شدّة الحماس، بحيث التمست منه أُسرٌ من عليّة القوم أن يلقّن أبناءها المبادئ المسيحيّة الحقّة. وكان، أحيانًا، يستجيب لهذا الملتمس، عندما يجد له متّسعًا من الوقت، غير ملتزمٍ بالمواعيد التي تحدَّد له.

وعقد صداقاتٍ مع مفكّرين وعلماء، أَلِف التحاور معهم في شؤون الدين، وكان يشاطر بعضهم رياضات التزلّج والتجديف في الأنهر.

وفي ميدان الطقوس، أنشأ جوقةً لقّنها الألحان الغريغوريّة، كي تحيي بها القداديس الاحتفاليّة. وحثّ المؤمنين على المشاركة في الذبيحة الإلهيّة بتلاوة

طلباتهم الخاصّة، تناوبًا مع الكاهن. وفسّر للمؤمنين معاني القدّاس، عساهم يُسبغون تأثيره على اهتماماتهم اليوميّة.

ولم يتهيّب من استخدام المسرح لغاياتٍ راعويّةٍ. وقد أولى اهتمامًا خاصًّا لحياة الأسرة، التي دأب الحكم الشيوعيّ على تدميرها، لأنّه استشفّ فيها خطرًا عليه، فعمد إلى تحديد ساعات عملٍ لكلٍّ من الزوج والزوجة في مواعيد مختلفةٍ، بحيث لا يلتقيان إلاّ نادرًا، وأسكنهما في شققٍ مفرطةٍ في الضيق، بحيث يستبعدان فكرة الإنجاب، وأتاح الإجهاض وسيلةً للحدّ من النسل، وحدّد للأمّهات العاملات مواعيد عملٍ باكرةً جدًّا، ما كان يضطرّهنّ إلى إيداع أطفالهنّ في دور حضانةٍ تابعةٍ للدولة، تنشّئهم فيها على مبادئها. وعيّن للأولاد مدارس بعيدةً عن محيطهم، كي يبعدهم عن تأثير ذويهم.

وقد جهد الأب «ڤويتيووا» وزملاؤه في مقاومة هذه المرامي الشيوعيّة، باستخدام وسائل متاحةٍ. فجعل اجتماعات أعضاء الجوقة الراعويّة تضمّهم مع ذويهم، بحيث يقضون أطول وقتٍ ممكنٍ معًا، ويتلقّون، معًا، تربيةً مسيحيّةً سليمةً. وفي الآن عينه يفلتون من تهمة التجمّعات الدينيّة المحظورة.

وأطلق الأب، في رعيّته، برنامج إعدادٍ للزواج، يُزوَّد فيه المقدمون على الزواج بإرشاداتٍ تؤهّلهم لعيش زواجٍ مسيحيٍّ. ولم يكن يتردّد في التطرّق إلى مواضيع، يتحاشى عموم الكهنة عن تناولها. وكان ينفق ساعات حوارٍ طويلةً مع المزمعين على الزواج، وغالبًا ما خلّفت هذه الحوارات لديه ولديهم ذكرياتٍ باقياتٍ.

كان يجهد في تأسيس أُسرٍ مثاليّةٍ، ثابتةٍ، أساسها الحبّ والمسؤوليّة. وكان يشبّه الزواج بالرحلات الرياضيّة التي لا تحول مشاقّها دون متعتها. فعلى مصاعب الزواج ألاّ تؤدّي إلى تصدّعه أو تدميره، وألاّ تحجب قداسته وجماله.

وفي التربية انتهج أسلوبه الخاصّ. فبدأ بالإصغاء إلى الشبيبة، ولكنّه لم ينزلق، يومًا، إلى مداهنتهم أو إلى التنازل لهم عن مبادئه. وهم كانوا واثقين من أنّه كان يبيّن لهم النور والحقيقة، ولا يخدعهم، ويقتضي الكثير من ذاته قبل أن يقتضي منهم، بحزمٍ ورقّةٍ. وكانوا يلبّون رغباته لأنّهم يرتضون أن

يتجدّدوا بفضله، ويصبحوا نماذج للمسيحيّ المثاليّ. كان يجهد في تنمية خير ما فيهم وأسماه، ببساطةٍ، ورفقٍ، وبمنأى عن التصنّع والتعالي، متذرّعًا بالانشراح والفرح وسيلةً إلى تكوين شخصيّاتٍ متكاملةٍ، تتفتّح وتنمو، وتفعّل كلّ طاقاتها، وفقًا لمقاصد الله لكلّ فردٍ.

ولم يكن حضوره ونشاطه دينيّين فحسب، بل كانا إنسانيّيْن بالكامل. كان، دائمًا، بمتناول الجميع، يستقبلهم، ويصغي إليهم، ويجيب على تساؤلاتهم، ببساطةٍ وصدقٍ؛ يزورهم في بيوتهم، ويطّلع على واقع حياتهم، ويقتسم هواجسهم وهمومهم، ويصطحبهم إلى المسرح وإلى حفلاتٍ موسيقيّةٍ. وكان هذا التقرّب منهم، المفعم مودّةً ورهافةً، شديد التأثير فيهم. وكان، أحيانًا، يرافقهم إلى أديرةٍ قريبةٍ حيث يمضون أيّام خلوةٍ روحيّةٍ، حافلةٍ بالتأمّل والعبادة. كلّ ذلك بنى، بينه وبينهم، أواصر ثقةٍ، فغدوا يقصدونه للاعتراف، وللبوح بما يثقل ضمائرهم، فأضحى محاصرًا، دائمًا، بالراغبين في التحدّث إليه، وقلّما كان ينعم بفسحة خلوةٍ. ولكنّه مع كونه مرشدًا روحيًّا فريدًا، ظلّ حريصًا على تأمّلاته، وصلواته، التي لم يهملها في حومة مشاغله ونشاطاته.

ومع كرّ الأيّام أصبح خادم الشبيبة ورسولها، وأنشأ جيل يوحنّا بولس الثاني المتميّز. ويذكر أحد الذين تتلمذوا على أسلوبه أنّه كان، قبل كلّ شيءٍ، معرّفًا ممتازًا، ويقول: «... كنت شابًّا، وكان يصغي إليّ، ويصغي، ويصغي. كنّا نتناقش في أمورٍ فلسفيّةٍ، وفي شؤونٍ أُخرى، وكان صبره مذهلاً. لقد ضمّني إلى إحدى حركاته الطلاّبيّة. وكنّا نقوم برحلاتٍ في الجبال، رحلاتٍ شاقّةٍ... برهن، فيها، عن مناعةٍ، وقدرة احتمالٍ مدهشةٍ. كان يحمل، على ظهره، حقائب تزن نحو خمسةٍ وعشرين كيلوغرامًا، قارنًا، دائمًا، المرح بالجدّ. كان يقاسمنا أحاديثنا ونشاطاتنا. وفي المساء، كان ينبّه كلاًّ منّا إلى خصاله وعيوبه. تلك كانت مدرسته، وذاك كان أسلوبه».

وبالإجمال دمغ بصمته في رعيّة القدّيس «فلوريان»، واحتفظ، من خدمتها، بصداقاتٍ تحدّت كرّ الزمن.

«عمّو» المرشد

اتّفق، عشيّة عيد فصح عام ١٩٥٢، أن دُعيت ستّ طالباتٍ يقمنَ في دير راهبات الناصرة من قِبَل رفيقةٍ لهنّ، لقضاء نهار، يتمتّعن فيه بتأمّل حقول زهور الزعفران، في أوّل تفتّحها، على أن يرافقهنّ رفاقٌ لهنّ يعملون معهنّ في كنيسة الرعيّة، وكاهنٌ مرشدٌ. غادرنَ مقرّهنّ، عند الساعة العاشرة ليلاً، ولكنّهنّ فوجئن، لدى وصولهنّ إلى محطّة القطار، بغياب رفاقهنّ الشباب. ولكن كان، هناك، رجلٌ يتدثّر ثيابًا مدنيّةً عتيقةً، أخبرهنّ أنّه المرشد. ووقعت الفتيات في حيرةٍ، فسفرهنّ برفقة رجلٍ بزيٍّ مدنيٍّ، كان كفيلاً باستثارة الانتباه والأقاويل. ولكن، بالمقابل، كان يتعذّر عليهنّ العودة إلى مقرّ إقامتهنّ الذي أوصدت أبوابه. ولمّا وصل القطار إلى الرصيف، دعاهنّ المرشد إلى الصعود إليه، بكلّ بساطةٍ. وانتهينَ إلى مقصدهنّ، صباحًا، فاشتركنَ بقدّاسٍ في مصلًّى صغيرٍ، ثمّ مضينَ إلى مضيفتهنّ، فاقتادهنّ والدها الفنّان إلى حقل الزهور الذي لم يخيّب توقّعاتهنّ بروعته.

وقُبَيْل عودتهنّ، انتابتهنّ الحيرة من جديدٍ: فكيف يبرّرن سفرهنّ مع رجلٍ، وما عساهنّ يدعونَه، فلا يفضحنَ هويّته. وتجرّأت إحداهنّ، فباحت له بما كان يؤرّقهنّ، فكان جوابه: «ادعوني «ڤويك» (Wujek) أي، «عمّو».

هذا اللقب، استلطفه أصدقاؤه، فلازمه طويلاً.

«سرودوڤيسكو» Srodowesko

لفظةٌ يصعب ترجمتها، وهي تعني تجمّعًا شبابيًّا، مؤلّفًا من حلقاتٍ تهتمّ بالنقاشات الفكريّة. وهي، في الواقع، اندماج العديد من جماعات شبّانٍ، وكهولٍ، وأزواجٍ، كان الأب «ڤويتيووا» محرّكهم الروحيّ والفكريّ، وشبكة صداقاتٍ حيكت حوله وحول نشاطه الراعويّ، ولعبت دورًا فاعلاً في صوغ أفكاره، وفي عمله الرسوليّ، كاهنًا، وأسقفًا، وأخيرًا، حبرًا أعظم.

نواة ذلك التجمّع الأولى كانت ما دُعي «رادزينكا» (Radzinka)، أي

الأسرة الصغيرة، وهي مجموعةٌ من الشبّان والفتيات الذين ألّفوا جوقة الكنيسة، وكان الكاهن الجديد المكلّف بإرشادهم قد أدهشهم بتقواه، وتقشّفه، وحياة الفقر التي كان ينتهجها. كانوا يجتمعون في مكتبه أو في الكنيسة، ولا يعرف أحدهم كنية الآخر، وسرعان ما تعارفوا، وانعتقوا من الخوف السائد في الجامعات، خشيةً من عيون الحكم ومخبريه.

وقد حرّضهم المرشد على تجسيد قناعاتهم، من خلال عيادة المرضى والعميان، الذين لم يهتمّ الحكم برعايتهم. ودعاهم إلى أيّام تفكيرٍ وتأمّلٍ، وفي بعض مناسباتٍ هامّةٍ، إلى رياضاتٍ روحيّةٍ قصيرةٍ. كان يقيم لهم قدّاسًا خاصًّا صباح يوم امتحاناتهم، ويشاركهم الاحتفال بنجاحهم، ويشجّع من يفتقرون إلى صداقةٍ على الانضمام إلى المجموعة. وسرعان ما أمست الصداقة السائدة في «رادزينكا» سدًّا للفراغ الذي حفره الإرهاب الشيوعيّ، وعلاجًا له.

كان المرشدون السابقون يحصرون مهمّتهم في توفير الأسرار للطلاّب المؤمنين. ولكنّ الأب «ڤويتيووا» حمل هؤلاء الطلاّب، أيضًا، على المشاركة في الطقوس الكنسيّة، وجعل من «المواكبة» أخطر عنصر في الإرشاد، وضربًا من مساندة الشبّان في وجودهم. لقد أدرك أنّ على حضوره ألاّ ينحصر في المعبد وكرسيّ الاعتراف، موقنًا أنّ الإرشاد المجدي والفاعل ينبغي أن ينشط في مواكبة حياة الشبّان واهتماماتهم اليوميّة، بقدر ما ينشط في الكنيسة.

حرصه على المواكبة كان يدفعه، غالبًا، إلى مشاركة الشبّان هواياته الرياضيّة التي تشمل قطع مسافاتٍ طويلةٍ سيرًا على الأقدام، وتسلّق الجبال، والتزلّج على الثلج، ومصارعة الأمواج (الكاياك). ولطالما نظّم مبارياتٍ في هذه الرياضات بين أعضاء «سرودوڤيسكو». وحينئذٍ كان يوعز إلى الجميع أن يدعوه باسم «ڤويك» (عمّو)، تفاديًا لاتّهامه بتنظيم مجموعاتٍ شبابيّةٍ كان النظام ينظر إليها بعين الريبة. وعندما يحلّ مساء تلك الأيّام المرهقة، ويستسلم الجميع للكرى والراحة، كان هو ينتحي جانبًا، وينفق ساعةً أو ساعتين في الصلاة والتأمّل.

وذات ليلةٍ، إثر مسيرةٍ شاقّةٍ على دروب وعرةٍ، قال له أحد الشبّان، مازحًا:

« «عمّو»، عندما ستصبح بابا، سيحقّ لنا مطالبتك بغفرانات، لأنّك جعلتنا نجتاز معك هذا الدرب في ليلةٍ اختفى قمرها!».

وكانت المجموعات الطلاّبيّة الدائرة في فلك الأب «ڤويتيووا»، بحكم الظروف، سرّيّةً، لا بل كانت حركات مقاومةٍ من نمطٍ جديدٍ، وجُزُرًا صغيرةً، وسط محيطٍ شموليٍّ. لم يكن الشبّان المتحلّقون حول «العمّ» ڤويتيووا، يعدّون ذواتهم أبطالاً ولا متمرّدين. غير أنّ نسمة الحرّيّة التي كانوا يتنشّقونها بقربه، وفي ما بين الأصدقاء، كانت تطبع سماتها على كلّ وجودهم. وقد صرّح أحدهم: «لقد بات باستطاعتنا أن نعيش أحرارًا، لأنّنا تحرّرنا في داخلنا».

وعندما طُلب من الأب «ڤويتيووا»، في خريف عام **١٩٥١**، الحصول على شهادة دكتورا ثانيةٍ، واضطرّ إلى مغادرة رعيّة «سان فلوريان»، والاستقرار في أحد مراكز الكنيسة في كراكوڤيا القديمة، لم يمنع ذلك شبكات «سرودوڤيسكو» من الاستمرار في النموّ، ولم يؤدِّ إلى فصم العلاقة بين أفرادها ومرشدهم. بل ثابر كثيرون منهم على حضور القدّاس الذي كان يقيمه في الساعة السادسة صباحًا. واستمرّ «العمّ» يقدّم قدّاسًا عن نيّة الطلاّب يوم الجمعة الأوّل من كلّ شهرٍ، وينظّم رياضةً روحيّةً سنويّةً لهم، في الأسبوع الرابع من الصوم الكبير، ويشترك مع العائلة الصغيرة وأفراد الجوقة، برحلاتٍ في رحاب الطبيعة.

وحتّى بعد إبعاده المؤقّت عن الرعيّة، كي ينصرف إلى إعداد شهادة دكتورا ثانيةٍ، ظلّ موقنًا أنّ الكاهن بلا رعيّةٍ لا معنى له. فجعل من «سرودوڤيسكو» رعيّةً متنقّلةً. وبما أنّ بعض المنتقدين لم يكونوا ينظرون بعين الرضى إلى علاقاته مع الشبيبة العلمانيّة، دبّج سلسلة مقالاتٍ أوضح، من خلالها، موقفه: «**مهمّة الكاهن هي جعل الله حاضرًا في العالم، وهذه المهمّة لا تتحقّق بمجرّد إقامة القدّاس. بل على الكاهن أن يحيا بين ظهراني الناس، حيثما كانوا، وأن يكون معهم في كلّ أمرٍ، ما عدا الخطيئة**».

وكانت رحلاته مع الشبيبة «ارتجالاً معَدًّا له بعنايةٍ». فهو لم يكن يخشى التحدّث في كلّ المواضيع التي يهتمّ بها الشباب. وكانت تلك الرحلات ضربًا

فريدًا ومتطوّرًا من الخدمة الراعويّة. وقد اعترف مهندسٌ شابٌّ شارك في تلك الرحلات، أنّ «العمّ» ساعدهم على رؤية كلّ شيءٍ في نور الإنجيل. ولا ريب أنّ موقفه كان يناقض مخطّطات السلطات الشيوعيّة، الدائبة على تفتيت المجتمع وتجزئته، بغية إحكام السيطرة عليه.

وكان الطلاّب الذين يتخرّجون من كلّيّات الفيزياء، والكيمياء، والهندسة، يعقدون معه نقاشاتٍ مستمرّةً، ويطلعونه على المستجدّات في هذه المضامير. وكان هو يطلعهم على أفكار اللاهوتيّ الكبير توما الأكوينيّ. وقد أجمعوا كلّهم على امتلاكه فهمًا فطريًّا للعلوم، وعلى تمكّنه من ترجمة أفكار العلماء إلى لغته الفلسفيّة الخاصّة. وقد أسعفته معلوماته الأدبيّة الثرّة، وتمكّنه من النقد الأدبيّ، وذاكرته المنيعة التي اختزنت قصائد كاملةً، ونصوصًا نثريّةً مسهبةً، في تزيين أحاديثه بمزيدٍ من الإمتاع.

وكان من الطبيعيّ أن تولد بين شبّان تلك المجموعات وشابّاتها مشاعر حبٍّ، فكان يُعنى بتوجيهها. وكلّما عزم شابٌّ وفتاةٌ على الزواج، كان ينفق، معهما ساعات صلاةٍ، وتأمّلٍ، وتفكيرٍ، ويمتحنهما بتحدّياتٍ، كلّما ارتأى ذلك ضروريًّا، داعيًا المحبّين إلى بذل الذات، أكثر من دعوتهم إلى إثبات الذات.

وكلّما أشرفت أمٌّ على ولادةٍ، كان يدعوها إلى يوم تأمّلٍ وخشوعٍ، ثمّ كان يحرص على تعميد المولود الجديد، ويأتي لمباركة الأسرة، رغم مسؤوليّاته المتراكمة، وإن لم يُطلب منه ذلك.

وقد أجمع الذين عملوا معه على الاعتراف بأنّه كان يتمتّع بانفتاحٍ رحبٍ، وجاهزيّةٍ دائمةٍ. وأقرّ أحدهم: «معه كنّا نشعر بحرّيّةٍ تامّةٍ، متخفّفين من أعبائنا. حضوره كان يحفّزنا على البوح بما يجول في خاطرنا. وكان يستحوذ علينا انطباعٌ بأنّ كلّ شيءٍ يسير على خير نسقٍ. كان يمكننا التحدّث معه بكلّ المواضيع، كلّها على الإطلاق. فقد كان يمتلك خصلة الإصغاء، ويبدي اهتمامًا بكلّ الشؤون من دينٍ، ومشاكل الحياة اليوميّة، والعمل، والأولاد. وفضلاً عن ذلك، كان يحترم، بعمقٍ، حرّيّة الآخرين. فقد كان يُصغي، ويوضح رأيه، ويلقي

الضوء على كلّ مستعصٍ على الإدراك. ولا يفرض أيّ اتّجاهٍ، بل يقتصر على القول لمحاوره: «لك، أنت، أن تقرّر»، بعد أن يكون قد أعدّه، برقّةٍ، لاتّخاذ القرار السليم، ولانتهاج السبيل السويّ.

ولم يكن يتحرّج من مشاركة الشباب كلّ الأعمال، حتّى الشاقّة منها، محافظًا، مع ذلك، على كرامة كهنوته. وهم كانوا يدعونه «عمّو»، ولكنّهم، في الآن عينه، يحيطونه بالاحترام والتجلّة. كانت مواكبته لهم تعني السير معهم، ومساعدتهم على اكتشاف إنسانيّتهم، وتخطّي مشاكلهم.

وكان سماع الاعترافات، له، ضربًا من المواكبة التي اعتمدها نهجًا لإرشاده. وقد أقرّ جميع الذين لجأوا إلى كرسيّ اعترافه أنّه كان معرّفًا مدهشًا. فقد جعل من الاعتراف تبادل آراءٍ بين شخصين، قد يستغرق ساعةً أو أكثر. وكان يستخدم لكلّ معترفٍ الأسلوب الذي يلائمه. وبواسطة الاعتراف، كان يساعد الآخرين على اكتشاف دعوتهم الخاصّة، وهدف وجودهم وحياتهم. فأيًّا كان المسار الذي يختاره كلّ فردٍ، يجدر به أن يحيا من أجل هدفٍ محدّدٍ.

وقد نمّت ممارسة سماع الاعترافات طاقاته الخلاّقة بصفته خادم الإنجيل. فساعد الآخرين على فهم إيمانهم، ودفعهم على دروب ممارسته السليمة. كان يُكسب الشبّان العاملين معه شيئًا من روحانيّته، ويكتسب منهم خبرةً في معرفة الناس عن كثبٍ. كان يشيع فيهم الشعور بروعتهم، لأنّهم أبناء الله، مؤكّدًا لهم أنّ كلّ من يعتبرهم غير ذلك، وكلّ من يرى فيهم وحدةً اقتصاديّةً، أو فئةً إيديولوجيّةً أو طبقيّةً، إنّما هو يحطّ من قيمتهم.

وكان يرى في الكاهن كائنًا يقدّم للآب السماويّ، مع يسوع، ومن خلاله، كلّ ذرّةٍ من آلام البشر ومن جهودهم.

الكاتب الدراميّ

لقد نشر الأب «ڤويتيووا» مقالاتٍ ومؤلّفاتٍ لاهوتيّةً قيّمةً باسمه الصريح. غير أنّ هواية التأليف المسرحيّ لم تفارقه. وقد وضع عددًا من المسرحيّات بأسماءٍ

مستعارةٍ، ولا سيّما خلال سنوات كهنوته الاثنتي عشرة الأولى. ولا ريب أنّ ظروف الاحتلال التي عانتها بلاده، والضيقات الناجمة عن إخضاعها للنير الشيوعيّ، ومسؤوليّاته الراعويّة التي كانت تزداد ثقلاً، يومًا فيومًا، والخبرات الحيّة التي اكتسبها من كلّ ذلك، قد أسهمت في تفتّق قريحته.

وقد أقنعته الحياة أنّ الفلسفة وحدها التي تعمّق في درسها وتدريسها، عاجزةٌ عن الإحاطة بكلّ قضايا الوجود البشريّ، والواقع المعاش، وأنّه لا بدّ من مجموعة أدواتٍ تمكّن من الإلمام بالمعاناة البشريّة. وقد لجأ، هو، إلى أدوات الدراما والشعر، للتعبير عن حقائق لا قِبَل للفلسفة واللاهوت على التعبير عنها. ومن خلال هاتين الوسيلتين، كان حاضرًا في حياة معاصريه، واستطاع محاورتهم.

مسرحيّته الأولى كتبها في سنّ الخامسة والعشرين، قُبَيْل سيامته الكهنوتيّة، وأطلق عليها عنوان «أخو إلهنا». وهي تدور حول سيرة فنّان پولونيٍّ، يدعى «آدم هميلوڤسكي» (Adam Chmielowski)، كان قد استهلّ حياته مقاومًا للاحتلال الروسيّ، وأُصيب في إحدى المعارك، فبُترت ساقه، بلا تخديرٍ، ثمّ سافر إلى باريس وميونيخ، حيث تملّك من فنّ الرسم، وحاول الالتحاق بجمعيّة اليسوعيّين، ولكنّ مشاكل صحّيّةً حالت دون استمراره فيها، فأصبح مرسلاً فرنسيسكانيًّا علمانيًّا، وارتدى ثوبًا من كتّانٍ، والتزم بنذر الترهّب، معتنقًا اسم «الأخ ألبير»، وأسّس أخويّةً، وساق حياة فقرٍ تامٍّ، جاهدًا في غوث المحتاجين، ولا سيّما المفتقرين إلى مأوًى. ويوم توفّي، عام ١٩١٦، اجتمعت حول جنازته كلّ طبقات الشعب الپولونيّ.

بالإجمال، دارت أحداث المسرحيّة في وجدان ذلك المرسل العلمانيّ، الباحث عن دعوته الحقّة، وهدف وجوده. وإبرازًا للفارق بين المحبّة الحقّة التي جسّدها «الأخ ألبير»، وادّعاء الذود عن الفقراء الذي تزْعمه الإيديولوجيا الشيوعيّة، أدخل المؤلّف، في مسرحيّته، لقاءً بين «الأخ ألبير» و«غريب» يمثّل لينين، وبرهن أنّ الأخ الذي أرسى هدف حياته ومسيرته على مبادئ الإنجيل، هو الذي اختار «الحرّيّة الكبرى»، وظفر بها. وربّما عكست هذه المسرحيّة صورةً لدعوة «كارول ڤويتيووا» الكهنوتيّة.

ثمّ ألّف مسرحيّة «حانوت الصائغ»، حيث برزت مواهبه الشعريّة، وتجلّت الخبرة التي اكتسبها من مواكبة شبّان مجموعة «سرودوڤيسكو»، وعبرها روى قصّة ثلاثة ثنائيّات أزواجٍ، واجهوا ظروفًا متباينةً، وبيّن أسباب فشل زواجهم.

هذه المسرحيّة التي وقّعها باسمٍ مستعارٍ، كانت من الواقعيّة، ونفاذ النظرة إلى أسرار الحياة الزوجيّة، بحيث لم يخطر بخَلد أحدٍ ممّن قرأوها أنّ كاتبها كاهنٌ. لقد خلت تلك المسرحيّة من العاطفيّة سريعة العطب، ولكنّها أشارت، إشارةً صائبةً، إلى مواطن الخَلَل التي تفضي بالكثير من الزواجات إلى الخيبة، وأثبتت أنّ الزواج الناجح ليس ثمرة لقاءٍ ظرفيٍّ بين عاطفتين ملتهبتَين، بل هو تحوّل كائنين مصمّمين على بذل ذاتٍ متبادلٍ، يؤهّل الزوجين للمضيّ قدُمًا في توثيق اتّحادهما، حتّى بعد همود شعلة الشهوة، وبعد أن يتطهّر الحبّ من أسر الانفعال، وينقلب واقعيّةً صلبةً، وبذل ذاتٍ سخيًّا.

وقد جاء في إحدى فقرات المسرحيّة أنّ إحدى الزوجات كانت قد ضاقت ذرعًا بحياتها الزوجيّة، فابتغت بيع خاتم زواجها، ولكنّ الصائغ، عندما وضعه على الميزان، أعلن:

«إنّ ميزاني الخاصّ لا يظهر للخاتم غرامًا واحدًا، وزنًا،

بل هو يشير إلى الصفر.

فهو لا يزن المعدن، بل حياة الإنسان، ومصيره.

إنّ زوجكِ على قيد الحياة، ولذلك يلزمني خاتمان كي يتحرّك ميزاني».

هذه المسرحيّة كانت تكريسًا لقناعة الأب «ڤويتيووا» أنّ الحبّ المبنيّ على بذل الذات هو أساس علاقة الزواج المقدّسة، وبالتالي هو مدخلٌ إلى فهم الثالوث الإلهيّ. وهو الخبرة البشريّة التي تسهّل فهم الله.

وعند نشر هذه المسرحيّة، عام ١٩٦٠، تعرّف فيها أصدقاء الأب «كارول» مراحل عاشوها، ومواقف خَبَرها رفاقهم، لا بل عباراتٍ تلفّظ بها بعضهم، وكان مرشدهم شاهدًا عليها.

في مسرحيّات الأب «كارول» كانت الدراما البشريّة تخفق في ثنايا الدراما الإلهيّة، وكان الله مؤلّفها، وممثّلها، وخالقها، وفاديها.

الشاعر

إلى جانب المسرح، كان الأب «كارول» مؤمنًا أنّ الشعر هو وسيلة حضورٍ للآخرين، يساعدهم على اكتشاف حقائق الحياة. كانت عبارات قصائده، غالبًا، غامضةً، متأرجحةً بين واقعٍ محسوسٍ، وفكرةٍ مغرقةٍ في التجريد، ولكنّها تعبّر تعبيرًا دقيقًا عمّا يجول في خلد الآخرين، وعن الصراعات الناشبة داخل وجدانهم. مثال ذلك ما نسبه إلى السامريّة التي التقت يسوع عند البئر:

«**بلا جهدٍ كان يعلم سريرة نفسي، مفجّرًا منّي الخجل، والعار، والفكرة التي طالما ظلّت سجينةً. ولكأنّه كان يهتزّ على وقع نبض صدغيّ. كان يحمل، برقّةٍ، تعبي المرهِق**».

كلّ حدثٍ شخصيٍّ أو تاريخيٍّ، وكلّ خاطرةٍ أو خبرةٍ، كانت له مناسبةً لتأمّلٍ أو لصلاةٍ، وموضوع قصيدةٍ يدبّجها حينًا على مهلٍ، وبتأنٍّ، وحينًا آخر، على عجلٍ، مستخدمًا، لكتابتها، هوامش الجرائد.

قصائده كانت خبرةً إنسانيّةً، حرص على تفادي حشوها وعظًا عروضيًّا. غير أنّ التأمّلات التي أوحت تلك القصائد، كانت مفعمةً روحًا مسيحيًّا، وصراعًا روحيًّا ملازمًا وجود كلّ إنسانٍ. لم يكن يستفيض في النقد واللوم، ولكنّه كان يوحي أنّ خيار الإنسان المعاصر هو خيارٌ بين الجهد نحو القداسة أو فقدان إنسانيّته. خيارٌ جذّابٌ ومخيفٌ في آنٍ واحدٍ، ولكن لا مفرّ منه.

المتقشّف الملتزم

ذلك الكاهن الجديد خاض خبرةً زاخرةً بالغنى، خصبةً بالصداقات، والنشاطات، والإبداع الفكريّ والأدبيّ، ولكنّه، في حياته اليوميّة، كان ممعنًا في التقشّف.

من المحقّق أنّه لم يكن له، يومًا، حسابٌ مصرفيٌّ، ولا هو حرّر شيكًّا، ولا امتلك مالاً نقديًّا. كان يرقد على الحضيض، ملتزمًا بالتجرّد التامّ، ودائبًا على

ترويض ذاته. لم يملك من متاع الدنيا سوى أدوات الرياضة، التي أهداه إيّاها أصدقاء. وقد أهداه، يومًا، كاهنٌ صديقٌ آلة حلاقةٍ جديدةً، ولكن، خشية أن يتبرّع بها لمن هو أفقر منه، أخذ آلة حلاقته القديمة الصدئة، ورمى بها، إذ إنّه كان يجود على آخرين بمعظم الهدايا التي يتلقّاها. كان يرتدي، دائمًا، ثوبًا رهبانيًّا خلقًا، باليًا، وينتعل أحذيةً مهترئةً، فيبدو كأنّه متسوّلٌ أو متسكّعٌ. حتّى مواهبه الروحيّة والفكريّة كان يتحامى عن إبرازها، ولذلك، قلّما تعرّض للحسد الذي غالبًا ما يتبادله الكهنة. غير أنّ الأمر الأبرز الذي تميّز به هو عدم التزامه بدقّة المواعيد، بسبب تعدّد انشغالاته، التي كانت تحجب عنه الإحساس بمرور الوقت.

ومع كَلَفه بالكهنوت، كان ينفق معظم فسحات الوقت المتاحة له مع أصدقاء علمانيّين، وكانت جاهزيّته لخدمتهم بلا حدودٍ. والصداقات التي كان ينسجها معهم كانت تدوم مدى الحياة.

كان يمتلك حدْسًا ثاقبًا، يمكّنه من قراءة كوامن النفوس. وكانت هذه المَلَكَة كفيلةً بتمكينه من ممارسة تأثيرٍ فريدٍ، غير أنّها، وقد تمرّس بحياة الصلاة والتجرّد، جعلت منه معرِّفًا فذًّا، وشاعرًا ومسرحيًّا متفوّقًا.

الذائد عن حقوق الإنسان

خمسينات القرن العشرين كانت الحقبة الأقسى شدّةً على الكنيسة الپولونيّة، إذ أحكم الشيوعيّون القبضة على كلّ نشاطٍ دينيٍّ، ففُرِضت قيودٌ شديدةٌ على النشرات الكاثوليكيّة، وأُغلقت الإكليريكيّات، واعتُقل العديد من الكهنة، وسُجن أساقفةٌ بعد إدانتهم بتهمٍ ملفّقةٍ، وفُرضت ضرائب باهظةٌ على الكنائس ورعاتها. وبلغ الاضطهاد ذروته في أيّار من عام ١٩٥٣، عندما استولى الشيوعيّون على سلطة تعيين الكهنة والأساقفة، وأكرهوهم على إقسام الولاء للجمهوريّة الشعبيّة الپولونيّة. وأعلن رئيس أساقفة پولونيا، الكردينال «ڤيتشنسكي»، في عظةٍ ملتهبةٍ، رفضه لهذه التدابير. وفي تيّاره، أصدر مجلس

أساقفة پولونيا بيانًا جاء فيه: «لسنا مخوّلين وضع ما هو لله على هيكل قيصر، ولا نستطيع ذلك». ولكنّ الكردينال «ڤيتشنسكي» اعتُقل ليلة ٢٦/٢٥ أيلول من عام ١٩٥٣، وأُودع أحد الأديرة، حيث فرضت عليه الإقامة الجبريّة. وفي عام ١٩٥٦ أخلى الحزب الشيوعيّ الپولونيّ سبيله، ودعاه للعودة إلى مقرّه في ڤرسوڤيا، تفاديًا لانتفاضةٍ شعبيّةٍ قد تؤدّي إلى غزوٍ سوڤييتيٍّ. ولكنّ الكردينال أبى تلك العودة إلاّ بعد إلغاء كلّ التدابير التعسّفيّة المتّخذة بحقّ الكنيسة. واستسلم رئيس الحزب، «غومولكا»، لهذه الشروط، فعاد الكردينال إلى مقرّه، محاطًا بهالةٍ دوليّةٍ، هالة رمز مقاومة الشيوعيّة.

في هذه الأثناء، لم ينخرط الأب «كارول» في أيّ صراعٍ مكشوفٍ، ولم يبدِ أيّ اهتمامٍ بالتغييرات الجارية داخل الحزب الشيوعيّ الپولونيّ، ولكنّه شنّ حملة مقاومةٍ أكثر جدوى، تحدوه قناعاتٌ أخلاقيّةٌ ودينيّةٌ صامدةٌ، وجاهدًا في إيجاد جيلٍ معارضٍ لثقافة الكذب، التي كان النظام يجهد في ترسيخها. لم يكن يرى جدوى في مهاجمة النظام هجومًا سافرًا، ولكن كان من الواضح لكلّ قرّائه، أنّه كان يعبّر عن رؤيةٍ للحياة، وللمصير البشريّ، تعارض، كلّيًّا، الإيديولوجيا الرسميّة.

كان يرسّخ علاقةً حميمةً وكثيفةً مع الله، ويسوق حياةً كهنوتيّةً وشخصيّةً متناغمةً، موطّدًا، في الآن عينه، علاقته بالمدينة التي أحبّها، وأضحى من أبرز وجوهها، كراكوڤيا. لقد ترك مهمّة الدفاع عن المؤسّسة الكنسيّة لآخرين، وانبرى للذود عن كرامة الإنسان، التي أُوكلت إلى الكنيسة خدمتها وصيانتها، مؤمنًا أنّ على الكنيسة أن تكون بطلة الذود عن الإنسان في وجه الاضطهاد والإذلال، وأن تثبت أنّها البيئة المثلى للحرّيّة الحقّة.

دكتورا في الفلسفة

يوم ١٩٥١/٧/٢٣، مُني الأب «ڤويتيووا» بيتمٍ جديدٍ، من جرّاء وفاة رئيس الأساقفة «ساپييها»، «أسد» كراكوڤيا، المقاوم العنيد، الذي ورّث الأب

«ڤويتيووا» طائفةً من خصاله الاستثنائيّة: الورع، والتقوى، وقوّة الشكيمة، ومضاء العزيمة، والصمود، وحرارة العلاقات الإنسانيّة، والقرب من الكهنة والعلمانيّين، والمحبّة الصادقة.

وكان، قبل وفاته، قد رغب في ألاّ تُقصي مهامّ الرعاية الأب «ڤويتيووا» عن مواصلة الدراسة، فدعاه إلى الحصول على دكتورا في الفلسفة تؤهّله للتعليم الجامعيّ. وعيّن الڤاتيكان خلَفًا له هو الأُسقف «بازياك» (Baziak)، الذي لم توافق عليه السُلطات الشيوعيّة، ولكنّ ذلك لم يمنع الأسقف المعيّن من ممارسة مهمّته. وقد أخذ بتوصية سَلَفه الراحل، وأعفى الأب «ڤويتيووا» من مهامّه الراعويّة، كي ينصرف إلى إعداد دكتورا في الفلسفة. ولكنّ الأب، الذي لم يُطِق النأي عن الشبيبة، التمس، على الأقلّ، مواصلة اضطلاعه بإرشاد الطلاّب، فسُمِح له بذلك، ولكن في حدودٍ.

وفي خريف عام ١٩٥١، انتسب إلى كلّيّة الفلسفة في جامعة «ياجلّون»، واختار، موضوعًا لبحثه، «نظام الظاهرانيّة» (Phénoménologie) عند الفيلسوف الألماني ماكس شيلير (Max Sheler). هذا الفيلسوف (١٨٧٤–١٩٢٨) اليهوديّ المولد، والذي اعتنق الكاثوليكيّة، كان يسعى إلى تثمير القِيَم المسيحيّة، المبنيّة على الفضائل الأخلاقيّة. وكان لنظريّاته تأثيرٌ بليغٌ على مفكّرين مسيحيّين، منهم «إيديت شتين» التي أصبحت القدّيسة الأخت «بينيدكت الصليب».

لقد سعى الأب «ڤويتيووا» إلى الجمع بين فلسفة «ماكس شيلير» ولاهوت توما الأكوينيّ، وإثبات أنّ السعادة هي هدف الإنسان، وأنّ الوسيلة الكفيلة ببلوغ هذه السعادة هي الفضيلة، مؤكّدًا أنّ السعادة البشريّة الحقّة تكمن في تأمّل الله، وأنّ هذا التأمّل المقترن بالصلاة، يسمو بالحياة الأخلاقيّة إلى أعلى المراقي.

هذا البحث قاده إلى تكوين فلسفته الإنسانيّة الخاصّة، التي دمغت حياته، وكهنوته وحبريّته، وكرّستها كلّها لخدمة الكائن البشريّ، في كلّ أبعاده، وأبرزت شخصيّته المعجونة بالاستقامة والشفافيّة، وأظهرته مثقّفًا للوجدان وللحياة، وخادمًا لله والإنسان. فقد كانت العناية الإلهيّة تعدّه لمواجهة حقبةٍ امّحت فيها

الفوارق بين الخير والشرّ، كي يُظهر للعالم الذي نأى عن الله، من هو النور الحقّ، ويرشد إلى السبيل إليه، لنيل الخلاص.

هكذا ولج الأب «كارول ڤويتيووا» عالم الفلسفة، واكتسب معرفةً للإنسان ما انفكّت تنمو ميدانيًّا، في علاقته مع الشبيبة، والأزواج، والأُسَر، وستمكّنه من مساعدة كلّ شعوب المسكونة.

وبعد سنتيْ بحثٍ جادٍّ، أي في **١٩٥٣/١١/٣٠**، نال من جامعة «ياجلّون» شهادة دكتورا في الفلسفة، وأصبح أحد أئمّة الفكر، للجيل الجديد.

وفي تلك الحقبة التي أمعن فيها الاحتلال الشيوعيّ طغيانًا، طُرحت قضيّةٌ فلسفيّةٌ من صميم الواقع: علامَ يتصرّف رجالٌ ونساءٌ تصرّف الحيوانات المفترسة، وتدفعهم أنانيّتهم وصغاراتهم إلى الوشاية بأعزّ أصدقائهم، في حين يبرهن آخرون عن بطولةٍ مدهشةٍ، فيضحّون بذواتهم وبحياتهم لإنقاذ أناسٍ قد يجهلونهم؟

وكانت شراسة الحكم الشيوعيّ قد بلغت أوجها، إثر استلام «نيكيتا خروتشيف» قيادة الاتّحاد السوڤييتيّ، وتولّي «بييروت» (Bierrut) حكم پولونيا بيدٍ من فولاذٍ، بدءًا بمحاولة تدمير الكنيسة الكاثوليكيّة في البلاد، ليس فقط من خلال اعتقال الرؤساء، ولا سيّما رئيس أساقفة پولونيا، الكردينال «ستيفان ڤيتشينسكي»، ورئيس أساقفة كراكوڤيا «بازياك»، بل، أيضًا، بسجن العديد من الكهنة، وإسامتهم شتّى أنواع التعذيب والتنكيل في محاولةٍ لإنشاء كنيسةٍ منفصلةٍ عن روما، وخاضعةٍ للحزب.

أستاذ الفلسفة

في غمرة هذه الظروف الدراميّة، باشر الأب «ڤويتيووا» مسيرته التعليميّة الجامعيّة، المتمثّلة في تدريس الأخلاق المسيحيّة من منظارٍ فلسفيٍّ. هذه المسيرة استمرّت حتّى افتتاح المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، وحتّى انتخابه على سدّة البابويّة. وكانت تلك الفترة، فترة نشاطٍ فكريٍّ كثيفٍ وخصبٍ، ليس فقط في ميدان

التعليم الجامعيّ، بل أيضًا في المجالَيْن الإنسانيّ والروحيّ. ولكنّه، مع تألّقه في دنيا الفلسفة واللاهوت، ظلّ بسيطًا، متواضعًا، ولم يغفل، يومًا، دعوته الكهنوتيّة والراعويّة، ولم يتحوّل إلى مجرّد أستاذٍ، بل ظلّ، في المقام الأوّل، كاهنًا.

منذ مطلع شهر تشرين الأوّل **١٩٥٣**، عُيِّن أُستاذًا للاّهوت الأخلاقيّ وللآداب الاجتماعيّة في إكليريكيّة كراكوڤيا الأسقفيّة، وفي الآن عينه، كان يدرّس هذه الموادّ ذاتها في جامعة «ياجلّون».

ومنذ يوم تدريسه الأوّل، لفت نظر الجميع مشهدُ كاهنٍ في نحو الخامسة والثلاثين، يدخل قاعة الدرس، بزيٍّ غير معهودٍ لدى الأساتذة، معتمرًا طاقيّةً من جلدٍ، مختلفةً عن القبّعة السوداء الرسميّة، ومرتديًا صايةً سوداء رثّةً يعلوها معطفٌ أخضر داكنٌ، خشنٌ، خَلِقٌ، كأنّه قُدَّ من غطاءٍ صوفيٍّ عتيقٍ.

ومنذ اللحظة الأولى، تبيّن للطلاّب أنّه يختلف عن سائر المعلّمين، ليس فقط بهندامه، بل، أيضًا، بأسلوب تعليمه. فقد خلع معطفه، وألقى به على مقعدٍ، وأخذ يذرع المنصّة، ذهابًا وإيابًا، مازجًا الحجج اللاهوتيّة بأحداث الحياة اليوميّة، فيما كان الأساتذة الآخرون يجلسون بأُبّهةٍ على مقاعد عريضةٍ، ويلقون دروسهم بمهابةٍ.

ولم يكن يملّ من تقليب كلّ فكرةٍ على كلّ جوانبها كي يشبعها تفنيدًا وبحثًا. وكان يتوقّف عن الإلقاء، بين فينةٍ وأُخرى، ويتبيّن متابعة تلاميذه لأقواله، وكانوا، هم، مأخوذين بأسلوبه الذي لا يقوم على تبليغ معلوماتٍ، بقدر ما كان حضًّا على اكتشافٍ عقليٍّ.

وكان يخصّص أيّامًا للتذكير بما درّسه، فيدعو التلاميذ إلى التحدّث بحرّيّةٍ، وبلا قيودٍ، عمّا تمثّلوه. وكان يصغي باهتمامٍ، إلى هواجس كلٍّ من تلاميذه، ويوضّح لكلّ معضلةٍ يصطدمون بها التفسير والحلّ المسيحيَّيْن؛ وغالبًا ما كان ينتحي جانبًا بالطالب الذي يلمس لديه قلقًا، فيحدّثه، ويرشده، وينير دربه.

لقد انتهج أسلوبًا جديدًا في التفكير، وفي مقاربة الواقع الإنسانيّ. ويمكن اختزال جوهر تعليمه في كلماتٍ معدوداتٍ: «لا يكفي اكتساب معارف، أو

شحذ الذهن، بل المهمّ هو التساوق بين المعرفة والعمل الفعليّ. فلا جدوى من المعرفة بمعزلٍ عن الكيان، وللكيان الأولويّة على العمل». وهذا ما أكّده الأب «ڤويتيووا» بسلوكه. فطلاّبه يقدّرونه، ويتعلّقون به، لا إعجابًا بمعلوماته الموسوعيّة فحسب، بل بتأثير جاذب شخصيّته. فهم يدركون، تلقائيًّا، أنّه أكثر من أستاذٍ، أنّه رجل الله، وصديقٌ لهم. ولا عجب إن غصّت، دائمًا، قاعة تدريسه، بالمستمعين الذين يجلسون أينما تيسّر لهم، فإن لم يعثروا على مقاعد جلسوا على الحضيض، أو على حافّات النوافذ.

كان يستهلّ درسه بإشاعة جوّ انشراحٍ قبل أن يتطرّق لموضوعه الذي يشبعه بحثًا عميقًا، ويقلّبه على جميع جوانبه، حاثًّا طلاّبه على إعمال فكرهم، بحيث يقرّرون بأنفسهم أسلوب سلوكهم، وفقًا لقناعتهم وضميرهم.

لا يسهب في الكلام. ولكنّه، دائمًا، قريبٌ من طلاّبه، منفتحٌ عليهم. وإن احتاجوا إليه لا يصعب العثور عليه، منتحيًا ركنًا قصيًّا، مختليًا للتأمّل، أو راكعًا على الحضيض في مصلّى، خاشعًا، ودائمًا جاهزًا لسماع اعترافهم، فهو أكثر المعرّفين صبرًا وحكمةً.

وما يضفي على شهادته مصداقيّةً فقره المطلق. فقد قرن فقرًا كاملاً بعلمٍ غزيرٍ. وفيما هو يلقي دروسه، لا يستطيع إخفاء نعلَيْن مهترئَين، ولا أهداب صايته المهترئة، ولا كتفيه الآخذتين بالاحديداب يغطّيهما معطفٌ عتيقٌ خلِقٌ.

لقاء تدريسه كان يتلقّى راتبًا يجود بمعظمه على الطلاّب المحتاجين، الذين يجهلون، غالبًا، مصدر المساعدة التي تأتيهم. وبعد تعيينه أسقفًا، بات يتبرّع لهم بكامل راتبه.

بالإجمال، كان بوسع طلاّبه الاعتماد الدائم عليه، ولكنّ مأخذهم الوحيد هو تأخّره عن المواعيد، من جرّاء كثرة مراجعيه، وتعدّد انشغالاته.

ولا عجب، إذن، إن برز شخصه. فقد أجرى طلاّب جامعة «لوبلِن» استفتاءً، وطُلِب من كلّ طالبٍ أن يسجّل كلّ أستاذٍ في إحدى فئتين: قدّيس أو لامع الذكاء. وانفرد الأب «ڤويتيووا» باحتلال الفئتين معًا.

وبُغيةَ إرشاد طلاّبه على أكمل وجهٍ، ما انفكّ ينظّم لهم رحلاتٍ إلى الجبال، والسهول، والبحيرات، ومباريات تجذيفٍ في الأنهر. وكان يعقد لهم «جامعاتٍ صيفيّة» في الهواء الطلق، بين الغابات، وعلى ضفاف البحيرات، في جوٍّ كشفيٍّ، حيث لكلّ مشاركٍ مهمّته. وفي المساء يتحلّق الجميع حول نقاشٍ ينتهي بالغناء، والأناشيد، والضحك المدوّي.

لقد اكتشف «العمّ» كارول السبيل إلى قلوب طلاّبه الشباب في پولونيا، ولسوف يجتذب محبّة ملايين شباب العالم.

في نهاية عام ١٩٥٤، أقنعه صديقٌ له كان أُستاذًا في جامعة «لوبلِن»، بتولّي تدريس مادّة الأخلاق في تلك الجامعة الكاثوليكيّة. التي وُلدت غداة الحرب العالميّة الأولى، وأصبحت، بعد المِحَن التي ألمّت بها في أثناء الحرب العالميّة الثانية، تنافس جامعة «ياجلّون» شهرةً ومكانةً، ومهدًا لاحتضان النخبة الفكريّة والدينيّة الپولونيّة. واستُحدثت فيها، عام ١٩٥٤، كلّيّة فلسفةٍ، سرعان ما عهدت ازدهارًا مدهشًا، وظلّ كرسيّ مادّة الأخلاق فيها شاغرًا، إلى أن ارتضى ملأه الأب كارول ڤويتيووا. وفي هذه الكلّيّة اعتلنت مواهبه الفذّة. وتمحورت أولويّاته على إضافته إلى حقيقة الله، البحث عن حقيقة الإنسان والتعمّق في معرفة كيانه الجوهريّ، وأبعاده الحقيقيّة، بُغيةَ الوصول إلى قواعد سلوكيّةٍ كفيلةٍ بمواجهة الأوضاع المعاصرة.

ومنذئذٍ تعيّن عليه أن يباشر سفراتٍ مكّوكيّةً بين كراكوڤيا ولوبلِن، مرّةً كلّ أسبوعين، إذ إنّه لم يتخلّ عن التدريس في إكليريكيّة كراكوڤيا، ولا عن نشاطه الإرشاديّ في جامعة «ياجلّون»، الذي كان قد أضاف إليه إرشاد موظّفي الصحّة العامّة. وتفاديًا لهدر الوقت، كان يسافر في قطارٍ ليليٍّ، فيصل إلى لوبلِن باكرًا.

وغالبًا ما كان يرافقه، في هذه الرحلات، كاهنٌ آخر يدرّس مادّةً فلسفيّةً أُخرى. ولّما عرفه عن كثبٍ، أوصى المسؤولين في أسقفيّة كراكوڤيا: «اجعلوا منه أسقفًا، فهو حكيمٌ، وورعٌ، وطيّبٌ. وهذا هو الفرق بيني وبينه: فعندما أنهض، صباحًا، وأخرج كي أدخّن سيكارة، يكون هو ساجدًا يصلّي. وأعود فأجده ما زال يصلّي!».

كانت الأماكن المخصّصة لإقامة الأساتذة ولنومهم، في لوبلِن، تفتقر إلى أدنى عناصر الراحة. فقد كانت هناك غرفٌ عديدةٌ، اصطفّ في كلٍّ منها ثلاثة أسرّةٍ، وغرفةٌ واحدةٌ بسريرٍ واحدٍ يتنافس الجميع على احتلالها، ما عدا الأب «ڤويتيووا» الذي لم يطالب بها، يومًا. لا بل إنّه، عندما لم يكن يتوفّر له مكانٌ للرقاد، كان يرقد فوق منضدةٍ. وبما أنّ القطارات لم تكن تتقيّد، دائمًا، بالمواعيد، كان يصل، أحيانًا متأخّرًا، فيهرع، مباشرةً، إلى قاعة التدريس. وظلّ بعض الطلاّب، طويلاً، يذكرون ذلك الأستاذ الذي كان يطوف بصايته الكهنوتيّة المهلهلة، وبمعطفه العتيق البالي، ويفزع إلى المصلّى، بين درسٍ وآخر، كي ينفق هنيهات خشوعٍ وعبادةٍ.

وقد اشتهر بكونه أستاذًا بمتناول الجميع، داخل قاعة الدرس وخارجها. وقد أفلح في إضفاء المتعة على دروسه، بمزجه بين المبادئ المجرّدة وتطبيقاتها الواقعيّة المستقاة من الحياة اليوميّة، ولا سيّما أنّه كان مفتونًا بالبشر، وبشتّى الأوضاع الإنسانيّة. وفي الآن عينه، كان منخرطًا، بعمقٍ، في النشاطات الراعويّة. وكان للعديد من طلاّبه المعرّف، والمرشد الروحيّ.

في أثناء إلقاء دروسه، لم يكن يستعين بأيّة نصوصٍ مكتوبةٍ. وكان حريصًا على دعم المبادئ النظريّة بأمثلةٍ من الحياة اليوميّة، ودائم الإشادة بالذين يضحّون بذواتهم في سبيل الآخرين، مثبتًا قناعته بأنّ «سنّة العطاء» متجذّرةٌ في الإنسان، ومؤكّدًا أنّ تحقيق الذات، يتمّ بالتجرّد من الذات، لا بإثباتها.

وفي موازاة التدريس الجامعيّ، أسّس الأُستاذ الأب «ڤويتيووا» شبه نادٍ للطلاّب المتفوّقين، الراغبين في الحصول على دكتورا في الفلسفة الأخلاقيّة. وكان يلقي عليهم دروسًا في الهواء الطلق، وعلى سفوح التلال، وعلى الدروب الجبليّة، ويدرّبهم على التفكير الفلسفيّ الصحيح، ويعينهم على مناقشة أطروحاتهم. وقد ساعده على إنجاح هذه التجربة، جاهزيّته الفريدة للإصغاء، وخبرته الراعويّة، وقدرته المدهشة على الاهتمام بأمرين مختلفين، في آنٍ واحدٍ، وأسلوبه المتمثّل في تقصّي بحث كلّ قضيّةٍ من كلّ جوانبها، حتّى إشباعها درسًا، وتحرّيًا عن كلّ الاحتمالات.

ولم تكن المناقشات الحرّة بين الأستاذ وطلاّبه، في ذلك النادي، متاحةً فحسب، بل كانت تلقى التشجيع. ولم يكن الطلاّب يتحرّجون، أحيانًا، من التصريح بمعارضتهم لآراء الأُستاذ وانتقادها جهارًا. غير أنّ هذه الوشائج المتّسمة بالمودّة والصداقة كانت تلتزم، دائمًا، باحترام الطلاّب لأستاذهم، الذي لم يكونوا يرون فيه مفكّرًا فحسب، بل، أيضًا، إنسانًا جليلاً، وقدوةً مثلى.

وهو لم يكن يقطع علاقته بهم إثر تخرّجهم، بل كان يسعى إلى إيجاد مناصب تعليميّةٍ لهم، ويوصي بهم.

ولا مراء أنّ حضوره مع طلاّبه كان يحول دون كلّ بذاءةٍ أو حديثٍ عابثٍ، ولكنّه لم يحُلْ دون المرح، والأغاني الصاخبة، أحيانًا.

وبعد انتخاب الأب «ڤويتيووا» أسقفًا على كراكوڤيا، لم يعد وقته يُفسح له فرصةً لمتابعة كلّ ما يُكتب في مضمار الفلسفة الأخلاقيّة، فغدا بعض قدامى طلاّبه يلخّصون ما يُنشر في هذا المجال، ويعقّبون عليه، ويزوّدونه به. فكان يقول، مازحًا: «**إنّها المرّة الأولى، في تلك الجامعة، التي ترتّب على التلاميذ تلقين أستاذهم**».

ولكن في السنة الدراسيّة ١٩٦٠/١٩٦١، حالت التزاماته الراعويّة المتعاظمة، في كراكوڤيا، دون متابعة التدريس.

«الحبّ المسؤول»

لقد تلازم، دائمًا، لدى الأب «ڤويتيووا» العمل الراعويّ بالنشاط الفكريّ، ولا سيّما في الفترة الممتدّة بين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٥٨. كان يحيا، بعمق، الواقعَ الذي يواجهه، والذي يحرّك تفكيره. كلّ ما كان يكتبه كان يعكس تجربةً معاشةً. فهو يرى المعضلة فينكبّ على حلّها. إنّه مفكّرٌ أكثر منه بحّاثةٌ. ومحور تفكيره هو الشخص البشريّ، الإنسان بمعناه العميق. وإن كان العمل الراعويّ، غالبًا مغروسًا في أسرار القلوب، لا يراه إلاّ الله والمعنيّون به، إلاّ أنّ نشاط الأب الفكريّ تجسّد في مقالاتٍ كان يدبّجها في مجلاّتٍ مختصّةٍ، وكوّنت العناصر

الأساسيّة لكتابين وضعهما في تلك الحقبة هما «حبٌّ ومسؤوليّة» و«الشخص والفعل».

اتّصالاته الواسعة بالشبيبة، ومقاسمته همومهم، كانت قد أغنت خبرته. وهو استخدم هذه الخبرة لإغناء الآخرين بنظرته الرحبة، التي تجمع العمق بالدقّة والوضوح، في انسجامٍ تامٍّ مع العقيدة الكاثوليكيّة، ومقتضيات الإنجيل. فاستطاع أن يسبغ مسحةً روحيّةً قدسيّةً على الزواج والأسرة، من غير أن يجرّدهما من خصائصهما.

وُلد كتابه الفلسفيّ الأوّل، «حبٌّ ومسؤوليّة»، من قرنه الفلسفة بالرعاية. فاهتمامه الراعويّ بالشبّان المقدمين على الزواج، وخبرته في كرسيّ الاعتراف، قد أقنعاه بضرورة تثقيفٍ واضحٍ، يُعِدّ لدعوة الزواج وسرّه، ولحبٍّ حقيقيٍّ صامدٍ. ولا ريب أنّ كتابه كان مغامرةً في هذا الحقل الحافل بالألغام.

وقد استهلّ ذلك الكتاب بمقدّمةٍ جاء فيها:

«لهذا البحث منبعان تضافرا معًا على توفير عناصره. ولفهم هذين المنبعين وطريقة عملهما، ينبغي التذكير بأنّ واضع هذا الكتاب هو كاهنٌ. ولطالما قيل إنّ الكهنة يفتقرون إلى الخبرة التي تؤهّل لبحث معضلاتٍ تتعلّق بالجنس، على الأقلّ بصفةٍ شخصيّةٍ. فهم يفتقدون العلاقة المباشرة، والتجربة في هذا الميدان، خلافًا للعلمانيّين الذين يمارسون الزواج.

«ومن ثمّ، لا بدّ من التنويه بأنّ أحد مصدري هذا الكتاب هو الخبرة. ولكنّها خبرةٌ غير مباشرةٍ، وهي ناتجةٌ عن العمل الراعويّ. فغالبًا ما يوضع الكاهن في حالاتٍ متنوّعة، ويواكبها. من المؤكّد أنّ هذه الخبرة ليست ذاتيّةً، بل هي خبرة آخرين، غير أنّها تصبح أرحب سعةً من مجرّد خبرةٍ فرديّةٍ.

«وليس دور الخبرة، في ما يتعلّق بتكوين هذا الكتاب فريدًا وحصريًّا. فمن جرّاء مهمّة المؤلّف ووضعه، وفضلاً عن خبرته، وأحيانًا من خلال خبرته الراعويّة، لديه مصدرٌ آخر، أسمى شأنًا، هو الإنجيل وامتداده المتمثّل في تعليم الكنيسة».

ولا معدى عن التذكير بأنّ الحكم الشيوعيّ، بغيةَ إبعاد الشبيبة عن الكنيسة، راح يشجّع العلاقات الجنسيّة الحرّة، والإجهاض، وأشاع نظرةً ترى في الولد

مشكلةً ينبغي حلّها، عوضًا عن نعمةٍ إلهيّةٍ. وبالمقابل، كان على الأب «ڤويتيووا» أن يقنع الشبيبة بأنّ تعاليم الكنيسة، إذا ما أُحسِن تفسيرها، تستهدف سعادة الإنسان الحقيقيّة، في إطار حبٍّ مسؤولٍ، بحيث تصبح العلاقة الجسديّة المبنيّة على حبٍّ صادقٍ، عملاً إنسانيًّا ساميًا، حيث لا يستخدم أيٌّ من الشريكين الآخر من أجل إرضاء نزوةٍ عابرةٍ، بل يكون التقاء حرّيّتين حقيقيَّتيْن تنشدان خيرًا مشتركًا، محوّلاً العلاقة الجنسيّة من حدَثٍ عارضٍ، إلى فعلٍ يعبّر عن الكرامة الإنسانيّة.

الموضوع المركزيّ هو الحبّ، بالمفهوم العامّ، والحبّ الزوجيّ على نحوٍ خاصٍّ. الحبّ النابع من الله، والموروث من الآباء، والذي ينبغي أن يورَّث، ويُعطى، ويُقتسَم، ويلهِم الزوجين والأسرة. ومن ثمّ يتعيّن على كلٍّ من الزوجين تجنّب إيثار ذاته، واستخدام الآخر، بل عليه أن يحبّه لذاته.

لقد ميّز الأب «ڤويتيووا» بين «فعل إنسانٍ» و«الفعل الإنسانيّ». فالأوّل تحدوه الغريزة، وبموجبه ليس الفعل الجنسيّ سوى علاقةٍ بهيميّةٍ خاليةٍ من الإنسانيّة. هذا الفعل، الذي لا دافع له سوى الشهوة، يحوّل الآخر إلى أداة إشباع رغبةٍ، ويجرّده من حرّيّته وكرامته. في حين أنّ «الفعل الإنسانيّ» يقتضي حكمًا يسبغ على كلّ العلاقة بعدًا أخلاقيًّا متميّزًا.

الإنسان الحرّ هو الذي يهب ذاته للآخر، ويحبّه لذاته، حبًّا صادقًا. وهبة الذات المتبادلة تسمح للزوجين أن يعيشا، بكثافةٍ، أحدهما للآخر، ويبقيا ذاتهما بعمقٍ، وكأنّهما صورةٌ للثالوث الأقدس. وهكذا يصبح الزواج مدرسةً صعبةً، ولكنّها خلاصيّةٌ حيث يتعلّم الزوجان في الصبر، والتضحية، والألم، معنى الحياة، ويتكوّن لديهما، واقعيًّا، إيمان الوجود الجوهريّ، وبذل الذات....

هذه الآراء، التي طرحها كاهنٌ مسؤولٌ، بدت، حينذاك، جريئةً. وعندما صدر الكتاب، عام ١٩٦٠، كان «كارول ڤويتيووا» قد رُسم أسقفًا منذ سنتين، فأثار كتابه تحفّظاتٍ عديدةً، من لاهوتيّين تقليديّين، حتّى إنّ اللاهوتيّ الشهير «هنري دي لوباك»، الخبير اللاهوتيّ في المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، بعد أن طالع

النسخة الفرنسيّة من الكتاب، إثر صدورها، عام ١٩٦٥، قد طالب بحذف بعض فصوله. غير أنّ مؤلّفه ظلّ يؤكّد أنّ على الرعاة أن يتحدّثوا، بوضوحٍ وصراحةٍ، عن كلّ ما يتعلّق بهذا الموضوع، وإلاّ كانوا مقصّرين في مهامّهم.

«الشخص والفعل»

كتابه الآخر صدر بعد عشر سنواتٍ، أي عام ١٩٧٠، وكان ثمرة تفكيرٍ عميقٍ، وجهدٍ شاقٍّ، وحصادَ خبرةٍ راعويّةٍ ثرّةٍ، مكّنته من صوغ فلسفته الخاصّة حول الإنسان وسلوكه، فلسفةٍ ترى أنّ الشخص البشريّ يحتلّ مركز الكون، وهو خليقة الله الأثيرة، فعليه أن يعرف ذاته، ويتحمّل مسؤوليّة مصيره، وفقًا لدعوته ومسؤوليّته، وبالاعتماد على ضميره، وحرّيّته، وإرادته الخاصّة، بحيث يحقّق ذاته، ويزدهر إلى أبعد مدى، من أجل سعادته، ومجد الله.

وقد ألقى، هو نفسه، الضوء على عمله هذا، بقوله: «**من خلال مطالعاتي وأبحاثي، سعيت، دائمًا، إلى جمع أبعاد الإيمان، والفكر، والقلب، جمعًا متناغمًا. فهذه العناصر ليست منفصلةً، متنابذةً، بل هي مؤتلفةٌ. ومن هذا التفاعل المتبادل بين هذه العناصر الثلاثة ينشأ أثرٌ فائق الخطورة، هو الدهشة المنبثقة من معجزة الشخص البشريّ، ومن الشبَه بين الإنسان والله الواحد والثالوثيّ، ومن العلاقة عميقة الغور بين الحبّ والحقيقة**».

من خلال هذا الكتاب تتجلّى شخصيّة البابا العتيد، وسرّ كيانه وحبريّته. فوراء الأستاذ يبرز الراعي، والمرشد الأخلاقيّ والروحيّ، الذي يبثّ روحه في العلم الذي يبلّغه باسم المسيح، معلّمه، قارنًا هويّته الصحيحة وعمله، أناه الداخليّ والخارجيّ، ما يجعله في مأمنٍ من تناقضات العديد من الشخصيّات العامّة، ومن مواقفها المتعارضة، والمصطنعة حسب مقتضيات الظروف، ومن النشاز بين الشخص العامّ، والشخص الخاصّ. فهو، دائمًا، ذاته، يتمتّع بوحدةٍ داخليّةٍ مدهشةٍ، هي ثمرة تركيزٍ فريدٍ.

هذه الوحدة الداخليّة تدمغ تعليمه، وتضفي على شهادته مصداقيّةً، وتأثيرًا عميقًا. فهو كتلةٌ مرصوصةٌ، منحوتةٌ على مثال يسوع، الذي كانت أقواله

ومعجزاته متّحدةً بجوهره، وهو الحبّ. والحبّ هو مركز حياة «كارول ڤويتيووا»، وقد تجلّى، لاحقًا، من خلال اعتناقه اسم رسول الحبّ، يوحنّا. والحبّ هو موضوعه الأثير، وعنه يتحدّث بأروع العبارات.

«كارول ڤويتيووا» أسقفًا

في مطلع شهر آب ١٩٥٨، وفي حين كان أُسقف كراكوڤيا يبحث عن معاونٍ له، خلفًا للأُسقف (Rospand)، المنتقل إلى رحمة ربّه، باشر «كارول ڤويتيووا»، مع أصدقائه القدامى في «سرودوڤيسكو»، رحلةً نهريّةً. وكانوا قد أودعوا في كراكوڤيا برنامج الرحلة المفصّل، بحيث يتيسّر تبليغهم الرسائل المستعجلة الواردة إلى كلٍّ منهم. ويوم الخامس من آب تلقّى الأب «ڤويتيووا» رسالةً تدعوه إلى المثول فورًا أمام كبير أساقفة پولونيا، الكردينال «ڤيتشينسكي»، في ڤرسوڤيا.

وفي الحال استقلّ الرفاق شاحنة نقل حليبٍ توصلهم إلى أقرب محطّة قطار، وانتصب «العمّ» «ڤويتيووا»، في صدر الشاحنة، بين أواني الحليب. وفي محطّة القطار هرع إلى المراحيض، حيث استبدل ثياب الرياضة بصايته الكهنوتيّة، وبها مثل أمام الكردينال «ڤيتشينسكي»، الذي بلّغه قرار البابا بيّوس الثاني عشر بتعيينه، منذ الرابع من شهر آب، أسقفًا على أبرشيّة «أومبي» (Ombi)، ومعاونًا لرئيس الأساقفة «بازياك»، ومدبّرًا رسوليًّا لأُسقفيّة كراكوڤيا.

وكان ذلك التعيين آخر عملٍ رسميٍّ يقوم به البابا بيّوس الثاني عشر، الذي انتقل إلى جوار ربّه، بعد مضيّ أحد عشر يومًا على سيامة «كارول ڤويتيووا» أسقفًا.

اعترض الأب كارول على هذا التعيين مذكّرًا بحداثة سنّه، إذ لم يكن قد تخطّى الثامنة والثلاثين، فأجابه الكردينال: «ستتغلّب سريعًا على موطن الضعف هذا. فأرجوك ألاّ تقاوم إرادة الأب الأقدس». واكتفى الأب كارول بالردّ: «أقبل».

وفي الحال قصد الأسقف المعيّن دير راهباتٍ قرع بابه، وطلب السماح له

بالتخشّع في مصلاّه. لم تكن الراهبات يعرفنَه، غير أنّ صايته كانت له جواز مرورٍ، فاقتدنه إلى المصلّى، حيث تركنَه وحيدًا. وبعد مضيّ بعض الوقت، انتابهنّ القلق، ففتحنَ الباب على مَهَلٍ، كي يتأكّدنَ ممّا يجري، فوجدنَ الكاهن منبطحًا أمام الهيكل، فتسلّلنَ منسحباتٍ، بصمتٍ، ظانّاتٍ أنّه تائبٌ يستغفر ربّه. ورجعنَ، بعد ساعاتٍ، فإذ به ما برح خارًّا، ساجدًا أمام القربان المقدّس. وبما أنّ الليل كان آخذًا بالهبوط، دعته إحداهنّ إلى مشاركتهنّ العشاء، ولكنّه أجابها: **«عليّ أن أستقلّ القطار عند منتصف الليل، وما زال لديّ الكثير أقوله للربّ، فدعنَني وحيدًا معه!»**...

وعندما فرغ من نجواه مع الربّ، مضى إلى الأسقف «بازياك». وما إن دفع إليه رسالة الكردينال الذي يحيطه بها علمًا بقرار الحبر الأعظم، حتّى أطلق عبارةً نبويّةً، تُطلَق، عادةً، عند إعلان انتخاب بابا جديدٍ: «لدينا بابا!» (Habiamus Papam).

هذا التعيين كان بمثابة ثورةٍ في كراكوڤيا، مدينة الملوك والأمراء، في زحمة مسؤولين كنسيّين رفيعي المحتد، أمثال البابا بيّوس الثاني عشر، والكردينال «ڤيتشينسكي»، والكردينال الراحل «ساپييها» الملقّب بالأمير. فقد كان الأب ڤويتيووا أحد «الپروليتاريّين» النادرين، يعيّن في منصبٍ رفيعٍ، مُعدٍّ لمستقبلٍ لامعٍ، فضلاً عن كونه أحد أصغر إكليريكيٍّ سنًّا، يتسنّم منصب أُسقفٍ. ولا ريب أنّه استحقّ ذلك، بفضل ما امتلك من مواهب، وما حقّقه من إنجازاتٍ. ومن المحقّق، أيضًا، أنّ العناية الإلهيّة لعبت دورًا هامًّا في هذا التعيين، فهي ضنّت بذلك الكاهن الفذّ أن يظلّ سجين الجامعات، وتوخّت إطلاقه إلى العالم الواسع، وإلى إفادة المجمع الڤاتيكاني الثاني من مؤهّلاته. مرّةً أُخرى، طغت الرسالة الراعويّة على مهمّة التعليم الجامعيّ، وتحقّقت رغبة كارول في خدمة الله والبشر، على أوسع نطاقٍ.

كان الأسقف «بازياك» يتوقّع أن يمكث معاونه الجديد في المدينة، ولكنّ هذا الأخير أوضح أنّ عليه الوفاء بوعدٍ كان قد قطعه لرفاق الرحلة بإقامة القدّاس لهم، وسارع إلى الالتحاق بهم، حيث كانوا ينتظرونه. وقد ذُهلوا عندما زفّ

إليهم نبأ تعيينه أسقفًا. وبما أنّهم كانوا قد اعتادوا مناداته «ڤوييك» (عمّو)، استفسروا كيف عليهم أن يسمّوه، بعدئذٍ، فأجاب «**ڤوييك سيبقى ڤوييك**» («عمّو» سيبقى «عمّو»).

وهكذا، في سنّ الثامنة والثلاثين، أمسى الأب «كارول ڤويتيووا» أسقفًا، ومن أصغر الأساقفة سنًّا، في تاريخ الكنيسة.

كان الأسقف «بازياك» يقدّر، لدى معاونه الجديد، المزيج الرائع من ذكاءٍ، وورعٍ، وغيرةٍ رسوليّةٍ، وصمودٍ. ومع أنّ ذلك الأسقف كان يُعَدّ محافظًا، لم تصدمه جدّة أسلوب الأب «ڤويتيووا» الراعويّ، المبتكر، المتميّز، وعدم تحرّجه من مرافقة شبّانٍ متزوّجين في رحلاتٍ بالقوارب، وإيمانه الراسخ بأنّ نهضة الكنيسة مرتبطةٌ بنهضة علمانيّيها. وكان يستشفّ، في داخله، روحًا كهنوتيًّا أصيلاً، ومقاومًا منيعًا للشيوعيّة الملحدة، قادرًا على إنشاء جيلٍ كاثوليكيٍّ صامدٍ في وجه الدعاوة الإلحاديّة، متشبّثًا بالقيم الأخلاقيّة القائمة على تعاليم الإنجيل. وكان يمتلك الحجّة القادرة على مقارعة الشيوعيّة، على أرض المبادئ التي كانت تدّعي اجتذاب الشبيبة. وبالإجمال كان مؤهّلاً للاضطلاع برسالةٍ كنسيّةٍ خطيرة الشأن، في ظروفٍ عصيبةٍ.

استهلّ الأسقف الجديد مهمّته بتعميد طفل أحد تلاميذه، واشترك، للمرّة الأولى، في اجتماع الأساقفة الپولونيّين. ثمّ اختلى، خمسة أيّامٍ، في دير رهبانٍ بينيدكتيّين، حيث تابع رياضةً روحيّةً.

وتمّ الاحتفال بسيامته الأسقفيّة، يوم ١٩٥٨/٩/٢٨، فغصّت كاتدرائيّة «ڤاڤيل» بأصدقائه، وزملائه الأساتذة، وبأعضاء فريق «سرودوڤيسكو»، الملتهبين فرحًا وحماسًا.

ووفقًا للطقوس الكنسيّة، التمس الأسقف «بازياك» من الله أن يكون الأسقف الجديد راعيًا لا يكلّ، يمقت الكبرياء، ويهوى التواضع والحقيقة، ولا يصرفه عنهما، أبدًا، لا نفاقٌ ولا خوفٌ.

وقبل القدّاس، قدّم للأسقف الجديد أصدقاؤه وتلاميذه الشموع والخبز

والخمر، فقدّمها، بدوره، لرئيس الأساقفة. وفي نهاية الاحتفال، هتف أحد رفاقه القدامى في المصنع الكيميائيّ: «يا «لوليك» (هكذا كانوا يدعونه تحبّبًا في شبابه) لا تدع شيئًا يوهنك!». وكان الأسقف «ڤويتيووا» قد اختار شعارًا له، عبارة تكريس القدّيس «لويس غرينيون دي مونفور» للسيّدة العذراء: «**كلّي لكِ**» (Totus Tuus).

تابع الأُسقف الجديد التدريس في جامعة «لوبلِن» حتّى عام ١٩٦١، ولكن بوتيرةٍ أبطأ من السابق. غير أنّه اضطرّ إلى عقد جلساتٍ طويلةٍ مكثّفةٍ، في نادي الإعداد للدكتورا، الذي سبق له تأسيسه، للتعويض عن تناقص عدد الجلسات العاديّة.

وقد حفلت سنوات أسقفيّته الأولى بالمهامّ الراعويّة المتنوّعة، فأولى جلّ اهتمامه للوعظ والإرشاد والمواكبة الروحيّة، نائيًّا بنفسه، ما استطاع، عن المهامّ الإداريّة. وتناولت عظاته، في تلك الفترة، مواضيع التجدّد، التي سرعان ما راجت في الأوساط الكنسيّة. وأكّد على «**ثقة الله العظيمة في الطاقات البشريّة**»، التي كان تجسّد ابن الله برهانًا بليغًا عليها، وعلى كون الصلاة هي الردّ على السرّ الذي ينطوي عليه العالم، والتي، بمعزلٍ عنها، ينفصل البشر عن معنى الحياة الجوهريّ.

كان الشيوعيّون يرهبون جانب الكردينال الأمير «ساپييها» ويجلّونه، ولكن في أعقاب وفاته، شنّوا حملةً شعواء على الكنيسة، فنكّلوا بالكهنة المخلصين لروما، وسجنوا العديدين منهم، ونصّبوا كهنةً وطنيّين، خانعين لحكم المحتلّ، ونزعوا الصلبان عن جدران المدارس والأماكن العامّة، وأغلقوا الجامعات الكاثوليكيّة، ومنعوا التعليم الدينيّ.

ومع ذلك، صمدت الكنيسة، واستمرّ التعليم الدينيّ في الكنائس بالوسائل المتوفّرة، وغير المريحة. ولطالما تظاهر عمّالٌ هاتفين: «نريد الله... نريد خبزًا».

ولم يكن الأسقف الجديد، «ڤويتيووا»، يخشى تحدّي حظر السلطات للاحتفالات الكنسيّة العلنيّة، ولجم نشاط المؤسّسات الخيريّة، فتواترت زياراته للمشافي التي تديرها راهباتٌ، حيث كان يتحدّث إلى كلّ مريضٍ بمفرده،

ويباركه. وفي قرية «نوڤاهوتا»، وهي القرية الپولونيّة العمّاليّة التي شاءها النظام الشيوعيّ نموذجيّةً، فشادها بلا كنيسةٍ، أسّس تقليد إقامة قدّاس منتصف ليل عيد الميلاد في الهواء الطلق، فكانت ظروف ذلك القدّاس تحاكي الميلاد الذي حدث لنحو ألفي سنةٍ.

ولكي يظفر بشيءٍ من الهدنة والنقاهة، في غمرة هذه النشاطات الطاغية، كان يهب نفسه فسحةً أو فسحتين، في السنة، كي يمارس، مع أصدقائه، هواية اجتياز الأنهر بالقوارب، وكي يتّصل بأصدقائه المسرحيّين، الذين أقام لهم قدّاسًا بمناسبة احتفالهم بالذكرى العشرين لتأسيس مسرحهم، وألّف لهم، عام ١٩٦١، مسرحيّةً بعنوان «الجدود»، صدرت تحت اسمٍ مستعارٍ.

ومن المحقّق أنّ أسقفيّة «كارول ڤويتيووا» حملت خيرًا وفيرًا لرعيّته، ولكنيسة پولونيا، وأثبتت، لاحقًا، أنّها كانت نعمةً سنيّةً للكنيسة جمعاء. فقد كانت أسقفيّته فريدةً، وسابقةً من نوعها، أسقفيّةً تنبض هوًى وتضحيةً في سبيل الله والآخرين، ونموذجًا كفيلاً بحفز كلّ أُسقفٍ جديدٍ.

مساءَ تنصيبه، حجّ إلى مزار سيّدة «تشينستوهوڤا»، وفي صباح اليوم التالي احتفل بالقدّاس في ذلك المزار، وجدّد تكريسه وتكريس مهمّته الجديدة لأمّ الكنيسة.

لقد قرأ واجبه الجديد على ضوء سؤال يسوع الثلاثيّ لبطرس، وتأكيد بطرس الثلاثيّ حبّه لراعي النفوس، وحينئذٍ كلّفه الربّ برعاية قطيعه. وقد أدرك الأسقف الجديد تلازم الحبّ والخدمة، واندفع في ممارستهما كليهما، ووسم بهما كلّ أسقفيّته.

ومثلما انتزعه الكهنوت من المسرح، انتزعته الأسقفيّة، شيئًا فشيئًا، من الجوّ الأكاديميّ والجامعيّ، الذي كان يتألّق فيه.

لقد باشر الأُسقفيّة بوعيٍ عميقٍ لجسامة تلك المهمّة الراعويّة، التي تعني العناية بالنفوس، والتي أوجزها بقوله: «على الأسقف أن يكون الراعي، والأب، والدليل، محبًّا، متفانيًا، مسؤولاً، وفيًّا، جريئًا، قدّيسًا».

ومن الأساقفة الأفذاذ، الذين حرص على استلهامهم، والتمثّل بهم، القدّيس أوغسطينُس، وغريغوريوس الكبير، ومواطنه القدّيس ستانسلاس، أسقف كراكوڤيا الشهير، المثال الأكمل للواجب والزهد، والكردينال الأمير «ساپييها» الذي كان قد وجّه خطواته على دروب الكهنوت، وكان له قدوةً فذّةً، والذي طالما أشاد الأُسقف «ڤويتيووا» بأبوّته وجرأته، وقال عنه: «**لقد كان لي نموذجًا حقًّا، لأنّه كان، بالمقام الأوّل، راعيًا؛ كنت أوليه ثقةً كبرى، وكنّا نحبّه، لأنّه كان، قبل كلّ شيءٍ، أبًا. وهذا هو الأهمّ: على الأسقف أن يكون أبًا**». ولطالما كان كارول شاهدًا على صموده وبطولته في الظروف العصيبة. وراقبه، واقفًا، ثابتًا، وطيدًا كالطود، في وجه الطغاة، حاميًا، بمعطفه، أبناءه الإكليريكيّين، ملتزمًا، مصلّيًا، وفيًّا لمدرسة القدّيس ستانسلاس.

قدوةٌ أُخرى وجدها في الكردينال «ڤيشينسكي»، ذلك الصرح الصامد في وجه الشيوعيّة، وقد انحفر قول ذلك الأسقف البطل في نفسه: «ضعف المرسل الأدهى هو الخوف. وإنّما يثير الخوفَ وهنُ الإيمان». ولا بدعَ، بعد كلّ هذا، أن يجأر الأُسقف «ڤويتيووا» في وجه الطغيان: «**نحن لا نخاف!**».

وقد اقتفى، بحبٍّ ووفاءٍ، خطى خوري أرس، وآمن أنّ على الأساقفة أن ينهضوا بمهمّةٍ نبويّةٍ وكهنوتيّةٍ، وأن يكونوا قدوةً في كلّ شيءٍ، فصرّح: «**إنّ الأسقف، بفضل ما يُسبَغ عليه من شرفٍ، وخدمةً للشركة الكنسيّة، مدعوٌّ، بنوعٍ خاصٍّ، إلى تقديس ذاته، لأنّ عليه أن يكون الأوّل في الإيمان، والمحبّة، والوفاء، والخدمة**».

وفي سبيل النهوض بهذه الواجبات الباهظة، انتهج سبيلين: الصلاة، والألم المقدّم، متمثّلاً بالعذراء وبالتلميذ الحبيب يوحنّا، اللذين وقفا عند أقدام الصليب، خاشعَيْن، وقدّمت العذراء آلامها الناجمة عن آلام ابنها، من أجل جماعات النفوس، على امتداد القرون، ومن أجل الكنيسة التي انبثقت من صُلب الصليب.

صلاة الأسقف ڤويتيووا

الصلاة الدؤوب والحارّة هي تنفّس روح الأسقف «ڤويتيووا». وقد قالت فيه مواطنته الكاتبة« «ماريّا ڤينوڤسكا» : «إنّه يصلّي، مثلما يتنفّس».

شعاره كان يتضمّن حرف M كبيرًا، دليلاً على تكريس ذاته للعذراء مريم. وهو، من هذا التكريس، استمدّ أُسلوب صلاته التي اتّسمت بالاستسلام، والثقة، والسلام، واليقين، والتواضع، والقوّة، والجدوى. فمريم هي التي تصلّي من خلاله، وهي تتحرّك بقدرة عريسها الروح القدس، معلّم الصلاة الأمثل. والأسقف «ڤويتيووا» يصوغ صلاته على مثال صلاة مريم، وفي قالبها.

دافعه إلى الرعاية هو يسوع، مؤسّس الكنيسة، وغاية رعايته هي خلاص النفوس التي كان الصليب فديتها. ولذلك تستغرق الصلاة من وقته قسطًا وفيرًا. وهو يُخضع للصلاة كلّ نشاطه، وبها يحلّ الكثير من معضلاته، فيما عيناه شاخصتان، أبدًا، صوب المعلّم الإلهيّ. وهذا ما تجلّى من خلال قوله لكهنته: «**إنّ أهمّ ما تنطوي عليه الحياة الكهنوتيّة، هو عيش خبرة المسيح الأخّاذة. فعندما نحيا بالمسيح، يرتدي كلّ نشاطنا وجهًا رائعًا، وكلّ شيءٍ يُبرز معنًى مختلفًا، وتكتسب نتائج عملنا جدّةً دائمةً. ولا ريب أنّ المؤمنين لا يغالون عندما يبتغون أن يروا في كلٍّ منّا مسيحًا آخر**».

وقد أولى اهتمامًا خاصًّا بالصلاة الإفخارستيّة. فكان يصلّي، ويتأمّل، ويكتب، أمام القربان المقدّس، بحيث قال صديقه، الأسقف «مالينسكي»، إنّه يمكن إيجاز وصفه بالقول: «**إنّه رجلٌ راكعٌ أمام القربان المقدّس**». من يبحث عنه يجده في المصلّى، حيث أقام مكتبه، وحيث كان ينجز أخصب عمله الفكريّ والراعويّ. وهو نفسه كتب: «**في مصلاّي الخاصّ، لم أكن أقتصر على الصلاة، بل كنت أجلس وأكتب... إنّي واثقٌ أنّ المصلّى مكانٌ ينبثق منه إلهامٌ خاصٌّ. وإنّه لامتيازٌ جمٌّ أن يستطيع المرء الإقامة والعمل في إطار هذا الحضور، الذي يجتذب مثل مغنطيسٍ فائق القدرة**».

اهتمامه برعيّته يبدأ بصلاته، وبحواره مع يسوع الذي يوكل إليه أخصّاءه.

الصلاة تُعِدّه للقاء الآخرين. والصلاة هي له خير وسيلةٍ لتربية الناشئة. وهو يعترف، بهذا الشأن: «**بمنأى عن الصلاة لن نتمكّن أبدًا من تثقيفهم**». ويضيف، أيضًا: «**كم من القضايا المادّيّة تجد حلاًّ، بفضل صلاةٍ واثقة!**».

إنّه يعبُر من خلال قلب الأمّ كي يمسّ قلب الابن. وقد اعترف: «**بشفاعة مريم أوكل إلى المسيح مشاكل رعايتي المستعصية**».

وهو لا يغفل استشفاع كبار القدّيسين، وخاصّةً القدّيس يوسف الذي يجلّه، ويرى فيه نموذجًا للأب، وحاميًا للكنيسة. ويلتمس شفاعة قدّيسي وطنه بدءًا بالأسقف الشهير ستانسلاس، مرورًا بالأب «كولبي»، والأب «هيميلوڤسكو» (Chimielowsko)، والأخت القدّيسة «فوستين»، وانتهاءً بالأب «پوپييلوسكو» (Popielusko)، الذي اغتيل عام **١٩٨٤**. وكان حريصًا على الصلاة من أجل الأموات القاطنين في قلبه.

وكان يؤثر الصلاة في الأديرة النسكيّة، التي كان يرى فيها مستودعات طاقاتٍ روحيّةٍ كبرى، ويستعين بصلوات الرهبان والراهبات على حلّ القضايا المستعصية، حاثًّا الراهبات الحبيسات بقوله: «**غطّينَ الكرة الأرضيّة بمعطف صلاتكنّ**».

الألم المقدّم

الرمز الآخر في شعاره هو الصليب. فالصليب هو أداة إخصاب كلّ رسالةٍ مسيحيّةٍ، عملاً بقول يسوع: «من ابتغى اتّباعي، فليحمل صليبه، ويتأثّر خطاي»، وإيمانًا منه بأنّ الحبّة التي لا تموت في التربة، لا تؤتي ثمرًا، وأنّ الحبّ الأعظم هو بذل الذات في سبيل المحبوب. وقد صرّح سيادته، ملمّحًا إلى كبير أساقفة پولونيا، الكردينال «ڤيشينسكي»: «**إنّ للأسقفيّة علاقةً بالصليب، فالكنيسة تعلّق صليبًا على صدر الأسقف. وعلى الصليب يموت المرء عن ذاته، وإلاّ لما نَعِمَ بملء الكهنوت**».

وقد زخرت أُسقفيّته بآلامٍ من كلّ لونٍ: همومٌ، ومعاكساتٌ، وخيباتٌ، واضطهاد النظام الشيوعيّ، وطائفةٌ من الآلام النفسيّة التي دمغت أسقفيّته،

فضلاً عن مضايقاتٍ جسديّةٍ مثل الاستيقاظ باكرًا، بعد ساعات راحةٍ معدوداتٍ، والانشغال الدائم بلا هوادةٍ، وسلسلةٍ من المشاكل الصحّيّة. فهو كان يعاني علّةً خفيّةً يكافحها بالرياضة، ولم يطلع أحدًا عليها، ويسوق حياة تقشّفٍ صارمٍ، وحرمانٍ مفرطٍ، ومع ذلك يضطلع بعملٍ كثير الاقتضاء، مدهشًا المقرّبين منه بقدرته على الصمود، وبهدوئه، وجاهزيّته الدائمة، رغم مهامّ الرعاية التي تلتهمه جسديًّا ونفسيًّا.

وسنسهب، لاحقًا، في تفصيل آلام الأسقف «ڤويتيووا»، والبابا يوحنّا بولس الثاني، واستغراقه في الصلاة.

الذكرى الألفيّة لمعموديّة پولونيا

كانت كنيسة پولونيا كنيسةً مضطهَدةً ومتألّمةً، ولطالما أثمر الألم جنًى وفيرًا. كانت الشيوعيّة، في خمسينات القرن العشرين، تجهد في ترسيخ الإلحاد في پولونيا. وفي سبيل ذلك، سجنت كبير أساقفة البلاد، الكردينال «ڤيشينسكي». فتضافرت جهود الإكليروس على مواجهة الوضع الصعب، وإطلاق حركة تجدّدٍ مسيحيٍّ. وما كاد كارول يُعيّن أسقفًا، حتّى وجد نفسه مقحَمًا في الصراع الرهيب ضدّ ناشري الإلحاد، ملتزمًا بتحقيق التجدّد المسيحيّ في البلاد، مندفعًا في تيّار البطولة، التي برهنت عنها بلاده، على امتداد عشرة قرونٍ.

لم يكن الشيوعيّون يخشون شيئًا أكثر من خشيتهم الكنيسة الپولونيّة، معقل المقاومة في أوروپّا الشرقيّة. هذه الخشية أعمت الحكم عن وقائع بديهيّةٍ، فارتكبت خطأً مميتًا، بسجنها كبير الأساقفة الذي برهن عن بطولةٍ فذّةٍ، سما بها إلى أعلى مرتبةٍ في قلوب الجماهير. وقد ألهمته الأمّ السماويّة، وهو في زنزانة إقامته الجبريّة في أحد الأديرة، أن يجدّد تكريس البلاد لها، مؤكّدًا محبّة پولونيا لها، وثقتها بها، والتماسها نعمها الجزيلة. وقد اقترح الكردينال، كبير الأساقفة، مباشرة تساعيّة صلواتٍ تمتدّ على تسع سنواتٍ، تأهّبًا لذكرى عمادة پولونيا عام ٩٦٦، وتذكيرًا للپولونيّين بجذورهم، وبإرثهم الروحيّ.

وقد أعدّت لجنة الأساقفة البولونيّين، بعنايةٍ، برنامج تجدّدٍ روحيٍّ، يوازي الأمل المعقود على الذكرى؛ وحدّد ذلك البرنامج، لكلّ سنةٍ، موضوعًا يساعد على تزويد كل بولونيٍّ بطاقاتٍ جديدةٍ، تفضي إلى تحوّله الروحيّ، وشحذ وفائه للكنيسة، وللعذراء، وتشجيع علاقات الإخاء، وتقديس الأسرة، ومحبّة الوطن. فالكنيسة البولونيّة كانت تؤمن بتلازم الحياة الروحيّة والحياة المدنيّة الوطنيّة.

وقد استعانت تلك الكنيسة على تنفيذ برنامجها بالصلاة، وبالدعوة إلى ممارسة الأسرار، وبالرياضات الروحيّة، والاحتفالات الليتورجيّة، والإرشاد، وبأساليب لم يُعهَد لتعدّدها واتّساعها مثيلٌ في أوروبّا.

واستُهلّ ذلك البرنامج، في آب ١٩٥٧ بإرسال نسخةٍ عن إيقونة سيّدة «تشينستوهوڤا» إلى الڤاتيكان، كي يباركها البابا بيّوس الثاني عشر. وعقب عودتها إلى موطنها، طافت بكلّ المدن البولونيّة ورعاياها، أملاً في أن تساعد أمّ الكنيسة على تحقيق أُمنيّات الكنيسة المحلّيّة.

هذه الاستعدادات للذكرى الألفيّة، لم تحُلْ دون انصراف الأُسقف المعاون، «كارول ڤويتيووا»، إلى نشاطٍ دائبٍ، متمّمًا كلّ الواجبات الأُسقفيّة والكهنوتيّة، من سماع اعترافاتٍ، وتعليمٍ دينيٍّ يقوم به بنفسه، حتّى في البيوت، والاشتراك في مراسم الدفن والزواج، مشاركًا الكهنة، ساهرًا على كلّ مؤمنٍ، «مُلتَهِمًا» في كلّ وقتٍ، على غرار «خوري أرس».

لم تكن انشغالاته تفسح له ساعة فراغٍ. وعندما طلب منه شابٌّ من طلاّبه أن يبارك زواجه في منطقةٍ جبليّةٍ، حدّد، لهذا الاحتفال، الساعة السابعة من صباح يوم إثنين. فهو الوقت الشاغر الوحيد الذي كان متوفّرًا له.

مثلما حرص على النهوض بمهمّته الكهنوتيّة كاملةً، حرص على النهوض بملء مهمّته الأسقفيّة. وفي البدء، تابع تدريسه في جامعة «لوبلِن»، ومضى قُدُمًا في أبحاثه الفكريّة، التي كان ينشرها في مجلاّتٍ كاثوليكيّةٍ.

وكان نشاطه من الكثافة، بحيث خارت قواه، فاضطرّ إلى تنظيم مواعيد عمله، وإلى اقتناص إجازات نقاهةٍ قصيرةٍ موسميّةٍ، يقضيها في نشاطاتٍ رياضيّةٍ.

الأسقف ڤويتيووا في المجمع الڤاتيكانيّ الثاني

ليلة ١٥/١٤ حزيران ١٩٦٢، توقّف قلب رئيس أساقفة كراكوڤيا «بازياك»، عن الخفقان. وتولّى كارول تأبينه، ومهامّه، ريثما يتمّ تعيين رئيس أساقفة بديلٍ. وبعد أقلّ من شهرٍ أجمع مسؤولو الإكليروس الكراكوڤيّ على تعيينه مدبّرًا للأبرشيّة، تعبيرًا عن ثقتهم الوطيدة بأصغر أُسقف پولونيٍّ سنًّا.

ويوم ١٩٦٢/١٠/١١، احتشد، في كاتدرائيّة القدّيس بطرس في روما، أساقفة العالم الكاثوليكيّ للمشاركة في الافتتاح الرسميّ للمجمع الڤاتيكانيّ الثاني، الذي دعا إليه البابا يوحنّا الثالث والعشرون.

ذلك المجمع كان الحادي والعشرين منذ مجمع نيقيا المنعقد عام ٣٢٥، وكان أعظم إلهامٍ في حبريّة البابا يوحنّا الثالث والعشرين. وقد اندرج من خلال أربع جلساتٍ كبرى، انعقد كلٌّ منها بين شهر أيلول وشهر كانون الأوّل من الأعوام الأربعة ١٩٦٥/١٩٦٢. وكان يتمّ الإعداد لتلك الجلسات بلقاءاتٍ يساهم بها أئمّةٌ في اللاهوت، وأصحاب اختصاصٍ في شتّى المجالات. وناهز عدد المشاركين ثلاثة آلاف أُسقفٍ، فضلاً عن الخبراء، والمستمعين المدعوّين، والمراقبين القادمين من كنائس غير كاثوليكيّة. وقد شارك «كارول ڤويتيووا» بذلك المجمع، أوّلاً، بصفته أسقفًا معاونًا لأبرشيّة كراكوڤيا، ثمّ، منذ عام ١٩٦٤ بصفته رئيس أساقفة تلك الأبرشيّة.

ومع أنّ البابا يوحنّا الثالث والعشرين قد أقدم على تلك المجازفة، متخطّيًا تحفّظات مسؤولين كنسيّين كثيرين، توجّسوا خشيةً ممّا قد يثيره ذلك المجمع من خلافاتٍ داخل الكنيسة، حتّى إنّ الكردينال مونتيني — الذي أصبح البابا بولس السادس، وتعيّنت عليه قيادة المجمع حتّى نهايته — كان قد حذّر البابا يوحنّا الثالث والعشرين من أنّه، بإقدامه على افتتاح المجمع، فهو إنّما يولع النار بالبارود. غير أنّ الأسقف «ڤويتيووا» – الذي أصبح البابا يوحنّا بولس الثاني — توسّم في ذلك المجمع، فرصةً لاغتناءٍ روحيٍّ عظيمٍ، تنتجه خبرة جماعةٍ دوليّةٍ، وتوقّع أن يخلّف ذلك المجمع آثارًا خيّرةً عميمةً وحاسمةً على مستقبل الكنيسة.

وقد رأى، لاحقًا، أنّ ذلك المجمع كان «منتدى الروح القدس»، وحقّق وعد يسوع لتلاميذه بأن يكون، دائمًا، معهم. ولطالما عدّه «خبرةً روحيّةً عميقةً»، و«فعل حبٍّ» وسط خضمٍّ من الأحقاد، ووسيلة إغناءٍ لإيمان الكنيسة، تُمكِّن المسيحيّين من مشاركةٍ أوفر امتلاءً في الحقيقة الإلهيّة. وقد أكّد، دائمًا، أنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني، لا يمكن فهمه فهمًا كاملاً وصحيحًا، إلاّ باعتباره حدَثًا روحيًّا، صرفًا. هكذا فهمه. وهكذا عاشه.

ومنذ اليوم الأوّل، أصبح ذلك المجمع أحد المحاور الرئيسة لرسالة الأُسقف «ڤويتيووا»، فكان من أشدّ المؤمنين بعظمة شأنه، ومن أنشطهم عملاً فيه، ثمّ أمسى وارثًا له، وراعيًا لتحقيق مقرّراته، بعد أن أضحى رأس الكنيسة. فقد كان يعدّ دَيْنًا عليه الالتزام الدقيق بكلّ توصياته، في رعيّته، أوّلاً، ثمّ في الكنيسة جمعاء.

فهو، في تيّار البابا يوحنّا الثالث والعشرين، كان يبتغي أن تتبوّأ الكنيسة مكانها اللائق في العالم المعاصر، وفاءً لإرثها العريق الفريد، وتأهّبًا لمواجهة تحدّيات المستقبل. فالعالم كان قد خطا خطواتٍ علميّةً وتقنيّةً جبّارةً، حفرت هوّةً سحيقةً بينه وبين الكنيسة. وكان العالم يواجه أزمةً كيانيّةً من شأنها زعزعة الكنيسة، إن هي لم تسارع إلى تلبية مقتضيات الواقع الراهن، وإلى مساعدة العالم على تجاوزه.

ومن المشاكل التي يواجهها العالم، الخلَل في العدالة الاجتماعيّة، الذي يهدّد كرامة الإنسان. وعلى الكنيسة أن تعلّم المحبّة والمشاركة، وتدافع عنها، وأن تعيد الرجاء لمن فقدوه، وتملأ الفراغ الروحيّ، وتكافح التهميش الذي ألمّ بقوافل من هجروا ريفهم، وتكدّسوا في ذلّ ضواحي المدن الكبرى، وما ينجم عنه من مخاطر اجتماعيّةٍ وبيلةٍ. وعلى الكنيسة صدّ مذاهب الدجَل والتضليل، ومساعي التلاعب بمصائر المستضعفين. فالكنيسة هي «أمٌّ ومعلّمة» (Mater et Magistra)، وواجبها هو الجهر بالحقيقة، خدمةً للّه والبشر. وقد حرص البابا يوحنّا الثالث والعشرون على أن يكون المجمع تحديثًا، وتطوّرًا إيجابيًّا، لا ثورةً تقلب كلّ شيءٍ، وتطيح بالجيّد والسيّئ على السواء، ويمكّن الكنيسة من أداء رسالتها

الأصيلة، وترسيخ مصداقيّتها في العالم. وهي لن تقوى على ذلك، ما لم تستعِدْ شبابها وطاقاتها، كي تبلّغ البشريّة التائهة رسالة الخلاص.

هذا ما أدركه الأسقف «ڤويتيووا»، ربّما أكثر من كثيرين آخرين، وهذا ما جهد في سبيله. وهذا ما أثبتته مداخلاته المتعدّدة والمميّزة. فقد أكّد أنّ العالم لن يبرأ من عِلَله إلاّ بالله ومعه، وبيّن لتلك الغاية وسائل واضحةً.

فطالب الكنيسة بتغيير موقفها من العالم، الذي عليها أن تكون فاعلةً فيه، من غير أن تكون منه، عملاً بوصيّة المعلّم، وبأن تتحوّل من وضع السيّدة إلى وضع الخادمة؛ وأن تتبنّى قضايا العالم وتعالجها، وتقوده إلى الله بإغداقها الحبّ عليه، فالحبّ وحده هو الذي يبرّر السلطة، ويؤهّلها للعمل المجدي.

وعلى الكنيسة أن تعيد التبشير، محترمةً غير المؤمنين، لا أن تكتب إنجيلاً جديدًا، بل أن تفسّر إنجيل يسوع تفسيرًا ينير درب الحاضر الماثل ويرشده.

وعليها مواكبة الإنسان، كما هو، والنظر إليه نظرة حبٍّ وعطفٍ، مثلما كان يسوع يرنو برأفةٍ إلى الجموع المفتقرة إلى راعٍ. فالعالم يحتاج إلى الحقيقة، والكنيسة مكلّفةٌ بتبليغ الحقيقة، التي أعلنها يسوع، كلمة الآب.

عليها أن تعترف بالحقائق التي يثبتها العلم، مؤكّدةً ارتباط هذه الحقائق بالحقيقة التي تؤمن بها الكنيسة، حقيقة فداء البشريّة، ومصيرها فائق الطبيعة. على الكنيسة أن تشرع نوافذها على العالم المعاصر، وعلى هذا العالم أن يشرع نوافذه على آفاقٍ روحيّةٍ سماويّةٍ.

وعلى الكنيسة أن تشير إلى مواطن الخطأ وتدينها، متفاديةً إدانة الواقعين في الخطأ، بل السعي إلى انتشالهم من مستنقعه، والاعتراف بكلّ ما هو صائبٌ وخيّرٌ في كلّ ثقافةٍ.

ولكي يتسنّى للكنيسة النهوض بهذا الواجب، لا بدّ من أن تكون منزّهةً من كلّ عيبٍ، مزوّدةً بطاقاتٍ شابّةٍ، بفضل عودتها إلى الينابيع الأصيلة، وبفضل تلاؤم وسائلها مع مقتضيات الحاضر.

وعليها أن تكون أكثر إصغاءً إلى أصوات العلمانيّين المؤمنين، وأن توليهم دورًا أكبر في حياة الكنيسة. فقد كان يؤمن بضرورة تسرّب دمٍ جديدٍ من المركز إلى الأطراف، ومن الأطراف إلى المركز، من أجل إحياء كلّ جسد المسيح. لقد كان راسخ الإيمان بفاعليّة دور العلمانيّين الغيورين، في تسريب الإنسانيّة المسيحيّة إلى المجتمع بأسره.

وفي سياق المجمع، كان له مداخلةٌ فعّالةٌ في وضع بند «رسالة العلمانيّين». فقد كان موقنًا أنّ الكنيسة هي كلّ معمّدٍ، وأنّ كلّ مسيحيٍّ مسؤولٌ عنها. وطالب بحوارٍ صريحٍ بين الإكليروس والعلمانيّين، يتناول كلّ هواجس المؤمنين.

ولكي تكون شهادة الكنيسة ليسوع صادقةً ومؤثّرةً، عليها العمل الجادّ في سبيل المسكونيّة، مع حرصها على العقائد الأساسيّة.

ومن مقترحاته أيضًا:

– تأكيد أمومة العذراء للكنيسة، بحيث يتحتّم على كلّ أبناء الكنيسة التمثّل بيسوع ابن العذراء.

– اعتبار الهدف الأقصى للكنيسة هو القداسة، فالقداسة واجبٌ على كلّ معمّدٍ، وليست حكرًا على المكرّسين. والقداسة مشاركةٌ ساميةٌ بقداسة الثالوث نفسه، أي بقداسة الله.

– تنشئة كهنة كفيلين بتأكيد كلّ المبادئ التي ينبغي تأكيدها، حتّى إن لم ترتدِ صبغةً دينيّةً، بحيث يبدو القدسيّ ضروريًّا للإنسان المعاصر. ومن الأفضل أن يحصل الكهنة على دراساتٍ عليا، تؤهّلهم لرعاية علمانيّين رفيعي الثقافة.

– استخدام اللغات المحلّيّة في الطقوس.

هذه المقترحات كانت ثمرة عقودٍ من الرعاية الكهنوتيّة، ومن مواجهة النازيّة والستالينيّة، ونتيجة تدريسٍ جامعيٍّ، وسماع اعترافاتٍ، وحصاد خبراتٍ ميدانيّةٍ، أهّلته لوضع الإصبع على جراح العصر، وتشخيص دائه.

ومن القضايا التي ربّما تميّز بإثارتها، ضرورة إيلاء الكنيسة الشرقيّة دورًا أكبر،

والحدّ من هيمنة الغرب. وقد تحقّقت رغبته هذه، بأكثر ممّا تمنّى، بانتخابه، بعد سنواتٍ معدوداتٍ، رأسًا للكنيسة الجامعة.

وقد صرّح أنّ النتائج المرجوّة من المجمع لن تتحقّق، ما لم يتحوّل كلّ عضوٍ في الكنيسة، إكليروسًا ورعيّةً، بالنعمة، وبممارسة الأسرار، وبالصلاة، والتضحية. بذلك فقط، و«بوضع الفأس على جذع الشجرة»، تستطيع الكنيسة الانطلاق إلى غزو العالم روحيًّا. إنّها عند مفترقٍ حاسمٍ، وحذارِ من أن تُهدَر هذه السانحة، بل هذا الموعد مع الله، ومع الذين افتداهم يسوع بدمه.

جلسة المجمع الأولى

قبل انطلاق الأسقف «ڤويتيووا» إلى الجلسة الافتتاحيّة، أعلن لرعيّته: «**يستحوذ على جميعنا تأثّرٌ بليغٌ، هو جزءٌ من التأثّر الذي يجتاح، اليوم، الكنيسة جمعاء**».

ومنذ وصول الوفد البولونيّ إلى المدينة الخالدة، امتدح البابا يوحنّا الثالث والعشرون «مساهمة الكنيسة البولونيّة الفريدة، في إرث البشريّة والكنيسة». وبما أنّه لم يُسمح لجميع الأساقفة البولونيّين بالسفر إلى روما، فقد كان عدد وفدهم ضئيلاً، ومع ذلك كان وضعهم أفضل من وضع كنائس أوروبّيّة شرقيّةٍ أُخرى. فرؤساء أساقفة هنغاريا، وتشيكوسلوڤاكيا، وشانغهاي كانوا معتقلين. غير أنّ ضآلة عديد الوفد البولونيّ النسبيّة، عوّضها وزن آلام الاضطهاد التي قاسوها وقدّموها للربّ.

حضر «كارول ڤويتيووا» الجلسة الأولى بصفته أسقفًا جديدًا، شبه نكرةٍ خارج بلده، وظلّ شبه ممحيٍّ، مكتفيًا بالإصغاء والتفكير. وكان قد حُدِّد له مكانٌ خلفيٌّ، قرب باب الكاتدرائيّة، يبعد نحو مئةٍ وخمسين مترًا عن الهيكل الرئيس. وظلّ شبه مجهولٍ طيلة تلك الجلسة التي كانت، بالإجمال، مخيّبةً لآمال كثيرين، وحتّى للبابا يوحنّا الثالث والعشرين، رائد ذلك المجمع. ولكنّ وضع المجمع انتهج منحًى مختلفًا، بعد وفاة ذلك البابا، وتولّي خلفه بولس السادس رئاسته، وشرع نجم «ڤويتيووا» يسطع. وعند انتهاء المجمع كان قد أضحى من

أكثر المسؤولين الكنسيّين شهرةً، واعترفت به الصحافة العالميّة رجل فكرٍ فذٍّ، وحضورٍ مؤثّرٍ.

منذ البدء كان يساوره حَدْسٌ بأنّ ذلك المجمع سيكون حدَثًا فريدًا، وذا شأنٍ عظيمٍ، ولكنّه لم يتوقّع كم سيكون جوهريًّا لفهم الكنيسة ذاتها، ولتصويب مسيرتها، ولمستقبله الشخصيّ.

وجديرٌ بالذكر أنّ الأُسقف «ڤويتيووا»، في أثناء مشاركته بتلك الجلسة الأولى، قد أنفذ إلى «الأب پيو» (Padre Pio) رسالةً يسأله، بها، الصلاة من أجل طبيبةٍ نفسيّةٍ، أمٍّ لأربعة أطفالٍ، مصابةٍ بسرطانٍ متقدّمٍ، بلغ مرحلةً نهائيّةً، وكانت قد زوّدته بالمعلومات الطبّيّة، أثناء وضعه كتابه «حبٌّ ومسؤوليّة». وقبل مضيّ عشرة أيّامٍ، عاد فبعث إليه برسالة شكرٍ، إذ كان الشفاء العجيب قد تحقّق.

من جرّاء مشاركته في جلسات المجمع، كان الأسقف «ڤويتيووا» ينفق، كلّ خريفٍ، شهرين في روما يوفّران له حصادًا وفيرًا من التجارب. فقد كان قادمًا من بلادٍ تحتفل بالذكرى الألفيّة لعمادها، والتقى أساقفةً قادمين من شتّى أصقاع المسكونة، وبعضهم من بلدانٍ لم تعرف المسيحيّة إلاّ منذ نحو قرنٍ، ومع ذلك كانوا يحيون حقيقةً واحدةً، وعقيدةً واحدةً، بطرقٍ مختلفةٍ. وكان له هذا الاكتشاف مصدر إلهامٍ.

وقد أوحى له التقاؤه أساقفةً أفريقيّين هذه الأبيات:

«ها أنت، يا أخي.

إنّني أشعر بهذه الأرض الرحبة، حيث تختفي الأنهار فجأةً، وحيث الشمس تحرق الأجساد مثل أفران الفحم الحجريّ.

إنّني أرى في فكرك فكري،

قد تتباين الدروب، ولكنّ القسطاس الذي يُزان به الصواب والخطأ واحدٌ.

إنّني فرحٌ لأنّ ميزان أفكارنا واحدٌ.

قد تعكس هذه الأفكار في عينيّ وعينيك وهجًا مختلفًا،

ولكنّ الجوهر واحدٌ».

وقد مكّنته أشهر إقامته في روما من استيعاب سعة مسؤوليّات الحبر الأعظم. ولكنّه لم يقع في ما غالبًا وقع فيه آخرون، أي اعتبار روما هي الكنيسة كلّها، بل ظلّ يولي رعيّته في پولونيا الهمّ الأكبر، دائبًا على العمل في سبيلها. وقد بذل جهودًا فعّالةً من أجل تطويب اثنين من أبطال المقاومة الپولونيّة، هما «رافال كالينوڤسكي» و«آدم هيميلوڤيسكي» (المعروف باسم الأخ ألبير)، والراهبة الصوفيّة، الأخت «فوستين»، رسولة عقيدة «الرحمة الإلهيّة».

ولا ريب أنّ مشاركته في نقاشات المجمع كانت له مصدر اغتناءٍ فكريٍّ، وأضفت على عمله الفلسفيّ أثرًا خيّرًا. وبما أنّه لم يألف، يومًا، الاستكانة لكسلٍ أو توانٍ، عكف، كلّما تمادت نقاشاتٌ حول أمورٍ لا يعلّق عليها كبير اهتمامٍ، على تدوين أسس كتابٍ أطلق عليه عنوان «الشخص والفعل»، بدا لكثيرين عسير الفهم، بسبب كثافة فكره، ومع ذلك تُرجم إلى معظم اللغات الأوروپّية، وأثار جدلاً حادًّا. وقد قامت فلسفته، دائمًا، على ركائز لاهوتيّةٍ، وعلى إرادة النهوض بالإنسان، نحو غايته السامية.

جلسة المجمع الثانية

في هذه الجلسة، شارك الأسقف «ڤويتيووا»، مشاركةً فعّالةً، في وضع الفصل المتعلّق بالكنيسة «نور الأمم»، وصارع، بصرامةٍ وجرأةٍ، وعلى السواء، ضدّ المغالين في المحافظة، الراغبين في أن تظلّ الكنيسة عموديّةً، وضدّ المغالين في التجديد الساعين إلى جعلها ممعنةً في الأفقيّة، ومعرّضينها للتفتّت. فعلى الكنيسة أن تبقى على صورة الصليب بفرعيه العموديّ والأفقيّ، قارنةً الانفتاح بالوفاء، ممثّلةً شعب الله الذي يحيا بالإيمان والنعمة، ويسمو فوق كلّ صِيَغ المجتمع المدنيّ الطبيعيّة. فالكنيسة، كجماعةٍ، هي المظهر المرئيّ، لواقعٍ جوهريٍّ، غير مرئيٍّ، مرتبطٍ بسرّ التجسّد.

ومنذئذٍ، بدا اسم الأسقف «ڤويتيووا» يشقّ طريقه إلى ضمائر أساطين الكنيسة. ربّما ظلّ ذلك الاسم الغريب، غير المألوف، غماميًّا في أذهان

كثيرين؛ ولكنّ الأئمّة منهم أعجبوا بصفاء فكره وعمقه، وبجرأته التي لا تستسلم ولا تساوم على الجوهريّ.

ولا معدى عن التنويه بأنّه، طيلة إقامته في روما، ومشاركته في المجمع، لم يُنقص شيئًا من أوقات صلاته، وخشوعه، وتأمّلاته. وغالبًا ما كان ينفق آناء الليل راكعًا يصلّي أمام خباء القربان، أو أمام إحدى مراحل «درب الصليب». إنّه يصلّي من أجل الكنيسة، ومن أجل رعيّته التي يعتمد على صلواتها. وعندما لا يصلّي، يكتب أو يطالع، ولطالما أثار إعجاب مراقبيه بقدرته على الإصغاء والكتابة في آن واحدٍ. وقد صرّح لصديقه مالينسكي، الذي كان يشهده دائمًا مكبًّا على الكتابة: «**إنّني أعمل، في آنٍ واحدٍ، على إعداد مداخلتي القادمة في المجمع، وخطابٍ بالپولونيّة لرعيّتي، سأذيعه من خلال راديو الڤاتيكان، والدروس التي سألقيها في جامعة لوبلِن، ووضع كتاب**». فقد كان يتمتّع بقدرةٍ فريدةٍ على التركيز والتنظيم، ولا يفقد سانحة عملٍ واحدةً. وخُيِّل لسلفه البابا يوحنّا بولس الأوّل، الذي كان يجلس إلى جانبه في المجمع ويشهده دائبًا على الكتابة، أنّه يدوّن ملاحظاتٍ، في حين كان عاكفًا على وضع كتابٍ يتعلّق بالمجمع، بعنوان: «أسس التجدّد. بحثٌ في تحقيق المجمع الڤاتيكانيّ الثاني».

وحتّى عندما كان يستجمّ في رحاب الطبيعة، كان يرافقه، دائمًا، كتابٌ جادٌّ، أو مجلّةٌ فلسفيّةٌ أو لاهوتيّةٌ. وغالبًا ما كان يتجاذب الأحاديث والملاحظات عن المجمع مع إخوانه الأساقفة، ومع الوجوه المجمعيّة اللامعة، مثل الأب «كونغار» (Congar)؛ ويلبّي دعوات جمعيّاتٍ رهبانيةٍ راغبةٍ في الاستماع إليه.

في غروب عام ١٩٦٣، عقب انتهاء جلسة المجمع الثانية، قام بحجٍّ إلى الأراضي المقدّسة في فلسطين. وقد ألهمه هذا الحجّ هذه الأبيات:

«انتهيتُ إلى هذه الأماكن المليئة به. لست آتيًا كي أملأها بي، بل كي أمتلئ بها. مكاني هو فيك، ومكانك فيّ. وإنّك مكان كلّ إنسانٍ...

«إشعاع هذا المكان الداخليّ يمتدّ إلى كلّ أماكن الأرض الخارجيّة... لقد اخترتَ هذا الموقع منذ دهورٍ وفيه تقدّم ذاتك، وتستقبلني».

هذا الحجّ رفده بزادٍ من الطاقة تؤهّله للاضطلاع بمهمّاته الجديدة. فمع أنّ كثيرين توقّعوا أن يظلّ مركز رئاسة أسقفيّة كراكوڤيا شاغرًا، بسبب الظروف الدوليّة المتأزّمة، واحتدام الحرب الباردة بين القوّتين العُظميَيْن، ومرض البابا يوحنّا الثالث والعشرين، ووفاته، وانتخاب خلفه، وانشغال مسؤولي الكنيسة بالمجمع، فاجأ البابا بولس السادس الجميع، في غروب عام **١٩٦٣**، ولم يكن قد مضى سوى ستّة أشهرٍ على انتخابه، بتعيين الأُسقف «كارول ڤويتيووا» رئيس أساقفةٍ على كراكوڤيا، وهو، حينذاك، في الثالثة والأربعين من العمر، فكان أصغر مسؤولٍ كنسيٍّ يتبوّأ مركزًا رفيعًا. وكانت مداخلاته في المجمع قد أثبتت أنّه أملٌ مشرقٌ للكنيسة.

هذا التعيين كان تكريسًا لثقة الكراكوڤيّين بأسقفهم الشابّ، وقد برّر قداسة البابا تكليفه بهذه المهمّة، من خلال رسالةٍ قال له فيها: «**إنّ فطنتك، وورعك، وحسن تدبيرك للأمور، وتعاملك مع البشر، تجعلنا نأمل أن تكون للمؤمنين، لا رجل سلطةٍ وعطفٍ وحسب، بل في أن تنجح في خدمتهم خير خدمةٍ، فلأجلهم رُفّعتَ اليوم إلى هذا الشرف**».

وهكذا أمسى «كارول ڤويتيووا» يحتلّ، في پولونيا، المقام الثاني بعد كبير الأساقفة الكردينال «ڤيشينسكي»، وخليفة مرشده الروحيّ الكردينال «آدم ساپييها»، على كرسيّ القدّيس «ستانسلاس»، وواحدًا من أصغر من يحتلّون هذا المنصب الكنسيّ سنًّا.

وصدق حدْس أُمّه التي قالت عنه، طفلاً: «سيمضي بعيدًا، ابني «لوليك»». أجل، لقد مضى بعيدًا، وما زالت الطريق مشرعةً أمامه.

ولا ريب أنّ هذا التعيين قد أضفى على مداخلاته اللاحقة في المجمع، وقعًا أبعد وأعمق.

خليفة القدّيس ستانسلاس

في الساعة العاشرة من صباح الثامن من آذار ١٩٦٤، جرى الاحتفال، في

كاتدرائيّة «ڤاڤيل»، بتنصيب «كارول جوزيف ڤويتيووا»، رئيس الأساقفة السادس والسبعين في سلسلة رؤساء أساقفة كراكوڤيا، التي كان القدّيس ستانسلاس حلقتها الأولى.

وجاء في عظة المحتَفَل به، أنّ تلك الكاتدرائيّة تمثّل كلّ ماضي الأمّة، وعليها يمكن إشادة مستقبل «پولونيا». وقد أوضح رئيس الأساقفة الجديد أنّه ابن كنيسة كراكوڤيا التي حملته مثلما تحمل أمٌّ وليدها، وها هو قد أضحى لها أبًا، بتكليفٍ من خليفة بطرس. ثمّ أسهب في تبيان معنى الرعاية كما يفهمها، وكما يعتزم تحقيقها.

ذلك اليوم كان عيدًا مجلجلاً في كراكوڤيا وضواحيها، عبّر، من خلاله، الپولونيّون عن حرارة إيمانهم، وأكّدوا للحكّام الشيوعيّين أنّهم لا يخشونهم. فعلى هؤلاء الحكّام أن يحسبوا لهم حسابًا، رغم كلّ محظوراتهم، ومضايقاتهم، وأساليب بطشهم.

لقد غَصّت الكاتدرائيّة بحشدٍ من الأصدقاء، الذين حرصوا على ارتداء أزيائهم التقليديّة المميّزة. واستهلّ رئيس الأساقفة مهمّته الجديدة، بالتخشّع والصلاة أمام لحدَيْ القدّيس ستانسلاس، والكردينال «آدم ساپييها». ولا ريب أنّ خلافة قدّيسٍ عظيمٍ من زمنٍ غابرٍ، وبطلٍ فذٍّ من عصرٍ حديثٍ، تمثّل شرفًا جليلاً، ومثل كلّ شرفٍ، سيتعيّن على رئيس الأساقفة الجديد دفع ثمنه.

لقد قضى «كارول ڤويتيووا» في كراكوڤيا أربعين سنةً، منها أربع سنواتٍ معاونًا أسقفيًّا، وسنتين مسؤولاً «فعليًّا» عن رئاسة الأسقفيّة الشاغرة، ثمّ أمضى أربع عشرة سنةً رئيسًا لأساقفتها. وفي جميع هذه الحالات والأوضاع، نُسِجَت بين تلك المدينة وبينه، أواصر مودّةٍ، وتوافقٍ تامٍّ.

فهو مفكّرٌ، وكراكوڤيا هي عاصمة پولونيا الفكريّة. وهو وطنيٌّ، وكاتدرائيّة كراكوڤيا هي مستودع تاريخ پولونيا النضاليّ. هو كاتبٌ، وكراكوڤيا كانت مهد أوّل كتابٍ صدر بالـپولونيّة. وهو كاهنٌ وأُسقفٌ في مدينةٍ زخرت بشهود الإيمان المسيحيّ، بدءًا بأُسقفها الأوّل الشهيد القدّيس ستانسلاس، وانتهاءً بالكاهن

الشهيد القدّيس «مكسيميليان كولبي». كانت القداسة تنبض في أجواء كراكوڤيا، ومنها امتلأ «كارول ڤويتيووا». وكان يعي، وعيًا عميقًا، ثقل مسؤوليّاته، ولا يأخذه منها أيّ خوفٍ، بفضل ثقته المطلقة في يسوع وأمّه، وإيمانه الراسخ بالشعب البولونيّ، الذي كُلّف برعايته الروحيّة، وحرص على تعميق وعيه لكرامته الإنسانيّة، ولسموّ مصيره.

وجديرٌ بالتنويه أنّ تعيين أيّ أسقفٍ أو رئيس أساقفةٍ في پولونيا، في تلك الحقبة، كان خاضعًا لموافقة الحزب الشيوعيّ. وكانت قد قُدّمت، على التوالي، مقترحاتٌ لسبع أسماء، لم ينلْ أيٌّ منها موافقةً، إلى أن رجّح الحزب اسم «كارول ڤويتيووا»، زاعمًا أنّه لم يتخطَّ الثالثة والأربعين، وهو بالتالي قليل الخبرة والحيلة، وأنّه مفكّرٌ مولعٌ بالفلسفة، بعيدٌ عن الخِدَع السياسيّة، فيسهل خداعه بوعودٍ جوفاء مبهمةٍ، واستخدامه أداةً طيّعةً لتحقيق أهداف النظام الماكرة، وإيقاع الشقاق بين أطراف المسؤولين الكنسيّين البولونيّين، وتهميش كبير الأساقفة الكردينال «ڤيشينسكي»، والحدّ من تأثير الكنيسة على المجتمع. وقد غرب عن بال الشيوعيّين تأثير الأسقف «ڤويتيووا» البليغ في الشباب، ومقاومته العنيدة والذكيّة من خلال المسرح الملحميّ، وصلابة إيمانه والتزامه، ومهارته التفاوضيّة التي أهّلته لانتزاع تنازلاتٍ هامّةٍ من الحزب. وربّما غاب عن ذهن الشيوعيّين، أنّه كان قد نصب، في كاتدرائيّة «ڤاڤيل»، تمثالين لبطلين وطنيّين قدّيسين، اعتمدا المقاومة السرّيّة للظفر بالحرّيّة.

من الجليّ أنّ الرفاق الشيوعيّين استخفّوا بالمقاومة الثقافيّة، ولم يقيموا وزنًا للآراء التي لا تتحوّل أفعالاً عنيفةً، ورأوا في عظات «ڤويتيووا» الحماسيّة، «أفيونًا» كفيلاً بتهدئة النفوس. وخُيّل إليهم أنّه سيكون من اليسير عليهم استغلال سذاجة رئيس الأساقفة الجديد، بحمله على تبنّي مواقف تضعف موقف الكردينال «ڤيشينسكي». ومن المؤكّد، أيضًا، أنّ الكردينال المذكور، لم يكن على معرفةٍ وثيقةٍ بالأسقف «ڤويتيووا»، وكانت تقلقه ميوله التجديديّة. وعندما استوضح رأيه فيه اكتفى بالقول إنّه «شاعرٌ»، أي مفكّرٌ يسبح بين الغيوم.

عند تعيينه، ابتهج الرفاق الشيوعيّون مؤكّدين أنّه هو الرجل الذي كانوا

يحتاجون إليه. ولكن، ما كادت تنقضي ثلاثة أشهرٍ حتّى أعلنوا خيبتهم، واعترفوا: «لقد خدَعَنا ڤويتيووا».

وكان الأب «بارديكي» قد علّق على تعيينه بقوله: «بوسع الروح القدس فرض إرادته، تارةً بتعتيم الأفكار، وتارةً بإنارتها».

جلسة المجمع الثالثة (١٩٦٤)

عند افتتاح هذه الجلسة، يوم ١٩٦٤/٩/١٤، كان على المجمع أن يبحث مواضيع هامّةً، تتعلّق بالعقيدة، والأخلاق، والرعاية. وأُتيح للأُسقف «ڤويتيووا»، بصفته رئيس أساقفة، أن يتبوّأ مكانه، في الصفوف الأولى، وأن يلعب دوره في صميم معركة العالم والكنيسة، مدافعًا عن مكانة الإنسان وحرّيّته، وسط المجتمعات المغالية في الليبراليّة اللاأخلاقيّة غربًا، وتلك المسرفة في القمع شرقًا، ولا سيّما في الدول الخاضعة للحكم الشيوعيّ، حيث تُنتَهك، بانتظام، كرامة الإنسان الجوهريّة، وحقوقه الأساسيّة، وخاصّةً حرّيّة الوجدان، وحرّيّة ممارسة الإيمان.

وقد أهّله للذود عن هذه الحقوق الأساسيّة تميّزه بخصالٍ فريدةٍ، وأهمّها ثقافته الواسعة، لاهوتيًّا، وفلسفيًّا، وأخلاقيًّا، ومواهبه اللغويّة الغنيّة. وقد مكّنه، أيضًا، هذا الوزن الثقافيّ والإنساني من مواجهة نُخَب الكنيسة الغربيّة، المصابة بعقدة تفوّقٍ، توحي لأصحابها احتكار إدارة المجمع. وفضلاً عن المزايا التي أشرنا إليها، كان الأسقف «ڤويتيووا» يتكلّم بلسان «كنيسة الصمت»، الكنيسة الشهيدة المتألّمة، والتي لآلامها وقعٌ أقوى من كلّ خطابٍ. وهو، بذلك، فتح لكنائس العالم الثالث باب التعبير عن هواجسها ومطالبها.

ولكي يظفر بما يريد، اكتفى بالدفاع عن الجوهريّ، ولكنّه، في دفاعه، كان صامدًا. والجوهريّ، عنده، هو الله والإنسان الشامل، الله مع الإنسان، وموقف الكنيسة من الإنسان.

وقد دعمه، في مسعاه هذا، إخوانه الأساقفة الپولونيّون، ومثقّفون پولونيّون

زوّدوه بالوثائق التي تساعده في كفاحه. وقد انتهج، في هذا الدفاع، اتّجاهيْن: كرامة الإنسان، والحرّيّة الدينيّة، ولا سيّما أنّه خَبَر النظامَيْن النازيّ والشيوعيّ، اللذين أمعنا في سحق الإنسان، في كرامته الجسديّة والأخلاقيّة، وفي بُعده الروحيّ.

في مستهلّ الجلسة، وأمام آباءٍ متحفّظين، تعرّض، بجرأةٍ، لقضيّة الحرّيّة الدينيّة في علاقتها مع الحقيقة. لم يتسنَّ له، حينئذٍ، الإسهاب في عرض أفكاره، ولكنّه أطلق النقاش، وحمله ذلك على التصدّي للإلحاد الماضي استشراءً، شرقًا وغربًا، مميّزًا بين الإلحاد الفرديّ، والإلحاد الرسميّ المفروض عنوةً، كما هي حال الماركسيّة، مؤكّدًا أنّ الحرّيّة الدينيّة هي شرطٌ لا غنى عنه لتحقيق كرامة الإنسان. وحيال أعداء الإيمان، أكّد أنّ الإيمان ليس استلابًا للحرّيّة، بل هو طريقٌ إلى التحرّر. وقوّة الكنيسة تكمن في إبراز ما ينطوي عليه الإيمان من ديناميّةٍ تفتقر إليها الماركسيّة، افتقارًا يمثّل موطن ضعفها.

وبيّن أنّ كرامة الإنسان تسمو فوق المصالح. فالإنسان مخلوقٌ من أجل الله، وعلى هذه الحقيقة تقوم كرامته، وتستحقّ أعمق احترامٍ. وهذه الكرامة تقوم على امتلاك الإنسان الحرّيّة والروح، وعلى الحقيقة والوجدان. والله يهبُ الحقيقة لمن ينشدها بصدقٍ، ويزوّد كلّ كائنٍ بشريٍّ بالضمير الذي يؤهّله للتمييز بين الخير والشرّ.

وفضلاً عن ذلك، كرامة الإنسان منطلَقٌ لتقديس الذات، ومن ثمّ، هي أفق رجاءٍ لا حدود له. ورسالة الكنيسة هي إرشاد الإنسان إلى هذا الدرب.

بهذه الأفكار النابعة من خبرةٍ راعويّةٍ، طويلةٍ ويقظةٍ، ومن ذهنٍ ناضجٍ، أثبت الأسقف «ڤويتيووا» تأثيره في المجمع، ومهّد لإبراز كلّ طاقاته في الجلسة الرابعة.

جلسة المجمع الرابعة والأخيرة

كانت الجلسة الثالثة قد اختُتمت بإنجازٍ قيّمٍ، يتعلّق برسالة الكنيسة «نور الأمم»، وبدور العذراء فيها، توافقًا مع فكر الأسقف «ڤويتيووا». فالكنيسة ليست

مجرّد مؤسّسةٍ تاريخيّةٍ، بل هي، في المقام الأوّل، جماعةٌ مكرّسةٌ تضمّ أعضاءً تجدّدوا بسرّي الفداء والمعموديّة. والكنيسة، على مثال معلّمها ومؤسّسها الإلهيّ، هي خادمة المعمّدين، وجميع المفتدين بدم يسوع.

وكان على المجمع أن يلبّي رغبة البابا يوحنّا الثالث والعشرين، وأن يوفّق بين الكنيسة والعالم الحديث، فتكون أكثر تضامنًا مع «أفراح، وآمال، وآلام بشر اليوم... وتلاميذ يسوع». وكان البابا الراحل قد أوكل إلى خلفه، «الكنيسة، ملح الأرض، والمجتمع، والسلام». وأُلّفت، منذ نهاية عام ١٩٦٢، لجانٌ تتولّى تحقيق رغبة الحبر الراحل. ولكنّ الأسقف «ڤويتيووا» بادر إلى وضع وثيقةٍ مستقلّةٍ عن مشروع تلك اللجان. وبتاريخ ١٩٦٥/١٠/٢٨، تقدّم، بثباتٍ، من المنصّة، وعرض، بجرأةٍ ووضوحٍ، مشروعه مشدّدًا على أن تظلّ الكنيسة قويّةً، بصونها هويّتها الجوهريّة، متخلّيةً عمّا أبعدها عن شعبها، وعن الواقع الماثل، ناظرةً إلى الإنسان المعمّد، من الداخل، بكلّ كيانه، وفي إطار نسيجه المجتمعيّ. وطالب اللاهوتيّين الغربيّين بالتحرّر من عقدة التفوّق تجاه كنائس الشرق والعالم الثالث. وتمكّن، بصبرٍ، ومثابرةٍ، وجرأةٍ، من فرض رؤيته، دامغًا بطابعه رؤية المجمع إلى دور الكنيسة في العالم المعاصر.

ويوم ١٩٦٥/١٢/٧، اختتم المجمع جلساته، بالموافقة، بشبه إجماعٍ، على دستورٍ استنفد من جهود الأسقف «ڤويتيووا» قسطًا وفيرًا، واحتلّ من قلبه حيّزًا أثيرًا. هو «الكنيسة في عالم اليوم»: «فرح ورجاء» (Gaudium et Spes)، الذي تناول، في فصله الأوّل «كرامة الشخص الإنسانيّ».

وفي ذلك اليوم عينه، أثلجت صدور جميع المسيحيّين الخطوة المسكونيّة الجبّارة، المتمثّلة في المصالحة بين البابا بولس السادس والبطريرك الأرثوذكسيّ أثيناغوراس، وتبادلهما الاعتذار ورفع الحرم الكنسيّ.

وعن تأثير الأُسقف «ڤويتيووا» في المجمع، كتب اللاهوتيّ «إيڤ كونغار»:

«كان تأثيره بليغًا. فشخصيّته طاغيةٌ، تتجلّى فيها الحيويّة، وقوّة الجاذب، وموهبةٌ نبويّةٌ تتّسم بالسلام، وتتعذّر مقاومتها».

ومن المحقّق أنّ مشاركته الجريئة في المجمع، قد أسهمت في إصدار وثائق تجديديّةٍ، توفّق بين العقيدة المسيحيّة، والنظرة إلى قضايا نهاية القرن العشرين الحارقة. فهو، منذ البدء، عدّ مشاركته في المجمع واجبًا لا امتيازًا. وفي الآن عينه، حرص على أن تبقى رعيّته في كراكوڤيا، مطّلعةً على ما يجري في روما، وأن يشيع لدى البولونيّين انطباعًا بأنّهم على صلةٍ وثيقةٍ بذلك الحدث الكاثوليكيّ العالميّ الجَلَل.

وهكذا، استطاع العودة إلى وطنه، بعد أن وُفّق إلى تسريب دمٍ شابٍّ إلى الكنيسة، ومعتزمًا وقف جهوده المقبلة على وقاية مكتسبات المجمع واستثمارها.

مصالحةٌ تثير سجالاً

كانت الاستعدادات للاحتفال بالذكرى الألفيّة لمعموديّة پولونيا قد بلغت ذروتها، وارتأت اللجنة الأسقفيّة، بهذه المناسبة، وبوحيٍ من روح المجمع، تطهير الذاكرة الجماعيّة، وعقد مصالحةٍ بين الكنيسة البولونيّة والكنيسة الألمانيّة، كفيلةٍ بدفن الأحقاد التي تراكمت بين الشعبين، من جرّاء التاريخ الدامي بينهما، وانتزاع أجزاءٍ عزيزةٍ من پولونيا أُلحقت بألمانيا، ثمّ استعيد بعضها بموجب الاتّفاقات الدوليّة.

ورغب الأساقفة البولونيّون المشتركون في المجمع في دعوة نظرائهم، في العالم، إلى مشاركتهم احتفالاتهم. وأُنيطت مهمّة دعوة الأساقفة الألمان برئيس الأساقفة «ڤويتيووا»، فاتّفق مع نظرائه الألمانيّين على أن يوجّه كلّ طرفٍ إلى الطرف الآخر، نصّ صفحٍ واستصْفاحٍ. وقد أفضى تبادل الرسائل هذا إلى تسوية الخلافات الناشبة بين الشعبيْن والكنيستيْن، وخيّم روح المصالحة المنبثق من المجمع، مبلسمًا جراحًا بليغةً طالما أوجعت كنيسة المسيح.

غير أنّ هذه المصالحة لم تستسغها فئةٌ من البولونيّين المغالين في وطنيّتهم، الذين استنكروا التماس أساقفتهم الصفح ممّن تعدّوا عليهم وساموهم الحيف.

وجاء استنكارٌ أشدّ حدّةً من الحكّام الشيوعيّين، الساعين دائمًا إلى زرع

الفرقة، والذين توجّسوا خشيةً من أن يفضي هذا التقارب بين الكنيستين، إلى تمتين اللحمة المسيحيّة الأوروبّيّة، ودعمها في مواجهة محاولات ترسيخ الإلحاد الماركسيّ. كما أنّهم رأوا في عمل الأساقفة استلاب دور المحتلّ الشيوعيّ، الذي يدّعي احتكار القرار البولونيّ، وتجاوزًا لصلاحيّاتهم بصفحهم عمّا لا يجوز الصفح عنه، في حين كان حكمهم يرتكب من الجرائم أفظعها، وما لا يمكن، إنسانيًّا، غفرانه. ومن ثمّ شنّ الشيوعيّون، بتوجيهٍ شخصيٍّ من «بريجنيف»، حملةً إعلاميّةً شعواء، ماكرةً، على الكنيسة البولونيّة، وبصورةٍ خاصّةٍ، على رئيس أساقفة كراكوفيا، متّهمةً إيّاه والكنيسة بخيانة وطنهم.

وفي هذا السياق، أيضًا، منع الحكم الشيوعيّ نشر رسائل الصفح المتبادلة بين الكنيستين، في الصحف البولونية، وعمد إلى نشر بيانٍ مزوّرٍ باسم عمّال المصنع الكيميائيّ، الذي سبق لكارول ڤويتيووا العمل فيه، معبّرًا عن استنكارٍ مزعومٍ لموقف الأساقفة الذين لا يمثّلون الرأي العامّ، وليسوا مفوّضين بالتكلّم باسم الشعب.

وتضافر عميد الأساقفة، الكردينال «ڤيشينسكي»، ورئيس أساقفة كراكوڤيا، على موقفٍ صامدٍ، وعلى الدفاع، بصرامةٍ، عن موقف الأساقفة البولونيّين. فأعلن الكردينال «ڤيشينسكي»، جهارًا، في مزار «تشينستوهوڤا»: «نحن، أساقفة پولونيا، مع شعب الله، نصفح». ومن جهته، أعلن رئيس أساقفة كراكوڤيا أنّه ليس من شأن الشيوعيّين المنغمسين في الجرائم، إلقاء مواعظ في الوطنيّة والأخلاق. كما أنّه وزّع، سرًّا، بيانًا فسّر فيه موقف الأساقفة، مشكّكًا بمصدر البيان الذي اختلقته وعمّمته السلطات المحتلّة. فهو، أيضًا، كان، ذات يومٍ، عاملاً، ويستطيع التأكيد أنّه يتعذّر إصدار مثل هذا البيان المنسوب، افتئاتًا، إلى العمّال، والمفتقر، افتقارًا كلّيًّا، إلى المنطق والرويّة، من قبل أيّ إنسانٍ يكون قد اطّلع على رسالة الأساقفة البولونيّين، وردّ الأساقفة الألمان عليها. وذكّر بأنّ الأساقفة ندّدوا، أشدّ تنديدٍ، بالفظائع التي ارتكبها الحكم النازيّ في پولونيا، وأنّ الأساقفة الألمان اعترفوا بهذه الجرائم، واستنكروها، والتمسوا الصفح عنها باسم بلادهم، مؤكّدًا أنّ الصفح والاستصفاح هما من صلب تعليم الإنجيل،

وأنّ ثمرة المصالحة كانت إعادة القطاعات المسلوبة من پولونيا إلى أصحابها الشرعيّين.

ومنذئذٍ، غدا رئيس الأساقفة، «ڤويتيووا» هدف اضطهاد الشيوعيّين، الذين نشروا، من حوله، عيونهم وأزلامهم، ورصدوا كلّ تحرّكاته، وسجّلوا كلّ أقواله. ولكنّهم فشلوا في ثلم عزيمته، وفي النيل من جرأته، فلم يتوانَ عن التنديد، جهارًا، من فوق المنابر، بتصرّفات المحتلّ الشائنة، التي تنتهك كرامة الإنسان، والحرّيّة الدينيّة، اللتين كرّسهما المجمع الڤاتيكانيّ. وسرعان ما أدرك الشيوعيّون أنّ «ڤويتيووا» هو أشدّ مقاومةً للنظام الملحد من الكردينال «ڤيشنيسكي»، بسبب ذكائه، وثقافته، ودماثته، وسيطرته على ذاته. ولكنّ سعة شعبيّته، وإجلال الشبيبة والمثقّفين والرعيّة له، جعلاهم حذرين من التعرّض المباشر له.

وفي سياق ردّه على الحملة الشيوعيّة، احتفل رئيس الأساقفة «ڤويتيووا» بليلة عيد الميلاد، في قرية «نوڤا هوتا»، التي شاءها الشيوعيّون نموذجيّةً، فمنعوا تشييد كنيسةٍ فيها، وأقام فيها قدّاس منتصف الليل في العراء، وزفّ للمؤمنين بشرى جلبه من روما، حجرًا منتزعًا من ضريح زعيم الرسل، بطرس، في كنيسة القدّيس بطرس القديمة، التي بناها قسطنطين. وكان هذا الحجر قد باركه قداسة البابا بولس السادس، ليكون حجر أساس الكنيسة العتيدة، التي ستُبنى، ذات يومٍ، في قرية «نوڤا هوتا». وفي الآن عينه، استهجن سيادته دأب بعض الپولونيّين على نبش أحقاد الماضي، في حين هم يواجهون طغيان حكمٍ يمنع حتّى بناء كنيسةٍ في إحدى قراهم.

وكان، منذ عودته من روما، قد وطّن العزم على وضع مقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ موضع التنفيذ في رعيّته. وأمسى المؤمنون أمضى عزيمةً على الذود عن إيمانهم، متسلّحين بموقف المجمع من حرّيّة الممارسة الدينيّة.

رئيس أساقفةٍ من نمطٍ فريدٍ

بصفته رئيس أساقفةٍ، كان يترتّب عليه، كلّ يومٍ، مواجهة طائفةٍ من القضايا.

وقد انتهج أسلوبًا متميّزًا في حلّها، بادئًا بالتساؤل: ما هي الحقيقة الإيمانيّة الكفيلة بإضاءة هذه القضيّة؟ وبعدئذٍ، يبحث عن الشخص الأجدر بتكليفه أو تثقيفه، للمساعدة على التعامل مع القضيّة. كان يعي أنّه يدير كنيسةً، فأدارها على هذا الأساس، لا كما تُدار مؤسّسةٌ.

كلّ نشاطه، كاهنًا، فأسقفًا، فرئيس أساقفةٍ، ثمّ حبرًا أعظم، كان مرتكزًا على شعاره المتمثّل، قبل كلّ شيءٍ، في الصليب، رمز الحبّ والفداء، وعلى يسوع، الإله المتجسّد، وعمله في الخليقة، وعلى ازدهار الإنسان، والإيمان بأنّ كل إنسانٍ هو فريدٌ، ويستأهل عنايةً خاصّةً. وبالتالي، كان دائم السعي إلى تزويد كلّ إنسانٍ بخبز الحياة، أي بالحقيقة المحرِّرة التي بشّر بها الإنجيل.

وقد تميّز عمله الرسوليّ ببذل الذات، والنأي عن التظاهر، وعن فرض رأيه الخاصّ. ولكنّ شخصه كان يبرز ويتجلّى تلقائيًّا. كان يؤثّر بحضوره، لأنّه كان ممتلئًا بالحضور الإلهيّ، حضورٍ يفسّر إشعاعه الفذّ، وفرحه، وانفتاحه، وإنسانيّته، ودماثته. كان يجتذب بصراحته، وسداد حكمه، وصواب رأيه، واستقامته، ورسوخ عقيدته. لم يكن يوحي بالرهبة، بل بالاحترام والإعجاب. وقد أكّد العاملون معه أنّه كان رئيسًا مثاليًّا، لم تأخذه، يومًا، سورة غضبٍ، ولم يؤنّب أحدًا بقسوةٍ. كان متوازنًا، متماسك المنطق، وقد اعترف أحد معاونيه: «تماسك منطقه هو ما يميّز طبعه. فهو، في آنٍ واحدٍ، ملتزمٌ بالتقليد، بماضيه وثقافته، ومع ذلك هو مستعدٌّ، دائمًا، للخروج عن المألوف، والانفتاح على صِيَغٍ جديدةٍ، لمواجهة مشاكل جديدةٍ».

كان يحكم بالحبّ والكفاءة، ويظلّ دائمًا واقعيًّا، دائم الإصغاء إلى الآخرين، مرحّبًا بكلّ ما هو جيّدٌ لديهم، يروز مبادراتهم قبل تبنّيها، ويولي ثقته كلّ جديرٍ بالثقة. وقد أدهش الجميع بحسّ التواصل الإنسانيّ المرهف، الفطريّ لديه، الذي أكسبه حبّ المؤمنين وثقتهم.

وقد استعان على النهوض بمهامّه الجسيمة بوسائل جزيلة الجدوى: التنظيم، والعمل الجماعيّ، والصلاة، والزهد.

فقد كان يمتلك **عبقريّةً تنظيميّةً** فريدةً، تمكّنه من استثمار كلّ ثانيةٍ من وقته. كان يدوّن بيده خطط عمله، ومداخلاته الراعويّة، ورسائله الهامّة. وقد ساعده تنظيمه وتركيزه، وفكره الدائم اليقظة، وخبرته الراسخة، على الاضطلاع، في آنٍ واحدٍ، بمهمّاتٍ متعدّدةٍ ومتباينةٍ، تشمل أعباء رئاسة الأسقفيّة المتعدّدة الجوانب، والمشاركة في أعمال الكنيسة الجامعة، والتدريس الجامعيّ، والنشاط الصحافيّ والأدبيّ، وتنظيم أسفاره، وعلاقاته بالشبيبة وسائر أبناء رعيّته، واقتناص فسحات استجمامٍ ورياضةٍ.

كان له الوقت رأسمالاً غاليًا، يضنّ بهدر ذرّةٍ منه، فنظّم برنامج يومه بحيث يستثمر كلّ ثانيةٍ. كان ينهض بين الساعة الخامسة والخامسة والنصف صباحًا، وينفق ساعة نهاره الأولى، في الصلاة. وإثر القدّاس، في مصلاّه الخاصّ، الذي يشاركه فيه أمين سرّه وفريق معاونيه، كان يتناول إفطاره في المطبخ، ثمّ يختلي في المصلّى وحيدًا، ويجلس إلى مكتبٍ صغيرٍ، على مقربة من الهيكل حيث كان الكردينال، «ساپييها» قد رسمه كاهنًا، ويمضي ساعتين في الكتابة أمام القربان المقدّس، بين التاسعة والحادية عشرة. وفي هذه الأثناء، يُمنع أيٌّ كان من مقاطعته. ثمّ يخصّص ساعتين لاستقبال الزائرين والمراجعين. وكلّ من شاء مقابلته، كان يأتي منذ الساعة الحادية عشرة، فيستقبل الجميع، على التوالي، ويدعو آخر الزائرين إلى مقاسمته الغداء. وكان موعد هذا الغداء محدّدًا في الساعة الواحدة والنصف، ولكنّه قلّما كان يبدأ قبل الثانية أو الثانية والنصف، لأنّه كان دائم الحرص على ألاّ يردّ أحدًا من طالبي مقابلته. ولطالما سبّب هذا الحرص تأخّره عن مواعيده، الذي اشتُهر به. وغالبًا ما يكون الطعام قد برد، ونفد صبر الكهنة الشباب، عندما يحضر جاريًا، إلى المائدة، ويقول، مازحًا: «**لقد جاء الأسقف في تمام الواحدة والنصف لتناول الغداء، ولكنّ ساعاتكم هي غير دقيقة**».

فترة بعد الظهر والمساء، كان يخصّصها لمقابلاتٍ خاصّةٍ، وللمطالعة والكتابة، ولزياراتٍ في المدينة والجوار. ولكي يستغلّ أوقات تنقّلاته، كان قد وضع في القسم الخلفيّ من سيّارته، مكتبًا مضاءً، يمكّنه من المطالعة والكتابة، فيما كان سائقه يقتاده إلى مقصده.

لم يكن لديه تيليفزيون، ولكنّه كان يتابع أخبار العالم من إذاعة أوروبّا الحرّة، صباحًا، وهو يحلق ذقنه.

ومع أنّه كان يبدو صاحب طاقاتٍ لا تنضب، التزم الدقّة في توزيع وقته، بين شتّى المهامّ التي كان عليه الاضطلاع بها. وكانت قدرته على القيام بعملين، في آنٍ واحدٍ، دليلاً على قدراتٍ خارقةٍ، غير مألوفةٍ. وفي سبيل تجديد هذه القدرات، حرص، دائمًا، على رياضاته البدنيّة، ولا سيّما التجذيف في الأنهر، صيفًا، والتزلّج، شتاءً.

بيد أنّ التنظيم المحكم لم يفقده حرّيّة المبادرة، ولم يقيّده، ولم ينقلب، يومًا، بيروقراطيّةً جامدةً، طاغيةً، منفصلةً عن مقتضيات الواقع، تفضي إلى العقم والجفاف. بل إنّه حرص، دائمًا، على أن يبقى عمله إنسانيًّا، مسترشدًا بإلهام الروح القدس.

وسيلته الثانية للنهوض بأعباء مهمّاته الجسيمة، كانت **العمل الجماعيّ**، والاستعانة بمعاونين، إكليريكيّين وعلمانيّين، يتمتّعون بالكفاءة والوفاء. فلم يتوانَ عن الاستفادة من طاقات كلٍّ منهم، متعاملاً مع كلّ فردٍ وفقًا لطباعه الخاصّة. وكلّف آخرين بالأمور اليوميّة الجارية، كي ينصرف إلى المهامّ الأساسيّة المتعلّقة برعاية النفوس. وخصّص لقاءً أسبوعيًّا مع معاونيه لمناقشة سير الأمور.

ومثلما مارس مسؤوليّاته السابقة، مارس مسؤوليّة رئاسة الأُسقفيّة، ببساطةٍ، ودرايةٍ، وغيرةٍ. لم يغيّر موقفه من أحدٍ. وحيثما حلّ، كان يشيع جوّ طمأنينةٍ، بلطفه، وطيبته، وروح مرحه، ونزعته إلى التشاور والتفاهم، قبل إقرار أيّ تدبيرٍ.

وغالبًا ما كان يُتبع التشاور بالتفكير والصلاة، ويقترح الأنسب والأجدى. وقد حرص، دائمًا، على أن يسود جوّ إخاءٍ بينه وبين إخوانه الكهنة، في سبيل خدمةٍ مثلى. وقد وصف، هو نفسه، موقفه هذا بقوله: «**السلطة تعود للأسقف، ولكنّ المهمّ هو طريقة ممارسته لها، وإقامته توازنًا بين الإدارة والخدمة. فعلى الأسقف أن يخدم وهو يدير، وأن يدير وهو يخدم، على غرار المسيح... لقد اتّخذتُ كلّ القرارات الهامّة، بالتشاور، ما أمكن، مع معاونيّ الأساقفة، وكلّ معاونيّ الآخرين**».

كان يعدّ كهنته إخوةً، لا مرؤوسين. كان رئيسًا بكلّ معنى الكلمة، ولكنّه في الآن عينه، كان أسقفًا يعمل في تعاونٍ وثيقٍ مع كهنته، فيُكثر لقاءاته بهم، ويساعد الجدُد منهم في مهامّهم، ذاكرًا عهد كونه كاهنًا جديدًا. ومن الكهنة القدامى، كان يستمدّ كنوز حكمةٍ وخبرةٍ، تراكمت على مدى سنوات الجهد الرسوليّ. ولم يكن يُنكر فضل أحدٍ.

وكان قد أحاط نفسه بأربعة معاونين، يتولّون مختلف المهامّ الضروريّة لإدارة الأُسقفيّة، فاسحًا لكلٍّ منهم مساحة حرّيّةٍ في ميدان اختصاصه. وكلّما اقتضى الأمر اتّخاذ قرارٍ هامٍّ، كان يستمع لرأي كلٍّ منهم، ويسعى إلى استخلاص قرارٍ يحظى بإجماعهم. وكان يتوقّع انتقادات الخاضعين لسلطته، ويتقبّلها بطيبة خاطرٍ، وبذلك يدفعهم إلى مصارحته. واتّفق، يومًا أن كلّف كاهنًا بدراسة قرارٍ كان قد أعدّه، فعلّق عليه الكاهن تعليقًا ممعنًا في القسوة، واعترف، لاحقًا، أنّ تعليقه كان «فظًّا».

ولما اطّلع عليه رئيس الأساقفة — وكان في هذه الأثناء قد أصبح كردينالاً — استدعى الكاهن وقال له: «**أنت محقٌّ. فالمشروع سيّئٌ. ولكن عليّ أن أطلعك أنّني أنا من وضع هذا المشروع، وكنت، آنذاك في حالة إرهاق**». واعترف الكاهن، إثر ذلك، أنّه، لو كان ما حدَث له مع الكردينال «ڤويتيووا»، قد حدث مع أُسقفٍ آخر، لما كان نجا بمثل هذه الكياسة.

وفي مناسبةٍ أُخرى، قدّم أحد الكهنة مشروعًا لم يستحسنه الكردينال. وبلغت القحة بالكاهن أن صرخ: «بل عليك، يا صاحب النيافة، أن تنفّذه!». فكرّر الكردينال، بلطفٍ، تعذّر الأخذ به، ولكنّ الكاهن أمعن في التعنّت والفظاظة، وجأر: «بل بوسعك أن تنفّذه، وعليك أن تنفّذه!». فما كان من الكردينال إلاّ أن خلع صليب الأسقفيّة من عنقه، وقدّمه للكاهن الغاضب قائلاً: «**تبوّأ، أنت، إذن، مكاني!**». فأُسقط في يد الكاهن، وأُغلق النقاش.

وعندما كان يحتدم الخلاف بين فريقين من كهنته، حول أمرٍ ما، ويتشبّث كلّ فريقٍ بموقفه، كان يعترف بوجود رأيين متباينين، مقرًّا بحقّ الاختلاف، ولا يفرض أيًّا من الرأيَيْن، تفاديًا للشقاق.

وفي مواجهة مماطلة الحكم الشيوعيّ في الردّ على طلبات الكنيسة، ظلّ يتابع سياسة الأمر الواقع. واتّفق أن فُرضت على أحد كهنته ضرائب باهظةٌ، ولم يكن يملك ما يسدّدها به، فاستشار، بالأمر، رئيس أساقفته الذي نصحه باختيار السجن. وحينئذٍ، أعلن، أمام الجموع المحتشدة حول كنيسة رعيّة ذلك الكاهن، عن سبب سجنه، وعن اعتزامه، شخصيًّا الاضطلاع بمهامّه، ريثما يُفرج عنه. وسرعان ما صدر أمرٌ بإطلاق سراح الكاهن.

وقد أجمع الذين عرفوه عن كثبٍ، أنّ مصدر قوّته الرئيس كان **الصلاة**. فكلّما تعيّن عليه اتّخاذ قراراتٍ خطيرة، كان يفزع إلى مزار «الأرض المقدّسة»، حيث كان يُشاهَد ذارعًا الدروب، كارًّا، بلا هوادةٍ، حبّات مسبحته، مُعملاً الفكر، ملتمسًا أزر الربّ.

وفي كلّ يوم جمعةٍ، كان يقصد كنيسةً فرنسيسكانيّةً، كي يصلّي أمام مراحل «درب الصليب»، مستلهمًا أسلوب الكردينال «ساپييها»، الذي ورث صليبه الأُسقفيّ، ولكنّه وفّق هذا الأسلوب مع الظروف الراهنة، ولا سيّما أنّ رعيّة كراكوڤيا، بعد مضي اثنتي عشرة سنةً على وفاة الكردينال المذكور، كانت قد حقّقت توسُّعًا ملحوظًا، فباتت تضمّ مليونًا ونصف مليون كاثوليكيٍّ، يخدمهم ألفٌ وخمس مئة كاهنٍ، وألفٌ وخمس مئة راهبةٍ، وألفٌ وخمس مئة أخٍ مكرّسٍ، فضلاً عن زهاء مئتي إكليريكيٍّ.

وكم من ساعاتٍ أنفقها راكعًا أمام القربان المقدّس، مستلهمًا أنواره، مستجديًا عونه، مستوحيًا القرارات والمبادرات الرسوليّة الصائبة!

كان قد وُلد في أحضان أُسرةٍ عابقةٍ بشذا الإيمان. ولكنّه لم يقتصر على الإيمان الموروث، وقد صرّح: «**وُلد الإيمان في أعماق ذاتي، وكان ثمرة جهود فكري الباحث عن جوابٍ على أسرار الإنسان والعالم. كان استجابةً حرّةً لكلام الله الذي عبّر عنه من خلال كلمته التي تجسّدت في يسوع المسيح**». والله الذي لا يردّ سائلاً صادقًا، أنعم عليه بالإيمان، فاعترف أنّ إيمانه كان «**منذ البدء، موهبةً إلهيّةً، واقعًا داخليًّا موهوبًا**».

في مطلع حياته، راودته الرغبة في انتهاج حياةٍ تأمّليّةٍ، ولكنّ الديناميّة الضاجّة في أعماقه سرعان ما أقنعته أنّ تلك ليست دعوته. وصرفه عنها حدْس الكردينال «ساپييها» صوب الرسالة الفاعلة. غير أنّه ساق، دائمًا، حياةً داخليّةً كثيفةً. ومنذ اعتناقه الكهنوت، لمس ضرورة الصلاة الجوهريّة، في كلّ خطوةٍ، وكلّ مرحلةٍ.

لقد نسج العملُ حياته، ولكنّه كان يعدّ أخطر عملٍ يقوم به هو القدّاس، الذي يختزل الصلاة أكمل اختزالٍ. فالقدّاس هو صميم لقاء الله في يسوع. والقدّاس يتواصل بصلوات الساعات، المعروفة بالسواعيّة، التي كان حريصًا عليها في كلّ الظروف. وقد اعترف، في هذا السياق:

«علّمتني خبرة أكثر من ثلاثين سنة كهنوتٍ، أنّ بلوغ قمّة لقاء الله يتحقّق بصلاة النهار كلّه، مع ازدحامه بالناشاطات والالتزامات ...ينبغي أن تغرُس كلُّ النشاطات جذورَها في تربة الصلاة، ولكي تؤتي ثمارها يجب ألاّ تكون هذه التربة رقيقةً وسطحيّةً... أنا لم أتبع نظامًا تأمّليًّا، ولكنّني أتبيّن أنّ تربة الصلاة، التي ينبغي أن ينمو فيها كلُّ يوم، تنطوي على طائفةٍ من العناصر واللحظات، الزاخرة بتأمّلٍ كبير الشأن في ميدان الخِدمة، وخاصّةً ميدان إعلان كلمة الله. إنّ القول المأثور: «بلّغ ثمار تأمّلاتك» ما برح معاصرًا، مؤثّرًا. وعلى الواعظ ألاّ يبلّغ سوى كلماتٍ صيغت في الصلاة».

وكان «كارول ڤويتيووا»، في إحدى مراحل حياته، قد عزف عن صلاة الطلب والالتماس. ولكن، مع اتّساع مسؤوليّاته، بات لا غنى عنها، ولا غنى له، أيضًا، عن عون صلوات الآخرين، التي تؤازر عمله الرسوليّ. وكان يستجدي، على نحوٍ خاصٍّ، صلوات المرضى والمتألّمين، إيمانًا منه بمفعولها وجدواها.

وقد شهد الذين رأوه يصلّي كيف كان يتلاشى في الصلاة، ويفقد كلّ إحساسٍ بما يحيط به، وبمرور الوقت، وكيف يذوب، بكلّيّته، في علاقةٍ مباشرةٍ مع السماء.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ صلاته لا تنفصل عن صلةٍ وثيقةٍ بالعذراء مريم، التي اتّخذها أُمًّا منذ وفاة والدته، وهو في التاسعة من العمر، وتوغّل في محبّتها وتكريمها، فأخذت بيده، خطوةً خطوةً، وردّت عنه الكثير من الضربات، ورصاص الغدر.

الميزة الأُخرى التي دعمت عمله الرسوليّ، وأضفت عليه مصداقيّةً كبرى هي زهده، الذي التزم به طيلة حياته. فحياة الفقر التي واكبت نشأته، لم يتخلَّ عنها في أيّة مرحلةٍ من مراحل مسيرته. فلم يملك، يومًا، مالاً خاصًّا، ولم يكن له، قطّ، حسابٌ مصرفيٌّ. والراتب الذي كان يتقاضاه لقاء تدريسه الجامعيّ، كان يتبرّع بمعظمه لطلاّبٍ معوزين. وكان يكتفي بما يتيسّر من لباسٍ وطعامٍ وسكنٍ، ولا يحجم عن الرقاد على الحضيض، أو فوق منضدةٍ، ولا عن انتعال حذاءٍ أُصلح مرّةً إثر مرّةٍ، ولا عن ارتداء ثيابٍ رثّةٍ مهترئةٍ.

عندما عُيّن رئيس أساقفة كراكوڤيا، كان على معرفةٍ وثيقةٍ بدار الأسقفيّة، حيث قضى سنوات دراسته الإكليريكيّة، ولكنّه أبى استخدام القاعات الفخمة التي كان أسلافه يعملون ويرقدون فيها، واكتفى بجناحٍ صغيرٍ يتألّف من مدخلٍ، ومكتبٍ خاصٍّ، وغرفةٍ تتّسع، بالكاد، لسريرٍ، ومنضدةٍ صغيرةٍ، وخزانةٍ، ومقعدٍ عتيقٍ. واقتصر على إعادة طلاء المصلّى، ونصب فيه هيكلاً، محافظًا على محطّات «درب الصليب» التي كانت موجودةً في عهد دراسته الإكليريكيّة.

وبما أنّ الأُسقفيّة كانت تؤمّن احتياجاته الأساسيّة، لم يفتح، يومًا، ظروف التبرّعات التي تقدَّم له، في أثناء زياراته الراعويّة، بل كان يتبرّع بها، في اليوم عينه، لمن هم في حاجةٍ.

ويوم تعيّن عليه الشخوص إلى روما، للمشاركة في انتخاب خَلَفٍ للبابا بولس السادس، شكا سائقُه قائلاً: «إنّني أخجل من الثياب الخَلِقة التي يرتديها نيافته: صايةٌ رثّةٌ، وقبّعةٌ عتيقةٌ، ومعطفٌ مهترئٌ... ليس لديه قميصٌ واحدٌ لائقٌ، فجميع قمصانه قد رُتقت مرّاتٍ عديدةً. إنّنا نسافر إلى الخارج، وقد يظنّ القوم أنّنا عاجزون عن العناية بكاردينالنا».

التزامه الفقر كان نابعًا من عزمه التمثّل بمعلّمه يسوع، وتكريس ذاته لخدمة الله والبشر، ومن يقينه بأنّ على الكنيسة أن تكون، دائمًا، إلى جانب الفقراء.

لقد كان شاهدًا على أولى تطويبات يسوع، وقد جعله فقره الطوعيّ أكثر انفتاحًا على الله، وعلى البشر الذين يعانون كلّ أصناف الحاجة، وأهّله لدعوة الأغنياء، بلا رياءٍ، إلى العطاء والمشاركة، ولكسب ثقة إخوته الفقراء.

أولويّات رئيس الأساقفة

في أثناء السنوات الأربع عشرة التي قضاها في رئاسة أُسقفيّة كراكوڤيا، تصدّى «كارول ڤويتيووا» لطائفةٍ من القضايا، تلقي الضوء على رؤيته للكنيسة ولرسالته، ومن أبرزها:

١ - حريّة الممارسات الدينيّة:

كانت تقع على عاتق خليفة رئيس الأساقفة الشهير، القدّيس «ستانسلاس»، مسؤوليّةٌ تقليديّةٌ، بصفته «المدافع عن الشعب»، و«المدافع عن المدينة». وكان الكردينال «سابييها» قد نهض بهاتين المهمّتين، ببسالةٍ، في أثناء الاحتلال النازيّ، وفي السنوات الأولى من الاحتلال الشيوعيّ. وحان للكردينال «ڤويتيووا» أن يواصل النضال، مقاومًا، بجرأةٍ وعزيمةٍ، محاولات قوّةٍ غاشمةٍ، ساعيةٍ لاقتلاع الأمّة البولونيّة من التربة المسيحيّة التي نبتت فيها. فجهد في بناء الكنائس، وفي إحياء ممارسة شعائر كاثوليكيّةٍ، مثل التطواف بالقربان المقدّس. وقد أثمر نضاله، بين تاريخ تعيينه معاونًا أُسقفيًّا، عام ١٩٦٢، وتاريخ انتخابه حبرًا أعظم، عام ١٩٧٨، ورغم ظروفٍ بالغة الصعوبة، إنشاء إحدى عشرة رعيّةً جديدةً، وعشرة مراكز رعويّةٍ، معدّةٍ لتصبح رعايا كاملةً، مع العلم أن لا رعيّة، ولا كنيسة، تحت الحكم السائد، إلاّ بإذن الحزب الشيوعيّ، والإذن متعذّر المنال. ولكنّ الكردينال وأساقفته وكهنته الشجعان اعتمدوا سياسة الأمر الواقع. فكانوا يتقدّمون، كلّ سنةٍ، بثلاثين طلب إنشاء كنائس. وكانت هذه الطلبات تُهمَل وتتكدّس في الأدراج، فيلحّ المسؤولون الكنسيّون في المطالبة بتنفيذها، وفي الآن عينه،ينشطون في زيارة الأحياء بيتًا بيتًا، فيلقّنون الأهالي المبادئ المسيحيّة، ويحرّضونهم على المطالبة بكنائس لهم، وحينئذٍ يخاطبون السلطات المحتلّة: «ترون أنّ الأهالي يريدون كنيسةً، والمجتمع في حاجةٍ إلى كنيسةٍ».

ولا ريب أنّ المحلّة الرائدة، في هذا المجال، هي قرية «نوڤا هوتا» العمّاليّة، التي شيّدتها السلطات الشيوعيّة بلا كنيسةٍ، وحالت، قدر المستطاع، دون اتّصال سكّانها بعضهم ببعضٍ. فألِف الأُسقف «ڤويتيووا» أن يقيم فيها، كلّ سنةٍ،

قدّاس منتصف الليل، احتفالاً بعيد الميلاد، في العراء، بين الحقول. وفي هذا المكان عينه، شُيّدت، لاحقًا، كنيسةٌ حديثة الطراز، على شكل سفينةٍ. وكانت رخصة بنائها قد مُنِحت في ١٩٦٧/١٠/١٣، بعد سنواتٍ من النضال. وفي اليوم التالي، ١٩٦٧/١٠/١٤، دشّن الكردينال «ڤويتيووا» المشروع، عندما أمسك فأسًا، وحفر خندقًا، كي تُرسى فيه أساسات الكنيسة، محتضنةً الحجر المنتزع من ضريح القدّيس بطرس بروما، والذي باركه البابا بولس السادس. وقد استغرق إكمال البناء عشر سنواتٍ من العمل، الذي نهض به متطوّعون قادمون من كلّ أرجاء پولونيا وأوروپّا. وقد زُيِّنت واجهتها بمليوني حجرٍ صغيرٍ صقيلٍ، جُمعت من مجاري الأنهار الپولونيّة. وداخل الكنيسة الجديدة، نُصبَ صليبٌ جسيمٌ من الفولاذ، صنعه وقدّمه عمّال معمل الصُّلب في القرية، ورُصِّع خباء القربان بحجرٍ جاء به رائد فضاءٍ أميركيٌّ من القمر، وأهداه للبابا بولس السادس. وقدّم هولنديّون أجراس الكنيسة، التي كرّسها الكردينال «ڤويتيووا»، في ١٩٧٧/٥/١٥، وقال في خطبته، ملمّحًا إلى القرية العمّاليّة النموذجية، التي أرادها الشيوعيّون بلا كنيسةٍ: «**هذه ليست مدينةً يقطنها قومٌ يرتضون بكلّ ما يُعمل لهم، ويمكن التصرّف بهم وفقًا لمبادئ الإنتاج والاستهلاك. بل هي مدينة أبناء الله. وكان لا بدّ من وجود هذا المعبد لتأكيد هذه الحقيقة، والتشديد عليها...**». وكانت تلك الكنيسة، في يوم افتتاحها، غاصّةً بحجّاجٍ قدموا من شرق أوروپّا وغربها، ومن أميركا وكندا.

وما كاد الكردينال «ڤويتيووا» يفرغ من معركة كنيسة «السفينة»، حتّى خاض معركة كنيسةٍ أُخرى، في حيٍّ آخر من «نوڤا هوتا». فقد جاءه، يومًا، الأب «جوزيف كوجيا» (Jozef Kurzeja)، قائلاً، بصراحةٍ ووضوحٍ وإصرارٍ: «إنّنا بحاجةٍ إلى كنيسةٍ في محلّة «ميستجييوڤيتش» (Miestrzrjouvice). من المؤكّد أنّهم سيزجّون بي في السجن، إن بنيتها، ولكنّني عازمٌ على البدء بالعمل». وأيّده الكردينال في ما وطّن عليه عزمه.

لم يكن الأب «كوجيا» المذكور واعظًا مفوّهًا، وكان ترتيله نشازًا، ولكنّه كان رجلاً متينًا ومستقيمًا، في الثلاثينات من سنيه، وعذب المعشر. وقد ابتاع رقعة

أرضٍ مهجورةٍ، وأقام عليها بيتًا صغيرًا من الخشب، أشبه بمستودعٍ أو مرآبٍ، ونصب داخله هيكلاً، ثمّ راح يطوف الحيّ، بيتًا بيتًا، داعيًا المؤمنين أن يؤمّوا ذلك المكان للصلاة. ودعمًا لجهوده قرّر الكردينال «ڤويتيووا» الاحتفال بقدّاس عيد ميلاد ١٩٧١ في العراء، على مقربةٍ من نواة تلك الكنيسة. وذكّر، في عظته، بقول الإنجيل: «لم يكن لهم مكانٌ في الفندق»... ثمّ أردف: «**إنّ الكاهن الساهر على قطيعه، هنا، تحت قبّة السماء، لا يملك سوى نواياكم الطيّبة وتضامنكم، ولا ينشد امتيازًا، ولا مغنمًا مادّيًّا، ولا يبتغي سوى تعليم الإنجيل، حقيقة الله، وحقيقة الإنسانيّة الأبعد عمقًا. إنّه راغبٌ في تلقين مبادئ الأخلاق، ووصايا الله. وأليس من صالح هذه المدينة الجديدة «نوڤا هوتا» أن يلتزم الشعب بشريعة الله؟ وأليس ذلك لصالح الأمّة والدولة؟ ولذلك لا يستحقّ هذا الكاهن عقابًا، بل من المؤكّد أنّه يستحقّ المديح**»، وقد وصف تلك الكنيسة بأنّها «**مغارة بيت لحم الجديدة**».

وجديرٌ بالذكر أنّ مدينة «نوڤا هوتا» هذه، التي أرادها الشيوعيّون خاليةً من الله، يقطنها اليوم نحو ثلاث مئة ألف نسمةٍ، يخدمهم عشرون كاهنًا، وتتوالى فيها القداديس، أيّام الآحاد، من الساعة السابعة صباحًا حتّى العاشرة ليلاً.

ولكن كان للحكم الشيوعيّ رأيٌ مختلفٌ. فلاحقت عناصر أمنه ذلك الكاهن، بلا هوادةٍ، حيثما كان، في مكان سكنه، وفي الشارع، وفي المصلّى الخشبيّ، وأخضعته لاستجواباتٍ مستمرّةٍ، إلى أن أزهقت روحه، فهوى صريع ذبحةٍ قلبيّةٍ، في ١٩٧٦/٨/١٥، وهو في التاسعة والثلاثين من العمر. وقد توافق تاريخ وفاته مع ذكرى استشهاد الأب «مكسيميليان كولبي». فسمّيت الكنيسة التي جهد في بنائها، وضحّى بحياته في سبيلها، باسم «القدّيس مكسيميليان كولبي»، وقام البابا يوحنّا بولس الثاني بتكريسها، عام ١٩٨٣.

موضع صراعٍ آخر كان الاحتفال السنويّ بعيد الجسد، والتطواف التقليديّ الذي ألفت رعيّةً كراكوڤيا الانطلاق به من الكاتدرائيّة، مخترقةً شوارع المدينة، حتّى ساحة السوق. وكان رئيس الأساقفة يقود التطواف، رافعًا معرضًا للقربان المقدّس. وكان الموكب يتوقّف أمام كلّ مرحلةٍ من مراحل «درب الصليب»، التي أُقيمت لها هياكل في الساحة. وكان الاحتلال النازيّ قد منع هذا الاحتفال. أمّا

الحكم الشيوعيّ فحدّده بأضيق مساحةٍ، ومنع اجتياز التطواف شوارع المدينة. ولكن في أعقاب اعتراضات رئيس الأساقفة الشديدة النبرة، ارتضى الشيوعيّون تنازلاتٍ طفيفةً. وقد اكتسى ذلك الاحتفال الدينيّ طابعًا وطنيًّا، إثر إعدام عمّالٍ مضربين في «غدنسك»، أدّى إلى إلهاب الحماس الوطنيّ، وشحذ روح المقاومة.

وفي مثل هذه المناسبات، أمست عظات رئيس الأساقفة تتخلّى عن شيءٍ من العمق والتعقيد، اللذين يتعذّر على الجميع استيعابهما، وباتت ترتدي بساطةً يطال تأثيرها كلّ مستمعٍ، في حين ظلّ المضمون واحدًا، يستهدف استعادة الشعب ثقافته الأصيلة، وحقوقه الأساسيّة.

واستمرّت نبرة عظاته، في تلك المناسبات، تزداد، كلّ سنةٍ، حدّةً، وتمعن تحذيراته للحكم شدّةً وتنديدًا. ففي عظته، بمناسبة تطواف عام ١٩٧١، قال: «**نحن مواطنو بلادنا ومدينتنا. ولكنّنا، أيضًا، شعب الله، الذي ينعم بشعوره المسيحيّ الخاصّ... وسنمضي قُدُمًا في المطالبة بحقوقنا، الواضحة وضوح وجودنا هنا...**». ووصف تطواف عام ١٩٧٢ بأنّه «**تطواف مدينتنا، وكلّ تاريخنا... ونحن ننتظر...**». وفي عام ١٩٧٤، أمام عشرات ألوف المواطنين المتراصّين في الشوارع، ندّد بتلكّؤ السلطات في الترخيص ببناء كنائس، متسائلاً هل هذا التلكّؤ هو جزءٌ من «مشروع النظام الاشتراكيّ، الرامي إلى جعل القوم ينتظرون سنين في العراء، كي يستطيعوا ممارسة الحقوق التي يكفلها لهم الدستور؟». وفي السنة التالية، قال بشيءٍ من التهكّم: «**أميل إلى الاعتقاد أنّ مثل هذه المبادرات لا تشجّع مسيرة التطبيع بين الكنيسة والدولة**». وبعد سنتين صرّح، في المناسبة والمكان عينهما: «**إنّ وعي البشر لحقوقهم يتنامى في المجتمع، وفي العالم أجمع، وهي حقوقٌ لا يمكن إنكارها**». وفي نهاية التطواف، قال: «**إنّني أستغفر الله، لأنّني لم أتكلّم عنه... لقد تناولت قضايانا، لعلّنا ندرك، جميعنا، أنّنا، عندما نحيا سرّ الإفخارستيّا، فالربّ، أيضًا، يحيا وجودنا البشريّ**».

وفي الواقع من خلال مطالبته ببناء كنائس، وممارسة الشعائر الكنسيّة، كان يبتغي تأهيل الأمّة لمعرفة ذاتها، وامتلاك البولونيّين حرّيّة أن يكونوا هم أنفسهم، بصفتهم مسيحيّين، حيث كان يسعى الشيوعيّون إلى إقامة «جمهوريّةٍ شعبيّةٍ

ملحدةٍ». كانت السياسة الشيوعيّة ترمي إلى جعل الكاثوليكيّة مجرّد ذكرى فولكلوريّةٍ. وبالمقابل توخّى رئيس الأساقفة، من خلال مطالبته بالحرّيّة الدينيّة، تحقيق مكانةٍ للكنيسة الحقّة، بإعلانها حقيقة الحياة البشريّة ومصيرها، وبعيشها هذه الحقيقة، عبر خدمة المجتمع أجمع؛ فإذا ما تمّ لها ذلك، تكون مخطّطات الشيوعيّة قد باءت بالفشل.

٢ – الاهتمام بالإكليروس، والإكليريكيّات، وبكلّيّة اللاهوت

أمام مئات ألوف الشبّان، أعلن البابا يوحنّا بولس الثاني، ذات يومٍ، في فرنسا: «**إنّ أكثر ما يعنيني هو كوني كاهنًا**».

وحتّى بعد أن أضحى حبرًا أعظم، لم يكفّ عن إعلانه أنّه، قبل كلّ شيءٍ، كاهنٌ. وغالبًا ما كان يخلع زيّ الأُسقف أو الكردينال، وبثياب الكاهن السوداء، يتولّى عقد الأكاليل، وتعميد الأطفال، محتذيًا، دائمًا، مثال «خوري أرس».

وظلّ حقله المفضّل رعاية الشبيبة. وما أكثر ما رُوي عن عبثه مع الأطفال الذين كانوا يطمئنّون إليه، فهنا طفلةٌ ترجوه مباركة هرَّتها، وهناك طفلةٌ تدعوه إلى مشاركتها عطلتها الصيفيّة...

وقد تمثّلت أولويّته الثانية، في مضمار رعاية أبرشيّة كراكوڤيا، في دعم العمل الكهنوتيّ، من خلال إصلاح تنشئة الإكليريكيّين، وتزويد الكهنة الجُدُد بتثقيفٍ مستمرٍّ. فعلى مثال سلفه الكردينال «ساپييها»، كان يعدّ الإكليريكيّين «بؤبؤ عين الأبرشيّة». ولم يألُ جهدًا في دعوة الشبّان إلى انتهاج درب الكهنوت، مؤكّدًا أنّ الإنجيل والمؤمنين يستأهلون أن تكرَّس لهم الحياة. وبذلك تسنّى لرئيس أسقفيّة كراكوڤيا، التي طالما عانت اضطهاد الشيوعيّة الملحدة، سيامة بضع عشرات الكهنة، كلّ سنةٍ، في حين عجزت عن ذلك أبرشيّاتٌ أكثر عراقةً، في پولونيا، وفي بلدانٍ غربيّةٍ، حيث تناقص عدد الدعوات، وشاع حنث العديد من الكهنة بنذورهم.. فبين عام **١٩٦٢** و**١٩٧٨**، ارتقى عدد الإكليريكيّين المتأهّبين لخدمة رعيّته، من **١٩١** إلى **٢٥٠**، وارتفع عدد الكهنة الأبرشيّين من **٧٧١** إلى **٩٥٦**. ولا ريب أنّ ممّا ساعده على ذلك، الروح الوطنيّ المندفع في المقاومة الثقافيّة.

ولكن، بالمقابل، لا يمكن إغفال ما كان يتعرّض له الكهنة، من مضايقات الحكم الشيوعيّ، التي قضت على بعضهم، مثلما حدث للأب «كوجييا»، ونزوع السلطات إلى استدعاء العديد من الإكليريكيّين إلى الخدمة العسكريّة، بغية صرفهم عن هدفهم، وضغوطها المتواصلة على كلّيّة اللاهوت.

ولا مراء أنّ نجاحه في زيادة أعداد الإكليريكيّين والكهنة، في غمرة تلك الظروف القاهرة، كان، له، مأثرةً باهرةً، ساعده على تحقيقها رعايته المستنيرة، وإيمانه الوطيد، وسهره على الإكليريكيّات، وعلى مربّيها، وعلاقة المودّة التي ربطته بالإكليريكيّين، وصلواته الحارّة، وتقدمة آلامه، وفوق كلّ شيءٍ، مثال قداسته الكهنوتيّة، والتزامه الوفيّ، وتفانيه المستمرّ، والمُثُل العليا التي كان يقدّمها للمدعوّين إلى الكهنوت، رغم اقتضائها الباهظ.

كان يعقد مع كلٍّ من كهنته علاقات مودّةٍ شخصيّةٍ، فيستقبله، على انفرادٍ، أقلّه مرّتين في السنة، ولا يتحرّج من دعوته إلى مائدته، حتّى عندما كان يستقبل أساقفةً.

وكان يلقي عليهم محاضراتٍ توجيهيّةً، ويوفدهم لدراساتٍ عليا في روما أو في باريس، مستعينًا بإعانات الجالية البولونيّة في أميركا. وكان ينفق راتبه الجامعيّ على تكاليف سفر طلاّبه من «لوبلِن» إلى كراكوڤيا، من أجل متابعة دراستهم معه، مرّتين بالأسبوع.

وبذلك أنشأ جيلاً جديدًا من الكهنة الفاعلين، سُمّي «جيل ڤويتيووا».

وهو، مع عمق تقديره لثقافة الكهنة الفكريّة، واهتمامه بها، كان يرغب في إنشاء رعاةٍ حقيقيّين. وكان يسكنه اليقين بأنّ سرّ نجاح الرعاية يكمن في قداسة الكاهن، وفي غيرته الرسوليّة، واندفاعه إلى خدمة النفوس. وقد حرص، طيلة السنوات التي قضاها في أُسقفيّة كراكوڤيا، على الاتّصال المنتظم بكلّ إكليريكيٍّ، وعلى معرفته، شخصيًّا، عن كثبٍ، ومواكبته بعد سيامته الكهنوتيّة. ولم يكفّ، يومًا، عن دعوة الإكليريكيّين والكهنة إلى حياة صلاةٍ كثيفةٍ، فهي شرطٌ لا غنى عنه للعمل الراعويّ المجدي.

وكان صارمًا في اقتضائه من الكهنة استقامةً لا غبار عليها. وقد اضطرّ، يومًا، إلى استدعاء كاهنٍ كان قد ارتكب ما وصفه الكاهن نفسه «خطأً جسيمًا». وخلال جلسةٍ طويلةٍ، في مكتبه، بيّن له، بلا مواربةٍ، خطورة عمله، وأنّبه بحزمٍ، ثمّ استصحبه إلى المعبد للصلاة معًا. وطال ركوع رئيس الأساقفة، بحيث ضاق الكاهن ذرعًا، فقد كان موعد القطار الذي سيعود به إلى مركزه، يقترب. وأخيرًا نهض الكردينال، ورمق الكاهن الذي أنّبه، قبل دقائق، وقال له، برقّةٍ: «هل تتفضّل الآن، بسماع اعترافي؟»... وامتثل الكاهن، مذهولاً.

وقد جعله اهتمامه الحريص على تثقيف الإكليروس يروز مدى الظلم الذي أوقعه الحكم بالرعيّة، من جرّاء إغلاقه كلّيّة اللاهوت في جامعة «ياجلّون»، عام ١٩٥٤. ففي سبيل القضاء على الثقافة البولونيّة، كانت السلطات الشيوعيّة، في الواقع، قد استخفّت بشأن تلك الجامعة العريقة، وسعت جاهدةً، إلى محو ذكرها.

وكان الأساتذة المطرودون من تلك الكلّيّة، لكي لا يحرموا الكهنة من التعليم الضروريّ، قد أنشأوا، سرّيًّا، كلّيّةً جديدةً في حضن الإكليريكيّة الرعويّة، تمنح شهادات دپلوم في اللاهوت باسم الكرسيّ الرسوليّ.

ولكنّ ذلك لم يكن سوى حلٍّ آنيٍّ. وظلّ رئيس الأساقفة يصف إغلاق كلّيّة اللاهوت بالعمل التخريبيّ الوحشيّ، وبالظلم المفضوح الفاحش. ولم يكفّ عن المطالبة بإعادة فتحها. وفي مسعًى موازٍ، حاز، عام ١٩٧٤، على اعتبار الڤاتيكان لكلّيّة الأبرشيّة، «كلّيّةً حبريّةً».

وفضلاً عن ذلك أدخل على برنامج تلك الكلّيّة، مادّة التأهيل للإعداد للزواج، التي كان قد وضعها بالتعاون مع أطبّاء، وعلماء نفسيّين، واختصاصيّين اجتماعيّين، وأزواجٍ.

وإثر تعيينه كردينالاً، عام ١٩٦٨، أسّس مجلسًا أبرشيًّا، يلتئم عدّة مرّاتٍ في السنة، في مواقع مختلفةٍ من الأبرشيّة، متيحًا للكهنة تبادل الخبرات الراعويّة، والبحث عن أساليب الرعاية المثلى.

ولكي يظلّ، دائمًا، قدوةً، لم يغفل، في غمرة مشاغله، ضرورة الخلوة الصامتة التأمّليّة للدراسة المستمرّة، ولتحديث ثقافته الفلسفيّة واللاهوتيّة. وفي سبيل نشر هذه الثقافة كافح، ببسالةٍ، من أجل تأسيس أكاديميّةٍ لاهوتيّةٍ، متحدّيًا الصعاب التي دأب الشيوعيّون على إعاقة مساعيه بها.

ولكي يبقى الإيمان حيًّا، والكنيسة صامدةً، ولكي يبقى ليسوع شهودٌ، دعا إلى إعداد معلّمين – كهنةً وعلمانيّين – يتمتّعون بالمعرفة والكفاءة، فيلقّنون تعليمًا مسيحيًّا، حيًّا، فاعلاً، قادرًا على مواجهة الأضاليل الشائعة، والفساد المستشري. وقد أراده تعليمًا قائمًا على الحبّ والمسؤوليّة، وموقوفًا على خدمة النفوس.

٣ – رعاية الشبيبة

رعاية الشبيبة كانت مجال رئيس الأساقفة «ڤويتيووا» الأثير، وهمّه الدائم، والمهمّة التي حظيت، منذ بدء مسيرته الكهنوتيّة، بالقسط الأوفر من رسالته. ولا ريب أنّ ممّا دفعه في هذا المنحى، تأثير طفولته التي كدّرها موت والدته وشقيقه، وذكرى مرحلة دراسته التي واكبها مرشدون يتمتّعون بالكفاءة والدراية، وأسعدتها صداقاتٌ لا تُنسى، ودمغتها، بعمق، مِحَن الحرب الرهيبة التي خَبَرَ، فيها، هجر العديد من رفاق المعهد والإكليريكيّة، ونفي بعضهم، ووفاة آخرين، وأخيرًا توجيه البابا بولس السادس الذي قال له، يوم عيّنه رئيس أساقفة: «علينا، اليوم، يا أخي العزيز، أن نولي اهتمامًا يقظًا للشبيبة الطلاّبيّة، فهدف رسالتنا الأسقفيّة الرئيس هو الكهنة، والعمّال، والطلاّب».

فقد حرص على تزويد الأطفال، فضلاً عن أسرار العماد والتثبيت والإفخارستيّا، بالتعليم المسيحيّ في أقسى الظروف الماديّة، والسيطرة الشيوعيّة. وكان له الطلاّب رأس حربة رسالته لدى الشبيبة. وقد مارس، في أوساطهم، تعليمًا دينيًّا حيًّا، من خلال تدريسه في الإكليريكيّات والمعاهد والجامعات، وغالبًا ما اغتنم جوّ النزهات والرحلات الرياضيّة البهيج، لتقديم تعليمٍ دينيٍّ حيٍّ، على غرار المعلّم الإلهيّ الذي كان يطيب له إلقاء تعاليمه في رحاب الطبيعة. كان ينطلق من الواقع البسيط الملموس، المعاش، مرتقيًا، برفقٍ، صوب

الروح والجوهريّ، ونحو القيَم السامية. وكان يطيب للشبيبة العيش مع «العمّ ڤويتيووا»، والاستماع إليه.

كان مثاله وإشعاعه هما عماد تعليمه الأعمق تأثيرًا. وقد كان، دائمًا، قدوةً لا غبار عليها، يفعل كلّ ما يجب فعله، بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ، محافظًا دائمًا على الاتّزان، غير متنازلٍ عن ذرّةٍ من حياته الروحيّة، باذلاً ذاته، بلا هوادةٍ ولا حسابٍ، رغم ازدحام مشاغله، في سبيل الشبيبة، الذين كرّس نفسه لخدمتهم، مرشدًا إيّاهم إلى السبيل السويّ، ومغفلاً ذاته.

وبقدر ما هو كان يحيا المسيح، كان الشبّان يتأثّرون به، ويسعدون بالحياة معه، ويُشعّون مثل إشعاعه. وكان بعضهم، مزوّدين بإرشاده، يؤسّسون أُسَرًا مسيحيّةً منيعةً، وآخرون، أكثر رغبةً في اقتفاء خطاه، ينتهجون درب الكهنوت.

لم يكن يسهب في الكلام، ولكنّه كان يمعن في الطيبة، والصدق، والجدّ، والمرح، والنأي عن كلّ شرٍّ، مرسّخًا أُسس «حضارة الحبّ».

وقد جهد في تشجيع ومساندة حركاتٍ شبابيّةٍ كاثوليكيّةٍ، كانت السلطات الشيوعيّة تقاومها، دافعًا إيّاها في الاتّجاه الصحيح، مقوّمًا ما قد يشوبها من انحرافٍ عن سويّ السبيل. ومع أنّ كثيرين من الرعاة يتوجّسون ريبةً من المبادرات الجريئة، والحركات التجديديّة، ومن الأفراد الذين ينعمون بكاريزما، لم يكن رئيس الأساقفة «ڤويتيووا» من أولئك. ولم يتوانَ عن دعم المبادرات الخلاّقة التي تؤتي خيرًا، ومن ثمّ، لم يتردّد في مساندة الأب «فرانتشيشيك بلاهنيكي» (Franciszek Blachnicki)، الذي كان قائدًا شبابيًّا في پولونيا، وداعيًا إلى العفّة، خارج الزواج، ومؤسّس حركتين شبابيّتين رائدتين: «الواحة» التي كانت تؤمّن مخيّماتٍ صيفيّةً للأُسر وللشباب، وقد انبثقت عنها مؤسّسة «نور وحياة». وكان نشاط ذلك الكاهن تحدّيًا لمخطّطات الحكم، الذي كان يجهد في عزل الشباب عن ذويهم، ويشجّعهم على الحرّيّة الجنسيّة الكفيلة بإبعادهم عن الكنيسة.

ومع أنّه كان من العسير التفاهم مع ذلك الكاهن، غير أنّ رئيس الأساقفة «ڤويتيووا»، الذي التقاه في جامعة لوبلن، أيّده، ودعم مبادرته، لأنّه رأى فيه

منقذًا للشبيبة اليولونيّة، التي دعاها إلى «العيش في الحقيقة» قائلاً: «**إن وُجد عددٌ كافٍ من اليولونيّين، الذين يملكون الجرأة على الحياة في الحقيقة، وعلى فضح الكذب، سنكون قد أصبحنا مجتمعًا آخر**».

لقد أيّد رئيس الأساقفة توجّه الكاهن المذكور، وسياسته القائمة على المقاومة، عبر تثقيف شبيبةٍ مصمّمةٍ على عيش التزامها المسيحيّ بالكامل، رغم مقاومة السلطات الشيوعيّة له، بشتّى الحجج، وفرضها غراماتٍ باهظةً على أصحاب الأراضي المؤجّرة لإقامة مخيّماتٍ. ومن أجل حمايته، كان رئيس الأساقفة – حتّى عندما غدا كردينالاً – يختلف إلى تلك المخيّمات، ويقيم فيها الليتورجيّا، ويلقي المحاضرات، فكانت السلطات تحذر من مداهمة تلك المخيّمات، تحسّبًا لوجود الكردينال فيها، وافتعال صداماتٍ بين الكنيسة والدولة.

واتّفق، في ١٩٧٢/٨/١٦، أن دُعي الكردينال «ڤويتيووا» إلى الاحتفال بقدّاسٍ لجماعة «الواحة»، في مخيّمٍ صيفيٍّ يضمّ سبع مئة شخصٍ، على قمّة جبلٍ. وكان عليه الالتحاق بهم، متسلّقًا الجبل، برفقة أمين سرّه، وثلّةٍ من أعضاء المخيّم. وعند بلوغهم منتصف السفح، تجهّم الجوّ، وما عتّم أن دوّى الرعد، فقال الكردينال لمرافقيه، مازحًا: «**إنّني أعرف ثلاثة مجانين، أنا أوّلهم، وأمين سرّي ثانيهم، أمّا الثالث فهو ينتظرنا على قمّة التلّة!**». ثمّ، لدى بلوغه القمّة اقترح الاحتفال بالقدّاس في كنيسة الوادي، أسفل التلّة. ولكنّ الكاهن أكّد أنّ العاصفة لن تلبث أن تمرّ. وكان توقّعه خاطئًا، ولم تكفِ المظلّتان المتوفّرتان لحماية وسط الهيكل المبنيّ بكومة حجارٍ. وفي أعقاب القدّاس، هبط الجميع إلى كنيسة الوادي، حيث أنفقوا ساعةً في الحوار، وفي الإدلاء بشهادات حياةٍ. وقد باح بعضهم للكردينال أنّ رياضةً روحيّةً نظّمتها مؤسّسة «نور وحياة»، قد قلبت مجرى حياتهم. فشكرهم الكردينال لكونهم تحقيقًا حيًّا لمقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ، على أرض پولونيا.

وقد شجّع سيادته، أيضًا، حركة إنشادٍ دينيٍّ، كانت تقرن الترتيل بالصلاة، والتأمّل. فقد كان الترتيل يمسّ شغاف قلبه، ولا سيّما الإنشاد المتفجّر من قلب الشبيبة، النابض إيمانًا، ووطنيّةً، ومشاعر إنسانيّةً رقيقةً، وكان يهوى مشاركة الشبيبة إنشادها.

لقد أكّد أُسقفٌ معاونٌ لرئيس الأساقفة «ڤويتيووا»، توفّر إمكانيّاتٍ ضخمةٍ لمبادراتٍ غير رسميّةٍ، وكلّ ما تستلزم هو الابتكار والجرأة. وقد توفّقت رعيّة كراكوڤيا، في عهد رئيس أساقفتها «ڤويتيووا»، مستعينةً بحركتي «الواحة» و«نور وحياة»، في تخطّي حواجز الحكم، وتلقين مبادئ التعليم المسيحيّ، وإبقاء جذوة الإيمان متّقدةً، فاعلةً، في قلوب الشباب. وقد أبدى رئيس الأساقفة تأهّبًا دائمًا لتوفير الفُرَص لتفتّح كلّ أنواع الأزاهير حتّى أكثرها غرابةً، طالما كان البستانيّ وفيًّا لتعاليم الإنجيل، وخاضعًا للكنيسة.

ولا ريب أنّ تلك العلاقة الحميمة والحارّة بالشبيبة، قد مهّدت لابتداع البابا يوحنّا بولس الثاني «أيّام الشبيبة العالميّة».

٤ – اهتمام بالثقافة

وفي سياق اهتمامه بالشبيبة، أولى اهتمامًا خاصًّا بالثقافة. فكراكوڤيا هي عاصمة الثقافة في پولونيا، ولا بِدْعَ إن أولى رئيس أساقفتها اهتمامًا دؤوبًا بالثقافة. ولا سيّما أنّه كان يتمتّع بثقافةٍ رحبة الآفاق، عميقة الجذور، فلم يكن أيّ قطاعٍ من الثقافة غريبًا عنه، وبات، في نظر عارفيه «ظاهرةً فكريّةً». ومن خلاله، ترسّخت رسالة الفكر، وأشعّت من كراكوڤيا، ولوبلن، إلى كلّ أرجاء پولونيا، قبل أن تمتدّ إلى خارج الحدود.

كان يخامره حدسٌ بأنّ الرسالة الراعويّة لا تتحقّق بمعزلٍ عن الفكر. وعلى الثقافة أن تكون جزءًا أساسيًّا من رعاية الرعيّة، بقيادة الروح القدس، فسار في تيّار آباء الكنيسة ومعلّميها، منذ الرسول بولس، حتّى الأُخت «تيريز بنيديكت الصليب» (إديث شتَيْن) التي قام بتطويبها.

كان مؤمنًا أنّ الثقافة هي داعمٌ لا غنى عنه للعمل الراعويّ، ومن ثمّ، على الأُسقف أن يقيم علاقةً وثيقةً مع العلماء والمثقّفين، ويدعوهم إلى توظيف علمهم في خدمة الحقيقة، والصالح العامّ. وقد كان، في ذلك المجال، قدوةً، إذ عقد علاقاتٍ وثيقةً مع العديد من مفكّري عصره، وفلاسفته، وعلمائه، وتابع أبحاثهم واكتشافاتهم.

وساهم في تحرير العديد من النشرات المسيحيّة. وكان مقرّه يعجّ، دائمًا، بالنشاطات الروحيّة والفكريّة، متعدّدة الوجوه. وصرّح، هو نفسه: «**كنت أشهد باحثين وأطبّاء، وفنّانين يتوافدون إليّ، بلا انقطاعٍ. فننظّم ندواتٍ. وكان المقرّ، باستمرارٍ، مليئًا، ضاجًّا بالحياة**».

ولم يقتصر نشاطه الفكريّ على كراكوڤيا، بل شمل أيضًا لوبلن، التي درّس في جامعتها، والتي كان يعدّها مختبر الثقافة وقلبها. ثمّ، بعد أن أصبح كردينالاً، امتدّت أسفاره إلى مختلف بقاع المسكونة، فتسنّى للعالم الاطّلاع على ثقافته، وكفاءاته، ونضاله الذكيّ والسلميّ من أجل حقوق الله، وكرامة الإنسان.

وعلى نقيض العديد من الأساقفة، الذين كانوا يرون في المثقّفين تهديدًا، رأى فيهم الأسقف «ڤويتيووا» أصدقاء، واتّخذ منهم حلفاء. ولا ريب أنّ المثقّفين البولونيّين قد ابتهجوا لضمّ حلقتهم مثقّفًا يتبوّأ منصب رئيس أساقفة. وهو توسّم فيهم عنصرًا هامًّا في إنجاح أُسقفيّته، إذ كان من شأنهم أن ينشروا، في الوسط الثقافيّ البولونيّ، مفهوم الإنسانيّة المسيحيّة، الذي جهد، هو، في إدخاله إلى المجمع الڤاتيكانيّ.

ومن المعلوم أنّه لم يكن من اليسير أن يكون المرء مثقّفًا كاثوليكيًّا في پولونيا، في ذلك العهد. فالحصول على دپلومٍ جامعيٍّ، كان يقتضي الكثير من التنازلات، ويواجه جمًّا من المضايقات. أمّا من كُتِب له الظفر بدپلوم، فلا يظفر بفرصة عملٍ، إن اتّضح التزامه الكاثوليكيّ. وكانت الكنيسة تجهد في توفير عملٍ لبعض المثقّفين في الصحيفتَيْن الكاثوليكيّتَيْن الناطقتَيْن باسم المقاومة الثقافيّة، ومع ذلك، ظلّ النظام الشيوعيّ دائبًا على محاولة «اقتلاع المثقّفين من صَدَفة قناعاتهم الدينيّة».

وجريًا على تقليدٍ پولونيٍّ، كان يجمع الأصدقاء، ليلة عيد الميلاد، حول قربانةٍ تشبه القربانة المكرّسة، اقتنص رئيس الأساقفة الكردينال «ڤويتيووا» هذه المناسبة لجمع «مثقّفي كراكوڤيا» في مقرّه، لتبادل الآراء والهواجس. وكانت فرصة التحاور تلك مع مسؤولٍ كنسيٍّ رفيعٍ، بحرّيّةٍ، تسبغ على تلك اللقاءات

طعمًا مميّزًا، فريدًا. وكانت تلك للكردينال، أيضًا، سانحةً للتعبير عن آراء وهواجس لا يسعه الإفصاح عنها، في مكانٍ آخر، أمام مثقّفين كاثوليكيّين أو غير كاثوليكيّين؛ وكان يغتنم هذه السانحة لدحض تخرّصات النظام، المدّعية أنّ الإيمان المسيحيّ هو استلابٌ فكريٌّ، ومناهضٌ لحرّيّة التفكير. ذلك الحوار الحرّ، الذي كان يتمادى حتّى ساعات الفجر الأولى، مع رئيس أساقفةٍ، كان أبلغ تكذيبٍ لادّعاءات النظام.

ولم يقتصر رئيس الأساقفة الكردينال على محاورة حلقةٍ من المثقّفين، بل حاور، أيضًا، «لجنة الدفاع عن العمّال»، التي كانت تضم منشقّين عن النظام. ولطالما التقى زعماء هذه اللجنة، فيما كانت الشرطة السرّيّة تتنصّت عند الأبواب.

ومن المحقّق أنّ هذه اللقاءات كانت حلقةً أُخرى، في سلسلة المقاومة الثقافيّة التي خاضها «كارول ڤويتيووا».

٥ – رعاية الأُسرة

في مواجهة جهود النظام الشيوعيّ، الرامية إلى تفتيت الأُسرة وتدميرها، دأب «كارول ڤويتيووا»، مذ كان كاهنًا يخدم رعيّة «سان فلوريان»، حتّى تبوّئه السدّة البابويّة، على الاهتمام بشؤون الأسرة. وقد استأثرت هذه المهمّة بقسطٍ وافرٍ من هواجسه وجهوده. فعكف على إعداد الشبيبة لزواجٍ متين الأُسُس، الزواج السرّ المرتكز على الإيمان وتعاليم الكنيسة. واستعان على تحقيق هذه المهمّة، بفئةٍ من العلمانيّين المتطوّعين، ولا سيّما من أعضاء جماعة «سرودوڤيسكو»، بغيةَ تعميم هذه المبادرة في كلّ أنحاء الأبرشيّة.

وفي هذا السبيل، دعم مكتب رعاية الأُسرة الذي كان يديره علمانيّون، يهتمّون بإرشاد الأزواج والأُسر، وتأهيل الشبّان والشابّات المخطوبين للزواج، ومساعدة الأُسر كثيرة الأولاد.

وكان، كلّما مضى قدُمًا في هذا الدرب، يتبيّن مدى خطورة شأنه. ولذلك

نظّم، عام ١٩٦٧، في مقرّ الأُسقفيّة، دورةً مكثّفةً، امتدّت على فترة سنةٍ كاملةٍ، وعملت على وضع برنامج إعداد للزواج ولحياة الأسرة السليمة. وقد انتظم، في هذه الدورة، ثلاثون كاهنًا، وستّون علمانيًّا. وقد تناول البرنامج مواضيع لاهوتيّةً، وفلسفيّةً، ونفسيّةً، وطبّيّةً. وانتُدب أساتذةٌ مؤهّلون لإلقاء محاضراتٍ في كلٍّ من هذه الموادّ؛ وقد أَلِف الأُسقف «ڤويتيووا» نفسه الإدلاء بأحاديث، في هذا الشأن، على ضوء ما بسطه في كتابه «حبٌّ ومسؤوليّة».

وفي عام ١٩٦٩، تحوّل هذا البرنامج إلى معهدٍ أبرشيٍّ للدراسات العيليّة. وضُمّ، عام ١٩٧٠، إلى كلّيّة اللاهوت الحبريّة، وبات يخرّج، سنويًّا، عقب سنتين من التثقيف، مئتين وخمسين معلّمًا، منهم إكليريكيّون، وكهنةٌ، وعلمانيّون وعلمانيّاتٌ، يتولّون تدريس هذه المادّة، في كلّ رعيّةٍ. وبعد أن انتشر هذا البرنامج في كلّ أرجاء الأبرشيّة، فرض رئيس الأساقفة مهلة شهري تأهّبٍ، قبل الاحتفال بأيّ زواجٍ. وفي عام ١٩٧٥، تبنّى كلّ الأساقفة الپولونيّين هذا التدبير، بعد أن رفعوا مدّة التأهّب إلى ثلاثة أشهرٍ.

ومن جهةٍ أُخرى، أوجد رئيس الأساقفة صندوقًا لمساعدة الأُمّهات العازبات، غير الراغبات في الإجهاض، والعازمات على تربية أبنائهنّ بأنفسهنّ. وناشد بعض الأديرة استقبالهنّ، والعناية بهنّ، حتّى موعد وضعهنّ، وإعدادهنّ لذلك.

٦ – الزيارات الراعويّة

لا مراء أنّ رئيس الأساقفة «ڤويتيووا» كان رجل صلاةٍ من طرازٍ فريدٍ. ولكنّه كان منزّهًا من عقليّة رجل المكتب، مؤمنًا أنّ واجب الراعي يفرض عليه ألاّ يظلّ سجين الحظيرة، بل عليه أن يقتاد خرافه إلى المراعي المخضلّة، سائرًا أمامها ومعها. إنّه رجل ميدانٍ، يتقن الموازنة بين زياراته الراعويّة، والعمل في مقرّه، الذي قد يهجره شهرًا كاملاً، ينفقه مع الكهنة والمؤمنين، مستنهضًا همم مسؤولي الجماعات الملتزمة ومتطوّعيها، مطّلعًا على ما يجري وما يُعاش، مستكشفًا ما يمكن وما ينبغي فعله، مستبدلاً السلوك القانونيّ الرسميّ البالي والعقيم، بعلاقةٍ إنسانيّةٍ مباشرةٍ، شخصيّةٍ، أكسبته قلوب الجميع. فإذ بالمؤمنين

يقدمون، ويُصغون، ويمارسون الأسرار، ويلتزمون بالخدمة الراعويّة؛ وإذ بالشبّان ينجذبون إلى إشعاع رئيس أساقفتهم، فيتقاطرون إليه، وكلٌّ يلتمس ويجد ما يحتاج إليه، وهو يغدق عليهم محبّته، والنصح السديد الذي يمتلك سرّه، والذي يزيّنه، دائمًا، بروحه المرح.

كان يقوم بزياراته الراعويّة مرّتين في السنة، في الربيع وفي الخريف، وكلّ زيارةٍ تستغرق من أسبوعٍ إلى شهر. وهكذا، استطاع، خلال عشرين سنةً، تفقّد أحوال نحو ثلاث مئة رعيّةٍ، لكلٍّ منها طابعها الخاصّ. ولم يتردّد، يومًا، في امتطاء عرباتٍ تجرّها أحصنةٌ أو بغالٌ، تمضي به إلى بيوتٍ تائهةٍ في الأدغال، أو في شعاب الجبال.

ولطالما شوهد عاكفًا على مواكبة الأزواج، مباركًا الأسر، مشجّعًا الكبيرة منها، شادًّا أزر الأمّهات الحوامل، مرشدًا الشابّات والشبّان، مؤاسيًا المرضى، شاحذًا طاقاتهم الروحيّة، موكلاً هواجسه ومصاعبه إلى استحقاقات آلامهم.

كان ذلك الأسقف المثقّف عميق التأثّر بالتقوى الشعبيّة، مؤمنًا بأنّ الرعيّة هي جماعة مؤمنين مصمّمين على تلبية دعوة المجمع الڤاتيكانيّ إلى حياة قداسةٍ.

وكانت كلّ زيارةٍ لرعيّةٍ تتضمّن قدّاسًا عامًّا، واحتفالاً بسرّ تثبيت شبّان، وقدّاسًا خاصًّا عن نيّة المتزوّجين حديثًا، الذين كان يباركهم، فردًا فردًا؛ وحوارًا مع الكهنة والرعاة، ومع ملقّني التعليم الدينيّ، ومع الراهبات. وحيثما كانت توجد مقابر رعويّةٌ، كان يزورها، ويتلو، مع المؤمنين، مسبحةً من أجل راحة نفوس موتاهم، ويبارك القبور الحديثة، ويتحدّث مع العلمانيّين عن عملهم، ودروسهم، ونشاطاتهم الاجتماعيّة. وكانت كلّ حواراته، مع الجميع، مستفيضةً وعميقةً.

وكان يترسّخ لدى المؤمنين الانطباع بأنّ زياراته تتخطّى الواجب الروتينيّ، لأنّه كان يتوخّى، منها، تأكيد أولويّاته الراعويّة، وترسيخ طابع الكرامة التي يميّز بها كلّ معمّدٍ.

وقد ابتدع وسيلة اتّصالٍ هامّةً، من خلال رسالةٍ سنويّةٍ سمّاها «رسالة الخميس المقدّس». ولم يغفل الأديرة والمناسك العديدة المنتشرة في رعيّته.

وبالإجمال دأب على حرث تربة رعيّته، مزوّدًا المحتاجين بالأسرار، غير متوانٍ عن مدّ يده إلى العجين البشريّ، باذلاً ذاته بلا تحفّظٍ ولا حسابٍ، مشجّعًا، باثًّا الرجاء، موفّرًا الحلول للقضايا المستعصية، والدعم والأزر للرعايا التي تواجه مصاعب، محرّضًا على بناء كنائس جديدةٍ، مكافحًا في سبيل توفير أماكن للخدمات الرعويّة، وبالأخصّ، قاعاتٍ للتعليم الدينيّ.

وفي جميع الحالات كان ما يعنيه، في المقام الأوّل، هو الشخص البشريّ، وهو الذي يغدق عليه حبّه، ويحيطه برعايته اليقظة. وكانت نظرته إلى الإنسان تنبع من إيمانه المسيحيّ، وثقافته الفلسفيّة الواسعة، وفقًا لما بسطه في كتابه «الكائن والفعل» (١٩٧٠). وقد سكنه هاجس تحرير الإنسان الشامل، روحيًّا وبشريًّا، تحرير دفعته إليه معاناة وطنه من نظامَيْن جائرَيْن: الشيوعيّة والنازيّة. فكلّ إنسانٍ يُحدَّد بفرادته، وبالهدف الذي يسعى إليه. وكان يرى أنّ الكيان هو امتلاك الذات، من أجل التشبّه بالمسيح. وذلك لا يتحقّق إلاّ في إطار الجماعة، التي أوجد الله في أحضانها كلّ امرئٍ، والمرء لا يحقّق ذاته، ولا يرقى بها إلى الكمال، إلاّ في علاقته بمن يحيطون به: أُسرته، ومواطنيه، وإخوته في العالم أجمع. وقد أوجز هذه النظرة بقوله: «**إنّ الشخص البشريّ خيرٌ فائق السموّ، لا يسوغ التعامل معه إلاّ بحبٍّ، ولا يمكن استخدامه، بصفته غرضًا، على أساس أنّ الغاية تبرّر الوسيلة**».

كان يبتغي إعتاق الإنسان من قيوده، كي يسهّل انطلاقه نحو الإنسانيّة الشاملة، مرتقيًا به نحو خالقه. نظرته هذه تدلّ على انفتاحٍ، وتقدمةٍ ذاتيّةٍ، وقبولٍ للآخر، واغتناءٍ بالاختلاف. ومن هذا الموقف نجم مفهومه للترحيب، والتعاون، والمشاركة، والعمل الجماعيّ، وكلّ ما جعل منه نبيّ شعب الله.

وكان يستشفّ المسيح في كلّ كائنٍ بشريٍّ، وقد صرّح: «**من الأهمّيّة بمكانٍ أن يكون الأسقف على علاقةٍ طيّبةٍ مع الأشخاص، بطريقةٍ ملائمةٍ. ولقد حرصتُ، دائمًا، على إسباغ طابعٍ شخصيٍّ على كلّ علاقةٍ. فكلّ فردٍ هو، في ذاته، فصلٌ متميّزٌ. وهذه الكاريزما لا تُلقَّن، ولكنّها تنبع من الداخل**». وصرّح أيضًا، بعد أن أضحى حبرًا أعظم: «**إنّ الأُسقف يضطلع برسالته، بطريقةٍ مسؤولةٍ، حقًّا، عندما**

يوقظ، لدى المؤمنين، شعورًا حادًّا بالمشاركة معه، ومن خلاله، مع جميع مؤمني الكنيسة».

وكان يمتلك موهبةً منقطعة النظير في إثارة الحماس، وبثّ الثقة، والحضّ على التضحية والتفاني. وبفضل التزامه الشخصيّ المنيع، وحدْسه الذي يرشده إلى ما ينبغي ابتكاره، وإرادته العنيدة المندفعة للخدمة، نجح في التأثير على من يحتاج إليهم الربّ، للعمل في حقله. وقد قال عنه عميد جامعة «لوڤان» البلجيكيّة: «إنّه فكرٌ منفتحٌ وبنّاءٌ، وهو ملتزمٌ التزامًا كاملاً بالرعاية، يحبّ التقاء الناس، ملمٌّ بخفايا الأحوال، خبيرٌ باتّخاذ مبادراتٍ».

٧ – رعاية مشاريع المحبّة

ممّا لا شكّ فيه أنّ استعانته بالعلمانيّين قد سهّلت له الاضطلاع بالعديد من المشاريع الخيريّة.

ومن المعلوم أنّ من أهمّ عوامل نموّ «جماعة يسوع»، وانتصارها، في الإمبراطوريّة الرومانيّة، كان التزامها بخدمة المرضى، والمسنّين، والعميان، والمعاقين، والأيتام. فامتثالاً لرغبة يسوع الذي اعتبر الأصاغر والمهمّشين إخوةً ونظراء له، أصبحت المسيحيّة حركةً مهيّأةً لاحتضان عددٍ كبيرٍ منهم، ولتوفير حياةٍ أوفر كرامةً لهم. وأنشأت الرعايا، بإيعاز رئيس الأساقفة ورعايته، طائفةً من النشاطات الخيريّة، ونسجت شبكةً واسعةً من المؤسّسات، ضمّت مستشفياتٍ، ومياتم، ومستوصفاتٍ، ومراكز لذوي الاحتياجات الخاصّة.

كلّ هذه النشاطات كان محظورًا على الكنيسة الاضطلاع بها في پولونيا الخاضعة للحكم الشيوعيّ. ولذلك قرّر الأسقف «ڤويتيووا» تكليف أبناء الرعايا بهذه المهامّ، مجدّدًا بها حياة الرعايا الروحيّة وفقًا لروح الإنجيل. فألّف، منذ عام ١٩٦٣، «فريق رعايةٍ»، في كلّ رعيّةٍ، مكوّنًا من أعضاء دائمين، سُمّوا «حرّاسًا رعويّين»، ومن متطوّعين، مهمّتهم البحث عن المرضى والمحتاجين في مجمل الرعيّة والعناية بهم، أيًّا كان انتماؤهم الدينيّ، وحتّى إن كانوا غير كاثوليكيّين أو ملحدين. هذه الفرَق كانت تزوّد المحتاجين بالطعام والدواء والكساء، وتعالج

المرضى، وتنظّم برنامج زياراتٍ، رحبًا، إلى البيوت. وكانت هذه الفرق تدعّم بمعاونين يُنتَخَبون من أوساط المنظّمات الرعويّة المختلفة، كالمجلس الأبرشيّ، والجوقات، وخدّام الكنيسة، وأعضاء «الورديّة الحيّة»، وأُسَر حركة «الواحة»...

وفي عام **١٩٦٥** أسّس مركزًا رعويًّا يُعنى بذوي الاحتياجات الخاصّة، وينظّم رياضاتٍ روحيّةً للأولاد المرضى والمعاقين. وفي فصل الصيف، كان ينظّم رياضات، مدى أسبوعين، في البرّيّة، للمرضى والمقعدين والمسنّين، موفّرًا لهم هواءً نقيًّا، بعيدًا عن هواء المدينة الموبوء، الذي كانت تلوّثه معامل الصلب الحكوميّة غير المعنيّة بتصفية الدخان المنبعث منها. وكان المسؤولون الرعويّون ينظّمون للمرضى رحلاتٍ إلى المزارات المريميّة، ويستنفرون، لهذه الغاية، طلاّبًا جامعيّين، وإكليريكيّين، وراهباتٍ.

وكانت الرعيّة تصدر نشرةً دوريّةً، سُمّيت، أوّلاً، «الحبّ المثمر»، ثمّ «رسالة المحبّة»، كي تطلع أعضاء الفرَق الرعويّة على المبادرات، والأساليب الجديدة في مضمار العناية بالمحتاجين.

وقد ناشد الأسقف «ڤويتيووا» كلّ رعيّةٍ، تبنّي برنامجٍ تربويٍّ يعمّق الحياة الروحيّة لدى المساهمين بأعمال المحبّة، ويستنهض دفعاتٍ جديدةً من المتطوّعين. وكان، هو، يشارك شخصيًّا في الرياضات الروحيّة التي ينظّمها الأعضاء، ويقيم القداديس عن نيّتهم. وكان، كلّما زار رعيّةً ما، يتفقّد المرضى في منازلهم، ويقيم لهم الصلوات، ويلتقي فرَق الرعاية. وبمناسبة «أُسبوع المحبّة» التقليديّ، كان يدلي بإعلانٍ يستنهض الهمم نحو هدفٍ محدّدٍ للسنة المقبلة. فخصّص، على سبيل المثال، عام **١٩٦٨** للمسنّين، وعام **١٩٦٩** للنساء العاملات، وعام **١٩٧٠** للطفولة المضطهَدة. وفي ١٩٦٥/٥/٧، كان قد أعلن عمّا سمّاه «يوم المرضى».

بهذه المبادرات، وبرسائله الراعويّة، كان رئيس الأساقفة «ڤويتيووا» يسعى إلى احتضان المرضى والمسنّين، الذين يعانون العزلة والوحدة. وكان يلتمس من هؤلاء، تقديم آلامهم لاحتياجات الرعيّة، واحتياجات الكنيسة عامّةً، مؤكّدًا أنّ تحقيق الدعوة المسيحيّة يتسنّى في المرَض، كما يتسنّى في كلّ وضعٍ آخر.

احتفال پولونيا باليوبيل الألفيّ

أخيرًا، عام ١٩٦٦، حلّ موعد احتفال پولونيا بذكرى مرور ألف سنةٍ على عمادها، موعدٍ طالما انتظره الشعب الپولونيّ بلهفةٍ، وجهد الحكم الشيوعيّ في مقاومته وتعكيره، بكلّ الوسائل، وبإغلاق الحدود، حؤولاً دون توافد حجّاجٍ للمشاركة به.

اندرج الاحتفال على مرحلتين: الأولى في الربيع — نيسان وأيّار — والثانية في شهر آب، بحضور معظم الأساقفة الپولونيّين، وبرئاسة كبير الأساقفة، الكردينال «ڤيشينسكي»، ممثّلاً البابا بولس السادس، الذي رفضت السلطات الشيوعيّة السماح له بالمجيء إلى پولونيا. وكان هذا المنع إهانةً للپولونيّين جرحتهم في الصميم. فقد كان تعلّقهم بالكرسيّ الرسوليّ وثيقًا وحميمًا. وكانت پولونيا تُعَدّ من أكثر البلدان الأوروپّيّة وفاءً للبابويّة.

بهذا الاحتفال مهّدت پولونيا لدخول العالم الألفيّة الثالثة، تحت راية أحد أبنائها.

استُهلّت الاحتفالات في مدينة «غنييزنو» (Gniezno)، يوم سبت النور، الواقع في ١٩٦٦/٤/٩، حيث جدّد الكردينال «ڤيشينسكي»، ممثّلاً البابا، وباسم الأمّة جمعاء، وعود المعموديّة.

وفي اليوم التالي، عيد الفصح، احتفل الكردينال، في كنيسة القدّيس يوحنّا المعمدان في ڤرسوڤيا.

يوم ١٤ نيسان أُقيمت صلاة شكرٍ في «غنييزنو»، وتناول الكردينال، في عظته، موضوع تربية الشبيبة.

وجرت الاحتفالات، يومي ١٦ و١٧ نيسان، في مدينة «پوزنان»، وقال رئيس الأساقفة: «**بإيماننا سننتصر**».

وبعد الاحتفال في مزار «تشينستوهوڤا»، اختُتمت الاحتفالات، في أوّل شهر أيّار، الشهر المريميّ بامتيازٍ، المكرّس للعذراء مريم، التي بها بدأ كلّ شيءٍ، وبها

ينبغي أن يكتمل. وقد تميّز هذا الاختتام بالأُبّهة والروعة، رغم محاولات النظام الشيوعيّ المستميتة لإفساده. وفي هذه المرحلة، تمّ تجديد تكريس پولونيا للسيّدة العذراء، في قناعةٍ عامّةٍ راسخةٍ بأنّ هذا التكريس هو مصدر كلّ الانتصارات. وفي ذلك اليوم، توقّف العمل، بضع دقائق، في كلّ مكانٍ من البلاد، تعبيرًا عن مشاركة جميع الپولونيّين بالحدث الغالي على قلوبهم، ولا سيّما عندما أعلن الكردينال تقدمة پولونيا، لخدمة مريم، من أجل حرّيّة الكنيسة الجامعة. وعند تلاوة الصلاة الربّيّة ردّدت آلاف الحناجر قول: «نحن نغفر، نغفر كلّ ما ألحقه بنا أعداء الوطن من أذًى على امتداد تاريخنا». وتفجّرت المآقي بدموع التأثّر، الذي ارتسم حتّى على أكثر الوجوه سجوًّا.

تميّز يوما ٢ و٣ أيّار بجوٍّ ربيعيٍّ رائعٍ، وبتوافد حجّاجٍ كثيفٍ، ناهز عديده ثماني مئة ألف مؤمنٍ، تحدّوا عراقيل السلطات.

وخُصّصت أيّام ٦ و٧ و٨ أيّار، للاحتفال في كراكوڤيا، ولكنّ رئيس أساقفتها جهد في الامّحاء أمام الكردينال «ڤيشينسكي». ليلة السادس من أيّار انهمر المطر مدرارًا، وتعمّدت السلطات قطع التيّار الكهربائيّ، وغيّرت مسار تطواف إيقونة العذراء، بلا إنذارٍ سابقٍ. فتألّمت الجموع، وصُدمت؛ ولكنّ مئات ألوف الشموع أضاءت النوافذ، وغصّت كاتدرائيّة «ڤاڤيل» بالذين أنفقوا فيها ساعات سجودٍ خاشعةً.

واختُتمت الاحتفالات، يوم الثامن من أيّار، بحضور نصف مليون مؤمنٍ، رغم أشدّ العراقيل قسوةً، وأمكرها دهاءً، التي وضعها رجال الأمن. وجرى تطوافٌ بإيقونة العذراء، وبذخائر العديد من القدّيسين الپولونيّين، في أُبّهةٍ، من كاتدرائيّة «ڤاڤيل» إلى كنيسة «سكاكا»، التي يُعتقد أنّ القدّيس ستانسلاس استُشهد فيها. وبعد أن ألقى رئيس الأساقفة «ڤويتيووا» خطبة اختتام الاحتفالات، أعلن تقدمة پولونيا لملكتها العذراء، بهذه العبارات:

«أيّتها العذراء مريم، أمّ الله. أدعوك بهذا الاسم الذي يذكّر كلّ پولونيٍّ بألف سنةٍ من تاريخ وطنه... أتطلّع إليكِ والمشاعر تزدحم في نفسي... هذه التقدمة مرتبطةٌ بتقدمة الأمّة الپولونيّة لكِ، يوم الثالث من أيّار، في «ياسنا غورا». بين يديك

نودع وعود معموديّتنا، ونودع ذواتنا بين ذراعيكِ. وأنا، راعي كنيسة كراكوڤيا، أهبك هذه الكنيسة بأجمعها، حاضرًا ومستقبلاً، فهي، بين ذراعيك، تغدو بمأمنٍ من التشتّت والدمار. وطالما نحن خاصّتكِ، سيحيا المسيح فينا، رغم كلّ الصعاب. أنت رجاؤنا، ونحن مِلكك، فاقبلينا، يا أمّاه، كخاصّتكِ. نريد أن نكون لكِ، معتمدين عليكِ، لكي يخدم كلّ شيءٍ فينا ملكوت ابنك. نريد الخضوع لإرادتكِ، فهي إرادة ابنكِ... ساعدينا!...».

وجديرٌ بالذكر أنّه، في أثناء الاحتفال في مزار «تشينستوهوڤا»، الذي شارك به زهاء مليون مؤمنٍ، شخصت كلّ الأنظار إلى مقعد الحبر الأعظم الشاغر، حيث جثمت صورته، محاطةً بباقات الزهور، ما أتاح لأمين سرّ البابا القول: «في ذلك اليوم، تبدّد كلّ شكٍّ حول هويّة «المنتصر»، في الصراع الضاري الناشب بين الكنيسة والحزب الشيوعيّ». وفي الواقع، مع أنّه لم يُسمح للبابا بولس السادس بالحضور، إلاّ أنّ أحد خلفائه كان يقود الاحتفال.

وفي ذلك اليوم، ازداد قداسة البابا بولس السادس تصميمًا على دفع رئيس أساقفة كراكوڤيا، إلى أحد أرفع المناصب الكنسيّة.

«كارول ڤويتيووا» كاردينالاً

ما كاد المجمع الڤاتيكانيّ يغلق أبوابه، حتّى بادر البابا بولس السادس إلى تجديد مجلس الكرادلة، مضفيًا عليه صبغةً أكثر مسكونيّةً. فقد كان الإيطاليّون ما زالوا يمثّلون فيه أغلبيّةً ساحقةً، وكان كثيرون منهم، مع تميّزهم بالكفاءة، وبأسمى الصفات والفضائل، قد تخطّوا الثمانين من العمر، وغدا من الواجب تعيين كرادلةٍ جدُدٍ، قادمين من أوروبّا الشرقيّة، ومن العالم الثالث، كفيلين بتوسيع نفوذ الكنيسة الكاثوليكيّة في العالم، وبالحدّ من تأثير الكرادلة الإيطاليّين على الانتخابات البابويّة، مستقبلاً.

وما كادت پولونيا تفرغ من الاحتفال بيوبيل مسيحيّتها الألفيّ، حتّى هبط عليها، في **١٩٦٧/٥/٢٩** نبأٌ مثقلٌ ببشرى تزخر بالفرح والاعتزاز، تمثّل في تعيين رئيس أساقفة كراكوڤيا، «كارول ڤويتيووا» كردينالاً، وهو لم يتخطّ، بعدُ، السابعة والأربعين، فكان أصغر كردينالٍ سنًّا في العالم.

كان «كارول ڤويتيووا» الأُسقف العالِم، قد لفت انتباه البابا بولس السادس، ليس، فقط، بمداخلاته المؤثّرة في المجمع الڤاتيكانيّ، بل، أيضًا، بأسلوب رعايته لأسقفيّة كراكوڤيا، الذي تميّز بالغيرة، والجرأة، والنزاهة، والروحانيّة السامية، والقداسة. وبذلك، أوجد الحبر الأعظم، إلى جانب الكردينال «ڤيشينسكي»، رديفًا، كي يقويا، معًا، على التصدّي لتعنّت الشيوعيّين، واضطهاداتهم، وجهودهم في تدمير الكنيسة.

كانت أواصر مودّةٍ وإعجابٍ قد نُسجت بين قداسة البابا بولس السادس ورئيس أساقفة كراكوڤيا، الذي كان يرى في ذلك الحبر الأعظم أبًا روحيًّا له.

وكان البابا قد أهدى رعيّة «سان فلوريان»، التي يرعاها الأُسقف «ڤويتيووا»، ثلاثة نواقيس، سارعت السلطات الشيوعيّة إلى احتجازها، ولكنّها، في أعقاب جدالاتٍ حادّةٍ، أفرجت عنها، على اعتبارها «أدواتٍ موسيقيّةً».

وكانت السلطات الشيوعيّة قد بلّغت، في منتصف الستّينات، الڤاتيكان رغبتها في تعيين كردينال پولونيٍّ آخر، آملةً إيقاع شقاقٍ بين الكردينال «ڤيشينسكي»، والكردينال الجديد. ولم يخطر لها ببالٍ أنّ الكردينال الذي سيقع عليه خيار روما، إن هو إلاّ ذلك الأُسقف الذي رغبت في تعيينه، استخفافًا بشأنه، وأملاً في استخدامه أداةً لتنفيذ مآربها الماكرة، فتبيّن لها أنّه خصمٌ عنيدٌ، واعترفت بخديعتها به.

قبل مغادرته إلى روما، احتجّ رئيس الأساقفة «ڤويتيووا» بعنفٍ، على إغلاق المسرح الملحميّ الذي كان عضوًا فيه، في شبابه؛ ثمّ حضر الدفاع عن أُطروحة أحد تلاميذه الجامعيّين؛ وأنفق ساعاتٍ طويلةً في الصلاة والتأمّل. وفي طريقه، عرّج على النمسا، حيث قابل الكردينال «كونيغ»، الذي أبدى إعجابه به، في المجمع الڤاتيكانيّ.

عند وصوله إلى محطّة قطارات «تيرميني»، في روما، سعد الأسقف «ڤويتيووا» بترحيب أصدقاء پولونيّين، كانوا بانتظاره، كي يقدّموا له التهاني والزهور.

في ١٩٦٧/٦/٢٦ تلقّى، من يد البابا، بحضور كرادلةٍ قدامى، قرار تعيينه. وبعد ظهر ٦/٢٨، وعقب إقسام يمين الوفاء للمسيح، وللكنيسة، وللحبر الأعظم، تلقّى شارة الكردياليّة، مرفقةً بهذه المناشدة: «**من أجل مجد الله، كلّيّ القدرة، ومن أجل مجد الكنيسة، إقبلْ شارة الكرامة الكردياليّة هذه، التي تلزمك بالدفاع عن الإيمان حتّى بذل الدم**».

ويوم **٢٩** حزيران، قدّم البابا للجموع المحتشدة في ساحة القدّيس بطرس، معاونيه الجدُد، الذين بلغ عددهم سبعةً وعشرين كردينالاً، شاركوه الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة. ثمّ، عشيّة عودته إلى وطنه، في الثالث من تمّوز، استقبله البابا على انفرادٍ.

وارتدت عودته صبغة حجٍّ، فكانت له محطّاتٌ في عدّة مواقع نمساويّةٍ، تحفل بذكريات بطولات بلاده، قبل أن ينغمس في لجّة الابتهاج التي استقبلته بها رعيّته.

وظلّ الكردينال «عمًّا»

من المحقّق أنّ تكريمه بالرتبة الكاردياليّة، لم يقلّل، في شيءٍ، من اندفاعه في خدمة رعيّته، غير أنّه أسبغ على عمله الرسوليّ مزيدًا من النفوذ والجدوى، والانفتاح على العالم الرحب. فقد تسنّت له مجاورة كبار أحبار الكنيسة ومسؤوليها، والمشاركة في العديد من اللجان الحبريّة، ولا سيّما لجنة الزواج والأسرة، ومجلس العلمانيّين، ومجمع الكهنة، والكنائس الشرقيّة، وسواها.

وأضحى لمداخلاته في سينودسات الأساقفة، أصداء أعمق وقعًا، وأبلغ أثرًا.

ولم تُنقص تلك الرتبة ذرّةً من تواضعه ووداعته. فقد كان أحد زملائه في المعهد قد رافقه إلى روما، من أجل تسلّم شارة الكردياليّة، وبلغ به التأثّر أن خاطبه مهنّئًا: «يا صاحب النيافة...» فسارع الكردينال إلى مقاطعته قائلاً: «**هل جننت؟ قلْ «عمّو»!**». لقد كان عازمًا على أن يبقى بسيطًا، ودودًا، وتلقائيًّا،

وهذا ما أثبته، لاحقًا. ولطالما تساءل حرّاس المؤتمرات، عن هويّة ذلك المرتدي صايةً سوداء، الذي ينقر على أكتاف الجالسين أمامه، كي يهمس، في آذانهم، ملاحظةً. وكان يصعب عليهم تصديق أنّه كردينالٌ، حقًّا.

وقد ظلّ الكردينال على صلةٍ بأصدقائه وأبنائه، في جماعة «سرودوڤيسكو». ولم يكفّ عن متابعة أخبارهم؛ وكلّما سنحت له فرصةٌ كان يقيم لهم ولأسرهم قدّاسًا، وينظّم لهم، كلّ سنةٍ، يوم رياضةٍ روحيّةٍ. وعلى عتبة الصوم الكبير، كان يقيم عيدًا لأبنائهم.

ولكنّ الشرطة السرّيّة غدت تراقب اجتماعاتهم. واتّفق، ذات يومٍ، أن كان الكردينال يتزلّج معهم على جبالٍ محاذيةٍ للحدود التشيكيّة، فداهمته دوريّةٌ، وطالبت بأوراقه الثبوتيّة، فقدّمها لهم. وكانوا يجهلونه شخصيًّا، فظنّوا أنّه يخدعهم بوثائق مزوّرةٍ أو مسروقةٍ، وهدّدوه بالسجن. ولكنّه أكّد لهم أنّه الكردينال عينه، فأجابوا: «أوَتظنّنا حمقى كي نصدّق أنّ كردينالاً يتزلّج؟». وسُئل، يومًا، هل يجوز لكردينالٍ أن يمارس رياضة التزلّج، فأجاب: **أنّ ما لا يجوز هو ألاّ يُحسن الكردينال هذه الرياضة!**

ولم يخفَ على الكردينال الجديد أنّ رتبته ستمثّل له مزيدًا من المقتضيات والمِحَن، والالتصاق بالصليب، والتوغّل في التفاني والامّحاء.

ومع أنّه من الشائع أنّ المسؤوليّات تفقد الكثيرين تركيزهم الفكريّ، إلاّ أنّ الكردينال «ڤويتيووا» كان، في ذلك المجال، استثناءً. فهو لم ينقطع، انقطاعًا كاملاً عن التدريس في جامعة لوبلن، ولكنّ حضوره فيها تقلّص، شيئًا فشيئًا، ولا سيّما بعد أن كثرت أسفاره إلى الخارج، فأمسى تلاميذه هم يأتون إليه كي يعرضوا مشاريعهم وأبحاثهم، ويتزوّدوا بتعليماته. وكان، كلّما سنحت له فرصةٌ، يقتادهم إلى الجبال التي كان كَلِفًا بها، كي يتابع تثقيفهم، ويمارس معهم هوايات التزلّج، وتسلّق القمم. فقد كان يهوى مصارعة عناصر الطبيعة: الثلج، والبرد، والريح، والصخور، التي تروّض الأجساد والأذهان، وبها يتمرّس بمواجهة العواصف من كلّ نوعٍ، التي سيضطرّ إلى مواجهتها. وعلى مقربةٍ من

تلك الجبال، كان يفزع إلى دير راهباتٍ، يجدّد فيه طاقاته الروحيّة، ويُنضج أفكاره، ومشاريعه، وتوجيهاته الراعويّة.

وفي مقرّه في كراكوڤيا، كان ينصبّ على عملٍ فكريٍّ لا هوادة فيه. فحافظ على عادة الاختلاء في مصلاّه، في ساعات ما قبل الظهر، حيث لا يلهيه لاهٍ، ويكبّ على الكتابة التي مكّنته من وضع عشرات المقالات والأبحاث، فضلاً عن ثلاثة كتبٍ هامّةٍ.

وقد جعل من ذلك المقرّ مركزًا روحيًّا، وإنسانيًّا، وراعويًّا، وفكريًّا، فريدًا، يعجّ بكلّ صنوف النشاطات. وعلى نقيض أساقفةٍ آخرين، يتحرّجون من التحدّث إلى البسطاء والفقراء، لأنّهم لم يخبروا مثل عيشهم، أو يتحرّجون من مناقشة مثقّفين، خشية إظهار عجزهم عن مجاراتهم، كان الكردينال يحاور كلّ الفئات، بلا حرجٍ. فهو قد خبر الفقر، والعمل اليدويّ الكادح، والفاقة، واكتسب علمًا في مختلِف فروع المعرفة، ومارس التدريس الجامعيّ، والصحافة، والتأليف. وكان شغوفًا بالاستفادة من كلّ من يتحدّث إليهم، فيحسن الإصغاء، ويقتصد في الكلام، ويستقبل أحبارًا وطنيّين وأجانب، ومفكّرين، وعلماء، ومشاهير عالميّين، ويتلقّف معلوماتهم حول شتّى المواضيع، قارنًا الروحيّ بالعمليّ. وما لبث أن جعل من كراكوڤيا مركز الفكر في پولونيا.

ولم يغيّر، قطّ، أسلوبه الراعويّ القائم على المحبّة والاحترام والتفاني، والجرأة، والمثابرة، والصبر، وعلى توفير القدوة المثاليّة. وهو حاضرٌ، دائمًا، بشخصه، أو بمن يحسن انتدابهم.

وهو، كلّما ثقل عبء مشاغله، أمعن في الصلاة، والتضحية؛ ورغم اتّساع رقعة مشاغله، لم يقطع صِلاته برفاقه المسرحيّين، والصحافيّين، ونأى بنفسه عن رقابة أيةٍ من الصحيفتين الكاثوليكيّتين الپولونيّتيْن، وعن معارضة أفكارهما، وتميّز، دائمًا، بحسن التعامل مع قومٍ يخالفونه الرأي. وقد حافظ على قربه من الشبيبة، وعلى صداقات أيّام الدراسة، وعلى شباب الروح.

سينودُس كراكوڤيا، تنفيذًا لمقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ

كان الكردينال «ڤويتيووا» يعدّ نفسه مدينًا، بعمقٍ، للمجمع الڤاتيكانيّ، وطمح في أن يرى مقرّراته منفَّذةً في وطنه الأُمّ، وفي إشراك الكنيسة الپولونيّة بثماره. وشرع يخطّط لتحقيق هذا الحلم، حتّى قبل اختتام المجمع، منضجًا، في خلَده، فكرة سينودُس، لهذه الغاية، ولا سيّما أنّ احتفال پولونيا بالذكرى الألفيّة لاعتناقها المسيحيّة، عام ١٩٦٦، كان قد أسهم في استعادة الپولونيّين أمجاد وطنهم، وفي نفض العار الذي حاولت الستالينيّة إسباغه على تاريخ استقلال پولونيا. وكان الكردينال «ڤويتيووا» يتطلّع إلى إعداد بلاده، من خلال تنفيذ مقرّرات المجمع، لولوج القرن الحادي والعشرين برؤيةٍ جليّةٍ، وعزيمةٍ ماضيةٍ.

وفيما كان يُنهي كتابه عن «منابع التجديد»، حيث شرح وثائق المجمع ومراميها العمليّة، قرّر الدعوة إلى سينودُس، سيكون بمثابة مجمعٍ محلّيٍّ مصغّرٍ، يتوافق انعقاده مع الذكرى المئويّة التاسعة لسيامة مثاله الأعلى، وشفيع رعيّته، القدّيس ستانسلاس، أسقفًا على كراكوڤيا، عام ١٠٧٢. وقد توخّى الكردينال، من خلال هذا السينودُس، أن يجعل من رعيّة كراكوڤيا، حركةً إنجيليّةً ورسوليّةً منيعةً، وأن تتضافر جهود الإكليروس والمؤمنين، معًا، على بناء جماعةٍ مسيحيّةٍ حقّةٍ.

مشروعه هذا لاقى، بادئ الأمر، مقاومةً شديدةً، حتّى من أقرب معاونيه، الذين تذرّعوا بشتّى الحجج القانونيّة، وبعدم وجود سابقةٍ لهذا الحدث تبرّره. ولكنّه، بعد أن أصغى، باهتمامٍ وصبرٍ، إلى معارضيه، وأفسح لهم فرصة إفراغ جعب حججهم، استطاع، بفضل حنكته، وأناته، الحصول على مبتغاه، متخطّيًا كلّ الاعتراضات.

وعقب استعدادتٍ دقيقةٍ، افتُتح السينودُس، بتاريخ ١٩٧٢/٥/٨، في كاتدرائيّة «ڤاڤيل»، بمشاركة ممثّلين عن كلّ رعيّة. وعلى امتداد السنوات السبع التالية، أشرفت لجنةٌ مركزيّةٌ على متابعة أعمال السينودُس، فعقدت مئةً وتسعة عشر اجتماعًا، ونظّمت ثلاث عشرة جلسةً عامّةً، اشترك بها أساقفةٌ، وكهنةٌ، وعلمانيّون. وطيلة هذه الفترة خاضت رعيّة كراكوڤيا حوارًا جادًّا، وبحثًا عميقًا،

وانقبلت جماعةً تنبض حيويّةً وإبداعًا، مسترشدةً بكتاب رئيس أساقفتها حول المجمع.

وبعد أن قطع السينودُس شوطًا هامًّا، تألّفت لجنة صياغة الوثائق. وكانت المقرّرات تعرض على الجلسات العامّة التي تصوّت: «نَعَم» أو «نعم مع التعديل» أو «لا». ثمّ كانت اللجنة المركزيّة تبيّن أسباب قبولها، أو رفضها، أو مطالبتها بالتعديل، أو ما تدخله من إضافاتٍ. وقد نتج عن ذلك السينودُس أربع مئة صفحة محاضر، تناولت مختلف وجوه حياة الكنيسة، في الرعيّة.

وكانت المقرّرات قد أُشبعت بحثًا وتمحيصًا، من قِبَل خمس مئة مجموعة دراسةٍ، بعضها في أديرةٍ، وبعضها في إكليريكيّاتٍ، وتولّت معظمها القاعدة العلمانيّة الشعبيّة. وقد تضافر كهنةٌ وعلمانيّون، مفكّرون وعمّالٌ، رجالٌ ونساءٌ، شبّانٌ وشيوخٌ، على الصلاة، والتأمّل، ودراسة تعاليم المجمع، وبحث وسائل تطبيقها في حياة الرعيّة اليوميّة. وكان ممثّلون عنهم يبلّغون ما توصّلوا إليه، في جلسات السينودُس العامّة.

وهكذا تمكّنت رعيّة كراكوڤيا من استيعاب مقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، ومن توفيقها مع ظروفها الخاصّة، وعيشها بعمقٍ، متفاديةً التوتّرات، والشقاقات، التي حدثت في أماكن أُخرى، بشأنها.

ومع أنّ الكردينال «ڤويتيووا» اضطرّ إلى التغيّب عن جلسات السينودُس الأخيرة، إلاّ أنّه رئس اختتامه، بصفته البابا يوحنّا بولس الثاني، في ١٩٧٩/٦/٨. وكان قد بذل كلّ ما وسعه، كي يحقّق رغبة البابا يوحنّا الثالث والعشرين، بجعل المجمع الڤاتيكانيّ عنصرةً جديدةً، ترسّخ إيمان الكنيسة، وتسيل في رسالتها نسغًا جديدًا.

ذلك السينودس، الذي شارك فيه عددٌ لا يُحصى من العلمانيّين، أَسهم في إِيقاظ وعيهم على حقّهم في المشاركة بحياة الكنيسة، وإِثبات قدرتهم على إجراء دراساتٍ وأعمالٍ خطيرةٍ، والتفكير المستقلّ حول أوضاع مجتمعهم، بمعزلٍ عن السلطة المحتلّة الطاغية، التي طالما جهدت في فصل الشعب عن الكنيسة.

ومن ثمّ، تخطّت نتائج ذلك الحدث، شأوًا بعيدًا، كلّ ما تخيّله دهاقنة الحكم الشيوعيّ.

وبفضل ذلك السينودُس، تعلّمت شتّى فئات المجتمع العملَ، جنبًا إلى جنبٍ، والمشاركة الفعليّة الخصبة. وبالإجمال كان ذلك السينودس استثمارًا خصبًا لمستقبل كنيسة پولونيا.

نجم السينودسات الأُسقفيّة

اتّسعت رقعة رسالة الكردينال «ڤويتيووا»، وأقحمته في معمعان إدارة الكنيسة الجامعة، وفي أسفارٍ دوليّةٍ اضطلع، فيها، بمهمّاتٍ كنسيّةٍ.

فقد كان البابا بولس السادس، بوحيٍ من روح المجمع، أسّس سينودسًا أُسقفيًّا يلتئم كلّ سنتين أو ثلاث سنواتٍ، بغية تحقيق إدارةٍ كنسيّةٍ جماعيّةٍ.

كان من المفروض أَن يمثّل الكنيسة الپولونيّة، في هذه السينودسات، كبير أَساقفتها، الكردينال «ڤيشينسكي» فقط. غير أنّ البابا بولس السادس، دعا إليها، استثنائيًّا، وشخصيًّا، الكردينال «ڤويتيووا»، الذي لمع نجمه فيها، أكثر ممّا تألّق في جلسات المجمع الڤاتيكانيّ، مع أنّه لم يحضر السينودُس الأوّل، الذي التأم في ١٩٦٧/٩/٢٩، بغية إعادة النظر في القانون الكنسيّ، والزواجات المختلطة، إذ كانت السلطات الپولونيّة قد رفضت منح الكردينال «ڤيشينسكي» تأشيرة سفرٍ إلى روما، فتضامن الكردينال «ڤويتيووا» معه، وأحجم عن السفر، احتجاجًا.

السينودُس الثاني عُقِد في ١٩٦٩/١٠/١١، مقتصرًا على رؤساء الأساقفة، واستهدف تحقيق الإدارة الجماعيّة، والمؤتمرات الأُسقفيّة في كلّ بلدٍ، عملاً بالقرار المجمعيّ «مهمّة الأساقفة الراعويّة» (Christus Dominus).

وكان للكردينال «ڤويتيووا»، في هذا السينودُس، عدّة مداخلاتٍ. وقد انضمّ إليه، في أُولاها، (١٩٦٩/١٠/١٥) كردينال بلجيكا وآخرون، عبّروا عن أسفهم لاستمرار سيادة المركزيّة الرومانيّة، خلافًا لما أوصى به المجمع. وطالب الكردينال «ڤويتيووا» بإقعاد الإدارة الجماعيّة على مبدإ الشركة الذي قامت عليه الكنيسة.

وأوضح أنّ المطلوب ليس دعم السلطة الأُسقفيّة، من أجل فرضها على الكنائس المحلّيّة، بل تأسيس وحدةٍ، وتقاسم السلطة الأُسقفيّة بين روما وكنائس العالم الثالث الناشئة، وتنشيط تيّار محبّةٍ داخل الجماعات الكنسيّة، ولا سيّما بين الإكليروس والعلمانيّين، بحيث لا تكون الشركة المنشودة مجرّد مشروعٍ مصطنعٍ مبهمٍ، ذي طابعٍ قانونيٍّ، بل تكون عاملاً فاعلاً ينمّي التواصل داخل الكنيسة، وإبراز مكانة كلّ رعيّةٍ، وإغناء الكنيسة بتنوّع مواهب أعضائها.

وقد ساهم الكردينال «ڤويتيووا» في صياغة بيان ذلك السينودس النهائيّ، وانتخبه نظراؤه عضوًا في أمانة السرّ الدائمة. ومنذئذٍ دخلت السينودسات الأُسقفيّة في طور نموٍّ وازدهارٍ.

كان موضوع السينودس الثالث (تشرين الأوّل ١٩٧١) الخدمة الكهنوتيّة، والعدالة في العالم. وكان الكهنوت، حينئذٍ، يواجه، في الغرب، أزمةً حادّةً، تفاقمت إثر ثورة الشبيبة عام ١٩٦٨، وفي أميركا اللاتينيّة، من جرّاء اندفاع فئةٍ من الأساقفة والكهنة في تيّار ما دُعي «لاهوت التحرير». وبات واجبًا تحديد هويّة الكاهن، لمواجهة أمواج نكوص العديد من الكهنة، أو انحرافهم عن رسالتهم الأصيلة؛ وقد شدّد الكردينال «ڤويتيووا» على مفهوم الالتزام، وتكريس الذات للربّ، بالتخلّي عن كلّ مطمعٍ دنيويٍّ، مبيّنًا أنّ علمنة الكهنة تفضي، واقعيًّا، إلى إلغاء دعوة العلمانيّين في الكنيسة. وقدّم مثالاً على الكاهن الوفيّ الأب «مكسيميليان كولبي»، الذي دفعه الكهنوت إلى بذل حياته لإنقاذ أحد رفاقه في البؤس، وشاءت العناية الإلهيّة أن يتمّ تطويب ذلك الكاهن، في أثناء انعقاد ذلك السينودُس.

وقد أدهش الكردينال الحضور برباطة جأشه، وسجوّه، في مقاربة ذلك الموضوع الذي كان يقضّ مضاجع نظرائه، وثقته الراسخة بربّ المستقبل، وبقدرته على الإقناع، في أكثر المواضيع الشائكة إحراجًا.

وبمثل هذا السجوّ عينه، تطرّق إلى قضيّة العدل، الذي ينبغي بناؤه على شراكةٍ حقّةٍ، لا تتناول فقط، الخيرات المادّيّة، بل المعرفة والبحوث، مطالبًا الكنيسة بأن تكون للعدل نموذجًا وقدوةً.

وفي ختام هذا السينودس، انتُخب الكردينال «ڤويتيووا» عضوًا في المجلس الدائم لأمانة سرّ السينودسات الأُسقفيّة. ولا ريب أنّ هذا الانتخاب قد أَعدّه لمزيدٍ من التصعيد في مراكز إِدارة الكنيسة.

وتناول السينودُس الرابع (تشرين الأوّل ١٩٧٤) قضيّة التبشير بالإنجيل في العالم المعاصر. واختير الكردينال «ڤويتيووا» مقرّرًا لهذا السينودُس، فقد توسّم فيه البابا بولس السادس «لاهوتيًّا منيعًا، ومقرّرًا أمينًا حازمًا». فأدار نقاشات السينودُس بحنكةٍ وحزمٍ، رغم ما ظهر من تباين وجهات النظر، عندما تطرّق البحث إلى التبشير في الدول الخاضعة للحكم الشيوعيّ، وفي الأوساط المتأثّرة بالماركسيّة. ولاسيّما عندما شدّد على أَنّ واجب الكنيسة لا يقتصر على إِعداد المؤمنين للحياة الأَبديّة، بل عليها الإِسهام في تحسين أَوضاع وجودهم الأَرضيّ، وفي تحريرهم سياسيًّا واقتصاديًّا، باسم كرامة الكائن البشريّ. وقد أفسدت النقاش سذاجة أوروپيّين غربيّين، وأميركيّين جنوبيّين كانوا يرون، في الماركسيّة، «فكرةً مجرّدةً أخّاذةً»، في حين هي «واقعٌ يوميٌّ خطيرٌ». وقد أدّى ذلك التباين إلى تعذّر وضع محضرٍ يحظى بالإجماع. غير أنّ الكردينال «ڤويتيووا» أوجز النقاش في تقريرٍ مسهبٍ عبقريٍّ، وضعه بتصرّف البابا، الذي استوحى منه واحدًا من أروع إرشاداته الرسوليّة.

وتناول السينودُس الخامس، الذي انعقد في نهاية أيلول ١٩٧٧، موضوع التعليم الدينيّ، والتربية الدينيّة، الذي كان الكردينال في مضماره مجلّيًا. وقد أوضح في إحدى مداخلاته أنّ النظام الپولونيّ الحاكم، قد أوجد مناخًا معاديًا للتعليم المسيحيّ، وحاول فرض الإلحاد بمثابة دين دولةٍ جديدٍ، خارقًا مبادئ الحرّيّة الدينيّة. ثمّ، في مداخلةٍ أُخرى، أوضح أنّ القدّيسين كانوا «خير معلّمي الدين المسيحيّ»، لأنّ التربية الدينيّة المجدية والفعّالة لا تتمّ، فقط، عبر تبليغ أفكارٍ، بل، أيضًا، بمثال الفضيلة البطوليّة.

ولا ريب أنّ من مناقشات هذا السينودُس قد استخلص يوحنّا بولس الثاني، لاحقًا، إنجازه الرائع: «التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة».

عقب هذا السينودس، انتُخب الكردينال «ڤويتيووا» رئيسًا للمجلس الحبريّ للسينودس، بصفته أَقدم أَعضائه عهدًا. وفي هذه الأَثناء، كان البابا بولس السادس قد عيّنه عضوًا في العديد من المجامع الهامّة، مثل مجمع العبادة الإِلهيّة، منذ عام ١٩٧٠، ومجمع الكنائس الشرقيّة، عام ١٩٧٦، ومجمع التربية المسيحيّة، والمجمع الحبريّ لرسالة العلمانيّين.

من المحقّق أَنّ الكردينال «ڤويتيووا» لم يكن من أَساطين الإدارة الڤاتيكانيّة، غير أَنّ طيفه الآخذ في الاحديداب، وخطواته الجبليّة، باتت مألوفةً في أَرجاء الڤاتيكان. وقد تألّفت من حوله شبكة أصدقاء، ومعجبين بشخصيّته. وقال فيه رئيس أَساقفة ليڤيرپول: «إِنّه واحدٌ من أَلمع الأَدمغة التي صادفتها، يومًا». وكان كثيرون يشاركونه هذا الرأي.

وكان يحظى، غالبًا، بلقاءاتٍ مع قداسة البابا بولس السادس، الذي لم يُخفِ إِعجابه بذلك الرجل الذي يقرن الثقافة بالتقوى، ولا ينحاز لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، ويشعّ التفاؤل من كلّ أَعطافه.

في تلك الفترة بدا البابا بولس السادس، المشرف على الثمانين من العمر، منهكًا صحيًّا. وشرع الكرادلة والأساقفة يتداولون في مستقبل رئاسة الكنيسة. وقد استشفّ الكثيرون منهم، في ذلك الكردينال الپولونيّ، واحدًا من أكثر وجوه الكنيسة إيحاءً بالاحترام والثقة. وكان، هو، قد أضحى جاهزًا لغزو العالم.

غزو العالم

بعد أن تحرّر من ضغوط المجمع الڤاتيكانيّ، أفسحت له السينودسات الأُسقفيّة فرصًا لجوب العالم الفسيح، وتلبية رغبات الجاليات الپولونيّة المنتشرة في العالم، التي كانت توّاقةً إلى تعرّف مواطنها الذي تألّق نجمه في المجمع الڤاتيكانيّ، حيث أهّله نشاطه لنيل رتبة كردينال، وكان أسلوب رعايته الأُسقفيّة، وثقافته الواسعة، وتمكّنه من لغاتٍ عديدةٍ موضع إعجابٍ وتقديرٍ، فرغب كثيرون في الاتّصال به، والاغتناء بآرائه وخبراته.

وكانت رحلته الأولى، خارج أوروبّا، تلبيةً لدعوة مواطنيه المغتربين في كندا، بمناسبة انعقاد المؤتمر البولونيّ الخامس والعشرين، وقد واكبه فيها اثنان من الأساقفة البولونيّين.

وصل إلى كيبيك، يوم ١٩٦٩/٨/٢٨، وأخضع نفسه لبرنامج عملٍ مرهقٍ، فزار خلال شهرٍ واحدٍ، تسع ولاياتٍ كنديّةٍ، وألقى، في جميعها، مواعظ، حريصًا على المكوث بين مواطنيه البولونيّين، حيثما وُجدوا.

بادئ الأمر، استنكر العادات الرائجة التي تمزج شؤون الدين بمظاهر اجتماعيّةٍ باطلةٍ، مسرفةٍ في البذخ، والتي نأى بنفسه عنها، بقدر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وحتّى عندما كان يضطرّ إلى المسايرة، كان حريصًا على الجوهريّ، أي على صون الحياة الداخليّة، والإصرار على قول ما يرى قوله واجبًا.

وقد حرص على الاتّصال بالمغتربين البولونيّين والكرواتيّين، وشتّى الشخصيّات الدينيّة والمدنيّة، من مختلف الطوائف. وكان يطيب له، بنوعٍ خاصٍّ، التواصل مع الشبيبة والكشّاف.

ثمّ دأب على اكتشاف الولايات المتّحدة الأميركيّة، فزار، في غضون خمسة عشر يومًا، خمس عشرة ولايةً. وقد استقبله، في فيلادلفيا، الكردينال «جون كرول»، وهو أميركيٌّ من أصلٍ بولونيٍّ، كان قد عُيّن كردينالاً في آنٍ واحدٍ معه، عام ١٩٦٧. وكانت التقاليد تقضي من كلّ كردينالٍ جديدٍ العودة لزيارة مسقط رأسه. ولكنّ السلطات البولونيّة رفضت منح الكردينال «كرول» تأشيرة دخولٍ إلى بولونيا، فقام الكردينال «ڤويتيووا» بهذا الواجب عنه. وفي فيلادلفيا تسنّى للكردينال الزائر التحدّث مع الإكليريكيّين من أصلٍ أفريقيٍّ، وعن اختباراتهم في الولايات المتّحدة، وعن وضع الكنيسة السوداء، وعن الدوافع التي جاءت بهم إلى الإكليريكيّة. وقد انتهز فرصة هذه الرحلة، كي يلتقي العديد من نظرائه الكرادلة الأميركيّين، فمنهم من كان قد عمل معهم في المجمع الڤاتيكانيّ، ومنهم من تعرّفهم عن كَثَبٍ، ووثّق علاقته بالعديد من الأساقفة. ولم يفوّت سانحةً كي يشدّد مواطنيه المهاجرين في إيمانهم وثقافتهم الأصيلة.

ومن كلّ تلك اللقاءات، استخلص معرفةً أدقّ للعالم الجديد، ولما يميّزه عن سواه، ما ألهمه تشجيع التبادل الرعويّ، على شتّى المستويات، وإقحام الثقافات والتقاليد المختلفة في النسيج الدينيّ، والحفاظ على كرامة كلّ إنسانٍ في إطار بيئته الخاصّة.

وبمناسبة كلٍّ من رحلاته، كان يحرص على تفقّد أحوال الجاليات الپولونيّة، والتعرّف على شعوبٍ مختلفةٍ، لكلٍّ منها أوضاعها الخاصّة وهمومها. ولا ريب أنّ تلك الأسفار لعبت دورًا هامًّا في صوغ راعي الكنيسة الجامعة.

وغالبًا ما كان يزور الڤاتيكان، حيث كان يشارك في لجانٍ وجمعيّاتٍ عديدةٍ. وقد سرّه ما لحظ من تطوّرٍ يطرأ، يومًا فيومًا، على الإدارة الڤاتيكانيّة، التي كانت تتخلّى عن طابعها الأوروپّيّ الصرف، بعد أن تعدّدت جنسيّات أعضائها.

وبمناسبة كلّ زيارةٍ إلى روما، كان يخصّه بمقابلةٍ شخصيّةٍ، البابا بولس السادس الذي كان يقدّر روحانيّته العميقة، وجرأته الرسوليّة، وثقافته الواسعة، وتفكيره الساجي، وولاءه الراسخ.

رحلاتٌ عالميّةٌ

منذئذٍ، استهلّ الكردينال «ڤويتيووا» سلسلة رحلاتٍ عالميّةٍ، لم تتوقّف إلاّ برحلته الأخيرة إلى الديار السماويّة.

ففي شباط ١٩٧٣، دُعي لتمثيل الكنيسة في المؤتمر القربانيّ الدوليّ في أوستراليا، وقضى نحو شهرٍ كاملٍ في تلك القارّة النائية، وفي عدّة بلدانٍ آسيويّةٍ. وقد حفلت هذه الرحلة بمفاجآتٍ واكتشافاتٍ مدهشةٍ، وبحصادٍ وفيرٍ من الخبرات.

فعند الساعة السابعة من مساء يوم الأربعاء، ١٩٧٣/٢/٧، حطّت الطائرة التي أقلّته من روما في مطار مانيلاّ، في رحلةٍ استغرقت ستّ عشرة ساعةً. ولكم بدت له هذه المدّة قصيرةً، مقارنةً بالأشهر الستّة التي اقتضتها رحلة سلَفه، الكردينال ساپييها، بالباخرة، عام ١٩٣٧، إلى ذلك المقصد عينه!

واغتنم الكردينال السويعات المتاحة له، قبل استئناف الطائرة رحلتها، عند منتصف الليل، كي يقيم قدّاسًا في كنيسةٍ يخدمها پولونيّون. وسعد بما لحظه من تقوى الفيليپّينيّين، وخشوعهم في أثناء القدّاس، وتقبّلهم المناولة ركوعًا. مشاهدُ لم يرَ لها مثيلاً إلاّ في مزار «تشينستوهوڤا»، في وطنه؛ ومن المؤكّد أنّه لم يجلْ بخاطره أنّ القدّاس الذي سيحتفل به، في تلك المدينة عينها، بعد عشرين سنةً، بصفته حبرًا أعظم، سيتراصّ لحضوره، واحدٌ من أكبر الحشود في تاريخ البشر، إذ تخطّى عديده أربعة ملايين نسمةٍ.

يوم الجمعة، ١٩٧٣/٢/٩، وبعد ليلةٍ أُخرى قضاها في الجوّ، حطّ مع مرافقيه في عاصمة پاپوازيا غينيا الجديدة، حيث لبّوا دعوة ثلاثة مرسلين، أحدهم پولونيٌّ، وثلاث راهبات پولونيّات، يخدمون جماعةً كاثوليكيّةً تضمّ ستّين ألف مؤمنٍ، يحيون إيمانهم، في جوٍّ بدائيٍّ، بعيدٍ عن كلّ مظاهر الحضارة الحديثة. ولكم دهش عندما استقبله، في غابةٍ، كاهنٌ ألمانيٌّ قادمٌ من مدينة أجداده «بييلسكو» (Bielsko)! وفي نيوزيلاندا، التقى أحفاد مواطنيه الذين فرّوا من شمالي پولونيا، هربًا من بطش بيسمارك عام ١٨٥٣، وبارك أبناء آلاف الأيتام الذين نفوا إلى تلك البقاع النائية عام ١٨٤٥. وكرّت في ذاكرته أطياف مآسي مواطنيه، في العهد الحديث. كما أنّه التقى، على شواطئ أوستراليا، العديد من الأُسَر الپولونيّة، التي تمكّنت من الفرار من معتقلات سيبيريا، عام ١٩٤٣. هذه الذكريات الموجعة، خفّف من وقعها الأليم، جَبَلٌ مطلٌّ على تلك البقاع من ارتفاع ٢٢٢٨ مترًا، كان مكتشف پولونيٌّ قد أطلق عليه، عام ١٨٤٠، اسم «كوشيوسكو»، تيمّنًا باسم بطل المقاومة الكراكوڤيَّة ضدّ روسيّا.

وفي كلّ مكانٍ من أوستراليا، رحّبت به فتياتٌ مرتدياتٌ أزياءً فولكلوريّة پولونيّةً، بأغانٍ وطنيّةٍ پولونيّةٍ. وفي مدينة «كامبيرّا»، قدّم له مقاومون يابانيّون عتاةٌ، تمثالاً للعذراء، مصنوعًا من شظايا القنابل المنتزعة من جراحهم، كي يودَع في كنيسة «نوڤا هوتا»، التي ناضل الكردينال «ڤويتيووا» بشراسةٍ وبسالةٍ، في سبيل بنائها. وقد انتهز مناسبة تلك الرحلة، فمنح سرّ التثبيت لعشرات الشبّان، ورسم كاهنين، وكرّس مزارًا للسيّدة العذراء، ملكة پولونيا.

هذه الزحمة من الأحداث والمفاجآت، كادت تنسيه غاية رحلته الأساسيّة: المؤتمر الإفخارستيّ في ملبورن، بين ١٨ و٢٥ شباط. وهناك التقى، فضلاً عن حشودٍ تمثّل فسيفساء شعوبٍ وإثنيّاتٍ، من كلّ لونٍ، تعكس صورةً للكنيسة الجامعة، كرادلةً زملاء، وشخصيّتيْن بارزتين، هما الأُسقف الأوكرانيّ البطل «سليـپيي» (Slipyi)، الذي كان قد قبع سنواتٍ طويلةً في المعتقلات السوڤييتيّة، وراهبةً مغضّنة المحيّا، ملتهبة القلب، لا تني تذكّر الأغنياء بأنّ من حولهم بؤساء ينفقون عوزًا، وفقرًا، وجوعًا، هي الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة.

ومنذئذٍ غدا «ڤويتيووا» الوجه المتألّق البارز في المؤتمرات القربانيّة العالميّة، حتّى بعد اعتلائه السدّة البابويّة.

وما كاد يعود من رحلته الأوستراليّة، التي زخرت بالمشاقّ والحصاد الروحيّ، حتّى دعاه أُسقف بروج، ببلجيكا، إلى ترؤّس احتفالات «دم المسيح المقدّس»، في كاتدرائيّة المخلّص، حيث قاد تطوافًا «مذهلاً».

وعام ١٩٧٤، شخص إلى مدينة «ليتوميريس» في تشيكوسلوڤاكيا، من أجل تشييع الكردينال «ستيفان تروشتا»، الذي كان قد أمضى عشر سنواتٍ في السجن، وأُكرِه على العمل الشاقّ بصفة عامل سخرةٍ، مدى ثماني سنين. وكانت السلطات التشيكيّة منعت الكردينال «ڤويتيووا»، ورفيقيه الكردينال «كونيغ» القادم من النمسا، والكردينال «بينغش» (Bengsh) القادم من برلين، من المشاركة في طقوس الجنازة. فجلس بين جمهور المؤمنين، واصطفّ مع الذين تقدّموا للمناولة، ولكنّه لم يتمالك عن تحدّي السلطات، وعن تأبين الكردينال المتوفّى، فوق نعشه، في نهاية القدّاس. وفي طريق عودته، توقّف في «ڤيينّا»، وأقام القدّاس في السفارة البابويّة، الساعة العاشرة، ليلاً.

ورغب العديد من الرؤساء الكنسيّين أن يقابلوا زياراته بزياراتٍ مماثلةٍ، فاستقبل في شهر تشرين الأوّل من عام ١٩٧٣، بمقرّه في كراكوڤيا، الكردينال «دوفنر»، رئيس المجلس الأُسقفيّ الألمانيّ. وخلال عام ١٩٧٤، استقبل كرادلةً فرنسيّين وإيطاليّين، وأساقفةً قادمين من بلجيكا وبوروندي.

وفي عام ١٩٧٦، تدليلاً على الثقة التي كان البابا بولس السادس يوليها لذلك الكردينال البولونيّ، كلّفه بإلقاء مواعظ الرياضة الروحيّة السنويّة، التي كان يحييها الحبر الأعظم ومعاونوه، خلال أسبوع الصوم الكبير الأوّل. ولكي يُعدّ المحاضرتين الرئيستين، اللتين كان عليه إلقاؤهما، في تلك المناسبة، اختلى في قمّة جبلٍ، حيث مارس التزلّج، بين فينةٍ وأُخرى، مشبعًا المواضيع التي سيتناولها تأمّلاً وإنضاجًا. ثمّ وقف خمسة أيّامٍ - **٢٠** حتّى **٢٥** شباط - على تدبيج النصوص في مصلاّه الخاصّ، قبل أن يشخص إلى روما، في الأوّل من آذار.

بدأت الرياضة مساء السابع من آذار، في أحد معابد الصرح الرسوليّ، بحضور حشدٍ من كبار مسؤولي الڤاتيكان، في حين جلس الحبر الأعظم، في حجرةٍ صغيرةٍ محاذيةٍ للهيكل. كان الأب الأقدس، آنذاك، يشارف الثمانين من العمر، وقد انهارت قواه، ومع ذلك كان يرتدي مسحًا تحت ثوبه الأبيض. ومع أنّ الواعظ استند، في المقام الأوّل، على ما ورد في النصّ المجمعيّ «فرحٌ ورجاء»، إلاّ أنّه دعم أقواله باستشهاداتٍ من لاهوتيّين، وفلاسفةٍ، وشعراء، للدلالة على قيمة الإنسان الذي افتداه الله، واستقى، أيضًا، من خبراته الراعويّة للتشديد على عظمة المسيحيّ، مبيّنًا: «**عندما يركع الإنسان في كرسيّ الاعتراف، لأنّه أخطأ، ففي تلك اللحظة بالتحديد، تتعاظم كرامته الإنسانيّة. وأيًّا كان وقر الخطايا الذي يبهظ وجدانه، حتّى ولو كانت الخطايا قد نالت من كرامته، فإنّ مجرّد عودته إلى الله هو دليلٌ على كرامة الإنسان المميّزة، وعلى عظمته الروحيّة... عظمة اللقاء الشخصيّ بين الإنسان والله، في حقيقة الوجدان الداخليّة**».

وقد كان لهذه المواعظ، عندما نشرت في الصحف البولونيّة، وقعٌ بليغٌ على مثقّفي كراكوڤيا.

المؤتمر القربانيّ في فيلادلفيا ١٩٧٦

في صيف عام ١٩٧٦، قام بزيارته الثانية إلى الولايات المتّحدة التي كان قد زارها، لسبع سنواتٍ خلت، وقد شخص إليها على رأس وفدٍ حبريٍّ، للمشاركة في المؤتمر الإفخارستيّ العالميّ، الذي عُقد في مدينة فيلادلفيا.

وفي الواقع أَنفق معظم ذلك الصيف في الولايات المتّحدة، منصرفًا إلى اهتمامات متعدّدةٍ، ففضلاً عن مشاركته في المؤتمر الإِفخارستيّ، كان مدعوًّا إلى إِلقاء محاضرةٍ في جامعة «هارڤارد». وكان راغبًا في تمتين علاقاته بنظرائه الكرادلة الأَميركيّين، وفي تفقّد أَحوال الجالية الپولونيّة، التي يناهز عديدها عشرة ملايين پولونيٍّ كاثوليكيٍّ، ما انفكّوا مشدودين إلى جذورهم، وتوّاقين إلى مسقط رأسهم، كما أنّه دعا إلى مساعدة مواطنيه المقيمين، الذين يعانون الاضطهاد الشيوعيّ والعَوَز.

وصل إلى نيويورك يوم **١٩٧٦/٧/٢٣**، وقد خصّه كبير أساقفة الولايات المتّحدة «جون كرول» الپولونيّ المحتد، مع مرافقيه الثمانية عشر، باستقبالٍ حارٍّ، بل أَخويٍّ.

غداة وصوله، توارى عن الأَنظار، بدعوةٍ من أَصدقاء مثقّفين، أَتاحوا له فسحة نقاهةٍ وراحةٍ، تضمّنت سباحةً في ماءٍ جليديٍّ، وخلوةً بعيدةً عن ضوضاء المدينة، تسنّى له، خلالها، وضع اللمسات النهائيّة على المحاضرة، التي كان عليه إلقاؤها في جامعة «هارڤارد»، والتي تناولت موضوعًا حارقًا أَطلق عليه عنوان «استلابٌ أَم مشاركة؟»، والتي أَلقاها باللغة الإِنكليزيّة، مرتديًا صايته الكهنوتيّة السوداء، بارتياحٍ وثقةٍ، فاستحقّ إِعجاب جمهوره الذي دهش لسعة ثقافته، واطّلاعه على تيّارات الفكر المعاصر. وكان لها أَصداءٌ بعيدةٌ في الأَوساط الثقافيّة، بحيث توسّمت فيه صحيفةٌ جامعيّةٌ «خليفةً محتملاً لبولس السادس».

وكان تأثُّر عميد الجامعة بليغًا بذلك «الرجل المتألّق»، وخشي عليه مكروهًا لدى عودته إلى وطنه، فاكتفى الكردينال بالإجابة: «إنّني أعرف ذلك».

ودُعي المستشار السياسيّ «زبيغنيو بييزنسكي» إلى تناول الشاي، مع الكردينال فدُهش لما اكتشفه فيه من «ذكاءٍ، وقوّةٍ هادئةٍ».

وقد انتهز هذه السانحة لزيارة مكتبة المعهد الأوكرانيّ، حيث بدت عليه البهجة والانشراح، وسط أولئك الأوكرانيّين المنتمين إلى طائفة الروم الكاثوليك، الذين كانوا يتعرَّضون لاضطهاد الروس الشيوعيّين، وقد عدّوا زيارة كردينال پولونيّ لهم حدَثًا لا يُنسى.

ومن الذين التقاهم، كرادلة شيكاغو، وبوسطن، وديترويت. أمّا الكردينال الذي وثّق أَواصر الصداقة به، فهو الكردينال «وليم بوم» (Boum)، رئيس أَساقفة واشنطن، الذي دعاه إلى إلقاء محاضرة في جامعة واشنطن الكاثوليكيّة، وكان، هو، أشدّ المعجبين بها. وقد دعاه الكردينال «ڤويتيووا» إلى زيارته في كراكوڤيا، فلبّى الدعوة في شهر أيّار ١٩٧٨، وشاركا معًا في حجٍّ إلى سيليزيا، حيث استقبلهما حشدٌ من مئةٍ وخمسين أَلف عامل مناجم، باندفاعٍ وحماسٍ منقطعي النظير، لم يكن الكردينال الأَميركيّ ليتخيّلهما، يومًا، ما ضاعف إِعجابه بزميله الپولونيّ، الذي وصفه «زعيمًا من طرازٍ عالميٍّ».

وقد قضى الكردينال «ڤويتيووا» في واشنطن، ثلاثة أيّامٍ، في إكليريكيّة پولونيّةٍ، وحاور المعلّمين فيها، داخل غرفهم الخاصّة، متخطّيًا الأعراف البروتوكوليّة.

أمّا مداخلته في المؤتمر، فاندرجت تحت عنوان: «الإفخارستيّا وجوع الإنسان...»، كلّ أنواعِ الجوع، الجوع إلى الله، إلى الإفخارستيّا، والجوع إلى الخبز، والعدل، وخاصّةً إلى الحرّيّة، موضحًا أنّ الحرّيّة هي «امتحان نضوجٍ»، ونعمةٌ، ورسالةٌ تتحقّق في الخير، والحبّ. ولم تكن تلك هي المرّة الوحيدة التي أساء فيها الأميركيّون فهمه، وعدّوا أقواله تنديدًا بهم.

وفي الواقع كان الكردينال قد عاد من تجواله في عدّة ولاياتٍ أميركيّةٍ بانطباع خيبةٍ، في ما يتعلّق بالثقافة الأميركيّة، ونزعتها إلى مسخ الحرّيّة وتحويلها إلى إباحيّةٍ سطحيّةٍ. وأخذ على الأميركيّين لامبالاتهم حيال الوضع العالميّ، وعدم إدراك زعمائهم أنّ العالم على شفا أخطر انهيارٍ إنسانيٍّ عرفه التاريخ، كما أنّه على شفا الصدام الحاسم بين الكنيسة وعدم الكنيسة، بين الإنجيل ونقيضه. لم يدّعِ، مثل سواه، أنّ الصراع هو بين الديمقراطيّة والشيوعيّة على سبيل المثال، فهناك، في صميم الديمقراطيّات صراعٌ بين الإنسانيّة الحقّة، والإنسانيّة المزيّفة. ومع ذلك، كان راسخ القناعة بأنّ الشيوعيّة هي التعبير الأشدّ خبثًا عن أزمة الحضارة العالميّة، في القرن العشرين. كان يتحسّس ذلك بكلّ أوتار شعوره، وكان عليه أن يواجه ذلك الواقع الأليم لدى عودته إلى وطنه.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الاحتفالات التي شهدها قد اتّسمت بالطابع الأميركيّ، فقد واكبت الصلوات، والسجود، والمحاضرات، والمؤتمرات، واللقاءات المتنوّعة، الحفلاتُ الترفيهيّة، حيث تمتزج الموسيقى بالرقص، وبالألعاب الناريّة المدهشة. وحول حضور ضيوفٍ مميّزين أمثال الأمّ تيريزا، والكردينال هيلدر كامارا، نُظّمت حفلات جمع تبرّعاتٍ، مثل مشروع «كوب أرزّ» من أجل بنغلاديش، وجمع خمسة ملايين دولار من أجل جياع العالم الثالث، ومساعدة ضحايا مجتمع الاستهلاك.

زيارته هذه إلى الولايات المتّحدة، أَبرزت تأَهُّله لتسنّم أَرفع مكانةٍ كنسيّةٍ، وقد خلّفت كلُّ مداخلاته وقعًا مؤثّرًا. ولا ريب أنّ رحلاته المتعدّدة قد أغنته خبرةً عالميّةً، لخدمة الكنيسة والإنسان، كلّ إنسانٍ، في كلّ مكانٍ. وهو، عندما سيُنتخَب لرئاسة الكنيسة، سيكون قد جاب العديد من الأصقاع، وصافح ملايين الأيادي، من كلّ لونٍ، وألقى من الخطابات ما لا يحيط به إحصاءٌ، وعانى أقسى الظروف المناخيّة، وأكثر الأسفار إرهاقًا.

«ڤويتيووا» المقاوم

لم يكن الصدام بين الكنيسة الپولونيّة، والنظام الشيوعيّ، مناوشاتٍ مؤقّتةً متقطّعةً، بل كان حربًا متواصلةً لا هوادة فيها ولا هدنة. فالشيوعيّون جاهدون في فرض ذواتهم، لا بصفة سلطةٍ سياسيّةٍ فحسب، بل بصفة سلطةٍ أدبيّةٍ، تحتكر تمثيل الأُمّة الپولونيّة، والتعبير عن وجدانها وتطلّعاتها. وكانت الكنيسة هي العقبة الكأداء دون تحقيق الشيوعيّين مآربهم، ولو هم زعموا اندثار وجودها.

وفي پولونيا، تعذّر الحوار بين الكنيسة والماركسيّين، لأنّ الشيوعيّين الپولونيّين لم يكونوا مقتنعين، في دخيلة نفوسهم، بصحّة المبادئ التي يجاهرون بها، ولا واثقين من ردود فعل أسيادهم السوڤيتيّين. ولذلك، مع مرور الزمن، باتوا يعتمدون على قوى الأمن، والشرطة السرّيّة، لصون مراكزهم، عوضًا عن الاعتماد على نخبة المفكّرين. ولجأوا إلى وسائل مرفوضةٍ، استنكرها الكردينال

«ڤويتيووا» بقوله: «**يمكننا أن نفهم أن يبحث المرء ولا يجد، وأن ينكر، ولكن من غير المفهوم أن يُحظر عليه الإيمان**».

وبالتالي تعرّض الپولونيّون الأحرار، لمضايقاتٍ مستمرّةٍ، اتّسم بعضها بالسخافة، وبعضها بالهمجيّة. وأُكره الطلاّب على استظهار ما سُمّي قصيدةً تقول: «الفرد لا شيء، والحزب هو كلّ شيءٍ». وكانت الانتخابات الطلاّبيّة تُزوَّر لصالح أبناء المرضيّين من الحزب. واستُعيض عن الأعياد الدينيّة التقليديّة، بمناسباتٍ سياسيّةٍ لا علاقة لپولونيا بها، وأصبحت هذه المناسبات هي مواعيد العطل المدرسيّة. وأُقفلت أبواب الجامعات في وجه طلاّبٍ بارزين، بسبب مواقف ذويهم المبدئيّة. ولم تنجُ الكنيسة من غيظ النظام وانتقامه، وكلّما اقتضى الأمر توجيه رسالةٍ قويّةٍ، كانت مسدّسات أزلام النظام تؤدّي المهمّة، وتغتال أكثر الكهنة غيرةً وورعًا.

وفي هذا السياق لا معدى عن التنويه بنماذج عن مقاومة المواطنين الپولونيّين البطوليّة، وعن صمودهم الشجاع في الوفاء لمبادئهم:

فتًى طالبٌ كان يعلّق على صدره صليبًا، فأُمِر بنزعه، ولكنّه أبى، فطُرد من المدرسة، واستُدعيت والدته، فلم تخشَ من إعلانها: «إنّني فخورةٌ بابني!».

موظّفةٌ وضعت جزءًا من منزلها بتصرّف معلّمي الدين المسيحيّ، وهي موقنةٌ بأنّ ذلك قد يؤدّي إلى طردها من وظيفتها.

مهندسٌ كان يتفرّد بأرفع المؤهّلات، رُشّح لمنصبٍ إداريٍّ هامٍّ، كان هو الأوفر جدارةً بتبوّئه. ولكنّه، عندما أُخضع إلى اختبارٍ سياسيٍّ، لم يتردّد عن الاعتراف بأنّه مؤمنٌ، فحُجب عنه المنصب.

ودأب الكردينال «ڤويتيووا» على التنديد بكلّ تلك الاضطهادات، في مواعظه، شاجبًا كلّ محاولات إلغاء الله من أغوار النفوس. وقد هتف، ذات يومٍ: «**غالبًا ما يؤخذ عليّ التحدّث عن هذه الأمور. ولكن كيف لي أن أصمت؟ وأنّى لي ألاّ أكتب، وكيف يسعني ألاّ أتدخّل؟ بصفتي أسقفًا عليّ أن أكون أوّل خادمٍ لهذه القضيّة، قضيّة الإنسان الكبرى!**».

وبالتالي دأب النظام على ترصّده، في كلّ لحظةٍ وكلّ مكانٍ، وإشعاره بقوّته، وبحضور عيونه حيثما كان. فزرعت أجهزة تجسّسٍ في مكتبه، وحجرة نومه، وتحت ورق الجدران، وتحت الأثاث. وهو كان يسخر من مراقبيه. وكلّما جاء أحدهم متفقّدًا هذه الأجهزة، كان يتقصّد التكلّم جهارًا، والبوح بكلّ ما يجول بخاطره. ولكنّه لم يتخلّ عن الحيطة، فكلّما كان عليه التحدّث مع معاونيه أو ضيوفٍ أجانبٍ، كان يخرج معهم إلى الغابة، أو إلى سفوح الجبال.

كلّ عظةٍ من عظاته كانت تُسجَّل، وتحلّل كلمةً كلمةً؛ وكانت سيّارات المخابرات، دائمًا، متأهّبةً على مقربةٍ من مقرّه، فما إن تتحرّك سيّارته، حتّى تلحق بها، وغالبًا ما كان يحيّي ركّابها وقائدها، مسمّيًا إيّاهم: «**ملائكتي الحرّاس**»، وأحيانًا يباركهم.

وحتّى، بعد أن أمسى حبرًا أعظم، كان يلتزم حذرًا شديدًا، كلّما زار پولونيا، وتعيّن عليه مقابلة أشخاصٍ مقاومين للنظام، مثل «ليش ڤاليسّا».

غدا، إذن، الكردينال «ڤويتيووا» هدفًا مميّزًا لنقمة النظام، الذي رأى فيه «حالةً مستعصية»، لا يجد إلى حلّها والتعامل معها سبيلاً. وكلّما اكتسبت صورته تألّقًا، كنسيًّا وعالميًّا وشعبيًّا، تعاظم خطره في أنظارهم، فيمعنون في مضايقته، والتربّص به، وفي التصميم على الإطاحة به، ويزداد هو التزامًا بالحيطة، وإصرارًا على مقاومة جهودهم لتدمير الكنيسة وترسيخ الإلحاد، وصمودًا في الذود عن مبدأين أساسيّين: حقوق الإنسان، وحرّيّة الضمير.

لقد راقبوا، بغيظٍ وخيبةٍ، عمق تأثيره في أوساط الشبيبة، والطلاّب والعمّال، فحاولوا احتواءه. ولكنّهم كلّما جهدوا في التقرّب منه، كان يزداد إفلاتًا من قبضتهم. وفي الواقع لم يستطيعوا، يومًا، تقدير صفاته الفذّة، وخطورة خصومته، حقّ قدرهما، ولم يتبيّنوا مدى ذكائه، ومرونته، وصبره، وسيطرته على ذاته، فكلّ هذه الخصال كانت ممحيّةً من قاموسهم.

لم يلجأ إلى المواجهة المباشرة، بل استخدم وسائل أوفر جدوى؛ فمستفيدًا من هامش الحرّيّة الضيّق المتاح له، شجّع التظاهرات الدينيّة، مثل التطواف

الشعبيّ بالقربان المقدّس، بمناسبة «عيد جسد الربّ»، موقظًا وعي الجماهير لغنى إرثهم الروحيّ العريق. وعوضًا عن مهاجمة السلطات العنيفة، وجّه لها، علنًا، أسئلةً تحرجها، ولا تقوى على الإجابة عليها مثل: «**ماذا تفعلون للشبيبة كي تتمكّن، يومًا، من مواجهة مسؤوليّاتها في المجتمع؟**». ولم يتحدّث عن السياسة، بل عن القِيَم الإنسانيّة، التي تجاهلتها الشيوعيّة، مدافعًا عن حرّيّة كلّ فردٍ، ومحرّضًا الكهنة على احتذاء مثله، ولو عرّضهم ذلك للملاحقة، مدركًا أنّه سيكون من العسير إقناع السلطات بشرعيّة مطلبه، ولكنّه سيقنع الشعب، في العمق، بقدسيّة حقوقه.

كان يتحسّس التوق الملتهب في قلوب الشعوب إلى الحرّيّة، والديمقراطيّة، والتضامن، فيتوطّد يقينه بأنّ لا مستقبل للماركسيّة في بلده، وفي البلدان المجاورة الخاضعة للاحتلال الشيوعيّ. وكانت تؤلمه رؤية سياسة المصانعة التي تنتهجها الكنيسة مع الأنظمة الاستبداديّة، بحجّة «إنقاذ ما يمكن إنقاذه»، عوضًا عن التضامن مع الكنائس المحلّيّة في كفاحها ضدّ الظلم.

وهو لم يشنّ حرب مواجهةٍ مع الشيوعيّة، بل «نفّسها»، بإظهاره، على أرض الواقع، بطلان ادّعائها السعي إلى خير الإنسان، الذي سلبته التوتاليتاريّة مقوّماته الأساسيّة، وحرّيّاته، وجوهره الحقّ.

كفاحه كان إنجيليًّا يسعى إلى إنضاج الوعي الأخلاقيّ لدى الشبيبة، وإيقاظ حرّيّتها الداخليّة التي يولّدها الاتّصال بالله، والحوار معه، من خلال الصلاة. هذه الحياة الداخليّة تقود إلى فهمٍ أعمق للقضايا الاجتماعيّة، وإلى التضامن مع المظلومين والمتألّمين، والذين سُلبوا حقوقهم الأساسيّة. كان يدافع عن الحقّ، ويسوع قال: «**الحقّ يحرّركم**».

هذه المقاومة الروحيّة والأخلاقيّة التي قادها، سرعان ما انتشرت في كلّ الأوساط البولونيّة: بين الطلّاب والمفكّرين، بين العمّال والفلّاحين، ولذلك استطاع الكردينال أن يعلن، في حزيران ١٩٧٨:

«**ثمّة شيءٌ كلّيّ الجدّة يولد الآن، يسعني أن أصفه بأنّه نشدانٌ تلقائيٌّ ومندفعٌ صوب**

«شاهدٍ أمينٍ»، وهذا الشاهد هو يسوع. ولذلك يلتفت إليه إنسان اليوم. الشبيبة، على وجهٍ خاصٍّ، تتّجه صوبه اليوم، فالشبّان يدركون أنّ الصراع حول وجود الله أو غيابه، في حياة كلّ كائنٍ بشريٍّ، وفي حياة الأُمّة جمعاء، يمرّ عبر لقاءٍ خاصٍّ بيسوع».

لقد انبرى الكردينال «ڤويتيووا»، بكلّ عزيمته وكفاءته، لدحض ثقافة الكذب التي امتهنها الشيوعيّون. فقد ادّعى نظامهم أنّه دولة عمّالٍ، وسبق للكردينال أن كان عاملاً في أحد مصانعهم، ولم يكفّ يومًا عن الاهتمام بعالم العمّال، الذين أدرك معاناتهم اليوميّة، في إطار الجمهوريّة الشعبيّة الپولونيّة. معرفته الدقيقة لما يقاسيه العمّال، والجماهير عمومًا، من نظام الجور والكذب، غذّت تحدّيه الفكريّ للشيوعيّة، وشحذت مقاومته الثقافيّة الصامدة للنظام. ولم يكن بوسع أحدٍ من أزلام ذلك النظام اتّهامه بجهل ما كان يدور في الشارع. فقد كان يرى، ويحسّ، ويسمع التعدّيات على الكرامة البشريّة، التي وصفها بأنّها «شرّ العصر»، والتي لم يرتضِ، يومًا، المساومة عليها.

وفضلاً عن ذلك، كان الحارس المؤتمن على إرثٍ دهريٍّ. وبصفته أسقفًا، تعيّن عليه الدفاع عن سكّان مدينته. ربّما استخفّ النظام بهذا المركز، ولكن «ڤويتيووا» رأى فيه واجبًا لا يسوغ التهاون فيه، وتقليدًا حيًّا، نابضًا، لا بدّ من الانغماس فيه. وغدت مطالباته الملحّة بالترخيص لبناء كنائس جديدةٍ، وبتنظيم تطوافاتٍ دينيّةٍ، يعدّها رموزًا جليلةً، ثمينةً، ومناسباتٍ لنضالٍ لا يتراخى، ولمقاومةٍ ثقافيّةٍ تتصدّى، بجرأةٍ، لمحاولات تجريد الپولونيّين من تاريخهم، ومن الخصائص الجوهريّة الملازمة لكلّ كائنٍ بشريٍّ.

وفيما كان مستغرقًا في هذا النضال، كان عليه، من جانبٍ آخر، مواجهة مبادراتٍ دبلوماسيّةٍ صادرةٍ عن الڤاتيكان تلجمه وتعيقه. فقد كان البابا يوحنّا الثالث والعشرون، قد استهلّ سياسة انفتاحٍ على الأنظمة الشيوعيّة، واستمرّت هذه السياسة في عهد البابا بولس السادس، إلى أن تعرّضت لنكسةٍ، عندما رغب البابا بولس السادس في زيارة پولونيا، للمشاركة في احتفالات الذكرى الألفيّة لاعتناق پولونيا المسيحيّة، عام ١٩٦٦، ووضع الشيوعيّون من الشروط التعجيزيّة، والعراقيل، ما جعل تلك الزيارة مستحيلةً.

ورغم هذا الفشل، لم يتوقّف الكردينال كازارولّي، المسؤول عن علاقات الكرسيّ الرسوليّ مع الدول، عن القيام برحلاتٍ مكّوكيّةٍ بين روما وڤرسوڤيا، أملاً في تذويب الجليد بين الڤاتيكان والحكومة الپولونيّة العميلة. ومع أنّ النظام اتّهمه باقتصاره على الأخذ بنظرة كبير الأساقفة، الكردينال «ڤيشينسكي»، دون سواه، إلاّ أنّه، في الواقع، كان يتباحث مع جميع الأساقفة، واستخلص، من هذه المباحثات، أنّ نظرة جميع الأساقفة الپولونيّين تُجمِع حول الجوهريّ، وقد تتباين تحليلاتهم حول بعض التفاصيل. ورغم التبدّلات الهامّة التي حدثت في تلك الفترة، مثل غزو السوڤيتيّين لتشيكوسلوڤاكيا، عام ١٩٦٨، ومجزرة «غدنسك»، عام ١٩٧١، استمرّت الاتّصالات بين الكرسيّ الرسوليّ وحكّام پولونيا الشيوعيّين، وكان الكردينال «ڤيشينسكي» هو الممثّل الرسميّ للڤاتيكان، ومن ثمّ لم يعقد الكردينال «كازارولّي» أيّ اتّصالٍ مع رئيس أساقفة كراكوڤيا حتّى عام ١٩٧٤.

وبدا جليًّا أنّ الڤاتيكان، أسوةً بدولٍ أُخرى كثيرةٍ، لم يتوقّع تحوّلاتٍ أساسيّةً في سياسة الاتّحاد السوڤيتيّ، ظنًّا منه بأنّ الوضع الراهن في الدول الخاضعة لسيطرته، سيستمرّ عقودًا طويلةً. ولذلك سعى إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وإلى الحصول على الحدّ الأدنى من حقوقه، أي حقّ تعيين الأساقفة، وتوفير هدنةٍ للكنيسة، وإقرار حدٍّ أدنى من التعايش، ينقذ مبادئ الكنيسة الأساسيّة، وحقوق الإنسان. وكان حامل لواء هذه السياسة، باسم الكنيسة، هو الكردينال «ڤيشينسكي»، الذي توسّم فيه مسؤولو الڤاتيكان، وفي طليعتهم البابا بولس السادس، «أميرًا حقًّا»، و«رجل كنيسةٍ عظيمًا»، يتمتّع بمواهب سياسيّةٍ فذّةٍ، ليس أقلّها تفادي التردّي إلى الهاوية.

ومع وجود وجوه تباينٍ جليّةٍ، في التحليل وفي الأسلوب، بين «ڤيشينسكي» و«ڤويتيووا»، إلاّ أنّ هذا الأخير، توخّى، دائمًا، ألاّ يُحفَر خلافٌ، مهما كان طفيفًا، بينه وبين رأس الكنيسة الپولونيّة. وبعد أن انتُخب كردينالاً، ازداد حرصًا على أن يظهر دائمًا، في عيون المؤمنين، في المركز الثاني بعد رئيس أساقفة «ڤرسوڤيا»، مع أنّ هذا الأخير كان قد وصفه، ذات يومٍ، «شاعرًا» بمفهومٍ سلبيٍّ، وهو مع اعترافه بمواهبه الفكريّة، ربّما استخفّ بقدراته العمليّة.

بالمقابل، كان الكردينال «ڤويتيووا» معجبًا بصمود أخيه الأكبر البطوليّ، وبنزاهته، ووفائه للواجب، والتزامه بالذود عن العدالة الاجتماعيّة. وكان يرى فيه «أبا الوطن»، في زمن المِحَن. غير أنّه خالفه، بمضيّه قدمًا في المقاومة الثقافيّة، التي لم يشجّعها الكردينال «ڤيشينسكي»، ليقينه بأنّ شرف الوطن يكمن في إيمان الشعب البسيط، أكثر منه في نظريّات المفكّرين والمثقّفين.

ومع أنّه لم تغِبْ عن بال الكردينال «ڤويتيووا»، إمكانيّة تمادي بعض المثقّفين، وتخطّيهم الحدود السلميّة، إلاّ أنّه لم يتخلَّ، يومًا، عن يقينه بأنّ المقاومة الثقافيّة لا تقلّ جدوى عن التقوى الشعبيّة. ومع ذلك ظلّ دائم الحرص على البقاء في ظلّ أخيه الأكبر، كلّما ظهرا معًا.

لقد كان للكردينال «ڤويتيووا» أسلوبه الخاصّ في رعايته الأُسقفيّة، وقراءته لديناميّة التاريخ المعاصر، وسياسته الخاصّة للكنيسة المحلّيّة التي كان مسؤولاً عنها. ويبدو أنّ الجميع لم يقدّروا موقفه هذا. فمندوب الڤاتيكان، الكردينال «كازارولّي»، الذي كان مؤمنًا بسيطرة الكردينال «ڤيشينسكي» على المسرح السياسيّ البولونيّ، كان يرى في «ڤويتيووا» «منظّرًا» للصراع بين الشيوعيّة والحقيقة المسيحيّة، أكثر منه مهتمًّا بالقضايا السياسيّة الواقعيّة. وقد عبّر عن دهشته من إحجام الكردينال «ڤويتيووا»، عن الاتّصال بسكرتير الحزب الشيوعيّ البولونيّ «إدوار جيريك»، «القابض الفعليّ على مقاليد السلطة السياسيّة». وفي الواقع كانت للكردينال «ڤويتيووا» نظرةٌ مختلفةٌ إلى اللاعبين الحقيقيّين، فآثر الاتّصال بالمنشقّين عن الحزب، وبالمفكّرين الكاثوليكيّين، وبالفلاسفة، وبمحرّري الصحف الكاثوليكيّة، وبالشعراء والموسيقيّين البولونيّين، موقنًا أنّ الاتّصال بهؤلاء أجدى من إضاعة الوقت في تجاذب أحاديث عقيمة، لا طائل تحتها، مع قادةٍ شيوعيّين لا يعيرون القِيَم الحقّة أيّ اعتبارٍ. وربّما أخذ عليه الكردينال «كازارولّي» إيثاره محاورة العلمانيّين، خلافًا لسائر الأساقفة. وقد أثبت الواقع صواب نظرة الأسقف «ڤويتيووا»، وجدوى أسلوبه. فقد كانت «واقعيّة» الآخرين تحملهم على تبرير أفعال السياسيّين اللاأخلاقيّة، على اعتبارها «مصالح الدولة»، في حين نأى «ڤويتيووا» بنفسه عن هذه الواقعيّة، التي تجعل من السياسة مملكة

«اللاأخلاق». فقد كان راسخ القناعة بأنّ مبادئ الأخلاق والإنسانيّة، لا يسوغ أن تغيب عن أيّ مضمارٍ، بأيّة ذريعةٍ.

وشيئًا فشيئًا، غدا الكردينال ڤيشينسكي» يثمّن استقامة أخيه الأصغر، وتفشيله لكلّ مساعي النظام إلى زرع الفرقة بينهما. وقد تجلّى ذلك، أسطع تجلٍّ، بمناسبة زيارة الجنرال ديغول إلى «پولونيا»، عام ١٩٦٧، فمنعته السلطات المحتلّة من زيارة «ڤرسوڤيا» ومن لقاء الكردينال «ڤيشينسكي»، وفرضت عليه برنامج زيارة كراكوڤيا. وعندما وصل إلى كاتدرائيّتها، لم يستقبله أحدٌ من رجال الإكليروس، بحجّة «غياب» رئيس الأساقفة.

ويوم قام مسؤولو الكنيسة الپولونيّة بزيارة نظرائهم في ألمانيا، امّحى الكردينال «ڤويتيووا»، بحيث لم يلمحه أحدٌ، ولم تُلتقَط له صورةٌ واحدةٌ، كي يبقى الكردينال «ڤيشينسكي»، وحده، في الواجهة.

ومن الطُرَف التي تُروى، في هذا السياق، أنّ صحافيًّا سأل الكردينال «ڤويتيووا»، ذات يومٍ، عن نسبة الكرادلة الپولونيّين الذين يمارسون رياضة التزلّج، فأجاب: «أربعون بالمئة». واستدرك الصحافيّ: «ولكن لا يوجد سوى كردينالَيْن في پولونيا»، فأجابه: «إنّ الكردينال «ڤيشينسكي» يمثّل ستّين بالمئة، وأنا أربعين».

ومع رواج وصف الكردينال «ڤيشينسكي» بالمتصلّب، والكردينال «ڤويتيووا» بالمعتدل، سرعان ما اتّضح للسلطات الشيوعيّة أنّ الخصم الذي يُخشى جانبه هو الكردينال «ڤويتيووا». فهم قد ألّموا بكلّ دخائل سياسة «ڤيشينسكي»، واستطاعوا توقّع كلّ ردود فعله. أمّا «ڤويتيووا»، فلم يتوفّقوا، قطّ، إلى استبيان ما يعدّه لهم. فذلك الشاعر المثقّف، الذي تخيّلوا قدرتهم على التلاعب به، قد أثبت سطوته على أَسْر الجماهير بكاريزماتيّته، وعناده في الذود عن الحرّيّة الدينيّة، بذكاءٍ لم يقووا على مقاومته، وإلحاحه الذي لا يفتر ولا يتراخى في المطالبة بحقوق الكنيسة، التي لم يتراجع عنها، يومًا، بل كان يزداد تشدّدًا بها، يومًا فيومًا. مثل مغنطيسٍ كان يجتذب الشبيبة، مفشّلاً جهود النظام في إقصائهم عن

الكنيسة وقادتها، وكان مكتبه ملتقى وجوه المقاومة الثقافيّة. ولطالما توجّس النظام خشيةً من أن يفلح في دمج اليسار المقاوم للشيوعيّة بالكنيسة الكاثوليكيّة. ولا ريب أنّ ما أدركه النظام من فرقٍ بين أسلوبي الكردينالين، تجاهله كثيرون ممّن ساروا على مقربةٍ من الحقيقة، ولم يدركوها.

لقد كان الكردينال «ڤويتيووا» عميق اليقين بأنّ التوافق بين الكنيسة والماركسيّة مستحيلٌ، وأنّ التفاوض مع الظلم الجوهريّ غير جائزٍ، وأنّه لا بدّ من تذكير الڤاتيكان بهذه الحقائق. ومن جهةٍ أُخرى، كان متيقّنًا من واجب التضامن مع الكنيسة الجارة، كنيسة تشيكوسلوڤاكيا، التي نالها، من الشيوعيّة، أفدح أذًى. وبما أنّ الكرسيّ الرسوليّ كان قد حظّر على الأساقفة المتخفّين في تشيكوسلوڤاكيا سيامة كهنةٍ، خلسةً، صونًا للعلاقات بين الدولة والكنيسة، لم يتوانَ، هو، عن سيامة كهنةٍ، وإرسالهم، خلسةً، لخدمة الرعايا التشيكوسلوڤاكيّة، المحرومة من رعاةٍ.

وقد تضامن معه أساقفته في مقاومة الشيوعيّة التي تدّعي إنسانيّةً زائفةً، من أجل استبدالها بإنسانيّةٍ شخصيّةٍ مسيحيّةٍ. وبوحيٍ من فكر رئيس أساقفتهم، وضعوا رسالةً راعويّةً، عام ١٩٧٨، جاء فيها: «إنّ روح الحرّيّة هو المناخ الملائم لملء ازدهار الإنسان. إنّ فقدان الحرّيّة يحرم المرء من عنصرٍ هامٍّ في شخصيّته، ويعيق كلّ تقدّم».

لقد توفّق الكردينال «ڤويتيووا» إلى اجتذاب أساقفته، حتّى التقليديّين منهم، إلى مثل موقفه، بفضل قوّة حجّته وصوابها، وبفضل مشاركته أولئك الأساقفة تكريمهم للعذراء، وغيرتهم على التقوى الشعبيّة اليولونيّة.

حضورٌ مؤثّرٌ

لقد أخذ بعضهم على رئيس أساقفة كراكوڤيا شيئًا من الوهن في إدارة أبرشيّته. والواقع أنّه لم يلجأ، قطّ، إلى أساليب تضمن له القوّة، والتفرّد بالقرار. فلم يُبعد، يومًا، متمرّدين كي يستبدلهم بأزلامٍ له. ولم يسمح له احترامه للمعاونين المسنّين، الاستغناء عن أيٍّ منهم، أو إدانته، فكان يُبقي، في

مراكزهم، من كان من شأن آخرين رميهم في الشارع، ولم يعاقب من كانوا يثيرون سخطه.

وكان فكره يتخطّى التفاصيل الصغيرة، والأوضاع الآنيّة الراهنة، إلى آفاقٍ مستقبليّةٍ بعيدةٍ، في حين كانت أبصار آخرين ملتصقةً بحاضرٍ محدودٍ. هذه النظرة البعيدة المدى كانت له، في آنٍ واحدٍ، نعمةً، ومصدر مشاكل. كان صاحب رؤًى كبيرةٍ، وآراءٍ كفيلةٍ بأن تصبح دساتير. وكان يستعيض عن تفاصيل الإدارة، بأهدافٍ محدّدةٍ، يبرع في إيصالها إلى نهاياتٍ سعيدةٍ. وكان يفعل ذلك بأسلوبٍ يُكسبه مودّة المقرّبين منه، والخاضعين لسلطته، وجمهور المؤمنين. وبالإجمال، أَحبّ الناس، فبادلوه الحبّ.

حضوره في كراكوڤيا كان طاغيًا. وتبيّن الجميع أنّ أسقفهم قد ظلّ، دائمًا، كاهنًا، وراعيًا، مع تعاظم مسؤوليّاته، والتزاماته الدوليّة. وقد توفّق إلى إقامة مجمعٍ مسكونيٍّ ناجحٍ في رعيّته، متمنّيًا أن ينفق بقيّة عمره في خدمة رعيّة كراكوڤيا الحبيبة. ولكن، غالبًا ما تتعارض مشيئة العناية الإلهيّة مع رغبات البشر. وفي الواقع، لقد أدّى ما أحرزه من نجاحٍ في مجالاتٍ عديدةٍ، وأماكن مختلفةٍ، إلى إبعاده عن رعيّته.

وربّما توسّم الشيوعيّون، في هذا البعاد، انعتاقًا من خصمٍ مزعجٍ، وغاب عنهم أنّه سيعود منتصرًا، كي يطيح بنظامهم الذي ملأ الدنيا جورًا وجرائم.

الجزء الثاني

البابا يوحنّا بولس الثاني

١٩٧٨: عام الباباوات الثلاثة

يوم السادس من شهر آب ١٩٧٨ فوجئ العالم بنبأ وفاة البابا بولس السادس، الذي قضت عليه ذبحةٌ قلبيّةٌ، وهو في الواحدة والثمانين من العمر. وكان قد كتب، في وصيّته، قبل سنواتٍ: «إنّني أغمض عينيَّ عن هذه الأرض الوجيعة، والمأساويّة، والرائعة، في آنٍ واحدٍ، مستنزلاً عليها الرأفة الإلهيّة».

وكان الكردينال «ڤويتيووا»، يومئذٍ، في إجازةٍ، فهرع عائدًا إلى كراكوڤيا؛ ومع علمه بمرض البابا الراحل، صعقه نبأ وفاته، فقد كانت تربطه به علاقاتٌ وثيقةٌ، منسوجةٌ بمودّةٍ وإعجابٍ متبادليْن. ولكن كم كان بعيدًا عن تخيّل ما ينتظره قبل أقلّ من شهرين! ولم يقلقه التساؤل عمّن سيكون خليفة بولس السادس، بسبب إيمانه أنّ تلك هي مهمّة الروح القدس.

قبل شخوصه إلى روما، في ٨/١١، بعث برسالةٍ إلى جامعة لوبلن طالبًا استبداله بأستاذٍ آخر لمناقشة أطروحة أحد طلاّبه، التي كان موعدها قد حُدّد آنذاك. ويوم ٨/١٩، قدّم من إذاعة الڤاتيكان حديثًا سرد فيه ذكرياته عن البابا العظيم الراحل. ثمّ أعلن أمام النعش أنّ الراحل «**انتقل إلى بعدٍ آخر، وبات يعاين منظرًا آخر**».

في روما، التقى كردينالَيْن سرعان ما ربطه بهما ودٌّ تلقائيٌّ، وكان لهما أثرٌ واضحٌ على مستقبله، هما: الكردينال «ألبينو لوشياني»، الذي أصبح يوحنّا بولس الأوّل، سلَفه المباشر، والكردينال الألمانيّ «جوزف رتسنغر»، الذي أمسى «بينيدكتُس السادس عشر»، خلفه المباشر. وسرعان ما توثّقت صلته بهذا الأخير، بعد أن تبيّنا اشتراكهما بوجهات نظرٍ متشابهةٍ، وبتفاهمٍ حول ما يتعيّن على الكنيسة فعله، ولا سيّما **جرأة الإقدام**، بفرحٍ وثباتٍ، على إعلان «**جنون**

الحقيقة». وقد اتّضح لهما أن حزم الكنيسة في تلك الظروف كان ضرورةً لازبةً.

وتمهيدًا لانتخاب خلفٍ للراحل، جرت مشاورات حثيثةٌ وعميقةٌ بين الكرادلة، بغية بلورة صورة البابا العتيد، القادر على مواجهة الظروف الراهنة. وأجمعوا على ضرورة انتخاب رجل حوارٍ، قويّ الشخصيّة، كفيلٍ بتجسيد انفتاح الكنيسة على العالم، ودليلٍ متبصّرٍ كفيلٍ بانتهاج توجّهٍ لاهوتيٍّ وراعويٍّ، واضحٍ وسديدٍ.

وقدّم الكردينال «رتسنغر» تصوّرًا مفصّلاً للوضع الراهن، وللتدابير الضروريّة لمعالجته، فأوضح تأثّر الكنيسة «بأزمةٍ روحيّةٍ شاملةٍ ألّمت بالبشريّة، أو على الأقلّ بالعالم الغربيّ»، ولكنّها لم تتّخذ الخطوات الملائمة لمواجهة هذه الأزمة، ربّما بسبب تفاؤلٍ مفرطٍ في قدرة الحوار مع العالم على إحداث تقدّمٍ في هذا المضمار. وانتهى الكردينال «رتسنغر» إلى ضرورةٍ أساسيّةٍ لوجود «قدّيسين مستعدّين لفعل شيءٍ جديدٍ، وحيويٍّ»، ويتيحون للكنيسة استيعاب «روح الزمن».

لم يكن من العسير الإجماع على صورة البابا العتيد المطلوب، ولكنّ الإجماع على اسمٍ يجسّد هذه الصورة بدا بعيد المنال، ولا سيّما بعد أن أعرب الكردينال النمساويّ «كونيغ» عن تمنّيه انتخاب بابا غير إيطاليٍّ، فوسّع شقّة تباين الآراء، وتوقّع الجميع أن تطول فترة الانتخاب. وأوعز الكردينال «ڤويتيووا» إلى أمين سرّه ومعاونٍ آخر، التمتّع بإجازةٍ طويلةٍ. ولكن، خلافًا لكلّ التوقّعات، تمّ الانتخاب في دورة التصويت الرابعة من اليوم الانتخابيّ الأوّل، وأُعلن الكردينال «ألبينو لوشياني» (Albino Luciani)، رئيس أساقفة البندقيّة، الذي تبنّى، لبابويّته اسمًا مركّبًا من اسمي سلفَيْه، يوحنّا الثالث والعشرين وبولس السادس، معتنقًا اسم «يوحنّا بولس الأوّل».

وكان قد عُهد عن البابا الجديد انتهاجه الروحانيّة «التيريزيّة»، نسبةً إلى القدّيسة تيريز الطفل يسوع. فقد تميّز، دائمًا، بالتواضع، والامّحاء، والبساطة، والنأي عن مظاهر البهرجة، وعذوبة المعشر، والطيبة التي أكسبته شعبيّةً واسعةً. ومنذ الوهلة الأولى، رفض الاحتفالات الفخمة بتتويجه، مكتفيًا بعبارة «تواضع» شعارًا لحبريّته، مثلما كانت شعارًا لأسقفيّته. وعمد إلى استخدام لفظة

«أنا»، عوضًا عن لفظة «نحن» التفخيميّة. وفي أوّل مؤتمرٍ صحافيٍّ عقده، مازح الصحافيّين، واستشهد بأولادٍ كانوا موجودين في القاعة، والتمس من سكّان روما طوق نجاةٍ من صلواتٍ تقيه من الغرق. وكان قد رفض التنقّل في الكاتدرائيّة محمولاً على الكرسيّ البابويّ، ولكنّ رفضه هذا اصطدم باحتجاج الجماهير الراغبة في مشاهدته، ولا سيّما أنّه كان قصير القامة، نسبيًّا. وقد أثبتت كلّ مواقفه أنّه كان الحبر الأعظم المنشود، الكفيل بإشاعة الرجاء، وترسيخ العقيدة المسيحيّة.

عاد الكردينال «ڤويتيووا» إلى كراكوڤيا، سعيدًا، مزوّدًا ببسمة البابا الجديد المفعمة طيبًا، وفرحًا، وإيمانًا راسخًا.

وقد صرّح، منذ عودته إلى الوطن: «**لقد انتخبنا بابا رائعًا!**». كانت فرحته مزدوجةً، إذ إنّه أفلت من الانتخاب، مع أنّ بضعة كرادلة صوّتوا له، ولأنّ البابا الذي تمّ الإجماع عليه كان يتحلّى بكلّ الصفات التي كان «كارول ڤويتيووا» يتمنّاها في البابا الجديد: «**فلوشياني رجل إيمانٍ وطيدٍ، وراعٍ يتكلّم ببساطة، ويبرع في النفاذ إلى قلوب الصغار والبسطاء، ومغرقٌ في التواضع والورع**».

ولكنّ ذلك البابا المنتخَب الذي بدا متدفّقًا حيويّةً، كان يعاني مرضًا خفيًّا، لم يطّلع عليه ناخبوه. وكان، إثر انتخابه، قد أهمل تناول الأدوية اللازمة. وفضلاً عن ذلك، كان مرهف المشاعر، والإحساس بثقل المسؤوليّة، فبهظته مسؤوليّاته الجديدة، وهاله ما ترتّب عليه من واجبات رعايةٍ وإصلاحٍ، وأرهقته ضغوطها، وأعاقت محاولاته، ومشاريعه، ومبادراته، الأساليب المتّبعة، آنذاك، في إدارة شؤون الڤاتيكان. ويبدو أنّ معاونيه لم يبذلوا أيّ جهدٍ في سبيل مساعدته على التأقلم مع وضعه المستجدّ. ومع أنّه كان قد قبل البابويّة خضوعًا لما رأى فيه إرادة الله، كان انتخابه قد انتزع منه هذه الزفرة: «سامحكم الله على عملكم هذا!». وفي الواقع كان انتخابه حكمًا عليه بالموت. وصباح **١٩٧٨/٩/٢٩**، وجدته الراهبة المكلّفة بخدمته، بلا حياةٍ، في سريره، وقد صعقته أزمةٌ قلبيّةٌ، في أثناء نومه.

صورة البابا العتيد تكتمل

لقد أشرنا، آنفًا، إلى الرياضة الروحيّة، التي كلّف البابا بولس السادس الكردينال «ڤويتيووا» بإلقاء مواعظها، في الأسبوع الأوّل من الصوم الكبير، لعام ١٩٧٦. وقد لفتت مواعظه الاثنتان والعشرون، بهذه المناسبة، أنظار الحبر الأعظم والكرادلة. وتناولت إحدى عظاته نبوءة سمعان الشيخ، بأنّ يسوع جُعِل لسقوط كثيرين أو نهوضهم، وليكون آية مقاومةٍ. وتطرّق إلى تمزّق الإنسان بين نوازع الخير والشرّ، وإلى الرجاء الذي يوحي به انتصار العذراء على الشرّير؛ وربّما استشفّ بعض المستمعين، في ذلك الواعظ، المكرّس كلّيًّا للعذراء، أداة هذا الانتصار.

وقبل ذلك، كانت صورته قد تألّقت بمناسبة المؤتمر الدوليّ لإحياء ذكرى اللاهوتيّ الملفان، القدّيس توما الأكوينيّ، الذي عُقِد في روما، بين ١٧ و٢٣ نيسان ١٩٧٤. وكان للكردينال «ڤويتيووا»، في هذا المؤتمر، مداخلةٌ رائعةٌ، أدهش بها جميع المستمعين، بحيث وُصف ذلك المؤتمر بأنّه مؤتمر «كارول ڤويتيووا». وكان القسم الثاني من ذلك المؤتمر، قد اندرج في دير بمحلّة «فوسّا نووڤا» القريبة من مدينة نابولي، حيث كان اللاهوتيّ الأكوينيّ قد رقد في الربّ، وحيث غزا الكردينال «ڤويتيووا» قلوب الحاضرين بحرارة حضوره، ودماثة معشره، وبغزارة علمه، وبالعظة البليغة التي ألقاها، في أثناء القدّاس الختاميّ. وعقب ذلك القدّاس، باح البرفسّور «ستيفان سڤيزاڤسكي» (Swiezawski) لصديقه الكردينال، أنّه يتوسّم فيه حبرًا أعظم عتيدًا؛ وفي ١٩٧٨/١٠/٢١ تلقّى البرفسّور رسالةً صادرةً عن الڤاتيكان تقول: «أجل، عزيزي ستيفان، إنّي أذكر الآن كلماتك في «فوسّا نووڤا»».

واكتملت صورة الكردينال «ڤويتيووا» تألّقًا، بمناسبة زيارة وفد الأساقفة البولونيّين إلى ألمانيا، بين ٢٠ و٢٥ أيلول ١٩٧٨. وفي أثنائها، منحته جامعة «غوتنبرغ» في «ماينس»، شهادة دكتورا فخريّةً، وحظي مع زملائه بأحرّ استقبالٍ من قبل نظرائهم الألمان. وفي خلال قدّاسٍ ترأّسه، ألقى عظةً حافلةً بالرجاء، جاء

فيها قوله: «... **ندعو ربّ الدهور الأزليّ، ومُخلّص نفوسنا، أن يفتح لمسيرتنا نحو التجدّد، دروبًا جديدةً، على خطى المسيح، في نهاية هذه الألفيّة الثانية ومطلع الألفيّة الثالثة، عسى أن تشاهد قلوب البشر أجمعين النورَ، وتتقبّل الحياة الأقوى من الموت**».

وفي اليوم التالي، أُقيمت حفلة استقبالٍ مشبعةٌ حفاوةً، في برلين، تكريمًا للأساقفة البولونيّين، وخلالها أعلن الكردينال «ڤويتيووا»: «**بصفتنا رعاة الكنيسة يسعنا، على نحوٍ خاصٍّ تطوير علاقاتنا، التي اتّسمت في الماضي بالكثير من المأساويّة، تطويرًا محسوسًا، بل تطويرًا كلّيًّا**».

وفي ميونيخ، استضاف الوفدَ الأُسقفيّ البولونيّ، كاردينالٌ معيّنٌ حديثًا، ولاهوتيٌّ متمرّسٌ يدعى «جوزف رتسنغر»، يكبر الكردينال «ڤويتيووا» بثلاث سنواتٍ، وسرعان ما حيكت بين الكردينالين علاقات إعجابٍ ومودّةٍ، لم تنفكّ تتوثّق مع الأيّام.

حتّئذٍ، كان الكردينال «ڤويتيووا» حريصًا على البقاء في ظلّ أخيه الأكبر، رئيس أساقفة ڤرسوڤيا، ولكنّ وجهه انطبع، بقوّةٍ وحبٍّ، في أذهان الإكليروس الألمانيّ، وفي قلوب المؤمنين.

وإن كان الأميركيّون قد اكتشفوا فيه نجمًا إعلاميًّا، فقد قدّر فيه الألمان رجل الفكر والحوار، والثقافة. وقد أوجز الكردينال الألمانيّ «هوفنر» صفاته بقوله: «إنّ «ڤويتيووا» رجلٌ متواضعٌ، عميق التقوى، ملتهب الإيمان، مغرقٌ في التفاني الراعويّ، ويتميّز بثقةٍ لا تتزعزع». ولكن لم يتوقّع أحدٌ أنّ الكردينال «ڤويتيووا» سيصبح رأس الكنيسة الكاثوليكيّة، بعد ثلاثة أسابيع فقط.

طريقٌ إلى مصيرٍ لا عودة منه

صباح ١٩٧٨/٩/٢٨، زار الكردينال إحدى رعاياه، ثمّ احتفل بالذبيحة الإلهيّة في كاتدرائيّة «ڤاڤيل» بكراكوڤيا. وإذ كان ذلك اليوم يوافق الذكرى العشرين لتعيينه أسقفًا، اشترك، بعد القدّاس، باحتفالٍ أقامه على شرفه أصدقاؤه من مجموعة «سرودوڤيسكو»، الذين كانوا قد علّقوا صُوَرًا تظهره معهم،

يتزلّجون أو يجذّفون بالقوارب، تعلوها لافتةٌ تقول: «سيظلّ العمّ عمًّا». وقد شكر لكلّ فردٍ من أولئك الأصدقاء، ما برهن له من صداقةٍ، خلال السنوات العشرين المنصرمة.

وصباح **١٩٧٨/٩/٢٩**، فيما كان يتناول إفطاره، رنّ جرس الهاتف، ووقع النبأ الفاجع بوفاة البابا يوحنّا بولس الأوّل. صُعِقَ الكردينال، وأخذ به التأثّر كلَّ مأخذٍ، فقطع إفطاره، وهرع إلى المصلّى، حيث ألقى كلّ حزنه بين يدي الربّ. ولاحقًا عبّر عمّا كان يتنازعه من هواجس، فهتف: «**يتساءل الجميع، وتتساءل الكنيسة الجمعاء: لماذا؟ نجهل ما تعني هذه الوفاة لكرسيّ بطرس. نجهل ما يبتغي المسيح قوله للكنيسة وللعالم من خلال هذه المصيبة!**». غير أنّه شارك في اجتماع مجلس إدارة كلّيّة اللاهوت، الذي كان مقرّرًا في ذلك الصباح، وردّ على تعازي عميد الكلّيّة بقوله: إنّه ينبغي تقبّل كلّ مفاجآت الحياة «بروح ثقةٍ عميقةٍ». ولكنّ الأسى كان متجلّيًا عليه.

في الأوّل من تشرين الأوّل، أقام قدّاسًا على نيّة البابا الراحل، الذي وصفه «شخصًا مختلفًا يتميّز بالتلقائيّة والأصالة». ولحظ المقرّبون منه أنّه كان يخوض صراعًا داخليًّا حادًّا، صامتًا. وقبل انطلاقه إلى روما، هتف إلى صديقٍ كان قد اتّفق معه على تنظيم ندوةٍ في منزله، طالبًا تأجيل موعدها ريثما يعود. وحينئذٍ جال في بال ذلك الصديق ما كان قد قاله أحد الأصدقاء للكردينال، ذات يوم: «... إلى أين سنمضي عندما ستصبح بابا؟».

صباح **١٩٧٨/١٠/٣**، وقف متخشّعًا أمام جثمان البابا الراحل، إلى جانب الكردينال «ڤيشينسكي»، عميد الكنيسة اليولونيّة. وكان في الساعات السابقة قد نظم قصيدته الأخيرة، بعنوان «ستانسلاس»، وهو اسم القدّيس الشهيد، شفيع كراكوڤيا، ورئيس أساقفتها الأوّل. وقد عبّر، في تلك القصيدة، عن يقينه بأنّ الشهادة هي منبع الهويّة والوحدة اليولونيّتين، والنموذج الأمثل للدعوة المسيحيّة. وقد باح، لاحقًا، أنّه ابتغى، من تلك القصيدة، وفاء دَيْنه تجاه كراكوڤيا.

في هذه الأثناء كانت الشائعات في روما تتداول اسم «ڤويتيووا» كمرشّحٍ

للبابويّة، بعد أن نضجت فكرة بابا من خارج إيطاليا، واحتدم الخلاف بين الكرادلة الغربيّين حول نتائج المجمع الڤاتيكانيّ الثاني. ونشط التشاور بين الكرادلة حول قَسَمات الحبر الجديد، القادر على تمكين الكنيسة من مواجهة واحدةٍ من أدهى أزمات تاريخها.

فإلى جانب الاضطرابات التي كانت تخضّ الكنيسة، والتي تفاقمت حدّةً، من جرّاء الخلافات التي أفرزتها مقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، كان مؤرّخون أوروپّيّون ذائعو الصيت يتوقّعون انحطاطًا مريعًا في شأن الأديان عامّةً، ويرونها على شفا الانزواء في طوايا ماضٍ غابرٍ، بعد أن طغت نزعتان سائدتان: الشيوعيّة التي تنكر اللّه، والرأسماليّة التي تتنكّر له في أساليبها وتطلّعاتها، وبعد أن استشرت النزعة المادّيّة، وكادت الكنائس تخوي من رائديها، وتناقصت الدعوات الكهنوتيّة إلى مستوياتٍ مريعةٍ، ونزعت الشبيبة عن كاهلها كلّ قيدٍ دينيٍّ، وخيّل إلى أكثر المؤرّخين تفاؤلاً أنّ الممارسات الدينيّة ستنحصر في دوائر ممعنةٍ في الضآلة والضيق، ما جعل المؤرّخ الفرنسيّ «جان ديلومو» (Jean Delumeau) يتساءل: «هل المسيحيّة إلى زوال؟».

وغرب عن بال الكثيرين أنّ مقاليد التاريخ هي بين يدي الروح القدس، الذي يعرف أين وكيف يستنهض منقذين ينفّذون مخطّطاته الخلاصيّة.

وكان الوضع المقلق الذي أشرنا إليه، هاجس المسؤولين الكنسيّين الذين أكبّوا على رسم صورةٍ لقائد الكنيسة الكفيل بإنقاذها، واقتيادها على دروب الروح، ومن خلالها، إنقاذ روح العالم وإرشاده.

واتّضح لكثيرين أنّ تلك الحقبة المضطربة تقتضي نمطًا جديدًا من الباباوات، جسّده الكردينال «ڤويتيووا»، رغم شبابه النسبيّ. فهو متّقد الذكاء، واسع المعارف، راسخ التقوى، مؤيّدٌ للانفتاح على الفكر المعاصر، ولحوار الكنيسة مع الحداثة، ومع ذلك منزّهٌ من الشكّ الذي يصطبغ به الفكر الحديث، لا بل إنّه، في أغوار الشكّ، اكتشف يقينًا صلبًا.

وهو متملّكٌ من لغاتٍ عديدةٍ، ويختزن خبرةً وطيدةً بالناس، وبقضايا الكنيسة،

ويسكنه هاجس الوحدة المسكونيّة، وملمٌّ إلمامًا فريدًا بشؤون البلدان الشرقيّة، يؤهّله لمواجهة الأوضاع التي تعقب عهد بريجنيف، بحنكةٍ، ودرايةٍ، وجرأةٍ.

وفضلاً عن خصاله الروحيّة والفكريّة، كان قد أثبت براعته التفاوضيّة، إثر توسّطه بين الأساقفة الألمان والپولونيّين، وصلابة كفاحه بسلاح الإيمان والثقافة والأخلاق المسيحيّة. وقد أتاحت له خبرته الراعويّة سبر عمق الشقاقات الناشبة في حضن الكنيسة، والأخطار، متعدّدة المصادر، التي تهدّد المسيحيّة والإنسانيّة. ولكنّ التحدّيات لم تكن تثبّط عزيمته، بل كانت تستفزّها وتستنفرها. فلم يحطّمه التاريخ، بل كان مصمّمًا على صنع التاريخ، من خلال ثقافةٍ واعيةٍ أصيلةٍ. وكانت عزيمته المبنيّة على الرجاء والسعادة، فعل إرادةٍ، وفعل إيمانٍ، نابعٍ من قلب الألم والحزن، والإذلال التي يولّدها الشرّ.

وبالإجمال كان يتزيّا بكلّ الصفات المنشودة، فهو يقرن حياةً روحيّةً كثيفةً، بذكاءٍ حادٍّ، وحضورٍ غامرٍ، وسمعةٍ دوليّةٍ عطرةٍ، وتاريخٍ راعويٍّ استحقّ أرفع تقديرٍ. ولكن هل كانت هذه الخصال كلّها كافيةً لحمل أُسقف پولونيٍّ في الثامنة والخمسين من العمر، إلى سدّة البابويّة؟

كان انتخاب يوحنّا بولس الأوّل قد أفعمه فرحًا ورضًى، ولم تكن تراوده أيّة رغبةٍ في البعاد عن كراكوڤيا الحبيبة، وعن شعبه، في الزمن العصيب الذي كان يخوضه. وكان حريصًا على توظيف مواهبه في خدمة وطنه، ولا يطيق حتّى فكرة البعاد عن أحبابه الشعراء، والمسرحيّين، والرسّامين، والفلاسفة، والعلماء الپولونيّين. ولكنّه، في الأيّام التي تلت وفاة البابا يوحنّا بولس الأوّل، المباغتة، بدا ساهمًا، مستغرقًا في التفكير. وقد لفت انتباهَ الأصدقاء الذين قابلوه في روما، يوم ١٩٧٨/١٠/٥، وداعُه لهم بعناقٍ حارٍّ، وبقوله: «**صلّوا من أجل الكردينال** «**ڤويتيووا**»، **صلّوا كي يعود إلى كراكوڤيا**». وفيما كان آخرون يصلّون كي يصل أساقفتهم إلى السدّة البابويّة، كان الپولونيّون يصلّون، كي يبقى «ڤويتيووا» بين ظهرانيهم، وكذلك كان يصلّي الكردينال «ڤويتيووا» نفسه.

قُبَيْل شخوصه إلى المجمع الانتخابيّ، حيّا بحرارةٍ ومحبّةٍ أخويّةٍ، جميع الكهنة

المقيمين في المعهد الذي كان يحلّ فيه، واحدًا واحدًا، ولم يَخفَ على أحدٍ منهم ما كان يعتمل في داخله من توتّرٍ، وما تجلّى على محيّاه من سهومٍ.

إشاراتٌ وتوقّعاتٌ

تكاثرت، في الأيّام التي سبقت انتخاب خَلَفٍ للبابا الراحل يوحنّا بولس الأوّل، العلامات والتوقّعات التي ترجّح انتخاب الكردينال «ڤويتيووا».

فتاريخ انتخاب البابا يوحنّا بولس الأوّل، أي ١٩٧٨/٨/٢٦، كان قد توافق مع عيد سيّدة «تشينستوهوڤا»، وقد علّق الكردينال، حينئذٍ، على تلك المصادفة قائلاً: «لقد كان الحبر الأعظم يعي أنّ يوم حبريّته الأوّل، كان يتوافق مع ذلك العيد، ويربطه، ارتباطًا مميّزًا، بالسيّدة العذراء، وبـ «ياسناغورا». وهل، ثمّة، من هو أوثق قربًا وعلاقةً بسيّدة «تشينستوهوڤا» وبـ «ياسناغورا»، من رئيس أساقفة كراكوڤيا؟

وقد ساد حدْسٌ عامٌّ بأنّ الروح القدس سيُحدث تحوّلاً مفاجئًا، ينهي احتكار كرادلةٍ إيطاليّين للكرسيّ الرسوليّ، مدى قرونٍ. فكتب صحافيٌّ فرنسيٌّ في جريدة «الفجر» (L'aurore)، مقالاً ينبض بالنبوّة، جاء فيه: «وحدها پولونيا قادرةٌ على تقديم مرشّحين صالحين. وقد ذُكر اسم أُسقفٍ شابٍّ، غير مشهورٍ، ولكنّه يتمتّع بنضجٍ فكريٍّ بارزٍ، هو الكردينال رئيس أساقفة كراكوڤيا، «كارول ڤويتيووا»، البالغ الثامنة والخمسين من العمر».

وكان الكردينال الفرنسيّ «غارّون» (Garrone)، قد أدلى، في ١٩٧٨/١٠/١٢، بتصريحٍ مدهشٍ، جاء فيه: «سنشهد يومَ ٢٦ آب (يوم انتخاب يوحنّا بولس الأوّل) جديدًا. وستنبثق شخصيّةٌ جديدةٌ، ولن يكون لجنسيّة البابا الجديد دورٌ حاسمٌ...».

وكان قد تناقش الأب اليسوعيّ «جوزيف غريكو»، الذي سبق له مراقبة عمل الكردينال «ڤويتيووا» عن كثب، وكاهنٌ آخر، وكلاهما خبيران بشؤون المجمع الانتخابيّ. وفيما كان هذا الأخير يعدّد أسماء المرشّحين، بدءًا بالكردينال

«أرينز»، حتّى الكردينال «ڤيّو» (Villot)، لاحظ الأب «غريكو» أنّ الأبجديّة لا تتوقّف عند حرف V، ودعا محاوره إلى التقدّم نحو حرفٍ آخر، أي إلى حرف W، كي يعثر على مرشّحٍ يتمتّع بحظوظٍ راجحةٍ، وكان يعني به الكردينال Wojtyla.

ويوم الأحد ١٠/٨، من الأسبوع الذي سبق المجمع الانتخابيّ، كان أُسقف پولونيٌّ، قد دعا صديقه الكردينال «ڤويتيووا»، إلى نزهةٍ في شمال غربيّ روما. وفي طريق عودتهما، رغب الكردينال في التوقّف للصلاة أمام القربان المقدّس، فاقتاده الأسقف إلى المصلّى المدعوّ «لا ستورتا» (La Storta)، حيث كان القدّيس «إينياس دي لويّولا» قد تلقّى الإلهام الذي أفضى إلى تأسيس الجمعيّة اليسوعيّة، لخدمة البابا. وخرج الكردينال من ذلك المصلّى سعيدًا، يتدفّق عزيمةً. أَوَلا يمكن أن يكون، هو أيضًا، قد تلقّى دعوةً إلى خدمة الكنيسة، من خلال الكرسيّ الرسوليّ؟

وفي مساء ذلك اليوم عينه، ترأّس الكردينال تلاوة المسبحة الورديّة، في المعهد الپولونيّ، بعد أن كان قد تخشّع في مصلّى البابا بولس السادس.

ولا بدّ، هنا، من التنويه بحدثٍ ذي دلالةٍ، جرى يوم **٢٤** آب، قُبَيل انتخاب يوحنّا بولس الأوّل، إذ كان الكردينال يحتفل بالذبيحة الإلهيّة، ويشترك معه صديقه، الأسقف «مالينسكي»، الذي عبّر عن تمنّيه انتخاب صديقه الكردينال حبرًا أعظم، فأطرق هذا الأخير، لحظات، قبل أن يتفوّه بهذه الصلاة: «**أيّها الربّ، كلّيّ القدرة، إذا انتُخبَ إنسانٌ يشعر بعجزه عن حمل عبء المسؤوليّات المتعلّقة بوظيفة وكيل ابنك، نسألك أن تهبه الجرأة، كي يردّد قول القدّيس بطرس: «ابعد عنّي، يا ربّ، لأنّني خاطئ». وإن هو ارتضى تحمّل هذه المهمّة، فهبه قدرًا وافيًا من الإيمان، والرجاء، والمحبّة، كي يقوى على حمل الصليب الذي ستلقيه على كاهله. نسألك، يا ربّ...**».

ولا يسعنا، في هذا السياق، إغفال القصيدة النبويّة، التي كان الشاعر الپولونيّ «يوليوش سلوڤاكي» قد أنشدها في مطلع القرن التاسع عشر، والتي جاء فيها:

«في حَوْمة الفوضى، يذكّر الربُّ بحضوره.
لقد أُعدّ العرشُ للبابا السلاڤيّ،
الذي لا يفرّ من تهديد السيف، بل يشخص نحو الربّ مقدامًا.
ما العالم له سوى غبارٍ،
وأقواله التي تثير الجماهير، تجتذب الشبيبة صوب بهاء اللّه...
ها هوذا يقترب، ذاك الذي سيزوّد العالم بطاقاتٍ جديدةٍ،
ولدى سماعنا كلماته، ستضخّ عروقنا النور الإلهيّ.
كلامه خلاّقٌ، لأنّ الروح هو قوّته،
هذا البابا السلاڤيّ، أخو الجميع، سيسيل البلسم في قلوبنا،
بقوّة الأسرار سيقبض على مقاليد العالم، وبكلامه الذي يحاكي خفق أجنحة الحمام، سيبلّغ البشرى الطيّبة.
ها هوذا الروح الذي ينير الجميع، والذي يعبده الجميع.
وصوت البابا سيدوّي وسط الأمم الشقيقة،
مضمّدًا جراح العالم، مفجّرًا الحبّ، حزَمًا من نارٍ، محقّقًا خلاص الورى.
سينظّف فناء الهيكل، فيتألّق نور الكنيسة الداخليّ،
وسيُظهر، في مثل وضح النهار، أنّ اللّه هو سيّد العالم».

وكانت عجوز پولونيّةٌ قد دوّنت على هامش كتابٍ نشر هذه القصيدة: «سيكون كارول هو هذا البابا».

البابا السلاڤيّ الأوّل، «من؟»

في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر يومِ السبت، ١٩٧٨/١٠/١٤، التأم المجمع الانتخابيّ المؤلّف من ١١١ كردينالاً، ربعهم من الإيطاليّين، تأهّبًا لانتخاب خلفٍ للبابا الراحل يوحنّا بولس الأوّل. وقد وصل الكاردينال «ڤويتيووا» إلى الموعد، في اللحظة الأَخيرة، لاهثًا، عائدًا من مستشفى

«جيميلّي»، حيث حرص، قبل أَن تغلق عليه أَبواب المجمع الانتخابيّ، على عيادة صديقه، الأُسقف «ديسكور» الذي أُصيب بفالجٍ مباغتٍ في اليوم السابق.

وكان التأهّل لتبوّء السدّة البابويّة، يستلزم الحصول على ثلثي أصوات المقترعين، زائدًا صوتًا، أي خمسةٍ وسبعين صوتًا. وفي تلك الجلسة التمهيديّة، صلّى المجتمعون معًا، وقال الكردينال «ڤيّو» (Villot)، المكلّف بإدارة جلسات الانتخاب، إنّ على البابا العتيد أن يعلن كامل رسالة المسيح، حتّى بذل حياته.

وفيما كان الكرادلة يدخلون بالتوالي إلى قاعة الاقتراع، كانت كاميرات مصوّرين مصوّبةً على الأكثر حظًّا بالفوز: سيري، بيلّي، فيليتشي، بيرتولي، پوليتّي... وعندما مرّ «ڤويتيووا» أَمام أَحدهم، نصحه: «**لا تهدر صورةً، بلا طائل!**». وكان ذاك آخر مرورٍ له لا يُثير تهافت الكاميرات عليه.

ولوحظ سهوم الكاردينال «ڤويتيووا»، الذي كان لا يزال تحت تأثير فاجعة وفاة البابا بولس الأوّل، وقد ضاعف أساه، يومذاك، فالجٌ مفاجئٌ ألمّ بأسقفٍ صديقٍ له، تولّى، طيلة الأسبوع المنصرم، مرافقته، واقتياده بسيّارته إلى كلّ مكانٍ رغب في زيارته، وإلى كلّ مصلّى أحبّ التخشّع فيه.

وقد خُصِّصت لإقامته في أثناء جلسات الاقتراع، الحجرة التي تحمل الرقم **٩١**.

بدأت عمليّة الاقتراع في الساعة العاشرة من صباح يوم الأحد، **١٩٧٨/١٠/١٥**، على أن تندرج بمعدّل أربع جلساتٍ يوميًّا، اثنتين قبل الظهر، واثنتين بعد الظهر، حتّى حصول أحد المرشحين على أغلبيّة الأصوات القانونيّة.

وفيما كان الكرادلة يكبّون، عقب كلّ اقتراعٍ، على عدّ الأصوات، كان الكردينال «ڤويتيووا» يؤثر مطالعة مجلّةٍ فلسفيّةٍ، عثر عليها في مكان الاقتراع.

في اليوم الأوّل، حُصِر التنافس بين مرشّحَيْن إيطاليَّيْن، هما «جيوزيپي سيري» (Giuseppe Siri)، رئيس أساقفة جنوا، الذي كان يمثّل تيّارًا يناهض توجّهات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، والكردينال «جيوڤاني بينيلّي» (Giovanni Benelli)، الذي كان حريصًا على تطبيق مقرّرات المجمع حرفيًّا، وعلى الوفاء لروحه. واتّضح

تعذّر ترجيح كفّة أيٍّ منهما على الآخر. ولم يبرز أيّ مرشّحٍ إيطاليٍّ آخر، قد يحظى بأغلبيّةٍ. وتأكّد تعذّر انتخاب كردينالٍ إيطاليٍّ. هذا التعذّر، مضافًا إلى الصدمة التي نجمت عن وفاة البابا الإيطاليّ يوحنّا بولس الأوّل، بعد ثلاثةٍ وثلاثين يومًا على انتخابه، قرأ فيه كثيرون من الكرادلة رسالةً إلهيّةً، ودعوةً إلى التجديد، فاتّجه المجمع إلى مرشّحٍ غير إيطاليٍّ، وكان رئيس أساقفة كراكوڤيا أحدهم، ولا سيّما أنّه كان قد نال بعض أصواتٍ في اقتراع شهر آب الفائت.

وكان الكردينال النمساويّ «كونيغ» (Franz Koenig) الأشدّ اندفاعًا لفكرة انتخاب حبرٍ أعظم غير إيطاليٍّ. وعشيّة يوم الاقتراع الثاني، التقى صديقه القديم، الكردينال «ڤيشينسكي» واستوضحه: «هل لدى پولونيا أيّ مرشّحٍ مؤهّل؟» فأجاب رئيس أساقفة ڤرسوڤيا بحزمٍ: «هل تلمّح إلى مجيئي إلى روما؟ إن مجرّد بعدي عن وطني سيعني انتصار الشيوعيّة!». وسارع الكردينال «كونيغ» إلى طمأنته، بالقول: «أنا لستُ أعنيك، أنت، شخصيًّا، فهناك مرشّحٌ آخر». وعلّق «ڤيشينسكي» على هذا التلميح بالقول: «كلاّ، إنّه ما زال حديث السنّ، وغير معروفٍ، ومن الصعب أن يصبح بابا...». هكذا نحن غالبًا ما تخفى عنّا خصال القريبين ومواهبهم، في حين نحيط بإعجابنا البعيدين الذين لنا بهم معرفةٌ سطحيّةٌ. غير أنّ تقييم «ڤيشينسكي» لرئيس أساقفة كراكوڤيا، لم يهزّ قناعة «كونيغ» الذي كان يرى في «ڤويتيووا» وجهًا كاثوليكيًّا ساطعًا على الساحة العالميّة، وكفيلاً بتبديد «روح الفرقة» الذي نشأ في أعقاب الحرب العالميّة الثانية. ومن ثمّ أخذ على عاتقه مهمّة إقناع زملائه بنظرته إليه.

في الواقع كان العديد من الكرادلة على معرفةٍ بزميلهم «ڤويتيووا»، وقد طالعوا بإعجابٍ مواعظ الرياضة البابويّة التي ألقاها في الڤاتيكان، بمناسبة بدء صيام ١٩٧٦. وكان الأفريقيّون منهم، يرون فيه أسقفًا ملتزمًا بالإنجيل، وعاملاً فعّالاً في المجمع الڤاتيكانيّ، ومن خارج الدوائر الڤاتيكانيّة، وبالتالي النموذج الأمثل للمتطلّعين إلى تجديد أُسلوب قيادة الكنيسة. ولا ريب أنّ أُسلوب رعايته الفذّ، كان خير داعمٍ له، وخير معبّرٍ عن طاقاته، إذ أثبت أنّ الإدارة الحازمة ما زالت

ممكنةً وناجعةً، وسط التوتّرات التي نشأت عن رواسب المجمع الفاتيكانيّ الثاني. وفي أثناء الغداء يومذاك، أشاد كردينال برشلونة، جهارًا، بصفات رئيس أساقفة كراكوڤيا، وأكّد تضامن كرادلة أميركا اللاتينيّة معه، وعزمهم على انتخابه. وكان لهذا التأكيد تأثيرٌ على بعض المواقف التي ما برحت متردّدةً. وأخذت الأصوات المؤيّدة لانتخابه، تتصاعد عددًا مع كلّ دورة اقتراعٍ، ومعها تتجلّى إرادة الروح القدس. وفي أعقاب الاقتراع السادس، من بعد ظهر اليوم الانتخابيّ الثاني، ساد جوّ انفراجٍ، وبدا الوصول إلى الأغلبيّة المطلوبة وشيكًا. وأمسى الكردينال «ڤيشينسكي» مقتنعًا بصواب انتخاب أخيه البولونيّ الأصغر، وأوضح له أنّ مهمّته غدت إدخال الكنيسة إلى الألفيّة الثالثة، وهمس كردينالٌ بلجيكيٌّ في أذن الكردينال ڤويتيووا: «إنّ الربّ حاضرٌ ههنا، وهو يدعوك».

حينذاك شوهد الكردينال «ڤويتيووا» دافنًا رأسه بين راحتيه، وقد ران عليه همٌّ باهظٌ، واستحوذ عليه شعورٌ مرهقٌ بوحدةٍ رهيبةٍ. فانتخابه كان يعني له القطيعة مع كلّ وجوده الماضي، بلا أيّ أملٍ في عودةٍ إليه. ولا عجب إن ساور الكردينال «كونيغ»، أكبر داعميه، قلقٌ حول تقبّله المنصب، فضاعف جهوده الرامية إلى إقناعه، وشدّ أزره.

في دورة الاقتراع الأخيرة من مساء اليوم الانتخابيّ الثاني، تحقّقت الأغلبيّة المطلوبة، التي بلغت **٩٩** صوتًا، مكرّسةً انتخاب الكردينال «كارول ڤويتيووا» حبرًا أعظم، فدوّت القاعة بتصفيقٍ متمادٍ، ومَثُل أمامه الكردينال المشرف على إجراءات الانتخاب، وسأله: «هل تقبل انتخابك؟». كانت اللحظة حاسمةً، وكان البابا البولونيّ الأوّل المنتَخَب يعي خطورة المرحلة، ويروز ثقل المسؤوليّات الموكلة إليه. وكان ساهمًا، مستغرقًا في الصلاة، تتجاذبه مشاعر متباينةٌ. وشوهدت دموعٌ صامتةٌ تنساب على وجنتيه، والجميع ينتظرون جوابه. وأخيرًا ترسّخ في يقينه أنّ تصويت إخوته الكرادلة يعبّر عن مشيئة الربّ، فأجاب بتؤدةٍ ووقار، وباللغة اللاتينيّة وفقًا للتقليد: «**وفيًّا لإيماني بيسوع المسيح، ومسلّمًا ذاتي لمريم أُمّ المسيح، وللكنيسة، وواعيًا للمصاعب، واحترامًا للدستور الرسوليّ الذي أقرّه البابا بولس السادس، داعيًا «من يُنتخَب ألاّ يتهرّب من المهمّة المدعوّ لها»: أقبل**»..

وسرت موجة انفراجٍ وبهجةٍ، وصفّقت الأيادي والقلوب. وأصبح «كارول ڤويتيووا» الخليفة الرابعَ والستّين بعد المئتين للقدّيس بطرس، والبابا الثاني والخمسين، غير إيطاليٍّ، بعد أربع مئةٍ وخمسين عامًا، والبابا البولونيّ والسلاڤيّ الأوّل.

هذا الانتخاب، المخالف للمألوف، كان نتيجة جهود البابا بولس السادس، في إضفاء صبغةٍ عالميّةٍ على مجمع الكرادلة، وإغنائه بتعدّد جنسيّات أعضائه، ما فتح الباب، عمليًّا، لانتخاب حبرٍ أعظم، من أيّة جنسيّةٍ كان. ومن المحقّق، أيضًا، أنّ ذلك الانتخاب قد دفع أوروبّا الشرقيّة، التي كانت شبه مهملةٍ، إلى واجهة الاهتمام، وأعدّ للجم استبداد الشيوعيّة بتلك البقعة من العالم، ولمواجهةٍ حاسمةٍ بين الأنسنة المسيحيّة، والمادّيّة الملحدة.

وعندما استُوضِح البابا المنتخَب عن الاسم الذي اختاره لحبريّته، أجاب أنّه بسبب تبجيله للبابا بولس السادس، ومودّته للبابا يوحنّا بولس الأوّل، سيعتنق اسم «يوحنّا بولس الثاني»، فتفجّر تصفيقٌ ملتهبٌ ومتمادٍ. وحينئذٍ، اقتيد البابا المنتخب إلى حجرة الثياب، حيث كانت قد أُعدّت ثلاث صاياتٍ بيضاء بثلاثة قياساتٍ مختلفةٍ. تلك الحجرة كانت تُدعى حجرة الدموع، لأنّ الباباوات المنتخَبين كانوا، غالبًا، يطلقون فيها العنان لدموع التأثّر. ولكنْ، عندما انتهى إليها الحبر الجديد، كان قد استنفد كلّ دموع مآقيه. ثمّ عاد لتقبّل تهاني منتخبيه. وفيما كان مسؤول التشريفات يمضي به إلى الكرسيّ الموضوع أمام الهيكل لإجلاسه عليه، اعترض قائلاً: «بل سأصافح إخوتي، واقفًا». وكانت تلك سابقته الأولى في عهد باباويّته، التي ستعقبها مبادراتٌ مدهشةٌ أُخرى.

وتعاقب الكرادلة على تهنئته، فكانوا يتقدّمون منه، واحدًا واحدًا، فينحنون أمامه، ويقبّلون خاتمه الحبريّ ويعلنون طاعتهم وولاءهم له، فيعانقهم، ويوجّه لكلٍّ منهم عبارة محبّةٍ، ويعقد مع بعضهم حديثًا موجزًا. وعندما حان دور الكردينال «ڤيشينسكي»، عميد الكنيسة البولونيّة، انحنى البابا الجديد أمامه، وقبّل يده، ما أدهش البعض، وما خلّف لدى الجميع أثرًا عميقًا. وحينئذٍ قال له الكردينال «ڤيشينسكي»: «نعلم كم كلّفكم قرار قبول انتخابكم، ونعلم كم

شقّ عليكم، بسبب تعلّقكم الشديد بالوطن، وخاصّةً بكراكوڤيا العزيزة على قلبكم. ونحن نعرف كَلَفكم بجبال «تاترا»، وبالغابات والوديان، والرحلات التي كانت توفّر لكم أفراحًا كبرى، وتتيح لكم تجديد طاقاتكم. كلّ هذا يرقد الآن على مذبح تضحية قلبكم».

وفي ختام اللقاء، قال البابا الجديد، مازحًا: «**لن أقول، بعدُ شيئًا، خشية أن أقول أكثر ممّا ينبغي، فيشدّ مجمع الإيمان أذني!**».

في هذه الأثناء، كانت ساحة القدّيس بطرس تعجّ بمئات أُلوف المؤمنين، منتظرين بلهفةٍ الدخان الأبيض المنبئ بانتخاب بابا جديدٍ، وما إن شاهدوا تصاعده، حتّى شقّت هتافات الابتهاج عنان السماء.

في الواقع كان ذلك الدخان الأبيض رعدًا مؤذنًا بحدثٍ نادرٍ من أحداث التاريخ، حَدَثٍ سيهزّ العالم أجمع.

وفي الساعة ١٨:٤٠ انفرجت الستائر الحمراء عن نوافذ الشرفة التي يطلّ منها الحبر الأعظم على الجماهير. وفيما كان الكردينال المكلّف بإعلان النبأ يتقدّم منها، استوضح، مرّةً أُخرى، عن طريقة لفظ كنية البابا الجديد، ثمّ هتف بوقارٍ: «أزفّ لكم فرحًا عظيمًا: لدينا بابا...» (Annuntio vobis gaudium magnum: habemus papam). فدوّت الأهازيج، واستأنف الكردينال إعلانه: «نيافة الكردينال «كارولوم...» وفيما توقّف لحظةً كي يتذكّر لفظ الكنية، خُيّل إلى أحد المحتشدين أنّ المنتخب هو كردينالٌ إيطاليٌّ في الخامسة والثمانين يدعى «كارلو كونفاليري»، فصاح: «هل جنّوا؟». ولكن سرعان ما تابع الكردينال إعلانه مؤكّدًا اسم المنتخب «كارولوم ڤويتيووا»، فساد الالتباس، وتناقلت الألسن التساؤل: «مَن؟» (Che?). ولكن سرعان ما بدّد هذه التساؤلات إعلان الاسم الذي اعتنقه لحبريّته: «يوحنّا بولس الثاني». فكان لهذا الإعلان وقع الصاعقة، وفجّر من التصفيق وأهازيج الفرح ما دوّى في أرجاء روما.

ولكن أُسقط في يد معظم المراسلين الصحافيّين، الذين كانوا قد أَعدّوا نبذاتٍ عن عددٍ من أبرز الكرادلة الذين رجّحوا فوزهم، ولم يجل بخاطر أَحدٍ منهم

أَن يُنتَخَب هذا الكردينال الپولونيّ، الذي يصعب حتّى لفظ اسمه لفظًا صحيحًا.

وكان ذهولٌ وجيشان فرحٍ في پولونيا، وهيجان سخطٍ وغضبٍ في الكرملين.

كان الاسم المعلَن من الغرابة بحيث تساءل بعضهم: «هل هو أسود؟» وتساءل آخرون: «هل هو آسيويّ؟». أمّا الأخت «إيميليا إيرليش» المكلّفة بخدمته، والتي كانت، منذ أيّامٍ، تصلّي بكلّ حرارة قلبها، ألاّ يُنتخَب الكردينال «ڤويتيووا»، فقد شحب لونها، وتهاوت، فسألها أحد الواقفين إلى جانبها: «ما خطبك؟ هل البابا المنتخَب سيّئٌ بهذا القدر؟» فأجابت: «بل هو أكثر من جيّدٍ، ومفرطٌ في الجودة!».

لا ريب أنّ مجمع الكرادلة كان قد برهن عن جرأةٍ نادرةٍ بانتخابه بابا غير إيطاليٍّ، محطّمين، بذلك، تقليدًا ساد نحو خمسة قرونٍ، فضلاً عن كون البابا المنتخَب أوّل بابا من أصل سلاڤيّ، في تاريخ الكنيسة، وأنّه قادمٌ من خلف الستار الحديديّ الذي كان مجرّد اسمه، حينئذٍ، يبعث الرعب في النفوس.

وتلمّس البابا المنتخَب ما أحدثه انتخاب كردينالٍ غريبٍ من حيرةٍ لدى كثيرين، ومن خيبةٍ لدى الإيطاليّين، الذين حُرِموا، بعد قرونٍ متعاقبةٍ، من بابا إيطاليٍّ، فبادر إلى تبديد تيْنك الحيرة والخيبة، متخطّيًا نصيحة الكردينال المشرف على الانتخاب، الذي كان قد أوصاه بالامتناع عن إلقاء أيّ خطابٍ، والاقتصار على البركة الرسوليّة باللغة اللاتينيّة، فدنا من الشرفة، وخاطب المحتشدين في الساحة، بلهجةٍ إيطاليّةٍ سليمةٍ:

«المجد ليسوع المسيح.

إخوتي وأخواتي المحبوبين جدًّا،

ما زلنا مفجوعين بوفاة حبيبنا يوحنّا بولس الأوّل. وها إنّ الكرادلة الأجلاّء، قد استدعوا بابا جديدًا، ليكون أُسقف روما (تصفيقٌ مدوٍّ)، استدعوه من بلدٍ بعيدٍ، بعيدٍ، ولكنّه قريبٌ جدًّا منكم، بشركة الإيمان والتقليد المسيحيّ. بادئ الأمر، أخافني هذا الانتخاب، ولكنّني تقبّلته، يحدوني الخضوع لربّنا يسوع المسيح، والثقة المطلقة

بأمّه العذراء القدّيسة». ودوّى التصفيق، مجدّدًا، كالرعد، فتابع، مطمئنًّا: «**لست أدري هل بوسعي التعبير بلغتكم... أعني بلغتنا الإيطاليّة. فإن أخطأت صحّحوا أخطائي**»، وكانت الجماهير تقاطع كلّ جملةٍ برعدٍ من التصفيق. وحينئذٍ، تابع الحبر الأعظم الجديد، بوقارٍ: «**وها إنّني أقدّم ذاتي لجميعكم، مؤكّدًا إيماننا المشترك، ورجاءنا، وثقتنا بأمّ المسيح والكنيسة، مستأنفًا السير على درب التاريخ والكنيسة، بعون الله والكنيسة**».

ودوّت الأجواء بالتصفيق والهتافات التي لم تخفت مدى خمس دقائق، قبل أن يعلن البابا الجديد بركته الرسوليّة، باللغة اللاتينيّة، وفقًا للتقليد، وسط رعود الهتافات الحماسيّة.

لحظاتٌ معدوداتٌ كانت كافيةً للبابا المنتخَب، كي يبدّد هواجس الرومانيّين، الذين لم يكونوا مرتاحين إلى وجود حبرٍ أعظم غريبٍ، ويجهلون كلّ شيءٍ عنه، فإذ به يغزو قلوبهم منذ ظهوره الأوّل، وينفث فيها شحنة رجاءٍ كثيفةً، من مخزون الرجاء الذي كان يملأ نفسه.

ظهوره الأوّل أشاع انطباعًا بأنّه أحد تلاميذ الربّ، وترسّخ هذا الانطباع عندما هو ردّد قول معلّمه: «**لا تخافوا**». وسرت في جوّ العالم نفحةٌ من نفحات الروح القدس.

واغرورقت عيون العديد من الدبلوماسيّين الحاضرين بدموع التأثّر، وربّما كانت تلك الدموع الأولى التي تزدحم في مآقيهم. أمّا جموع الكاثوليكيّين، فقد انتابهم شعورٌ بأنّهم استفاقوا من كابوسٍ، وأنّ شمسًا أشرقت على غدٍ جديدٍ واعدٍ.

بعدئذٍ، استدعى البابا المُنتَخَب معاونيه وأصدقاءه المقرّبين، شاكيًا لهم: «**لقد فعلوها بي!**»، ومؤكّدًا لهم أنّ علاقته بهم لن يطرأ عليها أيّ تغيير.

ثمّ تناول العشاء مع الكرادلة، ودلف إلى حجرته، حيث، رغم إرهاق ذلك اليوم الاستثنائيّ، عكف على تدبيج بيان البرنامج الذي سيلقيه، في الغد، وباللغة اللاتينيّة، أمام مجمع الكرادلة. ثمّ تلا صلاة المساء، التي حفلت، في

تلك الليلة، بتوثّباتٍ قلبيّةٍ، امتزج فيها الشكر بالرهبة والتضحية. وحينئذٍ استسلم لنومٍ هادئٍ.

صباح اليوم التالي، ترأّس قدّاس اختتام المجمع الانتخابيّ، وبلّغ الكرادلة عناوين برنامج حبريّته، الذي يتضمّن الوفاء للمجمع الفاتيكانيّ الثاني، وتأكيد العمل الجماعيّ في الكنيسة، ودور الأساقفة، و«موضوعيّة» العقيدة، وأهمّيّة المسكونيّة، وواجب الانضباط. وألمح إلى أنّه لن يتعاطى السياسة، ولكنّه سيندّد بكلّ أشكال الظلم والتمييز، وسيذود عن حرّيّة الضمير والحرّيّة الدينيّة. وبالإجمال اتّسم خطابه بالصراحة، وخلا من كلّ تمويهٍ والتباسٍ.

بعدئذٍ جال به الكاردينال المسؤول عن إدارة المقرّ البابويّ، بمكان إقامته القادمة. وعندما ولج إلى غرفته الخاصّة، ركع أمام السرير، وتلا، بصوتٍ عالٍ صلاة «سلامٌ أيّتها الملكة». وتوقّف لحظاتٍ في المصلّى، قبل أن يكمل تفقّد الحجرات الأُخرى. وفيما كان الكردينال يطرح عليه أسئلةً عن أُمورٍ مستعجلةٍ، مثل شعاره البابويّ، وتاريخ تنصيبه، كان هو يتساءل هل سيُتاح له الحفاظ على بعض عاداته، وعلى نهج العمل الذي ألفه في كراكوڤيا. وقد دوّن الكردينال «مارتان» في دفتره هذه الملاحظة: «إنّه يرغب في ممارسة التجذيف في الأنهر، والتزلّج على الثلج... إنّه مستسلمٌ، ولكنّه غير متحمّس!».

وقد أظهر، منذ الساعات الأولى، أنّه لن يندرج في أيّ قالبٍ خانقٍ.

وهكذا انتهت تلك السنة التي شهدت ثلاثة باباوات، برجاءٍ دافقٍ، يغذّيه الصليب والصلاة، وقد دعمت، لديه، الفضائلَ الأساسيّةَ الثلاثَ، فضيلةٌ رابعةٌ هي الجرأة الكفيلة بتأهيله لمواجهة مهمّةٍ جديدةٍ رهيبةٍ.

وكان يغمر نفسه، في تلك اللحظات، شعورٌ مريحٌ بأنّه ينعم بأزر سيّدة تشينستوهوڤا، وپولونيا كلّها.

پولونيّون كُثُرٌ كانوا قد ابتهلوا ألاّ يحرمهم الله «كارولهم»، ولكن، بعد أن قرّرت مشيئته إجلاسه على كرسيّ بطرس، تفجّرت سدود العواطف في كلّ أرجاء پولونيا، ولا سيّما في كراكوڤيا، التي أحدث فيها انتخاب رئيس أساقفتها رأسًا للكنيسة الكاثوليكيّة جمعاء، زلزالاً حقًّا، ومثّل لها شرفًا منقطع النظير.

ولكنّ مشاعرهم كانت مزيجًا من فخرٍ وأسًى، فإن كان انتخاب «كارول ڤويتيووا» قد أكسبهم فخرًا، إلا أنّه أفقدهم رئيس أساقفةٍ محبوبًا، نادر المثال.

كيف استقبلت پولونيا انتخاب ابنها البارّ

انتخاب «كارول ڤويتيووا» كان اثّئار التاريخ الصارم، ممّن زعموا القدرة على إقصاء الله عن حياة البشر. وسارع الحزب الشيوعيّ الپولونيّ، إلى البحث عن الوسائل الكفيلة بالحدّ من تأثير ذلك النبأ على المواطنين، فيما التزم الكرملين الصمت حوله طيلة ستّة أيّامٍ.

وجديرٌ بالتنويه أنّ أحد موظّفي الحزب، كان، لدى مغادرة الكردينال «ڤويتيووا» إلى روما، قد احتجز جواز سفره الدبلوماسيّ، وأعطاه جوازًا سياحيًّا، وحذّره: «سنجري الحساب لدى عودتك». ترى ما الذي سيفعله عندما سيعود، رئيسَ دولةٍ، بحلّةٍ بيضاء؟.

تريّث، إذن، التليفزيون الپولونيّ الرسميّ، بضع ساعاتٍ، قبل إعلان النبأ الذي كان قد بُلّغ، هاتفيًّا، إلى السلطات الكنسيّة في كراكوڤيا، والذي سرعان ما ذاع بين الأهالي، فهبّوا للاحتفال به. فانطلقت نواقيس الكنائس تملأ الأجواء برنّاتها الجذلى، متساوقةً مع جرس كاتدرائيّة «ڤاڤيل» الضخم، الذي لم يكن يتحرّك إلاّ في المناسبات الكبرى.

وغَصّت الشوارع بحاملي الشموع والزهور، الذين كانوا يتعانقون، ويجأرون ببهجتهم. وقد نُصبت صورةٌ جسيمةٌ للبابا الجديد في ساحة المدينة، وسرعان ما غرقت بين أكداس الزهور. وعند منتصف الليل، اكتظّت كنيسة القدّيسة مريم بحضورٍ مندفعٍ قدم للمشاركة في قدّاس شكرٍ.

أمّا أصدقاء الكردينال فبكوا تأثّرًا وحزنًا، لبعد «العمّ» المحبوب عنهم. وقال أحدهم، دهِشًا: «لقد تحوّل التجذيف في مركبٍ نهريٍّ، إلى قيادة سفينة بطرس»... غير أنّ كثيرين تلعثموا، وأوكلوا إلى دموعهم التكلّم عنهم، بعد أن أمسى «العمّ» «بابا».

كان الكاهن الشيخ، «زاخر»، راعي كنيسة قرية «ڤادوڤيتش» مسقط رأس «كارول ڤويتيووا»، الذي دوّن، في سجلّ كنيسته، كلّ مراحل مسيرته منذ عماده حتّى تعيينه كاردينالاً، قد ألقى موعظةً بمناسبة ذلك التعيين، اختتمها بقوله: «هذه هي عظتي الخامسة، ولن أُلقي، من بعدها، عظةً، إلاّ إذا انتُخِب الكردينال بابا»، فأجابه الكردينال: «إذن، هذه هي عظتك الأخيرة، ولن تكون لك عظةٌ سادسة». وعندما نما إليه نبأ انتخابه حبرًا أعظم، هتف: «هذه هي المرّة الأولى التي يخلف فيها »لوليك» وعده». وسارع إلى تدوين واقعة انتخابه في سجلّ كنيسته.

واستبشر الپولونيّون، عمومًا، خيرًا، فقد خَبَر البابا الجديد أكاذيب الشيوعيّين وخِدَعهم، ومن ثمّ كان قادرًا على التعامل معهم التعامل الملائم. وتنفّس آخرون الصعداء، قائلين: «الآن سننعم ببعض وضوحٍ في الكنيسة... سنعرف موقعنا بجلاءٍ، وبلا عدائيّةٍ».

وأثار كون البابا الجديد پولونيًّا اهتمام الصحافة، فتهافت مراسلو الصحف على پولونيا، بغية استقاء شهاداتٍ عن ذلك الحبر الذي نما في ثقافةٍ لم يعهدوها.

قرية «ڤادوڤيتش»، التي رأى فيها البابا المنتخَب النور، أضحت، بغتةً، عاصمة الدنيا، وحطّت فيها رفوف الصحافيّين، التوّاقين إلى تفاصيل عن ذلك الذي أمسى رئيس أكبر جماعةٍ في العالم.

وفي جميع كنائس البلاد ومصلّياتها، تلألأت الشموع، وصدحت الحناجر بأناشيد الشكر للربّ، ولسيّدة «تشينستوهوڤا»، السيّدة السوداء، شفيعة پولونيا. وحفلت الليالي بالغناء والأحاديث والنقاشات، ولكأنّ قرون الآلام والمهانة التي طالما رانت على البلاد، قد امّحت فجأةً، ولكأنّ مصير پولونيا قد تقدّس، رغم المحاولات اليائسة لجرّها إلى الإلحاد. ولكأنّ درب صليبها الطويل قد انتهى إلى عتبة القيامة.

وبالإجمال بدّد انتخابه شعور عدم الارتياح، الذي شاع في السنوات الأخيرة من حبريّة البابا بولس السادس، وتفاقم إثر وفاة يوحنّا بولس الأوّل. ووُلد جوّ

تفاؤلٍ بالمستقبل، وكوفئت الكنيسة الپولونيّة، بعد سنواتٍ طويلةٍ من الاضطهاد والمعاناة.

ولا ريب أن قلب مريم خفق على وقع قلوب أبنائها الپولونيّين، وأنّ يدها الحنون امتدّت لتعين اليد الأمينة التي كُلّفت بإدارة سفينة كنيسة ابنها.

وبعث الكاتب الفرنسيّ «أندريه فروسّار»، الذي ارتدّ إلى الإيمان المسيحيّ، بعد سنواتٍ طويلةٍ من الإلحاد، والشكّ، والتيه، وسَبَر، خلالها، هشاشة العالم المعاصر، إلى صحيفته الباريسيّة، ببرقيّةٍ قال فيها، عن الحبر الجديد: «ليس بابا قادمًا من پولونيا، بل هو قادمٌ مباشرةً من الجليل».

حفلة التنصيب

كان التجديد هو عنوان انتخاب يوحنّا بولس الثاني، وحبريّته. ولم يتجلّ التجديد فقط من خلال جنسيّته التي كسرت تقليدًا دام قرونًا، بل من خلال سلوكه أيضًا. فقد كانت التقاليد المتّبعة، حتّئذٍ، تقضي بأن يُحمَل البابا، جالسًا على مقعدٍ فخمٍ، ويُطاف به فوق صفوف المؤمنين المحتشدين. ولكنّ أسقف روما الذي حمل الرقم مئتين وأربعةٍ وستّين، استهلّ حبريّته راكعًا أمام ضريح زعيم الرسل، تحت قبّة كاتدرائيّة القدّيس بطرس، التي حُفر عليها، بحروفٍ يبلغ ارتفاع كلٍّ منها متريْن، قول الربّ لبطرس: «أنت الصخر، وعلى هذا الصخر سأبني كنيستي...».

أنهى البابا الجديد صلاته، فنهض، واتّجه، سيرًا على قدميه، نحو فناء الكاتدرائيّة الفسيح، يتقدّمه مئةٌ واثنا عشر كردينالاً. وهناك، عبر طقوسٍ مبسّطةٍ، لم تخلُ، مع ذلك، من البهاء والروعة، كان عليه أن يشرح للرومانيّين وللعالم، معنى البابويّة، في الربع الأخير من ألفيّة التاريخ المسيحيّ الثانية. في بدء الاحتفال وضع أكبر الكرادلة سنًّا، الكردينال «فيليشي» (Felici)، في عنق البابا المنتَخَب وعلى صدره، «بطرشيلاً» منسوجًا بصوف الخراف، وموشًّى بستّة صلبانٍ سوداء، يُدعى «پاليوم»، يرمز إلى السلطة التي مُنحت له، عند انتخابه.

ثمّ انتظم الكرادلة في طابورٍ، وتعاقبوا، واحدًا فواحدًا، على إقسام الوفاء للأب الأقدس. وبهذه المناسبة، أيضًا، أطاح يوحنّا بولس الثاني بالتقاليد، فبعد أن تقبّل قَسَم عميد الكرادلة جالسًا، لم يلِه الثاني سنًّا، وفق البروتوكول، بل تنفيذًا لرغبته، تلاه عميد الكنيسة الپولونيّة، الكردينال «ڤيشينسكي»، الذي ما إن بدأ ينحني أمامه، حتّى هبّ، هو، واقفًا، وانحنى أمام أخيه الأكبر المسنّ، وحوّطه بذراعيه، وشدّه إلى صدره، طويلاً.

وبعد أن أقسم جميع الكرادلة الطاعة للحبر الأعظم الجديد، بدأ قدّاس التنصيب الرسميّ. وعقب تلاوة نصٍّ من الإنجيل، جلس البابا يوحنّا بولس الثاني على الكرسيّ البابويّ، مرتديًا حلّةً بيضاء موشّاةً بخيوطٍ ذهبيّة اللون، ومعتمرًا تاجًا أبيض، أمام الهيكل الذي زُيّن بالزنابق البيضاء والحمراء، ممثّلة ألوان العلم الپولونيّ. وقد جلس، إلى يمينه، نحو ثلاث مئة أُسقفٍ، وإلى يساره، زهاء ثماني مئة مسؤولٍ مدنيٍّ، قدموا من جهات العالم الأربع، في حين كان أكثر من عشرة ملايين من مواطنيه، محدّقين إلى شاشات التليفزيونات التي كانت تنقل، للمرّة الأولى في پولونيا، قدّاسًا.

وأجال الحبر الأعظم أنظاره فوق تلك اللجّة البشريّة الممتدّة أمامه، وقد رفرفت فوق الرؤوس الأعلام الپولونيّة والڤاتيكانيّة، وخيّم صمتٌ مهيبٌ، بانتظار ما سيقوله ذلك البابا، القادم من بعيد.

وقف يفيض شبابًا، وهمّةً، ووعودًا، في يده صليب البابا بولس السادس الكبير، وعلى صدره صليب الكردينال ساپييها، بلا تاجٍ ولا قفّازاتٍ، في تجرّدٍ يضجّ محبّةً وحقيقةً.

واستهلّ البابا يوحنّا بولس الثاني خطابه بجواب بطرس على سؤال يسوع: «أنتم، من تقولون إنّي هو؟»: «أنت المسيح، ابن اللّه الحيّ»، موضحًا أنّ اعتراف بطرس، هذا، كان نابعًا من قناعةٍ معاشةٍ بعمقٍ، وأيضًا من نعمة إيمانٍ، بدليل قول الربّ لرسوله: «ليس اللحم والدم كشفا لك ذلك، بل أبي في السماوات». هذا الاعتراف الإيمانيّ كان منطلق الكنيسة، وقد أضفى على تاريخ

البشريّة بعدًا جديدًا. فيسوع، ابن الله الحيّ، لم يكلّمنا، فقط، عن أبيه، بل كشف لنا الحقيقة القصوى والنهائيّة عن ذاتنا، لأنّه هو حقيقة الوضع الإنسانيّ. وهذا ما يتعيّن على الكنيسة أن تقوله للعالم، لمن يؤمنون، ولمن يبحثون، للمرتابين، وللذين يصارعون الشكّ. ولذلك التمس البابا من مستمعيه: «**أرجوكم أن تصغوا، مرّةً أُخرى**».

وأضاف أنّ بطرس اقتيد إلى روما كي يشهد لحقيقة الله والإنسانيّة. وربّما كان صيّاد الجليل يؤثر المكوث على ضفاف بحيرة جنيصارت، مع مركبه وشباكه، ولكنّ طاعته لمشيئة الله اقتادته بعيدًا عن موطنه، حيث مكث إلى أن استُشهد. والاستشهاد هو أسمى درجات الشهادة المسيحيّة. وها إنّ أسقفًا آخر يؤتى به إلى روما، مع أنّه كان يؤثر المكوث في وطنه. وقد جاء «**مفعمًا قلقًا، ووعيًا لعدم جدارته**»، من أجل الإدلاء بالشهادة المطلوبة منه. قدم إلى مدينة بطرس، متأهّبًا لتكريس حياته لخدمة حقيقة أنّ البشر المفتدين بالمسيح، هم أكبر ممّا يتخيّلون.

وفي إشارةٍ إلى التاج البابويّ الذي كان قد خلعه، كي يؤكّد أنّ لا قوّة ولا سلطة إلاّ للربّ يسوع، قال إنّ ذلك التاج ربّما كان قد أصبح، في حقبةٍ ما، رمزًا لسلطة البابا الزمنيّة. ولكنّ كنيسة اليوم، في أعقاب المجمع الفاتيكانيّ الثاني، لم تعد كنيسة سلطةٍ، بل كنيسة شهادةٍ إنجيليّةٍ. فسِرُّ الصليب والقيامة هو السلطة الوحيدة التي تمتلكها الكنيسة، وترغب فيها. إنّها سلطةٌ مطلقةٌ، ولكنّها سلطة الربّ الرقيقة والرحيمة، السلطة التي تستجيب لأعماق الكائن البشريّ، ولأسمى تطلّعات فكره، وقلبه، وإرادته. وليست لغة الكنيسة لغة القوّة، بل لغة المحبّة والحقيقة.

وعن شخصه أكّد ابتغاءه أن يكون خادمًا، وابتهل إلى الربّ كي يهبه روح التسليم والتضحية، الذي طبع وجوده على الأرض، ودعاه قائلاً: «**ساعدني كي أكون وأبقى خادم سلطتك وحدها، خادم قدرتك التي لا عهدَ لها بخَورٍ أو وهنٍ، وبالحريّ، خادم خدّامك**».

ثمّ كشف عن الجوهرة الدفينة، عن جوهر رسالته إلى العالم، المتمثّلة في قول

يسوع لتلاميذه: «**لا تخافوا...**»، وهو كان ترداد صدًى لقول معلّمه، فهتف: «**لا تخافوا من تقبّل المسيح وسلطته، ساعدوا البابا وجميع الراغبين في خدمته، وفي خدمة الإنسان، والإنسانيّة جمعاء. لا تخافوا: أشرعوا الأبواب للمسيح. أشرعوا لسلطته الخلاصيّة، حدود الدول، والأنظمة الاقتصاديّة والسياسيّة، وميادين الثقافة الرحبة، ومضامير الحضارة والازدهار.**

لا تخافوا، فالمسيح يعرف ما هو الإنسان. هو وحده يعرف».

كان قداسته يدرك أنّ العالم خائفٌ من ذاته ومن مستقبله. ولجميع من كان يلتهمهم الخوف، ومن كانوا يشعرون أنّهم سجناء الوحدة الكبرى المهيمنة على الحقبة الحديثة، وجّه هذا النداء: «**ألتمس منكم... أتوسّل إليكم: دعوا المسيح يكلّمكم، فهو، وحده، يمتلك كلام الحياة، أجل، الحياة الأبديّة**».

تلك العبارات تدفّقت من روحه، وفكره، وقلبه، وتاريخه، وعبّرت عن مشروع حياته، وعن الهوى الضاجّ في أعماقه. هتافه: «**افتحوا... لا تخافوا...**» كان انعكاسًا لشعار حياته، ولتصوّره لحبريّته. وبهذه العبارات ابتغى بثّ القوّة والعزيمة، لا سيّما في قلوب الشعوب المقموعة، المتطلّعة إلى الحرّيّة.

وفيما كان معظم المستمعين مفتونين بهذه الأقوال التي تضجّ اندفاعًا ورجاءً، ويتوقّعون أن ينفث هذا الحبر المنتَخَب، في أَوصال الكنيسة، نفسًا جديدًا، ويُبرز لها صورةً تليق بها وبمؤسّسها، كان صدر سفير الاتّحاد السوڤيتيّ يجيش غيظًا، وهو يصغي إلى ذلك الخطاب، بحيث مال إلى أُذن أمين الحزب الشيوعيّ البولونيّ، وهمس، متهكّمًا: «إنّ أكبر نجاحٍ حقّقتموه، هو أنّكم أعطيتم العالم بابا، خبيرًا بخفايا الشيوعيّة، وبارعًا في مواجهتها». وقد غاب عن بال السفير السوڤييتي، أنّ دعوة البابا إلى انتباذ الخوف لم يكن إيديولوجيا، ولا شعارًا حزبيًّا، بل كان صدًى لقول يسوع. ولا ريب أنّه غاب عن باله، أيضًا، أنّ الإنجيل هو سلاح يوحنّا بولس الثاني، ومنبع قوّته.

وجديرٌ بالذكر، في هذا السياق، أنّ الكردينال «ڤيشينسكي»، الذي ساوره قلقٌ من ألاّ يستسيغ الإيطاليّون انتخاب بابا غريبٍ عن إيطاليا، طلب من صحافيٍّ

إيطاليٍّ أن يساعد الصحافيّون يوحنّا بولس الثاني على الدخول إلى قلوب الإيطاليّين، فأجابه أنّه قد أفلح، فعلاً، في غزو قلوبهم، منذ خطابه الأوّل.

وفي تلك المناسبة الفريدة، لم يغرب عن باله بلدٌ يحتلّ من ذهنه وقلبه منزلةً أثيرةً، مع أنّه لم يكن قد زاره، بعدُ: لبنان، الذي قال عنه: «**هذه الأرض الحبيبة وشعبها الذين نتمنّى لهم، بحرارةٍ، السلام في الحرّيّة**».

ولا غنًى عن إيراد ترجمةٍ لبعض ما دوّنه الكاتب الفرنسيّ الشهير «أندريه فروسّار» (André Frossard)، الذي كتب عن ذلك اليوم المشهود:

«في ذلك اليوم من شهر تشرين الأوّل، الذي ظهر فيه، للمرّة الأولى، على درجات ساحة القدّيس بطرس، وقد غُرس أمامه صليبٌ كبيرٌ مثل سيفٍ ذي مقبضَيْن، ودوّت في أرجاء الساحة كلماته الأولى: «**لا تخافوا**»، في تلك اللحظة عينها، أدرك الجميع أنّ شيئًا تحرّك في السماء، وأنّ الله أرسل شاهدًا في أعقاب رجل الإرادة الطيّبة الذي افتتح المجمع، ثمّ الرجل الروحانيّ العظيم الذي اختتمه، وبعد فاصلٍ رقيقٍ خاطفٍ يحاكي رفرفة حمامةٍ.

«قيل إنّه قادمٌ من پولونيا، ولكن اعتراني انطباعٌ بأنّه ترك شباكه عند ضفاف البحيرة، وقدم، في الحال، من الجليل، على خطى الرسول بطرس. ولم أشعر، قطّ، أنّني قريبٌ من الإنجيل مثلما شعرت حينذاك. فقوله: «**لا تخافوا**» كان موجّهًا إلى عالمٍ يخاف فيه الإنسان من الإنسان، ويخاف من الحياة بقدر خوفه من الموت، بل أكثر، ويخاف من الطاقات المجنونة التي يُبقيها سجينةً، يخاف من كلّ شيءٍ، ومن لا شيءٍ، ويخاف، أحيانًا، من خوفه ذاته...

«وكانت تلك الصيحة، أيضًا، تحريضًا من تلميذ الفجر المسيحيّ، موجّهًا إلى إخوته المدعوّين للشهادة... لا ريب أنّ المسيحيّة كانت مقدمةً على انطلاقةٍ جديدةٍ. كانت تنبعث من الضريح الذي سجّاها فيه العالم، وختم عليها القبر.

«هذا البابا سيكون بابا تجدّدٍ مسيحيٍّ، ومعه سيعود الرجاء الدفين، إلى ظهرانينا، بقوّةٍ. لن يكون بابا تقليديًّا، كما زعم بعضهم، بل بابا يسبق التقليد، من فصيلة الرسل الأوّلين، ينبثق ممتشقًا صليبه، وسط الإمبراطوريّة الوثنيّة، التي

تحاكي الإمبراطوريّات الوثنيّة الغابرة، المتلهّفة إلى التعجيل في تأليه ذاتها، وإلى الامتلاء حتّى التخمة بعباداتٍ لا تحقّ لها.

«في ذلك اليوم تردّد الزمن، ومدى لحظةٍ، أعطى التاريخ الكلام للأبديّة.

«وكان لصوت الحبر الجديد أصداءٌ بعيدةٌ، واستعادت معه الكلمات شبابها، وجوهرها الذي أفرغها منه تطرّف أقوالنا. فعندما هو هتف: «ليُسبّح يسوعٍ المسيح»، لم يعُدْ ذلك الهتاف مجرّد عبارةٍ طقسيّةٍ رائجةٍ، بل انقلب، بغتةً، صرخة اكتشافٍ. إنّ بعث الكلمات من موتها هو امتياز الشعراء، وكبار الصوفيّين، ورسل المسيح، مندوبي الكلمة. والشعوب لا تخطئ هذا الإحساس».

وبعد أن قدّم البابا الجديد الشكر لجميع المشاركين بهذه المناسبة، وللذين تابعوها من خلال الإذاعات ومحطّات التليفزيونات، حيّا الجميع، باللغات: الإنكليزيّة، والفرنسيّة، والألمانيّة، والإسبانيّة، والبرتغاليّة، والروسيّة، والتشيكيّة، والليتوانيّة. وبتأثّرٍ، خاطب مواطنيه بالپولونيّة، قائلاً:

«إنّ كلّ ما أستطيع قوله قد يبدو تافهًا، قياسًا إلى ما يخفق به قلبي من مشاعر، وما يشعر به قلبكم، في هذه اللحظة. ولذلك فلندع الكلمات جانبًا، ولا يبقينّ سوى صمتٍ سحيقٍ أمام الله، صمتٍ ينقلب صلاةً. أرجوكم أن تكونوا إلى جانبي في «ياسنا غورا»، وفي كلّ مكانٍ. لا تكفّوا عن الوقوف إلى جانب البابا، الذي يصلّي بكلمات الشاعر: «يا أمّ الله، أنت التي تحمي «تشينستوهوڤا»، وتتألّق في «أوسترابراما»...».

ثمّ دعا جميع المسيحيّين إلى الصلاة، وناشد العالم أجمع: «**صلّوا لأجلي. ساعدوني كي أكون قادرًا على خدمتكم، اذكروني في صلواتكم، الآن ودائمًا**».

وعندما انتهى قدّاس التنصيب، لم يعد إلى الكاتدرائيّة، كما كان يقتضي التقليد، بل تقدّم، بمفرده، نحو اللجّة البشريّة الممتدّة أمامه في الساحة، وبارك فريقًا من المعاقين كان قد جيء بهم على مقاعد بعجلاتٍ، وحينئذٍ، اخترق صبيٌّ پولونيٌّ الحاجز، كي يقدّم له باقة زهورٍ منظومةً بألوان العلم الپولونيّ، فدفعه أسقفٌ إيطاليٌّ، رادعًا. ولكنّ الحبر الأعظم أمسك بالصبيّ، وضمّه بين ذراعيه.

وبما أنّه لم يستطع تحقيق رغبته في مصافحته كلّ فردٍ، قبض بيديه كلتيهما صولجانه الفضّيّ، المصنوع على شكل صليبٍ ورفعه عاليًا، وراح يلوّح به، فوق رؤوس الجمهور، ولكأنّه استلّ سيفه، وانبرى لهزّ العالم كلّه، وانتزاعه من سلبيّته، وسباته، واستلابه، وهواجسه، وخرافاته، ومن وهمه بالقدرة على الاستغناء عن الله. ولكأنّه كان يعلن أنه بهذا الصليب سينتصر، ولكأنّ بطرس وبولس قد بُعثا، وانطلقا لتبشير العالم من جديدٍ.

وقابلت الجماهير مبادرته بهتافاتٍ مدوّيةٍ، وهو ظلّ، وقتًا طويلاً، يردّ على الهتافات، وكأنّه لا يطيق عن الجماهير بُعادًا.

وحتّى بعد أن دخل إلى مقرّه، أطلّ على المحتشدين في الساحة، مرّاتٍ عديدةً، ملوّحًا بيديه. ومع أنّ القدّاس كان قد استغرق أربع ساعاتٍ، حرص على مشاركة الجماهير صلاة التبشير (Angelus)، واعدًا الجمهور بمشاركتهم هذه الصلاة ظهر كلّ يوم أَحدٍ، وخاطب الشبيبة قائلاً: «**أنتم مستقبل العالم، وأمل الكنيسة، وأنتم رجائي**».

وأخيرًا، قال مبتسمًا: «**لقد حان الوقت لكلٍّ منكم، وحتّى للبابا، أن يتناول الغداء**».

وهكذا، منذ يوم حبريّته الأوّل، تحرّر من قيود البروتوكول الجامدة، ومن تدابير منظّمي الاحتفالات الحبريّة، الذين ألفوا أن يرسموا للحبر الأعظم كلّ خطوةٍ يخطوها، وكلّ حركةٍ يتحرّكها.

وقد أدهش جميع الذين توقّعوا، من بابا جديدٍ، غير إيطاليٍّ، بعض ارتباكٍ وتعثّرٍ، في لقائه الأوّل مع جمهورٍ غريبٍ، فإذا به يتفاعل مع هذا الجمهور، وكأنّه على علاقةٍ قديمةٍ به.

لقد أَشاع جوًّا من البهجة والانشراح، وكسر صورة الباباوات التقليديّة، التي كانت تظهرهم مكبّلين ببروتوكولاتٍ باليةٍ، ولكأنّهم يؤدّون حركاتٍ أوتوماتيكيّةً مبرمجةً سابقًا، ويردّدون عباراتٍ فقدت كلّ زخمها. وقد أثبت يوحنّا بولس الثاني أَنّه من نمطٍ جديدٍ يقرن الوقار والجدّ بالبساطة والعفويّة. وكان، قبل

يومَيْن، في أَثناء استقباله الهيئة الدبلوماسيّة، قد أَثار الإعجاب بثقته الراسخة، وقدرته الفريدة على الانتقال، بيُسرٍ، من لغةٍ إلى إُخرى، محتفظًا، في الآن عينه، بسلطته الأَدبيّة الحازمة، مذكِّرًا أولئك الموظّفين الكبار أَنّهم لا يمثّلون حكوماتٍ فحسب، بل يمثّلون، أيضًا، شعوبًا وأُممًا تتمتّع بحرّيّاتٍ مقدّسةٍ. ولم يخفَ عن بعض السفراء أنّهم هم المقصودون بقوله.

وقد أوجز الكاتب الفرنسيّ، أندريه فروسّار، الانطباع السائد الذي انحفر في نفوس من شهدوا ذلك اليوم التاريخيّ بقوله:

«من شهدوا ذلك اليوم يتعذّر عليهم نسيانه...

«لا أقلّ من ثلاث مئة ألف شخصٍ ضمّتهم ساحة القدّيس بطرس، كانوا ينتظرون حبرًا أعظم، ففاجأهم انبثاق صيّاد بشرٍ... ولكأنّ القادم حديثًا لم يأتِ من پولونيا، بل من الجليل، على كتفه شبكةٌ، والإنجيل تحت إبطه... له قامة الرسل، وكلماته الأولى: «لا تخافوا» دعتنا إلى الشهادة... اهتزّ الجمهور... ومثل الجميع، كنتُ، أنا، أبكي... اقترانٌ جليٌّ لمخطّطٍ إلهيٍّ بلحظةٍ فريدةٍ في تاريخ البشر».

أسلوبٌ جديدٌ

وفي الواقع كان تسنّمه الكرسيّ الرسوليّ، لكثيرين، صدمةً، بل زلزالاً، ولا سيّما لمن ألفوا التصرُّف، كما يحلو لهم، بالإدارة الڤاتيكانيّة، حيث طغت العقليّة الإيطاليّة مدى قرونٍ، فغدوا ينظّمون حركات الباباوات بصرامةٍ. وكان بدهيًّا ألاّ يستسيغوا جعل إدارة الڤاتيكان عملاً جماعيًّا، يسهم فيه جميع أساقفة الكنيسة. ولم يستسيغوا، على نحوٍ خاصٍّ، مجيء بابا من خارج إيطاليا، ولكأنّه سلب البابويّة منهم، ولا سيّما أَنّه برهن، منذ اللحظة الأولى، عن تمرّده على الكثير من التقاليد التي ترسّخت على مدى قرونٍ، والتي لم يكونوا مستعدّين للتخلّي عنها بيُسرٍ، فعمد إلى خرق التعليمات التي حاولوا فرضها عليه، وتصرّف على سجيّته، مثلما ألف التصرّف في أسقفيّته، وأبى أن يُسجن في أيّ قالبٍ جامدٍ.

منذ مؤتمره الصحافيّ الأوّل، كانوا قد أوعزوا إليه أن يجيب على أسئلة الصحافيّين، وهو جالسٌ، بمهابةٍ، على المنصّة. ولكنّه لم يُطِق اعتلاءها طويلاً، فراح يطوف بين الصحافيّين، ويردّ على أسئلتهم بمختلف اللغات. وفي إشارةٍ إلى الساعين لتقييد تحرّكاته، كان، كلّما سئل عن عزمه السفر إلى جهةٍ معيّنةٍ، أو القيام بأيّ عملٍ غير مألوفٍ، كالتزلّج، يجيب: «**شرط أن يسمحوا لي بذلك**». ولم يكن خافيًا على أحدٍ من الذين كان يعنيهم بضمير الجمع. كان ملمًّا بما عاناه سلَفُه مع كثيرين منهم، فوطّن العزم على ألاّ يدعهم يتحكّمون بوجوده ويدمّرونه.

سنوات أسقفيّته كانت قد علّمته أنّ طريقة الإنتاج الناجعة هي تحديد الأولويّات، ومتابعة تنفيذها، وتجنّب الدخول، قدر المستطاع، في تفاصيل البيروقراطيّة. وكان مقتنعًا، منذ يوم حبريّته الأوّل، أنّ كثيرًا من التقاليد البالية، في إدارة الڤاتيكان، إنّما هي طفيليّاتٌ، وزوالها محتّمٌ، فلا داعي لهدر الجهد والوقت، ومصارعة الأشخاص، من أجل فرض تغييرٍ فوريٍّ، ما دامت تلك الرواسب لا تعيق متابعة الأهداف. وهو كان يمقت المؤامرات البيروقراطيّة الصغيرة، فاكتفى بتجاهل الهنات التافهة التي تشغل بعض العاملين معه.

لقد كان هدفه إدارة الكنيسة من خلال أسلوبٍ راعويٍّ إنجيليٍّ أصيلٍ، فنأى بنفسه عن الصراعات الشخصيّة الجوفاء، وعن حرب استنزافٍ لا يفيد أحدًا، وعمد إلى تقويم الاعوجاجات الخطيرة، من خلال مبادراتٍ عاجلةٍ، وتلافي استمرارها، عبر تعييناتٍ جديدةٍ، مؤكّدًا للجميع أنّه هو من يدير دفّة السفينة، وأنّ المقاليد بيده. ولم يستأذن أحدًا كي يتابع، في أُسقفيّة روما، ما كان يقوم به في أسقفيّة كراكوڤيا.

قبل انتخابه كان يتوجّس رهبةً من تحمّل مسؤوليّة الحبريّة الباهظة، بل المستحيلة. ولكنّه، لحظة إعلانه قبوله بها، وطّن العزم على النهوض بها، مثلما كان قد عزم على النهوض بمهمّة الأُسقفيّة، لعشرين سنةً خلت.

وفي الواقع كانت حبريّته امتدادًا لرعايته رئاسة أسقفيّة كراكوڤيا، واستفادت من خبرته الثمينة فيها.

بفضل خبرته الأسقفيّة الغنيّة، ومقاومته لأنظمةٍ توتاليتاريّةٍ تمتهن حرّيّة الإنسان وكرامته، انتهج أسلوبًا جديدًا طبعه بكاريسماتيّته، وإنسانيّته، ونظرته النبويّة، وتلقائيّته، واستقلاليّته، وابتكاره. وبسلطته الأدبيّة كان يرسم الخطوط الكبرى لبرنامجه الرسوليّ، فكان على المؤسّسات أن تسير وفق هذه الخطوط.

ولكنّه لم يكن يقرّ أمرًا قبل استشارة المطّلعين، وقبل الإصغاء، والمطالعة، واستقراء الأمور، وتقليبها على جميع وجوهها، حتّى تكوين رؤيةٍ واضحةٍ مكتملةٍ. كان يكلّف معاونيه بوضع مشاريع، وعندما يعرضونها عليه، يشبعها تدقيقًا، ويلحظ كلّ ثُغرةٍ فيها، فيناقشها معهم بندًا، بندًا، ويصحّحها، حتّى تتوافق مع ما يهدف إليه.

نشاطه المسرحيّ، في مطلع شبابه، وعلاقاته الراعويّة مع الشبّان والأزواج الجدد فتحت ذهنه على قضايا الحياة اليوميّة، وعلى العديد من التساؤلات الوجوديّة، كما أنّها أكسبته تمرّسًا بفنّ التواصل، وولّدت لديه قدراتٍ إعلاميّةً فذّةً، عفويّةً، منزّهةً من التصنّع، تتقن الارتجال، بحيث يعتري مستمعيه انطباعٌ بأنّه يخاطبهم شخصيًّا، ويفكّر بكلٍّ منهم، دون سواه.

كان لكلّ إنسانٍ، في نظره، شأنٌ خطيرٌ، بقطع النظر عن مركزه، ومهنته، وكان يحبّ كلّ إنسانٍ، لذاته، بصرف النظر عن ماضيه، وعن خصاله أو عيوبه؛ فيخاطب كبار العالم، ومتواضعيه، بنفس القدر من الجدّ والاحترام، فجميعهم هم أبناء الله.

ولكنّه، مع اهتمام وسائل الإعلام به، لم يكن هو لها، يومًا، أسيرًا، ولم يقع في شباكها الملتوية، لأنّه لم ينشد التألّق من خلالها. وهي لم تكن له، قطّ، غايةً، بل كانت وسيلةً لإيصال رسالةٍ.

كانت عدسات الكاميرات تلاحقه، ولكنّه لم يعبأ بأضوائها، ولا سيّما عندما كان يصلّي في المزارات التي تحتلّ في نفسه مكانةً عزيزةً، فيستغرق في ركوعه، وخشوعه، وتأمّله الصامت، وحواره مع الربّ، غير عابئٍ بكرّ الوقت، وبنفاذ صبر المصوّرين.

شعار حبريّته

إنّ لقب «الحَبْر»، يُعبَّر عنه، في اللغات الأجنبيّة، بلفظة «Pontife» أو «Pontifex»، التي تعني باني الجسور. فمهمّته هي بناء جسور بين الله والبشريّة، بين الكنيسة الكاثوليكيّة، وسائر الكنائس المسيحيّة، وسائر الأديان، بين الكنيسة والسلطات السياسيّة، والاقتصاديّة والثقافيّة، بين قيادة الكنيسة المركزيّة والمسؤولين الكنسيّين المنتشرين في شتّى بقاع البسيطة، ومختلف الكنائس المحلّيّة. وبصفته حارس العقيدة الكاثوليكيّة، عليه أن يوطّد جسرًا بين البشريّة وحقيقة أصولها، وطبيعتها، ومصيرها.

ولا مراء أنّ مهمّة البابا هي مهمّةٌ مستحيلةٌ، إذ إنّها تقتضي منه اقتياد البشر إلى القداسة، وهو يعمل في إطار الزمن، في حين أنّ القداسة هي تمثّلٌ بالله الأزليّ. ومن ثمّ يتعذّر على أيّ حبرٍ أعظم، مهما بلغ من القداسة، أن ينفّذ هذه المهمّة تنفيذًا لائقًا. ومع ذلك، فبما أنّ هذا الهدف هو إرادةٌ إلهيّةٌ، فعلى كلّ حبرٍ ألاّ يضنّ بجهدٍ، أو أن يتوانى في السعي إلى تحقيقه. ومن ثمّ فإنّ موقع البابا هو موقعٌ مأسويٌّ، ولا يسع من يتولاّه إلاّ الاستسلام الكلّيّ لعمل الله، والالتزام الأمين بالإنجيل، وبتفسيرات الآباء واللاهوتيّين له، عبر العصور.

وقد برهن يوحنّا بولس الثاني، منذ أيّام بابويّته الأولى، أنّه لم يكن في جوٍّ غريبٍ عنها، ولكأنّه مارس هذه المهمّة مدى حياته كلّها. وقد أعلن الكردينال «وليم بوم» (Baum) الخبير بتاريخ الكنيسة: «لستُ أرى أحدًا أكثر تأهّبًا للبابويّة من الكردينال «ڤويتيووا»». واعترف الكردينال «كازارولّي»، الذي كثيرًا ما أدهشته مبادرات البابا يوحنّا بولس الثاني: «لقد كانت پولونيا أصغر من احتواء سعة شخصيّة الكردينال «ڤويتيووا»، فالبابويّة هي ميدانه».

ومن المحقّق أنّه لم يتخلّ، يومًا، عن تنشئته المسيحيّة والرسوليّة، وعن اعتماده المطلق على الروح القدس، وعلى العذراء، أمّه، ومن ثمّ، عندما وضع الأسقف المكلّف بصنع شعارات الباباوات، ستّة نماذج، كي يختار منها البابا الجديد شعارًا، رفضها جميعًا، واستبقى شعاره الأسقفي المكوّن من حرف M كبير،

المشير إلى العذراء مريم، تحت صليب يسوع، وشعار القدّيس «دي مونفور»: «كلّي لك» (Totus Tuus). وقد استغرب كثيرون من خبراء الڤاتيكان، هذا الخيار المخالف للتقاليد. أمّا البابا الجديد فكان حريصًا على تذكير الجميع بأنّ من كُلّف بتولّي رعاية كرسيّ القدّيس بطرس، هو نفسه الذي كان يتولّى رعاية كرسيّ القدّيس ستانسلاس.

توجّهاتٌ وأدواتٌ

حرص البابا يوحنّا بولس الثاني على أن يجعل من بابويّته تحقيقًا لرغبتين، وتنفيذًا لوصيّتين أسداهما له كردينالان پولونيّان، هما الكردينال «ساپييها»، رئيس أساقفة كراكوڤيا الأسبق، الذي كان قد اقتاده على دروب الكهنوت، ونصحه بإكمال كلّ عملٍ يبدأ به، والكردينال «ڤيشينسكي»، رئيس أساقفة ڤرسوڤيا، الذي ناشده، يوم انتخابه، إدخال الكنيسة إلى الألفيّة الثالثة. فكان له الڤاتيكان امتدادًا لما بدأه في كراكوڤيا، ولكن مع تطلّعٍ إلى رسالة أرحب، انتدبته لها المشيئة الإلهيّة.

لقد اعتلى عرش الكنيسة كي يخدمها، ويقودها، بصفته وكيل مؤسّسها. ولم يكن بلوغ هذا الهدف بالمهمّة اليسيرة. فالكنيسة هي، في آنٍ واحدٍ، مؤسّسةٌ إلهيّةٌ، يصونها خلود الله ووعد يسوع لها بالصمود في وجه الشرّير، ومؤسّسةٌ بشريّةٌ تراتبيّةٌ، غير منزّهةٍ من أوهان أعضائها، وأخطائهم.

الكنيسة هي شعب الله، ومهمّة البابا الأساسيّة، هي أن يكون لها مرشدًا روحيًّا، ومعلّم الحقيقة الجريء، سديد الرأي والخطى، الساهر على وقاية رعيّته من الأضاليل التي تتجاذبهم، واقتيادهم إلى مناهل الحياة والخلاص.

وبإيصاله إلى سدّة الحبريّة العظمى جعل منه الله أبًا للبشريّة، كي يكون لها الضمير اليقظ، والدليل الواعي الأمين، الذائد عن حياضها ضدّ قوى الشرّ، متحمّلاً، في هذا السبيل، من التضحيات أقساها وأسخاها، ومن الصراعات أعتاها وأدهاها، فليس التلميذ خيرًا من معلّمه.

فهو الراعي المتأهّب لبذل حياته، كي لا يهلك واحدٌ من خرافه، وهو الشهيد الذي لا يضنّ حتّى بدمه، كي يحلّ ملكوت اللّه على الأرض.

هدفٌ جبّارٌ مخيفٌ، استعان، في السعي إليه، على أزر أمّ اللّه، التي، منذ مطلع حياته الكهنوتيّة، كرّس لها كلّ ذاته، فهي، أيضًا، أمّه، وأمّ الكنيسة التي تسهر وتصلّي معه، كي تقتاد الكنيسة والعالم إلى حضارة الحبّ، وإلى نصرها الحاسم على قوى الشرّ، وفاءً لما وعدت به، في مدينة فاطمة، عام ١٩١٧.

وسيعينه اللّه على إنجاز ما بدأ به، مكافأةً عادلةً لخادمه الأمين المقدام.

وفضلاً عن ذلك، البابا هو حلقةٌ في سلسلةٍ نظمها الربّ، بدءًا ببطرس، وتوالت مسيرة موكبها، على مدى القرون، بلا انقطاعٍ، بشخصيّاتٍ كان تنوّعها يغذّي غناها، ويوفّر تكامل عملها، ويصحّح ما تتردّى إليه، في بعض محطّاتها، من زلاّتٍ وكبواتٍ.

وقد تميّزت هذه السلسلة، في القرن العشرين، بوجوهٍ نيّرةٍ، أمثال بيّوس الثاني عشر، الذي، بحدْسه الثاقب، اختار «كارول ڤويتيووا» أسقفًا؛ ويوحنّا الثالث والعشرين، الذي، خلافًا لكلّ توقّعٍ، دوّن، في سجلّ الكنيسة، صفحةً نيّرةً، وأرسى أسس حقبةٍ جديدةٍ حافلةٍ بالوعود، والذي، تحت مظاهر الطيبة والبساطة، كان يُخفي قدّيسًا حقًّا، وعبقريّةً نادرةً. وخلفه بولس السادس، الذي، باعتناقه اسم رسول الأمم، عبّر عن توجّهات حبريّته، وعلى غرار شفيعه، دفع بسفينة الكنيسة إلى أقاصي المسكونة. وهو، بفضل تعيين الأسقف «كارول ڤويتيووا» كاردينالاً، وبتوسيعه حلقة الكرادلة، مهّد لوصوله إلى السدّة البابويّة، وقد ورث منه يوحنّا بولس الثاني عشق الكنيسة، ونظرةً رحبة الآفاق، وتقوى مريميّةً راسخةً حارّةً. أمّا يوحنّا بولس الأوّل، فمع أنّ أيّام حبريّته الممعنة في القصر، لم تتح له التعبير عن غنى طاقاته، وفرادة خصاله، وسموّ قداسته، غير أنّ الاسم المركّب الذي اختاره لحبريّته، كان، في ذاته، برنامجًا وشعارًا.

وكان للمجمع الڤاتيكانيّ الثاني، الذي تألّق فيه اسم الكردينال «ڤويتيووا»، والذي غمره الروح القدس بحضوره، قاضيًا على الكثير من الرواسب النخرة،

باثًّا طاقاتٍ تجديديّةً فريدةً، أثرٌ عميقٌ في إيصال يوحنّا بولس الثاني إلى قيادة الكنيسة، فأخذ على عاتقه استثمار إلهامات الروح القدس، سبيلاً إلى مواجهة التحدّيات الخطيرة، والأزمات التي تخضّ الكنيسة ومصير العالم أجمع.

كان البابا بولس السادس قد أنجز الكثير، ولكنّه لم يستطع تحقيق كلّ ما ابتغاه، فكان لا بدّ من خَلَفٍ يكمل عمله، وينقل إلى أرض الواقع الكثير من رؤاه الشخصيّة، وأهمّها:

– ردم الشروخ التي نشأت، في جسم الكنيسة، عن صدام متطرّفين متناقضين، وتحقيق الوحدة في التنوّع.

– مواجهة تكاثر الحركات المدمّرة القائمة على البغض.

– نزع فتيل المادّيّة المستشرية، والدنيويّة الزاحفة.

– مقاومة كمّ الأفواه، وانتهاك الحقوق الأساسيّة في الدول الخاضعة للنظام الشيوعيّ، وكبح الإباحيّة المنفلتة في الغرب.

– مكافحة العَوَز في العالم الثالث، من جرّاء أنانيّة الدول الغنيّة، واستغلالها اللاأخلاقيّ.

– محاربة المظالم الاجتماعيّة المريعة، وما ينجم عنها من اضطراباتٍ مدمّرةٍ، والانحطاط الأخلاقيّ المتسارع الذي يفسد الناشئة، وسط تخاذل البالغين ولامبالاتهم.

فهل سيُفلح ذلك البابا «الغريب» المنتَخَب حديثًا، في التصدّي لكلّ تلك المهامّ، وفي معالجة كلّ تلك العلل؟ وهل سيمدّ العالم يده لمؤازرة ذلك الحبر القادم من الشرق؟

إنّه من الإنجيل استمدّ عزيمته، ومن الإفخارستيّا وعون الأمّ السماويّة نهل فيضًا من الطاقات.

بالحبّ اللامحدود قضى على الخوف، وقد واكبه وشدّده باستمرار قول الربّ يسوع لتلاميذه: «**لا تخافوا**»، وقول الرسول بولس: «**أستطيع كلّ شيءٍ بمن يقوّيني**».

برنامجٌ يتّضح

منذ الأيّام الأولى شرعت تتّضح خطوط برنامج حبريّته الكبرى. وقد أعرب عنها من خلال المناسبات التقليديّة، التي خاطب، فيها، فئاتٍ متباينةً.

فغداة انتخابه كان له لقاءٌ بالكرادلة، الذين شكر لهم ثقتهم، مشيدًا، «بالجرأة القصوى» التي اقتضاها منهم انتخابه. وبسط أمامهم الأهداف الرئيسة التي كان يرمي إليها، والتي يمكن اختزالها بما يلي:

– تنفيذ مقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني، على اعتباره «الباب المقدّس» لربيع تجدّد الكنيسة، والحدَث الأهمّ شأنًا، خلال قرنين من تاريخ الكاثوليكيّة. وعلى الجميع أن ينعموا النظر في طبيعة الكنيسة ووظيفتها، وفي أسلوب كيانها وعملها. فعلى الكنيسة أن تقدّم للعالم مقترحاتٍ مسيحيّةً واضحةً، إن هي كانت عازمةً على الاضطلاع برسالتها المميّزة، على دروب الحياة والتاريخ.

ودعا إلى طيّ صفحة السجالات بشأن المجمع، مع العزم على تقويم كلّ معوجٍّ، حيثما وُجد، والحرص على صفاء العقيدة ووحدتها، كما نصّ عليها الإنجيل، ونبذ كلّ تفسيرٍ أو تصرّفٍ فرديٍّ مخالفٍ.

– تسريع وتفعيل المساعي إلى تحقيق «القضيّة النبيلة»، قضيّة توحيد الكنيسة، عملاً بدعوة الرسول إلى أن تنتج شراكة الروح محبّةً واحدةً، ونفسًا واحدةً، وفكرًا واحدًا، من أجل إنهاء مأساة انقسام المسيحيّين، وما يسبّبه هذا الانقسام من عثراتٍ.

– وعي مسؤوليّة الكنيسة الجسيمة، ودعوتها إلى وضع كلّ ثقتها في الله، وإلى العمل الجماعيّ، مع البابا، وتحت إشرافه، والانضباط في الكنيسة، حفظًا للنظام الخاصّ بجسد المسيح السرّيّ.

– الوفاء التامّ للرسالة الموكلة إلى كلّ مسؤولٍ كنسيٍّ، بأن «يثبّت إخوته»، ويرعى قطيعه.

– دعم دور الكنيسة في بناء السلام والعدل بين الأمم، والتأكيد على حقّ الحرّيّة الدينيّة.

وقد دعا كلّ كردينالٍ إلى إقسام الوفاء للمسيح «حتّى بذل دمه في سبيله»، رابطًا هذا القسَم بتضحيات جماهير من المسيحيّين المجهولين، «الذين ما برحوا يعانون مِحَن السجن والآلام، والمذلّة، من أجل المسيح»، ومذكّرًا بوجود كنيسةٍ مضطهَدةٍ.

ويوم ١٩٧٨/١٠/٢٠، استقبل الهيئة الدبلوماسيّة المعتمدة لدى الڤاتيكان، وشدّد على أنّ أعضاء هذه الهيئة ليسوا، فقط، ممثّلي حكوماتٍ، بل هم، أيضًا، ممثّلو شعوبٍ وأممٍ، في بلادٍ عريقةٍ ذات تاريخٍ طويلٍ، أو في بلادٍ حديثةٍ غنيّةٍ بالإمكانيّات. وأوضح أنّ الكنيسة، بإسهامها في تقدّم البشريّة، تعترف «**بالقيمة الخاصّة لتنوّع وتعدّد الثقافات والتقاليد واللغات**»، مشيرًا إلى أنّ تاريخ پولونيا، الذي اتّسم، أحيانًا، بالمأسويّة، قد علّمه «**احترام القيَم المميّزة لكلّ أمّةٍ، ولكلّ شعبٍ، ولتقاليدهم، ولحقوقهم بين سائر الشعوب**». وأوضح أنْ ليس للكرسيّ الرسوليّ مطمعٌ في السلطة، بمعنى هذه اللفظة المعهود، وأنّ هدفه هو، في المقام الأوّل، «**تثقيف الضمائر**». وهو، في سبيل بلوغ هذا الهدف، لا يحتاج إلى امتيازاتٍ خاصّةٍ، غير أنّ العدل يقتضي منح الجميع الحرّيّة الدينيّة، التي تشمل حقّ ممارسة الشعائر، وحقّ المؤمن بالمشاركة الكاملة في الحياة العامّة.

وبالإجمال أكّد اهتمام الكرسيّ الرسوليّ بخير كلّ الشعوب وازدهارها، وشدّد على الواجبات الإنسانيّة والأخلاقيّة: السلام، والنموّ، والعدل، وحرّيّة الضمير والعقيدة، وعلى الحاجة الملحّة إلى تقويم الاعوجاجات في هذا المجال، وعلى «**تمتين الأسس الروحيّة التي ينبغي أن يبنى عليها المجتمع الإنسانيّ**».

وقد أكّد: «**بصفتي مسيحيًّا، وخاصّةً بصفتي بابا، إنّي، الآن، وسأكون، دائمًا، شاهدًا للمحبّة الشاملة**».

وفي نهاية اللقاء، تبادل بضع عباراتٍ مع كلّ دبلوماسيٍّ، على انفرادٍ، مستخدمًا، بقدر المستطاع، لغة كلٍّ منهم، ما استحقّ له إعجاب الجميع ومحبّتهم. وجديرٌ بالتنويه أنّه كان يتقن من اللغات: الإيطاليّة، والإنكليزيّة، والفرنسيّة، والإسبانيّة، والألمانيّة، والروسيّة، ويلمّ بلغاتٍ أُخرى كثيرةٍ.

وفي اليوم التالي، بمناسبة مؤتمره الصحافيّ الأوّل، أكّد أنّ العمل الصحافيّ دعوةٌ، وخدمةٌ تقدّرها الكنيسة والإنسانيّة. وغبط الصحافيّين الذين ينعمون بحرّيّة العمل والكتابة، غامزًا، بطرفٍ خفيٍّ، من موقف حكّام موطنه الأصليّ، في هذا الشأن. وكان هؤلاء، رغم الصدمة التي أحدثها بهم انتخابه، ادّعوا أنّ هذا الانتخاب كان نصرًا لپولونيا. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني، سارع إلى الردّ، من خلال برقيّةٍ موجّهةٍ إلى أمين الحزب الشيوعيّ الپولونيّ، أنّ تاريخ الأمّة الپولونيّة كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا، منذ ألف سنةٍ، برسالة الكنيسة الكاثوليكيّة وبخدماتها. وحتّى في هذه المناسبة، كان النظام الشيوعيّ في پولونيا قد برهن عن تعنّته وحقارته، بحجب جوازات سفرٍ عن كتّابٍ أصدقاء للبابا الجديد، إلاّ بشرط منح جوازاتٍ لآخرين من أزلام النظام، يرافقونهم، ويكونون عليهم عيونًا، وجواسيس، ومخبرين.

وزخرت أيّام حبريّته الأولى بأحداثٍ تجلّت، من خلالها، علاقاته بوطنه الأمّ، وبمواطنيه. فكانت رعيّة كراكوڤيا قد ألبست مقرّ رئيس أساقفتها السابق، حللاً من زهورٍ، تعبيرًا عن افتخارها وتعلّقها به، ولكأنّه كان قد غادر مدينته كي يولد للعالم أجمع، حسب تعبير أحد أصدقائه. وفي روما كانت له لقاءاتٌ بفئاتٍ مختلفةٍ من مواطنيه، خلّفت في نفسه وفي أذهانهم ذكرياتٍ لا تمّحي.

فبعد ظهر يوم ١٩٧٨/١٠/٢٣، أقام الكردينال «ڤيشينسكي» للجالية الپولونيّة، قدّاس شكرٍ، في كنيسةٍ إيطاليّةٍ ضاقت بحشود الپولونيّين المندفعين. وفي اليوم التالي، أقام البابا الجديد ما يشبه حفلة وداعٍ لمواطنيه في الڤاتيكان. وعند الساعة السادسة عشرة دوّت بالهتافات والأهازيج والتصفيق الحادّ قاعة البابا بولس السادس التي ازدحمت بجمهورٍ متأثّرٍ حتّى الأعماق، عندما دخلها الأب الأقدس، فصدحت الأناشيد الوطنيّة الپولونيّة. ثمّ أنصت الجميع، بتأثرٍ واعتزازٍ، لكلمة الكردينال «ڤيشينسكي»، الذي أشاد بالمواطن، والصديق، والأخ الذي انتُخب لكي يتبوّأ كرسيّ بطرس، وودّعه باسم كنيسة پولونيا.

ولمّا فرغ من خطابه، دنا منه، وركع كي يقبّل خاتمه الرسوليّ، فركع البابا إلى جانبه، وقبّل خاتمه الراعويّ، وضمّه بين ذراعيه ضمّةً من القوّة لم يعد معها

الكردينال يستطيع الحراك، حسب اعترافه، لاحقًا. كم كانت مثقلةً بالتأثّر تلك اللحظة الفريدة التي تعانق، فيها، أعظم شخصيّتين في تاريخ پولونيا الحديث! فتفجّرت المشاعر، وبُحّت الحناجر هتافًا، وفاضت المآقي دموعًا، وبلغ التأثّر ذرًى غير معهودةٍ. وقد خلّد تلك اللحظة التاريخيّة تمثالٌ ضخمٌ منصوبٌ في فناء جامعة «لوبلن»، احتفظ رئيس أساقفة كراكوڤيا بنسخةٍ برونزيّةٍ منه، في مكتبه.

وما إن ساد شيءٌ من الهدوء، حتّى بادر الحبر الأعظم إلى الردّ على خطاب أخيه الكردينال، قائلاً: «**أيّها الكردينال، رئيس أساقفتنا المبجّل المحبوب، اسمح لي أن أُفصح عمّا يجول في خاطري ببساطةٍ. فلم يكن ممكنًا أن يتبوّأ، اليوم، بابا پولونيٌّ كرسيّ بطرس، لولا إيمانك الذي لم يتخاذل أمام الألم، ولولا رجاؤك البطوليّ، وثقتك اللامحدودة بأمّ الكنيسة، ولولا وجود «ياسناغورا»، وكلّ تاريخ الكنيسة في وطننا...**».

ثمّ ناشد مواطنيه، قائلاً: «**لا تنسوني، بصلواتكم، في «ياسناغورا»، وفي كلّ أنحاء الوطن، كي يتمكّن هذا البابا الذي هو دمٌ من دمكم، وقلبٌ من قلوبكم، من خدمة الكنيسة والعالم، في هذه الأوقات العصيبة التي تسبق نهاية الألفيّة الثانية. حافظوا على وفائكم للمسيح ولصليبه، وللكنيسة...**». وسارع الكردينال إلى الردّ باسم الپولونيّين: «نعدك بألاّ نتخلّى عنك، وبالصلاة دائمًا عن نواياك. في كلّ مكانٍ ستبري ركبُنا الحجارة، التماسًا لك نِعَم القوّة، والصحّة، والطاقة الروحيّة»، ولكأنّه كان يتوقّع المِحَن العاتية التي ستواكب مسيرته.

ثمّ أوكل البابا الجديد إلى أبناء رعيّته وأصدقائه، العناية بما أنشأه من مشاريع قائلاً: «**كلّ ذلك هو جزءٌ من نفسي... هو التربة التي غذّت خبرتي وإيماني، وحبّي الذي يغمر كلّ الأماكن الغالية عليّ، كلّ مزارات المسيح وأمّه... للربّ أقدّم هذه الأرض الحبيبة...**».

هذا الاحتفال كان قد تحوّل عيدًا يضجّ حبورًا، أَغرق البابا الجديد في طوفانٍ من الحماس والمحبّة، أدّى إلى دعك ثوبه الأبيض الجديد دعكًا مريعًا، وإلى تلويث أكمامه بآثار القبلات الحمراء.

وما كان لهذا العيد أن يصمت، لو لم يصعد البابا إلى المنصّة، ويعلن، باشًّا:

«**علينا، الآن، أن نفترق، فلدى كبير الأساقفة أعمالٌ أُخرى، وهو يطلب منّي أن نختصر**». فدوّى التصفيق، واختُتِم الاحتفال في جوٍّ من المرح الغامر، بعد أَن أَثبت «العمّ» ڤويتيووا أَنّه لم يفقد روح الفكاهة والبساطة.

في مساء ذلك اليوم الحافل بالأحداث والتأثّر، عندما اختلى البابا في غرفته، كرّ، في ذاكرته، شريطٌ ذكّره بنبوءة أمّه التي أخذته من العربة التي كانت تنزّهه بها، طفلاً، وقالت لصديقاتها: «سيكون لهذا الطفل شأنٌ عظيمٌ في العالم». وحضر إلى ذاكرته، بقوّةٍ، قول الكردينال «ڤيشينسكي»، لحظة انتخابه حبرًا أعظم، أنّ مهمّته هي اقتياد الكنيسة إلى عتبة الألفيّة الثالثة. هاتان النبوءتان رسمتا له أهداف حبريّته، وشدّدتا عزمه على المضيّ قدُمًا في ميدانها، يواكبه شعورٌ وطيدٌ بعطف الله، وبعون سيّدة «تشينستوهوڤا» الأموميّ، وبأزر صلاة الأمّة البولونيّة الحارّة. فأودع العناية الإلهيّة ثقةً مطلقةً، وانبرى للمهمّة.

«ثورةٌ صامتةٌ»

منذ ساعات حبريّته الأولى، أسفرت مبادراته التي أربكت بعضًا من معاونيه، وأسعدت العديد من المؤمنين، عن أسلوبه الفريد، التلقائيّ، الذي يعكس حقيقة شخصيّته، وتميّز عهده.

فغداة انتخابه، هرع إلى مستشفى «جيميلّي»، كي يعود أسقفًا صديقًا له، كان قد أُصيب بجلطةٍ دماغيّةٍ، فأدهش الأطبّاء، والممرّضين، والمرضى، والزائرين، والخلق في الطريق، الذين لم يروا، يومًا، حبرًا أعظم يزور مريضًا في مستشفى، ببساطةٍ، وعفويّةٍ، مخاطبًا من يلتقيه، ومحيّيًا الجميع. لقد اَلِفوا باباواتٍ ملتزمين المهابة والوقار، متوارين عن الأنظار، بعيدي المنال، فإذ بهم أمام حبرٍ لا يختلف عن أيّ كاهنٍ، يمتزج بالقوم، ولكنّه يفوق معظمهم انفتاحًا، وصدقًا، وبساطةً، ودماثةً، وورَعًا. هذا التميّز دفع كردينالاً متصلّبًا في تصميمه على انتخاب بابا غير إيطاليٍّ، إلى القول: «حتّى لو هو كان إيطاليًّا، لكنت انتخبتُه!».

ومنذ انتخابه تعيّن على موظّفي الڤاتيكان وإداريّيه، أن يتعرّفوا، كلّ يومٍ، على أصدقائه الذين تقاطروا لتهنئته، ومنهم الراهبة «إيميليا»، التي كانت قد صلّت، بحرارةٍ، ألاّ يُنتخَب الكردينال «ڤويتيووا» بابا، والتي تفجّرت دموعها، عندما شهدته في الثوب الأبيض، فهدّأ روعها، وكلّفها، في الحال، بمهمّةٍ لدى أمين سرّ الڤاتيكان.

وكان على إداريّي الڤاتيكان أن يألفوا تصرّفاته المخالفة لكلّ ما عهدوه. ففي ١٩٧٨/١٠/٢٩، رغب في زيارة مزارٍ مريميٍّ في إيطاليا، اقتادته إليه مروحيّةٌ. وسرعان ما ذاع نبأ زيارته تلك، فتقاطر إلى المكان ألوف الراغبين في مشاهدته، واضطرّ البابا إلى تقديم اعتذارٍ للسلطات المحلّيّة، عمّا سبّبته زيارته من ازدحامٍ في ذلك المكان، ولكنّه أوضح دافعه إلى تلك الزيارات. فذلك المزار كان يوفّر له مناخًا مثاليًّا للصلاة، كلّما أمّ روما، «**والصلاة هي مهمّة البابا الأولى، وقد تكون رسالته الوحيدة، والشرط الأساسيّ لتمكينه من خدمة الكنيسة والعالم**».

وسرعان ما تبيّن أنّ ارتداءه الثوب الحبريّ الأبيض لم يحرّره، في الحال، من هواية التزلّج، والتأمّل فوق السفوح المغطّاة بالثلوج. فقد كانت تلك الهواية تضفي على أعصابه هدوءًا، وتجدّد طاقاته، وتزوّد ذهنه بالصفاء والعزيمة. وقد تلمّس معاونوه وأصدقاؤه تلك الرغبة تضجّ، بحدّةٍ، في صدره، ووطّنوا العزم على تحقيقها له، خلسةً. فأقلّه أُسقفٌ صديقٌ في سيّارته، التي احتلّ قداسته مقعدها الخلفيّ، وإلى جانبه أمين سرّه الذي بسط أمام وجهه صحيفةً تحجبه عن الأنظار الفضوليّة، وانطلق به إلى سفح جبلٍ مكسوٍّ بالثلج، خالٍ من المتزلّجين، حيث ارتدى زيّ المتزلّجين، واعتمر قبّعةً مثل قبّعاتهم، ونظّاراتٍ داكنةً، بحيث كاد يتعذّر تعرّفه، وهناك استسلم لهوايته الأثيرة، وعاد إلى الڤاتيكان وقد شُرح صدرُه، وصفا ذهنه، واستعاد كلّ طاقاته. ولم يدرِ أحدٌ في الڤاتيكان بما حدث، ما شجّع أصدقاءه على إعادة الكرّة، مرّةً إثر مرّةٍ، إلى أن حدَث ما أكرههم على مزيدٍ من الحيطة والصراحة. فذات يومٍ قصدوا به سفحًا كانت ترتاده ثلّةٌ ضئيلةٌ من المتزلّجين، واتّفق أنّ جماعةً منهم مرّت من أمامهم، وقد تلكّأ عن اللحاق بهم صبيٌّ صغيرٌ، مرتبكٌ، فلمّا انتهى إليهم،

توقّف كي يستوضحهم عن الجهة التي انطلق إليها ذووه، وبغتةً أزاح نظّارتيه عن عينيه، وحدّق إلى الحبر الأعظم، وراح يجأر بملء حنجرته: «البابا، البابا». وجهد معاونو البابا في إقناعه بأنّه مخطئٌ. غير أنّ الأب الأقدس، قرّر، منذئذٍ، أن يبلّغ المسؤولين مسبّقًا، كلّما اعتزم القيام برحلة تزلّجٍ. وغدت تقلّه مروحيّةٌ إلى القمّة، ويحيط به مراقبون يقظون.

يوم ١٩٧٨/١١/٥، حرص أُسقف روما الجديد على زيارة المقامَيْن المكرّسين لتكريم شفيعَيْ إيطاليا الكبيرَيْن: فرنسيس الأسّيزي، والقدّيسة كاترينا السييناّويّة. في كاتدرائيّة أسّيزي أعلن: «**بما أنّني لم أولد في هذه البلاد، كنت بحاجةٍ ملحّةٍ إلى أن أجد فيها ولادةً روحيّة**». ولذلك قدم إلى حيث حفر «الفقير الصغير»، القدّيس فرنسيس، أقوال المسيح، بحروفٍ حادّةٍ في قلوب معاصريه. ولدى عودته إلى روما، مساءً، زار الكنيسة التي تحتضن رفات القدّيسة كاترينا السييناّويّة، التي كانت قد أكرهت، عام ١٣٧٦، البابا غريغوريُس التاسع على هجر ملجئه في «أڤينيون»، والعودة إلى روما، وبيّن «**كم رسالة النساء مدوّنةٌ بعمقٍ في سرّ الكنيسة...**».

وفي يوم الأحد ١٩٧٨/١١/١٢، استلم كنيسة رعيّته، كاتدرائيّة القدّيس يوحنّا في «اللاتران» (Latran)، ملتمسًا من رعيّته أن تتقبّله مثلما تقبّلت أسلافه، ولكنّه ذكّرهم بشفيعهم يوحنّا المعمدان، وبدعوته الناريّة إلى التوبة، والعودة إلى الله وإلى الإنجيل.

قبيْل عيد الميلاد، كلّف الكردينال «أنطونيو ساموري» بوساطةٍ لحلّ خلافٍ حدوديٍّ بين الأرجنتين والشيلي، وكانت تلك هي الوساطة الأولى التي يقوم بها الڤاتيكان منذ نحو قرنٍ، مع أنّ كثيرين من مستشاريه، لم يؤيّدوا هذه المبادرة، تحسّبًا من نتائجها الوبيلة على هيبة الڤاتيكان، في حال فشلها. غير أنّها انتهت بنجاحٍ باهرٍ، وحالت دون حربٍ، قد تكون، نسبيًّا صغيرةً، ولكنّها، في كلّ حالٍ، داميةٌ. وعندما هنّأه أحد الكرادلة على هذا النجاح، أجاب: «**وهل تظنّ أنّني، بعد أن قبلتُ الاضطلاع بوظيفتي، كان يسعني الوقوف متفرّجًا على هذين البلدين الكاثوليكيّين وهما يتحاربان؟**».

وحرص على إضفاء نكهةٍ خاصّةٍ على عيد الميلاد الأوّل، الذي يحتفل به في روما. وكان قد أعلن عن عزمه مباركة الأطفال، بهذه المناسبة، فعجّت ساحة القدّيس بطرس بأطفالٍ رتّلوا أنشودةً ميلاديّةً، باللغة البولونيّة. وعبرَ الإذاعة التي كانت تبثّ الاحتفال، سُمعت بوضوحٍ، ضحكة الحبر الأعظم، وتُصدي لها ألوف الضحكات من حناجر الأطفال. وربّما كانت تلك الضحكة الأولى التي يطلقها بابا، علنًا، على الهواء.

وفي عظة العيد أكّد أنّ الميلاد هو «**عيد الإنسان... فكلّ كائنٍ بشريٍّ هو فريدٌ واستثنائيٌّ**»، لأنّه تلقّى قدرة أن يصبح ابن الله، فالله، باقتحامه التاريخ البشريّ من خلال مذود بيت لحم، أكسب الطبيعة البشريّة كرامةً فائقةً.

وأكّد الرومانيّون حبّهم لأسقفهم وحبرهم الجديد، إذ عاد مئاتٌ منهم إلى ساحة القدّيس بطرس، غداة عيد الميلاد، وانطلقوا يصفّقون، مطالبين بمشاهدة البابا، الذي أطلّ من الشرفة، وصلّى معهم، ومازحهم.

وفي **٢٩** كانون الأوّل، استقبل ثلاثة عشر ألف فتًى مندفعٍ، وكلّفهم إبلاغ الجميع أنّ البابا يعتمد كثيرًا على الشباب. وبدءًا من يوم الأحد التالي، شرع يزور مختلف الرعايا الرومانيّة، حيث كان له، في بعضها، ذكرياتٌ من أيّام دراسته اللاهوتيّة. وردّد على مسامع رعاياه قول القدّيس أوغسطينُس: «**من أجلكم أنا أسقفٌ، ومعكم أنا مسيحيٌّ**».

ومضى البابا يوحنّا بولس الثاني في خرق التقاليد، إذ لم يُعهَد أن احتفل بابا بعقد إكليل أحدٍ من العامّة. ولكنّ ذلك البابا القادم من پولونيا، والعازم على أن يبقى راعيًا، كان قد زار مغارةً ميلاديّةً أقامها موظّفو التنظيفات، على مقربةٍ من الڤاتيكان، واغتنمت ابنة أحد الموظّفين تلك السانحة، فطلبت منه أن يبارك إكليلها، فابتسم، ووعدها بتلبية مطلبها، وبارك زواجها، يوم **٢٥** شباط، في أحد مصلّيات الڤاتيكان.

وبعد أربعة أيّامٍ، بارك ثلاثة عشر ألف جنديٍّ، مكرّرًا أمامهم قول پاسكال: «**بمنأًى عن يسوعِ المسيح، نحن نجهل كلّ شيءٍ يتعلّق بحياتنا، وبموتنا، وبالله، وبذواتنا**».

وكان، يوم عيد الظهور، ١٩٧٩/١/٦، قد رسم زميلاً له في الإكليريكيّة، الأب «فرنتسيشيك ماهارسكي» (Franciszek Macharski) أسقفًا، وكلّفه بخلافته على رئاسة أُسقفيّة كراكوفيا، وأهداه الصليب الأُسقفيّ الذي كان البابا پيّوس العاشر قد أعطاه للكردينال «ساپييها» عام ١٩١١. وكان هذا الأخير قد علّقه على صدر الأسقف «ڤويتيووا» طيلة مدّة أسقفيّته، قائلاً: «هذا الصليب يخصّ رئيس أساقفة كراكوفيا».

وهكذا، في غضون أربعة أشهر، كان ذلك البابا الذي لا عهدَ له بهوادةٍ، قد أسال عزيمةً جديدةً، في أعرق مركز، موضحًا، بأقواله وأفعاله، أنّ التبشير وإعادة التبشير هما أولويّتا مهمّته الرسوليَّة. وأكّد عزمه على ممارسة مهمّة أُسقف روما، ورأس كنيسة إيطاليا، بطريقةٍ أكثر مباشرةً ممّا فعله أسلافه، حتّى الإيطاليّون منهم.

وبلّغ شبيبة العالم أنّها تحتلّ حيّزًا هامًّا من فكره، وتمثّل له أملاً جمًّا،

وبرهن عن سامي تقديره لقيمة الزواج والأسرة، وحرصه على وقايتها،

واستخدم، بمهارةٍ، الأساليب الدبلوماسيّة المتوفّرة، في علاقة الكنيسة مع مراكز السلطة، ولا سيّما مع القادة الشيوعيّين،

وأثبت أنّه صاحب مبادراتٍ غير مألوفةٍ، غير مقيّدٍ بتقاليد جامدةٍ، ولا يتوانى عن استخدام ضغط الرأي العامّ العالميّ، لخدمة حقوق الإنسان.

وفي أشهر حبريّته الأُولى، اتّخذ سلسلةً من المبادرات الجريئة. منها ما أكّد علاقته الوثيقة بالشبيبة. ففي ١٩٧٩/٣/٣١، التقى عشرة آلاف شابٍّ مندفعين، ينتمون إلى حركة «شراكة وتحرير»، التي كان يدعمها في پولونيا، والتي كان يأمل أَن يجعل منها أداة تجدّدٍ أَخلاقيٍّ في السياسة الإِيطاليّة. وقد امتدح اندفاعهم السخيّ، والتضحيات التي يبذلونها وفاءً لمثلهم العليا، موضحًا أَنّ إِيمانهم بالمسيح هو أَمل الكنيسة، ورجاء العالم الحقّ. ولمّا فرغ من مخاطبتهم، أَبوا مغادرته قبل أَن يشاركهم الغناء.

وعبّر عن اهتمامه الحارّ بالتنشئة الكهنوتيّة. ففي الثامن من نيسان ١٩٧٩،

وجّه رسالةً إلى جميع كهنة العالم، بمناسبة يوم الخميس العظيم، الذي تحتفل فيه الكنيسة بذكرى تأسيس سرّ الكهنوت، وفيه يُدعى كلّ كاهنٍ إلى تجديد نذوره، بحضور أُسقفه، وفيه يُبارَك زيت الميرون ومسحة المرضى. وقد استهدف، من خلال تلك المبادرة، دعم التزام خدّام الكنيسة في العالم أَجمع.

لا ريب أَنّ الكنيسة كانت تواجه أَزمة كهنةٍ حادّةً، في أعقاب المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، ما دفع البابا بولس السادس إلى ترخيص لاثنين وثلاثين أَلف كاهنٍ بالتخلّي عن نذورهم، وبالعودة إلى الوضع العلمانيّ. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني، رغب، عوضًا عن ذلك، في أَن ينعش، لدى إِخوته الكهنة، شعلة الدعوة الإِلهيّة، مذكّرًا إِياهم أَنّ الكهنوت دعوةٌ، وليس مهنةً. فهذا السرّ قد وُجِد، أصلاً، لمساعدة المؤمنين على تحقيق البُعد الكهنوتيّ في الحياة المسيحيّة، وبه يصبح الكهنة «**ضحايا حيّةً، مقدّسةً، مرضيّةً لدى الله**».

ولا ريب أَنّ كون الكاهن «**إِنسانًا للجميع، من أَجل ملكوت السماوات**»، يفسّر ضرورة كونه عازبًا، ما يؤهّله لأُبوّةٍ من نوعٍ مختلفٍ. وقد أَوضح قداسته أَنّ الكاهن، بعزوفه عن الأُبوّة التي ينعم بها الأَزواج، ينشد أُبوّةً أُخرى، بل حتّى أُمومةً أُخرى، وفقًا لقول الرسول بولس عن الأَبناء الذين أَنجبهم في الآلام. إِنّهم أَبناء روحه، أَوكلهم الراعي الصالح إلى عنايته، أَبناءٌ عديدون، أَكثر ممّا تستطيع أُسرةٌ بشريّةٌ استيعابه.

وناشد قداسته الكهنة الذين قد يساورهم الشكّ في مغزى دعوتهم، وفي قيمة خدمتهم، أَن يتخيّلوا عالمًا خاليًا من الكهنة:

«فكّروا بالأَماكن التي ينتظر فيها الناس، بقلقٍ، كاهنًا، وحيث يعانون، منذ سنواتٍ، غيابه، ويرجون حضوره. ويتّفق، أَحيانًا، أَن يلتئموا في معبدٍ مهجورٍ، ويضعون على الهيكل ثيابه الكهنوتيّة التي ما زالت موجودةً، ويتلون كلّ صلوات الطَّقس الإِفخارستيّ. وفي لحظة تحوّل القربان، يسود صمتٌ سحيقٌ، يواكبه النحيب، أَحيانًا... معبّرًا عن رغبتهم الطاغية في سماع العبارات التي بوسع شفتي الكاهن، وحده، التلفّظ بها، تلفّظًا فاعلاً، بواسطة الخدمة الكهنوتيّة، ويتوقون، بقلقٍ أيضًا، إلى سماع كلمات الغفران الإِلهيّ: «إِنّي أحلّك من خطاياك»...».

ووثّق **علاقته بالأساقفة**. ففي الخامس من أيّار **١٩٧٩**، التأم، في روما، أَساقفة إِيطاليا، في مجمعهم السنويّ، الذي رئسه، للمرَّة الأولى، البابا الجديد. وهو بصفته أُسقف روما، كان يحمل لقب «رئيس أَساقفة المقاطعة الرومانيّة، وعميد أَساقفة إِيطاليا». وكان يوحنّا بولس الثاني أَوّل بابا غير إِيطاليٍّ، يُطلَق عليه هذا اللقب منذ أَربع مئةٍ وخمسٍ وخمسين سنةً. وبعد أَن كان يرعى بلدًا راسخ الإِيمان، أُوكلت إليه رعاية بلدٍ غربيٍّ، عهد، منذ زمنٍ، تراخي إِيمان أَهاليه. وفضلاً عن ذلك، كان البابوات، منذ تاريخ توحيد إِيطاليا، عام ١٨٧٠، يمسكون بزمام شؤون الكنيسة الإِيطاليّة، والعلاقات مع الحكومة الإِيطاليّة. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني حرص على الاهتمام بالكنيسة التي أوكلت إليه مسؤوليّتها، مع حرصه على النأي عن تفاصيل الإِدارة العامّة.

وقد تناول، في عظته أَمام المجمع، مفارقة الحياة المسيحيّة. فمع أَنّ المسيح وعد تلاميذه بالسلام، وأَوصاهم أَلاّ يقلقوا، لأَنّه سيكون دائمًا معهم، نمت الكنيسة في المِحَن، والأَلم، والاستشهاد. والمسيح نفسه اقتاد بطرس وبولس إلى روما، كي يدمغا تعليمهما بشهادة دمهما.

ثمّ طلب من الأَساقفة المكلّفين برعاية الكنيسة الإِيطاليّة، أَن يطلعوه على مشاكلهم الخاصّة. فعلى الكنيسة أَن تنهض بمسؤوليّاتها في «تاريخ الخلاص البشريّ». والبابا يرغب في أَن يشاركهم هذه المسؤوليّة، من خلال علاقةٍ جماعيّةٍ. وفي ١٩٧٩/٥/١٨، وُضِعَت صيغةٌ لهذا الالتزام، عقب مشاوراتٍ جماعيّةٍ. وحينئذٍ، برزت قضيّة تعيين بديلٍ لرئيس المجمع الأُسقفيّ المستقيل. وكان البابا بولس السادس قد حصر مهمّة هذا التعيين بالحبر الأَعظم. وبما أَنّ ذلك البابا البولونيّ لم يكن على معرفةٍ وثيقةٍ بالأَساقفة الإِيطاليين، استشارهم، واستنادًا على رأي أَغلبيّتهم، عيَّن رئيس أَساقفة «تورينو» لهذا المنصب، وأَوضح للجميع حرصه على ممارسة مسؤوليّته، بصفته عميد أَساقفة إِيطاليا، ممارسة إِنجيليّةً، لا ممارسة رئيس مجلس إِدارةٍ، أو مديرٍ عامٍّ لشركةٍ تجاريّةٍ، وناشد سائر الأَساقفة أَن يسوسوا رعاياهم بالروح عينه.

وفي **٣٠** حزيران **١٩٧٩**، دعا إلى أَوّل مجمع كرادلةٍ في عهده، ودعمه

بأَربعة عشر كردينالاً جديدًا، ظلّ اسم أَحدهم مكتومًا، وهو اسم أُسقف «شانغهاي»، الذي كان محكومًا عليه بالسجن المؤبّد في الصين.

وأَولى رسالة العلمانيّين اهتمامًا خاصًّا. وفي صيف حبريّته الأَوّل، واصل تشجيع النشاطات الاجتماعيّة. فاستقبل، في **٢٢** تمّوز، جماعة القدّيس «إيجيديو»، التي كانت قد تأسّست عام **١٩٦٨**، بغيةَ إِعادة تبشير روما، والعناية بالمهمّشين، والسعي إلى إحلال السلام في العالم الثالث، حيث كانت تستعر الحروب الأَهليّة. ولدى استقباله فريقًا منهم، يتألّف من ستّ مئة عضوٍ، قال لهم: «**تنامى إِليّ أَنّ كنيستكم قد ضاقت بعددكم. وإِنّي لأَرجو أَن يجعل وفاؤكم لكنيستكم الضيّقة، كلَّ روما عاجزةً عن استيعابكم**».

ودأَب على تشجيع رسالة العلمانيّين في العالم، ودعمها، غير متدخّلٍ في خياراتهم السياسيّة، على أَن يكون خيارهم ملتزمًا بالعقيدة المسيحيّة. وما انفكّ يؤكّد أَنّ تعليم الكنيسة الاجتماعيّ غير ملتزمٍ بتعبيرٍ واحدٍ، وأَنّ مبادرات العلمانيّين هي شأنهم.

ولم يكن يتحرّج من خرق أُصول البروتوكول الڤاتيكانيّ الصارم. ففي أحد لقاءاته مع الجماهير، أَعربت امرأةٌ حاملٌ عن أُمنيّتها بأَن يعمّد البابا وليدها، بنفسه، فوعدها بتحقيق أُمنيّتها، ووفى، وعمّد الوليد في مقرّه الصيفيّ.

ومع كلّ ذلك، **لم ينسَ أَصدقاءه**. ومع اقتراب ذكرى انتخابه، شدّته الذكريات إلى أَصدقائه القدامى في پولونيا. فدعا فريقًا منهم إلى زيارته في مقرّه الصيفيّ. فقدموا من كراكوڤيا. وفي أَثناء الطريق، كانوا يتبادلون التوقّعات، فطمح المتفائلون منهم في أَن يخصّهم بمقابلتَيْن، إحداهما للترحيب بهم، والأُخرى لوداعهم، في حين لم يتوقّع المعتدلون سوى مقابلةٍ واحدةٍ. وعندما وصلوا، أَوعز بأَن يأتوا إليه جميعهم، فطاف بهم، في مقرّه بـ «كاستل غوندولفو»، وأَراهم مكان سكنه، ثمّ استوضحهم عن برنامجهم، فأجابوا: «ها قد التقينا بك، وبما أَنّ مشاغلك كثيرةٌ، فقد عزمنا على زيارة معالم روما، قبل عودتنا إلى كراكوڤيا». ولكنّه اعترض قائلاً: «ستقومون بزيارة روما، مرّةً أُخرى؛

أَمّا الآن، فقد تدبّرتُ أمر إِقامتكم هنا، بحيث يُتاح لنا تناول وجبات طعامنا معًا، وتبادل الأَحاديث والنقاشات»!

وقد أَولى **التعليم الدينيّ** عنايةً فائقةً. وكان البابا پيّوس التاسع، بُغيةَ تمكين البابوات المحكوم عليهم بالانكفاء في حدود الڤاتيكان، من البقاء على اتّصالٍ بالشعب قد أنشأ «اللقاءات العامّة»، يستقبل، خلالها، الحبر الأَعظم، في يومٍ من الأُسبوع، جموعًا من الحجّاج، ويخاطبهم، ويعظهم. هذه الخطوة، فضلاً عن كونها وسيلة اتّصال البابا بالشعب، كانت تخليدًا لإرثٍ كنسيٍّ عريقٍ، جعل الأَساقفة، في المقام الأَوّل، معلّمين، ووُعّاظًا، ومرشدين روحيّين، ولاهوتيّين، في حين أُوكل إلى شمامسةٍ الاضطلاع بإِدارة الشؤون الزمنيّة. وقد دوّن أَساقفةٌ كبارٌ، أَمثال «أَمبروسيوس»، أُسقف ميلانو، و«أوغسطينُس»، أُسقف «هيپون» في أَفريقيا الشماليّة، و«يوحنّا الذهبيّ الفم»، أُسقف القسطنطينيّة، أُمّهات أَعمالهم، في إِطار هذا التعليم الجماعيّ.

ومنذ عام ١٩٧٩، اتّخذ يوحنّا بولس الثاني من اللقاءات الجماعيّة الأُسبوعيّة التي كان يذيعها راديو الڤاتيكان للعالم أَجمع، وتنشرها صحيفة الڤاتيكان «أوسّيرڤارتوري رومانو»، بستّ لغات، منبرًا لبسط نظرته اللاهوتيّة في مواضيع يجدر بالمسيحيّين التمعّن بها، متناولاً، في كلّ لقاءٍ موضوعًا محدّدًا. ويبدو أَنّ هذه المبادرة لم تحظَ باستحسان جميع مسؤولي الڤاتيكان، ولا سيّما أَنّ يوحنّا بولس الثاني قد استهلّ، منذ ١٩٧٩/٩/٥ سلسلة أَحاديث استمرّت أربع سنواتٍ، متوسّعًا في بحث الفكرة التي كان قد أَعرب عنها، في كتابه «حبّ ومسؤوليّة»، باحثًا في قدسيّة الزواج، والعلاقات الجنسيّة المبنيّة على العطاء المتبادل، وانتباذ إِرادة استخدام الآخر أَداةً لقضاء شهوةٍ شخصيّةٍ، بحيث تصبح علاقة الحبّ الجنسيّة التي يسودها «نقاء القلب» وسيلة تقديس. وبالإجمال، أَدهش قداسته كثيرين بجرأة طرحه قداسة أَفعالٍ بشريّةٍ غالبًا ما يُنظر إليها نظرة ازدراءٍ، وتأكيده تجلّي اللامرئيّ في المرئيّ، وغير العاديّ في أَعماق العاديّ. فهو قد توغّل إلى أَعماق البشريّ، فلمس فيه الإِلهيّ. ومن المحقّق أَنّه كان لهذه المحاضرات أَصداءٌ مدوّيةٌ.

ولكن لا مفرّ من ملاحظة أنّ كثافة أُسلوب يوحنّا بولس الثاني، وعمق فكره في بسطه لما سُمّي «لاهوت الجسد» يجعلان من العسير على كثيرين تمعّن أفكاره. فليت من يبسّطها بلغةٍ يسهل على العامّة فقهها. ومع ذلك تبقى مقاربته لهذا الموضوع منعطفًا، ليس فقط في اللاهوت الكاثوليكيّ، بل، أيضًا، في تاريخ الفكر الحديث.

وقد أَوضح قداسته أنّ اللاهوت ليس مجرّد دراساتٍ دينيّةٍ خارج الكنيسة، بل هو علمٌ كنسيٌّ، يتعلّق بشؤون الكنيسة. ومن ثمّ، عليه أن يُبنى على معرفةٍ متينةٍ للتقليد الكنسيّ، وعلى استيعاب إِرث حكمة الكنيسة. وبالتالي، فإِنّ التربية اللاهوتيّة لا تبدأ بتفكيك التقليد، بل بدراسته.

وللاهوت علاقةٌ وثيقةٌ بالقداسة. فهو ليس مجرّد أَداةٍ لمعرفة الكنيسة والمسيح، بل هو لقاءٌ مع المسيح، وتعليمه هو نقل خبرةٍ حيّةٍ عن المسيح، لطالب اللاهوت. اللاهوت، إذن، هو تنشئة مسيحيّين حقيقيّين.

وجديرٌ بالتنويه، أنّه، في لقائه العامّ الأَوّل بالجمهور، خالف التقاليد، واختلط بالحضور، وواسى المرضى، وصافح الواقفين في الصفوف الأَماميّة، وسط أَهازيج النساء، ودموع تأثّرهنّ، وسعيهنّ إلى لمسه وحمل بركته إلى بيوتهنّ، وجهودهنّ في تقريب أَطفالهنّ منه كي يباركهم ويداعبهم. وقد عجز المذيع الذي كان يتولّى مواكبة الحدث عن كثبٍ في العثور على أَلفاظٍ تعبّر عن دهشته وإِعجابه، وعمّا أَثارته مبادرته من اندفاع جماهيريٍّ. ولما عاد البابا إلى المنصّة، قال: «**أَرى أَنّ بابا واحدًا لا يكفي لمصافحة الجميع. ولكن لا يمكن أَن يوجد سوى بابا واحدٍ، ولست أَجد سبيلاً إلى تكثيره...**» وغادر وسط رعدٍ من التصفيق.

تجديدٌ آخر أَحدثه يوحنّا بولس الثاني هو إيلاء مجلس الكرادلة دورًا أَكثر فاعليّةً. فهذا المجلس، الذي كان يُعدّ، قديمًا مجلس شورى كنسيًّا، غدا، على امتداد قرونٍ، لا يلتئم إِلاّ من أَجل انتخاب بابا جديدٍ، أو عند تسمية كرادلةٍ جُدُدٍ. وقد ارتأى يوحنّا بولس الثاني أَنّ على مجلس الكرادلة أَن يشارك الحبر الأَعظم همّ كلّ الكنائس، وهمّ الكنيسة الجامعة. فهو لم يكن يرى، في

الكردِيناليّة، امتيازًا شخصيًّا، بل مسؤوليّةً حيال الكنيسة جمعاء. ولذلك دعا مئةً وعشرين كردينالاً إلى جمعيّةٍ بكامل أَعضائها. وكانت تلك هي أَوّل جمعيّةٍ من هذا النمط تجتمع منذ أَربع مئة سنةٍ، لا من أَجل انتخابٍ، بل للتشاور. وقد أَوضح للمجتمعين أَنّه سيطرح لتأمّلاتهم ودراساتهم عدّة مواضيع، ويرغب في تلقّي آرائهم المكتوبة عليها، كما أَنّه راغبٌ في ترسيخ روح تضامنٍ معهم، وفي الردّ على كلّ التساؤلات التي نجمت عن مقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ الثانيّ، التي يمثّل تطبيقها مهمّة حبريّته. أَمّا المواضيع التي رغب في بحثها، على مدى الأَيّام الأَربعة القادمة فهي:

– إِعادة تنظيم الإِدارة الداخليّة في الڤاتيكان.

– تجديد الأَكاديميّة الحبريّة.

– إصلاح وضع الڤاتيكان الماليّ المنهار.

وفي ١٠/١١/١٩٧٩، احتفلت أَكاديميّة العلوم الحبريّة بالذكرى المئويّة لولادة «أَلبير آنشتين». وبهذه المناسبة، أَلقى البابا خطابًا حاول فيه ردم الهوّة التقليديّة بين الكنيسة والعلم، ولم يتردّد في الإِشارة إلى «دعوى غاليليو»، ممتدحًا عظمة ذلك العالم، ومعترفًا بمعاناته الكبرى... بين أَيدي الإِكليروس والمؤسَّسات الكنسيّة. وتمنّى «**أَن يعكف «لاهوتيّون، وعلماء، ومؤرّخون، على دراسةٍ معمّقةٍ لقضيّة «غاليليو»، تفضي إلى اعترافٍ صادقٍ بالأخطاء، أَيًّا كان مصدرها، فيُبدّدون، بذلك انعدام الثقة الذي ما انفكّ يحول، في أَذهان كثيرين، دون تفاهمٍ مثمرٍ بين العلم والإيمان**». وحرَّض الحبر الأَعظم اللاهوتيّين على التحالف مع مفكّرين آخرين، ولا سيّما في ميدان الفلسفة، مؤكّدًا أَنّ كلّ ما يساهم في إِنماء فهمنا «الحقيقة الكاملة»، في ما يتعلّق بالعالم البشريّ، ينمّي فهمًا للمسيح، فادي هذا العالم. ولا ريب أَنّه ليس بوسع كلّ الفلسفات المعاصرة التعاون مع اللاهوت، إِذ إِنّ بعضها من «الهزال والانغلاق» ما يجعل كلّ حوار معها مستحيلاً. فعلى لاهوتيي اليوم أَن يعملوا بنصيحة القدّيس بولس إلى التسّالونيكيّين: «**امتحنوا كلّ شيءٍ، وتمسّكوا بما هو حسنٌ**».

ولا معدى عن التنويه بأنّ التجديد الذي أطلقه يوحنّا بولس الثاني، لم يقتصر على الجوهر، بل تجلّى، أيضًا، في الأُسلوب الذي حيّر الإداريّين التقليديّين، ولكنّه لقي استحسانًا شعبيًّا واسعًا. وقد قدّرت مصلحة السياحة الإيطاليّة أنّ انتخابه اجتذب إلى إيطاليا خمسة ملايين سائحٍ خلال ستّة أشهرٍ. وكانت اللقاءات الجماعيّة التي يعقدها في الڤاتيكان، أيّام الربيع، تسبّب اختناقاتٍ مروريّةً هائلةً. لقد أسبغ على البابويّة ديناميّةً مدهشةً، بعد أن كان قد خُيّل إلى كثيرين أنّها أمست عاجزةً عن الاضطلاع بدور مركز القوّة الروحيّة.

ومنذ مطلع حبريّته، كثّف جهوده، في سبيل تحقيق **وحدة الكنيسة المسكونيّة**. وكانت، منذ انعقاد المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، قد شرعت وفودٌ كاثوليكيّةٌ وأرثوذكسيّةٌ تتبادل الزيارات، ولا سيّما بمناسبات أعياد شفيع الكنيسة الكاثوليكيّة القدّيس بطرس في **٢٩** حزيران، وشقيقه القدّيس أندراوس، شفيع الكنيسة الأرثوذكسيّة في **٣٠** تشرين الثاني، من كلّ عامٍ. وما كاد يوحنّا بولس الثاني يتبوّأ الكرسيّ الرسوليّ حتّى أوعز إلى رئيس مجلس وحدة المسيحيّين، الكردينال «ڤيلّبراند»، أن ينظّم له لقاءً مع البطريرك ديمتريُس الأوّل في إسطنبول.

صحيحٌ أنّ يوحنّا بولس الثاني قدم من بلادٍ كاثوليكيّةٍ بكاملها تقريبًا، ما جعل كثيرين يتوقّعون ألاّ يهتمّ بقضيّة الحوار مع الكنائس الأُخرى. ولكنّه، في الواقع، سارع إلى تبديد هذا التصوّر، إذ حرص على تشجيع مضاعفة اللقاءات والصلوات المسكونيّة، التي أمست هدفًا أساسيًّا من أهداف رحلاته الرسوليّة.

كان قد ترعرع وعاش على تخوم الكاثوليكيّة والأُرثوذكسيّة. ولكنّه على نقيض العديدين من أترابه، كان يكنّ احترامًا ومودّةً عميقين للمسيحيّين الشرقيّين ولطقوسهم وروحانيّتهم الخاصّة. وكانت تحدوه رغبةٌ مضطرمةٌ في القضاء على كلّ ما يرسّخ الفرقة بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنائس الأرثوذكسيّة، ولا سيّما أنّ الوحدة كانت تجمعها، كلّها، في الألفيّة المسيحيّة الأولى، وكانت متّفقةً على جميع العقائد المسيحيّة الأساسيّة. فتمنّى أن تشهد الألفيّة الثالثة العودة إلى هذا الوضع، وظلّت هذه الأُمنية تراوده طيلة حبريّته،

رغم الشتائم وتهم الخيانة التي كان يوجّهها إليه بعض أَتباع كنيسته، الذين كانوا يأخذون على بعض الكنائس الأرثوذكسيّة، ولا سيّما الكنيسة الروسيّة، سكوتها، أو تواطؤها مع النظام الشيوعيّ الذي أَوسع الكاثوليكيّة اضطهادًا وتنكيلاً، ورغم تعرُّضه، من جانبٍ آخر، لاتّهامٍ لاذعٍ من كنائس أرثوذكسيّة بمحاولته «اقتناص» رعاياها، واجتذابهم إلى اعتناق الكثلكة.

وكانت خطوته الأُولى نحو تحقيق حلم الوحدة، زيارته إلى الفنار، في إسطنبول، بتاريخ ١٩٧٩/١١/٢٩، حيث استقبله البطريرك، فتعانقا بحرارةٍ، وشاعت على محيّا البابا أَمارات البهجة. وفي كاتدرائيّة القدّيس جاورجيُس، ذكّر مستمعيه أنّه، رغم الخلاف الذي يفصل الكنيستين، اليوم، كانت تجمعهما شراكةٌ كاملةٌ في الأَلفيّة الأولى من تاريخ المسيحيّة؛ وأنّ هذه الوحدة نمّت تقاليدهما الحيويّة الكبرى، ورسّخت عقائد إيمانهما المشترك. وها هما تلتقيان يحدوهما هذا الإيمان الواحد، عساهُ يقودهما إلى «وحدةٍ كاملةٍ قد عطّلتها ظروفٌ تاريخيّة». وردّ عليه البطريرك «ديمتريُس» بأَنّ هذا اللقاء، مكرّسٌ لمستقبل الله، مستقبلٍ سيشهد ولادةً جديدةً للوحدة، ولاعترافٍ مشتركٍ، ولشراكةٍ كاملةٍ في الإفخارستيّا الإلهيّة.

وفي المساء، عقب محادثاتٍ مع جماعاتٍ كاثوليكيّةٍ وأَرمنيّةٍ أرثوذكسيّةٍ، احتفل قداسته بقدّاسٍ في كنيسة الروح القدس، في إسطنبول، حضره البطريرك «ديمتريُس» وأَعضاء سينودسه، وقادةٌ مسيحيّون. وقد قال البابا، في عظته: «**إنّ الاتّصالات التي جرت في السنوات الأَخيرة قد جعلتنا نكتشف الأُخوّة القائمة بين كنيستيْنا، وواقع الشراكة بينهما، حتّى وإن هي ما زالت غير مكتملة**».

وفي اليوم التالي، حضر القدّاس الذي احتفل به البطريرك بعيد القدّيس أَندراوس، وأَعرب عن رجائه بأَن «**تقودنا الصلاة إلى وحدةٍ كاملةٍ في الإفخارستيّا**». وأَضاف: «**أَجرؤ على ترجّي أَن يكون هذا الموعد قريبًا. وأنا، شخصيًّا، أَودّ أَن يكون قريبًا جدًّا**». وتساءل: «**أَلم يحن الأَوان لمصالحةٍ أَخويّةٍ كاملةٍ لمصلحة التبشير بالإنجيل؟**». وأَعلن البطريرك عن افتتاح حوارٍ لاهوتيٍّ رسميٍّ بين الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة، على مستوًى دوليٍّ.

وعندما عاد البابا، مساء ذلك اليوم، إلى روما، كان صدره يموج «بتأثُّرٍ جمٍّ».

ملامح البابا يوحنّا بولس الثاني

خلال حبريّة البابا يوحنّا بولس الثاني، التي امتدّت على سبعٍ وعشرين سنةً، اكتشف المسيحيّون، الذين كان معظمهم يجهلونه، واكتشف معهم العالم أجمع، رجلاً استثنائيًّا في كلّ مجالٍ: جسديًّا، وإنسانيًّا، وفكريًّا، وأخلاقيًّا، وروحيًّا، رجلاً جامعًا للأضواء، قارنًا من الخصال والفضائل ما يندر اجتماعه في إنسانٍ واحدٍ، بحيث يتعذّر تصنيفه في فئةٍ محدّدةٍ.

لم يكن، فقط، الحبر القادم من بلدٍ شرقيٍّ، بعد احتكار الإيطاليّين لهذا المنصب الرفيع، مدى زهاء خمسة قرونٍ. بل كان، أيضًا، من أصغر الباباوات سنًّا، الذين تسنّموا كرسيّ بطرس، ما فسح له حقل عملٍ رحبًا، ملأه بإنجازاتٍ مدهشةٍ، أهّلته لها مواهبه المتعدّدة، الفريدة، المتكاملة.

في الثامنة والخمسين من العمر، كان قد أبلّ من الهزال الذي أنزلته به سنوات الحرمان، وعناء الدراسة، والجهد الراعويّ الدؤوب، والذي لم يحدّ من آثاره سوى فسحات رياضةٍ على قمم الجبال، حيث يصفو النسيم، ويتجلّى بهاء الخالق.

ولا ريب أنّ حياة التقشّف، وشظف العيش، والنضال، التي ساقها منذ نعومة أظفاره، إلى جانب ممارسة الرياضة البدنيّة، قد تضافرت مع النعمة الإلهيّة، على صوغ تلك الشخصيّة المتينة، المنيعة، الهادئة، الناضجة، المتوازنة، الفذّة، وأهّلته لإنجازاتٍ مدهشةٍ متواصلةٍ، ولأسفارٍ انطلقت به، بلا هوادةٍ، إلى معظم بقاع المسكونة، والتي لم يقوَ على مثلها، أو حتّى على جزءٍ منها، أيّ رئيس دولةٍ.

يوم انتخابه كان ما برح في حميًا نشاطه، وكأنّه إحدى طاقات الطبيعة المدهشة. وقد وصفه الكردينال «إيتشيغاراي» بأنّه «جبليّ اللّه»، نسبةً إلى سكّان الجبال المشهورين بشدّة المراس، ووصفه الكردينال «مارتي» بأنّه «رياضيّ اللّه»، ووصفه آخرون بأنّه «بركان طاقةٍ». كان معاونوه، ومعظمهم أصغر منه سنًّا، يلهثون وهم يجهدون في اللحاق به، وفي التأقلم مع وتيرة عمله التي لا عهد لها بهوادةٍ أو

توانٍ. وقلّما تسنّت لهم مشاهدة حبرٍ أعظم يقرن، في آنٍ واحدٍ، وبقدرةٍ فذّةٍ، كلّ ألوان النشاطات، من كتابةٍ، وخطابةٍ، واستقبال مراجعين، وسفرٍ متواترٍ، وهو، دائمًا، باشٌّ، مرتاحٌ، متدفّقٌ حيويّةً ورشاقةً، منفتحٌ على الجميع.

منذ صباه، كان كادحًا، وظلّ دائبًا على العمل في كلّ مراحل مسيرته، فأنجز ما يذهل. وقد عبّر عن ولعه بالعمل بقوله: «**عندما لا أقوم بعملَيْن معًا، أتعب، وعندما أقوم بعملَيْن يريحني أحدهما من الآخر**». ولطالما كان عمله الآخر الصلاة التي تخصب عمله. وقد قال فيه الأب «بروكبيرجيه»: «إنّ حياته الداخليّة من الكثافة بحيث يبدو أنّه يصلّي باستمرارٍ، مهما فعل، ومهما قال. ولا ريب أنّ هذا ما يمكّنه من فعل كلّ شيءٍ».

ومن المحقّق أنّه كان له في التنظيم داعمٌ منيعٌ لعمله. فهو يتمتّع بحسٍّ تنظيميٍّ فذٍّ، ولا يدع شيئًا للصدفة، ويولي كلّ عملٍ يقوم به اهتمامًا كاملاً، ودقّةً متناهيةً، ويحرص على استغلال كلّ ثانيةٍ من وقته، الاستغلال الأمثل، فيخطّط له مسبّقًا لأسابيع، بل لأشهرٍ. وهو حريصٌ على أداء كلّ عملٍ بكمالٍ.

وقد ضاعف قدراته اختياره لمعاونين متفانين، يتمتّعون بالكفاءة، ويرهقون أنفسهم في مجاراته، ولا يكفّون يتساءلون كيف هو يقوى على الصمود. فقد كانت ربع ساعة راحةٍ تزيل تعب ساعات تصعيده الشاقّ في الجبال، وستّ ساعات نومٍ، بعد يوم عملٍ مرهقٍ، كافيةً لاستعادته كامل طاقاته. لحظات الاستجمام يجدها في المصلّى، أو في حدائق مقرّات إقامته. وعندما تتسنّى له الفرصة، يقصد قمم الجبال.

إنسانيًّا كان غنيّ الشخصيّة، متعدّد الخصال.

فهو **صبورٌ**، لا يني يردّد: «**لست مستعجلاً**». يتأكّد من كلّ خطوةٍ، كما يفعل متسلّقو الجبال، **ويتزوّد بضمانة الصلاة**. وهو يمهّد بالصلاة لكلّ أقواله وأفعاله. كان يؤثر انتظار نضج الأمور قبل اتّخاذ قرارٍ بشأنها، كي يضمن نجاحها واستمرارها، ولا يحمله على التسرّع لا إرضاء موالين، ولا طمعٌ في شعبيّةٍ باطلةٍ. فعلى سبيل المثال، في أثناء زيارته الأولى إلى پولونيا عقب انتخابه، عام

١٩٧٩، طالبه پولونيّون كثُرٌ مندفعون، بالتحدّث، صراحةً، في قضايا سياسيّةٍ، ولكنّه أجابهم: «**ليس الآن. إنّني أفهم جيّداً ما ترغبون فيه. وأنا معكم. ثقوا بي**».

صلب الإرادة، ثابت العزيمة. عندما يؤمن بصواب فكرةٍ، وبواجب تنفيذها، لا يتخاذل، بل يصمد ببسالةٍ، ولكنّه، عند الاقتضاء، يقرن الصمود بالمرونة والدبلوماسيّة.

منفتحٌ على الغير، ولكنّه يقرن الانفتاح **بالخَفَر**، وبالمسافات التي يقتضي منه منصبه مراعاتها. هذا الانفتاح، **وكَلَفه بالإصغاء** إلى الآخرين، عصماه من الانكفاء على ذاته، ودفعاه إلى الخدمة، التي وجد فيها كلّ سعادته. لم يكن من العسير عليه تعرية مشاعر الآخرين، ولكنّه يُبقي مشاعره محفوفةً بالكتمان، تفاديًا لإساءة تأويلها، ولا سيّما أنّه كان يعي أَنّ عيون العالم شاخصةٌ إليه، تترصّد كلّ حركةٍ منه، وكلّ نأمةٍ.

ارتقى إلى أَسمى قمم الفكر والروح، وفي الآن عينه، اندرجت حياته في بساطة السهل، **وتواضعه ووداعته**. فرغم مواهبه الفذّة، لم تراوده رغبةٌ في تكريمٍ، ولم يتطلّع إلى منصبٍ، وكان يدهش، دائمًا، من بلوغه مناصب لم يطمح إليها، ولم يستهدف، قطّ، سوى الخدمة، وبذل الذات والامّحاء.

وهو **طبيعيٌّ**، في كلّ الأحوال، ومع الجميع، مع حفاظه على مهابة منصبه التي توحي بالتجلّة، لا بالرعدة.

وهو **عذب المعشر**، يواجه كلّ فردٍ بدماثةٍ ومودّةٍ، ولا يلمس الآخرون، في عطفه، أَيّ أَثرٍ لتنازلٍ أو رأفةٍ. يحبّ الاختلاط بالناس، ملوّحًا بيديه كلتيهما، ويشعر محدّثه بأنّ لا شيء يعنيه سواه. فكلّ إنسانٍ، له، عالَمٌ بذاته، يعيره كلّ انتباهه، ويصغي إليه بكلّ حواسّه. وعندما يصادف البراءة أَو الأَلم، يتحوّل عذوبةً، ومحبّةً خالصةً.

عامَ ١٩٨٢، عيّن كاهنًا زائيريًّا شابًّا سكرتيرًا ثانيًا له. ومنذ اللحظة الأولى لحظ ذلك الكاهن أَنّ الحبر الأَعظم لا يتصرّف تصرّف رئيسٍ وسيّدٍ عظيمٍ، بل تصرّف أَخٍ أَكبر يحلو العمل معه. ففيما كان السكرتير الأَوّل يدلّه على مكتبه،

قدم البابا، وحيّاه، وباركه، ثمّ اقتاده إلى مطبخه الخاصّ، وقدّمه للراهبات العاملات فيه، قائلاً لهنّ: «**هذا هو أَخوكنّ**»، ومؤكّدًا له أنّه أَضحى أَحد أَفراد العيلة. وقد شهد ذلك الكاهن أَنّه لم يتلقَّ، خلال السنوات التي عمل فيها مع الأب الأقدس أَيّ تأنيبٍ منه، ولم يشهده يغضب من أَداء موظّفين لم يرضَ عن أدائهم، أو من جرّاء أَخطائهم، وأَنّ الأمر الوحيد الذي كان يثير غضبه، أحيانًا، هو عندما يُنكر شخصٌ، يُفرَض فيه أَن يكون مطّلعًا، حقيقةً إِيمانيّةً. وشهد ذلك الكاهن، أيضًا، أَنّ البابا كان دائم الحرص على إِقامة علاقاتٍ طيّبةٍ مع كلّ إنسانٍ، وأَنّه، مع عدم تشجيعه تقبيل خاتمه البابويّ، لم يكن يمنع الراغبين في التعبير عن احترامهم لمنصبه، من تقبيل هذا الخاتم. ولكي يشيع الارتياح لدى الآخرين، كان يجهد في مخاطبة كلٍّ منهم بلغته الخاصّة، كلّما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ولا يسعنا، في هذا السياق، إلاّ إِيراد شهادة خَلَفه، البابا بيندكتس السادس عشر، فيه:

«على امتداد سنوات حبريّته الخمس والعشرين، التقى، شخصيًّا، أَكبر عددٍ من البشر، وحدّثهم، وصلّى معهم، وصافح أَيديهم، وباركهم.

«من شأن منصبه أَن يقيم مسافةً بينه وبين الآخرين. ولكنّ إِشعاع شخصه يجعله قريبًا منهم. فحتّى أبسط الناس، وأَقلّهم ثقافةً، وأفقرهم، لا يعتريهم منه خوفٌ، ولا رهبةٌ، ولا شعورٌ بأَنّه بعيد المنال، أو بما ينتاب من يلجون دهاليز عظماء الدنيا وذوي السلطان. بل هم، حالما يتّصلون به، فكأَنّهم يعرفونه منذ عهدٍ طويلٍ، وكأنّهم يكلّمون قريبًا لهم وصديقًا. ولا يبقى لقب «البابا» مجرّد لقبٍ، بل يضحي تعبيرًا عن تلك العلاقة الصادقة التي يخبرونها معه، حقًّا.

«الجميع يعرفون محيّاه، وحركاته، وطريقة كلامه، وانغماسه في الصلاة، وفرحه الفطريّ، وكلّ ما يميّزه. بعض أَقواله انحفرت حفرًا لا يمّحي في الأذهان، بدءًا بدعوته الملتهبة، التي استهلّ بها حبريّته: «**افتحوا الأبواب للمسيح، لا تخافوا منه...**» ولكأنه ابتغى أَن يفتح، في كلّ مكانٍ، دروب عبورٍ إلى المسيح، ولكأنّه راغبٌ في أن يعبّد، لجميع البشر، طريقًا إلى الحياة الحقّة، وإلى الحبّ الحقيقيّ».

وقد أحكم **السيطرة على ذاته**، فتمكّن من التصدّي لطائفةٍ رحبةٍ من المصاعب والمعضلات بسكونٍ. لم يكن يستسلم لأيّ انفعالٍ طارئٍ. يتألّم، ولكنّه لا يئنّ ولا يبكي. يحمل، بمفرده، عبء العالم، ولا يشتكي، ولا يزعج أحدًا، مودعًا بين يدي الله، وحده، همومه وهواجسه. قلّما تفلت أعصابه، إلاّ في حالاتٍ نادرةٍ، عندما يتعيّن عليه مقاومة ضلالاتٍ خطيرةً، مثل الإرهاب، وانتشار المخدّرات في كولومبيا، وفضائح المافيا في صقلّية، وعندما يتوجّب عليه مناصرة الروحيّ على الدنيويّ، وصون سنن الله التي ينبغي أن تظلّ هي أساس الحياة البشريّة، والتنديد بانغماس كهنةٍ في سياساتٍ بشريّةٍ ضالّةٍ، وشجب الإجهاض، والإفقار، واستغلال الأطفال والإساءة إليهم.

وإنّما كان غضبه، في تلك الحالات، صرخةً في وجه الضّالين، كي يرتدّوا عن ضلالهم، وفي وجه الظالمين كي يرفعوا الحيف عن المقموعين، وكان مؤاساةً للمعذّبين والمبتلين بشتّى ضروب المِحَن، وتعبيرًا عن محبّته لكلّ أولئك، ووقوفه إلى جانبهم، وتذكيرًا بحقوق الله، وحقوق الإنسان الأساسيّة التي تسمو على كلّ اعتبارٍ آخر.

غير أنّ سيطرته على ذاته لم تفقده شيئًا من **عفويّته ورقّة إنسانيّته** ومن مبادراته المدهشة، وعباراته التلقائيّة المفعمة حرارةً، وإنسانيّةً، ومودّةً، ولم تجرّده من روحه الفطريّ، ومن بساطته وتواصله مع الآخرين، ومن قدرته على إشاعة الارتياح في نفوسهم، ومن حيويّته وجاذبيّته.

وكان **صريحًا**، **واضحًا**، فلا تبرّج، ولا مصانعة، ولا تمويه. ولم يقُمْ، يومًا، فرقٌ بين ما يفكّر فيه، وما هو عليه، بين ما يؤمن به وما يقوله. لم يكن، ثمّة، يوحنّا بولس عامٌّ، ويوحنّا بولس خاصٌّ، إذ لم تكن له حياةٌ خاصّةٌ.

كان وفيًّا لأصدقائه، مهما كلّفه الأمر. وحتّى بعد تسنّمه كرسيّ بطرس، ما انفكّ يعامل أصدقاءه القدامى بمثل ما كان يعاملهم سابقًا، بساطةً، وعفويّةً، وودًّا، وانفتاحًا، وروح فكاهةٍ، مع التزامه بمسؤوليّات منصبه. وهو، الذي كدح في معملٍ، فترةً من شبابه، لم ينسَ، يومًا، رفاقه العمّال، ولم يألُ جهدًا في

سبيل الذود عن مصالحهم وقضاياهم، وتأكيد حقوقهم وصونها. غير أنّ وفاءه لم يدفعه إلى الانحياز لأيّة فئةٍ. فقد كان وفيًّا للكنيسة إلى أقصى مقاييس الوفاء، ولكنّه، في الآن عينه، حرص على ألاّ تكون الكنيسة غريبةً عن عصرها وبيئتها. ولذلك عجز كثيرون عن فهمه، ولم يتبيّنوا كم كان مجدّدًا، من غير أن يكون ثوريًّا، فهو إلى جانب الله، دون سواه، وحيثما يجده. ومن العسير العثور على مسؤولٍ في مثل **استقلاليّته**، التي ضمنت سلامة اضطلاعه بمهمّةٍ تتنازعه من كلّ صوبٍ، وتلزمه بقرن الجرأة بالاعتدال، والعمل بالتأمّل، والتفكير الفلسفيّ بالالتزام اللاهوتيّ. فتجلّى **معتدلاً**، **متوازنًا**، في كل قراراته ومبادراته، غير ساعٍ إلى إرضاء فئةٍ دون أُخرى، إلاّ في الحقّ، حريصًا على انتهاج الدرب الذي رسمه له يسوع، متشبّثًا بالحقيقة وحدها.

ومن خصال يوحنّا بولس الثاني البارزة، **طيبته**، التي عبّر عنها بالتسامح والصبر، والعطف. كان يفيض عطف الله على العالم، ولا سيّما على المتألّمين، والمرضى، والمعوزين، والأطفال. الطيبة تشعّ من كلّ كيانه، من محيّاه، وأقواله، ورسالته الراعويّة، وتتغذّى بعلاقته الحميمة بيسوع، التي يودّ أنّ يُشرك بها الأرض كلّها. وكان يحيط كلّ إنسانٍ بالاحترام، ولم يُسمَع، قطّ، يشكو من أيّ إنسانٍ، أو أيّ أمرٍ، ويؤثر الصمت على الإدانة، ويجهد، دائمًا، في اكتشاف صفات مخاطبيه.

وكان **حذرًا**، ولكنّ حذره لم يسلبه ذرّةً من جرأته البطوليّة. وكان اعتماده الكلّيّ على إلهام الروح القدس وأزره، يتيح له المضيّ، دائمًا، قُدُمًا، وصُعُدًا، مدهشًا بكلّ ما يقول ويفعل.

وقد برهن عن **تجرّدٍ** مطلقٍ. فمنذ صغره، أيقن أنّ لا قرب من الله، ولا حبًّا أخويًّا، بمعزلٍ عن التجرّد من الذات. وترسّخ لديه هذا اليقين إثر انتخابه حبرًا أعظم، ما عنى له أنّه لم يعد يخصّ ذاته، وأنّ «أناه» دُفِن إلى الأبد. وكان شعار تكريسه للربّ ولأمّه العذراء: «إني بكلّيّتي لكِ» (Totus Tuus) خير تعبيرٍ عن هذا التجرّد.

وهو، **بتسليم ذاته للربّ**، استطاع قيادة سفينة الكنيسة، ولم ترهبه، يومًا، الأنواء والهزّات المنهالة عليها. فقد كان مؤمنًا بقدرتها على الصمود، وباستحالة غرقها. ولم تبارحه هذه الثقة، في مختلف مراحل مسيرته.

وقد قرن التجرّد **بالفقر**. منذ صغره، حُرِم أعزّ ما لديه، فتقبّل هذا الحرمان طوعًا. ومن خلال دراسته لتعليم الصوفيّ الكبير، القدّيس يوحنا الصليب (St Jean de la Croix)، أدرك عظمة الغنى الروحيّ الكامن في ذلك الفقر. وبقدر ما هو افتقر، أضفى الربّ الخصب على كلّ أفعاله.

ومن أمثلة تجرّده وروح فقره، أنّه لم يتردّد في التبرّع لخَلَفه على رئاسة أسقفيّة كراكوڤيا، بصليبه الأُسقفيّ الذي كان قد تلقّاه من رئيسه وسلَفه الكردينال «ساپييها»، والذي كان قد باركه البابا پيّوس الثاني عشر. ولكي يقلّل من شأن تضحيته، ومن دهشة الحاضرين، قال للأسقف الذي تولّى خلافته: «**أُعطيك هذا الصليب لأنّه مهترئٌ قليلاً**»، مع أنّه كان لذلك الصليب، في نفسه، قيمةٌ عاطفيّةٌ جلّى.

لقد أدرك جسامة رسالته وعظمتها، وفي سبيل تحقيقها بذل ذاته بلا حسابٍ، ومضى، في هذا البذل، إلى آخر الشوط، وإلى ما يتخطّى حدود قواه وطاقاته.

لم يكن له، قطّ، مالٌ خاصٌّ، مكتفيًا بالحدّ الأدنى الضروريّ للعيش، مقدّمًا للآخرين معظم ما يتلقّاه، حتّى حلله الكهنوتيّة والأسقفيّة، وكان يكرّم العذراء بالهدايا الذهبيّة التي تُقدَّم له، ويتنازل عن أشيائه الخاصّة العزيزة، مثل مسابحه، لمن يحبّهم أو يبتغي تكريمهم، أمثال الأُمّ تيريزا، وجان ڤانييه.

مثلما عاش في كراكوڤيا، عاش في الڤاتيكان، في فقرٍ بطوليٍّ، وشظفٍ مطلقٍ، لا يملك شيئًا، ولا يطلب شيئًا، معتمدًا على عناية معاونيه وكرمهم.

وقد رسّخه في الفقر ما شهده من فقرٍ مأسويٍّ في العالم الرابع، ما جعله يتبرّع بخاتمه الحبريّ لعائلةٍ معوزةٍ في البرازيل، مثلما تبرّع لتمثال عذراء فاطمة بالخاتم الذي أهداه إيّاه الكردينال «ڤيشينسكي»، بمناسبة اعتلائه السدّة البابويّة.

عندما عُيِّن كردينالاً، حار أصدقاؤه في ما يُهدونه. واستشاروا، بالأمر، أمين سرّه الذي نصحهم بإهدائه كيس رقادٍ، لأنّ الكيس الذي يستخدمه في رحلاته الجبليّة مملوءٌ ثقوبًا. بادئ الأمر، لم يقتنعوا بأنّ تلك هديّةٌ تليق بكردينال. ولكن سرعان ما اتّضح لهم أنّها كانت الهديّة المثلى.

ولا ريب أنّ إيغاله في **التواضع** كان من أبرز صفاته. والتواضع جعله رقيقًا، رفيقًا بالوضيعين والصغار. فلم يدعِ أحدًا يركع أمامه، يومًا. وفي اللقاءات العامّة الأسبوعيّة، كان يتوقّف، طويلاً، عند صفوف الحضور الخلفيّة، التي تضمّ أشخاصًا عاديّين شبه مُغفلين، ويصغي إليهم، ويردّ على أسئلتهم وتحيّاتهم، ويشدّ على الأيدي الممدودة إليه، ثمّ يمرّ سريعًا بصفوف كبار المدعوّين. ولم يوحِ له منصبه أيّ شعورٍ بالتفوّق.

ولكي لا ينسب لذاته خواطر ساميةً، ولكي لا يزدهي بذكائه الخاصّ، أكثر من الاستشهاد بالإنجيل، وبالقدّيس بولس، وبمقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني.

وهو لم يخفِ، قطّ، معاناة شبابه الذي اصطبغ بالكدح والعَوَز، فرأى فيه العمّال الكادحون زميلاً ورفيقًا، تورّمت يداه، نظيرهم، ونحت وجهه الكدّ، ولوّثه الغبار والقتام المجبولان بالعرق.

عندما كان أسقفًا، لم يتحرّج من الوقوف في طابور المتقدّمين إلى كرسيّ الاعتراف، كلّ أسبوعٍ. وعندما انتُخب حبرًا أعظم، تخلّى عن التاج، وعن الكرسيّ الذي كان يُحمَل عليه الباباوات، واستبدل لقب «بطريرك الغرب» بلقب «خادم خدّام الله». فالتواضع دفعه إلى الخدمة. من والده كان قد تعلّم الخدمة، ومضى في ميدانها حتّى أقصى أشواطها. أصبح «كلاً للكلّ»، ووهب كامل ذاته لخدمة الله، والكنيسة، ورعيّته، والبشر أجمعين، ولمنصبه، ورسالته، إكرامًا ليسوع وحبًّا به.

كانت خدمة الله تحتلّ أولويّة اهتمامه. ولكنّ الله، في نظره، لا ينفصل عن الفقير، والمريض، والجائع، والعطشان، والسجين، والمشرّد.

وكان يجهد في التصاغر أكثر فأكثر، بلا حياءٍ. فذات يومٍ، بعد أن استسلم

لسورة غضبٍ خاطفةٍ، تراجع، وأعلن أمام الجميع: «**كيف أفعل ذلك، وقد اعترفتُ هذا الصباح؟**».

وجعله تواضعه يقبل كلّ شيءٍ من غير أن يتفوّه بكلمة شكوى.

ولا ريب أنّ تواضعه أهّله لعبور باب الملكوت بيُسرٍ، وبترحيبٍ حارٍّ.

فكريًّا، كان يتمتّع بذهنٍ متوقّدٍ، دائم اليقظة. إنّه مفكّرٌ من مستوًى رفيعٍ، يلتهم المعلومات، ويتمثّلها بسرعةٍ، ويستوعب، بيسرٍ، تيّارات الأفكار الجديدة. امتلك ثقافةً واسعةً وعميقةً، وشهد طبيبه أنّه كان يتمتّع بذكاءٍ نفّاذٍ، وقدرة قرارٍ سريعٍ ومحيطٍ بكلّ الجوانب.

مؤلّفاته، ولا سيّما في ميدان الأخلاق والأسرة، كان لها وقعٌ بعيد الأصداء. إنّه فيلسوفٌ في المقام الأوّل، غير أنّه، أيضًا، لاهوتيٌّ متمكّنٌ. وقد قرن، بمهارةٍ، الآداب بالعلوم؛ ومكّنته أسفاره وخبراته من تمعّن فقه التاريخ وعِبَره.

كان مثقّفًا فذًّا، واسع الثقافة وشاملها، و«لا شيء ممّا يتعلّق بالإنسان بعيدٌ عنه». عقد صداقاتٍ وثيقةً مع أعلامٍ في الأدب والفلسفة والعلوم، من أمثال الفرنسيّين: الفيلسوف والأديب «جان غيتّون»، والكاتب الصحافيّ «أندريه فروسّار»، والطبيب العالِم «جيروم لوجون» (Jérôme Lejeune)، وآخرين من جنسيّاتٍ متنوّعةٍ، نذكر منهم «ليوپولد سينغور»، و«ڤاسلاڤ هاڤيل»، و«سولجينيتسين»، وقد أعاد الاعتبار للعالم «كوپرنيك»، وجهد في إِصلاح الخطأ الجسيم الذي ارتُكب بحقّ «غاليليو».

يوم **٢٠٠٠/٥/٢٥**، بمناسبة اليوبيل الكبير، خطب في حفلٍ ضمّ أَلفين وخمس مئة عالِمٍ، قال لهم: «**يا رجال العلم، كونوا بناة رجاءٍ للإنسانيّة. كونوا، في المقام الأوّل، باحثين مندفعين عن الله اللامرئيّ، فهو وحده يستطيع إِرواء تطلّعات حياتكم العميقة، وغمركم بنِعَمه**».

وكان رجل مسرحٍ، فسعد بمشاهدة مسرحيّاتٍ قُدّمت أَمامه في مقرّه الصيفيّ، حيث أَدّى ممثلون قديرون مسرحيّته «حانوت الصائغ». وعُزفت سمفونيّاتٌ رفيعة

المستوى تكريمًا لـ «أَمير الثقافة». وغنّت أَمامه مغنيّاتٌ شهيراتٌ، منهنّ «ميريّ ماتيو» الفرنسيّة، التي خصّها باستقبالٍ خاصّ، وهنّأها بقوله: «**أَنت منشدة الحبّ والسلام... فليباركك الربّ!**».

وكان يشجّع كلّ الفنون، موقنًا «أنّ دور الفنّ هو مساعدة الروح الإِنسانيّ على التسامي إلى منبع كلّ جمال».

وعام **٢٠٠٠**، وجّه «رسالةً إلى الفنّانين»، أَشاد، من خلالها، بالعلاقات المتبادلة بين الفنّ والإِيمان والكنيسة.

منذ شبابه حتّى أَيّامه الأَخيرة، واكبه وَلَع الكتابة. وقد دبّج صفحاتٍ خالداتٍ في شتّى الميادين، من شعرٍ، ومسرحٍ، وفلسفةٍ ولاهوتٍ.

لقد استوعب عمق تيّارات الفكر المعاصر، وتواصل مع الثقافة الحديثة، ولكنّه، في الآن عينه، كان رجل إِيمانٍ راسخٍ، لا يساوم على مبادئ إِيمانه. وكانت أَعماله الفلسفيّة قد أَرست على أُسسٍ وطيدةٍ إِيمانه المسيحيّ.

من المحقّق أنّه لم يُنتخب لأنّه فيلسوفٌ ولاهوتيٌّ، بل لأنّه راعٍ من طرازٍ فريدٍ. ولكنّ الفلسفة واللاهوت سيكونان له عونًا على مواجهة التحدّيات الطارئة، وعلى إِضاءة المشاكل المعقّدة التي سيُدعى إلى حلّها.

وهنا، أيضًا، لا مفرّ من إِيراد شهادة الكردينال «رتسنغر»، الذي خَلَفَه على كرسيّ بطرس:

«يبدو لي أَنّ تدبير العناية الإِلهيّة هو الذي جاء، في زمننا، إلى كرسيّ بطرس، بفيلسوفٍ، لا يمارس فلسفة الكتب، بل تلك التي أَنتجها الجهد الضروريّ بمواجهة الواقع، ولقاء الإِنسان الذي يبحث ويتساءل... وقد ظلّ موضوع فلسفته هو الإِنسان. دفاعه عن حقوق الإِنسان وكرامته، وُلد من خبرته التي عاشها في وطنه، ومن كلّ ما قاساه، ولم يكن مجرّد نظريّةٍ.

«لا يستطيع الإِنسان أَن يجعل من نفسه مركز العالم، فهو يخاف من ذاته، ومن قدراته التدميريّة، إِن هو نأى عن الله. كَلَفه بالإِنسان دفعه إلى فتح الأَبواب

للمسيح. فبفضل مجيء المسيح، فقط، يستطيع بنو آدم أن يصبحوا أَبناء لله، ويتيسّر للإِنسان وللخليقة نيل الحرّيّة. ومن ثمّ فإنّ تركيزه على الإِنسان هو تركيزٌ على الله.

«الإِيمان لا يحول دون التفكير، بل إِنّه يُكسب الفكرَ انفتاحًا، والخبرةَ معنًى. والإِنسان لا يصبح حرًّا بنأيه عن الآخرين، بل باكتشاف مكانه في المحيط الرحب المحيق به...

«رسائله العامّة المشدّدة على سلامة الأَخلاق، لقيت ترحيبًا لدى غير المسيحيّين، أَكثر ممّا لقيت لدى بعض اللاهوتيّين، لأَنّ أُولئك يشعرون حقًّا أَنّ خطر تدمير الوجدان الأَخلاقيّ، على البشريّة، يفوق خطر الطاقة النوويّة، والأَوبئة الصحّيّة».

وقد اعترف اللاهوتيّ الأب «إِيڤ كونغار»، الخبير في المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، الذي عمل مع الكردينال ڤويتيووا» في ذلك المجمع: «لقد خلّف فيّ تأثيرًا نبويًّا، بكاريسماتيّته وبإِشعاعه الذي لا يقاوم».

وشهد اللاهوتي «هنري دي لوباك»: «لقد تأثّرتُ، تأَثُّرًا عميقًا، بمداخلاته. فتفوّقه وانفتاح فكره الرحب يفرضان ذاتهما. لقد تسنّى لي أَن أَسمع في المجمع، أو في ما يتعلّق بالمجمع، أَساقفةً عالي الكفاءة، ولكن، مع «ڤويتيووا»، كان المرء يشعر أَنّه عند مستوًى استثنائيٍّ».

ولا بدعَ إِن أَهّلته مداخلاته المجمعيّة لتبوّؤ رئاسة أُسقفيّة كراكوڤيا، رغم صغر سنّه، ورغم وجود العديد من الأَساقفة الذي يتمتّعون بالكفاءة.

وفضلاً عن خصاله الإنسانيّة والفكريّة، تميّز بمناقب أخلاقيّةٍ فريدةٍ، مبنيّةٍ على حسّ الخير، والطيبة، وحسٍّ مرهفٍ بالواجب.

الأخلاق هي التمييز بين الخير والشرّ، ومناصرة الخير على الشرّ، والسعي إلى تحقيق الخير الأسمى. والبابا يوحنّا بولس الثاني كان يسكنه اليقين بأنّ من خلق الإنسان هو حبُّ الله الذي لا يُسبَر له غورٌ، وأنّ على الإنسان، المخلوق على

صورة الله، أن يعكس هذا الخير على الأرض. فنشَدَ جوهر الإنسان، سبيلاً إلى العثور على الله، وكان هذا النشدان أساس حياته ورسالته. وكان موقنًا أنّ الكاهن هو الذي يمنح الآخرين مصدر الخير، أي يسوع المسيح الذي ضحّى بذاته كي يعيد للإنسان حسّ الخير الذي أفقدته إيّاه الخطيئة.

أمّا حسّه المرهف بالواجب، فقد أكّده، عندما كان كردينالاً، بقوله: «**الواجب هو معنى حياتي وموتي**». والواجب يعني له تنفيذ مشيئة الله، الخير الأسمى، الذي يفوق كلّ إنسانٍ وكلّ شيءٍ، ولا يمكن قياسه إلاّ بمعيار الله الأبديّ، معيار الحكمة، والحبّ، والكلمة، والروح. وبإيجازٍ، يسوع هو هذا المعيار.

وقد أكّد الذين عايشوه أنّه، في إطار هذا الواجب، يصبح شخصًا آخر، خادمًا صرفًا لله وللكنيسة، ولكلّ المؤمنين الذين يكرّس لهم كلّ ذاته. وكلّ ما خلا ذلك، يجب أن يخضع لهذا الواجب المقدّس. وهذا ما أكّده الكردينال «كوتّييه» (Cottier) بقوله: «ومع كلّ طيبته، كان رجلاً فولاذيًّا ملتزمًا. وهو حيث يرى واجبه يصبح شخصيّةً أُخرى».

من المحقّق أنّه ورث هذا الحسّ بالواجب من والده الضابط، الذي لم يكن منضبطًا فحسب، بل طائعًا لله. وهذا الإرث طوّرته، وسمت به تربيته الكهنوتيّة. وقد شهد الجميع على عناده في الحرص على إكمال كلّ شيءٍ بوفاءٍ ومثابرةٍ، رغم ثقل المهامّ التي بهظت كاهله، وهموم كلّ شيءٍ، وكلّ إنسانٍ، هموم لا حدّ لها ولا نهاية، مثلما شهدوا على إصراره ألاّ ينتقص من أيّة مهمّةٍ شيئًا.

ولم يُفقده حسّه الحادّ بالواجب، وسعيه الدائم إلى الكمال، ذرّةً من إنسانيّته، وطيبته، وعطفه، ورفقه. كان سريعًا في إدراك واجبه، ولكنّه متأنٍّ في تنفيذه، وصبورٌ مع كلّ إنسانٍ.

وكان لحسّه هذا أثرٌ بليغٌ على مسيرته، أوجزه الكردينال «كوتّييه» بقوله: «كان لديه إلهاماتٌ كبرى بشأن قضايا الكنيسة والعالم. وكان يستجلي، دائمًا، إشارات العناية الإلهيّة في التاريخ. وهذا ما طبع حبريّته».

وقد برع في استخدام مهاراته الإنسانيّة لاستلفات الاهتمام إلى قضايا خطيرةٍ، أو لحلّ عُقَدٍ مستعصيةٍ، أو لتبديد توتّراتٍ، وإشاعة الطمأنينة في صدرٍ مضطربٍ أو خجولٍ، أو لتذليل عقبةٍ كأداء. فلم يكن يتوانى عن مداعبة أطفالٍ، وممازحة الشبّان، وببسمةٍ أو بكلمةٍ كان يشيع مناخًا من الارتياح، وبفكاهةٍ يتخطّى العديد من الأزمات. وما أكثر الشواهد على ذلك!

ففي إحدى مراحل اعتلاله، أوصاه أطبّاؤه بالسباحة، فاقترح بناء مسبحٍ في مقرّه الصيفيّ، ولكنّ بعض إداريّي الڤاتيكان اعترضوا متذرّعين بكلفة المشروع الباهظة، فأجابهم: «ترى هل كلفة عقد مجمعٍ لانتخاب بابا جديدٍ هي أدنى؟».

واستوضحه صحافيّون عن تفاصيل المداخلات الجراحيّة التي أُخضع لها، في أعقاب محاولة اغتياله، فردّ عليهم بالقول: «**إذا شئتُ الاطّلاع على شؤون صحّتي، وبخاصّةٍ على المداخلات الجراحيّة، فما عليّ سوى مطالعة صحفكم!**».

وفي عام **١٩٨٣**، في نهاية زيارته الثانية إلى پولونيا، حيث كان الصراع محتدمًا بين السلطات ونقابة التضامن، «سوليدارنوش»، عاتبه الجنرال «ياروزلسكي» بسبب ما أدلى به من أقوالٍ ادّعى أنّها تهدّد الاستقرار، فردّ عليه: «أنا لم أفعل سوى سرد بنود دستوركم». ولكم ذهل الشيوعيّون عن بنود دساتيرهم!

وقد استدرجه صديقه، الكاتب الفرنسيّ «أندريه فروسّار»، إلى البوح بالسرّ الثالث من أسرار ظهورات فاطمة، فاكتفى بسؤاله: «**هل تريد أن أسكب لك قليلاً من النبيذ؟**».

وذات يومٍ أطلّ من نافذة الطبقة الثالثة من مقرّه، على جمهورٍ محتشدٍ يحمل لافتةً تدعو إلى التبشير بالإنجيل من فوق الأسطح، فقال: «**أنا لم أصعد، بعدُ، إلى السطح، ولكنّنا، هنا نبشّر قريبًا من السطح**».

وفي أثناء زيارته الثامنة إلى پولونيا، أواخر عام **١٩٩٩**، ظلّت جماعةٌ من الشباب تنتظره حتّى وقتٍ متأخّرٍ من الليل، فخاطبهم: «**كافأكم الله على الصبر المقدّس الذي أظهرتموه تجاه البابا. أرى أنّكم شعبٌ صبورٌ ولطيفٌ. أنا ما كنت**

احتملتُ مثل هذا البابا، الذي عليه أن يحضر ولا يحضر، وأخيرًا يأتي متأخّرًا!».

وبالإجمال، بغيةَ تبديد توتّرات الإرهاق، والهموم الراعويّة، والآلام، كان يحبّ أن يضحك ويُضحك الآخرين.

ومن مبادراته الإنسانيّة الفريدة أنّه، ذات يومٍ، في أثناء احتفالٍ في ساحة القدّيس بطرس، كان قادمًا لاعتلاء مقعده الحبريّ، وهو بكامل زيّه البابويّ، فلمح فتاةً صغيرةً تائهةً، تبحث عن ذويها، فتوقّف وطلب أن يؤتى بها إليه، وأمسك بيدها، وسار معها فوق السجّادة الحمراء، إلى مقعده، وحينئذٍ، أخذها بين يديه، ورفعها عاليًا كي يشاهدها الجميع، فهرع ذووها لاستلامها منه.

بالإجمال إنّ توفيقه بين أضدادٍ على تناغمٍ وتناسقٍ، أكّد تمرّسه بتوازنٍ مدهشٍ، ووحدةٍ داخليّةٍ متينة التماسك، وبصحّةٍ نفسيّةٍ منيعةٍ، وهذه كلّها وفّرت له خصبًا روحيًّا ثرًّا.

ولا ريب أنّ هذه الخصال الإنسانيّة والروحيّة الفريدة، أهّلته لممارسة تأثيرٍ نفّاذٍ، نابعٍ من حضوره ورؤيته الرحبة الآفاق. مجرّد حضوره كان يفعل فعل السحر. وكان يؤمن أنّ جوهر المسيحيّة **حضورٌ**: فالوحي هو إعلانٌ عن حضور الله، والتجسّد هو حضورٌ، والإفخارستيّا حضورٌ، ورسالة البابا تكمن في حضوره. فيوم تنصيبه، كانت كلماته الثلاث الأولى وإطلالته، كافيةً لاستدرار دموع العديد من الدبلوماسيّين. وكلّما نشب خلافٌ كان يجمع المختلفين، وما إن يجلس على رأس الطاولة، حتّى يتبدّد الخلاف بهدوءٍ، مثل غروب شمسٍ ساكنٍ. فقد كان منقطع النظير في استجلاء جانب الحقّ لدى كلّ طرفٍ. كما أنّ نظرته التي ترتحل بيُسرٍ في أمداء الماضي والمستقبل، كانت كفيلةً بإزالة الكثير من أسباب الخلافات ومن الأوهام.

كان يُقنع قبل أن يفتح فاه، لأنّ القوم كانوا يستشفّون قربه من اللامرئيّ، ومن فائق الطبيعة. الإنجيل، والدعوة، والشخصيّة، لديه، تؤلّف كيانًا واحدًا. وهذا **التماسك الداخليّ** الذي وصفه «أندريه فروسّار» بالنوويّ، هو الذي فجّر إشعاعه، وفيه كمن سرّ اجتذابه للجماهير.

لقد فسّر صديقه «مالينسكي» سبب احتشاد الجموع لسماعه، فقال: «لأنّه يعلن الحقيقة. يعبّر بكلماتٍ عمّا يعرفه الجميع، ويفكّرون به، ويشعرون به، ولكنّهم يعجزون عن صوغه في عباراتٍ، وعن إعلانه بمثل دقّته، وصوابه. ربّما هم يفتقرون إلى الجرأة في إعلانه. وهو يسبغ على أقواله أكبر بُعدٍ، وأرجح وزنٍ، لأنّه البابا، أعلى سلطةٍ أدبيّةٍ في العالم».

«إنّه يعلن الحقيقة، ويعبّر عمّا كان القوم يكتفون باستشعاره استشعارًا مبهمًا، ويوضح ما كان ينضج فيهم، ما كان يرقد تحت الرماد ولا يضطرم، ما كان ينبت ولا يزهر. لقد أيقظ وعي كلّ فردٍ، والأمّة كلّها».

وعن تأثيره، قال شابٌّ لمعرّفه: «منذ خمس عشرة سنةً، لم أعترف. مرّاتٍ عديدةً صادفت البابا مارًّا، وباركني. والآن، أُريد أن أستأهل هذه البركة، وأن أُحوّل نهج حياتي».

وقد توغّل في ممارسة التضحية. ومن أقواله: «**الراعي هو من أجل الخراف، وليست الخراف من أجل الراعي. والراعي الحقّ يلتزم بخرافه، ولا يتوانى عن بذل حياته في سبيلها**». وهو، من أجل خرافه، قدّم آلامه، وفرض على ذاته إماتاتٍ كثيرةً، وأصوامًا، وأسهارًا، وروّض ذاته بقسوةٍ. ولكنّه دأب على إخفاء تضحياته. وكان مأكله زهيدًا، وشرابه أشدّ زهدًا.

وكان، دائمًا، **رجلاً حرًّا**. لم يُخِلَّ بالوقار الذي يفرضه منصبه. ولكنّه لم يُحجم عن خرق التقاليد التي كان يعدّها باليةً، غير عابئٍ بنصائح إداريّي الڤاتيكان. ومثلما تمرّد على قيود الشيوعيّين في بلاده، رفض قيود الڤاتيكان التي لم يجد لها مبرّرًا. قال أندريه فروسّار: «إنّ تأكيد حرّيّة الكائن البشريّ الداخليّة، هو جزءٌ من إرث البابا القادم من پولونيا». والكردينال «كوتّييه» (Cottier) صرّح، في حديثٍ تيليفزيونيّ: «إنّ يوحنّا بولس الثاني إنسانٌ حرٌّ. لا شيء فيه مصطنعٌ أو زائفٌ. إنّه يتمتّع بحرّيّةٍ داخليّةٍ كبرى. إنّه حرٌّ لأنّه يؤمن أنّ الحرّيّة المسيحيّة هي ثمرة الإيمان».

حرّيّته انتزعها بقوّة ساعده، بمهارته، وصلواته، وتضحياته، وثقته بالله وبأُمّه

العذراء، وبمثابرةٍ توازي إيمانه الذي لا يتزعزع. وقد صرّح، في هذا السياق: **«الحرّيّة لا تُمتَلك، بل تُكتَسب، وانطلاقًا منها ينبغي أن تُبنى الحياة الخاصّة، والحياة الاجتماعيّة»**.

وحرّيّته هي، أيضًا، وليدة طبعه الجيّاش المكافح، المؤمن بأنّ المرء هو صانع أعماله ومصيره. إنّ ذلك الذي أبى قيود الشيوعيّة، لم يكن ليعنو إلاّ لله، ولواجبات رسالته.

وبذلك نفض الغبار عن البابويّة، وجعلها بمتناول الجميع، وحرَّرها من الجمود الذي نال من مصداقيّتها ومن فاعليّتها.

وحرّيّته الداخليّة مدينةٌ لصلاته العميقة المستمرّة، ولاتّصاله الحميم بالله، اللذين يدفعانه إلى العمل، رغم تردّد المحيطين به، وشكوكهم، ومخاوفهم. فقاوم العبوديّات الحديثة، ونشد التحرّر الحقّ في الله وحده. وهذا ما حداه إلى تخطّي تحذيرات بعض معاونيه، وإلى التنديد العلنيّ بمافيات صقلّية، وبإرهاب عصابات تجّار المخدّرات في بوليڤيا.

ولا جَرَم أنّ مواقفه أكّدت جرأته الأسطوريّة. فشعار بابويّته الأوّل كان: **لا تخافوا**.

الجرأة هي فضيلته الرئيسة. بها ألهب حماس الشبيبة، وأذهل زعماء العالم، واستنفر الجموع المتعطّشة إلى عالمٍ إنسانيٍّ حقٍّ. وقد دعّم جرأته بالتزامه وتصميمه.

تمرّس بالجرأة، منذ صغره، في مدرسة الألم، إذ كان عليه أن يواجه، وحيدًا، قسوة العيش والعمل، والخوف، والهول، تحت الاحتلال. لقد صهره الله في بوتقة المِحَن، منذ نعومة أظفاره، كي يقوى على خوض معارك كبرى. ثمّ لقّنته مِحَنٌ من كلّ لونٍ، وسداد بصيرته، والمحبّة الملتهبة التي صبغت عمله الراعويّ، نبذ الجبن والمساومة، والتسليمَ للقدر المحتوم، وحسرَ القناع عن الحِيَل الإبليسيّة، ومكّنته من الجهر بـ «لا» صريحةٍ، في حين صمت كثيرون أو خنعوا. وقد غذَّت جرأتَه صراحتُه وإقدامُه على مواجهة الأوضاع المأسويّة الملحّة. فلم

يخشَ من الجهر بأنّ كنيسة الصمت قد غدت من مخلّفات الماضي، وحان وقت الإعلان جهارًا، وبقوّةٍ، كلّما اقتضى الأمر، لأنّ «اللغة الخشبيّة»، لغة الخداع، التي تموّه الحقائق ولا تعني شيئًا، ليست لغة يسوع الذي طرد باعة الهيكل، وجلدهم بالحبال.

في ختام زيارته الأولى إلى وطنه، پولونيا، عقب انتخابه على كرسيّ بطرس، صرّح: «**لا بدّ من امتلاك جرأة السير في اتّجاهٍ لم ينهجه أحدٌ حتّى الآن**». ولكأنّه كان يرسم خريطة سيره.

ولكم كانت الكنيسة والعالم في حاجةٍ إلى هذه الجرأة! هذا ما أوضحه الكردينال إتشيغاراي بقوله: «ما كان يلفت فيه هو صلابة قناعاته. في حقبةٍ حيث كانت الكنيسة جمعاء، تواجه القلاقل الناتجة عن عواقب المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، وتصادمات الإيديولوجيات الكبرى، كان هو يجسّد سكون إيمانٍ لا يتزعزع، وبذلك كان يسرّب الطمأنينة إلى أشدّ القوم قلقًا».

وقد تجلّت جرأته في عدم إحجامه عن استقبال أيّ زعيمٍ سياسيٍّ يطلب مقابلته، أيّةً كانت الاعتراضات والتحذيرات والانتقادات المتوقّعة، ما جعل الكردينال «سيلڤستريني» يقول: «حتّى لو طلب منه الشيطان مقابلةً خاصّةً لاستقبله». ومن المعروف أنّه استقبل، مرّاتٍ عديدةً، ياسر عرفات الذي كان الإسرائيليّون يصفونه بالإرهابيّ، ولم يتوانَ عن استقبال الرئيس النمساويّ «كورت ڤالدهيم»، الذي اتّهموه بالضلوع في النازيّة.

فالمبادئ التي كانت هاديه: الحرّيّة، والحقيقة والحوار.

وكم لزمه من جرأةٍ كي يذود عن الحقيقة الإنجيليّة، ضدّ مروّجي الأضاليل، وليواجه إرهاب السلاح، وليتصدّى لديكتاتوريّي أميركا الجنوبيّة، وليدرأ حربًا وشيكةً، وليصارع، وحيدًا، الإمبراطوريّة السوڤييتيّة، ولكي يتخطّى مِحَن المرض والشيخوخة!

جرأةٌ في كلّ ساعةٍ، وجرأةٌ في إنفاق ليالي تهجُّدٍ وصلاة، جرأةٌ لا عهد لها بفتورٍ أو تراخٍ، حتّى في أكثر الظروف تأزّمًا وصعوبةً؛ يتألّم ولا يقنط، في

حرصٍ على مقاومة «روح العالم»، وتحقيق الرسالة التي يقتضيها الله، حتّى نهاية الشوط.

لقد كرّس ذاته لمريم، فنبذ الخوف. وكلّما أشفت البشريّة على الغرق، شدّ بيده على يد أُمّه العذراء، وبذهنٍ باردٍ، ساكنٍ، وبيدٍ حازمةٍ، أدار دفّة الكنيسة، ودفّة البشريّة.

جرأته هي تعبيرٌ عن صفاء بصيرته، وتصميمه على تحقيق ما يرى فيه مهمّةً إلهيّةً، وعلى رغبته في أن يحتذي الرعاةُ مثالَه.

ومن المحقّق أنّ ما أفرغ الخصب على خصاله، هو أنّه لم يحجم، يومًا، عن فعل ما كان يقوله ويؤمن به، وممارسته لتلك الخصال في حياةٍ روحيّةٍ كثيفةٍ، أضفت عليها طابع السموّ والقداسة. لقد وعظ بقدوة سلوكه، فكان لوعظه تأثيرٌ بليغٌ.

ولا ريب أنّ من ميزاته البارزة **كَلَفه بالشبيبة**، الذين لم يكفّ يقول لهم: «**أنتم أمل الكنيسة... أنتم مستقبل العالم...**». حيثما ذهب كان يرغب في التقائهم، وهم كانوا توّاقين إلى رؤيته والاستماع إليه. كان يدعوهم إلى «خدمة الربّ بفرحٍ»، ويبثّهم الرجاء والعزيمة، وهم كانوا ينجذبون إليه.

عن الشبيبة قال: «**إنّهم يحملون طاقات خيرٍ وخلقٍ جسيمةً، عندما ألتقيهم، أينما كنت في العالم، أتيقّظ لما يرغبون في قوله لي عن أنفسهم، وعن مجتمعهم، وعن الكنيسة. وأقول لهم: إنّ ما يهمّني، في المقام الأوّل، ليس ما سأقوله لكم، بل ما ستقولونه أنتم لي، ما لا تقولونه بألسنتكم فقط، بل، أيضًا، بحضوركم، وأغانيكم، ورقصاتكم، وحركاتكم، وبالإجمال بحماسكم. نحن بحاجةٍ أساسيّةٍ إلى حماس الشبيبة، وإلى فرحهم بالحياة، اللذين يواصلان فرح الله الأصليّ عندما خلق الإنسان. والشبّان يتلمّسون هذا الفرح في داخلهم... كلّما تقدّمتُ في العمر، تحرّضني الشبيبة على البقاء شابًّا**».

«**الشبيبة تنشُد الله، وتنشُد معنًى للحياة، تنشد إجابةً صحيحةً على سؤالهم: «ما الذي يتوجّب عليّ فعله لكي يكون لي نصيبٌ في الحياة الأبديّة؟»**».

«**ينبغي أن تعرف الشبيبة الكنيسة، وأن تكتشف فيها المسيح الذي يسير، عبر**

القرون، مع كلّ جيلٍ، ومع كلّ كائنٍ بشريٍّ. إنّه يسير مع كلٍّ منّا. ويا لها من لحظةٍ حاسمةٍ في حياة الشابّ، عندما يترسّخ لديه اليقين بأنّ يسوع هو الصديق الوحيد الذي لن يُخيِّب رجاءه أبدًا، الوحيد الذي يسعه الاعتماد عليه في كلّ حين!».

وقد عرّف البابا يوحنّا بولس الثاني مرحلة الشباب بأنّها: «**تجدّدٌ فكريٌّ دائمٌ، وبحثٌ مستمرٌّ عن الخير، وجهدٌ دائبٌ نحو الأفضل، وإرادة عطاءٍ ثابتةٌ**...». وأضاف: «**يجب أن ينتصر يسوع المسيح. فكلّما لجمت نعمته قدرات الشرّ فينا، يجدّد، هو، شبابنا، ويوسّع آفاق رجائنا، ويدعّم طاقات ثقتنا**...». ومن أجل بلوغ النصر، دعاهم إلى تحطيم حواجز الخوف: «**ثقوا بنعمة الربّ التي تصيح فينا، ومن أجلنا، تشجّعوا. الربّ هو الذي سيقهر العالم. فهل تريدون أن تكونوا أعوانه، وأن تخوضوا معه معركة الحبّ، برجاءٍ لا يُقهَر، وشجاعةٍ تتحدّى كلّ امتحانٍ؟ ولن تكونوا وحيدين. فالجميع يساندونكم، مع البابا الذي يحبّكم ويبارككم!**».

أقوالٌ تنبض بنبرة من اختبر الجرأة والرجاء في وطنه، وبفضلهما أنجز معجزاتٍ.

حتّى المعاقون كانوا أثيرين لدَيه، وهم كانوا يلمسون حبّه. فذلك الأُستاذ في الفلسفة واللاهوت كان بارعًا في استنباط العبارات والمبادرات التي ينفذ بها إلى قلوبهم.

وكان قداسته يتذوّق متعةً خاصّةً في التقاء **الأطفال** ومحاورتهم. وبما أنّ القاعات المخصّصة للّقاءات الجماعيّة، أيّام الأربعاء، من كلّ أُسبوع، أضحت عاجزةً عن استيعاب الأعداد الهائلة من المتدافعين، فقد قرّر أن يستقبل، على انفرادٍ، الأطفال، داخل كاتدرائيّة القدّيس بطرس، حيث كان يحتشد بضع مئاتٍ منهم، كلّ أسبوعٍ، وهم يضجّون بهجةً بذلك البابا الذي يبتسم لهم، ويقبّلهم، ويحادثهم، ويفهمهم، ويؤكّد لهم أنّه أبٌ لهم، فيرتاحون إليه. واتّفق، ذات يومٍ، أن شاهد أحدهم، وقد سالت الدموع على وجنتيه، فمال عليه، واستوضح عن اسمه وعمّا به، فقال له الفتى:

- «هل تعرف أنّني فقدت أبي منذ بضعة أيّامٍ؟ ولكن إن كان صحيحًا أنّك

أنت أبي، فسيخفّ شعوري بالوحدة. فهل صحيحٌ أنّك، أنت، أيضًا، أبي؟»

فمسح البابا دموعه، وضمّه بحنانٍ، وقال:

– «**أجل، يا ماريو، أنا أيضًا أبوك، أنا لك خاصّة**».

وبسبب ما كانت تحدثه تلك اللقاءات الأسبوعيّة من هرجٍ، اضطرّ البابا إلى أن يقول، يومًا: «**غالبًا ما قيل لي إنّه، في أثناء هذه اللقاءات العامّة، البابا يتكلّم، والجميع ينصتون إليه. ولكنّني أرى أنّ ما يجري هو نقيض ذلك، فالجميع يتكلّمون، والبابا هو الذي يصغي... أودّ أن أؤكّد لكم أنّني أفهم قضاياكم، ومصاعبكم، وأرغب في مواكبة مسيرتكم**».

على غرار معلّمه، دعا الأطفال أن يأتوا إليه، فتراكضوا صوبه، ولهوا معه ببراءتهم العذبة، وما أكثر الروايات في هذا الشأن!

واتّفق، يوماً، في أثناء زيارةٍ له إلى مدينة ميونيخ الألمانيّة، أن أفلت من حرّاسه، واختلط بثلّة أولادٍ، وسرعان ما دار بينه وبينهم الحوار التالي:

«– هل أنتم سعداء بوجود البابا هنا؟

– نعم

– لأنّ ذلك يوفّر لكم يوم عطلةٍ مدرسيّةٍ؟

– (بخجلٍ): نعم.

– وهل ترغبون في أن يعود البابا؟

– نعم.

– (البابا، ببسمةٍ أبويّةٍ، وغمزةٍ متواطئةٍ): وهكذا ستنعمون بيوم عطلةٍ إضافيٍّ!».

روحانيةٌ كثيفةٌ وجهدٌ نحو القداسة

في روما واصل يوحنّا بولس الثاني التصعيد الروحيّ الذي باشره في كراكوفيا، تسكنه وتحدوه قناعة واجب تسنُّم أسمى القمم الروحيّة، على كلّ

صعيدٍ، وفي كلّ لحظةٍ. تلك كانت مسؤوليّته، حيال الكنيسة، وحيال التاريخ. فجهد في بلوغ قداسةٍ، قائمةٍ على توازن الكمال الإنسانيّ والانغماس الكلّيّ في النعمة، مستثمرًا فضائله اللاهوتيّة، التي دعمتها الصلاة والإفخارستيّا، والحرص على الخدمة الكهنوتيّة الموكلة إليه.

وبما أنّ سلفه، يوحنّا بولس الأوّل، كان قد باشر، في الفترة القصيرة التي فُسحت له، تذكير المؤمنين بالفضائل اللاهوتيّة، فقد تابع هذا التذكير، جاعلاً منه لا تثقيفًا فكريًّا فحسب، بل توجيهًا للحياة كلّها.

وكان **إيمانه** الذي تغذّى بتساؤلات شبابه، التي جهد في إيجاد أجوبةٍ عليها، وتقوّى بتخطّيه المِحَن القاسية المتمثّلة بفقدانه كلّ أفراد أُسرته المحبوبين، ما انفكّ يكتسب مناعةً من خلال نضاله البطوليّ، وفي بوتقة الآلام. كان له الإيمان نعمةً تمسّ القلب، وكان معرفةَ الله، وحبَّه، والمساهمة في عمله. وقد قال طبيبه، إثر مراقبته في مِحَنه المتلاحقة القاسية: «كان إيمانه فولاذيًّا، ونفسًا تمتزج فيها الرومانسيّة البولونيّة والصوفيّة السلافيّة».

وكان **الرجاء** مفتاح تفسير كلّ حبريّته. ومن أولى نداءاته إلى المؤمنين كان قوله: «**ادخلوا في الرجاء!**». وكانت أهوال الحروب التي قاساها مع مواطنيه، قد رسّخت رجاءه، وزاده رسوخًا قول الرسول بولس: «**المسيح رجاؤنا**»، وإيمانه بأنّ عليه أداء حسابٍ عن الرجاء الذي يسكنه.

وقد أعدّته العناية الإلهيّة كي يكون رسول الرجاء، بتصدّيه لأنظمةٍ لاإنسانيّةٍ، تدعو إلى القنوط، مثل النازيّة والماركسيّة، ولفلسفاتٍ عدميّةٍ تدمّر عظمة الكائن البشريّ. هذا التصدّي جعله ينادي بحضارة **المحبّة** التي تشرع أبواب الرجاء.

ومنذ خطابه الحبريّ الأوّل، أعلن: «**سأكون شاهد الحبّ الشامل**». كيف لا، والمحبّة تشعّ من كلّ كيانه، ومن كلّ سلوكه، إشعاع شمسٍ مشرقةٍ. وبقدر ما كان صارمًا بشأن سلامة العقيدة، والمبادئ الأخلاقيّة، كان مشرع القلب، باسط الذراعين.

ولا مراء أنّ ممارسته الحيّة لهذا الثالوث من الفضائل، ألهب لديه حرارة اتّصالٍ

مضطرمةً، تنبئ بحياة الروح القدس المشعّة منه، واندفاعًا رقيقًا، هادئًا، ولكنّه قويٌّ ومؤثّرٌ، يتجلّى من خلال كتاباته وأقواله، ما زوّده بصفات القادة الكبار، وبتأثيرٍ هائلٍ يدعو إلى التمثّل به، وإلى التصعيد، في إثره، وبلا هوادةٍ، على **معارج القداسة**.

وفي الواقع قال الكردينال «كوتّييه»: «كان ينبعث منه شعورٌ بالقداسة، وبحضورٍ مدهش». ولطالما فتنته القداسة، وزاده كَلَفًا بها مثال والديه، ومرشد شبابه الروحيّ «يان تيرانوڤسكي»، والقدّيسين الذين احتلّوا من نفسه مكانةً أثيرةً: يوحنّا الصليب، وخوري أرس، ومواطنته «فوستين كوڤالسكا»، الذين التزموا بمقتضيات قداسةٍ صارمةٍ.

وهو، عملاً بشعاره «**كلّي لكِ**»، قد وظّف، في سعيه إلى القداسة، كلّ كيانه، بلا تحفّظٍ، متطلّعًا، دائمًا، إلى القداسة القصوى. وعندما أُطلق عليه لقب «الأب الأقدس»، صمّم على بلوغ القداسة الأرفع سموًّا، واضعًا نُصب عينيه هدفًا مزدوجًا: تلبية دعوة الربّ إلى الكمال، وتفادي كلّ كبوةٍ قد تعني نكرانًا، مثل كبوة بطرس. فأسلم قياده للربّ، غير ملتفتٍ، يومًا، إلى الوراء، مشدودًا إلى الأمام على حدّ قول الرسول بولس، حريصًا على إشعاع مثال القداسة القصوى.

وقد وصف القداسة بأنّها: «**علاقةٌ حميمةٌ بالله، وتمثّلٌ بيسوع، وحبٌّ للنفوس لا تحفّظ فيه، وبذل الذات من أجلها، ومن أجل الكنيسة المقدّسة**». كان قد اتّخذ من القداسة هدفًا لحياته. وبعد أن تبوّأ كرسيّ بطرس، أعلن أنّ رسالته، هي المضيّ قُدُمًا في تقديس ذاته، وتقديس الآخرين. وانصبّ كلّ جهده على تحقيق هذه الرسالة. ودأب على حضّ الجميع، وبخاصّةٍ الكهنة، على السعي نحو القداسة.

لازمه الشعور بأنّه، بصفته وكيل يسوع على الأرض، يتحتّم عليه عكس صورته. وشعر كثيرون ممّن عملوا إلى جانبه، بإشعاع الله منه، وبدافع التمثّل به وبقداسته، ونصاعته. وقد شهد أحد المقرّبين منه، أنّ قداسته كانت تقدّس كلّ ما ومن تلمسه.

انغماسٌ في الصلاة والتأمّل

ولم تكن قداسته ثمرة خصاله، وفضائله فحسب، بل كانت للصلاة اليد الطولى في صنعها، وإلهامها وإحيائها. ولا مراء أنّ ما أولاه للصلاة من أولويّةٍ، هو الذي يفسّر سرّ شخصيّته.

قال الكردينال «ڤيشينسكي» عنه: «من شخصيّة ذلك الفيلسوف وأُستاذ الأخلاقيّات الفذّ، تشعّ الصلاة في كلّ لحظة». وهو نفسه اعترف: «**مع أنّني لم أُدعَ إلى الحياة التأمّليّة، إلاّ أنّني تحوّلت إلى الحياة الداخليّة. وعلى امتداد مسيرتي، واكبني الشعور بعظمة شأن الصلاة، وجوهريًّا، بضرورة الصلاة التأمّليّة من أجل كلّ نشاطٍ يتعلّق بدعوتي...**». وربّما كان شعورٌ سائدٌ بأنّ العالم بحاجةٍ إلى حبرٍ أعظم ممعنٍ في الورع، يكون أبًا لمجتمعٍ متديّنٍ، هو الذي حدا إلى انتخابه على رأس الكنيسة.

كان دائمًا غارقًا في لجّة الله، حتّى وهو في غمرة نشاطه بين البشر، ويشيع انطباعًا بأنّ نفسه سابحةٌ في مكانٍ آخر يستمدّ منه القوّة والإلهام.

منذ انتخابه أعلن: «**الصلاة هي واجب البابا الأوّل، ورسالته الأولى، والدليل الأوّل على حرّيّة الإنسان وحقيقته**».

كان قد مضى على انتخابه أُسبوعان، عندما حجّ إلى مزار «سيّدة النعم» في «مينتوريلاّ» (Mentorella)، حيث أعلن:

«**إنّ الكنيسة تصلّي؛ إنّها راغبةٌ في الصلاة، وفي وقف ذاتها على خدمة العطيّة الأوفر بساطةً وروعةً، والتي تتجلّى في الصلاة.**

«**تريد الكنيسة أن تكون على مقربةٍ من الإنسان، كلّ إنسانٍ، ولا سيّما الفقراء والمتواضعين. إنّها تريد أن تكون على مقربةٍ من الإنسان، أيًّا كان، وحيثما يكون.**

«**الكنيسة تصلّي، وتريد أن تصلّي، لكي تكون مصغيةً إلى الروح القدس، ولكي يستطيع الروح أن يتكلّم معنا، وفينا، بتأوّهاتٍ لا توصف، باسم الخليقة جمعاء...**».

مواضيع صلاة البابا: فرحٌ، ورجاءٌ، وأحزان أبناء هذا الزمان وضيقاتهم.

فالإنجيل هو تعبيرٌ عن فرح الخليقة، وهو بشرى، والبشرى هي دعوةٌ إلى الفرح لأنّها إعلان حقيقة الله، والله حبٌّ دفعه إلى بذل ابنه الوحيد لكي تكون للإنسان الحياة الأبديّة.

والبابا هو خادم البشرى، وهو رجل الفرح والرجاء، ولكن ليس فرحه ساذجًا، ولا رجاؤه باطلاً. فرحه هو فرح انتصار الخير على الشرّ، الشرّ المتغلغل إلى أعماق الإنسان، المنتشر في العالم، والذي يدعو الربّ إلى قهره بالخير، بمعونة الصلاة، وانتهاج الدرب الوعر.

إنّ لصلاة البابا بُعدًا خاصًّا. فبما أنّه يحمل، في قلبه وذهنه، همّ جميع الكنائس، فهو، بالصلاة، يحجّ، كلّ يومٍ، إلى كلّ أرجاء العالم، ويبسط بين يدي الله كلّ الأفراح والآمال، وكلّ الآلام والهواجس، التي تقتسمها الكنيسة مع البشريّة جمعاء.

تصلّي الكنيسة لكي يتحقّق مشروع المسيح الخلاصيّ، ولكي تستطيع النهوض بالمهمّة التي أوكلها إليها الربّ. والكنيسة والبابا يصلّيان، لكي يلبّي كلّ إنسانٍ دعوته، وينهج الدرب الذي دُعي إلى انتهاجه. ويصلّيان من أجل المتألّمين. إنّ الألم هو مشاركة يسوع آلامه الخلاصيّة. ولكنّ تقبّل الألم على هذا النحو، يستلزم إلهام الروح القدس، الذي يُستدعى بالصلاة.

وبالصلاة يتغلّب الخير على الشرّ، وعلى كلّ المظالم البشريّة.

والكنيسة تصلّي من أجل المتوفّين، لأنّها تحيا على رجاء الحياة الأبديّة، الذي تؤكّده قيامة يسوع، التي تشهد على صدق وعد الربّ بالخلود والحياة الأبديّة، لكلّ إنسانٍ.

قال أحد عارفي البابا: «أمست الصلاة تنفّس روحه، ووتيرة خفقات قلبه، وكانت طبيعة كيانه. كان على اتّحادٍ فائق الطبيعة بالله، كان صوفيًّا، وعندما شاهدته مصلّيًا، سبرتُ عمق اتّحاده بالمسيح». «منذ الصباح الباكر حتّى ساعات النهار الأخيرة لم يكن يكفّ عن الصلاة».

كان يمارس صلاةً ظاهرةً يشهدها المؤمنون ويشاركونه إيّاها، وصلاةً صامتةً خفيّةً يستغرق فيها دائمًا، هائمًا، بلا انقطاعٍ، في مناخها. واصطبغت صلاته بكلّ لونٍ، من عبادةٍ، وتأمّلٍ، وتوسّلٍ، وشكرٍ. وقد رفدت المعاناة صلاته، وأكسبتها مزيدًا من جدوى.

المسبحة لا تبارح يده، أينما كان، حتّى وهو معتلٍ منبر الأمم المتّحدة. وقد يذوب في الصلاة بحيث يُخيّل لمراقبيه أنّه مستسلمٌ للسبات.

وقد شهد كردينالٌ عمل إلى جانبه: «ما أدهشني هو كثافة صلاته. فهذا البابا المتدفّق ديناميّةً ونشاطًا، هو، في المقام الأوّل، رجل صلاةٍ. نهاره كلّه مشبعٌ بالصلاة».

لقد أقام معادلةً بين الرسالة والصلاة، فلا صلاة بلا رسالةٍ، ولا رسالة بلا صلاةٍ. الصلاة له حاجةٌ حيويّةٌ، وموعدٌ مع الربّ، وهو، في هذا الحوار الصامت، يتلاشى، بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وبمشقةٍ ينتزع ذاته منه، ما جعل الكردينال پوپار يصفه بأنّه «بئر صلاةٍ».

حياته كلّها، وكلّ ما يفعله صلاةٌ، والصلاة روّضت كلّ أفعاله.

نهاره يستهلّه بتلاوة المسبحة في غرفته، ساجدًا على الحضيض، باسطًا ذراعيه على شكل صليبٍ، ويتأهّب للقدّاس بتأمّلٍ طويلٍ في مصلاّه الخاصّ. ثمّ يركع أمام الهيكل، ويستلّ من مركعه لائحةً بالنوايا التي يُطلَب منه الصلاة لأجلها، أعدّها لها معاونوه. وبعد القدّاس يعود إلى مركعه، حيث يقضي لا أقلّ من عشرين دقيقةً شاكرًا، متأمّلاً، داعيًا. وفي أثناء النهار، تسبق الصلاة كلّ مقابلةٍ هامّةٍ، ويُعدّ لكلّ قرارٍ بصلاةٍ مستفيضةٍ؛ وعلى امتداد ساعات النهار، يتلو كامل المسبحة الورديّة، ويملأ كلّ ثانية فراغٍ بالصلاة. وقبل إخلاده إلى النوم، ليلاً، يعود إلى مصلاّه، حيث يمضي فترة تخشّعٍ طويلةً، مفرغًا كلّ همومه وأعبائه، بين يدي ربّ القوّة، والرحمة والعزاء، مؤمنًا أنّ «**صلاة الراعي تدعم القطيع**». فكانت صلاته تعبيرًا عن وَلَهه بالله وبالبشر.

ورغم زحمة مشاغله، جعل مقرّه منسكًا، حيث لا يسهب في الكلام إلاّ مع

الله. يصلّي في كلّ وقتٍ، وكلّ مكانٍ، وخاصّةً عندما تحلّ النوازل والأزمات والكوارث، وتحدق بالعالم الأخطار، مستعينًا بشفاعة القدّيسين، ولا سيّما أولئك الذين طوّبهم. وعلى غرار القدّيسة «فوستين»، كان يستطيع القول: «**يا ربّ، إنّي أضمّ العالم كي أقدّمه لرحمتك**».

كان يحمل، دائمًا، فعل تكريسٍ لقلب يسوع، مكتوبًا بخطّ يده، ومطويًّا على شكل تميمةٍ. ولا ريب أنّ قدرته الفريدة على التركيز كانت تحميه، إلى حدٍّ كبيرٍ، من شرود الذهن.

وقد صرّح أحد معاونيه: «لأجل معرفة من هو، حقًّا، يوحنّا بولس الثاني، يجب مشاهدته وهو يصلّي، وخاصّةً في حميميّة مصلاّه الخاصّ».

ومن المحقّق أنّ الإفخارستيّا هي نبع صلاته وزبدتها، وهي مركز حياته الكهنوتيّة، ونشاطه الراعويّ. لقد صرّح: «**إنّ فعل كلّ يومٍ الأساسيّ هو القدّاس الذي يمثّل ملخّص الصلاة الأكمل، وصُلبُ لقاء الله، من خلال يسوع. إنّ خبرة ثلاثين سنة كهنوتٍ علّمتني أنّ بلوغ هذه القمّة، وهذا الملء، يقتضي الدخول من باب الصلاة، والخروج من باب صلاة النهار كلّه**».

لقد سكنه اليقين بأنّ «**الاحتفال بالإفخارستيّا هو أسمى مهامّ الكهنة وأكثرها قدسيّة**». هذا السرّ كان ركيزة كهنوته، وما انفكّ كَلَفُه به يتعاظم مع الأيّام، واكتسب مزيدًا من العظمة والعمق، في حبريّته. وقامت بين كهنوته والإفخارستيّا علاقةٌ يتعذّر وصفها. ولطالما كتب عن عظمة هذا السرّ، وحدّث عنها الكهنة كلّما التقى بجماعةٍ منهم. وكان عهده من أكثر العهود تمجيدًا للإفخارستيّا، في تاريخ الكنيسة، فاستحقّ لقب «بابا الإفخارستيّا».

لقد استمدّ كلّ طاقاته الرسوليّة من حضور الله الفعليّ في الإفخارستيّا. وصرّح، هو نفسه: «**إنّ القدرة على تجديد نعمة الكهنوت، بلا تحفّظٍ، تُستمَدّ من التأمّل اليوميّ أمام خباء القربان، حيث من هو قوّتنا، وسندنا، حاضرٌ فعلاً. خباء القربان هو مدرستنا الأبديّة التي تعلّمنا إعادة نظرٍ دائمةً، هو مدرسة حبٍّ، وتضحيةٍ، وديناميّةٍ راعويّةٍ... طيلة سنوات كهنوتي الخمسين، ما انفكّ الاحتفال بالإفخارستيّا**

هو اللحظة الأجلّ شأنًا، والأسمى قدسيّةً... إنّ الذبيحة المقدّسة هي، على الإطلاق، مركز حياتي، وكلّ يومٍ من أيّامي...».

ولطالما ذكّر الكهنة أنّ الإفخارستيّا هي علّة الكهنوت، ومنبع خصبه: «**في ثنايا الإفخارستيّا يجد الكاهن خصب كهنوته الأقصى. وعلى الكاهن أن يضع في مركز أفكاره وبرامجه، لا ذاته ومخطّطاته البشريّة، وتطلّعاته، بل هو، يسوع، حياة حياتنا، وإلاّ أضحى غصنًا جافًّا، وجرسًا لا صوت له**»!

ولا ريب أنّ أروع ما كتبه يوحنّا بولس الثاني، إنّما كتبه راكعًا أمام خباء القربان.

كان يتأهّب للقدّاس بتأمّلٍ طويلٍ، كثيفٍ، قد يستغرق فيه بحيث يضطرّ أحد معاونيه إلى تذكيره بأنّ وقت الشروع بالذبيحة قد حان. وفي هذه اللحظات يتوسّل الله أن يساعده لكي يكون صورةً له في عيون المؤمنين. ويقيم القدّاس بتأنٍّ، ووقارٍ، ولكن ببساطةٍ، وبمنأًى عن كلّ تظاهرٍ وتمثيلٍ؛ وغالبًا ما يجهد في التغلّب على الأوجاع والأمراض، لكي يظلّ مشيعًا حضور الله، بأبهى صورةٍ. وقد شعر الكثيرون ممّن التقوه بحضور الله هذا، ولمس الذين شهدوه يصلّي مدى غرقه في الله، وارتحاله إلى عالمٍ آخر. واستحوذ عليهم اندفاعٌ إلى التمثّل به، واللحاق به في عالمه الرائع الفائق، والاستحمام في مناخه العلويّ.

وقد لحظ كثيرون نورًا ينبعث منه. وشهد بعضهم بمعجزاتٍ جرت بشفاعته. ولكن كم من التحوّلات النفسيّة التي أحدثها مثال صلاته! ولكم درأت صلواته من شرورٍ وكوارث، أو خفّفت من عواقبها الوبيلة!

لقد حمل عبء الكنيسة والعالم، مدى ربع قرنٍ، وضاعفت ثواب صلاته وثمارها كتلة الآلام التي تحمّلها راضيًا، فرِحًا، مساهمًا في فداء يسوع.

وقد شهد الكردينال «پوپار» (Poupard) في هذا السياق: «عندما أكون على مقربةٍ وثيقةٍ منه، في أثناء مشاركته الاحتفال بالإفخارستيّا المقدّسة، لا يسعني إلاّ تبيّن وهنه الجسديّ، والشعور به: وحينئذٍ يستحوذ عليّ انطباعٌ حادٌّ بأنّني أمام الخادم المتألّم، خادمٍ لا يمكن مقاومته. ويجول في خاطري قول القدّيس

إيريناوُس: «إنّنا نحمل هذا الكنز في أوانٍ خزفيّةٍ، ولا ينفكّ السائل الذي تحتويه ينفث فينا شبابًا».

لقد أولى يوحنّا بولس الثاني، كهنوته أهمّيّةً كبرى. وقد سبق لنا إيراد إعلانه، عام ١٩٨٠، أمام مئات ألوف الشبّان: «**إنّي، منذ سنتين بابا، ومنذ أكثر من عشرين سنةً، أُسقفٌ، ولكنّ الأهمّيّة الكبرى لي هي كوني كاهنًا**». وقد اتّسم إعلانه هذا بقناعةٍ، وبساطةٍ، وصدقٍ، كان لها أبلغ تأثيرٍ في نفوس مستمعيه.

وليس الكهنوت له نظريّةً، بل هو خبرةٌ تعاش على ضوء المسيح، الكاهن الأوحد. لقد اقتدى بمثال كهنةٍ قدّيسين كُثُرٍ أمثال: ستانسلاس، وبورّوميه، وغرينيون دي مونفور، وكولبي، والكهنة الذين واكبوا نشأته ودعوته، غير أنّ مثاله الأعلى كان «جان ماري ڤيانّي»، المعروف بـ «خوري أرس».

لقد سكنه اليقين أنّ ما من كرامةٍ أسمى من كرامة الكهنوت، فهو مواصلة رسالة المسيح، حتّى بذل الذات. وآمن أنّ الكاهن هو مسيحٌ آخر، مدعوٌّ إلى أسمى قداسةٍ، وإلى أن يكون ملح الأرض، ونور العالم، وأن يشعّ بكلّ الفضائل. وعليه أن يتجرّد من كلّ شيءٍ، كي يكرّس حياته لرسالة الخلاص، ولخدمة الأسرار، وللتبشير بالكلمة، ولإنعاش روحانيّة المؤمنين وتقواهم.

وقد عبّر عن رؤيته إلى رفعة الكهنوت، من خلال خطابٍ وجّهه إلى كهنةٍ، قال فيه:

«أيّها الإخوة، ينبغي أن نشكر للمسيح، ونحن راكعون، نعمة دعوته لنا إلى الكهنوت. ينبغي أن نحبّ كهنوتنا بكلّ قلبنا، لأنّه سرٌّ اجتماعيٌّ عظيمٌ. ينبغي أن نحبّه، بصفته جوهر حياتنا، وأساس هويّتنا المسيحيّة والإنسانيّة. الناس يحتاجون إلينا. وإن بدا لنا، أحيانًا، أنّهم غير محتاجين إلينا، فذلك يعني أنّ على شهادتنا أن تكون أشدّ وضوحًا وإنارةً. وحينئذٍ، سنتبيّن كم يحتاج عالم اليوم إلى خدماتنا الكهنوتيّة.

«إخوتي، لا يحقّ لأحدٍ منّا أن يكون مقسّمًا، داخليًّا. فنحن لسنا موظّفين يخصّصون نصف وقتهم لعملهم. فالمسيح يريدنا بلا تجزئة. إنّ الشهادة الكهنوتيّة، شهادتك، أخي الكاهن، وشهادتي، تلزمان كامل ذاتنا. أَجل يبدو أنّ الربّ يقول لنا: «إنّي أحتاج إلى يديك كي أظلّ أُبارك، وأحتاج إلى شفتَيك كي أظلّ أتكلّم،

أحتاج إلى جسدك كي أظلّ أتألّم، وأحتاج إلى قلبك كي أظلّ أُحبّ، وأحتاج إلى كلّ شخصك كي أتابع عملي الخلاصيّ» (من أقوال الأب ميشيل كواست).

«**لا نوهمنّ ذواتنا، ظانّين أنّنا نخدم الإنجيل، عندما نذيب كرامة الكهنوت، في التزامٍ فضفاضٍ بأعمالٍ زمنيّةٍ، وبمحاولة «علمنة» أسلوب حياتنا وعملنا، وبالتخلّي عن مظاهر كهنوتنا الخارجيّة. بل علينا الحفاظ على معنى دعوتنا الفريدة، وعلى هذه الميزة الرفيعة أن تتجلّى من خلال مظهرنا، الذي لا يجوز أن نخجل به**».

قد حرص «كارول ڤويتيووا» على أن يكون، بكلّ طاقاته، كاهنًا مثاليًّا. وهذا ما كانه في كلّ مراحل مسيرته كاهنًا، وأسقفًا، وكردينالاً، وحبرًا أعظم. وتجلّى، دائمًا، الرجل الواثق، والقائد الروحيّ اليقظ، الجاهد في خدمةٍ لا تتوانى ولا تهادن، المكرّس، كلاًّ للكلّ، الحريص على أن يظلّ، بلا انقطاعٍ، نموذجًا للكاهن المثاليّ، الملتزم بنذوره الكهنوتيّة، الخاضع للّه ولواجبه، الوفيّ للصلاة الورعة العميقة، وللقدّاس اليوميّ، المتقيّد بزيّه الكهنوتيّ.

بمناسبة الصوم الكبير، كان يمضي أُسبوع خلوةٍ، يوقف فيه كلّ نشاطاته المعتادة، منصرفًا إلى رياضةٍ روحيّةٍ يلقي مواعظها كاهنٌ أو أُسقفٌ. ويوم الخميس العظيم، لا يتوانى عن غسل أقدام كهنةٍ، يركع أمامهم كلّما سمحت له بذلك طاقاته الجسديّة.

وحرص على عدم التخلّي عن المهامّ الكهنوتيّة، حتّى بعد أن تبوّأ كرسيّ بطرس. فكان يعمّد أطفالاً، أو فتيانًا وفتياتٍ، بمناسبة عيد الظهور الإلهيّ، ويعمّد بالغين عشيّة عيد الفصح. وقد يقوم بهذه المهمّة، في أثناء أسفاره، كما فعل في كوريا، عام ١٩٧٩، حيث كانت أمٌّ حاملٌ قد رفضت الخضوع لعمليّةٍ في كليتيها، لكيلا تعرّض جنينها للخطر، والتمست من البابا تعميد طفلها، فتأثّر، وسارع إلى تلبية رغبتها.

وتمثّلاً بخوري أرس، أولى سرّ المصالحة شأنًا كبيرًا. فكان، كلّ سنةٍ، يوم الجمعة العظيمة، يحتلّ أحد كراسي الاعتراف، ويستمع إلى اعترافات نحو خمسة عشر تائبًا، يتكلّمون لغاتٍ مختلفةٍ. ولم يتخلّ عن تلك العادة إلاّ سنة وفاته، عام ٢٠٠٥. وكان أسطع برهانٍ على صفحه، غفرانه للمجرم الذي حاول اغتياله،

«محمّد علي أغشا»، الذي غفر له، فور الجريمة، معلنًا من المستشفى الذي كان يعالج فيه: «**إنّي أُصلّي من أجل الأخ الذي أطلق عليّ الرصاص، والذي صفحت عنه قلبيًّا**». ثمّ كانت من أغنى أفعال حبريّته مغزًى، زيارته له في سجنه عام **١٩٨٣**. وبعد ذلك لم يتوانَ عن زيارة بلغاريا، التي حامت الشبهات حول اشتراكها في التحريض على اغتياله. فقد كان مؤمنًا بقدرة الغفران على محو الأحقاد، وبلسمة الجراح النفسيّة والتاريخيّة، وفتح آفاقٍ جديدةٍ للحوار، والتفاهم، والتآخي.

وكان يسعد بمنح سرّ الزواج، حتّى في أثناء بابويّته، ولم يكن يتهرّب ممّن يلتمسون منه مباركة زواجهم. وقد بدأ بمباركة إكليلٍ ثنائيٍّ من عامّة الشعب الرومانيّ، في الڤاتيكان، عام **١٩٧٩**، خارقًا التقاليد، وذكّر الزوجين أنّ الحبّ، والوفاء، والاستقامة الزوجيّة، هي أساس هذا السرّ العظيم، الأساس الوحيد الذي يُبنى عليه كيان الأُسرة الجديدة الروحيّ.

وبتاريخ **١٩٨٦/٥/١٠**، في أثناء إحدى زياراته الراعويّة، بارك ثلاثة أكاليل معًا، بحضور عشرة آلاف شاهدٍ، وقال: «**إنّ المسيح، وزوجته الكنيسة، نموذج الأزواج، ونبع سرّ الزواج، فائق الشأن... الزواج، عند المسيحيّين، هو فعل إيمانٍ، فهو إدخال حبّهم البشريّ، في صميم فائق الطبيعة، الثابت بلا فكاكٍ**».

وتأكيدًا لما توليه الكنيسة من شأنٍ لهذا السرّ العظيم، بارك، في **١٩٨٣/١٠/٩**، عشرة أكاليل، معًا، في كاتدرائيّة القدّيس بطرس، ودعا إلى حضور هذا الحدث، أزواجًا كانوا يحتفلون بيوبيل زواجهم الذهبيّ والفضّيّ، وألقى بهذه المناسبة، خطابًا جاء فيه: «**كلٌّ منكم مصنوعٌ على صورة الله، وهو تعبيرٌ عن الحبّ الأبديّ. إنّ الله يدوّن السرّ الأبديّ في الثنائيّ البشريّ. عظيمةٌ هي دعوتكم، وعظيمةٌ مسؤوليّتكم. إنّ معاهدة أجسادكم ونفوسكم لا يسعها أن تترسّخ، إلاّ في الحبّ الآتي من الله. فليسعَ حبّكم إلى النهل، بلا انقطاعٍ، من الحبّ الذي أحبّ به الآب ابنه يسوع. وحينئذٍ، لن ينضب حبّكم أبدًا...**».

وقد تسنّى له، في أثناء حبريّته، منح سرّ مسحة المرضى، بضع مرّاتٍ. وكان يمنحه جماعيًّا، بمناسبة رحلاته الرسوليّة.

وفي حالاتٍ نادرةٍ، لبّى طلبات طرد الشيطان، وكانت النتيجة، في إحدى الحالات، مدهشةً.

وبصفته أُسقف روما رسم نحو ثلاثة آلاف كاهنٍ، وثبّت نحو ثلاث مئة أُسقفٍ، من أصل زهاء ثلاثة آلاف أُسقفٍ عيّنهم، في العالم، محطّمًا بذلك رقمًا قياسيًّا.

وفي روما، دأب على لقاء الإكليريكيّين وتشجيعهم، وعلى زيارة أديرة الرهبان والراهبات، وعلى التحدّث إلى كهنة الرعايا. ولهذه الغاية كان يجوب روما وضواحيها، محييًا رموز كلّ كنيسةٍ من كنائسها، في حرصٍ دائمٍ على تبسيط الطقوس والمظاهر، كي تكون بمتناول الشعب، وعلى فتح باب الڤاتيكان واسعًا لقاصديه.

محيطه الشخصيّ ومعاونوه

لكي يتخطّى البابا المُنتَخَب بسرعةٍ ويُسرٍ مرحلة الغربة والتأقلم مع جوٍّ جديدٍ، استصحب معه ثلّةً من معاونيه الأوفياء، فتمكّن من الحفاظ على عاداته الحميدة، والتوافق، بلا تلكّؤٍ، مع وتيرة عمله التي ازدادت كثافةً واقتضاءً.

فإلى جانب خادمه الشخصيّ، والراهبة الساهرة على خدمته، تألّف فريقه الشخصيّ من خمس راهبات پولونيّاتٍ إحداهنّ طبيبةٌ، وأُخرى تتقن لغاتٍ عديدةً، تولّت مراسلاته، في حين انصرفت الأُخريات إلى العناية بثيابه وطعامه.

وفضلاً عن الأساقفة والكهنة، الذين كانوا يُعنَون بإعداد الاحتفالات الكنسيّة، وبتنظيم مواعيد البابا ولقاءاته، كان يحيط به علمانيّان يلازمانه ويواكبان أسفاره، هما طبيبه الخاصّ، الإيطاليّ «ريناتو بوتزونيتّي» (Renato Buzzonetti)، والناطق الصحافيّ باسم الڤاتيكان، الإسبانيّ «جواكين ناڤاروڤالس» (Joaquin Navarro-Vals)، وثلّةٌ من الصحافيّين والمصوّرين.

كبير أمناء سرّه، الأُسقف «ستانسلاس دزيڤيش» (Stanislas Dziwisz)، كان أحد تلاميذه الجامعيّين، ورسمه كاهنًا عام ١٩٦٦، واتّخذه أمينًا لأسراره، مذ

كان أسقفًا في كراكوڤيا. وقد أُعجب «ستانسلاس»، منذ البدء، بما وجده في أستاذه وأُسقفه «كارول»، من ورَعٍ وحكمةٍ، ومؤهّلاتٍ تدريسيّةٍ فذّةٍ، وقدرةٍ على إقامة علاقاتٍ شخصيّةٍ وإنسانيّةٍ مع الناس؛ وقد لازمه بأمانةٍ مثاليّةٍ في خدمته الحبريّة، وأسفاره، ومرضه، وحتّى آخر لحظةٍ في حياته. كان يرى كلّ شيءٍ، ويسمع كلّ شيءٍ، ويلتزم الصمت، إلى أن غاب البابا، فدوّن ذكرياته عنه، في كتابٍ يحمل عنوان «حياةٌ مع كارول». كان هادئًا، ساجيًا، ولكن دائم اليقظة. وهو الذي تلقّى رغبات يوحنّا بولس الثاني وإرشاداته قبل رحيله.

لقد قامت بينهما علاقة أبٍ بابنه، اصطبغت بالمودّة والاحترام. وقد برهن الأب ستانسلاس، في كلّ وقتٍ وظرفٍ، عن وفاءٍ مطلقٍ، وكتمانٍ سحيقٍ، وحكمٍ سديدٍ، ومرحٍ عذبٍ، وغيرةٍ لا تغفل ولا تتراخى.

وفي خدمته للأب الأقدس، أُنيطت به مهمّةٌ صعبةٌ: مهمّة قول «لا» لكبار مسؤولي الڤاتيكان، في كلّ ما لا يرضى عنه يوحنّا بولس الثاني. ولا ريب أنّ هذه المهمّة أكسبته نقمة أولئك المسؤولين. غير أنّه تفادى كلّ صدامٍ مع أيّ مسؤول ڤاتيكانيٍّ رفيعٍ، بفضل دماثته، وتواضعه، وتجرّده. وقد شهد له بهذه الخصال، حتّى الذين كان يتعيّن عليه أن يواجههم بلفظة «لا» صريحةٍ.

وقد كرّمه البابا بينيدكتس السادس عشر، بتعيينه رئيس أساقفةٍ على كراكوڤيا، عام ٢٠٠٥، وكردينالاً، عام ٢٠٠٦. وكان أوّل عمل اضطلع به، إقامة دعوى تطويب يوحنّا بولس الثاني، وإنشاء مركز «يوحنّا بولس الثاني» في كراكوڤيا، الذي يحمل شعار «**لا تخافوا**». لقد كان الشاهد الأمثل لواحدٍ من أعظم باباوات الكنيسة، وسيكون لشهادته شأنٌ أساسيٌّ.

ونظرًا لاتّساع رقعة نشاط البابا ومهامّه، كان يساعد الأسقف ستانسلاس ثلاثة كهنةٍ، أحدهم پولونيٌّ، وآخر زائيريٌّ، وآخر ڤيتناميٌّ. ثمّ انضمّ إليهم، عام ١٩٩٦، الأب الپولونيّ «ميشلاڤ موكجيكي» (Mieczalaw Mokrzcki).

وجديرٌ بالتنويه أنّ يوحنّا بولس الثاني لم يقطع صِلاتِه بأصدقائه القدامى في پولونيا، وبواسطتهم ظلّ على اطّلاعٍ دائمٍ بما يجري في وطنه الغالي. ولا ريب

أنّ المعاونين اليولونيّين الذين أحاطوا به، وأخلصوا له، والذين كانوا، من جرّاء مقاومتهم القمع الشيوعيّ في وطنهم، قد تمرّسوا بفضيلة الكتمان، قد أسدوا له خدماتٍ جلّى، ولا سيّما أنّه، هو نفسه، كان بئر كتمانٍ. ومع أنّهم كانوا له فريق حمايةٍ ووقايةٍ، فقد رُفدوا، عقب محاولة اغتياله، عام ١٩٨١، بنظام حمايةٍ فاعلٍ ويقظٍ.

برنامج عمل البابا اليوميّ

تميّز البابا يوحنّا بولس الثاني بانتهاج وتيرة عملٍ كثيفٍ، كفيلةٍ بأن تصيب بالدوار أيّ امرئٍ آخر.

لقد نظّم برنامج يومه بحيث يستطيع استثمار كلّ دقيقةٍ منه، ولا يهدر ثانيةً واحدةً. وبالإجمال، تابع، في روما، النهج الذي درج عليه في كراكوڤيا، بعد أن آلفه مع مقتضيات مهامّه الجديدة، وأولى فيه الأولويّة للنشاط الروحيّ.

نافذة غرفته هي من أوّل نوافذ مدينة روما التي تضاء بالكهرباء صباحًا. فهو يستيقظ في الساعة الخامسة والنصف، ولم يكن له ذلك، دائمًا، بالأمر السهل. يستهلّ نهاره بالصلاة، ساجدًا على الأرض أمام إيقونة سيّدة «تشينستوهوڤا»، وصورة والديه، مقدّمًا لله نهارًا سيكون زاخرًا بالجهد. ثمّ يهرع إلى مصلاّه الخاصّ، كي يواصل صلواته، وتأمّلاته، وتأهّبه للقدّاس. ويستلّ من درج مركعه قصاصات ورقٍ، طُبعت عليها نوايا التمسِ أصحابها الصلاة من أجلها. فكانت جغرافيّة صلواته تشمل مساحاتٍ شاسعةً من المسكونة، والأزمات العالميّة، وهواجس الكنائس المحلّيّة التي يوكلها إلى الربّ، ومئات الأفراد الذين التمسوا صلاته؛ وكلّما تفاقمت الهموم، والمصاعب، وطلبات الصلوات المنصبّة عليه من كلّ صوبٍ، انطوت صلاته على مزيدٍ من ركوعٍ، وكثافةٍ.

في الساعة السابعة، يشرع في إقامة الذبيحة الإلهيّة التي يشارك بها أُمناء سرّه، وكهنةٌ آخرون، وغالبًا ما يدعو إليها أصدقاء، وضيوفًا عبّروا عن رغبتهم في الصلاة معه. وكانت تلك سابقةً غير مألوفةٍ في الڤاتيكان. وما إن ذاع أمرها،

حتّى أخذت تمتدّ لوائح طالبي التمتّع بهذا الامتياز، القادمين من شتّى بقاع الأرض، وقد يضطرّون إلى التزاحم، في ذلك المصلّى الضيّق الذي لا يتّسع لأكثر من خمسين شخصًا. وكان البابا يجهد في استخدام لغات ضيوفه الحاضرين، ويتاح لبعضهم تلاوة صلواتٍ وأدعيةٍ، بلغاتهم الخاصّة. وقد اعترف الذين نعموا بمثل هذه الفرصة الفريدة – من أساقفةٍ، وكهنةٍ، وعلمانيّين – أنّها كانت لحظاتٍ خالدةً، لحظات خشوعٍ، وصلاةٍ كثيفةٍ، ونعمةٍ سنيّةٍ. ولطالما اعترى الذين شهدوا البابا جاثمًا على مركعه، دافنًا وجهه بين راحتيه، قبل القدّاس أو بعده، أنّهم أمام الصخرة التي أشاد عليها يسوع كنيسته.

وعقب القدّاس كان البابا ينفق لا أقلّ من ربع ساعةٍ في صلاة شكرٍ، ثمّ يحيّي ضيوفه، فردًا فردًا، ويتبادل بعض عباراتٍ مع كلٍّ منهم، ويقدّم لهم هدايا، وقد يستبقي بعضهم على الإفطار، كي يستوضح منهم أمورًا يرغب في الإحاطة بها.

وكان يضفي على تلك اللقاءات جوًّا من الرقّة، والعذوبة، والارتياح، ما يجعل منها ذكرى متألّقةً، لا يستطيع الذين نعموا بها أن ينسوها أبدًا. وفي هذا السياق، أَعلنت المطربة الفرنسيّة «ميريّ ماتّيو»: «إنّ أعظم لقاءٍ في حياتي كلّها، وأبلغه أثرًا، كان لقائي بيوحنّا بولس الثاني».

بعد الإفطار، كان يعقد اجتماعًا يضمّ معاونيه، والمكلّفين بإدارة مقرّه، للبحث في الشؤون اليوميّة، وينظّم مع معاونيه برنامج عمله من مهامّ جاريةٍ، ووثائق ينبغي إصدارها، ورسائل يتعيّن توقيعها. ثمّ، جريًا على العادة التي درج عليها في كراكوڤيا، كان يقف ساعتين، بين التاسعة والحادية عشرة، على خلوة تفكيرٍ وإبداعٍ، لا يُسمَح لأحدٍ بانتهاك حرمتها، يكبّ، خلالها، على تدبيج رسائله الكنسيّة العامّة، والمواعظ والخطب التي سيلقيها في مناسباتٍ قادمةٍ، ونصوصٍ روحيّةٍ اختمرت في ذهنه، وبات لا بدّ من تدوينها، وإبرازها إلى النور. وغالبًا ما كان يمضي هذه الخلوة في مصلاّه الموصد بإحكامٍ، أمام خباء القربان، وقبالة صليبٍ وتمثالٍ للعذراء. وعندما كان موضوع كتاباته يتعلّق بأمورٍ خطيرةٍ، كان يضع مسودّةً، ويوكل إلى معاونين مؤهّلين، يتمتّعون بالثقة والكفاءة، مراجعتها، وتصحيحها، وإكمال صوغها.

وكان، كلّما اصطدم بقضيّةٍ عويصةٍ، يفزع، مجدّدًا، إلى المصلّى، حيث يحتوي مركعه على درجٍ سرّيٍّ، يمكّنه من تدوين إلهامات الروح القدس. وإن لم يجده معاونوه في مكتبه، فهم واثقون من وجوده في المصلّى.

عند الحادية عشرة، تبدأ سلسلة مقابلاتٍ، يلتقي فيها، خاصّةً، أساقفة العالم الذين يزورونه، مرّةً كلّ خمس سنواتٍ، ويطلعونه على نشاطاتهم، وقضاياهم واحتياجاتهم، واقتراحاتهم. تلك اللقاءات المباشرة، البسيطة، المحرّرة من القيود، كانت تتيح لكلّ أُسقفٍ أن يعبّر، بحرّيّةٍ، عمّا يجول في خاطره، وتسهم في عقد علاقاتٍ شخصيّةٍ بين كلّ أُسقفٍ، وأُسقف روما.

وكان البابا، يلتقي أيضًا، في هذه الفترة، رؤساء الجمعيّات، وإداريّي الڤاتيكان، وسياسيّين، وسفراء، ورجال فكرٍ، وعلماء، وأُدباء، وفنّانين، وبعض عامّة الشعب، وحجّاجًا. هذه اللقاءات تمتدّ حتّى الساعة الواحدة والنصف، موعد الغداء، مبدئيًّا، ولكنّها، غالبًا، تمتدّ إلى أبعد من ذلك، لأنّه كان حريصًا على ألاّ يردّ أحدًا من طالبي مقابلته. فيضطرّ معاونوه إلى لجم جوعهم، والتذرّع بالصبر، ريثما يحضر مهرولاً إلى المائدة، وغالبًا ما يستصحب الزائر الأخير كي يكمل حديثه معه، أو يأتي بكتاب لغاتٍ كي يستذكر لغة البلاد التي يعتزم زيارتها قريبًا. أمّا طعامه فزهيدٌ، وشرابه أكثر زهدًا.

وفيما يستسلم معظم سكّان الڤاتيكان، أُسوةً بعموم الرومانيّين، لقيلولةٍ طويلةٍ ممتعةٍ، كان البابا يكتفي بدقائق استرخاءٍ معدوداتٍ، متنزّهًا في حدائق الڤاتيكان، تاليًا صلوات المسبحة الورديّة، أو السواعيّة؛ ولكن، مع كرّ السنين، وخَوَر قواه الجسديّة، بات يمنح نفسه لحظات قيلولةٍ لا تتجاوز نصف ساعةٍ.

في الساعة الثالثة، كان يؤتى إليه، من أمانة سرّ الڤاتيكان، بحقيبةٍ مغلقةٍ، تحتوي بريد الحبر الأعظم، ووثائق رسميّةً، يفرزها أمناء سرّه، ويقدّمون له ما يستلزم توقيعه، أو قرارًا سريعًا. وكثيرًا ما كان يعلّق عليها بعبارة «**تحتاج إلى دراسةٍ دقيقة**».

بعدئذٍ، كان يعود للاختلاء، والعمل وحيدًا، حتّى الساعة السادسة والنصف،

وعندها تعقد جلسات العمل الإداريّ، مع كبار معاونيه من كرادلةٍ وأساقفةٍ، وتُناقَش الوثائق الرسميّة، والقرارات الكبرى. كان الجميع يعرفون متى تبدأ هذه الجلسات، ولكن لا أحد يعرف متى تنتهي.

وكان قد خصّص لكلٍّ من كبار معاونيه يومًا من أيّام الأسبوع، يستقبله فيه، على انفرادٍ، ويباحثه في شؤون اختصاصه، ويستفيض في النقاش والاستشارة، كي يأخذ القرار الصحيح.

وريثما يحين موعد العشاء الذي يتناوله مع مدعوّيه، في الساعة السابعة والنصف، ويستمع، في خلاله، إلى موجز الأنباء، من محطّات التليفزيون الإيطاليّة والپولونيّة، كان يعود إلى الاختلاء في مكتبه، حيث يراجع، بهدوءٍ، كلّ الوثائق، المعروضة قبل نشرها، ويدوّن بخطّه الناعم، ملاحظاته عليها، وقد يستدعي واضعي هذه الوثائق لمزيدٍ من الاستيضاح والتشاور.

وينفق نهاية السهرة في القراءة، والكتابة، والتحاور مع معاونيه.

وقبل أن يأوي إلى فراشه، في نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً، وبعد أن يكون قد كرّس كلّ دقيقةٍ من نهاره للكنيسة وللربّ، يعود إلى مصلاّه، حيث يلقي عن كاهله أعباءه، وهمومه، وهموم العالم، بين يدي الله. ولطالما شوهد، في ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل، راكعًا مستغرقًا في حوارٍ مع الله، في صمتٍ وشبه عتمةٍ، وحيدًا مع الواحد.

وراء باب مخدعه الموصد، كان يودع، مجدّدًا، بين يدي الربّ والأمّ السماويّة، أعباء الكنيسة والعالم، وأثقال مسؤوليّاته. وبمنأًى عن الأنظار، كان يقدّم نفسه ضحيّةً، فيرقد على الحضيض، ولا سيّما في أيّام الأزمات الكبرى، ويجلد، أحيانًا، ذاته، تكفيرًا عن آثام العالم.

على هذا البرنامج الدقيق، كانت تطرأ بعض التعديلات. فقد كان البابا يمنح نفسه، أيّام الثلاثاء، شيئًا من الاسترخاء، استعدادًا للقاءات الأربعاء العامّة. وفي أيّام الأحد، كانت تُلغى اللقاءات الصباحيّة، ويستعيض عنها قداسته بصلاة التبشير مع الجماهير المحتشدة في ساحة القدّيس بطرس، أو في ساحة «كاستل

غوندولفو»، صيفًا، وغالبًا ما كان يُتبع الصلاة ببضع عباراتٍ، وفقًا للمناسبات، ويحيّي الجماهير.

وقد ألف أن يزور، بعد ظهر كلّ يوم أحدٍ، إحدى رعايا روما، زيارةً يُعدّ لها مع مسؤولي الرعيّة ونشطائها، فيطّلع منهم على أوضاعهم الخاصّة، وقضاياهم، ويقيم للرعيّة قدّاسًا تتخلّله عظةٌ، ويلتقي جماعات العلمانيّين الناشطين في الرعيّة، ويزور المسنّين والمرضى، مؤكّدًا حضوره مع شعبه. وكان يرغب، دائمًا، في أن تتّسم تلك الزيارات بالبساطة، غير أنّ حبّ المؤمنين لراعيهم، واندفاعهم، كانا يحوّلانها، غالبًا، إلى مهرجاناتٍ حماسيّةٍ. لقد قام ذلك البابا البولونيّ بمهمّة أُسقف روما، كما قلّما قام بها سواه، بحيث اعترف الكردينال «پوليتّي»: «من الصعب العثور على إنسانٍ يفوق يوحنّا بولس الثاني رومانيّةً».

وفي أثناء عطلته الصيفيّة، التي كان يقضيها في منتجع «كاستل غوندولفو»، كانت تتراخى وتيرة عمله اليوميّ، وكان يقف مزيدًا من الوقت على استقبال أصدقائه القدامى، ووفود الحجّاج، ولا سيّما وفود الشبيبة، الذين يطيب له محادثتهم ومشاركتهم سهراتهم وأناشيدهم.

وكلّما تسنّت له سانحةٌ، كان يقتنص، من فصل الصيف، بضعة أيّامٍ، يشبع فيها هواية تسلّق الجبال، والتزلّج على الثلج، طالما مكّنته صحّته منه. وفي سنواته الأخيرة، كان يكتفي بالسير على القمم متوكّئًا على عكّازٍ.

وبفضل فسحات النقاهة العابرة هذه، كان يستعيد طاقاته لمزيدٍ من العمل والإنجاز. ولطالما باح لأصدقائه: «**من لا يعرف هذا السجن – الڤاتيكان – لا يستطيع تثمين لحظات الحرّيّة هذه!**».

ولكن أيّةً كانت التعديلات، التي تقتضي الظروف إدخالها على برنامجه اليوميّ، إلاّ أنّه حريصٌ، في كلّ ظرفٍ، على ألاّ ينقص من برنامج صلواته ذرّةً، فهي علّة وجوده، ونبع قوّته؛ وقد واظب، بثباتٍ، على الاعتراف الأُسبوعيّ، وعلى الطواف بمراحل «درب الصليب»، كلّ يوم جمعةٍ.

على كرسيّ بطرس

انتزع الروح القدس يوحنّا بولس الثاني من عالم الظلّ، لكي يشعّ نوره على العالم أجمع. فقد وجد فيه الراعي المحنّك، والإداريّ الأرِب، والمراقب المطّلع على سير أجهزة الكنيسة، والكفيل بتمكينها من استثمار كامل طاقاتها، وبإطلاق حركةٍ رسوليّةٍ، تدفع بشريّةً اختلّ توازنها في نهجٍ سديدٍ، وتذكّر بتعاليم الإنجيل التي لم يعد للعالم أملٌ في الخلاص، بمعزلٍ عنها.

منذ البدء، برهن عن نزعةٍ إبداعيّةٍ تجديديّةٍ، ولكنّه أثبت أنّه مجدّدٌ بنّاءٌ، وليس ثائرًا هدّامًا لما بناه أسلافه. كان مدركًا لحراجة موقفه، بصفته البابا غير الإيطاليّ الأوّل، بعد نحو خمسة قرونٍ، فسعى إلى التجديد، حريصًا على تفادي أيّ شرخٍ، وكان تغييره مرنًا وفعّالاً. لقد أدرك ضرورة إعادة تنظيم عمل الكنيسة الكاثوليكيّة، بدءًا من مركزها في الڤاتيكان، الذي أحكم القبض على مقاليده بحكمةٍ، ومحبّةٍ، وحزمٍ، وبالتعاون والتضافر مع سائر الرعاة.

كان سلفه، بولس السادس، قد باشر تطوير تنظيم الكنيسة، وجعله أوفر إنتاجيّةً، وتوافقًا مع مقتضيات الزمن الراهن، فمضى، هو، في هذا النهج قُدُمًا، وحقّق فيه إنجازاتٍ رائعةً.

ولا بدّ من إيضاح أنّه لا يمكن حصر يوحنّا بولس الثاني في إطار التصنيفات الرائجة، التي تشعب المسؤولين الكنسيّين بين محافظين وتقدّميّين. فالكنيسة، عمومًا، تسمو فوق هذه المعايير البشريّة، والبابا يوحنّا بولس الثاني، شخصيًّا، لم يكن يعمل إلاّ بوحي الروح القدس، وبما لقّنته خبرته الراعويّة الغنيّة، فقاد الكنيسة، ووفّق تعاليم الإنجيل مع احتياجات الإنسان المعاصر الروحيّة، بالأسلوب الذي برع به، أسلوب العلاقات الإنسانيّة، وبالتعاون مع سائر أحبار الكنيسة ورعاتها، منفّذًا ومرسّخًا دعوة المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، إلى العمل الجماعيّ داخل الكنيسة، أي بتعاونٍ وثيقٍ وأخويٍّ مع إخوته الرعاة، بصفته الأوّل بين متساوين. وقد توخّى أن يكون هذا العمل الجماعيّ «فعليًّا ووديًّا». وبهذا الوصف، أرسى له الأُسس المنيعة على المحبّة، والطاعة، والانتظام.

لقد حرص على إرساء علاقاته بالمؤمنين وبالأساقفة، على أساس قول يسوع لبطرس: «**ثبّت إخوتك**» و«**ارعَ خرافي**». وقد عنى له ذلك أن يقف إلى جانب جميع المؤمنين، أينما وُجدوا، وأن يحمل هموم جميع الكنائس.

وكان المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، مع اعترافه بأوّليّة البابا، قد أوصى بأن يتولّى الحبر الأعظم، بمشاركة الأساقفة، مسؤوليّة الكنيسة جمعاء، على أن يظلّ عمل الأساقفة خاضعًا لسلطة البابا. وقد أوجب ذلك إقامة توازنٍ وتناغمٍ بين الأوّليّة والإدارة الجماعيّة.

الكنيسة شراكة إخوةٍ وأخواتٍ، تختلف علاقاتهم المتبادلة عمّا هو شائعٌ في الحياة العامّة، لأنّها تقوم على المسيح، ابن الله، وفادي العالم، وتدعمها الأسرار المقدّسة. ويسهر على إدارة الكنيسة أساقفةٌ، هم خلفاء الرسل، يؤلّفون مجمعًا دائمًا يرأسه خليفة بطرس. فلا بدّ من أن تتعاضد الإدارة الجماعيّة والأوّليّة، معًا، على تكوين بنيةٍ ثابتةٍ للكنيسة، ويتحمّل كلٌّ منها، على نحوٍ محدّدٍ، مسؤوليّة جميع الكنائس.

وانطلاقًا من خبرة الكنيسة البولونيّة، التي نجحت في التوفيق بين أوّليّة كبير الأساقفة، الكردينال «ڤيشينسكي»، والإدارة الجماعيّة، رغب يوحنّا بولس الثاني في تحقيق تجربةٍ مماثلةٍ، في حبريّته، بحيث يعمل الأساقفة معًا، ويناقشون القضايا المطروحة؛ وعندما يتمّ اتّخاذ قرارٍ، يتكاتفون على تنفيذه. فمن شأن هذه الإدارة الجماعيّة، إضفاء منعةٍ على الرئيس الأعلى، وعلى الأساقفة، وعلى الشراكة الكنسيّة، ومن واجب البابا تدعيم هذا العمل الجماعيّ، داخل الأسقفيّات الوطنيّة، وبين أساقفة العالم والكرسيّ الرسوليّ.

وهذا ما وقف عليه يوحنّا بولس الثاني جهود خمسٍ وعشرين سنةً من حبريّته. وإن هو لم يجنِ كلّ الثمار التي كان يرجوها، فلم يكن ذلك ناتجًا عن غياب الإدارة والجهد من قِبَله.

وقد بدأ بإعادة تنظيم الإدارة الڤاتيكانيّة (Curie)، التي تضمّ العديد من الأمانات، والمجامع، والجمعيّات، واللجان، والمؤسّسات، فأوضح مهامّ كلٍّ

منها، وزوّدها برؤساء ذوي كفاءةٍ عاليةٍ، يؤهّلونها لإيتاء الثمار المرجوّة منها، أمثال الكردينال «رتستنغر»، الذي عيّنه على رأس مجمع عقيدة الإيمان، واللجنة اللاهوتيّة. ولكي يحقّق برنامجه التجديديّ، محافظًا على انسجام فريق عمله، أجرى تعديلاً في بعض المناصب. فإثر وفاة الكردينال «ڤيّو» (Villot)، الذي كان يتولّى أمانة سرّ الكرسيّ الرسوليّ، بتاريخ ١٩٧٩/٧/٩، كلّف بخلافة هذا المنصب، الكردينال «أغوستينو كازارولّي»، الذي كان مسؤولاً عن علاقات الڤاتيكان الخارجيّة، وزوّده بمعاونَيْن، أحدهما إسبانيٌّ يضطلع بالشؤون الداخليّة، والآخر الأُسقف الدبلوماسيّ المحنّك، «أشيل سيلڤيستريني»، لتولّي الشؤون الخارجيّة، وعيّن له، معاونًا، أسقفًا ليتوانيًّا. وبذلك تمكّن من انتهاج سياسةٍ خارجيّةٍ، مختلفةٍ عن تلك التي انتهجها سلفه البابا بولس السادس، بناءً على نصائح «كازارولّي»، وأوكل إلى هذا الأخير منصب أمين سرّ الكرسيّ الرسوليّ، لأنّه كان يتمتّع بخبرةٍ طويلةٍ راسخةٍ، وبروحٍ رسوليٍّ. وقد أَسهم هذا التعيين في طمأنة الكرادلة والأَساقفة الإيطاليّين، الذين لم يكونوا ينظرون بعين الرضى إلى انتخاب بابا پولونيّ. وبإلقائه على كاهل «كازارولّي»، إدارة شؤون الڤاتيكان الداخليّة، التي لم يكن، هو نفسه، راغبًا في الانخراط بتفاصيلها، تفرّغ لأهداف برنامجه الرسوليّة الكبرى. وهكذا أَفلح في تحقيق الانتقال بمرونةٍ. ومن جانبٍ آخر، بترقية «كازارولّي» إلى أرفع رتبةٍ في الإدارة الڤاتيكانيّة، أحرج الدول الدائرة في فلك الاتّحاد السوڤييتيّ، التي كانت تتّهمه بتعكير العلاقات معها. فكازارولّي كان رائد سياسة «الإيستپوليتيك»، المنفتحة على حكومات أوروپّا الشرقيّة، وقد فسح البابا له ولسيلڤيستريني حرّيّة المضيّ قُدُمًا في مفاوضاتهما مع هذه الحكومات، أملاً في أن يفضي التقارب منها إلى حملها على تغيير موقفها من شؤونٍ تهمّ الكنيسة. وفي الآن عينه، بات بوسعه، هو شخصيًّا، اعتماد موقفٍ أشدّ حزمًا في الذود عن حياض الكنيسة المضطهَدة، والتشديد على قضيّة حقوق الإنسان، والحرّيّة الدينيّة.

وهكذا تحقّق تعاونٌ مثمرٌ بين رجلَيْن تفصلهما تبايناتٌ شاسعةٌ في المواقف. فطيلة مسيرته الكهنوتيّة والأُسقفيّة، كان «كارول ڤويتيووا» يخوض نضالاً في

وجه أنظمةٍ شموليّةٍ طاغيةٍ، ويذود، بضراوةٍ، عن الحرّيّات الدينيّة، تحدوه قناعةٌ بأنّ من واجبه أن يكون صوتًا مدوّيًا ناطقًا بلسان من كُتمت أصواتهم، في حين كان «كازارولّي» مؤمنًا بإمكان حلّ الخلافات بهدوءٍ، وبصوتٍ منخفضٍ، وبشيءٍ من المساومة والمصانعة.

ومن المجالس التي نفث فيها يوحنّا بولس الثاني روحًا جديدًا:

– مجلس السعي إلى وحدة المسيحيّين، فقد كان حريصًا على تنشيط جهود المسكونيّة المسيحيّة.

– مجلس حوار الأديان.

– المجلس الحبريّ من أجل رسالة العلمانيّين، التي كان من أشدّ دعاتها اندفاعًا.

– اللجنة الحبريّة للعدل والسلام.

– مجلس التواصل الاجتماعيّ.

– مجلس تفسير النصوص القانونيّة.

أمّا المجالس التي أنشأها، فنذكر منها:

– مجلس الأُسرة،

– اللجنة الحبريّة للصحّة،

– المجلس الثقافيّ،

– مجلس المحبّة البابويّ، المدعوّ «قلبٌ واحد» (Cor Unum).

هذا وقد رفد الأكّاديميّة الحبريّة للعلوم، التي طوّرها سلفه البابا بولس السادس، بأكّاديميّتيْن أُخريَيْن هما:

– الأكّاديميّة الحبريّة للعلوم الاجتماعيّة.

– الأكّاديميّة للحياة.

وبذلك برهن عن عميق اهتمامه بالقيم العلميّة والأخلاقيّة، التي تجلّت الحاجة الحارقة إليها، في غروب القرن العشرين.

وفي مجال ترسيخ العمل الجماعيّ بين الكرادلة والأساقفة، بالتعاون معه، عمد إلى عقد السينودسات، إحياءً للواقع الذي أنشأه يسوع بإقامته أحد عشر رسولاً إلى جانب بطرس، من أجل قيادةٍ مشتركةٍ للكنيسة، حول ربّانٍ واحدٍ. فقد أوجب تفاقمُ تعقيد القضايا، التي يتوجّب على الكنيسة مواجهتها، تضافرَ كلّ الكفاءات، والمواهب، والاختصاصات، والخبرات الشخصيّة، من خلال هذه السينودسات التي ينتج عن مناقشاتها، «إرشادٌ رسوليٌّ»، تلتزم الكنائس المحلّيّة بتنفيذ توجيهاته.

والسينودسات أنواعٌ ثلاثةٌ:

– عاديّةٌ، تُعقَد كلّ ثلاث أو أربع سنواتٍ، وتهتمّ، مباشرةً، بالحياة الكنسيّة.

– استثنائيّةٌ، وهي نادرةٌ، وتتناول مواضع أكثر شمولاً.

– خاصّةٌ، وهي تجمع أساقفة قارّةٍ محدّدةٍ.

وغالبًا ما توفّر هذه السينودسات فرصةً للحبر الأعظم، لزيارة الكنائس المحلّيّة، وشدّ أزرها، وللإلمام بحقيقة قضاياها، على أرض الواقع.

وقد عقد يوحنّا بولس الثاني سينودسًا استثنائيًّا واحدًا، تناول موضوع تحديث أوضاع الڤاتيكان، لمواجهة ضرورات الحاضر، وتحسّبًا للمستقبل. وعقد سينودسَيْن لكنائس محلّيّةٍ تواجه مصاعب، هي هولندا، عام ١٩٨٠، ولبنان، عام ١٩٩٥. كما أنّه عقد ستّ سينودساتٍ خاصّةٍ، في القارّات الخمس، اثنان منها عقدا في أوروبّا. وقد رفدت هذه السينودسات الكنائس المعنيّة، بشحنةٍ من الديناميّة المتجدّدة.

وقد سهر البابا على إيقاظ الوجدان المسيحيّ على أحداثٍ كبرى، فأعلن، عام ١٩٨٣، سنةً مقدّسةً، احتفالاً بسرّ الفداء. وأعلن عام ٢٠٠٠ يوبيلاً أكبر، احتفالاً بمرور ألفيّتين على مولد يسوع المسيح. وكان قد كرّس سنةً مريميّةً، بين عامي ١٩٨٧–١٩٨٨، احتفالاً بذكرى مولد السيّدة العذراء. وأعلن سنةً إفخارستيّةً بين عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥، داعيًا العالم إلى المسيح. وكانت كلّ

مناسبةٍ من هذه المناسبات، تستقدم إلى روما وفود الحجّاج من كلّ أقطار العالم، يقدمون للنهل من نبع إيمانهم.

وكان حضوره، خارج روما، يستقطب الملايين. فقد التأمت من حوله أكثف الحشود في أثناء زياراته إلى بلدان أميركا اللاتينيّة. فتجمّع حوله مليونا مؤمنٍ في ليما، عاصمة الپيرو، وحدها. وفي مانيلاّ، عاصمة الفيليپين، ارتقى عدد الحشود إلى نحو خمسة ملايين. وتقاطر لرؤيته والاستماع إليه، في مدينته كراكوڤيا، أكثر من مليونين ونصف مليون مؤمنٍ ومواطنٍ، وغصّت مدينة «فاطمة» البرتغاليّة، بأكثر من مليون حاجٍّ خلال رحلاته الثلاث إليها. واستقطب يوم الشبيبة العالميّ في روما، عام ٢٠٠٠، زهاء مليوني شابٍّ وشابّةٍ، ويومُ الشبيبة في باريس، عام ١٩٨٧، نحو مليونٍ منهم.

ولم يعلن يوحنّا بولس الثاني أيّة عقيدةٍ جديدةٍ، في عهد حبريّته. ولكنّه أعلن القدّيسة تيريز الطفل يسوع، أحد ملافنة الكنيسة الكاثوليكيّة.

وتميّز عهد حبريّته بالمراحل التالية: مرحلةٍ سعيدةٍ ومضيئةٍ في آنٍ واحدٍ، هي مرحلة شبابه واندفاعه، وخصّه العالم، إذ انطلق يذرع القارّات مبشّرًا بالإنجيل بلا هوادةٍ؛ ومرحلةٍ أليمةٍ بدأت بمحاولة اغتياله، عام ١٩٨١، وبلغت ذروتها اعتبارًا من عام ١٩٩٤، عندما أودت به السنون والأمراض إلى تضحية الصليب. أمّا هالة المجد، فظلّت لاطيةً، تحت ذراعي الصليب، كي تتجلّى يوم تطويبه.

ومن القضايا التي اهتمّ بها اهتمامًا خاصًّا ومميّزًا، هو تطويب القدّيسين الذين حرص على إبرازهم مثالاً مضيئًا وحافزًا لكلّ مسيحيٍّ. فقد كان على يقينٍ بأنّ القداسة ليست وقفًا على فئةٍ من المكرّسين، بل هي دعوة كلّ مسيحيٍّ، تُلزمه منذ معموديّته. هذه القناعة عبّر عنها، وعن رغبته في ترسيخها، بإعلانه عددًا من الطوباويّين والقدّيسين، تجاوز ما أعلنه أيّ حبرٍ أعظم آخر. وكان يرى أنّ المسيحيّ المثاليّ هو الشهيد الذي يشهد على إيمانه بحياته، وأنّ القرن العشرين كان أعظم قرن شهادةٍ، في التاريخ المسيحيّ.

وقد توسّم في الأب «مكسيميليان كولبي»، مثالَ الشهداء، لأنّه حدّق إلى

هوّة الظلمات الحديثة، وظلّ وفيًّا للمسيح، وقدّم نفسه فداءً عن ربّ أُسرةٍ، وساعد رفاق المحنة، في زنزانة معتقله، على الموت بكرامةٍ ورجاءٍ. وكانت لجنة التطويب قد اعترضت على منحه صفة الشهيد، إذ إنّه لم يُعدَم دفاعًا عن إيمانه، بل إنقاذًا لإنسانٍ آخر. وظلّت قضيّته معلّقةً حتّى لحظة إعلان قداسته، عندما ظهر يوحنّا بولس الثاني، بزيّ الشهداء الأحمر، وأعلن أنّ الأب «مكسيميليان كولبي»، فضلاً عن كونه، «معترفًا بالإيمان» كما لُقّب عند تطويبه، سيُكرّم، أيضًا، بصفته شهيدًا. وبذلك خطا يوحنّا بولس الثاني خطوةً لاهوتيّةً جريئةً، باعتباره مقاومة «بغض الإنسان» الذي كان سبب اعتقال الأب «كولبي»، يعادل مقاومة «بغض الإيمان» الذي يُعدّ سببًا للشهادة.

وفي هذا السياق، أيضًا، أصدر قداسته دستورًا جديدًا، بتاريخ **١٩٨٣/١/٢٥**، حدّد بموجبه الإجراءات التي تنتهجها الكنيسة، من أجل الاعتراف بقداسة أحد أبنائها أو إحدى بناتها. وبموجب هذا الدستور، استُعيض عن «الدعوى، التي يلعب فيها «محامي الشيطان» دورًا أساسيًّا، بتحقيقٍ يتقصّى، من خلاله، المحقّقون الوقائع، ويحلّلونها، ويتداولون بشأنها. وبذلك، أيضًا، يحلّ العلم التاريخيّ محلّ القضاء، وتغدو الإجراءات أكثر سرعةً، وعقلانيّةً، ومشاركةً، وجدوى، وأقلّ كلفةً. وأُلقيت على الأساقفة المحلّيّين مسؤوليّة جمع الوثائق الصحيحة، المتعلّقة بالمطلوب تطويبهم. وعوضًا عن حصر القداسة في نمطٍ محدَّدٍ، أفسح المجال لأنماط قداسةٍ متعدّدةٍ.

وبذلك، أيضًا، عبّر يوحنّا بولس الثاني عن نظرته الخاصّة إلى التاريخ، بصفته مسرحًا، أبطاله حرّيّة الله وحرّيّة الإنسان، وغايته الخلاص. وكانت خبرته الراعويّة قد بيّنت له أنّ من واجب الكنيسة تكريم عددٍ كبيرٍ من أبنائها، فالقدّيسون الخفيّون، من كلّ لونٍ، هم أكثر ممّا نتخيّل.

وكان قد أثلج صدر ذلك البابا الفقير، الذي سكنه، دائمًا، همّ الفقراء، مثال الأُمّ تيريزا وأخواتها. وفي أعقاب زيارته إلى كلكتّا، عام **١٩٨٦**، ومشاهداته لمبادرات العطف التي تبذلها بطلات المحبّة أولئك، قرّر إنشاء «بيت محبّةٍ»، في الڤاتيكان، تشرف على إدارته «مرسلات المحبّة». وجأر إداريّو

الڤاتيكان استنكارًا، محتجّين بمخاطر إشراع أبواب الڤاتيكان لمشرّدين، وأبناء السبيل، وتعريض أمن الڤاتيكان لأخطارٍ جمّةٍ. ولكنّ هذه الاحتجاجات لم تثنِ البابا عن مشروعه، فكان لا بدّ من استنباط حلٍّ، يحقّق رغبة الحبر الأعظم، ويشيع الاطمئنان في نفوس الإداريّين. وتمثّل ذلك الحلّ في إعادة تأهيل بناءٍ قديمٍ على تخوم دولة الڤاتيكان. وهكذا، بتاريخ **١٩٨٧/٦/١٧**، بارك البابا حجر أساسٍ لما سمّي «هديّة مريم»، بيت استقبال الأشدّ فقرًا»، وأمسى ذلك المركز جاهزًا، بمناسبة الذكرى الثامنة والستّين لمولد البابا، أي في **١٩٨٨/٥/٢٠**. وكان يتضمّن قاعات نومٍ للرجال، وأُخرى للنساء، تتّسع لثمانيةٍ وسبعين نزيلاً كلّ ليلةٍ، فضلاً عن مطبخٍ، وقاعتي طعامٍ، توفّر الغذاء لنحو مئة جائعٍ معوزٍ، كلّ يومٍ.

ومع ذلك، ظلّ يراوده حلمٌ آخر، هو إنشاء **فرعٍ تأمّليٍّ**، يوفّر للكنيسة صلاةً مستمرّةً. فلطالما أيقن أنّ الصلاة ليست ضروريّةً، فقط من أجل التوبة، واستمطار نِعَم الله، بل هي حاجةٌ أساسيّةٌ للتمكّن من قراءة «علامات الأزمنة»، ومن أجل تأسيس برامج رعويّةٍ تناسب هذه الغاية. فنشاط الكنيسة الراعويّ، وخدمتها للعالم، متجذّران في التأمّل. والصلاة التأمّليّة الدائمة، من قِبَل رجالٍ ونساءٍ كرّسوا حياتهم كلّها للتشفّع، إنّما هي أبلغ تعبيرٍ عن بذل الكنيسة المستمرّ ذاتها لعريسها يسوع، الذي يقابل هذا البذل المحبّ بفيضٍ من النِعَم. وكان يوحنّا بولس الثاني موقنًا أنّ على هذا الإيمان أن يتجسّد في الڤاتيكان.

باشرت ورشة «دير أُمّ الكنيسة» أعمالها، عام **١٩٩٢**، وفرغت منها عام **١٩٩٣**، على تلّةٍ يقوم عليها أحد الأبنية الإداريّة التابعة للڤاتيكان. وفي **١٩٩٤/٥/١٣**، بمناسبة الذكرى الثالثة عشرة لمحاولة اغتيال الحبر الأعظم، انضمّت إلى ذلك الدير طليعة نزلائه، المؤلّفة من ثماني راهباتٍ حبيساتٍ كلاريسّاتٍ، فقيراتٍ، قادماتٍ من «أسّيزي» موطن الجمعيّة الأصليّ، وأيضًا من كرواتيا، ونيكاراغوا، ورواندا، والفيليپّين. وكان من المقرّر أن يُستبدَل بفريقٍ جديدٍ آخر، قادمٍ من مختلف أصقاع العالم، كلّ خمس سنواتٍ.

وكان قد وقع الخيار على جمعيّة الكلاريسّات، لأنّها الرهبانيّة النسائيّة التأمّليّة

الأولى، ولأنّ عام **١٩٩٣** كان يوافق الذكرى المئويّة الثامنة لمولد القدّيسة «كيارا» الأسّيزيّة، مؤسّسة تلك الرهبانيّة.

ومنذ مطلع عهده، دأب يوحنّا بولس الثاني على تزويد الكنيسة بدمٍ شبابيٍّ جديدٍ يؤهّلها لمزيدٍ من الجدوى. وأطلق على مبادرته هذه عنوان «الراعي الصالح» (Pastor Bonus). ومن التدابير التي اتّخذها، بهذا الشأن، توسيع رقعة الكرادلة، جغرافيًّا، مضاعفًا عدد القادمين من آسيا وأفريقيا والعالم الثالث. فعيّن أربعةً وعشرين كردينالاً جديدًا، أحدهم ليتوانيٌّ، سمحت له السلطات الشيوعيّة بالسفر إلى روما كي يحظى بهذه الترقية. وكان أحد الكرادلة الجدد من هونغ كونغ. وحظي كلٌّ من الموزامبيق والكاميرون بأوّل كردينالٍ وطنيٍّ. ومُنحت رتبة الكردينالية، أيضًا، للّاهوتيّ السويسريّ اللامع «هنْس أورس ڤون بلتازار» (Hans Urs von Balthazar)، غير أنّ المنيّة عاجلته قبل تسلّمه هذا المنصب. وفي خطابه التأبينيّ له، ذكّر الكردينال «رتسنغر» بقول اللاهوتيّ الفرنسي «هنري دي لوباك» (Henri de Lubac)، إنّ «بلتازار» كان من أكثر رجال العالم المعاصر ثقافةً.

وما انفكّ، بين فترةٍ وأُخرى، يعيّن المزيد من الكرادلة من شتّى الجنسيّات والألوان، مضفيًا على البابويّة والڤاتيكان وجهًا أكثر عالميّةً.

ونهج نهجًا جديدًا في معايير تعيين الأساقفة الذين أرادهم مبشّرين. ففي عام **١٩٩٥**، عيّن «كريستوف شونبورن»، الأُسقف المعاون لأبرشيّة ڤيينّا، البالغ الخمسين من العمر، والذي رئس تحرير كتاب «التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة»، رئيسًا لأساقفة العاصمة النمساويّة. وفي عام **١٩٩٧**، عيّن «فرنسيس جورج»، ابن الستّين عامًا، الذي تولّى، مدى أحد عشر شهرًا، رئاسة أساقفة مدينة «پورتلاند» الأميركيّة، رئيس أساقفةٍ لمدينة شيكاغو.

ذانك الأسقفان كانا على تباينٍ في المحتد والشكل. فشونبورن كان سليل أُسرةٍ تُعَدّ من أرفع الأُسَر الأوروپيّة نبلاً، فيما كان جورج ابن أسرةٍ أميركيّةٍ متوسّطة الحال. وفيما كان «شونبورن» مديد القامة، مهيبًا، يتصرّف بلباقةٍ أرستوقراطيّةٍ،

كان جورج نحيفًا، يعرج في مشيته، ويستعين بجهازٍ تقويميٍّ، من جرّاء إصابته بشلل الأطفال في صغره. غير أنّ قواسم مشتركةً جوهريّةً كانت تجمعهما، وتتوافق مع نظرة يوحنّا بولس الثاني إلى أساقفة القرن الحادي والعشرين. فكلاهما كانا متمرّسَيْن بمهنة التعليم، وكلاهما كانا مفكّرين لامعَين، متمكّنَين من الفلسفة واللاهوت المعاصرين، ومن تعاليم الكنيسة. ولم يكن أيٌّ منهما منتميًا إلى تيّارٍ ليبيراليٍّ أو محافظٍ، بل كان «الحقّ» هو انتماؤهما الوحيد. وكانت علاقتهما بوسائل الإعلام سلسةً، وهما، دائمًا متأهّبان للنقاش. وكان من يلتقيهما، يلمس، منذ الوهلة الأولى، لديهما، سجوًّا نفسيًّا، نابعًا من الإدمان على الصلاة الحارّة. ومع ذلك، كانا دمثَي المعشر، متحدّثَيْن بارعين، ويجيدان الإصغاء، وراعيين غيورَيْن متفانيَين. تلك كانت الصفات البارزة التي كان يوحنّا بولس الثاني ينشدها، لدى رعاة الكنيسة.

وهو، في سعيه إلى إسباغ مزيدٍ من العالميّة على إدارة الڤاتيكان، عيّن، في حزيران ١٩٩٦، أسقفًا كولومبيًّا مدبّرًا رسوليًّا لمجمع الإكليروس، وعيّن أسقفًا شيليًّا على رأس مجمع الخدمة الإلهيّة، وأسقفًا أميركيًّا على رأس المجلس الحبريّ للعلمانيّين. وفي العام التالي، عيّن أسقفًا مكسيكيًّا على رأس المجلس الحبريّ لرعاية العاملين الاجتماعيّين؛ وفي عام ١٩٩٨ عيّن الكردينال الفرنسيّ «روجيه إيتشيغاراي»، على رأس لجنة إعداد يوبيل العام ٢٠٠٠، ثمّ عيّنه أمين سرّ دولة الڤاتيكان، خلفًا للكردينال «كازارولّي»، فيما خلف الكردينال «إيتشيغاراي» على رأس اللجنة الحبريّة للعدالة والسلام، الأُسقف الڤيتناميّ «فرنسيس كزاڤييه نغوين ڤان تان»، الذي كان يعلّق على صدره صليبًا مصنوعًا من حديدٍ شائكٍ، يذكّره بسنوات اعتقاله. وفي حزيران ١٩٩٨، عيّن رئيس الأساقفة البرازيليّ، الكردينال «لوكاس موريرا نيڤيس» (Lucas Moreira Neves) خلفًا للكردينال الإفريقيّ «بيرناردان غانتان» (Bernardin Gantin)، الذي كان قد تولّى، مدى أربعة عشر عامًا، مركز عميد مجمع الكرادلة، وكان من أقرب معاوني الحبر الأعظم. ومضت عولمة الإدارة الڤاتيكانية قُدُمًا، بتعيين الأسقف اليابانيّ «ستيفن فوميو هاماو» (Stephen Fumio Hamao)، رئيسًا للمجلس الحبريّ لرعاية المهجّرين

روحيًّا، وبتعيين البرتغاليّ «خوسّيه سرايبا مارتنس» (José Saraiba Martins)، نائبًا لرئيس مجمع قضايا القدّيسين.

وأعاد قداسته ترتيب إدارة المكتب البابويّ، واتّخذ تدابير جريئةً مفاجئةً، بتعيينه الأُسقف الأميركيّ «جيمس هارڤي» (James Harvey)، الذي سبق له العمل في أمانة سرّ دولة الڤاتيكان بصفة مسؤولٍ عن قسم اللغة الإنكليزيّة، مدبّرًا للبيت الحبريّ؛ ولكي يتمّ تنسيقٌ محكمٌ بين عمله، المتمثّل في تنظيم مقابلات الحبر الأعظم العامّة والخاصّة، ونشاطات مكتب البابا، عيّن معاونًا له ونائبًا عنه، أمين سرّه الخاصّ «ستانسلاس دزيڤيش»، وقد رقّاهما كليهما، ومعاونًا قديمًا له، هو «پييرو ماريني» (Piero Marini)، إلى رتبة الأُسقفيّة، بتاريخ ١٩/٣/١٩٩٨، في احتفالٍ من أكثر احتفالات حبريّته تأثيرًا. وشكر للأساقفة الثلاثة الجدُد، ما قدّموه له من عونٍ على مدى سنواتٍ، وعبّر عن شكرٍ خاصٍّ لأمين سرّه، الذي كان قد رسمه كاهنًا قبل خمسةٍ وثلاثين عامًا، لكونه «قاسَمَه مِحَنه، وأفراحه، وهواجسه، طيلة عهد حبريّته».

هذه التعيينات لم يستسِغها إداريّو الڤاتيكان التقليديّون، ولا سيّما الإيطاليّين منهم، غير أنّ البابا قابل انتقاداتهم بروح الفكاهة. فبعد أيّامٍ معدوداتٍ، إذ كان قداسته قادمًا إلى لقاءٍ برفقة المدبّر الأميركيّ الجديد، راح يردّد، باللغة الإيطاليّة، مازحًا، ما كان يردّده منتقدوه سرًّا: «مدبّرٌ أميركيٌّ؟... غير معقول! والأنكى معاونه البولونيّ...».

وبعد مضيّ ثلاثة أسابيع على تلك التعيينات، دعا مجمع الكرادلة، السابع في عهده، إلى الالتئام، وسمّى، في أثنائه، عشرين كردينالاً جديدًا منهم أسقفا ڤيينّا وشيكاغو، اللذان كان قد سمّاهما حديثًا، ورؤساء الدوائر الڤاتيكانيّة الجدُد، ورؤساء أساقفة «پاليرمو»، وجنوا، ومكسيكو، وتورونتو، وليون، ودار السلام، وبلّو أوريزونتي في البرازيل، وخمسة رسميّين قدامى في الإدارة الڤاتيكانيّة، وأسقف پولونيٌّ كان مرسلاً في زامبيا، وقد بلغ السادسة والثمانين من العمر، وأوّل أُسقفٍ تيوانيٍّ يُرقّى إلى رتبة كردينال. وعيّن كردينالين آخرين «في قلبه»، لم يعلن اسمهما.

ورغبةً منه في أن يندرج انتخاب خلفائه الباباوات بأسلوبٍ معاصرٍ، يضمن مشاركةً حرّةً فاعلةً لكلّ عضوٍ في المجمع الانتخابيّ، وسلامة الانتخاب من كلّ تدخّلٍ، أو تأثيرٍ خارجيٍّ، والسرّيّة التامّة، وقّع، بتاريخ **١٩٩٦/٢/٢**، دستورًا رسوليًّا بعنوان: «راعي كلّ قطيع الربّ»، حدّد طريقة انتخاب البابا في المستقبل.

ومع أنّه لم تُسجَّل استقالة أيّ بابا، منذ عام **١٢٩٤**، إلاّ أنّه لحظ هذه الإمكانيّة، ولكأنّه كان يتنبّأ باستقالة خلفه بينيدكتُس السادس عشر.

وفي حرصه على أن تتمّ الانتخابات المقبلة في جوٍّ مريحٍ، أمر بإنشاء مقرٍّ للكرادلة المنتخِبين، سُمّي «بيت القدّيسة مرتا»، وفيه تمّ انتخاب البابا فرنسيس الأوّل.

يوحنّا بولس الثاني والسياسة

كثيرون يعدّون البابا يوحنّا بولس الثاني، من كبار اللاعبين السياسيّين في القرن العشرين. ولا جَرَم أنّه أدّى، على مسرح السياسة العالميّة، دورًا جوهريًّا وحاسمًا، حوّل مجرى التاريخ. ومن المحقّق، أيضًا، أنّه كان بعيدًا عن السياسة، بل معاديًا لها، في المفهوم الرائج للسياسة بصفتها مناوراتٍ، ودسائس، واقتناص مغانم شخصيّةٍ، أو حزبيّةٍ، أو وطنيّةٍ، على حساب كرامة الآخرين وحقوقهم، وتدخّلاً في شؤون الدول الداخليّة، ودعم نظامٍ مدنيٍّ ضدّ نظامٍ آخر، وخلطًا بين الزمنيّ والروحيّ.

فإنّما كانت سياسته تنفيذًا لواجباته الرسوليّة، التي تلزمه بالذود عن الشرائع السماويّة الخالدة، وعن كرامة كلّ إنسانٍ، وعن حقوقه الأساسيّة، وحقوق الشعوب، وبالتصدّي لكلّ امتهانٍ لها من أيّة جهةٍ أتى، وبممارسة سلطةٍ أخلاقيّةٍ تقاوم كلّ ضلالٍ، وبالسعي إلى حلّ كلّ نزاعٍ قد يودي بحيواتٍ بريئةٍ.

وقد بيّن، هو نفسه، نهج سياسته بقوله: «**ينبغي أن يظلّ الدين والسياسة منفصلَيْن. غير أنّ الإنسان المتديّن والمواطن يندمجان في شخصٍ واحدٍ، يتعيّن عليه**

النهوض بمسؤوليّاته الدينيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة...»، وقال، أيضًا: «**ينبغي أن يكون الكرسيّ الرسوليّ الصوت الذي يحتاج إليه الوجدان الإنسانيّ. وعلى سلطته الروحيّة المسكونيّة ألاّ تكفّ عن خدمة البشريّة، غير معنيّةٍ إلاّ بأن تذكّر، بلا ملَلٍ، بمقتضيات الخير العامّ، وباحترام الكائن البشريّ، وبالدعوة إلى نشر القِيم الروحيّة العليا**».

وفي الواقع، «صار يوحنّا بولس الثاني صوتًا أزعج الضمائر، ووجّه التاريخ، صوت معلّمٍ يذكّر بمخطّط الله الخلاّق، ويتفجّر من جرأة الأعماق»، على حدّ قول رئيس تحرير صحيفة «المراقب الرومانيّ».

ولئن هو اضطرّ إلى خوض معارك سياسيّةٍ، فقد خاضها بمفهومٍ روحيٍّ وأخلاقيٍّ، وبوسائل روحيّةٍ وأخلاقيّةٍ، مؤمنًا بتفوّق الروحيّ على كلّ زمنيٍّ ماديٍّ، وعلى كلّ اعتبارٍ آخر.

وقد حرص دائمًا، على أن تحتفظ الكنيسة بحرّيّتها الكاملة حيال الأنظمة المتعارضة لكي يكون انتماؤها للإنسان ولكرامته، فحسب.

فقاوم، بعنادٍ، كلّ طغيانٍ امتهن كرامة إنسانٍ، أو استلب حرّيّة أُمّةٍ واستقلالها، وكلّ ضلالٍ حاول فرض ذاته مدّعيًا تمثيل العدل والصواب، ولكنّه أبى، دائمًا، أيّ تخلٍّ عن مبادئ الإنجيل السلميّة، أو إدراج اسمه في لوائح سياسيّي العالم، اللهمّ أولئك الذين تميّزت سياستهم بالتزام نقاء السلوك، واستقامة الأساليب، ونصاعة الغايات، أمثال بطل اللاعنف، المهاتما غاندي، ورائد الدفاع عن حقوق المظلومين «مارتن لوثر كينغ».

كان يحدوه الإيمان بأنّ على الكنيسة، لكي تضطلع برسالتها، أن تكون محرّرةً من كلّ قيدٍ. وهذا التحرّر يستلزم قسطًا من سياسةٍ. بيد أنّ الكنيسة لا تبتغي منافسة السلطة المدنيّة، بل إنّ مهمّتها هي الشهادة للحقّ، في كلّ ما يتعلّق بالإنسان، وبالمجتمع، وبتاريخ البشر، وبمصيرهم. وكان موقنًا أنّ لغة الحقيقة، وحدها، كفيلةٌ بفضح الدعاوة الكاذبة، وبتحرير الشعوب من ممارسة العبوديّة. كان يقبل أيّ دعمٍ يأتيه من دولةٍ كبرى أو صغرى، كفيلٍ بخدمة

رسالته، وتسهيل مهامّ الكنيسة، ولكنّه كان يأبى الخضوع أو الارتهان لأيّة سلطةٍ مدنيّةٍ كانت، ولم يكن يخضع إلاّ للإنجيل، ولمبادئ الأخلاق، حتّى في السياسة.

وقد دفعه هذا اليقين إلى تغيير نهج سياسة الڤاتيكان، تغييرًا جذريًّا، وإلى التخلّي تدريجيًّا عن سياسة «إيستپوليتيك»، التي انتهجها البابا يوحنّا الثالث والعشرون وتابعها البابا بولس السادس، وحمل لواءها الكردينال «كازارولّي»، ربّما لأَسبابٍ فرضتها الظروف آنذاك، في حين رفض بوحنّا بولس الثاني الاعتراف بأنّ السلطة الاقتصاديّة والعسكريّة هي محرّك التاريخ التي كانت تمثّل النظرة الواقعيّة لأَسلافه، وحرص على تنفيذ رؤيةٍ للكنيسة، في العالم الحديث، كان قد دافع عنها في المجمع الڤاتيكانيّ الثاني. فهو، بصفته مسيحيًّا، كان مقتنعًا أَنّ الإنجيل هو الذي يعلن حقيقة الإِنسانيّة، ومصيرها، وأَنّ الله هو الذي يقود التاريخ؛ ومن ثمّ كان يؤمن أَنّ للكنيسة دورًا مميّزًا. وكان بقاء الأُمّة البولونيّة، وصمودها، رغم إِلغاء دولتها، حقبةً طويلةً، قد وطّدا إِيمانه بأَنّ الثقافة هي محرّك التاريخ، للمدى البعيد، على الأقلّ. ولذلك كان يرى أَنّ انتهاج سياسة «الواقعيّة» خطأٌ، لا إِنكارًا لتأثير الاقتصاد والقوّة العسكريّة، بل لليقين بأَنّ تأثير الثقافة هو أَرجح وزنًا، وبأَنّ العامل الأَخطر في الثقافة هو الإِيمان.

وبالتالي، كان يرى أَنّ التسليم بالأمر الواقع، في ميدان العلاقات الدوليّة، يجعل من التاريخ مملكة اللاأخلاق. وأَبى أَن تكون الكنيسة سلطةً سياسيّةً بين سلطاتٍ سياسيّةٍ أُخرى. وهذا لا يعني أَن تعود الكنيسة إلى الدياميس، فهي حارسة حقائق تتعلّق بالوضع الإِنسانيّ. وذلك يحتّم عليها مواصلة دبلوماسيّتها، على أَن تقوم على الثقافة، وعلى الدفاع عن الحرّيّات الأَساسيّة، الفرديّة والجماعيّة. ومن ثمّ ينبغي أَن تكون صبغة الكنيسة المميّزة، هي الشهادة لحقيقة الكرامة الإنسانيّة، ولحقوق الإِنسان التي لا يسوغ لأَحدٍ استلابها.

كان البابا يوحنّا الثالث والعشرون قد برّر سياسة «الإيستپوليتيك»، بقوله: **«عندما يكون لديّ العديد من الأبناء المسجونين لا يسعني سوى التحدّث إلى حارس السجن، لعلّني أفتح لهم نافذةً صغيرةً تزوّدهم بالقليل من الأوكسجين، يمكّنهم من**

الحياة». وقد وصف هذه السياسة بأنّها ليست «**فنّ حياةٍ، بل فنّ تجنّب الموت**».

قبل يوحنّا بولس الثاني كانت السلطات الكنسيّة تلتمس من الحكم الشيوعيّ إذناً ببناء كنيسةٍ، أو بتعيين أسقفٍ. أمّا هو فآثر المطالبة بالحقوق الجوهريّة الكفيلة بقلب الأوضاع رأسًا على عقبٍ، مثل حرّيّة العبادة، وحرّيّة التعبير، وحرّيّة القرار، التي تضمنها شرعة حقوق الإنسان.

لقد واجه قدرةً مادّيّةً طاغيةً بالقوّة الروحيّة. ومن المحقّق أنّه لو طالب أيّ أُسقفٍ بمثل ما طالب هو به، لكان السجن مصيره. أمّا هو فكان مدرّعاً بحصانة رئيس دولةٍ، فاستطاع تحدّي نظامٍ استعبد أمّةً جمعاء.

وقد مهّدت مطالبته بالحرّيّات الطريق لتغيير الأوضاع في پولونيا، وفي أوروپّا، تغييرًا جوهريًّا.

ولا مراء أَنّ ما دفع يوحنّا بولس الثاني إلى هذا التصحيح، ومكّنه منه، هو أَنّه كان قد عاش وراء الستار الحديديّ، وخَبَر ما لم يخبره المسؤولون الكنسيّون الغربيّون. كان يعلم أَنّ كلّ الدول قد ترتكب أَعمالاً إِجراميّةً، في حين أَنّ الأَنظمة الشيوعيّة هي، بطبيعتها، مشاريع إِجراميّة. فسلطة القانون فيها وهمٌ صرفٌ، في ظلّ حكمٍ دائبٍ على ممارسة القمع، ممارسةً منهجيّةً، وحيث الإِرهاب هو الوسيلة المأْلوفة لحفظ النظام، ولإِيهام الناس بأنّ هذه الأَنظمة تستعصي على القهر. غير أَنّ ذلك البابا القادم من پولونيا، قد راز وهن النظام الشيوعيّ، وقوّته الظاهريّة، وأَيقن أَنّ المقاومة الثقافيّة هي القادرة على تحطيم المناعة الوهميّة، التي تجهد الدولة المجرمة في إِبرازها للعيان.

وكان مقتنعًا بأَنّ مسيرته السابقة كانت إِعدادًا للمهمّة الجسيمة، التي انتدبته لها العناية الإِلهيّة، أَي «تثبيت إِخوته». ولذلك استهلّ حبريّته بإطلاق الشعارات التي طبعت هذه الحبريّة: «**لا تخافوا!**»، «**افتحوا الأَبواب للمسيح!**».

قبل تسنّمه منصب الكرسيّ الرسوليّ، كان يحصر اهتمامه في الدفاع عن حقوق مواطنيه الأَساسيّة، وحرّيّاتهم، وكرامتهم، وحتّى بعد انتخابه حبرًا أَعظم، كان يكتفي بمطالعة موجزٍ لمحتويات الصحف وعناوينها، كي يطّلع على

أَحداث العالم. وإِن استوقفه عنوانٌ ما، فكان يتابعه عن كثبٍ، غير أَنّه كان يؤثر استقاء الأَخبار من زائريه الأَجانب، ويكثر من دعوتهم إلى مشاركته وجباته، كي يصغي بإسهابٍ إلى أقوالهم، ويطّلع على دقائق أَوضاع بلدانهم.

ومنذ مطلع حبريّته، تبيّن أَنّ حقل السياسة مزروعٌ بعوائق تحول دون تحقيق كلّ رغباته. فقد رغب في قضاء عيد الميلاد الأَوّل، بعد تنصيبه، في بيت لحم، ولكنّه جوبه بتعذّر ذلك، من جرّاء عدم وجود علاقاتٍ دبلوماسيّةٍ بين الكرسيّ الرسوليّ، وأَيّةٍ من الدول التي تتنازع السلطة على الأَماكن المقدّسة في فلسطين. هذا الواقع أَيقظ اهتمامه بتوسيع شبكات علاقات الڤاتيكان الدبلوماسيّة، التي توفّر للكنيسة مكانًا في المؤسّسات السياسيّة، والمنظّمات الدوليّة، ومنبرًا يمكّنها من التعبير عن اهتماماتها الأَخلاقيّة، وحماية البابويّة من وصاية أَيّة دولةٍ غربيّةٍ، ويضمن لها استقلاليّتها، ويحقّق مبدأ الحرّيّة الدينيّة، ويساعدها على تنفيذ هدفها الجوهريّ، أَي التبشير بالإِنجيل، ودعم المؤمنين أَينما وُجدوا، ولعب الدور الموكل إليها، بلا خوفٍ.

بفضل اهتمامه الدبلوماسيّ هذا، قفز عدد ممثّليّات الڤاتيكان في الخارج، في عهد حبريّته من ٨٥ إلى ١٧٤ ممثّليّة. ومن أَبرز الممثّليّات التي أَنشأها، تلك التي قامت في واشنطن في عهد ريغان، وفي موسكو، في عهد غورباتشيڤ، وفي كوبا تحت حكم كاسترو، وفي عددٍ من الدول التي كانت خاضعةً للحكم السوڤييتيّ، مثل پولونيا، وتشيكوسلوڤاكيا.

وفي خلال سنوات حبريّته الستّ والعشرين، استقبل ٧٣٨ رئيس دولةٍ وملكًا وملكةً، و٢٤٦ رئيس حكومةٍ، و١٩١ وزير خارجيّةٍ، و٦٤٢ سفيرًا جديدًا.

وبالإِجمال غيّر ترتيب الأَولويّات في ميادين الدبلوماسيّة، والعمل الرسوليّ، والسعي المسكونيّ؛ ما أَدّى إلى زعزعة الحكّام الشيوعيّين، الذين طالما أَبدوا مهارةً في زعزعة استقرار الحكومات. وقلّل من شأن المفاوضات بين الڤاتيكان والحكومات التوتاليتاريّة، التي أَثبتت عقمها. وبدفاعه الحازم عن حرّيّات العالم كلّه، استمال طائفةً عريضةً من أَبرز مفكّري العالم، أَمثال «أَندري ساخاروف»،

و«ڤاكلاڤ هاڤيل». لقد ناضل على جميع الجبهات، ونفث في أَوصال الكنيسة زخمًا لم تعهد، قطّ، نظيرًا له.

وكان قد حدّد نهج دبلوماسيّته بقوله: «**ستكون علاقات الڤاتيكان، في عهد حبريّتي، علاقاتٍ ثابتةً، مهذّبةً، كتومةً، وفيّةً... ولن تتضمّن، من قبلي، تأييد هذا النظام أو ذاك، بل تثمينًا للقِيَم الإيجابيّة، وإدارة حوارٍ مع المسؤولين الشرعيّين، وفهمًا لدورهم الذي يتّسم، غالبًا، بالصعوبة، واهتمامًا بالقضايا الإنسانيّة التي ينشدونها، ودعمها، وذلك، خاصّةً، من خلال تثقيف الضمائر، والمساهمة في إقرار العدالة والسلام على المستوى العالميّ**».

لقد أَلزم الدبلوماسيّة الڤاتيكانيّة بمبدإ عدم التدخّل في الشؤون الداخليّة لأَيّة دولةٍ، وبأَلاّ تتطلّع مساهمة الكرسيّ الرسوليّ في أَيّة منظّمةٍ دوليّةٍ، إلى مصالح أو مغانم، وأَلاّ تبتغي سوى ترجيح كفّة الحقّ، والعدل، والقيَم الروحيّة والإِنسانيّة الأساسيّة، وتأكيد دور الكنيسة في العالم، وإِعلان رؤاها بعيدة الآفاق، وإِلهاماتها الكبرى، وتقديمها للّٰه ما هو للّٰه، ولقيصر ما هو لقيصر، على أَلاّ يمنعها ذلك من «روحنة» العالم، وتوجيهه نحو اللّٰه.

وهكذا، مع أَنّ دولة الڤاتيكان هي الصغرى، إِلاّ أَنّها باتت تتميّز بواحدةٍ من أَمهر الدبلوماسيّات وأوفرها جدوى، وأَرحبها عالميّةً، وأَكثرها استخدامًا لشتّى اللغات، وتلاؤمًا مع انتشار الكنيسة المسكونيّ. وقد دفع حرص يوحنّا بولس الثاني على محاورة العالم أَجمع، إلى تجديد جهاز دبلوماسيّته، وإلى عقد اجتماعٍ أُسبوعيٍّ يضمّ المسؤولين عن دبلوماسيّة الڤاتيكان، كي يتدارس معهم الأَوضاع العالميّة، والملفّات الشائكة، والأَزمات الحارقة، ويوجّه الرسائل التي تمليها بعض الحالات، ويقوم بالأَسفار التي تقتضيها الظروف.

ومن ثمّ، يخطئ كلّ من لا يرى، في إنجازات يوحنّا بولس الثاني، سوى الجانب السياسيّ منها، والذي لم يكن، في واقع الأَمر، سوى ثمرة اضطلاعه بدوره الروحيّ، وذوده الشرس عن حرّيّة الإِنسان وكرامته، ومقاومته لكلّ ظلمٍ وطغيانٍ.

كان «كارول ڤويتيووا»، منذ تعيينه أسقفًا، قد شنّ كفاحًا لم يعهد هوادةً،

دفاعًا عن حقوق الإنسان وكرامته. وكان كفاحه نابعًا من قناعةٍ راسخةٍ بأنّ الله خلق الإنسان على صورته، وأنّ ابن الله افتدى الإنسان وقدّسه بدمه، ودعاه إلى تخطّي ذاته، والتسامي فوق ظروفه الأرضيّة، فلا بدّ من أن تتوفّر له وسائل تحقيق هذا المصير. فللإنسان حقوقٌ وهبها إيّاه الله، ولا يجوز لأحدٍ استلابها وانتهاك قدسيّتها، ومن الواجب إدانة كلّ ما يصيب الإنسان بأذًى، ويعيق سعيه نحو المصير الذي دعي إليه.

هذا الإنسان، كما رآه، احتلّ صميم فكر البابا وقلبه، وعليه بنى كلّ كفاحه، وذوده عن حقوقه وحرّيّاته الأساسيّة، وظلّ هو جوهر عمله الرسوليّ، حتّى مماته، وفحوى الرسالة التي وجّهها، بلا هوادةٍ، في كلّ مناسبةٍ، وكلّ مكانٍ قصده.

هذه القناعة جسّدها يوحنّا بولس الثاني في رسالته العامّة الأولى، «فادي البشر» (Redemptor Hominis)، التي ضمّنها برنامج رسالته المرتكز على «أولويّة الإنسان»، الإنسان الواقعيّ المتمثّل في كلّ فردٍ، الإنسان الحيّ، في كيانه الذاتيّ، وفي كيانه الجماعيّ والاجتماعيّ، لا الإنسان النظريّ، الافتراضيّ، الأثيريّ، الفكرة المجرّدة. وقد أكّد البابا هذه القناعة في رسالةٍ أُخرى هي «السنة المئة» (Centesimus Annus)، وجعل من الإنسان، كما رآه، «طريق الكنيسة»، وطريقه الشخصيّ، ومحطّ نضاله.

وقد ضرب أروع مثالٍ في المقاومة الثقافيّة، التي تنبذ كلّ أساليب العنف. وبدأ كفاحه من وطنه الذي أبى الإذعان لمبادئ تعارض مبادئه، وحارب الإيديولوجيّات المضلّلة بفضح بطلانها، وزيفها وكذبها.

وواصل هذا الكفاح إثر اعتلائه السدّة البابويّة، بمزيدٍ من النجاعة، وبتأثيرٍ مضاعَفٍ. ففي زيارته الأولى لموطنه بصفته حبرًا أعظم، عام **١٩٧٩**، طالب باحترام الحرّيّات التي نصّت عليها شرعة حقوق الإنسان. ومهّدت مطالبته هذه لولادة نقابة «تضامن»، ولتمرّد عمّال الكتلة الأوروبّيّة الشرقيّة على حكم الطغيان والاستبداد. وفي أثناء زيارته التالية إلى پولونيا، عام **١٩٨٣**، ومع أنّ

هذه الزيارة كانت، ترتدي طابعًا دينيًّا رسوليًّا، لم يستطع يوحنّا بولس الثاني إلاّ الجهر أمام التاريخ، ومن أجل التاريخ، بما كان يعتمل في ذهنه ونفسه، في وجه حكّامٍ يستعبدون وطنه ومواطنيه. ومع أنّ القمع كان مستفحلاً، والقنوط يدبّ إلى النفوس، هرعت پولونيا كلّها من أجل الاستماع إليه. وفي يمّ هذا الإجماع غرق وجود الحزب الشيوعيّ، وتلاشت حكومته وبرلمانه، واحتلّ البابا الحيّز كلّه، وتقاطر مواطنوه للإصغاء إليه، وكأنّهم مصمّمون على قول «نعم»، في استفتاءٍ شعبيٍّ، وعلى التأكيد الجازم: «أجل، إنّنا نريد ما يقوله «بابانا»!

وفيما كان يوحنّا بولس الثاني يمزّق النظام إربًا إربًا، التزم النظام الصمت، مخالفًا ما درج عليه من ردود فعلٍ عنيفةٍ، وكأنّه تحت تأثير سلطةٍ لا عهد له بها، ولا يقوى على مقاومتها. هذه الزيارة الثانية أيقظت صحوةً كانت حاسمةً على مستقبل پولونيا والعالم، ورسّخت مبدأ المقاومة الروحيّة، المنزّهة من العنف، القادرة، وحدها، على الإطاحة بنظامٍ لاإنسانيٍّ. ولم يخفَ، حينئذٍ، على الزعماء الشيوعيّين مدى خطر البابا على نظامهم، خطرًا لم يكن لهم حولٌ على درئه إلاّ بقوّةٍ غاشمةٍ أثبتت فشلها.

ولا مراء أنّ إطلاق البابا هذه المقاومة قد أسهم في تحرير پولونيا ودول أوروپّا الشرقيّة والوسطى من ربقة الاستبداد الشيوعيّ، وأنّ هذا التحرير سيظلّ، تاريخيًّا، من ألمع إنجازات يوحنّا بولس الثاني. وقد أقرّ الزعيم الروسيّ، ميخائيل غوربتشيف، عام **١٩٩٢**: «لا شيءَ ممّا حدث في أوروپّا الشرقيّة، خلال السنوات الأخيرة، كان حدوثه ممكنًا، لولا وجود هذا البابا، ولولا الدور الذي لعبه على الساحة الدوليّة».

ربّما صمت، قديمًا، باباواتٌ عن مظالم طغاةٍ، غير أنّ يوحنّا بولس الثاني، في تيّار الباباوات لاون الثالث عشر، ويوحنّا الثالث والعشرين وبولس السادس، صرّح، منذ تبوّئه كرسيّ بطرس: «**لم يعد وجودٌ لكنيسة الصمت. فهي اليوم تتكلّم بصوت البابا**». وقد وصف مداخلاته، في هذا الشأن، «**بالمقاربة الصحيحة**»، المناقضة للخطابات الرسميّة الكاذبة التي تموّه الوقائع، وتشوّه الحقيقة، وتغتالها.

ثمّ، بمناسبة زيارته الرسوليّة الأولى إلى المكسيك، عام **١٩٧٩**، أكّد لممثّلي الفلاّحين: «**يبتغي البابا أن يكون صوتكم، صوت العاجزين عن الكلام، والذين يُكرَهون على الصمت قسرًا**»، ثمّ التفت إلى المسؤولين، وهتف بنبرةٍ حازمةٍ: «**والآن، أنتم أيّها المسؤولون عن الشعوب، يا أفراد الطبقات الحاكمة، إنّ الضمير البشريّ، ضمير الشعوب، وصرخة المنبوذ، وبخاصّةٍ صوت الله، وصوت الكنيسة، تردّد معي: «ليس عدلاً، ليس إنسانيًّا، ليس مسيحيًّا أن تستمرّ على هذه الحال، أوضاعٌ مجحفةٌ إجحافًا صارخًا**».

وفي السنة التالية زار البابا البرازيل، واستنكر الهوّة السحيقة بين الأغنياء غنًى فاحشًا، من جانبٍ، والأكثريّة المعدمة، من جانبٍ آخر. ولكنّه أوضح أنّ معالجة هذا الوضع الشاذّ ليس في صراع الطبقات، بل في تعليم الكنيسة الاجتماعيّ، مؤكّدًا أنّ الأرض هي هبة الله، ولا يسوغ أن تُقتَسم اقتسامًا ظالمًا يولّد أقلّيّةً محظيّةً، وأكثريّةً ساحقةً محرومةً.

ومنذ مطلع حبريّته دعا إلى إعادة نظر في السياسات السائدة، وفي الأولويّات الأساسيّة، ونصّب الحرّيّة على رأس قائمة أولويّاته، وكرّس ذاته للدفاع عنها طيلة مدّة حبريّته. الحرّيّة بكلّ أشكالها: الحرّيّة الشخصيّة، والحرّيّة الجماعيّة، حرّيّة التفكير والتعبير، وحرّيّة العبادة، وحرّيّة الحياة.

وقد وظّف كلّ طاقاته من أجل ترسيخ **حقوق الإنسان**، التي احتلّت مركز تعليمه ومبادراته، ووسّع مروحة الحقوق فطالب بحقّ العمل، وحقّ كلّ إنسانٍ بأجرٍ عادلٍ وبمسكنٍ لائقٍ، وحقّ الإنجاب المسؤول، وحقّ السلام والحرّيّة والعدالة الاجتماعيّة، وندّد بكلّ تمييزٍ عرقيٍّ، وكلّ تعذيبٍ، وخطفٍ، وحجز حرّيّاتٍ.

وناهض كلّ حركةٍ تغفل حقوق الإنسان الأساسيّة، بكلّ وجوهها، فأدان العولمة الجامحة معلنًا: «**لا يجوز أن تتحوّل العولمة إلى صيغةٍ جديدةٍ للاستعمار، بل عليها أن تحترم تعدّد الثقافات**»، وأبى أن يفرض أيّ نظامٍ اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ مهيمنٍ قيَمَه ومعاييره.

وناهض النظرة المادّيّة، فأعلن، في ألمانيا: «**لا ينحصر معنى الحياة في كسب المال وإنفاقه**». وأدان النظرة الازدرائيّة إلى الغريب، داعيًا إلى مزيدٍ من فتح الأبواب للمهاجرين.

ولطالما ندّد بصيغة الجشع الحديثة المتمثّلة في النزعة الاستهلاكيّة.

وندّد بكلّ ما يؤدّي إلى التجويع والحرمان. فمنذ خطابه الأوّل في اليونيسكو، عام ١٩٨٠، أعلن: «**ما من إنسانٍ، ما من بلدٍ، ما من نظامٍ في العالم، يسعه ألاّ يبالي «بجغرافيّة الجوع»**».

وما انفكّ على امتداد أكثر من ربع قرنٍ يدين، بحزمٍ، وبلا هوادةٍ، كلّ تجاوزٍ وانتهاكٍ للحقوق الإنسانيّة، واللامساواة بين البلدان والقارّات، وبين طبقات البلد الواحد، واليأس الذي تتردّى إليه أسرٌ محرومةٌ، واستغلال الشعوب، وعدم احترام النساء العاملات، وعمل الأولاد، وتحويل العناية الصحّيّة، المفروض أن تكون خدمةً، إلى مصالح تجاريّةٍ، واستغلال البيئة والموارد الطبيعيّة، بلا حدودٍ ولا قيدٍ، عملاً بالعقليّة النفعيّة الحديثة.

وأبى يوحنّا بولس الثاني الاستسلام لواقع البؤس وقدره، وأعلن، بمناسبة تطويبه مؤسّس جمعيّة القدّيس منصور دي پول، فريديريك أوزانام، الذي كان قد سبق كارل ماركس، في التنديد باستغلال الإنسان للإنسان، معلنًا: «**كلّ مجتمعٍ يرتضي التسليم بواقع البؤس، على أنّه قدرٌ محتومٌ، يلوّث شرفه**».

لقد قاوم كلّ التجاوزات التي تُلحق أذًى وحرمانًا بالأفراد والجماعات، وأكّد أنّ الكنيسة لا تقدّم نظامًا اجتماعيًّا مكتملاً جامدًا ملزمًا، ولكنّها تقتضي من كلّ نظامٍ سياسيٍّ واقتصاديٍّ تشجيع التضامن الذي يضمن العدالة الاجتماعيّة للجميع. وفي هذا السياق أدان كلّ استخدامٍ للدين من أجل أهدافٍ سياسيّةٍ، وكلّ لجوءٍ إلى أساليب لا تتوافق مع تعاليم الإنجيل، وكلّ انتماءٍ إلى حركاتٍ سياسيّةٍ عنيفةٍ حتّى من أجل أهدافٍ عادلةٍ، كما كانت حال ما سُمّي «لاهوت التحرير»، مذكّرًا بأنّ يسوع يدين كلّ عنفٍ، وأنّ الحلّ الماركسيّ ليس الحلّ الصحيح، لأنّه يحوّل «الأنسنة» إلى مادّيّةٍ، هي «إنسانيًّا»، خاطئةٌ. والكنيسة

تأبى أن يكون الإنسان مجرّد جزءٍ من آلةٍ إنتاجيّةٍ عمياء، بل تريده أن يكون صانع مصيره الاقتصاديّ والسياسيّ؛ والكنيسة تضع كرامة الإنسان فوق كلّ اعتبارٍ، ولا تحتاج إلى الاستعانة بأيّة نظريّةٍ لتحرير الإنسان تحريرًا حقًّا.

ديدنه الدائم كان الذود عن الفقراء والمنبوذين ومسلوبي الحقوق، على حدّ تصريحه: «**إنّني صوت من لا صوت لهم، الأبرياء، الذين يقضون نحبهم، افتقارًا إلى الخبز والماء**». ومثلما دافع عن حقوق الأفراد دافع عن حقوق الدول، ولا سيّما أنّه كان ابن وطنٍ عانى، طويلاً، تعدّيات دولٍ مجاورةٍ، غربيّةٍ طمعت في ابتلاعه، وشرقيّةٍ جهدت في استعباده. فذاد عن حقوق الدول بالوجود وبحرّيّة القرار، مؤكّدًا أنّ حقوق الأمّة وحقوق الأفراد متلازمةٌ، فلا حقوق للإنسان حيث حقوق الأُمّة منتهكةٌ. ومن ثمّ طالب بإصدار شرعة حقوق الأُمم على غرار شرعة حقوق الإنسان، مشدّدًا على تأكيد «**أنّ حقّ دولةٍ بالوجود يسبق، بالتأكيد، كلّ حقوقها الأُخرى**».

وكان **لإحلال السلام القسط الأكبر من جهوده الدبلوماسيّة**. منذ البدء أَعلن: «**السلام هو رسالتنا**»، وأَيقن أَنّ السلام هو أَولويّة أَهداف زماننا، إِذ ما انفكّ العنف، منذ أَكثر من قرنٍ، يحصد ملايين الضحايا، ويبثّ الرعب في الصدور. فحقبتنا هي أَشدّ حقب التاريخ ازدحامًا بالخلافات الدامية، والصراعات هي الأَشدّ فتكًا، لأَنّ الأَسلحة أَصبحت أَكثر تدميرًا وقتلاً، ولأَنّ هذه الحقبة هي الأَبعد عن الله.

وقد انبرى يوحنّا بولس الثاني، الذي كان يرين تحت وقر مسؤوليّته عن ملايين البشر، للسعي إلى إِحلال السلام، أَينما استطاع. ودعا إلى نظامٍ دوليٍّ جديدٍ، يتضامن فيه الجميع على تعبيد سبيل السلام الحقّ. ولكي يقوم هذا السلام على أُسسٍ متينة، أَوضح: «**ينبغي أَن يستهدي العمل السياسيّ بمبادئ أَخلاقيّةٍ ساميةٍ، تنيرها نظرةٌ كلّيّةٌ إلى الإنسان**». كان موقنًا أَنّ السلام هو الإِيمان بحقيقة الله وحقيقة الإِنسان، والسلوك على ضوء هذا الإِيمان. فعندما «يحيا» الإِنسان الله، يكون بسلامٍ مع ذاته ومع الآخرين.

وقد أَوضح موقفه، في هذا المجال، بتصريحه أمام الهيئة الدبلوماسيّة المعتمدة

في الڤاتيكان: «**إنّ أدوات الحرب لا تني تتنامى، فهل علينا، نحن، أن نكفّ عن الدعوة إلى السلام؟**».

لقد توخّى إِحلال سلام المسيح، لا سلام العالم الزائف، سلام البشر مع الله من خلال التبشير بالحقيقة ومثال القداسة، وسلام الإِنسان مع أَخيه الإِنسان، من خلال العمل الراعويّ، والدعوة الملحّة إلى المصالحة والمحبّة؛ وسلام الإِنسان مع ضميره، بتجنّب الشرّ.

على نقيض السياسيّين، كان يقول: «**إن ابتغيت السلام، فأعدّ له**». وهو كان يرى أَنّ مركز الحرب والسلام هو قلب الإنسان، وعلى حدّ قوله: «**الإنسان هو الذي يقتل وليس سيفه**». فجهد في اجتثاث أَسباب الحرب من قلوب البشر، مؤمنًا أنّ السلام لا يحقّقه الجنود ولا الدبلوماسيّون، ولا الله وحده، بل هو ثمرة تعاون إِرادة البشر الطيّبة مع إِرادة الله، الذي حرَّم القتل.

ولئن اعتمد الزعماء السياسيّون وسائل خاصّة، يزعمون بها إِقرار السلام، فالزعماء الروحيّون لا يملكون سوى المبادئ الروحيّة والأَخلاقيّة، فهي قوّتهم الوحيدة، وهي جواب البابا الوحيد على تساؤل الزعيم الشيوعيّ، المفعم تهكّمًا وغطرسةً: «كم هي كتائب الڤاتيكان؟».

كان راسخ الإِيمان أَنّ درب العنف لا نهاية له، ولا مخرج منه، وأَنّ الخلافات لا تُحلّ بالعنف؛ وأَيقن أَنّ جدران البغض أَدهى من جدران الفصل، جدران العار التي تنشأ هنا وهنالك، لأَنّها ثمرة الحقد، ومتجذّرةٌ في الشرّ، الذي لا يقهره سوى المحبّة. ولذلك قاوم بحزمٍ «ثقافة الموت» المستشرية.

وقد أَوضح موقفَه، مندوبُه، الكردينال «إتشيغاراي»، الذي قال، عام ٢٠٠٨: «إنّ السلام شخصٌ يدعى يسوع المسيح، وأَساسه قلب الإِنسان... في المشهد الفوضويّ المحيق بنا، لم تتسلّل الحرب إلى قلب السلام، مثلما هي اليوم. فقد تسرّب العنف الأَعمى، والمتعدّد الأَشكال، إلى كلّ مكانٍ، حتّى جعل من السلام محاربًا. ما من حربٍ يمكن اعتبارها مقدّسةً. والحوار كفيلٌ بإصلاح كلّ شيءٍ. الحوار اسمٌ آخر للسلام».

إنّ احتدام الصراعات الكبرى، وما تحمله، في طيّاتها، من نُذُرٍ رهيبةٍ، لا تستثني إمكانيّة الفناء الشامل، الذي قد ينجم عن استخدام الأَسلحة النوويّة، قد دفع يوحنّا بولس الثاني إلى التسلّح بالإيمان، والجرأة، وبدأبٍ لا هوادة فيه، بغية التصدّي لكلّ مصادر النزاع وأسبابه. وكان السلاح الأمضى الذي امتشقه هو **الصلاة**. وكانت جغرافيّة صلاته، جغرافيّة حبٍّ يغشى المسكونة كلّها. فهو، بها، يجوب العالم كلّ يومٍ، ولا سيّما المناطق التي تمزّقها النزاعات، الدامية غالبًا.

لقد استعان بالربّ الذي قال: «بمعزلٍ عنّي لن تقووا على شيءٍ»، الربّ الذي دعا إلى السلام، وإلى الإطاحة بقوى الشرّ والموت. تذرّع بوصيّة الله الذي قال: «لا تقتل»، واستحقّ تطويب يسوع، لأنّه كان صانع سلامٍ.

سار في تيّار أسلافه، فاثنان منهم: بيندكتس الخامس عشر وپيّوس الثاني عشر، خبرا أهوال الحروب؛ واستلهم رسالة البابا يوحنّا الثالث والعشرين «سلامٌ في الأَرض» (Pacem in terris)، ونداء بولس السادس إلى السلام من فوق منبر الأُمم المتّحدة، ومقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، ولا سيّما «فرح ورجاء». ومضى قُدُمًا في نهج البابا بولس السادس، الذي أَقام يومًا عالميًّا للسلام، تصلّي فيه الكنيسة كلّها، في مطلع كلّ سنةٍ جديدةٍ، لهذه الغاية. وهو، كلّما شارك المؤمنين صلاة التبشير من نافذة مقرّه، كان يلتمس معونة سيّدة السلام، ويدعو للسلام، عندما يشارك المؤمنين تلاوة المسبحة الورديّة، يوم السبت الأَوّل من كلّ شهرٍ، منددًا بالعنف أيًّا كان مصدره، وبالقتل أيًّا كان مرتكبه، مردّدًا، بلا هوادةٍ: «**كفى حروبًا، كفى مجازر، كفى سفك دماءٍ بشريّةٍ!**».

وبمناسبة لقاء الأَديان الذي دعا إليه في «أَسّيزي»، في **٢٠٠٢/١/٢٤**، هتف: «**باسم الله، فلتُقِمْ جميع ديانات العالم العدل والسلام على الأَرض**». وكان قد أَطلق مثل هذه الدعوة، في لقاءين سابقَيْن مماثلَيْن. وكان السلام هو إحدى النِعَم التي يلتمسها، بحرارةٍ، في كلّ صلواته اليوميّة.

وفي سبيل إقرار السلام، استخدم، إلى جانب الصلاة، وسائل عديدةً أُخرى، أَهمّها: تعاليم ورسائل، وحضوره الشخصيّ إلى بؤَر النزاع، ومناشداته

زعماء العالم، وضمائر البشريّة. وقد ناضل بلا هوادةٍ، ملقيًا الخطابات، ناشرًا الكتب والمقالات، وبياناتٍ مطالبةً بالسلام، بلغ مجموعها ستّةً وعشرين بيانًا تمثّل، في هذا المجال، مجموعةً فريدةً.

ووظّف نفسه وحضوره، فاضحًا أوضاع العالم الشاذّة المتفجّرة، مندّدًا بإهمال المستضعفين، وبالتعدّيات الواقعة على أبرياء، مطالبًا بالحرّيّات المصادَرة. وكان حاجَّ سلامٍ لا يكلّ، ولا يني يذرع المسكونة من أقصاها إلى أقصاها، داعيًا إلى المصالحة، متصدّيًا للطغيان والطغاة، بجرأةٍ نادرةٍ، كادت تكلّفه حياته. وقد قام بمئةٍ وأربعِ رحلاتٍ دوليّةٍ، لأغراضٍ سلميّةٍ وإنسانيّة، لم يضاهِه بمثلها أيّ زعيمٍ سياسيٍّ في العالم، ولم يكن لأيّ زعيمٍ مثل إشعاعه ونفوذه وتأثيره. وقد ردَّت قوى الشرّ على مساعيه هذه، بمحاولتي اغتيالٍ، إحداها في ١٩٨١/٥/١٣، والأُخرى في ١٩٨٢/٥/١٢. وردّت المافيا الصقلّيّة على فضحه لجرائمها، باعتدائها على كاتدرائيّاتٍ وكنائس.

وكانت توجعه، في الصميم، المجازر الوحشيّة المرتكبة في أماكن متعدّدةٍ من المسكونة، كتلك التي ارتُكِبت في البوسنة ورواندا. وهذه الأوجاع، والآلام الناجمة عن أمراضه والاعتداءات النازلة به، كان يقدّمها قربانًا على مذبح السلام.

وفي سبيل إحلال السلام، كان يلتقي، باطّرادٍ، معظم مسؤولي العالم السياسيّين، من كلّ الأطياف والاتّجاهات، فيستضيفهم أو يحلّ ضيفًا عليهم، فيشجب الجرائم، وكلّ امتهانٍ لكرامةٍ أو حقٍّ، مذكّرًا بالواجبات الإنسانيّة.

وفي مطلع كلّ عام، كان يستقبل سفراء وممثّلي الدول المعتمدين لدى الڤاتيكان، ومن حواره معهم يتسنّى له رسم لوحةٍ عن أوضاع العالم. كان قد رفع شعار: «**ينبغي أن تحلّ أسلحةُ الحوار محلّ حوار الأسلحة**». وفي كلّ مناسبةٍ، كان يبرهن عن انفتاحه وجاهزيّته للحوار، مع حرصه على انتباذ كلّ مراوغةٍ أو مصانعةٍ، والتزامه بالصراحة والوضوح، وقرن الكياسة بالحزم. وعندما يكون محاوروه صادقي النوايا، غالبًا ما يفضي الحوار إلى سلامٍ. أمّا المفتقرون إلى صدق النوايا، فيخاطبهم على

موجات الأَثير، مدينًا كلّ عَملٍ لاإِنسانيٍّ أَو لاأَخلاقيٍّ. وفي أَوضاعٍ خاصّةٍ، كان يلجأ إلى الدبلوماسيّة الصامتة التي يدعمها بصلاته.

ولطالما أَطلق دعوات السلام من فوق أكثر منابر العالم تأثيرًا، وأَبعدها صدًى، مثل منبر الأُمم المتّحدة. وحيث لا تتيح له الظروف الحضور الشخصيّ، يوفد مندوبين يتكلّمون بلسانه، ويبلّغون رسائله. فذلك الخارج من بلادٍ تفرض على رعاياها الصمت، حرص على إِسماع صوته عاليًا.

فقد كانت غاية رحلته الرسوليّة الثالثة، في ١٩٧٩/١٠/٢، مقرّ الأُمم المتّحدة في نيويورك. وفي طريقه عرَّج على جمهوريّة إِيرلندا، حيث أَوضح جوهر توجّهه، معلنًا: «**إنّ ما تحظره علينا المسيحيّة هو نشدان حلولٍ للسلام في الحقد، والقتل، والإرهاب. يجب أَن يتقيّد ضمير البشريّة بوصيّة «لا تقتل»، لكيلا تتكرّر مأساة قايين الرهيبة... إنّ شريعة الله تسمو فوق كلّ إِرادات الدول**». ثمّ، من فوق منبر الأُمم المتّحدة، أَدلى بدفاعٍ ملتهبٍ عن السلام، منوّهًا بمقام الكرسيّ الرسوليّ الروحيّ، الذي يضعه فوق السياسات المحلّيّة، لأَنّ دافعه هو خدمة كلّ إنسان، والذود عن حقوقه، في كلّ مكانٍ، وداعيًا العالم إلى الاتّعاظ بِعِبَر الحرب العالميّة الثانية، مشدّدًا: «**لا شيء يبرّر القمع، والاضطهاد، والتعذيب... لست أَستطيع الصمت، وأَنا قادمٌ من بلدٍ دفع ملايينُ من مواطنيه ثمنَ إعلان حقوق الإِنسان، وثمن بهيميّة قامعيه. هذا ما دفع سلَفي (بولس السادس) إلى إطلاق صرخةٍ أَودّ أَن أكرّرها: «لا حرب بعد الآن...» إنّ أَساس العدل والسلام هو الإِنسان، وتفوّق القيَم الروحيّة على القيَم المادّيّة**». وإنّما عكسُ هذه المعادلة، وانتفاءُ المساواة في توزيع الخيرات المادّيّة، هما اللذان يولّدان الظلم، والفرقة، والبغضاء، ويؤدّيان إلى خلافاتٍ تدمّر الإِنسان. فلا مفرّ من احترام كلّ حقوق الإِنسان، كالتسامح، وحرّيّة الضمير، والحرّيّة الدينيّة. وخلص إلى القول: «**إنّ إِرث السلام والإخاء، هو الذي ينبغي أَن نتركه للبشر، وبخاصّةٍ للصغار**». هذه الكلمات المتفجّرة من قلبٍ مؤمنٍ فجّرت رعدًا من التصفيق، وخلّدت صورة ذلك الرجل المهيب المتسربل بالبياض، وهو يخترق صفوف ممثّلي العالم، الذين نهضوا وقوفًا لتحيّته.

هذه الرسالة كرّرها يوحنّا بولس الثاني، بعد سنةٍ، من فوق منبر اليونسكو

بباريس. ثمّ عاد فاعتلى منبر الأُمم المتّحدة، بعد ستّة عشر عامًا، وقد أثقلت خطواتِه السنون، والآلام، والجهاد، ولكنّ قلبه ما برح ملتهبًا بالحرارة عينها. وفي هذه الأَثناء، كان خطابه الأَوّل قد أَثمر تحوّلاتٍ جوهريّةً في أوروبّا الشرقيّة، وأَسهم في لجم الحرب في لبنان، وفي فضّ خلافاتٍ عديدةٍ، مع أَنّ بؤر صدامٍ كثيرةً ما برحت متّقدةً.

وبتاريخ ١٩٩٥/١٠/٥، أَلقى من فوق منبر الأُمم المتّحدة، خطابًا آخر تاريخيًّا، ضمّنه ثمار خبرته الطويلة الغنيّة، خطابًا كثيفًا حلّق به إلى قمم الفكر والروح، وبسط، من خلاله، رؤاه للتاريخ، والحرّيّة، والأُمم. وممّا جاء في هذا الخطاب: «**الحرّيّة هي مقياس كرامة الإنسان وعظمته. وإنّما مشكلة العالم المعاصر، تكمن في ممارسته هذه الحرّيّة ممارسةً مسؤولة**». وقد أكّد أَنّ الحرّيّة مرتبطةٌ بالحقيقة، فبها تتحقّق، وبها تبلغ نبلها وعظمتها.

وبهذه المناسبة، طالب بوضع شرعة «حقوق الأُمم» التي يحقّ لها العيش في سلامٍ وتوازنٍ بين الخاصّ والعامّ، وفي احترامٍ للأُمم الأُخرى. وتمنّى أن تتحوّل منظّمة الأُمم المتّحدة «مركزًا أَخلاقيًّا» و«أُسرة أُممٍ» متضامنةٍ تحيا في وفاقٍ، ومساواةٍ في الحقوق، وهكذا تزول التوتّرات والحروب، وتحلّ محلّها ثروة الثقافة البشريّة المشتركة. وخلص إلى القول: «**يجب أَن نتغلّب على خوفنا من المستقبل. ولن نقوى على ذلك إلاّ متضامنين معًا، جاهدين في بناء حضارة الحبّ، القائمة على مبادئ السلام، والتضامن، والعدالة، والحرّيّة... إنّ روح هذه الحضارة هو ثقافة الحرّيّة. لا نخافنّ من الإنسان، فهو مصنوعٌ على صورة الله، ومعه نستطيع أَن نوفّر، للأَلفيّة القادمة، حضارةً تليق بالكائن البشريّ، وثقافة حرّيّةٍ حقّةٍ. إنّنا نستطيع أَن نفعل ذلك، وواجبنا أَن نفعله. وهكذا، ستكون دموع هذا القرن، قد مهّدت الدرب لربيعٍ جديدٍ للبشريّة**».

هذا الخطاب قوبل بتصفيقٍ مدوٍّ. وليته قوبل بعزيمةٍ دوليّةٍ صادقةٍ على السير بنهجه، وإذن لكان أَضحى أَساسًا لعهدٍ ذهبيٍّ للبشريّة!

وما انفكّ قداسته يدعو، في كلّ مناسبةٍ، إلى وضع شرعة أُممٍ، ترتدي طابعًا

أَخلاقيًّا أكثر منه سياسيًّا، وينظّم لقاءاتٍ ومحاضراتٍ، يشارك بها خبراء في شتّى المجالات، سعيًا إلى تحقيق هذه الدعوة، وتذكيرًا بالقِيَم التي، بمعزلٍ عنها، لا تقوم قائمةٌ لحضارةٍ تليق بالإِنسان.

وفي مطلع عام ١٩٩٧، خاطب ممثّلي الدول المعتمدين لدى الڤاتيكان، فقال: «**لطالما كان الحقّ الدوليّ حقّ حربٍ وسلامٍ. وهو مدعوٌّ، لأَن يصبح، أكثر فأكثر، وحصرًا، حقّ سلامٍ قائمٍ على العدالة والتضامن. ينبغي أن تخصب الأخلاقُ الحقوقَ، حتّى تكون لها الأَولويّة عليها...**».

وفضلاً عن كلّ ذلك، ندّد بكلّ أَصناف الخطف، وبحجز حرّيّة سياسيّين يختلفون، في الرأي، عن حكّامهم. وهو الذي شهد أَهوال القمع، انبرى لمكافحة كلّ أَصناف العبوديّة، وللتنديد بجرائمها، ماضيًا وحاضرًا، ولا سيّما أَنّه كان لمسيحيّين يدٌ في ارتكابها، ولم يتردّد في الاستغفار عنها علنًا.

وذاد، بجرأةٍ، عن كرامة المرأة، وطالب بمنحها حقوقها الإِنسانيّة الأَساسيّة، فرديّةً، وعائليّةً، واجتماعيّةً، وسياسيّةً. وقد دعم مطالبته هذه بتطويبه طائفةً من النساء، اللواتي جلّين في هذه المجالات المختلفة.

وحرصًا منه على السلام، أَقدم على مبادراتٍ ممعنةٍ في الجرأة، في أزماتٍ دوليّةٍ عديدةٍ، نشير، في ما يلي، إلى بعضٍ منها:

فهو لم يستطع إِلاّ التوسّط لوقف سفك الدماء، في الصراع الناشب بين فرقاء كانوا إِخوةً في إِطار يوغوسلاڤيا السابقة، وفرّقهم اختلاف الإِثنيّات، والأَديان، والمذاهب، فتناحروا وتذابحوا. ولم يضنّ بوسيلةٍ كفيلةٍ بإِحلال السلام بينهم، فكثّف اتّصالاته بكلّ القادرين على تحقيق السلام، وأمعن في الصلاة والصوم، وأَمَّ، شخصيًّا، ساحات الصراع، أَملاً في أَن يساعد حضوره على بلوغ الغاية المنشودة.

ورفع الصوت عاليًا، لمنع حرب العراق المشؤومة، ولكنّ «بوش» ومستشاريه وأعوانه كانوا قد أَعدّوا مخطّطًا إِجراميًّا، لم يقبلوا التخلّي عنه. أَمّا هو فقد أَعلن أَمام الهيئة الدبلوماسيّة في الڤاتيكان: «**ليست الحرب قدرًا محتومًا. وهي، دائمًا، هزيمةٌ للبشريّة...**». وكان الڤاتيكان من الدول القليلة التي لم تغلق مقرّ ممثّليّتها

في بغداد، وبذلك أثبت للعالم أنّ الحرب الرعناء، ليست حربًا دينيّةً، وقد أثبتت المجازر التي لم تتوقّف، بعد تلك الحرب، صواب تحذيره: «**قد يكون سهلاً إحراز النصر في الحرب، ولكن ليس سهلاً كسب معركة السلام والعدل...**».

في ميدان صراع الشرق الأوسط، لم يحدْ عن مبادئ ثابتةٍ: احترام قرارات الأمم المتّحدة، القاضية بانسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلّتها عام ١٩٦٧؛ وحقّ الشعب الفلسطينيّ بدولةٍ مستقلّةٍ كاملة السيادة؛ وواجب عون اللاجئين الذين هُجّروا من ديارهم.

وقد أولى اهتمامًا أبويًّا بلبنان، ودعا إلى سينودسٍ خاصٍّ به، عام **١٩٩٥**، قبل أن تتاح له زيارته عام **١٩٩٧**.

وانحنى، بعطفٍ، على أوجاع القارّة الأفريقيّة، ومعاناتها الفقر، والحرمان، والصراعات الداخليّة الدامية، التي جرَّت مآسي رهيبةً، ولا سيّما في «رواندا». وكان حازمًا في شجب الأسباب التي أفضت إلى تلك الجرائم البشعة، وفي تنديده بلا مبالاة المجتمع الدوليّ حيالها.

ولم يطق الصمت عن الجرائم التي ارتُكبت في دارفور، وعن المجازر العبثيّة في الجزائر، رافضًا، رفضًا قاطعًا، «القتل باسم الله».

وكم من الحروب التي أغمض العالم عيونه عنها، ولم يستطع يوحنّا بولس الثاني إلاّ لفت الأنظار إليها، ولا سيّما في أميركا الوسطى، وأميركا الجنوبيّة! وكان له مداخلاتٌ تاريخيّةٌ في بعضٍ منها، مثل نيكاراغوا، وتدخّل لفضّ الخلافات بين الأرجنتين والشيلي، والأرجنتين وإنكلترا، وجهد في رفع حصار الولايات المتّحدة عن كوبا.

لقد أكّد حضوره بكلّ القضايا التي تهمّ الإنسان، وبالمعاهدات المتعلّقة بنزع السلاح، وبمنع الأسلحة الكيميائيّة، والألغام ضدّ الأشخاص، كما أنّه اهتمّ بقضايا البيئة. فالكنيسة، بصفتها الروحيّة، تسمو فوق قضايا البشر الأرضيّة، ولكنّها لا تستطيع إلاّ الاهتمام بها، من أجل الترقّي بها، وسوى روحنتها، لأنّها مكلَّفةٌ بأن تكون للعالم نورًا، وخميرة خيرٍ.

وقاوم آلة المحق الجبّارة، التي أَراد السوفيتيّون سحق العالم بها، قاومها بأَيدٍ عاريةٍ لا تمسك سوى مسبحة صلاةٍ، ومستعينًا باللّه القادر، وحده، على النصر، في معركةٍ تتخطّى قدرات البشر والدول.

لم تكن له السياسة سوى حبّ الإِنسان، والذود عن حقوقه وكرامته، باسم شريعة الحبّ. وعلى ضوء هذا الإيمان، وجّه مساعيه الدبلوماسيّة، فأفلت من شرك الانحرافات والتقلّبات السياسيّة، لأنّه، في صمت مصلاّه الخاصّ وخشوعه، سما بالسياسة إلى مستوى كهنوتٍ.

لقد وضع خير الإنسان في صلب كلّ مسعًى وعملٍ. فاهتمّ بكلّ ما يتعلّق بالإنسان على هذه الأرض، موقنًا أنّ كلّ سياسةٍ مشروعةٍ هي «**من الإنسان، يمارسها الإنسان، من أجل الإنسان**»، وأنّه يتعذّر الذود عن أولويّة الإنسان، إلاّ بالدفاع الملتزم عن حرّيّاته المدنيّة، وعن العدالة الاجتماعيّة.

اهتمام الكنيسة الصريح بحقوق الإنسان، كان البابا يوحنّا الثالث والعشرون قد استهلّه برسالته العامّة «سلام على الأرض» (Pacem in terris)، وسار، في تيّاره، المجمع الفاتيكانيّ الثاني. وإِن مضى يوحنّا بولس الثاني، بحزمٍ وجرأةٍ، في هذا المضمار، فلأنّه كان شاهدًا حيًّا على امتهان الحرّيّة والكرامة في وطنه، وفي عدّة دولٍ مجاورةٍ. ومنذ اعتلائه الكرسيّ الرسوليّ، جعل من الدفاع عن هاتين الحرّيّة والكرامة، هدفًا رئيسًا لحبريّته، كما بيّنت رسالته العامّة الأولى «فادي البشر» (Redemptor hominis)، التي سبق لنا الإشارة إليها، موضحًا أنّ الدفاع عن هذه الحقوق يقتضي إيلاءها الأولويّة، حتّى على حقوق الكنيسة المادّيّة والإداريّة، إذ لا تجوز المساومة على حقوق الإنسان، في سبيل الحصول على امتيازاتٍ للكنيسة.

ولا ريب أَنّ قدوم يوحنّا بولس الثاني من كنيسةٍ مضطهَدةٍ، مهضومة الحقوق، قد أَضفى على دفاعه عن حقوق الإِنسان مزيدًا من التأثير والمصداقيّة. وقد دفعه هذا الواقع إلى الدفاع، بالغيرة عينها، عن حقوق الأُمم.

فلا وجود لحقوق الإنسان في أُمّةٍ منتهكة الحقوق. إنّ حقوق الفرد والأُمّة

مرتبطان ارتباطًا وثيقًا. وقد أعلن يوحنّا بولس الثاني، عاليًا: «**لا يحقّ لشخصٍ أو لدولةٍ، أو أُمّةٍ، أو منظَّمةٍ دوليّةٍ، إنكار حقّ أيّة أُمّةٍ في الوجود**».

ولا بدّ من التنويه بأنّ يوحنّا بولس الثاني، في سياق نضاله عن حقوق الإنسان وكرامته، لم يستلهم سوى مبادئ الإنجيل والأخلاق، خدمةً لله من خلال خدمة الإنسان.

ولطالما أَكّد أَنّ المسيحيّة ليست إِيديولوجيَا، بل هي مبادئ كفيلةٌ بتوجيه الحركات الاجتماعيّة، والسلوك السليم، معلنًا: «**كلّما اقتربت الكنيسة من الله، كانت أَقرب من البشر**»!.

وهو لم ينحزْ إلى أيٍّ من النظامين السياسيّين العالميّين المتناقضين والمتصارعين: الرأسماليّة الغربيّة، فاقدة الروح، والتوتاليتاريّة الماركسيّة، التي، خلافًا لشعاراتها البرّاقة، زادت الفقراء فقرًا، وانتهكت كرامة الفرد، وقتلت روحه.

ولطالما صرّح عن أسفه لأَنّ مسيحيّي الغرب قد أَوغلوا في العلمنة، بحيث تردّوا إلى الإلحاد، على غير وعيٍ منهم.

كان واثقًا أنّ إِشكاليّة التاريخ المعاصر، هي تنكّره لصورة الإنسان المسيحيّة، الإنسان القادر على التوفيق الكامل بين الحرّيّة والعدالة، بين الحرّيّة والمحبّة. ولذلك هو قاوم كلّ سيطرةٍ على الفقراء، بسلطة المال، وكلّ أَنانيّةٍ، وقمعٍ، وكلّ تجاهلٍ لأولويّة القيم الأَخلاقيّة العميقة، وكلّ لامبالاةٍ قد تؤدّي إلى إنكار الآخر ورفضه، وبالتالي إلى إِنكار الذات.

وما أكثر ما ندّد باندفاع دول العالم، إلى إِنفاق أَموالٍ طائلةٍ على تكديس ترسانات أَسلحةٍ، تضمن لها القوّة والغلبة، مؤمنًا أَنّ سلاح المحبّة التي بشّر بها الإنجيل، هو الكفيل ببناء مجتمعٍ أَمنع من كلّ أَسلحة الدنيا.

ربّما عدّ البعض رؤيته هذه حلمًا طوباويًّا. ولكن أَليست الأَحلام التي تحقّقت، هي التي صنعت الحضارات؟

موقف يوحنّا بولس الثاني هذا، شهد عليه غورباتشيف، الذي صرّح لصحيفةٍ

إِيطاليّةٍ: «لا يمكن إِنكار فضل قداسته في مصارعة التوتاليتاريّة. ولكنّ تكوين لوحةٍ مكتملةٍ عن شخصيّته، يقتضي التذكير بأَحكامه بالغة القسوة بشأن الرأسماليّة، وذلك باسم «أَنسنةٍ حقّة».

ولا بدّ هنا من التنويه بموقف يوحنّا بولس الثاني المسيحيّ، الثابت والمبدئيّ من التيّارين العالميّين المتناقضين، واللذين تصارعا في القرن العشرين، وشطرا المسكون إلى فريقين متناحرين: الرأسماليّة الغربيّة، والتوتاليتاريّة الماركسيّة، اللتين أقرّ البابا بمواطن صحّتهما، ولكنّه شجب بشدّة، أضاليلهما الجسيمة.

لقد شنّ حملةً شعواء على الشيوعيّة بسبب تعدّياتها على الحرّيّات، والحقوق الإنسانيّة الأساسيّة، واعتبارها الفرد أداةً مسلوبة الإرادة والحرّيّة في خدمة الدولة. وبسبب استلابها الإنسانَ روحَه، وإبعاد اللّه عنه ونفيه عن اللّه. ولكنّه، بالمقابل، لم يصانع الليبيراليّة المنفلتة من كلّ قيدٍ أخلاقيٍّ، وأدان تجاوزاتها إدانةً صارمةً.

لقد أكّد بوضوح استحالة التوفيق بين الماركسيّة والمسيحيّة، وأفلحت مساهمته في تحرير الدول الأوروبّيّة الخاضعة لطغيان النظام الشيوعيّ، ما أدّى، بالتالي، إلى انهيار الاتّحاد السوڤييتيّ المصطنع، الذي قام على الطغيان واغتيال الحرّيّات. ولكنّه أوضح أنّ النظام الشيوعيّ قد سقط بجريرة كلّ الخطايا التي ارتكبها بحقّ الإنسان، فالإنسان هو القيمة العليا، والمعيار الوحيد لسلامة السياسة الاقتصاديّة والاجتماعيّة. بيد أنّه أعلن أنّ سقوط الشيوعيّة لا يعني انتصار الرأسماليّة التي لا يبرّرها سوى سعيٍ صادقٍ إلى خير كلّ إنسان، وصون حرّيّته، وحقيقته، وكرامته، والدعوة إلى التضامن بين البشر. ولطالما أكّد «**أنّ النظريّة القائلة إنّ سقوط خرافة الشيوعيّة هو دعوةٌ إلى انتهاج حرّيّة السوق، تبرهن، يومًا، فيومًا، عن حدودها وخطلها**». ولطالما أكّد أنّ النظام الرأسماليّ ليس هو النظام الأمثل. و«**أنّ الكنيسة، مع إدانتها الجازمة للشيوعيّة، قد نأت، دائمًا، بنفسها عن الإيديولوجيات الرأسماليّة... فالاستغلال الذي مارسته رأسماليّةٌ لاإنسانيّةٌ، يمثّل ظلماً أدانته الكنيسة، أيضًا، إدانةً صريحةً**».

وإثر انهيار النظام الشيوعيّ في أوروبّا، حذّر الأوروبّيّين المتحرّرين من

منزلقَيْن: أوّلهما «**الانتقال من عبوديّة النظام الشيوعيّ إلى نظام الاستهلاك، فهو شكلٌ آخر للمادّيّة**»، والمنزلق الثاني هو «**عبادة أُمّةٍ، أو جنسٍ، أو حزبٍ، ما يبرّر استخدام العنف ضدّ أُمّةٍ أو جنسٍ، أو حزبٍ أُخرى**». وقد وصف تأليه الأُمّة بوثنيّةٍ جديدةٍ. وذكّر بتعليم الكنيسة الذي يعلن: «**إنّ في أساس كلّ عملٍ سياسيٍّ، وكلّ فكرٍ حقوقيٍّ، وكلّ برنامجٍ اقتصاديٍّ، وكلّ نظريّةٍ اجتماعيّةٍ، ينبغي أن تتبوّأ كرامة الشخص البشريّ مكانةً أساسيّة**».

وبيّن قداسته «**أنّ نجاح الشيوعيّة، في قرننا، كان ردًّا على شكلٍ من الرأسماليّة المتوحّشة، وما واكبها من تجاوزاتٍ نعرفها جميعنا**». بالمقابل اعترف أنّ البرنامج الاشتراكيّ كان ينطوي على بذور حقيقةٍ لا يجوز إتلافها أو فقدانها، وأنّ المدافعين، بلا تحفّظٍ عن الرأسماليّة ينزعون إلى إغفال حسنات الاشتراكيّة. ففي الواقع لم يحارب يوحنّا بولس الثاني مبدأ الاشتراكيّة، بل حارب ممارسات أنظمةٍ استبداديّةٍ، واستخدامها العنف وانتهاك حقوق الإنسان، باسم الاشتراكيّة.

ولطالما ردّد أنّ الليبيراليّة مدانةٌ، كلّما أغفلت حقوق كلّ إنسانٍ بحياةٍ كريمةٍ. وفي أعقاب انهيار الاتّحاد السوفييتيّ صرّح: «**لقد أثبتت ثورات عام ١٩٨٩ اللاعنيفة أنّ نشدان الحرّيّة لا يمكن استلابه، فهو نابعٌ من الإقرار بكرامة الكائن البشريّ، ومن قيمته التي لا يمكن تثمينها**». وأوضح أنّ هذه الثورات السلميّة قد نجحت في تحقيق أهدافها بفضل «**التزام رجالٍ ونساءٍ شجعانٍ بمواجهة أنظمةٍ تعتمد على السطوة، والدعاوة، والإرهاب. هذا التضامن الاجتماعيّ كان القلب الأخلاقيّ لسلطة من لا سلطة لهم**».

ولا مناص من الإشارة إلى تواطؤ الإعلام العالميّ وتآمره، من أجل كتم صوت البابا يوحنّا بولس الثاني، والإحجام عن نشر تصريحاته في هذا الشأن. ولكنّ ميخائيل غوربتشيف لم يتوانَ عن إعلان أنّ «البابا هو أعظم اشتراكيٍّ شأنًا... فهو حيثما يمضي يدافع عن الفقراء، ويدعو إلى التضامن الاجتماعيّ».

ولكن لا بدّ من تصحيح قول غوربتشيف، فيوحنّا بولس الثاني لم يكن لا اشتراكيًّا ولا ليبيراليًّا، وهو يستعصي على التصنيف، ولا يمكن حصره في فئةٍ

دون أُخرى، لأنّه فوق جميع الفئات. فقد أدان، على السواء، أخطاء الشيوعيّة الماركسيّة، والرأسماليّة المتوحّشة، وكلّ ما يناقض تعاليم الإنجيل، وما ينتهك الحقوق الإنسانيّة؛ وخيّب مساعي دعاة فرز العالم إلى يمينٍ ويسارٍ.

ولا يمكن وصف يوحنّا بولس الثاني بالسياسيّ، فهو، في المقام الأوّل، إنسانٌ ورسولٌ. وكلّ مبادراته انطلقت بدافعٍ دينيٍّ وإنسانيٍّ. ولكن، حتّى عندما كان يطالب بالحرّيّة الدينيّة، كانت نتائج مداخلاته تتخطّى الحدود الروحيّة والأخلاقيّة. وعندما كان يلقي خطاباته الكبرى عن السلام والعدالة، وعندما كان يتواسط لإيقاف الصراعات الدامية بين الشعوب، وعندما كان يضغط على أنظمةٍ طاغيةٍ كي تكفّ عن طغيانها، وعندما كان يشجب الشموليّة الشيوعيّة التي تضحّي بالأفراد، بحجّة منعة الدولة، ويندّد الرأسماليّة الجامحة العمياء، الأنانيّة، التي تضحّي بأشخاصٍ وبشعوبٍ كاملةٍ لمصلحة اغتناء أفرادٍ وشركاتٍ، كان لمداخلاته ومبادراته أبعادٌ سياسيّةٌ بعيدة الأثر. وكان قد صرّح عندما كان رئيس أساقفة كراكوفيا: «**أنا لا أتعاطى السياسة، ولا أتكلّم إلاّ بالإنجيل. ولكن إن كان التحدّث عن العدالة والكرامة الإنسانيّة، وحقوق الإنسان، هو سياسةٌ، فإذن...**».

كان دافعه الوحيد الإنسان الذي يتبوّأ لديه مركز كلّ شيءٍ، وكان سلاحه الوحيد الإنجيل. وبهذه القناعة، وهذا السلاح، حرّك شعوبًا، وأيقظ ثوراتٍ التزمت اللاعنف، ولم تسفك قطرة دمٍ، ولكنّها، مع ذلك، هزّت أعتى الديكتاتوريّات في القرن العشرين.

مقاومةٌ بسلاح الثقافة

لا ريب أنّ جهود يوحنّا بولس الثاني ومساعيه لم تُؤتِ ثمارها، كلّها في الحال. ولكنّها، نظير البذار الملقى في التربة، ومثل الخميرة المدسوسة في العجين، تستلزم زمنًا وصبرًا، كي تتحوّل إلى مرحلة النضوج والإنتاج. غير أنّه قد تسنّى له أن يشهد بأُمّ عينيه، ويتذوّق ثمارًا يانعةً أنتجها نضاله، ولا سيّما في وطنه الأُمّ پولونيا، وفي الدول المجاورة له، التي أَسهم في تحريرها من نير

شيوعيّةٍ طاغيةٍ ملحدةٍ، بفضل نضالٍ نبذ، فيه، كلّ وسيلة عنفٍ، والتزم بسلاحٍ واحدٍ هو سلاح الثقافة والإِيمان.

ففي الأَيّام الأولى التي تلت انتخابه، وفيما كان كثيرون من المحلّلين السياسيّين، مفتونين بشخصيّة البابا الجديد، كان النابهون في القيادة السوڤييتيّة، عاكفين على تحليل الحدَث عن كثب. للوهلة الأولى، استبشر بعضهم بهذا الانتخاب خيرًا، وتخيّلوا أَنّ يوحنّا بولس الثاني سيواصل سياسة الانفتاح على الشرق، التي انتهجها أَسلافه، ولم يروا في انتخابه سوى حدثٍ كنسيٍّ داخليٍّ، يكرّس انتصار الفئة المؤيّدة للمجمع الڤاتيكانيّ الثاني، على الفئة المطالبة بإِرجاء تنفيذ مقرّراته. ولكن، في كواليس القيادة السوڤييتيّة، كانت صدمةٌ عبّر عنها صحافيٌّ إيطاليٌّ، تربطه علاقةٌ وثيقةٌ بكبار المسؤولين في الكرملين، بقوله: «كانت موسكو تفضّل أن يُعيَّن «ألكسندر سولجينستين» أَمينًا عامًّا للأُمم المتّحدة، من أَن يُنتخَب، على رأس الكنيسة الكاثوليكيّة، بابا پولونيٌّ».

فمذ كان «كارول ڤويتيووا» أسقفًا، ثمّ رئيس أَساقفة على كراكوڤيا، استشفّ فيه الخبراء الشيوعيّون خطرًا جسيمًا عليهم، بسبب ديناميّته الرسوليّة، وبثّه في صدور إِكليروسه ورعيّته، روحًا رسوليًّا كفيلاً بمواجهة كلّ محنةٍ، ولأنّه كان أُسقف المفكّرين الكاثوليكيّين، وفي الآن عينه، مقرَّبًا من المثقّفين غير الكاثوليكيّين، الذين عقد معهم وشائج صداقةٍ واحترامٍ.

وقد أَيقن «يوري أَندروپوف»، الذي كان يتولّى، حينذاك، قيادة المخابرات السرّية السوڤيتيّة، أَنّ الأُمور تطوّرت، جذريًّا، إلى الأَسوإ، وأَقرّ أَنّ انتخاب «كارول ڤويتيووا»، كفيلٌ بتوليد اضطراباتٍ خطيرةٍ قد تنال من الاتّحاد السوڤييتيّ، ومن الإِمبراطوريّة التي يبسط عليها سلطته. ومن ثمّ، استدعى «أَندروپوف» مندوبه في «ڤرسوڤيا»، وعاتبه، قائلاً: «كيف سمحتَ لمواطنٍ من بلدٍ اشتراكيٍّ أن يصبح بابا؟»، فأجاب المندوب أَنّ سرّ ذلك يجب البحث عنه في روما، لا في «ڤرسوڤيا». واستخلصت التحرّيات السوڤيتيّة، كما هو مألوفٌ، أَنّ ذلك الانتخاب كان نتيجة مؤامرةٍ حاكها الأَميركيّون والألمان معًا، بغيةَ زعزعة

الاستقرار في پولونيا، تمهيدًا لتفكيك حلف ڤرسوڤيا. ومع أَنّ هذا التحليل يبدو مضحكًا وسخيفًا، إِلاّ أَنّه يعبّر عن خشية تحوّلاتٍ خطيرةٍ.

وفي موازاة تحليلات «أَندروپوف»، كلّف مكتب اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ أَحد خبرائه، بدراسة آثار انتخاب «ڤويتيووا». وقد أَشار التقرير الذي وُضع بهذا الشأن، إلى أَنّ المشكلة المباشرة ستتمثّل في مضاعفة ضغوط الڤاتيكان، المطالبة بالحرّيّة الدينيّة، في دول حلف ڤرسوڤيا. ولذلك اقترح إِنذار الكرسيّ الرسوليّ، بأَنّ كلّ مطالبةٍ بحقوق الإنسان ذات طابعٍ عدائيٍّ، سيكون من شأنها تشديد قمع المؤسّسات الدينيّة، في أوروپّا الوسطى وأوروپّا الشرقيّة. ومن جانبٍ آخر، أَوصى بالسعي إلى تحسين العلاقات بالإكليروس الكاثوليكيّ في كلٍّ من ليتوانيا، وأوكرانيا وروسيّا البيضاء، صدًّا للهجمات الأَخلاقيّة والإيديولوجيّة، التي سيشنّها البابا الپولونيّ.

والواقع أَنّه لم يكن لدى يوحنّا بولس الثاني أَيّ مخطّطٍ صريحٍ لتفتيت الاتّحاد السوڤيتيّ وإِمبراطوريّته. ولكنّه كان عازمًا على الشهادة لحقيقة الوضع الإِنسانيّ، الذي تنطوي عليه تعاليم يسوع. ومن البدهيّ أَنّ بابويّته الملتزمة بالإنجيل، لم يكن بوسعها إلاّ رفض ادّعاءات الشيوعيّة، المتعلّقة بطبيعة الإنسان، وبوجوده، وبمستقبله. فللإنجيل تداعياتٌ على الحياة العامّة، لم يكن بوسع البابا إلاّ الجهر بها، مهما سبّبت من إِزعاجٍ للقابضين على مقاليد السلطة الزمنيّة.

وإلى جانب ذلك، كان يوحنّا بولس الثاني يرفض التسليم بتقسيم أوروپّا، المقرّر في يالطا، أَمرًا واقعًا. وهذا الرفض، في ذاته، كان تحدّيًا للسياسة السوڤييتيّة لحقبة ما بعد الحرب. وفضلاً عن ذلك، كان وجود بابا سلاڤيٍّ، قادرٍ على مخاطبة الشعوب الغاضبة التابعة للإمبراطوريّة السوڤييتيّة، كابوسًا مرعبًا يؤرّق سادة الكرملين. وكان أُسلوبه في التحدّي يضاعف قلقهم. فهو، مذ كان أسقفًا على كراكوڤيا، تجنّب الهجوم المباشر على الماركسيّة الشيوعيّة، تفاديًا لاتّهامه بأنّه سياسيٌّ في ثوبٍ كهنوتيٍّ، مجنّدٌ لخدمة الغرب. غير أَنّه، بتشديده الملحّ على المطالبة بحقوق الإنسان، وبالحرّيّة الدينيّة، كان يناهض، مناهضةً حاذقةً، جوهر المشروع الشيوعيّ الوحيد.

أَوَلم يصرّح، هو نفسه: «**في كلّ الحقب، وفي حقبتنا على نحوٍ خاصٍّ، واجب الكنيسة الأَساسيّ هو توجيه نظر الإِنسان، وضمير البشريّة كلّها صوب سرّ المسيح، ومساعدة جميع البشر على استيعاب عمق الفداء. وهكذا يتمّ النفاذ إلى منطقة الإِنسان الأَكثر عمقًا، منطقة قلبه، ووجدانه، وحياته**»؟.

ولطالما ناشد أوروپّا أَلاّ تغفل عن أُصولها وهويّتها، التي كانت مصدر قوّتها، وقيَمِها، وتميّزها، وغنى إِرثها المتعدّد الوجوه، وأَن تظلّ حريصةً على ديمقراطيّتها ووحدتها، مؤكّدًا أَنّ هذه الوحدة لا يمكن أَن تكون اقتصاديّةً وسياسيّةً فحسب، بل ينبغي أَن تُبنى على وحدة القيَم الروحيّة، والثقافيّة، والعائليّة، والذود عن قدسيّة الحياة. على أوروپّا، إِذن، التمسّك بمسيحيّتها التي تضمن لها البقاء، في مناخٍ عالميٍّ يتردّى، يومًا فيومًا، إلى الإلحاد، واللامبالاة، والمادّيّة، ونشدان المتعة والربح، وكلّ ما ينحرف بها عن المبادئ الأَساسيّة التي صنعت عبقريّتها، وصاغت تاريخها. ولم ينِ يردّد، بحزمٍ، أَنّ القارّة الأوروپّيّة بحاجةٍ إلى المسيح، لكي لا تفقد نفسها؛ ولكنّ الساسة الأَوروپّيّين صمّوا آذانهم عن صرخته.

بصفته شاهدًا للحقيقة، لا سياسيًّا، كان يوحنّا بولس الثاني خطرًا يهدّد لا حلف ڤرسوڤيا فقط، بل الاتّحاد السوڤييتيّ بأكمله. وقد أَثبتت الأَحداث، التي سنبسطها، لاحقًا، أنّ الخطر لم يبقَ تهديدًا، بل أَمسى واقعًا.

ولا معدى عن التنويه بأَنّ يوحنّا بولس الثاني لم يقتصر على الذود عن الكنيسة الپولونيّة، بل خفّ، أيضًا، إلى دعم كنيسة تشيكوسلوڤاكيا، حيث كانت الجماعة الكاثوليكيّة الأَكثر تعرُّضًا للقمع، وراء الستار الحديديّ. ومنذ انتخابه، وإِذ كان كاردينال براغ يقدّم له التهاني، عانقه بحرارةٍ، وقال له: «**نحن قريبان أَحدنا من الآخر، وسنزداد قربًا، فمسؤوليّتك ستنعكس عليّ**». هذا الدعم قلب كردينال براغ «فرانتسيك توماسك» (Frantisek Tomasek)، الذي كان، حتّئذٍ، خجولاً في علاقته مع السلطات، وكان قد أخذ على كاثوليكيّين مشاركتهم في الدفاع عن حقوق الإنسان، فتحوّل إلى أَشدّ خصوم الحكم الشيوعيّ ضراوةً. وأَثار دهشةَ مواطنيه مشهدُ ذلك الكردينال الثمانينيّ الذي يشتدّ صلابةً، كلّما تقدّم سنًّا.

وقد بادر يوحنّا بولس الثاني إلى توفير دعمٍ مماثلٍ للكردينال الأوكرانيّ «يوسف سليبيي» (Josuf Slipyi)، مذكّرًا الأوكرانيّين بحقوقهم الأساسيّة.

وفي ١٩٧٩/١/٢٤، زار وزير الخارجيّة السوڤييتيّ، «أندريه غروميكو»، البابا يوحنّا بولس الثاني، بُغيةَ سبر أعماق ساكن الڤاتيكان الجديد. فطرح البابا قضيّة المعتقدات الدينيّة، مشيرًا إلى ما تلاقيه من قيودٍ وعقباتٍ في الدول الخاضعة للاتّحاد السوڤييتيّ. فادّعى غروميكو أنّ كلّ ما يشيعه الغرب، في هذا السياق، هو مجرّد تخرّصاتٍ، وأكّد أنّ الدولة السوڤييتيّة، منذ تأسيسها، قد ضمنت حرّيّة العقيدة الدينيّة... وأنّ الكنائس تغصّ دائمًا بالمصلّين! حيال هذا الكذب المفضوح، وإثر تلميح غروميكو إلى أنّ الكنيسة تشجّع، على نحوٍ خفيٍّ، الوحدة الإيديولوجيّة مع طبقة المستغلّين، آثر الحبر الأعظم وضع حدٍّ للنقاش. وفي اليوم التالي باح للصحافيّين بأنّ ذلك اللقاء كان «الأشدّ إرهاقًا» في عهد بابويّته.

ولكنّ البابا كان قد بلّغ ما كان راغبًا في تبليغه. وقد حاول الشيوعيّون تشويه أقواله، غير أنّهم أيقنوا أنّ عليهم التعامل مع بابا من نمطٍ جديدٍ غير مألوفٍ.

سلاح الثقافة والروح

يوحنّا بولس الثاني هو سليل أُمّةٍ امتهنت مقاومة كلّ ظلمٍ بسلاح الروح. وقد ألقى من فوق منبر اليونسكو، بباريس، في ١٩٨٠/٦/٢، خطابًا بعنوان «الثقافة في خدمة الإنسانيّة»، جاء فيه: «**أنا ابن أُمّةٍ عاشت أكبر خبرات التاريخ، أُمّةٍ حكم عليها جيرانها بالموت، مرّاتٍ عديدةً، ولكنّها استمرّت في الحياة، وظلّت هي، هي، محتفظةً بهويّتها. ورغم ما فرض عليها الخارجُ من تقسيمٍ واحتلالٍ، احتفظت بسيادتها الوطنيّة، غير مستندةٍ على مصادر القوّة المادّيّة، بل معتمدةً، فقط، على ثقافتها، التي أثبتت قدرةً أعظم من قدرات كلّ القوى الأُخرى...**». وأوضح أنّ الثقافة، في ما يتخطّى دورها المهذّب للذهن، هي عاملٌ منيعٌ في صنع السلام والحضارة، في زمنٍ تتعرّض فيه كرامة الإنسان، وأمان الأُمم، إلى أفدح الأخطار. وأكّد أنّ المرء، بقدر ما يكتنز من ثقافةٍ، يتحرّر من إعاقاته، ويسيطر

على قوى الظلام المتآمرة عليه. الثقافة خميرةٌ لا غنى عنها لازدهار كلّ حضارةٍ. ولكن، لا وجود للثقافة، ولا معنى لها، إلاّ في علاقتها بمصير الإِنسان، فهو فاعلها وهو غايتها، وهي جوهر كيانه، ولا تثمر قِيَمُها إِلاّ فيه. والإنسان لا يحيا إِلاّ بالثقافة، وبها يتميّز عن كلّ ما يحيق به.

وكان ليوحنّا بولس الثاني، في هذا المجال، قدوةٌ فريدةٌ، في رئيسه الكنسيّ السابق، عميد الأَساقفة اليولونيّين، الكردينال البطل «ستيفان ڤيشينسكي»، الذي أَعلن، عام **١٩٥٣**، إِثر اعتقال أُسقفٍ پولونيٍّ بتهمة الإِجرام: «**يستطيع الجلاّد قتل جسدي، ولكن لا شيء في الدنيا يستطيع قتل نفسي. داخل كلٍّ منّا حقيقةٌ لا تطالها أَيّة قوّةٍ مادّيّةٍ. هم يتكلّمون، اليوم، عن أَساقفةٍ مجرمين، وسيأتي يومٌ يتحدَّث التاريخ عن قدّيسين مجرمين**».

وقد حدّد الكردينال «ڤيشينسكي» سلاح نضال الشعب اليولونيّ بقوله: «سندافع عن ثقافتنا بواسطة الحبّ، فحسب»».

وانبرى يوحنّا بولس الثاني فيلسوفًا للمقاومة بسلاح الثقافة، وداعيةً لها وبطلاً، بصفتها ديناميّة الروح في خدمة الإِنسان. فجعل من الثقافة شعارًا لمسيرته، وعمودًا لرسالته، لأَنّ الثقافة، وفقًا لتوجّهها، صوب الحياة أَو صوب الموت، تفضي إلى تقدّم الإِنسانيّة أَو إلى تقهقرها، ولأَنّ الجهل هو مرتع الضلال والجريمة.

وقد أَقعد رسالته على تشجيع ثقافةٍ تمثّل هويّة الإِنسان، وإِرثه، ونبله. فالثقافة التي دعا إليها ليست خزن معلوماتٍ، بل إِيقاظ وعي الإِنسان على هويّته الجوهريّة، وتوجيهه نحو ازدهار إِنسانيّته. هي زرع ما ينمو ببطءٍ، ويصمد طويلاً.

هذا ما عناه، عندما خاطب، يوم ١٩٨٠/٦/١، طلاّب المعهد الكاثوليكيّ في باريس، قائلاً: «**إِنّكم تنشدون، فضلاً عن المعارف، ومن خلالها، النفاذ إلى مستوًى آخر من الحقيقة، حقيقة الإنسان الكلّيّة، التي لا تنفصل عن حقيقة اللّه...**». ودعاهم إلى النهل من نبع هذه الحقيقة، حتّى يبلغوا إلى فهم ذواتهم، ودورهم في المجتمع، ومصيرهم الخاصّ.

والثقافة التي دعا إليها تقوم على أساسٍ أخلاقيٍّ. فبمعزلٍ عن هذه الثقافة، يضحي الإنسان ضحيّة تأثيراتٍ وبيلةٍ، متعدّدة الوجوه: إيديولوجيّةٍ، وسياسيّةٍ، واقتصاديّةٍ، وإعلاميّةٍ، تفضي إلى إفقاده الثقة بإنسانيّته.

وبما أنّ معرفة الحقيقة تبدأ بالتعليم، فقد طالب بحرّيّة التعليم وبنشره، كما طالب بالتزام مبادئ الأخلاق في البحث العلميّ، مشدّدًا على أولويّة هذه المبادئ على التقنية، وأولويّة الكائن البشريّ على الأشياء، وأولويّة الروح على المادّة، مؤكّدًا أنّ قضيّة الإنسان ستكون مصانةً، عندما يتحالف العلم والضمير.

وكان يرى أنّ بؤرة الثقافة الأساسيّة هي الأسرة، وتليها الأمّة. فالثقافة هي صانعة الأسرة والأمّة، وقوام بقائهما وازدهارهما. وهذا ما برهنت عليه پولونيا التي تخطّت أدهى المِحَن، وحافظت على كيانها، بفضل ثقافتها الأصيلة، المكينة.

والثقافة التي أراد أن تتزوّد بها الشعوب، كافّةً، هي التي تستهدف خير كلّ إنسانٍ، الإنسان في جماعته، وكلّ الأمم في مجموعة الشعوب، وفقًا للنظرة المسيحيّة إلى العالم، وإلى أنسنةٍ كاملةٍ حيث يبلغ سلّم القِيَم ذروته، في دعوة الإنسان إلى المشاركة، مشاركة ابنٍ، في حياة الله، أبي البشر أجمعين، بشرٍ إخوةٍ بلا تمييزٍ، وبلا إقصاءٍ قائمٍ على الجنس والثقافة.

هذه النظرة أكّدها، يوم ٢٠٠١/١/١٦، أمام ممثّلي ١٨٣ دولةً، فضلاً عن ممثّلي الاتّحاد الروسيّ، ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة، والجامعة العربيّة، معلنًا:

«**في مطلع هذه الألفيّة، فلنخلّص الإنسان! فليكن العلم في خدمة الكائن البشريّ، ولا يكن الإنسان موضوع تشريحٍ، وبيعٍ، وشراءٍ؛ ولا تكن الشرائع، أبدًا، خاضعةً للتجارة ولمطالباتٍ فرديّةٍ أنانيّةٍ. فما من سلطةٍ، وما من برنامجٍ سياسيٍّ، وما من إيديولوجيا يحقّ لها حصر الإنسان في ما يمكنه فعله أو إنتاجه**»، وأكّد: «**تصميم الكنيسة على الدفاع عن الإنسان، وكرامته، وحقوقه، وبُعده فائق الطبيعة**»، وناشد الحضور: «**فلنساعد جميعنا، بعضنا بعضًا، على أن نظلّ جديرين بالرسالة التي انتُدبنا لها: أي تكوين أُسرةٍ كبيرةٍ، سعيدةٍ بمعرفتها أنّ الله يحبّها، ويريدنا إخوة!**».

وكان منذ رسالته العامّة الأولى، التي أصدرها عام ١٩٧٩ بعنوان «فادي

الإنسان» (Redemptor Hominis) قد حدّد مفهوم الثقافة التي ابتغاها أَساسًا لحضارة العالم، داعيًا إلى تحرير الإِنسان من كلّ ما يسلبه هويّته، ويبقيه أَسير الخوف، بدءًا بصنم ثمار عمله، الذي ينقلب عليه، وعلى طبيعته التي يشوّهها، مشدّدًا على ضرورة إِيلاء الأولويّة للمبادئ الأَخلاقيّة على التقنية، وللشخص على الأَشياء، وللروح على المادَّة، وللكيان على الامتلاك.

وكان قد ختم خطابه في اليونسكو عام ١٩٨٠، بهذه الصيحة: «**أَجل إنّ مستقبل الإِنسان يعتمد على الثقافة، أَجل إنّ مستقبل السلام يعتمد على الحبّ!**».

ولكي ينعم العالم أَجمع بالسلام، ولكي تتمتّع الدول كلّها بالمنعة، التي توفّرها ثقافةٌ صحيحةٌ سليمةٌ، دعا الكنيسة إلى الاضطلاع بقسطها من الواجب في هذا الشأن، ساعيًا إلى إخصاب الثقافات بالإنجيل، وبإبقاء تفاعلٍ مثمرٍ بين المسيحيّة وكلّ الحضارات، بحيث يتجسّد الإنجيل في كلّ الثقافات، وكلّ اللغات، وتنعكس الثقافات على لغة التبشير بالإِنجيل.

على الثقافة أَن تستنير، من الداخل، بالإِنجيل. ولكنّ الإِنجيل، من جانبه، يحتاج إلى ثقافاتٍ كي يتجسّد. فالإيمان يُعبَّر عنه، ويعاش داخل ثقافةٍ ما، ولغة الله ينطق بها لسان البشر. ولا يعني ذلك أَنّ على الكنيسة أَن تردّد ما يقوله العالم. ولكن لكي تُفهَم أَقوالها، هي تحتاج إلى من يسمعها، ومن ثمّ تحتاج إلى التكلّم بلغةٍ يفهمها من تتوجّه إليهم رسالتها.

وهذا ما دعا إليه، بمناسبة زيارته إلى الهند، حيث قال:

«**إنّ ملك المجد يرغب في التغلغل، أَكثر فأَكثر، إلى أعماق الثقافات، وإِلى كلّ قلبٍ بشريٍ مُشرَعٍ له**». وذلك لن يتحقّق بمجرّد تبنّي مظاهر محلّيّةٍ، وأَزياءٍ فولكلوريّةٍ، بل بانسياب الإنجيل إلى داخل الثقافات، كي يجعل منها واقعًا جديدًا، كفيلاً بتغيير كلّ شيءٍ وفق مقتضياته، وبجعل الإِنجيل حاضرًا بين ظهراني شعبه؛ ينبغي أَن تتسرّب المسيحيّة إلى صلب الوقائع البشريّة، لا بغية تشويهها، أَو إِفراغها من جوهرها الخاصّ، بل لكي تفعل في النفس، وفي المجتمع، فعل الخميرة في العجين، ولكي تسمو بكلّ شيءٍ.

فقد كان يوحنّا بولس الثاني يرى أَن تحدّي حقبتنا الأَكبر هو الفصل المتنامي بين الإِيمان والعقل، بين الإِنجيل والثقافة، وأَنّ هذا الواقع يقتضي تبشيرًا جديدًا بالإِنجيل، وانثقافًا (inculturation) متبادلاً.

لقد دلّته الأَوضاعُ اللاإِنسانيّة، التي تئنّ تحت نيرها قطاعاتٌ واسعةٌ من العالم، إِلى أَزمةٍ ناتجةٍ عن ثقافةٍ خاليةٍ من الإِيمان، وعن إِيمانٍ خالٍ من الثقافة. واتّضح له أَنّ الثقافة تضلّ طريقها، عندما تزعم إِطفاء القبس الإِلهيّ الكامن في قلب كلّ إِنسانٍ، لأَنّها، بذلك، تدمّر الإِنسان، وتخنق روحه.

قضيّته الكبرى هي الإِنسان، وقد تبيّن أَنّ الوهم الأَكبر هو الإِنسان بمعزلٍ عن اللّه، وأَنّ الرجاء الأَشدّ تأَلّقًا هو الإنسان مع اللّه، مع مخلّصه وفاديه. ولذلك دعا إِلى ثقافةٍ متجذّرةٍ في حقيقة الإِنجيل، وفي حكمة الروح القدس. وقد صرّح المجمع الحبريّ، الذي أَنشأه يوحنّا بولس الثاني: «المسيح هو نبع حضارة الحبّ، التي ما انفكّ البشر توّاقين إِليها منذ السقطة الأولى. إِنّ العلاقة الجوهريّة بين الإنجيل، أَي المسيح والكنيسة، من جانبٍ، والإنسان في صميم إِنسانيّته، من جانبٍ آخر، هي التي تخلق الثقافة الحقّة، وتكوّن أَساسها».

لقد آمن يوحنّا بولس الثاني بحوار الحضارات، ولا سيّما أَنّ تاريخ بلاده جعلها على تواصلٍ دائمٍ مع حضاراتٍ مختلفةٍ، مثلما آمن بشأن الثقافة في صنع التاريخ. وتأكيدًا لإيمانه بالعلاقة العضويّة بين المسيحيّة والثقافة، بين الإِنجيل والإنسان، أَلّف، عام ١٩٨٢، لجنةً حبريّةً للثقافة، سرعان ما تحوّلت إِلى مجلسٍ حبريٍّ للثقافة، هدفه محاورة كلّ إِنسانٍ، مؤمنًا كان أَو غير مؤمنٍ، وتمكينه من بلوغ ملء ازدهاره الثقافيّ، وإِقناعه بأَنّ اللّه ليس خصمًا للإِنسان، بل إنّه يبتغي ازدهاره، ويساعده على تحقيق هذا الازدهار. ومن غايات هذا المجلس، مدّ يد العون للشعوب المتألّمة والمحرومة، وتوفير تقدّمٍ ثقافيٍّ كفيلٍ ببناء عالمٍ أَوفر عدلاً وإِخاءً، والتمهيد لتلاقي الإنجيل مع الثقافات العالميّة، بروحٍ مسكونيٍّ في العلاقة مع الكنائس الأُخرى، وبروحٍ أَخويٍّ، في العلاقة مع الجماعات غير الدينيّة.

هذه الأَهداف الجليلة كانت تستدعي استنفار كلّ المواهب، وتوظيف كلّ

الموارد البشريّة، التقنيّة والثقافيّة. ولذلك عيّن على رأس المجلس الحبريّ للثقافة، الكاردينال «پوپار» (Poupard)، الذي يتمتّع بكفاءات نادرةٍ، وبعلاقاتٍ واسعةٍ مع أَعلام العالم ومثقّفيه، وكان على اتّصالٍ شبه يوميٍّ معه. وقد شهد ذلك الكردينال على اهتمام يوحنّا بولس الثاني بالثقافة، قائلاً:

«إنّ الحبر الأَعظم ينخسنا بقوّةٍ، كي نمضي قدُمًا على درب الرجاء، بقلبٍ رحبٍ، وبحماسٍ، غداة اليوبيل، الذي أَزال صدأ أَقدامنا، لكي ننطلق على الطريق الذي ينتظرنا، ونجري نحو إِخوتنا، بروحٍ رسوليٍّ جديدٍ. غير أَنّ ذلك سيتمّ باحترامٍ للمسيرة التي تميّز كلّ شخصٍ، وفي تقديرٍ للثقافات المتنوّعة، التي ينبغي أَن تدخل إليها الرسالة المسيحيّة، بحيث لا تنكر القِيَم الخاصّة بكلّ شعبٍ، بل تساعدها على بلوغ ملئها. على مسيحيّة الأَلفيّة الثالثة أَن تلبّي، على نحوٍ أَفضل فأفضل، مقتضيات الانثقاف، أو الاندماج الثقافيّ. ومع بقائها ذاتها، في وفاءٍ مطلقٍ للبشارة الإنجيليّة، وللتقليد الكنسيّ، سترتدي وجه الثقافات المتعدّدة، والشعوب الكثيرة حيث ستُستقبَل وتتجذّر».

هذا، ولا بدّ من إِعادة التنويه بأنّه، مع كلّ العناد والحزم، اللذين طبع بهما يوحنّا بولس الثاني نضاله في سبيل الحقّ والكرامة، استبعد، دائمًا، كلّ أَصناف العنف، وأَثبت، بالوقائع الراهنة، أَنّ الكفاح السلميّ المبنيّ على مبادئ أَخلاقيّةٍ ساميةٍ، خالدةٍ، ثابتةٍ، كفيلٌ بزعزعة أعتى قوى الطغيان. فحَسْبُ الإِنسان أَن يكون وفيًّا لهذه المبادئ، كي يمتلك قدرةً جبّارةً. وهذا ما عناه بقوله للشباب: «**إن أَصبحتم ما يجب أَن تكونوا، أَي إِن حييتم المسيحيّة بلا مساومةٍ، ولا تسوياتٍ، ستستطيعون إلهاب العالم أَجمع**».

أسفار يوحنّا بولس الثاني

لقد بيّنّا أنّ غاية عمل يوحنّا بولس الثاني السياسيّ، كان في المقام الأوّل «خدمة الإنسان» الأساسيّة، بكلّ معنى الخدمة، وبلا تحفّظٍ: خدمة الشخص البشريّ، وكرامته، وحقوقه الفرديّة والجماعيّة، مع إِيلاء اهتمامٍ خاصٍّ بالذود

عن الحياة، وحرّيّة الضمير والعبادة. وكانت غايته الثانية إحلال السلام، والسعي إلى إرساء نظامٍ دوليٍّ قائمٍ على العدالة، ولا سيّما في حقبة العولمة المحمومة، والتطاحن الاقتصاديّ.

وغير خفيٍّ أنّ العالم الذي نواجهه حافلٌ بالمجهول وبالمخاطر، وتسود الجميعَ الخشيةُ من أن يُسفر لنا المستقبل عن وجهٍ لهذا العالم، أشدّ هولاً من كلّ ما عهدناه سابقًا. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني كان يؤمن أنّه، مع كلّ التغييرات العالميّة المتسارعة، ثمّة أشياء لا تتغيّر، لأنّها مؤسّسةٌ على المسيح، والمسيح هو هو أمسِ، واليوم، وإلى الأبد. من المحقّق أنّه كان يستشفّ «مؤامرة الموت» المنتشرة في كلّ مكانٍ. فخطر التفجير النوويّ وحده يهدّد كلّ إنسانٍ على البسيطة بعدّة أطنانٍ من المتفجّرات. ولا يبدو أنّ العقل هو الذي يقود سلوك البشر.

اليوم، كما في الأمس، يتأرجح العالم بين مواقف قوّةٍ وضعفٍ، بين الأفضل والأسوإ، بين دروب الحرّيّة والعبوديّة، بين التقدّم والتقهقر، بين الإخاء والبغض. وللعالم الخيار بين قوًى تخدمه، وقوًى تسحقه وتفنيه.

أمّا يوحنّا بولس الثاني، فقد آمن أنّ واجبه هو درء الأخطار الداهمة، ورفع الحيف عن ضحايا الطغيان، بالتشديد على تعاليم الإنجيل، وعلى المبادئ السياسيّة التي التزم بها. وكانت إحدى وسائله إلى تحقيق هذا الهدف، أسفاره إلى مختلف أرجاء العالم.

فكلّما ازدادت حياة البشر قوّةً وصعوبةً، ازدادت حاجةً إلى حضور راعٍ يذود عن حياضهم وينفثهم العزاء. وقد وجد يوحنّا بولس الثاني، في هذه الأسفار الرسوليّة، وسيلةً مُثلى للقيام بواجب «تثبيت إخوته».

كان مؤمنًا أنّ الكنيسة، بمحاولتها النظر إلى الإنسان بعيني يسوع نفسه، تعي، أكثر فأكثر، أنّها حارسة كنزٍ ثمينٍ لا يحقّ لها هدره، بل يتوجّب عليها تنميته باطّرادٍ. ومن ثمّ، عليها التبشير بالإنجيل، وحمله، عبر دروب العالم، وجعله معاصرًا لكلّ إنسانٍ. فالتقاء المسيح هو الذي يخلق الحضارة الحقّة، ويحرّر الإنسان من سجن الأنانيّة، يشرع قلبه على رجاء السعادة الحقّة.

فلا غرابة إن أضحى يوحنّا بولس الثاني حاجّ الرسالة، إذ إنّ نار الإنجيل تسري في عروقه، وتدفعه، بلا هوادةٍ، على طرقات القارّات كلّها، كي يطلع الجميع على الفرح النابع من معرفة يسوع ولقائه.

لقد مارس الرسالة المرتحلة، تلبيةً لدعوة معلّمه: «**اذهبوا وتلمذوا جميع الأُمم... وعلّموهم أن يحفظوا كلّ ما أوصيتكم به، وها أنذا معكم كلّ الأيّام إلى انقضاء الدهر**». وكان سلفاه قد مهّدا لهذا النمط من الرسالة. فيوحنّا الثالث والعشرون كان قد قال: لا يكفي أَن تزور الكنيسة البابا، بل على البابا أَن يزور الكنيسة. والبابا بولس السادس، لم يتوانَ عن تخطّي هشاشة صحّته، وأَعوامه التي ناهزت الثمانين، وقام برحلةٍ إلى الأراضي المقدّسة، من أَجل لقاء البطريرك أَثيناغوراس. فضلاً عن العديد من الأسفار التي اقتضتها ظروفٌ عالميّةٌ طارئةٌ. إضافةً إلى ذلك، كانت خبرة الأسقف «ڤويتيووا» قد أَكّدت له جدوى زيارة الرعايا، فهي تُسرِّب إلى نفوس المؤمنين شعورًا بوحدة الكنيسة، وبحضور الربّ. وبصفته حبرًا أَعظم، كان يعدّ العالم كلّه رعيّته، وكلّ زيارةٍ راعويّةٍ له، حجًّا إلى أَحد مزارات شعب الله، وفق تعبيره، وإلى مقامٍ مقدّسٍ. ولذلك أَلِف تقبيل أَرض كلّ بلدٍ يزوره حالما يطأها. وكان يعتبر كلّ إِنسانٍ، أَينما وُجِد، مقدَّسًا، ويستحقّ أَن يبذل نفسه عنه، لا بل هيكلاً مقدّسًا يتجلّى ملء سرّه من خلال سرّ تجسّد كلمة الله. وقد صرّح، في هذا الشأن: «**إثر بولس السادس، وجدتُ فصل الأَسفار مشرَعًا، فتابعت كتابته، مستندًا على خبرتي الشخصيّة، التي تكوّنت في مرحلة مسيرتي السابقة. فقد كان مفهوم الخدمة الأُسقفيّة الذي انتهجته في كراكوڤيا، صالحًا، أيضًا، للخدمة الحبريّة في روما. وقد وفّر نموُّ وسائل المواصلات ظروفًا ملائمةً جدًّا لوضع هذا النهج موضع التطبيق، ولا سيّما أَنّ الحاجة إليه كانت تتجلّى، أَكثر إلحاحًا، يومًا فيومًا، لا بل إنّ حياة الكنيسة، بعد المجمع، جعلت من هذه الحاجة واجبًا لا مفرّ منه، وبمثابة التزامٍ ضميريٍّ.**

«**إنّني أَشكر للعناية الإلهيّة أَن فتحت لي هذه الدروب صوب مزارات شعب الله. وبما أَنّي أَعي عدم جدارتي ووهني، فإنّي أَسألها أَن تَهَبني القوّة على الاضطلاع بهذه الخدمة اضطلاعًا لائقًا**».

كان يتطلّع إلى كلّ المؤمنين بمثل تطلّع الرسول بولس إلى الرومانيّين: «إنّ اللّه الذي أَخدمه بكلّ روحي، في التبشير بإنجيل ابنه، يشهد لي بأنّي أَذكركم بلا انقطاعٍ، ملتمسًا، دائمًا، في صلواتي أَن يتيسّر لي، يومًا، بمشيئة اللّه، أَن أَقدم إليكم، فإنّي أَشتاق أَن أَراكم لأفيدكم شيئًا من المواهب الروحيّة لتأييدكم، أو بالحريّ لنتعزّى معًا عندكم بالإِيمان المشترك في ما بيني وبينكم». (روما ١: ٩–١٢).

هذه الرغبة المضطرمة دفعته إلى تحطيم أسوار الڤاتيكان. ومثلما قاده صمت المرتفعات إلى تجاوز الذات، وإلى نوعٍ من المخاطرة الداخليّة، والغزو الروحيّ، كانت الأَجنحة الطائرة تقوده إلى عوالم قشيبةٍ، ووجوهٍ جديدةٍ. كان على ارتحالٍ متواصلٍ، وقلقٍ مقيمٍ، أَي لا يعرف للراحة عهدًا، دائم الحجّ نحو تحرير الذات وتحرير الآخرين، بسلاحٍ وحيدٍ، هو كلمة اللّه.

ومع أَنّ أَسفاره كان يفرضها وضع العالم المتأزّم، فضلاً عن أَوضاعٍ خاصّةٍ بكلّ بلدٍ يزوره، أَثارت هذه الأَسفار الكثير من الجَدل والنقد؛ فقد أَخذ عليه بعضهم كثرة التنقّل، مدّعين أَنّها تصرفه عن إِحكام قبضته على دفّة إِدارة الكنيسة. وقد ردّ على هذا الادّعاء، في أَثناء إِحدى زياراته إلى القارّة الأَفريقيّة، بقوله: «**يظنّ البعض، في أوروبّا، أنّ على البابا ألاّ يسافر، والمكوث في روما، كما أَلِف أَسلافه. وإِنّي أُطالع هذه النصائح في الصحف. ولكن، بالمقابل، أسمع، هنا، أَنّ مجيئي كان نعمةً، فبفضله أستطيع أَن أعرفكم. وإِلاّ فكيف لي أَن أَعلم من أنتم، وكيف تعيشون، وما هو تاريخكم؟ وهذا يرسّخ يقيني بأنّه حان الزمن الذي يتوجّب فيه على أساقفة روما – أي الباباوات – ألاّ يعدّوا أَنفسهم خلفاء بطرس فقط، بل أَنّهم أيضًا، خلفاء بولس، الذي لم يعهد إلى الاستكانة سبيلاً، بل كان على ارتحالٍ دائم**».

وقد سأله صحافيٌّ، في الطائرة التي كانت تعود به من رحلةٍ إلى أَبيجان:

– «يظنّ بعضهم أَنّك تغالي في أسفارك».

فأجاب:

– «**بشريًّا هذا صحيح**». ولكنّه سرعان ما استدرك قائلاً: «**ولكنّ العناية الإِلهيّة توحي إلينا بالمغالاة، أحيانا**».

لا ريب أنّ أَسفاره إلى الخارج، في السنوات القليلة التي سبقت انتخابه، قد مكّنته من الاِطّلاع على أجزاء من العالم الغربيّ، والقارّتين الأميركيّة والأوستراليّة، ولكنّه كان ما برح يجهل بقاعًا عديدة من العالم، ولا سيّما تلك التي يتقرّر فيها مستقبل المسيحيّة، ولا يعرف عنها إِلاّ ما يطالعه في تقارير لا تعكس، دائمًا، حقيقة ما تعيشه شعوب تلك البلدان.

أَسفاره كانت مناسباتٍ لأَقوالٍ، ولمبادراتٍ رمزيّةٍ، ولصورٍ تخاطب كاثوليكيّي العالم أَجمع، إِكليروسًا وعلمانيّين، ومؤمني الطوائف الأُخرى، وغير المؤمنين، شعوبًا وحكّامًا، أَيّةً كانت الأَنظمة التي ينتهجونها. فبشارة الإِنجيل موجّهةٌ إلى العالم أَجمع، ويحقّ لكلّ إِنسانٍ الاستماع إليها، والعمل بها، أو رفضها. وقد حرص يوحنّا بولس الثاني على تأكيد الهويّة المسيحيّة، وإعلان: أَنّ الكنيسة موجودةٌ كي تبني، مع جميع الخَلق، بشريّةً مدعوّةً إلى النموّ في الإِيمان، والرجاء، والإِخاء. الكنيسة بحاجةٍ إلى مسيحيّين متأهّبين للشهادة لهويّتهم الخاصّة، ومتطوّعين للاضطلاع بواجباتهم في العالم، بصفتهم خميرة إِيمانٍ، ومسؤوليّةٍ، ونموٍّ، وكرامةٍ إِنسانيّةٍ، في جميع الأَوساط الاجتماعيّة، وجاهدين في تزويد العالم بثروةٍ روحيّةٍ، كي يكون هذا العالم، دائمًا، أوفر إِنسانيّةً وإِخاءً.

ولذلك دعا كلّ إِنسانٍ إلى تعميق معرفته لهويّته، كي يستطيع محاورة الآخرين، حوارًا بنّاءً.

ومع أَنّ كثيرين كانوا يقابلون أَنباء زيارته إلى بلادهم ببرودٍ، وريبةٍ، أو حتّى بالمقاومة والرفض، إِلاّ أَنّه كان يدهشهم، ويبدّد شكوكهم ولامبالاتهم، بدعوته التي لا تكلّ إلى التحاور، والتسامح، والمسامحة المتبادلة.

وكانت كلّ رحلةٍ له إلى بلادٍ مسيحيّةٍ، أو تضمّ مسيحيّين، فرصةً للقاء الكنائس المحلّيّة، على أَرض الواقع، لأَنّه كان حريصًا على أَن يكون أَداة وحدةٍ بين جميع الكنائس، وأَداة تضامنٍ، بوجوده وسطها جميعًا.

وكان يُعدّ بدقّةٍ، وعنايةٍ، وانتظامٍ، لكلّ رحلةٍ، وغالبًا ما يشرع بالإِعداد لهذه الرحلات، ثمانية أَشهر، قبل اضطلاعه بها، فيطلب ملفّاتٍ دقيقةً، ويطالعها

باهتمامٍ، ويتحدّث، مطوّلاً، إلى العارفين بدقائق أَوضاع البلدان التي ينوي زيارتها، ويجهد في تعلّم بعض عباراتها الشائعة، بلغاتها الخاصّة.

وهذا البابا المتشبّث بجذوره، الآتي من بلدٍ ليس تاريخه مجرّد أوراقٍ صفراء تعبث بها ريح الزمن، بل هو طاقةٌ هائلةٌ توفّر قدرة البقاء، كان راسخ الإِيمان بأَنّ ثقافة شعبٍ هي الثروة التي ينبغي صونها، في المقام الأوّل، لأَنّها الذاكرة الفرديّة والجماعيّة. هذه القناعة سعى إلى ترسيخها حيثما حلّ، وقد عبّر عنها في إحدى زياراته إلى أَفريقيا، بقوله: «**حافظوا على جذوركم الأفريقيّة، وعلى قِيَم ثقافتكم. رسّخوها، وأَخلصوا لها. كونوا أَوفياء لهذه القِيَم: احترام الحياة، والتضامن داخل الأُسرة، ومساعدة الأَقربين، واحترام المسنّين، وحسن الضيافة، وصوْن التقاليد، والكَلَف بطقوسكم ورموزكم، وحرصكم على التحاور والتفاوض سبيلاً إلى فضّ خلافاتكم. كلّ هذه كنوزٌ تستمدّون منها وسائل لبناء قارّةٍ ذات نموذجٍ أَصيلٍ، نموذجكم الأَفريقيّ، حيث تتناغم قِيَم ثقافتكم العريقة، وأَغنى مبتكرات الحضارة الحديثة**».

ولا ريب أَنّ يوحنّا بولس الثاني، كان، بذلك، يحقّق رغبة الكردينال «دون هيلدر كامارا»، رئيس أَساقفة ربسيفيه، بالبرازيل، الذي أَجاب من استوضحوه كيف يسعهم عون بلده، بقوله: «ابدأوا بتغيير عقليّاتكم. لا تأتونا بهيئة منتصرين. نحن مستعدّون للترحيب بإخوةٍ يمدّون يد المساعدة، لا متسلّطين يدّعون تلقيننا دروسًا!».

وقد أوجز يوحنّا بولس الثاني وصف أسفاره بقوله: «**إنّ البابا يسافر من أجل إعلان الإنجيل، وتثبيت إيمان إخوته، ومعاضدة الكنيسة، ومن أجل لقاء الإنسان... إنّها أسفار حبٍّ، وسلامٍ، وإخاءٍ شاملٍ...**».

وقد أولى قداسته عنايةً خاصّةً بأميركا الجنوبيّة، حيث يقيم نحو نصف كاثوليكيّي العالم، وحيث يعيش معظمهم في وضعٍ كارثيٍّ، مادّيًّا واجتماعيًّا.

وفي الصفحات التالية سنبسط وقائع أَهمّ أَسفاره، حيث تجلّت رسالته وشخصيّته.

المكسيك: هدف رحلته البابويّة الأولى

في أَثناء اجتماع مجلس الكرادلة، المنعقد في ١٩٧٨/١٢/٢٢، أَعلن يوحنّا بولس الثاني عن رغبته في الشخوص إلى المكسيك، يحدوه دافعان: التخشّع في مزار سيّدة غوادالوبي، والمشاركة في المؤتمر الثالث لمجلس أَساقفة أميركا اللاتينيّة، المدعوّ (CELAM) «سيلام».

كان من شأن هذه الرحلة وضع الحبر الأَعظم أَمام مواجهةٍ مزدوجةٍ: أولاهما قضيّةٌ تقضّ مضاجع الكنيسة الكاثوليكيّة، متمثّلةٌ في مواجهة «أنصار» ما سمّي «لاهوت التحرير»، الذي رفعت شعاره فئةٌ عريضةٌ من إِكليروس أَميركا اللاتينيّة، والثانية تتعلّق بالسلطات المدنيّة المكسيكيّة المناهضة للدين. فقد كانت هذه السلطات قد شنّت حملة اضطهادٍ ضاريةً على الكنيسة، في الربع الأوّل من القرن العشرين، ثمّ عقدت معها تسويةً، في أَعقاب الحرب العالميّة الثانية، غير أَنّها ظلّت، دستوريًّا، وفعليًّا، مناهضةً للدين، وما برحت العلاقات بين النظام والكنيسة متوتّرةً، وبدا أن لا وجود للكنيسة في الحياة العامّة. ومن ثمّ، عندما تلقّى يوحنّا بولس الثاني، من كرادلة أَميركا اللاتينيّة وأَساقفتها، دعوةً إلى المشاركة بمؤتمرهم في «پويبلا»، ساد التوتّر في أمانة سرّ الڤاتيكان، التي ارتأت الإحجام عن تلبية تلك الدعوة، متذرّعةً بغياب العلاقات الدبلوماسيّة بين الكرسيّ الرسوليّ ودولة المكسيك، وبتقاعس السلطات المكسيكيّة عن توجيه دعوةٍ إِلى الحبر الأَعظم، لزيارة بلادها.

غير أَنّ دبلوماسيّةً شخصيّةً متكتّمةً أَفلحت في حلّ هذه العقدة. فقد كانت والدة الرئيس المكسيكيّ «خوسّيه لوپيز پورتيّو» وأخواته، يُقمنَ في منزلٍ بمحيط القصر الرئاسيّ، وكنّ وفيّاتٍ لإِيمانهنّ الكاثوليكيّ. وكان الرئيس يولي إِحدى شقيقاته ثقةً كبرى، وعيّنها مستشارةً له. وتدخّل كاهنٌ كاثوليكيّ فأوعز إلى والدة الرئيس وأَخواته، أَن يقنعنَه بدعوة الحبر الأَعظم لزيارة المكسيك. وامتثل الرئيس لرغبتهنّ، متخطّيًا اعتراض وزير الداخليّة، المتشدّد في موقفه المعادي للكنيسة. ولكنّه اشترط أَلاّ ترتدي الزيارة البابويّة صفة زيارة رئيس دولةٍ، وأَن يحصل الزائر على تأشيرة دخولٍ، مثل أَيّ سائحٍ عاديٍّ.

كان بدهيًّا ألاّ يحظى هذا الحلّ بكامل رضى أمانة سرّ الڤاتيكان، ولكنّ الحبر الأَعظم تلقّفه بسرورٍ. وهكذا، في الساعة الثامنة من صباح الخامس والعشرين من كانون الثاني ١٩٧٩، أَقلعت به طائرة «أَليتاليا» من مطار روما، برفقة موكبٍ لجبٍ من كرادلةٍ وأَساقفةٍ وصحافيّين ورجال أَمنٍ. وبعد محطّةٍ في «سان دومينغو»، عاصمة جمهوريّة الدومينيك، حيث أَمضى ليلةً، تابع سفره إلى مكسيكو.

كانت تلك رحلته البابويّة الأُولى. وتساءل كثيرون كيف ستندرج في بلدٍ يتباهى حكّامه بمناوأة الدين. لمّا وطئ البابا أَرض المطار، ركع وقبّلها، مستهلاًّ طقسًا لن يحيد عنه في كلّ زياراته إلى بلدانٍ غريبةٍ. ولمّا نهض، صافحه رئيس المكسيك مرحّبًا، وربّما دفعه إلى ذلك ما لمسه من ترحيبٍ شعبيٍّ متحمّسٍ بتلك الزيارة.

اقتضى اجتياز الموكب مسافة أَقلّ من ثمانية كيلومتراتٍ، بين المطار ووسط العاصمة مكسيكو، أكثر من ساعةٍ، إذ كان قد اصطفّ، على جانبَي الطريق، أَكثر من مليون مكسيكيٍّ تقاطروا من كلّ أَرجاء البلاد، وراحوا يلوّحون بالأيدي والأَعلام مرحّبين، ويمطرون السيّارة الحبريّة بوابلٍ من الزهور، ويطلقون الهتافات الجذلى، التي بلّلت معظمَها دموعُ التأثّر. وانضمّ إلى حشود المرحّبين، مئات الكهنة والراهبات الذين تجاسروا فارتدوا، علنًا، زيّهم الرهبانيّ أو الكهنوتيّ، الذي كان محظورًا عليهم الظهور به.

بعد احتفاله بالذبيحة الإِلهيّة، في كاتدرائيّة المدينة، خاطب قداسته جمهورًا من زهاء ثلاث مئة أَلف مكسيكيٍّ، غَصّت بهم ساحة المدينة. وبعد الظهر، زار الرئيس «پورتيّو» في مقرّه، ثمّ قابل والدته وشقيقاته في مكان إِقامتهنّ، وتحادث معهنّ نحو نصْف ساعةٍ، وبارك المصلّى الصغير المقام داخل منزلهنّ.

في ذلك اليوم، وفي اليوم التالي، بدا الحبر الأَعظم ساهمًا، مستغرقًا في تفكيرٍ جادٍّ. فقد كان من شأن الخطاب الذي سيلقيه في مؤتمر أَساقفة أَميركا اللاتينيّة، أن يحدّد مصير نصف كاثوليكيّي العالم، ولا سيّما أَنّ فئةً كبيرةً من المؤتمرين كانت تناصر «لاهوت التحرير»، وتطالب الكنيسة بالانحياز إلى الماركسيّة، متناسين أَنّ الكنيسة هي مجموعة رجالٍ ونساءٍ ساعين إلى التفاهم،

وإلى تبادل أفكارٍ تفضي إلى إِصلاح المجتمع، وتمثّل مشاركتهم في الأَسرار الإِلهيّة، ملاطًا لوحدتهم أَمتن من ملاط السياسة. في حين كان «لاهوت التحرير» يطالب الكنيسة بالتخلّي عن انفتاحها، وتسامحها، ومحبّتها للجميع، وباتّخاذ موقف عداءٍ صريحٍ ممّن يعدّهم أَعداء المجتمع.

لا جَرَم أَنّ العديد من المسؤولين الكنسيّين تواطأوا، أحيانًا كثيرةً، مع حكّامٍ ظالمين طغاةٍ، ومع أَغنياء مستغلّين، ومن جرّاء ارتباطهم بالسلطة الزمنيّة، أَفقدوا الكنيسة التي يمثّلونها، صفتها النبويّة المدافعة عن العدل. وكان يوحنّا بولس الثاني حريصًا على التذكير برسالة الكنيسة الخالدة، وبهويّتها الأَصيلة.

مكان المؤتمر في «بويبلا»، يبعد مئة وثلاثين كيلومترًا عن مكسيكو، وقد اجتاز هذه المسافة، وسط مناظر أخّاذةٍ، وملايين المؤمنين الذين تراصّوا على امتداد الطرقات لتحيّته، والترحيب به: هنودٌ بأزيائهم المزركشة، وأَبناء رعايا حاملين صلبانًا وهياكل صغيرةً. كثيرون منهم كانوا قد وافوا من قراهم مصطحبين بهائمهم وكلابهم، ورقدوا على جنبات الطريق، منتظرين عبور الموكب الحبريّ. وقد تريّث البابا في محطّاتٍ عديدةٍ، وخاطب الجماهير بلغةٍ إسبانيّةٍ لا تشوبها شائبةٌ.

وقد خصّت مدينة «بويبلا» زائرها باستقبالٍ فخمٍ مدوٍّ، وبالزينة، والأَلعاب الناريّة، فيما كانت طائرةٌ صغيرةٌ، مزوّدةٌ بمكبّرات صوتٍ تذيع أَنغام «هلّيلويا»، وأوركستراتٌ عديدةٌ تضمّ أَنغامها إلى رنّات أَجراس الكنائس التي ملأت الأَجواء حبورًا، فيما ألوف المحتشدين يلوّحون بالأَعلام، ويردّدون هتاف: «بويبلا، بويبلا، بويبلا تحبّ باباها».

بعد القدّاس، الذي أُقيم فوق منصّةٍ، في الهواء الطلق، شارك قداسته في إِحدى جلسات مؤتمر الأَساقفة، أُبعد عنها الجمهور والصحافيّون، وأَلقى خطابًا يُعدّ من أَخطر خطابات حبريّته، استهلّه بالتأكيد أَنّه جاء إليهم، أَخًا إلى إِخوةٍ محبوبين، وهنّأهم على ما حقّقوه في مؤتمرَيْهم السابقَيْن، موضحًا أَنّ قوّتهم ناجمةٌ عن كونهم قدموا إلى «بويبلا» لا بصفة خبراء، أو برلمانيّين، أو سياسيّين، أو علماء وفنّيّين، بل بصفتهم رعاة الكنيسة، واعين أَنّ واجبهم الرئيس هو أن

يكونوا «معلّمي الحقيقة». فالحقيقة هي مرتكز كلّ عملٍ بشريٍّ، قادرٍ، حقًّا، على التحرير. والحقيقة التي انتُدبوا لإعلانها والشهادة لها، هي حقيقة يسوع المسيح، ابن الله الحيّ، وهي الإِنجيل الأَوحد. وكلّ تأويلٍ لها ينأى بها عن جوهرها، يعجز عن تحقيق تحريرٍ مسيحيٍّ حقيقيٍّ. ومن هذه التأويلات التي راجت حديثًا، تصوير المسيح ملتزمًا سياسيًّا، مقاومًا للسيطرة الرومانيّة وللمتنفّذين، ومناصرًا لصراع الطبقات، في حين يُظهر الإِنجيلُ مناهضة يسوع لخلط الأمور الإِلهيّة بالمواقف السياسيّة الصرف، ورفضه لكلّ لجوءٍ ملتبسٍ إلى العنف، ودعوته الجميع إلى التوبة، وإِصلاح الذات.

وبالتالي، فالتحرير الحقّ يكمن في الخلاص الذي قدّمه يسوع، والذي يتحقّق «**بحبٍّ يغيّر ما في النفوس، ويشيع السلام والمصالحة**». وكلّ تأويلٍ يخالف ذلك يسلب الإِنجيل قدرته، ويُفقد الكنيسة طابعها المميّز. ولا يسوغ تحويل «ملكوت الله» إلى مجرّد تغيير أَنظمةٍ في المجتمع. فمن شأن ملكوتٍ مُسيَّسٍ، معلمَنٍ، أن يحطّ من شأن الحرّيّة التي ينشدها كلّ إِنسانٍ.

إِنّ النظرة الماركسيّة المادّيّة الصرف إلى الكائن البشريّ، تتباين ونظرة الكنيسة التي ترى الإِنسان على صورة الله، ولا ترضى أَن تقصره على جزءٍ من الطبيعة، أَو على عنصرٍ مبهَمٍ من جماعة البشر. ونظرة الكنيسة الشاملة إلى الإنسان التي تمثّل تعليمها الاجتماعيّ، لا ترى في البشر ضحايا قوًى تاريخيّةٍ واقتصاديّةٍ مجرّدةٍ، بل ترى فيهم صانعي المجتمع، والاقتصاد، والسياسة، والتاريخ.

ومن ثمّ، فإنّ مهمّة الأَساقفة، بصفتهم رعاةً، ومعلّمي الحقيقة، تتمثّل في الذود عن الكرامة الإِنسانيّة، بصفتها قيمةً إِنجيليّةً، يمثّل امتهانُها إِهانةً كبرى للخالق. وعليه، ففي سبيل المطالبة بالحرّيّة الدينيّة، والتنديد بالقمع والتعذيب، وفي سبيل محبّة الإِنسان وتحريره، لا تحتاج الكنيسة إلى استفتاء أَنظمةٍ وإِيديولوجياتٍ، بل حسبها التحديق إلى يسوع. إِنّ تحرير الأُسرة البشريّة الشامل هو قضيّة الكنيسة، لأَنّه قضيّة المسيح.

لدى عودته إلى مدينة مكسيكو، تلقّى البابا من الكردينال الذي ترأّس

المؤتمر، هاتفًا أكّد له فيه أنّ الأساقفة المؤتمرين رحّبوا بخطابه أجمل ترحيبٍ. وفي الحال تبدّد ما كان يرتسم على محيّاه من وجومٍ وسهومٍ، وهرع إلى حجرته، وهو يدمدم لحنًا عزيزًا عليه، واستعاد مرحه، وظلّ يمازح مرافقيه طوال الفترة التي مكثها في المكسيك.

يوم ١٩٧٩/١/٢٩، أقلّته مروحيّةٌ إلى محلّة «كولياكان»، حيث كان ينتظره أكثر من نصف مليون هنديٍّ، من سكّان البلاد الأصليّين، بزيّهم الفولكلوريّ. وكان العديدون منهم قد انتظروه هناك أيّامًا عديدةً، مرتدين أزياءهم التقليديّة المزركشة. فرقصوا وغنّوا له، وقدّموا له الهدايا، وتناوبوا على تطويق كتفيه بشالات صوفيّةٍ موشّاةٍ، وقدّموا له قبّعة الزعيم. وأخذ التأثّر بالبابا كلّ مأخذٍ، فعانق من كانوا يقدّمون له الهدايا، وخصّ كلاً منهم بعبارات شكرٍ.

وأمام هضبةٍ جرداء، أعلن لحشدٍ كثيفٍ ضمّ مئات ألوفٍ من العمّال، أنّه راغبٌ في أن يكون صوتهم، صوت من لا قدرة لهم على الكلام، أو من أُكرهوا على الصمت عنوةً، عسى أن يعوّض الزمن المهدور، زمن آلامٍ متماديةٍ، وآمالٍ خائبةٍ. وبغتةً علت نبرته، والتهبت لهجته، فندّد بالمظالم التي أُلحقت بفقراء أميركا اللاتينيّة، وبالمسؤولين عمّا يتعرّض له الضعفاء من حيفٍ، مؤكّدًا أنّ أوصاب العالم القرويّ، وعرق العمّال، الذي لا يروي سوى إرهاقهم، لا يسعها أن تظلّ تنتظر اعترافًا كاملاً بكرامتهم، التي لا تتدنّى عن كرامة أيّة فئةٍ اجتماعيّةٍ أُخرى... الاحترام حقٌّ لهم، وحقٌّ لهم، أيضًا، ألاّ يُسلبوا مواردهم الهزيلة، من خلال تدابير ليست، في الواقع، سوى سرقةٍ موصوفةٍ، مهما ارتدت من ثياب التمويه. وحقٌّ لهم أن يُساعَدوا، لا بفتات عدلٍ زائفٍ، لكي يتمكّنوا من النموّ نموًّا تستأهله كرامتهم، بصفتهم بشرًا وأبناءً لله. فلا بدّ من تغييراتٍ جريئةٍ، وإصلاحاتٍ عاجلةٍ لا تحتمل تأجيلاً.

لقد سارع بعض المعلّقين إلى ادّعاء تباينٍ بين هذا الخطاب وذلك الذي ألقاه في مؤتمر الأساقفة، في حين لا يخفى على المتبصّر أنّ كليهما يتدفّقان من نبعٍ واحدٍ، هو روح الإنجيل والمجمع الفاتيكانيّ الثاني. كان اللاهوت، عند يوحنّا بولس الثاني، يأتي في المرتبة الأولى، ولم تكن السياسة والاقتصاد سوى

تطبيقاتٍ، في حين أَنّ الإِعلاميّين، الذين قلّما يتقصّون جوهر الأُمور، ينزعون إلى اعتبار أَنّ السياسة هي عالم الواقع، فيما يعدّون اللاهوت قضيّة مزاجٍ.

هذه الرحلة الرسوليّة الأولى كانت ليوحنّا بولس الثاني وللكنيسة، خبرةً غنيّةً أَبرزت صورةً قشيبةً أَخّاذةً لبابويّة رسوليّةٍ حازمةٍ، إِنجيليّة النفحة. وقد وصفها أَحدهم بأنّها «رسالةٌ عامّةٌ (encyclique) حيّةٌ، قولاً وأَفعالاً».

في الأَوّل من شباط **١٩٧٩**، عاد يوحنّا بولس الثاني إلى روما، وقد لوَّحت محيّاه شمس المكسيك. وفي الحال قصد كاتدرائيّة القدّيس بطرس كي يقدّم صلاة شكرٍ. قبل تبوّئه الكرسيّ الرسوليّ، قلّما انتابه القلق على مصيره الذي أودعه بين يدي الربّ. ولكنّه، في هذه الرحلة الرسوليّة الأولى، كانت مسؤوليّة منصبه ترين على كاهله بكلّ ثقلها، وكذلك مسؤوليّة ترسيخ روح المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، في كنيسة أَميركا اللاتينيّة، التي تمثّل أَغنى منجمٍ للكاثوليكيّة. وقد عاد يدعمه ويريحه شعورٌ منعشٌ بأَداء واجب الرسالة.

وجديرٌ بالتنويه أَنّ هذا البابا الپولونيّ الديناميّ، قد استهلّ، برحلته هذه، تقليدًا جديدًا في دنيا الإعلام. فقد رافقه نحو خمسين صحافيًّا من مختلف الجنسيّات. في عهد سلفه، البابا بولس السادس، كان محظورًا على الصحافيّين طرح أَيّ سؤالٍ على الحبر الأَعظم. أَمّا يوحنّا بولس الثاني، فمنذ هذه الرحلة، انتهج نهجًا جديدًا، إِذ راح يجول بين الصحافيّين، ويصافحهم فردًا، فردًا، ويطلعهم على آرائه، ويجيب على كلّ استفساراتهم، حتّى أَشدّها إحراجًا، مستخدمًا، في معظم الحالات، لغة كلٍّ منهم.

وقد استهلّ حديثه مع الصحافيّين، في هذه الرحلة بقوله: «**إِنّ هذه الرحلة هي حجٌّ إِيمانيٌّ، ورحلة رجاءٍ. يفعمني شعورٌ بسجوّ النفس وبالأمل. وأَظن أَنّ العناية الإِلهيّة هي التي تقودنا... لبضعة أَشهر خلت، لم يكن بوسعي تخيّل قيامي بهذه الرحلة، وانخراطي في هذا الإِطار. لا ريب أَنّ وضع العالم العامّ الراهن، في جميع القارّات، ليس مريحًا، بل هو معقّدٌ. ولكنّني حريصٌ على التفاؤل، مؤمنًا أَنّ الخير الكامن في روح الإِنسان وفي قلبه سينتصر. وإِنّه لمن واجب الكنيسة،**

ومن واجبي، إيقاظ ما هو خيرٌ في روح الإنسان وفي قلبه، ودعمه، والسعي إلى سحق الشرّ... هذه هي رسالتنا».

الرسالة العامّة: «فادي الإنسان» (Redemptor Hominis)

الآراء التي شرع يوحنّا بولس الثاني يعلنها في المكسيك، كانت موضع برنامج حبريّته المتمثّل في ترسيخ «إنسانيّةٍ مسيحيّة»؛ برنامجٍ أَشبعه تأمّلاً على مدى سنوات كهنوته وأُسقفيّته، وحرص على إِعلانه، موضحًا الهدف الذي سيكون محور جهوده البابويّة.

وهكذا، مدفوعًا بزخم ما حقّقه خلال رحلته المكسيكيّة، أَعلن، في ١٩٧٩/٣/١٥، رسالته العامّة الأولى، بعنوان «فادي الإنسان» (Redemptor Hominis).

فقد كان يرى أَنّ افتداء يسوع للإِنسان، في فكره وفي جسده، هو نشيد فرحٍ عظيمٍ، وأَنّ هذا الفداء مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بكرامة الشخص البشريّ. وفي إِشارةٍ إلى ما يتوقّعه العالم، في الأَلفيّة الثالثة، قال: «**من خلال التجسّد، أضفى الله على الحياة البشريّة، البعد الذي كان قد استهدف إضفاءه على الإنسان منذ البدء**». وأَوضح أَنّ التجسّد يعلّمنا أُمورًا عن الله وعنّا. فاستجابةً لأُبوّة الله ولعظمة حبّه، تأنّس ابن الله، مثبتًا «عظمة الإِنسانيّة، وكرامتها، وقيمتها». فالإِنسان لا يقوى على العيش بمعزلٍ عن الحبّ، وتبقى حياته بلا معنًى، ما لم يعتلن له الحبّ، وما لم يعثر عليه، ويشعر به، ويمتلكه، ويشارك به مشاركةً وثيقةً. والحبّ أَكبر من الانحطاط، ومن الوهن البشريّ، في كلّ مكانٍ، وكلّ زمانٍ، لأَنّ «الله محبّةٌ».

وبما أَنّه يتعذّر وجود الحبّ خارج الحرّيّة، فعلى الكنيسة، كي تكون وفيّةً لرسالتها، أن تكون حارسة الحرّيّة البشريّة. والحرّيّة البشريّة الحقّة تنشد الحقيقة، وترتبط بها. ومن ثمّ، فالحبّ المُكتشَف في الحرّيّة، والحرّيّة الخاضعة للحقيقة، هما جوهر الإِنسانيّة المسيحيّة. وحبّ الفادي الذي لا يُقهر، هو مرتكز رسالة التحرير الحقيقيّ، الموكلة إلى الكنيسة.

ويمضي يوحنّا بولس الثاني، قُدُمًا، في تحليله، فيقول:

«**إنّ العالم المعاصر مهدّدٌ بإنجازاته ذاتها. والخوف يستحوذ، أكثر فأكثر، ويومًا فيومًا، على الإنسانيّة الحديثة. والخوف الأكبر هو تدميرٌ ذاتيٌّ يصعب تخيّله، ويتخطّى، شأوًا بعيدًا، كلّ ما عهده الماضي من رزايا وآفاتٍ، من جرّاء الهوّة السحيقة بين قدرات البشر المادّيّة، وسلوكهم الأخلاقيّ، ما جعل كثيرين يعتقدون أنّ الحياة بلا معنًى. هذا الواقع المريع ناجمٌ عن تجاهل الإنسان أنّ النموّ الإنسانيّ الحقّ يكمن في مزيدٍ من «الكيان»، لا في مزيد من «الامتلاك**».

وعلاج هذا الواقع يكمن في الإيمان بأنّ الطبيعة البشريّة ليست مادّيّة فحسب، بل هي أخلاقيّةٌ وروحيّةٌ، وفي الدفاع عن حقوق الإنسان الجوهريّة، ما يمكّن من مواجهة الأخطار التي تراكمت في القرن العشرين، وجعلت منه حقبة هواجس ومجازر، وأخطارٍ تمثّلت في إيديولوجياتٍ وبيلةٍ، وأنظمةٍ شموليّةٍ، وفي الإرهاب، والانحلال الأُسريّ.

ورأى يوحنّا بولس الثاني أنّ كرامة الإنسان لا تصان إن هو افتقر إلى الحرّيّة الدينيّة. وهو الذي عانى قمع الحرّيّات الدينيّة في البلدان القابعة وراء الستار الحديديّ، قال: «**ليس تقييد الحرّيّة الدينيّة، لدى الأفراد والجماعات، محنةً أليمةً فحسب، بل هو، أيضًا، وفوق كلّ شيءٍ، طعنةٌ لكرامة الإنسان، وحيفٌ يلحق بأعمق ما في الإنسان، وما هو، حقًّا، إنسانيٌّ**».

ومستشهدًا بقول القدّيس أوغسطينُس المأثور: «**صنعتنا من أجلك، يا ربّ، ولن يعهد قلبنا الراحة، حتّى يستريح فيك**»، أكّد أنّ في هذه العودة إلى الله الشفاء من أوصاب عصرنا، والانعتاق من الخوف المسيطر على النفوس، ودرء الأخطار الماحقة الداهمة.

عودةٌ إلى الوطن: الملحمة البولونيّة

منذ انتخابه، كان يوحنّا بولس الثاني، قد باح لمواطنيه، الذين جاؤوه مهنّئين، برغبته الملتهبة في الحجّ إلى موطنه، بمناسبة الذكرى المئويّة التسعين لاستشهاد

القدّيس ستانسلاس، واختتام سينودس كراكوڤيا الذي كان قد دعا إليه، وافتتحه بنفسه. وقد وصف بعض إداريّي الڤاتيكان، الغرباء عن العقليّة البولونيّة، رغبة الحبر الأعظم هذه، نزوةً رومنسيّةً، وتوقًا عاطفيًّا، في حين كان يحدو البابا حدْسٌ ثاقبٌ بأنّ من شأن هذه الزيارة أن تُحدث شرخًا في جدار التوتاليتاريّة، بقوّة التاريخ والحضارة الأصيلة.

وفيما كانت المفاوضات السرّيّة ناشطةً بين النظام الحاكم في ڤرسوڤيا والڤاتيكان بهذا الشأن، حرصت الحكومة البولونيّة على إحاطة موقفها منه بالكتمان، إذ إنّ الكوادر الشيوعيّة كانت منقسمةً حول هذه الزيارة. فمتولّو المناصب العليا في الحزب كانوا يؤثرون استقبالاً حارًّا للبابا البولونيّ، الذي ما زال يحمل جواز سفرٍ بولونيًّا، ومن ثمّ يصعب منعه من المجيء إلى وطنه، فضلاً عن أملهم في أن يكسبوا فيه حليفًا ينعم بنفوذٍ عالميٍّ، قد يكون جزيل النفع لهم على الساحة الدوليّة. أمّا ذوو المناصب الدنيا في الحزب، فمن جرّاء تماسّهم الوثيق مع سواد الأهالي، وتحسّسهم لمشاعرهم، كانوا يتوجّسون خشيةً من مغبّات هذه الزيارة.

وفي الواقع، لم يكن البتّ في هذا الأمر محصورًا بالحزبيّين والمسؤولين الحكوميّين البولونيّين، بل كان لا مفرّ من موافقة نظرائهم وأسيادهم السوڤييتيّين؛ وكان معظم هؤلاء ينظرون بكثيرٍ من الريبة والتحفّظ إلى ذلك الحدث. وقد تلقّى زعيم الحزب الشيوعيّ البولونيّ «جيريك»، من نظيره ورئيسه السوڤييتيّ «بريجينيڤ»، هاتفًا عنيفًا، عندما تنامى إليه أنّه يبحث، مع ممثّلي الڤاتيكان، أمر استقبالٍ رسميٍّ للبابا. وقد جهد في إقناعه بفعل كلّ مستطاعٍ لحمل البابا على إلغاء هذه الزيارة، تحت أيّة حجّةٍ، وإن تعذّر ذلك، فمن الأفضل ألاّ يقيم له أيّ استقبالٍ رسميٍّ. وحيال تأكيد «جيريك» استحالة الحلّيْن المقترحَيْن، قال له «بريجينيڤ»، حانقًا: «افعل، إذن، ما يحلو لك، ولكن حذارِ من الندم لاحقًا!». وكان هذا التحذير، يحمل في طيّاته، أدهى النذُر.

وحينئذٍ عمدت السلطات البولونيّة إلى المناورة بشأن التفاصيل؛ ولكنّ مناوراتها انقلبت وبالاً عليها. وتناولت المناورة الأُولى توقيت الزيارة، التي كان

البابا يرغب في القيام بها، يوم الثامن من أيّار، الموافق لعيد القدّيس ستانسلاس. وحدوثها في هذا التاريخ بالذات، كان يعني، في نظر الشيوعيّين، تكريس المقاومة الدينيّة لسلطة الدولة، وهو أمرٌ مرفوضٌ، قطعًا. وعقب جولاتٍ حاميةٍ من المفاوضات، انتهى الطرفان إلى تسويةٍ استبدلت يومَيْ زيارةٍ في أيّار، بتسعة أيّامٍ في حزيران، يزور خلالها ستّ مدنٍ، عوضًا عن الاقتصار على ڤرسوڤيا وكراكوڤيا فقط.

وفقًا لهذه التسوية، وفي ١٩٧٩/٣/٢، وجّه رئيس الدولة الپولونيّة «هنريك يابلونسكي»، دعوةً رسميّةً إلى يوحنّا بولس الثاني، كي يزور پولونيا، في التواريخ التي تمّ التوافق عليها. وقد حرصت الصحف الرسميّة على التأكيد بأنّ تلك الزيارة لن تغيّر شيئًا من دور الحزب القائد، ومن طبيعة الجمهوريّة الشعبيّة التي ستظلّ علمانيّةً صرفًا. وقد خُيّل إلى الشيوعيّين أنّ التسوية التي تمّ التوصّل إليها، كانت نصرًا لهم، في حين هي كانت نصرًا مبينًا للبابا، الذي أُتيحت له تسعة أيّامٍ عوضًا عن يومَيْن، وزيارة ستّ مدُنٍ تحمل رموزًا جليلة الشأن، بدلاً من الاقتصار على مدينتي ڤرسوڤيا وكراكوڤيا. وقد استدركت الكنيسة الپولونيّة المناسبات، التي كان الحبر الأعظم راغبًا في المشاركة بها، فمدّدت الاحتفالات بذكرى استشهاد القدّيس ستانسلاس شهرًا كاملاً، ينتهي في العاشر من حزيران، وأرجأت أبرشيّة كراكوڤيا اختتام سينودسها، حتّى موعد وصول الحبر الأعظم إليها.

ومع أنّ السلطات منعت البابا من زيارة مزار «پيكاري» المريميّ، في منطقة «سيليزيا»، حيث معقل الزعيم الشيوعيّ «جيريك»، الذي لم يُطِق أن يرى غيره يحتلّ فيها مكان الصدارة، ولو مؤقّتًا، ولم تأذن له، أيضًا، بالمثول إلى مدينة «نوڤاهوتا»، التي شاءها الشيوعيّون خاليةً من أيّ أثرٍ لله، غير أنّ جولته شملت العديد من الأماكن التي تنطوي على رموزٍ پولونيّةٍ وكنسيّةٍ هامّةٍ.

ونوقشت، أخيرًا، قضيّة تغطية الزيارة البابويّة الإعلاميّة. وكان النظام قد حال، مدى ثلاثين عامًا، دون السماح للكنيسة باستخدام الإذاعة والتلفزيون. ولكن، في هذه المناسبة الفريدة، احتجّ المسؤولون الكنسيّون بأنّ حدث زيارة البابا يهمّ كلّ المواطنين، ولا بدّ من إطلاعهم على تفاصيله. وطالبت بلدانٌ

عديدةٌ مجاورةٌ بمثل ذلك. وأَخيرًا، ارتأت الحكومة الشيوعيّة أَنّ إِذاعة المحطّات الرئيسة من الزيارة الحبريّة، قد تحدّ من التجمّعات والتظاهرات الحاشدة، فوافقت على بثّها، أَملاً في أَن يلتصق القوم بشاشات تيليفزيوناتهم، عوضًا عن التدفّق إلى الشوارع والساحات.

ولكي لا ترهق الحكومة نفسها بترتيبات الزيارة، أَوكلت هذه المهمّة إلى الكنيسة، وبذلك أَثبتت بطلان المزاعم التي دأبت، سنواتٍ، على محاولة ترسيخها، والتي ادّعت، من خلالها، أَنّ الحزب هو قائد المجتمع الوحيد القادر على ضبط كلّ شيءٍ. وأَثبت الپولونيّون خلاف ذلك، إذ اندرجت الزيارة البابويّة على أَمثل وجهٍ من التنظيم. وقد تطوّعت أُلوف الأُسر لإعداد وجبات طعامٍ للحجّاج القادمين من كلّ صوبٍ للترحيب بالبابا.

وكان يوحنّا بولس الثاني، تمهيدًا لزيارته، قد وجّه في عيد القدّيس الشهيد ستانسلاس، رسالةً إلى الكردينال «ڤيشينسكي»، وإلى رئيس أَساقفة كراكوڤيا «مهارسكي»، وإلى مجمل الإكليروس الپولونيّ، مؤكّدًا أَنّ القدّيس ستانسلاس هو واحدٌ من جماعة شهودٍ متأَلّقةٍ، استمدّت من الكنيسة قوّتها، طيلة قرونٍ، وأَنّ تضحياتها ستظلّ هي مصدر أَعمال الأُمّة، ومِحَنها، وقناعاتها. إِنّهم إِرثٌ ترغب پولونيا في تذكّره، وسط الأَوضاع الراهنة التي تجتازها.

وفيما كان يوحنّا بولس الثاني والكردينال «ڤيشينسكي»، يرسّخان في الأَذهان ارتباط تاريخ پولونيا الوثيق بإيمانها الكاثوليكيّ، ارتباطًا لا ينفكّ النظام الحاكم يجهد في بتره، بكلّ ما يتيسّر له من وسائل، وفيما كانت الاستعدادات ناشطةً لزيارة البابا، انطلق الحزب الشيوعيّ يوزّع على أَعضائه، ومناصريه، وعلى معلّمي المدارس وأَساتذة الجامعات، تعليماتٍ سرّيّةً، جاء فيها:

«البابا هو عدوّنا... وهو، من جرّاء مواهبه الاستثنائيّة، وطبعه المرح، خطرٌ علينا، لأنّه يفتن الجميع، ولا سيّما الإعلاميّين. وفضلاً عن ذلك، هو لا يتوانى عن استخدام مظاهر سخيفةٍ، مثل اعتمار قبّعات الجبليّين، والشدّ على أَيدي الجماهير، وتقبيل الأَطفال...».

«إِنّه خطرٌ لأنّه سيجعل من القدّيس ستانسلاس شفيع مقاومي السلطة، ومثالاً للمدافعين عن حقوق الإنسان. ولحسن الحظّ، ضمنّا غيابه بتاريخ الثامن من أيّار... ونظرًا لديناميّة كنيسة پولونيا، فعلى سعينا إلى إِيجاد شبيبةٍ ملحدةٍ، ليس فقط ألاّ يتوانى، بل أن ينمو نموًّا كبيرًا. وفي هذا السبيل كلّ الوسائل جيّدة...».

غير أنّ النظام الحاكم، تمويهًا لمشاعره العدوانيّة هذه، قام بترميم المواقع التي سيزورها الحبر الأعظم، وساعد الكنيسة في إِعداد الأمكنة التي سيُستقبل فيها، وفي إِعداد الفرَق الطبّيّة تحسّبًا للحشود الكثيفة، ووفّر تسهيلاتٍ للصحافة الأجنبيّة، ولكنّه، في الآن عينه، أَحكم الطوق على وسائل الإِعلام المحلّيّة.

وكم تباين ذلك الموقف عن الموقف الذي اتّخذه الحكم، عام ١٩٦٦، عندما رغبت الكنيسة في الاحتفال بالذكرى الأَلفيّة لاعتناق پولونيا الدين المسيحيّ، فجهدت السلطات الشيوعيّة في تهميش هذه المناسبة ومقاومتها، وخاضت مباراةً حامية الوطيس مع الشعب الپولونيّ المضطرم حماسًا! فسارعت إلى تغطية جدران المدن بلافتاتٍ جسيمةٍ تقول: «أَلفيّة الدولة الپولونيّة»، فقابلتها الكنيسة بنشر مئات اللافتات القائلة: «أَلفيّة پولونيا المقدّسة: ٩٦٦-١٩٦٦»، وبلافتاتٍ أُخرى تعلن: «من أَجل الله والوطن»، وحاولت السلطات الردّ بلافتاتٍ تقول: «اشتراكيّة ووطن»، قابلتها الكنيسة بلافتاتٍ تعلن: «الوطن مع الكنيسة»، ردّ عليها الحكم بلافتاتٍ تحمل شعار: «الحزب مع الوطن». وعلى شعار الفخار الذي رفعه الشعب، والقائل: «پولونيا دائمة الوفاء»، ردّ الحزب بشعار: «النظام الاشتراكيّ ضمانةٌ للسلام وللحدود».

ولكن، في حزيران ١٩٧٩، لم تتجاسر السلطات على التنافس مع الكنيسة، بمناسبة زيارة البابا الپولونيّ، يوحنّا بولس الثاني، لوطنه. بل قام موظّفو الحكومة أَنفسهم بتحويل ساحة النصر في ڤرسوڤيا، التي طالما كانت مسرحًا لتظاهرات الحزب الشيوعيّ، إلى منصّةٍ كنسيّةٍ عملاقةٍ، سيخاطب يوحنّا بولس الثاني، من فوقها، ملايين مواطنيه، سواء المحتشدين أَمامه، أو الآخرين الملتصقين بمذياعهم أَو تيليفزيونهم، في منازلهم. وفي وسط المنصّة، انتصب صليبٌ عملاقٌ طوله

خمسة عشر مترًا، مذكّرًا المشاهدين بأنّهم سيحيون ذكرى ضحيّة المسيح. وإلى جانب ذلك الصليب، نُصبت إيقونةٌ لسيّدة «تشينستوهوڤا» السوداء، مذكّرةً بوقوف أُمّ الله عند أقدام صليب ابنها.

وفي هذه الأثناء، دأب البولونيّون على إتمام استعداداتهم لاستقبال مواطنهم الذي يفخرون به. وعلّق طلاّبٌ على واجهة بناء سكنٍ جامعيٍّ، لافتةً جسيمةً دوّنوا عليها قول يوحنّا بولس الثاني للشبيبة: «**أنتم أملُ العالم، وأمل الكنيسة، وأملي!**». وقاوموا، بضراوةٍ، كلّ محاولةٍ لإزالة هذه اللافتة.

وعكف متطوّعون على تزيين مقرّ البابا القديم في كراكوڤيا، ونصْب الأعلام الحبريّة والبولونيّة عليه، متسابقين مع الزمن، عاملين ليلَ نهار. وعشيّة قدوم البابا، فيما كانوا منصرفين إلى هذه المهمّة، أطفئت مصابيح الشارع بلا إنذارٍ، في حين لبثت الشوارع المجاورة مضاءةً. وأدرك الجميع أنّ ذلك التعتيم لم يكن وليد صدفةٍ. غير أنّ البولونيّين أثبتوا أنّهم ليسوا عديمي الحيلة، إذ غدت كلّ السيّارات العابرة تتوقّف عند ذلك المكان، ويُبقي أصحابُها مصابيحها العالية مضاءةً، غير عابئين بنفاذ طاقات بطّاريّات سيّاراتهم.

لقد عُهد عن البولونيّين ولعُهم بالحجّ إلى الأماكن التي دمغها الربّ بحضوره الحسّيّ، ولطالما شاركهم «كارول ڤويتيووا» هذا الولع. وفي هذه المناسبة كان يُعدّ لما وصفه بأنّه «الحجّ الأكثر إدهاشًا في تاريخ أوروبّا الحديثة». وقد أعلن بيان الأساقفة البولونيّين: «إنّ زيارة الأب الأقدس ترتدي طابع حجٍّ دينيٍّ إلى مسقط رأسه، في سنةٍ مكرّسةٍ لمرور تسع مئة سنةٍ على استشهاد القدّيس ستانسلاس، أسقف كراكوڤيا. وسيشمل هذا الحجّ مختلف المزارات التي قدّسها دم الشهداء». وكان هذا البيان يتناغم مع نيّة الحبر الأعظم، التي عبّر عنها منذ انتخابه، مؤكّدًا عزمه على أن تعكس جميع رحلاته هدفًا راعويًّا. ولذلك حرص على أن تستهدف رحلاته كلّها غايةً رسوليّةً أو دينيّةً، وعلى ألاّ يرافقه، في السيّارة البابويّة، أيّ مسؤولٍ سياسيٍّ، مقتصرًا على مرافقة الأُسقف المحلّيّ، أو رئيس المجمع الأُسقفيّ في البلد المضيف. أمّا أثر زياراته على الشؤون العامّة، فكان يدَعُها للأهالي، ولرؤسائهم الدينيّين، وللروح القدس.

تسعة أيّامٍ غيّرت مسار التاريخ

ڤرسوڤيا: ١٩٧٩/٦/٢: في الساعة العاشرة والدقيقة السابعة من صباح ذلك اليوم، حطّت طائرة «أليتاليا» بيوحنّا بولس الثاني، في مطار ڤرسوڤيا. فهبط سلّمها بقدمٍ ثابتةٍ، وقلبٍ يخفق بهجةً وعزيمةً، وركع، وقبّل أرض پولونيا الحبيبة على قلبه. وانطلقت أجراس الكنائس، على امتداد پولونيا، تردّد في الأجواء رنّاتها الجذلى، معبّرةً عن فرحها بابنها البارّ، الذي أَصبح رأس الكنيسة الكاثوليكيّة، وعن توقها المضطرم إلى لقياه مجدّدًا على أَرض وطنه.

بعد ترحيب رئيس الجمهوريّة «يابلونسكي»، ورئيس الكنيسة الپولونيّة، الكردينال «ڤيشينسكي»، أَسفر البابا عن هدف زيارته التي ستمتدّ تسعة أَيّامٍ: وهو أَن يعيد لوطنه تاريخه، ولشعبه حضارته الحقيقيّة، تاريخًا وحضارةً حُجبا على مدى خمس سنواتٍ من الاحتلال النازيّ، وثلاثٍ وثلاثين سنةً من الهيمنة الشيوعيّة.

الطرقات المؤدّية من المطار إلى المدينة، غصّت بمئات أُلوف المواطنين الملوّحين بأعلام الڤاتيكان البيضاء والصفراء، وأعلام پولونيا الحمراء والبيضاء. وارتدت المعابر التي سيجتازها موكب الحبر الجليل، حلّةً كثيفةً، قشيبةً، بَهِجةً من الزينة، طاردةً الكآبة التي كانت تفوح منها، فتحوّلت النوافذ إلى هياكل صغيرةٍ، موشّاةٍ بالزهور والأَعلام، وازدانت واجهات الأَبنية بصورٍ عملاقة للبابا، الذي أَشرق محيّاه بالحبور والتأثّر، فراح يوزّع بركاته يمنةً ويسارًا، وفي كلّ صوبٍ. ولوحظ أَنّ، وحدَها، مباني الحزب الشيوعيّ، والحكومة، احتفظت بطابعها الرماديّ، المتجهّم، المتوتّر، الحزين.

وفي ڤرسوڤيا، انقشع جوّ الكآبة الذي طالما سيطر، والذي كان يعكس كآبة نفوس المواطنين المقموعين، ولكأنّ تلك العاصمة استيقظت، فجأةً، إلى حياةٍ جديدةٍ تموج بِشرًا وتفاؤلاً، وانبعثت إلى قيامةٍ منتصرةٍ على الموت. وكان قد تقاطر إليها، من شتّى المدن والقرى الپولونيّة، زهاء ثلاثة ملايين مؤمنٍ، أَي ضعف عدد سكّانها المقيمين، للترحيب بمواطنهم الذي أَضحى علَم بلادهم، وعنوان فخارهم. وقد فُتحت لاستقبالهم أُلوف البيوت، وظلّت أَبواب الكنائس

مشرعةً لإيواء من لم يتوفّق إلى مأوًى. وقد أجمع المراقبون على أنّ ما من زعيمٍ أو بطلٍ وطنيٍّ لقي، يومًا، ما لقيه يوحنّا بولس الثاني، في ذلك اليوم، من حفاوةٍ، في عاصمة وطنه.

محطّته الأُولى كانت كنيسة القدّيس يوحنّا، التي سبق لها أن دُمِّرت في غمرة انتفاضة ڤرسوڤيا على الحكم النازيّ، عام ١٩٤٤، عندما خاضت المقاومة البولونيّة صراعًا بطوليًّا تحت وابلٍ من الرصاص. وقد استهلّ البابا خطابه، متوجّهًا إلى «إخوته وأخواته المحبوبين»، بعبارته المأثورة الشعبيّة: «**فليُمجّد اسم يسوع المسيح**». ثمّ أشار إلى ماضي شعبه الذي تحمل تلك الكنيسة دمغته، مؤكّدًا «حقّ المواطنة الدهريّ»، و«حقّ الكنيسة بالمشاركة في حياة العاصمة، وحياة الأمّة والدولة»، موضحًا أنّ «**تاريخ الخلاص ليس مقتصرًا على الماضي، بل هو مندرجٌ في المسار المأسويّ الذي تواصل به پولونيا تحقيق حياتها الوطنيّة**»، مستشهدًا بقول القدّيس ستانسلاس للملك «پوليسلاس»: «**دمّروا هذه الكنيسة، والمسيح سيعيد بناءها على امتداد القرون**». وأَكّد قداسته أنّه، «**في إطار هذا الماضي، المثقل بمرامي الله، يلتقي، اليوم، مواطنيه، بصفته البابا البولونيّ الأوّل، على عتبة الألفيّة الثانية لتاريخ الأُمّة، ولمعموديّتها**».

في الدقائق الأولى، اتّسم ردّ فعل المؤمنين بشيءٍ من الخجل والتردّد والخوف، التي ترسّخت طيلة عقودٍ من القمع والإرهاب، وحلّ انسكاب دموع صامتةٍ محلّ الهتافات الجذلى. ولكن سرعان ما سرت موجة يقظةٍ واندفاعٍ في الثلاث مئة ألف مواطنٍ، المحتشدين في ساحة النصر التي تحوّلت، بغتةً، إلى ساحة حرّيّةٍ طالما افتقدوها، ولا سيّما عندما هتف ذلك البولونيّ الذي تبوّأ واحدًا من أكثر المناصب تأثيرًا في العالم، ببسمةٍ تضجّ تحدّيًا: «**لا أحد يقوى على إقصاء المسيح عن تاريخ البشر، في أيّة رقعةٍ من الكرة الأرضيّة**». وتفجّرت عاصفة تصفيقٍ جبّارةٌ، متماديةٌ، لا تقاوَم، مثل صيحة تحرّرٍ، ومثل إشارةٍ إلى أن المستحيل صارَ ممكنًا.

وفي الغداة، صرّح البابا أَمام مئة أَلف طالبٍ: «**منذ الأمس، ما برحتُ أتساءل عمّا يعنيه هذا التصفيق. وأظنّ أنّ الروح القدس هو الذي قال لي: »المهمّ ليس تصفيقهم، بل متى يصفّقون**»».

كان التصفيق دليلاً على أنّ النظام فشل في اغتيال إيمان ذلك الشعب، ولم ينل من هويّته، ولا من وحدته. وقد أَعلن أَحد الناشطين: «في ساحة النصر، أَدركتُ، مثل كثيرين سواي، القوّة الجبّارة التي يتمتّع بها هذا البلد. فالإيديولوجيا الرسميّة كانت قد أَضحت، بأكملها، أَطلالاً دارسةً. وقلت في نفسي، بما أنّ أَحدًا استطاع استنفار هذه القوّة، مرَّةً أُخرى، فلن يقوى أَحدٌ على مقاومتها، بعد».

بعد ظهر يوم الزيارة الأوّل، شاركت الطبيعة القوم بهجتهم بطقسٍ مشمسٍ رائعٍ. وعلى أنغام النشيد الحبريّ، سار البابا، وكبير الأَساقفة، الكردينال «ڤيشينسكي»، بتؤدةٍ، نحو قبر الجنديّ المجهول، وسط الساحة، حيث وضعا باقة زهورٍ، وركع البابا، مصليًّا. ثمّ اعتليا المنصّة المعدّة لإِقامة الذبيحة الإِلهيّة. وبحضور الهيئة الدبلوماسيّة في ڤرسوڤيا، وممثّلين عن الكنائس الأرثوذكسيّة والبروتستانتيّة المختلفة، افتتح الكردينال «ڤيشينسكي» القدّاس بإِعلانه أَنّ الوحدة الوطنيّة – التي أَلِف النظام الشيوعيّ التغنّي بها – قد تحقّقت، فعلاً، في ذلك اليوم، وقال: «أيّها الأب الأقدس، إِنّ العاصمة موحّدةٌ، اليوم، في الصلاة، برعاية رأس الكنيسة الكاثوليكيّة... نائب المسيح على الأرض، رسول يسوع وكلمته، مرسل الحقيقة والمحبّة، ابن پولونيا المختار من اللّه...».

وبعد القدّاس، ساد صمتٌ سحيقٌ، فيما كان أَمين الحزب الشيوعيّ يترصّد، من نافذة فندقٍ مطلٍّ على منصّة الاحتفال، متسائلاً، مع ملايين المستمعين، عمّا عسى أن يقول البابا الپولونيّ، الذي أَجال نظره على الوجوه المترقّبة. وإِثر لحظات صمتٍ، شحذت الترقّب والانتباه، أَلقى يوحنّا بولس الثاني خطابًا، عدّه كثيرون من أَعظم خطاباته، استهلّه بالتعبير عن رغبته في نشيد تسبيحٍ للعناية الإِلهيّة، التي أَتاحت له العودة إلى وطنه، حاجًّا، ومكّنته من تلبية أُمنيّةِ سلفه البابا بولس السادس، الذي طالما تمنّى أن يطأ أرض پولونيا، ولا سيّما عام ١٩٦٦، من أَجل المشاركة بأَلفيّة اعتناق پولونيا المسيحيّة؛ موضحًا أَنّ زيارته لم تكن، في الواقع، سوى امتدادٍ للاحتفال بتلك الألفيّة التي كان من ثمارها استشهاد القدّيس «ستانسلاس» عام ١٠٧٩، بسبب مقاومته للطغيان، مؤكّدًا أَنّ هذه المقاومة قد أَمست الصفة المميّزة لمسيرة الپولونيّين في تاريخ الكنيسة.

وقد أَلمح إلى أَنّ انتخابه على سدّة الكرسيّ البطرسيّ، قد جاء نتيجةً لكون پولونيا قد أصبحت «أرض شهادةٍ، تحمل مسؤوليّةً خاصّة»، من خلال مِحَنٍ رهيبةٍ تعرَّضت لها في القرن العشرين. وبيّن أَنّ هذا الامتياز يفرض واجباتٍ ومسؤوليّاتٍ جسيمةً. وسأل: «هل نحن قادرون عليها؟». فانطلقت الجماهير تصيح وتكرّر: «نحن نريد الله، نحن نريد الله...».

وأَضاف البابا: «**إنّ المسيح يعلّمنا، باستمرارٍ، قضيّة الإِنسان الكبرى، فهو كتابٌ مفتوحٌ، دائمًا، على الإنسان، وكرامته، وحقوقه... وما زال مفتوحًا على حياة المستقبل ومستقبل الپولونيّين**».

وذكّر بأنّ ألوف الجنود قد وقعوا شهداء على أَراضٍ أوروپّيّة مردّدين: «**من أَجل حرّيّتنا وحرّيّتكم!**». ومن ثمّ، لا بقاءَ لأوروپّا بمعزلٍ عن پولونيا مستقلّةٍ. وقد أَودع كلَّ تلك الضحايا بين يدي أُمّ الله، التي كانت واقفةً عند أقدام الصليب، ومجتمعةً مع تلاميذه في العلّيّة، وقدّمها للربّ، في تلك الذبيحة الإِلهيّة.

وختم عظته بقوله:

«**من أعماق هذه الألفيّة، وفي عشيّة عيد العنصرة، أهتف:**

«**فليأتِ روحُك، فلينحدر روحك ويجدّد وجه الأرض!**».

وظلّت الجماهير تقاطع عظته بهتافها: «نحن نريد الله، نريده في أُسرتنا، نريده في مدارسنا، نريده في كتبنا، نريد الله، نريد الله...».

سبع ساعاتٍ، فقط، كانت قد انقضت على وصول يوحنّا بولس الثاني إلى وطنه، ولكنّ هذه السوَيْعات كانت كافيةً كي تظهر حقيقةً جوهريّةً، تجلّت من خلال ردّ فعل ملايين الپولونيّين على عظته: حقيقة أَن پولونيا لم تكن بلدًا شيوعيًّا، بل كانت أُمّةً كاثوليكيّةً، خاضعةً، بالإكراه، لدولةٍ شيوعيّةٍ.

ويومئذٍ بدأت «**عمادة پولونيا الثانية**»، التي ستغيّر مسار تاريخ القرن العشرين.

ثمّ زار قداسته القصر الجمهوريّ، برفقة الكردينال «ڤيشينسكي»، وأَوضح، بتهذيبٍ ولكن بحزمٍ، لرئيس الجمهوريّة ولزعيم الحزب الشيوعيّ، أنّه جاء تلبيةً

لدعوة الأَساقفة البولونيّين، «الذين يعبّرون عن إِرادة المجتمع الكاثوليكيّ في وطننا». وأشار إلى أنّ الدولة البولونيّة ما انفكّت تعلن التزامها بمبدأ «السلم والتعايش». ولهذا الالتزام مدلولٌ أخلاقيٌّ عميقٌ، يتعلّق بحقوق الأُمّة الواقعيّة التي تتضمّن «إعداد ثقافتها وحضارتها الخاصّة» بنفسها، وبمنأًى عن كلّ إِكراهٍ إِيديولوجيٍّ غريبٍ. وأَوضح أَنّ تحقيق «السلم والتعايش» يقتضي وضع حدٍّ لكلّ أَشكال الاستعمار الاقتصاديّ والثقافيّ، وأَنّ الكنيسة لا تطالب بأيّ امتيازٍ سوى الاضطلاع برسالتها الإِنجيليّة والأَخلاقيّة. وذاك كان، سحابة ثلاثين سنةً، برنامج رجلٍ نادر المثال، هو الكردينال «ستيفان ڤيشينسكي»، عميد أَساقفة پولونيا. ثمّ استنهض «مسؤوليّة» مضيفيه الشيوعيّين، أمام التاريخ وأمام ضميرهم. ولكي يؤكّد لهم مدى اهتمامه بوطنه، وسهره عليه، قال: «**اسمحوا لي أَن أَعدّ سعادة پولونيا هي سعادتي، وأَن أَشعر بمساهمتي في هذه السعادة، بمثل العمق الذي كنت سأشعر به، لو كنت ما زلت أَعيش في هذه البلاد، وأَن أَبقى مواطنًا لهذه الدولة... اسمحوا لي بأَن أَظلّ أَتأثّر بهذه السعادة، وأُفكّر بها، وأَرجوها، وأُصلّي من أَجلها**».

هذه الأُمنيّة، كانت، في الواقع، تحذيرًا موجّهًا إلى قادة موسكو وقادة ڤرسوڤيا، ولا ريب أَنّهم فقهوا مرماه.

٣ حزيران: غنييزنو (Gniezno)

صباح يوم ذلك الأحد، الذي وافق عيد العنصرة، احتفل البابا بالقدّاس، بحضور عشرات أُلوف الطلاّب، الذين أَنفق كثيرون منهم الليل كلّه ساهرين، في مدرسةٍ قريبةٍ. وفي عظته دعا أَصدقاءه الشباب إلى إِعمال الفكر في هذا السؤال الكبير: «**ما هو الكائن البشريّ؟**» الذي كان يستدعي سؤالاً آخر: «**بمَ يُقاس الفرد؟**». على هذين السؤالين كانت قراءات العيد توفّر الجواب: «البُعد الوجدانيّ» و«بُعد الانفتاح على الله»، فهما مقياس الإِنسان.

وعقب القدّاس، استهلّ حجّه، على درب تاريخ الأُمّة، بدءًا من « غنييزنو». فتلك المدينة تؤوي رفات الرسول الأوّل الذي حطّ رحاله في پولونيا، القدّيس «أدالبير» (Adalbert)، وهي تضمّ زهاء ستّين أَلف نسمةٍ. غير أَنّ السهول المحيقة

بها، حيث كانت پولونيا قد اعتمدت لألف سنةٍ خلت، اتّسعت، في ذلك اليوم، لمليون مؤمنٍ تراصّوا فيها، للترحيب بالبابا الپولونيّ.

في المطار القريب من المدينة، خاطب يوحنّا بولس الثاني ممثّلي الريف الپولونيّ، مشدّدًا على واجب أن يتلقّى الصغار تربيةً دينيّةً، توفّر لهم مدخلاً سهلاً إلى يسوع المسيح، ومنذرًا أولئك الذين يحولون دون حصول الصغار على هذه التربية، بقول يسوع لمن يكون سبب عثرةٍ للأطفال، أنّه «خيرٌ له لو عُلّق في عنقه حجر الرحى، وأُلقي في البحر، من أَن يعثّر أَحد هؤلاء الصغار». ثمّ دنا فشدّ على أَيادي بعض الحاضرين، وبارك الجميع، وقبّل الأطفال الذين كان ذووهم يقدّمونهم له.

وبعد ظهر ذلك اليوم، أَقام قدّاسًا في الهواء الطلق، أمام كاتدرائيّة المدينة، المبنيّة في القرن العاشر، حضره حشدٌ غفيرٌ. وأَلقى عظةً مستوحاةً من عيد العنصرة. وفي أَثناء عظته لمح، بين الجمهور، لافتةً تقول: «أيّها الأَب، تذكّر كنيستك في تشيكوسلوڤاكيا». فتوقّف عن إِلقاء عظته، كي يؤكّد للشعب التشيكوسلوڤاكيّ الصامد، ولجميع من كان يُحال دونهم، ودون سماع صوته، أَنّه لا ولن ينساهم.

ودارت عجلة التاريخ. ويومًا فيومًا، كان المتردّدون ينفضون عنهم غبار الخوف المتراكم، وكانت أَعداد الحشود المرحّبة بالبابا الپولونيّ، تتضخّم، حيثما حلّ.

٤–٦ حزيران: تشينستوهوڤا (Czestochowa)

غاليةً على قلب يوحنّا بولس الثاني، كانت محطّة «ياسناغورا» (Yasna Gora) أي «الجبل المتألّق»، حيث مزار العذراء السوداء «تشينستوهوڤا». هناك تحلّق حول البابا أكثر من مليون مؤمنٍ، أَقام لهم قدّاسًا، في الهواء الطلق، وأَلقى عظةً، استهلّها بقصيدةٍ لشاعر پولونيٍّ، كان قد أنشدها على المسرح، في شبابه، يقول مطلعها: «أيّتها العذراء القدّيسة، يا حارسة «تشينستوهوڤا» النيّرة...» وقد علّق الحبر الأَعظم على هذا الدعاء بقوله: «**إنّه يعبّر عمّا كان يخفق، وما زال يخفق في قلوب جميع الپولونيّين، الذين يفزعون إلى ذلك المزار المقدّس، في الظروف الحاسمة من حياتهم، ويودعونها عند أَقدام أُمّهم العذراء**».

وبصوتٍ يخنقه التأثّر، تساءل هل بوسع أوّل بابا پولونيّ في التاريخ، ألاّ يحجّ إلى «ياسناغورا»، مقدس الرجاء الأكبر، حيث طالما تمتم، هو نفسه، شعاره: «**إنّي بكلّيّتي لكِ**»، أمام إيقونة العذراء مريم؟ كيف له ألاّ يأتي كي «**يصغي إلى خفقات قلب الكنيسة، وقلب الوطن الأمّ في قلب الأمّ السماويّة؟**». فعلى كلّ من يبتغي جسّ نبض «پولونيا»، واستيعاب تاريخها، والإصغاء إلى خلجات قلوب الپولونيّين، أن يصغي إلى صدى حياة الأمّة بأسرها، في قلب أمّها ومليكتها.

لثلاث عشرة سنةً، كانت الأمّة الپولونيّة قد جدّدت تكريس ذاتها لمريم العذراء، ملتمسةً حرّيّة الكنيسة في العالم، وفي پولونيا. وفي ذلك اليوم، أيضًا، التمس يوحنّا بولس الثاني من مواطنيه، بصفته خليفة القدّيس بطرس، أن يوكل الكنيسة جمعاء إلى أمّ المسيح، بنفس الإيمان المضطرم، والرجاء البطوليّ، اللذين اتّسم بهما تكريسهم قبل ثلاث عشرة سنةً. واختتم عظته بقوله: «**أنا رجلٌ مفعمٌ ثقةً جمّةً. وهنا تعلّمت أن أكون هكذا**».

ومساءَ ذلك اليوم، قابل مرضى الرعايا، الذين اصطفّوا في فناء الدير الذي كان يقيم فيه. وقد باح أنّه كان، سابقًا، كلّما قابل مرضى، بصفته كاهنًا أو أسقفًا، وأسمعهم كلمات تشجيعٍ وتعزيةٍ، كان يراوده شعورٌ بأنّ أقواله لهم لا تجديهم نفعًا، غير أنّ العامل الوحيد الكفيل بإسباغ معنًى آخر جوهريٍّ على الألم، هو صليب يسوع. فمن خلال سرّ هذا الصليب، كلّما حطّ صليبٌ على كاهل إنسانٍ، أكسبه كرامةً يتعذّر إدراكها بشريًّا. ولاحظ قداسته أنّه ليس من شأن الصليب تسكين الألم أو إزالته، بل هو يسمو بالألم، ويُضفي عليه نبلاً.

وبعد أن أقام قدّاسًا على نيّة ستّة آلاف راهبة پولونيّة، وصفهنّ بأنهنّ «**إشارةٌ من السماء، ذات قيمةٍ يتعذّر تقديرها، وسط العالم**»، شارك في مؤتمرٍ عامٍّ للأساقفة الپولونيّين. وكان هذا المؤتمر يمثّل له تحدّيًا خطيرًا. ففي أثناء الأيّام القليلة الماضية، كان قد أضحى، في نظر الجميع، هو الناطق الرسميّ باسم الأمّة الپولونيّة، مسبّبًا، بذلك، حَرَجًا للأساقفة الثمانية والسبعين الذين ستتعيّن عليهم، بعد رحيله، مهمّةٌ يوميّةٌ باهظةٌ، مهمّة الحفاظ على مساحة الحرّيّة التي كان قد

أَشرعها. ورأى أَنّ علاج هذه القضيّة يكمن في تأكيد السياسة التي انتهجها ورسّخها، على امتداد ثلاثين سنةً، كبير الأَساقفة، الكردينال «ڤيشينسكي». وأشار قداسته، في مداخلته، إلى أَنّ «الصفة المميّزة لمؤتمر الأَساقفة الپولونيّين هي وحدتهم، لأنّها مصدر قوّتهم الروحيّة»، وهي التي أَوحت للمجتمع ثقةً مبرَّرةً بالكنيسة وبجماعة الأساقفة؛ وقد أكّد أَنّ عميد الأساقفة هو تجسيدٌ لهذه الوحدة، ولهذه الثقة، مكرّرًا ما كان قد أَعلنه لمهنّئيه الپولونيّين، **أَنّ الكردينال «ستيفان ڤيشينسكي» هو «رجُل العناية الإِلهيّة للكنيسة وللوطن».**

ثمّ عبّر عن يقينه بأنّ ميزة پولونيا هي كونها نافذةً مشرعةً على أزمة الحداثة، في القرن العشرين، إِذ إِنّها واجهت أَزمة الإِنسانيّة الحادّة، بتكثيف إِيمانها المسيحيّ. هذا الواقع هو جزءٌ من حقيقة الشعب الپولونيّ، التي لم يبرهن عنها بمناظراتٍ كلاميّةٍ، بل بدمه، وبإِرث الأَساقفة والقدّيسين، أَمثال «ستانسلاس» و«أدالبير».

وعلى مسمعٍ من المسؤولين الحكوميّين، ذكّر بإِعلان الحرّيّة الدينيّة، أَي حقّ الفرد في نشدان الحقيقة، وفق ما يمليه عليه ضميره، وحقّ الكنيسة في تقديم مشروعها الإِنجيليّ للمجتمع، وحقّ المؤمنين والمؤسّسات الكنسيّة في خدمة احتياجات الجماعة. وبذلك ذكّر الدولة بأنّها موجودةٌ لخدمة المجتمع، لا لنقيض ذلك، وعلى أَنّ كلّ ما تقرّه من قوانين، ينبغي أَن يتوافق مع الشريعة الأَخلاقيّة التي دوّنها الله في القلب البشريّ. هذه الشريعة الأَخلاقيّة تفرض على كلّ فردٍ واجبًا، سواءٌ هو كان مواطنًا أو قائدًا. وفقط عندما تجد هذه الشريعة الأَخلاقيّة سبيلها إلى التنفيذ، ستُحَلّ أَزمة الحداثة، وسيتمّ الاعتراف، عالميًّا، بكرامة الكائن البشريّ، وسيتمّ احترامها.

وأَخيرًا، ناشد الپولونيّين أَن ينمّوا الروح الأوروپّيّ، ففي كلٍّ من الجزء الشرقيّ والغربيّ من أوروپّا، ورغم تباين التقاليد واللغات، ثمّة مسيحيّةٌ واحدةٌ، متجذّرةٌ في مسيحٍ واحدٍ. وأَوكل إلى المسؤولين الكنسيّين مهمّةً خطيرة الشأن، مهمّة تحقيق الوحدة الروحيّة في أوروپّا.

وبعد ظهر ذلك اليوم، ومن خلال عظةٍ ألقاها أمام مليون حاجٍّ، حرَّض على الوحدة عبر تصالح الأُمم. وقد قرأ حكّام موسكو وڤرسوڤيا، في هذه الخطابات، معارضة يوحنّا بولس الثاني، لتقسيم أوروبّا الذي قُرِّر في يالطا عام **١٩٤٥**، واستشفّوا، في هذا الموقف، تهديدًا لهم، إذ إنّ الحبر الأعظم كان يقاوم مخطّطاتهم بالسلاح الأمضى، والأوجع للشيوعيّة.

وجديرٌ بالذكر أنّ شعار الحزب الشيوعيّ المألوف: «الحزب للشعب»، كان يزيّن واجهات العديد من المباني، غير أنّ أيادي خفيّةً أضافت إليه، خلسةً: «ولكنّ الشعب للبابا»!.

٦-١٠ حزيران: كراكوڤيا

في يوم زيارته الأخير إلى «ياسناغورا»، أقام يوحنّا بولس الثاني قدّاسًا أوّلاً لإكليريكيّين، واستقبل أُلوفًا من الكهنة والرهبان. ثمّ أقام قدّاسًا ثانيًا لمئات أُلوفٍ من عمّال المناجم، وعمّالٍ آخرين، لم يُمنحوا عطلةً، ومع ذلك لم يطيقوا تفويت تلك السانحة الفريدة. وقد حذّرهم زميلهم السابق من الوقوع في شرك التعليم الباطل، الجاهد في إيهامهم أنّ بوسع المرء أن يحقّق ذاته تحقيقًا كاملاً، بإنكاره الله، وإلغاء الصلاة من حياته، وبكونه مجرّد عاملٍ يحمل قناعةً خاطئةً بأنّ ما ينتجه قادرٌ، وحده، على تلبية احتياجات القلب البشريّ.

وفي المساء، استقلّ طائرةً إلى «كراكوڤيا الحبيبة»، إلى بيته الذي تاق إليه، والذي كان قد غادره مزوّدًا بكيسٍ يحتوي الزهيد من الأمتعة، وفرشاة أسنانٍ، ورغيفيْن، آملاً في عودةٍ سريعةٍ؛ وها هو يعود إليه، عودةً مؤقّتةً خاطفةً، عودةً لَجِبةً، إذ احتشد لاستقباله، تحت المطر، جمعٌ لا يُحصى، في مثل اجتماعٍ عائليٍّ حافلٍ. وقد باح لمستقبليه أنّه يشعر نفسه أوثق قربًا منهم، بسبب الفراق الذي دعاه إليه الربّ، وأنّ ما يتمنّى فعله، في الأيّام المقبلة، هو ما فعله دائمًا: **«إعلان آيات الله، والشهادة للإنجيل، وخدمة كرامة الإنسان، على غرار القدّيس «ستانسلاس» قبل قرونٍ عديدةٍ»**.

واخترق البابا شوارع مدينته على متن سيّارةٍ مكشوفةٍ، مطالعًا وجوهًا مشرقةً،

وجوه رجالٍ ونساءٍ وأَولادٍ، كان قد عمّدهم، وثبّتهم، وأَرشدهم، وأَزواجٍ بارك قرانهم، وجنّز والديهم. وكلّما تعرَّف وجهًا بين الجمهور، كان يلوّح له، ويدعوه باسمه. أَمام كاتدرائيّة «ڤاڤيل»، عبّر عن إِعجابه بمرامي العناية الإِلهيّة، التي لا يُسبَر لها غورٌ، والتي أَعادته إلى موطنه، على نحوٍ غير متوقّعٍ، كي يحتفل باختتام سنودس كراكوڤيا.

وقضى ليلته في الحجرة التي كان يحتلّها، من قبلُ، في دار الأُسقفيّة، والتي لم يتبدّل فيها شيءٌ مذ غادرها إلى روما، في الثاني من شهر تشرين الأوّل من العام الفائت، ما خلا مزهريّةً زاخرةً بأَزهارٍ نديّةٍ قُطفت لتوّها. وفي تلك الليلة، وفي الليالي الثلاث التالية، دأب طلاّبٌ جامعيّون، وعمّالٌ، على إِحياء مهرجانٍ ليليٍّ، فاكتظّت بهم الشوارع وأَسطح الأَبنية المجاورة لمقرّ البابا، ما أَثار غضب السلطات المحلّيّة. في الليلة الأولى، خرج البابا إلى الشرفة، وعقد حوارًا مع الجمهور، وسأل: «من الذي يحدث كلّ هذا الصخب، الذي لم أَسمع مثله منذ كنت في مكسيكو، حيث كانوا يهتفون: «البابا، البابا...»؟ فانطلق الشباب يردّدون: «البابا «سلو لات» (Slo lat) «أَيّ فلتعش مئة سنة!». وطالبوه بخطابٍ، فاعتذر بسبب أَلمٍ في حلقه. فَأخذوا ينشدون جميعهم، وعلى هذا المنوال سلكوا في الليالي اللاحقة. كانوا يعهدون حفظه لكلّ الأَغاني اليولونيّة، ولكنّه فاجأهم، في إِحدى المرّات بقوله: «**لست أَعرف هذه الأغنية. لا ريب أَنّها حديثة**».

وتلبيةً لرغبتهم الملحّة في مشاهدته، اعتلى نافذةً، فأَحسّ بأَيدٍ خفيّةٍ تتشبّث بأَطراف ثوبه، كي تحول دون وقوعه، فمازحهم قائلاً: «**عندما كنت أسقفًا، لم أَكن أَحتاج إلى اعتلاء نافذةٍ، وعندما كنت أَستند، لم يكن أَحدٌ يمسك بأَطراف ثوبي**». **وبعد لحظاتٍ، استطرد: «لا ريب أَنّه من الصعب أَن يكون المرء بابا روما. ويبدو أَنّ ذلك أَصعب في كراكوڤيا، إذ عليه أَن يظلّ عند هذه النافذة، لا يملك دقيقةً للنوم أَو للتفكير!»**. وعند منتصف الليل، وضع حدًّا للاحتفال بإِعلانه: «**كنتم قد طلبتم منّي كلمةً أَو كلمتين. إليكموهما: طابت ليلتكم!**».

يوم ٧ حزيران، زار معبد «كلڤاريا»، الذي كان يفزع إليه، وهو رئيس أَساقفة، كي يستمدّ القوَّة والحكمة، كلّما اعترضته مشكلاتٌ وعوائق، وأَهاب بمستمعيه:

«**صلّوا، صلّوا، على نحوٍ خاصٍّ، لحاجٍّ إلى هذا المزار دعاه الربّ، بنفس العبارات التي وجّهها إلى بطرس:** «**ارعَ خرافي... ارعَ نعاجي**»**. صلّوا، هنا، من أَجلي، في أثناء حياتي، وبعد موتي**».

ثمّ قصد مسقط رأسه، مدينة «ڤادوڤيتش»، حيث استقبله ثلاثون أَلف شخصٍ، أَي ضعف سكّان المدينة، في الملعب الذي كان يلعب فيه دور حارس مرمى، في صباه. فامتزج بمواطنيه، وحيّاهم، على أَنغام جوقة الأَبواق المحلّيّة.

واستقبله، رسميًّا، راعي المكان الذي كان قد لقّنه المبادئ الدينيّة في صباه. وصلّى الحبر الأَعظم لجميع الذين كان لهم علاقةٌ بوجوده، في ذلك المكان: والديه، وأَخيه، وأُخته، الذين ما انفكّ ذكرهم لديه مرتبطًا بتلك المدينة. وحرص على التخشّع أَمام مدفنهم. كما أَنّه جثا أَمام جرن المعموديّة، وقبّله، شاكرًا للربّ إِنعامه عليه بهذا السرّ، في **٢٠** حزيران **١٩٢٠**.

ثمّ زار معسكر الموت الذي استشهد فيه الأب «مكسيميليان كولبي»، وعانق فيه الرجل الذي افتداه ذلك الكاهن القدّيس، بموته عنه. ثمّ احتفل بقدّاسٍ حضره زهاء مليون نسمةٍ، في مكان يُعدّ «جلجلة العهد الحديث»، وألمح إلى انتصار الأب «كولبي» «**من خلال الإِيمان والحبّ**»، **في ذلك المكان الذي أُوجد لإِنكار الإِيمان، الإِيمان بالله، والإِيمان بالإِنسان... ولتدمير، لا الحبّ فحسب، بل كلّ علامةٍ على الكرامة الإِنسانيّة، وكلّ ظاهرةٍ بشريّة، تدميرًا جذريًّا... مكانٍ مبنيٍّ على ازدراء الإِنسان باسم إِيديولوجيا مجنونة**».

في اليوم التالي، كان البابا يشكو من أَلمٍ في حلقه، ولكن قُيّض له أَن ينعم بجوٍّ من البهجة، إِذ أَقلّته مروحيّةٌ إلى الجبال البولونيّة، حيث كان أَكثر من مليون جبليٍّ متراصّين لاستقباله، وقد قدموا من الجوار بأَزيائهم الفولكلوريّة المزركشة، ما جعل ذلك اللقاء أَكثر لقاءات رحلته زهوًا بالأَلوان، وميّز جوّه بالانشراح. فقد مازح الحبر الأَعظم أولئك القوم البسطاء العفويّين الطيّبين، بلهجتهم الخاصّة. وكانت عظته نشيد شكرٍ، من أَجل «ذلك البلد الرائع»، ومن أَجل حبّ العمل في أَرضٍ غذّت قاطنيها طيلة قرونٍ، ومن أجل الأُسرة. وناشد

الشبّان الحاضرين أَن يكونوا شهودًا للمسيح. وكان شُبّان جماعة «نور وحياة» قد جاؤوا بسلالٍ ملأى بنسخ الكتاب المقدّس، فساعدهم على توزيعها، ثمّ دعاهم إلى القَسَم، على الكتاب المقدّس، مؤكّدين عزمهم على مكافحة الاستعباد للكحول، ولكلّ أَصناف الإِدمان، وعلى نبذ الكذب والخوف. وبعد القدّاس، عزف له مئة موسيقيٍّ أَنغامًا جذلى. ثمّ، في طريق عودته، لم يتردّد أُولئك الجبليّون عن فرش الطريق الذي ستسلكه سيّارته، بستراتهم الموشّات بأروع الأَشكال وأَزّهى الأَلوان.

وبعد ظهر ذلك اليوم، رأس حفلة اختتام سينودس كراكوڤيا، فاستُهلّ القدّاس بتطواف أَلفٍ وخمس مئة مشتركٍ، وافتتح الحبر الأَعظم عظته بهذه العبارة: «**اليوم تحقّقت أَحرّ أُمنيّةٍ لديّ**».

وفي هذه الأَثناء، كان قد احتشد أَمام كنيسة القدّيس ميخائيل، مئات أَلوف الشبّان، من طلاّبٍ وعمّالٍ، في جوّ بهجةٍ ملتهبٍ، وتأثّرٍ ما انفكّ يتعاظم على امتداد ذلك الأُسبوع الفريد في حياة پولونيا، وبلغ ذروته مع تظاهرة الحماس الشبابيّ تلك. كانوا مذهولين، وكأنّهم في حلمٍ، وحتّى الأَساقفة المشاركون القادمون من برلين، وتشيكوسلوڤاكيا، وهنغاريا، ورومانيا، كادوا لا يصدّقون ما يسمعون وما يشاهدون. فقد تجرّأ ملايين المواطنين على أَن يفصحوا، علنًا، وبلا خوفٍ، عمّا طالما همسوا به في الخفاء. وكم من آلات تسجيلٍ أُشهرت، عاليًا، كي تسجّل أَقوال البابا، وتستعيد سماعها باستمرارٍ، وتتزوّد بطاقاتها الروحيّة، والتي لن تقوى السلطات، في هذه النوبة، على مراقبتها أَو إِعمال المقصّ فيها.

الشباب ما انفكّوا يصيحون: «فلتعِش مئة سنة!». وردّ البابا عليهم، باسمًا: «**كيف للبابا أَن يعيش مئة عامٍ، وأَنتم تصمّون أذنيه بصراخكم! هل تسمحون لي بالكلام؟**». **وعندما همد الصخب، بعض الشيء، قال:** «**أُحبّكم جميعًا!**».

وكان قداسته قد أَعدّ خطابًا مكتوبًا استهلّه بعبارة: «**دعوا المسيح يأتِ إِليكم... اخشوا فقط اللامبالاة والجبن**». غير أَنّه كان قد حُذّر من أَن يفضي انفجار الحماس إلى أَحداثٍ سياسيّةٍ، تتعذّر السيطرة عليها، فتستغلّ السلطات الظرف

للانقضاض على الشبيبة؛ ولذلك أعلن أنّه لن يتلو خطابه المكتوب، متذرّعًا بحجّة ألم حنجرته، وبعدم تلاؤم النصّ مع المناسبة. ولكنّه استدرك أنّ بوسعه الارتجال باللغة البولونيّة، ما أضفى على الجوّ مسحة مرح، وبدّد التوتّر.

ومضى البابا قُدُمًا في ممازحة جمهوره، فقال: «**عندما كنت كاهنًا، وأُعلمتُ أنّني سأُصبح أسقفًا، استوضحت عميد الأساقفة هل سيسمح لي بالاستمرار في تسلّق جبال «تاترا»، وكان ردّه إيجابيًّا. أمّا الآن، وقد غدوت أُسقف روما، فلا شكّ أنّ الأمر سيصبح أكثر صعوبة!**». وأجابه الجمهور: «إذنْ، ابقَ معنا، ابقَ معنا!». فأجابهم:

«**ها قد استعدتم رشدكم. ولكن فات الأوان. أين كنتم يوم ١٦ تشرين الأوّل، يوم انتخابي؟ لم تكونوا هناك من أجل الدفاع عنّي، وها أنتم مثل أولئك البولونيّين الذين يوصدون باب الحظيرة، بعد أن يهرب الحصان!**». وهزّت الحضور موجة ضحكٍ. وانجلى جوّ التوتّر، وحان وقت الجدّ، وحينئذٍ نصب رهطٌ من الشبّان صليبًا علوّه أربعة أمتار، فيما رفع عشرات أُلوف الآخرين صلبانًا صغيرةً، كانوا أخفوها، حتّئذٍ. وتجلّى مشهدٌ مؤثّرٌ، ساحرٌ، فيما كانت مصابيح الشارع تلقي ظلالاً على تلك الوجوه الشابّة، وعلى الصلبان التي تعلوها، وبات جليًّا أن أبسط لفظةٍ يُساء فهمها، صادرةٍ عن ذلك القائد الذي كان الشبّان متأهّبين للّحاق به إلى أيّ مكانٍ، كانت كفيلةً بتفجير ثورةٍ يتعذّر تخمين عواقبها. ولذلك اكتفى قداسته بالقول: «**لقد تأخّر الوقت، يا أصدقائي، فلنعد إلى بيوتنا بهدوء!**». وفيما كانت سيّارةٌ تعود بالبابا إلى مقرّ إقامته، عزفت له الأوركسترا لحن الوداع، فدفن الرجل العظيم، المتسربل بالبياض، رأسه بين يديه، وأطلق العنان لسيل دموعه.

وبما أنّ السلطات كانت قد منعت الزائر الكبير من الشخوص إلى كنيسة «السفينة» في «نوڤاهوتا»، التي كانت تمثّل تحدّيًا للحكومة، فقد زار ديرًا في مدينة «موجيلا»، القريبة من «نوڤاهوتا»، ومن نافذة المروحيّة التي كانت تقلّه، ألقى باقة زهورٍ على تلك الكنيسة، فيما تقاطر إلى الدير المذكور أُلوفٌ من سكّان «نوڤاهوتا»، بغيةَ لقاء البطل الذي دافع، بضراوةٍ وعنادٍ، عن حرّيّتهم الدينيّة، في عهد أُسقفيّته. وكانت رعيّة كنيسة «السفينة» قد صنعت تمثالاً جديدًا للسيّدة العذراء، ملكة پولونيا؛ وجاءت به إلى مدينة «موجيلا» كي يتوجّه الحبر

الأَعظم، الذي روى، في عظته، مأساة كنيسة «السفينة»، والكفاح الذي خاضه، في سبيل بنائها، الكاهن البطل «جوزف كورجيا»، الذي دفع حياته ثمنًا لإِشادتها.

وقد التفّ حول الحبر الأَعظم، في القدّاس، عمّال مصانع الصلب في «نوڤاهوتا»، فخاطبهم قائلاً: «لن يقبل المسيح، أبدًا، أَن يُعَدّ الإِنسان، أو أَن يَعُدّ الإِنسان نفسَه... مجرّد آلة إِنتاج، ولا أَن يُقيَّم على أساس هذا المبدإِ. هذا لن يقبله المسيح، أبدًا». وأشار إلى أَنّ الصليب المنصوب على التلّة التي تجثم عليها، الآن، كنيسة «السفينة»، ينهض رمزًا لمقاومة المسيح والمسيحيّين «لكلّ شكلٍ من أَشكال الحطّ من كرامة الإنسان»، وأَوضح أَنّ النجاح في بناء تلك الكنيسة، لم يكن سوى بدءٍ، مستخلصًا: «**لديكم، الآن، هذه الكنيسة، فابنوا حياتكم بالإِنجيل**».

وفي أَثناء عظته، سُمع صوتٌ من الجمهور يعلن: «فليعش طويلاً البابا الذي يعرف ما يفعل!».

في العاشر من حزيران، استهلّ يوم زيارته الأَخير بقدّاسٍ احتفل به في حقلٍ على أَطراف كراكوڤيا، احتشد له أَكبر تجمّعٍ في تاريخ پولونيا، قُدِّر بنحو ثلاثة ملايين نسمةٍ. وبهذا القدّاس اختُتم يوبيل شفيع المدينة، القدّيس ستانسلاس. وكان إِنجيل ذلك اليوم تذكيرًا بوصيّة يسوع لتلاميذه، أَن يبشّروا جميع الأُمم، ووعده بأن يكون معهم، كلّ الأَيّام، حتّى انقضاء الدهر. وعلّق قداسته على هذا القول، موضحًا أَنّ الربّ يُعتق البشر من هشاشة الزمن، ويضفي على التاريخ نبلاً.

وقبل مغادرة كراكوڤيا، التي قال عنها: «**إِنّ كلّ حَجرٍ، وكلّ قرميدةٍ فيها، عزيزةٌ عليّ**»، وقبل مبارحة وطنه الذي استقبله، كما لم يستقبل أَحدًا سواه، على مدى أَلف سنةٍ، ناشد مواطنيه: «**يجب أَن تكونوا أَقوياء، إِخوتي وأَخواتي الأحبّاء، يجب أَن تكونوا أَقوياء بقوّة الإِيمان... هذه القوّة ضروريّةٌ لكم اليوم، أَكثر من أَيّ يومٍ مضى. يجب أَن تكونوا أَقوياء بقوّة الرجاء، الرجاء الذي يوفّر الفرح الكامل، ويمنعنا من إِحزان الروح القدس. يجب أَن تكونوا أَقوياء بقوّة الحبّ الذي يقوى على**

الموت... والذي يساعدنا على عقد حوارٍ مع الإنسان، ومع العالم المتجذّر في حوارٍ مع اللّه نفسه. وعندما نتقوّى بروح اللّه، نتقوّى، أيضًا، بالإيمان في الإنسان... ولن يكون داعٍ للخوف... لذلك، أرجوكم ألاّ تفقدوا الثقة، أَبدًا، وألاّ تنهاروا، وألاّ تقنطوا. أرجوكم: ثقوا... وانشدوا دائمًا، القوّة الروحيّة في ذاك الذي وجدتْها، فيه، أجيالٌ من آبائنا وأُمّهاتنا. لا تنفصلوا عنه أَبدًا. لا تفقدوا، أبدًا، حرّيّة الروح التي تجعل الإنسان حرًّا... ولا تزدروا المحبّة، فهي أَعظم الأَشياء، والمحبّة تتجلّى من خلال الصليب... لكلّ ذلك أرجوكم، احترامًا لذكرى شفاعة أُمّ اللّه في «ياسنا غورا»، وكلّ المزارات المقدّسة على أرض پولونيا، واحترامًا لذكرى القدّيس «أَدالبير»، الذي عانى الموت من أَجل المسيح، قرب بحر البلطيق، ولذكرى القدّيس «ستانسلاس»، الذي وقع تحت سيف الملك في «سكالتا»، لأَجل كلّ ذلك، أَرجوكم. آمين».

وقبل مغادرته پولونيا، يوم العاشر من حزيران، كان ليوحنّا بولس الثاني لقاءٌ وجيزٌ مع الصحافيّين الذين غطّوا رحلته، والذين قال لهم، في ختام خطابه، باللغة الفرنسيّة، بصوت مرتجفٍ، تخنقه العبرات: «أَرجو، أَرجو أَن أَراكم ثانيةً في هذه البلاد، أَرجو...».

أَمّا عميد الأساقفة «ڤيشينسكي»، فقال له: «لقد أَنعشت قلوبنا بإِيمانك المضطرم». وشوهد الحبر الأَعظم، على أَرض المطار، يمسح عن عينيه الدموع. ثمّ قبّل الأَرض التي قال عنها إِنّ قلبه لم ينفصل عنها، قطّ، قبل أَن يصعد إلى الطائرة التي عادت به إلى روما.

وكان نحو ثلاثة عشر مليون پولونيٍّ، أَي أَكثر من ثلث سكّان پولونيا، قد حظوا بمشاهدته شخصيًّا، فيما جميع الآخرين شاهدوه على شاشات التليفزيون، أَو أَنصتوا إليه، عبر المذياع. وكانوا، خلال تسعة أَيّامٍ، قد عاشوا «زلزالاً نفسيًّا». فما كان يراود خواطرهم طيلة عقودٍ، ولم يجسروا عن التعبير عنه، أَعلنه يوحنّا بولس الثاني، جهارًا، موضحًا عمّا كانوا يتمنّون قوله. وعبّر عنه، عاليًا، بلغةٍ واضحةٍ، على نقيض العبارات المبهمة، واللغة الخشبيّة التي كان مسؤولو النظام يستخدمونها. غير أَنّه ما انفكّ يؤكّد أَنّ زيارته كانت حجًّا، ستتجلّى آثاره، في مملكة الروح. وهذا ما تحقّق فعلاً.

وقبل أَن يستوعب البولونيّون ما حدث لهم، شرعوا يتصرّفون بتأثير الزلزال الذي هزّ كيانهم. ولحظ منشقٌّ سياسيٌّ، غير كاثوليكيٍّ، التحوّل الذي تحقّق، فقال: «الأَشخاص عينهم، الذين أَلِفوا أَن يكونوا متوتّرين وعدائيّين، عندما ينتظمون في الطوابير أَمام الحوانيت، انقلبوا جماعةً فرحةً، هادئةً، وشعبًا ممتلئًا كرامةً... وقد ساد، في كلّ مكانٍ، نظامٌ مثاليّ». كان الشيوعيّون قد وعدوا بإِحلال التضامن بين أَفراد الشعب، فولّدوا العزلة، والكآبة، والفرقة، والريبة المتبادلة. وجاء يوحنّا بولس الثاني، فحقّق ما وعد به الرفاق الشيوعيّون، ولم يقووا، هم، على تنفيذه، وشرع يمحو أَسباب الفرقة التي خلقوها. فهو، بجعله الشعب يعي كرامته الفرديّة، وسلطته الجماعيّة، أَحرز نصرًا حاسمًا، فطرد الخوف، والفوضى، والقنوط التي كانت تحول دون تجلّي هويّة الأُمّة، وتحقيق وحدتها.

واتّضح لشبابٍ مثقّفين أَنّ عالم الكذب المصطنع، الذي كان يشاد من حولهم، لحشرهم بين جدرانه، قد انهار، دفعةً واحدةً. وأَدرك الكثيرون أَنّ التّجدّد الأَخلاقيّ يجب أَن يكون أَساس مقاومة الظلم، والقمع، واغتيال الحرّيّات.

وعبّر عامل منجمٍ عن روحٍ ساد بين زملائه، عندما استُوضح عن سبب واجب أَن يكون المرء مؤمنًا، في دولةٍ شيوعيّة، فأَجاب: «لكي نصلّي لأُمّ الله، ولكي نزعج هؤلاء الأَوغاد!». ومن المحقّق أَنّ المقاومة الأَخلاقيّة والثقافيّة والروحيّة، التي أَطلقها يوحنّا بولس الثاني، لم تؤتِ ثمارها بسفك الدماء، بل بوعيٍ طاغٍ للتضامن الجماعيّ. وقد أفلح في إِيقاظ هذا الوعي، بإِشاعته، لدى كلّ فردٍ، شعورًا بأَنّه يخاطبه شخصيًّا. وقد انتاب كثيرين ممّن كانوا يراقبون تحرّكات الحبر الأَعظم، أَنّه كان يتوقّف كي يباركهم شخصيًّا. وكان لهذا الشعور أَثرٌ عميقٌ على خضّ القلوب، وتحويل السلوك والمواقف، وعلى تلقين «درس كرامةٍ» بليغٍ.

وقد برهنت السلطات الشيوعيّة، مَرّةً أُخرى، عن حقدها، وحسر بصرها، عندما مسخت الوعد الذي قطعته ببثّ أَحداث زيارة البابا، فاقتصرت على إِظهار مشاهد مجتزأةٍ، لم يظهر فيها الزائر الجليل، ولكأَنّها تبثّ مباراة كرة قدمٍ لا تظهر فيها الكرة، على حدّ وصف صحافيٍّ فرنسيٍّ. ولم يظهر من الحضورٍ سوى عشرات الكهنة والراهبات، للإِيهام بأَنّهم هم الجمهور الوحيد، مخفيةً

حشود الملايين. غير أنّه لا بدّ من الاعتراف بأنّ هذه السلطات بدت أكثر انفتاحًا وتسامحًا ممّا أَلِفت، فلم تلجأ إلى اعتقال مواطنين، ولم تعترض على نشر بعض الصحف لخطب البابا ومواعظه، التي لم يحذف منها سوى القليل، ربّما مراهنةً منها على عدم اكتراث الجماهير بالإعلام المكتوب. وبالإجمال أعلنت السلطات عن رضاها عن تلك الزيارة، ولكأنّها ابتغت إثبات نجاعة حكمها مدى ثلاثين عامًا. ولا ريب أنّ عزاءها الأكبر تمثّل في إحجام ذلك الشعب الجيّاش، عن اللجوء إلى العنف كي يطيح بحكّامه الجائرين.

وبالمقابل، لا بدّ من الاعتراف، أيضًا، أنّ يوحنّا بولس الثاني قد تفادى التهجّم المباشر على الحكم الشيوعيّ، بل حاول التشديد على يقينه بأنّ العدوّ ليس هو هذا النظام، بل سبات الروح الأخلاقيّ لدى مواطنيه. فسعى إلى إيقاظ هذا الروح، الكفيل بمنع فرض أيّة سلطةٍ غريبةٍ عليه. لم يتردَّ إلى إعلاناتٍ ومناوراتٍ سياسيّةٍ، ولكنّه نظّم، بطريقةٍ غير مباشرةٍ، استفتاءً وطنيًّا، سرعان ما ظهرت نتائجه. فلم تكد تمضي سنةٌ على تلك الزيارة، حتّى وقّع رئيس نقابة عمّال حوض بناء السفن في «غدانسك»، اتّفاقًا مع السلطات الشيوعيّة البولونيّة، لإنهاء إضرابٍ شمل معظم عمّال بولونيا، وشلّ حركة البلاد. وقد تبنّت هذه النقابة اسم «سوليدارنوش»، أي تضامن، بوحيٍ من إرشادات يوحنّا بولس الثاني، في أثناء زيارته عام ١٩٧٩. وقد استخدم رئيس هذه النقابة، «ليش ڤاليسّا»، لتوقيع ذلك الاتّفاق، قلمًا جسيمًا مزيّنًا بصورة يوحنّا بولس الثاني، كان قد صُنع تخليدًا لزيارته إلى بولونيا. ولا جَرَم أنّ التضامن الذي بعث البابا روحه، خلال زيارة الأيّام التسعة، هو الذي أسهم في ولادة «سوليدارنوش».

كانت المطالبات العمّاليّة قد امتدّت إلى كلّ أرجاء بولونيا، وتوّجها إضراب عمّال أحواض صناعة السفن، في آب ١٩٨٠. وقد أبرزت تلك الانتفاضة العمّاليّة أسلوبًا جديدًا اتّسم بحسّ الكرامة لدى العمّال، وبصبرهم، وبقدرتهم على التحالف مع المثقّفين، وبنبذهم كلّ عنفٍ، وبصبوّهم إلى تجدّد الأُمّة أخلاقيًّا، وبتعاضد الشعب معهم. كلّ ذلك كان فتحًا في تاريخ الانتفاضات العمّاليّة، في الدول الشيوعيّة، التي غالبًا ما اصطبغت بالدماء. وقد أجمع

المراقبون على أَنّ هذا التطوّر الجوهريّ كان متعذّرًا، لولا زيارة البابا التي أَحدثت ثورةً أَخلاقيّةً، أَرست أُسس ثورةٍ اجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ مزلزلةٍ.

قبلها كانت سياسة الحكم تعتمد على الإِذلال، وقد حطّم يوحنّا بولس الثاني هذه السياسة، وأَطلق حركة دفاعٍ ذاتيٍّ اجتماعيٍّ. وقد وُصفت نقابة «سوليدارنوش»، عند تأسيسها، بأَنّها «غابةٌ جسيمةٌ مزروعةٌ في ضمائر مستيقظةٍ». هذه الضمائر كانت قد تلقّت تنشئةً دينيّةً في الصغر، وزوّدها يوحنّا بولس الثاني، عام **١٩٧٩**، بالعزيمة، وبالحكم الأَخلاقيّ السليم، فاستعاد الشعب الپولونيّ استخدام لسانه للتعبير عن كوامن ضميره، وعن الحقيقة التي آمن بها.

وقد تميّزت تلك الثورة الأَخلاقيّة باللاعنف، تميّزًا فريدًا، في الحقبة الحديثة. فعلى امتداد الستّة عشر شهرًا التي استغرقتها تلك الحركة الثوريّة، لم يسقط قتيلٌ واحدٌ، على يد العمّال الثائرين. ولم يكن ذلك ناتجًا عن احتكار النظام للسلاح، بل كان نابعًا من يقين العمّال بأَنّ الثوّار الذين ينتصرون بقوة السلاح، لن يلبثوا أَن يستبدّوا أَكثر ممّن ثاروا عليهم، وإِن هم دمّروا سجونًا، فلن يلبثوا أَن يبنوا أَصعب منها.

وكان «سولجينستين» قد قال إِنّ الكذب والعنف يقترنان في السياسة السوڤييتيّة، وعندما يتبدّد الكذب، ينهار العنف. وبفضح يوحنّا بولس الثاني للكذب، عام **١٩٧٩**، أَسهم في ولادة ظاهرةٍ منقطعة النظير في أوروپّا الشرقيّة والوسطى، وأَتاح لپولونيا أَن تكون جماعةً حقيقيّةً قادرةً على إِنشاء مؤسّساتٍ مستقلّةٍ، تثبت بطلان مزاعم النظام الشيوعيّ، وبطلان استخدامه العنف وسيلةً وحيدةً للبقاء.

ربّما غرب عن بال أسياد الكرملين، وأزلامهم في پولونيا، أنّ الكنيسة تحظى بدعم تسعين بالمئة من المواطنين. وقد سعى النظام، جاهدًا، إلى تحطيمها بالثقافة الماركسيّة الملحدة. وعندما تبيّن فشل سياسة المواجهة اعتمد تأثير الزمن والتدابير الماكرة غير المباشرة. ولكنّ كلّ الأساليب القمعيّة واللاأخلاقيّة التي استخدمها نظامٌ ممسكٌ بكلّ تقاليد السلطة، أخفقت في النيل من سلطةٍ روحيّةٍ غير مرئيّةٍ، مستعصيةٍ على القهر، سلطةٍ لا يفهمها العالم، ولكنّها قادرةٌ على تغيير العالم.

ومن المحقّق أنّ زيارة ذلك البابا البولونيّ إلى وطنه الشهيد قد أحدثت شرخًا في الستار الحديديّ، ومهّدت لتغييرٍ حاسمٍ في تاريخ العالم. فإثر هذه الزيارة لم تعُد أوروبّا ما كانت عليه قبلَها. وربّما لم يدرك سوى قليلين ما حدث، ولكن من المؤكّد أنّ مستقبلاً جديدًا شرع يلوح في الأفق، وأنّ العذراء مريم كانت تفتتح برقّةٍ باب مستقبلٍ جديدٍ...

استنفار مملكة الظلمات

ربّما اضطرّ حكّام الكرملين إلى الانحناء، مؤقّتًا، أَمام عاصفةٍ هبّت، فجأةً، في سماء پولونيا؛ ولكنّهم، في الواقع، كانوا يجيشون غيظًا، ويقضّ مضاجعهم القلق من تأثير البابا على الشؤون العالميّة، وبخاصّةٍ على ممالك ستالين الداخليّة والخارجيّة، أَي الاتّحاد السوڤييتيّ، ودول حلف ڤارسوڤيا. وقد حذّر تقريرٌ مخابراتيٌّ رسميٌّ، من ميل الڤاتيكان إلى «استخدام الدين في الصراع الإِيديولوجيّ ضدّ الدول الشيوعيّة»، ما اعتُبر مقاربةً بالغة العدائيّة في العلاقات بين الكنيسة، وحكومات الكتلة الشرقيّة.

وفي مواجهة هذا الواقع كان لا بدّ من تحرّكٍ فاعلٍ. فتبنّت أَمانة اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ، «قرارًا بمقاومة سياسة الڤاتيكان المتعلّقة بالدول الاشتراكيّة». وقد شارك في إِعداد هذه السياسة كبار المسؤولين في المخابرات (ك ج ب)، والمنظّرين الإِيديولوجيّين، وكوادر الحزب. ومن البنود التي اعتُمدت:

– استنفار الأَحزاب الشيوعيّة في الجمهوريّات التي تضمّ أَكثريّاتٍ كاثوليكيّةً، مثل ليتوانيا، وليتونيا، وبيلّوروسيا، وأُوكرانيا، وكذلك تيليفزيون الدولة، وأَكاديميّة العلوم، ووكالة «تاس» للأنباء، ومؤسّساتٍ سوڤييتيّة أُخرى، لشنّ حملة دعاوةٍ واسعةٍ ضدّ سياسة الڤاتيكان.

– تكليف الأَحزاب الشيوعيّة، في أوروبّا الغربيّة، وأَميركا اللاتينيّة، بجمع معلوماتٍ عن النشاطات المحلّيّة التي تستمدّ إِلهامها من يوحنّا بولس الثاني، وشنّ حملات دعاوة مضادّةٍ.

– التضامن مع حركات السلام الكاثوليكيّة التي تنامت في أَميركا الشماليّة، وأوروبّا الغربيّة، واتّصال وزارة الخارجيّة بمنظّمات الكنيسة الكاثوليكيّة الملتزمة بمشاريع السلام، كي تشرح لها سياسة الاتّحاد السوفييتيّ، في سبيل السلم العالميّ.

– تكليف المخابرات السوفييتيّة (ك ج ب) بتطوير صراعها ضدّ سياسة الڤاتيكان، في أوروبّا الشرقيّة، والعمل من خلال قنواتٍ خاصّةٍ في الغرب، ووسائل إِعلام تسيطر عليها، على إِبراز مدى الخطر الذي تمثّله إِدارة يوحنّا بولس الثاني الجديدة.

– تكليف أكّاديميّة العلوم بتكثيف دراستها لنشاطات الكنيسة في العالم، والإِمعان في دراسة «الإِلحاد العلميّ».

وما كاد يمضي أُسبوعان على وضع هذه الخطّة، حتّى وصلت إِلى صحيفة «ملّيّات» التركيّة، رسالةٌ من سجينٍ فارٍّ، يدعى «محمّد علي أَغشا»، عبّر فيها عن عميق استيائه من الزيارة التي يزمع البابا القيام بها إِلى تركيّا، لمقابلة البطريرك الأرثوذكسيّ، والتي عزاها إِلى «الإِمبرياليّة الغربيّة»، الساعية إِلى إِيفاد «أَمير الصليبيّين» ضدّ تركيّا، و«الأُمم الإسلاميّة الشقيقة». وأَعلن «أغشا»، في تلك الرسالة، أَنّه، ما لم تُلغَ هذه الزيارة، لن يتوانى عن قتل البابا، فهو قد فرَّ من السجن من أَجل هذه الغاية بالذات. ويبدو أَنّ الفرصة لم تتسنَّ له، بهذه المناسبة، لتنفيذ جريمته، فأرجأها إِلى موعدٍ لاحقٍ.

زيارةٌ تاريخيّةٌ إِلى الولايات المتّحدة

في ١٩٧٩/١٠/٢، باشر يوحنّا بولس الثاني رحلته الرسوليّة الثالثة، بزيارةٍ تاريخيّة إِلى الولايات المتّحدة، حيث كان يعتزم إِلقاء خطابٍ في مقرّ الأُمم المتّحدة بنيويورك.

وفي الطائرة التي استقلّها، كان قد كلّف الأب «يان سكوت، (Jan Schotte) بمراجعة نصّ ذلك الخطاب. وكان معاونوه قد أَعدّوا، لهذا الغرض، نصّين،

أَحدهما كاملٌ، كي يُنشر في الصحف، وآخر موجزٌ، يمكن للبابا إِغفال بعض مقاطعه، أَثناء تلاوته. وقد اتّضح للأَب المذكور أَنّ المقاطع التي أَوصى أَمين سرّ الڤاتيكان، الكردينال كازارولّي، بإِغفالها، هي التي تنطوي على تنديدٍ بدولٍ تمتهن حقوق الإِنسان والحرّيّة الدينيّة. فالكردينال كازارولّي، المتمرّس بالدبلوماسيّة، كان يرى أَنّ هذه القضايا يحسن مناقشتها بهدوءٍ، وبعيدًا عن الأَضواء، وبمنأًى عن الإِعلانات المدوّية، في حين ارتأى الأَب «سكوتّ» أَنّ الدفاع عن حقوق الإِنسان، وتحدّي الأَنظمة التوتاليتاريّة الطاغية، هو واجبٌ أخلاقيٌّ جوهريٌّ، ومن ثمّ فإِنّ إِغفال المقاطع المتعلّقة بهذه المواضيع، يُفرغ الخطاب من جوهره وروحه.

في هذه الأَثناء، كان البابا يعمل، وحيدًا، في مقصورته الخاصّة بالطائرة، فوافاه الأَب «سكوتّ» ووضع ملاحظاته، بشأن النصّ المقترح، بين يديه. فدرس الحبر الأَعظم الأَمر بتأَنٍّ، وانتهى إلى الأَخذ برأي الأب «سكوتّ»، وبإِعلان رأيه بوضوح، من فوق منبر الأُمم المتّحدة، في ما يتعلّق بهذه القضايا الأَساسيّة، مغفلاً نصيحة الكاردينال كازارولّي.

ولكي يبيّن لجميع مرافقيه، وللإِدارة الڤاتيكانيّة، موقفه، خرق البروتوكول القاضي بأَن يقدّم له أَمين سرّه الخاصّ نصّ الخطاب، لدى اعتلائه منبر الأُمم المتّحدة، وأَمر أَن يقوم الأَب «سكوتّ» بهذه المهمّة. ولم يخفَ على أَحدٍ من مرافقيه مرماه من هذه المبادرة، وحرصه على إِبداء مواقف واضحةٍ لا لَبْس فيها، ولا تنازلاتٍ، في ما يتعلّق بحقوق الإِنسان وبالحرّيّة الدينيّة. ولا عجب، بالتالي، إِن جاء خطابه متعارضًا مع مواقف العديدين من أَعضاء الأُمم المتّحدة.

في طريقه إلى نيويورك، حرص يوحنّا بولس الثاني أَن تكون له محطّة يومين في إِيرلندا. فالأُمّة الإِيرلنديّة، التي طالما تميّزت بكاثوليكيّتها المضطرمة، قد شرعت تنأى عن جذورها، وأَمست، سياسيًّا، منقسمةً، تمزّقها، منذ أَجيالٍ، حربٌ أَهليّةٌ حمقاء، ناجمةٌ عن الانتماء إلى الكاثوليكيّة أَو البروتستانتيّة.

وكانت الغاية الدينيّة لتلك المحطّة هي حجّ الحبر الأَعظم لمزار «كنوك»، حيث

ظهرت العذراء، عام **١٨٧٩**. وكان قداسته راغبًا في تذكير الإيرلنديّين بأنّ تاريخهم وثقافتهم لا يمكن فهمهما بمعزلٍ عن المسيح، على غرار البولونيّين وثقافتهم. كما أنّه كان راغبًا في شجب العنف الناشب باسم المسيحيّة.

يوحنّا بولس الثاني هو أوّل بابا يطأ أرض إيرلندا، وقد حطّ في مطار دبلن، يوم **٢٩** أيلول، وكان يومًا مشرقًا مشمسًا. وفي المطار، عبّر عن فرحه بوجوده في الجزيرة الزمرّديّة، وقال للإيرلنديّين: «**إنّي سعيدٌ بالسير في ما بينكم، على خطى القدّيس باتريك، وعلى درب الإنجيل الذي خلّفه لكم، إرثًا عظيمًا، واثقًا أنّ المسيح ههنا: «المسيح أمامي، والمسيح ورائي... وهو في قلب كلّ إنسانٍ يفكّر بي، وفي فم كلّ إنسانٍ يتكلّم عنّي**».

ثمّ ما لبث أن احتفل بالقدّاس البابويّ الأوّل في إيرلندا، في حديقةٍ فسيحةٍ كان قد احتشد فيها أكثر من مليون شخصٍ، مع أنّ وسائل المواصلات العامّة كانت قد توقّفت طيلة النهار. وكان قد نُصب، في تلك الحديقة، صليبٌ جسيمٌ، يبلغ ارتفاعه ثلاثين مترًا، مقابل باقةٍ من الأعلام البابويّة. وقد ذكّر الحبر الأعظم الإيرلنديّين بآلاف مواطنيهم المرسلين الذين بشّروا العالم، وحثّهم على الارتداد إلى الإنجيل.

وخلال زياراته إلى الأماكن التي تؤوي رفات شهداء الحروب، دعا إلى نبذ العنف والتحرّر من روح الضغينة الذي سبّب المجازر، وما انفكّ يلهب الصدامات، كما دعاهم إلى التحلّي بالتسامح والصفح، منعًا لتكرار مأساة قايين الرهيبة. وناشد جميع من كان يعتمل فيهم روح قايين، قائلاً: «**أتوسّل إليكم، راكعًا، أن تنأوا عن دروب العنف، وترتدّوا إلى طرق السلام... إنّ العنف يدمّر عمل العدل. وإنّ مزيدًا من العنف في إيرلندا كفيلٌ بتدمير هذا البلد الذي تدّعون حبّه، والقضاء على القيَم التي تدّعون الكلَف بها**».

وأقلّته طائرة مروحيّةٌ إلى عدّة أماكن مثقلةٍ بتاريخٍ مجيدٍ، وبسيَر قدّيسين محلّيّين. ثمّ شخص إلى ملعب سبق خيلٍ، حيث كان ينتظره ثلاث مئة ألف شابٍّ، من أولئك الذين كان يهوى مخاطبتهم، وكرّر على مسامعهم ما اعتاد

قوله للشبيبة البولونيّة في عهد أُسقفيّته: «**إنّي أومن بكم، بكلّ قلبي، وبكلّ قوّة قناعتي**». وانطلاقًا من خبرةٍ ذاتيّةٍ، أَردف: «**حيال خبرات الماضي، والوقائع الماثلة، قد ينتاب المرءَ شعورٌ بأنّ الحبّ فقد قدرته... ومع ذلك، على المدى الطويل، الحبّ يؤتي، دائمًا، النصر، ولا يُهزَم أبدًا. أيّها الشباب الإيرلنديّون، إنّي أُحبّكم**». هذه الكلمات قوبلت بخمس عشرة دقيقة تصفيقٍ حادٍّ، وهتافاتٍ، شقّت عنان السماء، وأناشيد مدوّيةٍ، لم توقفها سوى دعوة كاهنٍ إلى الصمت، من أَجل متابعة القدّاس.

في مزار «كنوك» زار قداسته ثلاثة آلاف مريضٍ، وبارك حجار الأَساس المعدّة لإِشادة أَربعٍ وثلاثين كنيسةً جديدةً، في البلاد، وأَقام قدّاسًا بحضور نصف مليون إِيرلنديٍّ، وأَشار إلى ميزات الظهور المريميّ الذي يخلّده ذلك المزار، بعباراتٍ مؤثّرةٍ.

واختتم البابا رحلته الإِيرلنديّة بلقاءٍ مع الأَساقفة الإِيرلنديّين، ومع كهنةٍ، وإِكليريكيّين، وراهباتٍ، وبقدّاسٍ في ملعب سباق خيلٍ، حيث تراصّ مئتان وخمسون أَلف شخصٍ لسماعه. ثمّ غادر من مطار «شانون»، إلى «بوسطن»، بالولايات المتّحدة.

كان في استقباله، في مطار بوسطن زوجة الرئيس كارتر، ومستشار الأَمن القوميّ، بولونيّ الأَصل. ورغم المطر المدرار، كان قد تقاطر نحو مليوني شخصٍ، لحضور القدّاس الذي احتفل به، والذي كان قدّاسًا مسكونيًّا شارك به مئات أُلوفٍ من غير الكاثوليكيّين. وكان الحبر الأَعظم، قبل القدّاس، قد التقى أُلوفًا من الكهنة والراهبات، في كاتدرائيّة الصليب المقدّس. وعند انتهاء اللقاء، فيما كان يهمّ بالانصراف، لمح كرسيًّا بعجلاتٍ، تجلس عليه فتاةٌ في السادسة والعشرين من عمرها، حكم عليها حادثٌ بالشلل. فدنا منها، وأَمسك بيدها، ثمّ انحنى وهمس بضع كلماتٍ في أُذنها، وقدّم لها علبةً صغيرةً تحتوي مسبحةً.

وفي صباح الغد طار إلى نيويورك، حيث رحّب به عمدة المدينة، قائلاً: «يا صاحب القداسة، أَنا العمدة»، فأجابه، مازحًا: «**سأسعى إلى أَن أَكون مواطنًا**

صالحًا». ثمّ أَقلّته سيّارةٌ إلى مقرّ الأُمم المتّحدة، حيث رحّب به أَمينها العامّ «كورت ڤالدهايم». ودخل الحبر الأَعظم إلى مقرّ الأُمم المتّحدة، وكأنّه مكانٌ مألوفٌ لديه، وقد تجلّت عليه أَمارات الحيويّة والعزيمة، والقوّة الهادئة، قوّةٍ جسديّةٍ، وقوّة فكرٍ نفّاذٍ. وقد أَظهر للجميع لباقةً وتهذيبًا، ولكن لم تخدعه المسرحيّات الديبلوماسيّة. وعندما حان دوره للكلام، اعتلى المنبر، هادئًا، مرتاحًا، وخاطب بوضوحٍ وجرأةٍ، ممثّلي الدول، والصحافيّين والجمهور، ولكأنّه يلقي درسًا في جامعةٍ، مغيّرًا وقفته بين فينةٍ وفينةٍ، مستندًا، حينًا، على مرفقه، وكأنّه يفكّر، ومستقيمًا فجأةً مثل قائلٍ: «**والآن، أَصغوا جيّدًا، إلى ما سأقول**».

وقد تزامنت زيارة البابا إلى الأُمم المتّحدة مع قلقٍ ناجمٍ عن سباق التسلّح المحموم بين الشرق والغرب، ومع مطالباتٍ، في كلّ مكانٍ، بتجميدٍ نوويٍّ. وبدا كأنّ لدى الجميع قناعةً بأَنّ مراقبة السلاح كفيلةٌ بإِحلال السلام. ولكن، كان للبابا نظرةٌ مختلفةٌ إلى السياسة العالميّة، في غروب القرن العشرين، وقد بسط هذه النظرة في خطابه الذي استغرق ساعةً.

ذكّر، أَوّلاً، بقول يسوع، عندما مثل أَمام الحاكم الرومانيّ «بنطُس بيلاطُس»، أَنّ رسالته هي الشهادة للحقيقة، وأَنّه هو، نائبه، سيشهد، أيضًا، للحقيقة. ولن يستخدم لغة الدبلوماسيّين، بل لغة شاهدٍ للحقّ، عن الإِنسان بكلّيّة كيانه، وتنوّعه، وثروات وجوده المادّيّ والروحيّ، التي لا يحدّها حصرٌ. وأَكّد أَنّ هدف السياسة هو خير الإِنسان، فالسياسة «**نابعةٌ من الإِنسان، ويمارسها الإِنسان، وتستهدف الإِنسان**». وكلّ سياسة لا تقوم على هذا المبدإ تفقد جوهر وجودها، ومن شأنها أَن تتعارض مع الإِنسانيّة.

وأَكّد، أيضًا، أَنّ التقدّم البشريّ يُقاس بمعايير صونه الكرامة الإِنسانيّة، ولا يسوغ أَن يقوم، فقط، على معايير العلم والتكنولوجيا، بل «**قبل كلّ شيءٍ، على أَولويّة القيَم الروحيّة، وعلى دفع الحياة الأَخلاقيّة نحو الكمال**». إِنسانيّة العالم تتجلّى على مستوى الضمير. وكلّما أُغفلت مقتضيات الضمير والحقيقة الأَخلاقيّة، يكون العلم والتقنيّة قد أَفضيا إلى تحويل العالم إلى مسلخٍ. ولذلك، فإِنّ علّة وجود الأُمم المتّحدة يجب أَن تكون الإِعلان العالميّ لحقوق الإِنسان

الذي وُضع عام ١٩٤٨. ولن تتقدّم قضيّة السلام إلاّ من خلال «تحديد حقوق الأفراد والجماعات، والاعتراف بها، واحترامها»، ما يعني احترام كرامة كلّ كائنٍ بشريٍّ وقيمته. ومن ثمّ فإنّ السلام يُهدَّد كلّما كان دافعَ سياسة دولةٍ ما «**عطشٌ إلى السلطة والنفوذ، على غير اكتراثٍ باحتياجات الآخرين**». وهذا صحيحٌ، داخل كلّ دولةٍ، وفي علاقات الدول ما بينها. فعلى الدول ألاّ تنظر، فقط، إلى مصالحها الخاصّة، التي أُفرغت من محتواها الأخلاقيّ، بل عليها، أيضًا، احترام واجباتها والتزاماتها.

وأشار قداسته إلى أنّ خطر الحرب، في العالم المعاصر، ليس ناجمًا، فقط، عن الأسلحة المدمّرة، بل عن كلّ أشكال الظلم، المفروضة من الحكومات، والتي تتعدّى على حقوق الإنسان، وتهدّد النظام العالميّ بأسره.

ومن الحقوق الأساسيّة التي شدّد قداسته على واجب احترامها، «**حقّ حرّيّة الرأي، والضمير، والدين، وحقّ ممارسة الشعائر الدينيّة، فرديًّا وجماعيًّا، علنًا أو على نحوٍ خاصٍّ. ذلك بأنّ «قِيَم الروح» هي القوى المحرّكة للازدهار والحضارة، ولترسيخ السلام. وإنّما السلام يستلزم أُناسًا ينعمون بمدخلٍ حرٍّ إلى الحقيقة، وإلى النموّ الأخلاقيّ، وإلى قدرةٍ كاملةٍ على الاستفادة من خيراتٍ ثقافيّةٍ موروثةٍ، وعلى تنميتها بمقدرتهم الخلاّقة الخاصّة**».

وأكّد قداسته أنّ كل تدبيرٍ اجتماعيٍّ، أو سياسيٍّ، أو اقتصاديٍّ يخرق، منهجيًّا، حقوق الإنسان، يمثّل، بطبيعته، خطرًا على السلام. وكذلك هو شأن **المظالم المرتكبة بحقّ الروح والفكر**، والتي «**تجرح الشخص البشريّ، في علاقته الحميمة مع الحقيقة، في ضميره، ومعتقداته الشخصيّة، وفي رؤيته للعالم، وفي إيمانه الدينيّ، وفي دائرة ما يُسمّى الحرّيّات المدنيّة**».

ودعا القادة السياسيّين إلى الحفاظ على الديناميّة التاريخيّة، التي أسهمت، مدى قرون، في تأسيس جماعاتٍ «**تصان فيها، صونًا كاملاً، حقوق الفكر والروح الموضوعيّة، وحقوق الضمير وقدرة الإنسان الخلاّقة، ولا سيّما علاقته بالله**».

ولكي يضفي على أقواله مزيدًا من وضوح، بيّن أنّ الدول التي تمثّل تهديدًا

للسلام، هي تلك التي، مع توقيعها على المعاهدات الدوليّة المتعلّقة بحقوق الإنسان، أَوجدت «**حياةً اجتماعيّةً تحكم على الفرد أن يكون مواطنًا من طبقةٍ ثانيةٍ أو ثالثةٍ، يشهد مهنته مهدّدةً، ووصوله إلى بعض مواقع المسؤوليّة متعذّرًا، ويُحرَم حتّى حقّ تنشئة أبنائه**».

كان يتكلّم من فوق منبر الأمم المتّحدة، بصفته رأس الكنيسة الكاثوليكيّة، ولكنّه، إنسانيًّا، كان يشهد، بصفته كارول ڤويتيووا، على معاناة العديدين من أَصدقائه الپولونيّين، في مسيرتهم المهنيّة، لكيلا يخونوا ضميرهم.

وأَخيرًا أَكّد أنّ من مستلزمات السلام صون الحرّيّة الدينيّة، لأَنّ منع أَيّ إِنسانٍ من البحث عن الحقيقة، والالتزام بها، هو تجريده من إِنسانيّته، فنشدان الحقيقة هو جوهر إِنسانيّتنا.

بالإجمال، كان خطاب يوحنّا بولس الثاني تاريخيًّا، من نواحٍ عديدةٍ، وكان تشخيصًا دقيقًا وبارعًا لأَزمة عالمنا في الربع الأَخير من القرن العشرين، أزمةٍ هي، في الواقع، أَعمق من صراعاتٍ بين الشرق والغرب، أَو بين الرأسماليّة والاشتراكيّة، بين الشمال والجنوب، بين فقراء وأغنياءٍ، بل هي أَزمةٌ كامنةٌ في قلب الإِنسانيّة، وذات طبيعةٍ روحيّةٍ وأَخلاقيّةٍ. ولا ريب أَنّ خطابه كان انتقادًا لاذعًا للنظام السوڤييتيّ، مع أنّه لم يأتِ، ولو مرّةً واحدةً، على ذكر لفظة «شيوعيّة» أو «ماركسيّة». وفي الآن عينه، كان ذلك الخطاب تكذيبًا لمقولة بعض الغربيّين أَنّ السياسة هي مجرّد تقنيةٍ.

وفوق ذلك، كان خطابه إِعلان التزام الكنيسة الكاثوليكيّة، التزامًا لا لَبْس فيه، بقضيّة الحرّيّة الدينيّة، وقضيّة الدفاع عن حقوق الإِنسان الأساسيّة، وهذا الالتزام هو الهدف الرئيس لمشاركة الكنيسة في السياسة العالميّة.

وقد كرّس هذا الخطاب مواقف يوحنّا بولس الثاني، وأَكّد ما سبق له إِعلانه في كلٍّ من رحلتيه إلى المكسيك وپولونيا، وأَذاعه على الملأ، ورسم صورةً للسلام سها عنها دهاقنة السياسة أَو تعمّدوا إِغفالها، سلامٍ ينتج عن التزامٍ أَخلاقيٍّ بحرّيّة الإِنسان، ويتجسّد، واقعيًّا، في تدابير عادلةٍ، محلّيًّا ودوليًّا.

وقد أَصغى إليه مندوبو الدول، بصمتٍ وهدوءٍ، وغابت الروحات والمجيئات المعتادة في ممرّات القاعة. وأيًّا كان تأويل مندوبي القوى العالميّة لذلك الخطاب، إلاّ أَنّهم تيقّنوا، جميعهم، من أَنّهم ينصتون إلى قوّةٍ لا يسعهم إِلاّ أَن يحسبوا لها حسابًا.

بعدئذٍ، باشر يوحنّا بولس الثاني جولةً في أَرجاء الولايات المتّحدة، أَكسبته لقب «سوپر ستار»، الذي أَطلقته عليه مجلّة «تايم»، ورسّخت له صورةً متألّقةً في الأَذهان.

فعقب خطابه في الأمم المتّحدة، أَقام قدّاسًا حضره خمسةٌ وسبعون أَلف أَميركيٍّ. وناشد أولئك القوم المتباهين بانفتاح شعبهم، قائلاً: «**يرغب المسيح في انفتاحٍ لا يقتصر على لفتة عطفٍ، ولا على أَفعالٍ رمزيّةٍ، وجهودٍ خجولٍ تُبقي الفقير أَكثر فقرًا من السابق...**». وكان، وهو في طريقه إلى الكنيسة، قد شاهد جماعةً من المهمّشين مجتمعين، فتوقّف وخاطبهم: «**لا تستسلموا لليأس... ولا تنسوا أَنّ الله مسؤولٌ عن حياتكم، وهو يواكبكم، ويدعوكم إلى أُمورٍ أفضل...**».

وشهد صباحُ الثالث من تشرين الأَوّل، منظرًا غير مألوفٍ، فقد كان عشرات أُلوف المراهقين ينتظرونه في حديقة «ماديسون سكوير». وفيما كانت سيّارته تطوف، على مهلٍ، في الحلبة، عزفت أُوركسترا معهد القدّيس فرنسيس أَلحانًا حماسيّةً، فيما كان الحبر الأَعظم يمدّ ذراعيه، من فوق السور الأَمنيّ، كي يلمس الأَيادي الممتدّة إِليه. ومدى لحظاتٍ، راح يقلّد حركات ضارب الطبلة. ثمّ رفع باهمه باتّجاه الفتيان، تعبيرًا عن دعمه لهم. فقدّموا له بنطال «جينس» وقميصًا طُبعت عليه عبارات الترحيب به، وقيثارةً، فدوّت الهتافات، كما لم تدوِّ، قطّ، في ذلك المكان، حتّى في حمّى المهرجانات الصاخبة: «يوحنّا بولس الثاني، نحن نحبّك» «جون پول تو، وي لاف يو»، فتناول البابا مكبّر صوتٍ، وردّ عليهم: «وو هو وو: جون پول تو لاڤز يو».

وعندما خفتت الصيحات، وهمد الصخب، توجّه إليهم بالنصح، قائلاً: «**إِنّكم تقتربون من النضج، ومن مرحلة الحياة التي تغدون فيها مسؤولين عن مصيركم**

الخاصّ. فعندما ستقدمون على اتّخاذ قرارٍ، حدّقوا إلى المسيح. وعندما تتساءلون عن سرّ ذواتكم، اشخصوا بأبصاركم إلى المسيح، الذي سيكشف لكم معنى الحياة. وعندما تبحثون عن معنًى للشخص الناضج، تأمّلوا في يسوع الذي يُجسّد الإنسانيّة بكلّ أبعادها». ثمّ، سيرًا على نهجه في إشاعة الثقة، في صدور الشباب، قال لهم: «**إنّ الكنيسة تحتاج إليكم، والعالم يحتاج إليكم، لأنّه يحتاج إلى المسيح، وأنتم تخصّون المسيح**».

وفي اليوم التالي، أقام قدّاسًا حضره نحو مليون شخصٍ. وفي عظته أشار إلى جرس الحرّيّة الموجود في «قاعة الاستقلال» (Independence Hall)، ودعا الأميركيّين إلى تعميق مفهومهم للحرّيّة. فالحرّيّة تكتسي نبلاً، عندما يختار الإنسان دربه ومصيره بحرّيّةٍ. والحرّيّة المرتبطة بالحقيقة التي تستهدف الازدهار الإنسانيّ، لا تنفصل عن الحياة العامّة، والعلاقات الشخصيّة، وحتّى العلاقات الجنسيّة. وتلك هي غاية المعايير المتعلّقة بالعفّة، في الحياة الزوجيّة، والتي تتيح استخدامًا صحيحًا للحرّيّة، في سبيل ازدهار الزواج.

وكان البابا قد تلقّى رسالةً مخطوطةً من مزارعٍ في ولايةٍ «أيْوا» (Iowa)، يدعوه إلى زيارة مركز البلاد الزراعيّ، فحرص قداسته على تلبية الدعوة. وكانت تلك له فرصةً كي يخاطب أكبر تجمّعٍ في تاريخ الولاية. وكانت خطبته فيهم من أبلغ خطبه تأثيرًا. فانطلاقًا من فكرة كرم الأرض، الذي يعكس كرم الله، الذي يشبع نفس الإنسانيّة بالإفخارستيّا قال: «**في كلّ مكان يوفّر المزارعون للبشر خبزهم، ولكنّ المسيح، وحده، هو خبز الحياة... فحتّى لو أُشبع كلُّ جوع العالم المادّيّ، وحتّى لو تغذّى جميع البشر بجهدهم الخاصّ، وبكرم الآخرين، فجوع الإنسان الأعمق سيستمرّ. ولذلك، أقول لكم، جميعًا: تعالوا إلى يسوع، فهو خبز الحياة، تعالوا إلى يسوع، ولن تعرفوا، من بعدُ، جوعًا**».

ثمّ يمّم البابا شطر مدينة شيكاغو، حيث استقبله عشرات الأُلوف من الأميركيّين من أصل پولونيٍّ، مردّدين، بلا انقطاعٍ، باللغة الپولونيّة: «فلتعش مئة سنة!». فمازحهم قائلاً: «**إن استمررتم على هذا المنوال، فسيظنّ الآخرون أنّكم تنشدون النشيد الوطنيّ الپولوني!**».

أمّا الأَساقفة، فقد خاطبهم بإِسهابٍ، مستهلاًّ خطابه بتذكيرهم أَنّ القداسة هي أُولى أَولويّات حياتهم، ومهمّتهم الراعويّة؛ وأَنّ قداسة الأَساقفة تقتضي الالتزام بلغة الحقيقة.

وفي السادس من تشرين الأوّل، إِثر قدّاسٍ حضره نحو نصف مليون شخصٍ، قصد الحبر الأَعظم محطّته الأَميركيّة الأَخيرة: واشنطن، حيث استقبله، في البيت الأَبيض، الرئيس كارتر، بهذه العبارة الپولونيّة: «فليمجّد الله». وكان الرجلان، من قبلُ، يتبادلان الرسائل. وبعد محادثةٍ، امتدّت ساعةً كاملةً، اختلط الرجلان بستّة آلاف مدعوٍّ، انتشروا على مرجة حديقة البيت الأبيض. وقد وصفت مجلّة «تايم» ذلك الحدث بأَنّه «اللحظة الأَشدّ تأثيرًا في عهد رئاسة كارتر». وخاطب الرئيسُ البابا، رجلاً إلى رجلٍ، ومسيحيًّا إلى مسيحيٍّ، قائلاً: «بصفتنا كائنَيْن بشريّيْن، يعمل كلٌّ منّا من أَجل العدالة في الحاضر، ويكافح من أَجل مستقبل سلامٍ ومحبّةٍ مشتركٍ، فلا نتأخّرنّ في التلاقي ثانيةً، من أَجلنا ومن أَجلكم. وأَهلاً بكم، في بلادنا، يا صديقنا الجديد». حينئذٍ عانق البابا الرئيس بحرارةٍ، تحت تصفيق المدعوّين المتمادي.

وبعد ظهر ذلك اليوم، تحادث البابا مع مستشار الأَمن القوميّ الأَميركيّ، وهو پولونيّ الأُصول، والذي صرّح أَنّه عندما يتحدّث إلى الرئيس كارتر يعروه انطباعٌ بأنّه يخاطب زعيمًا دينيًّا. وعندما تحدّث إلى البابا اعتراه انطباعٌ بأنّه يخاطب رجل دولةٍ.

صباح يوم الأحد، السابع من تشرين الأَوّل، قضاه يوحنّا بولس الثاني، في الجامعة الكاثوليكيّة، حيث قابل مسؤولين مسكونيّين، ورؤساء المعاهد الكاثوليكيّة. وشدّد على ترابط القضايا الأَخلاقيّة بقضايا العقيدة. وختم جولته بعد ظهر ذلك اليوم، بقدّاسٍ حضره مئتا أَلف شخصٍ، فأكّد على حقّ الحياة: «**لا شيء يسمو على عظمة الشخص البشريّ وكرامته. لذلك، ستهبّ الكنيسة للدفاع، كلّما هُدِّدت حياةٌ ما**»: بالإجهاض، أو بسوء معاملة الأَولاد، وبالظلم الاجتماعيّ، وبكلّ أَشكال الاستغلال، وبالتخلّي عن المرضى والمسنّين، وجميع من يسبّبون إِزعاجًا.

وبالإجمال، كان سحر يوحنّا بولس الثاني موضع تعليقاتٍ مستفيضةٍ في الصحف الأميركيّة. ومع ذلك ظلّ موضوعٌ واحدٌ يحيّر المحلّلين الذين تعذّر عليهم التوفيق بين موقف ذلك المدافع الشجاع، المندفع، والبليغ عن حقوق الإنسان وحرّيّته، وفي الآن عينه، الصلب في الدفاع عن موقف الكنيسة الكاثوليكيّة المتشدّدة في مواضيع الإجهاض، ووسائل تحديد الإنجاب، والطلاق، وكهنوت النساء.

وقد أوضح الحبر الأعظم، في هذا الشأن، أنّ المسيحيّة هي شخص المسيح، والكنيسة التي تشهد للمسيح توفّق الحقائق الأساسيّة الجوهريّة، مع ظروف الزمن والثقافة التي تواجهها. ولكنّ العقيدة الكاثوليكيّة ليست قابلةً لتأويلٍ غير محدودٍ، فهي حارسةٌ لما يسمّى «وديعة الإيمان». وإن هي تراخت في صون سلامة حقائق الإيمان، تخون رسالتها. ومن ثمّ فهناك حدودٌ لا يمكن تخطّيها. ولكن ما لا يجوز أن تحدّه حدودٌ هو السخاء والحبّ اللذان على الكنيسة الالتزام بهما في إعلان حقائق الإيمان التي كُلّفت بحمايتها.

وإذن ليس الدفاع عن حقائق الإيمان وعقائده تصلّبًا في فرض رأيٍ شخصيٍّ؛ وعندما يتكلّم البابا باسم تقليدٍ، هو خادمه لا سيّده، فهو ليس متحكّمًا مستبدًّا، بل هو لسان حال تقليدٍ مبرَّرٍ وراسخٍ.

هذا التمييز لم يكن فهمه سهلاً، في بلادٍ أَلِفت اعتبار التباينات العقائديّة، تبايناتٍ في أُسلوب العيش، لا علاقة لها بجوهر الحقيقة، وحيث الصحافة التي تعكس المناورات السياسيّة، تعدّ كلّ موقفٍ قابلاً للمفاوضة.

همُّ جميع الكنائس

منذ مطلع حبريّته، كان الهمّ الأشدّ تأريقًا له هو همّ الكنائس، فدأب على حلّ الأزمات التي تواجهها بعض الكنائس المحلّيّة. وتجلّت الأزمة الأشدّ حدّةً في كنيسة هولندا، ولا سيّما في أعقاب الخلافات حول تقييم نتائج المجمع الڤاتيكانيّ الثاني. وبغيةَ معالجة هذه القضيّة، دعا يوحنّا بولس الثاني الأساقفة

الهولنديّين، إلى سينودُس يُعقد في روما، ما أَفضى إلى إزالة الكثير من أَسباب الاختلاف. وفي نهاية قدّاس يوم الوداع، تساءل أسقفان، وهما يمسحان دموعهما: «لمَ لمْ نفعل ذلك من قبل؟».

ثمّ انصرف الأب الأقدس إلى حلّ قضايا الكنيسة الأُوكرانيّة، التي تتبع الطقس البيزنطيّ الكاثوليكيّ، والتي كان الاتّحاد السوفييتيّ لا يكفّ عن محاولة سحقها، وتشاركه كنيسة موسكو الأرثوذكسيّة هذا المسعى. وكان مسؤولو تلك الكنيسة قد عدّوا هذا المسعى ضربًا من خيانة سياسة الانفتاح على الشرق التي انتهجها بولس السادس، والتي كانت تكمّ صوت مسؤولي الڤاتيكان، فيلتزمون الصمت حول تجاوزات الاتّحاد السوفييتيّ، وتعدّياته، أحيانًا. وكان يوحنّا بولس الثاني مصمّمًا على عدم التضحية بحرّيّة الكنيسة الأوكرانيّة الدينيّة، في سبيل مسكونيّة مزعومة، وفشلها مرجّحٌ بسبب تدخّل الكرملين. ولذلك دعا جميع الأساقفة الأُوكرانيّين الكاثوليكيّين، ومنهم أَساقفة الشتات المنتشرين على نحوٍ خاصٍّ، في الولايات المتّحدة وأُوستراليا، إلى سينودس، في روما، دام أربعة أيّامٍ. وبعد التشاور مع الأَساقفة عيّن الحبر الأَعظم، معاونًا للكردينال «سليپيي»، الذي كان قد بلغ الثمانين، على أن يخلفه بصفته كبير أَساقفة. وبذلك ضمن استمرار موقف الكنيسة الأُوكرانيّة.

وكان راغبًا في أن يوفّر دفعًا للحركة المسكونيّة، الكفيلة بمصالحة الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة والكنيسة الأوكرانيّة الكاثوليكيّة. غير أنّ عقباتٍ كأداء نهضت دون هذا المسعى.

يوم **١٩٨٠/٥/٢٩**، شارك في مؤتمر الأَساقفة الإيطاليّين السنويّ. وكان، في هذه الأَثناء، قد تفقّد شؤون تسعٍ وعشرين رعيّةً إيطاليّةً، وزار من المدن الإيطاليّة أَكثر ممّا زار منها سلفاه يوحنّا الثالث والعشرون وبولس السادس. ومن ثمّ كان مؤهّلاً لإسداء النصائح. وفيما كان كثيرون ينعون التقهقر الكاثوليكيّ في إيطاليا، أكّد يوحنّا بولس الثاني، أمام الأَساقفة الإيطاليّين، أنّ الشعب الإيطاليّ ما زال يتميّز «بالروح الدينيّ» والقالب الكاثوليكيّ المنيع، اللّذين ألهما وطبعا، على نحوٍ أكيدٍ، مظاهر الحياة اليوميّة، والتقوى، والعائلة، والمجتمع المدنيّ،

ونشوء المؤسّسات الخيريّة، وكذلك أرفع التعابير، فنًّا هندسيًّا، وأدبًا. وقد طالب الأساقفة الإيطاليّين بإعادة تبشير بلادهم بالإنجيل، موضحًا لهم: «**أنتم مسؤولون عن الكنيسة القائمة في إيطاليا، سواءٌ كان البابا من أصل إيطاليٍّ، أو لا**». وحرّضهم على فهمٍ، أعمق إنجيليّةً، لدورهم الأسقفيّ، وعلى تحقيقه قولاً وعملاً. وضرب لهم المثل بشخوصه إلى قرى الجنوب الإيطاليّ، التي ضربها زلزالٌ مدمّرٌ، كي يواسي المنكوبين، وباستقباله نقاباتٍ مهنيّةً.

وفي الآن عينه ما انفكّ يدعم ويُنمّي، في موطنه پولونيا، الديناميّة الروحيّة التي كانت زيارته التاريخيّة قد زوّدتها بزخمٍ حاسمٍ. وعمل على إصدار طبعةٍ شهريّةٍ باللغة الپولونية، لنشرة الڤاتيكان: «أوسّيرڤاتوري رومانو».

وتبيّن أنّ وضع الكنيسة المجريّة يستدعي تدخّله. فمن جرّاء اعتماد سياسة الانفتاح على الشرق، كان الكردينال «مندزنتي» قد أُبعد عن بودابست، بسبب عدائه الشرس للشيوعيّة. ومنذئذٍ انتهجت الكنيسة الهنغاريّة سياسة الخنوع للنظام، التي أفضت بها إلى وضعٍ كارثيٍّ، وأمسى أقلّ من خمسةٍ بالمئة من المعمّدين يؤمّون الكنائس، وأمست مؤسّسات الدولة هي التي تعيّن الرعاة، وتفرض رقابةً شديدةً على التربية الدينيّة، والنشرات الكاثوليكيّة. وفي عام ١٩٧٦، أصبح وسطيّ عمر الكهنة سبعةً وستّين عامًا، وجفّت ينابيع الدعوات الكهنوتيّة، في رعايا كثيرةٍ.

ومنذ تبوّئه الكرسيّ البطرسيّ، في غروب عام ١٩٧٨، حاول يوحنّا بولس الثاني إيقاظ شعور مسؤوليّة الأساقفة الهنغاريّين، من خلال رسائل شخصيّة. وبعد بضعة أشهرٍ، التقى، في روما، الكردينال «ليكي» (Leikai)، رائد حركة المساومة مع النظام، ثمّ التقى أساقفةً آخرين، وعيّن أربعة أساقفةٍ جدُدٍ، على كراسٍ شاغرةٍ. وفي الأوّل من أيّار ١٩٨٠، وجّه رسالةً عامّةً إلى أساقفة هنغاريا، مؤكّدًا ضرورة التربية الدينيّة، حرصًا منه على لمّ شمل الرعايا الهنغاريّة، والحؤول دون تردّيها إلى التهميش. ولكنّه كان موقنًا أنّ انتفاضةً فعّالةً تستلزم قيادةً محلّيّةً قويّةً. وقد سُئل، ذات يوم، عن احتمال زيارته لهنغاريا، فأجاب: «**سيمضي البابا إلى هنغاريا، عندما سيكون الكردينال قد تعلّم ضرب الطاولة بقبضة يده**».

كنائس شابّة: زيارة إلى أَفريقيا

فيما كان يوحنّا بولس الثاني جاهدًا في شدّ أَزر بعض الكنائس، وإِيقاظها على واجباتها الأَساسيّة، كانت أَنظاره تتطلّع إلى الجنوب، إلى أفريقيا، التي، بعد استقلالها، وتحرّرها من التمييز العنصريّ، غدت منسيّةً، لا يعيرها العالم اهتمامًا. ولكن لم يكن بوسع الكنيسة إغفال أَربع مئةٍ وخمسين مليون نفسٍ. وكان رعاة الكنيسة الأَفريقيّة قد استبشروا خيرًا من انتخاب يوحنّا بولس الثاني، الذي عاد فأكّد حرصه على الكنيسة الجامعة. وقد أَكّد الكردينال النيجيريّ «فرنسيس أَرينز»: «لأنّ الأَفريقيّين هم مسيحيّون جدُدٌ، باستثناء مسيحيّي مصر وإِيثيوبيا، فشعورهم بهذا الانتماء، على قدم المساواة مع سائر مسيحيّي العالم، يرتدي أَهميّةً قصوى، إذ إِنّ أَفريقيا تحتلّ المركز الثالث في السياسة العالميّة... إِنّ غاية مجيء يوحنّا بولس الثاني إلى أَفريقيا، هو إِفهام العالم أَنّ الجوهريّ ليس تاريخ اعتناق المسيحيّة، بل تأكيد أَنّ جميع المسيحيّين يسكنون بيت الآب الواحد». وسرعان ما انتشرت صورة البابا على امتداد القارّة الأَفريقيّة، وأَمسى كل پولونيٍّ يدعى «أَخا البابا».

رحلته الأُولى إلى أَفريقيا بدأت في **١٩٨٠/٥/٢**، عندما حطّت به الطائرة، بعد سبع عشرة ساعةً من الطيران، في مطارٍ قريبٍ من كنشاسا، عاصمة الزائير. وكان الرئيس «موبوتو» قد أَعلن يوميْ عطلةٍ، ما مكّن مئات أُلوف الزائيريّين من الترحيب بالحبر الأَعظم، حاملين أَعلامًا صغيرةً بيضاء وصفراء على امتداد الطريق المؤدّي إلى العاصمة. وبعد أَن قبّل الأَرض، قدّم نفسه، بعباراتٍ إِنجيليّةٍ، قائلاً: «**جئت إِليكم بصفة راعٍ، وخادم المسيح، وخليفة بطرس. جئت بصفة رجل إِيمانٍ، ورسول سلامٍ ورجاءٍ**».

وقد استقبله، في كاتدرائيّة كنشاسا، الكردينال «مالولا»، الذي سبق له أَن صرّح: «كلّ هذه المظاهر الإِمبراطوريّة، وعزلة البابا، وهذا التقليد الموروث من القرون الوسطى، التي توهم الأوروبّيّين أَنّ الكنيسة غربيّة فحسب، كلّ ذلك يحول دون فهمهم أَنّ الدول الفتيّة، مثل بلادي، تتطلّع إلى شيءٍ مختلفٍ.

إنّنا نريد البساطة، نريد يسوع المسيح. كلّ هذا يجب أن يتغيّر». وها قد جاء من يحقّق رغبته، ومن يؤكّد له، ولإخوته الأساقفة أنّ بطرس قدم إلى أفريقيا، من أجل تبادل شهاداتٍ، واقتسام أفعال إيمانٍ.

صباحَ اليوم التالي، احتفل البابا بالذبيحة الإلهيّة، في كنيسة القدّيس بطرس، وفق الطقوس الصاخبة المألوفة في أفريقيا. وقد استُخدمت في القدّاس اللغة الفرنسيّة، وأُنشدت تراتيل باللغة السواحليّة، وبلهجاتٍ محلّيّةٍ أُخرى. وفي عظته ندّد بعادة تعدّد الزوجات، ودعا إلى الزواج الأُحادي (الذي يكتفي بزوجةٍ واحدةٍ)، فهو مبدأٌ ألهمه الله، ويجب أن يُطبّق في جميع الحضارات والظروف. وناشد الأساقفة إيلاء الإعداد للزواج اهتمامًا خاصًّا في عملهم الراعويّ.

ثمّ زار مركز البرص في كنشاسا، وبارك كلّ مجذومٍ بوضع يده عليه.

ويوم الأحد، ٤ أيّار، تراصّ في ساحة الشعب، نحو مليون زائيريٍّ وأفريقيٍّ، تدفّقوا من كلّ صوبٍ لحضور سيامة ثمانية أساقفةٍ: أربعةٍ من زائير، واثنين من بوروندي، وواحدٍ من دجيبوتي، وواحدٍ من السودان. وقد استغرق هذا الاحتفال كلّ فترة ما قبل الظهر.

وفي لقاءٍ مع مرسلين پولونيّين في الزائير، عبّر قداسته عن الانطباع الساحر الذي اعتراه حيال ولادة أُمّةٍ جديدةٍ. وقد رسّخت تلك الرحلة يقينه بضرورة قيامه برحلاتٍ رسوليّةٍ، ومعايشة الشعوب في حياتهم اليوميّة، خلافًا لآراء منتقدي أسفاره.

وقد انتهز يوحنّا بولس الثاني تلك الرحلة الأفريقيّة، كي يوزّع آلاف صور سيّدة «تشينستوهوڤا»، وهي العذراء السوداء التي يكرّمها الپولونيّون، آملاً أن يسهّل على المؤمنين الأفارقة، اكتشاف معنى أُمّ الله السوداء.

وبعد أربعة أيّامٍ أمضاها في كنشاسا، تسارعت وتيرة تحرّكاته، وتعدّدت مقاصده: فقضى نصف نهار في الكونغو برازاڤيل، حيث كانت الحكومة – مع أنّها، رسميًّا ماركسيّةٌ – قد أتاحت نهار عطلةٍ، وسمحت بإقامة قدّاسٍ في الهواء

الطلق. وفيما كانت سيّارته تجتاز شوارع برازاڤيل، قاصدةً قبر الكردينال «إِيميل بياييندا» (Biayenda)، الذي كان قد اغتيل، احتشد على الطرقات جميع سكّان المدينة تقريبًا لتحيّته. وفي فترة ما بعد الظهر، انطلق إِلى شمال شرقيّ الزائير لزيارة رئيس أَساقفة «كيزانغاني». وفي صباح اليوم التالي، احتفل بقدّاسٍ حضره مئات أُلوف الزائيريّين، تكريمًا للكهنة والعلمانيّين الذين سقطوا شهادةً للمسيح، عام ١٩٦٤، في «كيزانغاني»، وسواها.

وعند الظهر انطلقت به الطائرة إِلى أَفريقيا الشرقيّة. فحطّ، عند الساعة السادسة عشرة في مطار «نيروبي». وختم الخطاب الذي ردّ به على ترحيب رئيس الجمهوريّة «دانييل أراپ موي»، بهذه العبارة المقتبسة من النشيد الوطنيّ الكينيّ: «فليبارك إِله كلّ الخلائق بلادنا وأُمّتنا». وقد ردّدها باللغة السواحليّة، فدوّت الأجواء بالهتافات الحماسيّة.

وشهد اليوم التالي، السابع من أَيّار، أَكثر مشاهد تلك الزيارة إِدهاشًا، وتصريح البابا الأَعمق رسوخًا في الأَذهان. فقد أَلبسه الأَهالي قبّعةً جميلةً، مزدانةً بريش نعامٍ، وأَعطوه، في يدٍ، ترسًا، وفي اليد الأُخرى، حربةً، وأَجلسوه على طبلٍ مغطًّى بجلد فهدٍ. أَمّا هو، فأَدلى بتصريحٍ يفوح بشذا الإِنجيل: «**ليس المسيح إِلهًا فقط، بل هو، أيضًا، إِنسانٌ. وهو بصفته كائنًا بشريًّا، أَفريقيٌّ**». وقد فجّر قوله هذا عاصفة تصفيقٍ هوجاء. وأَردف قداسته: «**في زيارتي القادمة إِلى كينيا، من المؤكّد أَنّني سأُلقي عظتي باللغة السواحليّة**».

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، احتشد سكّان نيروبي لوداع ضيفهم الرفيع، واصطبغ وداعهم بتأثّرٍ طاغٍ. فبعد أن هزجوا ورقصوا ساعاتٍ طويلةٍ، وما إِن ارتفعت الطائرة التي كانت تقلّه فوق الأرض، حتّى هبطوا جميعهم، راكعين، ومضى أَكثر من نصف ساعةٍ على تواري الطائرة عن الأَنظار، وهم ما زالوا على ركبهم، يصلّون خاشعين، غير عابئين بعناصر الشرطة الدائبة على أمرهم بمغادرة المكان. ولكأنّ مشهد صعود يسوع إِلى السماء يتكرّر!

واتّسمت زيارته إِلى «أَكرا» بصبغةٍ مسكونيّةٍ، كان حريصًا عليها في كلّ

أَسفاره، إذ اتّفق وجود رئيس أَساقفة كانتربري في «غانا»، حين كان، هو، فيها. فالتقيا في سفارة الڤاتيكان، وأَصدرا بيانًا مشتركًا باسم الكنيسة الكاثوليكيّة، والكنيسة الأنكليكانيّة، جاء فيه: «إنّ الوقت المتاح من القِصَر، والحاجة من الإِلحاح، بحيث لا يسوغ هدر الطاقات المسيحيّة في متابعة منافساتٍ عتيقةٍ».

بعدئذٍ، زار البابا «ڤولتا العليا»، التي تبنّت اسم «بوركينا فاسّو»، ثمّ ساحل العاج، حيث قابل أكبر جماعةٍ مسلمةٍ، قبل أن يعود إلى روما، ليلة الثاني عشر من أَيّار. وكان، خلال أَيّام رحلته العشرة المنصرمة، قد ألقى خمسين خطابًا وموعظةً، وأَنهك مرافقيه من مساعدين وصحافيّين. وقد تجلّت على العديد من الأساقفة المواكبين له، أَمارات إِرهاقٍ، وبدا الإِعياء واضحًا على الصحافيّين الأَجانب، الذين لم يحتملوا قيظ أَفريقيا الخانق. وكان مراسل صحيفةٍ أَلمانيّة قد أَبرق إلى صحيفته، في يوم الزيارة الخامس: «ما زال البابا صامدًا. هو، وحده، لم تبدُ عليه أَيّة علامة تعبٍ. عندما حطّت به الطائرة في «كيزانغاني»، في قلب جهنّم الغابة الخضراء، شماليّ الزائير، بدا في مثل النشاط الذي كان عليه عندما غادر روما».

وقد اكتشف ذلك الصحافيّ سرّ منعة الحبر الأَعظم، الكامن في قدرته على الانعتاق من تأثير الصخب المحيق به، حتّى في أَطول الحفلات تماديًا، وفزعه إلى بئرٍ داخليٍّ يستمدّ منه قوًى نديّةً. «عيناه تحدّقان إلى بعيدٍ، إلى عالمٍ آخر يستمدّ منه طاقاتٍ لا تنضب. لا ريب أَنّه كان يتقوّى بطاقات الصلاة. ففي تلك اللحظات التي كان يذهب، فيها، بالروح بعيدًا، كان يصلّي، حقًّا، ويعيد تعبئة طاقاته، من أَجل لقاءٍ، أَو خطابٍ، أَو قدّاسٍ آخر قادمٍ».

وقد حصد من رحلته الأَفريقيّة غلّةً وفيرةً من الانطباعات الجديدة المثيرة. فقد اجتاز عشرين أَلف كيلومترٍ، في قلب أَفريقيا، غالبًا على متن سيّارة جيب، وفوق أَراضٍ غبراء، وعرةٍ، ولاعَب الأَولاد في طرقاتٍ تطوف بها سُحُب الغبار. وقد توّجه ملكٌ بزيّ عظماء البلاد. وعاد بحصيلةٍ زاخرةٍ من التأَثّر والانتعاش، بفضل ما كان يشيعه أولئك المسيحيّون الجُدد من فرحٍ فطريٍّ. ولم يكن يتوانى عن شحذ همم مرافقيه المرهقين، بممازحةٍ عذبةٍ.

في طريق العودة، شكر للصحافيّين الذين رافقوه صبرهم وجلَدهم على الظروف القاسية التي خاضوها في سبيل نشر الحقيقة، وتعميم رسالة السلام والرجاء التي جاء بها. وقيّم دورهم عاليًا، في هذا المضمار. وإذ هنّأهم بعودتهم إلى أَحبّائهم، وأُسرهم، ناشدهم أن يبلّغوا ذويهم، وأبناءهم أَنّ البابا كان يحملهم في فكره وصلواته.

وردًّا على سؤال صحافيٍّ، أَوضح أَنّ أَعمق انطباعٍ كان لقاؤه بتلك القارّة، وبتلك الكنيسة، وبتلك الجماعة المسيحيّة التي كانت تبادله رغبة هذا اللقاء، مع يقينه بأَنّ نظرتها إلى الكنيسة، وربّما إلى البابا، تختلف عن نظرة الأوروپّيّين. فهي نظرةٌ أَقلّ تجريدًا، وأَقلّ لاهوتيّةً، ولكنّها أعمق إِحساسًا. فللإحساس لديهم معنًى وجوديٌّ، لأَنّهم يحيون بقلبهم، وبجسدهم، وبعبقريّتهم الخاصّة، ويعبّرون بصدقٍ وبراءةٍ.

واستوضحه صحافيٌّ آخر عن نضوج الأَفريقيّين، إِيمانًا، فأَجاب أَنّه نضوج الشباب. ففي غانا، وفي الزائير، لم يتعدّ عمر الكنيسة مئة عامٍ، وهو دون ذلك في أَماكن أُخرى. واستشهد بقول أُسقفٍ أَفريقيٍّ، كان قد أُفرجَ عنه حديثًا من السجن: «إِنّني لعلى يقينٍ بأَنّ كنيسة أَفريقيا قد بلغت من النضوج ما يؤهّلها لمواجهة كلّ المِحَن». نضوجها هو نضوج الفرح، والقوّة، والاندفاع، نضوج قومٍ تلقائيّين، عفويّين، يشعرون أَنّ الكنيسة هي بيتهم، لأَنّها ليست كنيسةً مستوردةً من الخارج، بل هي كنيسةٌ يعيشونها عيشًا أَصيلاً، على طريقتهم.

وقد أَوحت تلك الزيارة للبابا تحقيق مشروعٍ خاصٍّ لأَفريقيا، يحمل اسمه، ويخلّد عهد حبريّته في القارّة الأَفريقيّة. وقد ناقش هذا المشروع مع أَساقفةٍ أَفريقيّين، وكرادلةٍ مهتمّين بالشؤون الأَفريقيّة، والذين قال لهم: «**لا يمكننا انتظار أن تأتي الرمال بالموت**» إلى هذه القارّة.

زيارة إلى فرنسا

حيويّة الكنيسة الأَفريقيّة الفتيّة، كانت على تباينٍ واضحٍ مع هزال الكنيسة

الكاثوليكيّة في أوروبّا الغربيّة. ولم يكد ينقضي أُسبوعان ونصف على عودة يوحنّا بولس الثاني من أَفريقيا، حتّى تسنّت له فرصة مسعًى لإِنعاش الكنيسة الكاثوليكيّة الفرنسيّة، إِذ وُجّهت إليه دعوةٌ لإلقاء خطابٍ في منظّمة الأُونيسكو، في پاريس، وكان قد تلقّى، في تلك الأَثناء، أيضًا، دعواتٍ عديدةً شخصيّةً، بل صرخة استغاثةٍ من شبّانٍ، وأَساقفةٍ، ومفكّرين.

وقد سرّه تلبية هذه الدعوات بزيارةٍ إلى فرنسا تمتدّ على أَربعة أَيّام، تلي رحلته الأَفريقيّة، وتسبق رحلةً مرتقبةً إلى البرازيل؛ وقد وصف هذه الزيارة بالرسوليّة، وعدّها شرفًا وواجبًا مثقلاً بالمسؤوليّة، وفرصةً يبوح فيها للفرنسيّين بكلّ ما يجول بخاطره، وما يجيش في صدره؛ وفي الآن عينه، ومن خلال خطابه في الأونيسكو، يعبّر أَمام جمهورٍ عالميٍّ، عن الفكرة التي احتلّت حيّزًا مركزيًّا من يقينه، وغذّت نضاله: أَي دور الثقافة الأَساسيّ في مستقبل البشريّة، مع حرصه على إِلباس هذا الخطاب طابعًا راعويًّا، من خلال دعوته بلادًا طالما قيّم ثقافتها للعودة إلى جذور هذه الثقافة المسيحيّة. وقد خطّط أَن تواكب هذا الخطابَ زيارةٌ رسوليّةٌ إلى پاريس، وحجٌّ إلى «ليزيو»، مسقط رأس «الوردة الصغيرة»، القدّيسة تيريز الطفل يسوع. ومن ثمّ حفلت رحلته الباريسيّة بالمواعيد، واللقاءات، والنشاط المحموم.

كانت تربط يوحنّا بولس الثاني بفرنسا، أَواصر عاطفيّةٌ وفكريّةٌ وروحيّةٌ متينةٌ. فمنذ حداثته كان القدّيس «لويس غرينيون دي مونفور»، هو الذي غذّى روحانيّته وتكريمه الحارّ للعذراء، ومنه استمدّ شعار أُسقفيّته وحبريّته، «**إِنّي بكلّيّتي لكِ**». وكان مثاله الأَعلى في الكهنوت خوري أَرس، وكانت روحانيّة كلٍّ من فرنسوا الساليزيّ، وتيريز الطفل يسوع، ومنصور دي پول، وشارل دي فوكو، قد دمغت روحانيّته في الأعماق.

وقد تأثّر بلاهوتيّين معاصرين، أَمثال دانييلو (Daniélou)، ودي لوباك (de Lubac)، وكونغار (Congar)، وبمفكّرين أَمثال جاك ماريتان، ومونييه، وجان غيتّون، وأُدباء أَمثال پول كلوديل، وجورج برنانوس، وقد حاوره الكاتب أَندريه فروسّار.

وكان يرى أَنّ فرنسا قد باتت ساحة صراعٍ بين التقليد المسيحيّ وتيّارات الحداثة، فضلاً عن كونها أَرض التناقضات. ولكنّه، خلافًا للكثيرين الذين خيّل إليهم أَنّ المسيحيّة قد هجرت ضمائر الفرنسيّين، كان موقنًا أَنّها ما برحت كامنةً في أَغوار القلوب، وأَنّ استنباطها لا يتحقّق بفضل لمساتٍ إِنجيليّةٍ سطحيّةٍ خجولٍ، مغلّفةٍ بغطاءٍ سياسيٍّ أو اجتماعيٍّ يسهّل ابتلاعها، بل لا بدّ من الحفر في الأعماق.

وكان يدرك أَنّ كنيسة فرنسا، حينذاك، كانت تجتاز أَزمةً حادّةً. فبعض الأَساقفة غير راضين عن مقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، ورهطٌ من الكهنة سادرون في تيهٍ وضياعٍ وشكٍّ. وبالتالي كان حضوره ضرورةً من أَجل إِنعاش تلك الكنيسة، وشدّ عضدها. وكان قد أَعرب عن أَمله، من خلال خطابٍ بثّته إِذاعة الڤاتيكان، عشيّة زيارته، أَن يكون الوضع الدقيق الذي تتخبّط فيه كنيسة فرنسا، دليل «أَزمة نموٍّ»، ومخاضًا يمهّد لحياةٍ جديدةٍ.

حطّ قداسته في مطار پاريس يوم الجمعة، ١٩٨٠/٥/٣٠. وفي ردّه على ترحيب الرئيس جيسكار ديستان، أَوضح غايته من تلك الزيارة بقوله إِنّه جاء كي يبلّغ «**رسالة سلامٍ، وثقةٍ، وحبٍّ، وإِيمانٍ، إِيمانٍ بالله طبعًا، ولكن أيضًا، إِيمانٍ بالإِنسان، وبما أُعطي من طاقاتٍ رائعةٍ، كي يستخدمها بحكمةٍ، وبحرصٍ على الخير العامّ، من أَجل مجد الخالق**».

استهلّ يوم زيارته الأَوّل بعظةٍ في كنيسة «نوتردام»، وتوجّه، على نحوٍ خاصٍّ، إلى الكهنة، فذكّرهم برسالته إليهم، يوم الخميس العظيم من العام الفائت، ودعاهم للعودة إلى النبع، فليس العالم هو مرجعهم، بل يسوع وكنيسته؛ يسوع هو الذي اختارهم كي يحملوا ثماره، وناشدهم بقوله: «**آمنوا بكهنوتكم... كونوا سعداء وفخورين بكونكم كهنة**»، إِذ إِنّهم اختيروا كي يكونوا مسحاء آخرين، ووسطاء، وأَدوات تقديس. فكلّما نأى العالم عن مسيحيّته، ووهن نُضْجُ إِيمانه، أَلحّت الحاجة إلى كهنةٍ مكرّسين، كلّيّةً، للشهادة لسرّ يسوع. وحذّرهم من إغفال رسالتهم، وهمّ النعاج الضالّة، والقطيع الذي ينبغي لمّ شمله، وتغذيته، ومساعدة البشر على التقدّم في الحياة الإِلهيّة؛ وشدّد على دعوتهم إلى أَن يكونوا «شهودًا، وموفّرين لحياةٍ غير الحياة الأَرضيّة»، وخدّام

كلمة اللّه، يبشّرون ويثقّفون مبشّرين؛ يوقظون الإيمان، ويعلّمونه، ويغذّونه، بحيث يكون كهنوتهم، للآخرين، علامةً، ودليلاً، وهذا يفرض عليهم ألاّ «يعلمنوا» حياتهم. ودعاهم إلى حياة إخاءٍ ما بين الكهنة، وإلى التعاون مع أساقفتهم، وإطاعتهم طاعةً مسؤولةً وطوعيّةً.

وأكّد لهم أنّ مهمّتهم هي، في آنٍ واحدٍ، مصدر فرحٍ جمٍّ، وتضحياتٍ جسيمةٍ، ولا سبيل إلى الاضطلاع بها، اضطلاعًا مثاليًّا إلاّ بالقداسة، مذكّرًا أنّ عزوبة الكهنة والتزامهم العفّة، هما دليل تكريس كلّ ذواتهم لدعوتهم، فالكاهن «إنسانٌ من أجل الآخرين»؛ وناشدهم ألاّ يفقدوا الرجاء، رغم كلّ ما يجابهون من مصاعب داخليّةٍ وخارجيّةٍ، واثقين من وجود يسوع معهم. وحذّرهم من استحقاق تأنيبه: «علامَ تخافون، يا قليلي الإيمان؟». وذكّرهم بأنّ لهم أُمًّا عطوفًا وقادرةً، هي أُمّ يسوع، وأُمّ اللّه، وأُمّ الكنيسة.

وفي اليوم الثاني –٥/٣١ — التقى ممثّلي الكنائس المسيحيّة غير الكاثوليكيّة، وممثّلي المسلمين واليهود، والجالية الپولونيّة. وبما أنّ ذلك اليوم كان اليوم الأخير من الشهر المريميّ، فقد حيّا المباركة بين النساء، وتخشّع في مزار الإيقونة العجائبيّة، في شارع «باك»، حيث جدّد تكريس ذاته لأُمّ اللّه العذراء، وتحدّث إلى الراهبات، وثبّتهنّ في قداسة دعوتهنّ.

وبعد ظهر ذلك اليوم، احتفل بقدّاسٍ في كنيسة «سان دينيس»، حيث التقى حشدًا من العمّال، فآسى المهجّرين منهم، وتعاطف مع ظروف عيشهم القاسية، وأشاد بقدسيّة العمل والأُسرة، والعدالة الاجتماعيّة، مشدّدًا على ضرورة أن يتبوّأ الإنسان المكان اللائق بكرامته في إطار النظام الاقتصاديّ، وألاّ يكون مجرّد آلة إنتاجٍ، وألاّ يقاس بمعيار إنتاجه وما يوفّره من ربحٍ. وأشار إلى أنّ معظم العاملين يكدحون بدافع حبّهم لأُسرتهم، فلا يجوز أن يُفصل العامل عن أُسرته. وأكّد أنّ على عالم العمل أن يقوم على القوّة الأخلاقيّة، وأن يكون عالم حبٍّ، لا عالم بغضٍ، عالم بناءٍ، لا عالم تدميرٍ، فهو لا يستقيم إلاّ باحترام حقوق الإنسان والأُسرة، والأُمّة، والبشريّة. فمشكلة العالم اليوم هي مشكلة الكفاحٍ من أجل العدالة الاجتماعيّة. وذكّر بتعظيمة العذراء في بيت إليصابات، مؤكّدة

أَنّ اللّه «**بسط قدرة ساعده، فشتّت المتغطرسين بأفكار قلوبهم. حطّ الأعزّاء عن عروشهم، ورفع المتواضعين. أفاض على الجياع الشبع، وصرف الأغنياء فارغين**» (لوقا ١ : ٥١–٥٣). وقد عنت، بذلك، أَنّ اللّه يريد عالم عدلٍ. ولكنّ قداسته حذّر من أن تنقلب المطالبة بالعدل مصدر بغضٍ، وتدمير فئةٍ لفئةٍ، وأَلاّ تستعين إلاّ بالقوّة الأَخلاقيّة. وختم بقول الرسول بولس للرومانيّين (١٢ : ٩–١٠): «امقتوا الشرّ، واعتصموا بالخير. أَحبّوا بعضكم بعضًا حبًّا أَخويًّا، وليحسب كلّ واحدٍ الآخرين خيرًا منه».

ثمّ التقى ممثّلي رسالة العلمانيّين، وذكّرهم بأنّ مهمّتهم هي التبشير بالإِنجيل من خلال سلوكهم. فعليهم ترسيخ هويّتهم المسيحيّة، وانتسابهم إلى شعب اللّه. وأَعاد إلى أَذهانهم قول البابا لاون: «**أيّها المسيحيّ، كن راعيًا لكرامتك، وفخورًا بإيمانك، وبنعمة الروح القدس التي منّ بها عليك الآب السماويّ**». وأَكّد لهم أَنّهم، على غرار الكهنة، مدعوّون إلى القداسة، وأَنّ سبيل القداسة هو الصلاة، فعليهم أَن يكونوا، دائمًا رجال ونساء صلاةٍ.

وفي ذلك اليوم، أيضًا، قام بزيارةٍ إلى المعهد الكاثوليكيّ في باريس. وذكّر الأساتذة والطلاّب أَنّ مهمّة ذلك المعهد لا تقتصر على التعليم، بل هي، أيضًا الإِرشاد إلى مبرّرات الحياة وغاياتها، والبحث عن الحقيقة الكامنة في نبع الحقيقة، وبثّ خميرةٍ مسيحيّة في عالم الفكر.

وشهد بعد ظهر ذلك اليوم وليلته، المحطّتين الأَشدّ تأثيرًا في تلك الزيارة. إحداهما قدّاسٌ وعظةٌ في كنيسة «لي بورجيه» (Le Bourget) حضره ثلاث مئةٍ وخمسون أَلف نسمةٍ، أي أَقلّ كثيرًا من المتوقّع، بسبب الأَمطار الغزيرة التي هطلت حينئذٍ، وأيضًا بسبب مقاطعة فئةٍ من الكهنة المعارضين للمجمع الڤاتيكانيّ الثاني.

وفي عظته سبّح اللّه الحيّ الذي يدوّن تاريخ الخلاص في قلب الإِنسان، تاريخًا يتجدّد باستمرارٍ، مع كلّ إِنسانٍ يأتي إلى الوجود. ولا معنى للإِنسان إلاّ بكونه صورةً للّه وشبهًا.

وقد لفت إلى الحقائق التالية:

– المسيح لا يغيب عنّا، وهو الذي قال: «**ها أنا معكم كلّ الأيّام، إلى انقضاء الدهر**». ولكنّ القضيّة هي وجودنا مع المسيح، أو بعيدًا عنه، وهي وفاؤنا أو عدمه للحكمة الإلهيّة الأبديّة، فهذا الوفاء هو أساس كلّ ثقافةٍ حقّةٍ، وأساس نموّ الإنسان. وشدّد على ضرورة وفائنا لوعود معموديّتنا. وقد ألهمه ذلك سؤاله المأثور، الذي ما انفكّ يدوّي ويسائل كلّ معمّدٍ أينما كان:

«**فرنسا، يا ابنة الكنيسة البكر، هل أنت وفيّةٌ لوعود معموديّتك؟**

«**فرنسا، يا ابنة الكنيسة البكر، ومربّية الشعوب، هل أنت وفيّةٌ، من أجل خير الإنسان، للمعاهدة مع الحكمة الأبديّة؟**».

– عندما يكتشف المرء كلّ قوّة المعموديّة، يتبيّن أنّه مغموسٌ في الآب والابن والروح القدس، ويجد ذاته، كلّيًّا، في الكلمة الأبديّ، في الحبّ اللامحدود.

– يسوع قال: «**إنّي أُعطيت كلّ سلطانٍ في السماء، وعلى الأرض**». (متّى ٢٨: ١٨). قال ذلك، فيما كانت السلطات الأرضيّة، السنهدرين، وبيلاطس، تمارس سلطانها عليه، وتقرّر صلبه. وقال ذلك، أيضًا، بعد قيامته. فسلطة يسوع ليست ضدّ الإنسان، ولا هي سلطة إنسانٍ على إنسانٍ، بل هي السلطة التي تتيح للإنسان اكتشاف ذاته، وملء كرامته، في أبعاد ضميره، وفي آفاق حياته الأبديّة.

– لقد مضى إنسان اليوم أشواطًا في ممارسة سلطته على الأرض، ويطمح في مدّها إلى ما وراء كوكبنا. ولكن يبدو أنّ سلطة الإنسان على الإنسان تغدو، يومًا فيومًا، أثقل وطأةً. والإنسان، بتخلّيه عن المعاهدة مع الحكمة الأبديّة، فقد القدرة على قيادة نفسه، وقيادة الآخرين، وتفاقم تهديد التوتاليتاريّة والإمبرياليّة، حيث بات الإنسان يُعدّ شيئًا ووحدةً عدديّةً.

وكانت ذروة ذلك النهار، الليلة التي أمضاها البابا مع الشبيبة الفرنسيّة في «حديقة الأمراء» (Le parc des princes). تلك الليلة هي التي خلّفت أعمق أثرٍ وأعذبه في قلب يوحنّا بولس الثاني وفي ذاكرته، وتمنّى أن تتكرّر مع شبيبة كلّ بلدٍ يزوره، فبات، كلّما أزمع على زيارة بلدٍ ما، يسأل هل سيكون فيه «حديقة أمراء» أُخرى؟.

وكان، من قبلُ، قد تلقّى من شبيبة فرنسا، آلاف الرسائل المعبّرة عن رغبتهم في لقائه والتحاور معه. ولهذا الغرض، كانوا قد أَعدّوا سلسلةً متماديةً من الأَسئلة، التي حرص على الإِجابة عليها، واحدًا فواحدًا، بإِيجازٍ ووضوحٍ.

ولا بدّ من الإِشارة إلى الجاذب المتبادل بين الشبيبة والحبر الأَعظم. فهو، حيثما يذهب، يرغب في التقاء الشبيبة، وهم توّاقون إلى التقائه. وهو يقول، في هذا السياق: «**الشبّان يحملون طاقات خيرٍ وخلق جسيمةً. وعندما ألتقيهم، أينما كنت في العالم، أَتيقّظ لما يرغبون في قوله لي عن أَنفسهم، وعن مجتمعهم، وعن الكنيسة. وأَقول لهم: «إنّ ما يهمّني، في المقام الأوّل، ليس ما سأقوله لكم، بل ما ستقولونه أَنتم لي، وما لن تقولوه بالكلام فقط، بل، أيضًا، بحضوركم وأَغانيكم، ورقصاتكم، وحركاتكم، وبالإجمال، بحماسكم». نحن بحاجةٍ أساسيّةٍ إلى حماس الشبّان، وإلى فرحهم بالحياة اللذين يواصلان فرح الله الأَصليّ عندما خلق الإِنسان. والشبّان يتلمّسون هذا الفرح في داخلهم... كلّما تقدّمتُ في العمر، تحرّضني الشبيبة على البقاء شابًّا... إِنّهم ينشدون الله، وينشدون معنًى لحياتهم، وينشدون إجابةً صحيحةً على سؤالهم: «ما الذي يتوجّب عليّ فعله، لكي يكون لي نصيبٌ في الحياة الأَبديّة؟...»**».

وكان يوحنّا بولس الثاني حريصًا على أن تعرف الشبيبة الكنيسة، وأَن يكتشفوا، فيها، **يسوع المسيح «الذي يسير، عبر القرون، مع كلّ جيلٍ، ومع كلّ كائنٍ بشريٍّ. إِنّه يسير مع كلٍّ منّا. ويا لها من لحظةٍ حاسمةٍ في حياة الشابّ، عندما يترسّخ لديه اليقين بأنّ يسوع هو الصديق الوحيد الذي لن يخيّب رجاءَه أَبدًا، الوحيد الذي يستطيع الاعتماد عليه في كلّ وقت!»**.

في تلك الليلة، إِذن، وفي جوٍّ دافقٍ بالحماس والمودّة، أَجاب على أَسئلة الشبيبة، وحتّى على التساؤلات التي كانت تضجّ في داخلهم، ولم يطرحوها، صراحةً.

وبدأ بسؤالهم له، الذي عدّه مركزيًّا: «من هو المسيح في نظرك؟». وعكسه بسؤاله: «من هو المسيح لكم؟». وأَشار إلى أَنّ الإِنجيل هو حوار الله مع الإِنسان، في كلّ جيلٍ، وفي كلّ الأُمم. واستشهد بحوار يسوع مع الشابّ الذي

استوضحه ما الذي يتوجّب عليه، كي يرث الحياة الأبديّة. الشابّ رأى في يسوع معلّمًا، وعدّ نفسه تلميذًا ينشد تثقيف نفسه. وإن كانت التربية تبدأ حتّى قبل الولادة، وتستمرّ حتّى الموت، إلاّ أنّ مرحلة الشباب هي الفترة المثلى لاكتساب المعرفة والاستفادة منها. وربط سؤال الشابّ ليسوع، بالسؤال الذي طرحوه هم على الحبر الأعظم: «هل بوسع المرء أن يكون سعيدًا في عالم اليوم؟». وأجابهم، مستلهمًا تعليم يسوع: «**أجل يمكن، بشرط قبول مقتضيات السعادة التي تفرضها على الإنسان، إنسانيّته وكرامته الإنسانيّة، وما يطلبه منه الله**».

وأشار الأب الأقدس، بهذه المناسبة، إلى مقتضيات العفّة، خارج نطاق الزواج، وإلى التزام علاقاتٍ مسؤولةٍ، مقتضياتٍ تبعد العديد من الشبّان عن الكنيسة، وقال: «**لا يحقّق الإنسان ذاته إلاّ بمقدار ما يفرض على نفسه مقتضياتٍ أخلاقيّةً، وإلاّ فإنّه «يمضي حزينًا» مثل شابّ الإنجيل. فالإباحيّة لا تجعل الإنسان سعيدًا، والمجتمع الاستهلاكيّ فشل في إسعاد الإنسان**».

وكان قداسته، في خطابٍ موجّهٍ للشبيبة، ولم يتسنّ له إلقاؤه، قد كتب: «**أيّها الشبّان، وأيّتها الشابّات، أحيطوا باحترامٍ جمٍّ جسدكم وجسد الآخرين. وليكن جسدكم خادمًا لأناكم العميق. ولتكن حركاتكم ونظراتكم، دائمًا، انعكاسًا لنفسكم! لا لعبادة الجسد، ولا لازدراء الجسد، ونعم للسيطرة على الجسد، لا بل لتجلّي الجسد. إنّه يتسنّى لنا، غالبًا، تأمّل الشفافيّة الرائعة هذه، لدى العديد من الرجال والنساء، من خلال تأديتهم لمهامّهم اليوميّة**».

وأشار البابا إلى أنّ يسوع دعا الشابّ إلى اتّباعه، بعد أن يكون قد نفّذ ما اقتضاه منه. وكذلك على من ينشد السعادة، أن يتبع يسوع حيثما يدعوه، ملتزمًا بتعاليمه. ودعوة يسوع تُكتَشف من خلال الصلاة. فالصلاة ليست، فقط، أقوالاً، بل هي أيضًا، إصغاءٌ، وفي الإصغاء الصامت، يكتشف المرء الدرب الذي يقوده إلى السعادة الحقّة.

وعلى سؤالٍ: هل لدى الإنجيل جوابٌ على قضايا بشر اليوم، أجاب: «**وحده الإنجيل يعطي جوابًا كاملاً، ينفذ إلى أعماق الأشياء**».

وسئل: كيف يسعنا اليوم أَن نشهد للمسيح؟ فأجاب: «**تشهدون له باتّباعه، ولذلك ينبغي التوغّل في معرفته، والتتلمذ على يده، واكتناه كلّ سرّه، باستمرارٍ وبأمانةٍ. وإِن لم نقم بذلك، تكون شهادتنا سطحيّةً ناقصةً. أَمّا إِن قمنا به، فهو يعلّمنا، بواسطة روحه، ما يتوجّب علينا فعله، وكيف ينبغي أَن نتصرّف، وبما نلتزم، وكيف نحاور عالم اليوم**».

وسئل عمّا يتعيّن على الشباب فعله للكنيسة، فأجاب: «**تعلّموا معرفة المسيح باستمرارٍ، ففيه تكمن كنوز الحكمة والعلم التي لا يُسبَر لها غورٌ. وبه يصبح الإِنسان، الذي ينوء تحت وقر حدوده، ورذائله، ووهنه، وخطيئته، «الإِنسان الجديد» حقًّا. يصبح «إِنسانًا من أَجل الآخرين»، ويصبح «مجد الله»**».

وكان قد سئل: «بمن تؤمن، وبمَ تؤمن، ومن الذي يستحقّ أن نبذل له حياتنا، ومن هو الإله الذي تعبده؟». وبما أَنّ هذه الأَسئلة كانت تستوجب إِجاباتٍ متأنيّةً، مستفيضةً، لا يتّسع لها إِطار لقاء الشبيبة، أَوجز الجواب بقوله: «**ليس الإِيمان مجرّد الاعتراف بوجود الله، بل هو التحدّث عنه، والتحدُّث إليه، هو استجابةٌ داخليّةٌ لكلمة الله، في إِطار فكر الكائن البشريّ وإِرادته**»، **مذكّرًا بقول الرسول بولس**: «**إِنّ الله تكلّم قديمًا بواسطة الأنبياء، وأَخيرًا كلّمنا من خلال ابنه، كلمته**».

ولا بدّ من التنويه إلى حَدَثٍ جرى، تلك الليلة، إذ ارتقى المنصّة شابٌّ، وأَعلن إِلحاده، وبيده ورقةٌ دُوِّنت عليها طائفةٌ من الأسئلة. ولكن، في زحمة الأَسئلة المتدفّقة من الشبّان الحاضرين، وبسبب امتداد اللقاء إلى ساعات الصباح الأولى، لم يتسنّ للبابا الردّ على الأَسئلة التي جاء بها ذلك الشابّ، ما أَرّق بال الحبر الأَعظم. وما إِن هو عاد إلى روما، حتّى كلّف الكاردينال «مارتي»، رئيس أَساقفة باريس، بالبحث عن الشابّ المذكور، وتقديم اعتذار البابا عن إِغفاله الإِجابة على أسئلته، في تلك الليلة. وقد تبيّن، بعد تحقيقٍ دقيقٍ، أَنّ ذلك الشابّ كان مؤمنًا حقًّا، ولكنّ كاهنًا سلّمه أسئلةً كي يسمع الحاضرون إِجابة الحبر الأَعظم عليها. ومع ذلك حرص الأَب الأَقدس على الإِجابة عليها من خلال حواره مع الكاتب الفرنسيّ «أندريه فروسّار».

ولا ريب أَنّ ما لقيه الحبر الأَعظم من تجاوب الشبّان معه، في تلك الليلة، قد أفعم قلبه حبورًا ورجاءً.

المحطّة البارزة الأُخرى في زيارة البابا الپاريسيّة، كانت الخطاب الذي ألقاه في منظّمة الأُونيسكو، ولا سيّما أَنّ الموضوع الذي دُعي إلى تناوله هو موضوع الثقافة الذي كان يتبوّأ من نفسه مكانةً عزيزةً. وفي ما يلي موجزٌ لأَهمّ جوانب نظرة يوحنّا بولس الثاني إلى الثقافة:

– الثقافة هي ما يميّز الحياة الإِنسانيّة، فبها يحيا الإِنسان حياةً إِنسانيّةً حقّةً. ومن ثمّ لا غنى له عنها.

– الإِنسان، بكلّيّته وبذاتيّته الروحيّة والمادّيّة، هو موضوع الثقافة الوحيد، وهو غايتها.

– تأكيد الإِنسان من أَجل ذاته، لا من أَجل أَيّة غايةٍ أُخرى؛ وينبغي حبّه لمجرّد كونه إِنسانًا، وبسبب كرامته الجوهريّة.

– ثمّة علاقةٌ أساسيّةٌ بين رسالة الإِنجيل، وإِنسانيّة الإِنسان.

– إِنّ إِيجاد ثقافةٍ يستلزم اعتبار الإِنسان بصفته قيمةً مستقلّةً.

– غاية الثقافة الأولى هي التربية، أَي جعل الإِنسان أَكثر إِنسانيّةً. وللأُسرة دورٌ أَساسيٌّ في التربية. الإِنسان يحقّق ذاته بفضل الحقيقة، ويصبح ذاته أكثر بنموّ معرفته للحقيقة. ومن ثمّ واجب تعميم التعليم. وأشار قداسته إلى مآتي الكنيسة في هذا المضمار، وهي التي طالما أنشأت العديد من المدارس والجامعات، في كلّ مكانٍ.

– عظمة شأن الثقافة الأخلاقيّة. فعندما تفقد ثقافةٌ ثقتها وإِيمانها في قيمة الإِنسان الأَساسيّة، تميل إلى الاهتمام بالامتلاك المادّيّ، وتُدخَل في أَزمة كيانٍ تهدّد مستقبل الإِنسان.

– عظمة الإِنسان تكمن في اقتسام كيانه وما يمتلكه مع الآخرين، ولا سيّما مع الصغار.

– الأُمّة توجد بالثقافة، ومن أَجل الثقافة. وللأُمّة، تاريخٌ أَكبر من تاريخ الفرد.

وبهذه المناسبة أَدلى يوحنّا بولس الثاني بشهادةٍ شخصيّةٍ، جاء فيها: «**أَنا ابن أُمّةٍ خاضت أَكبر خبرات التاريخ. وقد حكم عليها جيرانها بالموت مرّاتٍ عديدةً، ولكنّها ظلّت على قيد الحياة، وبقيت هي، هي. وحافظت على هويّتها، رغم ما فرضه عليها الأَجانب من صنوف التقسيم والاحتلال. وصانت سيادتها الوطنيّة، لا بالاعتماد على مواردها من القوّة المادّيّة، بل باعتمادها على ثقافتها فحسب، تلك الثقافة التي أَثبتت أَنّها أَمنع من كلّ القوى الأُخرى...**».

وقد ناشد قداسته مستمعيه قائلاً: «**اسهروا، بكلّ الوسائل المتيسّرة لكم، على سيادة كلّ أُمّةٍ الجوهريّة. صونوها مثل بؤبؤ عيونكم، من أجل الأُسرة البشريّة الكبرى. احموها. ولا تسمحوا بأن تصبح فريسة مصالح سياسيّةٍ أو اقتصاديّةٍ. لا تسمحوا بأن تصبح ضحيّة التوتاليتاريّة والإمبرياليّة، أو أَيّة سيطرةٍ لا ترى في الإنسان سوى موضع هيمنةٍ، لا صانع وجوده الإنسانيّ**».

وحذّر من هيمنة وسائل الاتّصال، واستلابها حرّيّة الآخرين، وحرّيّة الأُسرة في تربية البنين. وشدّد على دور الكنيسة في التربية. كما حذّر من المساعي، التي، تحت لباس العلم، تستهدف غاياتٍ بعيدةً، كلّ البعد، عن العلم، وتقتضي من العاملين في مجال العلم، التخلّي عن استقامتهم، وعن مبادئ الأَخلاق. فهؤلاء يهدّدون مستقبل العلم، ومستقبل البشريّة. فعوضًا عن أن يكون العلم موقوفًا على خدمة حياة البشر، يصبح وسيلةً للتدمير، ولصنع أَسلحة دمارٍ شاملٍ. ولذلك دعا إلى استنفار ضمائر العالم، كي تولي مبادئ الأَخلاق، الأَولويّة على العلم. ووجّه النداء التالي:

«**يا رجال العلم، وظّفوا كلّ سلطتكم الأَخلاقيّة من أجل إنقاذ البشريّة من الدمار النوويّ!...**

«**أجل، إنّ مستقبل الإنسان يعتمد على الثقافة! أَجل، إنّ سلام العالم يعتمد على أَولويّة الروح! أَجل، إنّ مستقبل الإنسانيّة السلميّ يعتمد على الحبّ!**».

أخيرًا تجرّأ أحد عظماء الكون أن يعلن أنّ قيادة العالم ليست من شأن الاقتصاد، بل إنّ الثقافة هي محرّك التاريخ الحقّ. وأكّد أنّ التحدّي الذي يواجه العالم، هو صون سيادة الشخص البشريّ، الروحيّة الجوهريّة، التي يُعبَّر عنها من خلال قدرة الفرد على الخلق والثقافة الوطنيّة، ومقاومة كلّ استعمار، تُحاول، من خلاله، قوّةٌ سياسيّةٌ، بقدراتها المادّيّة، إخضاع سيادة الثقافة الروحيّة لغاياتها المادّيّة، التي تفتقر غالبًا إلى البراءة والشرعيّة.

وقد اعترف أحد الأساقفة الحاضرين: «اليوم انتهت الشيوعيّة!».

وقد ختم يوحنّا بولس الثاني خطابه بقوله: «**لقد أُعطيتُ، اليوم، أن أُحقّق إحدى أكثر رغبات قلبي حرارةً**».

هذا الشعور بالرضى، لم يولد، فقط، من خطابه في الأُونيسكو، بل من الكثير ممّا قاله، وسمعه، وخبره في باريس.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الشوارع التي كان على البابا اجتيازها، في العاصمة الفرنسيّة، قد شهدت ازدحاماتٍ خانقةً. ولكن، للمرّة الأولى، لم يقابل السائقون، ولا الركّاب، هذه الازدحامات بالتذمّر والسباب، بل قابلوها بصبرٍ، وأحيانًا بفرحٍ، إذ أتاحت لهم أن يلمحوا، ولو على نحوٍ خاطفٍ، البابا البولونيّ، الذي فتن، بشخصيّته الفريدة، ملايين الفرنسيّين.

وقد اكتملت فرحة يوحنّا بولس الثاني، بحجّه، في اليوم الأخير من تلك الزيارة، إلى «ليزيو»، مسقط رأس القدّيسة تيريز الطفل يسوع، التي قال عنها إنّها «**بحياتها القصيرة والخفيّة، ساعدت الكنيسة على استعادة بساطة وطلاوة نداء «أبّا، أيّها الآب»، الذي تفجّر من نبع قلب يسوع المسيح نفسه**».

زيارة إلى البرازيل

في أواخر شهر حزيران ١٩٨٠، أجرى يوحنّا بولس الثاني تعييناتٍ جديدةً في إدارة الڤاتيكان والكنيسة. وبعد استقباله ممثّلي الكنائس الأرثوذكسيّة، بمناسبة عيد القدّيسيْن بُطرس وبولس في روما، استقلّ، في الثلاثين من حزيران، طائرةً نقلته،

بعد إحدى عشرة ساعة طيرانٍ، إلى برازيليا، عاصمة أكبر بلادٍ كاثوليكيّةٍ في العالم، حيث أَمضى اثني عشر يومًا، رسّخ، خلالها، لقب «الراعي الجامع».

كانت تلك الرحلة حافلةً بالإشكالات المستعصية. فمعظم المسؤولين الحكوميّين، حينذاك، كانوا كاثوليكيّين ديكتاتوريّين، ومعظم المسؤولين الكنسيّين كانوا معارضين لهم، مطالبين بإرساء نظامٍ ديمقراطيٍّ، ومندّدين بسجن المعارضين السياسيّين المنهجيّ، وبتفاوت مستويات العيش بين أَغنياء مترفين، وبؤساء يفتقرون إلى مقوّمات العيش الأَساسيّة. وكان العديد من الأَساقفة، قد تبنّوا، بلا تمييزٍ، «لاهوت التحرير»، المرادف لحرب الطبقات سبيلاً إلى التغيير الاجتماعيّ. وفيما كانت الحكومة تشكو من إِحجام رجال الكنيسة عن التنديد بالعنف اليساريّ، كان الأساقفة يأخذون على الحكّام تقاعسهم في الذود عن حياض الفقراء، وتخلّفهم عن عونهم، ومن جانبٍ آخر، كانوا ينتقدون طريقة نقل آرائهم وأَفعالهم إلى الڤاتيكان.

واحتدّ النقاش حول برنامج الزيارة، إِذ آثرت فئةٌ من البرازيليّين استهلالها من «فورتا ليزا»، أَي من منطقة البرازيل الأَشدّ فقرًا، حيث يفتتح البابا مؤتمرًا قربانيًّا وطنيًّا، في حين أَصرّت أَمانة سرّ الڤاتيكان على أَن تبدأ الزيارة من العاصمة برازيليا، مداراةً لمشاعر الحكومة. وهكذا، منذ البدء، خيّم الشكّ حول نجاح مهمّة البابا، في تلك الزيارة.

ومع ذلك، في غضون اثني عشر يومًا، أَفلح يوحنّا بولس الثاني، الذي كان قد تعلّم اللغة البرتغاليّة خلال الأَشهر القليلة التي سبقت رحلته، والتي استخدمها بيُسرٍ، في تحقيق شيءٍ من الوحدة بين الكنيسة والمجتمع المتخاصمَيْن.

وعلى امتداد هذه الزيارة شاهد البابا، شخصيًّا، زهاء عشرين مليون برازيليٍّ، وشاهده، على شاشات التليفزيون، عشرات ملايين سواهم. فقد كان شعار رحلته: الالتزام بالتوازن، مع الحرص على فحوى الإِنجيل.

في اليوم الأَوّل، قابل رئيس الجمهوريّة، وشارك في استقبالٍ رسميٍّ، ضمّ أَلفيْ مدعوٍّ من نخبة المجتمع البرازيليّ. ثمّ أَمضى نصف ساعةٍ في سجنٍ، حيث

تحادث مع سجناء. وبعدئذٍ، أقام قدّاسًا أمام نصف مليون شابٍّ. ومن المنصّة التي نصب عليها الهيكل، تعذّر عليه رؤية المدّ البشريّ الذي ترامى حتّى وادٍ بعيدٍ. وبين الذين حظوا بتناول جسد الربّ من يده، فتًى كفيفٌ، وشابّةٌ مقعدةٌ، وأبرصان، وراهبة پولونيةٌ، وطالبان، وعدّة عمّالٍ، وزوجان كانا يحتفلان بالذكرى الثامنة والستّين لزواجهما. ودوّت هتافاتٌ مردّدةً: «**يوحنّا الله، ملكنا**». هتافٌ ذاع في طول البلاد وعرضها، إلى أَن حوّره عمّال «ساو پاولو» إلى «**يوحنّا الله هو أَخونا**».

وفي تلك المدينة، ندّد قداسته بالهوّة العميقة بين الأغنياء، والأَكثريّة الساحقة الرازحة تحت وقر الفقر. غير أنّه أَوضح أَنّ: «**صراع الطبقات، الذي تدعو إليه بعض الإيديولوجيات المادّيّة، لا يسعها أَن توفّر السعادة لأَحدٍ، فالسعادة لا تتحقّق إلاّ من خلال العدل الاجتماعيّ المسيحيّ**». وقد تسلّم قداسته عريضةً من وفدٍ نقابيٍّ، موجّهةً إلى «**رفيقنا في العمل، يوحنّا بولس الثاني، عامل المسيح، وزميلنا**».

وفي «ساو پاولو»، زار أَحد الأكواخ الزريّة، المنتشرة على هامش المدينة والمسمّاة «فاڤيلاّ». ويذكر أَمين سرّه، الأسقف «دزيڤيش» (Dziwisz)، عن تلك الزيارة: «جيء به إلى كوخ، «فاڤيلاّ»، حيث كان يسود فقرٌ مريعٌ. وإِنّي لأذكر نظراته في تلك اللحظة. كان يجيل النظر من حوله، وهو شبه يائس، متسائلاً عمّا يسعه فعله، في الحال، للتخفيف من تلك الآلام. وبغتةً، انتزع خاتمه الحبريّ، وقدّمه لأولئك البؤساء. ذلك الخاتم كان قد أهداه إِيّاه البابا بولس السادس، يوم عيّنه كردينالاً».

وفي منطقة «تيريزينا»، أثناء الاحتفال بقدّاسٍ، وفيما كان الشعب يتلو صلاة «أبانا»، لمح البابا لافتة دُوّن عليها: «أَيّها الأَبُ الأَقدس، إِنّ الشعب جائع»، فأكمل تلك الصلاة بقوله: «**أَعطِ، اليوم، الخبز اليوميّ لهذا الشعب الذي يعاني الجوع**».

وقد دفعته مشاهدة المآسي إلى تعديل أكثر من نصف الخطاب، الذي كان قد أَعدّه في روما، والذي كان يزمع إلقاءه في جمعٍ من الأَساقفة.

وخاطب جمعًا من الفقراء بقوله: «**لا تقولوا، أبدًا، إنّ إرادة الله هي أن تظلّوا في وضع خنوعٍ ومرضٍ، وظروف عيشٍ غير صحّيّةٍ. فهذا الوضع مخالفٌ لكرامتكم الإنسانيّة. لا تقولوا أبدًا: «هذا ما يريده الله». أنا أعلم أنّ الأمر كلّه ليس متعلّقًا بكم. ولكن عليكم أن تكونوا في الصفوف الأولى، عندما يتعيّن النضال من أجل تحسين مصيركم، وأن تأخذوا بأيدي بعضكم بعضًا، لكي تبلغوا أيّامًا فضلى، غير منتظرين كلّ شيءٍ من الخارج**».

وفي مدينة «سان سلڤادور دو باهيا»، الواقعة في الشمال الشرقيّ الفقير من البلاد، ناشد جميع من ينعمون بنفوذٍ في المجتمع البرازيليّ، من أرباب مهنٍ حرَّةٍ، ورؤساء مؤسّساتٍ وسياسيّين، ومسؤولين عمّاليّين، ومعلّمين، أن «يبنوا» نظامًا اجتماعيًّا قائمًا على العدالة، ومجتمعًا يعترف بأولويّة الأخلاق على التكنولوجيا، وبأولويّة الأشخاص على الأشياء.

وفي قلب الغابة الأمازونيّة، قابل زعماء الهنود، سكّان البلاد الأَصليّين، الذين شكوا من ممارسة الحكّام سياسة الإبادة العرقيّة، وطالبهم قداسته بمعلوماتٍ إضافيّةٍ عن وضعهم، فقدّموها له. وكانت السلطات المحلّيّة قد طالبت الأهالي بتقديم بعض الرقصات، ولكنّهم رفضوا، معلّلين رفضهم بأنّهم ليسوا ممثّلين، وأنّ البابا لم يأتِ للتسلية. وقد خلّف موقفهم هذا في نفس الحبر الأعظم، أعمق أثرٍ وأطيبه.

وفي مدينة «ريسيفيه»، عانق يوحنّا بولس الثاني، بحرارةٍ وعلنًا، رئيس الأساقفة «هيلدر كامارا»، الذي تضاربت حوله الآراء. غير أنّه حرص على تذكير الأساقفة بمهمّتهم الجوهريّة. وفي المؤتمر المغلق الذي عُقد بعيدًا عن الأضواء، وغاب عنه الصحافيّون، استغرق الحبر الأعظم، مدى أربع ساعاتٍ في بسط رؤيته لطبيعة الكنيسة الخاصّة، بصفتها جماعةً دينيّةً، وتناول، أيضًا، مهمّتها الاجتماعيّة، ولكنّه أرادها كنيسةً ملتزمةً، غير متحزّبةٍ ولا منحازةٍ، كنيسةً تُعنَى بالفقراء، ولكنّها لا تنزلق إلى صراع الطبقات، كنيسةً مع الناس ومن أجلهم، ولكنّها تهتدي بعقيدةٍ وتوجّهٍ متماسكين. وابتغى إكليروسًا يحدوه همّ العدالة الاجتماعيّة، لا سياسيّين أو ثوّارًا إكليريكيّين. وبالإجمال أرادها كنيسة المجمع الڤاتيكانيّ الثاني بكلّ أبعادها.

وقد نعت بعضهم خطابه هذا بأنّه «محافظٌ»، وكان من الأصحّ وصفه بأنّه «إنجيليّ».

زيارة إلى ألمانيا الغربية: ١٥–١٩ تشرين الثاني ١٩٨٠

في صيف عام ١٩٨٠، استقبل يوحنّا بولس الثاني عددًا من المسؤولين السياسيّين العالميّين، منهم جيمي كارتر، والدالاي لاما، والملكة إليزابيت وزوجها، وزار عدّة رعايا إيطاليّةٍ. وفي منتصف شهر تشرين الثاني، قام بزيارةٍ إلى ألمانيا الغربيّة.

لا غرو أنّه كان للاّهوتيّين الألمانيّين تأثيرٌ بالغٌ على سير المجمع الڤاتيكانيّ الثاني. ولكن، في أعقاب ذلك المجمع، انقسم أولئك اللاهوتيّون، وانقلب بعض من كانوا مؤيّدين مندفعين خصومًا عنيدين. وفي هذه الأثناء كانت النزعة العلمانيّة تغزو الذهن الألمانيّ، والممارسات الدينيّة لدى المؤمنين تتراخى. غير أنّ الضرائب التي كانت الدولة تجبيها لحساب الكنيسة، مكّنت من إنشاء مؤسّساتٍ خيريّةٍ منيعةٍ، أغدقت المساعدات على كنائس العالم الثالث.

وكان كثيرون قد توقّعوا فشل زيارة البابا هذه، غير أنّ توقّعهم تبدّد مذ وطئت قدماه أرض ألمانيا، وأعلن أنّ غايته هي «تحيّة الأمّة الألمانيّة العظيمة»، وتحقيق أمنيّة المسيح في أن يكون جميع المسيحيّين واحدًا، في إشارةٍ إلى رغبته المسكونيّة في التقارب مع البروتستانتيّين. وناشد الأساقفة السعي إلى توثيق عرى وحدة المسيحيّين.

وكان بسطه لتعليم الكنيسة المتعلّق بالزواج والآداب الجنسيّة، إنسانيًّا، أكثر منه سلطويًّا، ولكنّه كان حازمًا في معارضته فكرة «التجربة» في الزواج. وقد امتدح، أمام ستّة آلاف أستاذٍ وطالبٍ، في مدينة كولونيا، المعرفة المسيحيّة، والاغتناء المتبادل بين الإيمان والعقل.

وقد علّق صحافيٌّ على تلك الزيارة بقوله: «إنّ حضور البابا قد أطاح بكلّ النظريّات البالية الجامدة، وغيّر صورة البابويّة والكنيسة الكاثوليكيّة». ومن المحقّق

أنّ الألمان رأوا في يوحنّا بولس الثاني إنسانًا شفّافًا، استطاع لعب دور «الراعي الجامع»، ومحو ذكريات تاريخيّةٍ أليمةٍ. غير أنّ كلّ ذلك لم يُفضِ إلى إخماد التوتّرات بين روما والمفكّرين الألمان. فهل سينجح خلفه الألمانيّ في تحقيق هذه المهمّة؟

هاجس حقوق الإنسان

عام ١٩٧٥، وُقّعت في هيلسنكي اتّفاقيّاتٌ دوليّةٌ تضمن حقوق الإنسان. وعام ١٩٨٠ عُقد، في مدريد، مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبّا، وكان جدول أعماله يتضمّن بحثًا عن مدى تطبيق هذه الاتّفاقيّات، فاغتنم قداسته هذه السانحة كي يندّد بتقاعس الاتّحاد السوڤييتيّ، والدول الدائرة في فلكه عن تطبيقها، مع أنّها كانت قد وقّعت على تلك الاتّفاقيّات. غير أنّ قضيّة حقوق الإنسان لم تعهد أيّ تقدّم في تلك البلدان، خلال السنوات الخمس المنصرمة، لا بل تراجعت تراجعًا جليًّا.

وقد وجّه يوحنّا بولس الثاني كتُبًا شخصيّةً، إلى رؤساء الدول الخمس والثلاثين التي كان عليها الاجتماع في مدريد، داعيًا إلى بحثٍ جدّيٍّ في وضع الحرّيّة الراهن، وعلى وجهٍ خاصٍّ الحرّيّة الدينيّة في أوروبّا. وقد طرح في رسالته أسئلةً صريحةً تمكّن الإجابةُ عليها من تقييم مدى التزام الدول الموقّعة على اتّفاقيّات هيلسنكي، بتطبيقها. وتضمّنت هذه الأسئلة:

– هل ينعم الأفراد بحرّيّة الإيمان، وإنشاء جماعات مؤمنين؟

– هل يسعهم الصلاة، فرديًّا وجماعيًّا، وهل أماكن العبادة متوفّرةٌ ومتاحةٌ لهم؟

– هل بوسع الوالدين تنشئة أبنائهم على الإيمان، وإيكالهم إلى مدارس دينيّةٍ بمنأًى عن العقاب؟

– هل يتاح للمرشدين والرعاة الروحيّين، تقديم عونٍ دينيٍّ، في مؤسّساتٍ عامّةٍ، كالمشافي والجيش، والسجون؟

– هل بوسع الرجال والنساء الإعلان عن معتقداتهم، بمنأى عن التعرّض لمضايقاتٍ اجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ، ومهنيّةٍ؟

– هل بوسع المؤسّسات الدينيّة اختيار مديريها، وإدارة شؤونها الخاصّة، وتعيين إكليروسها؟

– هل تتمتّع الرعاية الروحيّة بالحرّيّة؟

– هل يُسمح للجماعات الدينيّة بنشر إيمانها، قولاً وكتابةً؟ وهل يسعها طبع نشراتٍ أو تلقّيها، واستخدام وسائل الإعلام المختلفة؟

– هل يُسمح بتعاطي نشاطاتٍ خيريّةٍ في المجتمع؟

– هل يُسمح لهم بعقد علاقاتٍ من أبناء دينهم، ومع سلطاتٍ دينيّةٍ، في دولٍ أُخرى؟

بالطبع، لم يُجب أيّ بلدٍ شيوعيٍّ على المعايير الحسّيّة لاحترام الحرّيّة الدينيّة. ومن الواضح أنّ رسالة الحبر الأعظم كانت تحدّيًا لمعاهدة مالطا، وللإيديولوجيا التي تبرّرها، ومن المؤكّد أنّها أقلقت الكرملين، وضاعفت قلقَه الرسالةُ التي أصدرها البابا في مطلع عام ١٩٨١، بمناسبة يوم السلام العالميّ، والتي أكّد فيها أنّ «احترام الحرّيّات هو ضمانٌ للسلام»، داحضًا الأطروحة السوفييتيّة الزاعمة أنّ نشدان السلام ممكنٌ بمعزلٍ عن البحث في حقوق الإنسان، والقضايا الأخلاقيّة الأُخرى، التي تتضارب بشأنها الآراء.

نظرة يوحنّا بولس الثاني إلى الأسرة

في إطار السينودس الذي عُقد من أجل البحث في شؤون الأسرة، أبى قداسته اعتبار الزواج عقدًا، والأُسرة وسيلة راحةٍ لأعضائها. فبما أنّ البشر يولدون «من خلال الحبّ»، وبدافع الحبّ، وبما أنّ الحبّ هو دعوةٌ أساسيّةٌ وفطريّةٌ، لدى كلّ كائنٍ بشريٍّ، فهذه الدعوة هي أساس الزواج والأُسرة. ومن ثمّ فإنّ مقتضيات حياة الأُسرة المسيحيّة وواجباتها، التي كرّسها الفداء بتضحية المسيح، هي عربون تحريرٍ لا إخضاعٍ.

رسالة الأُسرة هي «صون الحبّ، واعتلانه، وتبليغه». وذلك يمثّل مساهمةً واقعيّةً في حبّ اللّه للبشريّة، وحبّ الربّ يسوع للكنيسة، ما يجعل من الأسرة المسيحيّة «كنيسةً منزليّة»، وشكلاً مميّزًا لعيش الشراكة التي تميّز تلاميذ المسيح، والتي تصبح أساسًا لتساوي الرجال والنساء في «الكرامة والمسؤوليّة». والبابا يرى أنّ تحرير المرأة يكمن في الاعتراف بقيمة دورها الأموميّ والأُسرويّ. أمّا الرجال فهم مدعوّون إلى عيش أبوّتهم انعكاسًا لأبوّة اللّه عينها. وقد دافع البابا بحزمٍ عن حقّ الوالدين، الذي لا يمكن التنازل عنه، في تقرير طريقة تربية أبنائهم.

وربّما خيّب البابا تمنّي البعض إحداث تغييرٍ في تعاليم الكنيسة المتعلّقة بالعلاقات الجنسيّة، والطلاق، وتحديد النسل.

أبوّة ورحمةٌ

في مطلع حبريّته كان يوحنّا بولس الثاني قد أصدر رسالته العامّة «فادي البشر» (Redemptor hominis)، حيث تناول كرامة الشخص البشريّ التي افتداها المسيح بتضحيته.

وقد استهلّ يوحنّا بولس الثاني هذه الرسالة بصرخةٍ مؤثّرةٍ: «**إنّ فادي البشر، يسوع المسيح، هو مركز الكون والتاريخ**». وكم من المفارقات في هذا القول: فيسوع كلّيّ القدرة، ولكنّه جاء في هشاشة ولدٍ، وفي معطوبيّة صليبٍ. وهو، ربّ الزمن، والأزليّ، جاءنا في حيّز حياةٍ ممعنةٍ في القصر. وهو، ربّ الكون اللامحدود، عند دخوله العالم، لم يجد مكانًا يستقبله سوى مغارةٍ حقيرةٍ، أصبحت مهد أجلّ حدثٍ في التاريخ كلّه.

ذلك هو سرّ اللّه، سرّ اللانهائيّ الذي يزري بقدرات العالم، ويزدري المظاهر، فهي من شيم الأقزام. إنّ بوسع الكبير أن يجعل من مغارةٍ مركز العالم، وهذا ما حقّقه يسوع.

جاء يسوع من أجل الإنسان، ومصير الإنسان يعبر من خلال سرّ التجسّد والفداء. ولا حياة للإنسان بمعزلٍ عن الحبّ. «**يبقى الإنسان لذاته لغزًا، وتفقد**

حياته معناها، إن لم يعتلن له الحبّ، وإن هو لم يلتقِه، وإن لم يختبره، ويمتلكه، ويشارك به مشاركةً قويّةً».

وواجب الكنيسة هو نشر معرفة يسوع وحبّه في العالم، من أجل تبديد القلق المتفاقم.

وقد قاده هذا التأمّل إلى تأمّلٍ في الله الآب، الذي أرسل ابنه لفداء العالم، وإلى تأمّلٍ في الروح القدس الذي تابع عمل خلاص المسيح القائم من الموت. وهذا ما حداه إلى إصدار رسالتين عامّتين أُخرَيين، تكملان تأمّله في الله الثالوث، هما «رحمة الله» (Deus in misericordia) التي صدرت في ١٩٨٠/١١/٣٠، ثمّ: «الربّ وخالق الحياة» (Dominus et vivicantem)، عام ١٩٨٦.

رسالته «رحمة الله»، هي من أعمق رسائله، لاهوتيًّا، وتعكس بُعدَين شخصيّين من حياته الروحيّة. فقد كانت رعيّته في كراكوڤيا، مركز تكريم «الرحمة الإلهيّة»، الذي أطلقته الراهبة الپولونيّة «فوستينا كوڤالسكا (Faustina Kowalska) التي توفّيت عام ١٩٣٨ عن ثلاثٍ وثلاثين سنةً. وكانت قد عملت على تحديد عيدٍ للرحمة الإلهيّة ،يُحتَفل به في الأحد الأوّل الذي يلي أحد القيامة؛ وابتكرت مسبحة صلواتٍ تلتمس رحمة الله بالكنيسة وبالعالم، وحدّدت، أيضًا، ساعةً مقدّسةً تخلّد ذكرى موت المسيح، يقام فيها طقس درب الصليب، ويُحتفَل فيها بالإفخارستيّا. وكان رمز هذه العبادة صورة «يسوع الرحيم»، مرتديًا ثيابًا بيضاءَ، وينبعث من صدره شعاعا نورٍ، وفقًا للرؤيا التي كُرّمت بها الأخت فوستينا، يوم ٢٢ شباط ١٩٣١.

وكان البابا، في أثناء رئاسته لأسقفيّة كراكوڤيا، قد دافع عن استقامة الأُخت فوستينا اللاهوتيّة، عندما شكّكت بها روما، من جرّاء ترجمةٍ خاطئةٍ لنصّ مذكّراتها، إلى اللغة الإيطاليّة. وكان قد دافع عن قضيّة تطويبها. ولا ريب أنّ الأخت فوستينا كانت أحد مصادر إلهام الرسالة البابويّة «رحمة الله». أمّا مصدر إلهامه الآخر، فكان استغراقه في تأمّل معنى الأبوّة التي خبرها في علاقته بوالده، وبالكردينال «ساپييها» الذي كان له بمثابة أبٍ روحيٍّ. وكان قد شرع

يرسم الخطوط الأولى لهذه التأمّلات، في محاولاته الشعريّة: «خواطر في الأُبوة» حيث أقرّ أنّ «الأُبوّة هي أساس كلّ موجودٍ».

وقد وجد تجسيدًا لكلّ تأمّلاته في مثل الابن الضالّ والأب الرحيم، الذي ورد في إنجيل لوقا (١٥: ١١–٣٢)، حيث رأى، في الابن الضالّ، تجسيدًا لكائنٍ يحمل مأساة الجنس البشريّ، المتمثّلة في «وعي علاقةٍ بنويّةٍ أُفسدت»، وكرامةٍ بشريّةٍ فُقدت. ولكنّ الأب الشهم، بوفائه لأبوّته، وبتخطّيه قواعد العدل الضنكة، أعاد لابنه المتمرّد وعيه لحقيقة ذاته، وهو كرامة بنوّته المفقودة. فالرحمة الحقّة لا تُضعِف ولا تُذِلّ متلقّيها، بل تثبّته في كرامته الإنسانيّة.

واستخلص يوحنّا بولس الثاني، من هذه التأمّلات، أنّ وسيلة التغلّب على حَرَج المجتمع الحديث، تكمن في بناء مجتمعاتٍ ينفتح فيها العدل على الحبّ، وعلى الرحمة، محقّقًا التطلّعات الإنسانيّة تحقيقًا صحيحًا.

وربّما لم يُعر الإعلام هذه الرسالة مثلَ الاهتمام الذي أحاطت به رسائله البابويّة الأُخرى. غير أنّ «رحمة الله» بين كلّ رسائله، هي التي تعبّر أوضح تعبيرٍ عن روح يوحنّا بولس الثاني الراعويّ، وعن خبرته الإنسانيّة والروحيّة.

رحلةٌ آسيويّةٌ بين ١٦ و٢٧ شباط ١٩٨١

بعد أن أعلن، في ١٩٨٠/١٢/٣٠، القدّيسَيْن كيرلّس وميتوديُس والقدّيس بينيدكتُس «شفعاء أوروبّا»، واستقبل، في ١٩٨١/١/١٥، «ليش ڤاليسّا» ووفدًا من رفاقه من نقابة التضامن البولونيّة، باشر رحلةً آسيويّةً امتدّت من ١٦ حتّى ٢٧ شباط ١٩٨١. أثبت، من خلالها، مرّةً أُخرى، استحقاق لقب «الراعي الجامع» أو «الراعي العالميّ». وقد قادته تلك الرحلة إلى الباكستان، والفيليپّين، وغوام (Guam)، واليابان، وآلاسكا.

باستثناء الفيليپّين، حيث الكاثوليكيّة هي الطاغية، تمثّل آسيا الشرقيّة أفدح فشلٍ تبشيريٍّ للكنيسة، في ألفيّتين من تاريخها، إذ لم تتخطّ نسبة المسيحيّين من كلّ الطوائف واحدًا بالمئة من مجموع سكّان تلك المنطقة من العالم. ورغم

تصاعد نسبة الولادات الصاروخيّ في اليابان، بعد الحرب، ظلّ عدد الكاثوليكيّين هناك، عام ١٩٨١، مثلما كان عام ١٩٤٥.

تلك الرحلة الرسوليّة، التي كان محورها تطويب المرسل الفيليبّينيّ «لورينزو رويز» (Lorenzo Ruiz)، استهدفت إظهار احترام البابا يوحنّا بولس الثاني لثقافات الشرق الأقصى العريقة، وتثبيت إخوته البعيدين عنه جغرافيًّا، عملاً بوصيّة يسوع لبطرس. واستعدادًا لهذه الرحلة، كان قداسته قد تلقّى، على مدى أربعة أسابيع، وبمعدّل ساعتين يوميًّا، دروسًا مكثّفةً في اللغتين اليابانيّة، و«التاغالوغيّة»، وهي اللغة المحكيّة في الفيليبّين.

انطلقت به الطائرة من روما يوم ١٦ شباط، وكان لها محطّةٌ فنّيّةٌ في كراشي للتزوّد بالوقود، دامت أربع ساعات، اغتنمها الحبر الأعظم، كي يهدّئ روع المجاهدين الإسلاميّين، الذين لم يرُق لهم أن يطأ ذلك «الكافر» أرض وطنهم.

بعد أن استقبله، في المطار، رئيس البلاد «ضياء الحقّ»، اخترق البابا أحياءً مختلفةً مزدحمةً بعرباتٍ تجرّها حميرٌ، ورجالٍ بلباسٍ أبيض يمتطون درّاجات، وصولاً إلى ملعبٍ، حيث احتفل بقدّاسٍ حضره نحو مئة ألف كاثوليكيٍّ، ينتمون إلى أفقر طبقات المجتمع، ويموجون حماسًا. وقبل مغادرته الباكستان شكر للرئيس «ضياء الحقّ» كرم ضيافته، مشيرًا إلى أنّ حسن الوفادة هو من مناقب النبيّ إبراهيم، الذي يكرّمه أبناء كلّ الديانات السماويّة.

أمّا عن زيارته إلى «الفيليبّين »، فكان رئيس أساقفة مانيلاّ «جيم سنّ»، قد اقترح على منظّمي الرحلة البابويّة، ثلاثة خطوط سير، اختار الحبر الأعظم أكثرها إرهاقًا، فعلّق رئيس الأساقفة، مازحًا: «أرجو أن يستطيع الصحافيّون اللحاق برائد السباق».

غير أنّ هاجسًا آخر، أكثر جدّيّةً، كان يؤرّق رئيس الأساقفة، إذ إنّ رئيس البلاد الطاغي، الفاسد، «فيردينان ماركوس»، كان طامعًا في استغلال تلك الزيارة لمصلحته السياسيّة. وكانت زوجته «إيميلدا» قد حاولت نشر شائعةٍ كاذبةٍ، تدّعي أنّها هي صاحبة مبادرة تلك الزيارة، ما اضطرّ رئيس الأساقفة إلى تهديدها بإذاعة

بيانٍ يُتلى في كل الكنائس، مؤكّدًا أن زيارة البابا إنّما هي تلبيةٌ لدعوة الأساقفة، وأنّ كلّ ما تشيعه أسرة ماركوس بهذا الشأن، هو محض كذبٍ.

وكان ماركوس، قُبَيْل مجيء البابا، قد ألغى حالة الطوارئ المقرّرة منذ عام ١٩٧٢، ولكنّ رئيس الأساقفة لم يُخدع بهذه المهزلة، فأعلن: «رغم كلّ محاولات ماركوس القانونيّة، الجاهدة في إضفاء مسحةٍ شرعيّةٍ ديمقراطيّةٍ على نظامه، فإنّ سلطته هي سلطةٌ غير ديمقراطيّة». وبالإجمال كان لكلّ محاولات الأسرة الحاكمة وتظاهراتها، في هذا المضمار، انعكاسٌ سيِّئٌ عليها، جعل منها مهزأةً للشعب.

ومن جانبه، أسهم يوحنّا بولس الثاني، في تفشيل محاولات السيّدة ماركوس، سرقة الأضواء. فكثيرًا ما تجاهل وجودها، وتعمّد الإشادة بتأثير رئيس الأساقفة وعموم الأساقفة الفيليپّينيّين، ممتدحًا سلوكهم الديمقراطيّ المتواضع. وفي أحد الاحتفالات، ندّد، علنًا وصراحةً، بقانون الأحكام العرفيّة، مؤكّدًا أنّ كلّ خلافٍ مزعومٍ بين الأمن الوطنيّ والحرّيّات العامّة، ينبغي أن يُحلّ على أساس وجود الدولة لخدمة البشر وحقوقهم، وأنّ كلّ دولةٍ تنتهك، منهجيًّا، هذه الحقوق، لا تعمل للخير العامّ. وكان تضارب موقفي الحبر الأعظم والرئيس ماركوس، موضع تعليقات الصحافة.

غير أنّ اهتمام البابا الرئيس انصبّ على دعم كنيسة الفيليپّين، فهي مركز أقوى حضورٍ كاثوليكيٍّ في آسيا الشرقيّة. ولم يختلف خطابه إلى الأساقفة عن خطابه لأساقفة البرازيل، فأكّد واجب الذود عن الحرّيّة الدينيّة، وسائر الحرّيّات الفرديّة، ودعم العدالة الاجتماعيّة، ولكن بمنأًى عن استبدال رسالة الإنجيل بطبق عدسٍ سياسيٍّ، موضحًا أنّ اهتمام الأساقفة والكهنة بتنشئة علمانيّين قادرين على ممارسة تأثيرٍ يهتدي بتعاليم الكنيسة الاجتماعيّة، يمثّل خير مساهمةٍ في سعادة المجتمع. واتّضح أنّ الحبر الأعظم لم يشدّد، في أيّةٍ من رحلاته السابقة، على دور العلمانيّين في نشر الإيمان، مثلما شدّد في زيارته إلى الفيليپّين.

وكانت ذروة تلك الزيارة، الاحتفال بتطويب المرسل العلمانيّ الفيليپّينيّ

«لورينزو رويز» ورفاقه، الذين استشهدوا في القرن السابع عشر، بمدينة ناكازاكي اليابانيّة. وكان الكردينال «سنّ»، رئيس أساقفة مانيلاّ، هو الذي التمس من البابا، بإلحاحٍ، أن يتمّ الاحتفال بالتطويب في الفيليپّين، ولبّى الحبر الأعظم رغبته، فكانت تلك سابقةً، إذ كان من المألوف أن تجري احتفالات التطويب في المقرّ البابويّ. وقد تقاطر إلى حديقة «لونيتا»، حيث أُقيم الاحتفال، مليون فيليپّينيٍّ، والتفّ حول البابا أساقفة أوستراليا، وبنغلاديش، وهونغ كونغ، والهند، وإندونيسيا، واليابان، وكوريا الجنوبيّة، وماكّاو، وسريلنكا، وتايوان. وقد كرّر الحبر الأعظم، أمام تلك اللجّة البشريّة، وفي أكبر احتفال كاثوليكيٍّ شهدته البلاد، كلمات الشهيد الذي كان يحتفل بتطويبه: «**حتّى لو كان لهذا الجسد ألف حياةٍ، لتركتها جميعها تهلك، قبل أن تكرهوني على إدارة ظهري للمسيح!**». وألمح البابا إلى أنّ ذلك الشهيد كان ابن رجلٍ صينيٍّ، وامرأةٍ «تاغاليّة»، فيليپّينيّةٍ، وكان، هو نفسه زوجًا، وربّ أسرةٍ؛ وهو «يذكّرنا بأنّ حياة كلٍّ منّا، ووجوده كلّه، ينبغي أن يكون بتصرّف المسيح». وكان ذلك التطويب دعوةً إلى الفيليپّينيّين، كي يستمدّوا من مثال شهدائهم «ثقةً عميقةً، ورجاءً جديدًا»، وأن ينقلوا إلى آسيا حبّ من هو نور العالم، يسوع المسيح.

وبالإجمال كانت أيّام زيارته إلى الفيليپّين، مزدحمةً بمواعيد تستغرق تلبيتها ستّ عشرة ساعةً متواصلةً، كلّ يومٍ؛ وقد قابل، في أثنائها، جميع الفئات التي كان راغبًا في مقابلتها: أُسرًا، وكهنةً، وإكليريكيّين، وراهباتٍ، وطلاّبًا، وبُرْصًا. وقد زار بعض قرى الصفيح، ومخيّمات لاجئين يعانون أوضاعًا رثّةً مريعةً. وكانت الحكومة تنتزع الشرطان الشائكة المحيطة بها، دقائق قبل وصول البابا إليها. واتّفق، في إحدى المحطّات، أن كُلّفت فتاةٌ بتقديم باقة زهورٍ للزائر الجليل، ولكنّها عندما مدّ يده لتسلّمها، أعادتها الفتاة، وأخبأتها وراء ظهرها، فكاد يغمى على الراهبات اللواتي كلّفنها بهذه المهمّة، فيما أغرق البابا بالضحك.

في **٢١** شباط، زار محطّة الإذاعة الكاثوليكيّة «ڤيريتاس» (الحقيقة)، ومنها وجّه رسالةً إلى عموم آسيا، قال فيها: «**لا يسع المسيح ولا كنيسته، تجاهل أيّ شعبٍ، أو أمّةٍ، أو ثقافةٍ. فكلام المسيح يخصّ الجميع، ويخاطب الجميع...**

والكنيسة ترغب في أن تكون، في آسيا، مثلما هي في كلّ موقعٍ من العالم، علامة حبّ الربّ الرحيم، أبينا المشترك».

وبعد أن أمضى ليلةً في «غوام» (Guam)، التابعة للولايات المتّحدة، حطّ يوم **٢٣** شباط، في اليابان حيث كانت اضطهاداتٌ داميةٌ في القرن السابع عشر، قد دمّرت أُسُس الكاثوليكيّة اليابانيّة. وكانت زيارة يوحنّا بولس الثاني، تلك، إلى اليابان محاولةً متواضعةً لاستئناف حوارٍ انقطع منذ زمنٍ طويلٍ.

تقديرًا للضيف الرفيع، قام الإمبراطور هيروهيتو، بمبادرةٍ غير مألوفةٍ، عندما استقبل الحبر الأعظم عند باب القصر الإمبراطوريّ. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يستقبل فيها «الإله الشمس» زعيم دينٍ آخر.

وبعد ظهر ذلك اليوم، التقى الحبر الأعظم ألوف الفتيان – ولم يكونوا جميعهم مسيحيّين – الذين، بعد أن غنّوا، ورقصوا للزائر الرفيع، استمعوا إلى حديثٍ طويلٍ أجراه معهم، وطرحوا عليه مختلف أنواع الأسئلة، في ما يتعلّق بالإيمان، وبنظرته إلى العالم المعاصر. وكان الحدث الأشدّ تأثيرًا، في ذلك اليوم، زيارة الحبر الأعظم للأخ «زينو»، وهو مرسلٌ فرنسيسكانيٌّ، پولونيّ الأصل، كان قد واكب القدّيس «مكسيميليان كولبي» إلى اليابان، في ثلاثينيّات القرن العشرين، ثمّ أصبح، بعد الحرب، الذائد عن حياض البائسين والأيتام، دائبًا على ذرع شوارع طوكيو المريعة، لامًّا من الأرصفة النفايات البشريّة، وعاكفًا على العناية بها.

يوم التقاه يوحنّا بولس الثاني، كان قد تخطّى التسعين من سني عمره، واعتلّ، وعجز، وكاد يفقد السمع. وعندما انحنى البابا فوق سريره، استوضحه الأخ العجوز هل هو البابا الپولونيّ. وفجّر جواب البابا الإيجابيّ دموعًا غسلت محيّا الأخ زينو النحيل. وامتدّت عدوى الدموع إلى جميع الحاضرين لحظة عانق البابا الأخ الفرنسيسكانيّ الشيخ وداعب رأسه. وكانت الصحف ما انفكّت، منذ سنواتٍ، تردّد أنّ الأخ «زينو»، الذي اكتسب، بقداسته، احترامًا منقطع النظير، لم ينعم بمثله أيّ إنسانٍ غربيٍّ في اليابان، «لم يكن لديه وقتٌ للموت».

وها هو، يعد أن اكتحلت عيناه برؤية بابا پولونيٍّ، غدا بوسعه الرحيل عن هذه الدنيا، قرير العين، راضي النفس.

يوم **٢٥** شباط، شخص قداسته إلى نصب السلام التذكاريّ في هيروشيما، حيث تحدّث بلغاتٍ عديدةٍ، انطلاقًا من مقولة: «**إنّ استذكار الماضي هو التأهّب للمستقبل**». وأكّد أنّه «ليس محكومًا على البشريّة أن تدمّر ذاتها بذاتها». وأنهى خطابه بصلاةٍ تلاها باللغة اليابانيّة، ملتمسًا من «**خالق الطبيعة والإنسان، والحقيقة والجمال، أن يسكب في قلب البشر أجمعين، حكمة السلام، وقوّة العدل، وفرح الأُخوّة**».

وبعد أن تحدّث إلى علماء، وإلى طلاّب جامعة الأُمم المتّحدة، قصد «ناكازاكي»، مركز الكاثوليكيّة اليابانيّة، حيث استُقبل، تحت ثلجٍ كثيفٍ، وريحٍ جليديّةٍ. وهناك زار «تلّة الشهداء»، حيث صُلبَ «لورينزو رويز» ورفاقه. كما زار البيت الذي سكنه القدّيس «مكسيميليان كولبي»، الذي أطلق عليه الأساقفة المحلّيّون لقب «ماكس المجنون»، بسبب اندفاعه في محاولة ردّ اليابان إلى المسيحيّة. وفي القدّاس الذي أقامه في كاتدرائيّة «ناكازاكي»، رسم خمسة عشر كاهنًا. وفي اليوم التالي، في أثناء الذبيحة الإلهيّة، التي احتفل بها في ملعبٍ، عمّد خمسةً وسبعين رجلاً وامرأةً، تحت الثلج المتساقط.

وفي طريق عودته إلى روما، توقّفت طائرته في مطار «أنكوريج» في ألاسكا، وأقام قدّاسًا في حديقةٍ احتشد فيها خمسون ألف شخصٍ، وهو عددٌ غفيرٌ في مدينة قليلة السكّان. وكان رجلٌ أميركيٌّ من أصل پولونيٍّ قد اجتاز ألف كيلومترٍ، على متن زلاّجةٍ للمشاركة في قدّاس البابا الپولونيّ. وعندما حان موعد رحيل الحبر الأعظم، نقلته زلاّجةٌ، مسافة ثلاثين مترًا، إلى الطائرة. وقد حرص على شكر سائقها والكلاب التسعة الذين كانوا يجرّونها.

وما كادت الطائرة تغادر ألاسكا، حتّى دخلت مجالاً حيث تغيير التوقيت يُكسب المسافر نهارًا كاملاً، فقال البابا لمرافقيه وللصحافيّين المرهقين، في شيءٍ من المزاح والاستفزاز: «**والآن علينا أن نقرّر ما سنفعله بهذا النهار الإضافيّ الذي مُنحناه!**».

وعاد لينغمس في حمّى نشاطٍ لا عهد له بهدنةٍ أو بهوادةٍ، مستقريًا أحوال العالم، ومتبنّيًا هموم الكنيسة في كلّ مكانٍ، فضلاً عن هموم وطنه الأُمّ.

محاولة اغتيال: ١٩٨١/٥/١٣

يبدو أنّ نور البراءة يثير غرائز الشرّ، مثلما أثار تألّق براءة هابيل حنق قايين، فشُحذ سلاح القتل في الظلام.

وسبق أن أوردنا قول هتلر: «عندما أسمع من يتكلّم عن الثقافة، أُشهر مسدّسي!» وقد أسهب يوحنّا بولس الثاني في الإشادة بالثقافة، فأشهر الطغاة مسدّساتهم.

وكان ذلك اليوم الأربعاء ١٩٨١/٥/١٣. في مثل ذلك اليوم من كلّ أسبوع، يستقبل الحبر الأعظم، في ساحة القدّيس بطرس، حشود الحجّاج، ويباركهم، ويخاطبهم. ووفقًا للطقوس المتّبعة تدور به السيّارة المكشوفة دورتين في الساحة، كي يتسنّى لأكبر عددٍ من الحاضرين مشاهدته، وتلقّي بركته.

ذلك اليوم حفل بالأحداث، فكان البرلمان الإيطاليّ عازمًا على إقرار قانون تشريع الإجهاض، والحزب الشيوعيّ أعدّ لتظاهرةٍ صاخبةٍ في تلك الليلة، دعمًا لهذا القرار. والبابا عزم، من جانبه، على إعلان تأسيس المعهد الحبريّ للدراسات المتعلّقة بالزواج والأسرة في جامعة اللاطران، والمجلس الحبريّ للأسرة لدى الكرسيّ الرسوليّ، في ذلك اليوم عينه. وكان قد استقبل على مائدة الغداء البروفسّور الفرنسيّ «جيروم لوجون» (Jérôme Lejeune)، الأستاذ في علم الجينات، والمدافع عن الحياة الإنسانيّة.

وفي ذلك اليوم، أيضًا، اندسّ بين الحجّاج إرهابيٌّ تركيٌّ، فارٌّ من سجنه في إستنبول، حيث كان يؤدّي عقاب جريمة قتلٍ، هو «محمّد علي أغشا»، الذي كان قد اغتال، في الأوّل من شباط ١٩٧٩، رئيس تحرير جريدة «ملّييت» التركيّة، واعترف بجريمته. ولكنّه، في أثناء محاكمته، أنكر كلّ اعترافاته

السابقة؛ ثمّ، فرّ، يوم ١٩٧٩/١١/٢٣، من سجنه المراقب مراقبةً شديدةً، بمساعدة متواطئين زوّدوه بزيّ جنديٍّ تركيٍّ. وغداة فراره، أنفذ إلى صحيفة «ملّييت» عينها، رسالةً يؤكّد، فيها، عزمه على قتل البابا «الكافر، أمير الصليبيّين الجديد»، الموفد من قبل الإمبرياليّين لمنع تركيّا من أن تصبح دولةً إسلاميّةً كبرى؛ وكان مقرّرًا أن يزور يوحنّا بولس الثاني إستنبول، لمقابلة البطريرك الأرثوذكسيّ.

كان عدد الحجّاج، يومئذٍ، نحو خمسةٍ وعشرين ألفًا، وقد اندسّ المجرم، في الصفّ الأوّل، على مقربةٍ من الحاجز الذي يفصل الجمهور عن الممرّ الذي ستجتازه سيّارة البابا، ويده قابضةٌ على مسدّس «برونينغ»، عيار ٩ مم، مودعٍ في حقيبةٍ صغيرةٍ تتدلّى من كتفه. وعلى بعد نحو عشرين مترًا، خلفه، وقف شريكٌ له، مزوّدٌ بمسدّس «بيريتا» عيار ٧.٦٥. وكان المجرمان قد تفقّدا المكان، عن كثبٍ، في اليومين السابقين، وخطّطا، بدقّةٍ لجريمتهما، وتوازعا المهمّات. وقد أودعا السيّارة التي جاءا بها، في شارعٍ قريبٍ من الڤاتيكان، بحيث يتمكّنان من الفرار بيُسرٍ، بعد تنفيذ جريمتهما.

في الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم المشمس، انطلقت سيّارة البابا من يسار الساحة، فتعالت الهتافات الجذلى، ولوّحت الأيادي بالمناديل والقبّعات، فيما قامت السيّارة بدورتها الأولى، بين صفوف الحجّاج، وسط هتافاتٍ بشتّى لغات العالم، وصيحات الفرح والحماس، والأناشيد الدينيّة، وفي جوٍّ عائليٍّ عابقٍ بالفرح. وبدا البابا وكأنّه يودّ مصافحة الحاضرين فردًا فردًا، فراح يجيل أبصاره على تلك الوجوه المشرئبّة صوبه، ويبارك يمنةً ويسارًا، وينحني للمس الأيدي الممتدّة نحوه، ويتقبّل الأطفال الذين تقدّمهم له أمّهاتهم، فيضمّهم إلى صدره، ويقبّلهم برقّةٍ، ويباركهم، ويعيدهم لذويهم. ولم يجُل ببال أحدٍ من الحرس ورجال الأمن، أنّ بين تلك اللجّة البشريّة الضاجّة ابتهاجًا بحضور الحبر المسربل بالبياض، والذي يشعّ فرحًا ورقّةً، وهو يطوف بهم ويباركهم، قد اندسّ قاتلان يتأهّبان لإطلاق النار.

وفي الساعة ١٧:٥، رفع «أغشا» مسدّسه بهدوءٍ، وأطلق ثلاث رصاصاتٍ

على البابا، الذي كان يمرّ على مسافة ثلاثة أمتارٍ منه، وأتبعها شريكه بطلقةٍ واحدةٍ. وفجأةً ملأت الجوّ، رفوف الحمائم المذعورة، وحلّ الوجوم والذهول محلّ البهجة والاندفاع، اللذين كانت تضجّ بهما الساحة.

وهوى الحبر الأعظم بين ذراعي أمين سرّه المرافق له، والذي استفسره:

– أين؟

– في البطن.

– هل تتألّم؟

– أجل!

واندفع الحرس ورجال الأمن إلى السيّارة البابويّة، التي عادت القهقهرى صوب سيّارة إسعافٍ رابضةٍ في إحدى زوايا الساحة، تحسّبًا لأيّ مكروهٍ قد يصيب أحد الحجّاج. ولكن سرعان ما اتّضح أنّ تلك السيّارة تفتقر إلى وسائل الإسعاف التي كانت تقتضيها إصابة البابا، فاستُعيض عنها بسيّارةٍ أُخرى، مجهّزةٍ بمعدّات تنفّسٍ وإنعاشٍ. ومن غرائب الصدف، بل من عجائب مبادرات العناية الإلهيّة، أنّ هذه السيّارة كان قد أهداه إيّاها فريقٌ من أطبّاء روما، مساء اليوم السابق، في أثناء تفقّده جناحًا طبّيًّا في الڤاتيكان، وكان هو أوّل مستخدميها.

وشوهد الحبر الأعظم، وهو يُنقَل إليها، وقد امتقع وشحب وجهه الذي كان، قبل لحظاتٍ، باشًّا، زهريّ اللون، وارتسمت على شفتيه بسمةٌ حزينةٌ. منظره هذا ذكّر الكثيرين بمشهد يسوع وهو يُنزَل عن الصليب، وقد استسلم كلّيّةً، بين يدي حامليه.

وكان قد سبق ليوحنّا بولس الثاني أن أوصى، في حال إصابته بمكروهٍ، أن يعالج في مستشفى «جيميلّي»، الذي يتّسع لألفٍ وثماني مئة سريرٍ، أُسوةً بعامّة الناس. ومع أنّ ذلك المستشفى يبعد ستّة كيلومتراتٍ عن الڤاتيكان، إلاّ أنّ الوصول إليه، في ازدحام السير العارم في روما، ولا سيّما في مثل ذلك الموعد الذي تُغلق فيه المكاتب، يقتضي لا أقلّ من نصف ساعةٍ. ولكن من المدهش

أنّ ذلك المشوار، يومذاك، لم يستغرق سوى ثماني دقائق. وكان لهذه السرعة الاستثنائيّة فضلٌ في الحفاظ على حياة الحبر الأعظم، إذ حالت دون استمرار نزف دمه الكثيف. وفي هذه الأثناء، كان البابا مغمض العينين، تعبّر تشنّجات وجهه عن آلامه الحادّة، وكان يردّد، بين فينةٍ وأُخرى: «يا يسوع، يا مريم أمّي، يا مريم أمّي!». وقد أفاد، لاحقًا، أنّه احتفظ بوعيه حتّى انتهى إلى المستشفى، وهناك فقد الوعي، غير أنّه، منذ اللحظة الأولى، سكنته ثقةٌ بأنّه سينجو.

في حومة الفوضى التي سادت ساحة القدّيس بطرس، اتّصل أحدهم بمستشفى جيميلّي» طالبًا الاستعداد لاستقبال البابا الذي «أُصيب»، غير مفصحٍ عن طبيعة الإصابة التي تتّسع لشتّى التأويلات. وبما أنّ الإصابة بطلقٍ ناريٍّ لم تراود أحدًا في المستشفى، أعدّوا الطبقة العاشرة حيث تُجرى الفحوص الطبّيّة. وعندما اتّضح نوع الإصابة، اضطرّوا إلى الهبوط به إلى مركز الجراحة في الطبقة الثامنة.

أحد كبار جرّاحي المستشفى، الدكتور «فرنشيسكو كروشيتّي»، الذي كان في منزله، يتمتّع بعطلته، دفعه حدْسٌ خفيٌّ صوب المستشفى، وفيما كان يقود سيّارته مصغيًا إلى المذياع، صعقه نبأ إصابة الحبر الأعظم بطلقٍ ناريٍّ، فانطلق بكلّ ما تيسّر له من سرعةٍ، عبر شوارع روما المزدحمة، غير متحرِّجٍ من مخالفة قواعد السير. وكاد أحد رجال شرط السير يطلق عليه النار، إثر رفضه الامتثال لأمره بالتوقّف. ولكن لمّا أدرك سبب تصرّفه، راح يفتح له الطريق، بدرّاجته الناريّة، مطلقًا صفّارات إنذاره بلا توقّفٍ. وكان أحد موظّفي المستشفى قد استنزل كلّ المصاعد، لكيلا يهدر الجرّاح ثانيةً واحدةً قد تكون حاسمةً في إنقاذ حياة البابا. وفيما كان الجرّاح يغسل يديه، كان معاونوه يلبسونه ثياب الجراحة، ويدخلون في قدميه أحذية الوقاية، وكان أطبّاء التخدير يخدّرون المصاب، وفي عجلتهم كسروا إحدى أضراسه.

ذُهل الجرّاح عندما شقّ بطن البابا، وتبيّن كمّيّة الدماء التي ملأت كلّ مكان فيه، إذ كان قد فقد ثلاثة أرباع دمه. وكان هذا النزف الكثيف كفيلاً بالقضاء على حياته. زمرة دم الحبر الأعظم كانت معروفةً، وكان قد أُعدّ الدم اللازم،

ولكن لم يتوقّع أحدٌ ضخامة الكمّيّة التي سيحتاج إليها للتعويض عمّا فقده، فتقاطر المتبرّعون بدمائهم، ولم يتوانَ بعض الأطبّاء والممرّضين، الذين كانت زمرة دمهم تتوافق مع زمرة دمه، في التبرّع له. ورغم الرقابة اليقظة، كان دم أحد المتبرّعين ينطوي على جرثومةٍ، ولم يتّسع الوقت اللازم لتطهيره منها، ما سبّب للبابا مضاعفاتٍ خطيرةً، لاحقًا. ولكن، في الفور، ساعد ضخّ الدم الجديد في إعادة ضغط دم المصاب إلى وتيرةٍ طبيعيّةٍ، وفي تبديد المخاوف التي استحوذت على الأطبّاء مدى دقائق.

وقْف النزف، وتنظيف الأحشاء من الدماء المنتشرة، أظهرا مسار الرصاصة العجيب. فمع إحداثها جراحًا بالغةً في الأمعاء والكولون، لم تُصب أيّ عضوٍ حيويٍّ، وقد مرّت على بعد ملّيمتراتٍ قليلةٍ من الشريان الأورطيّ المركزيّ، ولم تصبه، ولم تُصب العمود الفقريّ، ولو هي أصابتهما، لأحدثت وفاةً فوريّةً أكيدةً.

استغرق إصلاح الأضرار، واقتطاع عشرات السنتمترات من الأمعاء الدقيقة المصابة، وإجراء التحويلات المؤقّتة الضروريّة، خمس ساعاتٍ وعشرين دقيقةً من العمل المرهق، في ظروفٍ عصيبةٍ. وعند بدء الجراحة، كان الخوف مهيمنًا على الجميع، واستولى الهلع على الجرّاح نفسه، عندما كان يشهد هبوط الضغط الشريانيّ هبوطًا مخيفًا. ولكن، دقيقةً فدقيقةً، كان الأمل يتصاعد. وقد سُمح لأمين سرّ البابا، استثنائيًّا، بمراقبة المداخلة الجراحيّة بأكملها، في قاعة الجراحة. وكان رئيس الجمهوريّة الإيطاليّة، «پيتريني» قد التمس أن يعطى ثيابًا واقيةً ويشهد جزءًا من المداخلة الجراحيّة. ولطالما افتخر بتفرّده بهذه الخطوة.

ومنذ دقائق محاولة الاغتيال الأولى، كان نبؤها قد طاف العالم أجمع، وشاهد ملايين البشر، على شاشات تيليفزيوناتهم، البابا المصاب المنهار المحتضر، وهُرع إلى المستشفى عشرات الكرادلة والأساقفة. وكان قد سبقهم إليه رئيس الجمهوريّة الإيطاليّة «پيتريني»، ورئيس الوزراء، ورؤساء الأحزاب الكبرى من كلّ الاتّجاهات.

وكان عددٌ غفيرٌ من الحجّاج، الذين شاهدوا الاعتداء على الحبر الأعظم، قد اعتصموا في ساحة القدّيس بطرس، وانطلقوا يصعّدون الأدعية المتوسّلة نجاة البابا. وسرعان ما انضمّ إليهم ألوف المؤمنين، ووقفوا يدعون بحرارةٍ، رافعين الشموع المضاءة، أو ركعوا وأناملهم تكرّ بلا انقطاعٍ حبّات المسابح. وأبى الحجّاج البولونيّون مبارحة الساحة إلى ما بعد منتصف الليل، عندما أُذيع بيانٌ طبّيٌّ يؤكّد أنّ حياة الحبر الأعظم قد أمست خارج دائرة الخطر. وكان أحدهم قد جاء بإيقونة سيّدة «تشينستوهوڤا» السوداء، التي ألف البولونيّون التماس عونها لدرء النوازل الكبرى، فهي دائمًا حاضرةٌ كلّما ألمّ خطبٌ بأحد أبنائها، وأجلسوها على المقعد المعدّ لجلوس الحبر الأعظم. واتّفق أنّ هبّة ريحٍ ألقت بتلك الإيقونة أرضًا، فتبيّن أنه كُتِب على ظهرها: «أيّتها العذراء، احمي الأب الأقدس من الشرّير».

وفي هذه الأثناء، كانت پولونيا، بكلّ شعبها، راكعةً، خاشعةً، واجمةً، تلتمس من الله، بحرارةٍ وتوسّلٍ، نجاة خير بنيها، ومفخرتها.

بادئ الأمر لم يجسر الأطبّاء على إصدار أيّ بيانٍ يؤكّد نجاة البابا، إذ كانت كلّ الاحتمالات ما زالت مشرعةً. ولكن حيالَ إلحاح جماعات الصحافيّين المتدافعين أمام المستشفى، تلا طبيبٌ بيانًا أكّد أنّ البابا ما زال على قيد الحياة، فلم يوحِ لا بالتفاؤل ولا بالتشاؤم. وقد هرع مئات ألوف المؤمنين في العالم إلى الكنائس للدعاء من أجل نجاة الحبر الأعظم. ولكن، بُعيدَ منتصف الليل، صدر بيانٌ ثانٍ أكّد أنّ المداخلة الجراحيّة قد تمّت على خير وجهٍ، وأنّ البابا قد نُقلَ إلى غرفة الإنعاش، وأنّ وضعه غير مقلقٍ. ومكث البابا في غرفة الإنعاش أربعة أيّامٍ، خاضعًا لمراقبة فريقٍ من الأطبّاء والممرّضين، في كلّ لحظةٍ.

صباح يوم الخميس، صدر بيانٌ ثالثٌ يؤكّد أنّ البابا قضى ليلةً هادئةً، وأنّه استعاد كامل وعيه. وكان هو، منذ استيقاظه، قد استوضح أمين سرّه «دزيڤيتش»، الذي لم يبارحه لحظةً واحدةً، ولم يبعد عنه خطوةً، هل هما تلوا صلاة المساء. فهو دائم الحرص على الجوهريّ، والجوهريّ عنده هو الله. وجديرٌ بالتنويه أنّه، طيلة فترة استشفائه، لم يُغفل أيّةً من صلواته اليوميّة المعتادة.

صباح الأحد، ٥/١٧، شارك بالذبيحة الإلهيّة من سريره، وسجّل صلاةً كي تذاع على مسامع الحجّاج في ساحة القدّيس بطرس، وأرفقها برسالةٍ وجيزةٍ جاء فيها: «**أشعر أنّني قريب جدًّا من الشخصين اللذين جُرحا، في آنٍ واحدٍ معي. وإنّي أصلّي من أجل الأخ الذي أطلق عليّ النار، والذي صفحتُ عنه صفحًا صادقًا. وباتّحادٍ مع المسيح، الكاهن والضحيّة، أقدّم آلامي من أجل الكنيسة، ومن أجل العالم. ولكِ، يا مريم، أكرّر قولي: «إني بكلّيّتي لكِ»**».

هذه الرسالة بصوت البابا الخافت المرتجف، طبعت أبلغ أثر في نفوس المستمعين. في حين تمنّى أمين سرّ البابا أن يكون من سمّاه الحبر الأعظم «أخًا»، قد وجد وسيلةً أُخرى للتعبير عن مشاعر الأُخوّة.

وفي اليوم التالي، غادر الحبر الأعظم غرفة الإنعاش، إلى جناحٍ خاصٍّ في الطبقة العاشرة من المستشفى، يضمّ غرفةً صغيرةً له، وأُخرى لأمين سرّه، وصالةً للزائرين وللأطبّاء. وشوهد الأطبّاء والممرّضون الذين كانوا يسهرون عليه في غرفة الإنعاش، يذرّفون الدموع، وكأنّهم يودّعون حبيبًا استعذبوا معشره.

وإن لم يتلفّظ أحدٌ من الأطبّاء بكلمة «معجزة» لوصف نجاته، إلاّ أنّ قناعة المعجزة كانت تطوف في كلّ الأذهان. ولاحقًا أوجز يوحنّا بولس الثاني ما حدث له بقوله: «يدٌ أطلقت الرصاصة، ويدٌ أُخرى غيّرت مسارها!». كيف لا، ومحمّد علي أغشا كان قاتلاً محترفًا، وقد أطلق الرصاصة عن مسافةٍ قريبةٍ، مستخدمًا أداة قتلٍ شديدة القدرة.

وكانت إحدى الرصاصات قد أصابت إبهام البابا وكسرتها. وبادئ الأمر خطر للجرّاح بترها. غير أنّه تردّد، واكتفى بربطها وتضميدها، فتعافت تلقائيًّا. وكانت رصاصةٌ أُخرى قد خدشت كتفه، وتابعت طريقها، فجرحت حاجّتين أميركيّتين.

ونظرًا لقلق العالم على مصير الحبر الأعظم، وللعناية الدقيقة التي كان يقتضيها وضعه، كان الكردينال «كازارولّي» قد استقدم فريقًا من ألمع الأطبّاء، للإشراف على تعافي البابا، من ألمانيا الغربيّة، والولايات المتّحدة، وفرنسا، وإسبانيا وپولونيا. وكان يوحنّا بولس الثاني يسمّي هذا الفريق، مازحًا، «السنهدرين».

ولم يكن الطبيب البولونيّ، الذي استُقدم لهذه الغاية، سوى رفيق «كارول ڤويتيووا» في رحلات التجذيف النهريّة، «غبرييل نورڤسكي»، الملقّب «غايا»، والذي كان رئيس قسم نقل الأعضاء والمناعة، في أكّاديميّة «كوپرنيك» في ڤرسوڤيا. وقد مكث ذلك الطبيب ثلاثة أشهرٍ، إلى جانب صديقه المتألّم، محيطًا إيّاه بكلّ خبراته الطبّيّة. وقد كتب يوحنّا بولس الثاني إلى زوجته شاكرًا، لها إعارته زوجها. وبما أنّ الزوجين كانا، حينذاك، ينتظران ولادة حفيدٍ لهما، كان قداسته يستوضح، كلّ يومٍ، صديقه «غايا» هل أصبح جدًّا، ولما تمّ ذلك بعث ببركته إلى الوليد وذويه.

وطيلة فترة النقاهة، تحوّل جناح الحبر الأعظم إلى أُسرةٍ تغمرها المودّة، إذ كان الأطبّاء والممرّضون والممرّضات يحيقون دائمًا بمريضهم الغالي، ويسعدون بالتحدّث إليه، وبالعناية به، وبمشاركته الصلاة والقدّاس اليوميّ. وهو كان يستقبلهم جميعًا بما عُهِد فيه من بساطةٍ، ودماثةٍ، ويشكر لهم اهتمامهم به. وكان المستشفى، دائمًا، غاصًّا بالمستفسرين عن صحّة البابا، فضلاً عن آلاف الرسائل والبرقيّات المتدفّقة، يوميًّا، من كلّ صوبٍ.

من الرسائل الواردة من پولونيا نورد:

– رسالة من رجلٍ كان فاقدًا لإحدى ساقيه، كتب: «إنّي أقبّل يديك الجريحتين، لأنّي أومن أنّهما يدا المسيح، كما قلت في عظتك عن «جلالة الإنسان المتألّم»...

– رسالة باسم مرضى پولونيّين، جاء فيها: «نحن المرضى مرتبطون بالأب الأقدس، وندعو بحرارةٍ من أجل شفائه، راجين أن يكون الدم الذي لطّخ ثوبه الحبريّ، أداة تطهير العالم من خطاياه».

وقد شارك غير كاثوليكيّين في الصلاة. وأعلن راعي الكنيسة اللوثيريّة في إيسلاندا: «إنّ جميع المسيحيّين، كاثوليكيّين وغير كاثوليكيّين، يحتاجون إلى البابا حاجتهم إلى سلطةٍ أدبيّةٍ، وإلى معلّمٍ مسكونيٍّ».

وقد صادف يوم ٥/١٨ الذكرى الواحدة والستّين لمولد يوحنّا بولس الثاني.

فتوافدت حشودٌ غفيرةٌ إلى الڤاتيكان، متمنّيةً له الشفاء، ضمّت أولادًا حاملين باقات زهورٍ ورسومًا تعبّر عن محبّتهم للحبر الأعظم، الذي وجّه، عند الظهر، عبر الإذاعة، رسالة شكرٍ للجميع، خاصًّا بامتنانه الأطبّاء والعاملين في مستشفى «جيميلّي»، الذي يضمّ أربعة آلاف عاملٍ وموظّفٍ، وخمس مئة طبيبٍ.

وتدفّقت تبرّعات المؤمنين للمساهمة في تكاليف استشفاء البابا الباهظة، مع أنّ جميع الأطبّاء تنازلوا عن أتعابهم وأجورهم. ولا ريب أنّه كان لطوفان الصلوات الذي انطلق من العالم أجمع، إضافةً إلى بنية البابا المتينة، فضلٌ أكيدٌ في نجاته؛ وقد شبّه الحبر الأعظم هذه الصلوات، بتلك التي رفعها المسيحيّون الأوائل من أجل القدّيس بطرس السجين، والتي أدّت إلى إطلاق سراحه، على يد ملاك اللّه. غير أنّ الفضل الأكبر كان لتدخّل الأمّ السماويّة.

وقد سُجّل، في يوم استشفائه الأوّل، وصول خمسة عشر ألف برقيّةٍ، من كلّ أنحاء المسكونة، تعبّر عن تعاطف العالم معه، وتمنّي شفائه التامّ.

حتّى يوم **٢٠** أيّار، كان قداسته يُغذّى عن طريق الوريد. ولكنّه في ذلك اليوم، تناول وجبته الطبيعيّة الأولى، وقوامها حساءٌ وبيضةٌ، وتلا مع معاونه صلاة شكرٍ. وبعد ثلاثة أيّامٍ، أصدر الفريق الطبّيّ بيانًا يعلن أنّ صحّة البابا قد أمست خارج الخطر. بيد أنّ هذا النبأ السعيد كانت تعكّره حمّى لم يهتدِ الأطبّاء إلى سرّها، وأوقعتهم في حيرةٍ.

وقد أثبت يوحنّا بولس الثاني، في تلك المرحلة، أنّه كان مريضًا فاعلاً، لا يتنازل عن حقّه في معرفة طرق علاجه، وإبداء رأيه فيها؛ فكان يستوضح الأطبّاء عن كلّ ما كانوا يفعلونه، ويؤكّد أنّ واجب المريض أن يكون فاعل شفائه، لا مجرّد خاضعٍ للعلاج. فالكرامة الإنسانيّة لا تقف عند باب المشافي، ولا المسؤوليّات البابويّة. وقد صارح الأطبّاء بقوله: «**لطالما دافعت عن حقوق الإنسان، والإنسان، اليوم، هو أنا**».

واتّفق، في تلك الفترة، أن نشبت أزمةٌ سياسيّةٌ جديدةٌ في پولونيا، فيما كان عميد الأساقفة «ڤيشينسكي» يصارع السرطان. وكان البابا قد أوفد أمين سرّه

لعيادته يومَيْ ١١ و١٢ أيّار، وعاد الموفد برسالةٍ في ظرفٍ مختومٍ. واستمرّ التشاور بين البابا والكردينال عبر الهاتف. وجرى التحادث الأخير بينهما، بعد ظهر ٢٥ أيّار، وحينئذٍ طلب الكردينال المتألّم والمحتضر، من البابا، بصوتٍ لاهثٍ متهدّجٍ، أن يباركه. واعترافًا بكلّ ما قال وفعل الكردينال العظيم، بارك البابا فمه ويديه قائلاً: «**إنّي أرسل لك بركتي مع قبلةٍ**»، وبعد ثلاثة أيّامٍ مضى الكردينال إلى ربّه، فخصّص له صديقه البابا قدّاسه المسائيّ، ثمّ تابع، بأسًى بالغٍ، مراسم جنازته على شاشة التليفزيون.

وفيما كان يبكي صديقه ومواطنه، ويفكّر في تعيين خلفٍ له، كان القلق يؤرّق أطبّاءه بشأن حالته. فيوم ٢٧ أيّار، انتابته أعراض ضيق تنفّسٍ، وآلامٌ في صدره، فضلاً عن الحمّى التي لم تكن تبارحه. ولكن بعد أن ظهرت أمارات تحسّنٍ على وضعه، ألحّ في استعجال العودة إلى الڤاتيكان، حيث كان راغبًا في تروّس احتفالَيْن: احتفالٍ، يوم السابع من حزيران، بذكرى مجمعي أفسس والقسطنطينيّة، الذي دُعي إلى المشاركة به أساقفةٌ من شتّى كنائس العالم، واحتفالٍ بتكريس العالم لقلب مريم الطاهر. ورغم تحفّظ الفريق الطبّيّ، غادر المستشفى في الثالث من حزيران، ولكنّه لم يأخذ بنصائحهم، ولم يدارِ قواه، بل انخرط، فورًا، في وتيرة عملٍ مرهقٍ، سرعان ما تجلّت نتائجها، إعياءً وخَوَرًا. فيوم السادس من حزيران، حاول إلقاء خطابٍ من شرفة مقرّه، غير أنّه، بعد خمس دقائق، انطفأ صوته، وبدت عليه علامات اختناقٍ.

في العاشر من حزيران، شُخّص التهابٌ في رئته اليمنى، وقفزت حرارته حتّى ٣٩.٥ درجةً، وبدت عليه أمارات وهنٍ وانهيارٍ، وانتابته آلامٌ حادّةٌ، ما أيقظ قلق أطبّائه على حياته ثانيةً، ولا سيّما أنّهم لم يدركوا سببًا لما يعتريه من ارتفاعٍ مفاجئٍ ومتكرّرٍ لحرارته، ولفشله في استعادة قواه، واصطباغ محيّاه بلونٍ رماديٍّ، وفقدان عينيه، الغائرتين في محجريهما، بريقهما المعتاد. فأُعيدت تغذيته بالأمصال، وحقنه بمضادّات الحيويّة، ونُقل مجدّدًا إلى مستشفى «جيميلّي»، من أجل إجراء تحليلاتٍ وصورٍ شعاعيّةٍ، وإيكوغرافيّة، لم تسفر، كلّها، عن أيّة علّةٍ عضويّةٍ، إلى أن شُخّص، أخيرًا، التهابٌ ڤيروسيّ المصدر،

ناجمٌ عن نقل دمٍ، يوم إصابته. ومن جرّاء الافتقار إلى مضادّ الحيويّة المناسب، الكفيل بمكافحة ذلك الڤيروس، تبنّى الأطبّاء مجموعة تدابير، أفلحت في إعادة الحرارة، وأجهزة التنفّس، والهضم، والقلب، إلى وضعٍ طبيعيٍّ.

وفيما كان الحبر الأعظم يستعيد عافيته وسلامته، كان يتابع مهامّه المستعجلة من الطابق الحادي عشر في المستشفى، حيث كان يختلف باطّرادٍ معاونوه الأساسيّون. وقد احتلّت، حينئذٍ، أولويّة اهتمامه، قضيّة تعيين خلفٍ للكردينال «ڤيشينسكي»، يتولّى منصب عميد أساقفة پولونيا، خشيةَ أن يحول الحزب الشيوعيّ الپولونيّ، بدعمٍ من الاتّحاد السوڤييتيّ، دون هذا التعيين. وكان أرجح المرشّحين لهذا المنصب، أمين سرّ الكردينال الفقيد، الأسقف «غليمپ» (Glemp)، الذي كان يحمل دكتورا في الحقوق المدنيّة، وأُخرى في الحقوق الكنسيّة، ومن ثمّ كان خبيرًا بما قد تنطوي عليه العقود والمعاهدات من بنودٍ مفخّخة، لا يتنبّه لها غير المؤهّلين. وقد تمّ تعيينه، فعلاً، لهذا المنصب، في ١٩٨١/٧/٧، بعد مرور ستّة أسابيع على وفاة الكردينال «ڤيشينسكي». ولم يكن اعتلال يوحنّا بولس الثاني هو سبب التأخير الوحيد في تعيينه، بل كانت دقّة الوضع وحراجته، تستلزمان الكثير من التمحيص وإعمال الفكر. ولم يكن من اليسير العثور على بديلٍ للكردينال الراحل، الذي استحقّ لقب بطل المقاومة، وكان مهيب الطلعة، خبيرًا في إشعال التقوى الشعبيّة. ولا ريب أنّ أكثر المؤهّلين لخلافته، كان «كارول ڤويتيووا»، غير أنّه كان قد انتُخب لقيادة الكنيسة الجامعة.

حيال تراكم القضايا الخطيرة، التي كان على الحبر الأعظم مواجهتها، كاد صبره ينفد، وغدا يلحّ في استعجال مغادرة المستشفى، واستئناف نشاطه المعتاد. ولكنّه أبى العودة إلى مقرّه إلاّ وقد تحرّر من كلّ التحويلات المؤقّتة التي زُوِّد بها، إثر استئصال جزءٍ كبيرٍ من أمعائه، والتي كانت تزعجه وتعيقه. وكان فريق الأطبّاء قد قرّر إجراء عمليّة إزالة تلك التحويلات، في مطلع الخريف، وبعد انتهاء الفصل الحارّ، تفاديًا لأيّ التهابٍ. ولكنّ البابا لم يُطق الانتظار حتّى ذلك الموعد. فعقد مع الفريق الطبّيّ، الذي كان يدعوه «السنهدرين»، اجتماعًا دافع، خلاله، مدى نصف ساعةٍ، عن وجهة نظره، وحدّد، هو نفسه موعد المداخلة

الجراحيّة في الخامس من شهر آب، الموافق لعيد «سيّدة الثلوج». وقد أفلح في إقناع الأطبّاء، الذين قال لهم: «**إن كنتم أنتم الأطبّاء، فأنا المريض، وأنا أريد العودة إلى الڤاتيكان، مستعيدًا كلّ عافيتي ونشاطي، وإنّي لعلى استعدادٍ لاحتمال مداخلةٍ جديدةٍ**». واستسلم لحججه حتّى أشدّ الأطبّاء عنادًا وتشبّثًا بقرار التأجيل، والذين كانوا يؤكّدون، قبل لحظاتٍ، استحالة ثنيهم عن قرارهم. وأُجريت العمليّة في الموعد الذي حدّده المريض، وكلّلت بالنجاح، وعاد البابا إلى الڤاتيكان في الرابع عشر من آب، كي يحتفل، في اليوم التالي، بعيد انتقال العذراء، أمام حشدٍ من خمسين ألف مؤمنٍ، حشدٍ غير مألوفٍ في ذلك الوقت من السنة، حيث يكون حرّ روما خانقًا.

وكان قد احتشد، أمام باب المستشفى، عند مغادرته له، جمعٌ غفيرٌ يضمّ طغمةً من الصحافيّين. وعند وصوله إلى الڤاتيكان، اجتاز ساحة القدّيس بطرس، ثمّ اختلى في قبو الكاتدرائيّة، بضع دقائق، خاطب بعدها الكرادلة، وإداريّي الڤاتيكان، معلنًا: «**لقد تخشّعت أمام مقام الرسول بطرس، وشكرته لأنّه أراد إبقاء خليفته فترةً أُخرى، رغم الأخطار المحقّقة. ثمّ زرت أضرحة أسلافي، وجال بخاطري أنّه كان ممكنًا أن يضاف إليها ضريحٌ آخر**».

وقُبَيل غروب ذلك اليوم عينه، أقلّته مروحيّةٌ إلى مقرّه الصيفي في «كاستل غوندولفو»، حيث أمضى نقاهةً طويلةً امتدّت حتّى ١٨ تشرين الأوّل.

وقد أبرزت إقامته في المستشفى وجوهًا متألّقةً من خصاله:

فقد كان صبره، وتواضعه، وسجوّ نفسه، موضع إعجاب الجميع، فهو لا يشكو، ولا يقتضي، بل يكتفي بما يقدّم له، ولا يطالب بأيّ امتيازٍ أو حقٍّ، ويعدّ أنّ الآخرين يغالون في العناية به. ولا يخطر ببال من يمرّ بجانبه، وهو يجهل هويّته، أنّه مسؤولٌ عن أكثر من مليار إنسانٍ في العالم.

وهو مسالمٌ، لا يضمر حقدًا حتّى على من حاول قتله، الذي سمّاه أخًا، وصلّى من أجله. وكان مواطنوه البولونيّون يتفادون البوح، أمامه، بقناعتهم حول المحرّضين على اغتياله، خشية أن يأمرهم بالصلاة من أجلهم. وقد علّق الكاتب

الفرنسيّ «أندريه فروسّار» (André Frossard) على نزعته هذه، بقوله: «**هذا المسالم يؤمن بالبشر، وحتّى بالذين يحاولون اغتياله، إيمانًا كفيلاً بحملهم، هم أيضًا، على الإيمان بالبشر؛ ويؤمن بالله، إيمانًا كفيلاً بجعلهم يستسيغون الإيمان بالله**».

وهو يُدهش بمثابرته على الصلاة، وقد فسّر ذلك بقوله: «**إنّ العالم أجمع يقتضي الكثير من البابا، وهم محقّون في اقتضائهم. ومن ثمّ فالبابا لا يصلّي أبدًا بالقدر الوافي**».

وتميّز بمحبّته، وبالتقاطه هناتٍ لدى الآخرين، كي يستنبت منها زهور صداقةٍ رقيقةٍ. وقد أهدى أحد الأطبّاء الذين أشرفوا على علاجه، وواكب نقاهته، نسخةً عن إيقونة «سيّدة تشينستوهوڤا»، رسمها بيده رئيس مجلس النوّاب الإيطاليّ «فانفاني»، فبكى الطبيب تأثّرًا. وهدّأ البابا روعه قائلاً: «**تأثّرك قد يستثير تأثّري**».

ومن أكثر ما أثار الإعجاب العامّ **دأبه على العمل**، رغم آلامه. ما حوّل مستشفى «جيميلّي»، طيلة فترة استشفاء الحبر الأعظم، إلى ما سمّاه هو نفسه «ڤاتيكان ثالث». وقد شهد أحد أطبّائه: «إنّه يسرف في العمل، وقد صارحتُه بذلك، لا بصفتي طبيبًا، فهو لا يحتاج إلى طبيبٍ، بل بصفتي صديقًا... إنّه يُخضع نفسه، كلّ يومٍ، لجهود جسديّةٍ وفكريّةٍ هائلةٍ. نهج حياته يرعبني. إنّه التزامٌ متواصلٌ. وهل يُعقل أن يتعرّض داعية سلامٍ مثله لاغتيالٍ من قبل إرهابيٍّ؟ إنّه يدافع عن السلام، فيكافأ بطلقات رصاص! كم هذا قاسٍ نفسيًّا!».

وقد علّق ذلك الطبيب على الأسفار التي قام بها البابا، بعد إبلاله من مرضه، ورغم خشية الأطبّاء من احتمال عودة الڤيروس إليه: «عندما أفكّر أنّه عائدٌ من فاطمة، وإنكلترا، والأرجنتين وسويسرا، حيث ألقى اثني عشر خطابًا، أكاد أقول إنّ وضعه أكثر من ممتازٍ... إنّه يكلّف نفسه بأعباءٍ لا يسع أحدًا في العالم احتمالها. وهذا هو مصدر قلقنا. هكذا كان دأبه في المستشفى، حيث لا تكاد تهادنه الحمّى حتّى يستأنف العمل. فكنّا نراه متأبّطًا دائمًا الأضابير. وقد علمنا أنّه كان يعمل على مراجعة وتنقيح رسالةٍ عامّةٍ تتعلّق بالعمل.

حماية «سيّدة فاطمة»

ظهر يوم ١٩٨١/٥/١٤، ما كاد يوحنّا بولس الثاني يستعيد وعيه، حتّى لاحظ أمين سرّه أنّ توقيت محاولة اغتياله، يتوافق، على نحوٍ مدهشٍ، مع توقيت ظهور العذراء، الأوّل، في فاطمة، فوقعت هذه الملاحظة من نفس البابا أبلغ وقعٍ، واستحضر ملفًّا كاملاً لهذا الظهور، ولما أدلت به العذراء من رسائل، ومن أسرارٍ ما برحت مكتومةً. فهو، حتّئذٍ، ورغم تكريمه الجمّ للعذراء، ورغم زياراته إلى معظم المزارات المريميّة، كانت إحاطته بظهورات «فاطمة» سطحيّةً. وقد استشفّ، في نجاته من الموت، إشارةً من السماء، وحمايةً من الأمّ السماويّة. ومنذئذٍ، ما انفكّ يؤكّد لأصدقائه المقرّبين التوافق العجيب بين الظهور الأوّل في «فاطمة»، وتوقيت الجريمة التي استهدفت حياته، مردّدًا، بدهشةٍ: «**اليوم عينه، والساعة عينها، والدقيقة عينها!**»...

ومنذ عودته إلى عقد اللقاءات العامّة، كان يردّد على مسامع الجماهير القول: «**في ذلك اليوم، لمستُ، في كلّ ما جرى، تلك الحماية الأموميّة المدهشة، التي أثبتت أنّها أقوى من الرصاص!**». ولطالما أكّد أنّ «**ما من مصادفةٍ صرفٍ في مرامي العناية الإلهيّة!**». العناية الإلهيّة عينها التي جاءت إلى كرسيّ بطرس، ببابا من الشرق، هي التي وقته من موتٍ كان محقّقًا. ومنذئذٍ عكف على إزاحة النقاب عن «سرّ فاطمة الثالث»، الذي أبقاه أسلافه مكتومًا. ومنذئذٍ، عقد العزم على الحجّ إلى مزار فاطمة في **١٣** أيّار من العام التالي، كي يشكر للأمّ السماويّة حمايتها له، ولكي يحقق رغبتها بتكريس روسيّا لقلبها الطاهر، بمشاركة كلّ أساقفة العالم، بعد أن كان البابا پيّوس الثاني عشر قد كرّس العالم، مرّتين، مرّةً أولى عام **١٩٤٢**، في حومة الحرب العالميّة الثانية، ومرّةً أُخرى، عام **١٩٥٢**، في أوج الحرب الباردة. وفي فاطمة، يوم **١٩٨٢/٥/١٣**، شارك يوحنّا بولس الثاني هذا الاحتفال، أكثر من مليون مؤمنٍ يضجّون اندفاعًا، ويلوّحون بمناديل بيضاء، فقاسمهم البابا اندفاعهم، ولوّح، هو أيضًا، بمنديلٍ أبيض، بصفته «شاهدًا على آلام البشر الجسيمة، وعلى نُذُر الفناء التي ترين على الأمم وعلى البشريّة»، موكلاً إلى العذراء «مصير العالم في غروب الألفيّة الثانية».

وبنبرةٍ تفيض تأثيرًا، هتف: «**خلّصينا من الجوعِ ومن الحرب! أنقذينا من الحرب النوويّة!**».

وبعدئذٍ، ورغم تحفّظ العديد من مسؤولي الڤاتيكان، استقدم إلى روما تمثال سيّدة فاطمة الأصليّ، واستقبله في احتفالٍ ضخمٍ، يوم **١٩٨٤/٣/٢٤**، وأوعز بإيداعه، أوّلاً، في مصلاّه الخاصّ، حيث أمضى الليلة في حوارٍ حميمٍ مع الأمّ السماويّة التي تربطه بها أوثق الأواصر. وفي اليوم التالي، احتلّ التمثال مكانه في كاتدرائيّة القدّيس بطرس، حيث جدّد تكريس البشر والأمم، المحتاجين إليها حاجةً ماسّةً. وكان راغبًا في ذكر روسيّا صراحةً، ولكنّ دبلوماسيّي الڤاتيكان حذّروه من عواقب مثل هذا الذكر.

وفي صباح اليوم التالي، دعا إلى مشاركته الإفطار، أسقف منطقة «ليرا» البرتغاليّة، المسؤول عن رعيّة «فاطمة»، وسلّمه علبةً تحمل شعاره البابويّ، وتحتوي الرصاصة التي كادت تودي بحياته، «هديّةً للعذراء». ولمّا عاد الأسقف إلى موطنه، تفحّص تاج التمثال، المرصّع بالجواهر، متسائلاً كيف له أن يشوّه تلك التحفة، بهذه الرصاصة البخسة، البشعة. ولكنّه ما لبث أن تبيّن في التاج ثغرةً أدخل فيها الرصاصة، فإذا بها على قياسها، لا تزيد ولا تنقص ملّيمترًا واحدًا، وكأنّها أوجدت لها!

وفي وقتٍ لاحقٍ، أهدى يوحنّا بولس الثاني «سيّدة تشنستوهوڤا»، زنّاره الذي ثقبته رصاصة الغدر، والثوب الأبيض الملطّخ بدمه.

في **١٩٨٩/١١/٨**، سلّمت رائية «فاطمة»، الأخت لوسيّا، القاصد الرسوليّ في البرتغال، رسالةً تؤكّد فيها أنّ تكريس روسيّا لقلب مريم الطاهر قد اكتمل شروطًا. ومساء اليوم التالي، ذهل العالم أجمع بانهيار جدار برلين، وبما يمثّله من مغازٍ، مفجّرًا فرحًا تاريخيًّا عارمًا. وهكذا تسنّى للحبر الأعظم، بمناسبة زيارته الثانية إلى «فاطمة»، يوم **١٩٩١/٥/١٣**، أن يهتف: «**شكرًا، أيّتها الأمّ السماويّة، لأنّك اقتدت الشعوب صوب الحرّيّة**». وكان قبل ذلك، قد أعلن أمام جمهورٍ من الحجّاج: «**إنّ ظهورات العذراء القدّيسة، مريم في فاطمة، التي أيّدتها**

إشاراتٌ مدهشةٌ جرت، عام ١٩١٧، تكوّن مرجع إشعاعٍ لقرننا»، قرنٍ مأسويٍّ بدأ يوم ١٩١٧/٥/١٣ في فاطمة، وانتهى في ١٩٨٩/١١/٩، بانهيار جدار بيرلين.

وصرّح البابا بينيدكتُس السادس عشر: «لقد شعر خادم الله، يوحنّا بولس الثاني، أنّه أُنقذ من الموت بتدخّل يدٍ أموميّةٍ. ومن خلال هذا الإنقاذ، تجلّت علاقةٌ وثيقةٌ بين ظاهرة سيّدة فاطمة، ورسالتها، والسرّ الثالث الذي ظلّ، حتّئذٍ، مكتومًا، ومصير يوحنّا بولس الثاني. فهو، منذ بدء مسيرته، كرّس نفسه، كلّيًّا، للعذراء، وكان شعاره الدائم: «**إنّي بكلّيّتي لكِ**». وقد خبر، في كلّ وقتٍ، الوفاء المطلق الذي أُلزمت به تلك التي أقامها ابنها أمًّا لنا. فكلّ من يعدّ ذاته، صادقًا، ابنًا لها، ويكرّس لها نفسه، يجبرها على إعطاء الدليل الأقصى عن حبّها الأموميّ. وكلّ من يستسلم لها بنويًّا، يسلّح ذراعها، ويبطل سلاح الخصم الشرّير».

ويوحنّا بولس الثاني، الذي خَبَر طغيان نظامَيْن لاإنسانيّين، ارتضى أن يكون ضحيّة فداءٍ في خطى المسيح، وأن يأخذ على عاتقه آلام البشريّة والكنيسة، في زمانه. وقد قرأ، من خلال سرّ «فاطمة الثالث»، رسالته الخاصّة ومصيره، وهما أن يكون مثال شهداء الإيمان، في القرن العشرين، وأن ينفّذ رغبة العذراء، في تكريس الكون لقلبها الأموميّ، وأن يثبت انتصارها على قوى الشرّ.

وقد حرص قداسته على التعبير لأمّه السماويّة عن شكره لحمايتها له، فشخص إلى مقام سيّدة فاطمة، في ذكرى محاولة اغتياله السنويّة، أي في ١٩٨٢/٥/١٣، وتخشّع أمام تمثالها، وأهداه مسبحةً ورديّةً منظومةً في سلسلة ذهبيّةٍ. وفي هذه المناسبة، أيضًا، كان هدفَ محاولة اغتيالٍ ثانيةٍ بالسلاح الأبيض، قام بها كاهنٌ متطرّفٌ مهووسٌ، ولكنّه نجا منها. ثمّ، مساء ٢٠٠٠/٥/١٢، وضع أمام قدمي تمثال سيّدة فاطمة، الخاتم الحبريّ الذي كان قد أهداه إيّاه الكردينال «ڤيشينسكي»، ولم يكفّ عن محاولة تحقيق رغبتها بتكريس العالم لقلبها، إلى أن بلّغته الرائية الأخت «لوسيّا»، أنّ السيّدة العذراء راضيةٌ عن ذلك التكريس. ولم يكتفِ بذلك، بل قدّم، أيضًا، لسيّدة «تشينستوهوڤا» في «ياسنا غورا» ببولونيا، وردةً ذهبيّةً، وقلبًا من ذهبٍ طوله ١٥ سنتم، نقش عليه شعاره «**إنّي بكلّيّتي لكِ**».

ومن المحقّق أنّ نجاته من محاولتي الاغتيال، قد أيقظت أذهان المؤمنين على سهر الأمّ السماويّة، وحمايتها لبنيها.

لا مراءَ أنّ تلك المحنة قد أوهنت قوى يوحنّا بولس الثاني الجسديّة، ولكنّها، روحيًّا، أخصبت خدمته الرسوليّة. وقد سمعه أمين سرّه يقول: «**لقد كان ذلك الحدث نعمةً كبرى؛ وإنّي لأتبيّن فيه شبهًا واضحًا مع سَجن عميد أساقفة پولونيا** (الكردينال ڤيشينسكي)، **ولكنّ محنة الكردينال دامت ثلاث سنواتٍ، فيما هذه...**». ومن المؤكّد أنّ هذه المحنة ينطبق عليها القول المأثور: «دم الشهداء هو خميرة مسيحيّين». لقد سُفِك دم يوحنّا بولس الثاني، حيث كان قد سُفِك دم طلائع شهداء المسيحيّة. وكانت ثماره:

– اتّحاد الكنيسة جمعاء في الصلاة من أجل خلاصه، في ساحة القدّيس بطرس، وفي كلّ كنائس العالم. ولكأنّ ما حدث حين سُجن الرسول بطرس في فلسطين، تكرّر حين أُصيب خليفته، بعد نحو ألفي سنةٍ، وفق ما جاء في سفر أعمال الرسل (١٢ : ٥): «كان بطرس في السجن، وكانت الكنيسة ترفع لأجله الصلاة، بلا انقطاع».

– إلغاء مظاهرة الحزب الشيوعيّ الإيطاليّ، المطالبة بتشريع الإجهاض. فقد ذكّر دم يوحنّا بولس الثاني بقيمة كلّ حياةٍ بشريّةٍ.

– كان «كارول ڤويتيووا» قد ذكر في إحدى قصائده عن استشهاد القدّيس ستانسلاس: «إن لم يفلح الكلام في تحويل النفوس، فالدم سيحوّلها». وقد أثمر دم يوحنّا بولس الثاني ربيع الكنيسة عام ٢٠٠٠.

في أتّون الألم

كان يوحنّا بولس الثاني يقدّر، عاليًا، قيمة الألم الفدائيّة. وقد أشبعته محاولة اغتياله ألمًا، فخبر، في جسده، ما طالما تكلّم عنه وتعاطف معه: العجز، والوهن والوجع، والوحدة، والبطالة القسريّة، والحاجة إلى الغير. وغدت الصلاة مصدر قوّته الوحيد.

ويوم مغادرته المستشفى شكر لله إنقاذه، ومنحه، خلال تلك الأشهر الثلاثة، فرصة الانضمام إلى جماعة المرضى المتألّمين، والذين يمثّلون عضوًا مميّزًا في الكنيسة، أي في جسد المسيح السرّيّ.

وبعد انقضاء بضعة أشهرٍ، صارح المؤمنين: «**لقد أتاح لي الله أن أختبر الألم، وخطر فقدان الحياة، وفي الآن عينه، سمح لي أن أدرك، إدراكًا واضحًا وكاملاً، أنّ تلك الخبرة هي إحدى النعم الخاصّة التي يمنّ بها عليّ، بصفتي إنسانًا، وهي نعمةٌ للكنيسة، بصفتي أسقف روما وخليفة القدّيس بطرس.**

«**لقد جعلتني هذه الخبرة الشخصيّة أشعر أنّني أشدّ قربًا من الذين، في كلّ بقعةٍ من الأرض، وبشتّى الطرق، يعانون الاضطهادات من أجل يسوع، والذين يقاسون القمع من أجل قضيّة الإنسان، وقضيّة العدل والسلام في العالم، وأخيرًا مع الذين دمغوا وفاءَهم بموتهم**».

وقد دوّن في وصيّته: «**يوم ١٣ أيّار ١٩٨١ أنقذت العناية الإلهيّة حياتي بطريقةٍ معجزةٍ. لقد أطال سيّد الحياة، ذاته، هذه الحياة، وبصورةٍ ما وهبني إيّاها مجدّدًا. ومنذ تلك اللحظة غدت تخصّه أكثر**».

لا ريب أنّ محاولة الاغتيال تلك قد خلّفت، في جسده، ندباتٍ دامت حتّى مماته. ولكنّها لم تحدث أيّ تأثيرٍ على نشاطه الرسوليّ. فحبّه للمسيح كان يدفعه إلى بذل جهوده، بلا تقتيرٍ، من أجل إعلان الإنجيل لجميع الأمم، ومن أجل تثبيت إخوته في الإيمان، ومن أجل تعزية البشر، ومساندة الإنسان المتألّم. وبالإجمال أدخلته محاولة اغتياله، قسرًا، في دنيا الألم.

ومنذئذٍ ما برح يكرّر القول: «**إنّ الكنيسة بحاجةٍ إلى ألم**»، «**ما قيمة آلامي مقارنةً بآلام يسوع؟**» وكان يعتبر صلوات المؤمنين هي «**الهديّة الأوفر قيمةً، والوسيلة الأكثر جدوى، من أجل عيش لحظات الوجود الخطيرة والموجعة، بإيمانٍ وسكونٍ**».

ولا غروَ أنّ أجمل الصلوات، في هذا السياق، هي هذه التي تدفّقت من قلب الأمّ تيريزا الكلكتّاوية:

«يا ربّ،

لقد شئتَ، مرّةً أُخرى، قريبًا منك على الصليب، حبرنا يوحنّا بولس الثاني، كي تذكّر العالم أنّ القيامة والحياة يكمنان في الصليب وحده، وتذكّرنا بأنّك، من خلال الصليب، خلّصتَ العالم.

إنّ تلميذ المسيح يعرف أنّ عمل الفداء لا يستمرّ في الزمن، وفي التاريخ، إلاّ بمعانقة الصليب. وإنّك، من خلال هذا البابا الراقد في المستشفى، يا ربّ، تجعلنا ندرك أنّه، هو أيضًا، وقد صُلبَ في جسده، يتّحد بجميع الذين، في العالم، يحملون سمات آلام يسوع المسيح.

تحت وقر الصليب، وعلى مثال يسوع، يعلّمنا البابا أن نحبّ الصليب.

إنّ صليب المسيحيّ هو، دائمًا، تحت خشبة الصليب.

يا ربّ، بعد الصليب، يأتي فجر القيامة السنيّ. هذا الفجر شاهده أبونا الأقدس، في أيّار ١٩٨١، بعد أن قهر ليل ذلك الحدث المأسويّ الدامس.

اليوم سيستأنف البابا خدمة الكنيسة مثلما كان يخدمها حينئذٍ، بعد أن أحبّها مجدّدًا، عند أقدام الصليب. فأعطِ، يا ربّ، يوحنّا بولس الثاني، قوّةً جديدةً لخدمة الكنيسة، وكلّ شعوب العالم. أعطِه فرح الشدّ على أيدي الأطفال والأيتام، والأرامل، والأصاغر في العالم.

إنّ الأب الأقدس هو، لنا، حضورٌ، ونعمةٌ، ورجاءٌ، ويقينٌ.

فلا تسمح، يا ربّ، أن يهتزّ يقيننا، وخاصةً في الألم والمحنة.

وشكراً، يا ربّ، من أجل كلّ الحبّ الذي تحيطنا به».

وجديرٌ بالذكر أنّ يوحنّا بولس الثاني غدا، إثر محاولة اغتياله، يختلف، باطّرادٍ، إلى مستشفى «جيميلّي»، من أجل مداخلاتٍ جراحيّةٍ طارئةٍ. وقد ألف أن يدعو فترات الاستشفاء هذه، تندّرًا، «ڤاتيكان الثالث». وترسّخ لديه اليقين بأنّ آلامه كانت إحدى وسائله لإدخال الكنيسة إلى الألفيّة الثالثة، وبأنّ إنجيل الألم يمهّد للمستقبل.

مَن وراء جريمة «محمّد علي آغشا»؟

يبدو أنّ «أغشا» كان قد وُعد بالمساعدة على الفرار، عقب تنفيذ جريمته، ولكنّ ذلك الوعد لم يتحقّق، مثلما لم يتحقّق الوعد بإخراجه من السجن. فاعتُقل، في ساحة القدّيس بطرس، وتضافر على التحقيق معه نخبةٌ من الشرطة الجنائيّة، ومن المختصّين في مكافحة الإرهاب. وقد جهد المجرم في تشويش الأدلّة، وتضليل التحقيق، فبدأ بالتصريح أنّه شيليّ الجنسيّة، ثمّ ادّعى أن لا جنسيّة له، ولكن عندما جوبه بجواز سفره اعترف أنّه تركيٌّ، وصرّح بغطرسةٍ وقحةٍ: «أنا محمّد علي أغشا، أكبر إرهابيٍّ تركيّ!». وراح يطلق تصاريح لا رابط بينها. مثل قوله: «ليس إرهابي أحمر ولا أسود، بل هو أحمر وأسود معًا»، وقوله: «لست إرهابيًّا، مثل الآخرين، فأنا أنتمي إلى جنسٍ دوليٍّ، وأنا فوق كلّ الإيديولوجيات».

وأثبتت الاختبارات النفسيّة أنّه ليس مختلاًّ، بل هو مندفعٌ مهووسٌ، وقد يفتعل الجنون بغية التشويش، وقد أفلح، فعلاً، في إيقاع المحقّقين والخبراء في تناقضاتٍ، إذ أكّدت فئةٌ منهم أنّه لم يعمل بمفرده، في حين لم يهتدِ آخرون إلى ما يثبت ضلوع شركاء له في جريمته، أو إلى وجود مؤامرةٍ دوليّةٍ. وبالإجمال انتهى التحقيق إلى نتائج محرجةٍ دبلوماسيًّا، فاعتصم المحقّقون والقضاة بالصمت.

أمّا في پولونيا، فلم يكن من العسير استنتاج الحقيقة. فدعم يوحنّا بولس الثاني لنقابة التضامن، قد تفشّى أثره إلى دولٍ أُخرى خاضعةٍ للحكم الشيوعيّ السوڤييتيّ، ولا أحد يجهل الحملة التي شنّها الكرملين على الحبر الأعظم، الذي كان له مصدر ضيقٍ فادحٍ.

ولا غرابة إن استخدمت المخابرات السوڤييتيّة ذلك المتطرّف التركيّ، المولود عام ١٩٥٨ من أُسرةٍ فقيرةٍ، في القطاع الشرقيّ من تركيّا، والمنضمّ إلى حركة «الذئاب الرماديّة»، وإلى حزب العمل الوطنيّ (MHP)، اليمينيّ المتطرّف، ذي السجلّ الحافل بعشرات الاغتيالات السياسيّة. وكان «أغشا» قد سُجن مدّة خمسة أشهرٍ، في إستنبول، عقب تنفيذه جريمة اغتيال رئيس تحرير صحيفة «ملّييت»، وكان يعدّ العلويّين الأتراك، واليهود، والمسيحيّين، أعداء يجب قتلهم.

وبعد أن أعاق الانقلاب العسكريّ الذي حدث، آنذاك، في تركيّا، حركة الإرهابيّين، انضمّ «أغشا» إلى شبكة متطرّفين أتراكٍ، ناشطين في تجارة الأسلحة والمخدّرات، بين ألمانيا وتركيّا، عبر بلغاريا.

حُكم على «أغشا» بالسجن مدى الحياة، في روما، ولكنّه كان ما زال يأمل بأن يهبّ شركاؤه لمساعدته على الهرب، كما سبق لهم أن فعلوا في إستنبول. ولكن، بعد أن طال انتظاره، ولم يظهر للعون أثرٌ، ولا بالفرار بارقةٌ، طمح إلى تخفيف حكم سجنه، إن هو أظهر توبةً، واعترف بشركائه في الجريمة. فباح بأسماء دهاقنة المافيا التركيّة، الذين علّلوه بدفع مبالغ ماليّةٍ طائلةٍ، له ولرفيقه «أورال جيريك»، الذي شاركه محاولة اغتيال يوحنّا بولس الثاني، إن هما قضيا عليه. وفي مرحلةٍ لاحقةٍ، اعترف بأنّه ذراع المخابرات السوڤييتيّة، وأنّه تلقّى جواز سفره، وتعليمات الاغتيال في «صوفيا»، وأنّ عملاء بلغاريّين هم الذي درّبوه وأعدّوه للمهمّة، وقد أدلى بأسمائهم الحركيّة، وبأرقام هواتفهم الحقيقيّة.

غير أنّه ما انفكّ يناقض نفسه، وينفي ما سبق له تأكيده، ويطلق تصريحاتٍ حمقاء، مثل ادّعائه أنّه المسيح. وأسهمت زيارة البابا إلى بلغاريا عام **٢٠٠٢**، وتصريحه بأنّه لم يصدّق، يومًا، ضلوع بلغاريا في محاولة اغتياله، في إعادة تشويش الأدلّة. وبقيت تلك القضيّة لغزًا، مع بقاء ترجيح كفّة التحريض السوڤييتيّ. وكان قد خيّل إلى فضوليّين توفّر فرصة فكّ ذلك اللغز، من خلال تحليل حركات شفتيْ محمّد علي أغشا، عندما زاره البابا في سجنه، عام **١٩٨٣**. ولكنّ كلّ المحاولات أخفقت في إحداث ثغرةٍ في جدار ذلك السرّ... واقتصر ما أزاح البابا نفسه عنه النقاب، على خشية المجرم من انتقام «الإلهة» فاطمة، التي درأت عنه الموت. فقد كان المجرم راسخ الثقة بأنّ رصاصته قاتلةٌ، ولكنّه سمع من التيليفزيون، وقرأ في الصحف، أنّ تلك «الإلهة» وقته، وردّت عنه موتًا محتّمًا. وهدّأ البابا روعه بأنّ السيّدة العذراء رحيمةٌ مثل ابنها، وتغفر للتائبين.

وقد أغلق يوحنّا بولس الثاني نفسه باب النقاش، في هذا الشأن، بقوله إنّ محاولة اغتياله كانت «عمل إبليس»!

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ محمّد علي أغشا لم يبدِ، يومًا، ندمًا على فعلته، بل ظلّ يعاني شعور إحباطٍ، من جرّاء إخفاقه في القضاء على حياة يوحنّا بولس الثاني، رغم مهارته في الرمي، ودقّة تصويبه، واستخدامه أداةً قاتلةً. ومع ذلك ما انفكّ البابا يستقري أخباره، وقد استقبل أمّه، وتعاطف معها، وأسهم في تحريره من سجنه الإيطاليّ.

محاولات اغتيالٍ أُخرى

أشرنا إلى محاولة الاغتيال الثانية التي تعرّض لها يوحنّا بولس الثاني، في أثناء زيارته إلى مدينة فاطمة في ١٩٨٢/٥/١٣، كي يشكر للسيّدة العذراء إنقاذ حياته من محاولة اغتياله في روما، قبل عامٍ، رغم تطمين الأسقف المحلّيّ للبابا بقوله: «لن يحبّك أيّ مكانٍ في العالم، كما يحبّونك هنا». وكان رعدٌ من التصفيق قد دوّى عندما ألمح الأسقف إلى ثوب البابا الأبيض الملطّخ بدمه، من جرّاء محاولة اغتياله في روما. ومع ذلك، فيما كان الحبر الأعظم يتوجّه، في تطوافٍ مهيبٍ إلى كاتدرائيّة الظهورات، شقّ الموكب شابٌّ يرتدي صايةً كهنوتيّةً سوداء، شاهرًا خنجرًا صوّبه إلى قلب الحبر الأعظم، جائرًا: «إنّي أتّهمك بتدمير الكنيسة! الموت للمجمع الڤاتيكانيّ الثاني!». وهبّ الحرس لردعه وتقييده، أمّا البابا، فدنا منه، وباركه. هذه المحاولة لم يشهدها سوى المحيطين بالحبر الأعظم، فيما تابع الشعب تطوافه واحتفاله، وما لبث البابا أن باركه، وكأنّه لم يحدث شيءٌ.

وكانت محاولةٌ أُخرى قد أخفقت يوم ١٩٨١/٢/١٦ في عاصمة الباكستان، عندما تفجّرت قنبلةٌ في يد من كان يعدّها لقتل البابا، عشرين دقيقةً قبل موعد مرور سيّارته في مكان الانفجار.

وعام ١٩٨٤، في مدينة تورنتو الكنديّة، اعتُقل مجرمٌ مزوّدٌ ببطاقة دعوةٍ مزوّرةٍ، وبمديةٍ. وفي مانيلاّ، في الفيليبّين، عام ١٩٩٥، اكتشف رجال الأطفاء، في شقّةٍ محاذيةٍ للسفارة البابويّة، حيث كان مقرّرًا أن يقيم الحبر الأعظم، في أثناء زيارته لتلك البلاد، مخبأ أسلحةٍ، ومتفجّراتٍ، ومخطّطاتٍ إجراميّةً مريعةً.

وكان قد استأجر تلك الشقّة الإرهابيّ «رمزي يوسف»، أحد منفّذي تفجير المركز التجاريّ في نيويورك قبل سنتين.

وبمناسبة زيارة البابا إلى قبر القدّيس «غرينيون دي مونفور»، في فرنسا، عام ١٩٩٦، اكتشف كاهنٌ أربعة قضبان متفجّراتٍ في قبو الكنيسة. وفي سراييڤو، عطّلت قوى الأمن قنبلةً كبيرة الحجم، مخبّأةً تحت جسرٍ كان مخطّطًا أن تمرّ فوقه سيّارة الحبر الأعظم. وعام ٢٠٠٠ تلفّظ متطرّفون يهودٌ، في القدس، باللعنة الطقسيّة التي كانوا قد تلفّظوا بها، قبل اغتيال رئيس وزرائهم، إسحق رابين.

وكان الكردينال «دي كورتريه» (Decourtray)، قد بلّغ البابا أنباءً مقلقةً عن محاولةٍ لاغتياله، عام ١٩٨٦، بمناسبة زيارته إلى مدينة «ليون» الفرنسيّة. فجنّدت السلطات عشرة آلاف جنديٍّ لحراسته. ولكنّ البابا قال للكردينال: «**إنّي أؤكّد لنيافتكم أنّ ما من مكانٍ أشدّ خطرًا من ساحة القدّيس بطرس!**».

كلّ هذه المحاولات كانت تشيع الهلع في قلوب المؤمنين، وتقضّ مضاجع رجال الأمن المكلّفين بحماية موكبه، ولكنّها لم تكن تهزّ وترًا في نفس يوحنّا بولس الثاني، الذي كان قد أعلن، في نيكاراغوا، عام ١٩٨٢، «إنّ الله هو الذي يضمن سلامتي!». ولكن، كان يضايق الأب الأقدس تشديد التدابير الأمنيّة من حوله، وفي وجه الحجّاج المشاركين في اللقاءات العامّة الأسبوعيّة، الذين يتعرّضون للتفتيش. فمثل هذه الحراسة الصارمة، غالبًا ما كانت تفقده الكثير من متعة الاتّصال المباشر بالجماهير، الذي كان كلِفًا به، ويحول دون مصافحته من يمدّون له أيديهم، أو تلقّي أطفالهم لمباركتهم.

تعيين الكردينال جوزف رتسنغر رئيسًا لمجمع العقيدة والإيمان

رغم وهنه، لم يستسلم يوحنّا بولس الثاني للتواني. بل ظلّ يسكنه ويحثّه همّ الكنيسة والعالم. وحيث لم يستطع الشخوص، كان يوجّه رسائل، كما فعل بمناسبة المؤتمر الإفخارستيّ، الذي عُقد في لورد بين ١٦ و٢٣ تمّوز ١٩٨١، وحيث وجّه رسالةً متلفزة.

وفي ١٤ أيلول أصدر رسالته العامّة عن «العمل البشريّ» : (Laborem exercens).

ومنذ السابع من تشرين الأوّل، استأنف اللقاءات العامّة الأسبوعيّة، ثمّ لم يلبث أن استأنف زياراته إلى الرعايا الإيطاليّة.

وفي ١٩٨١/١١/٢٥، عيّن على رأس مجمع العقيدة، والإيمان الكردينال «جوزف رتسنغر»، المولود عام ١٩٢٧، والذي كان أصغر أستاذ لاهوتٍ سنًّا في ألمانيا، ومستشارًا للكردينال «فرنغس» (Frings)، وأعدّ له ثلاث مداخلاتٍ مؤثّرةٍ، في المرحلة الأولى من المجمع الڤاتيكانيّ الثاني. وقد تنبّه لبعض نزعاتٍ لاهوتيّةٍ، أخذت تنأى عن تعليم الكنيسة الأصيل الصحيح، فأسّس مجلّة «الشراكة» (Communio)، بالتعاون مع لاهوتيّين مرموقين أمثال «هنري دي لوباك»، بغية تقديم شرحٍ سليمٍ لمقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، ما جعله بغيضًا في عيون لاهوتيّين آخرين، كانوا ينهجون نهجًا مختلفًا، وقد اتّخذوا منبرًا لنشر آرائهم مجلّة «المجمع» (Concilium).

وفي غمرة هذا السجال، وضع كتاب «مدخل إلى المسيحيّة»، أوجز فيه دروسه في جامعة «توبنغن» (Tubingen). وفي ربيع عام ١٩٧٧، انتزعه البابا بولس السادس من كرسيّ التعليم الجامعيّ، وعيّنه كردينالاً، ورئيس أساقفةٍ على رعيّة «ميونيخ فريزينغ».

أوّل لقاءٍ شخصيٍّ له مع الكردينال «ڤويتيووا» تمّ عام ١٩٧٨، في أثناء اجتماع الكرادلة، ولكنّهما كانا، منذ أربع سنواتٍ، يتبادلان الكتب. وقد رسم الكردينال «رتسنغر» عن زميله «ڤويتيووا»، اللوحة التالية: «إنّ أوّل ما اجتذبني إليه هو صراحته، وانفتاحه الذهنيّ، وبساطته، والمودّة المنبعثة منه، ومرَحه. كان لديه وَرعٌ لا خداعَ فيه ولا تظاهر، بل كان يوحي أنّه رجل الله حقًّا. وفضلاً عن ذلك كان متميّزًا، أصيلاً، ذا ماضٍ فكريٍّ وشخصيٍّ عريقٍ، وبالإجمال كان يتحلّى بكلّ ما يميّز الإنسان. كان قد تألّم وكافح، على دروب دعوته، وخَبَرَ مآسي الاحتلال النازيّ، وعانى الاحتلال الروسيّ، والنظام الشيوعيّ. ونهج

دربه الفكريّ الخاصّ. كان قد استبحر في دراسة الفلسفة الألمانيّة، وألمّ إلمامًا عميقًا بتاريخ أوروبّا الفكريّ، وبمراحل تاريخ اللاهوت الأساسيّة، الخارجة عن الدروب المطروقة. هذا الغنى الفكريّ، وكَلَفه بالحوار والتواصل، اجتذباني إليه منذ الوهلة الأولى».

يُعدّ هذا التعيين من أخطر قرارات حبريّة يوحنّا بولس الثاني، وقد أكّد أخذه قضيّة اللاهوت واللاهوتيّين على محمل الجدّ. فرتستنغر تميّز بكتاباته، وبمعرفته اللاهوتيّة الموسوعيّة، وكان أصدقاؤه وأعداؤه، على السواء، يعتبرونه لاهوتيًّا رفيع المستوى. وقد أثبت يوحنّا بولس الثاني، بتعيينه شخصًا من هذا الطراز، عوضًا عن أحد دهاقنة الإدارة الڤاتيكانيّة، رغبته الصادقة في إجراء تجدّدٍ لاهوتيٍّ، يتماشى مع توجّهات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، وفي عقد حوارٍ حديثٍ مع المجتمع اللاهوتيّ الدوليّ. وهو، بتعيينه لاهوتيًّا غير مقيّدٍ بتعليم القدّيس توما الأكوينيّ حصرًا، عبّر عن رغبته في انتهاج التعدّدية في المناهج اللاهوتيّة، والأخذ بهذه التعدّديّة في ميدان التعليم اللاهوتيّ.

هذا التعاون بين فيلسوفٍ ولاهوتيٍّ، بين پولونيٍّ وألمانيٍّ، أشار إلى انتهاج تعليم الكنيسة مرحلة المعاصرة، المُعِدّة لربيعٍ إنجيليٍّ في القرن الحادي والعشرين، يعقب شتاء القرن العشرين؛ ويضفي على عمل الكنيسة مزيدًا من نقاءٍ واستقلاليّةٍ، ولا سيّما أنّ الكردينال رتسنغر كان يرى أنّ مشروع الغرب الإنسانيّ قد دخل مرحلة انحطاطٍ مقلقةً.

وكان رتسنغر يلمس لدى الراعي الكاريسماتيّ «ڤويتيووا»، «هوًى إنسانيًّا» وقدرةً فريدةً على إبراز «بُعد التاريخ الروحيّ»، كفيلَيْن بجعل الكنيسة بديلاً لنظريّات العصر الإنسانيّة الزائفة، في حين كان يوحنّا بولس الثاني يرى في رتسنغر لاهوتيًّا واسع العلم، خجولاً، ومفكّرًا معاصرًا. ولكنّهما، معًا، ألّفا فريقًا رائعًا، تعاون مدى نحو عشرين سنةً، في تناغمٍ مثمرٍ. وكانا يلتقيان، لقاءً خاصًّا، مساء كلّ يوم جمعةٍ، ويوم الثلاثاء مع كرادلةٍ آخرين، قبل الغداء وبعده، للتداول في الأمور الطارئة.

تحوّلاتٌ حاسمةٌ في پولونيا

مع انغماسه في أحداثه الشخصيّة، والشؤون الكنسيّة والعالميّة الخطيرة، لم ينأَ يوحنّا بولس الثاني، يومًا، عن همّ وطنه، حيث كان مخاضٌ أليمٌ يُعِدّ لولادةٍ سعيدةٍ، ولخلاصٍ واسع الآفاق.

فالفتيل الذي كانت زيارته إلى پولونيا عام **١٩٧٩**، قد أشعلته، كان ماضيًا في الاضطرام، بتؤدةٍ، ولكن بحزمٍ؛ وقد زادت نار تلك الثورة استعارًا، محاولة الحزب الشيوعيّ الپولونيّ دعم ميزانيّة الدولة المنهارة، عن طريق زيادة أسعار معظم أصناف اللحوم، بنسبٍ تتراوح بين ثلاثين بالمئة ومئةٍ بالمئة. فثارت ثائرة العمّال في مدينة لوبلان، الذين كانوا، حتّى قبل هذه الزيادة، يئنّون من ضآلة رواتبهم، وأعلنوا الإضراب، مطالبين برفع قيمة أجورهم. وتضامن معهم عمّال السكك الحديديّة، والمخابز، ومحلاّت بيع الألبان.

وقد شجّعهم هذا التضامن على إضافة مطالب سياسيّةٍ إلى مطالبهم الاقتصاديّة، فطالبوا السلطات بالاعتراف بحقّ الإضراب، وبعدم إلحاق أيّ عقابٍ بالمضربين، وبانتخاباتٍ جديدةٍ داخل النقابات الرسميّة، وبعقد نقاشٍ مباشرٍ مع السلطات الحكوميّة. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يتجرّأ فيها الپولونيّون على المطالبة الصريحة بحرّيّةٍ حقيقيّةٍ، ما كان يعني انصرام عهد العبوديّة، التي كانت تروّض الجائعين بلقمة طعامٍ مشبعةٍ بالإذلال.

وتردّدت لإضراب «لوبلان» أصداءٌ في جميع أرجاء البلاد، ولا سيّما في حوض مصنع سفُن «غدانسك»، حيث سُرِّحت، تسريحًا تعسّفيًّا، عاملةٌ كانت عضوًا في نقابة المصنع منذ سنواتٍ، فقرّر عمّال المصنع الذين يبلغ عددهم سبعة عشر ألفًا، الإضراب والاعتصام داخل المصنع. وتزعّم حركتهم نقابيٌّ آخر، كهربائيٌّ، يدعى «ليش ڤاليسّا»، وكان هو، أيضًا، قد سُرِّح تعسّفًا. وفي ذلك اليوم اضطرّ إلى تسلّق سور المصنع البالغ أربعة أمتارٍ، ارتفاعًا، كي ينضمّ إلى رفاقه، ويستعيد مكانه في المصنع الذي أُبعد عنه، افتئاتًا.

وقد نظّم المضربون لائحة مطالب، اختلطت فيها الاحتياجات الاقتصاديّة

بمطالب سياسيّةٍ وإنسانيّةٍ، منها إيجاد نقابة عمّالٍ حرّةٍ مستقلّةٍ، وتعويضاتٌ عن المجازر التي ارتُكبت بحقّ العمّال المضربين، عام ١٩٧٠، وإقامة نصْبٍ تذكاريٍّ للعمّال الذين استُشهدوا، في تلك المناسبة.

وأملاً في تهدئة النفوس، سمحت السلطات لكاهنٍ بإقامة قدّاسٍ داخل المعمل، فاحتفل كاهن الرعيّة التي ينتمي إليها «ليش ڤاليسّا»، يوم ١٧ آب ١٩٨٠، بقدّاسٍ في الهواء الطلق، حضره أربعة آلاف عاملٍ مضربٍ، فيما احتشد ألفان من أقاربهم وأصدقائهم أمام باب المصنع الموصد. وكان العمّال قد صنعوا صليبًا عملاقًا، باركه الكاهن قبل نصبه عند الباب رقم ٢، بمثابة نصبٍ تذكاريٍّ، يخلّد ذكرى العمّال الذين سقطوا عام ١٩٧٠ برصاص السلطات. وكان لذلك القدّاس، ولنصب ذلك الصليب، مغزًى فريدٌ، تناقلته وسائل الإعلام العالميّة، التي أشادت بعمّالٍ يتحدّون دولةً تدّعي كونها دولة عمّالٍ، وراء أسوارٍ مزيّنةٍ بإيقونة العذراء السوداء، ورُموزٍ دينيّةٍ أُخرى، والتي، من خلالها، عبّر عمّالٌ پولونيّون عن التزامهم بالحقائق التي بشّر بها يوحنّا بولس الثاني عام ١٩٧٩، وعن عزمهم استعادة كرامتهم الإنسانيّة المسلوبة، وإعلان حرصهم على الحرّيّة. وكانت صورة العذراء الملصقة على أبواب المصنع، والقدّاس الذي يقام يوميًّا، وطوابير العمّال الذين ينتظرون دورهم أمام كراسي الاعتراف، في الهواء الطلق، تؤشّر إلى وجه المعركة التي انخرطوا فيها. فقد كانوا عاقدي العزم على تحقيق ثورةٍ سلميّةٍ منضبطةٍ، يؤكّدون، من خلالها، أنّ جميع دعاة الثورات الدامية كانوا على ضلالٍ.

بادئ الأمر، لم يتبيّن معظم الأساقفة الپولونيّين، أبعاد هذه الثورة الحقيقيّة. غير أنّ يوحنّا بولس الثاني ما كاد يطّلع على ما يجري في وطنه، حتّى هبّ لمناصرة العمّال المطالبين بحقوقٍ لا يسوغ لأحدٍ انتهاكها. ففي اللقاء الأسبوعيّ العامّ، يوم ٢٠ آب ١٩٨٠، ناشد الحجّاج والزائرين أن يصلّوا من أجل موطنه. ثمّ وجّه رسالةً إلى الكردينال «ڤيشينسكي»، عميد أساقفة پولونيا، عبّر فيها عن تأييده لمطالب عمّال «غدانسك» المضربين. وممّا ورد في رسالته: «**إنّني أصلّي، من كلّ قلبي، لكي يستطيع الأساقفة، وعلى رأسهم عميدهم، مرّةً أُخرى، مساعدة**

هذه الأمّة، في كفاحها من أجل الخبز اليوميّ، والعدالة الاجتماعيّة، ومن أجل صون حقوقها الثابتة، في وجودها ونموّها الخاصّين بها».

هذا الموقف تبنّاه أساقفةٌ آخرون، ومفكّرون، وصحافيّون هرعوا إلى إسداء النصح والعون للعمّال المضربين، محقّقين رغبة الحبر الأعظم في قيام شبكة تضامنٍ بين مختلف فئات الأمّة. غير أنّ عميد أساقفة پولونيا، الكردينال «ڤيشينسكي»، الذي كان يؤرّقه الخوف من تدخّلٍ سوڤييتيٍّ ساحقٍ، ألقى عظةً، يوم **٢٦** آب، الموافق لعيد سيّدة «تشينستوهوڤا»، طغت عليها نبرة التردّد في مناصرة المضربين. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني، في اليوم التالي، وفي أثناء لقاءٍ عامٍّ مع حجّاجٍ، سارع إلى إزاحة المرارة التي غزت نفوس العمّال، معلنًا، من خلال عظةٍ، كان يذيعها، على العالم، راديو الڤاتيكان. فبعد أن أوكل إلى سيّدة «تشينستوهوڤا»، المشاكل الجسيمة والخطيرة التي يواجهها وطنه، هبّ لنصرة العمّال المضربين، مؤكّدًا أنّ القضايا التي يثيرونها إنّما هي قضايا حقيقيّةٌ، لا يمكن حلّها، إلاّ بإحلال السلام والعدل في پولونيا. وبعد ظهر ذلك اليوم عينه، أصدر مجلس الأساقفة الپولونيّين بيانًا أيّدوا فيه، صراحةً، مطلب العمّال بإنشاء نقابةٍ مستقلّةٍ، حرّةٍ، وحقّهم الأساسيّ بتنظيم أنفسهم، ودعموا رفضهم العودة إلى الوضع السابق، وإصرارهم على إنشاء نقاباتٍ لا سلطة للدولة على رقابتها. ففي ذلك يكمن عاملٌ أساسيٌّ للتجدّد الوطنيّ.

بفضل موقف البابا العلنيّ الشجاع، وبيان مجلس الأساقفة الصريح، صمد العمّال، واضطرّ المفاوضون الحكوميّون إلى التسليم بمطالبهم، مسقطين، بذلك، ادّعاء الشيوعيّين أنّ العمّال يحتاجون إلى حزبٍ تقدّميٍّ يبيّن لهم مصالحهم. وفي الواقع، لم يكن قبول النظام بنقاباتٍ مستقلّةٍ، إلاّ قبولاً بمشاركة العمّال في السلطة، وبداية نهاية الحكم الشموليّ.

وهكذا وُلدت نقابة «التضامن»، «سوليدارنوش». وفجّر انتصار «غدانسك» إضراباتٍ في كلّ المصانع الحكوميّة، على طول البلاد وعرضها، مطالبةً بمثل ما ظفرت به نقابة «غدانسك». في هذه الأثناء، كان أمين الحزب الشيوعيّ الپولونيّ، «إدوار جيريك»، قد أُقصي عن منصبه، وعُيّن، محلّه، رئيس

المخابرات، «كانيا»، الذي وعد «الپوليتبورو» السوڤييتيّ، بالعودة إلى قِيَم «لينين»، وإلى انتهاج خطّ الحزب الأصيل.

وكانت عشرات النقابات في «غدانسك»، قد وضعت لنفسها أنظمةً أساسيّةً، وسجّلتها، رسميًّا، لدى الدوائر الحكوميّة في ڤرسوڤيا. وبدا واضحًا للعيان أنّ تلك لم تكن مجرّد حركةٍ نقابيّةٍ، بل كانت «حملةً مدنيّةً من أجل تجدّدٍ وطنيٍّ». ولم يخفَ على أحدٍ أنّ ملهم كلّ تلك التحوّلات كان يوحنّا بولس الثاني، من خلال زيارته إلى وطنه، بُعَيْد انتخابه على السدّة البابويّة.

وجهدت السلطات في إفشال هذه التطوّرات، فماطلت في تطبيق اتّفاقات «غدانسك». ولكنّ النقابات، متخطّيةً الحظر المفروض عليها باستخدام وسائل الإعلام، استطاعت دعوة كلّ النقابات العمّاليّة، في كلّ البلاد، إلى ساعة إضرابٍ تحذيريٍّ، يوم ١٩٨٠/١٠/٣. وقد تمّ الإضراب، بانتظامٍ مدهش. فمنذ الساعة الثانية عشرة حتّى الثالثة عشرة، انقطع جميع عمّال پولونيا عن العمل، ما اضطرّ لجنة الحزب المركزيّة إلى إعادة النظر في مواقفها. ومع ذلك ظلّت المحاكم ترفض تسجيل نظام نقابة «سوليدارنوش» الأساسيّ، واستمرّت التوتّرات طيلة شهر تشرين الأوّل. وفي منتصف ذلك الشهر، أكّد مجلس الأساقفة الپولونيّين دعمه للعمّال، ومطالبته بتنفيذ اتّفاقيّة «غدانسك». واستقبل الكردينال «ڤيشينسكي» ممثّل نقابةٍ «سوليدارنوش» في ڤرسوڤيا، وأكّد له دعمه اللامحدود. ثمّ، تحدّث، بهذا الشأن، مع أمين الحزب الشيوعيّ الپولونيّ المعيّن حديثًا، قبل أن يشخص إلى روما للمشاركة في اختتام سينودُس الأُسرة، وإطلاع الحبر الأعظم على ما يجري في وطنهما.

وعندما تحرّك، أخيرًا، الجهاز القضائيّ الشيوعيّ، ارتكب خطأً جسيمًا أعاد إشعال الأزمة. فقد أعلن تسجيل نظام نقابة «سوليدارنوش» رسميًّا، ولكنّه كان قد أقحم في نصّ هذا النظام، ومن جانبٍ واحدٍ، ومن غير إخطار النقابة، بندًا يعترف بدور الحزب الشيوعيّ قائدًا للمجتمع. فاستنكر «ليش فاليسّا» هذه الإضافة الاعتباطيّة، وتضامن معه ثمانية ملايين نقابيٍّ، رافضين أيّ تعديلٍ، يُفرض قسرًا، لنظامٍ، تمّ التوافق عليه ديمقراطيًّا.

وتفاقم التوتّر، وعلى اللافتات التي كانت قد ملأت الشوارع، مطالبةً بتسجيل نظام نقابة «سوليدارنوش»، أضيفت عبارة «بلا تعديل». وفي العاشر من شهر تشرين الثاني، تمّت، أخيرًا، تسوية قضيّة ذلك التسجيل.

في الواقع، لم تكن نقابة التضامن مجرّد نقابةٍ عمّاليّةٍ، بل كانت حزب معارضةٍ مموَّهًا. هذا الواقع لم يكن خافيًا عن السلطات السوڤييتيّة، التي، فيما كانت، ظاهريًّا، تصانع نقابة «سوليدارنوش»، كانت تعدّ خطّةً سرّيّةً للقضاء على تلك النقابة، وكلّ ما تمثّله، وكلّ حلم تغييرٍ. تلك الخطّة، التي كان مقرّرًا أن تنفّذ في غضون يومين، كانت تقضي أن تغزو پولونيا، في اليوم الأوّل، اثنتا عشرة فرقةً سوڤييتيّةً، وفرقتان تشيكيّتان، وفرقةٌ ألمانيّةٌ شرقيّةٌ، تنضمّ إليها، في اليوم الثاني، تسع فرقٍ سوڤييتيّةٍ، تساندها فرقٌ من حلف ڤرسوڤيا. غير أنّ سرّ هذا الغزو سرعان ما هُتِك، وأخطر به مستشار الأمن القوميّ في الولايات المتّحدة، وهو پولونيّ الأصل، البابا يوحنّا بولس الثاني، وسارعت الولايات المتّحدة، والهند، وألمانيا الغربيّة، وفرنسا، وحلف شمال الأطلسيّ، إلى تحذير موسكو من عواقب هذا الغزو؛ وكان لهذا التحذير، فضلاً عن تورّط الاتّحاد السوڤييتيّ في أفغانستان، وخشيته من مواجهة حكمٍ أميركيٍّ جديدٍ برئاسة ريغان، يعلن عداءه السافر للشيوعيّة، أثرٌ محقّقٌ في إجهاض خطّة الغزو. وقُيِّضت لـپولونيا النجاة من مجزرةٍ رهيبةٍ، ومن دوام احتلالٍ مدمّرٍ.

مداخلة البابا يوحنّا بولس الثاني

حيال الخطر الداهم الذي يهدّد وطنه، بعث يوحنّا بولس الثاني برسالةٍ إلى «ليونيد بريجنيف»، استخدم فيها لغةً دبلوماسيّةً، ولكنّها انطوت، في الآن عينه، على تحذيرٍ واضحٍ، مذكّرًا بوقفة پولونيا إلى جانب الحلفاء، في مواجهة النازيّة، ما كلّفها فقدان ستّة ملايين من أبنائها، أي خُمس مواطنيها، ومذكّرًا، أيضًا، باتّفاقات «هِلسينكي»، التي تضمن سيادة كلّ بلدٍ، وعدم التدخّل في شؤونه الداخليّة، وموضحًا أنّ ما يحدث في پولونيا يقتضي تضامن جميع القوى العاملة من أجل إعادة بناءٍ اقتصاديٍّ وأخلاقيٍّ، إذ إنّ المبادئ الأخلاقيّة تلعب

دورًا هامًّا في العلاقات بين الأمم، وعلى هذه المبادئ قامت معاهدة «هلسينكي»، ولدى توقيعها كان الاتّحاد السوفييتيّ قد اعترف ببولونيا، بلادًا مستقلّةً. وتمنّى أن يفعل «بريجينيف» كلّ ما يسعه، من أجل تبديد التوتّر المحتدم.

وتأكيدًا لقناعته بأنّ مأساة أوروبّا الشرقيّة تقوم على أسبابٍ ثقافيّةٍ ودينيّةٍ، أصدر يوحنّا بولس الثاني رسالةً عامّةً، بعنوان «رجالٌ يتميّزون بفضائل ساميةٍ» (Egregiae virtutis)، حيث أعلن الرسولَيْن اللذين بشّرا الشعوب السلافيّة، الأخويْن «كيرلّس وميتوديُس»، شريكين لشفعاء أوروبّا، إلى جانب بينيدكتُس مؤسّس النسك الغربيّ.

كان الأخَوان كيرلّس وميتوديُس قد وضعا أبجديّةً سلافيّةً، وبها ترجما الكتاب المقدّس، وأوصلا اللغة المكتوبة إلى السلافيّين الغربيّين من خلال كلام الله، وأسّسا قواعد ثقافةٍ دائمةٍ في أوروبّا الشرقيّة. ثمّ أنقذ الرهبان البينيدكتيّون هذا الإرث، في حقبةٍ كانت غارقةً في الجهل والفساد الأخلاقيّ.

خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٨١، كافحت «سوليدارنوش» كي ترسّخ جذورها، وتحقّق ثورتها الاجتماعيّة، في انضباطٍ واعتدالٍ. وكان «ليش ڤاليسّا»، قبل ذلك، قد عاهد نفسه، إن هو خرج سالمًا من إضرابات «غدانسك»، وإن تحقّق إعلان نقابةٍ مستقلّةٍ، أن تكون رحلته الأولى للخارج إلى الڤاتيكان، من أجل شكر البابا. وفي ١٩٨١/١/١٥، قام وفدٌ من قادة «التضامن» بلقاء يوحنّا بولس الثاني في الڤاتيكان. وقد انتهز الحبر الأعظم هذه المناسبة، كي يبيّن رأيه في القوى التي تقود التاريخ، موضحًا أنّ الإسهام في خير المجتمع الأخلاقيّ، هو حجر زاوية مشروع نقابة «سوليدارنوش»، ونقطة انطلاق كلّ تقدّمٍ حقٍّ نحو نهضةٍ وطنيّةٍ. فسوليدارنوش ثورةٌ من نمطٍ مختلفٍ، «**ليست جهودها موجّهةً ضدّ أحدٍ، إنّها موجّهةٌ نحو أيٍّ كان، وليس ضدّه. إنّها موجّهةٌ صوب الخير العامّ، ليس ضدّه**». وإنّ السعي إلى هذه النهضة الوطنيّة، هو حقٌّ تعترف به الشرائع الدوليّة وتؤكّده. ثمّ عاد وفد «سوليدارنوش» إلى الڤاتيكان يوم الأحد، ١٩٨١/١/١٨، وحضر قدّاس البابا، وتناول الإفطار معه. وبهذه المناسبة، ألقى قداسته عظةً ختمها بتمنّي أن يخدم عمل الپولونيّين

الكرامة الإنسانيّة، وأن يرقى بالإنسان وبالأُسرة، وبالشعب أجمع. وأكّد أنّ نقابة «تضامن» ستخدم قضيّة الحرّيّة الكبرى، إن التزم جميع أعضائها بقول الكتاب المقدّس: «إنّي آتٍ، يا ربّ، آتٍ لتنفيذ مشيئتك».

واشتعل الوضع اليولونيّ ثانيةً، إثر رفض السلطات الاعتراف بنقابة «التضامن» الفلاّحيّة. وفي الثالث من آذار، استُدعي أمين الحزب الشيوعيّ ورئيس الوزراء إلى موسكو، للتشاور مع اللجنة المركزيّة، التي لم تتخلّ عن قرار القضاء على «سوليدارنوش»، ولكن، في هذه النوبة، لا عن طريق غزو پولونيا، بل عن طريق إخضاعها للأحكام العرفيّة، التي كانت موسكو ترى في الجنرال «ياروزيلسكي»، المعيّن حديثًا، رئيسًا للوزراء في پولونيا، الرجل الكفيل بتطبيقها.

في هذه الأثناء، تواترت الأحداث الناجمة عن اضطهاد السلطات لأعضاء نقابة التضامن. وبتاريخ ٢٧ آذار، شلّ إضرابٌ استمرّ أربع ساعاتٍ مجمل البلاد. وتأهّب بضع عشرات آلاف البولونيّين، للقيام بأضخم تحدٍّ للحزب الشيوعيّ في أوروبّا الشرقيّة، وحدّدوا يوم ٣١ آذار موعدًا لإضرابٍ شاملٍ غير محدّد المدّة، دعمًا لنقابة تضامن الفلاّحيّة، وللمطالبة بمعاقبة من نكّلوا بالنقابيّين، وكانوا قد قرّروا، أيضًا، احتلال المصانع والاعتصام فيها. ولكنّ شائعة الغزو السوڤييتيّ لـپولونيا، طغت على السطح من جديد.

يوم ٢٨ آذار، وجّه يوحنّا بولس الثاني إلى عميد أساقفة پولونيا، الكردينال «ڤيشينسكي»، رسالةً أوصاه فيها بتدارك المواجهة، عبر مواصلة الحوار مع السلطات، مطالبًا، في الآن عينه، السلطات بتنفيذ بنود الاتّفاق الذي كان قد عُقِد في الخريف السابق، ومعلنًا أنّ للپولونيّين حقًّا، لا جدال حوله، في حلّ مشاكلهم بأنفسهم، وبجهودهم الخاصّة، ومؤكّدًا أنّه، مع كبير الأساقفة، ينحني أمام إيقونة سيّدة «ياسنا غورا»، التي أُعطيت للپولونيّين من أجل الذود عن حياض أمّتهم، والتي إليها يوكل هذا الظرف العصيب في حياة الوطن... وكان كبير الأساقفة، هو أيضًا، مع مساندته المنيعة لنقابة التضامن الفلاّحيّة، يؤثر العدول عن الإضراب المقرّر، لمصلحة البلاد العليا، ولا سيّما أنّ وكالة «تاس» للأخبار السوڤييتيّة، قد شرعت تلمّح إلى انقلابٍ تعدّ له نقابة التضامن. ومساء

التاسع والعشرين من آذار، زار ممثّل الحكومة الكردينال «ڤيشينسكي»، وأراه إعلانات الأحكام العرفيّة، التي كانت قد طبعت كي تعمَّم في تلك الليلة.

وفي **٣٠** آذار، أعلن «ليش فاليسّا» والقادة النقابيّون تعليق الإضراب، بعد أن توصّلوا، مع السلطات، إلى تسويةٍ تقضي بمعاقبة عناصر الأمن الذين نكّلوا بنقابيّين، وبعد أن انتزعوا وعدًا باعترافٍ رسميٍّ قريبٍ بنقابتهم. هذا الموقف من قِبَل «ليش ڤاليسّا»، عدّه نقابيّون كُثُرٌ خيانةً لقضيّتهم، وسارع عددٌ منهم إلى إعلان انسحابهم من النقابة.

في هذه الأثناء، كان الكرملين يلحّ على مسؤولي الحزب الشيوعيّ الپولونيّ، والسلطات المحلّيّة، كي يعلنوا، بلا تلكّؤٍ، حالة الطوارئ. ولكنّ هؤلاء أجابوا أنّهم يُحكمون القبض على مقاليد الأمور، وسيقومون بما تقتضيه الظروف، في الوقت المناسب.

وفي العاشر من شهر نيسان، قرّر البرلمان الپولونيّ حظر الإضرابات لمدّة شهرين، وبدا أنّ أزمة ربيع پولونيا قد تلاشت.

ولكن في الخامس من أيلول **١٩٨١**، انعقد مؤتمر نقابة «سوليدارنوش»، بحضور تسع مئة عضوٍ يمثّلون نحو عشرة ملايين عاملٍ، واتّخذوا قرارًا جريئًا يدعو إلى إجراء تغييرٍ جوهريٍّ في قيادة البلاد، وصفه الاتّحاد السوڤييتيّ «تحدّيًا بشعًا». ولأنّ «ليش ڤاليسّا» أبدى شيئًا من الاعتدال، لم يُعَدْ انتخابه على رئاسة النقابة، إلاّ بخمسةٍ وخمسين بالمئة من الأصوات.

وفي اليوم التالي، أعلن يوحنّا بولس الثاني، أمام حجّاج پولونيّين زاروه في مقرّه الصيفيّ، «**إن حقّ وطننا في الاستقلال هو شرطٌ يتعلّق به سلام العالم**». وكان مرشد نقابة التضامن في أثناء انعقاد مؤتمرها، قد أوضح فكر الحبر الأعظم في هذا الشأن، فبيّن البوْن الشاسع بين مفهوم الماركسيّة للعمل، والمفهوم المسيحيّ الإنسانيّ له، القائم على المشاركة. هذا المفهوم كان يوحنّا بولس الثاني قد فصّله، من خلال رسالته العامّة: «عمل الإنسان»، الذي كان قد صدر حديثًا، وأكّد فيه كرامة العمل البشريّ. فغاية العمل هي نموّ الإنسان كيانيًّا،

وليست مجرّد مضاعفة الإنتاج. ومن ثمّ، للعمل بُعدٌ روحيٌّ وأخلاقيٌّ، يسبغ عليه قيمته الحقيقيّة، ويضفي على العمّال كرامتهم الخاصّة. ووفقًا لهذا المبدأ، للعمل الأولويّة على الرأسمال وعلى الربحيّة. ومن ثمّ لا يبرّر ملكيّة وسائل الإنتاج سوى قدرتها على الإبداع، وخدمة الصالح العامّ، وهذا يفرض منح العامل حرّيّة المبادرة، وحصّةً في نتاج العمل.

ولكلّ إنسانٍ حقٌّ في العمل، وفي الانضمام إلى جماعةٍ تدافع عن حقوقه. ولكلّ امرأةٍ حقٌّ في التعويض، إن هي انقطعت عن العمل من أجل تربية أبنائها، خلافًا للنظام الذي كان يُجبر الزوجَيْن على العمل، وعلى إهمال الأطفال، أو على إيكال تربيتهم إلى غرباء.

وتأكيدًا لبُعد العمل الروحيّ، استخدم قداسته، مرارًا، في رسالته، عبارة «إنجيل العمل»، مذكّرًا أنّ يسوع قد أمضى معظم حياته عاملاً. واعتبر أنّ مشاقّ العمل هي مساهمةٌ في آلام المسيح الفدائيّة.

ولا مراء أنّ هذه الرسالة وفّرت دعمًا منيعًا لنقابة التضامن.

في شهر تشرين الأوّل ١٩٨١، تفاقمت الأزمة السياسيّة والاجتماعيّة، في پولونيا، فأُسندت إلى الجنرال «ياروزلسكي» سلطاتٌ مطلقةٌ، وأمره بريجنيف بشنّ معركةٍ حاسمةٍ، من أجل «إنقاذ الاشتراكيّة (المزعومة) في پولونيا».

وصباح يوم ١٩٨١/١٢/١٢، استفاق الپولونيّون، فوجدوا الجيش وقد انتشر في كلّ مكانٍ، تؤازره المخابرات، ومعها لوائح بأسماء آلاف المواطنين وعناوينهم. واعتُقلَ رئيس نقابة التضامن، «ليش ڤاليسّا»، وأربعة آلاف مواطنٍ، وقُطعت خطوط الهواتف الأرضيّة. وفي الصباح أعلن الجنرال «ياروزلسكي» أنّ البلاد أضحت في «حالة حرب»، حرب «السلطة» على «المجتمع».

وكان سفير پولونيا في إيطاليا، قد أخطر، فجرًا، الحبر الأعظم أنّ حالة الطوارئ ستُعلَن في تلك الليلة. ولكن تعذّر على صاحب القداسة الاتّصال بأيٍّ من الأساقفة الپولونيّين، إذ كانت خطوط هواتفهم قد قُطعت.

ونُظّمت سهرة صلاةٍ في ساحة القدّيس بطرس، بالڤاتيكان، من أجل پولونيا. ومن نافذة غرفته حيّا البابا المصلّين، وشكر لهم اهتمامهم بمصير وطنه.

أمّا في پولونيا فقد احتدمت المقاومة، ومعها اشتدّ القمع، وناشد البابا الجنرالَ «ياروزلسكي» بالكفّ عن سفك الدماء، مستنهضًا ضميره وضمير جميع المسؤولين عن حلّ الأزمة.

ومع كَلَف البابا الخاصّ بعيد الميلاد، كان له عيد ميلاد **١٩٨١** من أكثر أعياد حياته حزنًا وكآبةً، منذ انتهاء الحرب العالميّة الثانية. وفي نهاية بركته التقليديّة «للمدينة وللعالم» (Urbi et orbi)، عبّر عن تمنّياته «لمواطنيه الأحبّاء»، وخاصّةً «للمتألّمين، والذين انتُزعوا من ذويهم، والذين يعانون الهواجس، والقنوط». وفي رسالة يوم رأس السنة، يوم السلام العالميّ، ندّد البابا بسلام الأنظمة الشموليّة، ثمّ عبّر عن شكره لكلّ الذين يصلّون من أجل وطنه الحبيب، ودعاهم إلى مواصلة الصلاة، فالقضيّة ليست قضيّة بلدٍ معيّنٍ، بل لها علاقةٌ بكلّ تاريخ الإنسان.

كان جليًّا أنّه لم يكن يتكلّم بلسان وطنيٍّ غيورٍ على وطنه فحسب، بل بلسان المؤمن الحريص على كرامة كلّ إنسانٍ.

هموم الكنيسة والعالم

ما كان يوحيه له وضع وطنه، پولونيا، من هواجس، ظلّ يسكنه ويشغله همّ الكنيسة الموكلة إليه، فقام بتعيين رئيسٍ عامٍّ جديدٍ للجمعيّة اليسوعيّة، وبدافع حرصه على ضخّ دمٍ جديدٍ في أوصال تلك الجمعيّة، فاجأ الجميع بتعيينٍ لم يتوقّعه أحدٌ.

واعتبارًا من شهر تشرين الأوّل **١٩٨١**، استأنف نشاطه المعتاد، ولا سيّما اللقاءات العامّة الأسبوعيّة، وجلسات التعليم الدينيّ.

وبمناسبة عيد الحبل بلا دنسٍ، في ١٩٨١/١٢/٨، أقام قدّاسًا في كاتدرائيّة «القدّيسة مريم الكبرى» بروما، وجدّد تكريس العالم والكنيسة للعذراء. وبعد ثلاثة أيّامٍ، زار كنيسةً للوثيريّين في روما، وشارك راعيها ومؤمنيها الصلاة.

ثمّ استقبل ثلاثة عشر وفد أساقفةٍ، قدموا من مختلف أنحاء العالم، مؤدّين الزيارة التقليديّة إلى الكرسيّ الرسوليّ، كلّ خمس سنواتٍ.

واستهلّ عام ١٩٨٢، بإرساله، في ١٩٨٢/١/٦، دعواتٍ إلى جميع أساقفة العالم، للصلاة من أجل الكنيسة في الصين.

وبين ١٢ و١٩ شباط، اضطلع برحلةٍ أفريقيّةٍ أُخرى قادته إلى نيجيريا، والبينان (Bénin)، والغابون حيث أدان بحزمٍ المادّيّة المتفشّية، وغينيا الاستوائيّة.

وكان قد خطّط لزيارة إنكلترا في نهاية شهر أيّار. وقد ولّد هذا النبأ آمالاً مشرقاتٍ، إذ كانت الزيارة تتضمّن لقاءً مسكونيًّا مع رئيس الكنيسة الأنغليكانيّة، «رانسي»، في كاتدرائيّة «كنتربري». وكان من شأن هذه الرسالة أن تبدّد الكثير من رِيَب البريطانيّين حول الكاثوليكيّة، وحول الڤاتيكان بالتحديد.

ولكن، في هذه الأثناء، كان الجيش الأرجنتينيّ قد انزلق إلى مغامرةٍ، غير محسوبة النتائج، باحتلاله جزر «الميلوين»، التي كانت الأرجنتين تعدّها ملكًا لها، والتي كانت إنكلترا قد احتلّتها منذ حقبةٍ طويلةٍ، ودعتها جزر «فوكلاند». وقرّرت رئيسة الوزراء «تاتشر» استعادتها بأيّ ثمنٍ. وارتسمت، في الأفق، معالم حربٍ غير متكافئة القوى، وكفيلةٍ بأن تفسّر حربًا بين معقلٍ الأنغليكانيّة ودولةٍ كاثوليكيّةٍ، بين قوّةٍ عظمى ودولةٍ من العالم الثالث، واضعةً على المحكّ مصداقيّة زعيم الكاثوليكيّة في العالم، الذي طالما أعلن ذوده عن حياض العالم الثالث وحقوقه.

وطرحت قضيّة ملاءمة زيارة البابا مع تلك الأوضاع الدقيقة الحرجة. فقد يؤدّي تطبيع علاقات الكنيسة الكاثوليكيّة مع إنكلترا، في هذه الظروف، إلى صدم العالم الثالث المؤيّد لكفاح الأرجنتين ضدّ الاستعمار البريطانيّ. ومن جانبٍ آخر كان تضامن البابا مع الأساقفة الأرجنتينيّين كفيلاً بإحباط الكاثوليكيّين البريطانيّين. وبدت قضيّة توثيق علاقات الكنيسة الكاثوليكيّة مع الكنيسة الأنغليكانيّة، وفي الآن عينه، الحفاظ على حياد الكرسيّ الرسوليّ أمرًا مستعصيًا. وارتأى الڤاتيكان ودبلوماسيّوه إرجاء الزيارة إلى أوقاتٍ فضلى. ولكنّ الأساقفة البريطانيّين خفّوا إلى روما، جاهدين في إنقاذ مشروع الزيارة، خشية

أن يُفضي إرجاؤها أو إلغاؤها، إلى تثبيط عزائم الكاثوليكيّين في بريطانيا، والدول التابعة لها.

فاستدعى الحبر الأعظم الكرادلة والأساقفة الأرجنتينيّين إلى الڤاتيكان وحثّهم على التشاور والتباحث مع نظرائهم البريطانيّين. وفي نهاية المطاف اتّخذ قرارًا فاجأ كثيرين، قرار زيارة انكلترا والأرجنتين على التوالي، بصفة رسول سلامٍ ومصالحةٍ.

بدأ، إذن، بالسفر إلى انكلترا يوم ١٩٨٢/٥/٢٨، وزار معظم مدنها، وقابل الملكة إيليزابيت الثانية، وأكّد أنّه يصلّي من أجل ابنها «أندرو» الذي كان يقود مروحيّةً حربيّةً في جزر الفوكلاند. وفي كاتدرائيّة وستمنستر، أشاد ببطولة الشهداء الكاثوليك، وفي طليعتهم «جون فيشر» و«توماس مور»، مؤكّدًا أنّ «**في إنكلترا، بلاد النفوس المستقيمة والسخيّة، لن يأخذ أحدٌ على الجماعة الكاثوليكيّة وفاءها لتاريخها**».

وفي اليوم التالي ترأّس، في كاتدرائيّة كانتوربري، قدّاسًا مشتركًا، مع رئيس الأساقفة الأنكليكانيّ «رنسي»، محقّقًا، بذلك، سابقةً مسكونيّةً، ووقّع الزعيمان الدينيّان، معًا، إعلان وحدةٍ مشتركًا، استعرضا فيه مسيرة الحوار المعقود بين وفديهما، معبّرَيْن عن الأمل في مستقبل وحدتهما التامّة.

في الثاني من حزيران غادر إنكلترا، وبعد تسعة أيّامٍ حطّ الرحال في بوينس إيريس، حيث قام بزيارةٍ إلى الأرجنتين لم تدم سوى ثمانٍ وأربعين ساعةً، وكانت غايتها المعلنة الحجّ إلى مزار سيّدة «لوجان» (Lujan). غير أنّ كلّ أميركا اللاتينيّة أدركت أنّ تلك الزيارة كانت «حملة سلام». ولا ريب أنّها خفّفت كثيرًا من مرارة الهزيمة الحتميّة التي انتهت إليها مغامرةٌ عسكريّةٌ فاشلةٌ، وساهمت في درء فيضٍ من الدماء.

تلك الرحلة المزدوجة ختمت سنتين من الأزمات التي استُهلّت بالنزاع الحادّ بين نقابة «سوليدارنوش» والحزب الشيوعيّ البولونيّ، مرورًا بمحاولة اغتيال البابا، وعواقبها الصحّيّة الوبيلة، وبحلّ أزمة رئاسة الجمعيّة اليسوعيّة، وانتهاءً

بحلّ نزاع جزر الملوين. وفي كلّ تلك الأزمات، أثبت يوحنّا بولس الثاني قدرته على حلّ الأزمات السياسيّة المستعصية، بوسائل إنجيليّةٍ، وانتهاجه أسلوبًا جديدًا في عمل الكنيسة، واستحقاقه لقب Pontifex، أي باني الجسور.

ومن أبرز نشاطات يوحنّا بولس الثاني عام **١٩٨٢** نذكر:

استقبال خاصّ للرئيس الفرنسيّ المنتخب حديثًا، فرنسوا ميتيران **(٢/٢٧)**

زيارة شكرٍ إلى سيّدة فاطيما، في الذكرى السنويّة الأولى لمحاولة اغتياله **(٥/١٣)**

إنشاء المجلس الحبريّ للثقافة **(٥/٢٠)**

لقاؤه الأوّل بالرئيس ريغان **(٦/٧)**

زيارة إلى مقرّ الأمم المتّحدة في سويسرا للدفاع عن حقّ العمّال بتأسيس نقاباتٍ مستقلّةٍ، وحيث قال: «وراء كلّ عاملٍ هناك إنسانٌ» **(٦/١٥/)**

لقاءٌ خاصٌّ بياسر عرفات **(٩/١٥)**

دعوةٌ إلى الصلاة من أجل لبنان الممزّق، غداة اغتيال بشير الجميّل.

تطويب الأب مكسيميليان كولبي **(١٠/١٠)**

استقبال أمين الجميّل، رئيس جمهوريّة لبنان، المنتخب حديثًا **(١٠/٢١)**

زيارة إلى إسبانيا بمناسبة الذكرى المئويّة الرابعة لوفاة القدّيسة تيريزا الأڤيلاّويّة **(١٠/٣١)**

زيارة إلى مزار القدّيس جاك دي كومبوستيل، ودعوةٌ إلى إعادة تبشير أوروبّا بالإنجيل، وإدانة العنف في مقاطعة الباسك **(١١/٩)**

عقد مجلس الكرادلة الثاني، لبحث إصلاح الإدارة الفاتيكانيّة، وماليّة الكرسيّ الرسوليّ، وتأليف لجنة لإصلاح الحقّ الكنسيّ **(٢٣ حتّى ١١/٢٦)**

إعلان سنةٍ مقدّسةٍ بين بدء صوم **١٩٨٣** وفصح عام **١٩٨٤**.

قانون الحقّ الكنسيّ

كان البابا يوحنّا الثالث والعشرون قد جعل من إعادة النظر في هذا القانون إحدى أولويّاته. ولكنّ إنجاز هذا المشروع تعذّر من جرّاء الانشغال بجلسات المجمع الڤاتيكانيّ. ثمّ استؤنف العمل به عام **١٩٦٦**، ولكنّه ظلّ يراوح مكانه إلى أن أخذ يوحنّا بولس الثاني على عاتقه المضيّ به إلى خاتمته، فاستقدم في شباط **١٩٨٢** سبعة خبراء من بلدانٍ مختلفةٍ، يحملون نظريّاتٍ مختلفةً، وبحث معهم، بندًا بندًا، جميع بنود القانون التي يبلغ عددها **١٧٥٢** بندًا. وعقد معهم أربعة عشر لقاءً، كلٌّ منها دام أربع ساعاتٍ. ولمّا شكا أحدهم من انتقاد بعض الأعضاء كلّ بندٍ، أجابه أنّهم إنّما يمارسون حقّهم وواجبهم.

كان القانون القديم، الموضوع عام **١٩١٧**، مجموعةً من أوضاعٍ راهنةٍ، مستلهمةٍ من القانون المدنيّ، تتناول، على التوالي: «الأشخاص» و«الأشياء» و«الدعوى» و«الجرائم والعقوبات». وقد أُدرجت الأسرار المقدّسة والليتورجيّا في خانة «الأشياء». وقد حرص يوحنّا بولس الثاني على تغيير هذا الوضع، وفقًا لتوجّهات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني. وبعد تحديد قواعد عامّةٍ، أطلق على الفصل الأوّل عنوان: «شعب الله»، وقُسّم القانون الجديد، وفق مهمّات المسيح بصفته «نبيًّا»، و«كاهنًا»، و«ملكًا». وفي ما يتعلّق بالجرائم والعقوبات، أكّد القانون الجديد على واجب محاولة المصالحة قبل مباشرة أيّة دعوى.

ووقّع يوحنّا بولس الثاني القانون الجديد في **١٩٨٣/١/٢٥**، واعتبره سندًا لرسالة الكنيسة القائمة على التبشير والتقديس، فالكنيسة جماعةٌ، وكلّ جماعةٍ تحتاج إلى نظامٍ كي تستقيم مسيرتها. ولكنّه أوضح أنّ ذلك القانون «**ليس بديلاً عن الإيمان، والنعمة، والمحبّة، في حياة الكنيسة والمؤمنين**». وبالإجمال انطلق القانون من نظرةٍ إلى الكنيسة بصفتها جماعة مؤمنين، وليست دولةً، ورعيّةَ مواطنين.

يُعدّ إصدار ذلك القانون من أهمّ الإجراءات القانونيّة في عهد حبريّة يوحنّا بولس الثاني، وتلاه دستور «الراعي الصالح»، عام ١٩٨٨، الذي أعاد تنظيم

الدوائر والإدارة الڤاتيكانيّة، والقانون الكنسيّ الشرقيّ، عام ١٩٩٠. وقد تمّ كلّ ذلك، وفقًا لروح المجمع الڤاتيكانيّ الثاني.

وفي ١٩٨٣/٢/٢ عيّن الأب الأقدس ثمانية عشر كردينالاً جديدًا، من عدّة بلدانٍ.

زيارةٌ إلى نيكاراغوا

كان يوحنّا بولس الثاني قد تلقّى من أساقفة نيكاراغوا دعوةً إلى زيارة بلادهم، حيث تواجه الكنيسة أزمةً وجوديّةً حادّةً. وأثار مشروع تلك الزيارة زوبعةً من النقاشات، من جرّاء ما كانت تنطوي عليه من تعقيداتٍ ومحاذير. ولذلك، عشرةَ أيّامٍ قبل موعد بدئها، استُقدِم إلى روما، على عجلٍ، السفير البابويّ في نيكاراغوا، وأسقفَان محلّيّان، بغية التشاور في شأن إلغائها أو المضيّ بها قدُمًا. وأسفرت المناقشات عن تساوي الحجج المؤيّدة والحجج المعارضة للزيارة، وتُرِك أمر البتّ للحبر الأعظم، الذي اتّخذ من التحرير المسيحيّ الحقّ هدفًا لبابويّته، والذي كان حريصًا على تبليغ رسالته بأيّ ثمنٍ، غير سامحٍ للتهديدات والإنذارات بثنيه عن مهمّته.

كان حكّام نيكاراغوا قد تبنّوا سياسةً دكتاتوريّةً ماركسيّةً، ردًّا على ممارسات الإقطاعيّة المستبدّة. واعتنق بعض الكهنة هناك نظرة السلطات، بحجّة التحرير، وفي تيّار «لاهوت التحرير» الذي تفشّى في بعض دول أميركا الجنوبيّة والوسطى، في حين كان يوحنّا بولس الثاني يدعو إلى تحريرٍ مسيحيٍّ، وإلى كنيسةٍ ترفض مماهاة الإنجيل مع أيّ برنامجٍ سياسيٍّ، كنيسةٍ لا تستبدل ملكوت الله، ملكوت يسوع، بأيّة أوهامٍ أو دعواتٍ كاذبةٍ، زائفةٍ؛ كنيسةٍ تدافع بحزمٍ عن حرّيّة الدين ضدّ كلّ اضطهادٍ أيًّا كان مصدره. ولكن، وللأسف، لم تكن تلك هي حال كنائس أميركا الجنوبيّة والوسطى.

في نيكاراغوا، كان كاهنان يتبوّآن مناصب وزاريّة، أحدهما وزيرًا للخارجيّة، والآخر وزيرًا للثقافة. وكان كاهنٌ ثالثٌ، يسوعيٌ، وهو شقيق وزير الخارجيّة،

مسؤولاً عن برنامج محو الأمّيّة. أمّا رئيس الأساقفة «ميكيل أوباندو براڤو»، وهو ابن أُسرةٍ فلاّحيّةٍ، فكان قد أيّد الثورة على أسرة «سوموزا» الدكتاتوريّة المستبدّة، ثمّ أصبح من أشدّ منتقدي الحكّام الجدُد، بسبب إخفاقهم في صون الحقوق المدنيّة للشعب. في حين كان الحكّام الذين أفرزتهم الثورة يستعينون على مقاومة الأسقف، بما سمّوه «الكنيسة الشعبيّة» التي تضمّ إكليروسًا داعمًا للحكم الماركسيّ.

وكان السفير البابويّ – أو القاصد الرسوليّ – في نيكاراغوا، هو من ألمع الوجوه الدبلوماسيّة في الڤاتيكان، وقد عُيّن في هذا المنصب، بسبب دقّة الوضع في البلاد. وقد حاول الحكّام أن يقيموا معه علاقة مودّةٍ مصطنعةٍ، تنقلب هزليّةً أحيانًا. ومع أنّهم كانوا يدعونه «السفير الرفيق» كان هو يلتزم الحزم في التعامل معهم. فقد جاءه، يومًا، الزعيم «دانييل أورتيغا»، في سيّارةٍ رياضيّةٍ حمراء، يواكبه رتلٌ من سيّارات الجيب المليئة بجنودٍ مدجّجين بالسلاح، فاستقبله السفير عند سور السفارة، قائلاً: «أهلاً بك. ولكن فليبقَ مسلّحوك خارجًا. فهذه سفارة!».

وكان على السفير أن يتفاوض مع السلطات بشأن زيارة البابا المقرّرة في شهر آذار ١٩٨٣. وكان الأساقفة المحلّيّون يتوقّعون لحضور الحبر الأعظم نتائج إيجابيّةً للكنيسة وللشعب، في حين لم يكن الحكّام محبّذين لتلك الزيارة.

الشرط الأوّل الذي وضعه الحكّام هو ألاّ يشاهَد البابا، علنًا، برفقة رئيس الأساقفة، لكي لا يُكسب ذلك، رئيسَ الأساقفة، هيبةً ومجدًا. ولكن بما أنّ وجود رئيس الأساقفة وهو، في الآن عينه، رئيس المجمع الأسقفيّ في نيكاراغوا، إلى جانب البابا لا مفرّ منه، اقترحت السلطات أن يواكبه جميع أساقفة البلاد، لا رئيس الأساقفة بمفرده. وبما أنّ السيّارة البابويّة (Papamobile)، لا تتّسع لكلّ هذا الحشد، فقد استقدمت السلطات، بالطائرة، من المكسيك، حافلةً صغيرةً مكشوفةً، كان أحد المرشّحين السياسيّين قد استخدمها في حملته الانتخابيّة.

المعضلة الثانية تمثّلت في الكهنة الذين تولّوا مناصب وزاريّةً، ولم يرضخوا لأمر رؤسائهم بالاستقالة، والذين طلب البابا ألاّ يشتركوا في استقباله. وعلى

هذا الطلب، ردّ «أورتيغا» أن لا علاقة له بهذا الأمر، فهو متروكٌ للكهنة وضميرهم. وعندما بلّغ سفير الڤاتيكان الكاهن الذي يتولّى منصب وزير الخارجيّة، طلب البابا، استشاط غيظًا، واعترض بأنّه، بصفته وزيرًا للخارجيّة، لا بدّ له من مرافقة الحبر الأعظم في تنقّلاته. ولكنّ السفير أوضح له أنّ البابا يرفض أن يرافقه أيّ سياسيٍّ في تنقّلاته.

أمّا الكاهن الآخر الذي كان يتولّى منصب وزير الثقافة، فادّعى أنّ الزعيم «أورتيغا» يصرّ على وجوده في استقبال البابا، ولكنّ السفير بلّغه رأي «أورتيغا» بهذا الشأن.

وبعد بضعة أيّامٍ، اتّصل «أورتيغا» بالقاصد الرسوليّ، قائلاً: «أيّها الرفيق القاصد، لقد نسيت أن أخبرك، عندما التقينا، أنّه، يوم مجيء البابا، هناك لقاءٌ هامٌّ دوليٌّ في الهند، وعليّ أن أوفد إليه وزير الخارجيّة، ممثّلاً عنّي». وبذلك حُلّت مشكلة أحد الكاهنين، وبقيت مشكلة وزير الثقافة، إذ كان يُخشى أن يؤدّي وجوده في استقبال الحبر الأعظم، إلى صدامٍ، تضخّمه وسائل الإعلام.

لدى اطّلاع الأب «روبيرتو توتشي»، المسؤول عن الأسفار البابويّة، على تعقيدات الوضع، وحرصًا منه على سلامة البابا، حاول، مجدّدًا، ثنيه عن تلك الزيارة. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني أمعن إصرارًا في القيام بها، لأنّه كان حريصًا على شدّ أزر كنيسةٍ يعتبرها مضطَهَدةً، وعلى إتمام الزيارة، مهما كانت النتائج.

وحطّ البابا في مطار «مانغوا»، يوم ١٩٨٣/٣/٤، وكان جميع المسؤولين الحكوميّين مصطفّين على أرض المطار لاستقبال قداسته. وارتقى القاصد الرسوليّ سلّم الطائرة، فقابله الكردينال «كازارولّي»، وزير خارجيّة الڤاتيكان، وانتحى به جانبًا، كي يستوضحه عن وجود الكهنة المتمرّدين، فأفاده أنّ أحدهما، وزير الثقافة، هو بين المستقبلين الرسميّين. وجاءا كلاهما إلى مقصورة البابا الذي كان ما زال جالسًا، وأشارا إلى الكاهن الوزير بين المستقبلين. واقترح القاصد الرسوليّ أن يُعرض البابا عنه، فلا يحيّيه، ولا يكلّمه. ولكنّ البابا أجاب: «بل عليّ أن أقول له شيئًا».

ولدى استعراض المستقبلين، قال «أورتيغا» للبابا، بعصبيّة«: «لا داعي لأن نكلّمهم. فلنكتفِ بالمرور بهم صامتين!». ولكنّ البابا اعترض: «بل عليّ أن أكلّمهم!». وعندما انتهيا إلى الكاهن الوزير «إرنستو كاردينال»، نزع هذا الأخير قبّعته، وانحنى أمام البابا، الذي قال له برفقٍ: «سوِّ وضعك، سوِّ وضعك!». لم يقلها بنبرة تأنيبٍ، بل بنبرة نصيحةٍ أبويّةٍ. ولكن ذلك الكاهن، عندما سئل، لاحقًا، عمّا قاله له البابا، ادّعى أنّه قال له ما قال الرسول بولس، في ليسترة، لمن حاولوا السجود له: «لا تسجدوا لي، فإنّما أنا إنسانٌ مثلكم!»

غير أنّ الصدمة الكبرى، تمّت أثناء القدّاس الذي احتفل به الأب الأقدس. وكانت قد اختيرت له، مكانًا، حديقةٌ عامّةٌ، أَلِفَ الحزبيّون عقد اجتماعاتهم فيها. وكان القاصد الرسوليّ قد طالب بأن يكون موضع الهيكل بعيدًا عن منصّة اجتماعاتهم المزيّنة بصُور «سنديتو» وماركس، ولينين، وبالشعارات الثوريّة. وحينئذٍ، وعد «أورتيغا» بفعل المستطاع. وبعد أيّامٍ قليلةٍ، لحظ القاصد الرسوليّ أنّ الصور المذكورة قد أُزيحت، فاطمأنّ، ولكنّه صُدِم، يوم وصول البابا بأنّها أُعيدت إلى أماكنها،بعد أن نُظّفت وجُدّد طلاؤها.

وقبل بدء القداس، تفقّد خبراء الڤاتيكان، والقاصد الرسوليّ، المكان، فدهشوا لوجود جهاز صوتٍ جديدٍ، ذي قدرةٍ كبيرةٍ، يُدار عن بعدٍ، رُكِّب قبل سويعاتٍ، وقيل لهم إنّه جهازٌ احتياطيٌّ، لاستخدامه في حال حدوث عطلٍ طارئٍ. ولكنّه تبيّن أنّه في الواقع، جهاز تشويش.

وكان قد تمّ الاتّفاق بين القاصد الرسوليّ والسلطات، أن تقسم الحديقة إلى منطقتين، تخصّص إحداهما، القريبة من الهيكل، للجمعيّات والحركات الكاثوليكيّة. وعندما حضر ممثّلو هذه الجمعيّات والحركات، في الساعة الرابعة، صباحًا، فوجئوا بأنّ الأماكن المخصّصة لهم قد امتلأت بأزلام النظام، فكان عليهم الاكتفاء بالأماكن الخلفيّة، البعيدة عن الهيكل. وكلّما كان يحاول بعضهم التقدّم إلى الأمام، كان الجند يطلقون النار في الهواء لإرهابهم.

واحتشد المسؤولون خلف الهيكل، وما انفكّوا، أثناء القدّاس، يفسدون جوّ

الصلاة، بتصرّفاتٍ استفزازيّةٍ رعاعيّةٍ، رافعين، بين فينةٍ وأُخرى، قبضاتهم، وهاتفين «السلطة للشعب». وبلغت قحتهم أوجها، في أثناء عظة البابا، ففي مستهلّها، إذ كان الحبر الأعظم يتحدّث عن وحدة الكنيسة، كان حتّى الجالسون في الصفوف الأخيرة يسمعونه. ولكن، ما إن تطرّق لقضيّة «الكنيسة الشعبيّة»، واستنكاره لها، حتّى أخرس مهندسو النظام مكبّر صوت البابا، وأطلقوا جهاز التشويش، الذي كانوا قد أعدّوه لهذه الغاية. فتجلّى الضيق على قداسة البابا، وصاح في وجه القابعين في الصفوف الأماميّة: «**اصمتوا!**». فساد شيءٌ من الهدوء. ولكن، عندما اقترب القدّاس من نهايته، أخذ أزلام النظام ينشدون النشيد السنديني. فما كان من البابا إلاّ أن دنا من مقدّم المنصّة، وأمسك بعصاه الرعويّة، ولوّح بها، فوق رأسه، باتّجاه المصلّين الذين كانوا قد دُحروا إلى الخلف، وكانت حركته هذه بمثابة تحيّةٍ لهم.

وفي الواقع، انقلبت على النظام كلّ محاولاته، تلك، العدائيّة، الغوغائيّة، الرخيصة، الحقيرة، وأثارت استياء ملايين المشاهدين في أميركا اللاتينيّة الذين تابعوا الحدث على شاشات تيليفزيونات البلدان المجاورة، وكانت ضربة معولٍ قاضيةً في أسس النظام السنديني. فقد فضح ذلك السلوك الوضيع حقيقة السندينيّة، التي ازدراها الشعب ومقتها، وبدّد شكوك الذين توهّموا فيها خيرًا. ومن جانبٍ آخر، أكبرَ شعبُ نيكاراغوا مجيء البابا إليهم لشدّ عضدهم. وعبّر الحبر الأعظم عن تقديره لرئيس أساقفة نيكاراغوا، بتعيينه كاردينالاً، في شهر أيّار ١٩٨٥.

وعندما حطّ الحبر الأعظم، بعد ظهر ذلك اليوم عينه، في مطار «كوستاريكا»، تخطّى عدد مستقبليه كلّ توقّعٍ.

وفي سياق تلك الرحلة، زار يوحنّا بولس الثاني، أيضًا، پاناما، والسلڤادور حيث دعا إلى المصالحة، وقام بزيارةٍ غير متوقّعةٍ إلى ضريح رئيس الأساقفة «روميرو»، الذي كان قد اغتيل وهو على الهيكل. ثمّ يمّم شطر غواتيمالا، حيث دافع عن أهل البلاد الأصليّين، وندّد بإجراءات الحكومة القمعيّة. ثمّ عرّج على هندوراس، وهاييتي، حيث ندّد بسياسة أُسرة «دوڤالييه».

صوب «لاهوت تحريرٍ» حقٍّ

زيارة البابا الثانية هذه إلى أميركا اللاتينيّة، حدت به إلى الإيعاز لمجمع العقيدة بالتعمّق في تبيان وتأكيد النظرة المسيحيّة السليمة إلى التحرير، بُغية تقويم التعاليم الشوهاء التي كان يبثّها لاهوتيّون في أميركا الجنوبيّة والوسطى، مستلهمينها من النظرة الماركسيّة، ومن صراع الطبقات. وكان يوحنّا بولس الثاني يرى أنّ التحرير موضوعٌ مسيحيٌّ هامٌّ، ويرتدي خطورةً خاصّةً في تلك البقعة من القارّة الأميركيّة، حيث الفقر مريعٌ، وحيث واجب الكنيسة ثقيلٌ.

وكان حريصًا على التزام لاهوت تحريرٍ نابعٍ من الإنجيل، ومستنيرٍ به، منزّهٍ من النظريّات الدخيلة، ومن التأويلات الخاطئة، المناقضة لروح الإنجيل. وكان راسخ الإيمان بأنّ الخطيئة لا تكمن، قبل كلّ شيءٍ، في أنظمةٍ اقتصاديّةٍ، أو اجتماعيّةٍ، أو سياسيّةٍ، بل في فساد القلب البشريّ. ولا يسوغ اعتبار الخير والشرّ فئاتٍ سياسيّةً. فالحقيقة شاملةٌ، ولا يمكن حصرها في حزبٍ أو فئةٍ. ولا يجوز اعتبار أنّ صراع الطبقات هو محرّك التاريخ، ولا التذرّع بصراع الطبقات من أجل تبرير ثورةٍ عنيفةٍ، ردًّا على أنظمة عنيفةٍ. ولا يمكن مقارنة «فقراء الروح» الذين طوّبهم يسوع، بالبروليتاريا الماركسيّة. فالكنيسة لا تخصّ أيّة فئةٍ أو حزبٍ، ولا طبقةً اجتماعيّةً أو اقتصاديّةً معيّنةً. ولا يجوز تأويل موت يسوع الفدائيّ على الصليب، تأويلاً سياسيًّا، ولكأنّه رمزٌ لكفاح المسحوقين من أجل إقامة مجتمعٍ جديدٍ، ولا تصوير الإفخارستيّا، وكأنّها احتفال الشعب المكافح.

انطلاقًا من هذه التوجّهات، أصدرت الكنيسة بيانًا حذّرت فيه من تسييس الوجود، ومن إساءة فهم ملكوت الله، وسموّ الإنسان، وبالتالي، من خيانة إيمان الشعوب المؤيّدة للثورة. فالمسيحيّ الحقّ يتطلّع إلى حرّيّةٍ أرحب آفاقًا، وأسمى هدفًا. وقد أُلحق هذا البيان، بعد أقلّ من سنتين، بآخر توضيحيٍّ أكّد أنّ معنى التحرير العميق، يكمن في الخلاص الذي يُعتقنا من «الشرّ المطلق، أي من الخطيئة وسلطان الموت». فالبشر يعثرون على معنى الحرّيّة في دعوة الإنجيل إلى التواصل مع الله، في حين تنتهك الأنظمة التوتاليتاريّة حرّيّة

الشخص البشريّ الأساسيّة، حيال سرّ الله الذي يبتغي أن يعبده أناسٌ أحرارٌ، وفي هذا الانتهاك يكمن شرّها.

إنّ إغفال حقيقة أنّ الإنسان هو خليقةٌ محبوبةٌ من الله، هو العائق الأساسيّ، في وجه التحرير البشريّ. وواجب كلّ مسيحيٍّ هو التضامن مع الساعين إلى تحقيق حرّيّة كلّ إنسانٍ، بطريقةٍ غير عنيفةٍ.

من المحقّق أنّ الكنيسة تؤثِر بحبّها الفقراء والمسحوقين، ولكن، بما أنّها غير فئويةٍ، فحبّها لا يستثني ولا يُقصي أحدًا، لأنّه يشهد للكرامة التي حباها الله كلّ كائنٍ بشريٍّ.

بالإجمال دعا يوحنّا بولس الثاني إلى توجّهٍ إنسانيٍّ حقٍّ، يحقّق إصلاح المجتمع، بديلاً عن نظامٍ يعتمد القمع، ويشوّه معنى التحرير. فرسالة التحرير بالحقّ التي أطلقها يسوع، أصدق وأقوى من كلّ التحليلات السياسيّة. ومن شأن كنيسةٍ ملتزمةٍ بالإنجيل، تحيا الكلام الإلهيّ من خلال تعليمٍ اجتماعيٍّ سليمٍ، أن تحقّق تحرير البشر من الفقر ومن القمع السياسيّ، على السواء.

زيارةٌ أُخرى إلى پولونيا: ١٦–٢٣ حزيران ١٩٨٣

عقب فرض حالة الحرب في پولونيا، حاولت حكومة «ياروزلسكي» تهدئة الوضع، مستندةً على أُسُسٍ واهيةٍ، ومبادئ لا تمتّ إلى الواقع بصلةٍ. فقد كانت البلاد، إثر زيارة البابا الأولى عام ١٩٧٩، قد اجتازت مرحلةً نفسيّةً لا رجوع عنها، حاول النظام تجاهلها، فيما كانت الدولة تتآكل، والاقتصاد ينهار، والنقمة الشعبيّة تتفاقم، وحركة المقاومة، بقيادة نقابة التضامن، «سوليدارنوش»، تترسّخ، وتكتسب، يومًا فيومًا، منعةً.

وكان القسم الأكبر من رجال الكنيسة ينهجون أُسلوب المقاومة، بالاستقلال الثقافيّ الذي كان «كارول ڤويتيووا» رائده، أثناء الاحتلال النازيّ، أُسلوبًا يسعى إلى التغلّب على الشرّ بالخير، ويرى في المقاومة واجبًا، وفي اللاعنف وسيلة المقاومة المسيحيّة.

في هذا الجوّ الملبّد بالغيوم الداكنة، باشر يوحنّا بولس الثاني زيارته الثانية إلى موطنه، رغم تمترس النظام وراء موقفٍ متعنّتٍ، وحرصه على تولّي كلّ تفاصيل الزيارة، كي يحول دون تأثير البابا على الشعب، ورغم إقامته مناطق أمنيّةً واسعةً ومُحكمةً في الأماكن التي كان يزمع زيارتها، في محاولةٍ للحدّ من عدد مستمعيه. وفضلاً عن ذلك، رفضت السلطات السماح للحبر الأعظم بلقاء رئيس نقابة «سوليدارنوش»، «ليش ڤاليسّا»، الذي امتنع الرسميّون عن لفظ اسمه، أثناء المفاوضات، مكتفين بالإشارة إليه بعبارات: «ذلك الشخص»، و«ربّ الأسرة كثيرة الأولاد»، ومدّعين أنّه لم يعُد يمثّل أحدًا في پولونيا. تساهلٌ وحيدٌ قدّمته السلطات: هو السماح للعديد من محطّات الإذاعة، ببثّ خطابات البابا ومواعظه، في كلّ أرجاء پولونيا.

أثناء الاحتفال باستقباله، بدا البابا مطرقًا، ساهمًا، ما جعل عجوزًا تقول لصحافيٍّ كان على مقربةٍ منها: «إنّه حزينٌ، لأنّه يفهم». ولكن، من لم يكن يفهم هو حاكم البلاد الذي ادّعى: «إنّ زيارة قداسة البابا دليلٌ على عودة الحياة، في بلادنا، إلى وضعها الطبيعيّ». غير أنّ حقيقة الوضع هي التي وصفها الأب الأقدس، بعد دقائق، في عظته، بقوله إنّ هدف زيارته هو «**الوقوف تحت صليب المسيح، مع جميع مواطنيه، ولا سيّما مع من يداخلهم شعورٌ حادٌّ بمرارة الخيبة، وبالمذلّة، وبالألم، من جرّاء استلاب حرّيّتهم، ورؤية كرامتهم مداسةً بالأقدام**». وعبّر عن امتنانه للعناية الإلهيّة التي حمت الكردينال «ڤيشينسكي»، من رؤية المشاهد المؤلمة المتعلّقة بأحداث ١٩٨١/١٢/١٣.

وبعد القدّاس، انطلقت تظاهرةٌ من الكاتدرائيّة، ضمّت نحو عشرة آلاف مواطنٍ، راحوا يردّدون، أمام مقرّ الحزب الشيوعيّ: «سوليدارنوش، سوليدارنوش!»، «ليش ڤاليسّا، ليش ڤاليسّا»، «ديمقراطيّة، ديمقراطيّة!».

ولكنّ البابا لم يكن راغبًا في أن تنقلب زيارته إلى تظاهرٍ سياسيٍّ، إذ إنّ دافع زيارته كان، في المقام الأوّل، إنجيليًّا، وكان يرمي إلى تبديد القنوط الذي استولى على الأُمّة، منذ ١٩٨١/١٢/١٣، وتبيان الأسس الأخلاقيّة التي ينبغي أن تقوم عليها المقاومة الثقافيّة. وقد استفاض في هذا الموضوع، بمناسبة لقائه

مع الشبيبة في «تشينستوهوڤا». بدأ اللقاء بتبديد التوتّر الذي كان يسود حشدًا من نصف مليون شخصٍ. فعندما ظهر على المنصّة، المنصوبة عند قمّة الدير الذي كان يحلّ فيه، تعذّر عليه إسماع صوته، إذ كانت صيحات الجمهور المردّدة «طول الحياة للبابا»، «البابا معنا»، تطغى على كلّ صوتٍ آخر. ولكن، بعد برهة صمتٍ، علا صوته فوق الضجيج، وصاح: «**هل يسعني السؤال إن كان مسموحًا لشخصٍ جاء، اليوم، من روما إلى "ياسنا غورا" بالكلام؟**». فرحّب الجمع بكلامه، ولكنّهم ما لبثوا أن شرعوا يصيحون» «اقترب منّا»، فانحدر بضع درجاتٍ، وسأل: «**هل تسمعونني الآن؟**». بفضل هذا الحوار الودّيّ استعاد شيئًا من جوّ زيارته الأولى، وحينئذٍ بلّغ رسالته.

تكلّم بنبرة من عاش مأساة الاحتلال، وبات بوسعه إدراك حقيقة ما كان الشعب يعانيه، حينذاك. وحيال آلام ذلك الشعب، كانت رسالة الإنجيل تستعيد كلّ قوّة بساطتها. فحبّ يسوع أقوى من كلّ المِحَن، ومن كلّ الخيبات التي تصدمنا بها هذه الحياة، وبوسع كل پولونيٍّ أن يستشعر حبّ يسوع هذا، أيّةً كانت الظروف السياسيّة، باختياره «الحرّيّة»، أي إصلاح كلّ فردٍ لسيرته الذاتيّة. فهذا الإصلاح هو شرطٌ لا بدّ منه لإصلاح المجتمع؛ وإنّ السدّ المنيع في وجه الإحباط، هو تسمية الشرّ شرًّا والخير خيرًا؛ وعندئذٍ تلفّظ بالكلمة الرمز، المحرّمة، معلنًا أنّ «التضامن» الأساسيّ بين البشر، هو أساس المجتمع، ومبدأ التجديد الأخلاقيّ والاجتماعيّ. وختم خطابه بهذا الدعاء: «يا سيّدة ياسنا غورا، ساعدينا كي نستمرّ في الرجاء». وفيما كان يصعّد، عائدًا إلى الدير، كان الجمهور يردّد هتاف: «ابقَ معنا، ابقَ معنا».

يوم **٢٢** حزيران، أعطى دفعًا للمقاومة التي كان يبتغيها، بتطويبه، في رعيّته السابقة، كراكوڤيا، اثنين من أبطال المقاومة الثقافيّة اللاعنيفة. ثمّ عقد مع الجمهور حوارًا عفويًّا، مجيبًا على كلّ الأسئلة. وفي المساء، انتظره مرافقوه طويلاً على العشاء، وكاد الحساء يبرد، فدعا رئيس الأساقفة المضيفُ، الكرادلة المرافقين للبابا إلى تناول عشائهم، وفي تلك اللحظة عاد البابا مسرعًا من لقاءٍ غير متوقّعٍ ولا مخطّطٍ له. وما كاد يجلس إلى المائدة، ويرتشف أوّل ملعقة

حساءٍ، حتّى تعالت من الشارع صيحات جماعةٍ من الشباب، فهبّ إلى النافذة، واستفاض في محاورتهم، حتّى ضاق ذرعًا الكردينال «كازارولّي»، الذي كان قد قطع للسلطات وعدًا بتجنّب كلّ استفزازٍ.

وفي لقائه مع المسؤولين، قرن الحبر الأعظم الصراحة بالجرأة. ففي لقاءٍ خاصٍّ مع «ياروزلسكي»، سُمع صياحهما، إذ كان البابا يلحّ في الدعوة إلى الإفراج عن قادة نقابة «سوليدارنوش»، المعتقلين. وفي لقاءاته الأُخرى مع «ياروزلسكي»، لم يكفّ عن تحريضه على التصرّف بوحي حسّه الوطنيّ، لا رغبةً في إرضاء أسياده في الكرملين. وأكّد له أنّ الكنيسة لن ترضى أيّة تسويةٍ لعلاقاتها مع الحكومة، على حساب نقابةٍ شرعيّةٍ مستقلّةٍ. وتأكيدًا لموقفه هذا، أصرّ الحبر الأعظم على لقاء رئيس نقابة «سوليدارنوش»، «ليش ڤاليسّا»، واضطرّت الحكومة إلى الاستجابة لطلبه، على أن يكون اللقاء خاصًّا، وشخصيًّا، في كوخٍ، على قمّة جبلٍ، حيث اقتاد «ڤاليسّا» سجّانوه، على متن هيليوكوبتر. ولكنّ مرشد النقابة الروحيّ أعلن أنّ ما من لقاءٍ مع البابا يمكن اعتباره شخصيًّا، وأن «ڤاليسّا» كان يمثّل عشرات ألوف العمّال.

ومن خلال عظةٍ ألقاها، أثناء قدّاسٍ في ڤرسوڤيا، أعلن يوحنّا بولس الثاني، بوضوحٍ، أنّ نظامًا يحترم الحقوق الأساسيّة، لا يمكن أن يقوم إلاّ على أساس الحوار بين القادة والرعيّة.

وبالإجمال أكّدت زيارة البابا استحالة إبرام اتّفاقٍ بين الكنيسة والنظام، على حساب نقابة «سوليدارنوش»، مع أنّ فئةً من الإكليروس المحلّيّ، كانت تنزع إلى مثل هذه التسوية. وأكّدت الزيارة، من جانبٍ آخر، أنّ أقسى القيود هي قيود البغض، وأنّ النظرة المسيحيّة إلى التحرير الحقّ، تقوم على الصليب، «**فالغفران هو قدرة حبٍّ، وليس دليل ضعفٍ، ولا هو تخلٍّ عن الحقيقة والعدل**».

ربّما عدّ بعضهم هذه الأقوال تنازلاً. غير أنّ لتسمية الخير والشرّ بأسمائها، قدرةً تفجيريّةً لا تضاهى. وكان يوحنّا بولس الثاني على يقينٍ بأن پولونيا التي نضجت أخلاقيًّا، وقرّرت محاربة الشرّ بسلاح الحقّ، لا بدّ لها أن تظفر

بتحريرها، ولو بعد حينٍ، بأُسلوبٍ يتلاءم مع مبادئها المسيحيّة، ومع حرصها الثابت على مبدإ كرامة الإنسان.

لعبة السلم والحرب

بين عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٣، وفي غمرة السجال الدوليّ حول نزع السلاح، كان الأساقفة، في الولايات المتّحدة، يُعدّون رسالةً راعويّةً بشأن السلم والحرب، وقد عُدّل نصّها ثلاث مرّاتٍ. واتّضح للحبر الأعظم ميل الأساقفة الأميركيّين إلى أن يكونوا جزءًا من اللعبة، في حين كان، هو، راغبًا في تغيير اللعبة بأكملها. وتبيّن له ضرورة إسالة دمٍ جديدٍ في صفوف الأساقفة، فعيّن كاهنًا لامعًا، هو «جون أوكونُر»، أسقفًا لمدينة سكرانتون، عام ١٩٨٣. وسرعان ما غزا ذلك الأسقف قلوب المؤمنين وأذهانهم، فانتخبوه رجل السنة، بعد مضيّ ستّة أشهر على تنصيبه. وما لبث أن توفّي أُسقف نيويورك، الكردينال «تيرَنْس كوك» (Terence Cooke)، بعد صراعٍ طويلٍ، بطوليٍّ، رائعٍ في قداسته، مع السرطان. ونظرًا لخطورة مركز نيويورك، في ما يتعلّق بوضع الكاثوليكيّة الدوليّ، حرص البابا على إسناد أُسقفيّة نيويورك إلى راعٍ كفيلٍ بإسماع صوتٍ حازمٍ وجريءٍ، على المسرح الكاثوليكيّ الأميركيّ، فعيّن «جون أوكونُر» رئيس أساقفةٍ على نيويورك، في مطلع عام ١٩٨٤. وسرعان ما أثبت الأُسقف الجديد وجودًا فاعلاً للكنيسة، التي جهد في إحلال تعليمها الأخلاقيّ مكانةً بارزةً وراسخةً، في الحياة العامّة الأميركيّة.

حوارٌ مع المفكّرين

في شهر آب ١٩٨٣، استهلّ يوحنّا بولس الثاني، في مقرّه الصيفيّ، في «كاستل غوندولفو»، سلسلة ندواتٍ غير مألوفةٍ في تاريخ البابويّة، تضمّ فلاسفةً، ومؤرّخين، وخبراء في مختلف مجالات الفكر والعلم، من كلّ الأديان والمذاهب، إذ كان على قناعةٍ بأنّ أزمة الإنسانيّة هي، إلى حدٍّ بعيدٍ، أزمة الثقافة الغربيّة، وكانت المبادلات الفكريّة ما برحت هي هواه.

كان كلّ مشاركٍ يقترح نصًّا تناقشه مجموعةٌ من المشاركين، في قاعةٍ خاصّةٍ، وكان البابا يجول بينهم، مستمعًا غير متدخّلٍ؛ وكانت كلّ مائدة طعامٍ تجمع متكلّمين بلغةٍ واحدةٍ، والبابا الملمّ بمعظم اللغات يتنقّل من مائدةٍ إلى أُخرى، ثمّ يوجز النقاش الذي جرى، ويعلّق عليه.

أحد المشاركين في الندوة الأولى، كان الفيلسوف الفرنسي «إيمّانويل ليڤيناس»، ولم يكن هذا الأخير قد التقى البابا بعد انتخابه، وكان يتساءل، في سرّه، كيف سيستقبله يوحنّا بولس الثاني. وقد اعترته الدهشة عندما صافحه البابا، قائلاً: «**أشكرك لأنّك قبلت لقائي**». فأُرتج على الفيلسوف، واحتبس الكلام في حلقه. ولم يكن الحبر الأعظم يتوانى عن ممازحة المشاركين في الندوات، مشيعًا جوًّا من المرح والارتياح.

وقد استمرّت هذه الندوات طيلة حبريّة يوحنّا بولس الثاني، ولحظ منظّموها أنّه كان من الأيسر استقدام غير مؤمنين إليها من استقدام كاثوليكيّين، بسبب استفحال تباين وجهات النظر بينهم.

وجديرٌ بالتذكير أنّ يوحنّا بولس الثاني كان قد أسّس، في شهر أيّار ١٩٨٢، المجلس الحبريّ للثقافة، مبرهنًا ليس فقط عن اهتمامه بشؤون الفكر، بل عن يقينه بأنّ حوارًا فكريًّا جادًّا، هو ضرورةٌ لا غنى عنها من أجل إعادة بناء إنسانيّةٍ حقيقيّةٍ في القرن الحادي والعشرين، ولم يتوانَ عن اتّخاذ المبادرات الكفيلة بتحقيق هذا الهدف.

السنة المقدّسة: ١٩٨٣–١٩٨٤

لطالما آمن «كارول ڤويتيووا» أنّ عمل الله الحاسم في التاريخ قد قدّس الزمن. ولذلك رغب في إحياء تقليد السنة المقدّسة، الذي درجت الكنيسة على الاحتفال به بين عام ١٤٥٠ وعام ١٨٠٠، ثمّ أعاد إطلاقه البابا لاون الثاني عشر عام ١٩٠٠، والبابا پيّوس الحادي عشر، عام ١٩٣٣. وقد أعلن يوحنّا بولس الثاني أنّ الفترة الممتدّة بين بدء صوم ١٩٨٣ وفصح عام ١٩٨٤، سنةٌ مقدّسةٌ مكرّسةٌ للاحتفال بمرور ١٩٥٠ سنةً على الفداء.

ولكنّه أجرى، في قضيّة الحجّ إلى روما، بهذه المناسبة، تحديثاتٍ عديدةً. إذ كان الحجّ يقتضي زيارة إحدى الكاتدرائيَّات الأربع الكبرى في روما، ولكلٍّ منها بابٌ خاصٌّ لعبور الحجّاج. ولكنّه جعل كلّ كنائس روما ودياميسها أماكن حجٍّ، وأشرع الحجّ على العالم أجمع، بإيعازه إلى كلّ أبرشيّةٍ في العالم أن تختار كنيسةً للاحتفال فيها بالسنة المقدّسة، وأن تخصّص بابًا فيها لدخول الحجّاج. وقد استهلّ هو السنة المقدّسة في روما، يوم **١٩٨٣/٣/٢٥**، فقاد تطوافًا من كنيسةٍ صغيرةٍ، هي كنيسة القدّيس إسطفانُس للحبشيّين، إلى كاتدرائيّة القدّيس بطرس، حيث أقام الذبيحة، وقال في عظته إنّ الحجّاج الذين يلجون من الباب المقدّس، يدخلون، رمزيًّا، إلى كلّ الجماعات المسيحيّة، أينما وُجدت، ولا سيّما إلى ديامیس العالم المعاصر. فيوبيل الفداء هو سنةٌ مقدّسةٌ للكنيسة جمعاء.

وقد قام يوحنّا بولس الثاني، خلال تلك السنة، بتعميد سبعةٍ وعشرين كهلاً، ومباركة إكليل ثمانيةٍ وثلاثين ثنائيًّا، وطوّب تسعةً وتسعين شهيدًا فرنسيًّا، وشهيدين صينيّين.

وقد أضفى على تلك السنة طابعًا مسكونيًّا مميّزًا، فوجّه إلى مجلس وحدة المسيحيّين رسالةً، بمناسبة الذكرى المئويّة الخامسة لولادة «مارتن لوثير»، أشاد، فيها، بحسّه الدينيّ العميق، الذي صاغ به شخصيّةً يحدوها «هوًى حارقٌ لقضيّة الخلاص الأبديّ». ودعا إلى ردم الهوّة التي أُحدثت في القرن السادس عشر، بالبحث التاريخيّ المستمرّ، بمنأًى عن الأحكام المسبّقة، سعيًا إلى كشف الخطإ، أيًّا كان مصدره، في سبيل إيجاد منطلقٍ للحوار اللاهوتيّ، وعقد حوارٍ يحدوه روح التوبة، وإرادة التعلّم من خلال الإنصات.

وقد شارك، شخصيًّا، بذبيحةٍ إلهيّةٍ في الكنيسة اللوثيريّة في روما. وقال، في عظته، إنّ الذكرى المئويّة الخامسة لولادة «لوثير»، هي فجر إعادة بناء وحدتنا وجماعتنا، مبيّنًا أنّ «**هذه الوحدة هي خير إعدادٍ لمجيء الله في زماننا**». وفي ختام الاحتفال تلا الكاثوليكيّون والبروتستانتيّون، معًا، قانون إيمان الرسل.

وامتدّت مساعيه المسكونيّة إلى الكنائس الشرقيّة. ففي ١٩٨٣/٤/١٦، استقبل كاثوليكوس الأرمن الأرثوذكس، «كيريكين الثاني سركيسيان»، واستقبل في ١٩٨٣/٥/١٣، غبطة البطريرك أغناطيُس الرابع هزيم، الذي غدا بطريرك أنطاكيا الأرثوذكسيّ الأوّل، الذي يحلّ ضيفًا على الڤاتيكان، رسميًّا. وفي السادس من حزيران، من العام نفسه، استقبل بطريرك الكنيسة الأرثوذكسيّة السريانيّة في الهند، «موران مار باسيليوس مار توما ماتيوس الأوّل». وفي الثلاثين من الشهر عينه، شاركه الاحتفال بعيد القدّيسين بطرس وبولس، متروپوليت خلقيدونية، «ميليتون»، موفدًا من قبل البطريرك المسكونيّ ديمتريُس.

ويوم ١٩٨٤/١/٨، استقبل في قاعة البابا بولس السادس، ثمانية آلاف صبيٍّ وفتاةٍ، وأعلن لهم أنّهم هم «إكليل الطفل يسوع». وحرص على تذكيرهم «بأمرٍ يعرفونه جيّدًا، وهو أنّهم أعزّاء البابا».

التوبة والمصالحة

في إطار السنة المقدّسة، عُقد سينودُس الأساقفة بين ٢٩ أيلول و٢٩ تشرين الأوّل ١٩٨٣، تحت عنوان: «التوبة والمصالحة في رسالة كنيسة اليوم». وتباينت آراء المجتمعين. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني أصدر إرشادًا رسوليًّا، وبنى المصالحة على رمز الصليب، ففرعه العموديّ يرمز إلى ضرورة المصالحة مع اللّه، وفرعه الأفقي إلى المصالحة مع الناس. وبما أنّ الكنيسة هي جسد اللّه، فواجبها هو مصالحة البشر مع اللّه، ومع ذواتهم، ومع قريبهم، ومع الخليقة جمعاء. والمصالحة مستحيلةٌ بمعزلٍ عن الاعتراف بواقع الخطيئة، فهي جزءٌ من حقيقة الإنسان، باعتباره كائنًا أخلاقيًّا. والخطيئة تحدث جرحًا مزدوجًا، في نفس الخاطئ ذاته، وفي علاقته بالآخرين. ومن ثمّ فإنّ أخذ الخطيئة على محمل الجدّ، هو أخذ حرّيّة الإنسان وقدرته على اتّخاذ خيارٍ أخلاقيٍّ، مأخذ الجِدّ. ومن ثمّ، فإنّ الانعتاق من الخطيئة يتمّ بفعلٍ حرٍّ، هو سرّ الاعتراف.

وفي سياق المصالحة، أقام يوحنّا بولس الثاني قدّاسًا في سجن «ريبيبّيا»

(Rebibbia)، حيث زار المجرم «محمّد علي أغشا» الذي حاول اغتياله. وقد انتشرت شائعةٌ تدّعي أنّ ذلك المجرم اعترف بين يدي البابا، ولكنّ الواقع هو أنّه باح له بخشيته من انتقام سيّدة فاطمة، التي فشّلت كلّ خططه المحكمة لقتل البابا والفرار، والنجاة من العقاب. بيد أن الأب الأقدس بيّن له، بصبرٍ ورفقٍ، أنّ العذراء مريم التي يجلّها العديدون من المسلمين، تحبّ البشر أجمعين، فلا خوف عليه منها.

وفي هذه الأثناء، كان يوحنّا بولس الثاني قد قام بحجٍّ إلى مزار لورد في **١٩٨٣/٨/١٥**، بمناسبة مرور **١٢٥** سنةً على ظهور السيّدة العذراء في تلك المدينة.

وبين العاشر والثالث عشر من أيلول، زار النمسا، ودعا إلى حسن استقبال المهاجرين.

يوم **١٩٨٣/١٠/٥** مُنحت جائزة نوبل للسلام لرئيس نقابة «التضامن» البولونيّة «ليش ڤاليسّا».

في **١٠/١٦** جدّد الحبر الأعظم تكريس العالم لسيّدة فاطمة. وفي **١١/١٤** أصدر شرعة حقوق المرأة.

مطلع عام **١٩٨٤**، شهد إقامة علاقاتٍ دبلوماسيّةٍ بين الكرسيّ الرسوليّ والولايات المتّحدة الأميركيّة. وفي **١٩٨٤/١/٢٢**، قام الحبر الأعظم بزيارةٍ إلى جماعةٍ من الغجر في ضواحي روما.

«الألم الفادي»

وفي إطار السنة المقدّسة، أيضًا، أصدر البابا يوحنّا بولس الثاني رسالةً بعنوان «الألم الفادي» (Salvici doloris)، بيّن، من خلالها، النظرة المسيحيّة إلى مغزى الألم. فالبشريّة قد افتُديت بآلام يسوع. وقد أوضح الحبر الأعظم أنّ الألم يبدو «**عنصرًا جوهريًّا في طبيعة الإنسان، يؤهّله لتخطّي ذاته**»، وقد يوفّر للمتألّم فرصةً لإعادة بناء الصلاح والطيبة في ذاته، إن هو استنار بالإيمان. فالإيمان

وحده، كفيلٌ بتعليمنا أنّ الحبّ هو النبع الأوفر غنًى، والردّ على التساؤل عن معنى الألم، الذي أظهره اللّه من خلال صليب يسوع؛ فقد كان لآلام يسوع، بصفته إلهًا وإنسانًا، عمقٌ وكثافةٌ منقطعا النظير، إذ إنّه غلب الألم الأكبر، أي الموت، بخضوعه، حتّى الموت، قبل أن ينتصر على الموت بقيامته.

إنّ الألم قائمٌ ولا مفرّ منه، ولكنّ المسيحيّ الذي يتألّم يستطيع أن يماهي ألمه بآلام يسوع على الصليب، وبذلك يلج إلى أعماق سرّ الفداء، أي إلى سرّ التحرّر الإنسانيّ. وبفضل هذا التحرّر، يكتشف أبعادًا جديدةً لدعوة وجوده.

وفي ختام رسالته، توقّف يوحنّا بولس الثاني عند مثل السامريّ الرحيم، وأوضح أنّ من يستوقفه ألم الآخر، يعبّر عن حبّه وجاهزيّته للخدمة والعون، مستخلصًا أنّ غاية الألم هي تحرير الحبّ الدفين في الكائن البشريّ، وإعطاء الذات السخيّ لصالح الآخرين، ولا سيّما المتألّمين. وبالإجمال، يُبرز عالمُ الألم عالمَ الحبّ البشريّ، وتمثّل ديناميّة التضامن في الألم، تأكيدًا جديدًا لشريعة اللّه المدوّنة في قلوب البشر.

مبادراتٌ في كلّ اتّجاه

في **٢٢** شباط **١٩٨٤**، أُعلن عن إنشاء مؤسّسة يوحنّا بولس الثاني لمساعدة الساحل الأفريقيّ. ويوم عيد البشارة – **٣/٢٥**، جدّد الحبر الأعظم تكريس العالم لسيّدة فاطمة.

وفي **٣/٢٩**، أصدر إرشادًا رسوليًّا للرهبان.

بتاريخ **٩** نيسان، أجرى تعييناتٍ واسعةً في إدارة الڤاتيكان وفي الكنيسة عمومًا. وفي **٤/٢٠**، أصدر رسالةً حول القدس (Redemptionis anno)، أتبعها في أوّل أيّار برسالةٍ حول لبنان بعنوان «الأسرار الكبرى» (Les grands mystères).

وأحدَ عشر يومًا قبل اختتام السنة المقدّسة، تلقّى الأب الأقدس من الكردينال التشيكيّ «فرنتسيك توماسيك»، الذي كان قد بلغ الخامسة والثمانين من العمر، وما برح يزداد همّةً وجرأةً كلّما تقدّم سنًّا، دعوةً إلى المشاركة في الاحتفال

بمرور ألفٍ ومئة عامٍ على وفاة القدّيس ميتوديُس. ولكنّ قوى الأمن أمعنت في التنكيل بالطلاّب الذين تظاهروا تأييدًا لهذه الدعوة، ورفضت الحكومة التشيكيّة منح تأشيرة دخولٍ للحبر الأعظم. ومع ذلك تمّ الاحتفال بتلك الذكرى في موعدها، وكان إشارة انطلاق مقاومةٍ مضاعفةٍ تخوضها الكنيسة التشيكيّة.

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى آسيا وأوقيانيا

يوم ١٩٨٤/٥/٣، حطّ يوحنّا بولس الثاني في كوريا الجنوبيّة. وعقب زيارته لعدّة مدنٍ، قام، في السادس من أيّار، بأوّل تطويبٍ خارج روما، رافعًا إلى الهياكل ثلاث مئة شهيدٍ كوريٍّ، منهم أوّل كاهنٍ من أصلٍ كوريٍّ، ومرسلٌ علمانيٌّ. ثمّ زار «پاپوازيا غينيا الجديدة»، حيث، في سابقةٍ فريدةٍ، ألقى عظته بلهجة البلاد الخاصّة. ثمّ أنفق يومًا في جزر سليمان، ويومين في بانكوك، مختتمًا رحلةً قطع، خلالها، خمسةً وثلاثين ألف كيلومترٍ، وهي ثالثة رحلاته طولاً.

ورحلةٌ إلى سويسرا

وبين ١٢ و١٦ حزيران، قام بزيارةٍ إلى سويسرا، كانت ذروتها خطابه في مجلس الكنائس المسكونيّ، حيث أكّد أنّ الحوار اللاهوتيّ بين الكنائس لا بدّ منه، انطلاقًا من الشركة الفعليّة، مع كونها ناقصةً، في ما بينها. فنشدان الوحدة المسيحيّة ليس قضيّة مفاوضاتٍ، بل عليه أن يكون تعبيرًا تاريخيًّا عن الوحدة التي تنتظم جميع المسيحيّين، من خلال معموديّةٍ مشتركةٍ. لم يكن خافيًا على يوحنّا بولس الثاني، مدى العوائق في وجه تحقيق هذه الوحدة، ولكنّه كان مؤمنًا بأنّ الحركة المسكونيّة، إن كان قائدها هو الروح القدس، حقًّا، فستعثر على الصيَغ المناسبة لتحقيق ما تصبو إليه. وقد أثار البابا مواضيع كان المجلس قد أغفلها، وفي طليعتها تجنّب العنف وسيلةً للتغيير الاجتماعيّ، ورؤيته لعمل الكنيسة في العالم، الذي ينبغي أن يقوم على الدفاع عن الإنسان، وكرامته، وحرّيّته، وحقوقه، وكامل معنى حياته.

غير أنّ الكنائس البروتستانتيّة في كلٍّ من سويسرا، وألمانيا، والنمسا، لم تُبدِ أيّ تجاوبٍ مع وجهات نظر يوحنّا بولس الثاني، والتزمت هذا الموقف طيلة عهد حبريّته.

وفي شهر آب، أشرف الحبر الأعظم على جلسات الحوار نصف السنويّة مع العلماء والمفكّرين.

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى كندا

في التاسع من أيلول ١٩٨٤، استهلّ البابا زيارةً إلى كندا، استغرقت أحد عشر يومًا، زار خلالها معظم المقاطعات الكنديّة، وألقى خمسين خطابًا، توجّه بها إلى موزاييكٍ متعدّد الأشكال، تاريخيًّا، وثقافيًّا، وإثنيًّا، ودينيًّا.

لم يكن، ثمّة، قضايا خطيرةٌ من فقرٍ، وانتهاكٍ لحقوق الإنسان، أو قيودٍ على حرّيّة، ولكن كان لا بدّ من إيقاظ الضمائر على ما تعانيه بقاعٌ واسعةٌ من المسكونة، من هذه القضايا، ومن جوعٍ، ومظالم اجتماعيّةٍ، فضلاً عن معاناة الغرب من زحف العلمنة المتفشّي، ومن بطالة الشبّان، ومن آثارهما النفسيّة والاجتماعيّة الوبيلة.

وكان لا بدّ له من التذكير بوجوب بقاء الله في قلب المجتمع لضمان سلامته، ومن مساندة جميع من يمزّقهم القلق والضياع.

وكانت قد سبقت زيارة البابا تهديداتٌ إرهابيّةٌ، دفعت السلطات إلى اتّخاذ تدابير أمنيّةٍ مفرطةٍ في التشدّد، وإلى استنفار أكثر من خمسة آلاف رجل أمنٍ لحماية الضيف الرفيع، ما أعاق ولَع الحبر الأعظم بالاختلاط بأفراد الشعب وبمصافحتهم. وقد ناله من الضيق بحيث جأر، في إحدى النوبات: «**دعوني أتنفس قليلا!**».

أمرٌ آخر عكّر صفو قداسة البابا، هو هبوب عاصفةٍ حال دون زيارته لقرية «فورت سمپسون»، التي يقطنها هنودٌ من سكّان البلاد الأصليّين، الذين كان الحبر الأعظم شديد الرغبة في مخاطبتهم.

غير أنّ الأب الأقدس قد عبّر عن رضاه، إجمالاً، عن تلك الزيارة، مع إرهاقها.

وقد انقلبت ممرّات الطائرة التي كانت تقلّ البابا ومرافقيه، إلى صالةٍ استرسل فيها الصحافيّون في طرح كلّ ما كان يجول بخاطرهم من أسئلةٍ، وكان البابا يجيب عليها بصراحته ودماثته المعهودتين. وللمرّة الأولى تلا صلاة التبشير (Angélus) مع الصحافيّين في الطائرة.

وسأله صحافيٌّ عن موقفه من النساء اللواتي يعلنّ رفضهنّ لتعاليم الكنيسة الاجتماعيّة، في ما يتعلّق بالزواج والجنس، أو أولئك المطالبات بمناصب كنسيّةٍ، فأجاب أنّه يحبّ الجميع، ولكن لا غنى له عن التصريح بالحقيقة، فما من حبٍّ حقٍّ بمنأًى عن الحقيقة، مستشهدًا بقول الفيلسوف الإغريقيّ: «إنّي أحبّ أفلاطون، ولكنّ الحقيقة هي أحبّ إليّ».

مأساةٌ هزّت پولونيا

كان لا مفرّ للبابا من التأمّل مجدّدًا في سرّ الألم المسيحيّ، إثر مقتل مرشد نقابة «التضامن» الروحيّ، الأب «پوپييلوسكو» (Popielusko)، الذي، فيما كان عائدًا إلى مقرّه في ڤرسوڤيا، ليلة ١٩٨٤/١٠/١٩، أوقفه رجال الأمن، وأوسعوه ضربًا وتنكيلاً، ثمّ قيّدوه، وألقوا به في النهر. وادّعى راديو الحكومة أنّه خُطِف، وأنّ مصيره مجهولٌ. وتدفّق المؤمنون إلى الكنيسة التي كان يخدمها، وأقاموا فيها الصلوات على مدار الساعة. وغصّت الكنائس والشوارع بمستنكري تلك الجريمة. غير أنّ «ليش ڤاليسّا» سارع بالحضور، ودعا إلى تجنّب العنف.

وفي ١٩٨٤/١٠/٣٠، أُعلن عن التقاط جثمانه في مياه النهر. فحرّض كاهنٌ صديقٌ له المؤمنين على تذكّر موقف يسوع من موت صديقه لعازر، وعلى تجنّب الانسياق للغضب. وحينئذٍ حدث أمرٌ مؤثّرٌ، وجاء ردّ فعل المسيحيّين على جريمة القتل ردًّا مسيحيًّا، إذ ردّد الحاضرون ثلاثًا: «اغفر لنا خطايانا، مثلما نحن نغفر لمن يسيء إلينا».

وقدّم عشرة آلاف عاملٍ عريضةً إلى عميد الكنيسة الپولونيّة، الذي كانت علاقته بالمغدور متوتّرةً، مطالبين بدفنه في حرم الكنيسة، لا في المقبرة العامّة، وألّفوا وفودًا لهذه الغاية. فاضطر الكردينال «غليمپ» إلى التسليم بهذا المطلب استثنائيًّا. وما زال ضريح الأب »پوپييلوسكو« محجًّا لجموعٍ غفيرةٍ. وأثبت ذلك الكاهن الشهيد أنّ الكفاح من أجل التحرّر المسيحيّ يستمرّ حتّى الموت، وبعد الموت.

العالم كلّه رعيّته

بين العاشر والثالث عشر من شهر تشرين الأوّل، قام يوحنّا بولس الثاني برحلته الرسوليّة الرابعة والعشرين، التي قادته إلى كلٍّ من مدينة سراغوسّا الإسبانيّة، ثمّ إلى «سانتو دومينغو» عاصمة جمهوريّة الدومينيكان، التي كانت تحتفل بمرور خمسة قرونٍ على اعتناقها المسيحيّة، وأخيرًا إلى «پورتوريكو».

وكانت دبلوماسيّة الڤاتيكان قد أفلحت في إبرام معاهدة سلامٍ بين الأرجنتين والشيلي، تمّ التوقيع عليها، في حاضرة الڤاتيكان يوم **١٩٨٤/١١/٢٩**.

ويوم **١٩٨٤/١١/٢٥**، أقرّ الحبر الأعظم تنظيم «أيّام الشبيبة العالميّة»، وكانت تلك، من قِبَله، خطوةً نبويّةً.

وفي **١٢/٢**، أصدر إرشاده الرسوليّ حول «المصالحة والتوبة» (Reconciliatio et Poenitentia).

وهو الذي كان راسخ اليقين بدور الروح الجوهريّ في توجيه مجرى التاريخ، أعلن: «**لن تكون أوروپّا قويّةً إلاّ بروحها**».

رحلةٌ رسوليّةٌ سادسةٌ إلى أميركا اللاتينيّة

في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني **١٩٨٥**، استهلّ يوحنّا بولس الثاني، رحلته الخامسة والعشرين خارج إيطاليا، والسادسة إلى أميركا اللاتينيّة، بدءًا من ڤنزويلاّ، حيث ألهب نبأ هذه الزيارة خيال الشعب الفقير، الذي

تضامن أفراده لجمع المال اللازم من أجل بناء المنصّة، التي كان على الحبر الأعظم أن يقيم عليها القدّاس. وكانت قد انتشرت في أحياء كاراكاس البائسة، شعاراتٌ تقول: «يبتغي البابا أن يكون لك صديقًا، فابحث عنه، وجِده». كان الشعب الڤينزويلّيّ يرى في تلك الزيارة حدَثًا استثنائيًّا، ومبعث فخر. وتأهّبت الصحافة المحلّيّة لتغطية ذلك الحدَث الفريد. وكان الرئيس الڤينزويلّيّ، إكرامًا لهذا الحدث، فد أطلق سراح ثلاثةٍ وعشرين سجينًا. أمّا الحبر الأعظم، فكان عليه، فضلاً عن حمل رسالة الإنجيل إلى ذلك الشعب البائس، محاولة معالجة «لاهوت التحرير»، الآخذ في الانتشار.

وقد استقبل الشعب الڤينزويلّيّ زائره الرفيع ببهجةٍ عارمةٍ، وكانت نظرته إليه نظرته إلى «رجلٍ عظيم». غير أنّ صحيفةً محلّيّةً عنونت صفحتها الأولى بعبارةٍ موجّهةٍ إلى البابا، تقول: «إنّه لجائعٌ الشعب الذي يرحّب بك!».

من المدن الڤينيزويلّيّة التي زارها الحبر الأعظم، مدينة «كوزكو»، التي يناهز ارتفاعها عن مستوى البحر ثلاثة آلافٍ وأربع مئة مترٍ. وكانت زيارته لها مؤثّرةً حقًّا. فالبرد كان قارسًا، والمطر مدرارًا، وشقّ على كثيرين من الصحافيّين المرافقين للبابا، احتمال قسوة الطقس على تلك القمم الشاهقة. غير أنّ آلاف الفقراء كانوا قد تراصّوا في وادٍ صغيرٍ، على مقربةٍ من المنصّة المعدّة لإقامة الذبيحة الإلهيّة، وغطّوا التلال المجاورة. وكانوا قد تقاطروا من كلّ أرجاء المنطقة، رغبةً في مشاهدة يوحنّا بولس الثاني. وكان كثيرون منهم قد خيّموا هناك، طيلة الليل، وكابدوا قسوة الطقس. ولكنّهم لم يستقبلوا زائرهم بالضجيج وقرع الطبول، كما يحدث في أماكن أُخرى، بل رحّبوا به بخشوعٍ صامتٍ استحقّ تأثّر الصحافيّين واحترامهم. وشخصت أبصارهم بتجلّةٍ، وحبٍّ، واعتزازٍ، إلى الرجل العظيم، المتّشح بالبياض الناصع، المنتصب على قمّة قلعة أجدادهم، المتّشحة بالغمام. ولا ريب أنّ ذلك الموقع كان من أغرب المواقع التي بلّغ منها البابا رسالة الإنجيل، وكأنّها صدًى لموعظة يسوع على الجبل. وقد أكّد لمستمعيه أنّه جاء إليهم كي يساندهم، ويدافع عن حضارتهم العريقة، ويقترح وسائل كفيلةً بجعل حياتهم أعمق إنسانيّةً ومسيحيّةً.

ودعاهم إلى التضامن، فهو الردّ المسيحيّ على جنون العنف الذي يحرّك العصابات المسلّحة، وهو يناقض الإيديولوجيات التي تقسّم البشر إلى جماعاتٍ متعاديةٍ لا سبيل إلى مصالحتها، والتي تستهدف القضاء على الطرف المقابل. وخلافًا للأنانيّة المطلقة والجامحة، التي تحمل لواءها تلك العصابات، تدعو الكنيسة إلى ثورةٍ جوهريّةٍ تتناول الإيمان، والضمير، وقلوب البشر، فتجتثّ الأنانيّة من جذورها، وترسي أسس مجتمعٍ أوفر عدالةً. فالثورة الإنسانيّة حقًّا، هي التي تغيّر القلوب والنفوس والأذهان، فضلاً عن الأوضاع المادّيّة.

وقد جال في خاطر الحبر الأعظم، وهو يتسنّم تلك القمم، ويجيل الطرف على وجوه ذلك الشعب الطيّب البائس، بُناة تلك البلاد، قبائل الهنود «الإينكا» الذين كانوا يعبدون الشمس، بصفتها مصدر الحياة، وها هم أحفادهم أمامه، وقد تحوّلت ثقافتهم العريقة، بفضل ضياء يسوع، صوب الشمس التي لا تغرب، شمس العدل، والحبّ، شمس المسيح المخلّص، مصدر الحياة في هذا العالم، والحياة التي تتغلّب على الموت، ولا تعهد نهايةً، الحياة الأبديّة. وقد تجلّى، حينئذٍ، إيمان ذلك الشعب بكلّ روعته، ولكنّ المسلّحين الثوريّين، أفسدوا روعة تلك الليلة، بإحداث انقطاعٍ كهربائيٍّ في كلّ المدينة، ورسموا بالأنوار، على قمّة الجبل، رموز الحزب الشيوعيّ: المنجل والمطرقة.

بعد ڤينيزويلاّ، زار الحبر الأعظم الإيكوادور، الذي استقبله باندفاعٍ شعبيٍّ منقطع النظير، ثمّ البيرو حيث كان قد استُنفر خمسون ألف شرطيٍّ، لحماية ذلك الزعيم الروحيّ المندّد بالإرهاب، والداعي بملء صوته إلى السلام، مردّدًا، بلا هوادةٍ: «**اسعوا إلى الحوار، غيّروا نهجَكم!**».

وأنهى البابا تلك الرحلة بزيارة ترينداد وتوبوغو. وعندما استوضحه صحافيّون عن «لاهوت التحرير»، أجاب: «إنّي أبتغي، بالحريّ، مخاطبة أولئك القوم البسطاء»، أي تبليغ رسالة الكنيسة إلى شعبٍ أنهكته حروب العصابات، وسحقه الفقر. بيد أنّه أكّد لذلك الشعب الذي يحدوه إيمانٌ راسخٌ، أنّ «**لاهوت التحرير قد شوّه رسالة الإنجيل، بتطويعها لخدمة إيديولوجياتٍ وأهدافٍ سياسيّةٍ، فبات**

بحاجةٍ إلى تحريره من انحرافاته». ولكنّه أوضح أنّ هذه القضيّة لا تشغل سوى فئةٍ ضئيلةٍ، أمّا سواد الشعب فلا يعيرها اهتمامًا.

وعلى أيّة حالٍ، أوضح صحافيٌّ أنّ الناطق باسم لاهوتيّي التحرير، أعلن مشاركته الشعب فرحته بزيارة البابا، التي أحدثت «**لاهوت بركة**».

وبمناسبة هذه الزيارة السادسة إلى أميركا اللاتينيّة، سئل البابا هل هو يكنّ مودّةً خاصّةً لتلك المنطقة من العالم، فأكّد هذا الشعور، بما أنّ أميركا اللاتينيّة تضمّ قسمًا كبيرًا من كاثوليكيّي العالم.

واستوضح هل الكنيسة هي إلى جانب الأميركيّين اللاتينيّين، فأجاب: «**بل الأميركيّون اللاتينيّون هم مع الكنيسة**». وسئل هل الكنيسة تؤثر الفقراء، فأجاب: «**بل الفقراء هم الذين اختاروا الكنيسة!**».

ودُهش الصحافيّون لكون الحبر الأعظم، بعد عشرة أيّامٍ من الترحال وإلقاء الخطابات، ما برح نشيطًا يتمتّع بكامل همّته، في حين بدت عليهم علامات التعب والوهن. فأجاب أنّ ذلك مدينٌ لعون السماء، ولمؤازرة معاونيه الذين يضطلعون بقسطٍ كبيرٍ من العمل.

وردًّا على سؤال صحافيٍّ، هل دعوته إلى السلام في بلادٍ يطغى فيها العنف، ليس ضربًا من صراخٍ في الصحراء، قال: «**لا بدّ من صوتٍ يصيح في الصحراء، وما انفكّ يصيح منذ ألفي سنةٍ، ولا بدّ له من أن يُسمَع في نهاية المطاف**».

وعن انطباعاته عن تلك الرحلة، أفاد: «**ثمّة قوّةٌ كبرى تنبعث من هذا الشعب النشيط، وبالإمكان توجيهه الوجهة الصحيحة، وحمايته من الانحرافات**».

وقد وصف الشعوب التي التقاها بأنّها شابّةٌ، سليمةٌ، تمتلك قلبًا مسيحيًّا، بكلّ أوهانه الأخلاقيّة، ولكنّه وفيٌّ للمسيح، وعميق الإيمان... إنّه بسيطٌ وواعدٌ.

واستوضح عن قدرة الكنيسة على تحسين أوضاع الفقراء في تلك البلاد،

فأوضح أنّ الكنيسة لا تملك سلطةً سياسيّةً، ولا يسعها تغيير الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة، ولكن بوسعها توفير القوّة للشعب، والتأثير على مجمل الأوضاع.

وسُئل هل هو راضٍ عن تلك الرحلة، فأجاب أنّه راضٍ لأنه أدّى واجبه، وهو واجبٌ على قدَرٍ كبيرٍ من الخطورة. وأكّد حضور البابا في البلدان، كافّةً.

تقييمٌ للمجمع الڤاتيكانيّ الثاني

في ١٩٨٥/١/٢٥ أعلن يوحنّا بولس الثاني عن سينودسٍ استثنائيٍّ للأساقفة، يُعقد بين ١١/٢٤ و١٩٨٥/١٢/٨، بمناسبة الذكرى العشرين لاختتام المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، ولدراسة تأثيراته. وقد وُصف استثنائيًّا، لأنّه لم يكن مدرجًا في لائحة السينودسات الدوريّة المنتظمة. بيد أنّ ما أسفر عنه من ثمارٍ، أثبت أنّه كان استثنائيًّا حقًّا.

كان البابا يوحنّا الثالث والعشرون قد دعا إلى المجمع الڤاتيكانيّ، آملاً استلهام الروح القدس، واستنزال عنصرةٍ جديدةٍ كفيلةٍ بتحقيق وحدة الكنيسة. غير أنّ ما أثارته النقاشات في ذلك المجمع، من خلافاتٍ حادّةٍ، حملت خلَفه، البابا بولس السادس، إلى التساؤل، بصوتٍ عالٍ، هل تحوّل النقد الذاتي البنّاء، في الكنيسة، إلى تدميرٍ ذاتيٍّ وبيلٍ، وعبّر عن قلقه بالقول: «يبدو أنّ دخان إبليس تسلّل من بعض الشقوق إلى هيكل اللّه!».

فما الذي حصل في أعقاب ذلك المجمع؟

خلال العشرين سنةً التي تلت المجمع – بين ١٩٦٥ و١٩٨٥ –، ارتقى عدد الكاثوليكيّين في العالم من أقلّ من ستّ مئة مليون نسمةٍ إلى ثماني مئةٍ وثلاثين مليونًا. ولكنّ تكاثرهم تمّ، خاصّةً، في أميركا اللاتينيّة وأفريقيا. وبعد أن كان مرسلون أوروپيّون يتولّون الرعاية الكنسيّة في تلك البلدان، أمسى معظم رعاتها من أهل البلاد الأصليّين، واعتمر عددٌ منهم قبّعة الكردیناليّة الحمراء، مع أنّ بعضًا منهم، ولا سيّما في أفريقيا، كانوا أبناء وثنيّين.

ولكن، بالمقابل، سُجّل تراجعٌ محزنٌ في البلدان الغربيّة، التي اضطلعت بالقسط الأرجح من مسؤوليّة المجمع الڤاتيكانيّ، وكان متوقّعًا أن تكون هي في

طليعة الناعمين بفوائده. فعلى سبيل المثال، هبط عدد المواطبين على ممارساتهم الدينيّة، في ألمانيا، التي كان لإكليروسها المساهمة الكبرى في المجمع، إلى دون العشرة بالمئة. ولم تكن فرنسا وإيطاليا أفضل حالاً. وسجّلت إيطاليا أكثر نسبة توالدٍ انخفاضًا. وبالمقابل أدّى اضطهاد الجماعات الكاثوليكيّة، في البلدان القابعة خلف الستار الحديديّ – مثل پولونيا، وليتوانيا، وتشيكوسلوڤاكيا، وأوكرانيا – إلى إلهاب المشاعر الدينيّة لدى معظم الكاثوليكيّين في تلك البلاد.

وفي حين نكص أكثر من مئة ألف كاهنٍ وراهبةٍ عن نذورهم الكهنوتيّة والرهبانيّة، تكاثر، تكاثرًا ملفتًا، عدد العلمانيِّين الذين أسهموا في الطقوس الكنسيّة، والمؤسّسات التعليميّة والدينيّة. وفي أوروپّا الشرقيّة، وفي أفريقيا، سجّلت الدعوات الكهنوتيّة والرهبانيّة أرقامًا قياسيّةً. ومع أنّ المجمع دعا المؤمنين إلى تفعيل الثقافة المعاصرة، وفقًا لتعاليم الكنيسة، لم يظهر أيّ تقدّمٍ في تأثير الكاثوليكيّة على الحياة الثقافيّة والسياسيّة في الغرب. ولكن، بالمقابل، نهضت حركات تجدّدٍ علمانيّةٌ مؤثّرةٌ، وعهدت ازدهارًا لا مثيل له منذ قرونٍ.

في الواقع كان الرهان الذي قام عليه المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، هو تحقيق الانتقال من وضع مؤسّسةٍ دينيّةٍ سلطويّةٍ، إلى جماعةٍ دينيّةٍ تكسب ثقة المؤمنين، وتنعم بالنفوذ. ولم يكن الأمر «تسويةً» بين التقليديّين الذين يرفضون الحداثة جملةً وتفصيلاً، والتقدّميّين الذين يحملهم اندفاعهم نحو الحداثة إلى اعتبار كلّ سلطةٍ سلطويّةً حتمًا.

وكان لا بدّ من حوارٍ يفضي إلى تقريب وجهات النظر، بل إلى تناغمها بين العقيدة الكاثوليكيّة الثابتة، والحداثة. ومثّل ذلك حقلاً ينبغي اكتشافه، وهو ما استهدفه يوحنّا بولس الثاني بدعوته إلى سينودُسٍ استثنائيٍّ، من أجل كاثوليكيّةٍ متجدّدة الحيويّة.

يوحنّا بولس الثاني والإعلام

بعد خمس سنواتٍ من التعايش مع إداريّي الڤاتيكان، المتشبّثين بأسلوب عملهم الذي يأبون له تغييرًا، والذي لم يكن البابا راضيًا عنه دائمًا، أخذ يوحنّا

بولس الثاني على عاتقه صحافة الڤاتيكان، وأطلقها في رحاب عالم الاتّصالات. فبعد أن تولاّها، طويلاً، كهنةٌ حذرون، محدودو الآفاق، عيّن الحبر الأعظم، في ١٩٨٤/١٢/٤، ناطقًا باسمه، ومديرًا لمكتب الڤاتيكان الإعلاميّ، علمانيًّا إسبانيًّا مثقّفًا، في الخمسين من عمره، كان يحمل دبلومًا في الطبّ النفسيّ، الذي مارسه فترةً، ثمّ تحوّل إلى الصحافة، وأصبح مراسلاً لصحيفةٍ إسبانيّةٍ، ورئيسًا لاتّحاد الصحافيّين الأجانب في إيطاليا، هو «جواكان ناڤارّو ڤالس» (Joaquin Navarro-Valls)، الذي أكسب مكتب الڤاتيكان الإعلاميّ، خبرةً كان يفتقر إليها الإعلاميّون الإكليريكيّون السابقون. وسرعان ما اكتسب «ناڤارّو» ثقة يوحنّا بولس الثاني، وغدا يتواصل معه، مباشرةً، أكثر من أيّ شخصٍ آخر، ما عدا أمين سرّ البابا الخاصّ. وقد أثبت ذلك الصحافيّ العلمانيّ الممتهن، الذي اختاره البابا، من خارج الوسط المألوف، لكي يبلّغ رسالته، متخطّيًا المؤسّسات المترهّلة، امتلاكه لخبرةٍ مهنيّةٍ تؤهّله لتوضيح نمط تفكير الحبر الأعظم، وللتعريف ببرنامج عمله، محدثًا ثورةً في عمل مكتب إعلام الكرسيّ الرسوليّ.

وكان أسلافه – بما فيهم الكردينال كازارولّي – يعارضون أن يتحدّث البابا إلى الصحافيّين، في أثناء أسفاره، لاعتقادهم أنّ صمته يقيه من زلاّت اللسان، ومن التصريحات العفويّة، التي قد تستدعي ردود فعلٍ غير مستساغةٍ. ولكنّ «ناڤارّو» أيّد أحاديث البابا هذه، التي كانت توفّر له فرصةً نادرةً لحصد المعلومات، ولتبليغ رسالته ونشرها. وكان يرى في مبادرة يوحنّا بولس الثاني هذه، نظرةً جديدةً إلى الكنيسة، وإلى الحبر الأعظم الذي بات بوسع الجميع رؤيته حيًّا، وسماع صوته مباشرةً، ومناقشته بلا عائقٍ.

«أيّام الشبيبة العالميّة»

في أثناء خدمته الكهنوتيّة والأسقفيّة في پولونيا، كان «كارول ڤويتيووا» قد خَبَر ضرورة مواكبة الشبيبة، وتبيّن ثمارها الخيّرة. وفي مطلع حبريّته تأثّر أبلغ

تأثُّرٍ عندما عقد لقاءً مع الشبيبة الفرنسيّة، التي توصف، عمومًا، بصدوفها عن الدين، والتي تواصلت مع يوحنّا بولس الثاني تواصلاً تخطّى، في اندفاعه، كلّ توقّعٍ، في «منتزه الأمراء» (Parc des princes)، والذي أتينا على ذكره، آنفًا. وتجدّد الحدث بمناسبة لقاء الحبر الأعظم مع الشبيبة في روما، يوم أحد الشعانين من عام ١٩٨٤. فتوقّدت في ذهن البابا فكرة إحياء يومٍ للشبيبة العالميّة، من كلّ أرجاء الكرة الأرضيّة. ومنذئذٍ، جرى إحياء هذا الحدث، بحضور البابا، في بوينس إيرس (الأرجنتين)، عام ١٩٨٧، ثمّ في «سان جاك دي كومپوستيل» (إسبانيا)، عام ١٩٨٩، وفي «تشينستوهوڤا» (پولونيا)، عام ١٩٩١، وفي «دينڤر» (الولايات المتّحدة الأميركيّة)، عام ١٩٩٣، وفي «مانيلاّ» (الفيليپّين)، عام ١٩٩٥، وفي پاريس، عام ١٩٩٧، حيث أعلن البابا أنّ اللقاء التالي سيتمّ في روما، عام ٢٠٠٠.

وبمناسبة يوم الشبيبة الدوليّ، أصدر يوحنّا بولس الثاني، بتاريخ ١٩٨٥/٣/٢٦، رسالةً رسوليّةً «إلى جميع شبّان العالم» (Dilecti Amici)، بسط فيها رؤيته لمرحلة الشباب. فهي محطّةٌ مميّزةٌ في وجود كلّ إنسانٍ. ففيها ترتسم معالم دعوة كلّ فردٍ، وتُتّخذ القرارات الجدّيّة الأولى، إذ يكتشف الشابّ ذاته كائنًا مسؤولاً عن مصيره، ويتساءل عمّا يتوجّب عليه فعله، في سبيل بلوغ أهدافه العليا.

الشباب مرحلة التأمّل في سرّ الله، ومرحلة الوعي والوجدان. والوجدان هو معيار الكرامة الإنسانيّة وتاريخ العالم. فالتاريخ لا تكتبه الأحداث الخارجيّة فحسب، بل هو يُكتَب، خاصّةً، من الداخل. إنّه سجلّ الضمائر البشريّة، والانتصارات والخيبات الأخلاقيّة. ومن ثمّ فإنّ تنمية الوجدان هي المقياس الحقيقيّ لتنمية الشخصيّة البشريّة.

وقد قال يوحنّا بولس الثاني، مخاطبًا الشبيبة، إنّ الشباب هو مرحلة الوجود التي تقرّر المستقبل والدعوة، إذ يسعى الشبّان إلى «**استبيان فكر الخالق بشأنهم، وإلى اكتشاف شخصيّتهم الخاصّة الفريدة، والرسالة الموكلة إلى كلّ فردٍ... إنّه مشروعٌ أخّاذٌ تنمو، في خلاله، إنسانيّتكم، فيما تكتسب شخصيّتكم الشابّة نضوجًا**

متناميًا. كلٌّ منكم يتجذّر في كيانه الخاصّ، كي يصبح ما هو مدعوٌّ أن يكونه، من أجل ذواتكم، ومن أجل الغير، ومن أجل اللّه».

وتطرّق قداسته إلى قضيّة الجنس، الذي يقود إلى مغامرة الحبّ، وحذّر من تحويله إلى وسيلة متعةٍ عابرةٍ، قائلاً: «**لا تخافوا من الحبّ الذي يفرض مقتضياتٍ، فهذه المقتضيات هي الكفيلة بإيلاد حبٍّ حقّ**».

وفضلاً عن كلّ ذلك، كان يوحنّا بولس الثاني يرى أنّ الشباب هو موسم اكتشاف الحرّيّة، عملاً بقول يسوع: «ستعرفون الحقّ، والحقّ هو الذي سيحرّركم». وبممارسة هذه الحرّيّة «نبلغ ملء إنسانيّتنا، بفضل قدرتنا على وهب ذواتنا». تلك هي شريعة اللّه المدوّنة في القلب البشريّ، والتي يسهل اعتناقها في مرحلة الشباب المميّزة.

هذه المواكبة للشبيبة استحقّت ليوحنّا بولس الثاني لقب «سوپر ستار»، رغم تقدّمه في السنّ، ورغم رصاصة محمّد علي أغشا، وما نجم عنها من أمراضٍ وقيودٍ. ذلك أنّ هذا الحبر قد أخذ الشبيبة على محمل الجدّ، كأشخاصٍ كاملي الكيان، يناضلون في سبيل حياةٍ حقّةٍ. وهو عندما كان يخاطبهم، كان يضجّ بملء الرسالة المسيحيّة، التي كان يحياها بكلّ أوتار كيانه. ولم يسعَ، يومًا، إلى مداهنتهم مداهنةً خسيسةً، بل إنّه كان، دائمًا، يتحدّاهم بألاّ يرتضوا بما هو دون العظمة الأخلاقيّة. وفي حين لم يكن أحدٌ من الوجوه العالميّة يدعو الشبيبة إلى التضحية، وتحمّل المسؤوليّات، استطاع هو النفاذ إلى قلوبهم المتعطّشة إلى البطولة التي ربطها بنشدان اللّه.

وجديرٌ بالتنويه أنّ العادة درجت على عقد، كلّ سنتين، لقاء شبيبةٍ وطنيٍّ، في روما، يوم أحد الشعانين، وفي السنة التالية لقاء شبيبةٍ عالميٍّ يُعقد في مدينة كبرى بإحدى القارّات. وكلّ لقاء يرفع شعارًا يختزل موضوع تأمّلاته ومناقشاته الأساسيّ.

فشعار أحد شعانين ١٩٨٦، رفع شعار: «كونوا على استعدادٍ دائمٍ لتجيبوا كلّ

من يسألكم حجّةً عن الرجاء الذي فيكم» (١ بطرس: ٣: ٥) – واللقاء العالميّ الذي عقد خلال شهر نيسان ١٩٨٧ في »بوينس أيرس» عقد تحت شعار: «لقد عرفنا المحبّة التي فينا، وآمنّا بها» (١ يوحنّا ٤: ٦).

لقاء شعانين **١٩٨٨** حمل شعار: «كلّ ما يقوله لكم يسوع افعلوه، ولقاء »كومبوستيل« لعام **١٩٨٩** أعلن شعار: «أنا الطريق والحقّ والحياة».

لقاء شعانين **١٩٩٠** رفع شعار: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان»، في حين رفع لقاء «تشينستوهوڤا» (پولونيا) لعام **١٩٩١**: «قد نلتم روح التبنّي».

لقاء شعانين **١٩٩٢** أعلن: «أنا أتيت لكي تكون لهم الحياة، وتكون لهم وافرةً».

وكان شعار لقاء شعانين **١٩٩٤**: «كما أرسلني الآب أنا أيضًا أرسلكم»، وحمل لقاء مانيلاّ العالميّ، في كانون الثاني **١٩٩٥** الشعار عينه.

لقاء شعانين **١٩٩٦** عقد تحت شعار: «إلى من نمضي، يا ربّ؟ إنّ عندك كلام الحياة الأبديّة» ولقاء پاريس (آب **١٩٩٧**): «يا معلّم، أين تقيم؟ هلمّوا وانظروا».

ورفع لقاء شعانين **١٩٩٨**: «الروح القدس يعلّمكم كلّ شيء» – لقاء شعانين **١٩٩٩** عُقد تحت شعار: «إنّ الآب يحبّكم»، وحمل لقاء روما الدوليّ، عام **٢٠٠٠**، شعار «الكلمة صار بشرًا، وسكن فينا».

وفي كلّ لقاء كان يوحنّا بولس الثاني يلقي عظةً، يطلق من خلالها، نداءاتٍ تلهب أفئدة مستمعيه. مثل: «**كونوا رُسُل تبشير جديدٍ، من أجل بناء حضارة المحبّة**»، «**أيّها الشباب، إنّ مستقبل العالم يقوم عليكم. كونوا أنتم هذا المستقبل**»، «**يجب أن تنهجوا دروب التاريخ الكبرى**»، «**إنّ الحياة التي تنشدها الشبيبة هي التزامٌ حازمٌ بإزهار أنسنةٍ جديدةٍ تضفي معنًى حقيقيًّا على الوجود. حيث ينشب جوعٌ وعطشٌ جمّان إلى الله**».

السعي المسكونيّ

بين ٢٢ و٢٧ نيسان ١٩٨٥، التأم في روما ممثّلو ثلاثٍ وستّين لجنةً أسقفيّةً وطنيّةً، للبحث في ما توصّلت إليه المساعي من أجل تحقيق وحدة الكنيسة. وقد أكّد يوحنّا بولس الثاني، بهذه المناسبة، أنّ الغاية المسكونيّة المنشودة، ليست أقلّ من «**ملء شراكة المسيحيّين في الإيمان الرسوليّ، وفي إخاءٍ إفخارستيٍّ لخدمة شهادةٍ مشتركةٍ حقًّا**»، والتي تعبّر عن وحدة الآب والابن والروح القدس.

ثمّ، في ٨ حزيران، وجّه إلى أمانة سرّ الفاتيكان من أجل وحدة المسيحيّين، التي كانت تواجه خلافاتٍ لاهوتيّةً، رسالةً أكّد فيها أنّ «**الكنيسة الكاثوليكيّة ملتزمةٌ بالحركة المسكونيّة بقرارٍ لا رجوع عنه، وترغب في المساهمة بتحقيق هذا الهدف بكلّ الوسائل المتوفّرة لها**»؛ وقد شدّد على أنّ تلك هي إحدى أولويّات أُسقف روما الراعويّة، داعيًا إلى إيضاح الأُسس اللاهوتيّة للمسكونيّة الكاثوليكيّة. فهذه الوحدة إنّما هي إرادة الروح القدس، ولكنّها طالما ارتطمت بضلال البشر وأنانيّاتهم، وعنادهم. وهي قد أُعطيت للكنيسة في العنصرة، ولا بدّ من إعادة إحيائها. وليس السبيل إلى ذلك تجاهل الخلافات التي تفرّق المسيحيّين، بل هو الإجماع على قول: «هذه هي الحقيقة» التي نعترف بها جميعنا. ولا بدّ من وحدةٍ في الإيمان، وهذه الوحدة لا تتحقّق إلاّ بالمحبّة، وبتواضعٍ متبادلٍ تلهمه المحبّة ونشدان الحقيقة، فهما كفيلان بلأم الجراح القديمة. ومن أجل ذلك، لا مفرّ من الإصغاء إلى الروح القدس، والعمل بإلهاماته.

غيومٌ وعواصف

فيما كان يوحنّا بولس الثاني عاكفًا على استقراء أحداث العالم، ولا سيّما إثر انتخاب «غوربتشيف» أمينًا للحزب الشيوعيّ السوفييتيّ، وبعد أن استقبل وزير خارجيّة الاتّحاد السوفييتيّ «أندريه غروميكو» بتاريخ ١٩٨٥/٢/٢٧، كانت هموم الكنيسة هي أكثر ما يؤرّقه. وقد تمثّلت هذه الهموم، على نحوٍ خاصٍّ، في بزوغ نزعاتٍ شاذّةٍ لدى بعض اللاهوتيّين الناشئين، وكان أبرزهم، في تلك

الفترة، الكاهن الفرنسيسكانيّ البرازيليّ «ليوناردو بوفّ»، الذي كان يُعدّ رسالة دكتورا، بإشراف «جوزف رتسنغر» (الذي أصبح البابا بينيدكتُس السادس عشر). ومن خلال أطروحته قيّم الكنيسة بمعيارٍ ماركسيٍّ، ونشر أطروحته، متخطّيًا نصيحة أستاذه الذي نصحه بإرجاء نشر أيِّ شيءٍ، قبل إنضاج فكرته، وإشباعها تمحيصًا، وانتهى بهجر الجمعيّة الفرنسيسكانيّة، والكنيسة، وأضحى من روّاد لاهوت التحرير، في أميركا اللاتينيّة.

ومن جانبٍ آخر كانت تؤرّق بال يوحنّا بولس الثاني خلافاتٌ مستفحلةٌ بين رجال الكنيسة الهولنديّة، بشأن العقيدة، والطقوس، والتربية الدينيّة، وكان مجرّد ذكر «روما» يثير لدى بعضهم توتّرًا وريبةً. وبعد أن تعذّرت على الحبر الأعظم إعادة بناء الثقة بينه وبين جزءٍ من الإكليروس الهولنديّ، عزم على الشخوص، بذاته، إلى هولندا، فأثار نبأ زيارته معارضةً حادّةً، ولكنّها لم تثنِه عن عزمه.

وجرت الزيارة في جوٍّ مشحونٍ. ففي اليوم الثالث السابق لوصول البابا، اجتازت شوارع «لاهاي»، مظاهرةٌ معارضةٌ. وكانت الخطابات التي يعزم إلقاءها بهذه المناسبة، قد أعدّها بالتشاور مع الأساقفة الهولنديّين، ورغب بعضهم في أن يقول ما لا يجرؤون، هم، على قوله، وكان من شأن ذلك أن يظهره بمظهر المتسلّط، الذي كان خصومه يأخذونه عليه. وكان السفير البابويّ، قد نظّم لقاءً مع ممثّلي الكنيسة الهولنديّة المكلّفين بالتربية الدينيّة، فانتقد بعضهم مواقف الحبر الأعظم، انتقادًا عنيفًا وحادًّا، واستبدلت إحدى المتحدّثات الخطابَ المعدّ بمداخلةٍ مرتجلةٍ، اتّهمته فيه بالإفراط في السلطويّة. ولكنّه، لاحقًا، استقبلها بحرارةٍ.

وفي مدينة «أوتريخت»، كان استقبال الأهالي له باردًا، وعاصفًا. فقليلون هم الذين رحّبوا به، ورشق البعض سيّارته بالبيض والقنابل الدخانيّة، وبلغت القحة ببعضهم أن علّقوا لافتاتٍ عرضوا، بها، جائزة ستّة آلاف دولارٍ، مقابل رأسه!

ولكنّ المشهد تغيّر، بعض الشيء، في يوم زيارته الأخير، **١٩٨٥/٥/١٥**، إذ استقبله، في مدينة «أمِرْسفورت» (Amersfoort)، حشدٌ من الشبّان لم يتوقّع أحدٌ مثل كثافته، ولكأنّ ذلك الجيل الذي حُرِم التربية الدينيّة، كان متعطّشًا إلى رسالة رجاءٍ. وبعد مضيّ سنتين افتُتحت إكليريكيّةٌ، كان باكورة ثمارها ستّون كاهنًا.

ثمّ عرّج البابا على اللوكسمبرغ، حيث أمضى يومًا، وأنهى جولته بزيارةٍ إلى بلجيكا، حيث تخشّع في مزار «بورينغ» المريميّ، واحتفل بعيد ميلاده الخامس والستّين. وفي العشرين من أيّار، تحدّث، في بروكسل، إلى ممثّلي الحكومة، وإلى لجان البرلمان الأوروبّيّ، ودعا إلى وحدةٍ أوروبّيّةٍ شاملةٍ، مرتكزةٍ على أُسسٍ مسيحيّةٍ.

إثر عودته إلى روما، عقد مجمع الكرادلة الثالث في عهد حبريّته، يوم ١٩٨٥/٥/٢٥، وعيّن فيه ٢٨ كردينالاً جديدًا، كان لبعضهم دورٌ فاعلٌ في مسيرة الكنيسة.

مع الشبّان المسلمين في كازابلانكا

كان ملك المغرب، حسن الثاني، قد زار الڤاتيكان، ووجّه إلى الحبر الأعظم دعوةً رسميّةً لزيارة بلاده، فشكر له البابا دعوته، ولكنّه تساءل عمّا عساه يفعل في مملكةٍ هي، رسميًّا، مسلمةٌ، فردّ عليه الملك: «يا صاحب القداسة، ليست رسالتك دينيّةً صرفًا، بل هي، أيضًا، تربويّةٌ وأخلاقيّةٌ. وإنّي لعلى يقينٍ بأنّ عشرات ألوف الشبّان المغاربة، سيسعدون بسماعك تحدّثهم عن المبادئ الأخلاقيّة، التي تنظّم علاقات الأفراد والجماعات والأمم والديانات». وقبِلَ يوحنّا بولس الثاني الدعوة بسرور. ولم يتلكّأ الملك المغربيّ في إقامة علاقاتٍ سويّةٍ بين بلاده والكنيسة الكاثوليكيّة، التي أُعطيت حرّيّة ممارسة طقوسها، والتربية الدينيّة لأتباعها؛ وأُعفيت كنائسها ومدارسها، وكهنتها وراهباتها، من الضرائب. وسُمِح لها بالإشراف التامّ على شؤونها الداخليّة، وبتقبّل الإعانات الماليّة من الداخل والخارج، وبإدارة ماليّتها إدارةً مستقلّةً. وسُمِح للمؤسّسات الخيريّة الكاثوليكيّة بممارسة نشاطها.

وتسنّت للحبر الأعظم سانحة تلبية دعوة الملك، في ختام رحلته الثالثة إلى أفريقيا، التي استهلّها في ١٩٨٥/٨/٨، والتي قادته إلى ساحل العاج، وتوغو، فالكاميرون، والزائير، وكينيا، حيث رأس المؤتمر الإفخارستيّ الثالث والأربعين في نيروبي. وفي طريق عودته، توقّف في كازابلانكا.

ويوم **١٩/٨/١٩٨٥**، خاطب جمهورًا من نحو ثمانين ألف شابٍّ مغربيٍّ. وتميّز خطابه، الذي ألقاه باللغة الفرنسيّة، ببساطةٍ كبرى. وقد أوجز فيه نظرته الإنسانيّة المسيحيّة، التي تتلازم مع فكر جمهوره. واستهلّه بقوله إنّه جاءهم بصفته «**مؤمنًا... كي أشهد بما أومن به، وبما أتمنّاه لخير جميع إخوتي، وخير الإنسانيّة جمعاء، وبما علّمتني خبرتي أنه مفيدٌ للجميع...**» وقد وجّه فكرته إلى الله «**فبه نؤمن، مسلمين ومسيحيّين، وهو نبع كلّ فرح. والدليل على ذلك أنّنا، جميعنا، نصلّي له، فالإنسان لا يحيا بلا صلاةٍ، كما أنّه لا يحيا بلا تنفّس**».

ثمّ تطرّق لقضيّة الحرّيّة الدينيّة الشائكة، في العلاقات بين المسلمين والكاثوليك. وأوضح أنّ السبيل إلى تحقيق هذه الحرّيّة هو الإيمان، وليس اللامبالاة الدينيّة. «**فالخضوع لله، وحبّ الإنسان، من شأنهما اقتيادنا إلى احترام حقوق الإنسان**». وهذا الاحترام يفرض التبادل في جميع المجالات، ولا سيّما في ميدان الحقوق الأساسيّة.

وأوضح أنّ دور الشبيبة هو بناء عالمٍ أوفر إخاءً، و«**هدم الحواجز التي تقيمها الكبرياء، غالبًا بدافع الضعف والخوف**». وعلى الشبيبة مواجهة تحدّي عيش «**التضامن مع الآخرين، بحيث يستطيع كلّ فردٍ أن يظفر بوسائل العيش، وأن يهتمّ بنفسه، وأن يحيا بسلام**»، ولكن مع الاعتراف بخطورة القضايا الاقتصاديّة، وبأنّنا لسنا موجودين في عالمٍ مغلقٍ.

وكان لا بدّ من إيضاح النقاط التي يجمع عليها المسيحيّون والمسلمون، وتلك التي حولها يتباينون. فجميعهم يؤمنون بإلهٍ واحدٍ، عادلٍ، ورحيمٍ، ويرغب في تخليص جميع خلائقه، لكي يحيوا، أبديًّا، إلى جانبه. وجميعهم يؤمنون بعظمة شأن الصلاة، والصوم، والتوبة، والغفران. أمّا الاختلافات الخطيرة، المتعلّقة بإيمان المسيحيّين بأنّ يسوع هو ابن الله، ومخلّص العالم، فبوسعنا قبولها بتواضعٍ واحترامٍ، في تسامحٍ متبادلٍ. «**فثمّة سرٌّ سيكشفه لنا الله، يومًا، وأنا على ثقةٍ بذلك**»، والآن، «**إن وضع المسيحيّون والمسلمون ذواتهم بتصرّف الله، وخضعوا لمشيئته، فسيشهد البشر ولادة عالمٍ يحدو فيه الرجالَ والنساءَ، إيمانٌ مضطرمٌ، وينشدون، معًا، مجد الله، ويسعون إلى مجتمعٍ إنسانيٍّ، متوافقٍ مع مشيئته تعالى**».

وكان، حينذاك، برفقة البابا، كردينالٌ عُيّن حديثًا مسؤولاً عن نشر الإيمان. وبما أنّ ذلك المناخ كان غير مألوفٍ لديه، فقد حدّق إلى الجمهور أكثر من تحديقه إلى الحبر الأعظم، وراقب بدهشةٍ، اهتمام الشبيبة المغربيّة بأقوال يوحنّا بولس الثاني، وإجلالهم لشخصه، وراز البون الشاسع بين موقفهم، وما شاهده، لدى شبّانٍ هولنديّين من لامبالاةٍ، ومن القحة أحيانًا.

وإن كانت أيّام الشبيبة العالميّة، قد أضافت بعدًا جديدًا إلى حياة الكنيسة الكاثوليكيّة، غير أنّ احتشاد ثمانين ألف شابٍّ مسلمٍ، لتحيّة يوحنّا بولس الثاني وللإصغاء إليه، جعل من يوم ١٩٨٥/٨/١٩، يومًا مميّزًا، وحدَثًا فريدًا، في تاريخ حبريّته.

اشتداد المقاومة في تشيكوسلوڤاكيا

فيما كان التحضير ناشطًا للسينودُس الاستثنائيّ، في نهاية عام ١٩٨٥، كانت حركة الكفاح، في سبيل الحرّيّة، تكتسب احتدامًا في أوروپّا الشرقيّة، وقد تجلّت، بأروع مظاهرها، في تشيكوسلوڤاكيا، مستلهمةً المقاومة الثقافيّة، التي كان قد أطلقها يوحنّا بولس الثاني في پولونيا.

كانت سلطات النظام في تشيكوسلوڤاكيا قد رفضت منح الحبر الأعظم تأشيرة دخولٍ، تمكّنه من الاحتفال بالذكرى المئويّة الحادية عشرة لوفاة القدّيس ميتوديُس، مبشّر البلدان السلاڤيّة. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني أكّد حضوره بتوجيهه، في ١٩٨٥/٣/١٩، رسالةً إلى الإكليروس التشيكوسلوڤاكيّ، مذكّرًا أنّ القدّيس ميتوديُس وأخاه كيرلّس، هما اللذان أرسيا أسس الثقافة السلاڤيّة في شرقيّ أوروپّا، وأنّ نشاطهما الإنجيليّ، بقدراته التثقيفيّة، كان له أعمق أثرٍ، في كلّ مناحي الحياة. وأوضح أنّ مثال ذَيْنك الأخوَيْن القدّيسَيْن، يوفّر للعالم المعاصر ثلاثة دروسٍ:

١ - «**الجرأة على تقبّل التاريخ، والتواضع حيال أسرار العناية الإلهيّة**»، حتّى إن كان وضع التاريخ الحاضر عصيبًا وشاقًّا.

٢ – واجب الحفاظ على طابع الكهنوت الدينيّ، في مواجهة جهود الزعيم الشيوعيّ «هوساك»، لإضفاء طابعٍ علمانيٍّ، بمختلف الأشكال على الكهنة، سواءٌ المرخّص لهم بالعمل رسميًّا، والمضطرّين إلى العمل السرّيّ في الخفاء. وعليهم، جميعًا، تمثّلاً بالقدّيس ميتوديُس، ألاّ ينسوا أنّ اللّه اختارهم من أجل رسالةٍ محدّدةٍ.

٣ – الشعور بالمسؤوليّة، فعلى غرار القدّيس العظيم، وبصفتهم كهنةً، عليهم أن يعلنوا أنّ كلّ خيارٍ تاريخيٍّ، يحمل نتائج أبديّةً.

وختم الحبر الأعظم رسالته آملاً أن تكون تلك الذكرى، لجميع الكهنة التشيكوسلوڤاكيّين، حافزًا قويًّا لاكتساب القداسة، «**فيمضون نحو الإنسان المعاصر، الذي يبحث، ويتألّم، ويتساءل، وينتظر... عمل حبّكم الخلاصيّ، باسم المسيح**».

وقد تلا الكردينال «فرنتسيك توماسيك» هذه الرسالة، على مسامع ألفٍ ومئة كاهنٍ، يمثّلون ثلث مجموع الكهنة التشيكوسلوڤاكيّين، وكانوا قد اشتركوا، معًا، في احتفالٍ ليتورجيٍّ ضخمٍ، يوم الحادي عشر من نيسان.

ثمّ أصدر يوحنّا بولس الثاني، في حزيران **١٩٨٥**، رسالةً عامّةً، أسماها «رُسل السلاڤيّين» (Slavorum Apostoli)، وصف فيها الأخوَين القادمَيْن من «تسّالونيك»، بالمبشّرين الغيورين الحريصين على وحدة الكنيسة وشموليّتها الجامعة، وقد نالت مهمّتها بركة كلٍّ من أُسقف روما وبطريرك القسطنطينيّة، فجسّدا وحدة الكنيسة شرقًا وغربًا. وبوضعهما أسس «الثقافة السلاڤيّة»، سيظلّ تبشيرهما حاضرًا في تاريخ تلك الشعوب، وفي حياتها، ولو أنكرته بعض الأنظمة.

وقد تجلّت ثمار تلك الرسالة، عندما قدم، في **٥** تمّوز **١٩٨٥**، نحو مئتي ألف حاجٍّ للمشاركة في الاحتفال الكبير العلنيّ بذكرى الأخوَيْن القدّيسَيْن. وقد جهدت السلطات الشيوعيّة في سبيل إضفاء صبغة «مهرجان السلام» على هذا الاحتفال، وأمطرت وابلاً من الشعارات الإيديولوجيّة على الحجّاج، الذين ردّوا عليها بصمودٍ عنيدٍ، وبهتافٍ متّصلٍ: «**إنّما نحن حجّاجٌ. نريد البابا. نريد قدّاسًا!**».

ولا مراء أنّ الكنيسة التشيكوسلوڤاكيّة قد استمدّت رفد شجاعةٍ من مواقف يوحنّا بولس الثاني. وقد تجلّى الكردينال «توماسيك» مدافعًا عنيدًا عن الحرّيّة الدينيّة، ومناصرًا مندفعًا لحركة حقوق الإنسان، التي قادها «ڤاكلاڤ هاڤيل». وقد أسهم الاحتفال بذكرى الأخوَيْن ميتوديُس وكيرلّس، في عقد روابط التقوى الشعبيّة بمقاومة النظام، وفي تضافر التشيكيّين والسلاڤيّين على الذود عن حرّيّتهم الدينيّة والإنسانيّة، وعلى إحباط محاولات النظام التلاعب بهم.

وكانت المقاومة الكاثوليكيّة في تلك المنطقة قد انطلقت حقًّا.

سينودُس الأساقفة الاستثنائيّ

كان يوحنّا بولس الثاني يعتبر حدَث المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، نعمةً حبا بها الروحُ القدس الكنيسة. فارتأى عقد سينودسٍ استثنائيٍّ، بمناسبة مرور عشرين سنةً على اختتامه، بغية إشباع روحه تمحيصًا وتعميقًا، وتنزيهه من تأويلاتٍ توصف حينًا بالليبراليّة، وحينًا بالمحافظة، إذ إنّ صانعه وملهمه واحدٌ، وهو الروح القدس. وانعقد ذلك السينودُس في ١٩٨٥/١١/٢٤.

ودار جوهر البحث حول مهمّة الكنيسة في الوقت الراهن، وهي الالتزام بالحداثة. وكانت هذه الفكرة عينها مدار بحثٍ عميقٍ بين كلٍّ من الكردينال «ڤويتيووا» والكردينال رتسنغر، قُبَيْل انتخاب «ڤويتيووا» حبرًا أعظم.

وأجمع أعضاء السينودُس على الاعتراف بأنّ كثيرين من المسؤولين الكنسيّين ومن المسيحيّين، قد أساؤوا فهم روح المجمع الڤاتيكانيّ، فلا بدّ من إعادة قراءته بتأنٍّ وعن كثبٍ. وأكّد البيان الختاميّ أنّ المجمع كان «نعمةً وهبةً من الروح القدس»، وذا تأثيرٍ خيّرٍ على الكنيسة وعلى العالم، و«تعبيرًا صحيحًا عن وديعة الإيمان، مستندًا على الكتب المقدّسة، وتقليد الكنيسة الحيّ».

غير أنّ بعض غيومٍ عكّرت صفاء المجمع، لأنّ البعض قرأوه قراءةً مجتزأةً وانتقائيّةً، وأولوا تعليمه تأويلاً سطحيًّا. ومن ثمّ، هُدرت سنواتٌ طويلةٌ في مناقشة نظام الكنيسة الداخليّ، عوضًا عن الانكباب على التبشير بالمخلّص.

لم يكن المجمع هو بدء المسيحيّة، بل إنّه اندرج في تقليدٍ له من العمر ألفا سنةٍ، ولا بدّ من قراءته في هذا السياق. وعلى الكنيسة أن تبقى هي الكنيسة التي تبشّر بالكلمة وتشهد لها، ولرحمة اللّه وحبّه اللذين يتجلّيان على امتداد تاريخ الخلاص. والكنيسة تثبت مصداقيّتها، لا بتحدّثها عن ذاتها، بل بتبشيرها بيسوع المصلوب.

أمّا تجديد الكنيسة فيقتضي قدّيسين. وإنّ كلّ مؤمنٍ مدعوٌّ إلى القداسة، وبوسع العلمانيّين تقديس حياتهم كلّها بشهادتهم ضمن أسرهم، وفي إطار عملهم، ومجتمعهم وثقافتهم.

وأكّد السينودُس أنّ النزعة المسكونيّة قد انحفرت بعمقٍ، وعلى نحوٍ لا يمّحي في ضمير الكنيسة، وأعرب قداسته عن رغبته في تخطّي العلاقات الجيّدة مع الكنائس الأُخرى، إلى وحدةٍ كنسيّةٍ كاملةٍ، بعون اللّه.

وأيّد السينودُس وضع كتاب التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، رغم اعتراض أقلّيّةٍ من الحاضرين.

وبالإجمال، رأى يوحنّا بولس الثاني، في هذا السينودُس، وفي المجمعِ المسكونيّ، إجمالاً، توطئةً لدخول الكنيسة ألفيّة التاريخ المسيحيّ الثالثة، آملاً أن تجتاز عتبته بثقةٍ، حاملةً مشروعًا ذا مصداقيّةٍ، وشهادةً عن الرجاء الذي يسكنها ويحدوها.

ولا ريب أنّ ثمار ذلك السينودُس قد تخطّت ما توقّع كثيرون منه.

أداة مصالحةٍ

مع سهره على حسن سير الكنيسة، لم يغفل يوحنّا بولس الثاني قضايا العالم الخطيرة. ففي ١٩٨٥/١١/١٧، بعث برسائل إلى كلٍّ من ريغان وغوربتشيف، داعيًا إلى السلام والحدّ من السباق إلى التسلّح. وبعد انقضاء خمسة عشر يومًا على اختتام السينودُس الاستثنائيّ للأساقفة، أوفد رئيس اللجنة الحبريّة «عدل وسلام»، الكردينال الفرنسيّ «روجيه إتشيغاراي» (Roger Etchégaray)، في

مهمّةٍ إنسانيّةٍ إلى طهران وبغداد، كي يتفقّد أوضاع الأسرى، ضحايا الصراع الدامي بين العراق وإيران، ويبحث عن حلٍّ لهذا الخلاف المدمّر.

وكانت تلك أولى مهامّ اقتادت الكردينال المذكور إلى مختلف بؤر النزاع في العالم، لبنان، والموزامبيق، وأنغولا، وإيثيوبيا، وأفريقيا الجنوبيّة، والسودان، وناميبيا، وكوبا، وهاييتي، وأميركا الوسطى، وڤييتنام، وغينيا بيسّاو، والصين، وميانمار، وليبيريا، ورواندا، وبوروندي، وأندونيسيا، والتيمور الشرقيّة، والبلقان. وفي كلّ تلك المناطق كان على الكردينال الفرنسيّ أن يمارس ديبلوماسيّةً شخصيّةً، تُكمل ديبلوماسيّة الكرسيّ الرسوليّ الرسميّة.

كان الكردينال رجل حوارٍ من طرازٍ ممتازٍ، قادرًا على التفاهم مع قومٍ يمتلكون خبراتٍ، وآراءً مغايرةً لخبراته وآرائه. وكان تكليفه بديبلوماسيّةٍ موازيةٍ، بصفته ممثّلاً شخصيًّا للبابا، لا بصفته مندوبًا رسميًّا للڤاتيكان. وتمثّلت مهمّته في تبليغ تمنّيات البابا الشخصيّة وهواجسه. وغالبًا ما أفضت وساطته إلى فتح أبواب الحوار بين المتنازعين.

لم يكن تدخّل الكردينال إيتشيغاراي سياسةً بالمعنى الحصريّ للكلمة، بل كان دعمًا وامتدادًا لرسالة البابا الروحيّة، ودليلاً على حضوره كأداة مصالحةٍ. فالبابا، على حدّ قول الكردينال إتشيغاراي، لم يكن خارج السياسة، بل فوقها.

ولم تكن تلك المساعي بمنأًى عن المخاطر والعوائق. ولكنّ الحبر الأعظم وممثّله لم تردعهما تلك المخاطر، في سبيل تأكيد حضور الكنيسة في العالم الحديث، وفي حومة أشدّ الأزمات تعقيدًا، في غروب القرن العشرين.

ثورةٌ في الفيليبّين، وفق النموذج البولونيّ

استهلّ يوحنّا بولس الثاني اليوم الأوّل من عام ١٩٨٦، الذي أعلنه يوم السلام العالميّ، بالصلاة من أجل السلام في العالم، الذي كان يعدّه «شرطًا للمستقبل».

وفي السادس عشر من شهر كانون الثاني، وجّه نداءً إلى أساقفة أوروبّا مشدّدًا على ضرورة أن يكون لأوروبّا روحٌ، وأن يقودها إلهام الضمير.

وفي هذه الأثناء كان يؤرّقه وضع الفيليبين، التي كان شعبها المؤلّف من أكثريّةٍ كاثوليكيّةٍ، يخوض، بقيادة الكنيسة، كفاحًا مصيريًّا مع حكمٍ طاغٍ.

ففي شهر شباط **١٩٨٣**، كان مجلس الأساقفة الفيليبينيّين، قد أصدر بيانًا بعنوان «حوار من أجل السلام»، ندّدوا فيه بنظام ماركوس، بسبب انتهاكه للحرّيّات المدنيّة، وسياسته الاقتصاديّة السيّئة القائمة على فسادٍ مستشرٍ، واستنكروا توقيف كهنةٍ وراهباتٍ، وتهديدهم، بحجّة دفاعهم عن العدالة الاجتماعيّة.

وزاد الوضع سوءًا اغتيال النظام لخصم «ماركوس» الرئيس، «بينيتّو أكّينو»، لدى عودته من المنفى، ما دفع نصف مليون مواطنٍ إلى التظاهر، وحدا بالكردينال «سنّ» إلى التنديد بالنظام الحاكم، علنًا. وفي **١٩٨٣/١١/٢٧**، أصدر مجلس الأساقفة بيانًا آخر بعنوان «المصالحة اليوم»، دعوا فيها الحكم إلى التزام المحبّة المسيحيّة، القادرة، وحدها، على إنهاء الفساد السياسيّ، مؤكّدين أنّ هذه المحبّة هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق تغييرٍ اجتماعيٍّ حقيقيٍّ.

وبما أنّ الوضع استمرّ في المضيّ سوءًا، أصدر مجلس الأساقفة، في شهر تمّوز **١٩٨٤**، بيانًا آخر، بعنوان «لتكن الحياة»، وصفوا فيه اغتيال «أكّينو» بأنّه أحد مظاهر ثقافة العنف، التي تنتهجها حكومة ماركوس، مؤكّدين: «إنّ هذا الاغتيال قد صدمنا جميعًا، كما لم يصدمنا أيّ اغتيالٍ آخر في التاريخ الحديث، وأيقظنا من السبات الذي كان كثيرون منّا غارقين فيه، واضطرّنا إلى أن نواجه، ببسالةٍ، العنف الذي أمسى جزءًا أساسيًّا من حياتنا اليوميّة».

وقد اتّهمت لجنةٌ مستقلّةٌ، العسكرَ، بقيادة رئيس الأركان بتدبير مؤامرة اغتيال أكّينو. وغزت شوارع مانيلاّ مظاهراتٌ ضخمةٌ استنكارًا للجريمة، بمناسبة الذكرى السنويّة الأولى للاغتيال. وفي شهر تمّوز **١٩٨٥**، أصدر مجلس الأساقفة بيانًا أسماه «رسالة إلى شعب الله»، أدان فيه استخدام القوّة المفرط بغيةَ إخضاع

الشعب، «وهو واقعٌ مريرٌ لنا، نحن الرعاة، لا يسعنا إغفاله». وحيال استفحال المقاومة أعلن ماركوس عن انتخاباتٍ مرتجلةٍ، في مطلع عام ١٩٨٦، كي يوقع البلبلة والخلاف في صفوف المعارضة، المتعدّدة الأطراف، وغير المتآلفة. ولكن، في الثالث من كانون الأوّل ١٩٨٥، وغداة الإفراج عن المتّهمين باغتيال أكّينو، أعلنت أرملته، كورازون، ترشّحها لرئاسة البلاد، فالتفّت حول شخصها، كلّ أطياف المعارضة. إذ لم يكن لأحدٍ مأخذٌ على نزاهتها. ونشأت حركةٌ وطنيّةٌ من أجل انتخاباتٍ حرّةٍ، ضمّت مراقبين موثوقين، وأيّدها الكردينال «سنّ»، معلنًا أنّ كلّ تزويرٍ للانتخابات هو عملٌ لاأخلاقيٌّ خطيرٌ، ومنافٍ للمسيحيّة. ووجّه إلى الأساقفة رسالةً أكّد فيها أنّ التصويت واجبٌ على كلّ مسيحيٍّ. ولكنّه اضطرّ، في ١٩٨٦/١/١٩، إلى إصدار بيانٍ آخر بمشاركة مجلس الأساقفة، بعنوان «نداء إلى الضمائر»، فضحوا، فيه «مؤامرةً دنيئةً ترمي إلى الاستيلاء على التعبير الشريف والشرعيّ عن إرادة الشعب الحقيقيّة».

وفي هذا السياق عينه، أصدر مجلس الأساقفة، بتاريخ ١٩٨٦/١/٢٥، رسالةً راعويّةً، بعنوانٍ يسفر عن فحواها، يقول: «خيرٌ لنا أن نطيع الله من إطاعة البشر»، حذّروا فيها من «مؤامرةٍ شرّيرةٍ» تهدف إلى إفساد الانتخابات، إفسادًا كفيلاً بدفع البلاد إلى دمارٍ أشدّ دهاءً. ودعوا الفيليپّينيّين إلى ابتداع سياسةٍ أخلاقيّةٍ، وإلى مقاومة الشرّ بأسلوبٍ ينتبذ العنف.

ويومين قبل بدء التصويت أصدرت المرشّحة «كورازون أكّينو» بيانًا تميّز بالطابع الدينيّ، جاء فيه: «لقد قمتُ بكلّ ما هو ممكنٌ، بشريًّا، كي أُعيد إلى الشعب المقهور السلطة التي سُلبت منه. إنّ مصيرنا، اليوم، هو بين يدي الله. ولا يسعنا الانتصار، في هذه الانتخابات بمعزلٍ عن عونه تعالى... لقد عاهدنا أنفسنا بأن نلتزم اليقظة، وأن نضحّي بحياتنا، إن اقتضى الأمر، من أجل تقويض نظام ماركوس. ولم يبقَ لنا سوى الصلاة. لدينا دعم الشعب الذي لا يُقاوَم، وكلّ ما نحتاج إليه، بعدُ، هو الصلاة».

ولكنّ الحكومة زوّرت الانتخابات تزويرًا وقحًا. ولم يلبث مجلس الأساقفة أن ندّد، بعباراتٍ ناريّةٍ، بتزويرٍ لا سابق له. وأكّد أنّ أيّة حكومةٍ ستفرزها هذه

الانتخابات المزيّفة، ستكون فاقدةً للشرعيّة الأخلاقيّة، ومن ثمّ فالشعب الفيليپّيني ملزمٌ بإصلاح الشرّ المرتكب بحقّه، بوسائل سلميّةٍ غير عنيفةٍ، مستلهَمةٍ من تعليم يسوع المسيح. ومع أنّ أمانة سرّ الڤاتيكان وقعت في حرَج، من جرّاء هذا الوضع، ومع أنّ السفير البابويّ لم يستطع تأييد بيان الأساقفة إلاّ أنّ هؤلاء واصلوا نضالهم ببسالةٍ، معتبرين حكومة «ماركوس» فاقدة الشرعيّة، وداعين الشعب إلى مواصلة النضال، بطرقٍ سلميّةٍ.

وبحضور مليون مؤمنٍ، أُقيم قداسٌ، يوم ١٦ شباط، دعت، من خلاله، «كورازون أكّينو» إلى حملة مقاومةٍ سلميّةٍ. وأذاع راديو الكنيسة المدعوّ «إذاعة الحقيقة»، خطابها في كلّ أنحاء البلاد.

وبعد ستّة أيّامٍ، انشقّ عن الحكم وزير الدفاع، ونائب رئيس الأركان، والتمسا دعم الكردينال «سنّ»، الذي، بعد تثبّته من وفائهما لكورازون أكّينو، هرع إلى دار الإذاعة، ودعا «جميع أبناء الله» إلى معاضدتهما، فغصّت الشوارع بالمتظاهرين المسلّحين بمسابح الصلاة، حاملين للجنود المتمرّدين الزهور والمأكولات والشراب. الجميع استجابوا لنداء زعيمهم الروحيّ: شبّانٌ وشيوخٌ، علمانيّون وكهنةٌ وراهباتٌ، أغنياء وفقراء، جميع الذين عانوا الخوف صامتين، مدى سنواتٍ، هبّوا باندفاعٍ عارمٍ. وقد لوحظ تظاهر محاميةٍ شهيرةٍ، مع جميع أفراد أسرتها، حتّى حفيدها ابن الأشهر العشرة.

ولعبت «إذاعة الحقيقة» التابعة للكنيسة، دورًا أساسيًّا. فنظّمت سيل المتظاهرين، ولم تكفّ عن التذكير بواجب تجنّب العنف. وعندما حطّم نظام ماركوس جهاز بثّ تلك الإذاعة، صباح ٢٣ شباط، استُبدل، في الحال، ولم يتوقّف بثّها، واعتصمت راهباتٌ، تالياتٍ المسبحة على أدراج ستوديو الإذاعة، لحمايته وحماية العاملين فيها بأجسادهنّ. وغُرست صلبانٌ جسيمةٌ في طرقاتٍ ستراتيجيّةٍ، لمنع عبور الدبّابات والفرق العسكريّة. ورُفعت، في كلّ مكانٍ، يافطاتٌ وأعلامٌ، تحمل شعاراتٍ دينيّةً. وحيال هذه المواقف، أعلنت حكومة الولايات المتّحدة سحب دعمها لحكومة ماركوس، التي ما لبثت أن انهارت، وفرّ الدكتاتور وزوجته إلى «هاواي»، وأُعلنت «كورازون أكّينو» رئيسةً للبلاد.

وقد اعترف الكردينال «سنّ»، لاحقًا، أنّه استلهم سلوك نقابة «سوليدارنوش» الپولونيّة، ودعم الكنيسة، وبخاصّةٍ البابا لها؛ وما أنتجه هذا الدعم من خيرٍ لـپولونيا، وعموم أوروپّا، وللإنسانيّة جمعاء. ورغم تردّد القاصد الرسوليّ في الفيليپين، ولوم وزارة خارجيّة الڤاتيكان، لم يحجم يوحنّا بولس الثاني عن دعم الكردينال «سنّ»، وحثّه على مواصلة الكفاح، الذي لم يكن صراع طبقاتٍ، بل كان مقاومةً ذات قاعدةٍ شعبيّةٍ عريضةٍ، ثائرةٍ على نظامٍ كاذبٍ، عنيفٍ، فاسدٍ. وقد حرص قادة تلك المقاومة على تجنّب العنف، والسعي إلى إصلاحٍ اجتماعيٍّ يلهمه الدين، وتحدوه مبادئ الأخلاق.

وما فتئ الكردينال «سنّ» يؤكّد أنّه راعٍ، وليس سياسيًّا، وأنّ دوافعه هي أدبيّةٌ وأخلاقيّةٌ، وليست سياسيّةً بالمعنى الضيّق للكلمة. وكان مؤمنًا بأنّ الحكم قضيّةٌ من الخطورة بحيث لا يسوغ أن يتولاّها سياسيّون مغرضون نفعيّون. وكانت صفته راعيًا تفرض عليه واجبًا أدبيًّا، بالذود عن كرامة أفراد رعيّته من تعدّيات سلطةٍ فاسدةٍ، والحؤول دون تحوّل السياسة إلى مملكة اللاأخلاق.

وقد تأكّد للمراقبين أنّ وضع المقاومة، بشريًّا، كان يدعو إلى القنوط، ولكنّ قوّتها الفاعلة كمنت في الصلاة، وبفضلها أُنقذ شعب الفيليپين من كارثةٍ محقّقةٍ كانت تتهدّده.

وقد جاءت تلك الثورة بعبرةٍ خطيرةٍ تتعلّق بالوضع الإنسانيّ، إذ أظهرت أنّ الإيمان عاملٌ جوهريٌّ في صوغ التاريخ، وقادرٌ على تغيير مجرى الأمور.

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى الهند: ١/٣١ حتّى ١٩٨٦/٢/١١

يوم ١٩٨٦/١/٣١، باشر يوحنّا بولس الثاني، الذي وُصف بأنّه «غاندي» پولونيا والكنيسة، رحلةً إلى بلاد المهاتما غاندي، التي ذرعها من طرفٍ إلى طرفٍ. وكانت له محطّاتٌ في كلّ مدنها الكبرى. كانت تلك هي رحلته الرسوليّة الثالثة إلى آسيا، واقتصرت على الهند، واستغرقت أحد عشر يومًا.

استهلّها بالتخشّع أمام موقع حرق جثمان غاندي، وألقى عظةً حول تطويبات

يسوع، التي كان غاندي من أكثر من جسّدوها في حياتهم، كما أنّه كان من أكثر من التزموا مبادئ الأخلاق والروح في ميدان السياسة. ثمّ شخص إلى أماكن ريفيّةٍ، نادرًا ما يغشاها الأجانب. وفي «مدراس»، تخشّع عند ما يقول التقليد أنّه ضريح الرسول توما.

وكانت «كلكتّا»، بلا منازعٍ، المحطّة الأكثر مدعاةً للسعادة، في رحلته الهنديّة تلك. فهناك التقى أحد أجمل الوجوه المسيحيّة، مؤسِّسة جمعيّة مرسلات المحبّة، الأمّ تيريزا، التي كانت قد انتشلت من براثن الموت الذليل والمخزي، عددًا غفيرًا من ضحايا مجتمع المادّيّة والأنانيّة، أو أتاحت لهم موتًا كريمًا لائقًا بأبناء اللّه، في مركز «القلب الطاهر».

كانت صداقةٌ ساميةٌ، عميقةٌ، تربط البابا البولونيّ بتلك الراهبة الألبانيّة الأصل، التي كان يرى فيها «رسالةً متجسّدةً» للقرن العشرين، ودليلاً حيًّا على إمكان عيش شريعة المحبّة المقدّسة، التي غرسها اللّه في الطبيعة البشريّة، وممارستها بطريقةٍ تقود إلى السعادة المطلقة. فما من إنسانٍ كان ينعم بمثل سعادة تلك الراهبة، التي تسوق حياةً موغلةً في قسوة الشظف والتقشّف، والتي كانت، كلّما التقت الحبر الأعظم، تطلعه، وهي تضجّ حبورًا، على ازدهار رهبانيّتها، وعلى الفروع الجديدة التي غرستها في مواقع غير متوقّعة، مثل روسيّا والصين، وشتّى أصقاع المسكونة. وكان ازدهار تلك الجمعيّة المذهل، رغم التزامها أُسلوب عيشٍ يصعب على بشر اليوم احتماله، في حين كانت جمعيّاتٌ عريقةٌ ماضيةً إلى التضاؤل، مبعث دهشةٍ وتأمّلٍ. وكانت قد بثّت روحها في نفوس أخواتها، مرسلات المحبّة، فغدا الفرح المتجلّي عليهنّ، رغم الكفاح اليوميّ الشاقّ الذي يخضنَه، بلا هوادةٍ، على المرض، والفقر، والجهل، والنبذ، والإذلال، والقذارة، ورغم أُسلوب عيشهنّ الخالي من كلّ أثرٍ لرفاهٍ، ولكلّ عزاءٍ مادّيٍّ، شهادةً ساطعةً على سموّ رسالتهنّ، بحيث لم يتمالك الأب الأقدس من إفادة الكنيسة من هذه الشهادة، فقرّر إنشاء مقرٍّ لغوث الفقراء، داخل الڤاتيكان، مستوحًى من أسلوب الأمّ تيريزا، وتديره مرسلات المحبّة، متحدّيًا اعتراضات إداريّي الڤاتيكان، وتحفّظاتهم.

العمل الذي اضطلعت به الأمّ تيريزا وأخواتها في بلدٍ ليس المسيحيّون فيه سوى أقلّيّةٍ ضئيلةٍ، نسبيًّا، قد فرض احترام الهنود وتقديرهم. وأثبت وجودُهنّ في أحياء كلكتّا البائسة، حقيقةً يمكن تعميمها في كلّ أرجاء العالم. وتجلّت الأمّ تيريزا قدوةً للجميع بالتزامها المسيحيّ الكامل، ومثّلت، مع أخواتها، تجسيدًا لفضيلتين أساسيّتَيْن: التعاطف مع الآخرين، والاحترام العميق لكرامة أفقر الفقراء، الإنسانيّة. ما جعل يوحنّا بولس الثاني يهتف: «**دعوا من لا صوت لهم، فقراء الأمّ تيريزا، يتكلّمون. فصوتهم هو صوت المسيح**».

لقد كانت رحلة يوحنّا بولس الثاني إلى الهند، رحلةً إلى بؤرة إشعاع يسوع، من خلال عمل الأمّ تيريزا وأخواتها، وإلى موطن رسول اللاعنف المهاتما غاندي، وأحد شهداء المسيحيّة الأوائل، وأبطال التبشير بالإنجيل، الرسول توما. وقد أوجز الحبر الأعظم وصف هذه الرحلة بأنّها حجّ نيّةٍ حسنةٍ وسلامٍ.

ولا ريب أنّها كانت، جسديًّا مرهقةً، أنهكت الصحافيّين المرافقين للحبر الأعظم. ولمّا أشار أحدهم إلى ذلك، في الطائرة التي عادت بهم، أجابه البابا، مازحًا: «لم ننتهِ بعد». فقد كان الثلج يغطّي روما – وهو حدثٌ نادرٌ جدًّا – ما اضطرّ الطائرة إلى الهبوط في نابولي، وتابع البابا وصحبه رحلتهم إلى روما بالقطار.

وكان يوحنّا بولس الثاني قد لحظ أنّ في مدينة كلكتّا، التي لا تضمّ سوى نحو أربعين ألف كاثوليكيٍّ، قد احتشد مئات ألوفٍ لحضور القدّاس، فما يجمعهم بالمسيحيّين هو الحسّ الدينيّ، والمبدأ الأخلاقيّ الذي يكوّن نظرتهم إلى الإنسان ومصيره.

وعن غاندي قال يوحنّا بولس الثاني، إنّه ما زال حيًّا، وهو ضروريٌّ للهند وللغرب، وللبشر أجمعين. وردّ على سؤال صحافيٍّ عن رأيه في غاندي، بقوله: «إنّني أقدّره عاليًا، عاليًا جدًّا. بصفتي مسيحيًّا، أنا مدينٌ له بالكثير. فما أكثر ما تعلّمته منه! إنّه، في قلبه، وخاصّةً في أفعاله، مسيحيٌّ كبيرٌ. ويجب أن يكون لجميعنا معلّمًا، نحن المسيحيّين... إنّه أصدق مسيحيّةً من مسيحيّين كثُرٍ».

وسُئل الحبر الأعظم كم من أمثال الأمّ تيريزا يستلزم القضاء على الفقر في الهند، وفي العالم. فقال إنّه يلزم الكثيرات، ولكن، مِن نِعَم الله وجود واحدةٍ هي الأمّ تيريزا.

وردًّا على سؤال صحافيٍّ آخر، أكّد قداسته أنّ غاندي والأمّ تيريزا، كانا رفيقي زيارته إلى الهند. فقد أثبت غاندي قدرة الإنجيل على التناغم مع الثقافة الهنديّة، وأثبتت الأمّ تيريزا أنّ الإنجيل كفيلٌ بتطوير الهند.

واستخلص يوحنّا بولس الثاني، من الاستقبال الحافل والدافئ، الذي لقيه في بلدٍ غير مسيحيٍّ، دليلاً على فكرٍ منفتحٍ، رائعٍ، لدى الهنود. ولكنّه صُدِم من اتّساع رقعة الفقر في الهند، معربًا عن ثقته بأنّ بلدًا ديمقراطيًّا مثل الهند، كفيلٌ بحلّ هذه المشكلة.

«الربّ والمحيي»... ومساعٍ مسكونيّةٌ، ورحلاتٌ رسوليّةٌ

كان يوحنّا بولس الثاني قد وجّه، بتاريخ ١٩٨٦/٣/٢٨، إلى جميع الكهنة، رسالةً حثّهم، فيها، على الاقتداء بالقدّيس «جان ماري ڤيانّي»، خوري أرس.

وفي ١٩٨٦/٥/١٨، بمناسبة عيد العنصرة، وقّع رسالته العامّة الخامسة، بعنوان «ربٌّ وواهب الحياة» (Dominum et vivificantem)، وهي تأمّلٌ في الروح القدس، يُعدّ أطول تأمّلٍ وأكثره دقّةً، في هذا الموضوع.

لا جرَم أنّ عقيدة الثالوث الإلهيّ هي مركز الإيمان المسيحيّ، وهي، في الآن عينه، العقيدة الأقلّ فهمًا لدى المسيحيّين، والأكثر مدعاةً للشكّ لدى أتباع الديانات الأُخرى، الذين يرون فيها رواسب الإيمان بتعدّد الآلهة، و«إشراك» غير الله في ألوهته. ولا بدعَ في ذلك، فالثالوث، في معناه المسيحيّ اللاهوتيّ الدقيق، سرٌّ، أي واقعٌ لا قِبَل للعقل البشريّ على استيعابه بالكامل. وقد حرص يوحنّا بولس الثاني، بصفته راعيًا، لا بصفته أستاذًا يفرض رأيه، على إحياء تكريم المسيحيّين للروح القدس، مذكّرًا بأنّ يسوع، بمنحنا الروح القدس، انتهج أُسلوبًا جديدًا في وجود الله مع العالم، وهذه الهبة هي التي أفضت إلى فداء

العالم، الذي حقّقه المسيح بقدرة الروح القدس، الذي، بمجيئه، «أثبت للعالم حقيقة الخطيئة، والبرّ، والدينونة» (يوحنا: ١٦: ٨). الروح القدس، إذن، يأتي لغوث عالمٍ، نسي تاريخه. فالعالم لم يعد يعرف من أين أتى، وما الذي يسانده، ولا ما هو مصيره، ومع ذلك يدّعي معرفة كلّ شيءٍ.

من خلال الكنيسة، يذكّر الروح القدس العالم بخطيئته الجوهريّة. فعندما خلق اللّه العالم، دعاه إلى التواصل معه، ولكن، ومع أنّ هذا التواصل هو خير البشريّة الحقّ، رفض البشر دعوة اللّه، مدّعين القدرة على اكتشاف الخير والشرّ بأنفسهم.

مهمّة الروح القدس هي، إذن، إيقاظ الضمائر، عسى أن يتبيّن العالم تيهه، وينهج درب الصواب، مميّزًا الخير من الشرّ، ومسمّيًا كلاًّ منهما باسمه. فتلك هي الخطوة الأولى نحو الارتداد، والمصالحة، واستعادة التواصل مع اللّه. ومن يرفض انتهاج هذا السبيل، يرتكب الخطيئة ضدّ الروح القدس التي لا غفران لها.

ويعترف يوحنّا بولس الثاني أنّ العالم ما زال يقاوم عطيّة الروح القدس. وهذه المقاومة هي التي أفضت به إلى الوقائع المميتة التي صبغت، بهولها، القرن العشرين، من تهديدٍ نوويٍّ، ولا مبالاةٍ حيال الفقر المستفحل، وإجهاضٍ متفشٍّ، وإرهابٍ منفلتٍ. وعند عتبة الألفيّة الثالثة، على الكنيسة أن تكون صورةً للروح القدس، و«حارسة الرجاء»، وشاهدةً فاعلةً على الحياة التي تصارع الموت. وهكذا، بقدرة الروح القدس، تسهم الكنيسة في إعادة المعنى الإلهيّ للحياة البشريّة. وبذلك يستذكر العالم تاريخَه، ويُنعش الروحُ القدس الخيرَ في البشريّة، ويجدّد وجه الأرض.

استمرار المساعي المسكونيّة

بعد مضيّ أيّامٍ على إصدار هذه الرسالة العامّة، عبّر يوحنّا بولس الثاني لممثّلي البطريركيّة الأرثوذكسيّة، بمناسبة زيارتهم التقليديّة للاشتراك في الاحتفال بعيد الرسولين بطرس وبولس، عن رغبته في استمرار الحوار اللاهوتيّ بين الطرفيْن،

حتّى تحقيق المشاركة في الذبيحة على الهيكل، وترسيخ وحدةٍ كاملةٍ، كانت رسالة «ربّ وواهب الحياة»، إحدى مداميكها.

وفي هذه الأثناء، كان الحوار متواصلاً مع الكنيسة الأنغليكانيّة، ورغم التقدّم المحقّق، كانت لا تزال مواطن خلافٍ عديدةٌ. بيد أنّ الطرفَيْن ارتأيا أنّ، ثمّة، من مواطن الإجماع ما يكفي للمضيّ قدُمًا حتّى بلوغ نهايةٍ مثمرةٍ. ولكنّ عقبةً كأداء نهضت في وجه الاتّفاق الكامل، من خلال نزوع عددٍ متزايدٍ من بعض الكنائس الأنغليكانيّة، إلى منح نساءٍ رتبة الكهنوت، ما أدّى إلى تضاؤل الأمل في بلوغ الوحدة، في أمدٍ قريبٍ.

وقد دفع كَلَفُ يوحنّا بولس الثاني بالوحدة المسيحيّة، إلى الترحيب الحارّ بوفد منسك «تيزيه» (Taizé)، ذلك المنسك الذي ابتغى منه مؤسّسه، الأخ «روجيه شوتز» (Roger Schutz)، إحياء الحياة النسكيّة لدى البروتستانتيّين، وسرعان ما تحوّل ذلك المنسك إلى مركزٍ مسكونيٍّ، وموئل صلاةٍ وحوارٍ، في سبيل وحدة المسيحيّين. وكان البابا يوحنّا الثالث والعشرون، قد وصف ذلك المركز النسكيّ بالربيع الصغير. وقد خاطب يوحنّا بولس الثاني وفد «تيزيه»، الذي زاره، بقوله: «**فليحفظكم الربّ ربيعًا متفجّرًا، فتقيمون في طفولة الروح، والفرح، والإنجيل، وشفافيّة المحبّة الأخويّة**». وحيّا لديهم «**هوى مصالحة جميع المسيحيّين، في ملء الشراكة**»، آملاً أن تفضي صلواتهم من أجل الوحدة إلى «**إعادة الوحدة المرئيّة إلى جسد المسيح، وإلى المشاركة الكاملة في الإيمان الواحد**».

ولاحقًا، زار قداسته منسك «تيزيه»، في سياق زيارته إلى فرنسا، بين الرابع والسابع من شهر تشرين الأوّل ١٩٨٦، والتي قادته إلى كلٍّ من «ليون»، ومزار «پاري لي مونيال» (Paray-le-Monial)، و«أرس»، و«أنّسي».

مواصلة الرحلات الرسوليّة

وما انفكّ يوحنّا بولس الثاني يواصل رحلاته الرسوليّة. فبين الأوّل والثامن من شهر تمّوز ١٩٨٦، قام برحلته السابعة إلى أميركا اللاتينيّة، وكان مقصده

الرئيس كولومبيا، من أجل المشاركة في الاحتفال بمرور خمسة قرونٍ على اعتناق تلك البلاد المسيحيّة. وفي العاصمة «بوغوتا»، أدان الحبر الأعظم، بحدّةٍ وحزمٍ، جرائم العصابات المحلّيّة المسلّحة.

ثمّ بين ١١/٨ و١٩٨٦/١٢/١، قام بأطول رحلاته، واجتاز خلالها نحو خمسين ألف كيلومترٍ، فزار بنغلاديش، وسنغفورة، وجزر فيجي، وزيلاندا الجديدة، وأوستراليا، وجزر سيشيل. واختلط بشعوب تلك البلدان، وارتدى أزياءهم، وحرّضهم على الوفاء لثقافاتهم الخاصّة، حاملاً، حتّى أقاصي المسكونة، نور الإنجيل الذي يضيء العالم إلى الأبد، حريصًا على إعادة تبشير المسيحيّين، متطرّقًا إلى المواضيع المتعلّقة بالعمل، وبالجوع في العالم، وبتوزيع خيرات الأرض توزيعًا عادلاً. وفي هذه الرحلة التي شملت ستّة بلدانٍ، ألقى سبعةً وخمسين خطابًا. وخلال تحليقه بالطائرة فوق أوستراليا، شارك في برنامجٍ إذاعيٍّ حيٍّ، تبادل فيه الأسئلة والأجوبة مع أطفالٍ أوستراليّين. وكم كان يتذوّق متعةً في التحدّث إلى الصغار!

لقاءٌ دينيٌّ عالميٌّ للصلاة من أجل السلام

وأخيرًا حقّق يوحنّا بولس الثاني حلمًا عزيزًا طالما راوده. فقد سكنه، دائمًا، هاجس السلام، واليقين بأنّ السلام هو رسالة الكنيسة، فعليها ألاّ تحجم، في سبيله، عن أيّة مبادرةٍ. وبرقت في ذهنه خاطرة جمع رؤساء وممثّلي كلّ ديانات العالم، من حوله، للصلاة من أجل السلام. وتمّ الاتّفاق على تحديد موعدٍ لهذا اللقاء في نهاية شهر تشرين الأوّل ١٩٨٦، في موقعٍ مُشبعٍ بروح السلام، المشعّ من رسول السلام، فرنسيس الأسّيزي.

ومثلما كان نضالُ الكردينال «سنّ» في الفيليبّين، في سبيل تقويض حكم ماركوس الفاسد، قد أثار استنكار المسؤولين عن سياسة الڤاتيكان الخارجيّة، استنفرت مبادرة البابا الجريئة هذه، مقاومة معظم إداريّي الڤاتيكان، الذين رأوا، في هذه الدعوة، تخطّيًا لكلّ حدود الحيطة، وتساءَلوا كيف يمكن لرئيس الكنيسة الكاثوليكيّة أن يصلّي، جنبًا إلى جنبٍ، مع من يعبدون إلهًا آخر، أو

آلهةً مختلفةً، ولكأنّ البابا يبتغي تحويل الڤاتيكان إلى «سوق الزهور» المفتوح في روما، آخذين عليه أنّه لم يستشرهم في هذا الأمر. ولو هو استشارهم لكان كلٌّ منهم سطّر اعتراضًا لاهوتيًّا أو إجرائيًّا، بحيث تفضي كلّ تلك الاعتراضات إلى الإطاحة بالمبادرة.

في الواقع كان يوحنّا بولس الثاني يستلهم حدسه. وقد بحث الأمر مع الكردينال المكلّف بشؤون العلاقات مع غير المسيحيّين، ومع الكردينال «إيتشيغاراي»، رئيس اللجنة الحبريّة «عدل وسلام». وتمّ الاتّفاق على أن تتولّى لجنةٌ كلّ ما يتعلّق بهذه المبادرة، من: «مَنْ، وماذا، ومتى، وأين، وكيف؟». وكان قداسته على قناعةٍ راسخةٍ بأنّ التقاليد الدينيّة العالميّة تنطوي على «موارد عميقةٍ» كفيلةٍ بمعالجة التوتّرات الدوليّة، وبأنّ أحد هذه الموارد هو الدعوة إلى الصلاة.

وكان أوّل من استشاره يوحنّا بولس الثاني، بهذا الشأن، من غير المسيحيّين، مفتي الجمهوريّة العربيّة السوريّة، أحمد كفتارو، الذي رحّب بالمبادرة ترحيبًا حارًّا، ولكنّه لم يتمكّن من المشاركة في اللقاء.

لم تُطلَق دعوةٌ إلى صلاةٍ واحدةٍ مشتركةٍ، كان من شأنها إثارة خلافاتٍ لا نهاية لها، بل دُعي إلى لقاءٍ يرفع، فيه، كلٌّ من المشاركين صلاته الخاصّة من أجل السلام، ويواكب الصومُ الصلاةَ، ويرتدي اللقاء طابع حجٍّ. وقد شخص يوحنّا بولس الثاني إلى أسّيزي، بصفته حاجًّا، واستقبل ضيوفه في «الپورتسيونكولا»، حيث وُلدت جمعيّة القدّيس فرنسيس، ثمّ اختارت كلّ طائفةٍ مكانًا تقيم فيه صلاتها مدّة تسعين دقيقةً، وبعدئذٍ التأموا جميعهم في ساحة مدينة «أسّيزي»، حيث قدّم كلّ زعيمٍ دينيٍّ صلاةً، وفقًا لتقاليد دينه، واختتم البابا اللقاء بخطابٍ، ثمّ اشترك الجميع بإفطارٍ، أنهوا به صومهم.

وبتكليفٍ من البابا دبّج أحد معاونيه مقالاً، ردّ، به، على اعتراضات بعضهم، وأبرز مغزى ذلك اللقاء، وقد جاء في ذلك المقال: «... إنّ مجرّد وقوفنا بجانب شخصٍ يصلّي، أو وسط جمهورٍ مجتمعٍ للصلاة، لا يمكنه إلاّ أن يُغني خبرة صلاتنا...، في عالمٍ حيث الصلاة آخذةٌ في التلاشي. ولا ريب

أنّ اجتماع مؤمنين من مختلف الديانات، من أجل الصلاة، يرتدي قيمةً خاصّةً... وهل من ردٍّ على النزعة الدنيويّة الجامحة، أفضل من يوم الصلاة هذا، ومن هذا اللقاء، الذي لا يهدف إلاّ إلى إتاحة الفرصة لكلّ فردٍ كي يتوجّه إلى الله، بطريقته الخاصّة؟...».

عُقِد، إذن، ذلك اليوم المشهود، في ١٩٨٦/١٠/٢٧، ولم يعكّره سوى حدَثٍ عابرٍ واحدٍ. فقد كان بين المدعوّين المشاركين أفريقيٌّ ينتمي إلى المذهب الأرواحيّ؛ وقد جاء شبه عارٍ، فأصابه البرد بالإغماء. ولكن سرعان ما أُسعف، وتمكّن من المشاركة في الإفطار، الذي اختُتِمَ به يوم الصلاة والصوم. وكان يوحنّا بولس الثاني قد أعدّ، لتلك المناسبة، لوحاتٍ تذكاريّةً، وُزّعت عند بدء الإفطار. فرغب كلٌّ من المشاركين في أن يمهر الحبر الأعظم لوحته بتوقيعه. فلبّى رغبتهم، وفرغ الجميع من الإفطار قبل أن يتسنّى لقداسته تناول لقمةٍ واحدةٍ.

تحوّلاتٌ في الحكم الشيوعيّ

في مطلع العام ١٩٨٧، وفي لقائه التقليديّ مع الهيئة الدبلوماسيّة المعتمدة في الڤاتيكان، صرّح يوحنّا بولس الثاني لزائريه: «**ما من سلامٍ ممكنٌ بمعزلٍ عن احترام الإنسان احترامًا مطلقًا**».

وفي ١٩٨٧/١/١٣، قام الزعيم الپولونيّ، الجنرال «ياروزلسكي» بزيارة الڤاتيكان، وكان قد تصرَّم واحدٌ وستّون شهرًا على إعلانه حالة الحرب في بلاده. ووقف ذلك الپولونيّ، الذي كان يدّعي القبض على مقاليد الأمور في وطنه، بالقوّة والقمع العنيف، أمام پولونيٍّ آخر، كانت سلطته المنيعة على وطنه تنبع من منجم الروح. وكلٌّ منهما كان على علمٍ بمن سيُكتب له النصر في نهاية المطاف.

كان أزلام «ياروزلسكي» قد اغتالوا الأب «پوپيولوسكو»، ولكنّ نبوءة ذلك الكاهن الشهيد البطل قد تحقّقت. فهو كان قد أعلن، واثقًا: «**لا سبيل إلى اغتيال الأمل**». وكان ضريحه قد أمسى محجًّا، ومصلًّى لأعضاء نقابة «سوليدارنوش»، وبقعة نورٍ تشعّ من پولونيا الحرّة. وانتشرت مزاراتٌ أُخرى كثيرةٌ مماثلةٌ، ولكأنّها

سفاراتٌ للأمّة البولونيّة، داخل الحدود. وكان أحد تلك المزارات يقبع بين جدران كنيسة القدّيس «كولبي»، في «نوڤا هوتا»، يشرف عليه كاهنٌ مقاومٌ، يُدعى «كازيميج يانكاج» (Kazimierg Jancarz)، وهو مرشدٌ روحيٌّ لعمّال مصنع لينين للصلب، متين البنية، في العقد الثالث من عمره. وفي الساعة السادسة من مساء كلّ يوم خميسٍ، كان يُقام، في تلك الكنيسة، قدّاسٌ يليه برنامجٌ تربويٌّ، يجهد، من خلاله، الكاهن المذكور، في «أن يعيد للقوم ذاكرتهم»، حسب تعبيره. وكانت تدور، أحيانًا، نقاشاتٌ حول الوضع السياسيّ الراهن، أو تُعقد محاضراتٌ تتناول تاريخ پولونيا، يساهم فيها «ليش ڤاليسّا»، ومثقّفو «سوليدارنوش». وفي ثمانينات القرن الماضي نشأت، في أحضان تلك الكنيسة، جامعةٌ مسيحيّةٌ غير رسميّةٍ، يتابع فيها عمّالٌ، كلّ يوم سبتٍ، على مدى ستّ ساعاتٍ، دروسًا في الاقتصاد والاجتماع، وعلم النفس، و«التاريخ الصحيح»، والسياسة، والعلاقات العامّة، يلقيها أساتذةٌ جامعيّون. وقد تخرّج منها أربع مئة عاملٍ، بعد أربعة فصولٍ من ستّة أشهرٍ. ومنها كان قد تخرّج الأب «يانكاج» نفسه.

وكان قبو تلك الكنيسة يُستخدم مسرحًا، وقاعة موسيقى، ومعرض رسومٍ، وملتقًى لسهراتٍ عن الثقافة البولونيّة. تلك اللقاءات والحفلات لم يكن يُعلَن عنها، بل كانت أنباؤها تبلّغ شفويًّا، ومع ذلك، كان لذلك القبو عدّة منافذ يمكن الفرار منها، في حال مداهمة رجال الأمن.

ورغم محاولات نظام ياروزلسكي الحثيثة لسحق تلك المقاومة الثقافيّة، تمكّنت كنيسة القدّيس «كولبي» من احتضان أوّل ستوديو تيليفزيون پولونيٍّ خاصٍّ، بمساعدة فنّيي تيليفزيون الدولة، الذين عكفوا على تصوير أفلامٍ تُوزّع خلسةً، وتناول أوّلُها مسيرة الأب «پوپييلوسكو»، وأفلحوا في تحويل المكان إلى محطّة بثٍّ.

في هذه الأثناء، كان اقتصاد البلاد ينهار انهيارًا مأسويًّا، ومستوى عيش المواطنين يتدنّى، يومًا فيومًا، فيتنامى إقبالهم على المقاومة الثقافيّة، وتنشط الأفكار الخلاّقة التي تقوى على بعث الرجاء في أوصال القنوط الزاحف، الطاغي.

هذه المقاومة كانت محطّ إلهامٍ، وقدوةً للمقاومين في مختلف بلدان أوروبّا

الشرقيّة والوسطى، الذين توطّد لديهم اليقين بأنّ إعادة بناء مجتمعٍ مدنيٍّ حرٍّ، لن تتحقّق إلاّ من خلال ثقافةٍ قادرةٍ على إحداث تغييرٍ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ. وقد لعبت الكنيسة دورًا جوهريًّا في هذا المضمار، فقد كانت هي ملاذ الحقيقة الوحيد، في عالمٍ طغى عليه الكذب والدجل.

لدى ولوجه رحاب الڤاتيكان، كان «ياروزلسكي»، في قرارة نفسه، واثقًا من خسارة رهان قمع المقاومة في وطنه، وموقنًا أنّ إعادة بناء المجتمع الپولونيّ، والاقتصاد الوطنيّ، لن تتحقّق إلاّ بالتعاون مع قادة نقابة التضامن، فهم، وحدهم، كانوا يوحون للشعب الثقة. وربّما تذكّر، حينئذٍ، نصيحة يوحنّا بولس الثاني الذي كان قد حذّره، عام ١٩٨٣: «**تحاوروا مع هؤلاء القوم، عوضًا عن سجنهم!**».

وفي الواقع كان النظام الشيوعيّ بأكمله، يواجه أزمة الإخفاق. فبعد مضيّ أسبوعين على زيارة «ياروزلسكي»، كان زعيم الاتّحاد السوڤييتيّ الجديد، «ميخائيل غورباتشيف»، يبسط، أمام اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ السوڤييتيّ، آراءه في «الپيريسترويكا»، أي إعادة تنظيم الحكم. وكان «غورباتشيف» ينتمي إلى جيلٍ جديدٍ، مختلفٍ عن جيل سابقيه الثلاثة: بريجينيف، وأندروڤوپ، وتشيرنينكو، الذين ترعرعوا في المدرسة الستالينيّة، ولم يستطيعوا الانعتاق من السلوك الأفعويّ، بعد أن تلطّخت أيديهم بالجرائم، والاغتيالات، وأساليب التعذيب. وكان «غورباتشيف»، الذي وصفه «أندره غروميكو» برجل البسمة الرقيقة، والأسنان الفولاذيّة، ما زال مؤمنًا بإمكان إصلاح الشيوعيّة. لم يكن، نظير بريجينيف، يفرض رأيه على الدول الشقيقة، عن طريق الدبّابات، ولكنّه لم يكن، بعدُ، قد سلّم بهزيمة الشيوعيّة. وربّما وفّر هذا التحوّل للجنرال «ياروزلسكي»، فرصةً للمناورة مع يوحنّا بولس الثاني، ومع نقابة التضامن.

وكان لا بدّ من الاعتراف بأنّ لا مستقبل للشيوعيّة، ما لم تتخلَّ عن نظرتها الخاطئة إلى الشخص البشريّ.

وفي هذه الأثناء، كان يوحنّا بولس الثاني، والسائرون في تيّاره، الذين يُعِدّون لمرحلة ما بعد الشيوعيّة، يرون أنّ الواجب الأساسيّ هو التمهيد لأرضيّةٍ أخلاقيّةٍ وثقافيّةٍ، ترسى عليها مجتمعاتٌ حرّةٌ، حقًّا. وقد اتّضح لهم أنّ التعدّي على الحرّيّات ليس حكرًا على أوروبّا الشرقيّة والوسطى، وأنّ الحزب الشيوعيّ ليس التهديد الوحيد لكرامة الكائن البشريّ.

وكانت وجوه المسرح العالميّ، وهيكليّة المأساة التاريخيّة، قد تغيّرت منذ وقف يوحنّا بولس الثاني، للمرّة الأولى، على شرفة القدّيس بطرس، منذ أكثر من سبع سنواتٍ، ولكنّ القضايا الأساسيّة لم تتبدّل.

رحلة يوحنّا بولس الثاني الثامنة إلى أميركا اللاتينيّة: الكنيسة وحقوق الإنسان

كان الحبر الأعظم قد استهلّ عام ١٩٨٧، بثلاث مبادراتٍ ذات دلالةٍ. ففي ١٩٨٧/١/١٢ عمّد في كاتدرائيّة القدّيس بطرس تسعةً وأربعين طفلاً. وفي ٢٠ شباط، استقبل السيّدة «مزيّن أغشا»، والدة محمّد علي أغشا الذي حاول اغتياله. وفي الثامن من آذار، استهلّ الرياضة الروحيّة الخاصّة بالصوم، والتي ألقى مواعظها رئيس الجمعيّة اليسوعيّة. وفي أسبوع الصوم الرابع، باشر رحلته الثامنة إلى أميركا اللاتينيّة، زار، خلالها، الشيلي، والأوروغواي، والأرجنتنين.

إنّ أميركا اللاتينيّة، بحجمها الديمغرافيّ، تمثّل مركز الثقل الكاثوليكيّ في العالم. وكانت، منذ مطلع الثمانينات، تخوض مرحلة انتقالٍ ديمقراطيٍّ، طويلةً وعسيرةً. وكان ديكتاتور الشيلي، الجنرال «أوغستينو پينوشيه»، قد أعلن أنّ كلّ شيءٍ سيكون أفضل حالاً، لو كفّ الأساقفة الشيليّون عن سلوك مسلك حزبٍ سياسيٍّ، ولو أنفقوا تسعين بالمئة من وقتهم في الصلاة. وقرأ الحبر الأعظم، في هذا التصريح، رغبةً خبيثةً في عزل الكنيسة عن رسالتها الأساسيّة في الدفاع عن الحقوق الإنسانيّة الأساسيّة، فمثل هذا العزل يعني موت الكنيسة.

وفي الطائرة التي كانت تقلّه والوفد المرافق له، سأل أحد الصحافيّين هل

بوسع كنيسة الشيلي مثل دور كنيسة الفيليپين، فأجاب بلا تردّدٍ: «**هذا ليس ممكنًا فحسب، بل هو ضروريٌّ، وهو جزءٌ من رسالة الكنيسة الراعويّة**».

وكانت كنيسة الشيلي قد قاومت، ببسالةٍ، امتهان حكومة «پينوشيه» للحرّيّات العامّة، ولكنّها، أيضًا، كانت قد التمستْ من البابا القيام بالوساطة بين الأرجنتين والشيلي، عام ١٩٧٨، التي كُلّلت بالنجاح. وكان الشيليّون يعترفون بفضل البابا في هذا الشأن.

ومع أنّ بعض الأساقفة المقاومين توجّسوا خشيةً من أن تؤدّي زيارة البابا إلى دعم مركز «پينوشيه»، فتخلّف بعضهم عن استقبال الحبر الأعظم في المطار، بدافع هذه الخشية، غير أنّ معظم الأساقفة، ومنظّمي زيارة البابا، كانوا واثقين من أنّ موقف يوحنّا بولس الثاني الحازم والثابت، سيفتح نافذةً نحو المزيد من الحرّيّات، ومدخلاً إلى الديمقراطيّة، وأنّ جوهر الرسالة التي سيحملها، سيكون إنجيليًّا وأخلاقيًّا. وبالفعل أكّدت الخطابات الثلاثون التي ألقاها البابا، في أثناء تلك الزيارة، موقف الكنيسة المتمثّل في الدفاع عن حقوق الإنسان، وفي الدعوة إلى المصالحة، كما أكّدت أنّ الانتقال اللاعنيف إلى الديمقراطيّة يتوافق مع تعليم الكنيسة الاجتماعيّ.

وحقّقت زيارة البابا هدفًا أساسيًّا آخر، وهو خبرةٌ جماعيّةٌ للمجتمع المدنيّ المتجانس، فلطالما عهدت شوارع الشيلي مداهمات القمع، والاشتباكات والمآسي، على مدى خمسة عشر عامًا. وها هي ذي تجمع، جنبًا إلى جنبٍ، أقوامًا من اتّجاهاتٍ سياسيّةٍ متباينةٍ، يتخشّعون، معًا، لحضور قداديس البابا.

يوم حطّ يوحنّا بولس الثاني في العاصمة الشيليّة «سانتايغو»، كان «پينوشيه» قد مارس أربعة عشر عامًا من الديكتاتوريّة الوقحة على شعبه. غير أنّ اجتياز البابا لشوارع المدينة، اجتيازًا منتصرًا، أحيى في الشعب نفحة رجاءٍ جديدٍ. ففي الكاتدرائيّة رحّب به الإكليروس والمؤمنون. ثمّ اعتلى قداسته قمّةً تطلّ على المدينة، ومنها بارك البلاد، ودعا إلى إنهاء مأساة المنفيّين السياسيّين.

وفي اليوم التالي، كان له لقاءٌ مع الجنرال «پينوشيه»، بحضور السفير البابويّ. وانتهز الجنرال السانحة كي يسأل: «علامَ لا تكفّ الكنيسة عن الإشادة بالديمقراطيّة؟ أليست كلّ أنواع الحكم سواء؟». فأجابه البابا بلباقةٍ وحزمٍ: «**كلاّ! فللشعب حقّ التمتّع بحقوقه الأساسيّة، حتّى إن هو ارتكب بعض الأخطاء في ممارسة هذه الحقوق**». وقد اعترف الديكتاتور، لاحقًا، أنّ هذه الإجابة حملته على التفكير بعمقٍ. غير أنّه، حينئذٍ، لم يكن يشغله سوى الاستفادة من وجود البابا، كي يصقل لنفسه صورةً لامعةً. فالتمس أن تؤخذ لهما صورةٌ، معًا. وكان أزلام «پينوشيه» قد أعدّوا، لهذا الغرض، خطّةً ماكرةً، إذ اقتادوا الحبر الأعظم إلى شرفة القصر، المطلّة على ساحةٍ تراصّ فيها أزلام الدكتاتور، وهناك صُوِّر الرجلان جنبًا إلى جنبٍ. وكان من شأن تلك الصورة، إيحاء انطباعٍ خاطئٍ برضى رئيس الكنيسة الكاثوليكيّة، عن حكم الدكتاتور الفاجر.

ولكنّ الحبر الأعظم سارع، بعد ظهر ذلك اليوم عينه، إلى تبديد كلّ سوء فهمٍ قد ينشأ عن ذلك. فتكلّم، في ملعبٍ سبقَ لخصوم «پينوشيه» أن عانوا فيه أصناف التنكيل، ودعا الشبيبة إلى إقامة مجتمعٍ أكثر تلاؤمًا مع الكرامة الإنسانيّة. وكانت دعوته إلى تغيير النظام جليّةً، صريحةً.

وفي الغداة، ٣ نيسان، ساء الوضع على نحوٍ مفضوحٍ. فقد كان مقرّرًا أن يطوّب الحبر الأعظم راهبةً شيليّةً، في أثناء قدّاسٍ يحضره نحو مليون شخصٍ. وفي الصباح الباكر، تفقّد الأُسقف المكلّف بالإشراف على الاحتفالات الليتورجيّة، المكان المعدّ لهذا الغرض، ولحظ أمرًا مشبوهًا. فقد كان سلوك الجمهور الذي حشدته السلطات في المقدّمة، قبالة المنصّة غريبًا، ومناقضًا لسلوك جمهور المؤمنين. وأُخطر البابا بأنّ أمرًا منكرًا يُدبَّر خلسةً، قد يفضي إلى نشوب مشاكل. ولكنّ قداسته لم يتأثّر، بل أصرّ على أن يجري كلّ شيءٍ وفقًا للبرنامج المقرّر. وفي مطلع القدّاس، أثناء تلاوة نصٍّ من الكتاب المقدّس، افتعل بعض القائمين على يسار البابا شغبًا غطّى على الصلاة، ثمّ أشعل مشاغبون إطاراتٍ مطّاطيّةً، فأطلقت قوّات حفظ النظام خراطيم المياه، والغاز المسيل للدموع،

وأعملوا الهراوات، فجُرح ستّ مئة شخصٍ. وحينئذٍ دنا ممثّل الحكومة من الكاهن المكلّف بتنظيم أسفار البابا، وقال: «لهذا الحدَث جانبٌ إيجابيٌّ، فهو يوفّر للبابا فرصةً كي يشهد، بعينيه، كيف يتصرّف هؤلاء»، وكان يعني المقاومين اليساريّين.

وخطر لمنظّم الرحلة إخراج البابا من المكان، ولو هو فعل لكان اصطدم برفضٍ قاطعٍ، إذ كان البابا مصمّمًا على متابعة القدّاس، رغم الدخان الخانق، الذي تبدّد، شيئًا فشيئًا. وقد أعطى قداسته المناولة لأولادٍ، وعيناه دامعتان. وعقب انتهاء القدّاس، تلبّث في المكان أطول من المهلة المقرّرة، كي يبدي انطباعًا بالصمود؛ وحينئذٍ، دنا منه رئيس أساقفة الشيلي، معتذرًا، فاعترض البابا: «**عمّ تعتذر؟ فقد صمد شعبكم، وتابع القدّاس. الأمر الوحيد الذي يتعيّن تجنّبه، في هذه الحالات، هو إفساح المكان للمشاغبين**».

واتّضح للجميع أنّ الحكومة افتعلت الحادث، أو هي، على الأقلّ، علمت به مسبّقًا، وتغاضت عنه، بل أرادته. وقد وصفه البابا بأنّه استفزازٌ حقيرٌ وسخيفٌ. وقد ابتغت الحكومة، منه، إظهار أن لا مكان للمصالحة مع العنف. ولكنّ الشعب تراصّ على جانبي الطريق، كي يؤكّد تضامنه مع الحبر الأعظم.

وبعد القدّاس، التقى قداسته زعماء المقاومة، فأكّد لهم أنّه لا يجوز التنازل عن الحقوق الأساسيّة، ولكن ينبغي الذود عنها، بمنأًى عن العنف. ومع أنّ هذا الخطاب لم يأتِ بجديدٍ، غير أنّ مجرّد التقاء الحبر الأعظم بممثّلي المقاومة، كان عميق المغزى، إذ إنّه دحض ادّعاء الرسميّين عدم وجود أيّة معارضةٍ. وحمل المقاومين على الالتزام بتحوّلٍ ديمقراطيٍّ منزّهٍ عن العنف. ولا مراء أنّ زيارة البابا تلك، قد أسهمت، إسهامًا فعّالاً، في هذا التحوّل.

بعد ثمانية عشر شهرًا، صوّت الشعب الشيليّ معلنًا رفضه استمرار الحكم العسكريّ. وأوصل إلى سدّة الرئاسة زعيم الحزب المسيحيّ الديمقراطيّ، الذي حصد ٥٥ ٪ من أصوات المقترعين.

الأرجنتين

وكانت محطّته الأخيرة، في تلك الرحلة الرسوليّة، هي الأرجنتين، التي كانت قد شرعت تحقّق تحوّلاً إلى الديمقراطيّة منذ عام **١٩٨٣**، ولكن ما برح للعسكر سلطةٌ نافذةٌ في حكم البلاد. ولم يكن الأساقفة الأرجنتينيّون قد التزموا، على غرار نظرائهم الشيليّين، بالدفاع عن حقوق الإنسان الأساسيّة.

كان يتوجّب على كنيسة الأرجنتين أن تبدأ بتحقيق المصالحة مع ذاتها، وكان على أساقفتها أن يحسنوا القيام برسالتهم كشهودٍ أخلاقيّين، والتشديد على حقوق الإنسان، مع الحرص على تجنّب استفزاز العسكريّين، وتعريض الديمقراطيّة الوليدة التي ما برحت هشّةً، إلى الخطر. ومن ثمّ تناولت معظم الخطابات التي ألقاها البابا، على امتداد الأسبوع الذي قضاه في الأرجنتين، مواضيع السلام، والمصالحة، والأسس الأخلاقيّة، التي ينبغي أن ينهض عليها المجتمع المدنيّ.

منذ وصوله إلى البلاد، مساء السادس من نيسان، التقى الأب الأقدس الرئيس ألفونسين وأعضاء حكومته، وأكّد أنّ واجب الدولة احترام حرّيّة الأفراد المشروعة، وحرّيّة الأسر، والأقلّيّات. وفي المدن الأُخرى التي زارها، حذّر من النزعة الاستهلاكيّة، داعيًا إلى الاستعاضة عنها بالتضامن. وأكّد أنّ حبّ يسوع يمضي، أوّلاً، إلى الأكثر حرمانًا، وأنّ التحوّل الشخصيّ هو عنصرٌ أساسيٌّ في خلق مجتمعٍ مدنيٍّ حقيقيٍّ. وندّد بالتعصّب الوطنيّ، وبكره الغريب اللذين كادا يشعلان فتيل حربٍ بين الأرجنتين والشيلي. وأشاد برسالة العلمانيّين، وأهاب بمسيحيّي الأرجنتين ألاّ يرتضوا الوقوف على هامش المجتمع، بل أن يكونوا «الملح والنور»، حيثما حلّوا.

وتوّج البابا زيارته إلى الأرجنتين برعاية يوم الشبيبة العالميّ، في العاصمة «بوينس أيرس»، ودعا شبيبة العالم إلى أن يكونوا «**صانعي سلامٍ، على دروب العدالة، والحرّيّة، والحبّ، ورسل تبشيرٍ جديدٍ بالإنجيل، من أجل بناء حضارة الحبّ**». وقال: «**أعتقد أنّ الشبيبة، تمثّل مقياس الرغبات، وتجسّد ما تصبو إليه البشريّة، اليوم. إنّ العالم يتحدّث كثيرًا عن التحرير وعن ضرورته. ولكن، يبدو**

أنّ الشبيبة تعي واجب التحرّر من كلّ ما يُفرَض عليها من إيديولوجياتٍ، وتعاليم سياسيّةٍ ومادّيّةٍ، تشيد بالمتعة والاستهلاك، وهي تصبو، أكثر فأكثر، إلى جوابٍ فائق الطبيعة، وواقعيٍّ، في آنٍ واحدٍ. وهذا الجواب تجده في الإنجيل. ولذلك قلت، منذ البدء، إنّني جئتكم وبيدي الإنجيل».

وناشد الشبيبة بهذا النداء النابض رجاءً: «**مستقبل العالم يعتمد عليكم. هذا المستقبل هو أنتم!**».

وفي قدّاس أحد الشعانين، ندّد، أمام شبيبة العالم، بالمظالم التي ما زالت تُرتكَب، مشبّهًا ما تعرّض له يسوع، قبل صلبه، من محاكمةٍ زائفةٍ، وتعذيبٍ، بواقعٍ ما برح ماثلاً. ووجّه دعوةً حازمةً إلى الأساقفة: «**لا تغفلوا أنّ المجتمع، مع أنّه، ظاهريًّا، دنيويٌّ وغير مبالٍ (بشؤون الدين) ينتظر منكم أن تكونوا شهود المسيح، وحرّاس القيم الأساسيّة!**».

في طريق العودة إلى روما، أمطره الصحافيّون المرافقون له، في الطائرة، بوابلٍ من الأسئلة، نجتزئ ببعضها، وبإجاباته عليها:

سأله أحدهم: «بمَ جئتَ هذه البلاد التي تواجه جمًّا من المشاكل؟» فأجاب: «**بما أجيء به دائمًا: الإنجيل. فلا شيء لديّ أقدّمه سوى الإنجيل. هذه هي رسالتي، ورسالة الكنيسة، والأساقفة في العالم أجمع**».

وسأله آخر: «هل ستغيّر رحلتك شيئًا في أميركا اللاتينيّة؟» فأجاب:

«**آمل أن تؤدّي إلى إصلاح الأوضاع. إنّ الرسالة التي أوكلها الربّ إلى بطرس هي: «ثبّت إخوتك». وإنّي عازمٌ على فعل كلّ ما يسعني فعله، من أجل تحقيق هذه الرسالة، وإخوتي هم الأساقفة، خلفاء الرسل، وكلّ شعب الله**».

وعلى سؤالٍ: «هل ستأتي زيارتك بالديمقراطيّة للشيلي؟»، ردّ بحزمٍ: «**أنا لست مبشّرًا بالديمقراطيّات، بل أنا حاملُ الإنجيل! ومن الجليّ أنّ رسالة الإنجيل تشمل كلّ القضايا المتعلّقة بحقوق الإنسان. فإن كانت الديمقراطيّة تعني احترام حقوق الإنسان، فهي جزءٌ من رسالتي**».

وسُئل: «زيارتك الأولى إلى پولونيا، نفثت في وطنك روحًا جديدًا. فهل ستنجح في نفث هذا الروح الجديد، ذودًا عن حقوق الإنسان. في الشيلي؟». فأجاب: «**أجل، أنت مصيبٌ. إنّها مهمّتي، وهدفي، وواجبي، في كلّ مكانٍ، كلّما تسنّى لي ذلك، وكلّما كان ممكنًا. فلنرجُ أن يكون ممكنًا، من أجل شعب الشيلي الطيّب**».

وكان قد سُئل، أثناء مجيئه: «برنامجك يتضمّن لقاءً خاصًّا مع الأولاد في الشيلي. فما هي الرسالة التي ستبلّغها لهؤلاء الأولاد، الذين ينتظرون هذا الموعد بفرحٍ عارم؟» فأجاب: «**مع الأولاد موقفي هو دائمًا ذاته: آخذهم بين ذراعيّ، وأقبّلهم، فهم الأقرب إلى الربّ!**».

وكان قد أكّد للصحافيّين: «**إنّ رسالتي هي ذاتها في كلّ مكانٍ، باسم يسوع المسيح عينه. رسالتي هي تبليغ البشرى السعيدة. وعلى التبشير أن يتجدّد مع تجدّد الأجيال**».

«**حقوق الإنسان هي أحد فصول تعليم الكنيسة الاجتماعيّ، وهو صالحٌ في كلّ مكانٍ.**

«**أومن إيمانًا راسخًا أنّ على كلٍّ منّا، وعلى جميع حكّام العالم، أن يرجعوا، أكثر، إلى الإنجيل، في كلّ مكانٍ، وفي كلّ وقتٍ. وسأشدّد على ضرورة العودة إلى الضمير وإلى الإنجيل**».

وسُئل عمّا يرجو من تلك الرحلة، فأجاب:

«**أن أُمثّل يسوع المسيح، وأن أجعله مرئيًّا في عيون الشعوب. هذه الرؤية ضروريّة، فهي رؤية الكنيسة. إنّني ألاحظ، كلّما شخص البابا إلى مكانٍ ما، أنّ جماعاتٍ غزيرةً تتألّف، وهكذا نشاهد الكنيسة، وهذا أمرٌ هامٌّ. فعلى هذا النحو يصبح يسوع، هو أيضًا، مرئيًّا، على نحوٍ أفضل، للجميع. لا ريب أنّ يسوع، غير المنظور، يحتفظ بكلّ أهمّيّته، فهو المسيح الحاضر في ضمائرنا. إنّ أحدهما يتراءى من خلال الآخر**».

زيارة راعويّة إلى ألمانيا الغربيّة

في الرابع والعشرين من شهر نيسان ١٩٨٧، استقبل يوحنّا بولس الثاني وفدًا من الأكّاديميّة الفرنسيّة (أكاديميّة الأربعين خالدًا) تضمّ كلاً من الأب «كارّيه» (Carré)، وجان غيتّون، وموريس شومان، وليوپولد سنغور، كانوا مكلّفين بتقليده الوسام الذهبيّ الكبير.

وفي الثلاثين من ذلك الشهر عينه، باشر الحبر الأعظم زيارةً راعويّةً إلى ألمانيا الغربيّة امتدّت حتّى الرابع من أيّار، قام خلالها، بمبادرةٍ أثارت جدَلاً واسعًا، هي تطويب الراهبة الكرمليّة الأخت تيريزا بينيديكتا الصليب، المعروفة باسم «إيديت شتاين» (Edith Stein)، المولودة في ١٨٩١/١٠/١٢ من أسرةٍ يهوديّةٍ، ولكنّها اعتنقت الكاثوليكيّة، إثر بحثٍ جادٍّ، ودراساتٍ فلسفيّةٍ معمّقةٍ، وبعد أن حازت على دكتورا في الفلسفة، ووضعت مؤلفاتٍ فلسفيّةً قيّمةً، وتعمّدت في اليوم الأوّل من عام ١٩٢٢، ثمّ انتسبت إلى ديرٍ كرمليٍّ في مدينة «كولونيا»، بتاريخ ١٩٣٤/٤/١٥، وهي في الثانية والأربعين من عمرها. وقد أمرتها رئيسة الدير بمتابعة التأليف، وبوقف كلّ وقتها على هذه المهمّة، فغدت لا تعهد هدنةً إلاّ يوم الأحد، عندما تلقي القلم جانبًا، وتتفرّغ للتأمّل والعبادة. وأعدمها النازيّون في ١٩٤٢/٨/٩، مع شقيقتها روزا، التي كانت، هي أيضًا، قد اعتنقت الكاثوليكيّة.

كان البابا يوحنّا بولس الثاني يعدّها نموذجًا نسائيًّا بارزًا في القرن العشرين، وطالع، باهتمامٍ، مؤلّفاتها الفلسفيّة. كانت مفكّرةً من طرازٍ فريدٍ، وانتقلت من الشكّ إلى الإيمان، بل إلى الصوفيّة، في أعقاب بحثٍ جادٍّ وصادقٍ، إلى أن عثرت على الحقيقة، لا حقيقة كتب الفلسفة، بل الحقيقة المجسّدة في إله الحبّ، وقرنت التأمّل العميق بالنشاط الفكريّ، وشهدت، بجرأةٍ للحقّ ولإيمانها.

في الأوّل من أيّار ١٩٨٧، طوّبها يوحنّا بولس الثاني بصفة معترفةٍ، بسبب ممارستها فضائل بطوليّةً، وشهيدةً، بسبب ظروف إعدامها، تحقيقًا لرغبة الكنيسة الألمانيّة. وقد أثار تطويبها احتجاجًا صاخبًا من قبل الحكومة الإسرائيليّة،

ومنظّمات يهوديّةٍ في أميركا وأوروبّا، رأوا في هذا التطويب تحدّيًا، وتكريمًا لا يليق بمن تخلّت عن دين والديها اليهوديّ.

وبعد يومين، طوّب البابا الكاهن اليسوعيّ «روبيرت ماير» (Ropert Mayer)، الذي كان قد نال وسام الصليب الحديديّ، مكافأةً لبطولته في الحرب العالميّة الأولى، وفقد إحدى ساقيه، في أثناء اضطلاعه بمهمّة المرشد الروحيّ العسكريّ. وكان من أكثر الرعاة الروحيّين شعبيّةً في مدينة ميونيخ. وقد اعتُقل مرّتين، بسبب تنديده بسياسة هتلر المناقضة لتعاليم الإنجيل، وأُودع معتقلاً حيث تداعت حالته الصحّيّة، فاحتُجز في منسكٍ بمنطقة باڤاريا كي يلقى حتفه في الخفاء، إذ كان يخشى النازيّون أن يجعل منه موته في المعتقل، شهيدًا، وبطلاً قوميًّا. وقد لقي وجه ربّه عام ١٩٤٥، عن ثمانيةٍ وأربعين عامًا.

بعدئذٍ تخشّع البابا عند ضريح الكردينال «كليمان أوغست ڤون غالين» (Clemens August von Galen)، الذي كان قد أدان، علنًا، وبجرأةٍ، السياسة النازيّة القائمة على التخلّص من المعاقين ومن غير المنتِجين. وبهذه المناسبة، شدّد الحبر الأعظم على رسوخ إيمانه بكرامة الفرد البشريّ، الثابتة، التي تُنتَهك كلّما قيست قيمة الحياة البشريّة بمعيار فائدتها المادّيّة وإنتاجها؛ وكان يرى أنّ هذا الانتهاك ما زال يُرتَكب من خلال الدعوات إلى الإجهاض والقتل الرحيم، بداعي «لياقاتٍ شخصيّة».

وفي يوم رحلته الأخير، تحدّث البابا عن رؤيته لأوروبّا المدنيّة الموحّدة، في أعقاب زوال الدكتاتوريّة الشيوعيّة، داعيًا إلى أن تقوم أوروبّا هذه على كرامة الإنسان، وعلى جذورٍ ثقافيّةٍ مسيحيّةٍ، تحول دون نشوء دُوَلٍ لا تؤمن إلاّ بالتكنولوجيا، وتحمل، في ذاتها، عوامل فنائها. فقد حان أوان استخلاص العبَر من الماضي القريب، وإعمال الفكر في قضايا المستقبل الجوهريّة، وفي طليعتها: «أيّ نوعٍ من الحرّيّة؟» و«الحرّيّة من أجل ماذا؟».

رسالةٌ عامّةٌ: «أمّ الفادي» (Redemptoris Mater)

بين ٢٣ و١٩٨٧/٥/٢٥، وفي إطار زياراته إلى الرعايا الإيطاليّة، وبدافع

تكريمه للقدّيسين، وتقديره لرفعة الكهنوت، تخشّع يوحنّا بولس الثاني أمام ضريح الكاهن القدّيس، «الأب پيو» (Padre Pio).

في السادس من حزيران، استقبل الرئيس الأميركي ريغان.

وفي اليوم التالي، أحد العنصرة، ١٩٨٧/٦/٧، افتتح سنةً مريميّةً تمتدّ حتّى عيد انتقال العذراء، في ١٩٨٨/٨/١٥.

لقد عُهِد عن يوحنّا بولس الثاني شغفه بالسيّدة العذراء، وكان قد سبقه في هذا المضمار البابا بولس السادس، فكان ذانك الحبران نعمةً كبرى للكنيسة.

كان يوحنّا بولس الثاني حريصًا على الاحتفال ببزوغ الألفيّة الثالثة، المذكّرة بمرور ألفي عامٍ على ولادة المخلّص. ولكنّه ارتأى أنّ ذلك الاحتفال لن يكتمل إلاّ بتكريم تلك التي ولدت المخلّص، وقدّر أنّ سنة **١٩٨٧** هي التي توافق موعد ولادتها، فأعلنها سنةً مريميّةً مقدّسةً. ومهّد لها برسالةٍ عامّةٍ، أطلق عليها عنوان «أمّ الفادي» (Redemptoris Mater)، أفرغ فيها زبدة تأمّلاته في السيّدة العذراء، وعصارة مشاعر حبّه لأمّه السماويّة، متبسّطًا في الإشادة بدعوتها الفريدة، وامتيازاتها، واستحقاقاتها، ومكانتها في سرّيّ التجسّد والفداء.

فببشارتها أُعلن سرّ التجسّد، حيث بلغت عطيّة الله أسمى قممها.

لقد وصف مريم العذراء بأنّها: «**أمّ ابن الله، وابنة الآب المفضّلة، وهيكل الروح القدس، وبفضل هذه النعم القصوى، تفوق، بلا قياسٍ، جميع المخلوقات، في السماء وعلى الأرض**».

غبَطتْها إليصابات لأنّها آمنت، وسمعان الشيخ أعدّها لدور البطولة، لسبب ما ستكابده بصفتها أمّ الفادي، ولأنّ أُمومتها ستكون بذل ذاتٍ كلّيًّا. لقد اختيرت منذ الأزل، بسبب تواضعها، وإيمانها، وطاعتها في الإيمان، وتكفيرها عن خطيئة حوّاء. اختيرت لتكون أُمّ الفادي، منذ مذود بيت لحم، حتّى صليب الجلجلة، حيث أشرع ابنها قلبها على أُمومةٍ جديدةٍ، أمومة البشريّة، وأُمومة الكنيسة. وبهذه الصفة، صفة أمّ ابن الله، وأمّ البشر، غدت هي الوسيطة، ولعبت دورًا أساسيًّا في تدبير الخلاص.

ومن جانبٍ آخر، هي حاضرةٌ في الكنيسة حضورًا متعدّد الأشكال، حاضرةٌ وسط تلاميذ ابنها، لكي تجمعهم حول الملك، وحاضرةٌ في رسالة الكنيسة وعملها، وهي رباط وحدةٍ بين جميع المسيحيّين، لأنّها أمّهم المشتركة.

وفي الجزء الثالث من الرسالة، يتناول يوحنّا بولس الثاني وساطة مريم الأُموميّة. فإنّما جدوى وساطتها تنبع من استحقاقات ابنها، الوسيط الوحيد. وساطتها مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بأمومتها، وخاضعةٌ لوساطة ابنها. وساطتها مشاركةٌ في النبع الوحيد، وهو وساطة المسيح عينه.

وساطتها، داخل الكنيسة، تقود المؤمنين إلى الإفخارستيّا، فهي، دائمًا، تعطي البشر يسوع، وكلّ مسيحيٍّ يتلقّى دعوة يسوع إلى استقبال أُمّه، كي يضمن وصوله إلى يسوع.

كان المجمع الفاتيكانيّ قد أعلن أنّ مريم ستكون، دائمًا، مفتاح سرّ المسيح والكنيسة. وعلى ضوء هذه النظرة، تندرج السنة المريميّة المقدّسة.

وبهذه المناسبة، ذكّر يوحنّا بولس الثاني بالقدّيس الذي أضرم في نفسه، وفي نفوسٍ كثيرةٍ، حبّ الأمّ العذراء - وهو غرينيون دي مونفور -، الذي كان قد ناشد المسيحيّين تكريس ذواتهم للمسيح، بين يدي مريم. فهذا التكريس هو الوسيلة المجدية لعيش وعود العماد، بوفاءٍ.

واختتم يوحنّا بولس الثاني رسالته تلك، باستغاثةٍ، باسم جميع المسيحيّين، هاتفًا: «**هُبّي إلى نجدة شعبك الذي سقط، ويسعى إلى النهوض**».

وعبّر عن شكره، لكلّ ما أغدقته العذراء على الكنيسة، وعليه شخصيًّا، معلنًا: «**إنّها، هي، نجمة الألفيّة الثالثة، مثلما كانت، في مطلع المسيحيّة، الفجر الذي بشّر ببزوغ يسوع في أفق التاريخ**».

دعمٌ لكنيسة ليتوانيا

في شهر حزيران ١٩٨٧، احتفلت ليتوانيا بالذكرى المئويّة السادسة لاعتناقها الكاثوليكيّة. وفي الخامس من ذلك الشهر، وجّه الحبر الأعظم رسالةً إلى أساقفة

ذلك البلد، أشاد فيها «بالغنى الروحيّ العظيم، الذي يميّز الجماعة الكاثوليكيّة الليتوانيّة، وبوفائها للمسيح، الصامد على مرور القرون». وبعد ثلاثة أسابيع، طوّب رئيس أساقفة «ڤيلنوس»، «جرجس متواليتس» (١٨٧١–١٩٢٧)، «ابن شعبكم، وراعيه العظيم»، وكان قد توافد أساقفةٌ من جهات المسكونة الأربع، للمشاركة في هذا الاحتفال، ورأى الحبر الأعظم في مشاركتهم هذه، «**تعبيرًا بليغًا عن الشركة بين الكنائس الكاثوليكيّة في الشرق والغرب، التي لم يفلح الستار الحديديّ في فكّ لحمتها**».

ولم يكن معنى الشهادة غريبًا عن كنيسة ليتوانيا. فمنذ عام ١٩٤٠، عانى المؤمنون، هناك «الإذلال، والتمييز، والألم، والاضطهاد، والنفي، والسجن، والموت»، متقبّلين الألم، باسم يسوع، بفرحٍ. وكانت مِحَنهم هي، هي، عام ١٩٨٧، موفّرةً لهم مصدر قوّةٍ، لأنّ الصليب، بالاتّحاد مع آلام يسوع الفدائيّة، نعمةٌ وتقديسٌ. وبفضل هذه القوّة، كان الحبر الأعظم يرى، في شبيبة ليتوانيا، «خميرة رجاءٍ جمٍّ»، أحلى أسمائه هو الحرّيّة.

زيارةٌ ثالثةٌ إلى موطنه پولونيا

إثر تهنئة الليتوانيّين، يمّم يوحنّا بولس الثاني، في الثامن من حزيران ١٩٨٧، شطر مسقط رأسه پولونيا، في ثالثة زياراته لها، بعد اعتلائه كرسيّ بطرس. زيارته الأولى، في حزيران ١٩٧٩، كانت قد أشعلت فتيل الثورة الپولونيّة، وزيارته الثانية، في حزيران ١٩٨٣، كانت قد أسهمت في إنعاش هذه الثورة. أمّا الأسبوع الذي أمضاه في موطنه، في حزيران ١٩٨٧، فقد كان دعمًا للثورة، وفي تبيان القضايا التي سيكون على البلاد معالجتها في المستقبل.

حاولت السلطات الشيوعيّة نصب العقبات في وجه تلك الزيارة، متشبّثةً بقرارها اعتبار مدينة «غدانسك»، معقل نقابة «سوليدارنوش»، مدينةً محظورةً، كما كانت قد فعلت، أثناء زيارة البابا السابقة، عام ١٩٨٣. بيد أنّ البابا جعل من زيارة تلك المدينة، شرطًا لا غنى عنه، لزيارته الپولونيّة، فاستسلمت السلطات مرغمةً.

وكان سكّان المدينة قد أشادوا، في ضواحيها، وفي موقع مطارٍ مهجورٍ، مدينةً جديدةً، أسموها «زاسپا»، حاولوا أن يقلّدوا، بها، المزار المريميّ الشهير في «ياسنا غورا». وقد تحوّلت تلك المدينة، وفق وصف أشهر ساكنيها، «ليش ڤاليسّا»، إلى جسمٍ حيٍّ. وكان مقرّرًا أن يقام فيها قدّاسٌ حبريٌّ. فاختارت السلطات مكانًا له، زاويةً من المطار القديم، محشورةً بين أبنيةٍ سكنيّةٍ عاليةٍ. وبالمقابل أصرّ الأهالي على إقامة القدّاس في مكانٍ مشرعٍ على الجمهور، وعلى أن يجعلوا من الهيكل رمزًا مميّزًا، تعهّد مهندسٌ مشهورٌ وفيٌّ لتاريخ غدانسك وتاريخها الحضاريّ والدينيّ، أن ينشئه على شكل سفينةٍ ذات ثلاث صوارٍ، يقودها قبطان الكنيسة. واقتضى إنجاز هذا العمل مئات ساعات العمل الطوعيّ. وفُرِغ منه، في اليوم الثالث الذي سبق مجيء الحبر الأعظم.

على خطاب الاستقبال الذي ألقاه الجنرال «ياروزلسكي»، وادّعى، فيه، رغبة حكومته في السلام، ردّ يوحنّا بولس الثاني، مذكّرًا بأنّ أولى مقوّمات السلام هي حماية حقوق الإنسان، وأنّ السلام في «پولونيا» لن يتحقّق إلاّ عندما يتمتّع جميع الپولونيّين بحقوقهم الأساسيّة، وأنّ استعادة الشعب الپولونيّ كرامته، هي السبيل الوحيد إلى التجدّد الوطنيّ الذي يدّعي الحكّام نشدانه. وبالإجمال، ألقى البابا على الجنرال درسًا في التعليم المسيحيّ، منسجمًا، انسجامًا تامًّا، مع مفهوم الديمقراطيّة، مؤكّدًا أنّ الدولة موجودةٌ من أجل خير المجتمع، وليس المجتمع أداةً لمناعة الدولة، وأنّ كرامة أفراد المجتمع تقتضي مساهمتهم الفعليّة في القرارات التي تنظّم وجودهم. ودعم قوله بفقرةٍ من مقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، تقول: «ينبغي تقدير الأُمم التي تتيح أنظمتها لأوفر عددٍ من المواطنين، المشاركة في شؤونها العامّة، في جوٍّ من الحرّيّة الحقّة».

وبعد تذكير المسؤولين بواجباتهم، توجّه الأب الأقدس إلى الپولونيّين، في إطار المؤتمر الإفخارستيّ الوطنيّ، الذي افتتحه مساء ١٩٨٧/٦/٨، واختتمه في الرابع عشر من ذلك الشهر، قُبَيْل عودته إلى روما. وكان موضوع عظاته وتأمّلاته «حبّ يسوع إلى الحدّ الأقصى»، فشدّد على قدرات الحبّ الخلاصيّة، موضحًا أنّ الإفخارستيّا لا تقوم إلاّ على ضمائر نقيّةٍ. فعلى الپولونيّين، إن كانوا راغبين

في تجديد المجتمع، أن يتحرّروا من «إرث الحقد والأنانيّة»، ويتخطّوا نظرة العالم التي لا ترى في الله سوى خرافةٍ، ولا ترى في الحبّ سوى وهنٍ، وهكذا يستعيدون لوطنهم حرّيّته الحقيقيّة.

في التاسع من حزيران، زار مدينة «لوبلان»، والجامعة الكاثوليكيّة فيها، حيث اصطفّ، إلى يمين المنصّة التي جلس عليها، زملاؤه القدامى، الأساتذة الجامعيّون، في زيّهم الأكاديميّ، وأمامه احتشد طلاّبٌ في فناء الجامعة. وفي خطابه، دعا إلى بحث كلّ شيءٍ بحرّيّةٍ، فذلك هو دَيْنٌ على الجميع حيال الحقيقة بكلّ تنوّعها، إذ إنّ تبيان الحقيقة هو واجب كلّ امرئٍ. وبذلك أوكل إلى الجامعات رسالةً كبرى، مناشدًا الأساتذة والطلاّب: «**اخدموا الحقيقة، تخدموا الحرّيّة، حرّيّة الفرد والأُمّة. اخدموا الحياة!**».

وبعد ظهر ذلك اليوم، رسم خمسين كاهنًا جديدًا، يمثّلون قسطًا يسيرًا من الدعوات الكهنوتيّة التي ازدهرت في الثمانينات، في پولونيا. ووجّه إلى الكهنة الجدُد نصائح ثمينةً، منها: «**مهمّتكم يا أحبّائي الكهنة، هي التعاون مع العلمانيّين الواعين لمسؤوليّاتهم تجاه الكنيسة، وحيال نمط عيشٍ مسيحيٍّ في المجتمع... فهم يمثّلون طاقةً هائلةً من الإرادة الطيّبة، والكفاءة، والجاهزيّة**». وأوضح لهم أنّ عليهم «**خدمة الله، من خلال خدمة الإنسان، وتحرير ما في الإنسان من كهنوتٍ ملكيٍّ، ومن كرامةٍ خاصّةٍ بالإنسان، بصفته ابن الله أو ابنته، وكرامةٍ خاصّةٍ بالمسيحيّ، الموصوف بأنّه مسيحٌ آخر**». وأوضح «**أنّ خدمة الشعب تعني خدمة الحقيقة التي تحرّر كلّ إنسانٍ**».

وفي اليوم التالي، العاشر من حزيران، طوّب الباب «كارولينا كوزكا»، وهي فتاةٌ فلاّحةٌ، كانت قد لقيت حتفها، وهي تقاوم جنديًّا حاول اغتصابها، عام ١٩١٤. وعلّق البابا على تلك الحادثة بقوله: «**إنّ مقاومتها للعنف تدلّ على كرامة المرأة السامية... كرامة الشخص البشريّ... كرامة الجسد. إنّ مثال تلك الفلاّحة الأُمّيّة، تنهض دليلاً على أنّ البطولة هي بمتناول كلّ پولونيٍّ**».

وفي ذلك اليوم عينه، اجتاز الكيلومترات المعدودة التي تفصله عن كراكوڤيا، التي وصفها بكونها: «مدينة حياتي، ومدينة تاريخنا». وأمام مليون كراكوڤيٍّ،

احتشدوا لاستقباله، عبّر عن أسفه لعدم تمكّنه من قضاء فترةٍ أطول معهم. غير أنّه، في أثناء القدّاس، الذي احتفل به في كاتدرائيّة ڤاڤيل، نوّه بما تدين به پولونيا بأجمعها لجامعة «ياجلّون»، التي كان قد رقّاها إلى رتبة «أكّاديميّةٍ حبريّة». وتساءل: «**ما هي كراكوڤيا بمعزلٍ عن هذه الجامعة، وما هي الثقافة الپولونيّة، بمنأًى عنها؟**» وكانت كلماته هذه إشارةً إلى معركةٍ قديمةٍ، ورمزًا للمستقبل.

بعدئذٍ توجّه قداسته إلى شمال «پولونيا» إلى الشاطئ البلطيكيّ، الذي شهد مولد نقابة التضامن (سوليدارنوش)، التي قال عنها إنّها طهّرت الصراعات، مضيفًا: «**إنّ الصراع الذي يجعل البشر خصومًا وأعداءً، يقاوم بعضهم بعضًا، يفضي إلى الدمار. ووحده يسوغ الصراعُ من أجل الكائن البشريّ وحقوقه، ومن أجل تقدّمه الحقّ. إنّه صراعٌ في سبيل نمط عيشٍ أوفر نضجًا. فالحياة البشريّة، على هذه الأرض تغدو أكثر إنسانيّةً، عندما تسودها الحقيقة، والعدل، والحبّ**».

ولاحظ الحبر الأعظم أنّ الشيوعيّة استغلّت «علّة السطحيّة» التي وسمت المجتمعات الحديثة. وبالتالي، فإنّ استعادة الحرّيّة تستلزم السعي إلى استعادة العمق، فالعمق هو جوهر الكائن البشريّ، وكلّ كفاحٍ سياسيٍّ في سبيل تحرّرٍ حقٍّ، لا معدى له عن إدراك أنّ للديمقراطيّة نفسًا.

وفي اليوم التالي أقام قدّاسًا في غدانسك، أمام مليون عاملٍ، بعد أن تخشّع أمام نصبٍ تذكاريٍّ يخلّد العمّال الذين سقطوا، عام ١٩٧٠. ثمّ تطلّع إلى المستقبل، وأوضح أنّ معنى التضامن هو: «**الجميع معًا**». فحيث يوجد عبءٌ على الجميع المشاركة في حمله، متعاضدين، وألاّ يكون أحدٌ ضدّ الآخر، وألاّ يقاوم فريقٌ فريقًا آخر، وألاّ يقع وقر العبء على واحدٍ، ويحجم الآخرون عن مساعدته. وبالإجمال كانت دعوته تقويضًا لمبدإ صراع الطبقات الشيوعيّ.

في نهاية الزيارة، طلب الجنرال «ياروزلسكي» مقابلة البابا، ملمّحًا إلى رغبته في تسويةٍ بين الكنيسة والحكم الشيوعيّ. ولكن تبيّن أنّ لا تلاقي بين نظرتين متباينتين، جوهريًّا، إلى الإنسان، وأنّ الوضع الراهن سيستمرّ إلى أن يكون، ثمّة، رابحٌ وخاسرٌ. ولم يكن خافيًا على أحدٍ من سيُمنى بالخسارة.

تحدٍّ للمعارضة اليهوديّة، وعطلةٌ رياضيّةٌ

في اليوم التاسع الذي عقب عودته من «پولونيا»، استقبل قداسته «كورت ڤالدهَيْم»، الأمين العامّ السابق للأمم المتّحدة، الذي انتخبه شعبه النمساويّ رئيسًا لبلاده، رغم معارضةٍ شديدةٍ من قبل اليهود، الذين اتّهموه بالمساهمة في انتهاك حقوق الإنسان، عندما كان ضابطًا في الجيش الهتلريّ، ولكنّه نفى أيّة يدٍ له، شخصيًّا، في تلك الانتهاكات. وكان البابا يدرك أنّ استقباله للرئيس النمساويّ كفيلٌ بإفساد زيارته المقبلة إلى الولايات المتّحدة، وتأزيم علاقات الڤاتيكان باليهود، ولكنّه قد استقبل زعماء الاتّحاد السوڤييتيّ، الذين لا يمكن الشكّ في ارتكابهم انتهاكاتٍ فظيعةً لحقوق الشعوب والأفراد، فكيف له أن يرفض زيارة رئيس بلدٍ كاثوليكيٍّ أجمعت كلّ شعوب الدنيا على الاعتراف بنزاهته، أثناء تولّيه أمانة سرّ الأُمم المتّحدة.

وكان من المقرّر أن يلتقي قداسته مسؤولين يهودًا في «ميامي»، خلال زيارته إلى الولايات المتّحدة. ولكنّ هؤلاء أنذروا بإلغاء هذا اللقاء، إن تمّت زيارة ڤالدهَيْم إلى الڤاتيكان. ولكنّ هذا التهديد لم يفلح في ثني يوحنّا بولس الثاني عن موقفه، وتراجع اليهود عن إنذارهم.

كان يوحنّا بولس الثاني، حينئذٍ، قد بلغ السابعة والستّين، ورغب في قضاء فترة نقاهةٍ، على جبالٍ في شمال إيطاليا، حيث أنفق ستّة أيّامٍ في بيت صغيرٍ، عائدٍ لأبرشيّة «تريڤيز». وقد أدهش المتنزّهين الذين كان يلوّح لهم بعصا تسلّق الجبال، مرتديًا ثيابًا رياضيّةً لم يألف ارتداء مثلها أيّ حبرٍ أعظم قبله، في حين كان رجال الأمن يقونه من فضول الصحافيّين، المدعوّين «پاپارازي».

زيارةٌ رسوليّةٌ إلى الولايات المتّحدة وكندا

عقب هذه النقاهة القصيرة الأمد، استهلّ، في العاشر من أيلول، زيارةً ثانيةً إلى الولايات المتّحدة، بدءًا من «ميامي»، حيث استقبله الرئيس ريغان، وحيث التقى ممثّلي المجالس الأبرشيّة، القادمين من جميع الولايات المتّحدة. ثمّ طاف في العديد من المدن الأميركيّة، وشارك الصلاة ممثّلين عن طوائف بروتستانتيّةٍ،

سبق لآبائهم أن نعتوا بابا روما بأقذر الأوصاف، وتناقش مع قادةٍ كاثوليكيّين، ومربّين، وعاملين في ميادين التربية والطبّ. وفي أثناء لقاءٍ مع المختصّين بالاتّصالات، ناشد مشاهير هوليود أن يحرصوا على سلامة الثقافة الأميركيّة، أخلاقيًّا. وفي «لوس أنجيلس» شارك بمؤتمر الأساقفة الكاثوليكيّين، الوطنيّ، وقابل ممثّلين عن مختلف الديانات.

ثمّ عرّج على شمال غربيّ كندا، كي يقابل هنود تلك المنطقة، وتناقش مع زعمائهم في «فورت سيمپسون» (Fort Simpson)، تحت خيمةٍ، حيث نصبوا تمثالاً ليوحنّا بولس الثاني، «صديق الهنود». وكانت تلك الزيارة وفاءً لوعدٍ قطعه لهم، وحالت ظروفٌ قاهرةٌ، سابقًا، دون تحقيقه.

وعندما عاد إلى روما في ٢١ أيلول، كان قد اجتاز أكثر من خمسةٍ وعشرين ألف كيلومترٍ. ولكن لا بدّ من الاعتراف بأنّ هذه الزيارة لم تؤدِّ الغرض المرجوّ منها، وهو إقامة علاقاتٍ سليمة بين الحبر الأعظم، ومختلف المسؤولين الكنسيّين الأميركيّين. غير أنّه، في ختام زيارته، شدّد على «الحرّيّة المنظّمة»، مذكّرًا بقول أبراهام لينكولن: «هذه الأمّة الخاضعة لله، ستحتاج، دائمًا، إلى نهضة الحرّيّة»، وأكّد أنّ هناك ضرورةً دائمةً إلى نهضة الحرّيّة: حرّيّة ممارسة المسؤوليّة والسخاء، حرّيّة خدمة البشريّة، وتحقيق المصير البشريّ، وعيش الحقيقة، وحمايتها من كلّ تشويهٍ واستلابٍ، حرّيّة تنفيذ وصايا الله، وحرّيّة العيش عيشة أبناء الله، بسكونٍ وسعادةٍ.

وكان أحد الصحافيّين قد أثار قضيّة دعم بعض الأساقفة الأميركيّين لفئةٍ من المؤمنين الحريصين على حرّيّتهم الشخصيّة، في المعتقد والسلوك، خلافًا لتعليم الكنيسة، واستوضح موقف البابا منهم، فأجاب: «**لا يجوز اعتبار الكنيسة الجامعة اتّحادًا فيديراليًّا يضمّ كنائس محلّيّةً... وعلى الكنيسة إعلان الحقيقة... الحقيقة!**».

وادّعى صحافيٌّ آخر أنّ إدارة الكنيسة تفتقر إلى الديمقراطيّة، فأجابه:

«**ليست الكنيسة مؤسّسةً ديمقراطيّةً، بل هي مؤسّسةٌ يحكمها المسيح. ونحن، جميعنا، خدّام سيّدٍ واحدٍ، وراعٍ واحدٍ. وإنّنا، له، أدواتٌ ورسلٌ**».

وسُئل البابا هل أسفر المجمع الفاتيكانيّ عن نتائج سلبيّةٍ، فأجاب: «**بل إنّه أسفر عن شيءٍ جديدٍ، وكلّ جديدٍ ينطوي على تحدٍّ**».

وسئل عن موقفه من مثليّي الجنس، وتعرّضهم لداء الإيدز، وهل هم على هامش الكنيسة، فأجاب: «**إنّ جميع الذين يواجهون صعوباتٍ هم، دائمًا، في قلب الكنيسة**».

ومن الصوَر التي خلّدت تلك الزيارة، وطافت العالم، صورة الحبر الأعظم مقبّلاً ولدًا مصابًا بالإيدز، بنتيجة نقل دمٍ ملوّثٍ إليه؛ وصورته في كوخٍ مع ممثّلي هنود كندا.

حوار العلم واللاهوت

إثر عودته من الولايات المتّحدة، شارك يوحنّا بولس الثاني، في مؤتمرٍ دوليٍّ، كان قد دعا إليه، من أجل التداول في العلاقات بين العلوم والفلسفة واللاهوت، عُقِد في مقرّ البابا الصيفيّ في «كاستل غوندولفو»، بين **٢١** و**٢٦** أيلول **١٩٨٧**، بمناسبة الذكرى المئويّة الثالثة للمبادئ الرياضيّة التي وضعها العالِم «نيوتُن». وعلى امتداد خمسة أيّامٍ، تداول أساتذةٌ جامعيّون حول علاقة العلم بالدين، علاقةٍ تحترم، في آنٍ واحدٍ، قوانين العلم، واستقامة المبادئ المسيحيّة، وإمكانيّة أن تلعب الفلسفة دور الوساطة بين الفيزياء واللاهوت.

وعندما نُشِرت محاضر ذلك المؤتمر، بعد تسعة أشهرٍ، تضمّنت رسالةً من البابا، قارن، فيها، الحوار بين العلم واللاهوت بحركةٍ مسكونيّةٍ. وأوضح أنّ ما كان مستحيلاً، لعشرات السنوات السابقة، بات، اليوم، لا مفرّ منه، وأنّ العلم واللاهوت قد شرعا يتحاوران على مستوياتٍ من العمق غير مسبوقةٍ، وبانفتاحٍ فكريٍّ أوسع. ومن شأن هذا الحوار المستحدث، تفادي نظامٍ تأديبيٍّ مصطنعٍ، كما حدث سابقًا، أفضى إلى تيه كلٍّ من العلم واللاهوت. فكان لا بدّ من تحديد أرضيّةٍ مشتركةٍ، تحترم سلامة كلٍّ من العلم واللاهوت، وتحول دون أن يتحوّل العلم إلى لاهوتٍ، واللاهوت إلى علمٍ.

وقد شدّد الحبر الأعظم على جوهريّة هذا النقاش، الكفيل بإيجاد نزعةٍ إنسانيّةٍ تفضي إلى صوغ مستقبلٍ إنسانيٍّ حقًّا. فمعرفة أحدنا للآخر ستقودنا إلى مزيدٍ من الصحّة والأصالة. وإنّه ليتعذّر قراءة تاريخ هذا القرن، من غير أن نتبيّن أنّ الأزمة تحوم فوق رؤوسنا. فقد اتّضح، غير مرّةٍ، أنّ تطبيقات العلم كانت مدمّرةً، وأنّ المناظرات الدينيّة كثيرًا ما كانت عقيمةً. وعليه، يحتاج بعضنا إلى بعضنا الآخر، لكي نكون ما يجب أن نكون، وما نحن مدعوّون إلى أن نكونه.

سينودس حول رسالة العلمانيّين

لم يقتصر يوحنّا بولس الثاني على دعوة العلماء إلى التفكير في رسالتهم. وعندما كان ينوّه بالدعوة العامّة إلى القداسة، كان يتوجّه إلى الشعب المسيحيّ بأكمله، داعيًا إيّاه إلى تفكيرٍ مخالفٍ لحقبة السلطات الملكيّة، التي سادت حقبةً طويلةً، حيث كان الحبر الأعظم يُعَدّ مَلِكًا، والأساقفة طبقة النبلاء، والإكليروس والجماعات الرهبانيّة، طبقة البورجوازيّة، والعلمانيّون طبقة الفلاّحين، الذين يتوجّب عليهم الطاعة وأداء العشر، وإن هم لم يطيعوا، ولم يدفعوا، كانوا يُطردون من الكنيسة. وكان يوحنّا بولس الثاني يرى في هذه النظرة، عائقًا دون تحقيق تعليم المجمع المسكونيّ، الذي يعدّ الكنيسة شراكة المؤمنين الذين يؤلّفون جسم المسيح في العالم، ويشتركون، بفضل العماد، في الرسالة الثلاثيّة: التبشير، والتقديس، والخدمة.

وكانت النقاشات التي احتدمت في أعقاب المجمع الفاتيكانيّ الثاني، قد أغفلت فكرة الشراكة هذه، وطمستها. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني كان حريصًا على إحيائها، فدعا إلى ثلاثة اجتماعاتٍ عامّةٍ لسينودس الأساقفة، من أجل دراسة تأثيرات المجمع على أنماط العيش الثلاثة في الكنيسة: العلمانيّة، والكهنوت، والحياة الرهبانيّة المكرّسة، الملتزمة بنذور الفقر، والعفّة، والطاعة الدائمة. وعقد السينودس ثلاثة مؤتمراتٍ في الأعوام ١٩٧٧ و١٩٩٠، و١٩٩٤، وجدّد دعوة المجمع العامّة إلى القداسة، من خلال أنماط العيش الثلاثة المذكورة.

وكان للسينودس من أجل العلمانيّين، الأثر الأبلغ على مستقبل الكاثوليكيّين. وقد عُقد هذا السينودُس طيلة شهر تشرين الأوّل ١٩٨٧، وتوجّه الحبر الأعظم بالإرشاد الرسوليّ الذي أصدره في ١٩٨٨/١٢/٣٠، بعنوان «شعب المسيح الورع». وقد شارك في ذلك السينودُس مئتان واثنان وثلاثون أسقفًا، وستّون مستمعًا علمانيًّا، كانت لهم مداخلاتٌ في الجلسات العامّة، ومشاركاتٌ في جماعات الحوار. وجريًا على عادته، حضر البابا كلّ الجلسات العامّة، واستمع إلى ثلاث مئة خطابٍ؛ وخلال انعقاد السينودُس طوّب، على التوالي، عددًا من العلمانيّين والعلمانيّات، من جنسيّاتٍ مختلفةٍ.

تبنّى ذلك السينودُس أربعةً وخمسين اقتراحًا، استخدمها قداسته، إضافةً إلى المواضيع التي تناولتها المداخلات وجماعات الحوار، في صوغ إرشاده الرسوليّ، الذي قدّم مقاربةً واضحةً لعيش العلمانيّين انتماءهم إلى جسد المسيح، وأشاد برسالة العلمانيّين في العالم. ودعم دعوته بمُثُلٍ حيّةٍ. فهو نفسه، في مطلع شبابه، كان يتطلّع إلى سوق حياةٍ علمانيّةٍ مسيحيّةٍ مسؤولةٍ؛ والكردينال نيومن، اللاهوتيّ الإنكليزيّ من القرن التاسع عشر، كان قد ردّ على أُسقفه الذي استوضحه عن النظرة التي ينبغي أن ترى بها الكنيسة العلمانيّين، بقوله: «بمعزلٍ عن العلمانيّين سنبدو حمقى». والبابا پيّوس الثاني عشر، كان قد أعلن: «العلمانيّون هم الكنيسة». وكارول ڤويتيووا«، في مرحلة كهنوته وأُسقفيّته، كان قد اعتمد سياسة مواكبة العلمانيّين من رعيّته، تأكيدًا لقناعته بأنّ كلّ مسيحيٍّ هو جزءٌ من رسالة الكنيسة، ولا سيّما بعد أن أثبت الإلحاد المستشري عجزه عن إخماد جذوة صبوّ القلب البشريّ إلى الله، وحاجة العالم المعاصر اللازبة إلى رسالة الإنجيل، من أجل إحلال السلام، وتفادي الانحطاط الإنسانيّ والأخلاقيّ المطّرد.

وأكّد الحبر الأعظم أنّ كلّ مسيحيٍّ مدعوٌّ إلى القداسة، وأنّ هذه الدعوة مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بمبدإ الرسالة. فعلى كلّ مسيحيٍّ مواصلة مهمّة يسوع الخلاصيّة في العالم، إذ إنّ العالم هو «المكان والوسيلة اللذان يمكّنان العلمانيّ من تحقيق دعوته المسيحيّة، دعوةٍ لا بدّ من الحفاظ عليها، بمنأى عن كلّ

محاولات إخضاعها للوصاية الإكليريكيّة. فالعماد يوجب على كلّ مسيحيٍّ أن يلتزم، والذين يدّعون حرمانه هذا الدور، إنّما ينفون نعمة العماد، وينكرون أنّ الكنيسة هي شركة جميع أعضائها. الكنيسة تحيا داخل أُسَر أبنائها وبناتها، وعلى الرعيّة أن تكون مكان التقاء المؤمنين، من أجل تدعيم التزامهم في العالم، وبيت استقبالٍ للجميع، ولخدمة الجميع.

والعلمانيّون يؤدّون واجبهم المسيحيّ، من خلال الخدمات التي يؤدّونها للشخص البشريّ وللمجتمع، في كلّ وقتٍ، وفي كلّ مكانٍ. يحيون ويعملون فيه، ويستطيعون تلبية الدعوة إلى القداسة. وسيتعذّر على الكنيسة التبشير بالإنجيل والشهادة للحقيقة، في العالم المعاصر، إن ظلّ الإكليروس يدّعي أنّ الكنيسة حكرٌ عليه، لا يشترك فيها العلمانيّون إلاّ اشتراكًا عابرًا. فكون المرء مسيحيًّا هو جهدٌ يستغرق كلّ دقيقةٍ. وإنّما مهمّة المؤسّسة الكنسيّة، هي خدمة هذه الرسالة.

لا ريب أنّ نظرة يوحنّا بولس الثاني هذه كانت سابقةً لزمانها، وأنّ تطبيقها على أرض الواقع كفيلٌ بتغيير وجه الكاثوليكيّة في العالم.

وبينما تتحقّق نظرته ورغبته، ظلّ الحبر الأعظم دائبًا على النهوض بواجباته، «هنا والآن»: التزامه المسكونيّ، دفاعه عن حقوق الإنسان، تنظيمه الداخليّ، وأساقفته.

البطريرك ديمتريُس الأوّل في روما

يوم ١١/٢٢، طوّب يوحنّا بولس الثاني خمسةً وثمانين بريطانيًّا، استُشهدوا في عهد الملك هنري الثامن.

وفي مطلع شهر كانون الأوّل، استقبل، في إطار التزامه المسكونيّ، بطريرك القسطنطينيّة الأرثوذكسيّ، ديمتريُس الأوّل، الذي قام بحجٍّ إلى روما دام خمسة أيّامٍ، ملبّيًا رغبة يوحنّا بولس الثاني الحارّة، بمصالحة المسيحيّة الشرقيّة والغربيّة، المنقسمتين منذ ألف سنةٍ، لعلّ الكنيسة تتنفّس برئتيها كلتيهما. وقد صلّى

البطريرك في عدّة كنائس رومانيّةٍ، وتحدّث إلى الشبيبة الكاثوليكيّة. ويوم **١٩٨٧/١٢/٤**، اشترك البطريرك والبابا في صلاة الغروب في كنيسة العذراء الكبرى، حيث دخلا، جنبًا إلى جنبٍ، يتقدّمهما شمّاسٌ إنجيليٌّ أرثوذكسيٌّ، وآخر لاتينيٌّ، وكلٌّ منهما يحمل كتاب الإنجيل؛ وقبّلا الهيكل معًا، ثمّ جلسا، واستمعا معًا إلى الجزء الأوّل من القدّاس. وتلا الشمّاس الأرثوذكسيّ نصّ الإنجيل باللغة اليونانيّة، بعد أن نال بركة البابا، ثمّ تلا الشمّاس اللاتينيّ النصّ باللغة اللاتينيّة، بعد نيله بركة البطريرك. ثمّ بارك كلٌّ من البابا والبطريرك الجمهور، وألقى عظةً.

وعبّر البطريرك عن حزنه، بقوله: «ها نحن نجتمع عند مائدة الربّ، وما زلنا غير قادرين على خدمتها معًا!»، ورجا الربّ أن يجعل الكنيسة تشهد حلول يوم المصالحة والسلام، والإخاء، والوحدة.

وبدوره أكّد البابا أنّ الشراكة الكاملة يمكن أن تتمّ على أساس العلاقات التي كانت سائدةً قبل العام **١٠٥٤**، وأوضح أنّ تعذّر ارتشاف الرجلَيْن من الكأس الواحدة، هو مصدر «ألمٍ مرير»، ودعا «**أن يحوّل الربّ غمّنا حافزًا إلى الجهد المتواصل لإعادة الشراكة الكاملة، فنمهّد معًا، وسط بشر هذه الأرض، طريقًا واسعًا لإلهنا**».

وعقب العظتين، تلا البابا والبطريرك قانون إيمان نيقيا، بنصّه اليونانيّ الأصليّ، ثمّ ابتعد البطريرك عن الهيكل، وجلس على مقعد القدّيس أندراوس، وبادر البابا إلى تقبيله. وعندما حان أوان قبلة السلام التي تسبق المناولة، تقدّم البابا من البطريرك، فتبادلا سلام المسيح. ثمّ، عقب المناولة، التحق البطريرك بالبابا، عند الهيكل، فبارك البابا الجمهور باللغة اللاتينيّة، وباركه البطريرك باللغة اليونانيّة، وتوجّها معًا إلى ضريح القدّيس بطرس الثاوي تحت الهيكل، قبل أن يخرجا معًا، في تطوافٍ شعبيٍّ، ومخاطبتهما الجموع ثانيةً.

وفي السابع من ذلك الشهر، وقّعا، معًا، وثيقةً مشتركةً، أعلنا، فيها، افتتاح حوارٍ لاهوتيٍّ هادفٍ إلى «إعادة ملء الشراكة بين الكنيستين»، والقيام بأعمال

تنمّي العدل والسلام في العالم. ومعًا دوّنا عبارة: «**إنّنا ننتظر اليوم الذي يريده الربّ، والذي سنحتفل فيه بالوحدة المستعادة، وتتحقّق فيه مشاركةٌ كاملةٌ، باحتفالنا المشترك بإفخارستيّا الربّ**».

هذا الاحتفال أشاع شعورًا مسبّقًا بالمستقبل المرجوّ بحرارةٍ وتوقٍ. ولكنّ تباينًا تجلّى بين موقفي الرجلين. ففيما كان يوحنّا بولس الثاني يتمنّى تحقيق الشراكة الكاملة المنشودة، قبل نهاية الألفيّة الثانية، لم يكن هذا الاستعجال يحدو البطريرك، وربّما كانت نظرته إلى التاريخ مختلفةً، فضلاً عن عدم كونه الممثّل الوحيد للكنيسة الأرثوذكسيّة، وأنّ أيّ قرارٍ بهذا الشأن، يجب أن يقترن بموافقة نظرائه بطاركة أنطاكية، والإسكندريّة وأورشليم، وموسكو، وأثينا، وبلغراد، وبوخارست وسواهم.

واختتم يوحنّا بولس الثاني عام **١٩٨٧**، بتعيينه أوّل فلسطينيٍّ، بطريركًا لاتينيًّا على القدس، هو المطران ميشيل صبّاح.

راعي الفقراء والمشرّدين

في العام **١٩٨٨**، ركّز يوحنّا بولس الثاني جهوده على مواجهة آفة الفقر والتشرّد، وعلى الشؤون الاجتماعيّة، عامّةً.

ففي **١٩٨٨/١/٣**، تناول عشاءه مع **١٣٤** فقيرًا، وانكبّ على خدمتهم.

وفي الثاني من شباط، أصدر بيانًا بعنوان «عدلٌ وسلامٌ»، لفت، من خلاله، نظر العالم إلى تفاقم عدد المشرّدين، وواجب الاهتمام بهم.

وفي التاسع عشر من شباط أصدر رسالةً عامّةً حول «الشؤون الاجتماعيّة» (Sollicitudo rei socialis)، توخّى، من خلالها، التذكير برسالة البابا بولس السادس، «تقدّم الشعوب» (Populorum Progressio)، التي كان قد انقضى عشرون عامًا على إصدارها، والمضيّ قدمًا في توضيح موقف الكنيسة الاجتماعيّ، على ضوء اشتداد مطالبة الشعوب بالحرّيّة في العالم، ولا سيّما في بلدان العالم الثالث. وفضلاً عن هذين الهدفين، ابتغى قداسته حمل الإدارة

الفاتيكانيّة، على تبنّي نظرته إلى دور الكنيسة على الأرض، وفقًا لمقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني.

وكان يوحنّا بولس الثاني قد أصدر، قبل ذلك، ستّ رسائل عامّةٍ، واتّضح لقارئيها أنّها نتاج قلمٍ واحدٍ، وفكرٍ واحدٍ. ولكنّه، في وضع هذه الرسالة، حرص على إشراك أعضاء الإدارة الفاتيكانيّة، بعد استطلاع آراء مختلف أساقفة العالم، إثر التحوّلات الجوهريّة التي حدثت في عدّة مناطق من العالم. وكان، يومًا فيومًا، يتلقّى المسوّدات التي تعدّها اللجان، ويلخّص محتواها.

وقد استعرضت رسالته تلك، المشهد السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ في العالم المعاصر، وأبرزت النواة الأخلاقيّة، لنموٍّ إنسانيٍّ حقيقيٍّ، وحلّلت العقبات الأخلاقيّة في وجه نموٍّ اقتصاديٍّ وسياسيٍّ، واقترحت معايير ووسائل من أجل إصلاحٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ، وبيّنت العلاقات القائمة بين النموّ والتحرّر المسيحيّ، وأدخلت اعتباراتٍ جديدةً هامّةً في صلب تعليم الكنيسة الاجتماعيّ، مشدّدةً على العنصر الأخلاقيّ في كلّ نموٍّ اجتماعيٍّ أو اقتصاديٍّ، مع تأكيده على واجبات الدول المتقدّمة، حيال دول العالم الثالث الساعية إلى النموّ، ودعوة هذه الدول إلى البدء بإصلاح ذاتها، والقضاء على الفساد والدكتاتوريّة، وتبنّي أنظمةٍ ديمقراطيّةٍ قائمةٍ على حقوق الإنسان، وعلى المشاركة. وأشارت تلك الرسالة إلى أنّ آثار التوتّر بين الشرق والغرب، قد طالت العالم الثالث، وأعاقت تقدّمه وتطوّره.

وكان بدَهيًّا ألاّ ترضي تلك الرسالة لا الشرق واليساريّين المتطرّفين، ولا الغرب والليبيراليّين المتشدّدين، الذين لا يقبلون لليبراليّتهم حدودًا أو قيودًا. وقد انصبّت أقسى الانتقادات على تلك الرسالة، من الصحافة الأميركيّة، في حين حيّاها، باندفاعٍ، بعض المسيحيّين «التقدّميّين».

وفي سياق اهتماماته الاجتماعيّة دشّن يوحنّا بولس الثاني، يوم ١٩٨٨/٥/٢١، ملجأ «عطيّة مريم»، الملحق بالفاتيكان، الذي يؤوي عشرات المشرّدين، ويوفّر الطعام المجّانيّ، يوميًّا، لمئات الجياع المعدمين. وقد أوكل إلى مرسلات المحبّة، أخوات الأمّ تيريزا، الإشراف على واحة المحبّة هذه.

مواجهةٌ في الپاراغواي

بوحيٍ من رسالته المتعلّقة بالشؤون الاجتماعيّة، قادته رحلته الرسوليّة السابعة والثلاثون، مرّةً أُخرى، إلى أميركا اللاتينيّة. فطاف، بين السابع والتاسع عشر من شهر أيّار ١٩٨٨، في كلٍّ من الأوروغواي، وبوليڤيا، والپيرو، والپاراغواي، حيث كان يسود فقرٌ مريعٌ، ناجمٌ، في المقام الأوّل، عن الفساد السياسيّ المستشري، والدكتاتوريّة الطاغية. وكانت تنتظره المواجهة الكبرى والأشدّ قسوةَ في الپاراغواي، حيث يؤلّف الكاثوليكيّون أكثريّة المواطنين، ومع ذلك حاول الحاكم الدكتاتور «الفريدو ستروِيسنر» (Alfredo Stroesner)، محو آثار الدين الذي يُدينه، فأمر بنزع الصلبان من كلّ الأماكن العامّة، حتّى من المقابر، ولم ينجُ من جنونه الجامح سوى صليبٍ واحدٍ، في ساحةٍ كان على البابا أن يقيم القدّاس فيها. كان ذلك الطاغي يُحكم قبضته على البلاد، منذ استيلائه عنوة على الحكم، عبر انقلابٍ عسكريٍّ، عام ١٩٥٤. ومع أنّ ريح الديمقراطيّة كانت قد اجتاحت البلدان المجاورة، لم تراوده أيّة رغبةٍ في الإصغاء إلى المعارضة الديمقراطيّة الوليدة، ولا في تعريض شخصه وحزبه إلى معركةٍ انتخابيّةٍ نزيهةٍ.

كان برنامج الزيارة يتضمّن لقاء الحبر الأعظم مع الجماعة المعارضة، المدعوّة «بناة المجتمع». ولكن، فيما كان البابا ما زال في الپيرو، تنامى إلى الناطق الرسميّ باسمه، أنّ الجنرال «ستروِيسنر»، قد أمر بإلغاء هذا اللقاء. وعندما أُحيط البابا بالأمر علمًا، صرّح أنّه سيلغي زيارته إلى الپاراغواي، ما لم يعد الدكتاتور عن قراره. وفيما هو انصرف إلى متابعة برنامجه المرسوم، أوكل إلى معاونيه ملاحقة الأمر. وفي اليوم التالي، ١٢ أيّار، لجأ الناطق الصحافيّ باسم البابا إلى الضغط الشعبيّ، فنشر، في الصحافة، بيانًا جاء فيه: «لا بدّ لي من تعبيري عن استيائي حيال التحدّي غير المسبوق، الذي وُجّه إلى نشاط الأب الأقدس الراعويّ». وفي الساعة السابعة والنصف من اليوم التالي، هرع سفير الپاراغواي إلى الدير الذي كان يقيم فيه الناطق باسم الحبر الأعظم، محاولاً تبرير قرار الجنرال، مدّعيًا أنّ «بناة المجتمع» المعارضين، ليسوا سوى شيوعيّين مأجورين، وأنّ رئيس أساقفة الپاراغواي، إن هو سوى انتهازيٍّ يطمح إلى الظهور بمظهر محرّر البلاد. واكتفى

الناطق الرسميّ باسم الڤاتيكان، بتأكيد أن قرار الجنرال سابقةٌ خطيرةٌ، لا يجوز الإغضاء عنها، وما على السفير إلاّ مناقشة الأمر مع رئيس أساقفة الپارغواي. وفي عصر ذلك اليوم عينه، بلّغ السفيرُ الناطقَ الرسميّ باسم الڤاتيكان، أنّ القضيّة قد سُوّيت، وأنّ بوسع البابا التقاء ممثّلي المعارضة، «بناة المجتمع».

ومذ وطئت قدما البابا أرض الپارغواي، سارع إلى الإعلان عن ضرورة «تنظيفٍ أخلاقيٍّ» للبلاد، وأنّ «الحرّيّة، والعدل، والمشاركة» هي عناصر جوهريّةٌ في بناء «ديمقراطيّةٍ حقيقيّة»، ملمّحًا إلى نسبة ٨٩٪ من الأصوات، المزيّفة، التي ادّعى الجنرال إحرازها في انتخاباتٍ سابقةٍ.

وردّ الجنرال البائس بالطريقة التي لا يُتقن سواها، أي باعتقال المعارضين السياسيّين، وبقمع ممثّلي الكنيسة، والمدافعين عن حقوق الإنسان. ولكنّ هذه التدابير لم تنجِّه من المصير التعيس، إذ لم تمضِ تسعة أشهرٍ على زيارة البابا، حتّى أطاح به انقلابٌ عسكريٌّ. وفي تسعينات القرن الماضي، أصبح أساقفة الپارغواي هم أبطال الديمقراطيّة، ولكن توجّب عليهم مواجهة ظروفٍ اقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ، بالغة الصعوبة.

زيارات الأساقفة «على خطى الرسل»

يقضي التقليد الكنسيّ على كلّ أسقفٍ يرعى أبرشيّةً، أن يحجّ، مرّةً كلّ خمس سنواتٍ، إلى روما «على خطى الرسل» (Ad limina apostolorum)، وقد يواكبه، في هذا الحجّ، جماعةٌ من أبناء رعيّته، من أجل بحثٍ معمَّقٍ في شؤون الرعيّة. وتتاح لكلّ أُسقفٍ فرصة لقاءٍ خاصٍّ ووجيزٍ جدًّا بالحبر الأعظم، وسلسلة لقاءاتٍ مع إداريّي الڤاتيكان. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني حرص على أن يلتقي كلّ أسقفٍ لقاءً خاصًّا مستفيضًا، يدوم من خمس عشرة دقيقةً إلى ثلاثين دقيقةً، أو أكثر إن اقتضى الأمر. وكان، حينئذٍ، يبسط على مكتبه خريطةً كبيرةً، ويبدأ باستيضاح موقع أبرشيّة الأسقف بالتحديد، ثم يسهب في طرح الأسئلة، مهتمًّا بالأوضاع الخاصّة لكلّ أبرشيّةٍ، إذ إنّ لكلٍّ من الألفين وأربع مئة أبرشيّةٍ في

العالم، أوضاعها المميّزة. وكان كلّ أسقفٍ زائرٍ يشعر أنّ يوحنّا بولس الثاني، الذي مارس أُسقفيّته بعمقٍ وجدٍّ، يدرك تمامًا كلّ ما يبوح به زائروه؛ وتبيّن الأساقفة المسنّون كم لقاؤهم بيوحنّا بولس الثاني، أكثف من لقائهم بأسلافه، ويندرج في جوٍّ أوفر حرّيّةً، ما يدفعهم إلى التصريح، بلا حرَجٍ، بخفايا أفكارهم، وإلى التخفّف من الهموم التي لا يرغبون في الإفصاح عنها لسواه.

وقد أدخل يوحنّا بولس الثاني على تلك الزيارات الأُسقفيّة، تعديلاتٍ هامّةً، بحيث تتاح لكلّ أُسقفٍ أربع فرصٍ لمقابلته، عوضًا عن فرصةٍ واحدةٍ. فكان يدعو كلّ وفدٍ أُسقفيٍّ إلى مشاركته قدّاسًا صباحيًّا، في مصلاّه الخاصّ، ويدعوه، أيضًا، إلى تناول وجبة غداءٍ أو عشاءٍ معه. وبهذه المناسبة، كان يتاح للضيوف الإفصاح عن مشكلات مناطقهم الخاصّة، بحضور البابا وأمناء سرّه فقط. وفضلاً عن ذلك، كان يدعو الأساقفة الزائرين، أحيانًا، إلى اجتماعٍ يلقي فيه خطابًا، يوضح فيه رأيه في أوضاع أبرشيّاتهم.

ولم تكن تلك المبادرات مجرّد مجاملة ترحيبٍ، بل كانت وسيلةً ناجعةً، تمكّنه من نسج علاقاتٍ حيّةٍ مع معظم أساقفة العالم. وكانت ذاكرته المنيعة التي تحفظ أسماء زائريه، وكلّ ما يتعلّق بهم، وروح المرح الذي يتمتّع به، يضفيان على تلك اللقاءات نكهةً عذبةً. فقد لاحظ البابا، يومًا، أنّ الأسقف الزائر قد اكتنز وزنًا وحجمًا جسديًّا، منذ زيارته الأخيرة، ولمّا سأله عن أحوال رعيّته، أجاب: «إنّها على ازدهارٍ مطّردٍ»، فلاحظ البابا، مازحًا: «إنّي أرى أنّ أسقفها، يزدهر، أيضًا».

ولا ريب أنّ هذه اللقاءات الشخصيّة كانت تزوّد الحبر الأعظم، باطّلاعٍ واقعيٍّ دقيقٍ على أوضاع مختلف الأبرشيّات في العالم، لا قِبَل لتقارير ممثّليه وسفرائه في العالم على تزويده بمثله. وكان لهذا الاطّلاع شأنٌ هامٌّ عندما كان زائروه قادمين من أماكن يعتزم زيارتها قريبًا. وقد اتّضح لأساقفة أفريقيا، على نحوٍ خاصٍّ، أنّ ما من حبرٍ أعظم، قبل يوحنّا بولس الثاني، كان يمتلك معلوماتٍ دقيقةً عن بلدانهم وقضاياهم، بقدر ما كان هو يمتلك منها. وكان ذلك يزوّدهم بدفعٍ وثقةٍ، ولا سيّما أنّهم، في اضطلاعهم بمسؤوليّاتهم الباهظة، كان يُرهقهم، عامّةً، الشعور بالوحدة والعزلة.

في ١٩٨٨/٥/٣٠، قام البابا بتعيينات هامّة داخل الإدارة الڤاتيكانيّة، تناولت، على نحوٍ خاصٍّ مناصب الكردينالين، «كاسّيدي»، و«سودانو».

يوحنّا بولس الثاني وروسيّا

وفي ١٩٨٨/٦/١٣، أوفد الكردينال كازارولّي إلى موسكو، للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الألفيّة لعماد روسيّا، وزوّده برسالةٍ خاصّةٍ إلى الرئيس غوربتشيف.

خلافًا لمعظم البولونيّين، كان يوحنّا بولس الثاني مقتنعًا بأنّ الروس هم أبناء عمٍّ للسلاڤيّين، وأنّهم يكوّنون إحدى رئتي الحضارة المسيحيّة الأوروبّيّة، وأنّ على روسيّا أن تبقى جزءًا أساسيًّا من أوروبّا. وكان ملمًّا بكتابات الفلاسفة واللاهوتيّين الروس، وكانت رغبته الملتهبة في تحقيق الوحدة المسيحيّة، تدفع تطلّعه المسكونيّ صوب الشرق. وقد عقد صلاتٍ شخصيّةً وفكريّةً مع مفكّرين روسيّين.

وتلبيةً لطلب مهاجرةٍ روسيّةٍ، زوجة دبلوماسيٍّ إيطاليٍّ، تدعى «إيرينا إيلوڤايسكايا ألبيرتي» (Irina Ilovayskaya Alberti)، وكاتبة پولونيّةٍ، كان قد أسهم في السماح لزوجة العالم الروسيّ، «أندريه ساخاروف»، المدافع عن حقوق الإنسان، السيّدة «إيلينا بونّير» (Elena Bonner)، بالخروج من روسيّا من أجل تلقّي العلاج. وفي طريقها عرّجت على روما، حيث دبّرت لها السيّدة «ألبيرتي» لقاءً خاصًّا، اكتنفته سرّيّةٌ تامّةٌ مع قداسة البابا، دام ساعتين وأصغى خلاله، الحبر الأعظم، إلى ضيفته، بانتباهٍ وعطفٍ شديدين. ومع ما عُهد عن السيّدة ساخاروف من قوّة الشكيمة، إلاّ أنّها خرجت من ذلك اللقاء، باكيةً تأثّرًا، معلنةً: «هذا هو أروع رجلٍ قابلته في حياتي. إنّه نبع نور!».

وفي شهر شباط من عام ١٩٨٩، التقى يوحنّا بولس الثاني السيّد والسيّدة ساخاروف، على مدى ساعتين، بعد أن أوعز إلى معاونيه بمنع أيّ اتّصالٍ به خلال هذا اللقاء. وكان الزعيم الروسيّ، آنذاك، ميخائيل غوربتشيف، يقدّر أرفع تقديرٍ العالِم والمناضل ساخاروف، الذي أظهره استطلاع رأيٍ، أُجري، في تلك السنة، بصفة الرجل الأكثر جدارةً بالثقة والاحترام في تاريخ روسيّا.

فحرّضه غوربتشيف على الترشّح لمجلس الدوما (البرلمان الروسيّ)، كي يلعب دورًا فاعلاً في حياة وطنه السياسيّة. وكان ساخاروف ممزّقًا بين خيارَيْن: لعب دورٍ مؤثّرٍ في سياسة وطنه، والخشية من أن يُعَدّ لعبه لهذا الدور، بمثابة صكّ براءةٍ لغوربتشيف، وتأييدٍ للنظام. وعندما التقى البابا، قالت له زوجته: «هذا هو المكان الوحيد، حيث يمكن طرح الموضوع الذي يؤرّقك». وبعد برهة تفكيرٍ، بسط ساخاروف الأمر الذي يحيّره بين يدي الحبر الأعظم، وسأل: إن قبلت هذا العرض، فهل سأتمكّن من تطوير وضع روسيّا نحو الأفضل، أو أكون قد أوديت بذاتي إلى ورطةٍ؟». وكانت تلك هي المرّة الأولى، منذ بدء كفاحه البطوليّ، التي يكشف فيها مكنونات نفسه لآخر. وإثر لحظات صمتٍ وتفكيرٍ، أجابه البابا، وكأنّه في كرسيّ اعترافٍ: «إنّ ضميرك واضحٌ ومنيعٌ، وإنّي موقنٌ أنّك لن ترتكب خطأً... أظنّ أنّك ستكون نافعًا لوطنك». هذا النَصح بدّد هواجس العالم المناضل، الذي عاد إلى الاتّحاد السوڤييتيّ، وانتُخب في مجلس الدوما، حيث أصبح روح الحركة الإصلاحيّة.

في هذه الأثناء، كان قد حُدِّد شهر حزيران ١٩٨٨، موعدًا للاحتفال بالذكرى الألفيّة لعماد السلاڤيّين الشرقيّين، وأوقعت هذه المناسبة يوحنّا بولس الثاني في حرجٍ. فقد كانت كلٌّ من الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة، والكنيسة الكاثوليكيّة اليونانيّة الأوكرانيّة، تدّعي أُبوّة هذا الحدث. وكانتا كلتاهما محقّتين. غير أنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة لم تعترف، يومًا، رسميًّا، بوجود كنيسةٍ كاثوليكيّةٍ يونانيّةٍ في أوكرانيا. وجاء حلّ عقدة هذا الإشكال من قِبَل بطريرك موسكو، الذي أعلن أنّ يوحنّا بولس الثاني غير مرحّبٍ به في موسكو. ومع ذلك، أصدر يوحنّا بولس الثاني، في ١٩٨٨/١/٢٥، رسالةً «نحو العالم أجمع...»، شكر فيها لله نعمة عماد روسيّا في كييف. ونُشرت هذه الرسالة في شهر آذار. وفي شهر نيسان وجّه رسالةً أُخرى بعنوان «نعمة العماد الكبرى». إلى الكردينال «ميروسلاف لوباشيڤسكي» رئيس أساقفة كييف، وإلى جميع كاثوليكيّي أوكرانيا، شاكرًا لهم مساهمتهم البطوليّة في إيمانهم الألفيّ، ومتمنّيًا حلول اليوم الذي يتمكّنون فيه من ممارسة شعائرهم علنًا.

وحرص يوحنّا بولس الثاني على الاحتفال بتلك المناسبة، فأقام قدّاسًا في كاتدرائيّة القدّيس بطرس، زفّ، في أثنائه، قبلة المحبّة والسلام إلى «الكنيسة الأخت»، كنيسة بطريرك موسكو، التي اضطلعت بقسطٍ كبيرٍ من الإرث المسيحيّ على أرض روسيّا؛ وبذلك جعل من تلك الذكرى الألفيّة حدَثًا عظيمًا، عامًّا، دوليًّا، وأضفى عليه طابعًا إعلاميًّا واسعًا، كانت الحكومة الروسيّة قد أغفلته. ولم يعُد للحكومة الروسيّة مفرٌّ من الاعتراف بأنّ عماد روسيّا، الذي تمّ لألف سنةٍ خلت، كان حدَثًا بالغ الشأن، وقرّرت الاحتفال به، رسميًّا، في مسرح بولشوي في موسكو، يوم العاشر من حزيران ١٩٨٨.

وألّف يوحنّا بولس الثاني وفدًا هامًّا للمشاركة في هذا الاحتفال، ضمّ كبار المسؤولين في دوائر الڤاتيكان، وكرادلةً وأساقفةً من دولٍ عديدةٍ. وزوّد الكردينال «كازارولّي»، الذي كان يتولّى مهامّ وزير خارجيّة الڤاتيكان، برسالةٍ شخصيّةٍ، كي تسلّم باليد إلى «غوربتشيف»، يُعرب فيها عن تمنّيه بأن يحظى الكاثوليكيّون في الاتّحاد السوڤييتيّ، والمسيحيّون عامّةً، بمعاملةٍ عادلةٍ، وفق حقوق الإنسان. وأرفق هذه الرسالة بمذكّرةٍ تناولت مجمل المواضيع العالقة بين الڤاتيكان والكرملن، والتي تحتاج إلى حلٍّ وتسويةٍ. وحاول غوربتشيف إشاعة جوٍّ من الارتياح على لقائه بوفد الڤاتيكان، مطمئنًا الكردينال كازارولّي أنّ وزير خارجيّة الكرملن، «شيڤرنازي»، قد عُمّد، هو أيضًا، في طفولته. واطّلع على رسالة البابا، بحضور الوفد، ولكنّه لم يردّ عليها إلاّ بعد أربعة عشر شهرًا، فأيّد معظم آراء البابا، ورجا التوصّل، بين الجانبيْن، إلى قاعدةٍ تنهض عليها علاقاتٌ من نمطٍ جديدٍ بينهما.

وكان البابا قد طالب بأن يتاح لوفده لقاء رؤساء الكنيسة اليونانيّة الأوكرانيّة، ووافق الروس على مضضٍ، وتمّ اللقاء فعلاً.

وفي شهر تمّوز، التالي، شارك الحبر الأعظم، في قدّاسين أقامهما الأوكرانيّون الكاثوليكيّون، بمناسبة اختتام اليوبيل الألفيّ، في روما؛ وفي كليهما وعظ وجدّد مطالبته بالحرّيّة الكاملة للكنيسة الأوكرانيّة، متمنّيًا أن يجعل العماد الذي تمّ منذ ألف عامٍ، الأوكرانيّين والروس أعضاء كنيسةٍ واحدةٍ.

مهامّ كنسيّة سبقت عطلته الصيفيّة

في التاسع عشر من حزيران ١٩٨٨، طوّب يوحنّا بولس الثاني مئةً وسبعة عشر شهيدًا ڤيتناميًّا؛ ثمّ قام بزيارةٍ رسوليّةٍ إلى النمسا، دامت أربعة أيّامٍ بين ٢٣ و٢٧ حزيران، وأطلق نداءً نابضًا إلى السلام في مدينة «موتهوزن» (Mauthausen). ولدى عودته إلى روما، عقد مجمع الكرادلة الرابع في عهده، وعيّن أربعةً وعشرين كردينالاً جديدًا. وفي الثلاثين من حزيران، اضطلع بمهمّةٍ كانت له مصدر حزنٍ عميقٍ، إذ اضطرّ إلى إعلان حرم الأُسقف الفرنسيّ «لوفيڤر» (Lefebvre)، الذي رفض كلّ تجديدٍ أقرّه المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، وتزعّم جماعةً من أتباعه، ودأب على رسم أساقفةٍ وكهنةٍ يشاطرونه موقفه، معارضًا أوامر البابا، وأغلق الباب دون كلّ دعوةٍ إلى الحوار والتفاهم، قام بها الكردينال «رتسنغر» وآخرون.

وأخيرًا بين ١٣ و٢٢ تمّوز، نعم البابا بعطلته الصيفيّة، على الجبال الإيطاليّة.

رسالة رسوليّة: «كرامة المرأة»

في الخامس عشر من آب، احتفل البابا باختتام السنة المريميّة، وبهذه المناسبة أعلن عن يقينه بانتصار العذراء، في نهاية المطاف، لأنّ «التنّين ليس أقوى من الجمال». وأصدر رسالةً رسوليّةً بعنوان «كرامة المرأة» (Mulieris dignitatem)، وضمّنها عصارة تأمّلاته في العذراء، وفي دور المرأة.

عن العذراء أعلن أنّها هي طليعة تلاميذ يسوع، فهي بتقبّلها بشارة الملاك، مكّنت ابن الله من التجسّد، الذي شملت آثاره الكنيسة جمعاء، جسد يسوع السرّيّ. وكان انتقالها إلى السماء صورةً مسبّقةً لتمجيد جميع المخلّصين. ومن ثمّ فإنّ مريم، التي اقتادها خضوعها لمشيئة الله، من المحبّة إلى القداسة، تعكس صورةً أمينةً للكنيسة، ولسلوك شعبها النموذجيّ، ولمصير تلاميذها. واستشهد البابا بقول اللاهوتيّ «هنس أورس ڤون بلتازار»: «إنّ مريم هي ملكة الرسل، ولكنّها لا تدّعي السلطة الرسوليّة، إذ إنّ لها سلطاتٍ أُخرى أجلّ شأنا».

وأشار إلى تكريم الأرثوذكسيّين للعذراء، وتمنّى أن يكون هذا التكريم الذي يشاطرهم إيّاه الكاثوليكيّون، دربًا إلى الوحدة، على حدّ قوله: «**علامَ لا نعدّها أُمّنا المشتركة، التي تدعو إلى وحدة أُسرة الله، والتي تتقدّمنا جميعًا، على رأس سلسلةٍ طويلةٍ من شهود الإيمان في الله الواحد؟**». فبصفتها أمّ الكنيسة، على جميع المسيحيّين أن يعتمدوا عليها اعتمادًا بنويًّا، وأن يستقبلوا أمّ يسوع في بيوتهم الخاصّة، وفي حياتهم الروحيّة.

ورأى قداسته أنّ لمريم شأنًا هامًّا للنساء على نحوٍ خاصٍّ. فهي «**سكبت النور على الأنوثة، بحدّ ذاتها، إذ إنّ الله، في فعل تجسّده السامي، قد لجأ إلى خدمةٍ كهنوتيّةٍ من قِبَل امرأة، خدمةٍ حرّةٍ وفاعلة**»، ومن ثمّ فهي المثال للنساء الصابيات إلى أن «**يكتشفنَ فيها سرّ أُنوثتهنّ، وعيشها بكرامةٍ، وتحقيق ذواتهنّ تحقيقًا كاملاً**».

وذكّر يوحنّا بولس الثاني بأنّ الله قد خلق البشر، رجالاً ونساءً، على صورته، وأنّ المسيح خلّصنا رجالاً ونساءً. وفي مركز الفعل الخلاصيّ وُجدت امرأةٌ، وهي، بقولها، «نَعَم» لمشيئة الله، اتّحدت به اتّحادًا تخطّى كلّ توقّعات الذهن البشريّ. وبالتالي، فإنّ مكانتها في مهمّة المسيح الخلاصيّة تؤكّد جوهر الكرامة الإنسانيّة، الكامنة في بذل الذات الكلّيّ، لا في تأكيد الذات، أو في مطالباتٍ استقلاليّةٍ.

في البدء، خلق الله الرجال والنساء متساوين، متشاركين. ولكنّ الخطيئة هي التي حطّمت هذه الشراكة، التي كانت أساس المساواة. ومن ثمّ فإنّ تحرير المرأة ينبغي أن يفضي إلى إعادة الشراكة، وبذل الذات الحرّ والمتبادل، والوحدة الأصليّة التي أرادها الله، وحدةٍ ومساواةٍ في التنوّع، وليس في السيطرة الذكوريّة.

وأكّد البابا أنّ «**الإنجيل المسيحيّ هو صرخة اعتراضٍ على كلّ ما ينتهك كرامة النساء، وأنّ الحبّ المجرّد من الغاية الذي دعا إليه يسوع، والذي عاشته النسوة اللواتي التقاهنّ، حرّرهنّ، ولذلك واكبنَه، في كلّ مسيرته، وحتّى الجلجلة، في حين توارى تلاميذه أنفسهم. وكان وفاء أولئك النسوة دليلاً على أنّ الرجال والنساء متساوون في القدرة على «تقبّل نفحة الحقيقة الإلهيّة، ومحبّة الروح القدس**».

وبشأن الأمومة قال إنّها ليست مجرّد أمرٍ بيولوجيٍّ، بل هي واقعٌ أخلاقيٌّ، ينطوي على مغزًى دينيٍّ عميقٍ. فمن خلال الأُمومة، نالت البشريّة مخلّصها، و«**كلّما تكرّرت الأُمومة في التاريخ البشريّ، تكون مرتبطةً بالتزام الله تجاه الجنس البشريّ، من خلال أُمومة مريم**».

وأوضح أنّ الزواج المسيحيّ، ينبغي أن يكون انعكاسًا لوحدة المسيح بالكنيسة التي وهبها حياته. وفسّر قول الرسول بولس وجوب خضوع النساء لرجالهنّ، وواجب الرجال بحبّ نسائهم، بأنّ الخضوع يجب أن يُفهم متبادلاً، في الاحترام المتوجّب للمسيح، وليس خضوعًا من طرفٍ واحدٍ. وكذلك ينبغي أن يكون الحبّ. وكان بولس الرسول قد قال إنّ كبرى فضائل المرأة هي الحبّ، ويوحنّا بولس الثاني أضاف أنّ المرأة، في مخطّطات الله، هي الكائن الذي يغرس فيه نظام الحبّ جذوره. وبما أنّ الحبّ هو ديناميّة حياة الله، فإنّ خبرة النساء ترتدي كرامةً فريدةً، تقاس بنظام الحبّ، الذي هو نظام عدلٍ ومحبّةٍ. وهذه المحبّة تتجلّى من خلال إيكال الله الكائنَ البشريّ إلى المرأة.

كان بَدَهيًّا ألاّ تلقى نظرة يوحنّا بولس الثاني هذه، موافقة الجميع، غير أنّ المراقبين الحياديّين يرون أنّه ليس من اليسير تخيّل مفهومٍ لوظيفة التلميذ المسيحيّ – رجلاً كان أو امرأةً – أكثر أصالةً واقتضاءً ممّا ورد في هذه الرسالة.

ولا بدّ من التنويه، في هذا السياق، بموقف يوحنّا بولس الثاني، عمومًا، من المرأة؛ فقد كان متحرّرًا من كلّ عقدةٍ. في مطلع شبابه شارك فتياتٍ خشبة المسرح، وعقد مع بعضهنّ صداقاتٍ طاهرةً، منزّهةً من كلّ ميوعةٍ وابتذالٍ، يسودها الخفَر والاحترام المتبادل. وفي أثناء رعايته الكهنوتيّة والأُسقفيّة، واكب شبّانًا وشابّاتٍ وأزواجًا، وألمّ بعلاقاتهم، وكان لهم خير المرشدين، وأوفرهم سداد حكمٍ.

وفي حبريّته لم يتخلَّ عن سلوكه الطبيعيّ مع النساء والفتيات. وربّما أدهشت بعض مواقفه المتزمّتين. فعام ١٩٨٥، كان على موعدٍ مع ثلاثة عشر ألف شابٍّ وشابّةٍ، وقد رحّبت به، باسمهم، فتاةٌ إيطاليّةٌ. وعندما أنهت كلمتها أحاط

وجهها براحتيه، وقبّل جبينها، ثمّ انحنت أمام رئيس الأساقفة، فمدّ لها يده، كي تقبّل خاتمه الراعويّ، وهو عابسٌ.

وفي سيدني، عام ١٩٨٦، وُجد البابا وسط شبابٍ فرحين متشابكي الأيدي، وقد أحاطت به فتاةٌ من كلّ جانبٍ، فأخذ بيد كلٍّ منهما وغنّى معهما.

وفي صباح يومٍ من عام ١٩٨٧ ظهر عند شرفة مقرّه في الڤاتيكان، وإلى جانبه فتاةٌ مكلّفةٌ بتبليغ رسالةٍ إلى شبّان العمل المسيحيّ، وقال، مازحًا: «**لا ريب أنّ هذه هي المرّة الأولى التي تظهر فيها فتاةٌ، على هذه الشرفة!**».

وقد استشارته، يومًا، كاتبةٌ إيطاليّةٌ، بشأن كتابٍ كانت عازمةً على تأليفه، فقال: «**إنّي أومن بعبقريّة النساء. فحتّى في أكثر الحقب ظلامًا، كانت تتجلّى هذه العبقريّة. إنّ المرأة هي رافعة التقدّم البشريّ، ورافعة التاريخ**».

من أقواله: «**في صغري كان القوم يحترمون المرأة أرفع احترام**». وقد ندّد بإرغام الأنظمة الشموليّة النساءَ على العمل قسرًا، لإيمانه بأولويّة الأُسرة على العمل. وكان يؤمن بمساواة المرأة والرجل في «الكرامة والمسؤوليّة»، ولكنّه، في الآن عينه، كان يؤمن أنّ تحرير المرأة الحقّ يقتضي الاعتراف الصريح بدورها الأُموميّ والأُسرويّ، الذي يفوق كلّ دورٍ في الحياة العامّة والمهنيّة. وانطلاقًا من هذا الإيمان، طالب بمنح المرأة التي تكرّس كلّ وقتها لأبنائها ولأسرتها، راتبًا.

في رسالته، «كرامة المرأة»، ندّد بكلّ أنواع سيطرة الرجل على المرأة، لأنّها مخالفةٌ لمشيئة الله. وفي حملته على الإجهاض، الذي كان يعتبره خطيئةً جسيمةً، كان يعدّ أنّ مسؤوليّة الإجهاض تقع، في المقام الأوّل، على الرجل الجبان، اللامسؤول، الذي يعتبر المرأة أداة متعةٍ، فحسب.

وعام ١٩٩٥، بمناسبة سنة المرأة، دبّج رسالةً إلى النساء، جاء فيها: «شكرًا لك أيّتها المرأة، لمجرّد كونك امرأةً». وندّد بالنزعة إلى الحكم على المرأة من خلال منظرها وشكلها، أكثر من كفاءتها، ونشاطها الفكريّ، وقيمتها المهنيّة، وإحساسها، وبالإجمال، كرامتها الذاتيّة.

هذه المبادئ دافع عنها بحزمٍ وجرأةٍ، في كلّ مناسبةٍ، ولا سيّما في المؤتمرَين الدوليَّيْن المتعلّقَين بالمرأة، في القاهرة وفي بكّين، اللذين سنتطرّق إليهما لاحقًا.

ومع ذلك، لم يكن يتردّد في الجهر بما يؤمن به، ولو أدّى ذلك إلى استعداء فئاتٍ واسعةٍ من النساء، ولا سيّما في ما يتعلّق بموقفه من كهنوت النساء.

فهو كان رجل مبادئ، ولم يسعَ، قطّ، إلى شعبيّةٍ رخيصةٍ.

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى بلدانٍ في جنوب أفريقيا

بين العاشر والتاسع عشر من شهر أيلول ١٩٨٨، قام يوحنّا بولس الثاني برحلته الرسوليّة التاسعة والثلاثين، وكانت الرابعة إلى أفريقيا، وشملت بلدانًا في جنوب أفريقيا: زيمبابوي، وبوستوانيا، وليزوتو، والموزامبيق، وسوازيلاند. واستهدفت إدانة التمييز العنصريّ، الذي كانت تمارسه السلطات الاستعماريّة في تلك البقعة من العالم، وتموّلها حكومة جوهنسبورغ، وما تنتجه هذه السياسة من فقرٍ وإذلالٍ لأهل البلاد الأصليّين.

في بوستوانيا، ذكّر الحبر الأعظم ببيان مؤتمر الأساقفة، الذي كان قد صرّح أنّ «**التمييز العنصريّ - الأپارتهَيد - هو في طليعة أسباب الفوضى والآلام في أفريقيا الجنوبيّة، ومصدر كلّ ضروب القمع**».

في الموزامبيق، كانت العصابات المسلّحة تمعن قتلاً ونهبًا، بتشجيعٍ من سلطات جوهنسبورغ، في حين كان ملايين المواطنين ينفقون جوعًا ومتربةً.

وفي ليزوتو، اختطف إرهابيّون راهباتٍ وأولادًا كانوا في طريقهم إلى استقبال البابا. وهناك زار البابا مستشفًى، حيث واسى المرضى وباركهم، وصلّى من أجل الموتى. وفي ليزوتو، أيضًا، طوّب، يوم ١٩٨٨/٩/١٥، المرسل الفرنسيّ «جوزيف جيرار»، الذي أمضى اثنين وخمسين عامًا، في تلك البلاد، (بين ١٨٦٢ و١٩١٤)، وأسّس رسالاتٍ عديدةً، وتميّز بعطفه على المرضى، وباهتمامه بالثقافات والتقاليد المحلّيّة. وما زال يُكرّم، هناك، بصفته «أبا العجائب». وقد

أوضح البابا، في هذا السياق، أنّ الأفريقيّين يكرّمون المرسلين، ويطالبون، دائمًا، بالمزيد منهم.

وفي الطائرة التي أقلّته، أدلى الحبر الأعظم للصحافيّين بتصريحاتٍ، شدّد فيها على التنديد بالتمييز العنصريّ، ولاحظ أنّ تردّي الأوضاع، في تلك البلدان، ماضٍ باطّرادٍ، ويرتدي طابعًا كارثيًّا. ولكن، بالمقابل، كلّما تأزّمت الأمور، تزداد الكنيسة حيويّةً وديناميّةً، لأنّها كنيسة الفقراء؛ وذكّر بما جاء في رسالته العامّة عن «الشؤون الاجتماعيّة».

ومع نأيه عن السياسة، بالمعنى الرائج للسياسة، لم يتوانَ عن المطالبة بالعدالة الاجتماعيّة في أفريقيا الجنوبيّة، لأنّ هذه المطالبة هي واجبٌ أخلاقيٌّ، لا يسعه التواني عنه، ولأنّه لا يجوز السكوت عن منح الحقوق أو حجبها، على أساسٍ عنصريٍّ. وبهذه المناسبة، أدان النزعة إلى اعتماد العهد القديم مبرّرًا للتمييز العنصريّ، في حين أنّ العهد الجديد يدعو إلى المساواة بين جميع البشر، أيّةً كانت إثنيّاتهم وألوانهم.

وأكّد الباب عزمه على المطالبة بالإفراج عن بطل الدفاع عن الأفريقيّين السود، نيلسون مانديلاّ، كما شدّد على إيمانه بواجب الحؤول دون نشوب الحروب الأهليّة.

ومن أقواله، في هذه المناسبة، أنّ الرجاء ينمو في رَحم الآلام.

خطابٌ أوروبّيّ في «ستراسبورغ»

عُهِد عن يوحنّا بولس الثاني معارضته الدائمة والعنيدة لتقسيم أوروبّا، الذي كان يعدّه مصطنعًا وزائفًا. وبالتالي فهو رأى في قيام الاتّحاد الأوروبّيّ، خطوةً نحو تصحيح ذلك الخطأ. ولكنّه كان يرى أنّ هذا الاتّحاد، الذي قام على أُسسٍ اقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ، قد أغفل روحه وجوهره، وتاريخه الذي صاغته الحضارة المسيحيّة. ولطالما كان إغفال هذا الروح، والنأي عنه لدى الدول الأوروبّيّة، سبب حروبٍ وويلاتٍ، فلا بدّ من العودة إليه والتشبّث به.

ويوم ١١/١٠/١٩٨٨، ألقى خطابًا في قصر أوروبّا في ستراسبورغ، اعترف فيه أنّ أعداء الأمس تصالحوا، وأضحت حقوق الإنسان والديمقراطيّة، جزءًا من الميثاق الجديد الذي يربط بين هذه الدول. بيد أنّ كلّ هذه الإنجازات لا تمسّ سوى سطح المشكلة، إذ لا بدّ لأوروبّا من الإكباب على «علامة الأزمنة» الثالثة، العلامة الروحيّة، ولا غنى لها عن بحثها عن روحها، بحثًا أكثر كثافةً، واكتشاف ينابيع وحدتها في التعدّد، وبالإجمال ممارسة كلّ دولةٍ حقّها في الاغتناء من مواطن اختلافها مع الدول الأُخرى.

وأكّد الحبر الأعظم أنّ الوقت قد حان للانعتاق من عواقب مؤتمر يالطا الذي قسّم أوروبّا إلى غربيّةٍ وشرقيّةٍ، كي تبلغ أوروبّا، يومًا، ملء حجمها، الذي توفّره لها الجغرافيا، ويوفّره، إلى مدًى أوسع، التاريخ. وأحد عناصر التاريخ هو الإيمان المسيحيّ، الذي طبع، بعمقٍ، حياة شعوب أوروبّا، اليونانيّين واللاتينيّين، والجرمانيّين والسلافيّين. فجميعهم أكبّوا على بحث سرّ الحياة والمصير البشريّ، الذي اقتادهم إلى الله. فهل يُعقَل، على عتبة الألفيّة الثالثة، أن تتجرّد أوروبّا الجديدة عن هذا البعد، فائق الطبيعة؟ وإنّما ادّعاء أنّه حسْب أوروبّا الاقتصار على الأدوات الاقتصاديّة والحقوقيّة والسياسيّة، محض وهمٍ!

فعلى أوروبّا الحديثة أن تختار بين نزعة «الخضوع لله»، بصفته منبع الحرّيّة الحقّة، حرّيّةٍ من أجل الحقيقة والخير، ونزعةٍ أُخرى تُنكر بُعد الإنسان فائق الطبيعة، وتعتبر الدين استلابًا، والحرّيّة استقلالاً جوهريًّا فرديًّا. وندّد البابا بالمتطرّفين، أيًّا كان اتّجاههم. وذكّر بقول الربّ: «ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، كي تظلّ نفس كلّ إنسانٍ هيكلاً للضمير، لا قدرة للسلطة الزمنيّة على التسلّل إليه. وأوضح أنّ ما أُلحق بأوروبّا من دمارٍ، في القرن العشرين، لم يكن بفعل الإرث المسيحيّ الروحيّ، بل نتيجة التخلّي عنه، وبدافع إيديولوجياتٍ امتهنت الكائن البشريّ وحرّيّته. وألمح إلى أنّ أخطر مهامّ أوروبّا الغد، هو أن تكون «منارة حضارةٍ جديدةٍ»، ومصالحة البشريّة مع الطبيعة، ومصالحة الشعوب ما بينها، بدءًا بمصالحة الإنسان مع ذاته، بنبذ ثقافات الريبة وتشويه الإنسانيّة، وخلق رؤيةٍ للمستقبل البشريّ، حيث العلم، والخبرة التقنيّة، والفنّ، لا تتعارض

مع الإيمان بالله، بل تجعل هذا الإيمان يتجلّى. وتمنّى أن تبقى الأنسنة التي وُلدت من تعاليم الكتاب المقدّس، والتي كوّنت إرث أوروبّا التاريخيّ، الضمانة المثلى لهويّتها، وحرّيّتها، وتقدّمها.

ربّما اتّهم بعضهم يوحنّا بولس الثاني، بأنّه كان يحيا خارج إطار زمنه. وكانوا محقّين، فهو كان يحيا بالروح، في حقبةٍ قشيبةٍ يتطلّع إليها، ويجاهد في سبيلها، ويتمنّى أن تكون أكثر التزامًا بالإنجيل، ومن ثمّ أوفر إنسانيّةً.

الاتّحاد السوفييتيّ يتهاوى

منذ شهر نيسان ١٩٨٨، بدأ انهيار الاتّحاد السوفييتيّ، وأخذت الدول الخاضعة عنوةً، لقبضته، تفلت من سطوته.

ففي أيّار من ذلك العام، اعترف غورباتشيف بدور المسيحيّة في التاريخ الوطنيّ، وأوصى بإصدار قوانين جديدةٍ تراعي حرّيّة الضمير، وتستجيب لهواجس المؤمنين.

وفي شهر آب، طالبت الدول البلطيقيّة: ليتوانيا، وليتونيا، وإيستونيا، بانسلاخها عن الاتّحاد السوفييتيّ.

أمّا في پولونيا، فقد تفاقم الوضع سوءًا، منذ نيسان ١٩٨٨، وشلّت إضرابات العمّال البلادَ، مطالبةً بإعادة الشرعيّة لنقابة التضامن، حتّى اضطرّت السلطات إلى الاستعانة برئيس تلك النقابة «ليش ڤاليسّا». وفي ١٩٨٩/١/١٨، أعلن الجنرال ياروزلسكي نقابة «سوليدارنوش» نقابةً مستقلّةً. ومنذئذٍ، غدت هي مُحاوِر الحكم الوحيد. وفي ٦ شباط التالي، بدأت محادثات طاولةٍ مستديرةٍ، أفضت إلى عقد اتّفاقٍ، في ١٩٨٩/٤/٥، قضى بإجراء انتخاباتٍ حرّةٍ، جزئيًّا، إذ أُخضعت ٣٥٪ من المقاعد، فقط، للانتخاب الشعبيّ. وقدّمت نقابة التضامن ٢٦١ مرشّحًا، نشروا إعلاناتٍ حملت صور كلٍّ منهم، وهو يشدّ على يد «ليش ڤاليسّا»، وكتبت، تحتها، عبارة: «ينبغي أن ننجح». وتفتّقت حماقة الحكم عن

إقرار الانتخاب بطريقة الشطب، فوضعت قوائم تضمّ مرشّحيها ومرشّحي نقابة التضامن، وكان على المقترعين شطب الأسماء التي لا يؤيّدونها؛ وكانت تلك فرصةً طيّبةً للمواطنين كي يعبّروا عن رفضهم للنظام الشيوعيّ، فأعملوا الأقلام، بحماسٍ وبهجةٍ، في شطب أسماء جميع مرشّحي الحزب، الذي تحكّم بالبلاد على امتداد أربعين سنةً. شطبوها اسمًا، اسمًا. وهكذا وصل إلى البرلمان جميع مرشّحي نقابة التضامن التي احتلّت، إضافةً إلى ذلك، تسعين بالمئة من مقاعد مجلس الشيوخ. أمّا عن انتخاب رئيسٍ جديدٍ للبلاد، فكان العقد المبرم بين نقابة التضامن والنظام، ينصّ على امتناع ممثّلي تلك النقابة في البرلمان عن التصويت، من أجل تسهيل إعادة انتخاب الجنرال ياروزلسكي. وقد التزموا بهذا الاتّفاق، غير أنّ ياروزلسكي بات أسيرهم، وسرعان ما اتّضح له وللجميع، أنّ نقابة التضامن قد أمست هي الحاكم الفعليّ والوحيد لـپولونيا. وتجلّى ذلك عندما فشل مرشّح الحزب الشيوعيّ، الذي كلّفه ياروزلسكي بتأليف الحكومة، في مهمّته. فاضطرّ ياروزلسكي إلى إسناد هذه المهمّة، لأحد أبرز ناشطي نقابة التضامن، الذي كان قد سبق لياروزلسكي نفسه، أن أمر بسجنه. وشقّت پولونيا طريقها إلى الحرّيّة، في أسرع ممّا توقّع الجميع.

وفي هنغاريا، حيث كانت الدبّابات السوڤييتيّة قد سحقت الثورة، عام ١٩٥٦، وسحقت معها مئات ألوف العباد الأبرياء، أُقصي الزعيم «يانوش كادار»، وجهد خلفاؤه في اقتراح إصلاحاتٍ تخمد شغب الشعب.

وفي تشيكوسلوڤاكيا، كان الحكّام الشيوعيّون يكثّفون أعمال القمع، في سبيل الحفاظ على امتيازاتهم. ولكنّ فلاّحًا بسيطًا مؤمنًا، يدعى «أوغستان ناڤراتيل»، كان ما انفكّ ينظّم عرائض شعبيّةً، للمطالبة بالحرّيّة الدينيّة، منذ عام ١٩٧٦. وكان النظام قد عدّه مختلّ العقل، وأودعه مصحّةً نفسيّةً، مرّتيْن. ولكنّه، إثر قيام الحكومة بنزع الصلبان والهياكل، من قارعات طُرُق الريف، هبّ للنضال مجدّدًا، ووسّع آفاق مطالباته، داعيًا إلى تسوية العلاقات بين الكنيسة والدولة، كما ينبغي أن تكون في دولةٍ حرّةٍ، وإلى حرّيّة الكلام والنشر، وإلى الحرّيّات

الأساسيّة، كافّةً. وسرعان ما ارتدت عريضته صفة استفتاءٍ وطنيٍّ، فتهافت على توقيعها، بين عامي ١٩٨٨ و١٩٨٩، ألوف المواطنين، وقد جاورت تواقيع ملحدين وپروتستانتيّين، تواقيع كاثوليكيّين. وحظيت تلك العريضة بدعمٍ صريحٍ من الكردينال «توماسيك»، الذي حرّض المؤمنين على مهرها بتواقيعهم، لأنّ «**الجبن والخوف لا يليقان بمسيحيٍّ حقٍّ**». وبالتالي، تخطّى عدد التواقيع على العريضة، ستّ مئة ألف توقيعٍ، وأخذ الهلع بالحكّام، فلجأوا إلى القمع العنيف، وأودعوا «أوغستان ناڤراتيل»، ثانيةً، مصحّةً عقليّةً. واعتقلوا الشاعر، والمؤلّف المسرحيّ، المناضل عن حقوق الإنسان، «ڤاكلاڤ هاڤيل»، وحكموا عليه بالسجن تسعة أشهر. ويوم ٢٥ آذار ١٩٨٩، الموافق ليوم الجمعة العظيمة، طافت شوارع «پراتسلاڤا»، عاصمة سلوڤاكيا، مظاهراتٌ سلميّةٌ حاشدةٌ، حمل فيها المتظاهرون الشموع المضاءة، فقوبلوا بخراطيم المياه، والكلاب الشرسة والهراوات، والغاز المسيل للدموع. وخُيِّل للنظام أنّه، بهذه التدابير القمعيّة، سيرهب المعارضين، وسيدفن المعارضة. غير أنّ حماقته أدّت، في الواقع، إلى ما سُمّي مأساة «ثورة المخمل»، التي سجّلها التاريخ.

بالإجمال، كانت البذور التي نثرها يوحنّا بولس الثاني، في أوروپّا الشرقيّة والوسطى، تنمو نحو النور، وتزهو.

رحلةٌ خامسةٌ إلى أفريقيا

استهلّ يوحنّا بولس الثاني العام ١٩٨٩، بإصداره، في ١٩٨٩/١/٣٠، إرشادًا رسوليًّا عن مهمّة العلمانيّين في الكنيسة، أطلق عليه عنوان «Christi fidelis laici».

وفي السادس من شباط، التقى العالم الروسيّ المناضل في حقل حقوق الإنسان، »أندريه ساخاروف». ثمّ، بين الثامن والحادي عشر من شباط، التقى أعضاء مجلس الأساقفة الأميركيّين، وتناقش معهم في قضيّة التبشير بالإنجيل في الولايات المتّحدة.

في ١٤ آذار، خاطب تجمّعًا شبابيًّا في روما. وفي العشرين من نيسان، استقبل «ليش ڤاليسّا»، رئيس نقابة «سوليدارنوش» الپولونيّة، التي اضطرّت الحكومة الشيوعيّة إلى الاعتراف بشرعيّتها.

ثمّ أطلق نداءاتٍ حارّةً ونابضةً من أجل إحلال السلام في لبنان.

وبعد أن أكمل حلّ بعض قضايا الڤاتيكان الداخليّة، باشر رحلته الرسوليّة الحادية والأربعين، وكانت الخامسة إلى أفريقيا، امتدّت من ٤/٢٨ حتّى ١٩٨٩/٥/٦، وزار، خلالها، مدغشكر، وجزر الريئونيون، وزامبيا، والملاوي.

في مدغشكر، طوّب الحبر الأعظم، بحضور جمهورٍ من نصف مليون مؤمنٍ، أوّل قدّيسةٍ علمانيّةٍ أفريقيّةٍ، من تناناريف، اسمها «ڤيكتوار رازوأمارناريڤو» (Rasoamarnarivo) (١٨٤٨–١٨٩٤)، التي كانت ربّة أُسرةٍ، ولكنّها أضحت، نوعًا ما، أُمّ مؤمنين، إذ إنّها واصلت التبشير بالإنجيل عقب طرد المرسلين من البلاد، فاستحقّت لقب «أُم المسيحيّة في مدغشكر».

وفي الثاني من أيّار، طوّب، في جزيرة «ريئونيون»، مبشّر الجزيرة، الأخ «سكوبيليون» (Scubilion)، من جمعيّة إخوة المدارس المسيحيّة (١٧٩٧–١٨٦٧) الذي كافح العبوديّة ببسالةٍ. وردًّا على سؤال صحافيٍّ عن صوابيّة الاستفاضة في تطويب قدّيسين، أجاب أنّه ليس هو من يأخذ مبادرة التطويبات، بل إنّ الروح القدس هو الذي يقترحها، بإرساله إشاراتٍ، وما التطويب سوى الاستجابة لتلك الإشارات.

ثمّ احتفل بذكرى تبشير زامبيا. وفي أثناء صلاةٍ مسكونيّةٍ، أُقيمت في الكاتدرائيّة الأنغليكانيّة، حذّر الأنغليكانيّين والكاثوليكيّين، من كلّ ضروب التنافس والصراع في ميدان التبشير بالإنجيل.

وفي ملاوي دعا المسيحيّين والمسلمين إلى التحاور، ودعا الكاثوليكيّين الأفارقة إلى انتباذ كلّ أسلوب عيشٍ لا يتوافق مع تقاليدهم المحلّيّة العريقة... ومع إيمانهم المسيحيّ. وحذّر من كلّ الممارسات التي قد تفضي إلى آفة الإيدز، التي كان نحو عشرين بالمئة من أهالي تلك البلاد من ضحاياها.

وبما أنّ تلك البلدان الأفريقيّة كانت قد نالت استقلالها، حديثًا، بعد استعمارٍ طويلٍ، فقد شدّد البابا، في خطاباته، على القضايا الاجتماعيّة، وحذّر من الوقوع في شرك النزعة الاستهلاكيّة، كما حذّر من مغبّات الاستدانة على النموّ الاقتصاديّ، فقد كان يسكنه همّ مستقبل أفريقيا الاقتصاديّ.

رحلةٌ إلى سكاندينافيا

ما كاد يوحنّا بولس الثاني يرتاح من رحلته الأفريقيّة، حتّى انطلق، في العاشر من حزيران، إلى رحلة أُخرى إلى الدول السكندينافيّة، لم يسبقه إلى مثلها أيّ حبرٍ أعظم آخر. وكانت تلك أطول رحلةٍ أوروبّيّة قام بها، اجتاز، في أثنائها، نحو ثمانية آلاف كيلومترٍ، وزار خلالها، النرويج التي تضمّ أقلّ من نصفٍ بالمئة من الكاثوليكيّين، وإيسلندا وفنلندا، اللتين تضمّان أقلّ من واحدٍ بالمئة منهم، والدانمرك والسويد اللتين تضمّان زهاء ١٤،١٪ من الكاثوليكيّين.

من المعروف أنّ سكّان تلك البلدان يمارسون علمانيّةً قصوى، وأنّ نسبة الملتزمين بممارسة طقوسهم الدينيّة، تكاد لا تتعدّى ثلاثةً بالمئة. ومع ذلك، قابل البابا الملك أولاف الخامس في أوسلو، والملكة مرغريت الثانية في كوپنهاغن، واحتفل بقدّاسٍ في مدينة «أوپسالا» السويديّة، حضره نحو عشرة آلاف شخصٍ. وبما أنّ سكّان تلك البلدان يحيون، كلّ صيفٍ، يومًا كاملاً بلا ليلٍ، فقد دعاهم إلى أن يكونوا «أبناء النور».

في كاتدرائيّة كوپنهاغن اللوثيريّة، لم يؤذن له بالكلام؛ ولكنّه التقى مسؤولين لوثيريّين في مقرّ أحد الأساقفة، وحيّاهم، بصفتهم «إخوةً محترمين في المسيح».

وقد آتت هذه الزيارة ثمارها، يوم ١٩٩١/١٠/٥، عندما احتفل البابا، في كاتدرائيّة القدّيس بطرس بروما، بالذكرى المئويّة السادسة، لتطويب القدّيسة «بريجيت السويديّة»، التي يكرّمها اللوثيريّون والكاثوليكيّون على السواء. وقد شاركه الصلاة رئيسا أساقفة ستوكهولم وهلسنكي، الكاثوليكيّان، بحضور الملك كارل غوستاف، والملكة السويديّة «سيلڤيا»، التي تلت بنفسها، إحدى

الصلوات. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يصلّي فيها، معًا، مسؤولون كاثوليكيّون ولوثيريّون، في كاتدرائيّة القدّيس بطرس.

وفي اليوم التالي، أثناء الغداء، سأل أحد الأساقفة اللوثيريّين البابا، هل وقوف أُسقفين لوثيريّين معه أمام الهيكل، يعني اعترافه بوضعهما الكهنوتيّ، فأطرق البابا، لحظةً، ثمّ أجاب: «**يمكن، أيضًا، السؤال هل وجود هذين الأُسقفين إلى جانبي، يعني اعترافهما بأولويّتي؟**»، فأثار جوابه مرح الجميع.

يوم الشبيبة العالميّة في إسبانيا

بعد قضائه عطلةً امتدّت عشرة أيّامٍ على جبالٍ في شمال إيطاليا، وبعد إصداره إرشادًا رسوليًّا عن القدّيس يوسف، وإعلان رغبته في زيارة لبنان، انطلق يوحنّا بولس الثاني، يوم ١٩٨٩/٨/١٩، للمشاركة في أيّام الشبيبة العالميّة، التي جرت شمال غربيّ إسبانيا، في مزار «سان جاك دي كومپوستيل»، حيث يُعتقَد وجود رفات القدّيس يعقوب، الذي بشّر تلك البلاد، قبل استشهاده في أورشليم عام ٤٤؛ وكان ذلك المكان قد أمسى، في القرون الوسطى، أكثر أماكن الحجّ قصدًا، بعد أورشليم وروما. وقد غزا ذلك المكان، بمناسبة إقامة يوم الشبيبة العالميّ فيه، أكثر من ستّ مئة ألف شابٍّ وشابّةٍ، قدموا من كلّ أصقاع المعمورة: من أميركا، وآسيا، وأوقيانا، وأوروپّا، مستخدمين كلّ وسائل النقل من بواخر، وطائراتٍ، وحافلاتٍ، ودرّاجاتٍ هوائيّةٍ.

إلى ذلك الجمهور العالميّ، تحدّث يوحنّا بولس الثاني، مدى يومين، عن أوروپّا الجاهدة في استعادة إرثها المسيحيّ، وإعادة اكتشاف جذور ثقافتها، محرّضًا الجيل الجديد على تمعّن لفظة البطولة.

قضى الشباب ليلة ٢٠/١٩، آب على قمّة وسفح «جبل الفرح» (Monte de Gozo)، وشاركهم الأب الأقدس، مدى بضع ساعاتٍ، صلواتهم وإنشادهم. وفي الصباح، حدّثهم عمّا يمثّل، في نظره، عظمة الإنسان الحقيقيّة، مذكّرًا بحادثة الإنجيل، حيث التمست أمّ يعقوب ويوحنّا من يسوع، أن يولي ابنيها موقعَيْن مميّزَيْن على يمينه ويساره، فسأل يسوع التلميذين عن جاهزيّتهما لتجرّع

الكأس التي سيتجرّعها، هو، أي بذل حياتهما عن الآخرين، مثلما سيبذل، مؤكّدًا أنّ «**ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم، بل ليَخدُم، وليبذل ذاته فديةً عن كثيرين**».

كان ذاك هو الدرس الأهمّ الذي رغب البابا في تلقينه لأولئك الشبّان، الذين ذكّرهم، أيضًا، بقول يسوع: «**من أراد أن يكون فيكم كبيرًا، فليكن لكم خادمًا**»، مؤكّدًا أنّ هذا هو المعيار الأساسيّ لعظمة الإنسان. وبذلك دعا الشبيبة إلى نمط عيشٍ إنجيليٍّ كثير الاقتضاء، لا مكان فيه للرداءة، ولا يرتضي دون القداسة هدفًا. فالشباب يصبون إلى تغيير العالم الذي يعيشون فيه. وهذا الهدف لا يقوى على تحقيقه سوى قدّيسين، ولذلك أهاب بهم: «**لا تخافوا من أن تكونوا قدّيسين! هذه هي الحرّيّة التي من أجلها حرّرنا يسوع... فأيّها الشبّان الأعزّاء، دعوا يسوع يستحوذ عليكم!**».

وانتهز الحبر الأعظم تلك المناسبة للحجّ، أيضًا، إلى مزار «سيّدة كوڤا دونغا»، في شماليّ إسبانيا، وهناك أوكل «بكلّ ثقة» إلى أُمّ الله، مشروع أوروپّا بلا حدودٍ، لا تتنكّر لإنسانيّة إنجيل المسيح الأصيلة. ولدى عودته إلى روما، تحدّث عن أوروپّا الجديدة، التي لا تحتاج، فقط، إلى المصالحة بين خصوم الأمس، بل تقتضي نفسًا؛ وصوغ هذه النفس، هو مهمّة الشبيبة العالميّة.

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى الشرق الأقصى

عُقد المؤتمر الإفخارستيّ الرابع والأربعون في سيؤول، بكوريا الجنوبيّة، في شهر تشرين الأوّل ١٩٨٩. وفي السادس من ذلك الشهر، حطّ يوحنّا بولس الثاني رحاله في تلك العاصمة. وكانت تلك رحلته الخامسة إلى الشرق الأقصى، رحلةً اجتاز فيها نحو أربعين ألف كيلومترٍ، خلال أحد عشر يومًا.

وفي الطائرة التي كانت تقلّه، انتهج أسلوبًا جديدًا في التواصل مع الصحافيّين المرافقين، إذ عقد مؤتمرًا صحافيًّا رسميًّا بسط من خلاله، ما سمّاه «لاهوت التواصل»، وأجاب على بعض أسئلةٍ. وقد أهداه الصحافيّون قلم حبرٍ بمناسبة الذكرى العاشرة لاعتلائه السدّة البابويّة.

وقد ناشد الرئيس الكوريّ، عندما التقاه، أن يولي حمايةً كبرى لحقوق الإنسان، في ذلك البلد الثاني في آسيا، الذي يضمّ أغلبيّةً مسيحيّةً.

وفي اختتام المؤتمر القربانيّ، يوم الثامن من تشرين الأوّل، أقام الذبيحة الإلهيّة بمشاركة ٢٨٠ أسقفًا، و١٥٠٠ كاهنٍ، وبحضور جمهور فاق عدده مليون شخصٍ. وقد استهلّ عظته ببضع كلماتٍ باللّغة الكوريّة، ثمّ أوضح أنّ المشاركة في الإفخارستيّا تقتضي فعل مصالحةٍ «بين البشريّة الخاطئة وإله القداسة، وأعضاء الأسرة البشريّة». وذكّر بأنّ المسيحيّة، عندما دخلت كوريا، قبل قرنين، كانت قد أسّست مجتمعًا من نمطٍ جديدٍ، قوّض الحواجز الطبقيّة، وها إنّ مسيحيّي كوريا، اليوم، يواجهون انقسامًا مأسويًّا لوطنهم، وهم مدعوّون إلى السعي في سبيل المصالحة.

وعقب القدّاس الذي اختتم به زيارته إلى كوريا، وجّه رسالةً، باللغة الإنكليزيّة، حيّا، فيها شعب كوريا الشماليّة، وكاثوليكيّيه المحرومين من خدمات كهنةٍ وأساقفةٍ. وبما أنّ رسالته كان ممكنًا سماعها في الصين، فقد انتهز تلك السانحة للإعراب عن رغبته في زيارة جمهوريّة الصين، وفي أن تتمّ المصالحة بين الكنيسة المتخفّية، الموالية لروما، واتّحاد الكاثوليكيّين الوطنيّين السائرين في ركاب النظام.

وكانت محطّته الثانية في إندونيسيا، التي كان يحكمها، منذ عام ١٩٦٦، الدكتاتور «سوهارتو». ولم يكن بوسع البابا، وهو في أندونيسيا، ألاّ يزور التيمور الشرقيّة، التي تقطنها أكثريّةٌ مسيحيّةٌ، والتي احتلّتها أندونيسيا، عنوةً، وأعملت فيها اضطهادًا وتنكيلاً. وترتّب على البابا زيارتهم وتشديدهم، بمنأًى عن أيّ مظهرٍ سياسيٍّ. ولو هو لم يفعل، لكان تخلّفُه عن هذا الواجب إهانةً لأولئك المسيحيّين، وتخلّيًا عنهم. وقد صارح يوحنّا بولس الثاني «سوهارتو» ووزراءه، محذّرًا إيّاهم من إنكار حقوق الإنسان، في سعيهم إلى تحقيق الوحدة السياسيّة.

في «ديلي»، عاصمة التيمور الشرقيّة، بارك الحبر الأعظم، الكاتدرائيّة الجديدة المكرّسة لسيّدة الحبَل بلا دنس. ويوم ١٩٨٩/١٠/١٢، احتفل بقدّاسٍ

حبريٍّ في مكانٍ كان قد شهد حمّام دماءٍ. وقال إنّ الذين «خبروا الموت والدمار الناجمين عن الصراعات»، عليهم، اليوم، أن يواجهوا تحدّي أن يكونوا «ملحًا ونورًا». وأكّد أنّه يعرف معنى أن يكون قومٌ ضحيّة الكراهيّة والحرب، التي يموت من جرّائها كثيرون، فيما يقع آخرون فريسة الانتقام. ومع أنّه لم يتطرّق، علنًا، لقضيّة التيمور، إلاّ أنّ لافتاتٍ عديدةً مطالبةً بالاستقلال، برزت وسط لجّة الثمانين ألف مؤمنٍ، الذين شاركوا في القدّاس.

وأخيرًا عرّج البابا على جزيرة موريشيوس، في المحيط الهنديّ، حيث أمضى يومين. وفيما كان يودّع الجموع التي بلّلها المطر، توّج لقاءه بهم قوس قزحٍ رائعٌ.

وبينما كانت طائرةٌ تعود به إلى روما، كانت مظاهراتٌ صاخبةٌ، غير مسبوقةٍ، تملأ شوارع «ليبزيغ»، منددةً بالحكم الشيوعيّ في ألمانيا الشرقيّة.

عِبَرٌ من الحرب العالميّة الثانية

يوم ١٩٨٩/٨/٢٧، وجّه يوحنّا بولس الثاني رسالةً إلى كنائس العالم، ملخّصًا العِبَر التي استخلصها من الحرب العالميّة الثانية، بمناسبة مرور خمسين سنةً على نشوبها. فقد كان يستشفّ في تلك الحرب، درسًا لمستقبل الحضارة التي أنزلت بها التوتاليتاريّة أدهى المصائب، وأوضح: «**لقد أعطت الحرب العالميّة الثانية للجميع فكرةً عن المغبّات الجسيمة، لما ينتجه ازدراء الشخص البشريّ، وانتهاك حقوق الإنسان، وتشريع الكراهيّة التي، بدورها، انقضّت على الإنسان، وكلّ ما هو إنسانيٌّ، فتساءل كثيرون هل يمكن للمرء، إثر تلك التجربة المريعة، أن يثق بأيّ شيءٍ**». ولاحظ أنّه، بعد انصرام نصف قرنٍ، «**يمكن القول إنّ أوروبّا، وخلافًا للظواهر، لم تبرأ، بعدُ، من الجراح التي أحدثتها تلك الحرب. ولذلك لا بدّ من تضامنٍ حقيقيّ**». وهذا التضامن لا يتحقّق إلاّ بعد معرفة الحقيقة. وبيّن أنّ ما مهّد لحرب عام ١٩٣٩، هو «**أنّ بعض شرائح الثقافة الأوروبّيّة حاولت محو الله وصورته من الأفق البشريّ**». **ما أنتج** «**عقيدتين وثنيّتين هما النازيّة والماركسيّة، وإيديولوجيّتين توتاليتاريّتيْن، طامعتَيْن في أن تصبحا دينَيْن بديلَيْن**». وقد قاد ازدراء

الله، بلا وازعٍ، إلى ازدراء البشريّة، وتردّت أوروبّا القرن العشرين إلى هوّة مملكة إبليس.

ومن ثمّ، على العالم، واجبٌ خطيرٌ، واجب استخلاص العبرة من الماضي، لتجنّب ولادة ظروفٍ تؤدّي إلى انفجارٍ مماثلٍ. ولا مفرّ من نبذ العرقيّة نبذًا كلّيًّا، ومن إدراك أنّ الحياة العامّة متعذّرةٌ بمعزلٍ عن معايير أخلاقيّةٍ. وعلى رؤساء الدول أن يعلموا أنّ احترام الله، واحترام الإنسان متلازمان. وعلى الكنيسة أن تدرك أنّ فشلها في تعليم الإنجيل وعيشه قد أسهم في كوارث أوروبّا القرن العشرين، وأن تسهر على أسلوبٍ سليمٍ لتعليم الإنجيل، وعيشه اليوم؛ وأكّد البابا أنّ الوحدة المسيحيّة هي ضرورةٌ أساسيّةٌ، وأولويّةٌ.

ولاحظ أنّ أزمة الثقة التي نجمت عن الحرب العالميّة الثانية، مازالت قائمةً، مع أنّ تداعياتها السياسيّة آخذةٌ في الانحسار، بفضل ثورة عام **١٩٨٩**.

وعلى الكنيسة أن تذكر أنّه «**كما أنّ الله لا يقنط، أبدًا، من الإنسان، علينا ألاّ نقنط، أبدًا، من الله**».

غليانٌ، وتطويبٌ، وتحرّرٌ

في السابع من أيلول **١٩٨٩**، أصدر البابا رسالةً رسوليّةً حول الأوضاع المقلقة، في لبنان، ودعا إلى يومٍ عالميٍّ للصلاة من أجل ذلك البلد الجريح.

وبين **٩/٢٩** و**١٩٨٩/١٠/٢**، قام رئيس أساقفة كنتربري الأنغليكانيّ، بزيارةٍ رسميّةٍ إلى الڤاتيكان، أصدر في ختامها، مع يوحنّا بولس الثاني، بيانًا مشتركًا.

وكان قد حُدّد يوم **١٩٨٩/١١/١٢**، موعدًا لتطويب أميرة بوهيميا «أنييس»، والأب الكبّوشي «آدم هميليوڤسكي» المعروف بالأخ «ألبير». وتزامن ذلك الموعد مع تطوّراتٍ سياسيّةٍ خطيرةٍ، غيّرت مجرى السياسة العالميّة.

فقبل نحو شهرين، أي في **١٩٨٩/٨/٢٢**، كانت حكومة ليتوانيا قد أعلنت انسلاخها عن الاتّحاد السوڤييتيّ، وكان هذا الانسلاخ نذيرًا بسلسلة انهياراتٍ

واسعةٍ. وفي العاشر من أيلول، فتحت هنغاريا حدودها مع النمسا، مشرعةً ثغرةً في الستار الحديديّ، سارع إلى الفرار منه أكثر من ثلاثين ألف ألمانيٍّ شرقيٍّ. وبعد ثلاثة أسابيع، سمح الزعيم الألمانيّ الشرقيّ «هونيكير»، لخمسة عشر ألفًا آخرين، كانوا قد التجأوا إلى سفارات ألمانيا الشرقيّة في پراغ، وڤرسوڤيا، بالذهاب إلى ألمانيا الغربيّة. وما لبثَ أن عُزِل «هونيكير» نفسه عن منصبه، الذي كان يحتلّه منذ عام ١٩٧١.

وتواصل فرار الألمان الشرقيّين إلى القسم الغربيّ من ألمانيا، بوتيرةٍ متسارعةٍ. وفي ١٩٨٩/١١/٥، تظاهر أكثر من خمس مئة ألفٍ منهم في برلين الشرقيّة، مطالبين بإصلاحاتٍ ديمقراطيّةٍ. وفي ١٩٨٩/١١/٩، اضطرّت الحكومة إلى الاستسلام، ففتحت جدار برلين، الذي اعتلاه آلاف الألمان من جانبَيْ ألمانيا، راقصين، مهلّلين، منشدين، متعانقين، وهم يكادون لا يصدّقون ما حدث. فقد انهار أمنع رمزٍ للحرب الباردة، وكان انهياره إيعازًا للتشيكيّين والسلوڤاكيّين، كي ينجزوا تحرّرهم واستقلالهم.

وانتهز البابا يوحنّا بولس الثاني مناسبة التطويب المزدوج الذي أشرنا إليه، كي يعلّق على تلك الأحداث الملحميّة. فقد كان «ألبير هيميلوڤيسكي» أحد أبطال مسرحيّةٍ، كتبها البابا في شبابه، وأخرجها، ثمّ، عندما تولّى كرسيّ بطرس، قام بتطويب ذلك البطل. وكان الأخ «ألبير» قد اختار – إزاء الحكم الشيوعيّ – «الحرّيّة الكبرى»، مكرّسًا حياته كلّها لله، من خلال الفقراء. وأمسى بذلك، رمزًا للتحرّر المسيحيّ، الذي يسمو بالسياسة، ويسبغ عليها معنًى وقيمةً، عملاً بقول الله في النبيّ أشعيا (٥٨: ٦ و٧): «**أليس هذا هو الصوم الذي آثرته: حلّ قيود النفاق، وفكّ ربط النير، وإطلاق المأسورين أحرارًا، وكسر كلّ قيدٍ... وأن تكسر للجائع خبزك، وتُدخل البائسين المطرودين بيتك، وإذا رأيت العريان أن تكسوه... وألاّ تزورّ عن قريبك**».

وختم البابا خطابه بقوله: «**هذا، تحديدًا، ما فعله الأخ ألبير. فقد أخذ على عاتقه عبء المسيح. ولم يقتصر على تقديم الإحسان، بل أضحى أخًا لمن كان يخدمهم**».

أمّا الطوباويّة «أنييس البوهيميّة»، فتوفّيت عام ١٢٨٢. وقد أوحى طول المدّة الممتدّة بين وفاتها وتطويبها، للبابا، تأمّلاً في دروب العناية الإلهيّة، عبر التاريخ، وفي طريقة إضاءة الماضي لغيوم الحاضر. فقد قاست الأميرة «أنييس» الآلام، أكثر ممّا يقاسيها اليوم كاثوليكيّو بوهيميا، ومورافيا، وسلوفاكيا. وإنّما ما جعل منها شخصيّةً مميّزةً، هو تصميمها على أن تتقبّل «**بثقةٍ تامّةٍ، الأحداث التي تسمح بها العناية الإلهيّة، مع اليقين بأنّ كلّ شيءٍ يعبر، ما خلا حقيقة المسيح التي تدوم إلى الأبد**». وخاطب البابا مواطنيها الذين توافدوا للاحتفال بتطويبها، قائلاً: «**إنّ الدروس التي تلقّنكم إيّاها هذه القدّيسة الجديدة، اليوم، هو أنّ تاريخ البشر هو عبورٌ دائمٌ. ولكنّ حقيقة المسيح التي تنير وتخلّص، تبقى، متخطّيةً التغييرات. إنّ كلّ ما يحدث على الأرض، يريده العليّ أو يسمح به، لكي يظلّ الرجال والنساء متعطّشين إلى الحقيقة، صابين نحوها، إلى أن يبلغوها... ولو بعد أربعين سنةً من الاضطهاد**».

على مدى قرونٍ، كان التشيكيّون يتوقّعون معجزةً، يوم يتمّ تطويب قدّيستهم «أنييس». وتمثّلت المعجزة المنتظرة في سخاء الحكومة التشيكيّة، بمنح جوازات سفرٍ سمحت لآلاف المواطنين بالاجتماع في روما، وتنشُّق نسيم الحرّيّة المنعش. والتقى في ساحة القدّيس بطرس، رجالٌ ونساءٌ منتمون إلى الكنيسة المتخفّية، وقد انصرمت عشرات السنوات على لقائهم الأخير. فتلاقى أصدقاء طال فراقهم، وعُقدت صداقاتٌ جديدةٌ. وتبيّن لجميعهم أنّ كنيستهم بقيت حيّةً، رغم الطغيان الستالينيّ في الخمسينات، والاجتياح السوڤييتيّ عام ١٩٦٨. واتّضح لهم أنّ عددهم أكبر ممّا تخيّلوا، وأنّهم أقوى ممّا ظنّوا. وبدعمٍ من مثال البولونيّين والألمان الشرقيّين، عادوا إلى وطنهم، وقد اكتسبوا قوّةً، من الإخاء الذي استعادوه، وأشدّ تصميمًا على إنجاز ثورتهم السلميّة.

١٩٨٩/١٢/١: لقاءٌ تاريخيٌّ، ونهاية عهدٍ

في اليوم الأوّل من شهر كانون الأوّل ١٩٨٩، كان التوتّر والفضول ملموسين في شوارع روما، وفي الجوّ يطوف شعورٌ عامٌّ بأنّ حدثًا استثنائيًّا سيغيّر وجه

العالم. وشخصت آلاف العيون إلى السيّارة التي كانت تقلّ خليفة ستالين وزوجته، إلى مقرّ خليفة بطرس. وكان التيليفزيون الإيطاليّ قد زوّد المقرّ الرسوليّ بكاميراتٍ، تمكّن الجماهير من مشاهدة غورباتشيف وزوجته يجتازان ممرّات الفاتيكان، نحو مكتب يوحنّا بولس الثاني. ولحظ كثيرون مدى حيرة الزعيم السوفييتيّ وارتباكه، وروزه لثقل تلك اللحظة التاريخيّة، إذ إنّ مجرّد وجوده في الفاتيكان كان دليلاً على اعتراف النظام الذي يمثّله بخطئه بشأن العلاقة بين المسيحيّة و«الأنَسيّة» (Humanisme)، بين المسيحيّة والتحرّر الإنسانيّ.

واتّضح للصحافيّين والمراقبين أنّ الحبر الأعظم يولي ذلك اللقاء أهمّيّةً كبرى، ولحظوا استقباله الحارّ لزائره ومرافقيه. فقد كان يرى، في غورباتشيف، رجل مبادئ، يعمل بموجب قناعاته، خلافًا لكثيرين لا يتطلّعون إلاّ للسلطة. ومع أنّ الحبر الأعظم كان يعدّ مشروع غورباتشيف، إقامة شيوعيّةٍ ذات وجهٍ إنسانيٍّ، مفارقةً، إلاّ أنّه كان راغبًا في إجراء حوارٍ بنّاءٍ معه. وبدا جليًّا اهتمام كلٍّ منهما بالآخر.

اختليا، إذن، في مكتبة البابا، يرافقهما ترجمانان، إذ إنّ يوحنّا بولس الثاني كان يقرأ الروسيّة، ولكنّه لا يتكلّمها بطلاقةٍ. وفيما كان يروز حقيقة زائره، مستجليًا شخصيّته، وقناعاته، بدأ بتذكيره بما سبق له قوله لأسلافه، الزعماء السوفييتيّين، بشأن الحرّيّة الدينيّة.

كان الوقت المحدّد للقائهما ساعةً واحدةً، ولكنّه امتدّ حتّى ساعةٍ ونصف. وقد بسط فيه، البابا «إيمانه الأوروبّيّ»، وأكّد أنّ إعادة توحيد أوروبّا، من الأورال إلى الأطلسيّ، إن هي إلاّ عودةٌ إلى الوضع الطبيعيّ، وإلى سياق التاريخ الأوروبّيّ الحقيقيّ. ولكنّه، حذّر الغرب من أن يرى في الأحداث الجارية، حينئذٍ، انتصارًا، بل سانحةً لاستعادة جزءٍ من إرثه.

وفيما كان الرجلان يتناولان شؤونًا خطيرةً، كانت السيّدة غورباتشيف، تتأمّل المصلّى السكستينيّ. وقد أعربت عن قناعتها أنّ لوحات «ميكل أنجيلو»، على روعتها، لا ترقى إلى مستوى الإيقونات الروسيّة. ولمّا فرغ الرجلان من

حوارهما، جيء بها إلى مكتب البابا، وكان زوجها قد استعاد هدوء روعه، فأمسك بيدها، وقال: «يا رئيسا مكسيموڤنا، يشرّفني أن أُقدّم لك أعظم سلطةٍ أدبيّةٍ على هذه الأرض!» ثمّ أردف، ضاحكًا: «وهو سلاڤيٌّ مثلنا».

ولما خرج جميعهم للإدلاء بالتصاريح الرسميّة، تجلّت خطورة الموقف. وكانت يدا الحبر الأعظم ترتجفان تأثّرًا، عندما اعتلى المنبر. وبدأ بالتعبير عن سروره البالغ باستقبال الزعيم السوڤييتيّ في الڤاتيكان، وألمح إلى الذكرى الألفيّة لعماد روسيّا، وبالأثر العميق الذي خلّفه ذلك العماد على تاريخ الشعوب التي تلقّت، من خلاله، رسالة المسيح، معتبرًا هذه الزيارة على علاقةٍ وثيقةٍ بتلك الذكرى، وإشارةً مشجّعةً للمستقبل.

ثمّ تطرّق إلى الموضوع الغالي على قلبه، موضوع الحرّيّة الدينيّة. وجالت بخاطره معاناة شعوب ليتوانيا وأوكرانيا، فقال، مخاطبًا ضيفه: «**إنّ أحداث العقود الأخيرة، والمِحَن الأليمة التي تعرّض لها مواطنون كثُرٌ، بسبب إيمانهم، معروفةٌ، ومعروفٌ، أيضًا، كم من الجماعات الكاثوليكيّة تنتظر، اليوم، بفارغ صبرٍ، أن يُعترَف بها، وأن يُسمَح لها بأن تلتمّ تحت إدارة رعاتها. وقد حان الأوان لتطبيق القرارات، التي طالما أُعلن عنها من قِبَل حكومتكم، بالعمل على تجديد التشريع الداخليّ المتعلّق بالحرّيّات العامّة، بحيث ينسجم الواقع الراهن مع الالتزامات الدوليّة العلنيّة، التي التزم بها الاتّحاد السوڤييتيّ**». وأعرب عن الأمل الذي يراوده، ويراود ملايين مواطني غورباتشيف أن يسهم القانون الذي ستناقشه، قريبًا، القيادة السوڤييتيّة، في ضمان حرّيّة ممارسة الطقوس الدينيّة لجميع المؤمنين، إذ إنّ هذه الحرّيّة هي أساس جميع الحرّيّات.

وأعلن البابا أنّه، في أعقاب المجازر التي عرفها القرن العشرون، يتطلّع إلى مستقبلٍ يشهد ولادة «أَنَسيّةٍ» جديدةٍ، ونظرةٍ جديدةٍ إلى الإنسان، كفيلةٍ بإيجاد «تضامنٍ عالميٍّ». ولكنّه استدرك معربًا عن خشيته من أن يوأد هذا التضامن في مهده، إن لم تؤخذ بالحسبان عِبَر الحرب العالميّة الثانية. فإن أُغفلت القِيَم الأخلاقيّة الأساسيّة، ستكون العواقب مريعةً، على مصائر الشعوب، وستُمنى

حتّى أعظم المشاريع بالفشل. وخلص الحبر الأعظم إلى القول: «**إنّ ذلك اللقاء غير المألوف يحمل مغزًى فريدًا: وهو أنّ الأزمان قد تغيّرت بتؤدةٍ، وأنّ هذه الزيارة إشارةٌ مثقلةٌ بالوعود**».

أمّا غوربتشيف، فكان قد أنفق ساعاتٍ طويلةً على تدبيج خطابه، بدقّةٍ، وقد استهلّه بعباراتٍ تفيض حماسًا فقال: «إنّ حدَثًا فريدًا حقًّا قد جرى... بفضل التحوّلات الجارية في العديد من الدول...». واعترف بفشل محاولات الاتّحاد السوڤييتيّ، على مدى ستّين سنةً، في سبيل تشويه صورة الڤاتيكان، وحملات الدعاوة المسيئة له، وأقرّ أن الڤاتيكان «يسعى إلى إيجاد حلولٍ مشتركةٍ لأوروبّا، وإلى خلق مناخٍ يوفّر للأمم قدرة تحقيق خياراتها الخاصّة، بمعزلٍ عن أيّ إكراهٍ. ثمّ أعلن أنّ قضيّة العلاقات الدبلوماسيّة بين الاتّحاد السوڤييتيّ والڤاتيكان، باتت وشيكة التحقيق. وتعهّد الزعيم السوڤييتيّ بإصدار قانون الحرّيّة الدينيّة، وختم خطابه بقوله: «إنّنا نتعلّم فنًّا صعبًا، ولكن لا بدّ منه، فنّ التعاون الشامل، وتمتين المجتمع على أسس التجديد». ثمّ فاجأ الجميع بدعوته الحبر الأعظم إلى زيارة الاتّحاد السوڤييتيّ، ولكنّ يوحنّا بولس الثاني لم يسارع إلى تلقّف هذه الدعوة، كما توقّع الصحافيّون، بسبب اطّلاعه على تحفّظ الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة، بشأنها، وإيثاره أن تصدر الدعوة عنها. ولم تتمّ الزيارة، فغوربتشيف ما لبث أن أُزيح عن منصبه، ولم يعد للاتّحاد السوڤييتيّ وجودٌ.

كان يوحنّا بولس الثاني يرى، في ميخائيل غوربتشيف رجلاً هيّأته العناية الإلهيّة، لأنّه كان ينظر إلى كلّ أمرٍ، وكلّ حدثٍ، بعين اللاهوتيّ. وقد تعامل مع البابا بصفته راعيًا يمارس مهمّة رجل دولةٍ، لا بصفة رجل دولةٍ لا يضطلع بمهمّة الراعي إلاّ بالخفاء. وكان البابا يحترم، في ضيفه، الرجل السياسيّ الذي يدافع عن معتقداته حتّى النهاية، والذي أدرك أنّ مركز اهتمام الدولة ينبغي أن يكون الكائن البشريّ، وليس الجماعة المبهمة.

ربّما كان غوربتشيف أداة العناية الإلهيّة، ولكن يبدو أنّه لم يكن يعي، وعيًا وافيًا، خطورة المهمّة التي أُسندت إليه.

غير أنّ المحقّق هو أنّ زيارته إلى الڤاتيكان، يوم الأوّل من كانون الأوّل **١٩٨٩** كانت إيذانًا بإسدال الستار على إيديولوجيا تدّعي أنسنةً ملحدةً.

تهاوي آخر قلاع الشيوعيّة في أوروبّا

ليلة ١٧/١٨ تشرين الثاني **١٩٨٩**، غصّت شوارع پراغ بخمسين ألف طالبٍ تشيكوسلوڤاكيٍّ، أحيوا، في تظاهرةٍ سلميّةٍ مرخّصةٍ، الذكرى الخمسين لوفاة زميلٍ لهم على يد النازيّين. ولم يكن من العسير إبراز وجوه التشابه بين القمع النازيّ السابق، والقمع الشيوعيّ السائد الراهن. وقد أطلق بعض المتظاهرين شعاراتٍ مندّدةً بالنظام. وسرعان ما انقضّت على الطلاّب المتظاهرين سلميًّا، شرطةُ الدولة، وقد جهد الطلاّب المحاصَرون في محاورة رجال الأمن، فقدّم لهم بعضهم ورودًا، وأشعل آخرون شموعًا، وجلسوا على الأرصفة، رافعين أذرعهم، منشدين «أيدينا فارغةٌ». غير أنّ المهاجمين، انهالوا، بلا إنذارٍ، على الشبّان والشابّات والمراهقين، ضربًا وحشيًّا، وأوقعوا عددًا غفيرًا من الجرحى.

هذه «المجزرة»، كما دعيت، ألهبت الجماهير، وأفضت إلى قلب النظام التشيكوسلوڤاكيّ الشيوعيّ، عبر ثورةٍ منزّهةٍ من كلّ عنفٍ. ففي التاسع عشر من ذلك الشهر، غداة «المجزرة»، دعا المسرحيّ الشهير «ڤاكلاڤ هاڤيل» إلى مؤتمرٍ، انبثق عنه المنتدى المدنيّ المقاوم. وما عتّمت أن نشأت في مدينة براتسلاڤا حركةٌ مماثلةٌ للمقاومة اللاعنيفة، بقيادة كاثوليكيّين، كانوا ينظّمون، كلّ ليلةٍ، مظاهراتٍ سلميّةً حاشدةً. وفي ليلة **٢٤/١١/١٩٨٩**، تلا كاهنٌ، كانت السلطات قد حظرت عليه ممارسة مهمّته، على الجموع المتراصّة في العراء القارس، رسالةً من الكردينال العجوز «توماسيك»، جاء فيها:

«يا مواطني بوهيميا، وموراڤيا، وسلوڤاكيا،

«لا يسعني الاعتصام بالصمت، فيما أنتم تحتشدون للتنديد، جماعيًّا، بالحيف الفادح الذي يرهقكم منذ أربعة عقود... إنّنا محاطون بدولٍ قد حطّمت، في الماضي واليوم، قيود النظام التوتاليتاريّ، التي كانت ترسف فيها... لا مجال، بعدُ،

للانتظار. لقد حان زمن العمل... فلنكافح من أجل الخير، بأعمالٍ تتوافق مع الخير. إنّ الذين يقمعوننا يبرهنون لنا كم هي هشّةٌ انتصارات الحقد، والشرّ، والانتقام.

«وأودّ أن أتوجّه إليكم، إخوتي، وأخواتي الكاثوليكيّين: في هذه الساعة التي يتحدّد فيها مصير وطننا، لا يسوغ لأحدٍ منكم أن يبقى لامباليًا. فأسمعوا صوتكم من جديدٍ، وهذه المرّة بالاتّحاد مع سائر المواطنين التشيكيّين، والسلوڤاكيّين، والآخرين، من مؤمنين وغير مؤمنين. لا يمكن فصل الحرّيّة الدينيّة عن سائر حقوق الإنسان. فالحرّيّة لا تتجزّأ...».

بعد مضيّ أربعة أيّام فقط، أي في ١٩٨٩/١١/٢٨، قبل الحزب الشيوعيّ التشيكيّ، مُكرَهًا، التخلّي عن احتكار السلطة، وتسارع انهيار النظام. ففي السابع من كانون الأوّل، استقال رئيس الوزراء. وبعد ثلاثة أيّامٍ، حذا حذوه رئيس الجمهوريّة. وفي ١٢/٢٩، نُصِّب «ڤاكلاف هاڤيل» رئيسًا للبلاد. وفي هذه الأثناء، كان النظام قد رجا الكردينال «توماسيك»، أن يضطلع بوساطةٍ بينه وبين المقاومة، ولكنّه رفض، خشية أن تؤوَّل وساطته اعترافًا بالنظام، وأن تؤدّي، في الآن عينه، إلى شطر المعارضة. لقد أبقى الكنيسة إلى جانب الشعب، فضمن وحدة المعارضة.

وفي ١٩٨٩/١٢/٢٩، أُقيمت صلاة شكرٍ، أعلن، خلالها، أحد معاوني الرئيس الجديد: «إنّ القدّيسة أنييس أمسكت بيدها ثورتنا المخمليّة».

وكان انهيار الحكم الشيوعيّ في ألمانيا أسرع. ففي الأيّام الأولى من كانون الأوّل ١٩٨٩، تداعت دعائم الحزب الشيوعيّ، دعامةً تلو دعامةٍ، وفي اليوم الخامس فُرضت الإقامة الجبريّة على الزعيم «هونيكير». وفي اليوم السابع، تمّ الاتّفاق على إجراء انتخاباتٍ حرّةٍ، في السادس من أيّار ١٩٩٠. وفي الحادي عشر من كانون الأوّل ١٩٨٩، غصّت شوارع «ليپزيغ» بالمطالبين بتوحيد ألمانيا.

وهكذا، لم تحتج «ثورة الضمير» السلميّة إلى أكثر من ستّة أشهرٍ، كي تقوّض إمبراطوريّة ستالين الخارجيّة، وكي تحتلّ أنظمةٌ ديمقراطيّةٌ محلّ سيادة الرعب، والإرهاب، والعنف، مؤكّدةً غلبة الضمير على قوى الظلم الغاشمة. ولم يكن

خافيًا على أحدٍ من الحكّام والثائرين، أنّ ملهم تلك الثورة ومحرّكها كان يوحنّا بولس الثاني، الذي لم يتوانَ عن انتهاز فرصة تلك التطوّرات، لتعزيز موقع الكنيسة الكاثوليكيّة، حيثما كانت مضطهدةً، أو مقموعةً، ومصالحها مغموطة.

ففي السابع من تمّوز ١٩٨٩، أُعلن عن استئناف العلاقات الدبلوماسيّة بين پولونيا والكرسيّ الرسوليّ. وفي ٢٥ تمّوز، عُيّن مدبّرٌ رسوليٌّ في مدينة «منسك»، عاصمة بيلوروسيا.

وفي شهر تشرين الأوّل، قصد موسكو، الأُسقفُ المكلّف بمهامّ الڤاتيكان الخارجيّة، «أنجيلو سودانو»، وذكّر القادة السوڤييتيّين بطلب البابا الاعتراف بشرعيّة الكنيسة الكاثوليكيّة اليونانيّة في أوكرانيا، عملاً بقانون حرّيّة الضمير والعبادة، فاستُجيب لمطلبه، على أن يتمّ التوافق على التفاصيل مع الكنيسة الأرثوذكسيّة.

وفي ١٩٩٠/١/٦، أعلنت الحكومة الرومانيّة، كامل الحرّيّة الدينيّة للكنيسة اليونانيّة الكاثوليكيّة، بعد أن كانت قد أُكرهت، منذ عام ١٩٤٨، على الانضمام إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة، فآثرت العمل في الخفاء.

في السادس من شباط ١٩٩٠، عيّن الحبر الأعظم، اليسوعيّ «يان كريزوستوم كوريك»، أسقفًا على مدينة «نيترا»، في الجزء السلوڤاكيّ من تشيكوسلوڤاكيا. وكان لهذا التعيين مغزًى خاصٌّ، إذ إنّ الأُسقف المعيّن كان رمزًا لمآسي الكنيسة المقاومة في أوروپّا الوسطى. وكان، حينذاك، يموّه صفته الكهنوتيّة بالعمل في أحد مستودعات الدولة. وكان قد مارس مهمّةً كهنوتيّةً سرّيّةً حتّى عام ١٩٦٠، وحينئذٍ اعتُقل، وحُكم عليه بالسجن مدى سبعةٍ وعشرين عامًا، ثمّ أُطلق سراحه في أثناء ربيع براغ عام ١٩٦٨، ولكن أُعيد سجنه عام ١٩٧٤، وأُفرج عنه، إثر مداخلاتٍ دوليّةٍ. وعمل في «پراتسلاڤا»، على التوالي، مصلّح مصاعد، وحارسًا ليليًّا، وناقلَ بضائع، في حين كان يواصل خدمته الأُسقفيّة، خلسةً. وفي هذه الأثناء، وضع عدّة كتبٍ لاهوتيّةٍ وروحيّةٍ. ولكن، في عام ١٩٧٦، أوعز إليه البابا بولس السادس، في سياق سياسة المهادنة مع الحكومات الشيوعيّة التي

انتهجها، التوقّف عن نشاطه الأسقفيّ، ولا سيّما عن سيامة كهنةٍ جُدُدٍ. فخضع، مكرَهًا، وهو يرى نظام القمع ماضيًا، قُدُمًا، في جرائمه. وفي آخر الثمانينات، أمسى أحد زعماء المقاومة الكاثوليكيّة السلوفاكيّة. ولم تكن إعادة تعيينه أسقفًا عام ١٩٨٠ إلاّ تقديرًا لجرأته، وتعبيرًا عن ثقة حبرٍ أعظم، سبق له أن كان أسقفًا مقاومًا.

وعُقدت علاقاتٌ ديبلوماسيّةٌ بين الكرسيّ الرسوليّ وهنغاريا، في ١٤ شباط ١٩٩٠، وبين الكرسيّ الرسوليّ والاتّحاد السوڤييتيّ في الأوّل من آذار. وفي ١٤ آذار، رسم البابا اثني عشر أسقفًا جديدًا، منهم سبعةٌ كُلّفوا بخدمة الكنيسة اللاتينيّة، وخمسةٌ لخدمة الكنيسة اليونانيّة الكاثوليكيّة في رومانيا.

لقد عزا محلّلون سياسيّون التحوّلات الجوهريّة، التي أطاحت بالأنظمة الشيوعيّة، إلى عوامل اقتصاديّةٍ. غير أنّ يوحنّا بولس الثاني أفصح، أمام أعضاء الهيئة الدبلوماسيّة، المعتمدين لدى الڤاتيكان، عن نظرته إلى هذه التحوّلات، فأعلن: «**إنّ العطش إلى الحرّيّة الذي لا يُقاوَم، قد قوّض الجدران، وفتح الأبواب**». ولم يكن خافيًا على أولئك الدبلوماسيّين، أنّ نقطة انطلاق ثورة ١٩٨٩، كانت، غالبًا، كنسيّةً. وشيئًا فشيئًا، أُشعلت الشموع، وأُشرعت دروب نورٍ، وكأنّها تقول لمن طالما حاولوا حدّ الأفق البشريّ على هذه الأرض، أنّه لا يمكن العيش في القيود، أبديًّا... وقد أضحت عواصم مثل موسكو، وڤرسوڤيا، وبوداپست، وبرلين، وپراغ، وصوفيا، وبخارست، مراحل في حجٍّ طويلٍ نحو الحرّيّة، بفضل رجالٍ ونساءٍ، وشبّانٍ قهروا الخوف.

وفي تطلّعه إلى مستقبلٍ معافًى، دعا الحبر الأعظم إلى انتصار الضمير، في إطار احترام القانون، قانونٍ يضمن مكانةً عليا للكائن البشريّ في المجتمع، ويعترف بكرامة الإنسان، بصفته مصدر كلّ حقٍّ. وعلى هذا القانون أن يوفّر إطار حياةٍ، جديرًا برجالٍ ونساءٍ أحرارٍ، وأن يحترم القيَم السامية الأبديّة. فعندما يجعل الإنسان من ذاته مقياسًا لكلّ شيءٍ، يصبح عبدًا لمحدوديّته. وبالتالي، فإنّ على قوانين أوروپّا الجديدة، أن تُبنى على الرجوع إلى من هو مصدر الأشياء، كلّها، وإليه المعاد.

اعتبارًا من ١٩٩٠/٢/١٤، باشر يوحنّا بولس الثاني، بمناسبة المقابلات العامّة

الأُسبوعيّة، سلسلة صلواتٍ وتأمّلاتٍ قصيرةٍ، استعدادًا للحجّ الذي كان يعتزم القيام به إلى پولونيا، باسم «**جميع الذين وجدوا القوّة في الحقيقة، الحقيقة التي تغلّبت على الكذب**». وتناولت تأمّلاتٌ أُخرى، العِبَر التي يتوجّب استخلاصها من الأحداث التي فجعت أوروبّا على مدى خمسين عامًا.

على وقع مواضيع مثل هذه، اندرجت زيارة البابا المدوّية إلى تشيكوسلوڤاكيا، في شهر نيسان **١٩٩٠**، حيث احتشد لسماعه أساقفةٌ، وكهنةٌ، وعلمانيّون، كان كثيرون منهم قد عانوا السجن والمعتقلات، والأعمال الشاقّة. فحيّاهم بقوله إنّهم أحرزوا «**انتصار الوفاء: وفائكم للمسيح المصلوب، عندما صُلبتم، ووفائكم للروح القدس الذي اقتادكم، عبر الظلمات، ووفائكم لخلفاء بطرس، وخلفاء الرسل، والأساقفة، ووفائكم للأمّة، الذي عبّرتم عنه، خاصّةً بتضامنكم مع المضطَهَدين، وبصراحتكم حيال الباحثين عن الحقيقة، والحرّيّة في الحبّ. وها قد حان أوان الإكباب على إعادة بناء كنيسةٍ حرّةٍ، على أساس ما أنضجتموه على مدى سنوات المحنة**».

وكان خطاب استقبال «ڤاكلاڤ هاڤيل»، المسرحيّ المناضل، الذي أصبح رئيسًا للبلاد، صدًى لفكر يوحنّا بولس الثاني، وقد جاء فيه: «لستُ متأكّدًا ممّا هي المعجزة، ومع ذلك، أتجرّأ فأقول إنّني، في هذه اللحظة، أشارك في معجزةٍ. فالرجل الذي كان، لستّة أشهرٍ خلت، معتقلاً بصفته عدوّ الدولة، هو اليوم، رئيس هذه الدولة. وهو يستقبل أوّل حبرٍ أعظم، في التاريخ، وطئ هذه الأرض... وإلى بلادٍ لاشتها إيديولوجيا الحقد، وصل رسول الحبّ، وإلى بلدٍ دمّرته سيادة الجهل، وصل رمز الثقافة الحيّ، والتسامح المتبادل، والاحترام، والتفاهم، والوحدة الأخويّة في التعدّدية.

«سحابة سنواتٍ طويلةٍ، نُفي الروح عن وطننا. ويشرّفني أن أكون، الآن، شاهدًا على اللحظة التي يقبّل فيها رسول الروح، تراب وطننا!».

لقد أدرك «هاڤيل» ما لم يدركه كثيرون، حتّى من معاوني الحبر الأعظم، أنّ ثورة الضمائر التي أطلقها يوحنّا بولس الثاني، هي التي أدّت إلى ثورة **١٩٨٩**، السياسيّة المنزّهة من العنف، والتي استحقّت اسم «ثورة المخمل».

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى أفريقيا

استهلّ يوحنّا بولس الثاني العام ١٩٩٠، برحلته الرسوليّة الخامسة والأربعين، إلى بلدانٍ أفريقيّةٍ تعاني شتّى ضروب المآسي. وزار، خلالها، مالي، والرأس الأخضر، وغينيا بيسّاو، وبوركينا فاسّو، والتشاد. وفي مستهل تلك الرحلة، صرّح للصحافيّين: «**إنّي قادمٌ إلى بلدانٍ أفريقيّةٍ، تعاني فقرًا مدقعًا، ولا سيّما أنّها محاطةٌ بإطارٍ صحراويٍّ، وسط رمال الساحل، يؤثّر على وضعها الاجتماعيّ والاقتصاديّ. إنّ هذه الرحلة تعني لي الكثير، لأنّني ماضٍ نحو الفقراء، اقتصاديًّا، وأدبيًّا**».

وأوضح أنّ تبشير أفريقيا يجب أن يواجه قضايا إنسانيّةً، وثقافيّةً، وحقوقيّةً، واقتصاديّةً، وسياسيّةً، مؤكّدًا أنّ الكنيسة والبابا، مرتبطان بالعالم الثالث، وبأفريقيا. ولا بدّ من إطلاع أغنياء العالم على احتياجات الفقراء في العالم، والسعي إلى إيجاد حلولٍ واقعيّةٍ ومجديةٍ لها.

وقد حذّر، خاصّةً، من تصحير الساحل الأفريقيّ، حيث أنشأ مؤسّسةً تحمل اسمه، وتعنى بتطوير البلاد.

في «غينيا بيسّاو»، زار مصحّةً للبرص في مدينة «كومورا»، واستقبله رئيس البلاد، الذي كان عاملاً كهربائيًّا، وأصبح جنرالاً، في أثناء حرب الاستقلال، واعتنق الماركسيّة، قبل أن يتحوّل إلى الليبيراليّة، وقد باح للبابا أنّ أمورًا كثيرةً تحتاج إلى إعادة نظرٍ، على ضوء التطوّرات التي حدثت في شرقيّ أوروپّا.

وفي مالي ناشد الشبيبة أن يبنوا مستقبلاً محرّرًا من آثار حرب الاستقلال.

وفي الرأس الأخضر واكب المطرُ زيارته، بعد انقطاعٍ دام شهورًا.

رحلةٌ ثانيةٌ إلى المكسيك

في السادس من أيّار ١٩٩٠، باشر يوحنّا بولس الثاني زيارته الثانية إلى المكسيك، التي اندرجت في ظروفٍ أفضل من ظروف زيارته الأولى. ففي

السنوات الإحدى عشرة التي انقضت منذ زيارته الأولى، كانت علاقة الكنيسة بالسلطات المدنيّة، قد أحرزت تحسّنًا محقّقًا، تجلّى من خلال استقبال رئيس البلاد للبابا، في المطار، وسط لفيفٍ من الأساقفة.

وعلى نقيض الزيارة الأولى، كان الإعداد لهذه الزيارة قد تمّ بعنايةٍ وتأنٍّ، ما أضفى عليها طابعًا أكثر راعويّةً. وكان برنامج الزيارة يتضمّن، فضلاً عن ذلك، تطويب ثلاثة شهداء وكاهنٍ، وترسيخ تكريم رائي غوادالوپي، «خوان دييغو»، وتمتين علاقة الكنيسة بالعلمانيّين، وإرساءها على التفاهم والتعاون، وإبراز دورهم في نشاط الكنيسة وفي رسالتها. وقد صرّح البابا، في الطائرة التي كانت آتيةً به إلى مكسيكو: «**إنّي آمل أن أشهد زوال ادّعاء أنّ الكنيسة تنهض عقبةً في وجه الثقافة والعلم، وأن يكون زوال هذا الادّعاء نهائيًّا**».

وكان يوطّد أمل البابا في نجاح مهمّته، كلَفُ المكسيكيّين بسيّدة «غوادالوپي». وقد ذكّر بقول أحدهم: «إنّ تسعين بالمئة من المكسيكيّين هم كاثوليكيّون، ومئةً وخمسةً بالمئة هم «غوادالوپيّون». وفي هذا السياق، أكّد الحبر الأعظم أنّ تأثير سيّدة «غوادالوپي» العميق، يشمل كلّ أميركا اللاتينيّة.

ولمّا سئل عن التبشير الجديد، أوضح أنّه التبشير بالإنجيل عينه، ولكن بصيغةٍ وأسلوبٍ أكثر تلاؤمًا مع الظروف الجديدة، ومن ثمّ هو يختلف من بلدٍ لآخر، وهو يعني، أيضًا، إسهامًا أوسع للعلمانيّين، وإفساح مجالٍ أرحب لرسالتهم، ولا سيّما حيث تضاؤل عدد الكهنة يمثّل مشكلةً.

وفي طريق العودة، سأل صحافيٌّ البابا عن التغيير الأبرز الذي حدث منذ زيارته الأولى إلى المكسيك، فأجاب: «**إنّ التغيير الأكثر وضوحًا، هو أنّ البابا قد شاخ أحد عشر عامًا!**».

عاد يوحنّا بولس الثاني من رحلته المكسيكيّة إلى روما، يوم ٥/١٤، وفي الخامس والعشرين من الشهر عينه، قام برحلةٍ رسوليّةٍ إلى مالطا، دامت يومين.

وبين ١١ و٢٠ تمّوز، قضى البابا عطلته الصيفيّة، ومارس هواية تسلّق الجبال في إيطاليا.

يوحنّا بولس الثاني وحرب الخليج

يكاد يكون صوت يوحنّا بولس الثاني هو الصوت الوحيد الذي ارتفع معارضًا هذه الحرب. كان قد أدان احتلال العراق للكويت، على أنّه انتهاكٌ للحقّ الدوليّ، ولتعايش الشعوب، ولكنّه كان موقنًا أنّ إصلاح هذا الخطأ بالحرب هو شرٌّ أفدح من شرّ الاحتلال نفسه. ومنذ احتلال الكويت ما انفكّ يناضل من أجل حلٍّ سلميٍّ، فقد كان يداخله شعورٌ بأنّ الحلّ العسكريّ سيكون منبع آلامٍ جمّةٍ، وسبب القضاء على أعدادٍ هائلةٍ من الناس الأبرياء، من الأطراف كافّةً. فدعا، بلا كللٍ وبكلّ الوسائل، وفي جميع المناسبات، إلى حلٍّ يتمّ بالحوار والمفاوضات، لأنّ الحرب ستكون رمز «**هزيمةٍ كبرى للمجتمع الدوليّ**». وصرّح، في هذا السياق: «**في ساعات الخطر الكبرى، أودّ أن أؤكّد، مجدّدًا، وبقوّةٍ، أنّ الحرب ليست الوسيلة الملائمة لحلّ القضايا الناشبة بين الأُمم، حلاًّ جذريًّا، فالحرب لم تكن، قطّ، ولن تكون، أبدًا، حلاًّ**».

وللأساقفة الأميركيّين الذين تذرّعوا بمبدإ «الحرب العادلة» لتبرير هذه الحرب، مستشهدين بلاهوتيّين كبارٍ أمثال القدّيسيْن أوغسطينُس وتوما الأكوينيّ، اللذين عدّا الحرب «عادلةً» عندما تكون دفاعًا عن النفس أو إصلاحًا لخطإٍ أو ظلمٍ جسيمَيْن، ذكّر بأنّ نظرة الكنيسة إلى الحرب قد تبدّلت، بعد أن تطوّرت الأسلحة المستخدمة في الحروب، وأمست أشدّ فتكًا، وأقدر على التدمير والإفناء، واستشهد بتصريح البابا پيّوس الثاني عشر، عام ١٩٤٤: «**لقد تجاوزت الكنيسة لاهوت الحرب العادلة**».

وكان قداسته قد تدخّل بجرأةٍ للحؤول دون نشوب حروبٍ، وأدان الحروب التي نشبت في عهده، ولكنّه لم يتدخّل، قطّ، بمثل الحزم والجرأة اللتَين تميّز بهما تدخّله في تلك الأزمة، التي كانت الكبرى بعد مرحلة الحرب الباردة. وفي حين تكاتفت حكوماتٌ غربيّةٌ وشرقيّةٌ مع الولايات المتّحدة، في هذه الحرب، وأيّدتها الأمم المتّحدة، وانقسم بشأنها رجال دينٍ، وأحزابٌ غربيّةٌ، وفي حين وقفت دولٌ عربيّةٌ عديدةٌ إلى جانب الولايات المتّحدة دعمًا لحملتها العسكريّة، ولم ترتفع لمعارضتها، بخجلٍ، سوى أصوات قبضةٍ من السياسيّين،

انبرى يوحنّا بولس الثاني لمعارضتها جهارًا، وبإصرار، جاهدًا في الحؤول دونها قبل نشوبها، ومندّدًا بها أثناء احتدامها، ثمّ محاولاً الحدّ من عواقبها الوبيلة، وما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

قاومها بإصرارٍ غير مألوفٍ، عندما كانت ما برحت مشروعًا، ولم يألُ جهدًا في سبيل الحؤول دون وقوعها؛ وألقى أكثر من خمسين خطابًا في هذا الشأن. وكتب، وأوفد دبلوماسيّيه في كلّ اتّجاهٍ، وأنفذ رسائل إلى المعنيّين من كلّ الأطراف، وكثّف اللقاءات مع مَن يقوون على دفع الأمور في عكس دروب الخيار العسكريّ، واستنهض القوى الأخلاقيّة. ودعم المبادرات الخجول التي تجرّأ عليها بعض السياسيّين، أمثال غوربتشيف وميتران، رغم استهجان بعض الأساقفة لموقفه، واستنكارهم له، ورغم أخذ المراقبين الأميركيّين والغربيّين عليه عدم تنديده بجرائم طاغية بغداد بالقدر الكافي، ورغم اتّهامه بالسعي إلى السلم بأيّ ثمنٍ. وكاد يكون، في مقاومته، وحيدًا.

ولحظ بعض المقرّبين منه أنّهم لم يعهدوا عنه مثل هذا الاندفاع حتّى في مناهضة النظام الشيوعيّ في موطنه، پولونيا. فقد كانت تحدوه عقيدةٌ ثابتةٌ أنّ الحرب شرٌّ لا مفرّ من مناهضته ومحاربته في جذوره. وما انفكّ يردّد، في كلّ مناسبةٍ، وفي كلّ مكانٍ: «**ينبغي فعل كلّ شيءٍ، كلّ شيءٍ، من أجل تفادي الحرب**»، مؤكّدًا: «**يُظهر التاريخ أنّ حتّى الحرب التي تُشَنّ دفاعًا عن حقوقٍ إنسانيّةٍ قد تسبّب شرورًا أدهى من تلك التي ابتغت إزالتها**» و«**أنّ الحرب مغامرةٌ لا مخرج منها**».

وفيما كانت دولٌ كبرى عديدةٌ تقرع طبول الحرب، وأُخرى تعتصم بصمتٍ جبانٍ متواطئٍ، وجّه يوحنّا بولس الثاني أكثر من اثنتي عشرة دعوةً إلى حلٍّ سلميٍّ للخلاف القائم. وبمناسبة عيد ميلاد ١٩٩٠، صرّح: «**إنّ نور المسيح يشعّ على أمم الشرق الأوسط المتألّمة. وإنّنا ننتظر بقلقٍ، تبدّد نُذر الخلاف، ووعي الحكومات لمخاطر الحرب**».

وأنفذ قداسته، إلى جورج بوش، رسالةً أكّد له فيها: «**أنّ الحرب ليست الوسيلة

الناجعة لحلّ المشاكل الدوليّة، مع أنّ الوضع الراهن ليس عادلاً، إلاّ أنّ النتائج التي ستنجم عن الحرب ستكون مأسويّةً ومدمّرةً. ولا يمكن إغفال أنّ استخدام الأسلحة، ولا سيّما الأسلحة العصريّة المتطوّرة، قد يُنتج، فضلاً عن الدمار والآلام، مظالم أُخرى قد تكون أشدّ دهاءً وخطورة». وكم كان حدسه هذا نبويًّا!

وحده، آمن أنّ الأوان قد حان للمسيحيّين كي يدركوا أنّ واجبهم هو إدانة الحروب، وإلغاؤها من الحياة الدوليّة. وما انفكّ يردّد، بلا هوادةٍ: «**إنّ السلام هو، دائمًا، عملٌ عادلٌ**» و«**إنّ اللجوء إلى القوّة، من أجل قضيّةٍ عادلةٍ، لن يكون مقبولاً إلاّ إذا تساوت نتائجه المنشودة مع عواقبه الوبيلة، وإلاّ إذا قيست، بعنايةٍ، عواقب الأعمال العسكريّة التي باتت ممعنةً في التدمير، بما تنزله من آلامٍ بسكّان الكرة الأرضيّة**»، مؤكّدًا: «**إنّ مقتضيات الإنسانيّة تلزمنا، اليوم، بالإقدام، إقدامًا حازمًا، على منع الحرب منعًا مطلقًا، ونشدان السلام بصفته الخير الأسمى الذي ينبغي أن تخضع لمقتضياته كلّ البرامج والستراتيجيات**». وكان يرفض مقولة «الحرب العادلة» لأنّ «**اللّه هو إله سلامٍ، لا إله حربٍ**».

اعترف أنّ احتلال الكويت من قِبَل العراق كان عملاً غير مشروعٍ، ومنافيًا للحقّ الدوليّ، وليس ما يبرّره، ولكنّه أيقن أنّ مقاومته بعملٍ عسكريٍّ ينتج كوارث بشريّةً، وبيئيّةً، وسياسيّةً واقتصاديّةً، لا يمكن تقدير حجمها، فضلاً عن كونه سيُعدّ لأعمال عنفٍ جديدةٍ. فقد كان يخشى أن تقود هذه الحرب إلى مظالم جديدةٍ قد تكون أدهى من تلك التي ادّعت الحرب القضاء عليها.

وقد ناشد المجالس الأُسقفيّة كي تسانده في جهوده ومساعيه، ولكنّ هذه المجالس، في أميركا وفي بريطانيا، اعترفت بمواجهتها صعوباتٍ جمّةً في إقناع رعاياها بتبنّي موقف الكنيسة المناهض لمواقف حكوماتها. غير أنّ بطريرك موسكو، ومجلس الكنائس المسكونيّ تبنّيا موقف الڤاتيكان المبدئيّ الثابت الذي يدين استخدام السلاح، لحلّ حتّى القضايا المحقّة.

واستنجد بكتلة عدم الانحياز، لعلّها تفلح في ترجيح كفّة الحوار والمفاوضات من أجل استعادة الحقّ والسلام.

وظلّ يؤثر دفع صدّام حسين إلى إصلاح خطئه الجسيم، بمبادرةٍ جريئةٍ وسخيّةٍ تجنّب شعبه والعالم ويلاتٍ مريعةً. وحتّى اللحظات الأخيرة ما انفكّ يؤكّد:

«**ما زال السلام ممكنًا، أمّا الحرب فتعني انحطاط البشريّة جمعاء... إنّ الحرب، في الظروف الراهنة، لن تحلّ المشاكل، بل ستزيدها تعقيدًا. وينبغي فعل كلّ مستطاعٍ لمنع حلٍّ عسكريٍّ**».

لقد أدان انتهاك العراق للحقّ الدوليّ، ولكنّه أدان، أيضًا، مسارعة مجلس الأمن إلى تأييد قرار الولايات المتّحدة اللجوء إلى السلاح، في حين أنّ مهمّته هي درء الحروب، وكلّ المشاكل الطارئة، بالحوار والدبلوماسيّة، والوسائل السلميّة. وأدان تقصير دعاة الحرب في حساب النتائج الوبيلة.

وقد آلمه أنّ بعض الدول التي انضمّت إلى فريق الحرب، لم تكن من روّاد حقوق الإنسان وأبطالها، ولم تكن منزّهةً من انتهاكاتٍ مفضوحةٍ لهذه الحقوق.

فمنها مَن يمنع أقلّيّات بلدانها من ممارسة شعائرها الدينيّة، ويخضعها لشرائع ليست شرائعها، ومنها من يعبث بسيادة جيرانه.

وآلمه، أيضًا، انضمام دولٍ مسيحيّةٍ إلى فريق الحرب، وأذهله التوافق شبه الدوليّ الشامل على إنهاء أزمة الخليج، بمنأًى عن الحكمة والتروّي، ومبادئ الأخلاق، في حين لا يكاد أحدٌ يعير بالاً لمآسٍ مزمنةٍ، لا تقلّ خطورةً، وإلحاحًا، وخطورةً، وهمًّا إنسانيًّا، ولا سيّما مأساة مئات ألوف اللاجئين الفلسطينيّين المشتّتين في منطقة الشرق الأوسط عينها، والظلم اللاحق بسكّان غزّة والضفّة الغربيّة، والمأساة اللبنانيّة التي طال أمدها. وتمنّى أن يُعقَد، في الحال، مؤتمر سلامٍ، يوفّر حلاً عادلاً لكلّ مآسي الشرق الأوسط، بما فيها أزمة الخليج.

ومن الظواهر المدهشة في هذا المضمار تآمر الإعلام العالميّ مع الأميركيّين وأمراء الحرب، من أجل إغفال مساعي البابا ونداءاته السلميّة، والجهد في حجبها عن علم العموم، وفي خنق صوته.

وبعد أن اصطدمت كلّ مساعي يوحنّا بولس الثاني السلميّة، بالتآمر الدوليّ، وبعد أن تبوّأت المصالح الرخيصة الأفضليّة على مقتضيات الضمير، لجأ الحبر

الأعظم إلى محاولةٍ أخيرةٍ. فيومين قبل إعلان الحرب أنفذ إلى كلٍّ من فريقي الصراع خطابًا، لعلّه يوقظ ضميرهما على خطورة ما كانا مقدمين عليه.

لجورج بوش، بصفته قائد الحملة الحربيّة قال:

«خلال الأيّام المنصرمة، معبّرًا عن مشاعر وهواجس ملايين البشر، شدّدتُ على العواقب المأسويّة التي قد تسبّبها حربٌ في هذه المنطقة من العالم. وأودّ الآن تأكيد قناعتي الراسخة بتعذّر أن تؤتي الحرب جوابًا مناسبًا للمشاكل الدوليّة؛ فحتّى لو تمّ حلّ وضعٍ خاطئٍ، آنيًّا، إلاّ أنّ اللجوء إلى الأسلحة، وبخاصّةٍ أسلحة اليوم الممعنة في التطوّر سيُنتجً، فضلاً عن الآلام والتدمير، مظالم جديدةً قد تكون أشدّ خطورةً.

«سيّدي الرئيس، إنّي واثقٌ أنّكم، مع معاونيكم، قد رزتم، بوضوحٍ، كلّ هذه العوامل، وأنّكم لن تضنّوا بجهودكم لتجنّب القرارات التي سيتعذّر تلافي عواقبها، والتي ستصيب آلاف الأسر بالآلام، بين مواطنيكم، والكثير من شعوب الشرق الأدنى.

«وفي هذه الساعات الأخيرة التي تسبق الموعد النهائيّ المحدّد من قبل مجلس الأمن، أرجو، حقًّا، وألتفت بإيمانٍ حيٍّ نحو الربّ، كي ينقذ السلام. وأرجو أن يُفضي جهدٌ أخيرٌ نحو الحوار، إلى إعادة السيادة لشعب الكويت، وأن يستتبّ النظام الدوليّ الذي يقوم عليه تعايش الشعوب في منطقة الخليج، وفي كلّ الشرق الأدنى.

«أستنزل عليكم فيض بركات الله، وفي هذه اللحظة، لحظة المسؤوليّات الخطيرة حيال بلدكم، وحيال التاريخ، أرجو الله، خاصّةً، أن ينيركم، فتتّخذوا قراراتٍ تخدم، حقًّا، خير مواطنيكم، والجماعة الدوليّة جمعاء».

ولكن اتّضح بجلاءٍ أنّ جورج بوش، وملهمته كوندليزا رايس، ومستشاريه وصديقه المتواطئ، توني بلير، لم يكونوا طلاّب سلامٍ، وأنّهم كانوا قد أعدّوا مسبّقًا للحرب، بدوافع مشبوهةٍ، مزرين بكلّ اعتبارٍ أخلاقيٍّ، أو دينيٍّ، أو إنسانيٍّ.

وبالمقابل، دعا البابا صدّام حسين إلى مبادرةٍ شجاعةٍ **«تمثّل خطوةً تاريخيّةً كبرى، كفيلةً بتسجيل انتصار العدالة الدوليّة، وغلبة السلام، الذي تصبو إليه جميع الشعوب حسنة النيّة»**.

بيد أنّ كلّ شيءٍ كان قد أُعدّ، بمكرٍ، لكيلا تؤتي أيّة مبادرةٍ سلميّةٍ ثمارًا.

ومع ذلك، أعاد يوحنّا بولس الثاني، مساء ١٩٩١/١/١٦، الاتّصال بالرئيس الأميركيّ لعلّه يوفّق إلى ثنيه عن عزمه.

ولم تكرّ سوى سويعاتٍ معدوداتٍ على هذا الاتّصال، عندما أيقظ رئيسُ جمهوريّة إيطاليا الحبرَ الأعظم، كي يبلّغه بدء العمليّات العسكريّة في الخليج، ولم تكن الساعة قد أعلنت، بعدُ، الواحدة من فجر ١٩٩١/١/١٧.

ومنذ صباح ذلك اليوم دعا البابا معاونيه إلى اجتماعٍ في الڤاتيكان، وحرص على أن تُبثّ نقاشاته على شاشات التليفزيون، كي يكون لها وقعٌ دوليٌّ. وقد افتتح هذا الاجتماع معلنًا، بأسًى: «**فعلتُ كلّ ما أمكنني فعله، بشريًّا، كي أدرأ هذه المأساة**».

لقد فشل في منع تلك الحرب، التي كان يخشى أن تحفر هوّةً بين الغرب والشرق، وبين الشمال والجنوب، وأن تؤجّج العداوة بين الإسلام والمسيحيّة. وكان يؤرّقه الخوف على مستقبل المسيحيّين المشرقيّين، وأن تشرع هذه الحرب النافلة سلسلةً لا نهاية لها من النزاعات والعنف والمجازر. فقد كان يراها مغامرةً مأسويّةً، وسبيلاً لا يليق بالبشر، وتهديدًا للبشريّة جمعاء.

كان هوى الإنسان هاجسه. وقد باح للرئيس الپولونيّ، ليش ڤاليسّا، في ١٩٩١/٢/٧، أنّ النوم غدا يجفوه، وأنّه لا يني يتساءل كيف يمكن، في عالم اليوم، استمرار محاربة الناس بعضهم بعضًا.

وبغيةَ الحدّ من عواقب تلك الحرب الوبيلة دأب على إيضاح أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة، والعالم المسيحيّ عامّةً، غير متضامنين مع التدخّل العسكريّ الذي قادته الولايات المتّحدة الأميركيّة وحلفاؤها، وأنّ موقف الكنيسة لا يتناغم مع مصالح دولٍ تدّعي المسيحيّة، ويتباين عنها.

ليلة ١٩٩١/١/١٧، كتب سفير فرنسا في الڤاتيكان: «بدا البابا أعزل. وخسر رهانه. ولكن، بعد مضيّ سنواتٍ سيدرك العالم أن نبوءته صائبة». وها نحن نرى أن القضيّة العراقيّة لم تصل إلى حلٍّ، بل ما انفكّت تتفاقم سوءًا.

يوحنّا بولس الثاني والجامعات الكاثوليكيّة

في هذه الأثناء، واصل الحبر الأعظم نشاطه الحافل، داخليًّا وخارجيًّا. وقد أولى اهتمامًا خاصًّا بالجامعات الكاثوليكيّة، ولا سيّما أنّ تدريسه في جامعتَيْ «ياجلّون» و«لوبلان» البولونيّتين، كان واحةً حقيقيّةً، في صحراء من الأكاذيب. فعكف على وضع دستورٍ جديدٍ، ينظّم الحياة الفكريّة الكاثوليكيّة في القرن الحادي والعشرين، أسماه «من قلب الكنيسة» (Ex corde Ecclesiae). وقد حملت مقدّمة هذا الدستور دمغة فكره، وأوضحت أنّ دعوة الجامعة الكاثوليكيّة هي الدفاع عن «**النزعة الإنسانيّة الشاملة، وتكريس ذاتها، بالكامل، لبحث كلّ وجوه الحقيقة، في علاقتها الجوهريّة مع الحقيقة السميا، أي الله، موضحًا أنّ كلّ معرفةٍ هي انعكاسٌ للمسيح، الكلمة، فهو «الوحيد القادر على منح هذه الحكمة، التي بمعزلٍ عنها، سيكون مستقبل العالم مهدّدًا**»».

هذا الدستور ذكّر الجامعات الكاثوليكيّة، التي ذهل بعضها عن هويّته، وحاد بعضها عن هدفه، بأنّها جزءٌ من رسالة الكنيسة، فهي نابعةٌ «من قلب الكنيسة»، وعليها أن تعكس هذا الواقع. وقد رحّبت الجامعات الأوروبّيّة، والأميركيّة اللاتينيّة، عامّةً، بهذا الدستور، وإن أبدى بعضها تحفّظاتٍ طفيفةً. أمّا الجامعات الكاثوليكيّة في الولايات المتّحدة، فقد عدّته انتهاكًا لاستقلاليّتها. فقد كانت هذه الجامعات تؤثر منافسة جامعات النخبة الأميركيّة، على الالتزام بهويّتها الكاثوليكيّة، مع أنّ الجامعات الحرّة الأُخرى كانت تواجه اضطرابًا فكريًّا وأخلاقيًّا حادًّا. وتمادى النقاش بين هذه الجامعات ويوحنّا بولس الثاني، الذي كان على يقينٍ بأنّ القضيّة الأساسيّة التي تواجه المجتمعات الحرّة، إثر انهيار إمبراطوريّة الكذب، تكمن في العلاقة بين الحرّيّة والحقيقة، على ضوء عِبَر ثورة **١٩٨٩**.

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى أفريقيا

في هذه الأثناء، كانت الأحداث العالميّة تتسارع، ولم يكن يوحنّا بولس الثاني بعيدًا عنها.

ففي العاشر من شهر حزيران ١٩٩٠، استقبل بطل استقلال أفريقيا الجنوبيّة، «نيلسون مانديلاّ». وفي التاسع من أيلول، فُجع بنبأ مصرع الكاهن الأرثوذكسيّ المقاوم للشيوعيّة، «الكسندر مِن»، بطريقةٍ همجيّةٍ، في موسكو. وفي الرابع والعشرين من الشهر عينه، استقبل، في الڤاتيكان، كلاًّ من بطريرك القسطنطينيّة الأرثوذكسيّ، ورئيس تشيكوسلوڤاكيا الجديد، «ڤاكلاڤ هاڤيل».

وبين الأوّل والتاسع من أيلول، قام برحلةٍ رسوليّةٍ أُخرى إلى أفريقيا، شملت كلاًّ من تنزانيا، وبوروندي، ورواندا، وساحل العاج، فيما كان ما برح يؤرّقه هاجس حرب الخليج، وواجب السعي إلى درء أخطارها.

وفي أفريقيا، كان عليه أن يواجه قضيّة غياب الديمقراطيّة، وانتشار داء الإيدز، انتشارًا مريعًا، وكان يؤلمه أن تصبح العلاقات الجنسيّة والدم، وهي رموز الحياة، أدواتٍ للموت.

في جميع تلك الدول الأفريقيّة التي زارها، كان الكاثوليكيّون أقلّيّةً، والحوار مع المسلمين متعثّرًا. ومع ذلك، لم يفتقر إلى اكتشافاتٍ مدهشةٍ. فلدى وصوله إلى «ياموسوكرو» في ساحل العاج، حيث كان مقرّرًا أن يُعقَد أوّل سينودُس أساقفةٍ أفريقيّين، فاجأه مشهد كنيسةٍ مبنيّةٍ على صورة كاتدرائيّة القدّيس بطرس في الڤاتيكان، مزروعةٍ في عقر الصحراء، وفي قلب البؤس. وكان هذا الإنجاز مبادرةً من رئيس البلاد العجوز «فيلكس هوفويت بوانيي»، الذي أحبّ إهداءها للبابا، وللكنيسة.

ومع إشادة الحبر الأعظم بالتعايش السلميّ بين أتباع دياناتٍ مختلفةٍ، في أفريقيا، أجاب على سؤالٍ حول عنف فئةٍ من الإسلاميّين المتطرّفين، أنّ يسوع لم يكن، يومًا، قائدًا حربيًّا، بل كان رسولاً، وأرسى كنيسته على تلاميذه الرسُل، والكنيسة عازمةٌ على المضيّ قُدُمًا في مهمّتها الرسوليّة.

إثر عودته من رحلته الأفريقيّة، افتتح، في الثلاثين من أيلول، سينودُس الأساقفة الثامن، الذي استمرّ حتّى الثامن والعشرين من تشرين الأوّل، وبحث قضيّة تنشئة الكهنة.

وفي ١٨/١٠/١٩٩٠، أصدر قانون الكنائس الشرقيّة، وفي ذلك اليوم عينه، التقى، ثانيةً، في الفاتيكان، الرئيس السوفييتيّ «ميخائيل غوربتشيف».

رسالة الكنيسة

كانت المسيحيّة قد نمت عددًا في القرن العشرين، ولكنّ هذا النموّ لم يتناسب مع النموّ السكّاني العالميّ العامّ، لا بل إنّه، نسبيًّا، أظهر دلائل تدنٍّ، إذ هبطت نسبة المسيحيّين إلى مجمل عدد سكّان العالم من ٣٤.٤٪ إلى ٣٣.٣٪. ولبثت أجزاءٌ واسعةٌ من العالم، كالهند، والشرق الأقصى، تجهل الإنجيل.

ولكن، في أعقاب المجمع الفاتيكانيّ الثاني، تضاربت الآراء حول الرسالة في الكنيسة، وذهبت بعض هذه الآراء، في مجال التطرّف والشذوذ، مذاهب غير مقبولةٍ. فادّعى بعض اللاهوتيّين أنّ رسالة الكنيسة إلى «الأمم»، قد انتهت. وادّعى آخرون أنّ رسالة الكنيسة، اليوم، تنحصر في تحقيق العدالة الاجتماعيّة. وآخرون رأوا في التبشير بالإنجيل ضربًا من الاستعمار، مدّعين أنّ التبشير يعني فرض عقائد غريبةٍ. وذهب آخرون إلى أنّ على الكنيسة أن تعلّم الديانات الأُخرى، عوضًا عن السعي إلى نشر عقيدتها، فقد يكون أرباب دياناتٍ أُخرى، وسائل فداءٍ، مثل يسوع.

وكان قد عُقِد، بهذا الشأن، مطلعَ عام ١٩٨٨، مؤتمرٌ من أجل بحث موضوع رسالة الكنيسة، تحت عنوان «الخلاص اليوم»، في إطار «جامعة الكنيسة الرومانيّة الرسوليّة»، في تشيكوسلوفاكيا. وقرّر عميد تلك الجامعة، الكردينال «جوزيف تومكو» (Jozef Tomko)، إطلاق ما دعاه «تحدّيًا». فعدّد ادّعاءات بعض اللاهوتيّين، الذين تساءلوا عن الداعي إلى نشر الإنجيل، بما أنّ الإنجيل ليس وسيلة الخلاص الوحيدة، ولا كتاب الوحي الوحيد. وقد أثار خطاب الكردينال جدَلاً واسعًا، ودُوِّنت بشأنه، مجلّداتٌ.

وتنطّح الحبر الأعظم لمواجهة هذا الجدل، وليدلي برأيه فيه، فهو لم يكن يؤمن، فقط، بأنّ للكنيسة رسالةً في العالم، بل كان يؤمن أنّها هي، في ذاتها،

رسالةٌ. ولهذا الغرض وقّع في ١٩٩٠/١٢/٧، رسالته العامّة الثامنة، بعنوان «رسالة المخلّص» (Redemptoris missio)، فأكّد «**أنّ الكنيسة، بطبيعتها، رسوليّة**»، وأنّ كلّ مسيحيٍّ مدعوٌّ إلى الرسالة. فالدعوة الشاملة إلى القداسة، هي دعوةٌ شاملةٌ إلى التبشير بالإنجيل. فالإنجيل بشرى ينبغي اقتسامها. وإشراك الآخرين بيسوع هو العمل الأمثل الذي يتعيّن على المسيحيّ، وعلى الكنيسة النهوض به. والإيمان يكتسب مناعةً عندما يُقتَسَم مع آخرين. وقد ذكّر البابا المسيحيّين، على عتبة القرن الحادي والعشرين، أنّ رسالة الكنيسة، وهي مواصلة رسالة المسيح، ما برحت في بدئها، وهي تقوم على عقيدتي التجسّد والثالوث الأقدس. فاللّه قد تجسّد في شخص ابنه يسوع، من أجل خلاص العالم، وهو ثالوث أقانيم تهب ذاتها، وعلى غرارها ينبغي أن تكون الكنيسة جماعة مرسلين، يعلّمون جميع الأُمم ما أعلنه اللّه عن ذاته، من خلال يسوع المسيح.

ولم ينكر البابا وجود عناصر خلاصيّةٍ في الديانات الأُخرى، ولكنّه شدّد على أنّ «**الوحي الإلهيّ بلغ مداه الأقصى والمطلق في ابن اللّه، وأنّ يسوع ليس مظهرًا من مظاهر اللّه الأُخرى في العالم، بل هو كلمة اللّه الذي تجسّد... من أجل خلاص الجميع**».

جميع الحقائق التي تعلّمها الديانات الأُخرى، تتطلّع إلى الحقيقة المعلنة، من خلال يسوع المسيح، وتكتمل فيه. والخلاص الذي جاء به يسوع مهدًى للجميع، حتّى للذين لم يتنامَ الإنجيل إلى علمهم، والذين لا ينتمون، رسميًّا، إلى كنيسته. وهذا الخلاص الذي أراده اللّه للجميع، ينبغي أن يوضع بمتناول الجميع. تلك هي علّة وجود رسالة الكنيسة إلى الأمم.

وأقرّ يوحنّا بولس الثاني أنّ الذين لم تُتَحْ لهم معرفة يسوع، يمكن أن يخلصوا بنعمةٍ من يسوع، وبفضل تضحيته الفدائيّة. وعلى الذين اعترضوا بأنّه، إن كانت هذه هي الحال، فعلامَ إيلاء شأنٍ كبيرٍ للرسالة، ردّ البابا أنّ الكنيسة هي، بطبيعتها، رسالةٌ، وإنكار هذا الواجب هو انفصالٌ عن كنيسة العهد الجديد. إنّ الرسالة المسيحيّة هي شكلٌ من الخضوع لوصيّة محبّة القريب، وقيامٌ بالواجب تجاه الغير، الذين يحقّ لهم معرفة المسيح، واختيار الإيمان به. لقد خلّصنا يسوع،

وما عزْمُنا على اقتسام بشراه مع الآخرين، سوى الدليل على تقديرنا لعظمة نعمة الخلاص التي وُهبناها. وأخيرًا، الرسالة هي ما يقتضيه الربّ منّا، فهو الراعي الذي يسعى وراء النعجة الضالّة، وعلى الكنيسة أن تحذو حذوه، وتكون مرسلةً.

وعلى تساؤلٍ: «من ينبغي أن نبشّر؟»، أجاب، بلا مواربةٍ: الجميع! فمن أشكال الرسالة، العون الراعويّ لأبناء الكنيسة، وأيضًا إعادة تبشير من فقدوا الإيمان المسيحيّ، أو الذين تلقّوا تعليمًا هزيلاً أو رديئًا؛ وأخيرًا، الأمم والبلدان التي ما برحت تجهل المسيح وإنجيله؛ والجماعات المسيحيّة التي لم تبلغ، بعدُ، مستوى نضجٍ يؤهّلها للقيام بدور الرسالة.

وأشار الحبر الأعظم إلى جهاتٍ ثلاثٍ، تحتاج إلى الرسالة في الألفيّة الثالثة: الجهة الأولى جغرافيّةٌ، وهي، على نحوٍ خاصٍّ، آسيا، حيث مازالت الرسالة مقصّرةً. الجهة الثانية ديمغرافيّةٌ، وتشمل البيئات الجديدة الناتجة عن الحداثة، والتي تقتضي عناية الكنيسة الرسوليّة، أي المناطق التي مُدّنت بكثافةٍ مرتَجلةٍ في البلدان النامية، فضلاً عن الشبيبة، والمهاجرين، واللاجئين القادمين من مناطق مسيحيّةٍ. أمّا الجهة الثالثة، فهي ثقافيّة، وتتناول وسائل الإعلام، والبؤر العلميّة، والحركات النسائيّة، والمشاريع الهادفة إلى حماية الأحداث، وحماية البيئة، والمؤسّسات الدوليّة الحقوقيّة والسياسيّة، والتي تنتظر، جميعها، أجوبةً على الأسئلة الإنسانيّة الحارقة. ومع جميع هذه الجهات، دعا البابا إلى استخدام وسيلة الحرّيّة، فعلى الكنيسة أن تقترح، ولا تفرض شيئًا، محترمةً الأفراد، والتقاليد والثقافات، والضمائر.

وأوضح أنّ الوسيلة المثلى للتعليم هي المثل والقدوة. فلطالما تجلّت حقيقة المسيحيّة من خلال سلوك مسيحيّين، أكثر ممّا تجلّت من خلال التعليم. فما التعليم سوى إكمالٍ لقدوة السلوك. والذين شهدوا أفعال الحبّ، كانوا أقدر على فهم أنّ الله حبٌّ. وكان مثال مرسلات المحبّة، ومؤسِّستهنّ، الأمّ تيريزا، أنجع وسيلةٍ كي تتمثّل الثقافة الهنديّة، معنى المسيحيّة.

وأشار البابا إلى أنّ الاستشهاد يبقى الدليل الأشدّ إقناعًا على حقيقة الإيمان

المسيحيّ. ونوّه، أيضًا، بالتعاون المسكونيّ، وبالحوار بين الطوائف، بصفتها «دروب رسالةٍ»، مؤكّدًا أنّ توثيق عرى الوحدة بين المسيحيّين، كفيلٌ بتسهيل التوجّه نحو غير المسيحيّين.

وأوضح ضرورة أن يسترشد ما سمّي «الانثقاف» (أي السعي إلى «ترجمة» الحقيقة المسيحيّة إلى لغةٍ ثقافيّةٍ محلّيّةٍ غير مسيحيّةٍ) بمبدأيْن: التوافق مع الإنجيل، والتواصل مع الكنيسة الجامعة. وكلّ «انثقافٍ» يجرّد الإنجيل من طابعه المميّز، هو تسويةٌ.

وبالإجمال أعلن أنّ مهمّة الكنيسة الأولى، ومساهمتها الكبرى في إنماء الشعوب، هو صوغ الضمائر، فبتوفيرها للناس فرصةً لمزيدٍ من الكيان، وبإيقاظها الضمائر بواسطة الإنجيل، ستسهم الكنيسة في تحرير البشر. وبفضل هذا المزيد من الكيان، يتمكّن البشر من تعرّف كرامتهم، وما ينتج عنها من حقوقٍ، ومن ممارسة التضامن، الذي ينبغي أن يسود العلاقات بين الشعوب والأمم.

ولجميع المشكّكين بضرورة التبشير، أجاب يوحنّا بولس الثاني أنّ الكنيسة ستنتهي يوم ستكفّ عن التبشير بيسوع المسيح.

وللذين يخشون تبعات التعدّديّة، قال إنّ التسامح ليس تمويه الخلافات، بل مقاربتها باحترامٍ متبادلٍ، وبتصميمٍ على أن تكون اختلافات الرأي والنظريّات، هي الخلاف الوحيد بين الأطراف.

وأكّد، أيضًا، أنّ تعاليم الإنجيل هي ضرورةٌ جوهريّةٌ لمجتمعٍ مدنيٍّ وللسلام، لأنّ مجتمعًا مدنيًّا حقيقيًّا قادرًا على ممارسة تسامحٍ حقٍّ، يجب أن يقوم على أُسس احترام حقوق الإنسان، التي لا يجوز التصرّف أو العبث بها. فالذين يؤمنون بواجب احترام قناعات جيرانهم الدينيّة، هم ذاتهم المدافعون عن حقوق الإنسان، وعن الحرّيّة الدينيّة، وعن «محراب الضمير» في إطار مجتمعٍ مدنيٍّ حرٍّ.

ومن المحقّق أنّ هذا البحث في رسالة المسيحيّة، قد أحدث انعكاساتٍ واسعةً على طريقة تفكير المسيحيّين، وعلى أسلوب صوغهم لعالم الألفيّة الثالثة.

وإلى ذلك، استمرّ يوحنّا بولس الثاني في تدبيج رسائل، كانت صوًى مضيئةً ترشد مسيرة الكنيسة. فأصدر في ١٩٩٠/١٢/١٤، رسالةً بعنوان «القدّيس يوحنّا الصليب، معلّم الإيمان»، وكان قد بنى على هذا الموضوع أُطروحته لنيل الدكتورا.

وبعد نحو عشرة أيّامٍ، أصدر رسالةً أُخرى تدعو إلى السلام في الخليج.

وكان، في الأوّل من كانون الأوّل، قد عيّن الأسقف «أنجيلو سودانو»، خلفًا للكردينال كازارولّي، لتولّي شؤون الكرسيّ الرسوليّ الخارجيّة.

الرسالة العامّة: «السنة المئة»

حفل العام ١٩٩١ بالتطوّرات الجوهريّة، وكان ليوحنّا بولس الثاني، بالإجمال، عامًا صعبًا، رغم العديد من الأحداث السعيدة.

بتاريخ ١/١٥، وجّه الحبر الأعظم رسالةً إلى كلٍّ من جورج بوش وصدّام حسين، في مسعًى جديدٍ إلى تفادي الحرب.

وفي ١/١٦، تحرّرت كنيسة أوكرانيا الكاثوليكيّة. وفي الخامس من شباط، زار الڤاتيكان زيارةً رسميّةً، «ليش ڤاليسّا»، الذي كان قد انتُخب حديثًا، رئيسًا لجمهوريّة پولونيا. وفي الثالث من أيّار، زار الڤاتيكان ملك السويد، «شارل غوستاڤ» السادس عشر.

بين الرابع والخامس من آذار، دعا الحبر الأعظم في سينودُسٍ استثنائيٍّ لأساقفة الشرق، المتأثّرين مباشرةً بحرب الخليج. وبين الرابع والسابع من نيسان، دعا إلى مجمع كرادلةٍ استثنائيٍّ، لبحث قضايا الحياة، والتبشير الجديد.

وفي هذه الأثناء أيضًا، التقى أساقفة البرازيل، في الڤاتيكان، وبحث مع إداريّي الڤاتيكان في أمور الكرسيّ الرسوليّ الماليّة؛ وعكف على إعادة تنظيم الكنيسة الكاثوليكيّة، في كلٍّ من بييلوروسيا، وروسيّا، وكازاخستان.

وفي الأوّل من أيّار ١٩٩١، وبمناسبة الذكرى المئويّة للرسالة العامّة التي كان قد

أصدرها البابا لاون الثالث عشر، بعنوان «أمورٌ جديدةٌ» (Rerum Novarum)، أصدر يوحنّا بولس الثاني رسالته الاجتماعيّة الثالثة، بعنوان «السنة المئة»، (Centesimus Annus)، ومن خلالها بسط آراءه الخاصّة بخصوص أسباب ثورة ١٩٨٩ ومعانيها، ورسم ملامح المستقبل، ومستجدّات القرن الحادي والعشرين. وفي الآن عينه، دعا إلى التوسّع في تعليم الكنيسة الاجتماعيّ، توسُّعًا خلاّقًا.

وبما أنّه كان عليه التطرّق، في هذه الرسالة، إلى قضايا اقتصاديةٍ، فقد استقدم مجموعةً من أشهر الاقتصاديّين، واستشارهم، واستعان بآرائهم، وأدهش كثيرين منهم بإصغائه الذكيّ والجادّ، وببساطته وتواضعه؛ وحرص على أن يُسبغ على النظرة الاقتصاديّة طابعًا أخلاقيًّا، وعلى أن يُبرز في «الشخص الاقتصاديّ»، العامل الأدبيّ المتمتّع بالفهم والإرادة الحرّة. فكانت رسالته جمعًا لتعليم الكنيسة الاجتماعيّ، ولنظرته الفلسفيّة الشخصيّة حول الكائن البشريّ، وتطلّعاته إلى القرن الحادي والعشرين.

استهلّ رسالته بتحيّة سلفه لاون الثالث عشر، مذكّرًا بما دعا إليه، والذي يمثّل إرث تعليم الكنيسة الاجتماعيّ: كرامة العمل والعمّال، حقّ الملكيّة الخاصّة ومسؤوليّاتها، حقّ المشاركة وتكوين النقابات، والحقّ في مكافأةٍ عادلةٍ، وحقّ الحرّيّة الدينيّة. وأشاد بصحّة ما تنبّأ به لاون الثالث عشر، بأنّ كلّ نظامٍ اقتصاديٍّ واجتماعيٍّ، مبنيٍّ على تجاهل كرامة الإنسان، وإنكار الله، سيُمنى بالفشل المحتّم، وسيقود إلى آلامٍ بشريّةٍ مريعةٍ.

وشدّد على نظرةٍ غاليةٍ عليه، وهي أنّ الثقافة هي محرّك التاريخ، وليس الاقتصاد أو أيّة قوّةٍ مادّيّةٍ. ورأى أنّ أحداث ١٩٨٩ مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بالثقافة.

وإلى ذلك، عدّد عوامل خطيرةً، مثل:

– انتهاك حقوق العمّال، من قبل نظامٍ يدّعي الحكم باسمهم. فباسم التضامن اكتشف العمّال، من جديدٍ، تعليم الكنيسة الاجتماعيّ، الذي دفعهم إلى المقاومة، بالمعارضة السلميّة التي لا تستخدم سوى سلاح الحقيقة والعدالة.

وأكّد أنّ الالتزام السلميّ، الذي هدى بشرًا أحرارًا إلى وسائل مجديةٍ للشهادة للحقيقة عوضًا عن اللجوء إلى الحرب، فضح بطلان النظرة الماركسيّة التي تصعّد الصراعات الاجتماعيّة من أجل تبرير المواجهة العنيفة.

– الفشل الاقتصاديّ الناتج عن انتهاك حقوق المبادرة الفرديّة، والملكيّة؛ إذ إنّ إخضاع الثقافة للاقتصاد، قد لاشى قضايا الحياة الجوهريّة، وأدّى، حتمًا، إلى التفكّك الاجتماعيّ.

– الفراغ الروحيّ الذي أحدثه النظام الماركسيّ، بادّعائه اجتثاث الحاجة إلى الله، من قلوب البشر، ما برهن على استحالة ذلك، إلاّ بإغراق القلب البشريّ في الاضطراب.

وخلص الحبر الأعظم إلى تأكيد أنّ الإنسانيّة المسيحيّة، التي تترجم الحقائق الدائمة الثاوية في الطبيعة البشريّة، عرفت التحدّث إلى قلوب البشر المضطربة. وعندما توفّر عددٌ كافٍ من الأشخاص، الذين استعادوا قدرًا وافيًا من الوعي والجرأة كي يصرخوا «لا»، في وجه الكذب الشيوعيّ، انهارت الشيوعيّة وكذبتها الكبرى. ذلكم كان تفسير يوحنّا بولس الثاني لأحداث ١٩٨٩.

وقد أوضح البابا أنّ ليس من شأن الكنيسة تقديم نموذجٍ اقتصاديٍّ. ولكنّه أكّد كتاباته السابقة، حيث رأى أنّ على المجال الاقتصاديّ أن يكون تعبيرًا عن الإبداعٍ، وساحةً للمسؤوليّة الأخلاقيّة، وشدّد على واجب توزيع الثروات توزيعًا عادلاً، فالله قد وهب الأرض لكلّ ساكنيها، وعلى جميع خيرات الأرض أن تُستخدَم لخير الجميع.

وأشار قداسته إلى مستجدّات العصر، وهي أنّ ثروات الأمم التي تكمن في الفكر البشريّ، هي أكثر وأثمن من تلك المكنونة في الأرض، وهي حصيلة الجهد، والإبداع، والمبادرة. فعلى البشر استغلال طاقاتهم الخلاّقة من أجل إنتاج ثروةٍ وقِيَمٍ جديدةٍ.

وقد فضح فشل الشيوعيّة التي أنكرت الله والإنسان. وفي الآن عينه، تحدّى الرأسماليّة، وحذّرها من الوقوع في مثل ذلك الإنكار والفشل.

وبالإجمال، لم تكن رسالته رسالةً اقتصاديّةً، بل دعوةً إلى مجتمعٍ يقرن الحرّيّة بالفضيلة، ويمثّل نموذجًا مبتدعًا. وكانت، في الواقع، تحدّيًا لكلّ المجتمعات والأنظمة القائمة، وأكّدت أنّ كلّ نشاطٍ سياسيٍّ، إن لم يكن قائمًا على حقائق ثابتةٍ، فسيكون من السهل عليه التلاعب بالآراء والقناعات، واستخدامها لأغراض السلطة. وقد بيّن تاريخ القرن العشرين، كيف أنّ ديمقراطيّةً خاليةً من القيَم، كفيلةٌ بأن تتحوّل إلى توتاليتاريّةٍ معلنةٍ أو مموّهةٍ.

ولا مراء أنّ هذه الرسالة قد صدمت الكثيرين من أتباع الاشتراكيّة والليبيراليّة على السواء، وأثارت الكثير من الجدل، بيد أنّها انطوت على إعلان إيمانٍ ورجاءٍ في الحرّيّة، وفي قدرة البشر على تنظيم الحياة العامّة في لياقةٍ وعدالةٍ. ولم يكن اقتراح يوحنّا بولس الثاني ثمرة تفاؤلٍ طوباويٍّ، بل ثقةً في الله، وفي الإنسان الذي زوّده الله بالعقل، وبإرادةٍ حرّةٍ.

رحلةٌ فاشلةٌ إلى پولونيا

بين الأوّل والتاسع من حزيران ١٩٩١، قام يوحنّا بولس الثاني برحلةٍ إلى موطنه الأصليّ، كانت الرابعة بعد انتخابه حبرًا أعظم، والأولى التي عقبت انحسار الاحتلال السوڤييتيّ. وقد زار، خلالها، أكثر من اثنتي عشرة مدينةً پولونيّةً، ولاقى استقبالاً شعبيًّا حارًّا، وترحيبًا بمحرّر البلاد.

ولكن يبدو أنّ هوّةً كانت قد حفرت بين تطلّعات البابا، وتوقّعات الشعب، فهم كانوا يأملون أن يشاركهم فرحة التحرير، الذي كان له اليد الطولى في تحقيقه، في حين كان هو قد تخطّى مرحلة البهجة إلى مرحلة إرساء قواعد مستقبلٍ سليمٍ، ومرحلة تحذيرهم من حرّيّةٍ على النمط الغربيّ، منعتقةٍ من كلّ قيدٍ أخلاقيٍّ. وقد ركّز مواضيع زيارته على الوصايا العشر، التي ينبغي أن تكون الأساس الأدبيّ لمجتمعٍ مدنيٍّ قادرٍ على ممارسة الديمقراطيّة. ومن ثمّ، فعندما هو دعاهم إلى عيش حرّيّتهم بشرفٍ ونبلٍ، خُيِّل إليهم أنّه يؤنّبهم ويعارضهم.

وكانت الكنيسة الپولونيّة، هي أيضًا، تبحث عن دورها الجديد، في إطار

سياسةٍ جديدةٍ. فسحابة مرحلة القمع، التي امتدّت على اثنتين وأربعين سنةً، كانت تضطلع بدور المقاومة، فالتفّ الشعب كلّه حولها، وشاركها المقاومة، وها قد بات عليها أن تتولّى مهمّة محاورة شعبها، وتثقيفه، دينيًّا وسياسيًّا، وتأهيله لممارسة الديمقراطيّة. وبعد أن حمت البلاد، غدا عليها أن تحمي الإنسان.

وقد أسهمت وسائل الإعلام في توسيع الشقّة بين رؤية البابا إلى القضايا المستجدّة، ورؤية بعض المثقّفين، الذين انتقلت إليهم عدوى مثقّفي الغرب. فارتأى بعضهم انتهاج موقفٍ حياديٍّ، وإرجاء بحث القضايا الأخلاقيّة. وسايرهم، في هذا النهج، بعض المسؤولين الكنسيّين المحلّيّين. فعلى سبيل المثال، كان الحكم الشيوعيّ قد شرّع الإجهاض في الخمسينات، بغية تشجيع الانفلات الجنسيّ. وتوقّع البابا أن تقف الكنيسة الپولونيّة موقفًا حازمًا في مكافحة هذا القانون، ذودًا عن حقّ الأجنّة بالحياة، ولأنّ تشريع الإجهاض ينتهك قواعد الديمقراطيّة الأخلاقيّة، ولكنّ الكنيسة صمتت، واكتفى مسؤولوها بالإجابة، إن هم سُئلوا، أنّ الإجهاض حرامٌ. أمّا الصحافة الپولونيّة العلمانيّة المستقلّة، فقد اعتبرت الإجهاض قضيّة حرّيّةٍ شخصيّةٍ، ووصفت موقف الكنيسة بهذا الشأن، «بالطغيان الأسود»، إشارةً إلى «الطغيان الأحمر» الذي كانت الدولة تمارسه.

وفضلاً عن هذه التباينات في المواقف المبدئيّة، واجه الحبر الأعظم خلافاتٍ محلّيّةً، مثل استيلاء الكنيسة اللاتينيّة، على كنيسةٍ تخصّ كاثوليكيّين يتّبعون الطقس البيزنطيّ، في مدينةٍ تقع على حدود أوكرانيا. وكان يوحنّا بولس الثاني قد أمر بإعادتها إلى أصحابها، فأعادها اللاتينيّون، لمدّة خمس سنواتٍ فقط، ريثما يتدبّرون وسيلةً للتحايل على أمر البابا. وقد أثار هذا السلوك المخادع غضب الحبر الأعظم العلنيّ، للمرّة الأولى في حياته. فأمر بإشادة كاتدرائيّةٍ جديدةٍ، بيزنطيّة الطراز، تكون مقرًّا لأسقف الكاثوليكيّين اليونانيّين، والإعلان، رسميًّا، أنّ هذا الأسقف هو مبعوث الحبر الأعظم. ودُعي آلاف الكاثوليكيّين إلى المشاركة في قدّاس البابا، الذي عاد، مع ذلك، من زيارته إلى پولونيا، قبل أن تتحقّق مصالحةٌ كاملةٌ ونهائيّةٌ، بين اللاتينيّين واليونانيّين.

أمرٌ آخر نغّص زيارة البابا تلك. فهو كان راغبًا في قضاء بضعة أيّام نقاهةٍ،

على قمّة جبال تاترا العزيزة عليه. ولكنّ الحكومة الجديدة تخاذلت عن تلبية رغبته، متأثّرةً بموقف قسمٍ من الصحافة، التي انتقدت تكاليف هذه العطلة البابويّة، فصدف البابا عن مشروعه هذا، بعد أن قرأ في موقف الصحافة والحكومة، ضربًا من الإهانة الشخصيّة له.

وبالإجمال، اتّضح أنّه لم يتمّ الإعداد لتلك الزيارة إعدادًا ملائمًا، وأنّ الحبر الأعظم لم يطّلع اطّلاعًا وافيًا على الوضع المستجدّ في وطنه، في أعقاب تحرّره من الشيوعيّة، فجاءت مواضيع عظاته، التي لا غبار عليها، في ذاتها، غير متناغمةٍ مع التيّارات الفكريّة الرائجة، ومع وضع مستمعيه النفسيّ. وكانت الكنيسة البولونيّة مفتقرةً إلى وسائل كفيلةٍ بمجابهة صحافةٍ مستقلّةٍ، تسرّبت إلى أوصالها عدوى الصحافة الغربيّة، التي تجد متعةً في انتقاد الشخصيّات الرفيعة المقام، ولم ينجُ يوحنّا بولس الثاني من تلميحاتها الخبيثة. ويبدو أنّ البابا نفسه لم يقدّر، حقّ قدرها، الأضرار التي ألحقها الحكم الشيوعيّ الطويل الأمد بثقافة موطنه، وعجز بعض الأساقفة البولونيّين عن استيعاب مقتضيات الوضع الجديد.

وأسهم فشل تلك الزيارة، على صُعُدٍ عديدةٍ، في رسم صورةٍ كاريكاتوريّةٍ للبابا، الذي أُظهر عجوزا، غضوبًا، عاجزًا عن فهم العالم الجديد، الذي كان له الفضل الأكبر في صنعه.

وكان لا بدّ من انتظار ستّ سنواتٍ، قبل أن تعيد له زيارةٌ أُخرى، رونق صورته الأصيلة المشرقة.

السينودُس الأوروپّيّ

ابتغى يوحنّا بولس الثاني استهلال التبشير الجديد في أوروپّا، فأعلن، في ١٩٩٠/٤/٢٢، من مورافيا، أثناء زيارته إلى تشيكوسلوڤاكيا، عن عقد سينودسٍ خاصٍّ لأساقفة أوروپّا. فوصفت صحيفةٌ فرنسيّةٌ هذا الحدث، بأنّه دليلٌ على إرادة يوحنّا بولس الثاني، «إعادة غزو الفكر الأوروپّيّ». وادّعت صحيفةٌ بريطانيّةٌ أنّ يوحنّا بولس الثاني هو من القادة الأوروپّيّين النادرين، الذين يحملون مشروعًا

متسلّطًا، يرمي إلى تأسيس حركةٍ سياسيّةٍ، مبنيّةٍ على الإيمان بالله، وترفض، في آنٍ واحدٍ، الإلحاد والمادّيّة. وغاب عن أذهان المعلّقين، الدافع الإنجيليّ الذي كان يحدو الحبر الأعظم، الذي تأهّب لهذا الحدث بتحليلٍ لتاريخ الحضارة الأوروبّيّة.

فنشر الإنجيل الذي شاركت به روما والقسطنطينيّة، قد أنتج ثقافاتٍ وطنيّةً، كما أنّه أسهم في إنماء «ثقافةٍ إنسانيّةٍ» عالميّةٍ، تبحث عن تلاقي وتلاقح ثقافة الكتاب المقدّس والفلسفة اليونانيّة، والحقوق الرومانيّة، فأنجب هذا الثالوث ما سمّي «الحضارة الأوروبّيّة». وشيئًا فشيئًا، نزع الإنسان إلى احتلال مكان الله في مركز الكون، وانتهى إلى أزمةٍ تفاقمت مع اتّساع الهوّة بين العلم والدين، ومع مجيء الماركسيّة. وأفضى إغفال الله إلى أحداثٍ مزلزلةٍ، وإلى الفظائع التي لطّخت وجه القرن العشرين. بيد أنّ هذه الأهوال عينها فتحت العيون على وجهٍ آخر للحضارة، يسمو فوق كلّ وجوهها الأُخرى.

لقد دلّت جرائم النازيّة على عمق الانحطاط الذي يتردّى إليه البشر، عندما يُغفلون الله. وبين الذين قهروا النازيّة، كان نظامٌ توتاليتاريٌّ، أطاحت به المقاومة المبنيّة على واجب عدم المسّ بحقوق الإنسان، وخاصّةً، بحقّ حرّيّة الضمير، والاعتقاد، والعبادة. وهذه المقاومة عينها تنهض، اليوم، تحدّيًا لمن يحاولون تأويل تاريخ أوروبّا، تأويلاً دنيويًّا ومادّيًّا. وقد أثبتت الأحداث الأخيرة «قدرة الدين والكنيسة، على استخدام أنجع الوسائل، من أجل تحرير الإنسان من أنظمة السيطرة الكلّيّة».

غير أنّ ما أحرزته الكنيسة من نصرٍ، ليس مدعاةً إلى التباهي، بل إلى فحص ضميرٍ جديدٍ. فلو كان المسيحيّون أوفياء لتعاليم الإنجيل، لما وقعت فظائع القرن العشرين. وهذا الواقع يدحض، دحضًا دامغًا، ادّعاء أنّ الحياة الجماعيّة الديمقراطيّة، يمكن أن تكون مستقلّةً عن قِيَم الإنسان والأخلاق المسيحيّة.

هذا ما دعا البابا الأساقفة إلى تأمّله في السينودس الأوروبّيّ، كي يحوّلوا اختبارات بلدانهم، خلال العقود الماضية، إلى عنصرةٍ أوروبّيّة، تتبنّى أفضل ما في الثقافة الحديثة، رابطةً إيّاه بأعمق جذوره أصالةً، أي جذوره المسيحيّة.

كان البابا راغبًا في انعقاد السينودس الأوروبّيّ عام ١٩٩٠، للاستفادة من أحداث ١٩٨٩. ولكن تبيّن أنّ عددًا كبيرًا من أُسقفيّات بلدان أوروبّا الشرقيّة والوسطى، كانت ما برحت شاغرةً. ولو انعقد السينودس، في هذه الظروف، لطغت نسبة الأساقفة القادمين من أوروبّا الغربيّة. فكان لا بدّ، إذن، من إقامة توازنٍ بين القادمين من الجزء الغربيّ، والجزء الشرقيّ من أوروبّا، قبل عقد السينودُس، الذي أُرجئ حتّى ١٩٩١/١١/٢٨. وكان، حينذاك، الزخم الذي ولّدته ثورة ١٩٨٩ قد خمد.

دامت المناقشات نحو عشرين يومًا، بحضور ممثّلين عن طوائف مسيحيّةٍ غير كاثوليكيّةٍ، سُمّوا «مندوبين أخويّين». وقد بيّن رئيس أساقفة پراغ، المعيّن حديثًا (Miloslaw Veh)، أنّه لا بدّ من البدء بتبديد اللبس الناجم عن الأحكام المسبّقة، التي جاء بها كلٌّ من أساقفة أوروبّا الغربيّة، وأساقفة أوروبّا المحرّرة حديثًا. فعلى هؤلاء أن يعيدوا النظر في موقفهم القائل: «نحن كنّا شهداء، ولا حاجة بنا، إليكم»، وعلى أساقفة الديمقراطيّات العريقة، أن يستمدّوا دروسًا من شهادة الرعاة الذين حافظوا على الإيمان وسط ظروفٍ رهيبةٍ، ولا سيّما أنّ الغربيّين لا يفقهون شيئًا من أمر الشيوعيّة، ولا يستطيعون تصوّر ما عاناه إخوتهم في الجانب الآخر.

واعترف رئيس أساقفة پاريس أنّ الأساقفة الغربيّين واثقون من تفوّقهم، في حين ما زال أساقفة الجانب الآخر من أوروبّا، تحت تأثير معاناة الاضطهاد، ولا يسهل عليهم الانسياق لتوجيهات الآخرين. هم يريدون أن يعلنوا ما عانوه، والأساقفة الغربيّون لا يستسيغون الإصغاء إليهم. وفي الآن عينه، يواجه الأساقفة الغربيّون مشكلاتٍ، يصعب على أساقفة الدول المتحرّرة حديثًا تخيّلها، مثل غواية الوفرة المادّيّة والترف.

كانت، ثمّة، إذن، صعوبةٌ في التواصل، لأنّ كلاًّ من الجانبين عاش تجربةً مختلفةً. ومع ذلك، بلغ السينودُس الأوروبّيّ غايته الأساسيّة، وهي «تبادل نِعَمٍ روحيّةٍ». وشرعت الكنائس الغربيّة تدرك أنّ الكنائس الأوروبّيّة الأُخرى، قد أمست حرّةً، وفي الآن عينه، تبيّنت الكنائس المحرّرة حديثًا كم هي محتاجةٌ، وكم هي غنيّةٌ بالإيمان.

ومن جانبٍ آخر، طفت إلى السطح حقائق قديمةٌ منسيّةٌ. فالكنائس الغربيّة التي غشت بصرَها، منذ أجيال، تحدّيات الفكر الحديث، اكتشفت، من جديدٍ، عظمة شأن التقوى التقليديّة، وشأن الكتاب المقدّس، والأُسرة، في الوفاء للإيمان. ودُعيت الكنائس كلّها، من الجانبين، إلى التركيز على الصليب، بصفته مركز الحياة المسيحيّة. وقد أتاح التقاء شهداء جدُدٍ تفهّمًا قشيبًا لأسرار الكنيسة الأصيلة، على ضوء وقائع جديدةٍ.

وظهرت تباينات ٌ في وجهات النظر حول المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، إذ زعمت الكنائس الغربيّة أنّ عليها إرشاد زميلاتها الشرقيّات، إلى مهمّة الكنيسة في العالم الحديث، وفقًا للتفسير الغربيّ للمجمع، في حين ارتأت الكنائس الأوروپّيّة الشرقيّة، تطبيق تعاليم المجمع على ضوء المشاكل الراعويّة الخاصّة، التي نشأت في مجتمعاتها عقب تحرّرها من النير الشيوعيّ. وقد شدّد رئيس أساقفة براغ على ضرورة خلق جماعةٍ مسيحيّةٍ حقّةٍ، تكون نموذجًا للتعاون بين الإكليروس والعلمانيّين، وتشجيع مبادرات هؤلاء. واعترف أنّ لدى الكنيسة الغربيّة ما تعلّمه، ولكنّها ليست مؤهلةً لتكون نموذجًا للنجاح المطلق.

وفي غمرة هذه النقاشات، أُغفلت قضيّة المساعدة التي تحتاج إليها الكنائس المحرّرة حديثًا، في مجال تطوير مؤسّساتها، وإنشاء المجالس الأُسقفيّة، وإعادة بناء إكليريكيّاتها.

وكان على يوحنّا بولس الثاني، أن يتجرّع غصّة خيبةٍ أُخرى، تمثّلت في رفض بطريركيّة موسكو المشاركة في ذلك السينودُس. غير أنّ بطريرك القسطنطينيّة، برتلماوس الأوّل، المنتخب حديثًا، أوفد ممثّلاً له، متروپوليت البندقيّة، سپيريدون، المسؤول عن الأرثوذكسيّة الإيطاليّة.

وفي أثناء القدّاس، الذي احتُفل فيه باختتام السينودُس في كاتدرائيّة القدّيس بطرس بروما، يوم ١٩٩١/١٢/٧، شنّ المتروپوليت المذكور حملةً عنيفةً على الكنائس الشرقيّة المتّحدة بروما، متّهمًا إيّاها باحتلال كنائس في أوكرانيا ورومانيا، عنوةً، ومتّهمًا روما بوضعها، في روسيّا، «هيئاتٍ رسوليّةً موازيةً»،

وعنى بها الإدارات الرسوليّة. هذه الحملة العنيفة، غير المتوقّعة، صعقت الحاضرين، حتّى البروتستانتيّين منهم. وأعقبها صمتٌ ثقيلٌ. غير أنّ يوحنّا بولس الثاني نهض، ولم يتفوّه بكلمةٍ، وجاء إلى المتروپوليت سپيريدون، وضمّه إلى صدره، وقبّله قبلة السلام.

ولا ريب أنّ ذلك السينودُس أشرع حوارًا جديدًا، ووفّر للأساقفة الحاضرين خبرةً جديدةً للوحدة في التعدّديّة. واستهلّ مرحلة إصلاحٍ في الهيكليّة الأوروپّيّة الكنسيّة. ولكنّه لم يكن له الوقع المدوّي، بعيد الأصداء، الذي ابتغاه الحبر الأعظم.

وعاد كلّ أُسقفٍ إلى رعيّته، وإلى هواجس القضايا الخاصّة بهذه الرعيّة.

وكان على يوحنّا بولس الثاني أن يحقّق، بنفسه، ما توخّاه من هذا السينودُس.

حجٌّ، ولقاءاتٌ بالشبيبة، وقضايا مسكونيّةٌ

كان يوحنّا بولس الثاني، ستّة أشهرٍ قبل افتتاح السينودُس الأوروپّيّ، قد قام بحجٍّ إلى مزار سيّدة فاطمة، بين ٥ و١٣ أيّار، وقابل كبرى رائيات العذراء، الوحيدة التي ما زالت على قيد الحياة، الأُخت «لوسيّا»، التي كانت قد بلغت الثامنة والثمانين من العمر.

ويوم ٥/١٣، قدّم، علنًا، لسيّدة فاطمة، في مزارها، الشكر على نعمتين: تحرير أوروپّا الوسطى والشرقيّة من السيطرة الشيوعيّة، ونجاته من محاولة الاغتيال التي تعرّض لها، قبل عشر سنواتٍ.

ويوم ٢٨ حزيران، عيّن ثلاثةً وعشرين كردينالاً جديدًا من مختلف بلدان العالم، وكان اثنان منهم من رومانيا وسلوڤاكيا، المتحرّرتين حديثًا من الشيوعيّة. وكان كردينالٌ ثالثٌ، من شانغهاي، وسبق له أن عُيّن كردينالاً، خفيةً، قبل سنواتٍ، ونفته الحكومة الصينيّة.

ويومي ١٤ و١٥ آب، قام بزيارةٍ قصيرةٍ إلى موطنه، پولونيا، للمشاركة في اللقاء الثالث للشبيبة العالميّة، الذي شارك فيه سبعون ألف شابٍّ، قدموا من دول الاتّحاد السوڤييتيّ السابق. وفي طريقه إلى دير «ياسنا غورا»، وإلى مزار السيّدة السوداء، عرّج على كراكوڤيا، حيث احتفل بالذبيحة الإلهيّة في ساحة المدينة القديمة. وكانت له محطّةٌ خاطفةٌ في مسقط رأسه «ڤادوڤيتش»، حيث كرّس كنيسةً جديدةً، والتقى رفاق دراسةٍ قدامى.

وكان للاحتفال بيوم الشبيبة العالميّة، بمناسبة عيد انتقال العذراء، في ١٩٩١/٨/١٥، وقعٌ خاصٌّ، إذ برزت للمرّة الأولى مشاركة عددٍ غفيرٍ من شبيبة أوروپّا الشرقيّة، بهذا الاحتفال، وعلّق الحبر الأعظم على تلك الظاهرة بقوله: «**أليست هذه هي إحدى كبريات نعم الروح القدس؟**» ثمّ توجّه إلى الشبيبة بقوله: «**هذه هي ساعتكم، فمن أجل بناء «حضارة الحبّ»، في عالم الغد، لا غنى عن التزام جيل اليوم المسيحيّ، وعن اعتزامه اتّخاذ قراراتٍ من أجل الخير العامّ. فعلى عاتق هؤلاء الشباب يقع واجب الذود عن الحرّيّة الدينيّة، وعن البعد الشخصيّ للتقدّم، وعن الأسرة، والبيئة، وعن تعدّديّةٍ حقيقيّةٍ توفّر اغتناءً متبادلاً. وليس الشباب، في هذه المهمّة، وحيدين، بل إنّ معهم يسوع والروح القدس، وسيّدة «ياسنا غورا»، لمساعدتهم على بناء كنيسةٍ شابّةٍ وإنجيليّةٍ، واعيةٍ لرسالتها**». وختم بقوله: «**خذوا الروح القدس، وكونوا أقوياء!**». وقد قوبلت كلمته برعدٍ طويلٍ، متمادٍ، من التصفيق والهتافات.

ومن پولونيا يمّم البابا شطر هنغاريا، كي يلتقي كنيسةً لعب رعاتها، خلال الحكم الشيوعيّ، دورًا أقلّ بطولةً من شقيقاتها في أوروپّا الوسطى والشرقيّة. وبعد أن تخشّع أمام ضريح الكردينال «ميندزينتي»، التقى الشبيبة المحتشدين في ملعبٍ بـپوداپست.

وفي أثناء وجوده في پوداپست، جرت محاولة انقلابٍ في روسيّا، للإطاحة بالرئيس غوربتشيف؛ ومع أنّها فشلت، إلاّ أنّها سرّعت تفتيت الاتّحاد السوڤييتيّ سياسيًّا. ولدى عودة يوحنّا بولس الثاني إلى روما، أبرق إلى غوربتشيف مهنّئًا، ومتمنّيًا أن يستطيع «متابعة مهمّته الجسيمة، في سبيل تجديد الاتّحاد السوڤييتيّ

ماديًّا وروحيًّا». ولكنّ هذه التمنّيات لم تتحقّق، ففي اليوم التالي، قدّم «غوربتشيف» استقالته من أمانة الحزب الشيوعيّ في الاتّحاد السوفييتيّ؛ وقبل مضيّ أربعة أشهرٍ على ذلك، كان اتّحاد الجمهوريّات الاشتراكيّة السوفييتيّة قد أصبح من أطلال التاريخ.

وفي الميدان المسكونيّ، حدثت، أيضًا، تطوّراتٌ هامّةٌ. ففي **١٩٩١/١٠/٢**، توفّي بطريرك القسطنطينيّة الأرثوذكسيّ ديمتريُوس الأوّل. وبعد خمسة عشر يومًا، انتُخب، خَلَفًا له، المتروپوليت برتلماوس. هذا الانتخاب لبطريركٍ في الخمسين من العمر، كان قد درس في معهدٍ مسكونيٍّ في سويسرا، وفي جامعة ميونيخ، وعقد الكثير من العلاقات مع المسؤولين الكاثوليكيّين، أنعش آمال الحبر الأعظم في تقدّم مشاريع الوحدة المسكونيّة. ولكن سرعان ما اتّضح أنّ الغاية المسكونيّة لم تكن هي الدافع إلى انتخابه، بل بالحريّ قدرته على مواجهة الحكومة التركيّة، كما اتّضح أنّ علاقته ببطريرك موسكو، لم تكن على أحسن حالٍ.

وكانت أولى المشاكل المسكونيّة التي تعيّن على البطريرك الجديد مواجهتها، الخلاف الحادّ الناشب بين الصربيّين الأرثوذكسيّين والكاثوليكيّين، في دول يوغوسلاڤيا السابقة، ولا سيّما إثر تعدّيات الجيش الصربيّ، وتأييد الڤاتيكان لاستقلال كرواتيا وسلوڤينيا. كلّ هذه العناصر أدّت إلى تفاقم الخلاف، بين جناحي الكنيسة.

وفي مجالٍ آخر، عكف قداسته على إعادة تنظيم إدارة الكنيسة البولونيّة، حيث أدخل تجديداتٍ واسعةً، كفيلةً بمواجهة تحدّيات الديمقراطيّة الناشئة.

كهنةٌ للألفيّة الثالثة

لطالما أولى يوحنّا بولس الثاني الكهنوت اهتمامه. وقد أَلِف، في كلٍّ من رحلاته الراعويّة، مقابلة كهنةٍ ومحاورتهم. وفي كلّ لقاءاته مع الأساقفة، كان يشدّد على تمتين أُسس الكهنوت. وقد عكف مجلس الثقافة الكاثوليكيّة، منذ

منتصف الثمانينات، على القيام بسلسلة زياراتٍ لتفقّد الإكليريكيّات في كلّ أنحاء العالم. وأثمرت هذه الزيارات، توصياتٍ بإعادة النظر في تنشئة الكهنة. ودأب يوحنّا بولس الثاني على توجيه رسائل شخصيّةٍ سنويّةٍ، إلى كهنة العالم أجمع، يوم خميس الأسبوع العظيم، في ذكرى تأسيس الإفخارستيّا والكهنوت. وفي هذه الرسائل، كان يبسط خبرته الكهنوتيّة المعاشة، وآراءه اللاهوتيّة، في كلّ وجوه الكهنوت. فقد كان يؤرّقه تضاؤل عدد الدعوات الكهنوتيّة المتفاقم؛ وكانت رغبته الملتهبة في «التبشير الجديد بالإنجيل»، تقتضي الإكباب على تلك القضيّة بمزيدٍ من العناية.

وقُدِّمت تفسيراتٌ متعدّدةٌ ومتباينةٌ لتضاؤل الدعوات الكهنوتيّة، ولتخاذل بعض الكهنة. وعُزيت هذه الظاهرة إلى عوامل أثّرت على المجتمع وعلى الكنيسة، وأهمّها: الضغوط التي تتعرّض لها حياة الأسرة، والثورة الجنسيّة، ومغريات الاستهلاك. بيد أنّه كان ليوحنّا بولس الثاني نظرةٌ أُخرى، وقد عزا تلك الظاهرة إلى أسبابٍ أعمق، تدور حول أربعة عوامل رئيسةٍ، أفرزتها الثقافة المعاصرة:

– فمن جرّاء **عقلانيّةٍ**، غير واعيةٍ، نمت نزعةٌ إلى اعتبار الوحي الكتابيّ مجرّد خرافةٍ، في أحسن الأحوال.

– وحالت **الفرديّة المتفشّية** دون إقامة علاقاتٍ وثيقةٍ ودائمةٍ بين البشر، ما أفضى إلى عزلةٍ دفعت إلى السعي المحموم نحو المتعة.

– ومن جانبٍ آخر أدّى **الإلحاد الفعليّ** إلى حرمان الحياة من سرّها العلويّ.

– وسبّب **مفهوم الحرّيّة** التي صُوِّرت تأكيدًا لإرادة القوّة، فصل مفهوم الحرّيّة عن مفهوم الحقيقة.

هذه الأضاليل تسلّلت إلى الكنيسة، ونفثت مفعولها الوبيل على الفكرة التي كان الكهنة يحملونها عن الكهنوت، وعن الدعوات الكهنوتيّة، وعن التنشئة

الكهنوتيّة في الإكليريكيّات. وكان يوحنّا بولس الثاني موقنًا أنّ إصلاح هذا الوضع يمرّ عبر تأكيد دعوة المجمع الڤاتيكانيّ الثاني الشاملة إلى القداسة.

هذا الإصلاح، القائم، جوهريًّا، على تنشئة الكهنة تنشئةً سليمةً، كان محور أبحاث سينودُس الأساقفة الذي عُقد في روما، بين ٣٠ أيلول و٢٨ تشرين الأوّل من عام ١٩٩٠، وأنتج الإرشاد الرسوليّ الذي وضعه يوحنّا بولس الثاني بعنوان: «سأعطيكم رعاةً». والذي ملأ مئتين وستًّا وعشرين صفحةً.

وقد أكّد ذلك الإرشاد أنّ الدعوة إلى الكهنوت تنبع من كهنوت جميع المعمّدين، وتسمو به، وأنّها تستمدّ فحواها من قول يسوع، في مجمع الناصرة، إنّ نبوءة أشعيا تحقّقت بمجيئه، وبمسحة الروح القدس. ومن ثمّ فإنّ جوهر الكهنوت الذي جاء به للعالم، هو كهنوت وساطةٍ تامّةٍ بين اللّه والبشريّة، ومن خلاله يُفهم الكهنوت الذي ترسمه الكنيسة، على أنّه مشاركةٌ فريدةٌ في كهنوت المسيح.

وبالتالي، فكون الإنسان كاهنًا لا يعني، فقط، أن يضطلع بوظيفةٍ، وأن يمثّل دورًا، بل عليه أن يكون «مسيحًا آخر». والسيامة لا تفوّض الكاهن، فقط، بتعاطي بعض الشؤون الكنسيّة، بل تجعله مماثلاً للمسيح، على نحوٍ فريدٍ. وهذا التماثل يوليه واجبًا علنيًّا بخدمة الجماعة المسيحيّة. وهذه الخدمة تجعل الكاهن، الذي يملك سلطة منح الأسرار، انعكاسًا للمسيح الكاهن. وصورة المسيح الراعي تدلّ على نمط القداسة المميّز، الذي يقتضيه الكهنوت: قداسة «المحبّة الراعويّة». فسلطة الكاهن، في جماعةٍ محلّيّةٍ، لا تعني السلطان بالمعنى المألوف، لأنّ «السلطة» المسيحيّة تأمره أن يكون خادمًا، ممتلئًا محبّةً راعويّةً، يهب ذاته كلّيًّا للكنيسة، على مثال المسيح.

وأوضح الحبر الأعظم أنّ الإنسان لا يقرّر، من تلقاء نفسه، أن يصير كاهنًا، مثلما يختار مهنةً. فالكهنوت هو ثمرة «**حوارٍ يتعذّر وصفه، بين اللّه والبشر، بين حبّ اللّه الذي يدعو، وحرّيّة الفرد الذي يستجيب، بحبٍّ**». الدعوة الكهنوتيّة تبدأ من اللّه، وليست وسيلةً يختارها المرء، كي يحقّق مطامع شخصيّةً، في الكنيسة.

لقد كان يوحنّا بولس الثاني ينبذ كلّ مفهومٍ للكهنوت يبتغي سلطةً زمنيّةً، أو انتماءً إلى طبقةٍ معيّنةٍ.

وعلى الكنيسة التأكّد من صحّة الدعوة، ومن أنّها ليست اختيارًا شخصيًّا لغايةٍ؛ وعليها، بعدئذٍ، توفير ثقافةٍ كهنوتيّةٍ دقيقةٍ وحازمةٍ. وقد شدّد البابا على واجب التثقيف الروحيّ، وعلى تمعّن اللاهوت والفلسفة، فالكهنة المفتقرون إلى النضج الفكريّ والاهتمام اللاهوتيّ، سيكونون عاجزين عن إثبات مصداقيّة الإنجيل، حيال مقتضيات العقل البشريّ المشروعة. وإنّما اللاهوت علمٌ يغذّي الإيمان، فضلاً عن كونه وسيلةً لترسيخ العلاقة الشخصيّة والجماعيّة مع يسوع المسيح.

ويرى كثيرون أنّ أحد أبرز إنجازات يوحنّا بولس الثاني، الذي لم يحظَ بما يستأهله من اهتمامٍ، هو تشجيعه للدعوات الكهنوتيّة، ما دفع أحد الكرادلة إلى التصريح بأنّ ذلك الحبر الأعظم كان «أفضل مرشد دعواتٍ عرفته الكنيسة». وقد اعترف العديد من الإكليريكيّين الجُدد، أنّ مثال يوحنّا بولس الثاني الشخصيّ، كان دافعًا أساسيًّا وحاسمًا في قرارهم اعتناق الكهنوت.

من المؤكّد أنّ فكرة الكهنوت قد اهتزّت كثيرًا بعد المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، غير أنّ نظرة يوحنّا بولس الثاني إلى الكهنوت بصفته دعوةً مقدّسةً، وليس مهنةً كنسيّةً، وبأنّه منْحُ الإنسان ذاته لسرٍّ قدسيٍّ، لا لعلامة استفهامٍ، قد أوحت إلى فئةٍ عريضةٍ من الشباب التصدّي لتحدّي البطولة.

لقد نفث يوحنّا بولس الثاني روحًا جديدًا، في القول المأثور إنّ الكاهن هو مسيحٌ آخر. وأكّد ذلك بمثال حياته؛ وقد شهد رئيس أساقفةٍ أميركيٌّ: «إنّ خبرة الحبر الأعظم الكهنوتيّة الشخصيّة، قد أغنت أقواله اللاهوتيّة، وكانت ذات أهمّيّةٍ كبرى، إذ أظهرت الكهنوت خيارًا فاتنًا بين آلاف وسائل إنجاح الحياة. لقد خاض كارول ڤويتيووا خبرةً إنسانيّةً فائقة الغنى، بصفته كاهنًا أعزب، خاضعًا لنذر الطاعة».

بدَهيٌّ أنّ إرشاداته إلى إصلاح الإكليريكيّات، لم تكن أمرًا عسكريًّا، وقد تلكّأ أساقفةٌ كثيرون في تطبيقها، أو أحجموا عنها. ولكنّ الواقع أثبت أنّ

الإكليريكيّات التي تبنّت هذه الإرشادات، واقتنعت بتعليمه اللاهوتيّ المتعلّق بالكهنوت، قد اتّجهت نحو الازدهار، على نقيض الإكليريكيّات التي لم تأخذ بها. واتّضح أنّ أكثر الإكليريكيّات التي ازدهرت، هي التي كانت تعاني أزماتٍ حادّةً، ولكنّها، باتّباع إرشاداته، نهضت ونمت، ولا سيّما في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وفي هولندا.

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى البرازيل

بين **١٢** و**٢١** تشرين الأوّل **١٩٩١**، قام يوحنّا بولس الثاني برحلةٍ رسوليّةٍ ثانيةٍ إلى البرازيل، وكان مقصده الرئيس هو مدينة الناتال، حيث كان عليه التصدّي لطائفةٍ من القضايا الحارقة، أخطرها المظالم الاجتماعيّة التي تنتج الفقر والحرمان؛ وتعدّدُ الشيَع التي يولّدها ضعف التبشير، وهزال الإكليروس، عددًا وثقافةً. ومع أنّ الشعب البرازيليّ، كان، بالإجمال، كاثوليكيًّا، «قلبيًّا وعاطفيًّا»، إلاّ أنّه، «واقعيًّا»، كان يفتقر إلى كاثوليكيّةٍ صحيحةٍ، راسخة الأُسس.

وعندما سُئل هل سيمهّد انهيار الاتّحاد السوڤييتيّ، للإطاحة بما سُمّي «لاهوت التحرير»، ميّز بين لاهوت تحريرٍ ينعم بمبرّراتٍ أكيدةٍ، ولاهوت تحريرٍ، بعيدٍ عن الإنجيل، ومستمدٍّ من إيديولوجيّةٍ ماركسيّةٍ.

في الطائرة، أحبّ صحافيٌّ إهداءه ترنيمة «السلام عليك يا مريم» (Ave Maria)، حسب لحن «شوبيرت»، وفي الحال انطلق البابا يدندن هذه الترنيمة، باللغة البولونيّة، ما أثار عاصفةً من التصفيق المدوّي.

ومرّةً أُخرى، تساءل الصحافيّون، كيف يقوى البابا على احتمال متاعب الأسفار المرهقة، في حين هم يتهاوون تعبًا، فأجاب أنّ العناية الإلهيّة هي التي تجعل منه «خادمًا بطّالاً».

وفي إطار هذه الرحلة، زار البابا، أيضًا، السلڤادور، حيث التقى ثلاثين ألف ولدٍ فقيرٍ، وأعلن: «**لا يمكن، ولا يجوز أن يوجد أولادٌ متروكون، مستَغَلّون، معرّضون للقتل**».

المعيار الصحيح

كان لا بدّ للحبر الأعظم، في أعقاب التحوّلات العالميّة الجوهريّة، من تقييمٍ للأوضاع المستجدّة. فبخلوّ الساحة العالميّة للقطب الواحد، عمّت الفوضى في ما يجب انتهاجه حيال مشاكل العالم الطارئة. ونزع أوروپيّون كُثُرٌ إلى النأي عن مشاكل العالم، وحصر اهتمامهم بالقضايا الداخليّة، واعتبار الحرّيّة تحرّرًا من القوانين الأخلاقيّة التقليديّة، في حين كان يتعيّن إيجاد أسلوبٍ يتيح البحث عن الحقيقة، وتوجيه الحياة العامّة على دروبٍ تفضي إلى إنماء الخير العامّ.

وتميّزت نظرة البابا إلى الوضع العالميّ، عن معظم النظريّات الأُخرى. فقد كان يرى أنّ أزمة الحداثة ما برحت ماثلةً بكلّ حدّتها، وأنّ كرامة الفرد البشريّ ما برحت معرّضةً لديكتاتوريّاتٍ كمينةٍ. وكان مؤمنًا بأنّ الثقافة التي نجحت في القضاء على الشيوعيّة، كفيلةٌ ببناء القرن الحادي والعشرين، على أسسٍ سليمةٍ. فلا اقتصاد السوق، ولا الديمقراطيّة قادران على الاستمرار بمعزلٍ عن حدودٍ وضوابط نابعةٍ من ثقافةٍ أخلاقيّةٍ، تجعل من الحرّيّة سبيلاً إلى ازدهار الإنسان الحقّ.

أفريقيا في القلب

منذ اليوم الأوّل من عام ١٩٩٢، عبّر يوحنّا بولس الثاني عن رغبته في الاحتفال بالذكرى المئويّة الخامسة لتبشير أميركا اللاتينيّة بالدين المسيحيّ.

وكان ذلك العام حافلاً بالنشاط الدبلوماسيّ. ففي الأوّل من شهر كانون الثاني، اعترف الكرسيّ الرسوليّ بالاتّحاد الروسيّ الذي خلف الاتّحاد السوڤييتيّ. وفي الثالث عشر من ذلك الشهر عينه، اعترف باستقلال كرواتيا، وسلوڤينيا. ثمّ في الثامن من شباط، أقام مع هاتين الدولتين ومع أوكرانيا، علاقاتٍ دبلوماسيّةً.

وفي ١٩٩٢/٩/٢١، أُعيدت العلاقات الدبلوماسيّة بين الڤاتيكان وجمهوريّة المكسيك، بعد انقطاعٍ دام ١٣٢ سنةً. وكان لزيارتَيْ يوحنّا بولس الثاني إلى المكسيك، عامَيْ ١٩٧٩، و١٩٩٠، التأثير الحاسم على تغيير موقف الحزب

الحاكم، الذي لم يستطع تجاهل الحماس الشعبيّ المساند للكنيسة، ما أعاد للكنيسة المكسيكيّة مكانتها الأصيلة في تاريخ الأمّة. وسرعان ما تمّ الاعتراف بالكنيسة، بصفتها مؤسّسةً ذات نفعٍ عامٍّ، وكُلّف مسؤولون دينيّون بمهامّ تربويّةٍ واجتماعيّةٍ. ومع أنّ مشاعر العداء للكنيسة لم تتبدّد كليًّا، إلاّ أنّ مطالبة الحبر الأعظم بالحرّيّة الدينيّة، بصفتها حقًّا أساسيًّا من حقوق الإنسان، كانت قد لاقت تجاوبًا واسعًا، وأحدثت تغييرًا عميقًا في العقليّات.

وبين التاسع عشر والسادس والعشرين من شباط، قام الحبر الأعظم برحلته الرسوليّة الثامنة إلى أفريقيا، التي شملت كلاًّ من السينيغال، وغامبيا وغينيا.

في جزيرة «غوريه» (Gorée) السينيغاليّة، تخشّع أمام «بيت العبيد»، الذي يذكّر بجريمة إعدام آلاف العبيد الذين اقتُلِعوا من ديارهم، واستذكر بأسًى «**بحرًا من الألم، والموت والعار**»، وباسم الإنسانيّة جمعاء، التمس الصفح عن جريمة «**أكبر إبادةٍ عرقيّةٍ جماعيّةٍ في التاريخ**»، فيما كان سائحون غربيّون يزورون، بدافع الفضول، مسقط رأس «كونتا كنتي» بطل فيلم «الجذور».

في غامبيا شاهد، بحزنٍ، زحف الرمال، التي تجلب معها الفقر والحرمان.

وكانت مرحلة رحلته الأخيرة غينيا، حيث كان «الماركسيّ الأفريقيّ» «سيكوتوري»، لسنين خلت، قد طرد المرسلين المسيحيّين من البلاد. وكان يرافقه، في هذه الزيارة، الأسقف «روبير سارا»، الذي عُيِّن، بعد تسع سنواتٍ، أمين سرّ مجلس نشر الإيمان. وفي طريق عودته، قال البابا للصحافيّين: «**قولوا للشبيبة أنّ لا خير في الإصلاحات السياسيّة، إن هي كانت ملطّخةً بالدم**».

من المعروف أنّ تلك البلدان تؤوي أقلّياتٍ كاثوليكيّةً موغلةً في الضآلة، غير أنّ الحبر الأعظم أشاد بسينودُس الأساقفة الأفريقيّين، وبحرارة إيمان المسيحيّين وغيرتهم.

وكانت خبرته في كازابلانكا قد شجّعته على محاورة المسلمين وأتباع الديانات الأُخرى، إذ إنّ ثمّة اهتماماتٍ اجتماعيّةً وأخلاقيّةً مشتركةً، تجعل من حوار الأديان قضيّةً فائقة الجدوى.

وظلّت تؤرّق يوحنّا بولس الثاني المظالم الاجتماعيّة، التي ترين على قطاعاتٍ شاسعةٍ من العالم، وما تجرّه من مواكب بؤسٍ، وحرمانٍ، وآلامٍ. هذا الهاجس دفعه دفعًا إلى القسم الغربيّ من القارّة السوداء، التي تعاني القسط الأشدّ إيلامًا من الفقر، والتي ما برحت من أكثر القارّات إهمالاً، وأكثرها حاجةً إلى الاهتمام والعون، لكي يلفت أنظار الدول الغنيّة إلى معاناتها، ويستنهض أيادي المساعدة لها. ففي الشمال الأفريقيّ، مجاعةٌ قاتلةٌ هجّرت الملايين من ديارهم وأراضيهم، وفي الجنوب جفافٌ يهدّد بقاء ملايين آخرين؛ وفي كلّ مكانٍ مِحَنٌ قاسيةٌ، وفي كلّ هذه المآسي تحدٍّ للدول الغنيّة الواثقة من ذاتها، والتي يتعيّن عليها واجبٌ أخلاقيٌّ ثقيلٌ، واجب التصدّي لهذا التحدّي.

في الرابع من حزيران **١٩٩٢**، إذن، باشر البابا رحلته هذه، التي امتدّت حتّى العاشر من ذلك الشهر، وشملت أنغولا وجزر ساوتومي/ پرنسيپ، مرورًا بالكونغو. من تلك البقاع، أيضًا، كانت قد انطلقت، لبضع قرونٍ خلت، بواخر مثقلةٌ بالعبيد؛ أمّا في الوقت الراهن، فكان القوم، ولا سيّما شبابهم، يحيون واقع الحرب، والقمع، والجوع.

وقد وافى البابا إلى تلك البقاع، تلبيةً لدعوةٍ ملحّةٍ من أساقفتها الذين كانوا يعدّون لسينودسهم الأفريقيّ، وتتنافس كلّ مدينةٍ على شرف عقده فوق أراضيها. وكان أولئك الأساقفة شديدي الرغبة في رؤية الحبر الأعظم بين ظهرانيهم، ومتطلّعين، برجاءٍ واثقٍ، إلى تأثير حضوره الخيّر.

وقد جاء، أيضًا، كي يطلق صرخةً مدوّيةً، تدعو إلى وقف اقتتال الإخوة، الذي كان يضيف إلى البؤس فواجع وأحزانًا... وكانت تحدو الحبر الأعظم رغبةٌ حارّةٌ في التعبير عن تعاطفه مع القوم، وفي بثّ جرعة عزاءٍ لمن فقدوا آباءً، وأُمّهاتٍ، وأزواجًا، وأبناءً، وأعزّاء. ففي أنغولا، حيث نسبة الكاثولكيّين تناهز الستّين بالمئة، كان الصراع محتدمًا بين كتلتين سياسيّتين، ترفعان كلتاهما شعار التحرير، ويوقع تصارعهما ضحايا بريئةً، وينشر الدمار والفقر. هؤلاء السياسيّون كانوا، في الواقع، مصدر قلق الشعب، وعدم استقرار البلاد. وقد دأب أساقفة الكنيسة على وضع حدٍّ لصراعهم، الذي وقع ضحيّةً له واحدٌ وعشرون مرسلاً

أجنبيًّا، وتسعة عشر راهبًا وراهبةً أنغوليّين، وسُجن منهم ستّون تعرّضوا للتنكيل والتعذيب، ثمّ طردوا خارج البلاد.

كانت أنغولا، حينئذٍ، في أعقاب عقودٍ من الحكم الماركسيّ، تحبو نحو الديمقراطيّة. ولكن كان دور العشيرة ما زال واسع التأثير وعميقه. بيد أن نفثة رجاءٍ كانت تبعثها نسبة الشبيبة من مجموع السكّان، ونشاط الكنيسة التي ظلّت، رغم كلّ شيءٍ، هي مرجع المؤمنين الأوفر ثقةً، وسهرُ الأساقفة على ترجمة تعاليم الكنيسة التي يجدر بالمؤمنين الإلمام بها، وغيرةُ علمانيّين تطوّعوا لنشر التعليم المسيحيّ، معوّضين عن فقدان العديد من الكهنة والراهبات.

هذه الظواهر، الآخذة في التراخي، بل في الزوال، في الدول الغربيّة، حيث المسيحيّة أكثر عراقةً وأوهى حيويّةً، أضاءت كوّة رجاءٍ جديدٍ في صدر الحبر الأعظم، الذي رأى، من جانبٍ آخر، في عفويّة الليتورجيا الأفريقيّة وديناميّتها، معنًى غنيًّا، وتعبيرًا عن ثقافةٍ أكثر إنسانيّةً وأصالةً، من مظاهر التقدّم التقنيّ، التي بهرت الغربيّين، وأعمتهم عن الجوهر، وأوقعتهم في شباكها.

يوم المرضى، والبابا في المستشفى

لم تكن مكافحة الفقر هي هاجس يوحنّا بولس الثاني الوحيد، بل كانت العناية بالمرضى من أولويّات كهنوته. وقد أعلن يوم ١١ شباط، من كلّ سنةٍ، وفيه يقع عيد سيّدة لورد، يومًا خاصًّا بالمرضى، يقام فيه قدّاسٌ حبريٌّ في كاتدرائيّة القدّيس بطرس بروما، عن نيّة المرضى، ويحاط هيكل الكاتدرائيّة الكبير، وضريح القدّيس بطرس، بمحفّات المرضى، وبكراسي المعاقين المتحرّكة. وقد أَلِف يوحنّا بولس الثاني أن يلقي، بهذه المناسبة، عظةً حول المرضى. وفي ختام القدّاس، كانت أضواء الكاتدرائيّة تخفت، وتضاء عشرة آلاف شمعةٍ موضوعةٍ في آنيةٍ على شكل زهرة التوليپ، وترتفع بها الأيدي على أنغام «نشيد لورد»، بعدّة لغاتٍ.

وما لبث أن أضحى الحبر الأعظم نفسه في عداد المرضى. فقد كان يشكو،

منذ حينٍ، من اضطراباتٍ في أمعائه، وارتأى أطبّاؤه نقله إلى مستشفى جيميلّي، بغية إجراء فحصٍ دقيقٍ. وبعد ظهر يوم الأحد، ١٩٩٢/٦/١٢، أعلم الجماهير المحتشدة لتحيّته، في ساحة القدّيس بطرس، أنّه سيغادر إلى المستشفى، مساء ذلك اليوم عينه، والتمس منهم الصلاة من أجله.

وصباح يوم ١٥ تمّوز، أُجريت له عمليّةٌ جراحيّةٌ، دامت أربع ساعاتٍ، تمّ، خلالها، استئصال ورَمٍ غير خبيثٍ في الكولون، وانتزاع حصًى من مرارته. وقد أُجريت العمليّة على خير وجهٍ. ومنذ اليوم التالي، استطاع قداسته النهوض من سريره، والجلوس على مقعدٍ. وغادر المستشفى يوم ٢٨ تمّوز، إلى مقرّه الصيفيّ، حيث تابع نقاهته، وأكملها بعطلةٍ صيفيّةٍ، في بيت صغيرٍ على الجبال الإيطاليّة.

كان، حينئذٍ، في الثانية والسبعين من عمره، وواجه المداخلة الجراحيّة بكامل قواه. ولكنّ الصحافة انتهزت ذلك الحدث، كي تنشر شائعاتٍ وتكهّناتٍ عن تدهور أحواله الصحّيّة، واحتمال وفاته القريبة. غير أنّه لم يعبأ بهذه الأقاويل، ولم يحظر على الناس التدخّل بأمورٍ لا تعني سواه. وكذلك فعل معاونوه المسؤولون.

وفي الثاني والعشرين، أطلق نداءً مؤثّرًا للسلام في منطقة البلقان.

الذكرى المئويّة الخامسة لتبشير أميركا

تزامن عقد مؤتمر أساقفة أميركا اللاتينيّة، مع الذكرى المئويّة الخامسة لاكتشاف كريستوف كولومب القارّة الأميركيّة، ولتبشير تلك القارّة بالإنجيل. وحان موعد الاحتفال بهذه الذكرى، الذي كان يوحنّا بولس الثاني يتطلّع إليه منذ اليوم الأوّل من تلك السنة. وفي ١٩٩٢/١٠/٩، حطّ في «سانتو دومينغو»، على مقربةٍ من الشاطئ الذي كان «كريستوف كولومب» قد أرسى بواخره فيه، قبل خمس مئة عامٍ.

وبما أنّ ذينك الاكتشاف والتبشير كان قد واكبتهما أعمالٌ استعماريّةٌ بشعةٌ،

خلّفت ذكرياتٍ أليمةً، فقد حرص البابا على الاستصفاح عنها، وافتتاح صفحةٍ جديدةٍ للكنيسة في أميركا اللاتينيّة، وعلى إسماع صوت الإنجيل الحقّ. فالتقى أحفاد الهنود الحمر، سكّان البلاد الأصليّين، وأحفاد العبيد الأفريقيّين، الذين اقتيدوا قسرًا إلى تلك البلاد، معلنًا وقوف الكنيسة إلى جانب المقهورين، ومذكّرًا بأنّ الإنجيل مازال إنجيل الفقراء، وأنّ أولى تطويبات يسوع توجّهت إلى الفقراء، فعلى الكنيسة أن تكون لهم، دائمًا، عونًا ونصيرًا. لقد ندّد بالفقر القهريّ الذي يدمّر النفوس، ويذلّ الشعوب، ودعا إلى عدالةٍ اجتماعيّةٍ تقتضي توزيعًا عادلاً للخيرات، مردّدًا قوله: «**إن ابتغيتم السلام، فاهتمّوا بالفقراء**».

وفي كاتدرائيّة «سانتو دومينغو»، وهي أقدم كنيسةٍ في العالم الجديد، افتتح مؤتمر أساقفة أميركا اللاتينيّة. وبعد أن اطّلع على الظروف البائسة، التي يئنّ تحت وطأتها قومٌ يفتقرون إلى مقوّمات حياةٍ كريمةٍ، حقًّا، دعا الأساقفة إلى أن يكونوا دعاة رجاءٍ للمقهورين، ولجميع من ترين عليهم أوزار خطيئةٍ اجتماعيّةٍ جسيمةٍ، وأن يعيدوا إليهم الرجاء، ويجعلوا من القارّة الأميركيّة «قارّة رجاءٍ».

وكان قد لاحظ، بأسًى، أنّ الخلافات السياسيّة قد شطرت البلاد إلى فئتين متناحرتَيْن. وسُئل لِمَ لا يوجد سياسيّون مسيحيّون، يكافحون الفساد، حقًّا، فأجاب: «**أن يكون المرء مسيحيًّا، يعني أن يسعى، حثيثًا، إلى القداسة، وأن يكون سياسيًّا مسيحيًّا، يعني أن يكون أشدّ سعيًا إلى هذه القداسة. وهذا أمرٌ نادرٌ**».

وفي أثناء مؤتمر الأساقفة، دعا البابا إلى سينودُس يشمل شطري أميركا، ويجمع أساقفة أميركا اللاتينيّة بنظرائهم في أميركا الشماليّة. بيد أنّ أساقفة أميركا اللاتينيّة كانوا يخشون أن تحجب قضايا نظرائهم الشماليّين الأغنياء، قضاياهم الخاصّة والخطيرة. ولكنّ الحبر الأعظم ظلّ يشدّد على ضرورة تبشيرٍ جديدٍ، يزيل ما أحدثه فتح أميركا من مآسٍ.

ويوم ١٤/١٠/١٩٩٢، فيما كان يوحنّا بولس الثاني يهمّ بمغادرة الدومنيكان، حيّت إحدى وعشرون طلقة مدفعٍ، ذلك الحبر الذي أطلق تحدّي التبشير الجديد بالإنجيل.

«سمفونيّة الإيمان»

يوم **١٩٩٢/١٠/٢٥**، طوّب يوحنّا بولس الثاني **١٢٣** شهيدًا من شهداء الحرب الأهليّة الإسبانيّة.

وفي السابع من كانون الأوّل، قدّم، خلال احتفالٍ ضخمٍ في الڤاتيكان، الدستور الرسوليّ «وديعة الإيمان» (Fidi depositum)، وأعلن، بموجبه، صدور كتاب «التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة»، بحضور مسؤولي الڤاتيكان، وأساقفةٍ قدموا من كلّ أرجاء المعمورة. وفي أثناء الاحتفال، قدّم البابا نسختين من هذا الكتاب إلى فتَيَيْن يمثّلان شبيبة العالم.

شعار الكتاب كان قد استُلهم من أحد دياميس روما يعود إلى القرن الثالث، يمثّل راعيًا يحرس نعجةً تحت شجرةٍ، مزوّدًا بعصًا ومزمارٍ، رامزًا إلى المسيح الراعي الذي يقود قطيعه إلى ظلال شجرة الحياة، على أنغام ما سمّاه البابا «سمفونيّة الإيمان».

وكان الحبر الأعظم، منذ عام **١٩٨٦**، قد كلّف بوضع هذا الكتاب، لجنةً من اثني عشر كردينالاً وأسقفًا، يرأسها الكردينال «جوزف رتسنغر». وقد وُضعت للكتاب تسع مسوّداتٍ متعاقبةٍ، خضعت كلّها للدراسة والتصحيح، ولاستشارة أساقفة العالم. وكان الحبر الأعظم يتابع تقدّم إنشاء هذا الكتاب، بمنأًى عن أيّ تدخّلٍ مباشرٍ. غير أنّ كتاباته وتعاليمه كانت له مصدرًا هامًّا، وقد انطوى الكتاب على **١٣٥** استشهادًا من تعليمه.

هذا الكتاب جاء دحضًا لمزاعم من ادّعوا استحالة اكتشاف منابع إيمان المسيحيّين الأوائل، وبلوغ حقيقةٍ واحدةٍ، إذ إنّ لكلّ مؤمنٍ رأيه، وتأكيدًا لحضور أصول المسيحيّة في الكنيسة، ولثبات وحدة الإيمان عبر الزّمان والمكان، ولتيسُّر سماع كلام الله لكلّ إنسانٍ، أيّةً كانت بيئته، وثقافته، وتاريخه.

وقد لاقى هذا الكتاب عمومًا، وما خلا استثناءاتٍ نادرةً، ترحيبًا واسعًا من مجمع أساقفة العالم، ومن المؤمنين الذين وجدوا فيه مرجعًا يمكّنهم من تلقين أبنائهم التعليم الكاثوليكيّ الصحيح، والدفاع عنه حيال المنكرين والمشكّكين، والشهادة للرجاء الذي يسكنهم.

هذا الترحيب بدّد تكهّنات المرتابين، الذين توقّعوا ألاّ يقدم أحدٌ على ابتياع كتابٍ يملأ ٧٨٥ صفحةً. فقبل مضيّ سنةٍ على صدوره، كان قد بيع منه أكثر من ثمانية ملايين نسخةٍ، وسرعان ما تُرجم إلى اثنتين وأربعين لغةً.

وكان هذا الكتاب وسيلةً للتبشير بالرسالة التي ابتغت الكنيسة تبليغها للعالم: أنّ كلمة اللّه الذي تجسّد في يسوع المسيح، هو غاية الخليقة، وعامل كمالها، والضمانة الأكيدة ضدّ عبثيّة الحياة. ففيه تجتمع السماء والأرض، البدايات والخبرة والمصير. تلك هي البشرى التي على الكنيسة زفّها في القرن الحادي والعشرين، وسمفونيّة الحقيقة التي وضعها موسيقيٌّ إلهيٌّ.

قضايا أوروبّيّةٌ وإنسانيّةٌ

بين غروب عام **١٩٩٢** وفجر عام **١٩٩٣**، تطرّق يوحنّا بولس الثاني لعدّة قضايا إنسانيّةٍ وكنسيّةٍ. ففي **١٩٩٢/١٢/٥**، ألقى خطابًا في اجتماع منظمّة الأغذية والزراعة (الفاو)، المنعقد في روما، وأكّد أنّه لم يعد جائزًا اعتبار الجوع وضعًا طبيعيًّا، أو نتيجةً حتميّةً لتكاثر عدد سكّان المعمورة. فالمشكلة لا تكمن في إنتاج الغذاء، بل في توزيعه، وفي السياسات الاستغلاليّة الفاسدة، وفي تدابير الحماية الاقتصاديّة. ومن جرّاء ذلك تقتل المجاعة، كلّ يومٍ، آلاف الأولاد والشيوخ، وأعضاء الجماعات الأكثر هشاشةً، في حين تتلف آلاف أطنان الأغذية، حفاظًا على أسعارٍ مجزيةٍ. وأعلن البابا أنّ «واجب العدل» يقتضي معالجة هذه المشكلة، لأنّه «**لا يسوغ لحروبٍ تتصارع فيها أُممٌ، ولا لخلافاتٍ داخليّةٍ، أن تحكم على مواطنين عزّلٍ بالموت جوعًا، لأسبابٍ حزبيّةٍ أو أنانيّةٍ**». وعليه، فإنّ «**ضمير البشريّة، مدعومًا بالحقّ الدوليّ، يقتضي أن يصبح التدخّل الإنسانيّ إلزاميًّا، عندما تكون حياة شعوبٍ، أو جماعاتٍ إثنيّةٍ، مهدّدةً...**».

هذا الخطاب كان مرافعةً مؤثّرةً من أجل التضامن، وتحدّيًا أكبر للمبادئ «الواقعيّة» المشبوهة، التي سادت السياسة العالميّة، منذ نهاية الحرب الباردة.

يوحنّا بولس الثاني والعلم

من أكثر القضايا التي وفّرت لخصوم الكنيسة مادّةً لاتّهامها بعداء العلم، قضيّةُ العالم الفلورنسيّ «غاليليو»، الذي درّس، في القرن السابع عشر، نظريّة الفلكيّ البولونيّ «كوبيرنيك»، القائلة بأنّ الشمس، وليست الأرض، هي مركز النظام الشمسيّ، فأُكره على الإقامة الجبريّة، طيلة سنواته الثماني الأخيرة، إلى أن تراجع، مرغمًا عن رأيه، وهو يتمتم: «مع ذلك إنّ الأرض تدور».

وقد أثبت تحقيقٌ جادٌّ أنّ تلك القضيّة هي أشدّ تعقيدًا ممّا صوّرها أعداء الكنيسة، وأنّ علماء عصر «غاليليو» كانوا مجمعين على رفض نظريّته. ولكن لم يهتمّ أحدٌ بتكذيب ادّعاء عداء الكنيسة للعلم، الذي انبرى لتقويضه يوحنّا بولس الثاني، الذي كان قد درّس في جامعة «ياجلّون»، وسبقه إلى التدريس فيها العالم «كوبيرنيك» نفسه. هذه المهمّة كانت تقتضيها خدمة الحقيقة، ومصداقيّة الكنيسة.

في ١٩٨١/٧/٣١، عيّن الحبر الأعظم لجنةً علميّةً لإعادة دراسة تلك القضيّة. وفرغت تلك اللجنة من أبحاثها، عام ١٩٩٢، بمناسبة الذكرى الثلاث مئة وخمسين لوفاة «غاليليو»، وأُعلنت نتائج الدراسة، يوم ١٩٩٢/١٠/٣١، بحضور الحبر الأعظم، وأعضاء الأكاديميّة الحبريّة للعلوم، وأعضاء الهيئة الدبلوماسيّة، وثلّةٍ من الكرادلة والمسؤولين الكنسيّين، والمجلس الحبريّ للثقافة. وأعلن الكردينال «بوبار»، رئيس المجلس الحبريّ للثقافة، أنّ «غاليليو» كان مسيحيًّا وفيًّا للكنيسة». ولكنّ الذين أدانوه، عجزوا عن فصل الإيمان عن علم الفلك، رغم نصيحة لاهوتيٍّ شهيرٍ، آنذاك، دعاهم إلى الحذر، وإلى التمييز بين نظريّةٍ علميّةٍ مقنعةٍ، وافتراضاتٍ لاهوتيّةٍ خاضعةٍ للجدل.

وخلص الكردينال إلى مخاطبة الحبر الأعظم بقوله: «إنّ خطأ الحكم هذا، الذي ظهر جليًّا في أيّامنا، قاد الحكّام إلى فرض تدابير تأديبيّةٍ أساءت كثيرًا لغاليليو... هذه الأخطاء ينبغي الاعتراف بها، بصدقٍ، كما طلبتم، أيّها الأب الأقدس».

واعترف البابا بهذا الخطأ، ولكنّه، تحسُّبًا لعدم تكراره، اقترح في حال

حدوث حالةٍ مماثلةٍ، أن يدرس الطرفان، بعنايةٍ، حدود اختصاص كلٍّ منهما. وارتأى أن يكون لكلٍّ من التاريخ، والأدب، وتفسير الكتاب المقدّس، والفلسفة، واللاهوت، أساليبها الخاصّة، وأن تبني قناعاتها على ضوء العلم، كما أنّ على العلم أن يسترشد بأحداث القرون الماضية. فقد كان العلماء، حينذاك، يعتمدون على الفلاسفة، وعلى فلاسفة اليوم أن يعتمدوا على العلماء.

وإزاء التقدّم التكنولوجيّ، دعا قداسته اللاهوتيّين والرعاة إلى تجنّب شَرَكَيْن: التردّد، والحكم المتسرّع. فليطّلعوا، أوّلاً، على المستجدّات التيكنولوجيّة، قبل أن يقرّروا هل عليهم أخذها بالاعتبار في تفكيرهم، أو إدخال تعديلٍ على تعليمهم.

واعترف البابا أنّ قضيّة «غاليليو» قد أمست «خرافةً أسهمت في ترسيخ زعم العديد من العلماء، حسني النوايا، أنّ الروح العلميّ وأساليب بحثه، لا تتوافق مع الإيمان المسيحيّ»، ما أفضى إلى سوء تفاهمٍ مؤسفٍ، مبنيٍّ على فكرة «تناقضٍ أساسيٍّ بين العلم والإيمان». فثمّة وسائل متعدّدةٌ لتعرّف حقيقة الكائن البشريّ ومكانته في الكون. ولا بدّ من احترام هذا التنوّع، سبيلاً إلى اكتشاف الوضع الإنسانيّ في تعقيده الرائع. وقد اعترفت الكنيسة أنّ العلم واللاهوت مضماران للمعرفة. لا يجوز اعتبارهما منفصلَيْن أو متنابذَيْن. ولا مفرّ للعلم من أن يعترف، هو أيضًا، بهذا الواقع.

لقد دفعت قضيّة «غاليليو» الكنيسة إلى فحص ضميرٍ، وطّد القناعة المسيحيّة بأنّ كلّ معرفةٍ حقيقيّةٍ مرحّبٌ بها، لأنّها تلقي الضوء على سرّ الإنسان، وهو علّة وجود الكنيسة.

صلاةٌ للسلام، وساعة للعلمانيّين

عملاً بالتقليد الذي انتهجه يوحنّا بولس الثاني، استهلّ العام **١٩٩٣**، في أسّيزي، بصلاةٍ من أجل السلام، ولا سيّما في البوسنة، بمشاركة ممثّلين عن معظم الديانات الأُخرى.

وفي شهر كانون الثاني، استقبل دفعتَيْن من الأساقفة الپولونيّين. وأعلن للدفعة الأولى أنّ مواطنيه يعيشون طورًا جديدًا من تاريخهم، ينطوي على تحدّياتٍ إنجيليّةٍ جديدةٍ، وأنّ ساعة العلمانيّين، في الكنيسة، قد حلّت، كي يلعبوا الدور الذي يخوّلهم إيّاه سرّا العماد والتثبيت، الدور المتمثّل في جعل الكنيسة حاضرةً وخصبةً، كلّما اتّضحت قدرتهم على جعلها ملحًا للأرض. وعلى الأساقفة مساعدتهم في أداء هذا الدور، بخلق هيكليّات مشاوراتٍ أبرشيّةٍ، ومن خلال دعم حركات التجدّد العلمانيّ، وتنشيط الحركة الكاثوليكيّة الداعمة للمجتمع المدنيّ.

وأكّد الحبر الأعظم أنّ التبشير الجديد يقتضي الذود عن كرامة الحياة البشريّة، منذ تكوين الجنين، حتّى الموت الطبيعيّ. هذا الواجب يُلزم الإكليروس والعلمانيّين على السواء، وعليهم، جميعًا أن يعلنوا، جهارًا وبحزمٍ، حقّ الجنين برؤية النور وبالحياة. وعلى اعتراض بعضهم أنّه لا يجوز فرض المبادئ المسيحيّة على الجميع، أجاب البابا أنّ القضيّة ليست قضيّة فرض رؤيةٍ، بل هي واجب الدفاع عن حقٍّ أساسيٍّ من حقوق الإنسان: حقّ الحياة.

وفي لقائه مع الدفعة الثانية من الأساقفة، التي ضمّت عميد أساقفة پولونيا، الكردينال «غليمپ» (Glemp)، شدّد الحبر الأعظم على دور الكنيسة في الحياة السياسيّة الوطنيّة، موضحًا أنّ أحد عناصر التبشير الجديد، يتضمّن تعليم الكنيسة الاجتماعيّ، إذ لا يجوز أن تحصر المسيحيّة ذاتها بين جدران الكنائس. غير أنّه حذّر من الخلط بين نشر الثقافة، وفرض التوجّه الإكليروسيّ. فتعميق فهم الحرّيّة لا يبرّر اتّخاذ الكنيسة مواقف حزبيّة. فهي «**ليست حزبًا سياسيًّا، ولا تتماهى مع أيّ حزبٍ سياسيٍّ، لأنّها فوق الأحزاب، ومنفتحةٌ على جميع القوم حسني النوايا**». ولا يحقّ لأيّ حزبٍ سياسيٍّ ادّعاء تمثيلها. ليس من مهمّة الأساقفة الالتزام المباشر بالحياة السياسيّة، بل على العلمانيّين أن ينخرطوا في الميدان السياسيّ، يحدوهم قلقٌ مخلصٌ على مصلحة المجتمع الذي ينتمون إليه. فلا إخفاقات الديمقراطيّة، ولا خيبات عهد الحرب الباردة، تبرّر انسحابهم من الساحة العامّة. بل إنّ الالتزام هو واجبٌ ضميريٌّ، ومهمّةٌ نابعةٌ من دعوتهم. وفي سبيل ذلك، عليهم تعلّم الحوار ما بينهم، محترمين الحقّ، وكرامتهم الذاتيّة وكرامة

خصومهم، الذين، وإن اختلفوا معهم، ليسوا لهم أعداءً. وعلى الكنيسة أن تبقى حارسة النظام الأخلاقيّ، والضمير الناقد.

كان قد مضى ثمانية عشر شهرًا على زيارة يوحنّا بولس الثاني الفاشلة إلى موطنه، وها هو يستعيد حزمه مع مواطنيه.

رحلةٌ عاشرةٌ إلى أفريقيا

بين الثالث والعاشر من شباط **١٩٩٣**، قام يوحنّا بولس الثاني برحلته الرسوليّة العاشرة إلى أفريقيا، استهدف، من خلالها، مكافحة الفقر والمرض والتطرّف.

استهلّ هذه الرحلة من «بينان» (Bénin)، موطن الكردينال «غانتان» (Gantin)، رئيس مجمع الأساقفة، وأحد معاوني البابا المقرّبين. وعلى غرار أوروپّا الوسطى والشرقيّة، كانت البينان تتعافى من آثار الحكم الماركسيّ. فشجّع الحبرُ الأعظم الشعبَ على إعادة بناء مؤسّساتٍ حرّةٍ.

بعد يومين قضاهما في البينان، وقابل خلالهما مسلمين في «پاراكو»، اجتاز القارّة الأفريقيّة صوب «أوغندا»، حيث زار مرضى السيدا في أحد مشافي «كامپالا»، وضحايا الملاريا والبرَص، وناشد رجال العلم: «**لا تسمحوا لمساوماتٍ تجاريّةٍ أن تبعدكم عن واجباتكم. بل ينبغي إيجاد حلولٍ لهذه الآفات**».

ومن «كامپالا»، أعلن عن عقد سينودُس الأساقفة الأفريقيّين في روما، عام **١٩٩٤**. واحتفل بقدّاسٍ في مزار شهداء أوغنديّين، كان سلفه بولس السادس قد طوّبهم عام ١٩٦٤.

وانتهى به المطاف في السودان، حيث كان يتعرّض مسيحيّون لاضطهادٍ دفعهم إلى المقاومة. وكان أساقفةٌ سودانيّون قد نصحوا البابا بالإحجام عن تلك الزيارة، لكيلا يضطرّ إلى مصافحة أيدٍ ملطّخة بالدماء، ولكيلا تستثير زيارته ناشطين إسلاميّين، فيمعنوا في اضطهاد المسيحيّين. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني كان يرى أن من واجبه الذود عن حياض مسيحيّين مضطهَدين؛ وفي نهاية المطاف، تمّ الاتّفاق على أن تقتصر زيارته للخرطوم على تسع ساعاتٍ فقط.

عند هبوطه من الطائرة، قبّل أرض السودان، جريًا على عادته، وألقى خطابًا جاء فيه: «**حيثما يوجد قومٌ ضعفاء وعزّلٌ، عليّ أن أتكلّم باسمهم. وعندما يفتقرون إلى بيتٍ، ويعانون عواقب الجفاف، والجوع، ودمار الحرب، عليّ الوقوف إلى جانبهم**»... وأردف أنّه جاء باسم «**العدالة والسلام لجميع المواطنين، بلا تمييزٍ، أيًّا كان دينهم، ووضعهم الاجتماعيّ، وانتماؤهم الإثنيّ، ولون بشرتهم**». وأشار إلى أنّ أفريقيّين كثيرين باتوا يؤمنون أنّ على المجتمع أن يصبح أكثر ديمقراطيّةً، واحترامًا للخلافات المشروعة، ووفاءً للنظم القانونيّة، وفقًا لحقوق الإنسان. فالشعوب الأفريقيّة لم تعد مكتفيةً بالاستقلال والانعتاق من الاستعمار الخارجيّ، فقد آن زمن انعتاقها من الاستعمار الداخليّ، الذي تمارسه حكوماتٌ طاغيةٌ فاسدةٌ.

وأشار الحبر الأعظم، في خطابه، إلى العبْدة السابقة السودانيّة، «جوزيفين بخيتا»، التي كان قد طوّبها في السنة الفائتة، في حضورٍ عالميٍّ حاشدٍ، وخاطب المسلمين قائلاً: «لا فرق بين محبّة المسيحيّين والمسلمين لإلهٍ واحدٍ، وطريقة تقبّلهم لحبّه». ولم يتردّد في الإجابة على سؤال صحافيٍّ أنّ الشريعة الإسلاميّة يمكن فرضها على مسلمين، ولكن لا يجوز فرضها على مسيحيّين.

من المحقّق أنّ دفاع البابا الحازم عن الحرّيّة الدينيّة، لم يلجم اضطهاد المسيحيّين. وبعد عشر سنواتٍ، احتدمت الحرب في «درفور»، مسيلةً من الدماء أنهارًا، ومنتجةً من المآسي ما يصدم الضمائر. بيد أنّ زيارته أسهمت في دعم مقاومة سياسة التطرّف، وسيطرة الإخوان المسلمين على مقاليد البلاد، وعلى مصير العباد.

وفي أثناء تلك الزيارة، سُئل الحبر الأعظم كيف سيكون وضع الدول الأفريقيّة، إثر انعتاقها من نير الماركسيّة، فأوضح أنّ الماركسيّة والرأسماليّة كلتيهما مفاهيم مستوردةٌ، لم تجد سبيلها إلى قناعات شعوبٍ لها تقاليدها الدهريّة الراسخة، ولها ديمقراطيّتها الخاصّة، وتعلّقها بالأسرة، ووفاؤها للقبيلة، وهذه قِيَمٌ حيّةٌ. ومن ثمّ لا يمكن أن تُفرض على تلك الشعوب، قسرًا، مفاهيم غريبةٌ.

وسُئل عن جواز انخراط الإكليروس في السياسة، فأجاب أنّ بوسعه مساعدة الجماعة السياسيّة الوطنيّة، في فتراتٍ محدّدةٍ، وبطرقٍ معيّنةٍ، ولكنّه ناشد الإكليروس: «**لا تنسوا أنّ واجبكم الأوّل ليس سياسيًّا... فأنتم خلفاء الرسل، ومبشّرون بالإنجيل!**».

يوحنا بولس الثاني في ألبانيا

يوم **١٩٩٣/٤/٢٥**، طار يوحنّا بولس الثاني إلى ألبانيا، التي حكمها، مدى عقودٍ، الدكتاتور «هوكشا» (Hoxha)، الذي ألِف أن يتبجّح بأنّه «حاكم الدولة الوحيدة الملحدة، حقًّا، في العالم». في «تيرانا» العاصمة، استقبلته أوسع نساء ألبانيا – بل العالم – شهرةً، الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، التي كان الحبر الأعظم يقدّر، أرفع تقديرٍ، منجزاتها الإنسانيّة، والتي طالما تاقت إلى العودة إلى بلدها، ومنعها الحكم الجائر.

ثمّ قصد البابا مدينة «شكودار»، في شمال غربيّ البلاد، حيث رسم أربعة أساقفةٍ، وكان أحدهم قد حُكم عليه بالإعدام، قبل خمسٍ وعشرين سنةً، فاضطرّ إلى التخفّي.

تحضيرات هذه الزيارة كانت قد بدأت عام **١٩٩١**، فور سقوط الحكم الشيوعيّ، وكان موفد الڤاتيكان قد حصل على ترخيصٍ بترميم إكليريكيّة «تيرانا»، وكاتدرائيّة «شكودار»، وسارع إلى رفع علم الڤاتيكان الأبيض والأصفر على الإكليريكيّة، التي شرع بترميمها، تعبيرًا عن رغبته في إعلان: «ها قد عدنا».

حربٌ على الإرهاب

لم يقتصر يوحنّا بولس الثاني على التنديد بالتطرّف الدينيّ، بل إنّه تصدّى، بحزمٍ، لوجوه إرهابٍ أُخرى. ففي شهر أيّار **١٩٩٣**، قام بزيارةٍ راعويّةٍ إلى صقلّيةً، دامت ثلاثة أيّامٍ، وشنّ هجومًا حادًّا على المافيا. ويوم الأحد، التاسع

من أيّار، احتفل بقدّاسٍ في «وادي الهياكل» بمدينة «أغريجنتي»، وناشد الصقلّيين ألاّ يقتصروا على عيش إيمانهم داخليًّا، بل حثّهم، أيضًا، على إدانة الشرّ إدانةً حازمةً، وعلى التنديد بثقافة المافيا، ثقافة الإجرام والموت، وعدوّة الإنجيل، المفتقرة افتقارًا ذريعًا إلى الإنسانيّة.

وفي نهاية القدّاس، وجّه إلى الصقلّيّين كلمةً مؤثّرةً جاء فيها: »**بعد مقاساة الجمّ من الآلام، يحقّ لكم أن تحيوا بسلامٍ. إنّ ضمائر الذين يفسدون هذا السلام، مثقلةٌ بجرائر ضحايا كثيرةٍ، وعليهم أن يدركوا أنّ قتل الأبرياء أمرٌ مرفوض... وإنّني، باسم المسيح الذي صُلِب وقام، المسيح الذي هو الطريق والحقّ والحياة، أقول لمرتكبي هذه الجرائم: «توبوا، فدينونة الله قريبةٌ!»**».

وفي مواجهة «سلاسل الحقد والانتقام»، التي وصفها بأنّها «جرائم منظّمةٌ تخنق الضمائر وتدمّرها، وتجارب شيطانيّةٌ»، دعا إلى التضامن المسيحيّ، وأهاب بالكهنة والإكليريكيّين والراهبات بالسعي إلى شفاء البلاد من آفة المافيا.

وردًّا على هجوم البابا، حدثت، بعد أيّامٍ معدوداتٍ، سلسلة تفجيراتٍ مجرمةٍ، طالت مؤسّساتٍ دينيّةً، وكنائس، وكانت كنيسة القدّيس يوحنّا في «اللاطران» إحداها. هذه الجرائم حدثت في حقبةٍ مضطربةٍ من الحياة السياسيّة الإيطاليّة، ولذلك وطّن قداسته العزم على إعادة تبشير إيطاليا، بمنأًى عن التدخّل بالسياسة الداخليّة، وبتصميمٍ حازمٍ على مكافحة «ثقافة الموت».

رحلةٌ إلى بلدانٍ بلطيّةٍ متحرّرةٍ

بين ١٢ و١٧ حزيران، زار البابا عددًا من المدن الإسبانيّة. وبعد عطلته الصيفيّة التي قضاها على الجبال الإيطاليّة، يمّم، في الرابع من شهر آب، شطر دولٍ بلطيّةٍ استقلّت حديثًا عن الاتّحاد السوڤييتيّ: ليتوانيا، وليتّونيا، وإستونيا.

وكان الحبر الأعظم يعدّ زيارته إلى ليتوانيا، خاصّةً، حجًّا إلى أرض شهداء. فبين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٥، كان قد اعتُقل وسُجن في معتقلات سيبيريا، أربعة أساقفةٍ، و١٨٥ كاهنًا، و٢٧٥٠٠٠ علمانيٍّ. ولم يؤذن لأيّ أسقفٍ ليتوانيٍّ

بالمشاركة في المجمع الفاتيكانيّ الثاني. وحُوّلت كاتدرائيّة العاصمة «ڤيلنيوس» إلى معرضٍ فنّيٍّ من درجة ثالثةٍ، وكنيسة القدّيس «كازيمير» إلى متحفٍ للإلحاد.

وكان الحدث الأعمق تأثيرًا، في أثناء تلك الزيارة، نزهة البابا على «تلّة الصلبان»، حيث كانت الصلبان الأولى قد غرست في أثناء انتفاضة عام **١٨٦٣** على الحكم الروسيّ. وبعد مرور قرنٍ، غُرست عشرة آلاف صليبٍ من مختلف الأحجام، احتجاجًا على نمطٍ جديدٍ من الإمپرياليّة. هذه المقارنة بين الاستبداد القيصريّ، والنظام الشيوعيّ، لم ترُق للحكّام الجدُد، فانتقموا بحراثة التلّة، وانتزاع صلبانها. ولكنّ صلبانًا أُخرى كانت تنبت كلّ يومٍ. وعندما استقلّت ليتوانيا، لم يكن سنتمترٌ واحدٌ في التلّة خاليًا من صليبٍ. وبالجهد وُجد مكانٌ لمركعٍ خشبيٍّ جثا عليه البابا وتخشّع، حاني الرأس، حاجبًا عينيه بيديه، مصلّيًا من أجل جميع الراقدين في قبورٍ جماعيّةٍ مغفلةٍ، وجميع شهداء ليتوانيا الذين ضمّهم تراب سيبيريا الجليديّ.

وفي «ريغا»، عاصمة ليتّونيا، ألقى الحبر الأعظم خطابًا موجّهًا إلى دنيا الثقافة، أكّد فيه أُسس تعليم الكاثوليكيّة الاجتماعيّ، موضحًا أنّ هذا التعليم ليس برنامجًا سياسيًّا، ولا برنامجًا اقتصاديًّا، وأنّ ما من شكلٍ من أشكال الرأسماليّة الحاليّة يتوافق توافقًا تامًّا مع تعليم الكنيسة الاجتماعيّ. وليس هذا التعليم «دربًا ثالثًا» بين الرأسماليّة والاشتراكيّة.

وأكّد، أيضًا، أنّ الشيوعيّة تنطوي على «نواة حقيقة»، تتمثّل في إدانة استغلال العمّال. ولكنّه عاد فأكّد «**أنّ الإنسان هو مركز النظام الاجتماعيّ، فهو يتمتّع بكرامةٍ لا يمكن استلابها، لأنّه مخلوقٌ على صورة الله**».

المفاجأة الكبرى: أيّام الشبيبة العالميّة في «دنڤر»

عندما حطّت المروحيّة بيوحنّا بولس الثاني في ملعب «مايل هاي» (Mile High)، بمدينة دنڤر الأميركيّة، يوم **١٩٩٣/٨/١٢**، لم يكن بوسع أحدٍ توقّع ما سيحدث.

فعندما أُعلن عن تلك الزيارة، قبل سنةٍ، أعرب الكثيرون من أعضاء مجلس الأساقفة الأميركيّين، عن ارتيابٍ في جدواها وفي نجاحها. لا بل زعم بعضهم أنّ حضور البابا سيُفشل هذا اللقاء، وقد ينعكس أثره السلبيّ على لقاءات الشبيبة العالميّة، مستقبلاً. فهم لم يتوقّعوا أيّ تجاوبٍ بين الحبر الأعظم والأميركيّين، الذين وصفوهم بكاثوليكيّي التسوّق، الذين يأخذون من عقائد الكنيسة ما يروق لهم، وينبذون ما لا يستسيغون.

وكان للمسؤولين المدنيّين موقفٌ سلبيٌّ من نوعٍ آخر. فزعم المدّعي العامّ أنّ السماح للبابا بإقامة قدّاسٍ في حديقةٍ عامّةٍ، سيجعل متعذّرًا على السلطات، في المستقبل، إغلاقها في وجه عصابات شذّاذ الآفاق، وشتّى أصناف الجانحين. وبلغ القلق ببعض كاثوليكيّي «دنفر»، أن نصحوا الحبر الأعظم بإلغاء زيارته.

ومع أنّ أساقفةً كُثُرًا كانوا قد أعدّوا، بمحبّةٍ، لتلك الزيارة، وأوعزوا إلى الكهنة التعاون مع الشبيبة في هذا السبيل، غير أنّ الشكّ لم يبارحهم في نتيجة الزيارة البابويّة، من جرّاء ظنّهم أنّ ثقافة شبّان التسعينات ومراهقيها، وموسيقاهم، وانصباب اهتمام شريحةٍ عريضةٍ منهم على الجنس، والمخدّرات، والاستهلاك، تتعارض تعارضًا جليًّا وجوهريًّا مع تعاليم الكنيسة، وتجعل تلاقيهما مستحيلاً. وكانوا واثقين من أنّ الهوّة المحفورة بينهم وبين الكنيسة، يتعذّر ردمها. وإن كانت لقاءات الشبيبة العالميّة الأربعة السابقة، في كلٍّ من روما، وبوينس أيريس، وإسبانيا، وپولونيا، قد اندرجت على أفضل حالٍ، فلن يكون الأمر كذلك في أميركا، لأنّ أميركا مختلفةٌ.

غير أنّ كلّ هذه التكهّنات كانت على تباينٍ مع رؤية يوحنّا بولس الثاني، الذي اختار انعقاد لقاء الشبيبة في الولايات المتّحدة، وفي مدينة «دنفر» تحديدًا. وقد فسّر بعضهم هذا الاختيار بولع البابا بالجبال، وبكون «دنفر» محاطةً بجبالٍ صخريّةٍ مهيبةٍ. ولكنّ قليلين هم الذين استجلوا حقيقة اختياره، الذي دفعه إليه كون «دنفر» راسخة العلمانيّة، مجلّيةً في مضمار الحداثة، مزهوّةً بوقوفها في طليعة العصرنة. وفي هذه المدينة بالذات، ومن خلال لقاء الشبيبة العالميّة، توخّى تحديد معنى المجتمع الحرّ، في تسعينات القرن العشرين.

ومع دنوّ موعد اللقاء، كانت استطلاعات الرأي تُبرز، يومًا فيومًا، خطل توقّعات المشكّكين. ففيما توقّع مجلس الأساقفة ألاّ يتخطّى عدد المشتركين ستّين ألفًا، أظهرت الاستطلاعات أنّ عددهم سيتجاوز مئتي ألف.

وبعد أن تأكّد أنّ الحضور سيكون كثيفًا، بدأ التساؤل عن نوع اللقاء، إذ تخيّل بعضهم أنّ البابا سيكون متجهّمًا، مغرقًا في الجدّ؛ بيد أنّ مقابلته للشبيبة، ومقابلة الشبيبة له، كذّبت كلّ تلك الظنون.

كانت الشمس لاطيةً خلف الغيوم، ولم ينقطع هطل المطر، طيلة يوم ١٢ آب. وكان الشباب قد شاركوا في تظاهراتٍ عديدةٍ، قبل بدء الاحتفال، ووصلوا إلى الملعب منهكين، جائعين، ولكن ما إن استقرّوا على مقاعدهم، حتّى اجتاحهم شعورٌ بالراحة. وبلغ تأثّر بعضهم أوجه، عندما شاهدوا مئات الأساقفة الأميركيّين، مرتدين صاياتهم الحمراء، مشاركين الجمهور هتافات الفرح. ودبّ الحماس، وصدحت الحناجر بنشيد أيّام الشبيبة العالميّة، المردّدة: «نحن جسمٌ واحدٌ»، بقيادة المغنّية الإيرلنديّة «دانا». وعندما أطلّت مروحيّة الحبر الأعظم، تبيّن لراكبها أنّ الملعب امتلأ بأكثر من طاقته على الاستيعاب. وبغتةً توقّف هطول المطر، وكأنّ الطبيعة أوعزت ببدء الاحتفال. غير أنّ الدهشة الكبرى انطلقت من هتاف الشبيبة المدوّي: «يوحنّا بولس الثاني، نحن نحبّك!». وقد اعترف قائد المروحيّة أنّه لقي مشقّةً في حفظ توازنها، أثناء هبوطه بها، بسبب الاهتزاز العنيف الذي أحدثته لها شدّة الهتافات.

وما إن خمد الصخب حتّى شرع الضيف الرفيع يحيّي، بلغاتٍ عديدةٍ، البلدان الممثَّلة في ذلك اللقاء، ما أثار عاصفةً ثانيةً من التصفيق والهتاف. وسارع البابا إلى تذكير جمهوره بأنّهم حجّاجٌ، وليسوا سائحين، حجّاجٌ إلى عالم الحداثة، المتمثّل في مدينةٍ تعي طليعيّتها في مجال المعاصرة، وهي، في الآن عينه، محاطةٌ بطبيعةٍ ساحرةٍ. وهذا يعني أنّه وأصدقاءه الشبّان ينشدون انعكاس صورة الله، لا في بهاء الطبيعة وحسب، بل، أيضًا، في المنجزات البشرية، وفي نفس كلّ إنسانٍ.

وأشار إلى أنّ رجال اليوم ونساءه يتخيّلون أنّ قلبهم هو هيكلٌ مقفرٌ، وأنّهم تخطّوا الحاجة إلى الإيمان، وهذا أمرٌ مستحيلٌ. فلن تقوى الإنسانيّة على الازدهار في عالم هياكل خاويةٍ، عالمٍ لاإنسانيٍّ. وها قد جاءت أيّام الشبيبة العالميّة إلى «دنڤر»، لكي تحقّق لقاءً حقيقيًّا بيسوع المسيح. فمن خلال هذا اللقاء سيتجلّى الجمال، ويؤتي الجميع فرحًا؛ فيُبنى التضامن على أُسسٍ منيعةٍ، وينخرط الرجال والنساء في «**تواصلٍ حميمٍ مع الله نفسه، وفي حبٍّ يتخطّى حدود الزمن والمدى، نحو سعادةٍ أبديّةٍ لا يرقى إليها شكٌّ**».

وفيما كان البابا يلقي خطابه، عاد المطر يتهاطل، ولكنّ الهطل لم يُفقد الجوّ السائد شيئًا من حرارته، واستمرّ عشرات آلاف الشبّان، متّقين بستراتهم ومظلاّتهم المزركشة المتعدّدة الألوان، يردّدون، ملء حناجرهم، وبمختلف لغات العالم، عبارات الترحيب بالأب الأقدس، الذي توقّف، لحظةً، معتذرًا عن طول خطابه، فجاءه جوابٌ جماعيٌّ هادرٌ: «لا».

صباح ذلك اليوم عينه، كان الحبر الأعظم قد ردّ على عبارات الترحيب، التي استقبله بها الرئيس «بيل كلينتون»، بقوله إنّ الولايات المتّحدة قامت على حقائق أخلاقيّة، أهمّها حقّ الكائن البشريّ بالحياة. ومن ثمّ، فإنّ جميع القضايا الكبرى، التي تضطلع بها الولايات المتّحدة، تفقد معناها، إن لم تضمن حقّ الحياة، وإن لم تحمِ الكائن البشريّ. وكان خطابه يُقاطَع، باطّرادٍ، من قبل الشباب الحاضرين، فسألهم: «**هل تهتفون تأييدًا أم اعتراضًا!**». فتعالت الهتافات مؤكّدةً تأييدهم.

في اليوم التالي، **١٣** آب، تحوّل ملعب «مايل هاي» إلى حلبةٍ كبيرةٍ، شهدت تذكيرًا بآلام المسيح وموته، من خلال أربع عشرة محطّةً من محطّات درب الصليب، بدءًا بالحكم عليه بالموت حتّى دفنه، وانتهت بنصْب صليبٍ جسيمٍ على تلّةٍ، من قبل اثني عشر فتًى. وكان هذا الصليب قد أُهدي إلى شبيبة «دنڤر»، في روما، يوم أحد شعانين **١٩٩٢**، وطاف، على امتداد سنةٍ ونصفٍ، أربعين أبرشيّةً أميركيّةً. ثمّ وجّه الحبر الأعظم إلى الشبيبة خطابًا، أُتيح للجميع متابعته على شاشاتٍ جسيمةٍ، منتشرةٍ في كلّ أنحاء الملعب.

هذا الخطاب تناول موقف الإنسان من الظلم، مستشهدًا بيسوع الذي أُدين من قِبَل حاكمٍ يحدوه الجبنُ والاستهتار، أكثر ممّا تحدوه القناعة. وبذلك كان يسوع مثالاً لما قد يُلحقه الناس بالآخرين من ضيمٍ وغبنٍ، عندما تقسو قلوبهم، ويخبو نور ضمائرهم. فيسوع، من على صليبه، غفر لجلاّديه. وهذا الحبّ الرحيم يطال كلاً منّا، بلا استثناء، ويفيض على العالم «النعمة التي تحمل الحياة». إنّ تأمّل وجه يسوع المتألّم، يعني التقاء «الربّ الصاعد من الأرض إلى السماء»، وعبادته، وتحويل الألم إلى فداءٍ، كلّما اتّحد هذا الألم، بتضحية المسيح ذاته. وناشد البابا مستمعيه: «**استنفروا جرأتكم في سبيل مواجهة مصاعب الحياة ومظالمها. والتزموا بالكفاح من أجل العدالة والتضامن والسلام في العالم. قدّموا طاقاتكم الفتيّة ومواهبكم، من أجل بناء حضارة حبّ المسيح». هذا ما يمكن تعلّمه من انتهاج درب الصليب، «السرّ الكامن في صُلب حياة الكنيسة»**.

قبل لقائه الشبيبة، منح البابا نفسه فرصة نزهةٍ في الجبال الصخريّة، واستقبله رئيس أساقفة «دنفر» في منتجع «سان مالو»، ظانًّا أنّ ذلك الحبر البالغ الثالثة والسبعين يحتاج إلى قيلولةٍ لمدّة ساعةٍ أو ساعتين. وربّما كان رئيس الأساقفة نفسه راغبًا في مثل هذه القيلولة. ولكن ما كادت تمضي عشرون دقيقةً على اختلاء البابا في غرفته، حتّى خرج باحثًا عن رئيس الأساقفة، وقد انتعل خفًّا رياضيًّا أبيض، كان الشباب قد أهدوه إيّاه بالأمس، وانطلق الرجلان في نزهةٍ عبر الحديقة. وكان البابا يتوكّأ على عكّازٍ، له مقبضٌ على شكل ملاكٍ، أهداه إيّاه الرئيس كلينتون.

يوم السبت، ١٤ آب، كان خمس مئة ألف شابٍّ، مزوّدون بأكياس رقادٍ، وحقائب أمتعةٍ، وقوارير ماءٍ، قد اجتازوا الخمسة وعشرين كيلومترًا، التي تفصل وسط «دنفر» عن موقع الحديقة، حيث سيُقام، في الغد، قدّاس الختام. وكان لموكبهم تأثيرٌ بليغٌ. وقد اعترف رجلٌ كان يقدّم الماء للقادمين: «أنا لست كاثوليكيًّا، ولكنّني، مع كوني محاميًا متحرّرًا من الأوهام، أجد هذا الحدث رائعًا». وكان القيظ وطول المشوار قد نالا من صمود الكثيرين، فالتمسوا قسطًا من الراحة، في الاستراحات المنتشرة على طول الطريق. غير أنّ الشبّان

السودانيّين، الذين كانوا يحملون صليب الحجّاج، برهنوا عن صمودٍ مدهشٍ.

وصل البابا إلى المكان، فيما كانت شمس المغيب تتراءى من خلال الغيوم. وكانت أجهزة تيليفزيونٍ جسيمةٌ تضعه في متناول جميع الحاضرين. وقد استهلّ عظته بالقول: «**في المدن الكبرى يتمّ التعامل بالحياة – وهي هبة الله الأولى، وحقٌّ أساسيٌّ لكلّ فردٍ – وكأنّها مغنمٌ، فتنظَّم، ويُتاجر بها، ويتمّ التصرّف بها وفقًا لمصالح مادّيّةٍ**». وإنّه لمأساويٌّ، في أزمة الحداثة الأخلاقيّة، أن يتجاهل كثيرون الخطر الكامن في تحويل الحياة إلى مصلحةٍ. وعلى شبيبة اليوم أن يبذلوا جهدًا خاصًّا، كي يُبقوا الحوار قائمًا بين الله والحقيقة الأخلاقيّة، حوارًا يندرج في سرّ الضمير، «**المحراب السرّيّ لكلّ الهياكل**». ففيه يتيسّر لهم التقاء يسوع المسيح، الذي منح البشر الحياة الإلهيّة، أي «**الأمل الوحيد الحقيقيّ والواقعيّ**»، لإنسانيّةٍ تحوم فوقها ظلال ثقافة الموت. وختم بقوله: «**صلّوا، في هذه الليلة، عن هذه النيّة. «مارناثا»، تعالَ أيّها الربّ يسوع**».

بذلك حوّل البابا تلك الليلة إلى فسحة تأمّلٍ جادٍّ، استمرّ الليل كلّه. ولكنّه، لكي يضفي مسحةً من المرح على الجوّ، ختم اللقاء بإلقاء نظرةٍ على ساعة يده، وضرب موعدًا للقاءٍ آخر في الغد، متمنّيًا للجميع ليلةً سعيدةً، ليلة أناشيد وفرحٍ مقدّسٍ.

صباح اليوم التالي، حطّت المروحيّة بالحبر الأعظم في الحديقة، وكان، من خلال نافذتها، قد تأمّل، أثناء هبوطها، الحشد البشريّ الأكبر الذي شهدته ولاية كولورادو، المؤلّف من خمس مئة ألف شخصٍ، وقد لاحت، في الأُفق، مدينة «دنڤر» والجبال الصخريّة.

وبما أنّ ذلك اليوم، **١٥** آب، كان يوافق عيد انتقال العذراء، حيّا البابا الجمع الغفير بقوله: «**باسم يسوع المسيح وأمّه الطوباويّة، أقول لكم: «صباح الخير»**». وكان الحرّ في ذلك اليوم قائظًا، فكانت سيّارات إطفاءٍ تزوّد العطاش بالماء، وترشّ رذاذًا ملطّفًا.

وفي عظته، استعاد البابا التحدّي الذي كان قد أطلقه بالأمس، فأعلن أنّه لا

يسوغ أن يرث الشباب عالمًا معتلاً، ومستقبلاً مريضًا. والزمن الراهن يحتاج إلى شهودٍ، فلا بدّ من الالتزام بكفاحٍ دائمٍ، في سبيل كرامتنا، وهويّتنا، بصفتنا كائنين روحيّين أحرارًا، يناهضون «ثقافة الموت»، التي تهدّد بِسحق تطلّعاتهم إلى حياةٍ مليئة. وناشد الشباب: «**لا تخافوا من ذرع الشوارع والأماكن العامّة، على غرار الرسل الذين بشّروا بالمسيح، وبالخلاص في ساحات المدن والقرى. ليس الوقت وقت حياءٍ من الإنجيل، بل هو زمن الجهر به من فوق الأسطحة...**». وناشد الشباب ألاّ يخافوا من مواجهة التيّار الجارف، ومن مقاومة ثقافة الموت التي تسعى إلى استعبادهم، وألاّ يسمحوا لقوى الشرّ أن تسيطر عليهم، بل أن يسيطروا، هم، على الشرّ بالخير.

وعقب القدّاس ودّع الحاضرين بعشرات اللغات، ثمّ ودّعه نائب الرئيس «ألغور»، فباح له: «إنّه جاء «دنفر» حاجّ رجاءٍ»، مؤمنًا بقدرة الشباب على القيام بإنجازاتٍ عظيمةٍ. وكان رجاؤه يكتسب منعةً من كلّ لقاءٍ له بالشبيبة، إذ كان يلمس لديهم «رغبةً عارمةً في حياةٍ مليئةٍ، حرّةٍ تليق بالكائن البشريّ».

وختم زيارته بنداء «كي تظلّ أميركا مؤمنةً بمثُلها العليا النبيلة، محقّقةً مصير أمّةٍ متّحدةٍ في الله، تغدق الحرّيّة والعدل على الجميع».

ثمّ قبّل رئيس أساقفة «دنفر»، قائلاً: «**شكرًا لجعلك هذا الحدَث التاريخيّ، لكلّ الكنيسة، ممكنًا**». وبعد مرور نحو سنةٍ، أي في شهر أيلول **١٩٩٤**، زار رئيس الأساقفة المذكور روما، برفقة «جوقة يوحنّا بولس الثاني»، التي انبثقت عن يوم الشبيبة، عام **١٩٩٣**. ودعا البابا ضيوفه إلى قدّاسٍ صباحيٍّ في مقرّه الصيفيّ، وصرّح لهم أنّه ما زال يعيش، في قلبه، حدَث شهر آب، في «دنفر»، كأعظم حدثٍ في عهد حبريّته.

ولا مراء أنّ تأثير ذلك الحدث على الشبّان الأميركيّين، كان بليغًا، واستحوذ على الآلاف منهم شعورٌ منعشٌ بارتباطهم الحميم بأسرار الكنيسة. وشهدت كراسيّ الاعتراف طوابير متماديةً ممّن أقبلوا عليها، بعد أن تصرّمت سنواتٌ طويلةٌ على اعتراف الكثيرين منهم للمرّة الأخيرة. واعترف أحدهم أنّه شعر

باهتمامٍ جديدٍ، وبيقظة وعيٍ، وبالتجلّة والرعدة المقدّسة، حيال حضور المسيح الفعليّ في الإفخارستيّا.

وتجلّت للعديدين دعوتهم إلى الكهنوت، وإلى الحياة المكرّسة الرهبانيّة، كما اكتسبت الدعوات الغافية نورًا ومنعةً.

وتحقّقت لمدينة «دنفر» مغانم على أكثر من صعيدٍ، إذ توفّرت لها وارداتٌ ماليّةٌ قُدّرت بعِدّة ملايين، وتدنّت نسبة الجرائم والجُنَح، تدنّيًا ملموسًا. وكان لشهادة الشبّان الدينيّة وقعٌ بليغٌ على أذهان الكثيرين، الذين صحّحوا نظرتهم إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، وممارساتها، وأهدافها، على ضوء ما تبيّنوه من تطوّراتٍ في أحيائهم.

ولم يكن تأثّر الأساقفة أنفسهم أقلّ وقعًا. فالذين منهم ارتابوا في قدرة البابا على التأثير في شبيبةٍ بعيدةٍ عن تعاليم الكنيسة، وتخيّلوا استحالة جلب الشبيبة إلى السراط الدينيّ، اضطرّوا إلى تصويب آرائهم. فقد أثبتت «لغة الحضور» قدرتها على النفاذ إلى قلوبهم وأذهانهم. وعلّم الحبر الأعظم أولئك الأساقفة، أنّ مرحلة الشباب أرادها الله مرحلة بحثٍ، وأنّ مهمتهم هي مساندة هذا البحث.

واكتشف الأساقفة قدرة الكاثوليكيّة على أن تكون حيّةً. وأثبتت أُلوف الأُسر التي أعدّت أبناءها لهذا الحدث، ووفّرت لهم النفقات الضروريّة، خَطَل تحفّظات بعض أعضاء مجلس الأساقفة، ونظرتهم السوداويّة إلى زيارة البابا، التي جعلها إيمان رعاياهم ممكنةً وناجحةً.

وأثبت ذلك الحدَث، أيضًا، للعديد من الصحافيّين خطأ آرائهم في قدرات الكنيسة، وفي طاقاتها التي كانت خافيةً عنهم، بحيث كانوا يتساءلون عن إصرار الكثيرين على الانتماء للكنيسة. وندّدت بعض الصحف بسطحيّة محلّلين التهوا بمناقشة التفاصيل، وأغفلوا جوهر هواجس البابا الناجمة عن الفقر الروحيّ، في الحياة المعاصرة. أمّا الذين توقّعوا حركات احتجاجٍ صارخةً على زيارة البابا، فقد مُنيوا بخيبةٍ مريرةٍ.

واتّضح للبابا نفسه أنّ لدى شبيبة الغرب، رغم الجوّ المادّيّ الذي انغمسوا في لجّته، نوافذ رجاءٍ تدعو للتفاؤل. فلم يتوانَ عن وصف أيّام الشبيبة العالميّة التي عُقدت في «دنڤر»، بأنّها «مفاجأةٌ كبرى». وقد أكّد أنّها لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يعبّر فيها الشبّان، بحزمٍ، عن رغبتهم في حمل الإنجيل إلى الألفيّة الثالثة.

وعلى مدى الشهور التي عقبت ذلك الحدث، تسنّى لضيوف البابا تأمّل الصورة الوحيدة الجاثمة على منضدةٍ في مكتبه، تمثّله، ممسكًا بمسبحةٍ، ومتأمّلاً من نافذة مروحيّته، الجموع المحتشدة في حديقة «دنڤر»، من أجل الاشتراك في القدّاس الختاميّ لأيّام الشبيبة العالميّة، عام **١٩٩٣**.

«بهاء الحقيقة»

في الخامس من شهر تشرين الأوّل **١٩٩٣**، أصدر يوحنّا بولس الثاني رسالته العامّة العاشرة، بعنوان «بهاء الحقيقة» (Veritatis Splendor)، التي سُرعان ما عُدّت من أهمّ إنجازات حبريّته الفكريّة.

كانت كتب التعليم المسيحيّ القديمة، تفتقر إلى القدر الكافي من البُعد الروحيّ، وتُهمل أمر النعمة والصلاة، واستنارة النفس بالروح القدس، وتعتمد الوصايا العشر أكثر من اعتمادها عظة الجبل والتطويبات. وكان لا بدّ من تجديد تعليم الكنيسة الأخلاقيّ، وفق مقتضيات الفكر المعاصر.

وكانت القضيّة الجوهريّة إيضاح دور الحرّيّة في الممارسة الأخلاقيّة، ولا سيّما أنّ التعليم السابق كان يصوّر الحياة الأخلاقيّة صراعًا بين إرادة الفرد البشريّ، ومشيئة اللّه. وكان لا مفرّ من حسم الجدل الدائر بين اللاهوتيّين، حول قيمة العمل الأخلاقيّ، وهل ينبغي تقييمه في ذاته، أو في علاقته بالنوايا، وبنتائج العمل. واتّضحت الحاجة إلى الردّ على سؤال هل هناك شريعةٌ مدوّنةٌ في الطبيعة البشريّة، وفي ديناميّة الخيار الأخلاقيّ، ويمكن للعقل الإلمام بها؛ وهل هناك أفعالٌ هي، بطبيعتها وجوهرها، سيّئةٌ في كلّ ظرفٍ وفي كلّ مكانٍ.

لكلّ هذه التساؤلات والقضايا تطرّقت رسالة «بهاء الحقيقة»، التي ابتغاها الحبر الأعظم بحثًا في أنسنةٍ جديدةٍ، وتذكيرًا بعظمة الحقيقة التي يستطيع البشر، بهديها، تحديد نهج حياتهم، وتحقيق مصائرهم. فالعلاقة بين الحرّيّة والحقيقة، علاقةٌ حميمةٌ لا تحتمل فكاكًا. وكلّ محاولة التزامٍ بإحداهما وإهمال الأُخرى، تقود إلى الهلاك. فالحرّيّة المنفصلة عن الحقيقة تتحوّل إلى إباحيّة، والإباحيّة تقود إلى فقدان الحرّيّة. وبمعزلٍ عن إدراكٍ واضحٍ للحقيقة الأخلاقيّة، وللملازمة الحرّيّة للحقيقة، تخضع حياة المجتمع لقوّة كلّ فردٍ ولقدراته، وتسود الفوضى. وبما أنّ البشر يخشون الفوضى فوق كلّ خشيةٍ، فهم يرتضون قيود الطغيان الذي يعيد إلى النظام سيادته.

وارتأى يوحنّا بولس الثاني أنّ للحرّيّة محرّكها الخاصّ، وديناميّةً تنتج، في كلّ فردٍ، صبوًّا إلى الطيبة والكمال. وفي هذا السياق، ذكّر بما جاء في الإنجيل عن الشابّ الغنيّ الذي جاء يسوع مستوضحًا: «ما عليّ أن أفعل كي أظفر بالحياة الأبديّة؟». هذا السؤال هو الذي يلهم ويحاصر كلّ حيٍّ، فيبحث عمّا يتعيّن عليه فعله، كي يحقّق مصيره الأبديّ.

وأكّدت الرسالة وجود شريعةٍ أخلاقيّةٍ شاملةٍ، تسوس الوضع الإنسانيّ، وتضع قواعد لحوار بشرٍ من مختلف الثقافات والخبرات، وإمكان بناء أنسنةٍ جديدةٍ كفيلةٍ بتلبية تطلّعات أبناء القرن الحادي والعشرين إلى الكرامة الإنسانيّة، انطلاقًا من مفهوم التجذّر الأخلاقيّ في الطبيعة البشريّة.

وشدّدت الرسالة على وجود أفعالٍ سيّئةٍ في ذاتها. وردّت الرسالة على ادّعاء وجود أفعالٍ مريبةٍ يمكن تبريرها، لأنّها تنتج من الخير أكثر ممّا تنتج من شرٍّ،أنّ ما من عملٍ سيّئٍ ينتج خيرًا. وعلى من يدّعون أنّ ما من عملٍ هو، في ذاته، سيّئٌ، ردّت الرسالة أنّ القتل، والإبادة الجماعيّة، والدعارة، والرقّ، وتجارة الرقيق، والإجهاض، كلّها أفعالٌ شنيعةٌ، لأنّها تنزل أضرارًا فادحةً بمرتكبيها وبضحاياها.

إنّ البشر متباينو الألوان والأشكال والمواهب والقدرات، ولكنّهم متساوون حيال الواجب الأخلاقيّ. وإنّما الاعتراف بمساواة البشر حيال المعايير الأخلاقيّة

التي تنبذ الشرّ، هو ضمان صيانة المجتمع المدنيّ، الذي لا تستقيم الحياة السياسيّة الديمقراطيّة بمعزلٍ عنه.

وأكّدت الرسالة أنّ تجديد اللاهوت الأخلاقيّ ينبغي أن يقوم على مبدإ الحرّيّة المدعومة بالعقل، والمحكومة بالحقيقة، والتي تكتمل في الخير. ومن أجل اكتناه معنى الحياة الأخلاقيّة والحرّيّة، لا بدّ من اعتبار مثال من يؤثرون الموت على فعل ما يعرفون أنّه شرٌّ. فمثال الشهداء يدحض، بقوّةٍ، ادّعاء أنّ كرامة الحرّيّة تكمن في أن يسلك المرء كما يحلو له. فالاستشهاد يعلّمنا أنّ الحرّيّة هي صفةٌ شخصيّةٌ محرّرةٌ عندما تنشد الخير، وتنبذ الشرّ، حتّى إن أدّى بها ذلك إلى الموت الجسديّ. على كلّ إنسانٍ أن يشهد للحقيقة الأخلاقيّة، وما الشهيد إلاّ شاهدٌ.

كان يوحنّا بولس الثاني قد وعد بإصدار هذا التعليم الأخلاقيّ منذ عام ١٩٨٧، ولكنّه لم يصدره إلاّ بعد صدور كتاب «التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة»، الذي قال عنه إنّه يحتوي شرحًا كاملاً ومنهجيًّا للتعليم المسيحيّ الأخلاقيّ. وكان قد كلّف عدّة لجانٍ حبريّةٍ بإعداد مشروع هذه الرسالة، واستشار أساقفةً في كلّ بلدان العالم، فضلاً عن لاهوتيّين وفلاسفةٍ ضليعين في هذا المضمار. غير أنّ طابع فكر يوحنّا بولس الثاني، وآثار خبراته الراعويّة والجامعيّة، تتجلّى، بوضوحٍ، في سطور تلك الرسالة.

ومثل كلّ عملٍ فكريٍّ جريءٍ، تعرّضت تلك الرسالة لموجةٍ من النقد والتعليقات المتباينة. فالعديد من الصحافيّين لم يتمعّنوا الرسالة، ولم يتوغّلوا إلى جوهرها، فتلهّوا بالقشور. وبعض المتحذلقين استسلموا لتكهّناتٍ، وتخرّصاتٍ، وأقاويل باطلةٍ. وآخرون زعموا أنّ البابا أراد فرض نظرة مدرسةٍ لاهوتيّةٍ معيّنةٍ، ووضع يده على الفكر الكنسيّ. في حين أولى لاهوتيّون برتستانتيّون، ومفكّرون يهودٌ، هذه الرسالة، اهتمامًا بالغًا، وأثنى بعضهم عليها ثناء متحمّسًا.

وبالإجمال إنّ ما ذهل عنه العالم المعاصر، وما توخّى البابا تأكيده، هو التلاحم بين الحرّيّة، ومجالها الأخلاقيّ، أي الأساس الذي يوفّر للمطالبة بالحرّيّة تماسكها وقيمتها.

ولا جرَم أنّ تلك الرسالة كانت جديرةً بإثارة جدلٍ جادٍّ وواسعٍ، حول طبيعة الحرّيّة وغايتها. ولكنّ موقف الكثيرين من الأساقفة كان مخيّبًا للآمال، إذ إنّهم لم يتبيّنوا ما تبيّنه بوضوحٍ مفكّرون غير كاثوليكيّين: وهو أنّ يوحنّا بولس الثاني قد طرح، بجرأةٍ، سلسلةً من التساؤلات الخطيرة، المتعلّقة بثقافة مجتمعٍ حرٍّ، والتي توضح كيف يمكن عيش الحرّيّة، من غير أن تؤدّي هذه الحرّيّة إلى تدمير ذاتها والمجتمع.

لم يستخفّ قداسته بشأن الحرّيّات المكتسبة، والتي أُحسنت صيانتها، ولكنّه قدّم لعالم اليوم مشروعًا يحاول الربط بين الحرّيّة، وأفضل منجزات التقدّم الإنسانيّ، للعودة إلى الينابيع: الكتاب المقدّس، وكتابات آباء الكنيسة المتعلّقة بالحقيقة والخير، ومن خلال هذه القفزة إلى الوراء، إعداد النفوس والأذهان للقرن الحادي والعشرين.

إنّ الصوت الذي انطلق من خلال «بهاء الحقيقة»، هو، في المقام الأوّل، صوت راعٍ قلقٍ لرؤية اضمحلال قوّة النعمة والحقيقة، التي منحها صليب يسوع للكنيسة. هذا الاهتمام الراعويّ يتخطّى إطار الكنيسة الكاثوليكيّة والجماعة المسيحيّة، ويمتدّ إلى جميع الذين يواجهون مقتضيات الحرّيّة، أيّةً كانت قناعاتهم الدينيّة.

ومن خلال «بهاء الحقيقة»، توجّه يوحنّا بولس الثاني إلى جميع من يفضّلون الممتاز على المناسب، في ممارستهم للحرّيّة.

كبوةٌ ومنهجٌ جديدٌ

يوم ١٩٩٣/١١/١١، استقبل يوحنّا بولس الثاني ممثّلي منظّمة التغذية الزراعيّة. وعندما همّ بالانصراف، تعثّر بسجّادة كانت قد وُضعت حديثًا في ذلك المكان، وتدحرج على بضع درجاتٍ. ولكنّه، رغم ألمه، لوّح بيده للجمهور، وهو يغادر. وقد أظهرت الصور الشعاعيّة كسرًا في الكتف، ما أجبره على قضاء تلك الليلة في المستشفى.

هذا الحادث لم يبدّل شيئًا من وتيرة عمله، ولكنّه غيّر طريقته. فطيلة سنوات حبريّته الخمس عشرة السابقة، كان قد حافظ على عادة الكتابة بيده، كلّ صباحٍ، في مصلاّه الخاصّ، أمام القربان المقدّس. ولكنّه، إثر هذا الحادث، اضطرّ إلى الاستعانة بأحد أمناء سرّه، الذي كان يأتيه بحاسوبه المتنقّل، ويجلس إلى جانبه ويطبع ما يمليه عليه. هذا الأسلوب الجديد أثبت نجاعته، فاعتمده قداسته لكتابة مواعظه ومؤلّفاته.

دعوةٌ للإخاء

عام **١٩٩٤** كان عام الأُسرة، ومن أكثر أعوام حبريّة يوحنّا بولس الثاني ازدحامًا بالأحداث والمعارك، عام الآلام الموجعة، والخصب الوفير. وقد استهلّه بإعلان إنشاء الأكّاديميّة الحبريّة للعلوم الاجتماعيّة.

وفي الخامس عشر من شهر كانون الثاني، وعملاً بالتقليد الجاري، استقبل أعضاء الهيئة الدبلوماسيّة المعتمدة لدى الكرسيّ الرسوليّ. وبعد أن هنّأه عميد الهيئة لسنوات حبريّته الخمس عشرة، أشار إلى خمسة عشر صراعًا مسلّحًا، كانت، في تلك الأثناء، ناشبةً في العالم، وثمّن مداخلات الحبر الأعظم، ونداءاته إلى السلام. وبعد أن تمنّى قداسته للجميع سنةً طيّبةً، استعرض القضايا العالميّة، وانتقد بشدّةٍ النزعات القوميّة المتطرّفة، التي ترى في كلّ آخر خصمًا، وتمنّى أن يرى كلّ إنسانٍ في الآخر أخًا في البشريّة، لا مجرّد عضو جماعةٍ إثنيّةٍ.

ورأى أنّ النزعات القوميّة المتطرّفة هي مصدر كلّ الصراعات الناشبة، ولا سيّما في أفريقيا. ولم يَعنِ بالنزعات القوميّة، لا حبّ الوطن، ولا الذود عن هويّته، بل مجرّد «نبذ الآخر بسبب اختلافه، والرغبة في السيطرة عليه». وأعرب الأب الأقدس عن خشيته من نشوء «وثنيّةٍ جديدةٍ» تقوم على «تأليه القوميّة»، مؤكّدًا أنّ هذا الأمر مقيتٌ في ذاته، وأنّ أحداث عام **١٩٩٣** قدّمت دليلاً داميًا على بشاعته.

وللذين كانوا يرون أنّ مآسي رواندا، وبوروندي، والبوسنة، هي مجرّد أحداثٍ طارئةٍ مؤسفةٍ، ولكن لا مفرّ لها، أعلن: «لا يسع الكنيسة الكاثوليكيّة تقبّل هذه النظرة»، فالكنيسة تؤمن بتساوي جميع البشر، جوهريًّا، وهي مدعوّةٌ للدفاع عن هذه المساواة، في وجه جميع من يعرّضونها للخطر باسم القوميّة، والفئة الإثنيّة، والدين. وحذّر الطوائف المسيحيّة، الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة، بقوله: «**كلّما أصبحت المسيحيّة – بسبب انتمائها الشرقيّ أو الغربيّ – ذريعةً لشكلٍ من أشكال القوميّة، ستصاب بطعنةٍ في قلبها، وبالعقم**».

إنّ عالم اليوم يقتضي موقفًا يناقض القوميّة الوثنيّة. ولا بدّ من أن يكون منعطف القرن والألفيّة، «موسم تضامنٍ بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب». وفي فترة عيد الميلاد، حيث يسبغ الله عطفه على البشريّة جمعاء، دعا قداسته إلى «مخاطرة الإخاء». تلك كانت أمنيّته للعالم أجمع، على عتبة عام ١٩٩٤، بل تحدّيه له.

في ١٩٩٤/١/٢٢، أقام يوحنّا بولس الثاني قدّاسًا على نيّة السلام في البلقان. وفي الثاني من شباط، أصدر رسالةً إلى الأُسَر، وفي ٢/١١/، أعلن عن إنشاء الأكّاديميّة الحبريّة للحياة.

وانصرف إلى خوض معركة مكافحة الإجهاض.

مواجهةٌ بين الڤاتيكان والولايات المتّحدة الأميركيّة، ومؤتمر القاهرة

كان «بلّ كلينتون» ومرشحّه لنيابة الرئيس «آل غور»، قد أعلنا، في برنامجهما الانتخابيّ الاجتماعيّ، عزمهما على تأييد تشريع الإجهاض، لكلّ راغبةٍ فيه، وخلال كلّ مراحل الحمل، بحجّة مواجهة التفجّر السكّانيّ في العالم الثالث، ووعدا باستخدام أموال الضرائب المخصّصة لمساعدة البلدان النامية، من أجل تشجيع مشاريع التنظيم الأسريّ. وأكّد كلينتون عزمه هذا، يوم تنصيبه، في ١٩٩٣/١/٢٠. وبعد أربعة أيّامٍ، نشرت صحيفة الڤاتيكان «أوسّيرڤاتوري

رومانو»، افتتاحيّةً، وصفت فيها مشروع كلينتون ذلك بأنّه «انتهاج دروب الموت، والعنف الممارس على كائنين أبرياء». وكانت تلك مرحلةً أولى في مواجهةٍ تفاقمت، حتّى أمست أعنف مواجهةٍ بين الولايات المتّحدة الأميركيّة والكرسيّ الرسوليّ.

وسرعان ما ارتدت هذه المواجهة طابعًا دوليًّا، بمناسبة انعقاد المؤتمر للسكّان والإنماء، المزمع عقده في القاهرة، عام ١٩٩٤، والذي أعدّت له إدارة كلينتون برنامجًا طموحًا دعمته منظّماتٌ أُمميّةٌ، ومنظّماتٌ غير حكوميّةٍ، بغية تشريع ممارسة الجنس خارج نطاق الزواج، وبمنأًى عن قصد الإنجاب، بصفتها حقًّا شخصيًّا يحميه القانون الدوليّ، وإعطاء الإجهاض الاختياريّ صفة حقٍّ معترفٍ به، عالميًّا.

وفي ١٩٩٣/١١/١٦، قابل مندوب البابا معاون وزير خارجيّة الولايات المتّحدة. ولكنّ ذلك لم يثمر أيّ تفاهمٍ. فمندوب الڤاتيكان اعترف بخطورة التفجّر السكّانيّ، واقترح معالجة هذه القضيّة بالتعاون مع الكنيسة والحكومات، وبالتوجيه الأخلاقيّ. غير أنّ المسؤول الأميركيّ تشبّث بموقفه، الذي يدّعي أنّ التثقيف البيولوجيّ كافٍ، فما على الشباب إلاّ أن يعرفوا جسدهم، وأنّ لا شأن للاعتبارات الأخلاقيّة في الأمر. ولم يكن ذلك رأيًا شخصيًّا، بل كان كثيرون في الإدارة الأميركيّة يزعمون أنّ الحدّ من الإنجاب هو الحلّ لكلّ المشاكل، مستشهدين بحال الصومال، حيث التكاثر السكّانيّ كان مصدر الفوضى المستشرية، متناسين أنّ مجموع سكّان الصومال يبلغ سبعة ملايين نسمةٍ، يعيشون على مساحةٍ تفوق ولاية كاليفورنيا الأميركيّة. فأين الاكتظاظ السكّانيّ؟

الكنيسة الكاثوليكيّة، ومعظم الديانات العالميّة الأُخرى تعلّم أنّ الإجهاض، في ذاته، شرٌّ، فهو يقتل كائنًا بريئًا، ويُلحق أضرارًا نفسيّةً بأبيه وأمّه، وبالقائم بعمليّة الإجهاض، وبالمجتمع أجمع. الإجهاض، إذن، انتهاكٌ لشريعة منع قتل البريء الراسخة. ومن ثمّ فإنّ اعتباره حقًّا، ليس، فقط، تشويهًا لمعاني الكلمات، بل هو هتكٌ للحقّ الدوليّ.

وفضلاً عن ذلك، كانت خبرة يوحنّا بولس الثاني الراعويّة الطويلة، ونزعته إلى الدفاع عن المرأة، قد أثبتتا له أنّ للإجهاض – بصفته إحدى وسائل تحديد النسل – أثرًا وبيلاً على النساء، وعلى علاقتهنّ بالرجال، فهو يوفّر حلاًّ «تقنيًّا» لمعضلةٍ أخلاقيّةٍ، متمثّلةٍ في انعدام مسؤوليّة الرجال.

وكان قداسته قد حذّر شبيبة البلدان المحرّرة حديثًا من ربقة الحكم التوتاليتاريّ، من الانجرار إلى مفهومٍ خاطئٍ للحرّيّة، يفسد الحرّيّة التي اكتسبوها بجهادهم، ويهدّد المجتمع الحرّ، فانبرى للتصدّي لمشاريع القطب الوحيد في السياسة العالميّة، وللمنظّمات التي جرّها في تيّاره، ولا سيّما أنّه كان يدرك أنّ الدول الغنيّة تسعى إلى فرض سياستها ورؤيتها الأخلاقيّة على الدول الفقيرة، من خلال تهديدها بخفض أو بإلغاء المساعدات التي تقدّمها لها. وكانت هذه السياسة الخبيثة تهدّد منظّمة الأمم المتّحدة، التي كان الكرسيّ الرسوليّ يعلّق عليها آمالاً كبيرةً.

ولم يكن البابا يرى، في الإجهاض، قضيّةً من القضايا، بل كان يعدّها القضيّة العالميّة الجديدة، الكفيلة بإفساد المجتمعات الحرّة في المستقبل، مثلما كانت قضيّة الرقّ في أميركا القرن التاسع عشر، وقضيّة النازيّة في ألمانيا ثلاثينات القرن العشرين. فإنّ مجرّد اعتبار حياة الأجنّة كمّيّةً نافلةً، يؤدّي إلى منطقٍ مميتٍ يقود إلى تشريع قتل الأطفال، والموت الرحيم، والتلاعب بالجينات. فهذا ما يحدث في بعض الديمقراطيّات المتقدّمة صناعيًّا، حيث يشرّع التلاعب بالحياة مفكّرون يدّعون أنّ الوضع البشريّ لا يقوم على أيّة حقيقةٍ أخلاقيّةٍ.

وبوحي هذه القناعات، وجّه يوحنّا بولس الثاني رسالةً وقّعها بيده إلى جميع رؤساء دول العالم، وإلى أمين عامّ الأمم المتّحدة، وأكّد واجب السلطات المدنيّة بالسعي الجادّ إلى تشجيع الأسرة المتناغمة، فهي مؤسّسةٌ إنسانيّةٌ أساسيّةٌ، يقتضي نموّها الالتزام بالمبادئ الأخلاقيّة والروحيّة. وعبّر عن خشيته من أن يكون مؤتمر القاهرة «مفاجأةً سيّئةً»، قد تُنتج انحطاطًا أخلاقيًّا يفضي إلى فشلٍ ذريعٍ للبشريّة...

وبالمقابل كانت المشاريع المعدّة لمؤتمر القاهرة، تغفل قضايا النموّ الجوهريّة،

وتسعى إلى ترويج مفهومٍ «فرديٍّ» للجنس، يبدو، بموجبه، الزواج مؤسّسةً بائدةً. فذكّر البابا أنّ «**الأُسرة هي جزءٌ من إرث البشريّة**»، وأنّ إعلان حقوق الإنسان الدوليّ، يقرّ، بوضوحٍ، أنّ الأُسرة هي «الجماعة الطبيعيّة الأساسيّة» في المجتمع. وألمح إلى المفارقة المدهشة المتمثّلة في اعتبار الأُسرة نافلةً، في السنة المكرّسة للأسرة.

وكان مشروع مؤتمر القاهرة يقترح «اعترافًا دوليًّا بحقّ الإجهاض، بلا حدودٍ». وكانت النصوص المقدّمة بهذا الشأن، تبدو كأنّها تفرض أمرًا بالإكراه، وفق أسلوبٍ تنتهجه شرائح من مجتمعاتٍ متقدّمةٍ اقتصاديًّا، غنيّةٍ، مادّيّةٍ، ترتدي زيّ إمبرياليّةٍ من نمطٍ جديدٍ، بالغ الخطورة.

وأوضح الحبر الأعظم أنّ الحرص على مستقبل الأجيال، يقتضي مقاومة هذا المشروع الذي يرى في الشباب نموذجًا لمجتمع «أشياءَ»، لا مجتمع «أشخاصٍ»، ويعتبر السيطرة على الذات، وبذل الذات، وحسّ المسؤوليّة، مفاهيم مندثرةً، وبذلك يحرم الشبيبة من مبرّرٍ للحياة، لأنّهم لا يلقّنون الواجبات المترتّبة على كائنين مزوّدين بالعقل، وبالإرادة الحرّة.

لا ريب أنّ التكاثر السكّانيّ والنموّ قضيّتان بالغتا الشأن، ولكن لا يمكن مقاربتهما جدّيًّا، بمعزلٍ عن معنى الحياة القدسيّ، وعن مفهوم الحبّ والتضحية. وهذا، بالتحديد، ما كان يفتقر إليه مشروع مؤتمر القاهرة.

ودُعي السفراء المعتمدون لدى الكرسيّ الرسوليّ إلى اجتماعٍ، عرض عليهم فيه مسؤولو الڤاتيكان، اعتراضات الكنيسة على بعض بنود مشروع مؤتمر القاهرة. وقد وُصف ذلك اللقاء بأنّه «تبادل آراءٍ شاملٌ وصادقٌ»، ولكنّه لم يُرقْ لجميع الفئات. إذ إنّ السفير الأميركيّ كان قد تلقّى من إدارته برقيّةً تؤكّد عزم الولايات المتّحدة على إقرار حقّ الإجهاض، بلا تحفّظٍ ولا حدودٍ، مع تحذيرٍ من إخطار البلد المضيف بذلك، تفاديًا لردّات فعلٍ سلبيّةٍ.

وامتدّت المواجهة إلى نيويورك. ففي أثناء انعقاد جلسة اللجنة التحضيريّة الثالثة لمؤتمر القاهرة، بين ٤ و٢٢ نيسان ١٩٩٤، لم يسمح ممثّل الحكومة

الأميركيّة بإجراء نقاشٍ مفتوحٍ، قد يفسح المجال لانتقاداتٍ جوهريّةٍ تطعن بالمشروع الأميركيّ. وعندما أدان مندوب الكرسيّ الرسوليّ خلوّ المشروع من العمق الأخلاقيّ، هاجمه، علنًا، رئيس اللجنة الغانيّ، الداعم للمشروع الأميركيّ، متّهمًا الڤاتيكان بمحاولة فرض مفهومه للسلوك الجنسيّ على العالم، فصفّق له، بحماسٍ، المناضلون من أجل تحديد النسل، وتحرير العلاقات الجنسيّة من كلّ قيدٍ.

وكانت مؤسّسةٌ كاثوليكيّةٌ غير حكوميّةٍ، مسجّلةٌ لدى منظّمة الأمم المتّحدة، قد طلبت عقد مؤتمرٍ خاصٍّ لبحث هذا الموضوع، فقوبل طلبها برفضٍ قاطعٍ.

تألّف مشروع اللجنة من مئةٍ وثماني عشرة صفحةً، لم يُؤتَ إلاّ في ستٍّ منها، على ذكر غرض المؤتمر الرئيسيّ، أي «التكاثر السكّانيّ والنموّ»، فيما أسهبت الصفحات الأُخرى في تشجيع القرارات الداعية إلى حرّيّة السلوك بحجّة الحقّ الدوليّ، وكاد يغيب مفهوم الزواج عن ذلك المشروع. والمرّة الوحيدة التي ذُكر فيها، كانت للتنديد «بالضغوط، وأصناف التمييز التي تحكم السياسات والممارسات المتعلّقة بالزواج». وتحدّث المشروع عن «الأُسرة بكلّ أشكالها»، بمنأى عن الإشارة إلى الأُسَر المرتبطة بزواجٍ ثابتٍ، يضمن سلامة الأولاد الجسديّة والأخلاقيّة. وأغفل المشروع، أيضًا، العلاقات الطبيعيّة والأدبيّة التي تربط الوالدين والأولاد، وبعض العناصر الأساسيّة، مثل ضرورة تربيةٍ مُثلى، ومتابعة الأولاد صحّيًّا. وأقصى المشروع كلّ علاقةٍ أخلاقيّةٍ بين الأهل وأبنائهم المراهقين، داعيًا إلى ممارسة العلاقات الجنسيّة منذ البلوغ، بحرّيّةٍ، على أن تتولّى دوائر صحّيّةٌ إرشاد الشباب في هذا المجال، وحلّ ما قد يصادفهم من مشاكل جنسيّةٍ.

وتعبيرًا عن استنكاره للمشروع الأميركيّ، طوّب يوحنّا بولس الثاني الإيطاليّة، «جيانّا بيريتّا موليا» (Gianna Beretta Molia)، التي كانت حياتها وكان موتها نقيضًا لكلّ ما ابتغى المشروع الأميركيّ تعليمه؛ فقد كانت «جيانّا» طبيبة أطفالٍ، في الثانية والأربعين من العمر، وأمًّا لثلاثة أولادٍ، وأُصيبت بسرطانٍ في المبيض عندما كانت في شهر حملها الثاني. وفُسحت أمامها ثلاثة احتمالاتٍ: استئصال المبيض والرحم، فتنجو حياتها ولكن يقضى على الجنين، أو الاكتفاء باستئصال

الورم، ما يسبّب الإجهاض، ولكن ما يمكّنها من الإنجاب لاحقًا؛ أو محاولة استئصال الورم، مع الحفاظ على الجنين، وتعريض حياتها للخطر. فاختارت هذا الحلّ الثالث، وهي عالمةٌ أنّ وضعها لطفلها قد يكلّفها حياتها. وعندما أزف موعد وضعها، أوصت الطبيب بإصرار: «إن كان عليك أن تختار، فلا تتردّد. اختر حياة الطفل. إنّني مصرّةٌ على هذا الطلب». ووُلدت الطفلة «جيانّا إيمّانويلا» يوم ١٩٦٢/٤/٢١، وتوفّيت والدتها بعد ثمانية أيّامٍ، نتيجة مضاعفاتٍ طبّيّةٍ، وطوّبت يوم ١٩٩٤/٤/٢٤بحضور زوجها، وأبنائها، ومنهم «جيانّا إيمّانويلا» التي كانت قد بلغت **٣٢** سنةً.

بعد أربعة أيّام، أي ليلة ١٩٩٤/٤/٢٨، وقع البابا في حمّامه، ورُكّب له مفصلٌ اصطناعيٌّ في وركه. ومنذئذٍ تعذّر على ذلك الذي مارس الرياضة طيلة ثلاثة أرباع قرنٍ، السير سيرًا طبيعيًّا. واستلزم اعتياده وضعه الجديد بعض الوقت. ولكنّه كان يتعامل بمرحٍ مع عاهته وعكّازه.

هذه الوقعة سبّبت له أوجاعًا جسديّةً، وآلامًا نفسيّةً أكثر إيجاعًا، لأنّها حالت دون زياراتٍ راعويّةٍ كان راغبًا في القيام بها، ولا سيّما إلى لبنان وسراييڤو، ولأنّها أبعدته، ولو إلى حينٍ، عن ساحة الكفاح ضدّ تشريع الإجهاض. ولكنّه ما كاد يستعيد قدرته على السير، حتّى عاد صوته يلعلع من فوق المنابر.

وهو الذي لم يكن يؤمن بالصدف، أعمل الفكر طويلاً في ما حدث له، وكشف النقاب عمّا أفضى إليه تأمّله، فقال للجموع المحتشدة في ساحة القدّيس بطرس، بمناسبة حديثه الأوّل عقب عودته من المستشفى: «**أثناء وجودي في المستشفى، تأمّلتُ في ما حدث لي... وأدركت أنّ مهمّتي هي اقتياد كنيسة يسوع نحو ألفيّتها الثالثة، بالصلاة، وبمبادراتٍ متعدّدةٍ. ولكنّ ذلك ليس كافيًا، إذ عليّ أن أقودها بالألم، وبمحاولة اغتيالي لثلاث عشرة سنةً مضت، وبهذه التضحية الجديدة. لماذا الآن؟ لماذا هذا الحادث، ولِمَ يحدث كلّ ذلك في سنة الأُسرة هذه؟ لأنّ الأُسرة في خطرٍ! ولذلك ينبغي أن يتعرّض البابا، أيضًا، للخطر، ولكي ترى كلّ أُسرةٍ، ويرى العالمُ أجمع أنّ هناك إنجيلاً فوق كلّ شيءٍ... إنجيل الألم، الذي به يُعَدّ المستقبل، وألفيّة الأُسر الثالثة، وألفيّة كلّ أسرةٍ، والأُسَر جمعاء**».

وحاولت الإدارة الأميركيّة التأثير على الكرادلة والأساقفة الأميركيّين، كي تحيّدهم عن موقف البابا المتشدّد حيال المشروع الأميركيّ المعدّ لمؤتمر القاهرة. ولكنّ النتيجة جاءت على غير ما توقّعته الإدارة. ففي ٢٩ أيّار، وقّع الكرادلة ورئيس مجلس الأساقفة الأميركيّين، رسالةً سُلّمت باليد إلى البيت الأبيض، تندّد بمسعى الحكومة الأميركيّة إلى تشجيع الإجهاض والعقم، وإلى إعادة تحديد معنى الأسرة. وبعد شهرٍ ألحق الأساقفة الأميركيّون رسالتهم هذه ببيانٍ أعربوا فيه عن استيائهم من سعي الحكومة إلى تشريع الإجهاض عالميًّا.

وفي ١٩ حزيران، أصدرت الأكّاديميّة الحبريّة من أجل الحياة، التي تضمّ علمانيّين، أطبّاء، ومختصّين في الأخلاقيّات الطبّيّة، وفلاسفةً، بيانًا عن مؤتمر القاهرة، أكّدت فيه حقيقةً علميّةً لا سبيل إلى مناقشتها، تقول: «منذ لحظة تكوين الجنين، حتّى اللحظة الأخيرة في حياته، هو الكائن البشريّ عينه الذي ينمو ويموت... ونؤكّد أنّ كلّ عضوٍ في الجنس البشريّ شخصٌ، وأنّ ما يستأهله من عنايةٍ واهتمامٍ، لا علاقة له بعمره، ولا بأيّة علّةٍ قد يشكو منها... إنّ الحقوق الفرديّة لا يجوز العبث بها، بأيّة حالٍ. إنّ البويضة البشريّة الملقّحة، والجنين، لا يجوز إعطاؤهما، أو بيعهما، أو حرمانهما حقّهما في نموٍّ طبيعيٍّ داخل رحم الأمّ. ولا يجوز لأحدٍ إخضاعهما لأيّ نوعٍ من الاستغلال. وما من سلطةٍ، حتّى سلطة الأب والأمّ، بوسعها تهديد حياتهما».

ويومي ١٣ و١٤ حزيران، التأم مجمعٌ استثنائيٌّ لأساقفة العالم، أصدر إعلانًا تلاه كردينال نيويورك، أكّد تضامن الأساقفة مع الحبر الأعظم في ما يتعلّق بحقوق الأسرة، وفي «الإصرار على تأكيد أنّ الأسرة حرّةٌ من كلّ ضغطٍ، ولا سيّما في ما يتعلّق بالإنجاب... إنّ السياسات الاجتماعيّة الوبيلة التي تقودها أممٌ ناميةٌ، لا يجوز أن تُفرض على فقراء العالم».

وفي الثلاثين من حزيران، استهلّ قداسته حملةً مركّزةً، من خلال اثني عشر خطابًا قصيرًا، ألقاها في أثناء اللقاءات العامّة الأسبوعيّة، أو بمناسبة صلاة التبشير، أيّام الأحد، مندّدًا، بهدوءٍ وحزمٍ، بالأخطاء الأخلاقيّة التي انطوى عليها مشروع

مؤتمر القاهرة. وكان لحملته هذه تأثيرٌ بليغٌ، وقد تناولت على التوالي:

– حقّ الحياة هو أوّل حقوق الإنسان. وعلى كلّ برنامجٍ ذي هدفٍ إنسانيٍّ، الالتزام به.

– ليس الزواج، بصفته علاقةً ثابتةً بين رجلٍ وامرأةٍ ملتزمين بعطاء ذاتٍ متبادلٍ، يهدف إلى خلق حياةٍ جديدةٍ، فكرةً متعصّبةً ضيّقة الأفق، بل هو إحدى قِيَم الخليقة الأصليّة. وإنّ إنكار هذه الحقيقة يعرّض البشريّة كلّها للخطر.

– لا يسوغ اعتبار المرأة غرضًا خاضعًا لرغبة الرجل؛ وينبغي الاعتراف بمساواة حقوق المرأة بحقوق الرجل مع اختلافهما.

– الجنس لغةٌ في سبيل الحبّ، ولا يمكن عيشه على مستوى الغريزة فحسب.

– اتّحاد الأشخاص والمشاركة في الحياة والوفاء، هي أُسس الزواج، وبنود التزامٍ صريحٍ، وليسا مجرّد عقدٍ.

– ثبات الزواج ضرورةٌ جوهريّةٌ للأولاد.

– بطلان التخرّصات التي تروّج دعوة الكنيسة إلى «الخصب بأيّ ثمنٍ». وتأكيد أنّ تعليم الكنيسة لأخلاقيّات الزواج يدعو إلى ألاّ يكون قرار الإنجاب ناجمًا عن الأنانيّة واللامبالاة، بل عن سخاءٍ حذِرٍ وواعٍ، يروز الإمكانيّات والظروف، ويولي الأولويّة لسعادة الكائن الذي سيولد.

– التنظيم الأُسَريّ القسريّ انتهاكٌ لحقوق الأزواج الأساسيّة.

– كلّ انتقاصٍ من حقوق المرأة في مكان العمل، أو في ميدان الثقافة والسياسة، ينبغي أن يُلغى، كي يتاح للعبقريّة الأنثويّة أن تعبّر عن ذاتها في الحياة العامّة.

– النزعة الفرديّة الراديكاليّة لاإنسانيّةٌ، وتنال من إنسانيّة المرء، وكذلك أمر الجنس، بمعزلٍ عن مراجعه الأخلاقيّة. فعلى مؤتمر القاهرة أن يدفع نحو ثقافة إنجابٍ مسؤولةٍ.

للحدّ من وقع هذه البيانات على الرأي العامّ، أعلن نائب الرئيس الأميركيّ «آل غور»، بتاريخ **٢٥** آب، أنّ الولايات المتّحدة «لم تسعَ، ولا هي ساعيةٌ، ولن تسعى لاحقًا، إلى إقرار حقّ الإجهاض دوليًّا». ولكنّ الناطق الرسميّ باسم الكرسيّ الرسوليّ سارع إلى تكذيبه، إذ إنّ المشروع الأميركيّ المقدّم لمؤتمر القاهرة، يتضمّن، صراحةً، دعوةً إلى هذا التشريع الدوليّ.

هذه السجالات بدت وكأنّها تضع الڤاتيكان في مواجهةٍ سافرةٍ مع الولايات المتّحدة، وأكثريّة الرأي العامّ العالميّ، مظهرةً الكنيسة بمظهر متصنّع الحياء، المبغض للنساء، والمعزول. بيد أنّ هذه الصورة تطايرت شظايا منذ افتتاح المؤتمر، إذ اعتلت المنبر، رئيسة وزراء الباكستان «بنزير بوتو»، المدافعة عن حقوق المرأة، والحائزة على شهاداتٍ جامعيّةٍ من «هارڤارد»، والسياسيّة المرموقة، وتولّت الدفاع عن «جانب الحياة المقدّس»، دائنةً بقسوةٍ المشروع الأميركيّ، الساعي إلى فرض «الزنى، والإباحيّة الجنسيّة، والإجهاض» على جميع البلدان. وحينئذٍ اتّضح أنّ الذين اتّهموا الكرسيّ الرسوليّ بالتعصّب، وضيق الأفق، وبتعطيل الإجماع على قرار المؤتمر النهائيّ على أساس المشروع الأميركيّ، قد فقدوا كلّ مصداقيّةٍ، وبات لا مفرّ من الشروع بنقاشٍ جادٍّ.

وتلا ذلك خمسة أيّامٍ من النقاش العسير، مُكرِهًا الولايات المتّحدة على التخلّي، شيئًا فشيئًا، عن مطالبها اللامشروطة بتشريع الإجهاض. غير أنّ منظّماتٍ غير حكوميّةٍ، مدعومةً من الولايات المتّحدة، شرعت تشنّ حملةً شعواء على الكنيسة الكاثوليكيّة. وعندما ألقت سيّدةٌ أميركيّةٌ، باسم الوفد الڤاتيكانيّ، خطابًا بسطت فيه اعتراضات الكرسيّ الرسوليّ على بعض بنود المشروع المطروح، تعالى صفير الاستنكار، والصياح الساخر، ولم يتحرّك مندوب غانا الذي كان يرأس الجلسة، لوقف الفوضى، فاضطرّ مندوب «بينان» إلى تذكيره بأنّ حرّيّة الكلام هي حقٌّ أساسيٌّ في مؤتمرات الأمم المتّحدة. وفي ما بعد، إذ كانت السيّدة المذكورة، التي تكلّمت باسم الكرسيّ الرسوليّ، تعبر في القاعة، سمعت أحد المندوبين الأميركيّين يشير إليها قائلاً لزميلٍ له: «هذه هي العاهرة!».

وهكذا، بفضل الموقف الڤاتيكانيّ الحازم، اضطرّ الأميركيّون إلى التخلّي عن

الكثير من إصرارهم على الاعتراف بالإجهاض حقًّا أساسيًّا دوليًّا. وتضمّن القرار النهائيّ اعترافًا بأنّه «لا يمكن في أيّة حالٍ، اعتبار الإجهاض، وسيلةً لتحديد النسل»، كما أنّه أكّد على حقّ الوالدين وواجبهم حيال أبنائهم المراهقين.

ولا ريب أنّ مواقف دولٍ أفريقيّةٍ، وأميركيّة لاتينيّةٍ وإسلاميّةٍ، رافضةٍ للإباحيّة الجنسيّة، قد تكاتفت مع موقف الكرسيّ الرسوليّ، ولا سيّما أنّ تلك الدول تبيّنت أنّ المشروع المقدّم كان يموّه مقاصد خفيّةً خبيثةً، وأنّ «بحبوحة الإباحيّة» التي كان ينادي بها، ليست هي السبيل إلى التقدّم.

ومن المحقّق أنّ نتيجة المؤتمر التي تمّ التوصّل إليها، والتي لم يكن ممكنًا توقّعها في مطلع عام **١٩٩٤**، لم تكن هي المثلى، ولكنّ تقدّمًا مؤكّدًا قد تحقّق، وأفسح أملاً في مزيدٍ من الاعتراف بدور الأُسرة، وبشأن الأُمومة.

ولا جَرَم أنّ الحملة الحامية التي شنّها يوحنّا بولس الثاني على المشروع الأميركيّ، ورفضه الإقرار بعدم كفاءة الكنيسة لمناقشة الأمر، كان لهما فضلٌ مؤكّدٌ في تحويل المجرى المرسوم لمؤتمر القاهرة. فتشديده على الاعتبارات الأخلاقيّة، استنفر مقاومةً ناجعةً، أطاحت بمحاولة الدول الغنيّة، وعلى رأسها الولايات المتّحدة، فرض رؤاها على سائر العالم. وبإيقاظه خير ما في الطبيعة البشريّة، أبرز، على الساحة الدوليّة، القيم الأخلاقيّة، وأثرها على استمرار البشريّة.

لقد لحظ المراقبون أنّ ما من قضيّةٍ ألهبت هواه، واستنزفت من قواه وجهوده، مثل ما ألهبت واستنزفت هذه القضيّة، سوى، ربّما، حدَثين آخرين، هما مواجهة نقابة التضامن مع السلطات الشيوعيّة البولونيّة، وكارثة حرب الخليج.

فخطورة المشاريع المعدّة لمؤتمر القاهرة، كانت تقضّ مضجعه، كما تجلّى من قوله للسيّدة «نفيس صادق» أمينة سرّ المؤتمر: «**إنّ مشروع القرار الختاميّ يقلقني جدًّا. فبعض بنوده تتعارض مع المبادئ الأخلاقيّة الأساسيّة، والأمر يتعلّق بمستقبل الإنسانيّة**».

وكان قد استشفّ من وراء المشروع المقدّم، قصد الدول الغنيّة الحدّ من تكاثر الفقراء، من خلال تشريع الإجهاض بلا قيدٍ ولا حدودٍ. فلم يضنّ بمسعًى لتفشيل

ذلك المشروع. وفي رسالة عيد الفصح، أعلن أنّه بعث برسالةٍ شخصيّةٍ إلى جميع رؤساء الدول في العالم، ملتمسًا بذل جميع الجهود الممكنة، لكي لا تُنتَقص ذرّةٌ من قيمة الكائن البشريّ، ولا من قدسيّة الحياة، ومن قدرة الإنسان على الحبّ وبذل الذات، وللتأكيد على أنّ الأُسرة تبقى هي منبع الإنسانيّة الرئيس، وأنّ على كلّ دولةٍ أن تسهر على الأُسرة سهرها على كنزٍ ثمينٍ.

وما انفكّ، في كلّ مناسبةٍ، يجأر بملء حنجرته، وبأعلى صوته، مقاومته لتلك المؤامرة اللاأخلاقيّة. وقد أعلن، يوم ١٩٩٤/٤/٦: «**إنّنا نخشى أن تصبح سنة الأُسرة هذه، سنةً ضدّ الأُسرة. وهي كفيلةٌ بأن تصبح كذلك، إن قُرّرت مشاريع مؤتمر القاهرة. ونحن نعلن احتجاجنا: فلا يسعنا السير نحو المستقبل بمشروع موتٍ منهجيٍّ، مُعَدٍّ لمن لم يولدوا بعد**».

وكان يوحنّا بولس الثاني، كلّما تطرّق إلى هذا الموضوع، يأخذ به الاندفاع كلّ مأخذٍ حتّى التوتّر والغضب. وقد صاح، في إحدى المناسبات: «إنّني أتساءل إلى أيّ مجتمعٍ ستقود هذه الإباحيّة الأخلاقيّة، المتفشّية في مجتمعاتٍ هي الأغنى مادّيًّا، وممعنةٍ في العلمنة؟ ألا تتراءى الآن، دلالاتٌ مقلقةٌ حول مستقبل البشريّة؟» وعندما تبيّن مدى انفعاله، من خلال صوته الأجشّ، استدرك: «**لست راغبًا في أن أظهر بمظهر المتشائم المنذر بالويلات. ولكنّني موقنٌ أنّ واجبي يحتّم عليّ الجهر برأي الكنيسة، في قضيّةٍ على هذا القدر من الخطورة**».

وقد وظّف حتّى آلامه الناجمة عن كسر وركه، في سبيل الحدّ من أخطار المشاريع المعدّة لمؤتمر القاهرة.

خلافاتٌ، وخيباتٌ، وإنجازاتٌ

وانبرى الحبر الأعظم متصدّيًا لمعارك أُخرى، فأصدر، بتاريخ **١٩٩٤/٥/٢٩**، رسالةً راعويّةً برّر بها رفض منح النساء رتبة الكهنوت. وكان الجدل حول هذا الموضوع قد احتدم منذ سبعينات القرن العشرين، وحاول البابا بولس السادس إيضاح موقف الكنيسة بهذا الشأن، فأصدر رسالةً راعويّةً، لم تكن كافيةً للردّ

على جميع التساؤلات. وحاول يوحنّا بولس الثاني حسم النقاش برسالته التي أشرنا إليها، بعد استشارة معاونيه. ولكنّ هذه الرسالة أثارت من الجدل المستجدّ، ومن النقد، أكثر ممّا أتت بحلولٍ مقنعةٍ. وتمنّى كثيرون لو اقتصر البابا على التذكير بكتاباته السابقة، في هذا الشأن، وعلى توضيحها، فلكان أكثر إقناعًا.

وكانت خيبته الثانية عدم تمكّنه من زيارة «سرايڤو»، رغم محاولاته الجادّة. إحدى العقبات كانت المخاطر الأمنيّة المحتملة. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني ليس ممّن تثنيهم المخاطر عن عزمهم. غير أنّ ممانعة الرئيس الصربيّ، وسينودس الكنيسة الأرثوذكسيّة، نهضا حائلاً لم يشأ البابا تحدّيه. فاقتصر على زيارة «زغرب» يومي ١٠ و١١ أيلول. ولكنّه بعد مضيّ نحو عشرة أيّامٍ على تلك الزيارة، اضطرّ إلى إرجاء زيارةٍ مقرّرةٍ إلى الولايات المتّحدة، بسبب آلامٍ في وركه، ما أثار تكهّناتٍ جديدةً حول حالته الصحّيّة. بيد أنّ هذه التكهّنات بدّدها صدور كتابه «ادخلوا في الرجاء»، الذي سرعان ما تُرجم إلى عشرات اللغات، واحتلّ طليعة الكتب الأكثر مبيعًا في العالم.

فقد كانت محطّة التليفزيون الإيطالي RAI، قد عزمت، بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لتسنّمه السدّة البابويّة، إجراء حوارٍ مباشرٍ معه، يجريه الصحافيّ الإيطاليّ «ڤيتّوريو ميسّوري» (Vittorio Messori). غير أنّ ظروفًا خاصّةً حالت دون إجراء ذلك الحوار في وقته. وبعد مضيّ أشهرٍ، اتّصل الناطق الرسميّ باسم الكرسيّ الرسوليّ بالصحافيّ الإيطاليّ «ميسّوري»، وبلّغه رسالةً من البابا يقول فيها: «**مع أنّ الوقت لم يسمح لي بالردّ المباشر، غير أنّني احتفظت على مكتبي بأسئلتكم التي أثارت اهتمامي. وارتأيت أنّ الإحجام عن الردّ عليها مدعاةٌ للأسف. فأعملت فيها فكري، وأجبتُ خطّيًّا. لقد طرحتم عليّ أسئلةً، ويحقّ لكم الحصول على أجوبتي. وسأعمل على ذلك، وسأبلّغكم إيّاها، وستفعلون بها ما ترونه مناسبًا**».

وفي نيسان ١٩٩٤، سلّم الناطق الرسميّ باسم الكرسي الرسوليّ، الصحافيّ الإيطاليّ ظرفًا أبيض كبيرًا يحتوي أجوبة الحبر الأعظم، التي اقترح له عنوانًا: «ادخلوا في الرجاء». وتبنّى الناشر هذا العنوان، وطُبع الكتاب، وتُرجم إلى معظم لغات العالم الرئيسة.

هذا الكتاب يسرد مسيرة يوحنّا بولس الثاني الإيمانيّة، وآماله للعالم، ويقدّم للاّهوتيّين والمؤمنين مادّة تفكيرٍ، ويوفّر للبابا فرصةً كي يوضح، من موقعٍ شخصيٍّ، ما لم ينفكّ يشغل باله، منذ ستّة عشر عامًا: ماذا على البابا أن يفعل كي تتحسّن الأمور في المستقبل؟

وقد برهن، بذلك، أنّه، عقب أكثر من خمس عشرة سنةً، ما برح يتأمّل في واجباته البابويّة.

وقد أسهم هذا الكتاب في تبديد صورةٍ شوهاء، تُظهر يوحنّا بولس الثاني متسلّطًا، يفرض نظرة الكنيسة قسرًا. فقد تجلّى، من خلال كتابه هذا، حبرًا يحيا ما يصرّح به، وأنّ الكنيسة تقترح وترشد، ولكنّها لا تفرض. وقد أماط اللثام عن صراعاته في الصلاة، وعن مسيرة دعوته الكهنوتيّة، وعمّا خبره عن «الحبّ البشريّ»، من خلال مواكبته لشبّانٍ يتأهّبون للزواج، وعن آماله المسكونيّة، وعن رؤيته للقرن العشرين بصفته قرن الشهداء؛ وسعيه إلى إنعاش الإيمان بالأنسنة، في مواجهة الخوف المعاصر السائد، مبرهنًا، بكلّ ذلك، عن إحساسٍ مرهفٍ، وإصغاءٍ يقظٍ لهواجس الجنس البشريّ، وعن قناعته بأنّ يسوع المسيح هو الردّ على تساؤلات كلّ حياةٍ بشريّةٍ. وقد عبّر عن تلك القناعة بقوله:

«ثمّة من يحمل بيديه مصير هذا العالم الزائل، ومن يمسك هذا المصير، ويقبض على مقاليد الموت ومسكن الأموات؛ من هو أَلِفُ التاريخ البشريّ وياؤه، الجماعيّ والفرديّ. وهذا الكائن هو حبٌّ. والحبّ تجسّد إنسانًا، الحبّ المصلوب والقائم من الموت، الحبّ الذي يُثبت وجوده دائمًا بين البشر... هو وحده يستطيع منح الطمأنينة الكبرى، بقوله: «لا تخافوا». إنّ التقاء هذا الحبّ يعني عبور عتبة الرجاء».

مجلس كرادلةٍ استثنائيٌّ

يوم انتخابه حبرًا أعظم، كان زميله وأخوه الأكبر، الكردينال «ڤيشينسكي»، قد أوصاه بإدخال الكنيسة إلى الألفيّة الثالثة، فشغلت هذه المهمّة من نفسه حيّزًا رحبًا، وبات تحقيقها هاجسه الدائم، ومركز اهتمامه.

ومنذ مطلع تسعينات القرن العشرين، انحصرت كلّ تطلّعاته في حلمٍ واحدٍ: يوبيل عام ٢٠٠٠ الكبير. ومع أنّ كلّ سنةٍ تمرّ، كانت مهامّه البابويّة المتعاظمة ترين على كاهله بمزيدٍ من الثقل، كان حلم اليوبيل الكبير يكتسب، مع إشراقة كلّ صباحٍ، وهجًا، وينعكس مزيدًا من عزيمةٍ وألقٍ على حبريّته. وفيما كان صحافيّون يراهنون على آلامه، ويتكهّنون عمّن سيخلفه، كان هو يضع خططًا للاحتفال باليوبيل الكبير.

وبتاريخ **١٩٩٤/٦/١٣**، التأم مجمع كرادلةٍ، غير اعتياديٍّ، للبحث في الإعداد ليوبيل عام **٢٠٠٠**. وكان الحبر الأعظم قد أرسل لكلّ كردينالٍ، مذكّرةً من ثلاثٍ وعشرين صفحةً، بعنوان خواطر من أجل يوبيل عام **٢٠٠٠** الكبير. واقترح، فيها، خمس مبادراتٍ:

– عقد عدّة سينودسات تضمّ جميع المذاهب المسيحيّة.

– لقاءٌ دوليٌّ يضمّ جميع الرؤساء الدينيّين في العالم.

– تحديث السينكسار بحيث يضمّ ثبتًا رسميًّا لآلاف شهود الإيمان.

– قيام الكنيسة بفحص ضميرٍ، واعترافها بالأخطاء التي ارتكبها أعضاؤها، ومن ثمّ باسمها، ولو على نحوٍ غير مباشرٍ.

وكان الحبر الأعظم قد اعترف، سابقًا، بأخطاءٍ ارتكبها مسؤولون كنسيّون عبر التاريخ. ولكنّه، في تلك المناسبة الكبرى، ابتغى اعترافًا علنيًّا شاملاً. وقد أقلقت رغبته هذه بعض الكرادلة، لأسبابٍ متنوّعةٍ. ولمّا لحظ البابا تحفّظات بعضهم، حرص على إيضاح أنّ المقترحات نابعةٌ من تعاليم المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، وتطبيقٌ لها.

وقد أولى يوحنّا بولس الثاني موضوع وحدة الكنيسة، الشأن الأخطر، موضحًا أنّ من أشدّ مقتضيات الكنيسة إلحاحًا، بمناسبة دخول الألفيّة الثالثة، هي تحقيق اتّفاقٍ متبادلٍ بين الغرب الكاثوليكيّ، والشرق الأرثوذكسيّ، إذ «**لا يسعنا المثول أمام المسيح، ربّ التاريخ، ونحن ما زلنا منقسمين، مثلما كنّا طيلة الألفيّة الثانية**».

وبيّن، أيضًا، أنّ تحديث السينكسار يندرج في تيّار المجمع الڤاتيكانيّ الثاني،

ودعوته المسيحيّين إلى القداسة. وإذ كان يعلم أنّ بعضهم يأخذون عليه كثرة التطويبات التي اضطلع بها أثناء حبريّته، ذكّر منتقديه بأنّ التطويبات تعكس على نحوٍ ساطعٍ عمل الروح القدس، وأنّ كثرتها تظهر الحيويّة التي يشيعها... وإن كانٍ لأحدهم مأخذٌ، فليوجّهه إلى الروح القدس. وأشار إلى أنّ أمثلة القداسة النابعة من الكنائس الفتيّة، التي تلقّت البشارة في الألفيّة الثانية، جديرةٌ بمزيدٍ من الاهتمام.

أمّا إعادة فحص الضمير والاعتراف بالأخطاء الماضية، فهما من صلب تعليم الإنجيل، ولا بدّ منهما كي تنعم الكنيسة بمصداقيّة التبشير، وكي تنهض بمهمّة التبشير الجديد المطلوب منها.

وبالإجمال كان يوحنّا بولس الثاني، رغم تحفّظ بعض الكرادلة، حريصًا على انتهاز كلّ سانحةٍ يتيحها اليوبيل الكبير، الذي توسّم فيه تدبيرًا من العناية الإلهيّة.

الألفيّة الثالثة القادمة

وفي سياق الإعداد ليوبيل العام ٢٠٠٠ الكبير، أصدر يوحنّا بولس الثاني، بتاريخ ١٩٩٤/١١/١٠، منشورًا رسوليًّا، بسط فيه رؤيته لمغزى الألفيّة الثالثة، التي تعني مرور ألفَي سنةٍ على حقبة التاريخ المحوريّة، أي تجسّد ابن اللّه الذي أظهر للعالم وجه اللّه الآب، الفادي، مخلّص العالم، الذي أظهر لنا وجه الإنسانيّة الحقّ. ومن ثمّ فإنّ العام ٢٠٠٠ يكتسي معنًى عالميًا، فهو الذكرى الألفيّة الثانية للإنسانيّة الحقيقيّة التي أُعلنت للورى.

فقد كان تجسّد المسيح محطّةً جوهريّةً في تاريخ البشريّة، لأنّ نشدان البشر للّه قد بلغ غايته، بفضل اللّه نفسه، الذي نشد خليقته البشريّة. «فقد جاء اللّه بذاته، ومن تلقاء ذاته، كي يكلّم الإنسان ويرشده إلى الطريق الذي يوصله إليه». ولم تكن المسيحيّة بحثًا أعمى عن الإلهيّ، بل كانت ردًّا إيمانيًّا على اللّه المعتلن. وبفضل هذا الردّ اكتشف البشر أنفسهم، بصفتهم تجلّي مجد اللّه، وخلائق مدعوّةً إلى ملء الحياة في اللّه.

لقد كان التجسّد تلبيةً لرغبة الإنسان في مصيرٍ يتخطّى حدود الزمن والمدى والموت، وكانت المسيحيّة الدين الذي يسمح للإنسان أن يقيم في أعماق الله، إقامةً أبديّةً، هي عمل كلمة الله الذي ارتضى أن يتجسّد، ويولد، ويحيا، ويموت، مضحّيًا بذاته، فداءً للبشر.

وبالتجسّد «**دخلت الأبديّة في الزمن**»، وتجلّت حقيقة الزمن، بصفته حَدَثًا، غنيًّا، معقّدًا، لأنّ ابن الله، بتجسّده، ودخوله إلى التاريخ، ظلّ داخل الثالوث، وفي الآن عينه، أخذ الوقت على عاتقه، وأدخله إلى حياة الله نفسه، ومن ثمّ غدا من الواجب تقديس الزمن. مفهوم الزمن هذا هو الذي يضفي على اليوبيل قدسيّته. ومن أجل إبراز الذكرى الألفين لبدء ملكوت الله، من خلال حياة يسوع، وموته وقيامته، تحتفل الكنيسة بهذه الذكرى الألفيّة الثانية، على أنّه اليوبيل الكبير.

وأضاف البابا أنّ هذا اليوبيل الكبير هو، للمسيحيّين، تأهّبٌ لربيع حياةٍ مسيحيّةٍ، جديدٍ، وحقبة إمكانيّاتٍ إنجيليّةٍ تعقب قرن شتاءٍ، وأنّ غاية هذا اليوبيل هي حمل الكنيسة على الإنصات لما يوحيه الروح للجماعات المختلفة.

وقد رسم يوحنّا بولس الثاني خطط مشاريع تتعلّق باليوبيل. فالتقليد يعدّ اليوبيل موسم حجٍّ. والكنيسة تعيش، من خلال اليوبيل، رحلة المسيح عبر القرون. وقد عبّر البابا عن رغبته في زيارة سرايفو، ولبنان، والديار المقدّسة، في السنوات السابقة لليوبيل، وفي سنة اليوبيل الحجّ إلى الديار التي اجتازها الأنبياء، من سيناء مصر حتّى دمشق التي شهدت ارتداد بولس.

وكانت مناسبات اليوبيل مناسبات توبةٍ. ولا ريب أنّ أصدق تحرّرٍ بشريٍّ هو التحرّر من ربقة الخطيئة وعواقبها، وهذا التحرّر يستلزم الاعتراف بالخطايا، اعترافًا يقود إلى الغفران، الذي يولّد الفرح المواكب لسنوات اليوبيل. وقد كتب يوحنّا بولس الثاني في هذا السياق: «**فيما تشرف الألفيّة المسيحيّة الثانية على نهايتها، يجدر بالكنيسة أن تعي، وعيًا أعمق، خطايا أبنائها، متذكّرةً حقب التاريخ، التي نأى خلالها هؤلاء الأبناء، عن روح المسيح وإنجيله، وانجرّوا إلى طُرُق تفكيرٍ وعملٍ مشينةٍ، تناقض الشهادة لقِيَم الإيمان التي عليهم أداؤها**».

ومن جانبٍ آخر، كان المجمع الڤاتيكانيّ الثاني قد أعلن أنّ على الكنيسة أن تكون، دائمًا، قدسيّةً، وساعيةً إلى التطهّر. فلا بدّ من أن يترسّخ هذا العزم، في سنة اليوبيل، وفي وعيٍ واضحٍ لكلّ ما جرى خلال القرون العشرة المنصرمة، حيث أدّت خطايا المسيحيّين إلى شرخ وحدتهم. ومن ثمّ ينبغي أن تكون فترة الإعداد لليوبيل حقبة عمل مسكونيٍّ كثيفٍ، وأن يندم أبناء الكنيسة عن الفترات التي تذرّعوا، فيها، بالتعصّب، وحتّى بالعنف، بحجّة خدمة الحقيقة، وعليهم تذكّر تعليم المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، أن «**لا يمكن للحقيقة أن تستحوذ على الذهن إلاّ بفرض ذاتها، وبقدرتها الذاتيّة، وبقدرٍ متساوٍ من الرقّة والشدّة**».

وعلى كنيسة القرن الحادي والعشرين أن تؤدّي حسابًا، فلا عذر لها في ما يسود العالم عمومًا من لامبالاةٍ دينيّةٍ، ومن فقدان الإيمان بفائق الطبيعة، وبكلّ وجوه الدنيويّة. وعلى المسيحيّين مراجعة دخائل نفوسهم، وتبيّن مدى إسهامهم الشخصيّ، في أزمة نهاية القرن العشرين الدينيّة، من جرّاء توانيهم عن إظهار وجه الله، وبسبب تورّط البعض منهم في دعم انتهاكاتٍ جسيمةٍ لحقوق الإنسان، وتقصير الكنيسة في تحقيق وعود المجمع الڤاتيكانيّ الثاني.

وفي مقابل هذه الإخفاقات، على الكنيسة أن تتأمّل في الشخصيّات الكبرى التي ساعدت على إضاءة وجهها، والمتمثّلة، بنوعٍ خاصٍّ، في الشهداء. ففي نهاية الألفيّة الثانية، عادت الكنيسة، مجدّدًا، كنيسة شهداء، والشهداء هم الذين يبنون وحدة جسد المسيح التي أرادها يسوع.

واقترح الحبر الأعظم، استعدادًا لليوبيل، أن تُكرّس كلّ سنةٍ من سنوات القرن الأخيرة، لأحد أقانيم الثالوث الأقدس، فيُكرّس عام **١٩٩٧** للتأمّل في يسوع المسيح، ولتدعيم إيمان المسيحيّين وشهادتهم. ويكرّس العام **١٩٩٨** لتكريم الروح القدس، والإشادة بفضيلة الرجاء، أمّا عام **١٩٩٩**، فيُكرّس للتأمّل في الله الآب، وفي فضيلة المحبّة، إذ إنّ الله محبّةٌ. وهكذا يكون هدف اليوبيل الكبير تمجيد الثالوث الأقدس، فمنه يأتي إلى العالم كلّ شيءٍ، وإليه يعود كلّ شيءٍ. ومن شأن ذلك دعم خبرة الكنيسة ورسالتها، ومساعدتها على العيش الدائم في نور الثالوث الإلهيّ، وفي شركةٍ معه.

كان البابا يبتغي الاحتفال باليوبيل، مع التطلّع إلى ربيع تبشيرٍ جديدٍ بالإنجيل. فمن المؤكّد أنّ الحضارة تواجه أزمةً حادّةً، ومهمّة الكنيسة، في زمن هذا المنعطف التاريخيّ، هي الإسهام في بعث ربيعٍ جديدٍ للبشريّة جمعاء.

ومن الخطوات الكبرى التي قرّرها، للاحتفال باليوبيل:

– فتح بابٍ مقدّسٍ «مسكونيٍّ»، يوم ٢٠٠٠/١/١٨، في كاتدرائيّة القدّيس بولس خارجَ الأسوار، في إطارٍ مسكونيٍّ.

– إقامة يوم توبةٍ والتماس الغفران، حدّد له تاريخ ٢٠٠٠/٣/٧، وهو يوم الأربعاء من أسبوع الصوم الكبير الأوّل، المعروف بأربعاء الرماد. وقد توقّع أن يكون ذلك اليوم الحدَث الأعظم شأنًا في تاريخ حبريّته.

– وفي ذلك اليوم عينه تكريمٌ مسكونيٌّ لشهداء القرن كلّه، المنتمين إلى جميع الكنائس المسيحيّة.

– يوم صلاةٍ من أجل تعاون كلّ الديانات المختلفة، حُدّد تاريخه في ٢٠٠٠/٦/١٨، عيد العنصرة.

وفضلاً عن هذه الأحداث الكبرى، خصّص أيّامًا لكلٍّ من: الأولاد – الرهبان – المرضى – الفنّانين – الشمامسة الإنجيليّين – الحرفيّين – النساء – المهاجرين – العمّال – الكهنة – العلماء – الصحافيّين – الجامعيّين – المسنّين – الأُسر – الرياضيّين – المسؤولين المدنيّين – الجنود – السياسيّين.

وكان من المقرّر عقد المؤتمر القربانيّ العالميّ في نهاية شهر حزيران ٢٠٠٠، وأيّام الشبيبة العالميّة في منتصف شهر آب، في روما.

وكان البابا قد قرّر، خلال سنة اليوبيل، الظهور، كلّ يومٍ، من نافذة مقرّه، لتحيّة الحجّاج في ساحة القدّيس بطرس.

وتمنّى البابا أن يتمكّن في تلك السنة من زيارة الأماكن المقدّسة، والديار التي ذرعها الأنبياء، والمدينة التي ارتدّ فيها القدّيس بولس، أي العراق، وسوريّا، ومصر، والأردنّ وفلسطين ولبنان؛ وكان متأهّبًا لتخطّي كلّ العقبات الدبلوماسيّة، والدينيّة، والمسكونيّة، التي قد تعيق رغبته هذه.

معظم هذه المشاريع، التي خطّط لها يوحنّا بولس الثاني من أجل الاحتفال باليوبيل الكبير، كانت تنطوي على قسطٍ من المخاطرة. ولكنّه كان حريصًا عليها، مثل حرصه على أن تكون سنة اليوبيل، لكلّ مسيحيٍّ، وللعالم أجمع، سنة فحص ضميرٍ، وصفحٍ، واستصفاحٍ، وسنة محبّةٍ وسلامٍ، يتوقّف فيها التقاتل بين الشعوب، ويعهد السلاح هدنةً؛ ولهذه الغاية تُحيى سهرات صلاةٍ، وأيّام صومٍ.

ولتحقيق هذه الأهداف كلّها، أُلّفت لجنةٌ من عشرة أعضاء، ورُفدت بستّة ممثّلين عن الكنائس الأُخرى.

رحلةٌ إلى كرواتيا

ألمحنا، آنفًا، إلى رغبة يوحنّا بولس الثاني في زيارة دول البلقان المتناحرة، بدءًا بسراييڤو، فزغرب، وانتهاءً ببلغراد. ولكنّ زيارته إلى هذه العاصمة الأخيرة تعذّرت، لأنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة والحكومة الصربيّة أعربتا عن عدم رغبتهما في زيارته الجمهوريّة الصربيّة. وبالمقابل كان الرئيس البوسنيّ قد وجّه له دعوةً لزيارة بلاده، غير أنّ القوّات الدوليّة حذّرته من تلك الزيارة المحفوفة بالمخاطر، ولا سيّما بعد أن أعلن الزعيم الصربي أنّ كتائبه وحدها قادرةٌ على تأمين سلامته. فاضطرّ إلى الاقتصار على زيارة العاصمة الكرواتيّة، لأنّه لم يُطِق تخييب أمل الشعب الكرواتيّ التوّاق إلى حضوره.

يوم الثامن من أيلول، الذي كان مقرّرًا موعدًا لزيارته البوسنة، احتفل بقدّاسٍ في مقرّه الصيفيّ، ووزّع على وسائل الإعلام نصّ العظة التي كان ينوي إلقاءها، لو تمّت الزيارة، واختتم كلمته بدعاءٍ مؤثّرٍ قال فيه: «**أنا، أُسقف روما، والبابا السلاڤيّ الأوّل، أجثو أمامك، يا ربّ، وأصرخ: من الطاعون، ومن المجاعة، ومن الحرب، خلّصنا!**».

وبعد ظهر العاشر من أيلول، استقلّ طائرةً إلى زغرب، التي كانت قبل أيّامٍ، ساحة قتالٍ. وعند هبوطه من الطائرة بدت عليه أمارات الإرهاق والوجع، وللمرّة

الأولى لم يستطع الانحناء وتقبيل الأرض. فتوجّه إلى الكاتدرائيّة حيث كان ينتظره مؤمنون متحمّسون وعددٌ غفيرٌ من الكهنة. وبصوتٍ متهدّجٍ ألقى كلمةً، متسائلاً هل يدرك العالم معنى ما يحدث في البلقان، على تخوم الشرق والغرب، المسيحيّة والإسلام، العالم اللاتينيّ والعالم السلافيّ؟

وقد أكّد كردينالٌ كان قد حضر من باريس، أنّ تلك الزيارة كانت للبابا درب صليبٍ مؤلّمًا. غير أنّه توقّع ألاّ يثنيه العناء والمشقّة عن مواصلة رحلاته الرسوليّة حيثما يدعوه الواجب، في كلّ بقعةٍ من العالم.

خطواتٌ مسكونيّةٌ، وكرادلةٌ جدُدٌ

بتاريخ ١٩٩٤/١١/١١، وقّع يوحنّا بولس الثاني بيانًا مشتركًا بين الكرسيّ الرسوليّ والكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، التي كانت قد انفصلت، عام **٤٣١**، عن الكنيسة الجامعة، بسبب إيمانها بطبيعةٍ واحدةٍ في المسيح. وقد أكّد البيان أنّ الكنيستين باتتا متّحدتين في الإيمان الواحد بابن الله. وبذلك وُضعت نهايةٌ لخلافٍ لاهوتيٍّ تمادى أكثر من ألفٍ وخمس مئة عامٍ، وفُتح بابٌ لتعاونٍ أوسع في المستقبل؛ فقد كانت تُعدّ مشاريع مشتركةٌ بين الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة والكنيسة الكلدانيّة الكاثوليكيّة، من أجل وضع كتاب تعليمٍ مسيحيٍّ موحّدٍ، وإحداث إكليريكيّةٍ مشتركةٍ.

وكانت جهود يوحنّا بولس الثاني الحثيثة قد أفضت إلى حواراتٍ، اتّصفت بالصبر والدأب مع عددٍ من الكنائس الشرقيّة، وأثمرت بياناتٍ تعلن مشاركة هذه الكنائس الكنيسة الكاثوليكيّة الإيمان الواحد، وإن تباينت، أحيانًا، صِيَغ الإعلان عن هذا الإيمان.

وفي ١٩٩٤/١١/٢٦، عُقد مجمع الكرادلة من أجل رسم معالم الكنيسة الكاثوليكيّة للقرن الحادي والعشرين. وانتهز يوحنّا بولس الثاني هذه السانحة، كي يرفع إلى رتبة الكردیناليّة، عددًا من الأساقفة في الدول التي كانت خاضعةً للحكم الشيوعيّ، الذين اضطلعوا بمهامّهم ببطولةٍ، وفي الخفاء، أحيانًا كثيرةً،

أمثال أُسقف براغ، الذي موّه نشاطه الراعويّ بامتهان تنظيف البلاط، وأسقف «هاڤانا» (كوبا)، ورئيس أساقفةٍ سرايڤو البالغ تسعةً وأربعين سنةً، ورئيس أساقفة بييلّوروسيا، البالغ ثمانين عامًا، الذي اعتقل عشر سنواتٍ، وكان يحتفل بالقدّاس وهو مستلقٍ على فراش زنزانته للتمويه؛ وأسقف ألبانيا البالغ الثانية والتسعين من سنيه، التي قضى منها إحدى وعشرين سنةً في معتقل أشغالٍ شاقّةٍ. وكُرّم لاهوتيّان بمنصب كردينالٍ: الأب اليسوعيّ الألمانيّ «Aloïs Grillmeir"، والدومينيكيّ الفرنسيّ «إيڤ كونغار»، الذي حال مرضه دون حضوره حفلة تنصيبه. وقد جاء كرادلةٌ جدُدٌ من كلّ أرجاء المسكونة: لبنان، تشيكيا، اليابان، الشيلي، إسكتلندا، المكسيك، بييلّوروسيا، إسبانيا، البوسنة، مدغشكر، ڤييتنام، الإيكوادور، ألمانيا، إيطاليا. من ثمّ أصبح مجمع الكرادلة، الذي سينتخب خلفًا ليوحنّا بولس الثاني، الأكثر تنوّعًا عالميًّا في تاريخ الكنيسة الكاثوليكيّة.

وفيما كان الحبر الأعظم يُدخل خاتم الكردينالية في إصبعٍ كلٍّ من الكرادلة الجدُد، كان يحرّضه على أن يكون شاهدًا، ولو كلّفته الشهادة حياته.

وقد اختتم الحبر الأعظم تلك السنة الحافلة بالأحداث، برسالة إلى الأولاد نشرها يوم ١٩٩٤/١٢/١٣، وألمح فيها إلى ذكرياته عن عيد الميلاد، وشدّد على أهمّيّة المناولة الأولى، وحيّى الشهداء والرؤاة الصغار، فتيانًا وفتياتٍ. وفي ختام تلك السنة التي كُرّست سنةً دوليّةً للأُسرة، طلب البابا من الأطفال ما لم يطلبه منهم أحدٌ من المسؤولين في العالم، أي الصلاة من أجل السلام، مؤكّدًا أنّ الصغار «ينبذون، غريزيًّا، البغضاء، ويجتذبهم الحبّ»، ولصلواتهم مفعولٌ جبّارٌ، وهي جديرةٌ بأن تكون مثالاً للكبار، الذين عليهم أن يُصلّوا، بمثل ثقة الصغار، البسيطة والكلّيّة.

ودعا الصغار إلى أن يكونوا رسل محبّةٍ.

رحلةٌ راعويّةٌ إلى القارّة الآسيويّة

كان العام ١٩٩٥ قد أُعلن سنة المرأة العالميّة. وبما أنّ اليوم الأوّل من كلّ عامٍ

هو يوم السلام العالميّ، فقد قال يوحنّا بولس الثاني في عظته، يومذاك، إنّ المرأة هي مربّية السلام.

وكان الحبر الأعظم يولي عنايةً خاصّةً بتوثيق أواصر التضامن مع القارّة الآسيويّة، الأشدّ اكتظاظًا بالسكّان، والأقلّ مسيحيّةً في العالم. فاستهلّ عام **١٩٩٥** برحلته الخامسة والستّين خارج إيطاليا، اجتاز، فيها، اثنين وثلاثين ألف كيلومتر، وزار خلالها الفيليبّين، وپاپوازيا (غينيا الجديدة)، وسريلنكا، وعرّج في أثنائها على أوستراليا.

محطّته الأولى كانت في مانيلاّ عاصمة الفيليبّين، حيث كان مقرّرًا عقد أيّام الشبيبة العالميّة. وليلة **١٩٩٤/١/١٤** أُحيِيَت سهرة صلاةٍ، مازح، في أثنائها، الحبر الأعظم جموع الشبيبة، التي انطلقت تهتف «لوليك، لوليك!»، وهو اسم التحبّب الذي كان يدعى به البابا في صغره، فاعترض قائلاً: «**إنّ اسم «لوليك» غير جادٍّ، واسم يوحنّا بولس الثاني مغرق في الجدّ، والأفضل هو اسمٌ متوسّطٌ بينهما، مثل «كارول»**». وحينئذٍ ردّدت ألوف الأصوات بحماسٍ: «كارول، كارول!».

وفي اليوم التالي، حدث أضخم حشدٍ في التاريخ من أجل المشاركة في القدّاس الختاميّ لأيّام الشبيبة. وقد حلّل خبراء يابانيّون صورةً للحشد أُخذت من الجوّ، وأقرّوا بموجب التحليل أنّ عدد الجمع تراوح بين خمسة ملايين وسبعة ملايين. وبما أنّ عبور السيّارة البابويّة كان متعذّرًا وسط هذه اللجّة البشريّة، كان لا بدّ من إنزال قداسته، بواسطة مروحيّةٍ، في مكان الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة. ذلك المشهد انحفر بعمقٍ في ذاكرة البابا، الذي باح لسفيرة الفيليبّين، بعد ثمانية عشر شهرًا: «**لم أشهد، قطّ، مثل هذا الحشد من الخلق**».

ولكن، قُبَيْل وصول البابا، كان الدخان المتصاعد من شقّةٍ ملاصقةٍ لمبنى سفارة الڤاتيكان قد استدعى رجال الإطفاء الذين وجدوا في تلك الشقّة متفجّراتٍ، ومخطّطًا لاغتيال البابا. وحاول الشخصان اللذان استأجرا تلك الشقّة الفرار عبثًا. وتبيّن أنّهما إرهابيّان إسلاميّان، كانا قد أُدينا بالاشتراك بتفجير مركزِ التجارة العالميّ في نيويورك عام **١٩٩٣**، وبمحاولة تفجير طائرةٍ أخفيا متفجّرةً

في مراحيضها، ووُجدت في الشقّة موادّ كفيلةٌ بتفجير عدّة طائراتٍ، وخططٌ لتنفيذ هذه التفجيرات.

وبمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس محطّة «راديو الحقيقة – آسيا» في مانيلاّ، وجّه البابا، عبر أثيرها، إلى جميع الكاثوليكيّين الصينيّين، دعوةً إلى اكتشاف سُبل مشاركةٍ ومصالحةٍ بينهم، إذ كان قسمٌ منهم ما برح وفيًّا للبابا، خفيةً، وقسمٌ آخر منخرطًا في الاتّحاد الكاثوليكيّ الوطنيّ، الخاضع للنظام الشيوعيّ الصينيّ. غير أنّ معظم أعضاء ذلك الاتّحاد كانوا موالين، قلبيًّا ووجدانيًّا، لأسقف روما.

وناشد قداسته السلطات الصينيّة ألاّ تتوجّس خشيةً من الكاثوليكيّين، مؤكّدًا: «**إنّ بوسع تلميذ يسوع أن يحيا إيمانه في إطار أيّ نظامٍ سياسيٍّ يحترم حقّه بالعمل وفق صوت ضميره. ولذلك أُعيد قولي للسلطات الحكوميّة ألاّ تخاف الله ولا كنيسته. وفي الحقيقة، أطلب منهم، باحترامٍ وبحرصٍ على الحرّيّة الحقّة، التي هي حقٌّ وراثيٌّ لكلّ إنسانٍ، أن يتيحوا للمؤمنين بالمسيح، أكثر فأكثر، وقف طاقاتهم ومواهبهم على إنماء وطنهم**».

ولكي لا يُحرَم الصينيّون الكاثوليكيّون من رعاةٍ، بادر، عام **١٩٩٦**، قبل عودة هونغ كونغ إلى السلطة الصينيّة، إلى تعيين كاهنٍ ساليزيٍّ في الرابعة والسبعين من العمر، معاونًا للكردينال الموجود هناك. وبذلك ضمن استمرار الكنيسة الكاثوليكيّة. أمّا تايوان فنعمت بأوّل كردينالٍ لها، عام **١٩٩٨**، في شخص يسوعيٍّ صينيٍّ.

يوم **١٩٩٥/١/١٦**، حطّ البابا رحاله في عاصمة «پاپوازيا غينيا الجديدة»، حيث طوّب «پيتر تو روت» (Peter To Rot)، وهو علمانيٌّ وأبٌ لثلاثة أولادٍ، كان يلقّن التعليم المسيحيّ، وأعدمه الجيش اليابانيّ، عام **١٩٤٥**، لأنّه قاوم اضطهادهم للمسيحيّين، ومحاولتهم إعادة العمل بشريعة تعدّد الزوجات. وكان، قُبَيْل إعدامه، قد أعلن: «عليّ الاضطلاع بواجبي، بصفتي شاهدًا ليسوع المسيح». وألقى البابا بهذه المناسبة عظةً باللغتين المحلّيّة والإنكليزيّة.

وفي ١٩/١/١٩٩٥، طوّب الحبر الأعظم، في أوستراليا، الأُمّ «ميري ماك كيلّوپ» (Mary Mac Killop)، مؤسِّسة رهبانيّة أخوات القدّيس يوسف للقلب الأقدس، في أثناء قدّاسٍ أُقيم في ملعب سباق خيلٍ. وكانت تلك الراهبة مولودةً عام ١٨٤٢، من والدين مهاجرين إسكتلنديّين، نجوا من اضطهاد الكاثوليكيّين الذي دام قرونًا. أمّا الرهبانيّة التي أسّستها، فقد عُرفت بالراهبات البنّيّات، نسبةً إلى لون الزيّ الذي تبنّينه. وقد عُنيت تلك الرهبانيّة بالتربية وبالمشاريع الخيريّة، وأسّست مياتم، ومآوي للمسنّين، وللنساء والفتيات المعوزات، ولمن يعانون الوحدة من كلّ جنسٍ وعمرٍ. وفي تلك الحقبة، لم يكن الإكليروس الإيرلنديّ يستسيغ النساء الإسكوتلنديّات، الرائدات، فرشقها أُسقفٌ متهوّرٌ، غضوبٌ، بالحرم الكنسيّ، بحجّة «العصيان» الباطلة، ولكنّه رفع هذا الحرم، أُسبوعًا قبل وفاته. وعقب وفاة تلك الراهبة، أضحى ضريحها محجًّا. وفي عام ١٩٩٣، جرى شفاءٌ عجيبٌ، بشفاعتها.

وفي عظته، ألمح البابا إلى أنّ الصحراء، التي تطغى على داخل أوستراليا، لم تُخفِ «ميري ماك كيلّوپ»، ولم تدفعها إلى التخاذل. واليوم، تواجه الجماعة المسيحيّة العديد من الصحارى الحديثة: من لامبالاةٍ، وتعصُّبٍ، وقلقٍ يولّده التعصّب العرقيّ، وازدراء الغير، وجذْب الأنانيّة، والغدر. ولكنّ القدّيسين يرون ثرواتٍ حيث لا يرى آخرون سوى الفراغ. و«**هم يعلّموننا أن نرى، في المسيح، مركزَ كلّ النعم، التي يغدقها الله على البشر، وقمّتَها**». وطوبى لمن يلقّنون محيطهم رؤية حقيقة الحياة والتضامن البشريّين.

«إنجيل الحياة» (Evangelium Vitae)

كان مجمع الكرادلة الذي عُقد عام ١٩٩١، قد بحث شتّى الانتهاكات التي تطال كرامة الحياة البشريّة. وكان الكردينال «رتسنغر»، الذي خلف يوحنّا بولس الثاني على السدّة البابويّة، قد ألقى محاضرةً، في ذلك المجمع، وعزا مواطن الخلل الأخلاقيّ المستشري، إلى العَدَميّة الفلسفيّة الطاغية على الفكر المعاصر،

وإلى «حرّيّة اللامبالاة» السائدة، التي تفسح المجال واسعًا للإجهاض، وللقتل الرحيم، وللتصرّف بالحياة البشريّة، بحجّة ذرائع أو تجارب علميّةٍ.

وارتأى الكرادلة المجتمعون واجب إسماع الكنيسة رأيها صريحًا، في هذا الشأن. وكانت تلك دعوةً إلى الحبر الأعظم كي يوضح موقف الكنيسة من خلال رسالةٍ عامّةٍ. وإعدادًا لهذه الرسالة، أنفذ قداسته رسائل شخصيّةً إلى جميع أساقفة العالم، ولا سيّما إلى أولئك الذين دأبوا على الذود عن كرامة الحياة البشريّة، مستوضحًا آراءهم واقتراحاتهم.

وبتاريخ **١٩٩٥/٣/٢٥**، بمناسبة عيد البشارة الذي يذكّر بتجسُّد ابن الله، وقّع يوحنّا بولس الثاني الرسالة العامّة «إنجيل الحياة»، وتطرّق، من خلالها، إلى «ثقافة الموت»، التي ولّدت جمًّا من انتهاكات الكرامة الإنسانيّة. ولم تقتصر تلك الرسالة على إيجاز سنواتٍ طويلةٍ من نضال يوحنّا بولس الثاني، في سبيل الكرامة الإنسانيّة، والحقوق الأساسيّة، التي حرثت حقلاً جديدًا من التحليل التاريخيّ، والتعليم الأخلاقيّ، والممارسات الأخلاقيّة، وسط تعقيدات السياسات الديمقراطيّة. وفي الواقع، كانت هذه الرسالة هي الجزء الثالث المتمّم لما بسطه في رسالتيه العامّتين السابقتين: «السنة المئة»، عام **١٩٩١**، و«بهاء الحقيقة»، عام **١٩٩٣**، حيث أرسى الأُسس الأخلاقيّة لمجتمعٍ حرٍّ فاضلٍ. وقد أكّد، في رسالته الثالثة هذه، أنّ الديمقراطيّات المعاصرة مهدَّدةٌ بتدمير ذاتها، إن هي استمرّت في اعتبار الأخطاء الأخلاقيّة حقوقًا ثابتةً.

عددٌ ضئيلٌ من الكاثوليكيّين انتقدوا هذه الرسالة، زاعمين أنّها نموذجٌ لسلطويّة يوحنّا بولس الثاني، الساعي إلى فرض آرائه الشخصيّة فرضًا ديكتاتوريًّا. ولكنّ السواد الأعظم من الإكليروس الكاثوليكيّ رحّب بها ترحيبًا حارًّا. ونافسهم في هذا الترحيب صحافيّون أميركيّون. فقد عدّت مجلّة «نيوزويك»، أنّ تلك الرسالة هي أكثر رسائل يوحنّا بولس الثاني وضوحًا، واندفاعًا، واقتضاءً، واستئهالاً للخلود«. وقد وُزّعت آلاف النسخ منها في المكاتب، وفي صالات البيع الكبرى. وأشاد بها علماء بروتستانتيّون ويهودٌ. واتّضح أنّها تجيب على تساؤلات الكثيرين وهواجسهم. واعتبرت الصحيفة

البريطانيّة «أنديپاندانت»، التي أَلِفت إغداق النقد على يوحنّا بولس الثاني، أنّ البابا، إثر زيارته للفيليپّين، وإصداره رسالة «إنجيل الحياة» هو «**القائد الروحيّ العالميّ الوحيد**».

من أجل وحدة المسيحيّين

الثامن من أيّار كان الذكرى الخامسة والسبعين لمولد كارول ڤويتيووا.

ويوم ٢٠ أيّار، قام يوحنّا بولس الثاني برحلة راعويّةٍ، إلى براغ، عاصمة تشيكيا، حيث أحيى ذكرى الشهيد «جان نيپوموسين» (Nepomusène)، وطوّب الكاهن الشهيد «يان ساركندر» (Jan Sarkander)، الذي استُشهد في مطلع القرن السابع عشر. وقبيل سفره، صرّح للصحافيّين أنّ المسيحيّة دخلت إلى پولونيا من باب بوهيميا، وأنّ قدّيسين كبارًا، أمثال القدّيس أدالبير، قد دخلوا، أيضًا، من هذا الباب. وأكّد البابا أنّ ماضيًا عمره ألف عامٍ، مازال أبلغ تأثيرًا من أربعين سنةً من الحكم الشيوعيّ، مع أنّ آثار هذا الحكم الوبيلة ما برحت حيّةً.

ما كاد ينقضي شهران على إصداره رسالته العامّة «إنجيل الحياة»، حتّى أصدر رسالةً أُخرى بشأن الوحدة المسيحيّة، تحمل عنوان: «لكي يكونوا واحدًا» (Ut Unum Sint)، منطلقًا من الإيمان بأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة مرتبطةٌ بجميع المسيحيّين الآخرين، الذين تعدّهم إخوةً وأخواتٍ، كما أنّ هؤلاء مرتبطون بالكنيسة الكاثوليكيّة، بسرّ العماد المشترك. فهو لم يكن يرى في الوحدة خيارًا، بل واجبًا يقتضيه يسوع نفسه. ولذلك تضمّنت رسالته هذه أسخى العروض التي قُدّمت للكنيسة الأرثوذكسيّة، منذ عام ١٠٥٤، وللبروتستانتيّن منذ القرن السادس عشر.

وبدأت تلك الرسالة بإيقاظ وعي الكاثوليكيّين أنفسهم على قضيّة الوحدة، لأنّ انشقاق المسيحيّين ينهض عقبةً دون إعلان الإنجيل، ودون ردم الهوّة التي يحفرها اختلاف الأجناس، والإثنيّات، والنزعات الوطنيّة، التي تجعل من العالم بؤرة خلافاتٍ تنذر بالانفجار. فإن كان المسيحيّون عاجزين عن رتق عرى وحدتهم، فسيتعذّر عليهم الدفاع عن وحدة الجنس البشريّ.

وقد أظهرت تلك الرسالة عظمة الشأن، الذي كان الحبر الأعظم يوليه لرأب الصدع الذي حدث في القرن الحادي عشر، بين كنيسة الشرق وكنيسة الغرب. ورغم النقد العنيف الذي قابله به بعض الأرثوذكسيّين في التسعينات، كانت تحدوه رغبةٌ عارمةٌ في تحقيق «وحدةٍ كاملةٍ في إطار تنوّعٍ مشروعٍ»، بين الكنيستين الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة، واستعادة العلاقات التي سادت بينهما في الألفيّة الأولى، عندما لم تكن خبرات الحياة الكنسيّة المختلفة، تحول دون شعور أيّ مسيحيٍّ أنّه في بيته، في أيّة كنيسةٍ يغشاها، فالجميع يمجّدون الآب والابن والروح القدس، بلغاتٍ وألحانٍ مختلفةٍ. وكانت المجامع الكنسيّة الأولى خير برهانٍ على إمكانيّة استعادة هذه الوحدة.

ولم تتّسم دعوة البابا إلى كنائس الإصلاح بمثل دعوته إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة، التي كان يرى أنّ التقارب منها أقرب منالاً. فالقضايا الجوهريّة التي لا بدّ من حلّها مع الكنائس «الإصلاحيّة»، عديدةٌ وشائكةٌ، ولا سيّما بعد أن مُنيت بالهزال الكنائس البروتستانتيّة التي سبق للكنيسة الكاثوليكيّة محاورتها، ونمت بالمقابل كنائس أُخرى مختلفة التوجّهات.

وتميّزت رسالة البابا تلك بطلبه من جميع الكنائس غير الكاثوليكيّة أن تساعده على إيجاد مفهومٍ للبابويّة يرضون به في المستقبل، ويكون كفيلاً بتوحيد جميع المسيحيّين. وبهذه المناسبة، وعلى غرار سلفه بولس السادس، استصفح يوحنّا بولس الثاني عن جميع الأخطاء التي لوّثت البابويّة عبر التاريخ.

وأوضح البابا أنّ المسيحيّين ليسوا هم الذين يصنعون الوحدة، فالوحدة هي صنع المسيح. وعلى الحركة المسكونيّة أن تسبغ على هذه الوحدة صيغةً تاريخيّةً.

غير أنّ جرأة عرض الحبر الأعظم، لم تقابَل بردودٍ تضاهيها إيجابيّةً. واتّضح أنّ اهتمام المجلس المسكونيّ للكنائس، كان يتطلّع إلى آفاقٍ أُخرى. وكان أمين سرّ ذلك المجلس، الدكتور «كونراد كيزر» (Konrad Kaiser)، قد ألقى، في روما، محاضرةً بتاريخ ١٩٩٥/٤/٤، صرّح، خلالها، أنّ البوْن الفعليّ بين الأغنياء والفقراء، والتردّي المناخيّ المتواصل، يقتضي، في الحال، توجيهًا

جديدًا للبرنامج المسكونيّ»، وقال: «لقد حان الوقت كي نطوي صفحة الصراعات السابقة، ونركّز جميع طاقاتنا على مقاربةٍ مشتركةٍ بقضايا الحياة والبقاء، اليوم، وغدًا، على ضوء إنجيل المسيح».

كم نأت هذه النظرة عن الغاية التي كان مجلس الكنائس المسكونيّ قد تأسّس من أجلها في «إيدنبورغ»، بهدف إعادة توحيد المسيحيّة على أساس عقيدةٍ وممارسةٍ يتمّ التوافق عليهما! ولكأنّ مكافحة حرارة المناخ، وإعادة توزيع موارد الأرض – على خطورة شأنهما – أولى وأكثر إلحاحًا من تحقيق رغبة المسيح في وحدة الكنيسة، واشتراك جميع المسيحيّين في ذبيحةٍ واحدةٍ!

وبعد مضيّ شهرٍ على صدور تلك الرسالة، قام البطريرك برتلماوس الأوّل بزيارته التقليديّة إلى روما، للاشتراك بعيد القدّيسين بطرس وبولس، وشارك بالقدّاس المقام في بازيليك القدّيس بطرس، واقفًا إلى جانب يوحنّا بولس الثاني أمام الهيكل. ورُتّل الإنجيل باللغتين اليونانيّة واللاتينيّة، وألقى كلٌ منهما عظةً، فدارت عظة البابا حول اليوبيل الكبير، يوبيل الألفيّة الثالثة. وكان قد جاء في إنجيل لوقا الذي تُلي: «أرسلهم الربّ، اثنين اثنين، إلى كلّ مدينةٍ، وكلّ موضع...». وتساءل الحبر الأعظم: ألا يعني ذلك أنّ المسيح يرسلنا، أيضًا، اثنين اثنين، مبشّرين بالإنجيل في الشرق والغرب؟ وأضاف: «**لا يسعنا أن نبقى منفصلين!**». فالمسيح يريدنا موحّدين، وتبشير الألفيّة الجديدة يقتضي ذلك.

ولكن بدا أنّ البطريرك برتلماوس لم يكن، بعدُ، مستعدًّا لجعل الألفيّة الثالثة موعدًا لتحقيق الوحدة. واقتصر البيان المشترك بين البابا والبطريرك، الذي وُقّع في ذلك المساء، على تأكيد أنّ «شهادة الإيمان المشترك، مرحّبٌ بها ترحيبًا خاصًّا عشيّة الألفيّة الثالثة».

بيد أنّ يوحنّا بولس الثاني لم يتوانَ عن مواصلة المبادرات المسكونيّة. فقد أوكل وضع تأمّلات درب الصليب، الذي يُحتفَل به يوم الجمعة العظيمة، كلّ سنةٍ، إلى شخصيّةٍ من كنيسةٍ مختلفةٍ. فعام ١٩٩٤، وضع تلك التأمّلات البطريرك المسكونيّ، وتأمّلات عام ١٩٩٥ وضعتها رئيسة دير راهبات

«غرانشان»، التابعة لجماعةٍ كلڤينيّةٍ. ووضع تأمّلات عام ١٩٩٧، كاثوليكوس الأرمن «كيريكين الأوّل». وأخيرًا، وضع تأمّلات عام ١٩٩٨ اللاهوتيّ الأرثوذكسيّ الفرنسيّ، «أوليڤييه كليمان» (Olivier Clément).

وفي مناسباتٍ عديدةٍ دأب قداسته على تبديد ضغائن دهريّةٍ، موروثةٍ من الحروب الطائفيّة.

مؤتمر حقوق المرأة في پكّين

تباينت مفاهيم تحرير المرأة بين موقف الكنيسة، التي ابتغت من هذا التحرير إزالة العقبات التي تحول، في شتّى بقاع العالم، دون الاعتراف بكرامة النساء، واحترامهنّ، ومواقف سياسيّين ومنظّرين اجتماعيّين، حصروا هذا التحرير بالحرّيّة الجنسيّة المطلقة، وحرّيّة قتل الأجنّة بلا قيدٍ.

وبما أنّ مؤتمرًا حول حقوق المرأة، كان مقرّرًا عقده في پكّين بتاريخ ١٩٩٥/٩/٤، شرع يوحنّا بولس الثاني يُعدّ له، منذ شهر شباط من تلك السنة، من خلال خمسة عشر خطابًا تناول، فيها، مختلف حقوق المرأة.

وفي ١٩٩٥/٥/٢٦، التقى أمينة سرّ المؤتمر العتيد، التنزانيّة الأصل «جيرترود مونجيلاّ» (Gertrude Mongella)، وبلّغها رغبته في أن يوفّر المؤتمر حلولاً حقيقيّةً «لآلام العديد من النساء وكفاحهنّ وخيباتهنّ»، وبما يتوافق مع شريعة حقوق الإنسان. ودافع بحزمٍ عن التزامهنّ النشيط في كلّ ميادين الحياة العامّة، كما أنّه ندّد بالثورة الجنسيّة التي أثقلت كاهل النساء، بتشجيعها إفلات الرجال من المسؤوليّة. وتطرّق، على نحوٍ خاصٍّ، إلى قضيّة الإجهاض، رافضًا أن يكون وسيلةً للحدّ من التكاثر السكّانيّ، مؤكّدًا تعذّر قيام عدلٍ قائمٍ على المساواة، وازدهارٍ وسلامٍ، للنساء والرجال، بلا حرصٍ على احترام كلّ حياةٍ بشريّةٍ، وحمايتها، ومحبّتها، وخدمتها، في كلّ مراحلها، وكلّ أوضاعها.

وقد بلغ تأثر السيّدة «مونجيلاّ» بآراء الحبر الأعظم، بحيث صرّحت: «لو فكّر الجميع مثله، لانتفت الحاجة إلى مؤتمراتٍ تبحث في حقوق المرأة».

ويوم **٢٩** حزيران، وجّه البابا «رسالةً إلى النساء»، من كلّ ثقافةٍ، ودينٍ، ووضعٍ اقتصاديٍّ أو سياسيٍّ، معترفًا بالإرث التاريخيّ الذي أفضى إلى الحؤول دون تطوّر وضع النساء، اللائي «**طالما أُهينت كرامتهنّ، واستهين بامتيازاتهنّ، ودُفعنَ إلى هامش المجتمع، لا بل إلى العبوديّة، ما أدّى إلى هزال البشريّة الروحيّ**».

ودافع عن الأمومة بقوله: «من المحقّق أنّه لا يزال الكثير ممّا ينبغي عمله، في سبيل منع التمييز اللاحق بالنساء اللواتي اخترنَ أن يكنّ زوجاتٍ أو أُمّهاتٍ». ودافع، أيضًا، عن مساواة النساء بالرجال في التعلّم، والعمل، والراتب، والحقّ في التقدّم المهنيّ، ومساواة الزوجين في الحقوق الأسرويّة، كي يتاح للنساء إبراز عبقريّتهنّ.

وتأكيدًا لحرصه على مكانة المرأة ودورها في المجتمع، قرّر أن يضمّ وفد الكرسيّ الرسوليّ إلى مؤتمر پكّين، المؤلَّف من اثنين وعشرين عضوًا، أربع عشرة امرأةً، وأن ترأسه السيّدة «ميري آنّ غليندون» (Mary Ann Glendon)، وهي أُستاذة حقوقٍ فخريّةٌ في جامعة هارڤارد، ومختصّةٌ بحقوق الأسرة، وحقوق الإنسان الدوليّة. وضمّ الوفد، أيضًا، الدكتورة «جانّ هالاند ماتلاري» (Janne Hoaland Matlary)، وهي وجهٌ علميٌّ وسياسيٌّ نورڤيجيٌّ مرموقٌ، والسيّدة «كاثرين هوا هومكمپ» (Kathryn Hawa Hoomkamp)، وزيرة الصحّة النيجيريّة، سابقًا، التي كانت قد سُجنت تسعة أشهرٍ، عقب انقلابٍ عسكريٍّ.

وطلب مسؤول علاقات الڤاتيكان بالدول من الوفد، أن يكون «صدى المهمّشين، وصوت من لا صوت لهم». ولم تستطع رئيسة الوفد الإغضاء عن الثغرات الخطيرة، التي انطوى عليها مشروع المؤتمر، الذي تطرّق لمواضيع هامّةٍ، مثل المساواة في الفرص، والتعليم، والنموّ الاقتصادي، ولكنّه بدا، في أماكن أُخرى كثيرةٍ، غير واقعيٍّ، متناسيًا أنّ معظم النساء يتزوّجنَ، وينجبنَ، ويسعينَ إلى تأمين حياة أُسَرهنّ، وفي الآن عينه، يشاركنَ، على أوسع نطاقٍ، في الحياة العامّة. وأولى المشروع أهمّيّةً كبرى للنجاح المهنيّ، على حساب المسؤوليّات الأُسرويّة.

وأعرب الناطق الرسميّ باسم الڤاتيكان عن قلقه، لأنّ الدول المشتركة في المؤتمر، والكفيلة بتبنّي نظرة الكرسيّ الرسوليّ، لا يتجاوز عددها الثلاثة، وردّ الحبر الأعظم: «**أوّلاً، علينا جميعًا أن نُمعن في الصلاة**». ثمّ التفت إلى الناطق الرسميّ ناصحًا: «**حين ستجد نفسك في مأزقٍ، توجّه إلى الشعب**». وقد أثبتت هذه النصيحة جدواها.

وقد أشارت رئيسة وفد الڤاتيكان، في خطابها الافتتاحيّ، إلى أنّ المشروع المقترح يغفل كلّ ذكرٍ للزواج والأُمومة والأسرة، إلاّ بصفتها عوائق دون ازدهار النساء. وفيما يولي المشروع حيّزًا واسعًا للعلاقات الجنسيّة، يُغفل المشاكل الصحّيّة التي تعانيها شرائح عريضةٌ جدًّا من نساء العالم مثل: سوء التغذية، والافتقار إلى وسائل النظافة، والأمراض الاستوائيّة، وأمراض الأطفال ووفيّاتهم، والافتقار إلى العناصر الصحّيّة الأساسيّة.

وأكّدت الأُستاذة «غليندون» أنّ المساواة الفعليّة ستبقى وهمًا، إن لم يُعترف بدور المرأة الأُموميّ، وإن لم يُدعم هذا الدور. ولن يحظى النساء والرجال والبشريّة بأيّ تقدّمٍ، أو تحسّنٍ في أوضاعهم، على حساب الأولاد، والضعفاء اقتصاديًّا.

هذه الأقوال، مع اعتدالها، أثارت أمواجًا عاتيةً من الاحتجاج، فمُنِعت رئاسة المؤتمر الوفد الڤاتيكانيّ من المداخلة في الجلسات اللاحقة. وصمتت وفود العالم الثالث، خشية حرمانها من مساعدات الدول الكبرى.

وتفاقمت الأمور سوءًا، في يوم المؤتمر الخامس، عندما حاول ائتلافٌ ضعيفٌ ضمّ الاتّحاد الأوروبّيّ وكندا، وعددًا ضئيلاً من الدول الأُخرى، الضغط لكي يطرح على بساط البحث برنامج الحقوق الجنسيّة وحقّ الإجهاض، الذي كان قد رُفض في مؤتمر القاهرة. وعندما طلبت بعض الوفود الكلام للاعتراض على هذا البرنامج، تجاهلتهم رئاسة المؤتمر، ومنعتهم من الكلام.

وجهد الائتلاف المذكور، بقيادة الاتّحاد الأوروبّيّ، في الإطاحة ببند شرعة حقوق الإنسان الذي يعترف للأمومة والطفولة بالحقّ في مساعدةٍ خاصّةٍ،

ومقاومة كلّ إشارةٍ إلى الدين والأخلاق، ورفض كلّ اعترافٍ بحقوق الوالدين، وبمسؤوليّتهم التربويّة، بحجّة أنّ كرامة الإنسان المنصوص عليها في شرعة حقوق الإنسان، تناقض مطلب المساواة.

واتّضح أنّ الذين كانوا قد أخفقوا في إقرار مطالب لاأخلاقيّةٍ، في مؤتمر القاهرة، كانوا يحاولون إقرار هذه المطالب في مؤتمر پكّين. وحان وقت العمل بنصيحة الحبر الأعظم، والتوجّه إلى الشعب. ويوم الثامن من أيلول، أصدرت رئيسة وفد الكرسيّ الرسوليّ، والناطقة الرسميّة باسم الڤاتيكان، بيانًا أوضح أخطاء البرنامج المقدّم من الائتلاف ومخاطره، وانتهاكه لحقوق الإنسان، وأنفذت نسخًا من هذا البيان إلى كبريات الصحف العالميّة، التي عمّمته يومي الأحد والإثنين. فهبّ نوّاب بلدانٍ عديدةٍ، واستجوبوا، بهذا الشأن، حكوماتهم، التي اضطرّت إلى مراقبة ما يجري في پكّين، عن كثبٍ، وأوعزت إلى مندوبيها بالاعتراض على نقاطٍ عديدةٍ في برنامج الائتلاف. وصدق حدْس يوحنّا بولس الثاني، إذ أثبت الشعب أنّه أكثر وعيًا من واضعي برنامج مؤتمر پكّين.

وبالتالي احتدم الخلاف حول مقرّرات المؤتمر النهائيّة. واستوضح وفد الڤاتيكان الحبر الأعظم، الذي أُطلع على مواطن الخلاف، فأوعز: «**أيّدوا ما يمكن قبوله، وافضحوا، بحزمٍ، ما لا تستطيعون الدفاع عنه**». وعليه رحّبت رئيسة الوفد الڤاتيكانيّ بالقرارات المتعلّقة باحتياجات الأكثر فقرًا، وبالحاجة إلى محو الأمّيّة، ورفع مستوى التعليم، والقضاء على العنف الممارس على النساء، وضرورة امتلاك النساء الرأسمال والأرض، والتقنية، والعمل. ولكنّها شنّت هجومًا عنيفًا على «المغالاة في الفرديّة» التي تظهر في المقرّرات، والتي تعيق العمل بشرعة حقوق الإنسان. وانتهت إلى القول: «لقد كان بوسع هذا الاجتماع الدوليّ أن يخدم النساء والفتيات، على نحوٍ أفضل من تركهنّ يتدبّرن حقوقهنّ بمفردهنّ».

عودةٌ إلى أفريقيا

فيما كان محلّلون سياسيّون بارزون يدعون إلى رذل القارّة الأفريقيّة، ومؤرّخون

بريطانيّون يحرّضون على إخضاعها، من جديدٍ، لنير الاستعمار، قرّر يوحنّا بولس الثاني إدخال الأفريقيّين إلى حضن الكنيسة، وإشراكهم في شؤون العالم. فدعا إلى سينودسٍ خاصٍّ بأفريقيا، عُقد في روما، بين العاشر من نيسان والثامن من أيّار ١٩٩٤. وكان حرصه على عقده في روما يستهدف تغيير نظرة أعضاء الإدارة الڤاتيكانيّة إلى الأفريقيّين، بجلوسهم، طيلة شهرٍ كاملٍ، جنبًا إلى جنبٍ، مع نحو مئتي أسقفٍ أفريقيٍّ. وبرز إجماعٌ على أن يتمّ على أراضٍ أفريقيّةٍ، توقيع الإرشاد الرسوليّ الذي سيسفر عنه هذا السينودس.

وفي ١٩٩٥/٩/١٤، يمّم يوحنّا بولس الثاني شطر القارّة السوداء، في رحلته الرسوليّة السابعة والستّين خارج إيطاليا، التي امتدّت أسبوعًا، بدءًا من «ياوندي»، عاصمة الكاميرون، حيث وقّع الإرشاد الرسوليّ، «الكنيسة في أفريقيا». وكانت تلك المرّة الأولى، في تاريخ المسيحيّة، التي تُوقّع فيها وثيقةٌ كنسيّةٌ خطيرةٌ، في أفريقيا. بعدئذٍ، زار جوهنسبورغ، عاصمة أفريقيا الجنوبيّة، حيث التقى الزعيم نيلسون مانديلاّ، ونيروبي عاصمة كينيا.

وقد ابتغى الحبر الأعظم من وضع إرشاده «الكنيسة في أفريقيا»، إضفاء طابعٍ أفريقيٍّ على التعاليم المسيحيّة، في احترامٍ وفهمٍ للعقليّة الأفريقيّة، ولتقاليدها العريقة، وبحرصٍ على عدم الحياد عن تعاليم الكنيسة الجوهريّة، واقتباس كلّ ما هو جيّدٌ في الثقافة الأفريقيّة، ولا يتعارض مع المسيحيّة.

وقد شجّع ذلك الإرشاد إطلاق الحوار بين الأساقفة والشعوب الأفريقيّة، التي ما فتئت تواجه الأزمات والمآسي. ففي عام ١٩٩٧، قُتِل ستّون مرسلاً، واتُّهم كهنةٌ بالمشاركة بمجازر رواندا. غير أنّ ذلك لم يدفع يوحنّا بولس الثاني إلى الاستسلام، وإلى ترك أفريقيا فريسة التهميش والقنوط، وكأنّهما قدرٌ محتومٌ.

وفي هذا السبيل عاد إلى أفريقيا عام ١٩٩٨. وفي نيجيريا ندّد، بحزمٍ، بانتهاكات حقوق الإنسان، وبدكتاتوريّة الحكم العسكريّ وفساده. وطوّب المرشّح الأفريقيّ الأوّل للقداسة في نيجيريا، الأب «سيپريان تانسي» (Cyprian Tansi)، المتوفّى عام ١٩٦٤. وقد حضر احتفال تطويبه أكثر من مليون شخصٍ، تحت شمسٍ

من هجيرٍ. وقد استُخدمت في الاحتفال، إلى جانب اللغة الإنكليزيّة، لهجاتٌ أفريقيّةٌ عديدةٌ. وأكّد الحبر الأعظم في عظته «**أنّ المسيح جزءٌ من الشعب النيجيريّ والأُمّة الأفريقيّة**». وأهاب بالنيجيريّين أن يهبّوا لبناء مجتمعٍ أفضل من ذاك الذي يعيشون في أحضانه، مؤكّدًا أنّ مفتاح حلّ الخلافات الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة والإيديولوجيّة، هو العدالة. والعدالة تظلّ ناقصةً ما لم تقترن بمحبّة القريب. ودعا إلى المصالحة، موضحًا أنّها ليست ضعفًا ولا جبنًا، بل هي تقتضي الجرأة، والبطولة أحيانًا، لأنّها «**انتصارٌ على الذات، وليست انتصارًا على الآخرين، ولا يجوز أبدًا اعتبارها عارًا**».

ولا جرمَ أنّه كان لزيارات يوحنّا بولس الثاني لأفريقيا، وقعٌ بعيدٌ. فقد شدّد حضورُه إيمان ملايين المسيحيّين الجدُد، الذين تولاّهم الشعور بأنّهم إخوةٌ وأخواتٌ في حضن بيتٍ واحدٍ. وفي الآن عينه، ذكّر العالم أنّ أفريقيا والأفريقيّين هم فاعلون كاملون في المأساة البشريّة. وكان رئيس أساقفة نيجيريا قد صرّح: «لقد جاءتنا زيارة البابا إشارةً خلاصيّةً، في أفقٍ تتراكم فيه الأحداث المريعة».

«شاهدٌ على الرجاء». رحلةٌ إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة.

في مطلع شهر تشرين الأوّل، طوّب يوحنّا بولس الثاني **٦٤** شهيدًا من شهداء الثورة الفرنسيّة، و**٤٥** شهيدًا من شهداء الحرب الأهليّة الإسبانيّة.

وفي الرابع من ذلك الشهر، وصل إلى الولايات المتّحدة، في زيارةٍ راعويّةٍ، ومن أجل إلقاء خطابٍ في مقرّ الأمم المتّحدة.

عام **١٩٧٩**، كان قد ألقى خطابًا في الهيئة العامّة للأُمم المتّحدة؛ وكان، حينئذٍ، في قمّة مناعته الجسديّة، يشعّ حيويّةً وقوّةً. وها هو، الآن، بعد ستّة عشر عامًا، وقد أوهنته محاولة اغتياله، وما عقبها من أمراضٍ، فأضحى هشًّا، منحنيًا، بطيء الحركة، ويده اليسرى ترتجف، يعتلي منصّةَ الأُمم المتّحدة، ويخاطب المندوبين، بمناسبة الذكرى الخمسينيّة لتأسيس تلك المنظّمة العالميّة. وكانت نظرة الجماهير إليه قد تبدّلت من نظرة فضولٍ إلى بابا جديدٍ، إلى نظرة

تجلّةٍ لشخصيّةٍ بارزةٍ من شخصيّات القرن العشرين، الذي دمغه البابا بطابعه، وغيّر مساره. وكان الحضور توّاقًا إلى سماع تقييمه للقرن المنصرم، وتطلّعاته إلى القرن القادم، بل إلى الألفيّة الجديدة. وفي ما يلي موجزٌ لنقاط خطابه الرئيسة.

نظرته إلى شموليّة حقوق الإنسان لم تتغيّر، ولكنّه كان أكثر استقراءً لعواقب التبدّلات الجوهريّة التي حدثت في السنوات الأخيرة، وأثرها على مستقبل الأسرة البشريّة. فالسعي الدؤوب نحو الحرّيّة – وهو محرّك التاريخ البشريّ – كان قد حمل شعوبًا كثيرةً، من ثقافاتٍ مختلفةٍ، وفي ظروفٍ متعدّدةٍ، على اقتحام مخاطرة الحرّيّة. وقد أثبت ذلك وجودَ طبيعةٍ بشريّةٍ، وشريعةٍ أخلاقيّةٍ شاملتين، وجدارةَ «المنطق الأخلاقيّ»، الراسخ الجذور في الطبيعة البشريّة، بأن يكون أساسًا لحوارٍ صادقٍ بين الأفراد والشعوب. وهذا الحوار لا معدى عنه، إن توخّى العالم أن يعقب عصرَ القمع، عصرُ الإقناع. فالشريعة الأخلاقيّة المدوّنة في القلب البشريّ، هي القاعدة التي يتعيّن الالتزام بها، في زمنٍ يُقدم فيه العالم على بحث مستقبله.

وأوضح الحبر الأعظم أنّ للبشر طبيعةً مشتركةً، ولكن لكلّ أمّةٍ ثقافتها الخاصّة. وقد يكون هذا المزيج من شموليّةٍ وتنوّعٍ، مصدر توتّرٍ، كما يمكن أن يكون مصدر اغتناءٍ متبادلٍ، إن هو قورب بهدوءٍ واتّزانٍ. لكلّ أمّةٍ ثقافةٌ وتاريخٌ خاصّان. وكلّ أمّةٍ تستحقّ الاحترام والحماية. وقد أثبت التاريخ، في أوضاعٍ قصوى، أنّ الثقافة الراسخة تتغلّب على الاحتلال، وعلى اغتصاب الاستقلال السياسيّ والاقتصاديّ (كما حدث في بولونيا، موطن البابا). فللثقافة طابعٌ روحيٌّ، وقد أثبت الزمن أنّ الروح هو القوّة الأشدّ تأثيرًا على قضايا العالم.

وقد لقّن التاريخ الحديث واجب تعلّم عيش التنوّع. بيد أنّ التنوّع يُنظَر إليه، في أماكن عديدةٍ، على أنّه تهديدٌ، ويجهد قومٌ فاقدو الضمير في تضخيم هذا التهديد، موقظين الضغائن التاريخيّة، ونافخين في نارها، إلى أن ينكر البعض على الآخرين إنسانيّتهم، ويدّعون واجب إزالتهم وإلغائهم، ما يفضي إلى دورات عنفٍ لا ترحم أحدًا، كما حدث في البوسنة، ورووآندا، وبوروندي. ومن ثمّ فعلى العالم أن يدرك أنّ التنوّع هو مصدر غنًى، فما الثقافات المختلفة

سوى طرقٍ متعدّدةٍ لمقاربة معنى الوجود الإنسانيّ. وفي صميم كلّ ثقافةٍ، ثمّة مقاربةٌ خاصّةٌ لأعظم الأسرار: سرّ الله.

وبالتالي، فإنّ الحرّيّة الدينيّة، وحرّيّة الضمير هما «حجر زاوية بناء حقوق الإنسان، وأساس كلّ مجتمعٍ حرٍّ حقًّا»، وغايتهما هي الحياة في الحرّيّة. والحقيقة هي ضمانة الحرّيّة الكبرى.

ثمّ تطرّق يوحنّا بولس الثاني إلى آفة الخوف. ففي مستهلّ القرن العشرين، كانت البشريّة واثقةً في المستقبل، وفي بلوغ سنّ الرشد، ولكنّها تردّت إلى عالمٍ يسوده الخوف: خوف البشر بعضهم من بعضٍ، وخوفهم من قدراتهم، وممّا باتوا يستطيعون ابتكاره، وخوفٌ على الغد. ومن ثمّ، عليهم، عند مشارف الألفيّة الجديدة، تعلّم نبذ الخوف، وبعث الرجاء والثقة، لتوفير مناخٍ ملائمٍ لازدهار الروح البشريّ ازدهارًا جديدًا، نابعًا من ثقافة الحرّيّة الحقيقيّة.

وسارع الحبر الأعظم إلى إيضاح أنّ رؤيته هذه ليست مجرّد تفاؤلٍ، بل هي رجاءٌ يتغذّى في «المحراب الداخليّ»، في الضمير حيث يقيم الإنسان وحيدًا مع الله، ويتبيّن، حينئذٍ، أنّه ليس وحيدًا، ولا هو تائهٌ في يمّ ألغاز الوجود. التفاؤل هو قضيّةٌ بسيكولوجيّةٌ، أمّا الرجاء فهو فضيلةٌ لاهوتيّةٌ ينفحها الإيمان. وفي سبيل التغلّب على الخوف «في نهاية قرن الآلام هذا»، على السياسيّين والدبلوماسيّين أن يكتشفوا، من جديدٍ، أُفق فائق الطبيعة، الذي تصبو إليه النفس البشريّة.

وأوضح قداسته أنّ الرجاء يحتاج إلى أسسٍ متينةٍ يقوم عليها. وأساس رجاء المسيحيّين هو يسوع المسيح، الذي أظهر، بموته وقيامته، حبّ الله للخليقة، وحدبه عليها. وبما أنّ الله، أصبح، بيسوع المسيح، جزءًا من تاريخ البشريّة، فالرجاء المسيحيّ في العالم وفي تاريخه، يشمل كلّ شخصٍ بشريٍّ. ولذلك لا يقود الإيمان المسيحيّ إلى التعصّب والاستئثار، بل إلى حوارٍ يحترم الديانات الأُخرى، وإلى شعورٍ بالمسؤوليّة عن البشريّة جمعاء.

ومن ثمّ فقد جاء يوحنّا بولس الثاني إلى الأُمم المتّحدة، لا بصفة لاعبٍ في ساحة سياسات الأُمم، بل بصفة «شاهدٍ على الرجاء». وقال ملخّصًا:

«ينبغي ألاّ نخاف من المستقبل، وألاّ نخاف من الإنسان. فنحن لم نلتئم هنا صدفةً. فكلّ إنسانٍ قد خُلقَ على صورة ومثال الواحد الأوحد، الذي هو مصدر كلّ شيء. ونحن نمتلك قدرات الحكمة والفضيلة. وبهذه المواهب، وبنعمة الله، نستطيع أن نبني، في القرن القادم، وفي الألفيّة القادمة، حضارةً جديرةً بالشخص البشريّ، وثقافة حرّيّةٍ حقّة. نستطيع ويتوجّب علينا أن نفعل ذلك. وهكذا سنرى أنّ دموع هذا القرن قد شقّت الطريق إلى ربيع رجاءٍ بشريٍّ جديدٍ».

وكان البابا، عشيّة إلقاء خطابه في مقرّ الأُمم المتّحدة، قد احتفل بصلاة الغروب في كاتدرائيّة نيوارك. وكان مساعدو الرئيس كلينتون، الذين استقبلوه في المطار، قد اقترحوا أن يدخل البابا إلى الكاتدرائيّة إلى جانب الرئيس، ولكن قيل لهم، بأدبٍ، أنّ البابا يفضّل أن يدخل، مثلما يدخل كلّ كنائس العالم، وحده، كي يرحّب بالمؤمنين، بصفته رئيسًا دينيًّا. فجلس الرئيس كلينتون وزوجته في الصفّ الأماميّ. وفي أعقاب القدّاس شقّا حشد الجموع، كما لو كانا يشنّان حملةً انتخابيّةً، فيما خرج البابا، خلسةً، من بابٍ جانبيٍّ، قاصدًا مقرّ رئيس الأساقفة.

وبعد إلقائه خطابه في الأُمم المتّحدة، كان سبعون ألف مؤمنٍ ينتظرونه في ملعب المدينة، من أجل المشاركة في قدّاسٍ مسائيٍّ. وكان كثيرون منهم قد انتظروا هذه المناسبة مدى سبع ساعاتٍ، تحت مطرٍ مدرار. وتناولت عظته الإرث الكاثوليكيّ الأميركيّ المتعدّد الجنسيّات، وتناولت، أيضًا، واجب التضامن الاجتماعيّ. وأشار إلى روح الضيافة الذي يمثّله تمثال الحرّيّة، الذي ينبغي أن يمثّل مجتمعًا مضيافًا، وثقافةً مضيافةً، يرحّبان بالطفل القادم إلى الحياة، ويحميانه، ويحميان الحياة البشريّة، وكلّ مهاجرٍ، وفقيرٍ، ومسنٍّ، ومعاقٍ، وجميع الذين ذاد عن حياضهم في خطابه على منبر الأُمم المتّحدة.

ويوم الجمعة، ١٩٩٥/١٠/٦، احتفل بالذبيحة الإلهيّة في ملعب سباق خيولٍ، حضره مؤمنو منطقة بروكلين. ويوم السبت التالي، أقام قدّاسًا صباحيًّا في «سنترال پارك»، في جوٍّ تميّز بالدفء والاندفاع. وقد أثارت مقاطع من خطابه رعودًا من التصفيق المدوّي، ولا سيّما بعد أن ذكّر بشغفه بعيد الميلاد في طفولته، وأنشد نشيدًا للميلاد باللغة الپولونيّة، صفّق لها الجمهور طويلاً، فعلّق،

بعد هدوء التصفيق: «يبدو أنّكم تفهمون، أيضًا، اللغة الپولونيّة». فاشتعل التصفيق من جديدٍ.

ثمّ زار الإكليريكيّة الأبرشيّة، واشترك في الصلاة مع المعلّمين والطلاّب. وفي المساء، تلا صلاة الورديّة، في كاتدرائيّة القدّيس پاتريك، وبارك مقرّ ممثّلي الڤاتيكان الجديد في الأُمم المتّحدة.

يوم الأحد ١٠/٨، طار إلى مدينة بلتيمور، حيث نشأت الرعيّة الكاثوليكيّة الأُولى بعد استقلال الولايات المتّحدة، ودعا، في عظته، الأميركيّين إلى قراءة علامات الأزمنة، من أجل الشهادة للمسيح، حسب ما تقتضي الظروف. وناشد الأميركيّين أن يتذكّروا، دائمًا، أنّ الحرّيّة ليست أن يعمل المرء ما يروق له، بل أن يتمتّع بحرّيّة القيام بواجبه.

بالإجمال، كانت زيارة البابا تلك إلى الولايات المتّحدة، أنجح زياراته قاطبةً. فقد شرع الرأي العامّ الأميركيّ ينزع إلى الإيمان بصواب نظرة الحبر الأعظم، من جرّاء الفراغ الوجوديّ الذي أودت إليه الفلسفات المادّيّة والعَدَميّة. وقد أقرّت إحدى كبريات الصحف الأميركيّة، أنّ خطاب البابا في الأُمم المتّحدة جعل من كرامة الإنسان الأصيلة، محور وجود الأُسَر، والجماعات، والأُمم. واعترفت صحيفةٌ أُخرى أنّ كلامه كان مشجّعًا ومنعشًا، في حقبةٍ يستحوذ عليها مفهومٌ للحياة قاتمٌ وقَدَريٌّ، وأنّ البشريّة باتت في حاجةٍ إلى من يشدّد عزيمتها. وقد أوجز البابا نفسه موقفه بقوله: «**أنا شاهدٌ على الكرامة الإنسانيّة**».

لم يخاطب يوحنّا بولس الثاني الأميركيّين بلغةٍ غريبةٍ، بل كانت كلّ أفكاره مستندةً على المبادئ التي أُسّست عليها الولايات المتّحدة، وعلى خبرة تاريخها، فكان لها وقعٌ أكيدٌ، عميق الأثر.

مواقع ساخنةٌ

لم يكن أيّ وضعٍ مستعصٍ أو متفجّرٍ، في أيّ مكانٍ من العالم، ينال من عزيمته، أو يحمله على التزام الصمت. فمنذ عودته من الولايات المتّحدة، حيّا

كنيسة أوكرانيا اليونانيّة الكاثوليكيّة، كنيسة الشهداء والأبطال، في الآن عينه، حرّضها على عقد حوارٍ مع الكنيسة الروسيّة الأرثوذكسيّة.

وكان لبنان يتبوّأ مكانةً مميّزةً من اهتمامه، ويحتلّ من قلبه حيّزًا أثيرًا. وإن كان العالم غير مبالٍ بمعاناة هذا البلد، لم يكن بوسع الكنيسة أن تظلّ صامتةً حيالها. فدعا يوحنّا بولس الثاني إلى سينودسٍ خاصٍّ بلبنان بين **١١/٢٦ و١٩٩٥/١٢/١٤**. وفي قدّاس السينودس الختاميّ، ألقى البابا عظةً أشار فيها إلى أنّ يسوع أعلن التطويبات في صور وصيدون اللبنانيّتين، وشدّد على عبارة «طوبى لكم إذا أبغضكم الناس، وانتبذوكم، وشتموا اسمكم، ورذلوه رذل العار، من أجل ابن البشر. فافرحوا، في ذلك اليوم، وتهلّلوا، لأنّ أجركم في السماء عظيمٌ...» وأنهى خطابه بنصحه: «**ضعوا المحبّة فوق كلّ شيء**».

وكان قد وجّه خمسة عشر نداءً إلى السلام في البوسنة، ولفت الأنظار إلى المجازر المرتكبة في رواندا وبوروندي، وذكّر بمآسي سيرّاليون والسودان. وبعد بضعة أشهرٍ، أوفد الكردينال «إتشيغاراي» (Etchégaray) إلى أندونيسيا، في محاولةٍ لوضع حدٍّ لاضطرابات التيمور الشرقيّة. وفي الأوّل من شباط **١٩٩٦**، استقبل رئيس جمهورية المكسيك. وكانت تلك الزيارة الرسميّة الأولى، التي يقوم بها رئيسٌ مكسيكيٌّ للكرسيّ الرسوليّ.

ولم يُغفل الحبر الأعظم بقعةً أُخرى مضطربةً ومهملةً من العالم، هي أميركا الوسطى. فعاد إليها في شباط **١٩٩٦**، في رحلةٍ رسوليّةٍ دامت ثمانية أيّامٍ، قادته من غواتيمالا إلى نيكاراغوا، فالسلڤادور، وانتهت بزيارةٍ خاطفةٍ إلى ڤنزويلاّ. وسبق لنا أن ذكرنا كم اتّسمت زيارته السابقة إلى نيكاراغوا، لثلاث عشرة سنةً خلت، بصدامه مع الساندينيّين وزعيمهم «دانييل أورتيغا». ولكنّه، في هذه الزيارة، فوجئ بلوحةٍ جسيمةٍ تحمل توقيع «أورتيغا» نفسه، مرحّبةٍ بقدوم الحبر الأعظم. فقد توسّم الزعيم الساندينيّ، في هذه المبادرة، وسيلةً لاكتساب محبّة شعبه. واستوضح صحافيّون رأي الحبر الأعظم عن الفرق بين الزيارتين، فأجاب: «**عام ١٩٨٣، كان القدوم إلى نيكاراغوا يبدو قفزةً خطرةً، ونجونا منها آنذاك. والآن الرئيس «أورتيغا» نفسه يصرّح أن لا مشاكل بيننا. وربّما نسي أنّه لم**

يكن من اليسير لنا التقاء الشعب، في الزيارة السابقة. وها قد جرى تغييرٌ كلّيٌّ».

وقد وفّرت هذه الزيارة دفعًا لمساعي تطويب الأُسقف «أوسكار روميرو» الذي كان قد اغتيل على هيكل الكنيسة.

كيف حال صحّة البابا؟

كان كثيرون من الكاثوليكيّين وغير الكاثوليكيّين، يعترضون كردينال نيويورك في الطريق، ويستوضحونه عن صحّة البابا. وكان لهذا الإصرار على الاستيضاح ما يبرّره. فإثر عودة الحبر الأعظم من الولايات المتّحدة، لحظ المقرّبون منه، أنّه، مع بقاء ذهنه أكثر اتّقادًا وصفاءً من أيّ وقتٍ مضى، غدا التعب ينال منه قُبَيْل حلول المساء، ويدفعه إلى النوم باكرًا، أحيانًا. وأخذت تبدو عليه آثار عواقب العمليّة الجراحيّة التي أُجريت على وركه، في شهر نيسان **١٩٩٤**، مسبّبةً له الآلام، وجاعلةً من كلّ حركةٍ يقوم بها مصدر وجعٍ. لقد انخرط في الحلقة المفرغة التي يقاسيها الكثيرون: الحركة توجعه فيتفاداها، ما استطاع، وقلّة الحركة تنتج السمنة التي تضاعف إعاقة الحركة. وفضلاً عن ذلك، اكتُشِف لديه مرضٌ يشبه داء پاركنسون، يسبّب ارتجافًا في يده اليُسرى.

ولم يكن من السهل أن يستسلم رجلٌ كان، دائمًا، منيعًا، شديدًا، يضجّ حيويّةً، لتراخي قواه. ولم يكن ارتجاف يده مصدر إزعاج فحسب، بل كان يولّد ضيقًا حقيقيًّا لشخصيّةٍ عامّةٍ، تتّصف بالخَفَر والحياء. ولكنّه كان راسخ الإيمان بأنّ حياته بيد كائنٍ علويٍّ، فحرص على مواصلة وتيرة عمله، غير أنّه اضطرّ إلى بعض التنازلات.

ومع ذلك، لم يفقد ذرّةً من روح الفكاهة الذي كان يميّزه. هذا ما أكّده الناطق الصحافيّ باسم الكرسيّ الرسوليّ، وهو، في الآن عينه، طبيبٌ نفسيٌّ، الذي اكتشف في شخصيّة يوحنّا بولس الثاني، مزيجًا من فيلسوفٍ عقلانيٍّ ينزع إلى التجريد، وشاعرٍ جريءٍ ينبض تأثّرًا وشعورًا. وقد انصهر فيه الطبعان، وتوازنا، فلم يطغَ أحدهما على الآخر. وتلك ميزةٌ نادرةٌ ولا سيّما لدى شخصيّةٍ في مثل غنى شخصيّة يوحنّا بولس الثاني وكثافتها.

وعلى نقيض ما جرى في أعقاب محاولة اغتياله، عندما استدعى الكردينال كازارولّي مجموعةً من مشاهير الأطبّاء الذين كانوا يُصدرون، بانتظامٍ، بياناتٍ صحّيّةً شفّافةً، آثر قداسته إحاطة وضعه الصحّيّ، حينذاك، بالكتمان، ما شجّع تكهّنات الصحف بهذا الشأن.

إرشادٌ رسوليٌّ: «الحياة المكرّسة»

بتاريخ ١٩٩٦/٣/٢٥، أصدر البابا الإرشاد الرسوليّ «الحياة المكرّسة» (Vita Consecrata)، مكملاً ثلاثيّته حول أوضاع الحياة الثلاثة في الكنيسة: رسالة العلمانيّين في العالم – وتنشئة الكهنة.

طالما مثّل المكرّسون، الملتزمون بنذور الفقر، والعفّة، والطاعة، واحدًا بالمئة من مجموع أعضاء الكنيسة، أي ما يربو على مليون شخصٍ. وقد اعتُبروا، دائمًا، مركز الكنيسة وروح رسالتها. وكان السينودُس الذي التأم بشأن المكرّسين قد أبرز ما تتعرّض له جمعيّاتٌ رهبانيّةٌ عديدةٌ من مصاعب، في أعقاب المجمع الڤاتيكانيّ الثاني. واتّضح أنّ هذه الشريحة التي ازدهرت ازدهارًا سريعًا في آسيا وأفريقيا، باتت تواجه، في أوروبّا وأميركا الشماليّة، تدهورًا مقلقًا. وتباينت التحليلات المفسّرة لهذا التدهور.

وقدّمت رسالة «الحياة المكرّسة» رؤيةً أُخرى، كفيلةً بتشجيع هذه الحياة الكامنة «في قلب الكنيسة». واستخدم قداسته، من أجل إيضاح فكرته، صورًا أخّاذةً مستقاةً من الكتاب المقدّس، مذكّرًا أنّ اللاهوت الشرقيّ سمّى الحياة المكرّسة «فيلوكاليا»، أيّ «حبّ الجمال الإلهيّ»، الذي رسم تجلّي يسوع صورةً له، أمام ثلاثةٍ من تلاميذه. وأوضح أنّ هذا الحبّ الفريد هو الدرب الذي ينهجه من يعيشون نصائح الإنجيل: الفقر، والعفّة، والطاعة. والحياة المكرّسة، اليوم، هي أن يهب إنسانٌ مكرّسٌ حياته لتأمّل هذا الجمال، وللإشادة به، نائيًّا بنفسه، نأيًا تامًّا، عن العالم، وعن كلّ نشاطٍ عالميٍّ.

وقارب قداسته سخاء الحياة المكرّسة، بما فعلته مريم أخت لعازر، عندما دهنت

قدمي الربّ بطيبٍ فاخر الثمن. وشبّه موقف المكرّس، في صميم الحياة الروحيّة، بوقوف العذراء والرسول يوحنّا عند أقدام الصليب، وبوجود العذراء مع بطرس والرسل، في العلّيّة، بانتظار حلول الروح القدس، وبانفتاح الكنيسة على تقبّل النعمة الإلهيّة، والوفاء لهذا التقبّل.

واستهدف، من كلّ تلك الصور، تأكيد أنّه لا يمكن الحكم على الحياة المكرّسة بمعايير المجتمع النفعيّة، ولا يجوز روزها إلاّ بمقياس العطاء الذي يبرزه الصليب. هذا العطاء يتجلّى من خلال رجالٍ ونساءٍ يتخلّون عن كلّ شيءٍ، حتّى عن حياةٍ نشيطةٍ، في العالم، من أجل تقديم ذواتهم، كلّيًّا، ليسوع، على غير انتظار مكافأةٍ أرضيّةٍ.

والنذور هي شهادةٌ موجّهةٌ إلى العالم. فالذي ينذر الطاعة، يتحدّى الثقافة الرائجة، ويبرهن أنّ الحرّيّة والطاعة متكاملتان. ومن ينذر الفقر، يتحدّى «عبادة كلّ شيءٍ مخلوقٍ». ونذر العفّة لا يقتصر على تحدّي مذاهب المتعة الرائجة، بل يشهد، أيضًا، لقدرة حبّ الله، التي تتجلّى من خلال ضعف الوضع البشريّ. ولطالما شهد مكرّسون أنّ ما يبدو، بشريًّا، مستحيلاً، يغدو، بنعمة الله، ممكنًا، ومصدر تحريرٍ حقٍّ.

وهكذا تلقّن الحياةُ المكرّسة البشريّة كلّها، أُمورًا جوهريّةً عن الوضع البشريّ.

أولويّة الثقافة

كان يوحنّا بولس الثاني وطيد الإيمان بأنّ الحضارة هي محرّك التاريخ الحقيقيّ. هذه القناعة قد رسّخها في نفسه والده، وزادتها رسوخًا خبرته وتأمّلاته طيلة سبعة عقود، وتهاوي الشيوعيّة الأوروبّيّة في غروب ثمانينات القرن العشرين. وعلى أُسس هذه القناعة، ابتغى إعادة تبشير أوروبّا الغربيّة، ودعم أركان الحرّيّة لدى الديمقراطيّات الناشئة في أوروبّا الوسطى والشرقيّة، والإسهام في تحرير كوبا.

وهذا ما ابتغى تذكير ألمانيا الموحّدة به، خلال زيارته لها بين **٢١** و**٢٣** حزيران،

وتذكيرها، خاصّةً، بالإرث الذي تلقّوه، عام **٧٩٩**، من لقاء «شارل الكبير» (Charlemagne)، والبابا لاون الثالث. هذا اللقاء دمغ الحضارة الأوروبّيّة بطابعٍ لا يمّحي. وعلى الألمان، وهم يتصدّون لتحدّي توحيد بلادهم وأوروبّا، ألاّ يغفلوا أنّ «**الوحدة ليست مجرّد توافق مصالح مادّيّةٍ**»، بل عليها، بالحري، أن تقوم على «**توافق رؤًى ومفاهيم، وعلى إرثٍ ثقافيٍّ مشتركٍ، وخاصّةً على تضامن الفكر والقلب**». وأوضح أنّ أوروبّا الخالية من الإيمان المسيحيّ، ستكون خاليةً من الروح. ومن ثمّ إنّ واجب المسيحيّين هو حفز الروح الذي سيوحّد ويصوغ أوروبّا الغد.

أمّا عن الأوضاع الصعبة التي كانت تجتازها ألمانيا، حينذاك، فقد ذكّر الحبر الأعظم بحادثة تهدئة يسوع للعاصفة في بحر الجليل، مؤكّدًا: «**لا تحزنوا، ولا تستسلموا للأمواج التي تصارعكم، بل اتّحدوا في الرجاء، وجدوا القوّة في إيمانكم المشترك. وتذكّروا تاريخ الإيمان العريق في هذا البلد، ولا تدعوا هذا الإيمان يضعف... على متن سفينة الكنيسة، لا يجوز أن يستحوذ الحزن والخوف، يومًا، على قلوبكم**». ودعاهم إلى استذكار الشهداء. فهذا ما يفرضه الإنجيل، ومثال الشهداء الألمان، الذين قضوا نحبهم وهم يقاومون الطغيان النازيّ، وباتوا للآخرين محرّضين.

ويوم **٢٣** حزيران، طار إلى برلين، حيث طوّب كاهنين استشهدا على يد النازيّين، عام **١٩٤٣** و**١٩٤٥**، وأثبتا أنّ الاستشهاد ليس مجرّد قَدَرٍ حزينٍ، بلٍ هو النتيجة المنطقيّة والحتميّة لحياةٍ في خطى المسيح. والمسيحيّون مدعوّون، أُسوةً بهذين الطوباويّين، إلى الشهادة للحياة الحقّة، وإلى مقاومة ثقافة الكراهية والموت، أيًّا كان وجهها، وإلى التمييز بين الخيرات المادّيّة والثروات الروحيّة.

ومساء ذلك اليوم عينه، تمّ لقاءٌ خاصٌّ بين البابا والمستشار الألمانيّ «هيلمت كول». ثمّ صلّيا، معًا، في الكاتدرائيّة، واجتازا، معًا، «باب برندربورغ» من الشرق إلى الغرب، حيث كان ينتصب جدار برلين سيّئ الذكر. وفي تلك الليلة، اتّصل المستشار «كول» بفيلسوفٍ إيطاليٍّ صديقٍ، وقال عن البابا، باندفاعٍ: «إنّه رجل النصف الثاني من القرن العشرين، العظيم، وربّما هو عظيم القرن كلّه، وهو يجتذب من الناس أكثر ممّا أجتذب أنا».

وقبل ذلك، كان البابا قد قام، في **١٤** نيسان، برحلةٍ رسوليّةٍ إلى تونس، حيث دعا إلى التحاور مع الإسلام المعتدل. وفي ١٧ و١٨ أيّار، زار سلوڤينيا، حيث صرّح: «**أليس قرننا مضمّخًا بدماء الشهداء؟**» و«**القداسة هي القوّة الحقيقيّة القادرة على تحويل العالم**».

مفاجآتٌ في فرنسا

في فرنسا أيضًا، استخدم يوحنّا بولس الثاني أُسلوب إعادة التبشير بالإنجيل، من خلال إيقاظ التاريخ الثقافيّ في ذاكرة القوم ونفوسهم. وهو كان يؤمن بروح فرنسا ونفسها، وبأنّ «عليها الاضطلاع، على أكمل وجهٍ، بالمصير العظيم الذي ورثته من التاريخ».

وقد باشر زيارته الخامسة إلى فرنسا، يوم **١٩٩٦/٩/١٩**، من أجل الاحتفال بالذكرى المئويّة الخامسة عشرة لعماد «كلوڤيس»، الملك الفرنسيّ الأوّل الذي وحّد البلاد.

غادر روما متعبًا. وكان قبل بضعة أيّامٍ، خلال رحلةٍ رسوليّةٍ إلى هنغاريا، وفي أثناء احتفاله بصلاة الغروب، مرتديًا ثيابًا حبريّةً ثقيلةً، مُني بعارضٍ صحّيٍّ، اضطرّه إلى تكليف أحد معاونيه بتلاوة العظة التي كان قد أعدّها لهذه المناسبة. وكان ذلك الحدث قد سرّب إلى نفوس الأساقفة الفرنسيّين، الذين تساءلوا هل سيقوى الحبر الأعظم على احتمال البرنامج المرهق الذي أعدّوه له، والذي يتضمّن زيارة أربع مدنٍ، وإلقاء اثني عشر خطابًا.

وإضافةً إلى هذا القلق، كانت طغمةٌ من علمانيّي فرنسا المتشدّدين، يعارضون بضراوةٍ تلك الزيارة، التي كانوا يرون فيها محاولة الحبر الأعظم صبغ تاريخهم بطابعٍ دينيٍّ. وانضمّ إلى جوقتهم النابحة يهودٌ، وماسونيّون، وشيوعيّون، وملحدون، وإباحيّون كان يزعجهم إحياء البابا للروح المسيحيّة، وفرض الضوابط الأخلاقيّة على حياة الفرنسيّين.

وقد استبق صحافيٌّ يهوديٌّ، هو «جان فرنسوا كان» (Kahn) الزيارة بمقالٍ ناريٍّ وصف به، بعباراتٍ لاذعةٍ تلامس القحة والسماجة، سلوك البابا وقصده من الزيارة.

هذه العوامل، مجتمعةً، كانت قد بثّت الريبة والخشية في صدور معظم الأساقفة الفرنسيّين، الذين توقّعوا حضورًا هزيلاً، وفشل الزيارة البابويّة. ولكنّ الواقع الرائع بدّد خشيتهم، وكذّب توقّعاتهم.

استهلّ البابا رحلته بالتخشّع في مدينة «سان لوران سور سيڤر» (Saint Laurent sur Sèvre) في منطقة «ڤانديه» (Vendée)، بالتخشّع أمام ضريح قدّيسٍ تربطه به أواصر روحيّةٌ وثيقةٌ، هو «لويس ماري غرينيون دي مونفور»، الذي كانت كتاباته قد غرست في نفس الفتى «كارول ڤويتيووا»، الشغف بالعذراء مريم، ومنه استمدّ شعاره الذي رافقه على امتداد مسيرته، وحتّى بابويّته: «**إنّني بكلّيّتي لكِ**» (**Totus Tuus**).

ثمّ زار مدينة «سانت آن دوري» (Saint-Anne d'Auray) في منطقة بريتانيي (Bretagne)، حيث أشاد، أمام مئةٍ وعشرين ألف مؤمنٍ، بذكرى القدّيسة حنّة، والدة العذراء، وحيث ألقى، في مجموعةٍ من الأزواج، إحدى أجمل خطبه حول الحياة الزوجيّة.

ويوم **٩/٢٢**، حطّ في مطار مدينة تور (Tours) العسكريّ. وكان قد شاهد من نافذة الطائرة حشدًا من زهاء مئتي ألف شخصٍ، تقاطروا من مدن الجوار، والتفّوا حول المجمع الأسقفيّ بكامل أعضائه. واستُقبِل البابا بمهرجانٍ شعبيٍّ حارٍّ، شارك فيه رئيس الجمهوريّة السابق، «جيسكار ديستان». وكانت قد توسّطت الحشد لافتةٌ جسيمةٌ دُوِّن عليها: «أيّها الأب الأقدس، فرنسا تحيّيك».

وبعد ظهر ذلك اليوم، نظّم أُسقف المدينة للحبر الأعظم لقاءً مع أربع مئةٍ من «جرحى الحياة»: معاقين جسديًّا وعقليًّا، ومقعدين، ومهمّشين محرومين من الحقوق الأساسيّة: السكن، والعمل، والأمن، فشدّ البابا على أيدي بعضهم،

ولاطف بعضًا، ورسم إشارة صليبٍ على جبين آخرين، وواسى الجميع، وكأنّه الناصريّ يطوف بمعذّبي الأرض، وكأنّ صفحةً حيّةً من الإنجيل تُكتَب. وصرّح قداسته بهذه المناسبة أنّ المجتمع يُحكَم عليه من خلال اهتمامه بالمنبوذين.

وأخيرًا احتفل بيوبيل عماد «كلوڤيس» في مدينة «رانس» (Reims)، حيث استقبله حشدٌ من نحو مئتين وعشرين ألف مؤمنٍ، يتقدّمهم الرئيس جاك شيراك وعقيلته، ومئةٌ وخمسة أساقفةٍ.

في زيارته الأولى، عام ١٩٨٠، كان قد ساءل فرنسا عمّا فعلته بعمادها. أمّا في هذه النوبة فساءل كلّ معمّدٍ عن وفائه لوعود عماده. وقال: «**إنّه يشرّف فرنسا أن تتجاوز خلافات الآراء المشروعة، وتذكّر بأنّ عماد كلوڤيس هو جزءٌ من الأحداث التي صاغت فرنسا**».

وفي قدّاس اليوبيل، ناشد الفرنسيّين أن يقرأوا تاريخهم من خلال تاريخ القداسة الفرنسيّة. فلئن كان تاريخ الكاثوليكيّة الفرنسيّة قد عهد حقبًا قاتمةً، اتّسمت بالخيانات والخلافات، إلاّ «**أنّ كلّ محنةٍ هي دعوةٌ ملحّةٌ إلى الارتداد والقداسة... فعندما يلفّنا الليل بظلامه، علينا ترقّب الفجر، موقنين أنّ الكنيسة تُبعَث، كلّ صباحٍ، إلى حياةٍ جديدةٍ، من خلال قدّيسيها**».

مساء ذلك اليوم غادر فرنسا، مثقلاً بفرح لقاء جماعاتٍ يحدوها الإيمان والتقوى. لقد شعر أنّ شيئًا يرتعش في النفس الفرنسيّة. وهذا ما أكّدته أيّام الشبيبة العالميّة التي ضرب لها موعدًا، في باريس، بين ١٨ و**٢٤** آب **١٩٩٧**.

وعاد يوحنّا بولس الثاني إلى فرنسا في الموعد المحدّد. وفي هذه المناسبة، أيضًا، توقّع معظم الأساقفة الفرنسيّين، ألاّ تحظى هذه الزيارة إلاّ بإقبالٍ هزيلٍ نسبيًّا، وألاّ يتجاوز الحضور أربع مئة ألف شابٍّ، وفق أكثر التوقّعات تفاؤلاً. غير أنّ ما حدث تخطّى، بلا قياسٍ، كلّ توقّعٍ، وأذهل الجميع.

وقد حرص الحبر الأعظم على إضفاء طابعٍ دينيٍّ صرفٍ على زيارته هذه، التي اقتصرت على الحدّ الأدنى من المقتضيات البروتوكوليّة، وتمثّلت في لقاء ترحيبٍ مع الرئيس شيراك، ولقاء وداعٍ مع رئيس الوزراء «ليونيل جوسپان».

وبذلك أكّد أنّ الكنيسة ليست كنيسة سلطةٍ، بل هي كنيسة الإنجيل، وأنّ شهادتها للمسيح تقتضي الدفاع عن حقوق الإنسان.

هذه الشهادة تجلّت من خلال ثلاث مبادراتٍ، كرّم، من خلالها، ثلاثة وجوهٍ فرنسيّةٍ مشرقةٍ من أبطال حقوق الإنسان، والذائدين عن حياض الفقراء، وعن حقّ الحياة، هم: الأب «جوزيف ڤريزينسكي» (Joseph Wreisinski)، مؤسّس «منظّمة العالم الرابع»، و«فريديريك أوزانام»، مؤسّس جمعيّة القديس منصور دي پول، الذي طوّبه قدّيسًا في هذه المناسبة؛ وصديقه البروفّسور «جيروم لي جين» (Jérôme Lejeune)، مكتشف الكروموزوم المسبّب للمنغوليّة، والمناهض الجريء للإجهاض؛ ومع أنّ البابا كان قد تخشّع أمام ضريحه، بصفةٍ شخصيّةٍ بحتةٍ، تفاديًا لاعتراضات العلمانيّين المتشدّدين، إلاّ أنّه لم ينجُ من سهام انتقاداتهم.

وكان قد وُضع برنامجٌ حافلٌ بالمعاني الروحيّة لأيّام الشبيبة العالميّة، الذي شارك في إحيائه أكثر من سبع مئة ألف شابٍّ وشابّةٍ من مختلف المناطق الفرنسيّة، فضلاً عن نحو نصف مليونٍ قدموا من مئةٍ وستّين دولةً، وانصهروا جميعًا في جوٍّ من البهجة، والإخاء والاندفاع.

شعارُ يوم الشبيبة الأوّل، وكان يوم ثلاثاء، استُلهم من أحد الشعانين. وبعد ظهر ذلك اليوم المشرق، حُمل صليبٌ جسيمٌ، طاف به نحو نصف مليون شابٍّ، انطلقوا من برج إيفيل، إلى حيث كانت قد أُعدّت منصّةٌ للاحتفال بقدّاس الافتتاح.

واستُلهم يوم الخميس من الخميس العظيم، وتُلي نصّ الإنجيل الذي يروي غسل يسوع لأرجل تلاميذه. ووُزّع على الشبيبة تأمّلٌ في هذا النص، كتبه البابا، وناقشه الشباب معًا في اليوم التالي.

يوم الجمعة، أحيى مئات ألوف الفتيان والشبّان، حدَث يوم الجمعة العظيمة. فأقاموا مراحل درب الصليب في عشرات المواقع في پاريس. ومساء يوم السبت، نُظّمت سهرة صلاةٍ فريدةٌ في ملعب سباق خيلٍ، حيث أُضيئت سبع مئةٍ وخمسون ألف شمعةٍ حوّلت الملعب إلى ساحةٍ مشعّةٍ، ساحرةٍ. ورسمت مصابيح جبّارةٌ جدران كاتدرائيّةٍ افتراضيّةٍ. وفي هذا الجوّ الساحر، قام البابا بتعميد عشرة شبّانٍ، اختير من كلّ قارّةٍ اثنان منهم.

لقد تماهى ذلك الجمع الضخم، الذي لم يألف مثل هذه الطقوس مع الحبر الأعظم، مندمجًا وسابحًا في مناخٍ أخّاذٍ من صمتٍ وخشوعٍ. وقد عبّر أحد مذيعي التليفزيون عن تأثّره البالغ حيال: «أكثر من مليون شخصٍ خاشعين، ونمطٍ فريدٍ من الصمت الرقيق، الفرِح. فالذين اعتادوا التظاهرات الكبيرة الصاخبة، تلفتهم ظاهرة صمتٍ ليس فراغًا».

أمّا رئيس أساقفة باريس فصرّح: «إنّ ما جمع مئات أُلوف الشبّان هو سرّ الخلاص، وبالليتورجيّا مسّ المسيح، بذاته، نفوسهم».

ولم تخفَ مفارقة ذلك الحدَث عن عيون المراقبين، الذين ألفوا أن يتحوّل أصغر تجمّعٍ شبابيٍّ إلى فوضى، وعراكٍ، وتحطيم واجهات محلاّتٍ وسيّاراتٍ، في حين لم يُفضِ ذلك التجمّع العملاق، المغرق في التعدّديّة من كلّ نوعٍ، والمؤلّف من فتيانٍ جيّاشي المشاعر، إلى أيّ حادثٍ أو إخلالٍ بالنظام.

وصباح اليوم الأخير، احتُفل بذكرى الفصح، بقدّاسٍ ختاميٍّ ضمّ أكبر حشدٍ في تاريخ فرنسا، قوامه نحو مليونٍ ومئتي ألف مؤمنٍ، ما أذهل أكثر من أسقفٍ، وغير صحافيٍّ. وحارت الصحف التي كانت، من قبل، تنظر إلى الحدث نظرة ازدراءٍ وسخريّةٍ، بأيّ نعتٍ تصفه، وقالت إنّه «انتصار»، و«مدٌّ عارمٌ»، و«زلزال».

وبما أنّ ذلك اللقاء تمّ عند أقدام برج «إيفيل»، علّق أحدهم، مازحًا: «لطالما تساءل الناس علامَ أشاد المهندس إيفيل هذا البرج، واليوم أدركوا السبب».

وغرقت كلّ الانتقادات والتكهّنات المتشائمة، في ضوضاء اندفاع الشباب الملوّحين بأعلامٍ من كلّ لونٍ، والمنشدين بكلّ لغات العالم. وتجلّت صورةٌ غير متوقّعةٍ لكنيسةٍ تضجّ ديناميّةً كمينةً، كانت تفتقر إلى من يطلقها.

ذلك القدّاس، الذي احتفل به يوحنّا بولس الثاني في ملعب سباق خيل «لونشان» (Longchamp)، تحت شمسٍ من هجيرٍ، بحضور ثلاثةٍ وثلاثين كردينالاً، وخمس مئة أُسقفٍ، وثلاثة آلاف كاهنٍ، يرتدون، جميعهم، بزّاتٍ

كنسيّةً تزهو بألوان قوس قزحٍ، فيما كان مئات المتطوّعين يطوفون بقوارير الماء البارد، ويوزّعونها على آلاف الشبّان الملوّحين بالأعلام المزركشة، وسط حماسٍ دافقٍ، كان حدَثًا فريدًا. ولا عجب إن وُصف بأنّه «أعظم قدّاسٍ في تاريخ فرنسا».

وانتهى اللقاء بتمثيل سرّ الفداء: صلب يسوع وقيامته، وبتظاهرة إيمانٍ رائعٍ، خلّفت أعمق أثرٍ في النفوس. وحينئذٍ رفع البابا رأسه المحنيّ، وفتح عينين كانتا مغمضتين، وشدّ بقوّةٍ على الصليب المتدلّي على صدره، مستنبطًا منه القوّة، ومعبّرًا له عن شكره. كان متعبًا، ولكنّه كان يضجّ فرحًا.

وجعلت فرادة الحدث العديدين من الفرنسيّين يختصرون عطلتهم الصيفيّة، من أجل مراقبة ما أدهش الدنيا. وقُدِّر عدد المشاهدين بثلاثة ملايين وخمسة مئة ألف مشاهدٍ، حدّقوا، مأخوذين إلى أولئك الشبّان القادمين من القارّات الخمس، والضاجّين فرحًا وسعادةً، والذين كانوا يتحوّلون، بغتةً، إلى موقف خشوعٍ وصلاةٍ جماعيّةٍ؛ وتساءل المشاهدون من أين أتى أولئك الشبّان الذين لا يُظهرهم تيليفزيون، ولا يأتي على ذكرهم إعلامٌ، والذين تجاوبوا بحماسٍ، مع شيخٍ مهيبٍ، محنيّ الظهر، يقتضي منهم الكثير، وفي الآن عينه، يبثّهم دفعًا جبّارًا بتأكيده لهم: «**أنتم رجاء العالم ومستقبله**»، موقظًا أكرم ما ينطوي عليه شبابهم، وحافزًا مسؤوليّتهم.

وكانت الإيقونتان اللتان تمّ تبنّيهما رمزًا لأيّام الشبيبة العالميّة لعام **١٩٩٧**، منبثقتَين من صميم التاريخ الكاثوليكيّ الفرنسيّ الحديث، وهما القدّيسة تيريز الطفل يسوع، وفريديريك أوزانام الذي طوّبه البابا في قدّاس **٢٢** آب **١٩٩٧**. والقاسم المشترك بينهما أنّهما لقيا حتفهما في ريعان الشباب، ومع ذلك كانت الراهبة المتأمّلة تيريز، التي قُصِف عودها وهي في الرابعة والعشرين من عمرها، قد أغنت اللاهوت بمساهماتٍ فذّةٍ. أمّا أوزانام الذي انطفأ في عمر الأربعين، فكان مفكّرًا عاش في جوّ ارتيابٍ جوهريٍّ، وديمقراطيًّا متحرّرًا من أمراض عصره الفكريّة، يقاسم معاصريه الكاثوليكيّين عقيدتهم ونضالهم، خادمًا للفقراء، زوجًا وأبًا متفانيًا، وكاتبًا أسهمت مؤلّفاته في إرساء أُسس التعليم الكاثوليكيّ الاجتماعيّ.

ولا ريب أنّ اختيار هذين الوجهين المشرقين كان غنيًّا بالمعاني، ودليلاً على أنّ القداسة ما برحت ممكنةً في الحقبة الحاليّة، وأنّ الاندفاع الشبابيّ كفيلٌ بالإفضاء إلى المسيح، وأنّ بوسع الإيمان الكاثوليكيّ خلق مجتمعٍ حرٍّ ينعم بالمساواة والتضامن.

وبالإجمال، برهنت تلك الظاهرة المدهشة أنّ الشباب الذين نشأوا في الفراغ الروحيّ، الذي خلّفه لهم الجيل السابق، التقوا يسوع، وابتغوا اكتشاف كلّ معانيه، ووجدوا أنّ كون الإنسان مسيحيًّا لا يتناقض مع كونه ملتزمًا، منفتح الذهن والقلب، سخيّ التفاني.

وفي هذا السياق كان البابا قد قال، في إحدى عظاته: «**لا تملّوا من تأمّل مجد الله وحبّه، فتظفروا بالنور الضروريّ الذي يؤهلكم لبناء حضارة المحبّة، ومن مساعدة إخوتكم وأخواتكم على رؤية عالمٍ تجلّى بفضل حكمة الله وحبّه الأبديّين**».

لقد ألقى يوحنّا بولس الثاني على عاصمة الأنوار، المبتلاة بالشكّ وبعداء المقدّسات، نورًا ثقافيًّا قشيبًا ساطعًا، يحمل أُسس مجتمعٍ حرٍّ.

وكانت كاتدرائيّة القلب الأقدس في باريس مسرحًا لمشهدٍ فريدٍ، عندما تراصّ فيها عشرات ألوف الشبّان ضاجّين اندفاعًا، ملوّحين بعشرات أعلام دول العالم. وبالإجمال حفلت تلك الأيّام الشبيبيّة بكلّ رائعٍ ومدهشٍ. ومثّل إقبال الشباب الكثيف على ذلك الحدث تحدّيًا للأوهام المادّيّة التي تقوم عليها الثقافة الأوروبّيّة الحديثة، ولمبادئ ثورة عام ١٧٨٩، ولثورة الشباب عام ١٩٦٨.

غير أنّ الحكومة الاشتراكيّة الفرنسيّة عكّرت صفو روعة هذه الأيّام، عندما دان بعض مسؤوليها، بسماجةٍ منفّرةٍ، زيارة البابا الشخصيّة والمتكتّمة لضريح عالمٍ صديقٍ له، كان، في حياته، قد ناهض الإجهاض بجرأةٍ، وعدّوا تلك المبادرة تدخّلاً في النقاش الجاري حول تشريع الإجهاض.

قبل مغادرته، زفّ الحبر الأعظم للجموع بشرى: «يسرّني أن أبشّركم بأنّني سأعلن القدّيسة تيريز الطفل يسوع ملفانة الكنيسة». فقوبلت بشراه برعدٍ من التصفيق.

وفيما كان البابا عائدًا إلى روما، محلّقًا فوق جبال الألپ المتألّقة، كان يتأمّل، في سريرة نفسه، متشوّفًا ثمار تلك الأيّام الزاخرة بالمغزى، وخاشعًا أمام سرّ اللّه وأسرار القلوب، وشاكرًا للربّ «الفرح العارم، ومنظر كاتدرائيّة الأنوار» الافتراضيّة. ويوم الأربعاء التالي، وفي أثناء لقائه الجماعيّ بحجّاج الڤاتيكان، لخّص انطباعاته عن تلك الأيّام المشهودة بقوله:

«لعالم تمزّقه خلافاتٌ من كلّ نوعٍ، ويجمّده صقيع لامبالاةٍ متبادلةٍ، واستلابٍ شاملٍ، أطلق الشباب من «لونشان» رسالةً. واتّضح، بجلاءٍ، أنّهم كانوا يشعرون جميعهم أنّهم في بيتهم، وأعضاء أُسرةٍ كبيرةٍ واحدةٍ. إنّ مشهد أولئك الشبّان في ساحة «لونشان» الفسيحة، كان هو الدليل على هذه الحقيقة. فرغم تعدّد اللغات، وتباين الثقافات والجنسيّات، وألوان البشرة، صلّى معًا فتيانٌ وفتياتٌ من القارّات الخمس».

اليوبيل الكهنوتيّ الخمسينيّ

في شهر تشرين الأوّل ١٩٩٦، اعترت البابا آلامٌ في أمعائه مصحوبةٌ بحمّى، فأُجريت له، يوم الثامن من ذلك الشهر، عمليّة استئصال الزائدة الدوديّة، في مستشفى «جيميلّي»، الذي غدا قداسته يدعوه، ساخرًا «ڤاتيكان رقم ٣». وبعد أُسبوع استأنف عمله.

وتوافق شهر تشرين الثاني مع الذكرى الخمسين لسيامته الكهنوتيّة، فدعا كلّ كهنة العالم المحتفلين بمثل هذا اليوبيل، إلى مشاركته هذا الاحتفال، وقضاء فترة تأمّلٍ في روما. فتقاطر إلى الڤاتيكان نحو ألفٍ وستّ مئة كاهنٍ، وثمانين أسقفًا، ملبّين دعوته، فخبروا تجربةً كهنوتيّةً تضامنيّةً عالميّةً مؤثّرةً، واشتركوا جميعهم في قدّاسٍ ضخمٍ، يوم العاشر من تشرين الثاني، تميّز بالمودّة، والأُبّهة، والخشوع، والفرح.

وجاء في عظة البابا، بهذه المناسبة، أنّ كلّ كاهنٍ يحتفل بقدّاسٍ، يعيش، من جديدٍ، تأسيس سرّ الإفخارستيّا، أي كهنوت العهد الجديد، وحدث غسل يسوع أرجل تلاميذه. ومن شأن ذلك تذكير كلّ كاهنٍ، كلّ يومٍ، أنّه خادم سرّ الفداء، ومدعوٌّ إلى خدمة إخوته وأخواته. فالخدمة هي روح الكهنوت.

وفي أثناء الغداء الذي تلا الاحتفال، طاف البابا بكلّ الموائد، متحدّثًا إلى ضيوفه، وكأنّه لم ينله أيّ تعبٍ من قدّاسٍ دام ساعتين ونصف، وصلاة تبشيرٍ استغرقت ثلاثة أرباع الساعة، واحتفالٍ باليوبيل متمادي الطول، مثبّتًا أنّ الشائعات السارية حول صحّته، كانت تنطوي على كثيرٍ من المغالاة.

وبهذه المناسبة، أصدر يوحنّا بولس الثاني كتيّبًا، دوّن فيه خبراته الكهنوتيّة، ودرب القداسة الذي انتهجه كي يصبح خميرًا، وأطلق عليه عنوان: «دعوتي: عطيّةٌ وسرٌّ».

في نهاية شهر تشرين الثاني، افتتح البابا الاستعدادات ليوبيل عام **٢٠٠٠** الكبير. وبين العاشر والرابع عشر من كانون الأوّل، استقبل كاثوليكوس الأرمن «كاريكين الأوّل»، وفي التاسع عشر من ذلك الشهر استقبل رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة، ياسر عرفات.

وأخيرًا «سراييڤو»

وفقًا للبرنامج الذي كان يوحنّا بولس الثاني قد وضعه استعدادًا ليوبيل عام **٢٠٠٠** الكبير، كان العام **١٩٩٧**، وهو عام «ابن اللّه».

وبمناسبة استقباله التقليديّ للهيئة الدبلوماسيّة، يوم **١٩٩٧/١/١٣**، دعا إلى أن «**تخصب الأخلاقُ الحقّ**».

وأخيرًا تسنّى له تحقيق رغبةٍ طالما ضجّت بها نفسه، وهي زيارة المدينة الشهيدة «سراييڤو». كان البابا قد قرّر هذه الزيارة في **١٩٩٤/٩/٨**، ولكنّ عقباتٍ أمنيّةً جادّةً، أكرهته على إرجائها، فاكتفى، حينئذٍ، بزيارة «زغرب»، حيث قوبلت دعوته إلى المصالحة بفتورٍ آلمه. غير أنّه، منذئذٍ، ما انفكّ يقيم الصلوات من أجل إحلال السلام في تلك البقعة من العالم، مؤكّدًا لأبنائها: «**نحن لم نهملكم، إنّنا معكم، وسنبقى معكم، وسنكون دائمًا معكم، أكثر فأكثر!**» ومنذ نشوب الحرب عام **١٩٩١**، حتّى انتهائها عام **١٩٩٥**، لم يكفّ، بنداءاته، ومداخلاته، وتصريحاته، وإيفاد مندوبيه، يسعى إلى وقف سفك الدماء،

وإطفاء الحرائق. ويوم **١٩٩٥/٧/١٦** من شرفة مقرّه في الفاتيكان، أطلق صرخة حزنٍ، ومرارةٍ، واستنكارٍ، قائلاً: «**إنّ ما يحدث اليوم، على مرأى العالم، يمثّل هزيمةً للحضارة!**».

وبعد أن تعذّر عليه معانقة الطوائف الثلاث: الصربيّين، والبوسنيّين، والكرواتيّين، استدعى الأساقفة الكاثوليكيّين، وأعلن لهم: «**يعلّمنا إيماننا أنّنا لا نستطيع أن نكون سعداء بمعزلٍ عن الآخرين، وتستحيل علينا السعادة إذا عادينا بعضنا بعضًا**».

وأخيرًا حطّ الرحال في «سرايفو»، يوم **١٩٩٧/٤/١٢**. ومنذ وصوله أعلن أنّه جاء بصفة «حاجّ سلامٍ وصداقةٍ»، كي يحضّ القوم على نبذ «منطق العنف اللاإنسانيّ»، قائلاً: «**في اللحظة التي يتسنّى لي وطء تراب البوسناهيرزيغوفين، أودّ تقبيل جميع سكّان هذه المنطقة التي تعرّضت لمحنةٍ موجعةٍ، وبخاصّةٍ أولئك الذين فقدوا أقارب، قبل الأوان، والذين ما برحت أجسادهم تحمل سمات الحرب، والذين أُكرهوا على هجر بيوتهم طيلة سنوات العنف الطويلة. وليعلم جميع هؤلاء أنّهم يحتلّون موقعًا مميّزًا في قلب البابا. من خلال مداخلاتي لصالح السلام، كان يحدوني همّ توفير احترام كلّ إنسانٍ وحقوقه، من غير تمييزٍ قائمٍ على إثنيّةٍ أو دينٍ، وبحرصٍ خاصٍّ على الأكثر فقرًا والأشدّ حرمانًا**». وفي الحال قصد كاتدرائيّة القلب الأقدس، حيث سلّم الكردينال Vinho Puljic قنديلاً زيتيًّا، كان قد أمر بتعليقه في بازيليك القدّيس بطرس بروما، كي يذكّر المؤمنين بآلام البوسنا، ويدعوهم إلى التضامن مع ضحايا الحرب الوحشيّة الدائرة فيها. وكان الكردينال المذكور قد أراه المدينة التي أمست أكوام أطلالٍ، وأطلعه على أرقامٍ مريعةٍ. فعدد القتلى بين عام **١٩٩١** و**١٩٩٥**، قد بلغ مئتين وسبعين ألفًا، وعدد المُبعدين قسرًا بلغ المليون، وعدد اللاجئين تجاوز المليون. وما من أُسرةٍ لم تُفجَع بعزيزٍ.

ومثلما كان قد فعل في «زغرب»، حصر عظته في الدعوة إلى الصفح والمصالحة. والعبارة التي ما انفكّت تتردّد في خطاباته التسعة، كانت: «**فلنصفح ولنستصفح!**»، وجّهها للشعب وللحكّام، للمؤمنين والأساقفة، ولأتباع كلّ الديانات، للجميع في كلّ مكانٍ. وناشد، بإلحاحٍ، الأساقفة الكاثوليكيّين في

البوسناهيرزيغوڤين، العمل على شفاء جراح النفوس التي عانت الآلام، والتي ربّما أفسدتها مشاعر الحقد والانتقام. وأهاب بسراييڤو «المدينة الرمز» لآلام هذا القرن، أن تصبح المدينة الرمز للمصالحة في أوروبّا، محذّرًا، من أن يدمّر الثأر بقايا معايشة الطوائف الثلاث، إن لم تتحقّق المصالحة.

وفي أثناء صلاة الغروب، خاطب الكهنة والراهبات والإكليركيّين، باللغة السربوكرواتيّة، واصفًا سرايبڤو بالمدينة «الشهيدة التي تحمل آثار منطق الموت الأعمى، والفرقة، والإفناء». وشكر للكهنة وقوفهم إلى جانب المؤمنين في ساعات الحرب. وحثّ الجميع على القيام بفحص ضميرٍ عميقٍ، قبل الالتزام الحازم بالمصالحة والسلام، ومطالبًا إيّاهم بشدّ أزر الشبيبة التي جعلتها الحرب تشيخ قبل الأوان.

وانطوت عظته على صرخةٍ مؤثّرةٍ، إذ هتف: «**لا حرب بعد اليوم، ولا مكان للكراهية واللاتسامح. ولا بدّ من الاستعاضة عن منطق العنف اللاإنسانيّ بمنطق السلام البنّاء. ينبغي أن تحلّ قوّة الصفح المحرِّرة محلّ غريزة الانتقام، وأن يوضع حدٌّ للعنصريّات المتطرّفة، وما ينجم عنها من خلافاتٍ إثنيّةٍ. وكما هي الحال في الموزاييك، لا بدّ من أن ينعم كلّ مكوّنٍ لهذه المنطقة، بضمان الحفاظ على هويّته السياسيّة والوطنيّة والثقافيّة، والدينيّة. إنّ التعدّديّة ثروةٌ عندما تتحوّل إلى مكمّلٍ للجهود المبذولة لخدمة السلام...**».

ولم يغب عن ذهنه وقلبه الهمّ المسكونيّ، فقال: «**بعد عدّة سنواتٍ من حربٍ رهيبةٍ، وعند فجر ألفيّةٍ مسيحيّةٍ جديدةٍ، نشعر جميعنا بضرورةٍ ملحّةٍ إلى مصالحةٍ حقيقيّةٍ بين كاثوليكيّين وأرثوذكسيّين، كي نستأنف المسيرة بقلبٍ جديدٍ، وروحٍ جديدٍ... ينبغي أن يتناغم التقليدان الشرقيّ والغربيّ في الاحترام المتبادل، إن هما أرادا بناء مستقبلٍ أفضل. هذه الضرورة تبدو لي أكثر إلحاحًا من أجل شعوب يوغوسلاڤيا، التي أودّ إيكالها، اليوم، إلى حماية القدّيسَيْن كيرلّس وميتوديُس، عساهما يقودان هذه الشعوب، في هذه الأيّام العصيبة، كي يقوم بينها، من جديدٍ، تعايشٌ سلميٌّ في الاحترام المتبادل والعدل**».

ودعا إلى شمل المسلمين بهذا التوافق وهذا الوئام، مناشدًا: «**بأقوال محبّةٍ، وسلوكٍ صادقٍ، انشدوا أسباب تلاقٍ وتفاهمٍ مع المؤمنين المسلمين، من أجل بناء تعايشٍ سلميٍّ قائمٍ على احترامٍ متبادلٍ لحقوق كلّ فردٍ، وكلّ شعبٍ**».

وعبّر الحبر الأعظم عن تمنّيه أن ينسحب هذا السلام في التعدّديّة، على سائر بقاع العالم التي تواجه أوضاعًا مماثلةً، مشيرًا إلى أنّ الحوار هو الوسيلة إلى بلوغ هذا الهدف، وإلى مساواة كلّ الفئات في الحقوق.

وفي اليوم التالي، وكان الأحد التالي لأحد الفصح، أقام قدّاسًا في ملعبٍ. وفي أثنائه تساقط الثلج، في غير أوانه، مخلّدًا ذكرى ذلك الحدث. واجتاح البرد الحبر الأعظم الذي كان في السابعة والسبعين من العمر، واضطرّ أحد مرافقيه إلى وقايته بمظلّةٍ. ولكن سرعان ما أشاع مرأى الألوف المحتشدين لسماعه، الدفء في جسده المقرور، وسرّب العزيمة إلى قلبه وهمّته.

وذكّر البابا شعب «سراييڤو» أنّ له في يسوع المسيح محاميًا يدافع عنه، وأعاد إلى أذهان المؤمنين أحداث الأسبوع العظيم: فهم، أُسوةً بالمسيح، قد تألّموا، وعلى غراره سيقومون. وهتف الحبر الأعظم: «**يا سراييڤو، يا بوسناهيرزيغوڤين، انهضا. لديكما محامٍ لدى الله، اسمه يسوع المسيح**». وأكّد أنّ ما من أحدٍ سوى يسوع، يستطيع التشفّع عن كلّ تلك الآلام، والآثام، ويقوى على استيعاب تلك الصفحة من تاريخ سراييڤو، وتاريخ أوروپّا. وليس سواه من يستطيع منح السلام المولود من الحبّ، ويقودهم إلى الغفران والمصالحة.

وقُبَيْل وصول البابا إلى سراييڤو، كانت قوى الأمن قد اكتشفت وعطّلت، تحت جسرٍ كان مقرّرًا أن يعبر فوقه، لغمًا يحتوي أكثر من خمسةٍ وعشرين كيلوغرام متفجّراتٍ. وهكذا نجا البابا من محاولة اغتيالٍ أُخرى.

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى لبنان

عقب عودته من سراييڤو، قام الحبر الأعظم بين **٢٥** و**٢٧** نيسان **١٩٩٧**، برحلةٍ إلى جمهوريّة تشيكيا، للاحتفال بالذكرى الألفيّة لوفاة الأسقف الشهيد

القدّيس «أدالبير» (Adalbert). ثمّ، في الرابع من أيّار، أعلن أوّل غجريٍّ، هو «سيفيرينو جيمينز مالاّ» (Ceferino Gimenez Malla) طوباويًّا.

وأخيرًا، في العاشر من أيّار، حقّق حلمًا عزيزًا بزيارة لبنان.

شَغف يوحنّا بولس الثاني بلبنان قديمٌ جدًّا. وقديمٌ أيضًا إعجابه بتعايش الطوائف المتعدّدة فيه. هذا الشغف سبق اعتلاءه السدّة البابويّة. وفي خطاب تنصيبه، لم يغفل تمنّي السلام والحرّيّة «للبنان الحبيب».

وطيلة استمرار القتال في لبنان لم يكفّ عن الدعوة الملحّة إلى السلم، حتّى بلغت نداءاته في هذا الشأن، مئةً وعشرين نداءً. فقد كان يشفق من عواقب الحرب على جميع اللبنانيّين، ويتوجّس خشيةً على المسيحيّين من الحرب ومن تسويات السلام. ولطالما تمنّى أن يحطّ على أرض لبنان، رسولَ سلامٍ ومصالحةٍ.

يوم ١٩٨٩/٤/٢٣، صرخ، عاليًا، استنكاره لتدمير لبنان، قائلاً: «**لا يسعنا السماح بتدمير بلدٍ وشعبٍ حيث إخوتنا المسيحيّون والمسلمون!**». ومن أقواله، أيضًا: «**إنّ لبنان الذي تحدوه مُثُل الديمقراطيّة والتعدّديّة، هو إرثٌ ثمينٌ لا يمكن لأحدٍ التسليم بزواله**». «**لبنان مجتمع حوارٍ وازدهارٍ يحسده كثيرون**». وقد دان، بحزمٍ، ما سُمّي «الحرب المسيحيّة»، التي تناحر فيها مسيحيّون أشقّاء. وبتاريخ ١٩٩٠/٥/٦، أنفذ إلى الكردينال صفير رسالةً قال فيها: «**أطلب أن يتوقّف، فورًا، الاقتتال بين الإخوة**».

وقد أتبع هذه الرسالة برسالةٍ عامّةٍ، بتاريخ ١٩٨٩/٩/٧، عبّر فيها عمّا يحزّ في نفسه من أسًى، قال فيها: «**إنّ العالم يشهد أرضًا تدمّر، حيث لم يعد للحياة البشريّة قيمةٌ. الضحايا لبنانيّون، مسلمون ومسيحيّون، وعلى الأرض اللبنانيّة يتراكم الخراب...**» وانتهى إلى القول: «**إنّ زوال لبنان سيكون إحدى كبريات الخطايا التي سيندم عنها العالم. والحفاظ عليه هو من أكثر المهامّ الملحّة نبلاً، التي يتوجّب على عالم اليوم الاضطلاع بها**».

وأوضح البابا دوافعه إلى الذود عن حياض لبنان، فقال: «**لست أفعل ذلك باسم فئةٍ أو جماعة رأيٍ خاصٍّ، بل باسم الله عينه الذي نعبده جميعًا، والذي**

نسعى إلى خدمته... إنّه لمن الواجب، بعد الآن، أن يتضافر أصدقاء لبنان وجيرانه، وجميع الإخوة في الإيمان، من أجل وقف تدفّق السلاح، ومن أجل إخراسه... كي يتمكّن اللبنانيّون من الاشتراك في صوغ مشروع حياةٍ وطنيّةٍ مبنيّةٍ على الحقّ، وعلى الاعتراف بالمميّزات المشروعة لجميع الفئات التي تكوّن المجتمع اللبنانيّ».

ولكنّ كلّ نداءات البابا تاهت في صحارى الصمم والعناد.

وما كاد يمضي شهرٌ على زيارته لسراييڤو، حتّى تيسّر له تحقيق حلمه الثاني بزيارة لبنان، يومي ١٠ و١١ أيّار ١٩٩٧. كانت المعارك قد توقّفت، ولكنّ السلام لم يستتبّ، بعدُ. وكان لا بدّ من بلسمة جراح الحرب. ولا ريب أنّ أيّ كلامٍ، في مثل هذه الظروف المعقّدة، قد يتعرَّض لتأويلٍ خاطئٍ. ولكنّ البابا كان حريصًا على قول الحقيقة، وعلى الإشارة إلى المخطئ، أيًّا كان. وقد فهمته الجموع، وتجاوبت معه، وأدرك المسلمون والمسيحيّون أنّه ينطق بلسان جميعهم.

وكان له في لبنان محطّتان رئيستان: أولاهما في حريصا، حيث وقّع، في بازيليك سيّدة لبنان «الإرشاد الرسوليّ»، المستلهم من مداولات سينودس أساقفة لبنان، والذي أطلق عليه عنوان: «**رجاءٌ جديدٌ للبنان**»، ودعا من خلاله إلى السعي «**كي تنعم كلّ الجماعات، وجميع الأفراد بالحقوق عينها، ويخضعوا للواجبات عينها**». وأهاب بكلّ اللبنانيّين إلى «بناء نظامٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ عادلٍ، يحترم الأفراد من كلّ الاتّجاهات التي تكوّن المجتمع، بغية تشييد البيت المشترك. وحذّر من الامتيازات بقوله: «**لا يُعقل ألاّ يثق أعضاء جماعةٍ بشريّةٍ واحدةٍ، يعيشون على أرضٍ واحدةٍ، أحدهم بالآخر، وأن يقاوم ويُقصي بعضهم بعضًا، باسم دياناتهم المختلفة**». غير أنّه كان واثقًا من أنّ الحرب اللبنانيّة لم تقم على أساسٍ دينيٍّ. ولذلك ارتأى أنّ اللبنانيّين، «**بتعلّمهم معرفة بعضهم بعضًا معرفةً فُضلى، وبارتضائهم التعدّديّة، سيظفرون بالظروف التي لا غنى عنها لحوارٍ حقيقيٍّ، ولاحترام الأشخاص، والعائلات والجماعات**».

ولوحظ أنّه لم يقصر خطابه على المسيحيّين، ولا على الكاثوليكيّين، بل شدّد على ضرورة التعايش بين جميع مكوّنات المجتمع، وفتحَ أبوابًا للمستقبل.

وبعد توقيعه الإرشاد، سلّم نسخًا منه إلى ممثّلي الشبيبة اللبنانيّة، الذين كان قد احتشد الآلاف منهم في الكاتدرائيّة وفي جوارها. وقد خاطبهم الحبر الأعظم، ووصفهم بأنّهم «كنز لبنان»، ودعاهم إلى الإتاحة ليسوع أن يستولي عليهم، وبيّن لهم الدور الخطير الموكل إليهم، قائلاً: «**إنّ مهمّتكم هي إسقاط الجدران التي أُقيمت في مراحل تاريخكم الأليمة. لا تقيموا جدرانًا جديدةً داخل أمّتكم. إنّني أختاركم اليوم، شهودًا مميّزين، مؤتمنين على رسالة التجديد الذي تحتاج إليه الكنيسة وتحتاج إليه بلادكم**». وأهاب بهم أن يهبّوا إلى «**بناء جسورٍ، وجعل لبنان يُزهِر**». وعلى هتافهم «حرّيّة»، ردّ: «**يحيا السلام**».

وفي نهاية خطابه مازحهم قائلاً: «**لقد أصغيتم بانتباهٍ شديدٍ إلى خطابي. فقد راقبت ردود فعلكم، ولاحظت، بعنايةٍ، تصفيقكم، وتأكّدت من حدوثه في الوقت المناسب، وهذا دليلٌ لا غشّ فيه. لقد نجحتم في الامتحان**».

وإثر عودته إلى روما، أشار إلى شأن الشبيبة، موضحًا: «**إنّ وجود الشباب يوحي بالمستقبل. وبتسليمي لهم الوثيقة الناتجة عن السينودس، توخّيت التشديد على أنّ تحقيق المهامّ التي حدّدها سينودس الأساقفة يعتمد، إلى حدٍّ كبيرٍ، على الشبيبة اللبنانيّة. إنّ مستقبل الكنيسة والأمّة اللبنانيّة يعتمد على شبيبة لبنان. فعليهم اجتياز عتبة الألفيّة الثالثة، وإدخال وطنهم والكنيسة في حقبة الإيمان هذه**».

ولا مراء أنّ من أكثر أقوال يوحنّا بولس الثاني عمقًا، وبعد صدًى، وخلودًا، في هذه المناسبة، هو قوله المأثور: «**لبنان أكثر من وطنٍ، إنّه رسالةٌ**». وكان قد سبق له قول: «**لبنان أكثر من بلدٍ، إنّه رسالة حرّيّةٍ، ونموذج تعدّديةٍ للشرق والغرب**».

وكانت محطّته الثانية في ساحةٍ على شاطئ البحر، إزاء ساحة الشهداء، ببيروت. حيث احتفل بقدّاسٍ، يوم الأحد ١١ أيّار، شاركه فيه بطاركة الكنائس الكاثوليكيّة في لبنان، وتقاطر لحضوره مئات الآلاف. وفي الخطاب الذي ألقاه باللغة الفرنسيّة، ذكّر بالرغبة التي طالما شدّته إلى زيارة لبنان، وبمحبّته لجميع اللبنانيّين، مسلمين ودروزٍ، ومسيحيّي الطوائف الأُخرى، وأبناء الطوائف الكاثوليكيّة الستّ الموجودة في لبنان. وشدّد على رسالة لبنان التاريخيّة التي

برهنت أنّ بوسع ديانات مختلفةٍ التعايش بسلامٍ، ووئامٍ، وإخاءٍ، وتعاونٍ، واحترامٍ لحقّ كلّ فردٍ بالحرّيّة الدينيّة. وهذا ما يليق بالأرض التي جاءها يسوع بالبشارة، والتي عرف شعبُها الخلاصَ منذ ألفي عامٍ. وإذ كان واقفًا إزاء ساحة الشهداء، دعا اللبنانيّين إلى أن يجعلوا من الشهادة التي عهدوها، لا علّة فُرقةٍ، بل فرصةً لبناء وطنهم في الحرّيّة والوحدة.

وللمسيحيّين قدّم هذه النصيحة: «**تعاونوا مع مواطنيكم حسني النوايا، وهم الأغلبيّة، في سبيل إعادة نسج لحمة الحياة الوطنيّة. وزوّدوا الأمّة اللبنانيّة بقوامٍ كفيلٍ بمقاومة الهزّات الداخليّة، والضغوط الخارجيّة**».

وقد ناشد اللبنانيّين، وهو يودّعهم، أن يظلّوا، في المنطقة وفي العالم، نموذجًا لتعايش الحضارات والثقافات والأديان، وللمساواة بين الجماعات المختلفة.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الصحافيّين المرافقين للبابا، في هذه الرحلة، كانوا يتوجّسون خشيةً من الظروف السائدة في لبنان، آنذاك، ومن عدد المشتركين في الترحيب بقداسته، ومتخوّفين من أن تكون تلك الزيارة فرصةً لأحداثٍ داميةٍ. والتمس بعضهم من الحبر الأعظم أن يمنحهم حلاً جماعيًّا من خطاياهم. ولكنّهم دهشوا للهدوء والفرح اللذين خيّما على اللقاءات الحاشدة، والجموع المتراصّة. وبعد أشهرٍ، أُتيح لزائري الڤاتيكان مشاهدة غطاءٍ أنيقٍ موشّى بأرزة لبنان، ممدودٍ فوق مائدة الحبر الأعظم، الذي حرص على تأكيد محبّته للبنان، واهتمامه به.

بولونيا: التناغم المستعاد

زيارة يوحنّا بولس الثاني إلى وطنه الأمّ، پولونيا، المقرّرة في عام **١٩٩٧**، كانت تكتنفها غيومٌ كثيفةٌ. أُولاها ذكرى زيارته السابقة الفاشلة، عام **١٩٩١**، التي شوّهت صورته، وأظهرته في صورة شيخٍ لم يستطع فهم العالم الجديد الذي أسهم في خلقه. وثانيتهما تولّي السلطة، في پولونيا، حكومة ذات صبغةٍ شيوعيّةٍ، خلفت حكومة ليش ڤاليسّا، ثمّ الشقاق المتحكّم بنقابة التضامن، وخطر استغلال الحكّام الجدُد، تلك الزيارة لاقتناص مكاسب شخصيّةٍ.

وكانت، هناك، خشيةٌ من أن يستغلّ إعلاميّون ظهور البابا على التليفزيون، وقد أمسى هشّ القدرات الجسديّة، بطيء الحركة، فيوحوا بأنّه عاد إلى وطنه كي يموت ويُدفَن فيه، أو، على الأقلّ، كي يودّع مواطنيه الوداع الأخير.

ولكن، في مقابل كلّ هذه المحاذير، كان المسؤولون الكنسيّون البولونيّون، قد أعدّوا لتلك الزيارة على نحوٍ أفضل كثيرًا ممّا فعلوا عام **١٩٩١**، وشنّوا حملةً ذكيّةً، في أوساط المثقّفين والإعلاميّين، ورجال الكنيسة، وواصلوا هذه الحملة، في أثناء الزيارة، بنشرهم مقابلاتٍ، وأخبارًا، وإيضاحاتٍ عن وضع الكنيسة، وأفكار الحبر الأعظم. وكانت التطوّرات التي حدثت في البلاد، وخيبات الأمل التي نجمت عنها، قد أثبتت، لدى شريحةٍ عريضةٍ من القوم، صواب تعاليم البابا الأخلاقيّة والمسلكيّة.

وخاب ظنُّ من توقّعوا فشلاً آخر لزيارة البابا، الذي ما انفكّ، بين **٣١** أيّار و**١٠** حزيران **١٩٩٧**، يبلّغ رسائل تشجيعٍ ومحبّةٍ، من خلال عشرين خطابًا وعظةً. فمنذ وصوله أعلن: «**كلّ زيارةٍ إلى پولونيا هي بمثابة عودةٍ إلى بيت الأُسرة، حيث أصغر شيءٍ يذكّرنا بما هو الأغلى على قلبنا**». والذين خيّب رجاءهم الأوضاع المستجدّة، دعاهم إلى رؤيتها في ضوء مسيرة التاريخ. فمنذ قرونٍ لم يحظَ البولونيّون بما كانوا ينعمون به حينئذٍ، أي بكنيسةٍ حرّةٍ، في دولةٍ حرّةٍ، وبقسطٍ من الاستقرار. فليستفيدوا من ذلك كي يرسوا أُسس مجتمعٍ مدنيٍّ هو الشرط الذي لا مفرّ منه لكلّ ديمقراطيّةٍ. ولا تكن لهم المواطنيّة عبئًا، بل دعوةً تساعدهم على بعث الحياة في كلّ مجالات الحياة، بما فيها المجال السياسيّ والاقتصاديّ، بفضل خميرة الإنجيل. وليعدّوا جذورهم مصدر الفضائل اللازمة لحسن سير مجتمعٍ حرٍّ، وليفخروا بروح المبادرة الذي يحدوهم.

لقد ألهبت تلك الزيارة مشاعر المودّة التي شدّت المجتمع البولونيّ إلى مواطنهم البابا. زياراته الأولى، عندما كان ما زال شابًّا يفيض حيويّةً، جعلت منه بطلاً قوميًّا. وها هو، وقد شاخ ووهنت قواه، ما برح يضجّ طيبةً وعزيمةً فولاذيّةً. لقد اختلفت صورته، ولكنّ إيقونة البطولة ما زالت ملتصقةً به. ورغم مصاعبه الجسديّة، لم يفقد شيئًا من سداد حكمه ورشاده، وتوقّد ذهنه.

وفي غربي پولونيا، كان من المتوقّع أن يحضر مئتا ألف مؤمنٍ لمشاركته الصلاة، غير أنّ الذين قدموا لهذا الغرض تخطّى عددهم أربع مئة ألفٍ. وأمامهم أعاد البابا إلى الذاكرة قول الكردينال «ڤيشينسكي»، الذي كان قد تنبّأ بأنّ البابا البولونيّ المنتَخَب حديثًا، سيقود الكنيسة إلى الألفيّة الثالثة. وناشد الحاضرين أن يسألوا الله تمكينه من رفع هذا التحدّي. فردّ الجمهور، بصوتٍ واحدٍ: «بوسعك الاعتماد علينا».

ويوم ٤ حزيران، في مزار «تشينستوهوڤا»، رحّب به حشدٌ من نصف مليون مؤمنٍ، متمنّين طول العمر للبابا الذي أجابهم، بعد تلاوة الإنجيل: «**إنّه يعيش ويطعن في السنّ**».

وفي ٦ حزيران، أقام القدّاس في الجوّ الذي طالما عشقه، في محطّة تزلّجٍ، على جبال «تاترا». وفوق تلك القمّة، جثا أمامه عمدة القرية، مرتديًا الزيّ التقليديّ، وشكر له إعتاق مواطنيه من «الاستعباد الأحمر»، ولأنّه علّمهم كيف يجتثّون من أرض پولونيا، كلّ ما يُذِلّ ومن يستعبد. وبعد القدّاس، أنشد الحضور نشيدًا وطنيًّا، يدعو إلى التشبّث بأرض الوطن، استدرّ دموع البابا وجميع الحضور.

ويومًا فيومًا، كان قداسته يستحوذ بمزيدٍ من الفتنة على قلوب مواطنيه. وعندما قدم للصلاة، يوم ٨ حزيران، في كنيسة كراكوڤيا، لزمه أربعون دقيقةً كي يخترق الجموع المتراصّة التي ضمّت فنّانين ومفكّرين، وحيث صافح أصدقاء قدامى، ودعاهم بأسمائهم، واستوضح عن أفراد أُسرهم، ولاقى من الجامعيّين، الذين عُهِد عنهم التحفّظ والوقار، هتافاتٍ صاخبةً. وقد شهدت كراكوڤيا، في ذلك اليوم، واحدًا من أكثر مهرجاناتها ازدحامًا، بحضورٍ تجاوز مليونًا ونصف مليون شخصٍ، وازدانت بأبهى زينةٍ، وخفقت فيها عشرات الأعلام الخاصّة بمؤسّساتٍ وجمعيّاتٍ كاثوليكيّةٍ، وذرعت شوارعها مختلف ألوان الأزياء الرهبانيّة. وقد توّج البابا احتفالات ذلك اليوم بتطويب الملكة البولونيّة «يدڤيغا» (Jadwiga).

ولم يقتصر ذلك اليوم على روعة الاحتفالات، إذ اغتنم قداسته تلك المناسبة

كي يؤكّد، مرّةً أُخرى، تفوّق الثقافة على السياسة والاقتصاد، وكون الكنيسة معلّمة الثقافة.

وحفلت تلك الزيارة بذكريات الماضي. ولكنّ قداسته أبى أن تكون مجرّد توقٍ إلى حقبٍ غابرةٍ. وأوضح رأيه: «**ليس الوفاء للجذور، نسخًا آليًّا للماضي... بل هو ابتكارٌ لتوفيقٍ عضويٍّ بين قِيَمٍ أبديّةٍ، طالما أثبتها التاريخ، وتحدّيات عالم اليوم: الإيمان والثقافة، الإنجيل والحياة**».

واستشهد بالملكة «يدڤيغا» التي طوّبها حينذاك، التي فهمت السلطة وسيلةً للخدمة، فغدت شفيعة الثقافة، والتي قدّرت رعيّتُها عطفَها على آفات عصرها، فأمست جديرةً بأن تكون قدوةً للديمقراطيّة الجديدة في پولونيا. فباستيحاء هذا التقليد العريق، يسع الپولونيّين بناء مجتمعٍ حرٍّ حقًّا، جديرٍ بنصف قرنٍ من التضحيات التي بذلوها في سبيل حرّيّتهم.

وفي السياق عينه، دافع قداسته عن بقاء كلّيّة اللاهوت داخل جامعة «ياجلّون»، لأنّ الثقافة التي تقطع صِلاتها بفائق الطبيعة، تعجز عن خدمة خير البشر، وعن معرفة حقيقة الشخص البشريّ.

وفي كلّ خطاباته، تفادى البابا الإشارة إلى السياسة، ولكنّه شدّد على عظمة شأن الثقافة في ضمان مستقبل الأفراد والجماعة، مؤكّدًا أنّ مستقبل پولونيا يعتمد على وعيٍ يقظٍ بأنّ الإنسان لا يخلق الحقيقة، بل «إنّ الحقيقة تتجلّى لمن يثابر على نشدانها». ومن ثمّ فإنّ للجامعة دورًا في بناء المستقبل أكثر من البرلمان، والبحث في مقوّمات الكائن البشريّ، هو أخطر شأنًا من البحث في المرشّح الذي يحسن التصويت له.

وكان الحبر الأعظم قد وجّه إلى رؤساء جمهوريّات أوروپّا الوسطى والشرقيّة، المستقلّة حديثًا، رسالةً ذكّرهم فيها أنّ السياسة لا تقتصر على كسب الانتخابات، وأنّ السياسة التي تصبح مملكة اللاأخلاق، هي التي سبّبت لأوروپّا قرنًا من المِحَن. فعلى أوروپّا جديدةٍ وليدةٍ، أن تضطلع بدعوتها في العالم، باكتشافها جذورها الثقافيّة والدينيّة العريقة.

في مستهلّ زيارته لموطنه، كان يحوم في الجوّ شعورٌ بالوداع، ولكن، بعد قضائه فيه أحد عشر يومًا مفعمةً حيويّةً، شرع مواطنوه يُعدّون لزيارةٍ أُخرى له إلى المواقع التي كان يمارس فيها هواية التجذيف في الأنهر.

وفي إيطاليا أيضًا

قيل إنّ ما من بابا أخذ مأخذ الجدّ صفته أُسقف روما، ورئيس أساقفة إيطاليا، مثلما أخذها ذلك البابا اليولونيّ. فحتّى نهاية عام **١٩٩٦**، كان قد قام بمئةٍ وسبعٍ وعشرين زيارةً راعويّةً، إلى أكثر من مئتين وخمسين موقعًا مختلفًا في إيطاليا، وألقى ٨٥٨ خطابًا وعظةً في كنائس إيطاليّةٍ، وذرع سبعين ألف كيلومترٍ في طول البلاد وعرضها، فضلاً عن **٢٤٩** زيارةً قصيرةً إلى الرعايا، حيث صلّى، ووعظ، والتقى المؤمنين.

في شهر آذار **١٩٩٤**، احتفل، مع مجلس الأساقفة الإيطاليّين، بقدّاسٍ أمام ضريح القدّيس بطرس، مستهلاً «الصلاة الكبرى من أجل إيطاليا»، التي ستدوم تسعة أشهرٍ، عن نيّة إعادة تبشير إيطاليا بالإنجيل. وفي **١٩٩٧/٩/٢٧**، أقيم مؤتمرٌ قربانيٌّ في مدينة «بولونيا»، وخاطب قداسته آلافًا من الشبّان المشاركين في الحدث، وقال: «**سألتموني كم من الدروب على الإنسان أن يسلك كي يُدعى إنسانًا، وأنا أجيبكم: دربٌ واحدٌ هو المسيح الذي أعلن: «أنا الطريق». إنّه طريق الحقيقة، وطريق الحياة**».

وجديرٌ بالتنويه أنّ ذلك المؤتمر واكبته حفلاتٌ موسيقيّةٌ رائعةٌ، أضفت على المؤتمر جوًّا مميّزًا.

في أعقاب الحرب العالميّة الثانية، كانت الماركسيّة قد سيطرت، فعلاً، على حكم إيطاليا. ولم تكن مناهضة يوحنّا بولس الثاني للشيوعيّة الأوروبّيّة، سعيًا إلى مجرّد درء خطرٍ سياسيٍّ، بل كان يستهدف تدمير «كنيسةٍ» بديلةٍ عن كنيسة يسوع، ودرء استحواذها على خيال الشباب. وكان فشل مختلف السياسات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، قد خلق مُناخًا ملائمًا للتطلّع إلى جهةٍ أُخرى، أوفر

قدرةً على إرضاء تطلّعات النفس البشريّة. ولم يتوانَ قداسة البابا عن اغتنام تلك السانحة لإبراز صورةٍ جديدةٍ لإيطاليا، يجدر بالإيطاليّين الافتخار بها، وأيضًا للممارسة المسيحيّة في العالم المعاصر، حيث توهّم كثيرون أنّ النأي عن الدين هو سبيل النجاح.

وكان قداسته قد عقد أواصر تفاهمٍ وصداقةٍ مع فلاسفةٍ إيطاليّين بارزين، ساروا في ركبه. وكان بعض روّاد الخطّ الشيوعيّ، مثل «ماسّيمو داليما»، الذي أصبح رئيس وزراء، قد افتُتنوا بكتاب البابا «ادخلوا إلى الرجاء»، وتأثّروا بتحليله لأسباب انهيار الشيوعيّة، وبتأكيده أنّ عالم المستقبل ينبغي أن يُبنى على البحث عن قِيَمٍ، وعن روحانيّةٍ. وقد علّمت التجربة السيّد «داليما» أنّ محاولة تحرير الإنسان بأساليب ماديّةٍ صرفٍ، قد أفضت إلى الإخفاق، ومن ثمّ فلا بدّ من أن يحدو العملَ السياسيّ دافعٌ أخلاقيٌّ وروحيٌّ.

لا ريب أنّ ذلك التحوّل كان خطوةً هامّةً على درب الثقافة الإيطاليّة. وكان لا بدّ من مواصلة الحوار بين الكنيسة واليسار الإيطاليّ، من أجل تفادي كلّ انحرافٍ.

منارات بشريّةٌ

لطالما أكّد يوحنّا بولس الثاني أنّ للمثل الحيّ، وللقدوة الصالحة، قيمةً كبرى في ميدان التبشير بالإنجيل. ولذلك حرص على إبراز من كانوا تبشيرًا حيًّا وعلى تكريمهم.

ففي ١٩٩٧/٦/١٩، منح جائزة البابا بولس السادس لبطل العطف على المعاقين، «جان ڤانييه»، أُستاذ الفلسفة الكنديّ، الذي هجر كلّ شيءٍ كي يؤسّس «السفينة» (L'arche)، التي تعنى بشتّى حالات الإعاقة الذهنيّة، وكرّس حياته لهذه الرسالة.

وفي الخامس من أيلول ١٩٩٧، فُجع الحبر الأعظم، وفُجع عالَم المحبّة، بأحد أعظم رموز التضحية والعطاء في زماننا، ، مؤسِّسة «مرسلات المحبّة»، الراهبة

الألبانيّة المولد، الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، التي تجلّت نبراسًا مضيئًا في غياهب القرن العشرين، والتي جسّدت العديد من المبادئ التي تبنّاها يوحنّا بولس الثاني شعاراتٍ لحبريّته، مثل الدفاع عن حقّ الحياة، وعن الأُسرة، والاهتمام بالفقراء والمنبوذين، وكرامة النساء، وحقّ الأشدّ وضاعةً بالكرامة الإنسانيّة. لقد وُصفت بأنّها، في ذاتها رسالةٌ، ونعتها قداسته بأنّها «أخت الله». وقد جمعهما تفاهمٌ روحيٌّ وثيقٌ فريدٌ، ومن ثمّ قال قداسته إنّ رحيلها خلّف في نفوسنا شعورًا باليتم.

وبما أنّ وفاة الأميرة ديانا المأسويّة، كانت قد سبقت بخمسة أيّامٍ انطفاء الأُمّ تيريزا، فقد انتهز قداسته تلك المناسبة، كي يؤكّد ما لم يكفّ عن إعلانه، وهو أنّ العظمة الحقيقيّة تكمن في تجاوز الذات الذي بلغته الأُمّ تيريزا، بلفتها الأنظار إلى منبوذي الأرض، وبوقف كلّ حياتها على خدمتهم، وبتعبئة آلاف المتطوّعات لمشاركتها هذه المغامرة المقدّسة. وما فعلت ذلك إلاّ لأنّها كانت ترى يسوع في كلّ متألّمٍ.

ولاحظ الحبر الأعظم أنّ الثروة والجمال، والمكانة الاجتماعيّة لا تصبح أدواتٍ للنعمة، إلاّ عندما تتخلّى عن ذاتها، امتثالاً لمنطق الصليب، ولمقتضيات عطاء الذات.

وكانت نداءاتٌ قد أُطلقت، حتّى قبل مراسم دفن الأُمّ تيريزا، في ١٣ أيلول، من شتّى بقاع العالم، مطالبةً بتطويبها فورًا. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني، مع كلّ تقديره لقداستها، واقتناعه بها، آثر عدم الاستعجال، والالتزام بالإجراءات المتّبعة، ولكنّه أعرب عن رغبته في ألاّ يتأخّر موعد إعلان قداستها.

وفي ١٩/١٠/١٩٩٧، رفع الحبر الأعظم إلى مصافّ كبار معلّمي اللاهوت، القدّيسة تيريز الطفل يسوع، وردة الحبّ الإلهيّ التي قُطفت في ربيع عمرها، والتي رغم قصر مسيرتها على الأرض، خلّفت إرثًا روحيًّا ثرًّا.

نشاطٌ لا يفتر

يوم الثاني من تشرين الأوّل ١٩٩٧، باشر يوحنّا بولس الثاني رحلةً إلى «ريو

دي جانيرو»، كي يرعى لقاء الأُسر العالميّ الثاني الذي دعا إليه. وقد لحظ الصحافيّون المرافقون له ظهور التعب عليه، وتفاقُم رجفة يده. غير أنّ ذلك الحبر، الذي وُصِف بأنّه «مهندس الأُسرة»، كان حريصًا على رعاية هذا اللقاء، ليقينه بأنّ «**مستقبل البشريّة، يمرّ عبر الأسرة، في البرازيل، وفي أميركا اللاتينيّة، وفي العالم أجمع**».

وكان مدهشًا، حقًّا، منظر ملعب «ماراكانا» في ريّو، حيث احتشد الألوف، لا لحضور مباراة كرة قدمٍ، ولا للهتاف لأبطالٍ رياضيّين، بل من أجل مشاهدة البابا الشيخ، والإصغاء إليه، والتصفيق له.

ومن أقواله للصحافيّين، في هذه المناسبة، أنّ الكثير من أحداث التاريخ الحديث يستوجب فحص ضميرٍ، وأنّ البابا والكنيسة لا يتحرّجان من الاعتراف بأخطائهما، وطلب الصفح عنها، في حين يلتزم آخرون الصمت واللامبالاة، مؤكّدًا أنّه، مع ذلك، سيمضي قُدُمًا في هذا النهج.

وعندما سأله صحافيٌّ عن «الهولوكوست»، أجاب بأنّ مجازر عنصريّةً أُخرى كثيرةً قد ارتُكبت، ولا يجوز إغفالها.

وأشار قداسته إلى أنّ هذه الرحلة ستكون رحلته الأخيرة، في ذلك العام الذي حفل بالأسفار والرحلات.

ثمّ، في الثلاثين من تشرين الثاني، أقام قدّاسًا افتتح به السنة الإعداديّة الثانية ليوبيل العام ٢٠٠٠ الكبير، وهي السنة المكرّسة للروح القدُس.

وفي ١١/١٦، افتتح سينودسًا خاصًّا بأميركا، امتدّ حتّى **١٩٩٧/١٢/١٢**.

وأخيرًا البابا في كوبا

لطالما تمنّى يوحنّا بولس الثاني زيارة كوبا، كي يُحيي فيها، من جديدٍ، حضور المسيح.

ومع أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة في كوبا، كانت قد تعرّضت للاضطهاد في أيّام

الثورة الأولى، ومع أنّ كلّ محاولاتها للتأثير على المجتمع قد صُدّت، إلاّ أنّها لم تنشط في الخفاء، ولم تقاوم النظام جهارًا، كما يحدث في بعض دول أوروبّا الشرقيّة والوسطى. وعقب انهيار الحكم الشيوعيّ في العالم، فتح النظام الكاستريّ للكنيسة باب حوارٍ، كفيلاً بإخراجه من عزلته.

وجديرٌ بالتنويه أنّ ما من رحلةٍ بابويّة قد استلزمت تمهيدًا وإعدادًا وانتظارًا، مثلما استلزمت رحلة يوحنّا بولس الثاني إلى كوبا. فمنذ عام ١٩٨٨ كان كردينال نيويورك، «أوكونور»، قد زار هافانا من أجل تكريم ذكرى الأب «فيليكس ڤاريلا»، بطل استقلال كوبا في القرن التاسع عشر، الذي قضى نحبه منفيًّا في الولايات المتّحدة. وفيما كان الكردينال، ذات مساءٍ، يدخل الكاتدرائيّة، قوبل برعدٍ من التصفيق، وبوابلٍ من قصاصات ورقٍ تحمل أسماء معتقلين سياسيّين، كانت أُسرهم تأمل أن يتوسّط الكردينال بشأنهم مع الحكومة. وقد سلّم الكردينال لائحةً بهذه الأسماء لكاسترو، في أثناء اللقاء الليليّ الذي ضمّهما، والذي استمرّ أربع ساعاتٍ، وانتهى في الثالثة والنصف فجرًا. وقد خلّف ذلك اللقاء في نفس كاسترو أثرًا طيّبًا. وفي غروب ذلك العام نفسه، قضى الكردينال الفرنسيّ «إتشيغاراي» عيد الميلاد في كوبا، ولمّح إلى رغبة البابا في زيارة الجزيرة. ثمّ وجّه الأساقفة الكوبيّون دعوةً إلى البابا كي يقوم بتلك الزيارة، ولكنّ تحقيقها تعرّض لسنواتٍ من المدّ والجزر، ولا سيّما عقب توجيه الأساقفة، عام ١٩٨٩، بتأثيرٍ ممّا كان يجري في أوروبّا، رسالةً إلى كاسترو، يحثّونه فيها على التخلّي عن السلطة الديكتاتوريّة، ما أثار سخطه، وجعله يصف الأساقفة بأعداء الثورة، ويمنع تسليم مطابع مرسلةٍ من ألمانيا لاستخدام الكنيسة.

وحدث أوّل تحوّلٍ إيجابيٍّ، عام ١٩٩٢، عندما قرّر الحزب الشيوعيّ الكوبيّ تغيير صفته حزبًا «ملحدًا» إلى حزبٍ «علمانيٍّ»، وقَبِل مؤمنين في صفوفه. ولكن، بمناسبة القمّة العالميّة للبيئة، التي عُقدت في ريو دي جانيرو، في ذلك العام نفسه، عاد كاسترو فاتّهم الأساقفة الكوبيّين بالتعاون مع حكومة الولايات المتّحدة المقيتة. وبدا وكأنّ مشروع زيارة البابا قد طُوي.

عام ١٩٩٣، نشر الأساقفة الكوبيّون رسالةً راعويّةً ندّدوا، فيها، بما انتهت

إليه الحياة في كوبا، من وضعٍ زريٍّ اقتصاديًّا، واجتماعيًّا وأخلاقيًّا. وتبيّنوا أنّ كوبيّين عديدين يعيشون في «منفًى داخليٍّ»، ويفتقرون إلى أشياء كثيرةٍ لا يجدونها إلاّ في الخارج، مثل موادّ أساسيّةٍ، وحرّيّة الرأي والتعبير، ما أغضب الحكومة.

عام ١٩٩٤، بغية تعزيز مركز كنيسة كوبا، قرّر الحبر الأعظم منح رئيس أساقفة هاڤانا، البالغ الثامنة والخمسين من العمر، رتبة كردينال، وسمح له كاسترو بالسفر إلى روما من أجل تسلّم هذه الرتبة. واستمرّ البابا في إيفاد مبعوثين إلى كوبا.

وبتاريخ ١٩٩٦/١١/١٩، كان كاسترو يحضر القمّة العالميّة للتغذية، في روما، واستقبله يوحنّا بولس الثاني استقبالاً خاصًّا، فانتهز الزعيم الكوبيّ هذه المناسبة لدعوة الحبر الأعظم إلى زيارة كوبا. واستمرّ الإعداد لهذه الزيارة طيلة عام ١٩٩٧. واتّضحت الحاجة إلى تذليل عقباتٍ لا تُحصى. فدخول الكهنة والراهبات الراغبين في العمل في كوبا، كان محظورًا، والصحافة كانت محجوبةً عن الكنيسة، فضلاً عن جمٍّ من القضايا الحسّاسة العالقة، إلى أن حطّ الرحال في كوبا، في شهر تشرين الأوّل ١٩٩٧، «جواكين ناڤارّو ڤالس» (Joaquin Navarro-Valls)، الناطق الرسميّ باسم الكرسيّ الرسوليّ، الذي برهن عن حزمٍ، وعن دبلوماسيّةٍ بالغة الذكاء. فمنذ وصوله، أوعز إليه المسؤولون الحكوميّون أنّ عليه أن يخاطب كاسترو بلقب «القائد». ولكنّه رفض، وأكّد عزمه على مخاطبته بلقب «السيّد الرئيس»، أُسوةً بكلّ رؤساء العالم. وبذلك، ومنذ الوهلة الأولى، أكّد أنّ الكرسيّ الرسوليّ لن يكون أداةً لتحقيق مآرب النظام.

وما إن دخل «جواكين» مكتب الزعيم الكوبيّ، حتّى دار بينهما الحوار التالي:

– «حدّثني عن البابا.

– سيّدي الرئيس، أنا أحسدك.

– علامَ؟

– لأنّ البابا يصلّي من أجلك، كلّ يومٍ، يصلّي لكي يعود إلى الله رجلٌ في مثل خبرتك...».

حينئذٍ صمت كاسترو، الذي عُهد عنه ولعه بالاستفاضة في الكلام. وانتهز «جواكين» هذا الصمت، كي يروي كيف يقضي البابا نهاره، مؤكّدًا أنّ أفضل فترةٍ هي التي يقضيها مصلّيًا، قبل احتفاله بقدّاس السابعة والنصف. وبدا كاسترو يصغي مسحورًا، وقد طافت به ذكريات طفولةٍ مسيحيّةٍ، ما زالت كامنةً في أعماق ذهنه وقلبه. وعاد «جواكين» إلى موضوع زيارة البابا، فقال:

– «سيّدي الرئيس، سيصل الحبر الأعظم إلى كوبا يوم **٢١** كانون الثاني القادم. وهذا هو واقعٌ، وليس احتمالاً. ومن مصلحة كوبا أن تنعم هذه الزيارة بنجاحٍ باهرٍ، وأن تكون للعالم مفاجأةً كبرى».

هذا القول أثار اهتمام كاسترو. وحينئذٍ فسّر له محدّثه ما كان يقصد بالمفاجأة. واقترح أن يتّفقا على تحقيق النجاح المنشود.

وكان مطلبه الأوّل أن تحتفل كوبا بعيد الميلاد، عام **١٩٩٧**، بصفته عيدًا وطنيًّا، للمرّة الأولى منذ الثورة. فاعترض كاسترو بحجّة أنّ عيد الميلاد يقع في عزّ موسم حصاد القصب السكّريّ. ولكنّ «جواكين» أجابه: «ولكن سيسعد البابا بشكرك علنًا، منذ أن تحطّ طائرته في مطار هاڤانا، لإقرارك ذلك العيد يوم عطلةٍ رسميّةٍ.

حينئذٍ أطرق كاسترو بضع لحظاتٍ، وقال:

– «يمكن أن يتمّ ذلك، لهذه السنة فقط».

وتطرّق «جواكين ناڤارّو» إلى قضيّة الكهنة والراهبات الراغبين في العمل في كوبا، ولكنّهم لا يحصلون على تأشيرةٍ تسمح لهم بدخول البلاد. فادّعى كاسترو أنّ هذا الموضوع يتطوّر إيجابيًّا. غير أنّ محاوره اعترض بأنّ الحصول على إذنٍ بدخول كوبا، يستغرق وقتًا طويلاً جدًّا، في حين أنّ الكنيسة بحاجة إليهم في الحال، من أجل الإعداد لزيارةٍ ناجحةٍ. حينئذٍ استوضح كاسترو:

– «إلى كم منهم تحتاجون؟

– على الأقلّ إلى نصف عدد المدوّنين على قوائم الانتظار».

وبعد أيّام معدوداتٍ، مُنحت تأشيرات دخولٍ لسبعةٍ وخمسين كاهنًا وراهبةً، يمثّلون، تحديدًا، نصف عدد المسجّلين على قوائم الانتظار.

وحان الأوان للبحث في الجمهور الذي سيسمح له بالمشاركة في الحدث، علمًا بأنّ النظام كان يأبى منح الناس عطلةً، في مواعيد عملهم، ولا سيّما إن كانت الأسباب دينيّةً. ولكنّ «جواكين ناڤارّو» ذكّر بأنّ البابا هو رئيس دولةٍ، ومن المألوف استقبال رؤساء الدول رسميًّا وشعبيًّا، من باب اللياقة والتكريم، وارتضى كاسترو منح العاملين عطلةً مدى ستّ ساعاتٍ، في أيّام زيارة البابا.

وانتهى اجتماع الرجلين عند الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين، فجرًا، وقد خيّم عليه جوٌّ من التفاهم والانشراح، بعد أن استقرّ في يقين الزعيم الكوبيّ أنّ زيارة البابا ستكون حدَثًا مدوّيًا، فلا بدّ من توفير أسباب النجاح له. ولفت نظر زائره، في هذه المناسبة، إلى أنّ الثورة الكوبيّة لم تناهض الكاثوليكيّة، يومًا. ولم يُسفك، في كوبا، دم كاهنٍ واحدٍ، خلافًا لما جرى في أثناء الثورة المكسيكيّة، والحرب الأهليّة الإسبانيّة. وفيما كان يواكب «جواكين» إلى سيّارته، وهو يضجّ فرحًا، كان يسترجع، باعتزازٍ ومتعةٍ، ذكرى استقبال البابا له في روما.

وبقي على موفد البابا أن يظهر قدرًا مماثلاً من الدبلوماسيّة الذكيّة، كي يقنع سائر المسؤولين الكوبيّين بالتعاون من أجل إنجاح زيارة الحبر الأعظم.

كان جدار برلين قد انهار منذ تسع سنواتٍ، وتحوّلاتٌ جوهريّةٌ قد حدثت في أماكن عديدةٍ من العالم، فيما ظلّت كوبا من الدول القليلة التي ما برحت تستهدي بالمبادئ الماركسيّة، مع أنّ كاسترو لم يلتزم، يومًا، التزامًا كاملاً، بالإيديولوجيا الماركسيّة، وكان قد اعترف أنّه لم يطالع من كتاب «الرأسمال» سوى عشرات الصفحات.

غير أنّ بوادر تطوّرٍ قد بدأت تظهر في الأُفق، وجاء ذلك الشيخ المسربل بالبياض، الذي أثقلت السنون والجهود والأمراض كاهله، كي يرفد هذه البوادر

بدعمه. جاء كي يبلّغ شبيبة كوبا رسالة حرّيّةٍ وحقيقةٍ، وحياةٍ، ويشدّ عزيمتها بالزخم والحيويّة والرجاء، بمنأًى عن كلّ عنفٍ.

تساءل كثيرون عمّا عسى أن تغيّر زيارة البابا في وضع كوبا. ولكن، منذ وصوله إلى المطار، تبيّن أنّ أمورًا جوهريّةً قد تغيّرت. فللمرّة الأولى منذ أربعين سنةً، لم يعد اهتمام الجماهير حكرًا على كاسترو وثورته. فقد ظهرت للكوبيّين صورة ثورةٍ أُخرى، ثورةٍ مسيحيّةٍ أعادت لهم تاريخهم وثقافتهم الأصيلة. وفي حين مضى كاسترو قُدُمًا في تذكيرهم، بصخبٍ، أنّهم ضحيّة الاستعمار، دعاهم البابا، برفقٍ وهدوءٍ، أن يكونوا صانعي مصيرهم. وطيلة الأيّام الأربعة، التي أمضاها يوحنّا بولس الثاني بين ظهراني الكوبيّين، أشاحوا عن الشعارات المدوّنة على جدران البلاد، معلنةً أنّ «فيدل هو الثورة، والثورة هي كوبا»، وحدّقت أبصارهم إلى ثائرٍ آخر، من نمطٍ مختلفٍ.

كانت كوبا معزولةً عن العالم، بانتظار رحيل مَن طالما أحكم قبضته عليها، وجاء يوحنّا بولس الثاني كي يطلق دفقة هواءٍ منعشٍ، هاتفًا: «فلتنفتح كوبا على العالم، وليُفتَح العالم على كوبا»، مندّدًا، على السواء بالنظام الذي كان يقيّدها من الداخل، وبالحصار الاقتصاديّ الأميركيّ الذي كان يُحكم عزلها، ولكنّه لا يؤذي سوى أشدّ الأبرياء العزّل حاجةً وحرمانًا.

في الطائرة التي كانت قادمةً به إلى كوبا، سأله صحافيّون: «ما ترغب في سماعه من كاسترو؟» فأجاب: «**أرغب أن يقول لي الحقيقة. حقيقته كإنسانٍ، وكرئيسٍ وقائدٍ، وأن يقول لي الحقيقة عن بلاده، وعن العلاقات بين الدولة والكنيسة، وعن كلّ ما يهمّنا معرفته**». كان راغبًا في النأي عن أقوال الدعاوة، من أجل حوارٍ حقيقيٍّ، قد يفضي إلى التعاون.

بعد ظهر يوم ١٩٩٨/١/٢١، إذن، حطّ يوحنّا بولس الثاني في مطار هافانا. وكان في استقباله فيدل كاسترو، الذي ارتدى، لتلك المناسبة، بدلةً كحليّةً، بدلاً من زيّه العسكريّ المعتاد. وكان المراقبون قد توقّعوا مواجهةً حاميةً بين محاربَيْن يحبوان نحو الشيخوخة، ويمتلكان، كلاهما، السلطة والكاريسما،

والجرأة الفكريّة، وبرنامجًا واضحًا. ولكن سرعان ما اتّضح أنّ سلطة كاسترو كانت تعتمد على القوّة العنيفة، في حين كان ضيفه، وهو أكبر سنًّا، وأضعف قوّةً جسديّةً، وأقلّ إسهابًا في الكلام، يجسّد سلطةً نابعةً من حقائق خالدةٍ ساميةٍ، طالما قُمِعت في كوبا.

عند هبوط الحبر الأعظم من الطائرة، قدّم له أربعة فتيانٍ صندوقًا يحتوي قبضةً من تراب كوبا، فقبّله، وسار برفقة مضيفه إلى منصّةٍ وُضع عليها مقعدان. ورحّب كاسترو بضيفه قائلاً: «إنّ التراب الذي قبّلتموه، يتشرّف بحضوركم». وبعد هذه المقدّمة الموجزة، انحصر خطابه، الذي استغرق نصف ساعةٍ، في الشكوى من القوى الأمبرياليّة التي حاولت استعباد البلاد، واستبدال أهلها الهنود الأصليّين بمليون أفريقيٍّ اقتُلِعوا، عنوةً، من جذورهم. وشبّه الكوبيّين الذين قاوموا الاحتلال بطلائع شهداء المسيحيّة الذين آثروا «ألف مرّةٍ» الموت على التخلّي عن قناعاتهم. وقال أيضًا إنّه، مثلما كانت كوبا ضحيّةً، كانت الثورة التي خاضها هو، ضحيّةً بريئةً. وسيتأكّد البابا من ذلك أثناء تجوّله في المدينة، حيث سيشهد دلائل فقرٍ مدقعٍ، وبنًى تحتيّةً متهاويةً، وصيدليّاتٍ خوت رفوفها، ومستشفياتٍ مهجورةً... وإحدى أجمل جزر العالم وقد تحوّلت إلى ما يحاكي مدينةً مدمّرةً. وادّعى كاسترو أنّ ثورته ليست مسؤولةً عن شيءٍ من هذا المصير البائس، ولا هي مسؤولةٌ عن التوتّر القائم بين النظام والكنيسة منذ أربعين سنةً. بل المذنب الوحيد هو الولايات المتّحدة الأميركيّة، وما الكوبيّون إلاّ ضحايا. وفي سياق خطابه، توجّه إلى الحبر الأعظم بالقول: «إنّني معجبٌ بتصريحاتكم الجريئة في ما يتعلّق بقضيّة غاليليو، وباعترافكم بأخطاء عهد التفتيش، وأحداث الصليبيّين الدامية، وبالجرائم المرتكبة بمناسبة اكتشاف أميركا، وبمناسبة اكتشافاتٍ علميّةٍ لم يعُد يحيط بها اليوم أيّ شكٍّ، ولكنّها كانت، في زمنها، موضع مقاومةٍ وتحريمٍ. إنّ السلطة التي اكتسبتموها في كنيستكم، كانت ضروريّةً».

وعندما جاء دور البابا للكلام، نهض بمشقّةٍ، وبصوتٍ رقيقٍ، قال الحقيقة عن ذاته وعن مسيرته، مؤكّدًا أنّ الله ربّ التاريخ، وسيّد مصائر البشر، هو الذي اقتاده إلى هذه الأرض، التي قال عنها «كريستوف كولومب» إنّها أجمل أرضٍ

عاينتها عينٌ بشريّةٌ. وتمنّى أن يوفّق كلّ إنسانٍ في تلك البلاد إلى تحقيق ما يصبو إليه، وأضاف: «**لا تحبسوا أنفسكم في دور الضحايا، بل عليكم أن تكونوا صانعي تاريخكم الشخصيّ والوطنيّ الرئيسين**».

ثمّ أضاف القول إنّ أمورًا كثيرةً قد تغيّرت خلال السنوات الأربعين المنصرمة، ما عدا هذا الشعب النبيل المتعطّش إلى الله وإلى القِيَم الروحيّة، التي ما انفكّت الكنيسة توفّرها له، طيلة وجودها في الجزيرة، الذي امتدّ على خمس مئة سنةٍ. وكرّر على مسامع الكوبيّين ما لم يتوقّف عن قوله منذ تولّيه كرسيّ بطرس: «**لا تخشوا إشراع قلوبكم للمسيح. أتيحوا له أن يدخل حياتكم، وأُسرَكم، ومجتمعكم. وهكذا سيُبعث كلّ شيءٍ إلى حياةٍ جديدةٍ**».

وختم خطابه بهذا الدعاء: «**فلتوفّر هذه الأرض للجميع مناخ حرّيّةٍ، وثقةٍ متبادلةٍ، وعدالةٍ اجتماعيّةٍ، وسلامٍ دائمٍ. ولتكن كوبا، القويّة بطاقاتها الرائعة، منفتحةً على العالم، ولينفتح عليها العالم، لكي يستطيع هذا الشعب النشيط، التوّاق إلى السلام والتناغم، التطلّع إلى المستقبل بأملٍ**».

لم يلمّح إلى نظام كاسترو، ولا إلى ثورته الشيوعيّة، إذ كان يتوخّى، في المقام الأوّل، أن يعيد إلى شعب كوبا تاريخه وثقافته الحقيقيّين، وأن يلهمه التصميم على تولّي مصيره بنفسه.

أمضى البابا ليلته الأولى في هاڤانا. وخلال الأيّام الثلاثة التالية، زار مدن «سانتا كلارا»، و«كاماغوي»، و«سانتياغو». وتناولت عظاته مواضيع جوهريّةً. ففي اليوم الأوّل، الخميس ١٩٩٨/١/٢٢، في مدينة «سانتا كلارا»، ندّد باحتكار النظام تربية النشء، مشدّدًا على عدم جواز سلب الوالدين حقّهم في تربية بنيهم، واختيار أسلوب تنشئتهم، ومحتواها الأخلاقيّ والمدنيّ، والنفحة الروحيّة التي تضمن لهم تربيةً مكتملةً، ونموًّا إنسانيًّا يخدم المجتمع. وذكّر بتاريخ كوبا الذي يجهد النظام في اجتثاثه، مشيرًا إلى أنّ «**مؤسّسة الأُسرة في كوبا قد نعمت بإرثٍ غنيٍّ بالفضائل... وكانت تلك الأسر المتشبّثة بالمبادئ المسيحيّة، جماعات محبّةٍ متبادلةٍ، وفرحٍ، واحتفالٍ، وثقةٍ وأمانٍ ومصالحةٍ...**» وأنهى هاتفًا: «**يا كوبا اعتني بأُسرك، كي يظلّ قلبك طاهرًا**».

ويوم الجمعة، رحّب به، في ساحة «كاماغوي»، مئتا ألف شابٍّ، كانت الدعاوة الإلحاديّة قد أصمّت آذانهم منذ مولدهم، واستقبلوه بالغناء والرقص والتلويح بعلمي الفاتيكان وكوبا، المربوطين معًا على عصيٍّ. ومن فوق هيكلٍ نُصب للمناسبة، ناشدهم يوحنّا بولس الثاني أن يكونوا صانعي تاريخهم الوطنيّ الخاصّ، معلنًا: «**إنّ السعادة تكمن في التضحية. فلا تبحثوا في الخارج عمّا هو في داخلكم. ولا تنتظروا من الآخرين ما يمكنكم وما يجب عليكم أن تعملوه بأنفسكم. ولا ترجئوا بناء مجتمعٍ جديدٍ، حيث أكثر الأحلام نبلاً لن تمنى بخيبةٍ، وحيث ستكونون صانعي مصيركم**».

وبما أنّ الساحة التي كانت تحضن اللقاء، تحمل اسم البطل الثوريّ الكوبيّ «إنياسيو أغرامونتي» (Ignacio Agramonte)، ألقى البابا على مستمعيه درسًا في التاريخ، مذكّرًا بأنّ ذلك البطل كان يحدوه، في الواقع، إيمانٌ مسيحيٌّ يُجسّد كلّ القِيَم التي تجعل البشر طيّبين: الشرف، والصدق والوفاء، وحبّ العدل... وفي مواجهة العبوديّة دافع عن الكرامة الإنسانيّة.

ومع أنّه، في اليوم السابق، بدا متعبًا، إلاّ أنّه كان، دائمًا، يستمدّ من حماس الجمهور طاقاتٍ متجدّدةً. وفي مساء ذلك اليوم، تحدّث، في حرم الجامعة، إلى جمهورٍ مؤلّفٍ، في أغلبيّته، من مفكّرين وفنّانين موالين للنظام. وقبل الشروع بحديثه، تخشّع أمام ضريح الأب «فيليكس باريلا» (Felix Varela)، القائم في بهو الجامعة، وأشاد بذكرى بطل الاستقلال ذاك، الذي وصفه بأنّه أُستاذ الأساتذة المحبوب، الذي رأى فيه العديدون من الكوبيّين، حجر أساس الهويّة الكوبيّة الوطنيّة، وخير مؤلّفٍ بين الإيمان المسيحيّ والثقافة الكوبيّة، والذي علّم مواطنيه أُسلوب التفكير الأمثل: بالتفكير الحرّ. وعندئذٍ، باح البابا بما كان يصبو إلى قوله، فأوضح أنّ ذلك الكاهن البطل كان يدعو، أيضًا، إلى الديمقراطيّة التي يعدّها المشروع السياسيّ الأمثل، لأنّه الأكثر توافقًا مع الطبيعة البشريّة، وفي الآن عينه كان يشدّد على مقتضيات الديمقراطيّة، ومنها تربيةٌ تشيد بالحرّيّة المسؤولة، ومجتمعٌ مدنيٌّ قادرٌ على تطبيق القانون. ولم يخفَ على مستمعيه، ومنهم كاسترو الذي فاجأ الجميع بحضوره، والمسؤولة عن الشؤون الدينيّة، «كاريداد دييغو»، أنّ كوبا عام **١٩٩٨** كانت تفتقر إلى كلّ تلك القِيَم.

وأوجز الحبر الأعظم الرسالة التي كان يتوخّى تبليغها، فقال إنّ نظرة الأب «باريلا» إلى مجتمع عدالةٍ وحرّيّةٍ، كانت ثمرة إيمانه، ومن شأن هذا الإيمان أن يلهم، اليوم، تجدّدًا ثقافيًّا حقيقيًّا، وتجديد المجتمع الكوبيّ. فقناعته المسيحيّة، بمعزلٍ عن أيّة إيديولوجيا أُخرى، هي التي أكسبته فضائله الشخصيّة والوطنيّة، وتأثيره الخالد على الثقافة الكوبيّة. فهو كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة، وهو يتلو قانون الإيمان المسيحيّ، ويصلّي بحرارةٍ من أجل خير وطنه.

وبواسطة عباراتٍ مستندةٍ إلى واقعٍ تاريخيٍّ أكيدٍ، رسم البابا السبيل إلى القضاء على القمع، واستبداله بنظامٍ حرٍّ، كوبيٍّ صرفٍ.

وفي اليوم التالي، دُهش القوم لرؤية «راؤول كاسترو»، شقيق «فيدل»، قادمًا إلى سانتياغو لحضور قدّاس البابا. ودُهش راوول نفسه حين شاهد رمز كوبا الوطنيّ، تمثال العذراء سيّدة المحبّة، الذي كان قد أُخفي طيلة أربعين عامًا، يطوف على متن شاحنةٍ، ويشقّ دربه وسط جمهورٍ ملتهبٍ، مؤلّفٍ من مئتين وخمسين ألف شخصٍ. وبلغت دهشة راوول ذروتها، عندما سمع رئيس أساقفة سانتياغو، يندّد، صراحةً وجهارًا، بالكوبيّين الذين لم يميّزوا بين الوطن الأُمّ والحزب الواحد، بين الثقافة وإيديولوجيا محدّدةٍ، بين الأمّة والمسيرة التاريخيّة التي اجتازتها البلاد خلال العقود المنصرمة.

وأكّد البابا في عظته أنّ المسيحيّة هي التي صاغت الثقافة الكوبيّة، وقسمات أمّتها المميّزة. وطالب بالإفراج عن السجناء السياسيّين، موضحًا أنّ الكنيسة لا تسعى إلى أيّ نوعٍ من السلطة السياسيّة من أجل تحقيق رسالتها، فحسبها أن تكون عامل الخصب الذي يعمل لخير الجميع بوجوده في هيكليّة المجتمع. وهي، بدفاعها عن الحرّيّة الدينيّة، إنّما تدافع عن حرّيّة كلّ فردٍ، وعن حرّيّة الأُسَر والجماعات الاجتماعيّة المختلفة، التي يحقّ لها التمتّع بمساحةٍ خاصّةٍ من الاستقلال والسيادة. وحينئذٍ تعالت هتافات الجماهير مردّدةً: «ليبيرداد! ليبيرداد! حرّيّة، حرّيّة!» واشتدّت هذه الهتافات، عندما توّج البابا تمثال سيّدة المحبّة، التي تسلّح بشفاعتها المناضلون في سبيل الاستقلال.

وفيما كان راؤول كاسترو عائدًا إلى هاڤانا، كان يتساءل، في سريرته، هل أُصيب شقيقه بمسّ جنونٍ عابرٍ، عندما سمح بقول ما لم يتجاسر أحدٌ على قوله سحابة أربعين عامًا!

وكان للقدّاس الوداعيّ، يوم ٢٥ كانون الثاني، وقعٌ خاصٌّ. فخارج الكنيسة تبارى النظام والمؤمنون في الإعلان عن توجّهاتهم. فعلى واجهة بناءٍ مطلٍّ على الساحة، تدلّت صورةٌ جسيمةٌ لـ «شي غيڤارا»، وواجَهَتها صورةٌ لقلب يسوع، غطّت واجهة بناءٍ كاملٍ من عشر طبقات، وحملت عبارة: «يا يسوع المسيح، إليك نوكل ذواتنا».

وحضر القدّاس فيدل كاسترو وإخوته وأخواته، ومعظم مسؤولي الدولة، وأكثر من مليون مواطنٍ. وتخلّلت القدّاس مفاجآتٌ خلّفت أصداءً بعيدة المدى، وأسفرت عمّا طالما اختلج في الصدور، ولم يجد السبيل إلى اجتياز الشفاه. ففيما كان البابا يذكّر بقول يسوع: «الحقّ يحرّركم»، انطلقت من وسط الجمهور صيحةٌ تجأر: «يريدنا البابا أحرارًا!» أصدت لها هتافاتٌ صاخبةٌ، تردّد مثل لازمةٍ لا تنتهي: «ليبيرداد، ليبيرداد!» (حرّيّة، حرّيّة)، فاستحوذ الارتباك على الكردينال «أورتيغا»، المسؤول عن تنظيم تلك الرحلة، وشحب لون المسؤولين الڤاتيكانيّين المرافقين للحبر الأعظم. بيد أنّ البابا لم يحدْ عن هدوئه الساجي، ولكأنّه كان يتوقّع تلك الصرخة، وهذه الهتافات، ولا سيّما بعد أن ردّد سبع عشرة مرّةً، في أثناء خطبته، ألفاظ «حرّيّة» و«تحرير»، على مسامع شعبٍ طالما عانى القمع، وكمّ الأفواه. وما إن خفت الضجيج حتّى استأنف حديثه، رادًّا على مستمعيه: «**أجل أريدكم أحرارًا، بالحرّيّة التي جاء بها المسيح... إنّ لكوبا نفسًا مسيحيّةً، تفرض عليها دعوةً عالميّةً... وها قد حان الوقت لانتهاج دروبٍ جديدةٍ، لا لأنّ موسكو أفلست، بل لأنّنا بدنوّنا من الألفيّة المسيحيّة الثالثة، نجتاز أزمنة التجدّد**». وأخيرًا أوكل الشعب الكوبيّ العزيز جدًّا على قلبه، إلى ملكة كوبا، العذراء «سيّدة المحبّة»، لكي تغدق على أبنائها نِعَم السلام، والتقدّم والسعادة.

كانت أقوال البابا تُقابَل برعدٍ من التصفيق، وارتجل الحبر الأعظم على ذلك تعليقًا، فقال: «**أنا لست ضدّ التصفيق، فهو يتيح للبابا فرصة استراحةٍ. وما زال**

عليّ تلاوة صفحةٍ». ولم يتمالك كاسترو نفسه من الضحك، مع أنّه كان قد تجهّم عندما دوّت هتافات الحرّيّة.

وفي أثناء إلقاء البابا عظته، هبّت الريح، فتوقّف الحبر الأعظم عن تلاوة خطابه المكتوب، وارتجل تعليقًا، يُعدّ من أروع تعليقاته إذ قال: «**لريح اليوم، مغزًى كبيرٌ، فالريح ترمز إلى الروح، والروح يهبّ حيث يشاء، وها هو، اليوم، يهبّ في كوبا!**».

من الصوَر التي خلّدت تلك الرحلة الرسوليّة، صورة يوحنّا بولس الثاني، يغادر الكنيسة، بعد قدّاسٍ استغرق ثلاث ساعاتٍ، منحنيًا، متوكئًا على عكّازه: يبدو عليه التعب، ولكنّ صدره يموج برضى المرسل الذي بلّغ رسالته.

وربّما ذكر بعضهم صورته، لعشرين سنةً خلت، عندما انطلق في ساحة القدّيس بطرس في روما، عقب قدّاس تنصيبه، شاهرًا صليبه، مناديًا: «افتحوا الأبواب للمسيح». وها إنّه فتح للمسيح بابًا جديدًا.

غير أنّ الذين تابعوا القدّاس على شاشات التليفزيونات، دهشوا لمفارقةٍ عجيبةٍ. ففيما علّقت المحطّة التي تشرف عليها الدولة على الاحتفال ببساطةٍ واحترامٍ، استخلصت محطّة CNN الأميركيّة، أنّ بوسع الكاثوليكيّة والشيوعيّة التعايش، متجاهلةً تأكيد يوحنّا بولس الثاني المتواتر، أنّ معاناة الكوبيّين هي نتيجة نظامٍ ينكر كرامة الإنسان، ودفاعه الحازم عن الحرّيّة الدينيّة، ودعوته لا إلى دولةٍ دينيّةٍ، ولا إلى دولةٍ ملحدةٍ، بل إلى دولةٍ حيث يسع كلّ فردٍ، وكلّ جماعةٍ دينيّةٍ، ممارسة عقائدهم بحرّيّةٍ، والتعبير عن إيمانهم في سياق الحياة العامّة، وإفادة حياة الأُمّة بخيراتهم الروحيّة والأخلاقيّة.

وفي الواقع، لم تستسغ الولايات المتّحدة زيارة يوحنّا بولس الثاني إلى كوبا، ولا تنديده المتكرّر بالحصار الاقتصاديّ الذي كانت أميركا تمارسه على كوبا، والذي كان الحبر الأعظم يعدّه لا أخلاقيًّا ونافلاً، إذ إنّ أكثر ضحاياه تأثّرًا به هم المحرومون الأبرياء. ومع أنّ كلاً من البابا وكاسترو لم يحيدا عن مبادئهما، في خطابهما، غير أنّ ما اتّسمت به علاقاتهما الشخصيّة، في أثناء تلك الزيارة، من أمارات

مودّةٍ، لم يرتحْ لها المسؤولون الأميركيّون. فكاسترو ومعاونوه لم يغيبوا عن مداخلات البابا، مع أنّها كانت، غالبًا تزعجهم. وفي حين كانت الولايات المتّحدة جاهدةً في نبذ الزعيم الكوبيّ، وتتمنّى محوه، صافحه البابا، الذي يحظى بأعظم احترامٍ عالميٍّ، خمس مرّاتٍ، في أثناء تلك الزيارة، وخصّه كاسترو باستقبالٍ ودّيٍ في القصر الرئاسيّ، حيث عرّفه بأخويه راؤول ورامون، وبأُختيه «أنجيلاّ» و«أغوستينا». وحينئذٍ قال كاسترو للبابا: «إنّ أُختي أغوستينا» تودّ أن تقبّلك كما يفعلون في روما»، وابتسم البابا مجيبًا: «فليكن». وبكت أغوستينا، سرورًا.

وبالمقابل طالب البابا كاسترو بثلاث مبادرات حسن نيّةٍ:

– مبادرة رحمةٍ لسجناء سياسيّين، كانوا قد التمسوا هذه الخدمة من البابا.

– إصلاحاتٍ تقرن الحرّيّة بالعدل. وكان البابا قد أوضح رأيه في هذا المجال، فندّد بقمع الحرّيّات وأكّد تعذُّر إقامة نظامٍ حقوقيٍّ على الإلحاد أو على الدين. ولكنّه حذّر من الانسياق إلى «قوى السوق العمياء»، التي تمجّدها الليبراليّة الرأسماليّة الجديدة، والتي تفضي إلى إثراء فئةٍ صغيرةٍ إثراءً فاحشًا، على حساب إفقار الأكثريّة إفقارًا مطّردًا.

– حرّيّةً دينيّةً كاملةً، موضحًا أنّ الكنيسة تحتاج إلى «مساحاتٍ ووسائل» لتحقيق رسالتها، التي لا تقتصر على الطقوس، بل هي، أيضًا، نبويّةٌ وخيريّةٌ.

وأوكل البابا إلى الكنيسة مهمّةً كبرى، مهمّة تثقيف الكاثوليكيّين، ولا سيّما الشبّان، ومساعدتهم على عدم الاستسلام لغواية الهجرة، وعلى الإسهام في الحياة العامّة، تمهيدًا لتغييرٍ «متدرّجٍ وسلميٍّ».

وبالإجمال، وفّرت هذه الزيارة للحبر الأعظم عدّة أسباب رضًى، وشعورًا باستعادة شيءٍ من ديناميّة شبابه، عندما كان يقارع الشيوعيّة بأسلحة الروح. وهذا ما لمّح إليه، في أثناء اللقاء العامّ الأوّل، عقب عودته إلى روما، عندما باح لحجّاج پولونيّين: «**ذكّرتني زيارتي إلى كوبا بزيارتي الأولى إلى پولونيا، عام ١٩٧٩. وإنّني أتمنّى لإخوتنا وأخواتنا في تلك الجزيرة الجميلة، أن يؤتي حجّي إليها مثل الثمار التي أتى بها حجّي إلى پولونيا**».

وكان يطيب له استحضار صُوَرٍ من تلك الزيارة انحفرت في أعماق نفسه، فيقول: «**منذ وصولي أُحطتُ بتظاهرةٍ شعبيّةٍ عارمةٍ أدهشت حتّى الذين، مثلي، يعهدون حماس الأميركيّين اللاتينيّين**». ولا ريب أنّه يعني شهادة الإيمان، التي وفّرت لها زيارته المناخ الملائم، مشيرًا، بنحوٍ خاصٍّ: «**في ساحة الثورة الكبرى في هافانا، شاهدتُ صورةً جسيمةً تمثّل يسوعَ المسيح، مرفقةً بهذه العبارة: «يا يسوع المسيح، إليك نودع ذواتنا». وشكرتُ اللّه لأنّه، في ذلك الموقع، بالتحديد، المكرّس «للثورة»، وجدتُ ذلك الذي جاء إلى العالم بالثورة الحقيقيّة، ثورة حبّ اللّه، الذي يحرّر الإنسان من الشرّ والظلم، ويهبه السلام وملء الحياة**».

ومن خلال تلك الزيارة، وجّه رسالةً دينيّةً وسياسيّةً إلى مفكّري كوبا وشبيبتها، وشعبها كلّه، وذكّرهم بثقافتهم المسيحيّة الأصيلة، وبتاريخهم العريق، وناشدهم أن يصنعوا مصيرهم بأيديهم، ويسعوا إلى تغيير الوضع إلى ما يتوقون إليه، ولكن بهدوءٍ، وبأُسلوبٍ إنجيليٍّ، ينبذ كلّ عنفٍ.

ودعا كاسترو إلى إفساح حيّزٍ أوسع من الحرّيّة، وإلى الالتزام بحقوق كلّ إنسانٍ، وانتزع منه وعودًا في هذا السياق.

وخلقت زيارته مناخ تعاونٍ غير معهودٍ بين الدولة وكنيسةٍ طالما عانت الاضطهاد والقمع. فسُمح لرهبانٍ فرنسيسكانيّين ولراهباتٍ، بافتتاح أديرةٍ، وبالمساهمة في حياة المجتمع. واعتُبر عيد الميلاد يوم عطلةٍ رسميّةٍ، بعد سنين طويلةٍ من إغفاله، وأُذِن بطواف تمثال العذراء، التي يعتبرها الكوبيّون ملكة بلادهم، عبر المدُن والشوارع الكوبيّة، وبظهور الكاردينال أورتيغا على شاشات التليفزيون من أجل إعلان هذا الحدث. وكانت مواكب المؤمنين المتوافدين لتحيّة الحبر الأعظم ولسماعه، تتكثّف، يومًا إثر يومٍ، في جوٍّ من الحرّيّة منسيٍّ منذ سنواتٍ طويلةٍ، فلم يخشَ بعضهم من الجهر بإيمانهم على رؤوس الأشهاد. ونُقِلت كلّ الاحتفالات الدينيّة الكبرى التي أقامها البابا، على شاشات التليفزيونات، وعبر أثير الإذاعات. كلّ هذه الإنجازات هيّأت كنيسة كوبا لمواصلة تجربة يوحنّا بولس الثاني، وأعدّتها لتكون محاورًا مميّزًا، كفيلاً بالمساهمة في تحقيق انتقالٍ ليّنٍ، في مناخ احترامٍ متبادلٍ.

ولم يقتصر البابا على إدانة ما كان يراه مجحفًا في إدارة كاسترو، بل أدان، أيضًا، بحزمٍ، الليبيراليّة الرأسماليّة التي تُخضع الإنسان، ونموّ الشعوب، «لقوى السوق العمياء»، وأدان الحصار الاقتصاديّ الأميركيّ، وصرّح «**أنّ الحظر الاقتصاديّ المفروض من الخارج، هو ظالمٌ ومرفوضٌ أخلاقيًّا**»، وحتّى في الطائرة التي كانت عائدةً به إلى روما، ما انفكّ يردّد: «**ينبغي أن يتوقّف هذا الحظر، ينبغي أن يتوقّف!**».

ولا بدّ من التنويه بأنّ التغطية الإعلاميّة، الكثيفة والاستثنائيّة، التي حظيت بها هذه الزيارة، قد أسهمت في إنجاحها، وأضفت على رسالة البابا وقعًا فريدًا. فقد شارك بها زهاء ثلاثة آلاف صحافيٍّ ومصوّرٍ من معظم أنحاء العالم، وطغى عدد الإعلاميّين الأميركيّين حتّى تجاوز ألفًا وستَّ مئة إعلاميٍّ، إلى جانب ثلاث مئة إسبانيٍّ، ومئة وسبعين إيطاليًّا، وكثيرين سواهم.

ومع أنّ حبريّة يوحنّا بولس الثاني، حينذاك، كانت قد سجّلت رقمًا قياسيًّا في طول مدّتها، إلاّ أنّ الحبر الأعظم أثبت أنّه، رغم كرّ السنين، وأعباء الجهود المستمرّة، ما برح جذّابًا ومؤثّرًا، وخلاّق آفاقٍ جديدةٍ للأجيال.

وكان صحافيٌّ قد سأله هل صحّته تسمح له بتحمّل عناء مثل هذه الرحلة، فأجابه، مازحًا، أنّ كلّ ما يعرفه عن صحّته هو ما ينشره عنه الصحافيّون.

وسئل عن رأيه في الثورة، فأوضح أنّ للثورة أشكالاً، أمّا هو فمن أتباع «**ثورة المسيح التي تعني ثورة حبٍّ، فيما ثوراتٌ أُخرى تستمدّ معناها من البغض والانتقام**».

ولا ريب أنّ كاسترو تساءل بأسًى هل سيكون للشيوعيّة مستقبلٌ في كوبا.

رحلةٌ راعويّةٌ إلى نيجيريا

رغم الأمراض التي ألّمت به، وتقدّمه في السنّ، احتفظت شيخوخة يوحنّا بولس الثاني بالنشاط. فقبل انطلاقه إلى كوبا، كان قد تفقّد، يوم **١٩٩٨/١/٣**، الأماكن التي دمّرها زلزالٌ في منطقة «أومبريا» الإيطاليّة، وعقب عودته من كوبا زار أُسرةً إيطاليّةً في روما، مفتتحًا رسالة الكنيسة في المدينة.

في العاشر من شباط، استقبل في الڤاتيكان، الزعيم الروسيّ «بوريس يلتسين» وأُسرته، وقد أُخذوا جميعهم بسحر شخصيّته. وجدّد يلتسين دعوة سلفه غوربتشيف إلى البابا لزيارة روسيّا. ولكنّ قداسته لم يكنْ راغبًا في تلبية هذه الدعوة، ما لم يتلقَّ دعوةً صريحةً من الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة ولكم نتمنّى أن تشترك رئتا الكنيسة الشرقيّة مع الغربيّة في الاحتفال، معًا، بحلول الألفية الثالثة!

يوم **١٩٩٨/٢/٢١**، قام بزيارته الثانية إلى نيجيريا، التي سبق له زيارتها قبل ستّة عشر عامًا. وصل إليها بعد ظهر ذلك اليوم. وجهد رئيس البلاد الجنرال «ساني أباشا» في تكريمه باستقبالٍ فخمٍ، تميّز بطلقاتٍ مدفعيّةٍ ترحيبيّةٍ، وباستعراضٍ عسكريٍّ، أملاً في أن يحصد من هذه التظاهرة، شعبيّةً ودعمًا لحكمه. وكان قد احتشد جمعٌ غفيرٌ للترحيب بالضيف الرفيع.

ومنذ وصوله، أسفر الحبر الأعظم عن دوافع زيارته، فقال: «**جئتكم صديقًا معنيًّا بمصير بلدكم، ومن أجل تطويب النيجيريّ الأوّل الذي تعلن قداسته، هو الأب الراهب «سيپريان ميكائيل إيوين تنسي» (Cyprian Michaël IENE TANSI)، المتوفّى عام ١٩٦٤، عساه أن يكون قدوةً لجميع النيجيريّين، ولا سيّما في الظروف الراهنة، حيث الحاجة ملحّةٌ إلى الوحدة الوطنيّة، وإلى احترام الحياة البشريّة وحقوق الإنسان، وإلى إقرار العدالة، وتشجيع النموّ، ومكافحة البطالة، وتوفير فسحة رجاءٍ للفقراء والمتألّمين، وحلّ الخلافات بالحوار، وإقامة تضامنٍ منيعٍ بين كلّ أطياف المجتمع**».

وقد طبعت هذه الزيارة ثلاثة معالم بارزةٍ: تطويب الكاهن المذكور، ولقاءٌ مع ممثّلي المسلمين، ولقاءٌ مع أعضاء مجلس الأساقفة النيجيريّين.

احتُفل بالتطويب يوم **٣/٢٢**. واستوحى البابا عظته من قول الرسول بولس: «صالح الله العالمَ مع ذاته، في يسوع»، مذكّرًا بأنّ المطوّب سعى إلى مصالحة مواطنيه مع الله، ومصالحة كلّ إنسانٍ مع جميع الآخرين، وبأنّ مثال حياته جديرٌ بأن يكون مصدر إلهامٍ للجميع. فهو، في المقام الأوّل، رجل الله، مفعمٌ بحبّه.

وهو يفيض طيبةً وعطفًا على الجميع. وكان، دائمًا، يفضّل الآخرين على ذاته. وقد أولى اهتمامًا خاصًّا باحتياجات الأُسَر، وبإعداد الشبيبة لزواجٍ مقدّسٍ. وجهد في تكريس كرامة المرأة، وعُني، عنايةً خاصّةً، بتنشئة الأحداث. ولم يغب مواطنوه، لحظةً، عن ذهنه وقلبه، حتّى عندما أوفده أسقفه إلى ديرٍ في بريطانيا، من أجل التمرّس بالحياة الرهبنيّة، تمهيدًا لغرس جذورها في نيجيريا، فقد كان يحمل همّ مواطنيه في كلّ صلواته.

ورغم قصر وقت زيارته، حرص البابا، في ذلك اليوم عينه، على مقابلة ممثّلي المسلمين، فأشار إلى تطويبه رجل دينٍ كان مثالاً للإنسان المكرّس للّه، يعبّر عن هذا التكريس بخدمة إخوته البشر، وبتضحية ذاته في سبيلهم. وتمنّى أن يغدو نموذج أمثاله، الذين يقودون حياة القداسة، درسًا في التفاهم المتبادل، وقدوةً في الطيبة والعطف، والمصالحة والتعاون، في ما يتخطّى حواجز الإثنيّات والأديان، من أجل خير البلاد قاطبةً، ومجد اللّه الأعظم.

وقال: «**نحن، مسلمين ومسيحيّين، نشترك في الإيمان باللّه الواحد، الرحمن الرحيم، ديّان البشر أجمعين. قد نختلف في فهمه. ولكنّنا نشترك في الجهد لتبيّن مشيئته وتنفيذها. هذا التطلّع يمثّل صلةً روحيّةً بين المسيحيّين والمسلمين، كفيلةً بإرساء قاعدةٍ متينةٍ ورحبةٍ للتعاون في مضامير عديدةٍ**».

وأشار إلى أنّ قاسم التوافق المشترك هو الاعتراف بكرامة كلّ كائنٍ بشريٍّ، ودعم الأُسرة بصفتها وحدة المجتمع الأساسيّة.

وندّد بكلّ اضطهادٍ لأيّة فئةٍ، بسبب معتقدات أفرادها، فإنّما ذلك دليلٌ على تغلّب القوّة على الحقيقة، وتفضيل المصالح الخاصّة على خير البلاد العامّ.

وأكّد أنّ العديد من التعاليم التي نشترك في الإيمان بها: العطف، والحقيقة، والفضيلة، هي عامل تفاهمٍ منيعٍ وضروريٍّ. فإن شبكنا أيدينا، باسم اللّه، لحقّقنا خيرًا عميمًا، راجيًا أن يكون هذا التضامن الأخويّ، تحت حماية اللّه، عامل إغناءٍ حقيقيٍّ لمستقبل نيجيريا، وأفريقيا جمعاء.

وحذّر من أن يكون اختلاف الأديان مصدر خلافاتٍ وصراعاتٍ، مؤكّدًا أنّ

هذا التعدّد يمكن أن يصبح مصدر تناغمٍ، مثل ائتلاف أصواتٍ مختلفةٍ في جوقةٍ واحدةٍ، عندما تتوفّر رغبةٌ حقيقيّةٌ في الاحترام المتبادل.

وحذّر، أيضًا، من كلّ إكراهٍ في الدين، داعيًا إلى الانفتاح، ومؤكّدًا أنّ كلّ عنفٍ يتذرّع بالدين، هو تشويهٌ للدين وإنكارٌ له، وراجيًا أن تكون الصداقة والتعاون، مصدر إلهامٍ للجميع، وأن تصلّي كلّ طائفةٍ، حسب طقوسها، من أجل خير البلاد، كي يشعر الجميع أنّهم، معًا، شعب الله الواحد.

وأشار، أخيرًا، إلى الكردينال النيجيري «أرينز» (Arinze)، الذي يسعى إلى حوارٍ مسيحيٍّ إسلاميٍّ يشمل العالم أجمع، وتمنّى أن يكون قدوةً للبلاد جمعاء.

وفي لقائه بأعضاء المجلس الأسقفيّ، عبّر عن اعتزازه بازدهار كنيسة نيجيريا ازدهارًا فريدًا، هو دليل نضوجٍ وحيويّةٍ. فعدد الإكليريكيّين، الذين يتأهّبون للكهنوت، يناهز ثلاثة آلافٍ. ولكنّه شدّد على واجب تزويدهم بثقافةٍ سليمةٍ ومنيعةٍ، متمنّيًا أن يصبح النيجيريّون المبشَّرون، مبشِّرين بدورهم. ودعا، أيضًا، إلى تثقيف علمانيّين خليقين بأن يصبحوا، بدورهم، خميرةً، وخدّامًا للمسيح، ومؤسّسي أُسرٍ مسيحيّةٍ؛ وشدّد على واجب مساعدة الشبيبة على تخطّي عقبات الأُمّيّة والبطالة، والتسكّع، والمخدّرات، داعيًا إلى استنفار شبابٍ للمساعدة في هذه المهمّة.

وذكّر بواجب التبشير والوعظ بقدوة السلوك، فناشد الأساقفة والكهنة أن يعكسوا روح الفقر الإنجيليّ، والتجرّد من متاع الدنيا، والنأي عن مواقف العالم وتطلّعاته البعيدة عن الإنجيل.

وأهاب بالأساقفة أن يقيموا علاقاتهم مع الكهنة على أُسس التضامن، والتآخي، والاعتراف بمواهبهم.

وأشار إلى شأن الأُسرة في التقاليد الأفريقيّة، محذّرًا من التهاون في أمر الإجهاض.

وذكّر بأنّ القدّيس الذي طوّبه بالأمس، آمن أنّ ما من إنجازٍ دائمٍ لخدمة الله والوطن، يمكن أن يتحقّق بمعزلٍ عن المحبّة والقداسة.

وانتهى بالتذكير باليوبيل الكبير، معتبرًا النيجيريّين هم أمل الكنيسة التي عمرها ألفا سنةٍ، وناشدهم بقوله: «**بما أنّكم جُدُدٌ في الإيمان، يجب أن تُشعّوا إيمانكم، على غرار المسيحيّين الأوّلين، وأن تكونوا علامة الله في العالم، بانتهاجكم درب القداسة**».

وقال البابا مودّعًا: «**قبل ستّة عشر عامًا، وأنا أغادر بلادكم، تساءلت هل ستوفّر لي العناية الإلهيّة فرصةً أُخرى كي أُقبّل تراب أرضكم، وأطفالكم، وأُشجّع شبابكم، وأسير مصحوبًا بمحبّة أهل بلادكم ومودّتهم، ولطالما صلّيت كي تتحقّق هذه الرغبة. وإنّي لأشكر للّه استجابته لصلاتي**».

شيخوخةٌ نشطةٌ

عاد يوحنّا بولس الثاني من نيجيريا كي يستأنف وتيرة عمله الدؤوب. ففي **١٩٩٨/٤/١٦**، عقد سينودسًا خاصًّا بأساقفة آسيا، استمرّ حتّى **٥/١٤**، تحت عنوان: «يسوع المسيح المخلّص. رسالة حبٍّ وخدمةٍ في آسيا»، وتحت شعار: «لكي تكون لهم الحياة، وتكون لهم بوفرةٍ». وأعلن البابا، بهذه المناسبة، أنّه دعا إلى هذا السينودس أُسقفين صينيّين، ولكنّ حكومتهما رفضت منحهما إذنًا بالسفر.

وفي **٥/١٥**، استقبل ملك بلجيكا، ألبير الثاني وزوجته «پاولا»؛ وفي **٥/٢٣**، تخشّع أمام الكفن المقدّس في مدينة «تورينو» الإيطاليّة. وفي **٥/١٨**، احتفل ببلوغه الثامنة والسبعين من سنواته، وفي **٥/٢٥**، سجّل أطول حبريّةٍ عهدًا في القرن العشرين، متجاوزًا البابا بيّوس الثاني عشر، الذي امتدّت حبريّته على تسع عشرة سنةً وسبعة أشهرٍ، ولكنّه كان في عام حبريّته الحادي عشر، قد فرغ من إصدار أهمّ رسائله التعليميّة، وقضى بقيّة عهده في شبه اعتكافٍ، في حين تميّزت السنوات العشرون من حبريّة يوحنّا بولس الثاني، بفيضٍ من الوثائق التعليميّة، وبوتيرة عملٍ أنهكت معاونيه الذين يصغرونه عشرات السنين، وذلك رغم العوائق الجسديّة التي كان يكافحها.

ففي ٥/٢٨، وقّع الرسالة الرسوليّة «من أجل وقاية الإيمان» (Fidem ad tuendam)، وتوخّى، من خلالها، ردم الفراغ في الحقّ الكنسيّ، ولا سيّما لدى الكنائس الشرقيّة، وإرشاد معلّمي اللاهوت.

وفي ٥/٣١، وقّع رسالة «يوم الربّ» (Dies Domini)، دفاعًا عن قدسيّة يوم الأحد، الذي أراده أن يبقى يوم عبادةٍ، ونقاهةٍ وراحةٍ. فقد كان يرى في هذا اليوم فصحًا يعود أسبوعًا بعد أسبوعٍ، مذكّرًا بمحور التاريخ الحقيقيّ، أي قيامة المسيح. فهذا النهار يرتدي طابع العرس في علاقة اللّه مع الخليقة، التي صنعها على صورته. وهو، إذ يذكّرنا بمنشئنا وبمصيرنا، يربط هذا المصير بالتحرير الذي أحرزه لنا المسيح القائم من الموت، والذي يرسّخ قناعتنا، أُسبوعًا إثر أسبوعٍ، أنّنا أكبر ممّا نتخيّل. ومن ثمّ، فواجب تقديس هذا اليوم ليس تدبيرًا كنسيًّا اعتباطيًّا، بل هو «عنصرٌ لا غنى عنه من هويّتنا المسيحيّة».

وفي ٧/٢٣، صدرت رسالته بعنوان «رسُله» (Apostolos Suos)، التي استهدف من خلالها تنمية المؤتمرات الأُسقفيّة الوطنيّة، التي دعا إليها المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، بغية تمكين أساقفة كلّ بلدٍ من دعم بعضهم بعضًا في عملهم الراعويّ، كي يكون عملهم جماعيًّا، وفي شراكةٍ وثيقةٍ مع رأس الكنيسة.

ومن جرّاء هذه الغزارة في الرسائل، راج التندّر في أوساط الكاثوليكيّين، فادّعى بعضهم الانتماء إلى نادي الرسائل العامّة الشهريّة، وآخرون إلى نادي الرسائل الرسوليّة الأسبوعيّة!

وكان البابا قد شعر بالعزاء والسعادة عندما تبيّن أنّ «ثقافة الحياة» التي أطلقها، قد أخذت تؤتي ثمارها. ففي ١٩٩٨/٦/٢٥، أسقط الناخبون البرتغاليّون مشروع قانونٍ يجيز الإجهاض الاختياريّ في أسبوع الحمل العاشر. وبعد ستّة أسابيع، انضوت إلى الكنيسة الكاثوليكيّة السيّدة الأميركيّة «نورما مكّورڤي» (Norma McCorvy)، التي كانت قد أمضت عشرين سنةً مناضلةً في سبيل تشريع حرّيّة الإجهاض.

مواهب روحيّةٌ

كان يوحنّا بولس الثاني يؤمن أنّ المواهب الروحيّة الخارقة، التي ينعم بها أفرادٌ وجماعاتٌ، كفيلةٌ بتجديد روحانيّة الكنيسة، وبإعادة تبشير المسيحيّين، فدعا ممثّلين بارزين عن تلك الحركات إلى لقاءٍ في روما، في **١٩٩٨/٥/٣٠**. وغصّت ساحة القدّيس بطرس، والشوارع المحاذية لها، بنصف مليون شخصٍ، شاركوا في أعظم احتفالٍ عرفته الكنيسة الكاثوليكيّة.

وسُمعت شهادات شخصيّاتٍ بارزةٍ، أمثال «كيارا لوبيك»، مؤسّسة حركة «الفوكولاري»، التي استهدفت توحيد أبناء الجنس البشريّ، و«كيلو أرغويكو»، ملهم «درب الموعوظين الجدُد»، وهي حركةٌ أخذت على عاتقها إعادة تبشير غير الممارسين والمفتقرين إلى ثقافةٍ دينيّةٍ؛ و«جان ڤانييه» مؤسّس «السفينة» (L'Arche)، والذي تخلّى عن التعليم الجامعيّ كي يُعنى بالمعاقين ذهنيًّا؛ و«لويجي جيوسّاني»، مؤسّس «مشاركة وتحرير» (Communione e Liberazione)، وهي حركة تجدّدٍ روحيٍّ، مركزها في إيطاليا، ومنتشرةٌ في بقاعٍ عديدةٍ من العالم.

وخطب الحبر الأعظم في هذا الجمع، قائلاً: «**كأنّ ما حدث لألفي سنةٍ خلت، يتكرّر، هذا المساء، ههنا. إنّ الروح القدس هو هنا، معنا. إنّه روح هذا الحدث الرائع، وهذه المشاركة الكنسيّة**». وعن التوتّر الذي نشأ، في السنوات السابقة، بين المؤسّسات الكنسيّة وبعض هذه الحركات، والتي كان يراها قداسته طبيعيّةً، في «فترة اختبارٍ»، قال: «**عندما يتدخّل الروح القدس، يدهش العالم، ويدفع إلى أحداثٍ تُذهل بجدّتها، ويغيّر، جذريًّا، الأشخاص والتاريخ**».

وكانت هذه الحركات التي غالبًا ما قادها علمانيّون، وضمّت، في أحضانها، رجالاً ونساءً نذروا الفقر والعزوبة، ولكنّهم تابعوا نشاطاتهم المهنيّة، قد قوبلت، أحيانًا كثيرةً، بمقاومة الأساقفة، ولكن رحّب بها باباوات. وكان أحدَهم يوحنّا بولس الثاني، الذي توقّع أن تؤتي هذه الحركات الكنيسة نتائج مدهشةً ومؤثّرةً.

زيارةٌ راعويّةٌ إلى النمسا

بعد أن استقبل في ٦/١٢ رئيس السلطة الفلسطينيّة، ياسر عرفات، وفي ٦/١٨ رئيس جمهوريّة أفريقيا الجنوبيّة، «نيلسون مانديلاّ» شدّ الرحال، يوم ٦/١٩ إلى النمسا، في رحلته الراعويّة الثالثة والثمانين خارج إيطاليا. وخاطب المسؤولين الكنسيّين الذين كانت تمزّقهم الخلافات، قائلاً: «**إنّ قلب أُسقف روما يخفق من أجلكم... لا تهملوا قطيع المسيح الراعي الصالح... لا تتخلّوا عن الكنيسة... إنّ البابا يعتمد عليكم كي تضفوا وجهًا جديدًا على أوروبّا العجوز**».

ويوم ٦/٢١، احتفل بقدّاسٍ حضره، فضلاً عن الرئيس النمساويّ رئيسا جمهوريّتي ليتوانيا، ورومانيا، وأعلن ثلاثة نمساويّين طوباويّين، هم:

– الأب «جاكوب كيرن» (Jakob Kern)، الذي ضحّى بكلّ مشاريعه المستقبليّة، كي يحلّ محلّ رئيس جمعيّةٍ آثر الانضمام إلى كنيسةٍ بروتستانتيّةٍ، فكان شاهدًا على الوفاء للكهنوت. وقال البابا، في هذا السياق: «**اليوم، أكثر من أيّ يومٍ مضى، تتّضح الحاجة إلى كهنةٍ قدّيسين حقيقيّين... إنّ كلّ الصلوات والتضحيات، والجهود والآلام، التي تحدوها نوايا صالحةٌ، تصبح بذرةً إلهيّةً تؤتي ثمارًا، عاجلاً أو آجلاً**».

– الأب «أنطون ماريّا شوارز» (Anton Maria Schwarz)، مؤسّس جمعيّة العمّال المسيحيّين، الذي كانت تلهبه الرغبة في ردّ المجتمع إلى يسوع، كي يتجدّد به، وإلى بناء كنيسة العمّال الأولى، في ڤيينّا. وقد دافع بحزمٍ من أجل إبقاء يوم الأحد يوم عبادةٍ وراحةٍ للعمّال. وكان يردّد، بلا انقطاعٍ: «ينبغي أن نمعن في الصلاة».

– الأخت «ريستيتوتا كافكا» (Restituta Kafka)، التي تاقت، منذ طراوة عودها، ورغم معارضة ذويها، إلى الحياة الرهبانيّة، «حبًّا بالله وبالبشر»، ورغبةً في خدمة الله في الفقراء والمرضى. وقد دفعتها شجاعتها إلى تحدّي الحكم النازيّ، وعلّقت صلبانًا على جدران كلّ غرف المستشفى الذي كانت تخدم فيه، إلى أن ألقى «الجستابو» القبض عليها، وأعدمها، وكانت كلمتها الأخيرة:

«عشت من أجل المسيح، وأريد أن أموت من أجل المسيح». وأشار البابا إلى القمّة الشامخة من النضج الداخليّ التي تقود يد الله خدّامه إليها. فهذه الراهبة قد خاطرت بحياتها كي تشهد للصليب. ونحن المسيحيّين قد نُحرَم أشياءَ كثيرةً، ولكنّنا لن ندع أحدًا يسلبنا الصليب، رمز خلاصنا، ولن نمكّن أحدًا من انتزاعنا من الخدمة العامّة، وسنؤثر، دائمًا، إطاعة الله على إطاعة البشر.

وأنهى البابا عظته، في هذه المناسبة، بمناشدة الحضور، ولا سيّما الشبيبة: «**اغرسوا الصليب في حياتكم، فالصليب هو شجرة الحياة... لا تريد الكنيسة أَنصاف مسيحيّين، بل مسيحيّين كاملين**».

وقد لحظ أحد طلاّب يوحنّا بولس الثاني السابقين في كلّيّة لاهوت «لوبلن»، أنّه لم يشهده، قطّ، في مثل الشفافيّة التي تجلّت خلال حجّه إلى النمسا، إذ بدا واضحًا أنّه كان ينهج درب الصليب، وأنّ الروحانيّة السامية التي كانت حيويّته الدفّاقة تحجبها سابقًا، قد أمست تتجلّى بوضوحٍ.

رحلةٌ راعويّةٌ إلى كرواتيا

في ذكرى **وفاة الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة**، قال يوحنّا بولس الثاني: «**من خلالها سار يسوع، من جديدٍ، على دروب العالم**».

وبين ٢ و٤/١٠/١٩٩٨، قام برحلةٍ راعويّةٍ إلى كرواتيا، التي كان قد سبق له زيارتها عام ١٩٩٤. ومنذ حطّ على أرضها، أسفر عن غايته من تلك الزيارة: وهي «تثبيت إخوته في الإيمان، ودعوتهم للعودة إلى جذورهم المسيحيّة العريقة، وحجّه إلى المزارين المريميّين الأكبرين في كرواتيا، دعمًا لتكريم الكرواتيّين للعذراء، «محامية كرواتيا، وأُمّها فائقة الوفاء»».

وكان له لقاءٌ أوّلُ مع المؤمنين في كاتدرائيّة زغرب، التي تؤوي رفات الكردينال الشهيد «ستيبيناك» (Alojzize Stepinac). وقد أثلج صدره حضورٌ كثيفٌ للشبيبة، الذين خاطبهم، قائلاً: «**أنتم مستقبل هذه البلاد، وأنتم كنيسة كرواتيا. اليوم يقرع المسيح باب قلوبكم، فرحّبوا به، لأنّ لديه الإجابة على كلّ**

توقّعاتكم. معه، وتحت أنظار العذراء، ستتمكّنون من بناء وطنكم، بناءً خلاّقًا». ودعاهم إلى عيش التطويبات عيشًا جديدًا، وإلى التمييز، بتأنٍّ وحكمةٍ، بين الخير والشرّ، مؤكّدًا: «**إنّ بلدكم ينتظر منكم مساهمةً فعّالةً في الميادين الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة. وسيكون مستقبل وطنكم أفضل بقدر التزام كلٍّ منكم بإصلاح ذاته. لن تجدوا حلاً لمشاكلكم في المتعة، والاستهلاك، والمخدّرات، والكحول. واجهوا المصاعب بجرأةٍ، والتمسوا حلاً لها في الإنجيل. ومن الإيمان استمدّوا القوة**».

وخاطب الجمع قائلاً: «**إنّ أعظم الوطنيّين هم الذين يلتزمون بشريعة الله، ويعملون بهديها**». وناشدهم الاقتداء، في هذا المضمار، ببطلهم الكردينال الشهيد، الذي احتفل بتطويبه، في اليوم التالي، في المزار المريميّ «ماريّا بستريكا» (Marijia Bistrica).

كان الكردينال «ستيبيناك»، بين عامي ١٩٣٧ و١٩٦٠، رئيس أساقفة زغرب، وحفلت سنواته الخمس عشرة الأخيرة بملاحقاتٍ ومحاكماتٍ، بلا هوادةٍ، وخاطر بحياته، شهادةً للإنجيل، وقاسى، في روحه وفي جسده، فظائع النظام الشيوعيّ.

وكان للبابا لقاءٌ خاصٌّ بالمثقّفين، فحذّر من التقدّم التقنيّ الذي لا يرافقه تقدّمٌ أخلاقيٌّ. وأكّد أنّ غاية الثقافة القصوى هي خدمة خير الإنسان، فلا عجب إن وقفت الكنيسة إلى جانبها وشجّعتها. وتمنّى أن يقود مناخ الحرّيّة الجديدة إلى استعادة كلّيّات اللاهوت نشاطها، لعلّها تشجّع الحوار بين التعليم والإيمان، وتأهيل الشبيبة لاتّخاذ القرارات الأخلاقيّة الصائبة، وتُمكّن البلاد من نهضةٍ جديدةٍ. وأوضح أنّ الثقافة التي تنبذ الله لا يمكن اعتبارها إنسانيّةً، لأنّها تستبعد، من رؤيتها، ذاك الذي خلق الإنسان على صورته ومثاله، وافتداه بابنه، ونوّره بروحه. ولذلك ينبغي أن يكون الشخص البشريّ هو هدف الثقافة، وكلّ تعليمٍ. وأوكل البابا إلى المعلّمين المسيحيّين، إعادة تبشير الوسط الذي يعيشون فيه، بالإنجيل.

إعادة التبشير هذه، طالب بها، يوم ١٠/٤، أعضاء المجلس الأُسقفيّ الذين كلّفهم، أيضًا، بتكثيف الجهد المسكونيّ، وبالحوار مع الكنائس الأُخرى، مؤكّدًا

أنّ كرواتيا تحتاج، في هذه المرحلة من تاريخها، إلى نفوسٍ مؤمنةٍ تصلّي، وإلى رجالٍ ونساءٍ ملتزمين بإيمانهم، ومتأهّبين لبذل حياتهم في خدمة الإنجيل، وإلى رسُلٍ يحملون الإنجيل إلى العالم، وينشرونه في ميادين الثقافة والسياسة. وهذا يقتضي تثقيف كهنةٍ قادرين على الشهادة لرسالة يسوع. وواجب الأساقفة دعمهم في هذه المهمّة. وناشدهم أن يولوا عنايةً خاصّةً لتأسيس أُسَرٍ مسيحيّةٍ، فمستقبل العالم والكنيسة يمرّ عبر الأُسَر، ومن ثمّ عليهم فهمُ رسالة الأُسرة، ورعاية الشبيبة، فهمًا واضحًا.

وأكّد أنّ المواضيع التي ينبغي أن تتبوّأ المكان الأبرز في رعايتهم، هي: الدفاع عن كرامة الشخص البشريّ، واحترام حقّ الحياة، والذود عن حياض الأكثر ضعفًا وحرمانًا، من أجل مناهضة «ثقافة الموت».

وفي ١٠/٤، التقى ملقّني التعليم المسيحيّ، والحركات المسيحيّة في «سولين»، حيث المزار المريميّ الثاني الرئيس في كرواتيا، وبيّن لهم: «**لقد أُوكلت إليكم مهمّةٌ رائعةٌ، مهمّة تثقيف الشبيبة، فكونوا لهم قادةً وقدوةً، ولقّنوهم معنى الحياة**»، موضحًا أنّ الاستثمار في تثقيف الشبيبة هو استثمارٌ في مستقبل الكنيسة والأُمّة.

وللشبيبة ردّد ما طالما أعلنه: «**إنّ يسوع المسيح هو «الطريق والحقّ والحياة». وهو لا يهمل أحدًا، بل هو خير صديقٍ للشباب. فدعوه يستولِ عليكم، ويقدكم إلى حياةٍ ذات معنًى حقٍّ، كي تكونوا فاعلين في مغامرةٍ رائعةٍ مدهشةٍ، مليئةٍ بحبّ الله والقريب. إنّ المستقبل بين أيديكم، مستقبلكم الخاصّ، ومستقبل الكنيسة والأُمّة... ستُوكل إليكم، في السنوات القادمة، مسؤوليّاتٌ جسامٌ، فتأهّبوا لها على أكمل وجهٍ**».

«عشرين سنةً، بابا، وأربعين سنةً، أسقفًا»

في ١٩٩٨/١٠/١، قابل وفدًا من الممرّضات، وأوصاهنّ: «**كنّ قلب المسيح ويديه**»، وفي ١٠/١١، أعلن شهيدةً، الفيلسوفة الألمانيّة، يهوديّة المولد، «إيديث شتاين»، التي اعتنقت المسيحيّة، وانتهجت الحياة الرهبانيّة، تحت اسم «الأخت تيريزا بينيدكتا الصليب»، والتي أتينا على ذكرها آنفًا. وفي السادس عشر من

ذلك الشهر عينه، حلّت ذكرى انتخابه حبرًا أعظم، وكانت قد انقضت أربعون سنةً على أُسقفيّته. وشاركه في الاحتفال بهذه الذكرى نحو أربعين كردينالاً، ومئة أُسقفٍ، وثماني مئة كاهنٍ. وفي عظته ألمح إلى السؤال الذي طُرح عليه، عند انتخابه: «هل تقبل هذا الانتخاب؟»، والذي كان صدًى لسؤال يسوع لبطرس: «هل تحبّني؟». وقال: «بعد عشرين سنةً قضيتها في خدمة كرسيّ بطرس، ولا يسعني إلاّ أن أطرح على نفسي بعض أسئلةٍ: «**هل كنتُ معلّمًا غيورًا، حريصًا على الإيمان في الكنيسة؟... هل لبّيت توقّعات المؤمنين داخل الكنيسة، ورويت العطش إلى الحقيقة الذي يعانيه العالم، خارج الكنيسة...؟**» هذه التساؤلات كانت دليلاً مؤثّرًا على تواضعه وإحساسه الحادّ بالمسؤوليّة.

وفي أعقاب القدّاس، قدّم له أطفالٌ من روما هدايا، فقبّلهم واحدًا، واحدًا، وسط دموع تأثّرٍ ذرّفها، وذرّفوها. بعد عشرين سنةً من دخوله التاريخ، كان تأثّر القوم عارمًا، وهم يشهدون شيخًا قدّيسًا، أنفق حياته في خدمة الربّ، ما برح يتساءل: «هل أصبتُ بالقدر الكافي؟». وفي الأسابيع التالية سمعه زائروه يردّد بدهشةٍ: «**عشرين سنةً بابا، وأربعين سنةً، أسقفًا!**».

«الإيمان والعقل»

في غمرة تلك الاحتفالات، أصدر يوحنّا بولس الثاني رسالته العامّة «إيمانٌ وعقلٌ» (Fides et Ratio).

الإيمان والعقل هما الجناحان اللذان يؤهّلان الفكر البشريّ للارتقاء إلى تأمّل الحقيقة. فالله هو الذي يغرس في قلب الإنسان رغبة معرفة الحقيقة، وفي نهاية المطاف، معرفته. وبمعرفته وبحبّه، يتمكّن من بلوغ ملء الحقيقة عن ذاته. ولكنّ الفلسفة، في القرن العشرين، كانت قد فقدت الثقة في قدرتها على معرفة حقيقة الأشياء، وأحجمت عن طرح سؤالاتٍ مصيريّةٍ كبرى: لمَ توجد أشياء، بدلاً من العَدَم؟ ما الخير وما الشرّ؟ ما هي السعادة، وما هو الوهم؟ ما الذي ينتظرنا بعد حياة الأرض؟

هذا التقاعس عن طرح الأسئلة الكبرى لم يُفضِ، فقط، إلى الحطّ من مهمّة الفلسفة الحقيقيّة، بل إنّه أفسح مجالاً لأنماطٍ عديدةٍ من الكبرياء البشريّة: تحويل البشر إلى آلاتٍ، إيمانٌ زائفٌ بالتكنولوجيا، طغيان شهوة السلطة... وجملةٌ من الأوهام التي أودت بالقرن العشرين إلى أوخم العواقب. ولكي لا يغرق القرن الحادي والعشرون في الدموع، لا بدّ للفلسفة من أن تستعيد حسّ الرهبة والدهشة، الذي يقود إلى حقيقةٍ فائقة الطبيعة.

ولا بدّ للمسيحيّة، أيضًا، من اعتناق فلسفةٍ متّجهةٍ نحو فائق الطبيعة. وكان قداسته مقتنعًا أنّ الإيمان ما هو سوى إعمال الفكر، في توافقٍ تامٍّ مع الذات... فالمؤمنون هم أيضًا مفكّرون، بإيمانهم يفكّرون، وبتفكيرهم يؤمنون. والإيمان الخالي من الفكر ليس بشيءٍ.

هذه الدعوة إلى إيمانٍ عاقلٍ، كانت ملحّةً على مشارف القرن الواحد والعشرين، المتطلّع إلى نهضةٍ دينيّةٍ، تقرن العقل بالإيمان، وترسي قواعد منيعةً للكرامة البشريّة، المتجذّرة في قدرة الإنسان على إدراك الحقيقة، والالتزام بها، وعيشها.

كان يوحنّا بولس الثاني يرى أنّ مسؤوليّة القطيعة المأساويّة بين العقل والإيمان، بين العلم والدين، بين الفلسفة واللاهوت، تقع على الفلاسفة واللاهوتيّين معًا. فعندما يستخفّ اللاهوتيّون بقيمة العقل، وينكر الفلاسفة إمكانيّة الوحي، تتضاءل قدرات الطرفين، وتفتقر البشريّة، ويتحطّم زخم الأنسنة. إنّ الإنسان بحاجةٍ إلى جناحي العقل والإيمان كي يطير، بسلامٍ، نحو الألفيّة الثالثة. فعظمة الإنسان تكمن في قدرته على الاختيار، وفي الولوج إلى محراب الحقيقة، حيث يبتني بيتًا، تظلّله الحكمة، يقيم فيه بأمانٍ.

كان يوحنّا بولس الثاني قد استهلّ حبريّته بهتاف: «**لا تخافوا**». وها هو بعد عشرين سنةً، يهتف: «لا تخافوا العقل. لا تخشوا الحقيقة، فهي، بتبديدها الأوهام، تحرّر البشريّة، التحرير الأصدق والأعمق». خلال عشرين سنةً من حبريّته، خلق فسحةً لمستقبلٍ أوفر إنسانيّةً، وأثبت أنّه نبيّ القرن الحادي والعشرين.

أرقامٌ قياسيّةٌ

في ذكرى انتخابه العشرين، كان يوحنّا بولس الثاني قد أمضى واحدةً من أطول الحبريّات مدّةً، في تاريخ الكنيسة، لم يضاهِه فيها سوى عشرة باباواتٍ عبر العصور. وفي خلال هذين العقدين، كان قد سجّل العديد من الأرقام القياسيّة. فكان قد قام بأربعةٍ وثمانين حجًّا إلى الخارج، اجتاز خلالها مليونًا وتسعةً وسبعين ألفًا وأربع مئةٍ واثنين وأربعين كيلومترًا، أي نحو ثلاث مرّاتٍ المسافة بين الأرض والقمر. وفي غضون ٧٢٠ يومِ رحلةٍ إلى الخارج، كان قد ألقى ثلاثة آلافٍ وثمانية وسبعين خطابًا وموعظةً، خاطب بها مئات ملايين البشر، مباشرةً ومن خلال وسائل الإعلام. وقام بأكثر من سبع مئة زيارةٍ راعويّةٍ في إيطاليا، تفقّد، خلالها، سجونًا، وجامعاتٍ، ومؤسّساتٍ دينيّةً، وأديرةً، وإكليريكيّاتٍ، ودور حضانةٍ، ومشافي في ٢٧٤ أبرشيّةً.

وكان قد أصدر ١٣ رسالةً عامّةً، و٩ دساتير رسوليّةً، و٣٦ رسالةً رسوليّةً، و١٥ رسالةً رسميّةً إلى أفرادٍ وجماعاتٍ، و٩ إرشاداتٍ رسوليّةٍ، وستّ مئة خطابٍ لأساقفةٍ؛ وعقد آلاف الأحاديث في لقاءاتٍ عامّةٍ وخاصّةٍ. وللمرّة الأولى، منذ أربع مئة سنةٍ، أصدر كتاب التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة. وخلال ١٤٤ احتفالاً، أعلن ٧٩٨ رجلاً وامرأةً طوباويّين وطوباويّاتٍ، و٢٨٠ قدّيسًا جديدًا.

وأشرف على خمسة سينودسات أساقفةٍ عاديّةٍ، وسينودسٍ استثنائيٍّ، وستّة سينودساتٍ خاصّةٍ، والتقى، باطّرادٍ، أساقفة العالم، بمناسبة زياراتهم التقليديّة، كلّ خمس سنواتٍ.

وعقد ٨٧٧ لقاءً عامًّا، حضرها ثلاثة عشر مليونًا وثماني مئةٍ وثلاثةٌ وثلاثون ألف مؤمنٍ، وأكثر من خمسة عشر ألف لقاءٍ خاصٍّ. وعيّن ١٥٩ كردينالاً جديدًا، و٢٦٥٠ أسقفًا، من أصل ٤٢٠٠ أُسقف في الكنيسة الكاثوليكيّة، وأقام علاقاتٍ دبلوماسيّةً مع ٦٤ بلدًا، وأعاد علاقاتٍ مقطوعةً مع ستّ دولٍ، رافعًا عدد الدول التي يقيم الڤاتيكان معها علاقاتٍ، إلى ١٦٨ دولةً.

وأوجد داخل الڤاتيكان منظّماتٍ جديدةً تلبّي احتياجاتٍ جديدةً، مثل مؤسّسةٍ لخدمة الساحل الأفريقيّ تحمل اسمه، عام **١٩٩٢**، وأكّاديميَّتيْن للحياة وللعلوم الاجتماعيّة، عام **١٩٩٤**؛ وأطلق الكلّيّة الحبريّة للدراسات عن الزواج والأُسرة في جامعة اللاتران، التي افتتحت فروعًا في واشنطن ومكسيكو وڤالانسيا. وقد أثبتت هذه المعاهد والمؤسّسات تأثيرها الاجتماعيّ الأكيد.

هذه الإنجازات المؤسّساتيّة دلّت على طاقةٍ شخصيّةٍ خلاّقةٍ هائلةٍ، وكانت أدواتٍ كفيلةً بصوغ حياة الكنيسة الكاثوليكيّة، وبالتأثير في مختلف أوجه الكون في الألفيّة الثالثة.

ومن أهمّ الأحداث التي اختتم بها يوحنّا بولس الثاني العام **١٩٩٨**: لقاؤه الأساقفة الأوستراليّين، بمناسبة عقد سينودس أساقفة أوقيانيا، تحت عنوان: «يسوع المسيح، انتهاج طريقه، وإعلان حقيقته، وعيش حياته»، ثمّ إقامته، بتاريخ **١١/٢٩**، قدّاس افتتاح السنة الإعداديّة الثالثة ليوبيل عام **٢٠٠٠** الكبير.

الرحلة الراعويّة الخامسة والثمانون: المكسيك والولايات المتّحدة

كان العام **١٩٩٩**، العام الثالث الإعداديّ لليوبيل الكبير، المكرّس لله الآب. وكان، أيضًا، عام المسنّين. ورغم عبء السنين، لم يفتر نشاط يوحنّا بولس الثاني، الذي كان يحبو نحو الثمانين من سنيه، بعزيمةٍ وجرأةٍ.

بين **٢٢** و**٢٨** كانون الثاني، من ذلك العام، قام برحلته الراعويّة العالميّة الخامسة والثمانين إلى البلاد التي استهلّ بها رحلاته الراعويّة، إلى البلاد التي تحضنها سيّدة غوادلوپّي، من أجل توقيع الإرشاد الرسوليّ «كنيسةٌ في أميركا»، المستوحى من مباحثات سينودس أساقفة أميركا، الذي كان قد عُقد في روما، قبل عامٍ. وقد وقّعه في كاتدرائيّة سيّدة غوادلوپّي، في مكسيكو، يوم **١/٢٣**.

ثمّ استقبل أعضاء الهيئة الدبلوماسيّة، في القصادة الرسوليّة، وشرح أمامهم أوضاع العالم المعاصر، الذي تتقلّص مسافاته، وتتعقّد أموره، وتُباعد المصالح بين مختلف بنيه وفئاته. فالإنجازات العلميّة والتقنيّة تمعن، يومًا فيومًا، في

الإدهاش، في حين تتفاقم آلام الشعوب، النفسيّة والجسديّة. ففيما يتسارع التقدّم الصناعيّ والتقنيّ والعلميّ، يعجز كثيرون عن اللحاق به، ويُهمّشون. فلا بدّ من نظامٍ اجتماعيٍّ يتيح لكلّ الشعوب إسهامًا فعّالاً في التقدّم الشامل، في المجالات الإنسانيّة كافّةً، ويضمن لجميع البشر كرامتهم، ويمكّنهم من إدراك عظمة مصيرهم، ويقيهم من أن يتحوّلوا أرقامًا وأدواتٍ.

فينبغي أن يكون الإنسان هو مركز كلّ نظامٍ مدنيٍّ واجتماعيٍّ، وكلّ نموٍّ تقنيٍّ واقتصاديٍّ. وما سير التاريخ عكس الإنسان سوى سيره عكس الله، فالإنسان هو صورة الله الحيّة، حتّى عندما يشوّهها الخطأ والجريمة.

وندّد البابا بتكديس الأسلحة، وباستخدامها لخدمة إيديولوجياتٍ تنكر كرامة الإنسان، وبالفساد المستشري الذي يسبّب حرمان شعوبٍ كثيرةٍ، وطبقاتٍ اجتماعيّةٍ ضعيفةٍ، لا قدرة لها على المطالبة بحقوقها. وأدان الفرديّة الأنانيّة التي توغّلت في صلب الحياة الدوليّة، فضاعفت ثراء الأغنياء، وزادت الفقراء حرمانًا وعوَزًا.

فلا مفرّ من تحوّلٍ في الأذهان، ومن تضامنٍ حقٍّ يقضي على التفاوت الجائر بين بلدانٍ في القارّة الواحدة، وبين فئاتٍ في الوطن الواحد.

ودعا إلى تعاضد الجميع كي تصبح القارّة الأميركيّة قارّة رجاءٍ، تتبنّى جميع مكوّناتها قاعدةً أخلاقيّةً مشتركةً، راسيةً على مراجع ثابتةٍ خالدةٍ، لا تتغيّر بتغيّر الظروف والمصالح، وتكوّن ترسًا يدرأ محاولات القضاء على الحياة، ويقاوم الحروب والاعتداءات والفساد.

وفي عظة قدّاس يوم الأحد ١/٢٤، قال: «**إنّ المسيحيّين مدعوّون ليكونوا نورًا للعالم، بشهادة أعمالهم**». وناشد الحضور: «**فلتكن لديكم جرأة الشهادة للإنجيل في الشوارع والساحات، في الوديان والجبال، وانشروا التبشير الجديد بالإنجيل**».

ثمّ زار مستشفًى وواسى مرضاه، وفسّر لهم معنى الألم الإنجيليّ المستلهَم من صليب البريء الإلهيّ الذي، بآلامه، قدّس المرض، وبنى علاقةً وثيقةً بين

صليب يسوع وآلام البشر. وناشد المرضى أن يقدّموا أوجاعهم كفّارة خلاصٍ، فتكون مشاركتهم آلام المسيح الخلاصيّة، مصدر فرحٍ لهم، وإسهامًا في خلاص الآخرين. وبذلك يغدون لسواهم معلّمي إيمانٍ، وحبٍّ، وتضحيةٍ.

وفي اليوم التالي ١/٢٥، كان له لقاءٌ مع أربعة أجيالٍ يمثّلون أطياف القرن؛ واحتفل بذكرى اعتناق المكسيك المسيحيّةَ، دينًا.

ومن المكسيك طار البابا، يوم ١/٢٦، إلى الولايات المتّحدة، وكانت محطّته، في هذه النوبة، مدينة «سانت لويس»، حيث استقبله الرئيس كلينتون في مطار «لمبرت». ومنذ وصوله، حرص على تذكير الأميركيّين بالمبادئ الأخلاقيّة الأساسيّة فقال:

«إنّ اختيار الحياة يتطلّب رفض كلّ أنواع العنف: عنف الفقر والجوع الذي يسحق بشرًا كثُرًا؛ وعنف الصدامات المسلّحة التي لا تؤتي أيّ حلٍّ، ولا تنتج سوى تفاقم الخلافات والتوتّرات؛ وعنف الأسلحة الرهيبة، مثل الألغام ضدّ الأشخاص؛ وعنف تجارة المخدّرات، وعنف العنصريّة، وعنف تدمير الهيئة الطبيعيّة، بلا قيدٍ.

«وحدَها نظرةٌ أخلاقيّةٌ عليا كفيلةٌ بتوجيه خيار حياةٍ صحيحٍ... وباحترام الأُسرة، بصفتها خليّة المجتمع الأساسيّة؛ الأُسرة مدرسة حبٍّ، وخدمةٍ، وتفاهمٍ، وصفحٍ. الأُسرة المنفتحة والسخيّة حيال احتياجات الآخرين؛ الأُسرة منبع السعادة البشريّة الأكبر.

«افتحوا قلوبكم للمصاعب المتنامية، وللحاجات الملحّة التي تواجه إخوتنا وأخواتنا الأشدّ بؤسًا، في كلّ بقعةٍ من العالم».

وفي مساء ذلك اليوم، التقى وفدًا من الشبيبة في «مركز كييل»، وتمحورت خطبته حول نصيحة الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس: «روّض نفسك على التقوى»، وذكّر الشباب بالمبادئ المسيحيّة الأساسيّة، الكفيلة بجعل حياتهم مثمرةً وناجحةً، فقال:

«كلٌّ منكم يخصّ المسيح، والمسيح يخصّكم... الشباب هبةٌ رائعةٌ من مواهب الله، إنّه زمن طاقاتٍ فريدةٍ، وفُرَصٍ، ومسؤوليّاتٍ مميّزةٍ... المسيح والكنيسة يحتاجان إلى طاقاتكم الخاصّة، فاستخدموا خيرَ استخدامٍ المواهب التي أنعم بها الربّ عليكم...

يسوع لا يستهين بفتوّتكم، وهو يرغب في أن تكونوا، جميعكم، نورًا للعالم، مثلما يستطيع الشباب، وحدَهم، أن يكونوا. ها هوذا وقت إشعاع نوركم... في كلّ أسفاري أحدّث العالم عن طاقاتكم الشابّة، وعن مواهبكم، وعن جاهزيّتكم للحبّ والخدمة... من دواعي الأسف أنّ كثيرين، اليوم، ينأون عن النور إلى عالم الأوهام، عالم خيالاتٍ سريعة التواري، ووعودٍ لا تنفّذ... فإن التفتّم صوب يسوع، وإن عشتم الحقيقة التي هي يسوع، سيكون فيكم النور الذي فيه تتجلّى الحقيقة، وتتجلّى القِيَم التي عليها تستطيعون بناء سعادتكم، بسعيكم إلى بناء عالم عدلٍ، وسلامٍ وتضامنٍ... لا تصغوا إلى من يحرّضونكم على الكذب، والهروب من المسؤوليّات، وعلى حصر اهتمامكم بذواتكم فحسب. لا تصغوا إلى من يوحي لكم أنّ العفّة باتت من مخلّفات الماضي البائد... الحرّيّة الحقّة نعمةٌ سنيّةٌ من الله... ولكنّها لا تعني أن يعمل المرء ما يرغب فيه، كلّما شاء. بل هي قدرةُ عيشنا حقيقة علاقتنا بالله وبالآخرين عيشًا مسؤولاً... مسؤوليّتكم الأولى هي السعي إلى معرفة المسيح إلى أقصى حدٍّ... ولن تعرفوه حقًّا إلاّ بالصلاة. الصلاة تؤهّلكم لالتقاء الله في أعماق كيانكم... الصلاة تضعنا على علاقةٍ مباشرةٍ بالله الحيّ... بالصلاة تتعلّمون أن تكونوا نورًا للعالم، فبالصلاة تتماهون مع مصدر نوركم الحقّ. مع يسوع نفسه... المسيح يدعوكم، والكنيسة تحتاج إليكم، والبابا يؤمن بكم، ويتوقّع منكم أفعالاً عظيمةً».

يوم ١/٢٦، زار مستشفى الكردينال «غلينّون» للأطفال، وواسى الأطفال المرضى مؤكّدًا لهم حبّه، مثلما كان يسوع يحبّ الأطفال.

وفي ١/٢٧، احتفل، في ملعبٍ، بقدّاسٍ، تكريمًا لقلب يسوع. وتحدّث عن حبّ يسوع الذي تجلّى من خلال تجسّده، الذي أظهر قيمة الإنسان الجلّى في نظر الله، مذكّرًا بقول القدّيس يوحنّا: «على هذا تقوم المحبّة: لا أنّنا نحن أحببنا الله، بل هو نفسه أحبّنا، وأرسل ابنه كفّارةً عن خطايانا». فحبّ الله يسعى وراءنا كي يخلّصنا، وهذا الحبّ نجده في قلب يسوع. وعندما ندرك الحبّ الكامن في قلب المسيح، نتيقّن أنّ بوسع كلّ فردٍ، وكلّ أُسرةٍ، وكلّ شعبٍ، إيداع ثقتهم في هذا القلب.

وشدّد قداسته على ضرورة تبشيرٍ جديدٍ بالإنجيل، لاتّقاء الأوصاب الاجتماعيّة التي تهدّد بدمار المجتمع، وضرورة العودة إلى تعاليم الإنجيل والالتزام بها.

وفي المساء، احتفل بصلاة الغروب، في كاتدرائيّة «سانت لويس»، بحضور نائب الرئيس الأميركيّ، وثلّةٍ من المسؤولين الحكوميّين، وممثّلين عن الكنائس الأُخرى، ودعا إلى جعل تعاليم الإنجيل واقعًا في حياة المجتمع اليوميّة.

وتمنّى أن تصبح الولايات المتّحدة نموذجًا لمجتمعٍ حرٍّ، وديمقراطيٍّ، وعادلٍ، وإنسانيٍّ حقًّا، مذكّرًا بتعظيمة العذراء التي قالت إنّ العليّ القدّوس، «بسط قدرة ساعده، فشتّت المتغطرسين بأفكار قلوبهم... ورفع المتواضعين». فالسلطة تعني مسؤوليّةً، وخدمةً، ولا تعني امتيازاتٍ، ولا يبرّرها سوى العمل من أجل خير الجميع، ولا سيّما الفقراء، والدفاع عن الضعفاء العزّل.

وختم بنداءٍ: «**يا أميركا، إن ابتغيت السلام، فعليك بالعدل، وإن ابتغيت العدل، ذودي عن الحياة، وإن ابتغيت الحياة عانقي الحقيقة، الحقيقة التي أعلنها الله!**».

«رسالةٌ إلى الفنّانين»

عاد يوحنّا بولس الثاني من رحلته الأميركيّة كي يستأنف وتيرة نشاطه الذي لا يفتر. ثمّ في ٣/١١، استقبل رئيس جمهوريّة إيران محمّد خاتمي، وفي ٤/٤، أطلق نداءً علنيًّا لإيقاف الحرب في «كوسوڤو»، وكان قد أوفد، يوم ٤/١، الكردينال «توران»، إلى «كوسوڤو» حاملاً رسالةً إلى «ميلوسوڤيتش»، ثمّ أنفذ رسالةً إلى بطريرك «موسكو» أليكسي الثاني، الذي كان يعتزم زيارة بلغراد.

وهو الذي كَلِف، منذ صباه، بالفنّ، واستهلّ حياته ممثّلاً، وظلّ، حياته كلّها، شاعرًا، كان يثمّن قيمة الفنّ، ويؤمن برسالته الإنسانيّة، وقّع، بتاريخ ٤/٤، «رسالةً إلى الفنّانين»، طواها على زبدة تأمّلاته في الفنّ ورسالته، وأهداها إلى: «**جميع الذين ينشدون، بهوًى وغيرةٍ، «ظهوراتٍ» جديدةً للجمال، في الميدان الفنّيّ، كي يزفّوها للعالم**».

وجاء في هذه الرسالة:

««إنّ الفنّان هو صورة الله»... لا أحد، خيرًا من الفنّانين، باني الجمال العبقريّين، يستطيع استشفاف شيءٍ من الهوى الذي به رنا الله، في فجر الخليقة، إلى عمل يديه. فلطالما انعكس نبضٌ من هذا الهوى على النظرات التي تأمّلتم بها نتاج إلهامكم، على غرار فنّاني جميع الأزمان، المفتونين إعجابًا أمام قدرات الأصوات والأقوال، والألوان والأشكال، الحافلة بالسرّ، والتي تتلمّسون فيها صدى الخليقة، الذي يشرككم به، نوعًا ما، خالق الأشياء الوحيد...

«في نهاية الخلق أبدع الله الإنسان، خلاصة مشروعه الأسمى نبلاً، وأخضع له العالم المرئيّ، حقلاً رحبًا، يستطيع فيه التعبير عن طاقاته الخلاّقة...

«في الإبداع الفنّيّ، أكثر من أيّ مجالٍ آخر، يتجلّى الإنسان صورةً لله.

«إنّ الفنّان الإلهيّ، في عطفه وحبّه، قد سلّم الفنّان البشريّ قبسًا من حكمته الفائقة، ودعاه إلى مشاركته قدرته الخلاّقة، مع أنّ بَوْنًا لامحدودًا يفصل بين الخالق والخليقة. وعندما يعي الفنّان هذه الهبة، يتوجّب عليه رفع نشيد شكرٍ وتمجيدٍ لله، وبذلك، فقط، يدرك رسالته...

«لم يعطَ كلّ إنسانٍ أن يكون فنّانًا، ولكنّ واجب كلّ إنسانٍ أن يصنع حياته الخاصّة وأن يجعل منها تحفةً...

«ينبغي أن تواكب المؤهّلاتِ الفنّيّةَ خصالٌ أخلاقيّةٌ، وأن تكمل إحداهما الأُخرى...

«عندما ينفث الفنّان في عمله حياةً، يكشف عن شخصيّته، ويجد في الفنّ بُعدًا جديدًا، وتعبيرًا مدهشًا عن نموّه الروحيّ. ومن خلال أعماله يتواصل مع الآخرين.

«تاريخ الفنّ ليس تاريخ أعمالٍ، فحسبُ، بل هو، أيضًا، تاريخ بشرٍ. الأعمال الفنّيّة تتحدّث عن صانعيها، وتُسفِر عن أعماق كيانهم، وعن مساهمتهم الأصيلة في تاريخ الثقافة...

«الجمال هو، إلى حدٍّ ما، التعبير عن الخير، كما أنّ الخير هو صفة الجمال فائق الطبيعة. وقد قال أفلاطون: «صفة الخير الخاصّة قد لجأت إلى طبيعة الجمال...

«يحيا الفنّان علاقةً مميّزةً مع الجمال. الجمال هو دعوته؛ وواجبه أن يستثمر هذه الموهبة التي لا يحقّ له تبديدها، بل عليه أن يفيد منها القريب والبشريّة جمعاء...

«يحتاج المجتمع إلى فنّانين مثل حاجته إلى علماء، ومهنيّين مهرةٍ، وعمّالٍ، وشهود

إيمانٍ، ومعلّمين، وآباءٍ وأمّهاتٍ. وعندما ينتج الفنّانون أعمالاً جميلةً لا يُغنون، فقط، إرثَ الأُمّة والبشريّة الفنّيّ، بل يؤدّون، أيضًا، خدمةً مميّزةً لصالح الخير العامّ...

«دعوة الفنّان تلزمه بعملٍ شاقٍّ، وبمسؤوليّةٍ، فعليه ألاّ ينقاد إلى نشدان مجدٍ باطلٍ، وألاّ تستحوذ عليه نشوة شهرةٍ سهلةٍ رخيصةٍ، وألاّ يسعى إلى مغنمٍ شخصيٍّ...

«للعمل الفنّيّ إذن قاعدةٌ أخلاقيّةٌ، وله، أيضًا، «روحانيّةٌ»، تسهم في نهضة الشعب...

«بالتجسّد ظهر الله اللامرئيّ، وبتجسّد ابن الله أدخل إلى تاريخ البشريّة كلّ غنى الحقّ والخير الإنجيليّ، وأماط اللثام عن بُعدٍ جديدٍ للجمال، زخرت به رسالة الإنجيل، وأصبح الكتاب المقدّس منبع إلهامٍ...

«ويظلّ البَوْن شاسعًا بين النموذج الإلهيّ الذي ومضت صورته، مدى لحظةٍ، والرسم البشريّ له، بمختلف وسائل التعبير الفنّيّ. ويبقى الفكر مسحوقًا، معترفًا بلعثمته وبعجزه...».

وعبّر البابا عن رغبته في إقامة معاهدةٍ جديدةٍ بين الفنّانين والكنيسة. وكان المجمع الفاتيكانيّ قد أطلق هذا النداء: «**إنّ هذا العالم الذي نحيا فيه يحتاج إلى الجمال لكي لا يهوي إلى القنوط. فالجمال، كالحقيقة، يزرع الفرح في قلوب البشر. إنّه الثمرة الثمينة التي لا يبلوها الزمن، وهو يوحّد الأجيال، ويجعلها تتواصل في الإعجاب والدهشة**».

«الكنيسة تحتاج إلى الفنّ»، كي تعبّر، بصيغٍ مفهومةٍ، عمّا يستعصي على الوصف والتعبير. وللفنّ قدرةٌ على لمس أحد وجوه الرسالة الإلهيّة. ولكن هل يحتاج الفنّ إلى الكنيسة؟ أجل، إذا اعتبرنا أنّ الفنّان يبحث عن معنى الأشياء العميق، ويجهد في التعبير عمّا يتخطّى التعبير. إنّه يجد في الكنيسة مصدر إلهامٍ، إذ إنّ، في إطار الدين، تُطرَح أهمّ القضايا الشخصيّة، وتنشد الأجوبة الوجوديّة النهائيّة، عن الله وعن الإنسان.

الكنيسة تردّد: «تعال أيّها الروح الخلاّق، تفقّد نفوس المؤمنين، واملأ بنعمة العلاء القلوب التي خلقتها».

«الروح هو فنّان الكون الحافل بالسرّ».

«قيل: «الجمال سيخلّص العالم». الجمال يضرم هذا التوق إلى الله الذي عبّر عنه محبّ جمالٍ عظيمٌ، هو أوغسطينُس الذي هتف: «تلكّأتُ طويلاً قبل أن أحببتكَ، أيّها الجمال الموغل في القدم، والممعن في الجدّة. لقد أحببتكَ، متأخّرًا جدًّا!»

«لعلّ دروبكم المتعدّدة، يا فنّاني العالم، تقودكم جميعًا، إلى محيط الجمال اللامحدود، حيث الدهشة تصبح إعجابًا، ونشوةً، وفرحًا لا يوصف!

«وليوجّه سرّ المسيح القائم من الموت إلهامكم!

«ولترافقكم العذراء القدّيسة «كلّيّة الجمال»، هي التي مثّلها فنّانون لا يُحصَون، والتي تأمّلها، في بهاء الفردوس، الشاعر المجلّي «دانتي»، ورأى فيها الجمال الذي يُمتّع أنظار جميع القدّيسين».

قدّيسون جُدُدٌ

يوم ١٩٩٩/٤/١٨، طوّب يوحنّا بولس الثاني الأب «مارشلّينو شامپانيا» (١٧٨٩–١٨٤٠) مؤسّس جمعيّة الإخوة المريميّين.

ثمّ، يوم ٥/٢ طوّب الأب «پيّو» الكبّوشيّ (Padre Pio)، الذي كان قد التقاه شخصيًّا، فتحدّث عنه حديث خبرةٍ واقعيّةٍ، وقال:

«... إنّ الذين قصدوه التماسًا لنصيحةٍ، أو بقصد الاعتراف، اكتشفوا فيه صورة المسيح المتألّم والقائم من الموت. على محيّاه كان يسطع نور القيامة. جسده الذي دمغته سمات الصلب، كان يظهر العلاقة العميقة بين الموت والقيامة التي تميّز السرّ الفصحيّ... النِعَم الفريدة التي مُنِحها، والآلام الداخليّة والروحيّة التي واكبتها، أتاحت له اختبار مشاركة الربّ الدائمة في آلامه، ويقينًا بأنّ «الجلجلة هي جبل القدّيسين».

وأشار إلى ما عاناه من سوء فهم المقرّبين منه، والذي بلغ أحيانًا حدّ الاتّهام، والتشهير، والاضطهاد، غير أنّ الطاعة كانت له طوقَ نجاةٍ، وبوتقة تطهّرٍ. وقد عزّاه المعلّم الإلهيّ، هامسًا في قلبه: «**تحت الصليب يتعلّم الإنسان الحبّ**». وعقّب البابا: «**أجل إنّ صلب المسيح هو مدرسة الحبّ المثلى، لا بل هو نبع الحبّ**». وأكّد

أنّ محبّة الأب «پيّو» كانت بلسمًا على جراح إخوته وآلامهم. فقد أنشأ، لهذا الغرض مستشفًى، حرص على أن يقرن المهارة الطبّيّة والكفاءة، بالمحبّة، كي يشعر المريض أنّه يتلقّى حبّ اللّه، وعطف إخوته.

واستشهد البابا بقول الأب «پيّو»: «**ارتاحوا في قلب يسوع، مثلما يرتاح طفلٌ بين ذراعي أُمّه**».

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى رومانيا

بين ٧ و٩ أيّار انطلق يوحنّا بولس الثاني في رحلته السادسة والثمانين إلى رومانيا، التي اندرجت، في معظمها، تحت راية الدعوة إلى وحدة الكنيسة، التي كانت محطّ اهتمامه الرئيس، ومدار كلّ خطاباته، في أثناء هذه الرحلة. فقد كان البابا يرى في رومانيا جسرًا بين الشرق والغرب، بين العالم اللاتينيّ الكاثوليكيّ والعالم الأرثوذكسيّ، فضلاً عن كونها «حديقة مريم»، وفقًا للوصف المأثور عنها.

ففي الخطاب الذي ألقاه عند وصوله، قال: «**هذه هي المرّة الأولى التي توفّر لي فيها العناية الإلهيّة فرصة رحلةٍ رسوليّةٍ إلى بلدٍ يضمّ أكثريّةً أرثوذكسيّةً. ولم يكن لهذا الأمر أن يتحقّق لولا التجاوب الأخويّ والرقيق من قبل سينودس الكنيسة الأرثوذكسيّة الرومانيّة المبجّلة، ولولا موافقة غبطة البطريرك الذي سيتسنّى لي إجراء محادثاتٍ معه...**

«**وها أنذا بينكم حاجّ إيمانٍ، ورجاءٍ، وسلامٍ، وإخاءٍ، وتفاهمٍ**».

ثمّ أثناء لقاء صلاةٍ، في الكاتدرائيّة البطريركيّة في بوخارست، تمنّى «**أن يتنامى التفاهم بين من يشرّفهم اسم المسيحيّين: أرثوذكسيّين وكاثوليكيّين، وبروتستانتيّين، وأتباع سائر الطوائف، وأن يكون هذا التفاهم خميرة وحدةٍ وائتلافٍ في رومانيا، وفي أوروپّا عامّةً**».

وفي لقائه مع أعضاء المجلس الأُسقفيّ الرومانيّ، تمحور خطابه على سنة اللّه الآب، السنة الإعداديّة الثالثة ليوبيل العام ٢٠٠٠ الكبير. وجاء في خطابه: «**كونوا**

للمؤمنين صورةً للمسيح»، ودعا إلى إيلاء اهتمامٍ خاصٍّ بوحدة الكنيسة، وبالكهنة والراهبات، وبمدرّسي التعليم المسيحيّ. وباستنهاض دعواتٍ كهنوتيّةٍ ورهبانيّةٍ، وبتشجيع دور العلمانيّين الرسوليّ في المجتمع، وبالتحدّي الكبير الذي يتعيّن عليهم مواجهته، تحدّي تقديم الإيمان للجيل الجديد تقديمًا كفيلاً باجتذاب الشبيبة، وبالمضيّ قُدُمًا في الحوار مع الكنيسة الأرثوذكسيّة، بروحٍ مسكونيٍّ صادقٍ. وشدّد على دور الأُسرة في المجتمع، وعلى واجب العناية بالفقراء والمهمّشين.

يوم ٥/٨، التقى البطريرك الأرثوذكسيّ «ثيوكتيست» (Thèoxtiste)... وذكّر بالتقاء الرسول أندراوس بيسوع، وباكتشافه أنّه المسيح، وبزفّه هذه البشرى إلى أخيه بطرس، وكيف غيّر هذا اللقاء مصير الأخويْن، فانطلقا، معًا، يبشّران بالإنجيل. وقال: «**ها قد جئت للقاء شعبٍ رحّب بالإنجيل، وتمثّله، ودافع عنه، في وجه الاعتداءات المتكرّرة التي أمست جزءًا أساسيًّا من إرثه الثقافيّ**».

«**إنّ الإنجيل الواحد ينتظر منّا أن نبشّر به جميعنا معًا، في محبّةٍ وتقديرٍ متبادليْن. كم من الحقول المفتوحة أمامنا من أجل مهمّةٍ تُلزمنا جميعًا، في الاحترام المتبادل، وفي الرغبة المشتركة، بخدمة بشريّةٍ بذل ابن الله حياته من أجلها. إنّ الشهادة المشتركة وسيلةٌ فائقة القوّة، في حين يقوم الشقاق دليلاً على انتصار الظلمات على النور**».

ودعا الحبر الأعظم، بإلحاحٍ، إلى المصالحة والتضامن، وإلى أن يكون الحوار بين الكنائس الشرقيّة والغربيّة نقيضًا ونقضًا لحوار الأسلحة بين قوى العالم المتناحرة. وقال: «**لا نحرمنّ العالم من شهادةٍ لا يقوى على تأديتها سوى تلاميذ ابن الله الذي مات وقام، حبًّا بالبشر. فهم، وحدهم، قادرون على جلب العالم إلى الإيمان...**». وتساءل، بلوعةٍ: «**من سيغفر لنا إحجامنا عن هذه الشهادة؟...**»، «**لقد نشدتُ الوحدة بكلّ طاقاتي، وسأواصل السعي حتّى النهاية لكي تكون الوحدة من أولويّات مهامّ الكنائس، ومهامّ الذين يرعونها...**».

وعن اليوبيل الكبير الذي كان موعده يدنو، قال: «**إنّ عيون البشر شاخصةٌ إلينا، مراقبةً، وآذانهم مشدودةٌ إلى سماع بشرانا، من خلال حياتنا أكثر من أقوالنا: «لقد وجدنا المسيح»... يودّون أن يروا هل سنقوى، نحن أيضًا، على التخلّي عن**

شباك كبريائنا ومخاوفنا، كي نعلن سنة نعمةٍ للربّ... إنّنا نجتاز هذه العتبة مع شهدائنا، مع جميع الذين وهبوا حياتهم من أجل الإيمان... لا يسعنا أن نخيّب نداء المسيح، وانتظار العالم، ولا الإحجام عن ضمّ أصواتنا، كي يتعاظم دويّ أقوال يسوع الأبديّة في مسامع الأجيال الجديدة.

«وشكرًا لكونكم الكنيسة الأرثوذكسيّة الأولى التي تدعو بابا روما إلى بلادها.

«هيّا، فلنسِر معًا في نور الربّ».

ويوم الأحد ٥/٩، أثناء صلاةِ «ملكة السماء»، جاء في عظة البابا: «**... أذكر الشهادة التي قدّمها، في غمرة الاضطهادات، رهطٌ من المسيحيّين، المشهورين والمجهولين، الذين ثبتوا، صامدين في إيمانهم، ولم يكفّوا عن نشر الإنجيل، بثمن دمائهم، أحيانًا. إنّ وفاءهم يمثّل لتلاميذ الربّ دليل رجاءٍ. فالشراكة بين مسيحيّين من طوائف مختلفة، الشراكة الحقيقيّة، وإن كانت غير كاملةٍ، تتأكّد بالاستشهاد في سبيل المسيح، وتكتمل بشركة القدّيسين.**

«فليصدح، من الكنيسة الأرثوذكسيّة ومن الكنيسة الكاثوليكيّة، نشيد تمجيدٍ واحدٌ لاسم الربّ، وليؤلّف نغمةً واحدةً تعبّر عن الإخاء القلبيّ، في علاقاتٍ متبادلةٍ تستدعي شركة جميع المؤمنين الكاملة...

«إنّ يوبيل العام ٢٠٠٠ الكبير يدعو المسيحيّين للتحديق إلى المستقبل، بوعيٍ أشدّ يقظةً للتحدّيات التي تطرحها الألفيّة القادمة. ومن هذه التحدّيات واجب نشدان وحدة جميع المؤمنين بالمسيح. أتمنّى أن تشهد الألفيّة الثالثة المسيحيّة اقترابًا من الشراكة التامّة ما لم نكن قد بلغنا وحدةً كاملةً».

وقدّم البابا الشكر للبطريرك «ثيوكتيست».

ثمّ احتفل البابا بقدّاسٍ في حديقةٍ، وشاركه غبطة البطريرك هذا الاحتفال، فكان لهذه المشاركة أبلغ أثرٍ في نفس البابا الذي هتف مع صاحب المزامير:

««عظيمةٌ هي أعمال الربّ!»... تحدوني رغبةٌ وحيدةٌ في وحدةٍ حقيقيّةٍ. إنّي أُصلّي بحرارةٍ كي نصل، في أقرب موعدٍ، إلى ملء الشركة الأخويّة بين جميع المؤمنين بالمسيح، في الشرق والغرب، وكي تتحقّق الوحدة التي صلّى من أجلها المعلّم الإلهيّ، عشيّة آلامه وموته».

وفي خطاب الوداع شكر لله فرصة زيارة بلدٍ حيث الكنيسة تتنفّس برئتيها، فرومانيا بيتٌ يتحاور فيه الشرق والغرب. وقال:

«**لقد هبّ الروح، بقوّةٍ، على هذه الأرض، ودفعنا إلى مزيدٍ من الثبات في الشراكة، وإلى مزيدٍ من الجرأة في إعلان الإنجيل. إنّ اللغة الجديدة التي أُعطيناها، لغة الشراكة الأخويّة قد استخدمناها، وتذوّقنا عذوبتها، وجمالها، وقوّتها، وجدواها**».

«**وفيما تشرع أبواب الألفيّة الثالثة، يُطلب منّا أن نجتاز الحدود المألوفة، كي نُسمع، بقوّةٍ متجدّدةٍ، ريح العنصرة، في بلدان القارّة العجوز، وحتّى أقصى تخوم العالم**».

وتمنّى أن تخرس الأسلحة، وتُسمَع حوارات الشراكة والسلم الجديدة، موضحًا أنّ للمسيحيّين دورًا أساسيًّا في هذا المضمار.

وأوكل إلى الشباب تحقيق حلم الربّ، وحلمه الشخصيّ، بأن يكون جميع المسيحيّين أُسرةً واحدةً، وأن يكون جميع البشر عيلة الله: «**ادخلوا الألفيّة الجديدة، يحدوكم هذا الحلم!**». وحذّرهم من الوقوع في براثن مجتمع الاستهلاك بعد أن تحرّروا من النير الشيوعيّ.

وبالإجمال كانت زيارة يوحنّا بولس الثاني إلى بوخارست تحقيقًا لحلمٍ غالٍ طالما راوده، وبنفس القدر كان البطريرك «ثيوكتيست» توّاقًا إلى الترحيب به في بلده. وعاد البابا إلى روما يضجّ رضًا، ولم يعد يملّ من التحدّث، بتأثّرٍ ظاهرٍ، عمّا أسالت تلك الأيّام الثلاثة إلى قلبه من فرحٍ، وقد عدّها ذات بُعدٍ تاريخيٍّ، ولا سيّما أنّه كان راسخ اليقين أنّ مسيرة الوحدة المسكونيّة لا رجوع عنها.

وكان، قبل عامٍ، قد اتّفق مع بطريرك روسيّا، أليكسي الثاني، على التلاقي في النمسا، واختير مكان ذلك اللقاء في ديرٍ هبّ رهبانه لاتّخاذ كلّ التدابير لاحتضان هذا الحدث احتضانًا لائقًا، وكان قد حُدّد الموعد يوم **٢١** حزيران **١٩٩٨**، ولكن عشرة أيّامٍ قبل حلول هذا الموعد، هبط النبأ المخيّب، مفيدًا أنّ السينودُس المقدّس الروسيّ قد ألغى هذا اللقاء.

ولذلك، رأى البابا في دعوة بطريرك رومانيا تعويضًا عن تلك الخيبة، رغم المشادّات بين الكنيستين الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة في رومانيا.

وغدا متعذّرًا على يوحنّا بولس الثاني نسيان محطّات تلك الزيارة التي انحفرت ذكراها في أغوار نفسه: صداقةٌ توثّقت بينه وبين البطريرك؛ صلاته في مقبرة «بيلو» (Belu)، على أضرحة أساقفةٍ وكهنةٍ تابعين للطقس البيزنطيّ؛ وأخيرًا، وخاصّةً، قدّاسا يوم الأحد، **٥/٩** اللذان احتفل بأحدهما البطريرك وشاركه البابا، والثاني احتفل به البابا وشاركه البطريرك، وفي القدّاسين كليهما تعالت هتافات «وحدة، وحدة!»، و«يحيا البابا».

وكان في عشيّة ذلك اليوم، أي مساء يوم السبت، **٥/٨**، قد عُقد اجتماعٌ ضمّ رومانيّين من كلّ الطوائف، وعبّر، خلاله، البطريرك عن أُمنيّته بالعودة إلى أُصول الكنيسة الموحّدة، قبل انقسامها عام **١٠٥٤**. وكان البابا قد اختتم هذا اللقاء بتأثّرٍ بالغٍ، قائلاً: «**شكرًا لما وفّرتموه لي من سعادةٍ بهذا اللقاء الأخويّ. شكرًا لعطيّة هذا الحجّ الذي سمح لي تثبيت إيماني بالتماسّ مع إيمان إخوةٍ غيورين في المسيح**». وقوبلت كلماته بوقوف الجميع، وبرعدٍ من التصفيق.

وبدا يوحنّا بولس الثاني في قمّة قوّته، وفي قمّة تواضعه.

زيارةٌ رسوليّةٌ سابعةٌ إلى پولونيا: ٥ حتّى ١٧ حزيران ١٩٩٩

كانت تلك رحلته الرسوليّة السابعة والثمانين، وامتدادًا لزيارته إلى وطنه في عام ١٩٩٧، واستهدف منها إعداد الپولونيّين ليوبيل عام ٢٠٠٠ الكبير، فضلاً عن الاحتفال بمناسباتٍ عديدةٍ منها:

– الذكرى الألفيّة لتطويب القدّيس «أدالبير»، ولتنظيم الكنيسة الپولونيّة، عام ١٠٠٠ الذي أعلنه البابا سيلڤستروس.

– اختتام سينودُس الكنيسة الپولونيّة بتاريخ ٦/١١.

– تطويب عددٍ من الطوباويّين والشهداء.

وتوافقت تلك الزيارة مع انقضاء عشرين سنةً على حبريّة يوحنّا بولس الثاني، عشرين سنةً زخرت بالأحداث التي غيّرت مجرى تاريخ پولونيا، وتاريخ العالم.

وبما أنّ تلك السنة كانت مكرّسةً للّه الآب، فقد تمحورت مداخلات الحبر الأعظم على قول القدّيس يوحنّا بولس الثاني: «**اللّه محبّة**».

استهلّ البابا زيارته من مدينة «غدنسك»، حيث احتفل، في الخامس من حزيران بالذكرى الألفيّة لتطويب القدّيس «أدالبير». ومن المعروف أنّ «غدنسك» قد وسمت تاريخ «پولونيا» والعالم، وسمًا مؤثّرًا. ففيها نشأت النقابة العمّاليّة المستقلّة الأولى، في دولةٍ قابعةٍ وراء الستار الحديديّ، وأيقظ مثالُها ثورات كرامةٍ في العديد من البلدان المجاورة. منها انطلق صوت الضمير المطالب بكرامة الإنسان، وبالعدالة، والتضامن بين البشر. صوتٌ بعث الضمائر من سباتها، وجاء بالحرّيّة التي طالما نشدها المقموعون بتوقٍ، والتي تمثّل تحدّي اليوم والغد. ولا جَرَم أن پولونيا الحديثة الحرّة، وُلِدت في «غدنسك».

وممّا قاله البابا بهذه المناسبة: «**جئتكم بكلمات إيمانٍ، ورجاءٍ، ومحبّةٍ، جئت في غروب هذه الألفيّة، كي أتأمّل معكم في سرّ اللّه الذي هو حبٌّ**».

وبعد ظهر ذلك اليوم احتفل بالذبيحة الإلهيّة التي اختتم بها يوبيل ألفيّة القدّيس «أدالبير»، وقد جاء في عظته: «**لا حرّيّة بلا تضامنٍ، ولا تضامن بلا حبٍّ. وما من سعادةٍ، وما من مستقبلٍ للإنسان وللأمّة، بلا حبٍّ، الحبّ الذي يصفح، ولكنّه لا ينسى آلام الآخرين، ولا ينشد امتيازه، ومصلحته، بل يبتغي خير الآخرين. حبٌّ يقف ذاته على خدمة الغير، وينسى فرديّته، ويهب بسخاءٍ. نحن، إذن، مدعوّون إلى بناء مستقبلٍ قائمٍ على حبّ اللّه والقريب، من أجل بناء حضارة الحبّ. عالم اليوم يفتقر إلى بشرٍ كبار القلوب، يخدمون بتواضعٍ وحبٍّ، يباركون ولا يلعنون، ويفتتحون الدنيا بالمباركة. يستحيل بناء المستقبل، من غير الرجوع إلى نبع الحبّ، أي اللّه، الذي بلغ حبّه من العظمة أن وهب ابنه من أجل خلاص العالم**».

بعد ظهر يوم الأحد، ٦/٦، احتفل البابا بقدّاسٍ تكريمًا لقلب يسوع، وممّا

جاء في عظته: «**إنّ كلّ ما ابتغى الله أن يقوله لنا عن ذاته، وعن حبّه، أودعه في قلب يسوع، ومن خلال هذا القلب عبّر عنه**».

«**يسوع نبعٌ، منه تتفجّر حياة الإنسان الإلهيّة. حسبنا أن ندنو منه، ونقيم فيه، كي نحصل على هذه الحياة. وما هذه الحياة سوى بدء قداسة الإنسان. القداسة هي في الله، ويسع الإنسان بلوغها بنعمة الله. ولا قداسة بلا تضحيةٍ**».

وصباح يوم ٦/٧، بمناسبة مباركته مزارًا مريميًّا جديدًا، قال: «**إنّ كلّ مزارٍ مريميٍّ هو بيت إليصابات**»، والتمس من العذراء:

«**إيمانًا يتغذّى، كلّ يوم، بالصلاة، ويتقوّى بالأسرار المقدّسة، ويستقي من غنى إنجيل يسوع، إيمانًا منيعًا لا يخشى المصاعب والآلام والإخفاقات، لأنّه قائمٌ على قناعةٍ بأنّ لا شيء يستحيل على الله،**

«**إيمانًا ناضجًا، بلا تحفّظٍ، يتعاون مع الكنيسة المقدّسة في بناءٍ حقيقيٍّ لجسد المسيح السرّيّ...**».

وفي عظة القدّاس، علّق على التطويبات بقوله إنّ من استحقّ هذه التطويبات بالكامل هو، في المقام الأوّل، يسوع. وطالب كلّ الرعايا أن تشيد بشهدائها وتكرّمهم. وقال: «**كلّ مسيحيٍّ اتّحد بالمسيح بنعمة العماد، يصبح عضوًا في الكنيسة، ولم يَعُدْ يخصّ نفسه، بل يخصّ من مات وقام من أجلنا... وهو ملزمٌ بالشهادة له. وهذا يقتضي تضحيةً كبرى تُقدَّم، كلّ يومٍ، وأحيانًا، مدى الحياة. هذه التضحية تمثّل بطولةً، وقد ترتدي شكل استشهادٍ حقٍّ، يتواصل، يومًا فيومًا، في كلّ لحظةٍ، وقطرةً قطرةً...**» «**وقد يستشهد المرء حتّى بين ذويه، عندما يلاقي السخريّة، والهزء، والإهانات، بسبب إيمانه، وقد يتعرّض لعدم التفاهم، وللمعارضة من أقرب أقربائه، والنبذ. استشهادٌ خفيٌّ، في سرّ القلب، استشهاد الروح، والدعوة والرسالة، استشهاد الكفاح ضدّ الذات، وتخطّي الذات. وطالب البابا الكنائسَ بتدوين سفرٍ جديدٍ لشهدائها، يضمّ جميع المضطهَدين من أجل البرّ والعدل. «إنّ الكنيسة بحاجةٍ إلى «مجانين الله» يجرؤون على الحبّ، ولا يتوانون عن أيّة تضحيةٍ قد تؤتي ثمارًا وفيرةً، وستكون مكافأتهم عظيمةً**».

ظهر يوم ٦/٧ التقى في جامعة «نيقولا كوپرنيك»، بمدينة تورون (Torun)، عمداء وأساتذة جامعاتٍ، وقال إنّ التقاءه، أثناء أسفاره، رجال العلم قد أصبح تقليدًا يكرّس العلاقة بين مهمّة رجال العلم ورسالة الكنيسة، وهي خدمة الحقيقة. «**العالم، اليوم، يحتاج إلى الرجاء وينشده، ولا سيّما بعد معاناته من الأنظمة النازيّة والشيوعيّة التي قد تدعو إلى القنوط. ولكنّ الرجاء يولد من التطلّع إلى المسيح، حيث نكتشف فقرنا وعظمتنا معًا. إنّ علّة رجائنا أنّ الله حبٌّ، وأنّه هو الذي أحبّنا، أوّلاً**».

وعن المأساة الإنسانيّة التي طالما نجمت عن ادّعاء تضارب العقل والإيمان، أوضح قداسته «**أنّ الإيمان لا يخشى العقل، بل ينشده ويثق به. وكما أنّ النعمة تقود الطبيعة إلى اكتمالها، كذلك الإيمان يدفع العقل إلى الكمال. هما الجناحان اللذان يتيحان للفكر البشريّ التحليق صوب تأمّل الحقيقة. وليست الحقيقة شأنًا فرديًّا فحسبُ، بل إنّ لها بُعدًا اجتماعيًّا يقتضي تبليغها للآخرين، وعلى العلماء أن يقتسموا علمهم مع الآخرين... العقل هو أعظم عطايا الله**».

وبعد ظهر يوم ٦/٧، في أثناء قدّاسٍ، طوّب الكاهن «ستيفان ڤينسينتي فريليهوڤسكي» (Stephan Wincenty Frelichwski)، الذي اقتسم سلام المسيح، الذي كان يغمره، مع المحتاجين إلى حبٍّ وعزاءٍ. وأشاد البابا بحبّ الله المتمثّل بقلب يسوع الإلهيّ، رمز الحبّ الأعظم، وتحدّث عن السلام الذي تدعو إليه الكنيسة، والذي كانت مدينة «تورون» موئلاً له. فقد حضنت العديد من معاهدات السلام، ومن اللقاءات التي كانت المصالحة طابعها. وفي هذا السياق صرّح: «**لا يتحقّق السلام الداخليّ إلاّ من خلال الالتزام بالقضاء على الشرّ والخطيئة في القلب، ومن خلال الحبّ، والتجذّر في القيَم الأخلاقيّة السامية، والانفتاح على الله**».

صباح يوم ٦/٨ احتفل بالذبيحة الإلهيّة في مدينة «إيلك» (Elk) التي حضنت رعيّةً جديدةً. وفي عظته أكّد: «**هناك مساحاتٌ واسعةٌ للمحبّة تستدعينا، فلنصغِ إلى صرخات المتواضعين**».

وصباح يوم الخميس، ٦/١٠، احتفل بقدّاسٍ في مدينة «سيدلتشي»

(Siedlce)، وأشاد بشهداء من هذه المدينة تابعين للكنيسة اليونانيّة الكاثوليكيّة، سبق له تطويبهم.

وأعلن، بهذه المناسبة: «**اليوم، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، نحتاج إلى شهادة إيمانٍ حقيقيّةٍ، يؤدّيها، على نحوٍ مرئيٍّ تلاميذ للمسيح علمانيّون، من خلال حياتهم. نحتاج إلى شهادة وفاءٍ للكنيسةٍ التي، منذ عشرين قرنًا، ما انفكّت توفّر الخلاص لجميع الشعوب، ولجميع الأمم، بإعلانها تعاليم الإنجيل الثابتة، الخالدة. إنّ البشريّة تواجه مصاعب من كلّ نوعٍ، ومشاكل وتحوّلاتٍ عنيفةً، وكثيرًا ما تعاني اضطراباتٍ وتمزّقاتٍ مأسويّةً. في مثل هذا العالم، أشخاصٌ كثُرٌ، ولا سيّما الشباب، يُجرَحون، ويستحوذ عليهم شعورٌ بالإهمال والتخلّي، ويقع بعضهم ضحايا بِدَعٍ وضلالاتٍ دينيّةٍ، وتشويهٍ للحقيقة. وآخرون يخضعون لأشكال عبوديّةٍ أُخرى، من جرّاء تفشّي مواقف أنانيّةٍ، وظلمٍ، ولا مبالاةٍ، حيال احتياجات الآخرين... الكنيسة تواجه تحدّياتِ عصرنا الحاضرِ هذه، وتحدّياتٍ أُخرى كثيرةً، وتبتغي أن تقدّم للبشريّة معونةً مجديةً. ولذلك تحتاج التزام مؤمنين علمانيّين، يأخذون على عاتقهم، بإشراف رعاتهم، قسطًا ناشطًا من رسالتها الخلاصيّة**».

وناشد البابا المؤمنين قائلاً: «**أنتم تؤلّفون الكنيسة، أنتم جسدها السرّيّ. من خلالكم، يبتغي المسيح أن يعمل بقدرة روحه. من خلالكم يريد تبشير الفقراء، وإعلان إطلاق سراح المأسورين، وعودة البصر للعميان، وتحرير المقموعين... بصفتكم علمانيّين، أوفياء لهويّتكم، تحيون في العالم الذي يسعكم تحويله على نحوٍ نشيطٍ وفعّالٍ، وفق روح الإنجيل. كونوا الملح الذي يبثّ النكهة المسيحيّة في الحياة، كونوا النور الذي يسطع في ظلمات اللامبالاة والأنانيّة**».

وبعد ظهر ذلك اليوم، أقام قداسته قدّاسًا مسكونيًّا في مدينة «دروهتشين» (Drohiczyn)، تحت شعار «أحبّوا بعضكم بعضًا، كما أنا أحببتكم، بمشاركة مؤمنين أرثوذكسيّين ولوثريّين، وآخرين غير كاثوليكيّين، وبمشاركة متروپوليت ڤرسوڤيا الأرثوذكسيّ. وفي أثناء الصلاة من أجل وحدة المسيحيّين، قال قداسته:

«**الإيمان بالمسيح يعني إرادة الوحدة. وإرادة الوحدة تعني إرادة الكنيسة. وإرادة الكنيسة تعني إرادة شركة النعمة التي تحقّق مخطّط الآب منذ الأزل. لقد أسّس**

المسيح كنيسةً واحدةً، ويرغب في أن تبقى واحدةً، أبدًا. ولذلك ينبغي أن نعترف جميعنا بأخطاء الماضي، وأن نصفح بعضنا لبعض. فالمحبّة هي القوّة الوحيدة التي تفتح القلوب لكلام يسوع، والكفيلة بدفعنا إلى مشاركةٍ أخويّةٍ، بكلّ ما نحن، وكلّ ما نملكه، بإرادة المسيح. المحبّة تفتحنا على الغير، وتمكّننا من تخطّي العوائق الذاتيّة، وترشدنا إلى دروبٍ جديدةٍ، وتُشرع آفاق مصالحةٍ حقّةٍ. إنّها شرطٌ أساسيٌّ لشهادةٍ مشتركةٍ للإنجيل، يحتاج إليها العالم، أشدّ حاجةٍ... الحوار هو الأداة الطبيعيّة لتبادل وجهات النظر، حوارٌ يحدوه حبّ الحقيقة، وهذا الحبّ لا بدّ منه من أجل بحث المصاعب، وشتّى وجوه الاختلافات... فليكن الحبّ هو الذي يمدّ جسورًا بين الضفّتين. ليكن الحبّ المتبادل، وحبّ الحقيقة هما الجواب على العقبات القائمة، وعلى التوتّرات التي قد تنشأ!».

وحذّر أوروبّا من نظرةٍ اقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ صرفٍ. ودعاها إلى إيلاء اهتمامٍ أكبر بنموّ الإنسان الروحيّ وبالثقافة، وبكلّ أبعاد الكائن البشريّ، موضحًا:

«إنّ شئنا أن تكون الوحدة الأوروبّيّة الجديدة دائمةً، ينبغي أن نبنيها على القِيَم الروحيّة التي عليها نهضت، قديمًا، آخذين بالاعتبار تنوّع الثقافات، وتقاليد كلّ أمّةٍ. وعلى هذه الوحدة أن تكون جماعة روحٍ كبرى. وبهذه المناسبة أُجدّد ندائي للقارّة القديمة: «يا أوروبّا افتحي الأبواب للمسيح»».

وفي ذلك الصباح أيضًا زار كنيسة الآباء الباسيليّين للروم الكاثوليك التي تحتضن رفات ١٣ شهيدًا، كان البابا قد طوّبهم، عام ١٩٩٦، والتمس من أولئك الرهبان الصلاة من أجل وحدة الكنيسة، والمساهمة في التبشير الجديد بالإنجيل.

ثمّ التقى أعضاء المجلس الأُسقفي البولونيّ، وأشار إلى أنّ رحلته هذه كانت له أطول رحلة حجٍّ، وذلك على عتبة الألفيّة الثالثة، وكانت تتويجًا لكلّ رحلات حجّه السابقة، وصرّح: **«إنّ أروع تحقيقٍ لتطويبات يسوع هم القدّيسون»**، ومنهم أولئك الذين طوّبهم، في أثناء هذه الرحلة، وناشد المجتمعين الاقتداء بهم.

وطالب بالسعي إلى أن تطبع قِيَم الإنجيل وتعاليمه الفكر الأوروبّيّ، ومعايير العمل والسلوك. وذكّر الأساقفة بواجب العناية بالكهنة والإكليريكيّين.

وبعد الاحتفال باختتام السينودس الوطنيّ الثاني، بارك مكتبة جامعة ڤرسوڤيا الجديدة.

صباح يوم ٦/١٢، احتفل بقدّاسٍ في مدينة «سندوميج» (Sandomierg) تكريمًا لقلب مريم الطاهر. ودعا إلى نقاء القلب الذي طوّبه الربّ، والذي تجهد ثقافة اليوم لتدميره، ولا سيّما لدى الشبّان، مؤكّدًا أنّ المجون والإباحيّة ليسا حرّيّةً، ولا حبًّا، مكرّرًا قولاً له سابقًا: «**وحده قلبٌ طاهرٌ يقدر أن يحبّ الله حبًّا كاملاً. وحده قلبٌ طاهرٌ قادرٌ على اقتياد مشروع الحبّ الكبير، المتمثّل في الزواج إلى غايته؛ وحده قلبٌ طاهرٌ يقوى على خدمة الآخرين. لا تدمّروا مستقبلكم، ولا تدعوا أحدًا يسلب منكم غنى الحبّ. دعّموا أمانتكم، وأمانة أسركم المستقبليّة التي ستبنونها في حبّ المسيح**». إنّ تربية الشبيبة على الطهارة هي من أخطر مهامّ التبشير التي تواجهنا. كلّما كانت الأُسرة طاهرةً، كانت الأُمّة سليمةً.

وبعد ظهر ذلك اليوم احتفل بقدّاسٍ آخر، في ساحة الكردينال «ڤيشينسكي»، أمام كنيسة العذراء، ملكة پولونيا. وتحدّث عن حماية الطبيعة، فأكّد أنّها مرتبطةٌ باحترام كرامة الإنسان، وأنّ حماية الطبيعة لا تتحقّق ما لم تُحترم الحياة البشريّة في كلّ مراحلها.

صباح يوم ٦/١٣، طوّب، في العاصمة الپولونيّة، ڤرسوڤيا الأخت «ريجينا پروتمان» (Regina Protmann)، والعلمانيّ «إدموند بويانوڤسكي» (Edmund Bojanowski)، ومئةً وثمانيةً من شهداء الإيمان.

الأُخت «ريجينا» هي مؤسّسة جمعيّة أخوات القدّيسة كاترينا، وقد كرّست ذاتها، بكلّ قلبها، من أجل تجديد الكنيسة، بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، مدفوعةً بحبّ يسوع فوق كلّ شيءٍ. وقد قرنت الجمعيّةُ التي أسّستها، التأمّلَ في أسرار الله بالعناية بالمرضى في بيوتهم، وتعليم الأولاد، ولا سيّما الفتيات، وتربية النساء الدينيّة. كان همّ الآخرين هو هاجسها الوحيد، وكانت، بنظرةٍ ثاقبةٍ، تستشرف احتياجات الشعب والكنيسة، وكان حبٌّ ملتهبٌ يحدوها إلى تنفيذ مشيئة الله، ولا تساورها أيّة خشيةٍ من صليب الخدمة اليوميّة.

رسالة الرحمة هذه كانت، أيضًا، دافع الطوباويّ «إدموند بويانوڤسكي» الذي كان ينعم بمواهب كثيرةٍ، وبعمقٍ روحيٍّ. ورغم هشاشة صحّته، قام بنشاطٍ واسع لصالحِ القرويّين. وبعطفٍ شديدٍ كان يتلمّس احتياجات الآخرين، وأوجد مؤسّساتٍ عديدةً تعليميّةً وخيريّةً وثقافيّةً ودينيّةً، دعمًا للأسَر القرويّة، ماديًّا وأدبيًّا. ومع أنّه بقي علمانيًّا، أسّس جمعيّة خادمات العذراء القدّيسة. كان إنسانًا طيّبًا في أعماقه، وبدافع حبّه لله وللآخرين، كان يفلح في لمّ شمل الأوساط كلّها على الخير، وقد سبق المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، بممارسته رسالة العلمانيّين، وضرب مثالاً فريدًا للعمل السخيّ والحكيم من أجل الإنسان، والوطن، والكنيسة.

أمّا شهداء الحرب العالميّة الثانية، المئة والثمانية، الذين طوّبهم، فقد كان منهم كهنةٌ وعلمانيّون، شبّانٌ وشيوخٌ، وأشخاصٌ من كلّ الطبقات والأوساط. وهم ببذلهم حياتهم الزمنيّة، حفاظًا على إيمانهم، شهدوا لانتصار المسيح.

وبعد ظهر ذلك اليوم تخشّع عند أضرحة ضحايا الحرب، عام **١٩٢٠**، أي سنة ميلاده، واعتبر أنّ لأولئك الضحايا دَيْنًا عليه، لأنّهم بتضحيتهم، أنقذوا حياته.

ومساء ذلك اليوم احتفل بقدّاسٍ في كاتدرائيّة ڤرسوڤيا، وتحدّث عن الإفخارستيّا، رمز الحبّ الأقصى.

صباح يوم ٦/١٤، احتفل بقدّاسٍ في كنيسة الراعي الصالح، في مدينة «لوڤيتش» (Lowiecz) وناشد الآباء أن يوفّروا لبنيهم تربيةً كفيلةً بضمان مستقبلٍ سليمٍ للأمّة. فلكلّ ولدٍ الحقّ الطبيعيّ الثابت بأن يكون له أُسرةٌ ووالدان، وإخوةٌ وأخواتٌ، يثبت، بين ظهرانيهم أنّه شخصٌ يحتاج إلى الحبّ، وقادرٌ على نقل هذا الشعور إلى آخرين. ودعا الجميع إلى التمثّل بقدوة أُسرة الناصرة. وأكّد أنّ للأمّ، في هذا المجال، دورًا رئيسًا، بسبب قربها الوثيق من الولد، وأنّ الوالدين خير معلّمي الصلاة والفضائل المسيحيّة، وأنّ لا أحد يضاهي دورهما في هذا المجال.

وللناشئة قال: «**عمركم هو موسم الحياة، من أجل الزرع، وإعداد التربة للحصاد**

المستقبليّ. وبقدر ما يتعمّق التزامكم بواجباتكم، بنفس القدر تتنامى جدوى أدائكم رسالة المستقبل... المعرفة تشرع آفاقًا، وتساعد نموّ الإنسان الروحيّ... إنّ الإنسان الذي تحدوه رغبةٌ دائمةٌ في تعلّم معارف جديدةٍ هو، حقًّا، عظيمٌ.

«الربّ يسوع يريد مساعدتكم. يريد أن يكون عونكم وقوّتكم في نضالات شبابكم الهادفة إلى اكتساب فضائل الحبّ، والإيمان، والاستقامة، والطهر، والسخاء. كلّما واجهتم صعوبةً، واختبرتم فشلاً أو خيبةً، فليتحوّل فكركم صوب المسيح الذي يحبّكم، ويواكب مسيرتكم بوفاءٍ، ويساعدكم على تذليل كلّ عقبةٍ. اعلموا أنّكم لستم، أبدًا، وحيدين. فالذي يرافقكم لن يخيّب رجاءكم أبدًا. المسيح يدرك رغبات قلبكم الأكثر توغّلاً في السرّ، وهو ينتظر حبّكم وشهادتكم له، وهو يقول لكم: «بمعزلٍ عنّي لن تستطيعوا شيئًا».

وفي مساء ذلك اليوم التقى أهالي مدينة «سوسنوڤيتس» (Sosnowiec) واحتفل بقدّاسٍ ألقى فيه عظةً أكّد فيها قيمة العمل الفائقة لخير الإنسان والمجتمع. ودعا إلى أن يكون أجر العمل بقدر الجهد المبذول، لا بقدر قيمة الإنتاج، وإلى ألاّ تبرّر الربحيّةُ حرمانَ العامل من عمله، ومن مورد عيشه. فلا بدّ من روح تضحيةٍ لكيلا يُضحّى بإنسانيّة الإنسان وبسعادته، على هيكل الرفاه الذاتيّ.

صباح يوم ٦/١٥، أُقيم قدّاسٌ احتفالاً بالذكرى الألفيّة لتأسيس رعيّة كراكوڤيا، واحتفل بالذبيحة الإلهيّة، نيابةً عن البابا، الكردينال «سودانو»، أمّا عظة البابا فتلاها صديقه الكردينال «مهارسكي»، وفيها طالب كنيسة كراكوڤيا بمواصلة عمل التقديس الذي كلّفها بها الله منذ ألف سنةٍ. وبعد استعراض إرث القداسة التي ازدهرت به تلك الكنيسة، تساءل عمّا فعل جيل اليوم بهذا الإرث، وهل ما برح يعيش على تقليد الرسل، ورسالة الأنبياء، ودماء الشهداء، مذكّرًا بالمسؤوليّة الكبرى التي تقع على عاتق كلّ مؤمنٍ، في إنماء الإيمان، وخلاص البشر، ومصير الكنيسة في الألفيّة القادمة.

وفي مساء ذلك اليوم أُقيم قدّاسٌ في مدينة «غليڤيتسي» (Glivice) تكريمًا لقلب يسوع الشاهد على حبّ الله لنا، وتُليت عظة البابا نيابةً عنه، لأنّه لم يستطع الحضور شخصيًّا.

صباح يوم ٦/١٦، ترأّس الاحتفال بقدّاسٍ في دير راهباتٍ كلاريسّاتٍ في مدينة «ستاري ساش» (Stary Saçz)، حيث عاشت وماتت الراهبة «كونيغوندي» (Cunègonde) التي طوّبها في ذلك اليوم، والتي كانت، قبل ترهّبها، أميرةً هنغاريّةً سليلة أُسرةٍ تضمّ طائفةً من القدّيسين والقدّيسات من القرن الثالث عشر. وجاء في عظته، التي تلاها، نيابةً عنه، صديقه الكردينال «مهاركسي»: «**القدّيسون لا يعبرون. القدّيسون يعيشون بالقدّيسين، ويتعطّشون إلى القداسة. وشهادتهم تجتاز القرون**». وتوجّه إلى الشباب بقوله: «**لا تخافوا من الصبوّ إلى القداسة، لا تخافوا من أن تكونوا قدّيسين... اجعلوا من الألفيّة الجديدة عهد قدّيسين... دافعوا عن حرّيّتكم الداخليّة، ولا يمنعنّكم حياءٌ بشريٌّ من ممارسة العفّة. فمن خلال العفّة يتجلّى، أسطع تجلٍّ، عمل الروح القدس وقدرته**».

وأشاد قداسته بتجرّد القدّيسة وسخائها. فهي، من أجل إنقاذ وطنها من الإفلاس، تخلّت عن كلّ إرثها من والدها، الذي ضمّ، في ما ضمّ، منجم ملحٍ، فاستحقّت لقب «المعزّية»، و«الطبيبة»، و«المربّية»، و«الأمّ القدّيسة». وكانت قد تخلّت عن الأُمومة الطبيعيّة، فأمست للكثيرين أُمًّا حقيقيّةً.

وبعد ظهر ذلك اليوم حلّ زائرًا على مسقط رأسه، مدينة «ڤادوڤيتس» (Wadowice) مسرح صباه، وموئل أغلى ذكرياته، حيث باح: «**بمحبّةٍ بنويّةٍ أُقبّل عتبة البيت الذي ولدتُ فيه، معبّرًا للعناية الإلهيّة عن شكري لهبة الحياة التي أعطيَت لي من خلال والديّ الحبيبين، ومن أجل دفء عشّ الأُسرة، من أجل حبّ ذويّ الذي كان يمنحني شعورًا بالأمان والقوّة، حتّى عندما كان يتعيّن عليّ اختبار الموت، ومصاعب الحياة اليوميّة، في ذلك الزمن العصيب. وبمثل هذه التجلّة أُقبّل، أيضًا، عتبة بيت الله، كنيسة «ڤادوڤيتس» الرعويّة، وجرن معموديّتها، حيث أُدخلت إلى المسيح، واستُقبلتُ في جماعةٍ كنسيّة**». وختم كلمته بصلاةٍ مؤثّرةٍ موجّهةٍ إلى سيّدة المعونة الدائمة، شفيعة مدينته، التي هتف لها: «**يا سيّدتنا، ويا محاميتنا، ويا وسيطتنا، ومعزّيتنا، ويا أمّنا**».

وعند عودته إلى كراكوڤيا، حاور، من شرفة الدار الأُسقفيّة، حشدًا من الشباب، واسترجع ذكرى الكردينال «ستيفان سابيها»، مستذكرًا تعابيره،

وملامحه، وأفضاله عليه، وعلى كنيسة پولونيا، موجزًا انطباعاته بقوله: «... **هنا بدأ كلّ شيءٍ: الحياة، والمدرسة، والدروس، والمسرح... والكهنوت**».

وعندما أنشد الشبّان: «مئة سنة»، لاحظ: «**إنّ إنشاد هذا التمنّي أسهل من تحقيقه**».

صباح يوم ٦/١٧، وقبل مغادرته، حرص على الحضور إلى مدينة «غليڤتسي» (Glivice)، حيث لم يستطع الشخوص يوم ٦/١٥، وفقًا للبرنامج المقرّر، حرصًا منه على لقاء أبناء تلك المدينة الذين كانوا توّاقين إلى تحيّته، وخاطبهم، مازحًا، بقوله:

«**باركِكم الله للصبر الذي تبرهنون عنه حيال البابا... أنا ما كنت لأحتمل مثل هذا البابا الذي يجب أن يأتي ولا يأتي، ثمّ يعزف عن المجيء، وفي نهاية المطاف يأتي... لحسن الحظ، أنتم تقولون إنّ هذا الأمر لا يزعجكم. وهكذا غدا بوسعي أن أعود إلى روما مرتاح الضمير. والآن، سأقصد سيّدة «تشينستوهوڤا» كي ألتمس الغفران، وبعدئذٍ سأنطلق مرتاح الضمير، لأنّكم صفحتم عنّي...**».

وألقى الأُسقف المحلّيّ كلمة ترحيبٍ، جاء فيها: «أيّها الأب الأقدس الحبيب، لقد احتشدنا هنا، أكثر من نصف مليون شخصٍ، كي نقول للحاجّ العظيم: «نحبّك». أنت، اليوم، شاهد الحبّ السخيّ... أنتَ أعظم شاهدٍ في العالم...».

وكان البابا قد احتفل، صباح ذلك اليوم بقدّاسٍ وداعيٍّ في كاتدرائيّة «ڤاڤيل» بكراكوڤيا، الحافلة بآثار القداسة، وبذكرياتٍ غاليةٍ على من كان رئيس أساقفتها، والذي طالما استمدّ وحيًا وقوّةً من مثال القدّيس «ستانسلاس».

وهكذا انتهت أطول زيارةٍ للبابا يوحنّا بولس الثاني إلى موطنه، التي أتت بحصادٍ وفيرٍ من المحبّة والتقديس؛ ولكنّ الحبر الأعظم أبى مغادرة وطنه قبل التخشّع في مزار شفيعة وطنه، وأُمّه، سيّدة «تشينستوهوڤا» حيث أوكل پولونيا إلى حماية عذراء «ياسنا غورا» الأُموميّة، قائلاً: «**هنا أَلِفنا أن نأتي كي نقدّم لأمّ ابن الله، وأُمّنا، مشاكلنا الشخصيّة والعائليّة، وقضايانا الوطنيّة الكبرى، مثلما فعل أجدادنا، طيلة قرونٍ**».

وفي مطار كراكوفيا، انطلق الشعب يهتف: «ابقَ معنا». فأجاب: «**عشرين دقيقةً أُخرى، وربّما ثلاثين، أو أربعين. سنرى**».

وبدا جليًّا أنّه كان يعاني مشقّةً في الانسلاخ عن وطنه الحبيب.

رسائل في كلّ اتّجاهٍ

وعاد البابا إلى روما كي ينغمس، مجدّدًا، في هموم العالم وقضاياه، مؤكّدًا، حضوره في كلّ مكانٍ، ومع الجميع.

يوم **١٩٩٩/٨/٨** بعث برسالةٍ إلى المشاركين في أيّام الشبيبة الأوروبّيّة في «كومبوستيل» بإسبانيا، جاء فيها:

«**إنّ الكنيسة تنظر إليكم برجاءٍ، وتعتمد عليكم. أنتم الأجيال المدعوّة إلى تبليغ عطيّة الإيمان إلى الألفيّة الجديدة. لا تخيّبوا رجاء المسيح، الذي، بملء حبّه، دعاكم إلى اقتفاء خطاه، وأرسلكم إلى أقاصي الأرض، مثلما أرسل القدّيس يعقوب. فأمسكوا بعصا الحجّ، أي بكلام الله، وامضوا على دروب أوروبّا، معلنين، بجرأةٍ، البشرى السعيدة، والمسيح الإنسان الكامل، الإنسان الجديد، الذي يبيّن للرجال والنساء، في كلّ الأزمنة، عظمتهم وكرامتهم، بصفتهم أبناء الله... إنّ التبشير الجديد الموكل إليكم، يبدأ بالذات، من خلال تحوّل القلب إلى المسيح. فعيشوا بحميميّةٍ معه... ولا ترتضوا الرداءة. ولا تخافوا أن تكونوا قدّيسين**».

وفي **٨/٢٥**، أطلق نداءً إلى إحلال السلام في التيمور الشرقيّة، ألحقه بنداءٍ آخر، بعد نحو ثلاثة أسابيع، داعيًا إلى الإصغاء لصيحات المتألّمين. وصرّح: «**إنّ كثيرين في العالم، ما برحوا يتألّمون من أجل قضيّة الإنجيل**».

وفي مقرّه الصيفيّ، «كاستل غوندولفو» استقبل، يوم **٨/٢٧**، المشاركين في الأُسبوع الدوليّ للدراسات الذي نظّمه المعهد الحبريّ للدراسات المتعلّقة بالزواج والأُسرة، وقال إنّ مصير البشريّة، يعبر من خلال الأُسرة، وإنّ الأبوّة والأمومة يمثّلان دعوةً، ومسؤوليّةً فريدةً تجاه الله. وأوضح أنّ «الإنسان يكبر وينضج في الحبّ، أي في بذل الذات، ويتلقّى، مقابل عطائه، القدرة على الاكتمال».

وبعد أيّامٍ قليلةٍ، في أثناء لقاءٍ عامٍّ، في مقرّه الصيفيّ، أشاد بالذين قدّموا حياتهم لخدمة إخوتهم، في تواضعٍ وحبٍّ، مستشهدًا بالأُم تيريزا التي كانت تردّد: «عندما نساعد شخصًا آخر، مكافأتنا هي السلام والفرح، لأنّنا نكون قد أعطينا لحياتنا معنًى». واستشهد، أيضًا، بقولها الآخر: «شدّ على يد الله ولا تدعها تفلت منك، أثناء مسيرتك».

وفي رسالةٍ إلى منظّمة اليونسكو، أعلن أنّ «**مكافحة الأُمّيّة هي دربٌ لا محيد عنه إلى نموّ الأشخاص والشعوب**».

زيارةٌ راعويّةٌ إلى سلوڤينيا

صباح يوم الأحد **٩/١٩**، حطّ يوحنّا بولس الثاني في مطار «ماريبور» (Maribor) عاصمة «سلوڤينيا» حيث احتفل بإعلان الأُسقف «أنطُن مارتن سلومييك» (Anton Martin Slomyek) طوباويًّا. وهو أوّل سلوڤاكي يُعلَن تطويبه. ذلك الأُسقف كان المثال الأكمل للراعي المسيحيّ، وتألّق بأروع قِيَم القداسة. فكان السامريّ العطوف الساهر على احتياجات رعيّته؛ وقد أولى اهتمامًا بالغًا بتثقيف الإكليروس وأبناء الرعيّة، ففتتح المدارس، ونشر الكتب، وشجّع تضافر الأُسرة والمدرسة والكنيسة، من أجل تحقيق برنامجٍ تثقيفيٍّ يُعِدّ لبناء عالمٍ منفتحٍ على قِيَم الحقيقة والحبّ الخالدة: وكان نموذجًا فريدًا في خدمة الوطن، وضرب مثالاً فريدًا في خدمة الوطن، وفي قرن الوطنيّة الصادقة والتعاون المخلص مع المنتمين إلى ثقافاتٍ ودياناتٍ أُخرى. وكان منفتحًا على المسكونيّة المسيحيّة، وعاملاً نشيطًا في سبيل وحدة الكنيسة.

وبعد ظهر ذلك اليوم، زار البابا كاتدرائيّة المدينة، وفيها تخشّع أمام ضريح الطوباويّ الجديد، وممّا قاله، بهذه المناسبة: «**يظنّ البعض، أحيانًا، أنّ الإنسان واقعٌ مستقلٌّ تمامًا، لا علاقة لله به، ولكأنّه يكفي ذاته بذاته، وبمكنته استمداد الطاقات الضروريّة لتحقيق ذاته من ذاته، من عقله وأعمال يديه. ولكن هل يستطيع الكائن البشريّ، حقًّا، تحقيق ذاته بمعزلٍ عن الله؟ إنّ مثال عذراء الناصرة الساطع،**

أَمَة العليّ المتواضعة، يثبت نقيض ذلك، ويؤكّد أنّ الإنسان لا يعثر على غايته الحقيقيّة إلاّ في الله...».

وعقب عودته من سلوڤينيا، طوّب يوحنّا بولس الثاني، صباح يوم ١٠/٣، في ساحة القدّيس بطرس، كاهنين وثلاثة رهبانٍ إيطاليّين، وكاهنًا بلجيكيًّا.

إلغاء الديون، والأديان وسيلة سلامٍ

يوم **٩/٢٣** استقبل الحبر الأعظم، أعضاء «لجنة الديون» بمناسبة يوبيل ٢٠٠٠، ودعا إلى المسامحة بديون الدول الفقيرة، بهذه المناسبة. ولاحظ أنّ ثمار التقدّم العلميّ والتكنولوجيّ، عوضًا عن استخدامها لخدمة الجماعة البشريّة جمعاء، تُوزّع توزيعًا مجحفًا، يفضي إلى تفاقم التفاوتات الجائرة وترسيخها. وطالب بأن تسود النظرة الأخلاقيّة، وتسوس كلّ ملكيّةٍ خاصّةٍ، مشدّدًا: «**لا يجوز أن تسود شريعة الربح كلّ ما هو أساسيٌّ لمكافحة الجوع والمرض والفقر**»، وموضحًا أنّ المسامحة بالديون هي أهمّ المبادرات التي تتيح لمواطني الدول الأكثر فقرًا، مساهمةً أوفر في مأدبة الحياة. ودعا إلى توظيفٍ أفضل للقدرات البشريّة، من خلال التعليم والعناية الصحّيّة، «**فالشخص البشريّ هو المورد الجوهريّ لكلّ أُمّةٍ، وكلّ اقتصاد**».

ومساء يوم الخميس ١٠/٢٨، خاطب يوحنّا بولس الثاني ممثّلي الديانات العالميّة المجتمعين في ساحة القدّيس بطرس، وأشاد بالدور الذي يلعبه الرؤساء الدينيّون لتغذية الرجاء في العدل والسلام، اللذيْن، بمعزلٍ عنهما، يفتقر البشر إلى مستقبلٍ جديرٍ بهم، ولاحظ الحبر الأعظم، مرّةً أُخرى، أنّ التقدّم العلميّ والتقنيّ لا يواكبه تقدُّمٌ روحيٌّ وأخلاقيٌّ موازٍ، ما يؤدّي إلى اتّساع الهوّة بين الفقراء والأغنياء، على مستوى الأمم والمجتمعات. وقليلون هم الذين يسعون إلى ردم هذه الهوّة، والجهود الرسميّة الجدّيّة، في هذا المضمار غائبةٌ غيابًا يكاد يكون تامًّا، في حين تستمرّ الصراعات الدامية بين الأُمم، وداخل المجتمعات، مُنزلةً الويلات بالضعفاء.

كلّ ذلك يمثّل أزمة حضارةٍ لا شفاء منها إلاّ حضارة حبٍّ، تقوم على أُسُس السلام، والتضامن، والعدل، والحرّيّة.

وأوضح الحبر الأعظم أنّ واجب رجال الدين أن يُثبتوا أنّ الدين ليس سبب خلافاتٍ، بل هو دعوةٌ إلى التوادّ والتحابّ، والتضامن، بحيث يمسي الدين مرادفًا للسلام. أمّا الحرب، باسم الدين، فهو تناقضٌ فاضحٌ.

وخلص البابا إلى القول: «**علينا أن ننمّي حضارة حوارٍ، لا بالقول فحسب، بل بالفعل. فالناس لا يصغون إلى المعلّم إن لم يكن شاهدًا على تعليمه بسلوكه**». وضرب مثالين على من علّموا بأقوالهم وأفعالهم: المهاتما غاندي، والأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، فكان لهما تأثيرٌ عالميٌّ.

وكرّر البابا ما سبق له قوله في لقاء أسّيزي الأوّل لثلاثة عشر عامًا مضت: «**إمّا أن نتعلّم السير معًا في السلام والتناغم، أو نضرب على دروب التيه صوب دمارنا، ودمار الآخرين**».

الرحلة الرسوليّة الثامنة والتسعون: الهند وجورجيا (٥ حتّى ١٩٩٩/١١/٩)

عصر يوم السبت ١١/٦، احتفل قداسته بالذبيحة الإلهيّة في كاتدرائيّة القلب الأقدس في نيودلهي، حيث وقّع الإرشاد الرسوليّ «كنيسة في آسيا». وحيّا جميع الذين شهدوا لإيمانهم المسيحيّ بدمائهم، في مختلف المدن الآسيويّة. وندّد بالخلافات التي تنشب هنا وهناك، باسم الدين، وعدّها تشويهًا للدين، ودعا الجميع إلى السعي للتدليل على أنّ الدين والسلام متلازمان، وإلى أن ينعم الدين بالسلام والحرّيّة، وكي يسود الحوار بين أتباع جميع الأديان، مؤكّدًا: «**لا يخشينّ أحدٌ الكنيسة. فمطمعها الوحيد هو مواصلة رسالة الخدمة والمحبّة!**».

وصبيحة يوم الأحد، ١١/٧، احتفل بقدّاسٍ في ملعب جواهر لال نهرو، من أجل إعلان الإرشاد الرسوليّ. وبعد أن دعا ممثّلي جميع الأديان والمذاهب إلى التضامن والتفاهم، ودعا الأساقفة والكهنة إلى تطبيق توصيات الإرشاد

الرسوليّ، التفت إلى العلمانيّين قائلاً: «**أنتم مدعوّون، أوّلاً، إلى تحويل المجتمع، بنشر روح المسيح، في عقليّة العالم الذي تعيشون فيه، وفي عاداته، وشرائعه، وأنظمته. إنّ أحد أخطر التحدّيات التي تواجهكم هو جعل نور الإنجيل يتوهّج في جوّ الأُسرة، وحماية الحياة، والكرامة الإنسانيّة، ولا سيّما في عالم تناقضاتٍ كبرى، حيث يتجاور تقدّمٌ تقنيٌّ جبّارٌ، وفقرٌ مدقعٌ، وظلمٌ مريعٌ**». «**تتوقّع الكنيسة من الرجال والنساء والعلمانيّين أن يعكسوا نور المسيح، حيث تسود ظلمات الخطيئة، والفرقة، والتمييز، التي تشوّه صورة الله في أبنائه... لن يتحوّل العالم ما لم يقرّ، بصدقٍ، جميع الرجال والنساء حسني النوايا، وجميع الأُمم، أنّ الدرب الوحيد الجدير بالأُسرة البشريّة هو درب السلام والاحترام المتبادل، والتفاهم، والحبّ، والتضامن مع من يعانون الفاقة... وبما أنّ النار لا تورى إلاّ بما هو ملتهبٌ، لا يمكن التبشير بالإنجيل إلاّ إذا كان الأساقفة، والإكليروس، والمكرّسون، والعلمانيّون، مضطرمين بحبّ المسيح، وبالغيرة على التعريف به، وحبّه، واقتفاء خطاه**».

وبعد ظهر ذلك اليوم التقى ممثّلي الديانات الأُخرى، وجاء، في سياق حديثه معهم: «**إنّ وجودي هنا يعبّر عن رغبة الكنيسة الكاثوليكيّة، في تكثيفٍ مطّردٍ لحوارها مع دياناتٍ أُخرى، معتبرةً أنّ هذا الحوار هو فعل حبٍّ تترسّخ جذوره في الله نفسه**».

بعد ظهر ١١/٨، حطّ البابا في مطار «تبيليسي»، عاصمة جورجيا، التي كان يزورها للمرّة الأولى؛ وكان في استقباله الرئيس «شيڤيرنازي»، والبطريرك إيليّا الثاني، الذي خاطبه البابا قائلاً: «**آتي بقناعة أنّ علينا، على عتبة الألفيّة الثالثة للعهد المسيحيّ، مدّ جسورٍ جديدةٍ، لكي يستطيع المسيحيّون، بقلبٍ واحدٍ، وبروحٍ واحدٍ، إعلان الإنجيل للعالم معًا**».

وما انفكّ، في خطاباته التالية، يشدّد على ضرورة الوحدة المسيحيّة، وتعاون الكنائس من أجل التبشير بالإنجيل.

وصباح يوم ١١/٩، احتفل بقدّاسٍ في قصر الرياضة، ودعا إلى الالتزام بجعل المجتمع بأجمعه أُسرةً كبيرةً، يطبعها التضامن والسلام الحقيقيّان، وأطلق، مع البطريرك، دعوةً إلى السلام في المنطقة، وفي العالم.

وبعد ظهر ذلك اليوم، التقى ممثّلي الثقافة، ناشدهم أن يضعوا إبداعهم في خدمة الحياة. وممّا قاله: «**لا تخافوا من المسيح. إنّ الإيمان به يفتح لنا عالمًا روحيًّا سبق له أن ألهم، ويستمرّ في إلهام الطاقات الفكريّة والفنيّة الإنسانيّة. المسيح يهبنا حرّيّة إبداعٍ حقيقيٍّ، لأنّه يمكّننا من الولوج إلى سرّ الحبّ، حبّ الله، وحبّ الإنسان...**».

ثمّ التقى البابا ممثّلين عن الجماعة الكاثوليكيّة، ودعاهم إلى التعاون مع إخوانهم الأرثوذكسيّين، وإلى أن يكونوا شهودًا لسلام المسيح، وأن يفتحوا قلوبهم للمسيح ولقوّة حبّه المطهّر.

تطويبٌ وتوجيهٌ

وإثر عودته إلى روما، احتفل، يوم الأحد **١١/٢١**، وبمناسبة عيد يسوع الملك، بقدّاسٍ، طوّب، في أثنائه، اثني عشر قدّيسًا، استشهدوا عام **١٩٣٤**، ثمانيةٌ منهم ينتمون إلى جمعيّة إخوة المدارس المسيحيّة، وكان استشهادهم الدرس الأخير الذي ألقوه في حياتهم، وكان أحدهم قد هتف، عند استشهاده: «**أيّها الإخوة، إنّ الموت من أجل المسيح يعني الملك**»، وصفح عن جلاّديه. وكان أحد المطوّبين قد أنفق حياته متفانيًا في خدمة المرضى، والمعاقين، والمسنّين، وآخر كان فرنسيسكانيًّا، وراعيًا صالحًا لإخوانه الرهبان، وتميّز بمحبّته وخدمته، وكانوا جميعهم شهود محبّةٍ.

وبعث البابا برسالةٍ إلى المشاركين في الجلسة الرابعة والسبعين للأسابيع الاجتماعيّة في فرنسا، جاء فيها: «**في سبيل تمييز مسيحيٍّ خصبٍ حقًّا، لأمور المجتمع، ينبغي التطلّع، أوّلاً، نحو الإنجيل، ومن ثمّ إلى موقف يسوع، فهو قدوة كلّ سلوكٍ إنسانيٍّ**»، وهو يعلن حقيقة الإنسان، ويهيب بنا أن نظلّ يقظين لكلّ إنسانٍ، ولا سيّما للأشدّ ضعفًا وهشاشةً في مجتمعنا.

وبمناسبة اليوم العالميّ للصلاة من أجل الدعوات، قال: «**كلّ مؤمنٍ يجد في الإفخارستيّا مفتاح تفسير وجوده، والجرأة على تحقيق مصيره**».

ومستلهمًا عيد الحبل بلا دنسٍ، قال: «**إنّ الامتلاء نعمةً، كان للعذراء منطلقًا، وهو، لكلّ مسيحيٍّ، الهدف الذي عليه أن يجهد في بلوغه، العمرَ كلّه**».

ومع دنوّ السنة المقدّسة، سنة اليوبيل الكبير، بعث برسالةٍ إلى الكاثوليكيّين، في الصين، قال فيها: «**إنّ الاحتفال باليوبيل يوفّر فرصةً لتذكّر الجهود الرسوليّة، والآلام، والدموع، والدماء المسفوكة التي واكبت، في كلّ زمنٍ، درب الكنيسة بين البشر. حتّى في ما بينكم، كان دم الشهداء بذار طائفةٍ من تلاميذ يسوعِ الحقيقيّين. إنّ قلبي يرتعش إعجابًا وامتنانًا للربّ، بسبب الشهادة السخيّة، التي قدّمها العديد من الأساقفة والكهنة، والرهبان، والراهبات، والعلمانيّين... يبدو أنّ زمن المِحَن لم ينتهِ بعدُ**».

وللأساقفة الألمان الذين زاروه، قال: «**إنّ المجتمع المغرق في العلمنة، والممعن في إغفال ذكر الله يحتاج إلى سماع صوتكم**».

وبمناسبة يوم المهاجر واللاجئ العالميّ، تساءل: «**كيف يستطيع المعمّدون ادّعاء استقبال المسيح، إن هم أغلقوا بابهم بوجه الغريب الذي يقصدهم!**».

صباح يوم ١٢/١٣، استقبل غبطة فرنسيس بطرس التاسع عشر، بطريرك كيليكية للأرمن الكاثوليك، وأشار إلى أنّ العام ٢٠٠١ سيوافق الذكرى الألف وسبع مئة لاعتناق الشعب الأرمنيّ الدين المسيحيّ، وأنّه يتعذّر فهم تاريخ الأرمن إلاّ على ضوء هذا الاعتناق الذي طبع، بعمقٍ، حياتهم، ولا سيّما من خلال شهادتهم البطوليّة التي أدّت إلى استشهاد الكثيرين منهم.

وكان البطريرك قد شارك البابا الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة في مصلاّه الخاصّ، وأكّد له الحبر الأعظم: «**بيت البابا هو بيتكم**».

وبعد ظهر ١٢/١٤، أقام قداسته قدّاسًا للطلاّب الجامعيّين، في روما، تأهّبًا للميلاد، ولليوبيل الكبير. وكان الجامعيّون قد اختاروا شعارًا لليوبيل: «الجامعة من أجل إنسانيّةٍ جديدةٍ». فدعاهم إلى تنمية إرث البشريّة العلميّ الثرّ، وفق مشروعٍ يقيم الإنسان في المركز، انطلاقًا من حدث التجسّد الذي يفتح فهم الإيمان على معرفة حبّ الله للإنسان، وفقه معنى الحياة والتاريخ.

ليلة ١٢/٢٤، استهل يوحنّا بولس الثاني اليوبيل الكبير، ففتح باب كاتدرائيّة القدّيس بطرس، المقدّس، معلنًا:

«عشرون قرنًا كرّت منذ ذلك اليوم السعيد. ولذلك، استذكارًا وشكرًا، تحتفل الكنيسة بالألفيّة الثانية لمولد المسيح، بسنةٍ يوبيليّةٍ، مرضيّةٍ لدى الربّ، سنة رحمةٍ ونعمةٍ، ومصالحةٍ وغفرانٍ، سنة خلاصٍ وسلامٍ... نحن شهود لحظة الحبّ التي تصل الأبديَّ بالتاريخ، اليوم الذي يفتتح زمنَ اليوبيلِ، والفرح والرجاء، لأنّنا أُعطينا ابنًا يحملٍ إشارة السلطة على كتفه. بعد ألفي عامٍ، نحيا هذا السرّ حَدَثًا فريدًا فرادةً مطلقةً. فبين طغمات أبناء البشر، الذين رأوا النورَ على امتداد جميع القرون، أنتَ وحدك، أيّها المسيح، ابن الله الحيّ. وقد حوّل مولدك مجرى الأحداث البشريّة، تحوّلاً يتعذّر وصفه... إنّه حدثٌ غيّر التاريخ تغييرًا كلّيًّا.

أنت الذي جاء إلى العالم، في ليلة بيت لحم، ابقَ معنا!

أنتَ، الطريق والحقّ والحياة، أرشد خطانا.

أنتَ، القادم من الله، قدنا إليه بالروح القدس، على الدرب الذي تنفرد بمعرفته، والذي أعلنته لنا، لكي تكون لنا الحياة، وتكون وفيرةً.

أنت، أيّها المسيح، يا ابن الله الحيّ، كن لنا الباب الذي يدخلنا إلى سرّ الآب. واجعل ألاّ يبعد أحدٌ عن ذراعي رحمته وسلامه.

ويا مريم، يا فخر الأزمان الجديدة، كوني إلى جانبنا، فيما نخطو خطواتنا الأولى، بثقةٍ، في السنة اليوبيليّة».

الألفيّة الثالثة: اليوبيل الكبير

وأخيرًا انبلج فجر الألفيّة الجديدة الذي طالما تطلّع إليه يوحنّا بولس الثاني توّاقًا، إذ لم تغِبْ، لحظةً، عن خاطره وصيّة الكردينال «ڤيشينسكي»، الذي أوكل إليه، يوم انتخابه حبرًا أعظم، إدخالَ الكنيسة إلى الألفيّة الثالثة. ولطالما عدّ هذه المهمّة «مفتاح» حبريّته، وقمّتها، وظلّ تحقيقها، على أكمل وجهٍ، ديدن اهتمامه، ومحطّ أحلامه؛ وشرع يُعدّ لها، منذ مطلع الثمانينات. ومع أنّ أعباء منصبه، ومواكب الأمراض المتلاحقة، كانت ترهق، أكثر فأكثر، جسده، إلاّ أنّ حلم اليوبيل الكبير، كان يزداد، كلّ يومٍ، توهّجًا في ذهنه.

كان يَعُدّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني هو التمهيد الفعليّ لولوج الألفيّة الثالثة التي كانت تعني له ذكرى اندماج الله في تاريخ البشر. ولطالما أكّد أنّ عام ٢٠٠٠ ليس مجرّد عتبة ألفيّةٍ جديدةٍ، بل هو عتبة الأبديّة التي لا تني تنفتح، من خلال المسيح، على الزمن، مضفيةً عليه معناه الحقيقيّ.

وكان البابا قد أنفذ، عام ١٩٩٤، إلى جميع الكرادلة، وثيقةً من ثلاثٍ وعشرين صفحةً، تحمل «خواطر حول يوبيل ٢٠٠٠». وقد تضمّنت تلك الوثيقة طائفةً من الأفكار، أهمّها إسباغ صبغةٍ مسكونيّةٍ على ذلك الاحتفال، وتحقيق تقاربٍ بين كنائس الغرب الكاثوليكيّة، وكنائس الشرق الأرثوذكسيّة، إذ «**لا يسعنا المثول أمام المسيح، ربّ التاريخ، ونحن على ما نحن من فرقة... لا بدّ من أن تلتئم الجراح على طريق وحدة المسيحيّين، وأن تبيّن الكنيسة أخطاء أبنائها، ومواطن تقصيرهم، عبر التاريخ**».

وفي سبيل ذلك، اقترح القيام بخطوة «مصالحةٍ وتوبةٍ»، تعترف الكنيسة، من خلالها، بالأخطاء التي ارتكبها أبناؤها، والمسؤولون فيها، وبخطاياهم. كان موقنًا أنّ على الكنيسة اغتنام فرصة اليوبيل كي تستصفح، علنًا، عن هذه الأخطاء والخطايا، وكي تباشر الألفيّة الجديدة طاهرة الضمير، موطّنةً العزمَ على تفادي مثل هذه الكبوات، مستقبلاً، وموقنةً أنّ وجهها يفقد، غالبًا، تألّقه، بسبب أخطاء بعض خدّامها.

وأهاب البابا بكلّ كنيسةٍ في العالم أن تكبّ على تدوين سفرٍ جديدٍ يتضمّن ثبتًا كاملاً بأسماء وفضائل قدّيسيها وشهدائها، فهؤلاء هم العُمُد التي تسند صرح الكنيسة، وتمكّنها من الصمود في وجه الزلازل والعواصف، وهم النور الذي يضيئه الروح القدس، في كلّ حقبةٍ، وكلّ بقعةٍ من العالم، كي يفتح عيون المسيحيّين على المُثل التي يجدر بهم الاقتداء بها، ويذكّرهم بعهود عمادهم التي يتوجّب عليهم الوفاء لها، وبالدعوة إلى القداسة الموجّهة إليهم.

واقترح يوحنّا بولس الثاني، أيضًا، أن تُعقد، خلال السنة اليوبيليّة، سينودساتٌ قارّيّةٌ، ولقاءاتٌ مع رؤساء أديانٍ أُخرى، والاحتفال، في مواعيد

محدّدةٍ مسبّقًا، بيوبيلٍ خاصٍّ بكلّ فئةٍ من فئات المجتمع، وفقًا لمهنهم، وأوضاعهم.

وكان الكرادلة قد أَلِفوا مثل هذه المذكّرات، بين فينةٍ وأُخرى، من الحبر الأعظم، فلم يُعرْها بعضهم، اهتمامًا خاصًّا، ولم يستشفّوا فيها سوى كَلَف ذلك البابا الپولونيّ بالتاريخ، وإيلائه شأنًا عظيمًا للماضي، ورغبته في إضفاء وهجٍ على الاحتفالات الكبرى. ولكنّ البابا دعا مجلس الكرادلة إلى عقد جلسةٍ استثنائيّةٍ، يوم ١٩٩٤/٦/١٣، كي يؤكّد لهم اهتمامه البالغ باليوبيل الكبير. ثمّ أصدر، بتاريخ ١٩٩٤/١١/١٠، رسالةً بعنوان «الألفيّة الثالثة القادمة»، شدّد فيها إيمانه بأنّ الاحتفال بذلك اليوبيل هو احتفالٌ باستمرار تاريخ البشر والكنيسة، وأنّ الألفيّتين اللتين كرّتا، منذ مولد المسيح، تمثّلان حدَثًا فريد العظمة، لا للمسيحيّين فقط، بل للبشريّة جمعاء، نظرًا إلى الدور الذي لعبته المسيحيّة، خلال مرحلة التاريخ هذه. فبالتجسّد، غدا يسوع هو بدء كلّ شيءٍ جديدٍ، واقتحم الله تاريخ البشر، وامتزجت الأبديّة بالزمن وقدّسته، فلا بدّ لنا من تقديسه باحتفالاتٍ كبرى. وإنّما كان يوحنّا بولس الثاني، يبتغي، من خلال هذا الاحتفال، تجسيد نداءاته المتواترة: «لا تخافوا»، «ادخلوا في الرجاء».

ومن ثمّ، خطّط قداسته، بدقّةٍ متناهيةٍ، لكلّ مبادرةٍ كفيلةٍ بأن تُبرز، يومًا فيومًا، رموز اليوبيل كما أسلفنا. وبغية تفادي أيّة ثغرةٍ في برنامجه، ألّف لجنةً مركزيّةً من خمسةٍ وعشرين عضوًا، تتولّى متابعة كلّ تفصيلٍ، وأوكل رئاستها إلى الكردينال الفرنسيّ «إتشيغاري»، الذي سبق له أن نظّم، ببراعةٍ، لقاء «أسّيزي»، عام ١٩٨٦، والذي كان أكثر تفهّمًا لرغبة البابا في الاحتفال باليوبيل، والأوثق تناغمًا مع رؤاه الفسيحة الآفاق؛ وعيّن له أربعة كرادلةٍ معاونين. وإلى جانب هذه اللجنة المركزيّة ألّف ثماني لجانٍ فرعيّةٍ، تهتمّ كلٌّ منها بمجالٍ، مثل القضايا المسكونيّة، واللاهوتيّة، والتاريخيّة، والاجتماعيّة. وأوكل الدور الأخطر للجنة المسكونيّة، تأكيدًا لرغبته في إضفاء طابعٍ مسكونيٍّ على الحدث، وفي أن يُجمع المسيحيّون، بهذه المناسبة، على إعلان إيمانهم المشترك، وأن يعي الناس كلّهم أنّ المسيح، يخصّ، نوعًا ما، البشريّة جمعاء.

وراودته، في هذه المناسبة، رغبةٌ شخصيّةٌ عارمةٌ في الحجّ إلى جميع مواقع تاريخ الخلاص، على خطى إبراهيم وموسى، ويسوع، وبولس، من «أور» حتّى دمشق.

كان البابا يوحنّا الثالث والعشرون قد سبقه في روز شأن ذلك الحدث، فأعلن: «مع اقتراب ألفيّة الفداء الثالثة، يُعدّ الله ربيعًا مسيحيًّا عظيمًا، نشهد، الآن، فجره. وتطوّع يوحنّا بولس الثاني للعمل، بنشاطٍ، في حقل ذلك الربيع، وأعدّ له برنامجًا مغرقًا في الجرأة التي ميّزت كلّ مسيرته، وحيّرت الكثيرين من معاونيه والمسؤولين في الكنيسة. فقد كان يرى في اليوبيل حدَثًا جللاً، استعدّ له، استعدادَه للقاء من كان، وهو كائنٌ، وسيكون دائمًا، لقاء المسيح مركز التاريخ والكون.

وقد تبيّن يوحنّا بولس الثاني علاقةً وثيقةً بين المجمع المسكونيّ واليوبيل الكبير، وترسّخت لديه القناعة بأنّ ذلك المجمع كان، في الواقع، بدء الاستعداد لليوبيل. وفي ما يخصّه، صرّح: «منذ مطلع حبريّتي، تطلّعت إلى العام ٢٠٠٠ المقدّس على أنّه استحقاقٌ خطيرٌ، وتوسّمت، في الاحتفال به، موعدًا دبّرته العناية الإلهيّة، كي تدعو الكنيسة، عقب مرور خمسٍ وثلاثين سنةً على المجمع المسكونيّ الثاني، إلى التساؤل عن مدى تجدّدها، وإلى الانطلاق بزخمٍ جديدٍ، في الاضطلاع برسالتها التبشيريّة».

وبما أنّ يوبيلاً خاصًّا بكلّ فئةٍ من المجتمع كان حُدِّد له موعدٌ للاحتفال، فقد خصّ كلّ يوبيلٍ بكلمةٍ مناسبةٍ. وزخرت كلماته هذه بثروةٍ من العِبَر السامية، والإرشادات السديدة، وسنورد، في الصفحات اللاحقة، مقاطع ضافيةً منها.

وقد استهلّ ذلك اليوبيل، ليلة عيد ميلاد عام **١٩٩٩**، عندما ركع، بمشقّةٍ، على الحجر العاري، ركعة تائبٍ، أمام الباب المقدّس في كاتدرائيّة القدّيس بطرس، وقد اعتراه شعور رضًى منعشٍ بتحقيق مهمّته؛ فقد أفلح في تذليل أكوامٍ من العقبات، وأدخل الكنيسة والعالم إلى الألفيّة الثالثة، متغلّبًا على إعاقاته الجسديّة، ومبرزًا عنصرًا من عناصر سرّ الميلاد، حيث تجلّى مولود بيت لحم بابًا للجميع، باب خلاصٍ، وحياةٍ، وسلامٍ.

كان يحيق به رهطٌ من رجالٍ ونساءٍ قادمين من كلّ القارّات، ومئات الكاميرات تتابع حركات خليفة بطرس الذي تجلّت قوّته في وهنه. ولم يكن له ذلك الاحتفال مجرّد طقسٍ، بل كان إنجازًا جسيمًا.

لم يستخدم، لفتح الباب المقدّس، مطرقةً مصنوعةً من ذهبٍ وعاجٍ، بل دفعه بيديه كلتيهما، ولكأنّ الربّ كان ينتظره وراء الباب كي يعانقَه، وخيّل لبعض الحاضرين الذين تأمّلوه، راكعًا مستغرقًا في الصلاة، أنّهم يشهدون سمعان الشيخ، الذي بعد أن حمل الطفل المخلّص على ذراعية، بات جاهزًا للانطلاق.

ولكنّ يوحنّا بولس الثاني أثبت للدنيا كلّها أنّ تخشّعه أمام الباب المقدّس لم يكُن وداعًا، فهو ما زال يضجّ عزيمةً على إتمام الرسالة حتّى نهاية الشوط، وعلى المضيّ قدُمًا في الإشادة بحبّ الله، وبحضوره في العالم، وفي الدعوة إلى وحدة المسيحيّين، وفي الدفاع عن كرامة الإنسان والحياة البشريّة، وفي دعوة الشباب إلى البطولة والتزام الحقيقة، وفي نشر «حضارة المحبّة»، والثورة الحقّة، ثورةٍ ثقافيّةٍ وروحيّةٍ، كفيلةٍ بحمل المسيح إلى من هم في أشدّ حاجةٍ إليه، والأشدّ تألّمًا. تلك كانت المهمّة التي أنفق حياته في سبيلها، والتي كان، أكثر من أيّ وقتٍ، حريصًا على الاضطلاع بها، متحدّيًا جلجلته الجسديّة المتفاقمة باطّرادٍ، ومحافظًا على وتيرة نشاطه، ما استطاع إليها سبيلاً.

مسار اليوبيل

الأبواب المقدّسة التي ينبغي فتحها لليوبيل هي أبواب الكاتدرائيّات الأربع الكبرى في روما. وكان قد فتح أوّلها ليلة عيد الميلاد، وصباح اليوم الأوّل من العام اليوبيليّ، فتح الباب الثاني في كاتدرائيّة القدّيسة مريم الكبرى هاتفًا: «**أيّها العام ٢٠٠٠ القادم إلينا، فليهبك المسيح السلام!**».

وفي اليوم الثاني، احتفل بيوبيل الأولاد، وقد جاء في الخطاب الذي وجّهه لهم: «**إنّ يسوع، بإعطائكم ذاته، في الإفخارستيّا، أعلن لكم أنّ الحياة لا ترتدي قيمتها كاملةً إلاّ عندما تصبح هبةً للآخرين... مع المسيح، فقط، يمكن تحقيق أعمالٍ**

كبيرةٍ؛ معه، وحده، يمكن للإنسان أن يسعد ويُسعِد الآخرين... إاشهدوا، أمام العالم، أنّكم، باستقبال يسوع في ما بينكم، يسعكم أن تجعلوا من البشريّة أُسرةً كبرى».

وذكّر بأنّه يتعذّر نسيان أولادٍ كثُرٍ يعانون الجوع والعنف، والأولاد الواقعين ضحايا أشكالٍ مريعةٍ من الاستغلال... وأوضح أنّ الذين يزعمون بناء عالمٍ قائمٍ على إنكار الله وشريعته، إنّما هم يقيمون، في الواقع، وضعًا من الآلام والمظالم المضاعفة.

وناشدهم بقوله: «**أيّها الأولاد، صبيانًا وفتياتٍ، أنتم رجاء البشريّة. فليزدهر، بفضلكم، حبّ المسيح، في أوساطكم، وأُسَركم، وفي عالمكم أجمع**».

وبمناسبة أسبوع الصلاة من أجل وحدة المسيحيّين، قال: «**لن يمكن التقدّم على درب الوحدة، إلاّ بعون الله، وبتخطّي الانقسامات التي نشأت داخل العالم المسيحيّ خلال الألفيّة الثانية، إنّنا، جميعنا، نستغفر الله عن الخطايا المرتكبة بحقّ وحدة الكنيسة**».

وفي يوم عيد الظهور الإلهيّ (الغطاس) عمّد ثمانية عشر ولدًا من إيطاليا والبرازيل، وإسبانيا، والولايات المتّحدة، وسويسرا.

يوم ١/١٠، استقبل ممثّلي الهيئة الدبلوماسيّة المعتمدة لدى الكرسيّ الرسوليّ، وجاء في خطابه لهم: «**أدعو الله أن يقي البشريّة من حروبٍ جديدةٍ، وأن يجعلها تحترم الحياة البشريّة، والأُسرة، وتردم الهوّة بين الأغنياء والفقراء، وتفهم أنّنا، جميعنا، مسؤولون عن الجميع**». وذكّر بأنّ الخالق ترك للبشر الخيار بين الحياة والموت، ودعا إلى اختبار الحياة.

بابٌ مسكونيٌّ

فتحُ الباب المقدّس الثالث في كاتدرائيّة القدّيس بولس خارج الأسوار ارتدى طابعًا مسكونيًّا رائعًا. فقد شارك في هذا الاحتفال حشدٌ من ممثّلي الكنائس المختلفة الوافدين من شتّى بقاع المسكونة.

ركع يوحنّا بولس الثاني أمام الباب المقدّس، وإلى يمينه ركع بطريركٌ أرثوذكسيٌّ، وإلى يساره رئيس أساقفة كنتربري الأنغليكانيّ. ودفع الحبر الأعظم الباب بيده، فلم يهتزّ، وكرّت لحظاتٌ والباب صامدٌ لا يتزحزح، حتّى خيّل لبعض الحاضرين أنّ البابا يفتقر إلى القدرة على فتحه؛ ولكن، سرعان ما اتّضح لهم أنّ ذلك الباب لا يستجيب لدفعة يدَيْ شخصٍ واحدٍ، بل لا بدّ من تضافر أيدي ثلاثة أشخاصٍ، كي يتحرّك. وبالفعل، ما إن حطّت يدا البطريرك الأرثوذكسيّ، ويدا رئيس الأساقفة الأنغليكانيّ إلى جانب يدي رأس الكنيسة الكاثوليكيّة، حتّى أُشرع الباب المقدّس على مصراعيه مسفرًا عن رمزٍ غنيٍّ المعاني. وقد عبّر البطريرك الأرثوذكسيّ عن انطباعه، فكتب: «لن أنسى أبدًا ما أُعطيتُ من فرحٍ وامتيازٍ بالركوع إلى يمين البابا أمام باب الكاتدرائيّة المقدّس. وكانت اللحظة الأعمق تأثيرًا عندما تبيّنت أنّ الباب الكبير لا يمكن فتحه من قبل أحدنا منفردًا، بل لا بدّ من اشتراكنا معًا في فتحه. وكان ذلك لي دليلاً مرئيًّا على الحركة المسكونيّة».

وفي أعقاب الاحتفال جلس إلى مائدة البابا ممثّلو البطريركيّات الأرثوذكسيّة في القسطنطينيّة، والإسكندريّة، وأنطاكيا، والقدس، وموسكو، وصربيا، ورومانيا، واليونان، و پولونيا، وألبانيا، وفنلندا، وأرمينيا، وكيليكيا، والكنائس القبطيّة، والكلدانيّة، والآشوريّة الأرثوذكسيّة، والكنيسة الأنغليكانيّة، والعديد من الكنائس الإنجيليّة. وفي هذا الحشد المتنوّع ألقى البابا كلمةً جاء فيها:

«إنّ العماد الذي تلقّيناه واحدٌ، وهو يخلق علاقة وحدةٍ سرّيّةٍ بين جميع من تجدّدوا به. لا ريب أنّ الوحدة هي التي تضفي على التبشير بالإنجيل مصداقيّةً، وأنّ الانقسام هو عثرةٌ. الكنيسة هي جسد المسيح السرّيّ. فهل يمكن تقسيم الجسد؟ نحن، جميعنا مسؤولون عن جريمة الانقسام والفرقة، وعلى كلٍّ منّا أن يعي هذه المسؤوليّة. إنّ إعادة عرى الوحدة تقتضي تحوّلاً داخليًّا، لأنّ الرغبة في الوحدة تولد من تجدّد الأفكار، ومن حبّ الحقيقة، والتجرّد من الذات، ومن دفق محبّةٍ تلقائيٍّ. إنّ ارتداد القلب، وقداسة السيرة، والصلاة الفرديّة والجماعيّة من أجل الوحدة، هي النواة التي تستمدّ منها الحركة المسكونيّة قوّتها وكيانها. إنّ التطلّع إلى الوحدة يتماشى مع قدرةٍ منيعةٍ على التضحية، من أجل إعداد النفس لوفاءٍ للإنجيل لا يني

يتنامى. وإنّما تأهّبنا للتضحية في سبيل الوحدة يعني تغيير نظرتنا، وتوسيع آفاقنا، وقدرتنا على الاعتراف بعمل الروح القدس في إخوتنا، واكتشافنا وجوهًا جديدةً للقداسة، وانفتاحنا على أشكالٍ غير مألوفةٍ للالتزام المسيحيّ».

يوم ٢/١٥، استقبل الحبر الأعظم، للمرّة السابعة، ياسر عرفات، بمناسبة توقيع اتّفاق بين الكرسيّ الرسوليّ ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة.

وفي ٢/١٨، احتفل بيوبيل الفنّانين، وقال في هذه المناسبة:

«علينا أن ننحت حجر قلبنا كي تتجلّى ملامح المسيح، الإنسان الجديد. وإنّما الفنّان القادر على فعل ذلك، في العمق، هو الروح القدس، ولكنّه يقتضي مساهمتنا وطاعتنا. ومن ثمّ فإنّ تحوّل القلب هو عملٌ فنّيٌّ مشتركٌ بين الروح القدس وحرّيّتنا... إن كان الإبداع الفنّيّ يحتاج إلى إلهامٍ، فالمسيرة الروحيّة تحتاج إلى النعمة التي يبلّغنا الله ذاته من خلالها، محيطًا حياتنا بالحبّ، ومرشدًا خطانا، قارعًا باب قلبنا كي يسكنه، ويقيم فيه هيكل قداسته».

حجٌّ إلى مواقع الخلاص

منذ العام ١٩٩٤، عبّر يوحنّا بولس الثاني عن رغبته، بمناسبة اليوبيل الكبير، في اقتفاء خطى يسوع والأنبياء والرسل، والحجّ إلى المواقع التي وطئتها أقدامهم، وإلى حيث ضربت الكنيسة جذورها، وشكّكت فئةٌ من الكرادلة بإمكانيّة تحقيق هذا المشروع. ولكنّ شكوكهم لم تَثنِ الحبر الأعظم عن تحقيق حلمه، وعن عزمه تذليل كلّ العقبات التي قد تعترضه. فقَد كان يحدوه إلى هذا الحجّ دافعٌ تقويٌّ عبّر عنه بقوله: **«انطلاقنا، بروح صلاةٍ، من مكانٍ إلى آخر، ومن مدينةٍ إلى أُخرى، في هذا الحيّز الذي طبعه تدخّل الله بدمغةٍ مميّزةٍ، لا يساعد على جعل حياتنا مسيرةً، بل يرسّخ فينا فكرة إلهٍ سبقنا، وما برح يتقدّمنا، إلهٍ مضى، بذاته، على دروب الإنسان، إلهٍ لا يحطّ علينا نظره من فوق، بل جعل ذاته لنا رفيق سفرٍ»**.

وكان البابا حريصًا على أن يتّسم حجّه هذا بطابعٍ دينيٍّ صرفٍ. ولكن لم يكن الجميع يقاسمونه هذه الرغبة. فهو كان راغبًا في استهلال حجّه من «أور»،

موطن أبي المؤمنين، إبراهيم. ولكنّ الرئيس العراقيّ، حينذاك، صدّام حسين، طمح في استثمار زيارة البابا لصالح سياسته، واعتبارها دعمًا له. ولكم جهد الناطق باسم الڤاتيكان كي يفهم الجميع أنّ البابا راغبٌ في زيارة إبراهيم، لا صدّام حسين! وكان الرئيس العراقيّ مصرًّا على أن يخرق الحبر الأعظم الحظر الجوّيّ الذي فرضته الأُمم المتّحدة على السفر المباشر إلى العراق. ومع أنّ البابا كان صريحًا وحازمًا في تنديده بكلّ حصارٍ يفرض على أيّ بلدٍ، غير أنّه أبى أن يُستخدَم حجرًا في لعبة صدّام حسين السياسيّة، واضطرّ، وفي نفسه غصّةٌ ممضّةٌ، إلى التخلّي عن زيارة العراق، ولكنّه لم يتخلَّ عن رمز الحجّ. وبعد أن تعذّر عليه، الشخوص شخصيًّا إلى «أور»، جعل «أور» تأتي إليه، وحجّ، روحيًّا، إليها، في قاعة البابا بولس السادس في الڤاتيكان، التي ازدانت، بالسنديانة، وبالخيمة التي قدّم فيها إبراهيم ضحيّةً للّه، وباللوحة التي جسّد فيها الفنّان «روبليف» ظهور ثلاثة ملائكةٍ لإبراهيم. وقد احتشد جمعٌ غفيرٌ من الحجّاج، في تلك القاعة، حول البابا الجالس على عرشٍ صغيرٍ، فيما كان ألوفٌ آخرون متراصّين في ساحة القدّيس بطرس، يشاهدون، على شاشةٍ عملاقةٍ، آثار «أور» القديمة، والصحارى التي ذرعها إبراهيم، وحقول كنعان وسواقيها. وتليت مقاطع من سفر التكوين، ومن رسائل القدّيس بولس، ومن الإنجيل، وصلواتٌ تلتمس تحرير البشريّة من أصنام زماننا، وولادة «السلام والوئام»، بين معتنقي الأديان السماويّة.

وتمحورت عظة البابا حول خضوع إبراهيم، بلا تحفّظٍ، لمشيئة اللّه، موضحةً **«أنّ حياة إبراهيم سجّلت بدء تاريخ الخلاص»... وأنّ البقاع التي يقصدها البشر، منقادين لصوت اللّه، لا تخصّ جغرافيا الأرض فقط، وأنّ إبراهيم كان نموذج المؤمن الذي يستجيب لدعوة اللّه، ويسير نحو أرضٍ موعودةٍ، ليست في هذا العالم، وإلى وجهةٍ لا نبلغها إلاّ بواسطة الإيمان»**.

وفي اليوم التالي، ٢٠٠٠/٢/٢٤، طار الحبر الأعظم إلى القاهرة، المحطّة الأولى في حجّه إلى جبل سيناء. وكان في استقباله في المطار الرئيس حسني مبارك، وستيفانُس غطّاس الثاني بطريرك الأقباط الكاثوليك، ورهطٌ من

الأساقفة الأقباط، وشيخ الأزهر. فشكر البابا للرئيس مبارك إتاحته له زيارة الأماكن التي أعلن فيها اللّه اسمه لموسى، وبلّغه وصاياه، دليلاً على رحمته العظمى، وعطفه على خلائقه. وأشاد قداسته بتعايش أبناء الأديان المختلفة، وفي الآن عينه ندّد بتشجيع العنف والصدامات باسم الدين الذي اعتبره تناقضًا مريعًا، وإهانةً كبرى للّه.

يومه الأوّل في مصر كان مسكونيًّا، فقد تضمّن زيارةً للبابا شنودا الثالث؛ وبهذه المناسبة أشار إلى أنّه قادم إلى وطنه مصر، وطن القدّيس مرقس، رفيق الرسول بطرس. ثمّ زار شيخ الأزهر حيث التفّ من حوله مئات العلماء المسلمين الراغبين في تحيّته.

صباح اليوم التالي احتفل بقدّاسٍ في ملعبٍ بالقاهرة حضره نحو خمسة عشر ألف كاثوليكيٍّ، من مختلف الطوائف، وقد جاء في عظته:

«إذ يحتفل المسيحيّون بالذكرى الألفيّة الثانية لولادة المسيح، يتوجّب علينا الحجّ إلى الأماكن التي بدأ منها تاريخ الخلاص، تاريخ الحبّ الذي لا نكوص عنه بين اللّه والبشر، تاريخ حضور الربّ في الزمن وفي حياة البشر.

«على أرض مصر هذه، التي تسعدني زيارتها للمرّة الأولى، استمرّت رسالة العهد الجديد من جيلٍ إلى جيل، من خلال الكنيسة القبطيّة المبجّلة، وما اضطلع به من تبشيرٍ وعملٍ رسوليٍّ القدّيس مرقس، الذي يذكر التقليد أنّه استشهد في الإسكندريّة. فلنرفع، اليوم، آية شكرٍ حارّةً للّه عن تاريخ الكنيسة الغنيّ، وعن رسالة مؤمنيها السخيّة، فهم عبر القرون، كانوا شهودًا مندفعين لحبّ الربّ، حتّى بذل دمهم، أحيانا».

وبعد ظهر ذلك اليوم جرى لقاءٌ مسكونيٌّ في كاتدرائيّة سيّدة مصر الكاثوليكيّة، وقال قداسته، في هذا اللقاء: «**فلتكن الألفيّة المسيحيّة الثالثة ألفيّة وحدتنا الكاملة. ولنكتشف دروب التقاءٍ، ولننشد صِيَغًا دائمةً للشراكة الروحيّة، مثل الاشتراك في الصلاة والصوم، وتبادل اللقاءات بين الأديار، وأساليب تعاونٍ عمليٍّ...**».

ويوم السبت، ٢/٢٦، اقتادته مروحيّةٌ إلى دير القدّيسة كاترينا في جبل سيناء حيث لقي من الرهبان الأرثوذكسيّين ترحيبًا حارًّا. غير أنّ الأسقف داميانُس

رئيس الدير رفض مشاركته الذبيحة الإلهيّة في بستان الزيتون، بجوار الدير. وقد جاء في العظة التي ألقاها البابا، حينذاك، أنّ لقاء الله وموسى على هذا الجبل ينطوي على سرّ الطاعة المحرِّرة، وأنّ الوصايا، قبل حفرها في الحجر، حُفرت في القلب البشريّ، بصفتها الشريعة الأخلاقيّة الشاملة؛ وأنّ هذه الوصايا تمثّل «**شريعة الحرّيّة، لا حرّيّة اتّباع أهوائنا العمياء، بل حرّيّة الحبّ، واختيار ما هو صالحٌ في كلّ مرحلةٍ من حياتنا، حتّى عندما يكون هذا الاختيار شاقًّا**». وأوجز فكرته بقوله: «**بتجلّيه على جبل سيناء، وتبليغ شريعته، أعلن حقيقة الإنسان للإنسان، وأكّد أنّ سيناء قائمة في صميم حقيقة الإنسان ومصيره... ونحن، بحفظنا الوصايا، نثبت وفاءنا لله، وأيضًا وفاءنا لطبيعتنا الحقيقيّة، ولتطلّعاتنا العميقة**».

وعندما انتهى البابا إلى المكان الذي يقول التقليد إنّ الله كلّم فيه موسى بواسطة العلّيقة الملتهبة، هوى على ركبتيه، واستغرق في صلاةٍ سحيقةٍ.

صباح يوم **٣/٥**، رفع إلى مجد الهياكل، وأعلن أربعةً وأربعين خادمًا لله من البرازيل، وتايلاند، و پولونيا، والفيليپّين والڤيتنام، شهداء وطوباويّين. وقدّمهم للكنيسة وللعالم شهادةً مضيئةً على قدرة الله المتجلّية في هشاشة الشخص البشريّ. هؤلاء عاشوا في حقباتٍ مختلفةٍ، وفي أوساطٍ ثقافيّةٍ متباينةٍ، ولكن وحّدتهم تجربة وفاءٍ للمسيح وللكنيسة، وثقةٌ غير مشروطةٍ بالمسيح وبالكنيسة، وهوى الإنجيل. وجميعهم لم يخشوا من يقتل الجسد، ولا يستطيع إلى قتل النفس سبيلاً.

توبةٌ واستغفارٌ

من أكثر مبادرات يوحنّا بولس الثاني جرأةً، وبعد نظرٍ، وجدوى، كانت دعوته الملحّة إلى فحص ضميرٍ صادقٍ، واستبيان أخطاء الماضي والحاضر، والاعتراف بها، والاستغفار عنها، علنًا، تمهيدًا لولوج الألفيّة الثالثة بضميرٍ نقيٍّ، وبعزيمةٍ ثابتةٍ على إصلاح أخطاء الماضي، وتفادي الوقوع في أمثالها، في القادم من الأيّام.

وقد أضاء البابا مغزى مبادرته هذه، بتصريحه: «**من أهمّ مميّزات هذا اليوبيل الكبير «تطهير الضمير». ولذلك، بصفتي خليفة بطرس، طلبت، في «سنة الرحمة»... أن تركع الكنيسة أمام الله، وتلتمس الغفران عن خطايا أبنائها الماضية والحاضرة. فلنصفح، ولنطلب الصفح!...**».

وأضاف البابا القول:

«هذا النداء دفع الجماعة المسيحيّة إلى إعمال فكرٍ معمّقٍ، ومفيدٍ، أفضى إلى وضع وثيقةٍ لاهوتيّةٍ دوليّةٍ، أُطلق عليها عنوان: «ذاكرة ومصالحة الكنيسة وأخطاء الماضي...» هذه الوثيقة تُعدّ لطلب غفرانٍ مبنيٍّ على المسؤوليّة التي تشمل جميع المسيحيّين بصفتهم أعضاء الجسد السرّيّ، يوجب على مؤمني اليوم الاعتراف بأخطاء مسيحيّي الأمس، على ضوء إدراكٍ تاريخيٍّ ولاهوتيٍّ يقظٍ...

«إنّ الاعتراف بضلالات الماضي يساعد على إيقاظ ضمائرنا حيال تسويات الحاضر، ويفتح لكلّ فردٍ دربًا إلى التحوّل.

«وفيما نحن نرفع آيات الشكر لله، الذي، بحبّه الرحيم، استنبت في الكنيسة، غلّةً رائعةً من القداسة والغيرة الرسوليّة، والتفاني الكلّيّ في خدمة المسيح والقريب، لا يسعنا إلاّ الاعتراف بخياناتٍ للإنجيل، اقترفتها فئةٌ من إخوتنا، ولا سيّما في غضون الألفيّة الثانية. فلنستغفر عن الانقسامات التي مزّقت المسيحيّين، وعن العنف الذي لجأ إليه بعضهم، في أثناء خدمتهم، وعن مواقف الريبة والعداء التي تبنّوها حيال مؤمني الديانات الأُخرى.

«وبحجّةٍ أَولى، لنعترف عن مسؤوليّاتنا، بصفتنا مسيحيّين، عن شرور اليوم. فحيال الإلحاد، واللامبالاة الدينيّة، والعلمنة، والتراخي الأخلاقيّ، وانتهاكات حقّ الحياة، وإغضائنا عن فقر بلدانٍ عديدةٍ، لا يسعنا الإحجام عن التساؤل حول مسؤوليّاتنا.

«وفي الآن عينه، وفي حين نعترف بأخطائنا، نصفح عمّا وُجِّه إلينا من إساءاتٍ. فخلال التاريخ، وفي مناسباتٍ عديدةٍ، قد احتمل المسيحيّون معاكساتٍ، وأفعال عنفٍ، واضطهاداتٍ، بسبب إيمانهم. إنّ كنيسة اليوم، وكنيسة كلّ وقتٍ، تشعر أنّها ملتزمةٌ بتطهير ذاكرةٍ هذه الأحداث المحزنة من كلّ شعورٍ بالحقد والانتقام. واليوبيل يوفّر للجميع فرصةً مؤاتيةً لعودةٍ عميقةٍ إلى الإنجيل. ومن تقبّل الغفران الإلهيّ ينبعث التزامٌ بالصفح عن الإخوة، وبالمصالحة المتبادلة».

لا جَرَم أنّ الذين يحدوهم حبٌّ واعٍ للكنيسة، وحدَهم، يستطيعون رمقَها بنظرةٍ صافيةٍ وثاقبةٍ، وتبيُّنَ ضرورة مبادرةٍ مثل هذه؛ وإن أطلقها يوحنّا بولس الثاني، فلأنّه كان ينعم بروح نبوءةٍ، ومؤهّلاً لاستلهام دروس التاريخ. ولا بدعَ إن لم يستسغ جميع الكرادلة، ومعاوني الحبر الأعظم مبادرته هذه، وإن أبدى بعضهم تحفّظًا بشأنها. ولكنّ البابا شدّد على توافقها مع تعاليم الإنجيل، وعلى واجب تطهير الذاكرة، وأثره الحميد على مستقبل الكنيسة. واقتنع بنظرته كرادلةٌ بارزون، لا بل قابلها بعضهم باندفاعٍ عارمٍ. فالكردينال «كاسّيدي» اعترف: «لم نكن دائمًا بمستوى ما كان يُنتظَر منّا». وكان من أشدّ المؤيّدين لمبادرة البابا الكردينال «إيتشيغاراي»، الذي قال: «فضلاً عن أخطاء أعضاءٍ في الكنيسة، يتساءل البعض عن مسؤوليّة الكنيسة في عددٍ من مآسي التاريخ الكبرى، التي ما برحت عواقبها مستمرّةً حتّى اليوم... يحسن بالكنيسة أن تتخطّى هذه المرحلة بوعيٍ واضحٍ لما عاشته خلال الألفيّة الثانية. إنّ نُدُبًا كثيرةً ما زالت منتشرة على جسدها، وصيحات الديك التي استدرّت دموع بطرس ما زالت ترنّ في أذنيها، والمواعيد مع التاريخ التي هُدِرت تملأ سجلّ مواعيدها».

وكان برنامج الاحتفال باليوبيل قد حدّد موعد إعلان التوبة والاستغفار، يوم ٢٠٠٠/٣/١٢، وهو الأحد الأوّل من الصوم الكبير. وقد كلّف الحبر الأعظم ستّة كرادلةٍ بإعلان طلب الغفران، باسم الكنيسة، عن أخطاءٍ ارتُكبت في ميادين مختلفةٍ. وكان أوّلهم الكردينال «رتسنغر»، الذي استغفر عن الأخطاء المقترفة في مجال خدمة الحقيقة. وفي هذه الأثناء كانت أبصار البابا شاخصةً إلى لوحةٍ تمثّل يسوع المصلوب، وهي من القرن الرابع عشر، وقد جيء بها من إحدى الكنائس الإيطاليّة. وما إن فرغ الكردينال من إعلان التوبة، حتّى انحنى البابا أمام تلك اللوحة، كي يقبّل أقدام «الخادم المتألّم». وقد أظهر، بذلك، كيف أنّ رحمة الله تنحدر إلى أدنى من بؤس الإنسان.

في ذلك اليوم، أشرع يوحنّا بولس الثاني ثغرةً في ذاكرة الكنيسة التي كانت محصّنةً بإحكامٍ، وإن لم يدرك الجميع أنّ الكنيسة بالتفاتها، على هذا القدر

من التواضعِ، نحو ماضيها، إنّما كانت تتحمّل مسؤوليّة حاضره، وتعدّ لمستقبلٍ أوفر نصاعةً.

ولم يكتفِ البابا بإعلان الصفح والاستصفاح، بالكلام، في ذلك اليوم، بل أكّد صدق نواياه، بمبادراتٍ عمليّةٍ لاحقةٍ. ففي أثناء زيارته لجمهورية تشيكيا، يوم ١٩٩٥/٥/٢١. أعلن، في مدينة «أولوموك»: «**أنا، بابا كنيسة روما، أطلب الغفران، باسم جميع الكاثوليكيّين، عن الأذى الذي لحق بغير الكاثوليكيّين، على مدى تاريخ الشعوب المضطرب، وفي الآن عينه، أؤكّد صفح الكنيسة الكاثوليكيّة عن الألم الذي قاساه أبناؤها**».

ثمّ، خلال زيارته إلى جمهوريّة سلوفاكيا، يوم ١٩٩٥/٧/٢، طوّب، في مدينة «كوزيتسي»، ثلاثة كهنةٍ استشهدوا، عام ١٦١٩، على يد السلطات البروتستانتيّة. فأثار عمله هذا حفيظة الإنجيليّين الذين اعتصموا أمام مقامٍ يخلّد ذكرى ثمانيةٍ وعشرين شهيدًا إنجيليًّا أدانتهم السلطات الكاثوليكيّة، عام ١٦٨٧، في مدينة «پريزوف». وصباح اليوم التالي، أشاد البابا، خلال عظته، «بالعظمة الروحيّة» التي برهن عنها الشهداء الإنجيليّون. وبعد ظهر ذلك اليوم، وبقرارٍ مرتجَلٍ، مضى، سيرًا على الأقدام، وبصمتٍ، تحت المطر، وصلّى أمام مقام الشهداء البروتستانتيّين، ملتمسًا صفح أولئك المسيحيّين الأبرياء الذي قضوا نحبهم، شهادةً لإيمانهم، ورفضًا للخضوع للبابويّة، فقُتِلوا، باسم الإيمان، من قبل مسيحيّين آخرين، مدافعين عن البابويّة. وحضر الأسقف البروتستانتيّ، فحيّا البابا، وشكر له حضوره وصلاته. وتلوا معًا «أبانا». ولاحقًا صرّح ذلك الأُسقف للصحافيّين: «إنّنا نقدّر، حقًّا، هذه المبادرة، ولم يكن ليخطر ببالنا أنّ شيئًا من هذا القبيل يمكن حدوثه».

كلّ هذه المبادرات لم تكن سوى تنفيذٍ لما ابتغاه يوحنّا بولس الثاني، يوم أعلن:

«**ينبغي أن يكون باب يوبيل العام ٢٠٠٠، رمزيًّا، أوسع من الأبواب السابقة، لأنّ البشريّة التي بلغت هذه المرحلة من التاريخ، لن تخلّف وراءها قرنًا فقط، بل ألفيّةً. ويحسن أن تجتاز الكنيسة هذا المعبر، وهي واعيةٌ، بوضوحٍ، ما عاشته خلال**

القرون العشرة المنصرمة. ولا يسعها اجتياز عتبة الألفيّة الجديدة، من غير أن تحضّ أبناءها على التطهّر بالتوبة عن أخطائها، وخياناتها، وتناقضاتها، وتقاعساتها، وعن الاعتراف بنكسات الأمس، وهو عمل صدقٍ وشجاعةٍ، يساعدنا على تدعيم إيماننا، ويبصّرنا بتجارب ومصاعب اليوم، ويعدّنا لمواجهتها».

وفي هذا السياق أيضًا، أصدر بتاريخ ١٩٩٥/٥/٦، رسالةً بعنوان «نور الشرق»، أقرّ فيها: «**إنّ خطيئة انفصالنا بالغة الخطورة، ولا بدّ من أن نطلب عنها الغفران، ملتمسين، بشدّةٍ، صفح المسيح. فقد حرمنا العالم من شهادةٍ مشتركةٍ، كانت كفيلةً بتفادي مآسٍ كثيرةٍ، وربّما بتغيير مجرى التاريخ**».

حجٌّ إلى الأراضي المقدّسة

وأخيرًا تحقّق حلم يوحنّا بولس الثاني، بالتخشّع، في سنة اليوبيل، على أديم الأراضي التي رأى فيها يسوع النور، ودرجت عليها سنوات عبوره بكوكبنا، متمنّيًا أن يكون حجّه هذا دعوةً إلى تأمّلٍ كثيفٍ بنعمة الفداء، وشهادة إيمانٍ قويّةً بأسرارٍ سماويّةٍ كرّس حياته كلّها للتبشير بها.

في الساعة الرابعة عشرة من بعد ظهر يوم ٢٠٠٠/٣/٢٠، حطّ في مطار الملكة علياء بعمّان، حيث استقبله بحفاوةٍ الملك عبدالله. وفي الحال قصد مقام موسى، في جبل نيبو، وأجال أنظاره في وادي الأُردنّ الذي طالما كان موضع تأمّلاته الروحيّة.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، ٣/٢١، احتفل بقدّاسٍ في مدينة الحسين الرياضيّة، تلقّى، في أثنائه، ألفا فتًى وفتاةٍ، مناولتهم الأولى. وأشاد، في عظته، بيوحنّا المعمدان الذي يُعدّ مفصلاً بين العهدين العتيق والجديد. وعند الظهر صلّى مع مجموعةٍ من البطاركة والأساقفة، ثمّ قام بزيارةٍ إلى «وادي الخرّار»، في وادي الأردنّ، حيث يُقال أنّ يسوع تعمّد.

في المساء غادر إلى تلّ أبيب، ومنها انطلق إلى القدس. وفي صباح يوم الأربعاء، ٣/٢٢، انطلق إلى بيت لحم الخاضعة للسلطة الفلسطينيّة، وعند

وصوله، قبّل قبضةً من تراب الأرض التي رأى فيها يسوع النور. وتناول، في عظته، الفرح الذي زفّ الملاك بشراه، فقال:

«مثل العديدين من الحجّاج قبلنا، نركع ممتلئين دهشةً وعبادةً، حيال السرّ الذي يتعذّر وصفه، والذي تحقّق هنا... إنّ الفرح الذي بشّر به الملاك ليس شيئًا يخصّ الماضي، بل هو فرح اليوم الحاضر، يوم خلاص الله الأبديّ، الذي يشمل كلّ الأزمان، ماضيًا، وحاضرًا، ومستقبلاً... هنا دخل الأبديّ في التاريخ، ويبقى معنا إلى الأبد... كلّ يومٍ هو عيد ميلادٍ للمسيحيّين، وكلّ يومٍ نحن مدعوّون إلى إعلان رسالة بيت لحم للعالم... بُشرى فرحٍ عظيمٍ: الكلمة الأزليّ، إلهٌ من إلهٍ، نورٌ من نورٍ، أصبح جسدًا، وسكن بيننا، وهذا الوليد الأعزل، المعتمد، كليًّا، على عناية مريم ويوسف، والموكل إلى حبّهما، هو كلّ ثروة العالم. هو كلّ شيءٍ لنا. في هذا الولد الذي أُعطيناه، نجد راحة نفوسنا، والخبز الحقّ الذي لن نفتقده أبدًا... الله مختبئٌ في هذا الولد، والألوهة مختبئةٌ في خبز الحياة... إنّ مهد يسوع هو، دائمًا، في ظلّ الصليب. صمت ولادة بيت لحم وفقرها تتماهى مع ظلمة موت الجلجلة وآلامها. المهد والصليب هما سرّ الفادي، والجسد الذي وضعته مريم في المذود، هو الجسد عينه إلى عُلِّق على الصليب.

«أين، إذن، مملكة أمير السلام، التي بشّر بها النبيّ أشعيا؟ أين هو «كلّ سلطانٍ في السماء وعلى الأرض الذي قال يسوع إنّه أُعطيه؟ ليس ملكوته في بسط القوّة، وفي الثروة، والفتح، وفي كلّ ما صاغ تاريخ البشر. بل هو نقيضٌ لذلك. هو قدرة قهر الشرّ، والانتصار النهائيّ على الخطيئة والموت. هو قدرة شفاء الجراح التي تشوّه صورة الخالق في خلائقه. سلطة المسيح هي قدرته على تحويل طبيعتنا الضعيفة، وجعلنا، بفضل نعمة الروح القدس، نحيا بسلامٍ، بعضنا مع بعضٍ، وفي تواصلٍ مع الله.

«تلك هي رسالة بيت لحم، اليوم وللأبد. تلك هي المهمّة التي جاء بها أمير السلام إلى العالم، منذ ألفي عامٍ».

وختم خطابه مناشدًا الفلسطينيّين: **«لا تخشوا الحفاظ على حضوركم، وإرثكم المسيحيّ، في المكان الذي وُلد فيه المخلّص».**

بعد ظهر ذلك اليوم قام بزيارةٍ خاصّةٍ إلى مغارة الميلاد؛ ثمّ التقى رئيس

السلطة الفلسطينيّة في بيت لحم، وفي المساء زار مخيّم الدهيشة، وعاين، على أرض الواقع، مأساة الشعب الفلسطينيّ. وألقى كلمةً جاء فيها: «**إنّي أعي وعيًا تامًّا التحدّيات الكبرى التي يتعيّن على السلطات والشعب الفلسطينيّ مواجهتها، في كلّ مجالٍ من مجالات الإنماء الاقتصاديّ والثقافيّ. وإنّي أرفع صلاةً خاصّةً من أجل الفلسطينيّين – مسلمين ومسيحيّين – الذين ما برحوا محرومين من مسكنٍ، ومن المكان الذي يحقّ لهم في المجتمع، ومن إمكانيّة حياة عملٍ طبيعيّةٍ. وأودّ أن تسهم زيارتي، اليوم، إلى مخيّم الدهيشة، في تذكير المجتمع الدوليّ بضرورة عملٍ حاسمٍ لتحسين وضع الشعب الفلسطينيّ... اليوم، وإلى الأبد، الشعب الفلسطينيّ حاضرٌ في صلواتي الموجّهة إلى من يثوي مصير العالم بين يديه**».

وحفل يوم الخميس، **٣/٢٣**، بتأثيراتٍ متباينةٍ. فقد وفّر له ذلك الصباح واحدةً من أحلى ذكريات حياته، ومن أبقاها أثرًا، إذ تهيّأ له الاحتفال، مع ثلّةٍ من أقرب معاونيه، بقدّاسٍ في العلّيّة التي شهدت عشاء يسوع الأخير مع تلاميذه، ثمّ حضنت ولادة الكنيسة، يوم العنصرة.

ولكنّ بهجة ذلك الصباح لم تنسحب على باقي النهار. فقبيل الظهر قام البابا بزيارة مجاملةٍ إلى حاخامي أورشليم، وبأُخرى إلى رئيس الدولة اليهوديّة. وكان عليه، في المساء أن يشارك، في لقاء أديانٍ، عُقِد في معهد سيّدة القدس الحبريّ. غير أنّ هذا اللقاء كان صاخبًا ومخيّبًا. فقد تخلّف مفتي القدس عن الحضور، وأوفد ياسر عرفات مندوبًا عنه الشيخ تيسير التميمي؛ وادّعى الرابيّ، كذبًا، أنّ البابا اعترف بأورشليم عاصمةً أبديّةً موحّدةً لإسرائيل. فعارضه الشيخ التميمي، ورحّب بالبابا الذي وصفه بأنّه «ضيف الشعب الفلسطينيّ في أرض فلسطين، وفي مدينة القدس الشريف، عاصمة فلسطين الأبديّة...» وكاد ينشب عراكٌ، فأخفى البابا وجهه بين راحتيه، وبعد أن هدأ الصخب، ذكّر بقول القدّيس يوحنّا:

«إن قال أحدٌ: «إنّي أحبّ الله»، وهو يبغض أخاه، فهو كاذبٌ. فمن لا يحبّ أخاه، وهو يراه، لا يستطيع أن يحبّ الله، وهو لا يراه. أجل هذه هي الوصيّة التي لنا منه: من أحبّ الله، فليحبّ أخاه، أيضًا».

وعلّق على ذلك بقوله: «**إنّ محبّة الإخوة والأخوات يقتضي سلوكًا قائمًا على الاحترام، والتعاطف، ومبادرات تضامنٍ وتعاونٍ لخدمة الصالح العامّ. ومن ثمّ فإنّ الاهتمام بالعدل والسلام ليس غريبًا عن مضمار الدين، بل هو عنصرٌ جوهريٌّ منه... دياناتنا كلّها تعرف القاعدة الذهبيّة: افعل للآخرين ما تودّ أن يفعلوه لك. ولئن كانت هذه القاعدة تمثّل توجيهًا ثمينًا، غير أنّ حبّ القريب الحقيقيّ يمضي إلى أبعد منها، معتمدًا على قناعة أنّنا عندما نحبّ قريبنا نعبّر عن حبّنا للّه، وعندما نسيء إلى قريبنا، نهين اللّه. وهذا يعني أنّ الدين هو عدوّ الإقصاء، والتمييز، والبغض، والتنافس، والعنف، والنزاع... الدين والسلام متلازمان... ينبغي أن نفعل كلّ ما يسعنا فعله، والتكفير عن إهانات الماضي وأخطائه، بتصميمٍ متينٍ على بناء مستقبلٍ جديدٍ لا مكان فيه إلاّ للتعاون الخصب، المبنيّ على الاحترام المتبادل**».

وم الجمعة، **٣/٢٤**، احتفل البابا بقدّاسٍ للشبيبة، على تلّة التطويبات في «كورازيم»، وقد جاء في عظته:

«**إنّنا جالسون على هذه التلّة، مثل تلاميذ يسوع الأوائل، وننصت إلى يسوع، نصغي، صامتين، لصوته العذب والملحّ، العذب مثل هذه الأرض، والملحّ مثل دعوته إلى الخيار بين الحياة والموت.**

«**كم من أجيالٍ، قبلنا، تأثّرت، بعمقٍ، لسماعها عظة الجبل، وكم من شبّانٍ، على كرّ القرون، التفّوا حول يسوع، كي يتعلّموا أقوال الحياة الأبديّة... وكم من شبّانٍ استلهموا قوّة شخصيّته، وحقيقة رسالته الساطعة!**

«**... قد تبدو أقوال يسوع مستهجنةً، فهو يمجّد من يعدّهم العالم، عمومًا، ضعفاء، ويقول لهم: «هنيئًا لكم أنتم الذين يبدون خاسرين، لأنّكم الرابحون الحقيقيّون. إنّ ملكوت اللّه لكم!». هذه الأقوال، التي تلفّظ بها من هو «وديعٌ ومتواضع القلب»، تطلق تحدّيًا يقتضي انحناءة فكرٍ سحيقةً ودائمةً، وتحوّل قلبٍ عميقًا.**

«**إنّكم تدركون، أيّها الشبّان، دواعي تحوّل القلب هذا، لأنّكم تعون وجود صوتٍ آخر، فيكم، ومن حولكم، يناقض قول الربّ، ويوسوس: «هنيئًا للمتفاخرين والعنيفين، الذين يزدهرون بأيّ ثمنٍ،الذين لا يردعهم وازع ضميرٍ، المجرّدين من الرأفة، والوجدان، الذين يؤثرون الحرب على السلام، ويضطهدون من ينهضون عقبةً في دربهم». ويبدو أنّ لهذا الصوت صدًى مسموعًا في عالمنا، حيث، غالبًا، يربح العنيفون، وينتصر الأشرار.**

«إنّ رسالة يسوع مناقضةٌ تمامًا... وقد اقتضت دعوتُه، دائمًا، خيارًا بين الصوتين المتنافسين على اكتساب قلوبكم... فأيٌّ من الصوتين يختاره شباب القرن الحادي والعشرين؟ إنّ إيلاء يسوع ثقتكم يعني اختيار قوله، مهما بدا مستغربًا، وعدم الاستسلام للآمال الوهميّة، أيّةً كانت جاذبيّتها.

«قد يبدو عيشكم مسيحيّتكم في عالم اليوم مهمّةً تتخطّى قدراتكم. ولكنّ يسوع لا يدعكم وحيدين في مواجهة هذا التحدّي. بل هو دائمًا معكم، كي يحوّل ضعفكم إلى قوّةٍ...

«يا شبيبة الأرض المقدّسة، ويا شبيبة العالم، استجيبوا للربّ بقلبٍ منفتحٍ، ومفعمٍ نيّةً طيّبةً، مثل قلب ابنة الجليل البكر، مريم، أمّ الله، التي قالت: «أناً أَمَة الربّ، فليكن لي بحسب قولك».

«أيّها الربّ، استمرّ في تلقين هؤلاء الشباب حقيقة الوصايا والتطويبات. واجعلْ منهم شهودًا فرحين لحقيقتك، ورسُلاً مُقنعين لملكوتك. وكن دائمًا معهم، وخاصّةً عندما يغدو اتّباعك واتّباع إنجيلك صعبًا وشاقًّا. كن قوّتهم، وكن انتصارهم».

بعد ظهر ذلك اليوم زار كنيسة «تكثير الخبز»، وفي المساء نعم بأسعد لحظات حجّه، وأبلغها أثرًا، عندما تخشّع حامل رقم **٢٦٣** في سلسلة خلفاء بطرس، وصلّى، في بيت البابا الأوّل، بطرس، في كفرناحوم.

وفي صباح يوم السبت **٣/٢٥**، يمّم شطر الناصرة، للاحتفال بعيد البشارة، وتسنّى له حصد غلّةٍ وفيرةٍ من التأثيرات الجديدة. عند دخوله إلى كاتدرائيّة البشارة كادت الجموع المتدافعة تسحقه، رغم جهود أمين سرّه، الأسقف «دزيڤيش» في ردعها، بتوزيعه المسابح يمنةً ويسارًا. ولكم أيقظ قول العذراء للملاك المبشّر: «فليكن لي بحسب قولك» من ذكريات أحداثٍ طبعت حياته!

وجاء في العظة التي ألقاها بهذه المناسبة:

«لكم رغبت في العودة إلى مدينة يسوع كي أشعر، مرّةً أُخرى، من خلال هذا المكان بحضور المرأة التي كتب عنها القدّيس أوغسطينُس: «اختار الله المرأة التي خلقها، وخلق المرأة التي كان قد اختارها»، إنّ مريم، أكثر من أيٍّ آخر هي التي تعلّمنا أن نحيا إيمان «أبانا».

وبعد ظهر ذلك اليوم تخشّع في كاتدرائيّة الأُمم في بستان الجتسمانيّ، ثمّ شارك في لقاءٍ مسكونيٍّ، في مقرّ البطريرك الأرثوذكسيّ «ديودورُس» (Diodoros)، الذي رحّب به ترحيبًا ودّيًّا، وقد عانقه البابا بحرارةٍ، وتلوا، معًا، صلاة «أبانا»، ومن خلال الكلمة التي ألقاها يوحنّا بولس الثاني، بهذه المناسبة، تجلّى الهاجس المسكونيّ الذي كان يسكنه، إذ قال:

«إنّه لنبع فرحٍ جمٍّ لي أن أعلم أنّ رؤساء الطوائف المسيحيّة، في المدينة المقدّسة، يلتقون باطّرادٍ، للتداول في الشؤون المشتركة التي تهمّ المؤمنين... هنا، في أورشليم، في هذه المدينة حيث صُلب ربّنا يسوع المسيح وقام من الموت، تدوّي أقواله بنبرةٍ مميّزةٍ، ولا سيّما تلك التي تفوّه بها قُبَيْل موته: «فليكونوا كلّهم واحدًا. ومثلما أنت فيّ، أيّها الآب، وأنا فيك، فليكونوا، هم أيضًا، فينا، لكي يؤمن العالم بأنّك أرسلتني». إنّنا، استجابةً لصلاة الربّ، مجتمعون هنا، نحن جميعنا، تلاميذ الربّ الواحد، رغم انقساماتنا المؤلمة. وجميعنا نعي أنّ إرادته تأمرنا، نحن والكنائس والطوائف التي نمثّلها، بانتهاج درب المصالحة والوئام... ينبغي أن نصبر ونثابر، ونمضي قُدُمًا، بلا تردّدٍ...

«إنّ معانقة البابا بولس السادس والبطريرك أثيناغوراس الأوّل تقوم دليلاً، ونبع إلهامٍ، يحفزاننا إلى بذل مزيدٍ من الجهود لتنفيذ مشيئة الربّ.

«فقط بمصالحتهم يتيسّر للمسيحيّين أن يلعبوا دورهم الكامل، بجعل القدس مدينة سلامٍ لجميع الشعوب.

«نسأل الله أن يلهمنا روحًا جديدًا من التناغم والتضامن بين كنائسنا التي تواجه المصاعب الماثلة التي توجع الجماعة المسيحيّة في القدس، وفي الأرض المقدّسة... إنّ طريقنا المسكونيّ هو، بالتحديد، طريقٌ في المسيح، ومن خلال المسيح المخلّص، نحو تحقيق مشيئة الآب، بأمانةٍ».

صباح يوم الأحد ٣/٢٦، زار مفتي الأراضي المقدّسة، الشيخ أكرم صبري، ثمّ التقى بطريرك الأرمن الأرثوذكس «توركم الثاني مانوكيان»، وقبيل الظهر احتفل بالذبيحة الإلهيّة، في كنيسة القيامة، بحضور الطوائف المسيحيّة المختلفة. وقد جاء في عظته:

«إنّ القبر الفارغ هو شاهدٌ صامتٌ على الحدَث المركزيّ في التاريخ البشريّ: قيامة ربّنا يسوع المسيح. طيلة نحو ألفي سنةٍ، شهد هذا القبر على انتصار الحياة على الموت...

«ونحن، أيضًا، نشهد ونعلن «أنّ المسيح بعدما أُقيم من بين الأموات، لا يموت أيضًا، فالموت لا يسود عليه، من بعد» (رومانيّين ٦:٩). وهو، اليوم، يسود، منتصرًا على الموت، وهو نبع حياةٍ أبديّةٍ للمؤمنين...

«في فجر هذه الألفيّة الجديدة، بوسع المسيحيّين، ومن واجبهم، التطلّع إلى المستقبل بثقةٍ متينةٍ في قدرة القائم من الموت على صنع عالمٍ جديدٍ. فهو الذي يعتق كلّ خليقةٍ من العبوديّة والشيخوخة...

«على مقربة من القبر المقدّس ومن الجلجلة، وفيما نحن نجدّد إعلان إيماننا في الربّ الناهض من الموت، هل يسعنا أن نشكّ بقدرة روح الحياة على منحنا قوّة التغلّب على انقساماتنا، والعمل معًا على بناء مستقبل مصالحةٍ، ووحدةٍ ووئام؟ هنا، أكثر من أيّ مكانٍ آخر في العالم، نسمع، مرّةً أُخرى، الربّ يقول لتلاميذه: «ثقوا، فقد غلبت العالم!»».

ولوحظ تأثّر يوحنّا بولس الثاني البالغ أمام القبر المقدّس، حيث «تلاشى في الصلاة». وعقب القدّاس ارتقى أدراج درب الصليب كي يستغرق في الصلاة على تلّة الجلجلة. ولكأنّ كلّ سلوكه، في الديار المقدّسة، كان دعوةً للتحديق إلى يسوع. وبشفافيّة إيمانه، وبخفره، وباحترامه لجميع المؤمنين، بدا وكأنّه هو ذاته، صورةٌ ليسوع، وجعل من ذرعه التراب الذي وطئته أقدام الربّ، ملحمةً رائعةً.

وقبل مغادرته، عائدًا إلى روما، شكر لأُمّ الله مواكبتها إيّاه في هذا الحجّ، قائلاً: **«لقد عشنا أيّام تأثّرٍ عميقٍ، تأثّرتُ، خلالها، نفسنا، ليس فقط بذكرى ما صنع الله، بل أيضًا بحضوره، فهو يسير معنا، مرّةً أُخرى، على الأرض التي شهدت ولادة المسيح، وموته، وقيامته. وفي كلّ مرحلةٍ من مراحل هذا الحجّ اليوبيليّ، كانت مريم معنا، منيرةً دربنا، ومقتسمةً أفراح وأحزان أبنائها وبناتها»**.

شؤون الكنيسة والمجتمع

عاد يوحنّا بولس الثاني من حجّه إلى الأراضي المقدّسة كي ينغمس، بنشاطٍ متجدّدٍ، في شؤون الكنيسة والعالم.

فصبيحة يوم الجمعة ٤/٧، استقبل أمين عامّ الأمم المتّحدة، كوفي أنان، وأعضاء اللجنة التنسيقيّة للأُمم المتّحدة، ومدراء البنك العالميّ، وصندوق النقد الدوليّ، وأوضح أنّ تنامي تشابك مصالح العالم أضفى على أزماته مزيدًا من الخطورة يستلزم إبداع وسائل جديدةٍ لمواجهة تحدّياتها، وستراتيجيّة تضامنٍ دوليٍّ. وأشار إلى القرارات ذات التأثير العالميّ التي تتّخذها دولٌ غنيّةٌ، ولا قِبَلَ لدولٍ فقيرةٍ على تنفيذها إلاّ بفرض الآلام على شعوبها. وأكّد أنّ الدعوة إلى محو الديون الخارجيّة المتوجّبة على الدول الفقيرة هو دليل وعيٍ لواجب التضامن العالميّ.

وقال: «**إنّ النشاط السياسيّ والاقتصاديّ الذي يحدوه روح التضامن، من شأنه، بل من واجبه، أن يقود إلى الحدّ الطوعيّ من الامتيازات أحاديّة الجانب، كي تتمكّن بلدانٌ أُخرى، وشعوبٌ أُخرى من اقتسام الفوائد عينها... إنّ التحدّي الأكبر الذي يواجه الأشخاص والشعوب يتمثّل في قبول الأفراد والشعوب، قبولاً كلّيًّا لا لَبْس فيه، وتحمّل مسؤوليّة جميع البشر الآخرين، وسكّان الأرض كلّها**». «**وإنّ شرط كلّ هذه الجهود هو الاعتراف بكرامة كلّ كائن بشريٍّ، وبمركزيّته، بصفته عضوًا متساويًا مع الآخرين داخل الأُسرة الإنسانيّة**». وحذّر البابا من محاولة بعض الفئات فرض نظريّاتها التي تدمّر ما بنته الأجيال بصبرٍ وحنكةٍ، من أجل الحفاظ على كرامة الإنسان، وتماسك المجتمع، وتبدّد إرثًا لا يحقّ لأحدٍ العبث به.

وفي مجالٍ آخر، رفع قداسته إلى مجد الهياكل، صباح يوم الأحد، ٩ نيسان، خمسة طوباويّين جدُدٍ، منهم كاهنٌ كولومبيٌّ، وكاهنٌ ألمانيٌّ، وراهبةٌ إيطاليّةٌ، وراهبةٌ سويديّةٌ، وأُخرى هنديّةٌ. والقاسم المشترك بين هؤلاء جميعهم هو إعلانهم المسيح، قولاً وتضحيةً من خلال خدمة إخوتهم. فقد كان صدر يوحنّا بولس الثاني يضجّ، دائمًا، رغبةً في إبراز نماذج قداسة جديرةً بأن يقتدي بها المؤمنون.

ويوم أحد الشعانين، ١٦ نيسان، كان حضور الشبيبة الكثيف في قدّاس البابا لافتًا، وقد ناشدهم الحبر الأعظم قائلاً:

«أحبّائي الشباب، لقد شرعتم تخبرون طبيعة الحياة المأسويّة، وتتساءلون عن معنى الوجود، وعلاقاتكم، بعضكم مع بعضٍ ومع الآخرين، ومع اللّه. وإنّ يسوع، الخادم المتألّم والمهان، والذي تردّى حتّى الموتَ على الصليب، ثمّ تمجّد على يمين الآب، يقدّم ذاته جوابًا وحيدًا شافيًا لقلبكم المتعطّش إلى الحقيقة والسلام، ولمشاكلكم وتساؤلاتكم العديدة، الطافحة، أحيانًا، بالقلق».

وفي عظة أحد الفصح، ٢٣ نيسان، جاء:

«بسلاح الحبّ قهر اللّه الخطيئة والموت، واجتثّ جذور الموت، وفتح لجميع القلوب التائبة درب العودة إلى الآب. في الفصح يتغلّب باب الحياة على أبواب الجحيم. إنّه باب الخلاص المشرع على مصراعيه للجميع، باب الرحمة الإلهيّة الذي يلقي نورًا قشيبًا على الوجود الإنسانيّ.

«إنّ المسيح القائم من الموت يرشد إلى دروب الرجاء... نحو عالمٍ أوفر عدلاً وتضامنًا لا تطغى فيه أنانيّة القلائل العمياء على صيحة ألم الأعداد الغفيرة...

«فلتدفع صورة الإنسان الجديد التي تتألّق على وجه المسيح، جميع البشر إلى الاعتراف بقيمة الحياة الإنسانيّة التي لا يجوز المساس بها... بما أنّ المسيح قام، يسعنا النظر، بعيونٍ جديدةٍ، إلى كلّ حدَثٍ من أحداث حياتنا».

واختتم يوحنّا بولس الثاني شهر نيسان بإعلان قداسة الصوفيّة البولونيّة «فوستينا كوفالسكا» (١٩٠٥–١٩٣٨)، رسولة «الرحمة الإلهيّة»، وأشاد بعظة شأن تلك الرسالة في زمنٍ حافلٍ بالفظائع، معلنًا: **«ليس سهلاً أن يحبّ المرء حبًّا عميقًا، قائمًا على بذل ذاتٍ مخلصٍ. هذا الحبّ لا يمكن تعلّمه إلاّ في مدرسة اللّه، وبحرارة المحبّة. فبتحديقنا إلى اللّه، وبتماهينا مع قلبه الأبويّ، نمسي قادرين على رمق إخوتنا بنظرةٍ جديدةٍ، من موقف مجّانيّةٍ، ومشاركةٍ، وسخاءٍ، وصفحٍ. كلّ هذا هو الرحمة.**

«هذا الحبّ هو الذي تحتاج البشريّة، اليوم، إلى استلهامه، كي تواجه تحدّيات الحاجات المختلفة، ولا سيّما حاجة صون الكرامة الإنسانيّة. إنّ رسالة الرحمة الإلهيّة هي، أيضًا، وضمنيًّا، رسالةٌ تكرّس قيمة كلّ إنسان».

وأشار قداسته إلى أنّ جميع الذين شهدوا وعانوا أهوال الحربين العالميّتين، وما جرّتا من أهوالٍ وآلام مريعةٍ يدركون كم كانت رسالة الرحمة الإلهيّة، التي كلّفت الأخت فوستين بنشرها، ضروريّةً. وذكّر قداسته بقول الربّ للقدّيسة: «**لن تعهد البشريّة السلام، إلاّ عندما ستلجأ، بثقةٍ، إلى الرحمة الإلهيّة**»، و«**أعلني، يا ابنتي، أنّني أنا الحبّ والرحمة المتجسّدان**».

يوبيل العمّال

الأوّل من أيّار كان موعد الاحتفال بيوبيل العمّال. وبهذه المناسبة دعا الحبر الأعظم إلى إعادة اكتشاف قيمة العمل ومعناه، مذكّرًا بأنّ الوقت قد حان كي ينعم كلّ عاملٍ وعاملةٍ، بكرامتهما الحقّة.

ذكّر يوحنّا بولس الثاني، بهذه المناسبة، بأنّ العمل هو حقٌّ وواجبٌ، يستهدف الاستفادة من خيرات الأرض لصالح الأفراد والمجتمع، عملاً بأمر الله، وإلاّ فما هو إلاّ تعبٌ مرهقٌ، لا معنى له.

وذكّر، أيضًا، بأنّ ابن الله لم يستحِ من أن يكون ابن نجّارٍ، ونجّارًا، وأنّه يرمق عمل البشر بحبٍّ، فهو يجعل الإنسان، على نحوٍ ما، شبيهًا بالخالق. وأوضح أنّ السنة اليوبيليّة تدعو إلى إعادة اكتشاف معنى العمل وقيمته، وإلى التصدّي لأشكال الخلَل الاقتصاديّ والاجتماعيّ الرائجة في عالم العمل، وإلى معالجتها، من خلال إعادة تبنّي سلّم أولويّاتٍ صحيحٍ، يُحلّ كرامة الإنسان وحرّيّته، ومسؤوليّته ومساهمته، في المكان الأوّل، وفوق كلّ اعتبارٍ آخر.

وأكّد الحبر الأعظم تضامنه مع «**جميع من يعانون البطالة، وضآلة الراتب، والافتقار إلى الوسائل المادّيّة، ومع ضحايا فقرٍ يجرح كرامتهم، ويحول دون اقتسام خيرات الأرض، ويجبرهم على التغذّي بما يتساقط من موائد الأغنياء**».

ودعا العمّال إلى التمثّل بالقدّيس يوسف، الذي لم يقتصر على تلقين يسوع مهنة النجارة، بل كان له خير مثالٍ في ما يدعوه الكتاب، «مخافة الله». كما

دعا إلى عولمة التضامن الذي لا يهمّش أحدًا، عوضًا عن عولمة العمل بلا ضوابط، وأطلق هذا النداء:

«أيّها العمّال الأعزّاء، وأيّها المتعهّدون والمتعاونون، والعملاء الماليّون، والتجّار، وحّدوا أيديكم، وأفكاركم، وقلوبكم، واشتركوا في بناء مجتمعٍ يحترم الإنسان وعمله. إنّ الإنسان يساوي، بكيانه وبما هو، أكثر ممّا يساوي بما يملك. وإنّ ما يخدم مزيدًا من العدالة، وأُخوّةً أوسع نطاقًا، ونظام علاقاتٍ اجتماعيّةٍ أوفر إنسانيّةً، يفوق قيمةً كلّ تقدّمٍ في المجال التقنيّ».

تكريمٌ لشهود الإيمان

لقد قطن يوحنّا بولس الثاني يقينٌ مقيمٌ بأنّ الله لا يكفّ عن صنع قدّيسين. وكان دائم الحرص على إبرازهم مثالاً يقتدي به كلّ مسيحيٍّ، فلم يطوّب أيّ حبرٍ أعظم، قبله، بقدر ما هو طوّب من رجالٍ ونساءٍ، بحيث بلغ عدد الطوباويّين الذين أعلنهم، في عهده، نحو ألفٍ، وتجاوز عدد الذين أعلن قداستهم الأربع مئة.

ومساء ٧ أيّار ٢٠٠٠، ترأّس احتفالاً مسكونيًّا، في الكوليزيوم بروما، تكريمًا لشهود الإيمان، من كلّ الكنائس والطوائف المسيحيّة، خلال القرن العشرين. وقد جاء، في الكلمة التي ألقاها، بهذه المناسبة قوله:

«ما أكثر المسيحيّين، في كلّ قارّةٍ، خلال القرن العشرين، الذين مضوا حتّى البرهنة، بدمهم، عن تعلّقهم بالمسيح، وعانوا أصناف اضطهادٍ قديمةً وجديدةً، وخبروا البغض والنبذ، والعنف، والقتل! بلدانٌ عديدةٌ، عريقةٌ في مسيحيّتها، أصبحت أماكن يكلّف فيها الوفاء للإنجيل، الحياة. في قرننا هذا، غدت الشهادة للمسيحيّ حتّى الدم، إرثًا مشتركًا للكاثوليكيّين، والأرثوذكسيّين، والأنغليكان، ولكنائس أُخرى، في بلدانٍ أوروبّيّة عديدةٍ... هؤلاء أثبتوا أنّ الحبّ أقوى من الموت، حيث كان الحقد ينفث عدواه في الحياة، ولا يدع لأحدٍ منجاةً من منطقه. وحيث أنظمة القمع الرهيبة التي تشوّه الإنسان في مناقع العذاب، وسط حرمانٍ قاسٍ، من خلال مسيراتٍ منهكةٍ، ومن خلال التعريض للقرّ والجوع، والتعذيب، ولكلّ أصناف الآلام، برهن أولئك الشهود عن التزامهم بالمسيح، الذي مات ونهض.

«كثيرون ممّن أبوا الخضوع لأصنام القرن العشرين، كانوا ضحايا الشيوعيّة والنازيّة، وعبادة الدولة والعرق. وكثيرون آخرون، في حومة الحروب الإثنيّة والعشائريّة، قضوا نحبهم، لأنّهم رفضوا المنطق المخالف لإنجيل يسوع. وبعضهم قضوا لأنّهم، أُسوةً بالراعي الصالح، ابتغوا ملازمة المؤمنين الموكلين إلى رعايتهم، رغم التهديدات. في كلّ قارّةٍ، طيلة هذا القرن، هبّ قومٌ آثروا الموت، قتلاً، على التخلّي عن رسالتهم. وكم من رهبانٍ وراهباتٍ، عاشوا تكريس حياتهم حتّى سفك دمائهم! وكم من مؤمنين، رجالٍ ونساءٍ، ماتوا وهم يبذلون حياتهم حبًّا بإخوتهم، وبالأخصّ للأشدّ فقرًا وضعفًا! وكم من نساءٍ فقدنَ الحياة، دفاعًا عن كرامتهنّ وعفّتهنّ! لقد سمعنا قول يسوع: «من أحبّ حياته أضاعها. ومن أبغض حياته في هذا العالم حفظها للحياة الأبديّة...». ولكنّ العالم المعاصر يرفض، غالبًا، هذه الحقيقة ويزدريها، لأنّه أقام من حبّ الذات المعيار الأسمى للوجود. غير أنّ شهود الإيمان الذين يحدّثونا، في هذا المساء، بمثال حياتهم، لم يعدّوا، لا لمصلحتهم، ولرفاههم، ولا حتّى لبقائهم على قيد الحياة، قِيَمًا أسمى من الوفاء للإنجيل. ورغم وهنهم، قاوموا الشرّ، صامدين، وفي هشاشتهم تألّقت قوّة الإيمان، ونعمة الربّ».

وفي ذلك المساء قال البابا للحجّاج المحتشدين في ساحة القدّيس بطرس، مشيرًا إلى الاحتفال بشهود الإيمان: «**إنّ استذكار شهود الإيمان الأبطال، في القرن العشرين، يعني الإعداد للمستقبل، بتوفير قواعد متينةٍ للرجاء. على الأجيال الجديدة أن تعلم ثمن الإيمان الذي ورثوه، لكي يقبضوا، بشكرٍ، على مشعل الإنجيل، وينيروا به القرن الجديد، والألفيّة الجديدة**».

وأشار البابا إلى طابع هذا الاحتفال المسكونيّ، آملاً أن يكون حافزًا إلى تحقيق وحدة المسيحيّين، وأن يكون صوت المسيح الذي يتكلّم به من خلال هؤلاء الشهود أقوى من عوامل الانقسام. ونوّه بأنّ أكثر شهود الإيمان تألّقًا، ونموذجهم الأمثل، هي العذراء مريم، التي كانت حياتها كلّها، منذ الناصرة حتّى الجلجلة، أسطع شهادةٍ لله. وهي، لكلّ مؤمنٍ، في ساعة المحنة، السند والعزاء.

وفي سياق التطويب، قام يوحنّا بولس الثاني، في **١٢** أيّار، برحلته الرسوليّة الرابعة والتسعين التي اقتادته إلى مكانٍ يحتلّ من قلبه حيّزًا أثيرًا، مزار سيّدة فاطمة، حيث طوّب في اليوم التالي، **١٣** أيّار، الرائيين الصغيرين «ياسنتا

وفرنشيسكو مارتو». وفي قدّاس التطويب الذي احتُفل به في فناء مزار سيّدة الورديّة، استهلّ البابا عظته بقول يسوع: «أحمدك، يا أبتِ، ربّ السماء والأرض، لأنّك حجبت هذه عن الحكماء والفهماء، وكشفتها للأطفال»، وذكّر، أيضًا، بقول الرائي فرنشيسكو: «إنّ الله نورٌ ملتهبٌ، ولكنّه لا يحرق».

وأوضح الحبر الأعظم أنّ قداسة الرؤاة لا تعتمد على الظهورات، بل على أمانتهم في الالتزام الذي استجابوا به للنعمة السنيّة التي تلقّوها من الربّ، ومن العذراء كلّيّة القداسة، وتستند، أيضًا، على رغبتهم العارمة في تعزية قلبَي يسوع ومريم.

وفي أثناء لقاءٍ عامٍّ مع الحجّاج، عقب عودته من رحلته، أعلن: «**من فاطمة تنبعث إلى العالم أجمع رسالة تحوّلٍ روحيٍّ ورجاءٍ**».

ذكرى مولده الثمانين

وافق يوم ١٨ أيّار بلوغ يوحنّا بولس الثاني عامه الثمانين. واحتُفل بهذه المناسبة، بقدّاسٍ شاركه فيه أضخم حشدٍ كهنوتيٍّ، ضمّ ستّة آلاف كاهنٍ التفّوا حول أربعةٍ وسبعين كردينالاً وبطريركًا، ومئتين وخمسين أسقفًا. وتحدّث البابا عن الكهنوت بصفته نعمةً ممنوحةً لرجالٍ هشّين، نعمةً لا تنفكّ تدهش من يتلقّاها، وأوضح أنّ دور الكاهن ليس أن يكون معلّمًا فحسب، بل أن يكون شاهدًا بمثال حياته.

واستمطرت هذه المناسبة وابلاً من برقيّات التهنئة من كل أرجاء العالم. وقد وصف جاك شيراك، في برقيّته، البابا، بأنّه «نورٌ بين البشر». واعتبره ميخائيل غوربتشيف «رسول الأنسنة الحقّة»، وعدّه حسني مبارك: «رجل الإخاء والحكمة والتسامح». واعترف «ڤاكلاڤ هاڤل»: «لقد ساعدنا يوحنّا بولس الثاني على رفع أنظارنا نحو قِيَمٍ عليا». وأقرّ ياسر عرفات: «لقد أولى عنايةً خاصّةً بشعبنا الفلسطينيّ، وبكلّ شعوب الأرض». وأكّد كوفي أنان: «لملايين الأشخاص في العالم، أمسى البابا يوحنّا بولس الثاني أقوى صوتٍ للرجاء وللعدالة، سمعناه يومًا. كان صديق المقموعين والفقراء والمرضى. وكان بطل كرامة كلّ كائنٍ بشريٍّ ومركزيّة كيانه... مع هذا الحليف الرائع كيف لفقراء العالم ألاّ يتوقّعوا سنةً مميّزةً؟

ومزوّدين بمثل هذا الإلهام كيف يحقّ لنا أن نفشل؟... فلتكن لنا، يا صاحب القداسة، النجم الذي يقود كلّ جهودنا في هذه السنة اليوبيليّة!».

وقد توافقت تلك الذكرى، مع اليوبيل الخاصّ بالكهنة، فقال الحبر الأعظم:

«نريد، اليوم، أن نرفع، معًا، آيات الشكر عن نعمة الكهنوت الفائقة، نعمةٍ لكلّ الأزمان، ولأجل بشر كلّ عرقٍ وثقافةٍ، نعمةٍ تتجدّد في الكنيسة، بفضل الرحمة الإلهيّة الدائمة، وبفضل الاستجابة السخيّة والوفيّة التي يبرهن عنها العديد من الرجال الهشّين، نعمةٍ لا تني تدهش حتّى أولئك الذين يتلقّونها.

«بعد أكثر من خمسين سنة كهنوتٍ، يستحوذ عليّ شعورٌ بحاجةٍ ملحّةٍ إلى شكر الله عمّا غمرني به من عطفٍ جمٍّ.

«وإنّي أقبّلكم بمودّةٍ عارمةٍ، يا كهنة العالم أجمع الأعزّاء، قبلةً لا تحدّها تخومٌ، وتشمل كهنة كلّ كنيسةٍ، وتتوجّه، خاصّةً، إليكم أيّها الكهنة المرضى، والذين يعانون الوحدة، وشتّى أصناف المصاعب...».

ومع بلوغه هذه السنّ، وتفاقم وهنه، واسترخاء قواه، جهد يوحنّا بولس الثاني في الحفاظ على وتيرة نشاطه المتدفّقة حيويّةً، وإبداعًا. ولم تفتر، لحظةً، غيرته على الكنيسة ووحدتها، وعلى كلّ إنسانٍ وحقوقه وصون كرامته.

لقد شُبِّه يوحنّا بولس الثاني بالنبيّ حزقيال الذي أراده الله حارسًا لشعبه. وكان البابا غريغوريُس الكبير، قد بيّن عام **٥٩٣**، دور الحارس، فهو من أرسله الله كي يبشّر. وهو يجلس، دائمًا، على قمّةٍ، كي نتبيّن ما يحدث في البعيد، ويحذّر من المخاطر بفضل بعد رؤيته.

وقد تجلّت لدى يوحنّا بولس الثاني نزعةٌ إلى إبقاء الكنيسة في حالة حراكٍ دائمٍ، متطلّعٍ إلى ما يفوق الطبيعة، ومتباينٍ عن حراك العالم المحموم الساعي إلى مُتعٍ وخيراتٍ أرضيّةٍ زائلةٍ.

واستمرّ اليوبيل

يوم الأحد **٥/٢١** طوّب خمسةً وعشرين شهيدًا مكسيكيًّا، كهنةً وعلمانيّين،

وكاهنًا مكسيكيًّا أسّس «جمعيّة خادمات قلب يسوع الأقدس والفقراء»، وراهبةً مكسيكيّةً أسّست «جمعيّة بنات قلب يسوع الأقدس». وجاء في عظته: «**في كلّ حقبةٍ، بلغ رجالٌ ونساءٌ، بصفتهم أبناء الكنيسة، هدف القداسة. إنّهم قدّيسون لأنّهم وضعوا الله في مركز حياتهم، وجعلوا من نشدان ملكوت الله، ومن نشره علّة وجودهم؛ إنّهم قدّيسون لأنّ أعمالهم ما برحت تتحدّث عن حبّهم الكلّيّ للربّ ولإخوتهم، ولأنّهم آتوا ثمارًا وفيرةً، بفضل إيمانهم الحيّ بيسوع المسيح، والتزامهم بمحبّة حتّى أعدائهم، كما هو أحبّنا**».

يوم **٢٥** أيّار خُتم مؤتمرٌ لعلماء وباحثين، عُقد في الڤاتيكان، خلال اليومين السابقين، وبهذه المناسبة أكّد البابا أنّ الإيمان لا يخشى العقل، وناشد رجال العلم أن يكونوا بناة رجاءٍ للبشريّة جمعاء.

بمناسبة يوبيل المهجّرين، في الثاني من حزيران، ذكّر قداسته بقول الرسول بولس: «لا تنسوا ضيافة الغرباء»، وبقول البابا بولس السادس: «**لدى الكنيسة الكاثوليكيّة لا أحد غريبٌ، ولا أحد مقصًى، ولا أحد بعيدٌ**».

وفي اليوم التالي، قال عن القدّيسة «ريتّا»، التي كان جيء بجثمانها من مزارها في «كاشيا»، وسجّي في فناء كاتدرائيّة القدّيس بطرس، إنّ تلك القدّيسة تجسّد العبقريّة النسائيّة، وتوسّم فيها علامة رجاءٍ للأُسَر. فقد «**اندرجت حياتها في التواضع، وها هي قد أصبحت مشهورةً في العالم، من جرّاء سيرتها المسيحيّة البطوليّة، بصفتها زوجةً، وأُمًّا، وأرملةً، وراهبةً. وهي، بتجذّرها العميق في حبّ المسيح، استمدّت من إيمانها الصامد، القدرة على أن تكون، في كلّ مناسبةٍ، امرأة سلامٍ**».

في الرابع من حزيران احتُفل بيوبيل الصحافيّين، والعاملين في ميدان التواصل الاجتماعيّ، فخاطبهم البابا قائلاً: «**عندما تعملون في احترامٍ للحقيقة، تقدّمون خدمةً ثمينةً للحقيقة ذاتها، ومن ثمّة للإنسان**».

وفي اليوم التالي، الخامس من حزيران، استقبل الرئيس «پوتين».

ومساء يوم السبت العاشر من حزيران، ترأّس قدّاسًا احتفالاً بعيد العنصرة.

وكان ذلك اليوم قد كُرِّس يوبيلاً، هدفه: «التفكير في واجبات الكاثوليكيّين حيال الآخرين، وللتبشير بالمسيح: شهادةٌ وحوارٌ». وجاء في عظة الحبر الأعظم:

«ليست الرسالة الإلهيّة، التي أوكلت إلى الكنيسة، معاديةً لأعمق تطلّعات الإنسان، بل، على نقيض ذلك، أعلنها الله، كي يروي بها، إلى أبعد ما يتخطّى كلّ توقّع، جوع القلب البشريّ وعطشه. ولهذا السبب، بالتحديد، يجب ألاّ يُفرَض الإنجيل فرضًا، بل أن يُعرَض عرضًا، لأنّه لا يُثبت جدواه، إلاّ إذا قُبِل قبولاً حرًّا، وتمّ اعتناقه بحبٍّ. ويبقى العامل الحاسم في جدوى التبشير، هو الشهادة الحيّة. فوحده المؤمن الذي يحيا ما يعلنه بشفتيه، يستطيع تأمّل أن يُسمَع، وحين لا تتيح الظروف تبشيرًا صريحًا بالمسيح، مخلّص جميع الأنام، تُثبت كلّ قدرتها على الإقناع شهادة حياةٍ تتّسم بالاحترام، والعفّة، والنزاهة، والتجرّد من متاع الدنيا، والحرّيّة حيال سلطات هذا العالم، أي، بالإجمال، شهادة القداسة، حتّى إن كانت هذه الشهادة صامتةً».

يوم الثالث عشر من حزيران أعرب البابا عن سروره لأنّ الرئيس الإيطاليّ، نزل عند رغبته، وعملاً بروح اليوبيل، أصدر عفوًا عن المجرم التركيّ «محمّد علي أغشا» الذي حاول اغتيال يوحنّا بولس الثاني، عام ١٩٨١، وسلّمه إلى السلطات التركيّة، مع أنّ ذلك المجرم ما انفكّ يعلن أنّ الڤاتيكان هو «أكبر المجرمين»، مدّعيًا، زورًا وبهتانًا، أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة أغرته بمبالغ ضخمة من المال، وبترقيته إلى رتبة كردينالٍ، إن هو اعتنق المسيحيّة!

مائدة المحبّة

وفي ١٥ حزيران تناول مئتا فقيرٍ ومشرّدٍ طعام الغداء على «مائدة محبّة البابا»، بعد أن انتقتهم جمعيّاتٌ خيريّةٌ، ووُجّهت لهم دعواتٌ رسميّةٌ شخصيّةٌ. كان منهم إيطاليّون وغرباء من القارّات الخمس، ومن مختلف الأديان. وقد توخّى البابا، من هذه المبادرة، إحلال المحبّة المكانة الأولى، في تأكيدٍ على معنى اليوبيل، وعلى إيثار الكنيسة للفقراء والمحرومين. وقد اجتمع، حول كلّ مائدةٍ، عشرة فقراء يحيط بهم كردينالٌ، وأُسقفٌ، ومتطوّعان لخدمتهم. وقدّم الطعام

طلاّبٌ إكليريكيّون من روما، وأدّى أعضاء جوقاتٍ كنسيّةٍ أغاني وألحانًا موسيقيّةً. وانضمّ البابا إلى المدعوّين، وقدّم لهم هدايا، وخاطبهم بقوله:

«إخوتي وأخواتي المحبوبين جدًّا،

«بين مواعيد اليوبيل العديدة، هذا الموعد هو، لي، بالتأكيد، من أكثرها تأثيرًا، وأعمقها دلالةً. وقد حرصت على التقائكم، واقتسام مائدتي معكم، كي أقول لكم إنّكم في قلب البابا. وإنّي أقبّل كلاً منكم بمودّةٍ، أيّها الأصدقاء الغالون.

«لا ريب أنّ الوقت الذي أخصّصه لكم هو قصيرٌ، ولكنّني أؤكّد لكم أنّني، في كلّ يومٍ، قريبٌ منكم، بصلاتي ومحبّتي. وفيما أنا أحدّق إليكم، واحدًا فواحدًا، أفكّر بالّذين، في روما، وفي كلّ بقعةٍ من العالم، يجتازون فترات مِحَنٍ ومضائق. وأودّ أن أدنو من كلّ فردٍ، وأقول له: لا تظنّ نفسك وحيدًا. فاللّه يحبّكَ، والبابا يحبّكم، أيّها الأصدقاء الأعزّاء جدًّا، ومعه الكنيسة جمعاء، تفتح لكم أيدي الترحيب والإخاء».

المؤتمر الإفخارستيّ

يوم ٦/١٨ افتُتح المؤتمر الإفخارستيّ العالميّ السابع والأربعون في روما، واستمرّ حتّى ٦/٢٥. وفي ختامه ألقى يوحنّا بولس الثاني خطابًا جاء فيه:

«نودّ أن نعيد على مسامع رجال ونساء الألفيّة الثالثة، الإعلان المدهش: إنّ ابن اللّه الذي تجسّد من أجلنا، وقدّم ذاته ضحيّةً من أجل خلاصنا، يهبنا جسده ودمه غذاءً لحياةٍ جديدةٍ، حياةٍ إلهيّةٍ، غير خاضعةٍ للموت.

«إنّنا نتلقّى، من جديدٍ، وبتأثّرٍ، هذه العطيّة من يد المسيح، كي نوصلها، بواسطتنا، إلى كلّ أُسرةٍ، في كلّ مدينةٍ، إلى مواقع الألم، وإلى مختبرات رجاء زماننا. الإفخارستيّا هي هبة حبٍّ لامحدودٍ، تحت أشكال الخبز والخمر.

«حسب قول القدّيس توما الإكوينيّ: «الإفخارستيّا هي، حقًّا، السرّ الذي يوجز كلّ الروائع التي حقّقها اللّه من أجل خلاصنا». الإفخارستيّا هي عطيّةٌ لا تثمّن، منّ بها علينا المسيح، وبها تحيا الكنيسة...

«أيّها المرضى، فلتجعلكم المشاركة بالإفخارستيّا صبورين في المحنة. وأنتم أيّها

الأزواج، فلتجعلكم أوفياء في الحبّ، ولتجعلكم، أيّها المكرّسون، مثابرين في مقاصدكم المقدّسة. وأنتم، يا أولاد المناولة الأولى الأعزّاء، وأنتم، خاصّةً، أيّها الشبّان الذين يتأهّبون لتحمّل مسؤوليّة مستقبلكم الشخصيّ، فلتجعلكم أقوياء، ومتدفّقين سخاءً».

يوبيل السجون

يوم ٢٤ حزيران، وجّه رسالةً، بمناسبة «اليوبيل في السجون»، جاء فيها:

«في إطار هذه السنة المقدّسة، لم يكن ممكنًا إغفال يوم «اليوبيل في السجون». فأبواب هذه الأماكن لا يمكن أن تستثني من فوائد هذا الحدث من هم مُكرَهون على قضاء قسطٍ من حياتهم داخل جدرانها.

«إذ أجيل فكري بهؤلاء الإخوة والأخوات، أتمنّى، أوّلاً، أن يتمكّن القائم من الموت، الذي دخل إلى العلّيّة، فيما كانت أبوابها موصدةً، من ولوج سجون العالم، وأن يلقى ترحيبًا في القلوب، كي يؤتي الجميع السلام، والطمأنينة.

«لقد ابتغى يسوع التقاء الإنسان كي يخلّصه. فالخلاص يُقدَّم ولا يُفرَض. والمسيح ينتظر من الإنسان قبولاً واثقًا، وإشراع فكره على قراراتٍ سخيّةٍ كفيلةٍ بإصلاح الشرّ المرتكب، والاندفاع نحو الخير. قد يطول هذا الدرب، ولكنّه حافلٌ بالإثارة حقًا، لأنّ المرء لا يجتازه وحيدًا، بل يرافقه المسيح نفسه، ويدعمه بعونه. إنّ يسوع رفيق دربٍ صبورٌ، يحترم توقيت القلب البشريّ ووتيرته، ومع ذلك لا يني يشجّع كلّ إنسانٍ على انتهاج الدرب الذي يقود إلى الخلاص.

«إنّ القابع في السجن يفكّر، بندمٍ أو بتأنيب ضميرٍ، بالزمن الذي كان فيه ينعم بالحرّيّة؛ ويرهقه الوقت الحاضر الذي يبدو وكأنّ لا نهاية له. وإنّ من شأن خبرة إيمانٍ منيعةٍ أن توفّر عونًا حاسمًا للحاجة الإنسانيّة إلى بلوغ توازنٍ داخليٍّ، حتّى في هذا الوضع العصيب. وهذا هو أحد عناصر قيمة اليوبيل في السجون، فالخبرة اليوبيليّة المعاشة وراء القضبان، بوسعها أن تقود إلى آفاقٍ إنسانيّةٍ وروحيّةٍ غير متوقّعةٍ.

«على السجين ألاّ يعيش زمن أسره كما لو كان قد سُلب منه سلبًا كلّيًّا. فحتّى الزمن الذي يُقضى في السجن هو زمن الله، وينبغي أن يُعاش على هذا الأساس، وأن يُقدَّم لله على أنّه فرصة حقيقةٍ، واتّضاعٍ، وكفّارةٍ، وإيمانٍ، أيضًا».

في الختام ناشد المسجونين: «**دعوني، إذن، أدعوكم إلى السعي، بكلّ طاقاتكم، نحو حياةٍ جديدةٍ، من خلال التقاء المسيح. وسيسعد المجتمع بأسره، لنهجكم هذا. وحتّى الأشخاص الذين سبّبتم لهم آلامًا قد يشعرون بأنّ تحوّلكم الداخليّ قد حقّق العدالة التي طالبوا بها أكثر من العقاب الذي عانيتموه**».

ثمّ يوم ٩ تمّوز، وفي نفس الإطار، زار قداسته أحد سجون روما واحتفل فيه بقدّاسٍ، وقال، في عظته: «**سيكون للعقاب والسجن معنًى، عندما، إلى جانب تأكيدهما مقتضيات العدل، وردع الجريمة، يحقّقان تجدّد الإنسان، بتقديمهما لمن ارتكب خطأً، إمكانيّة إعمال الفكر، وتغيير سلوكه، كي يندمج، من جديدٍ، اندماجًا كاملاً في المجتمع**».

بمناسبة عيد القدّيسين بطرس وبولس، **٢٩** حزيران، استقبل، جريًا على التقليد، وفد البطريرك المسكونيّ الأرثوذكسيّ «برتلماوس الأوّل»، وصرّح: «**لقد تركت أحداث التاريخ المأسويّة إرثًا محزنًا في وجدان ونفسيّة الكاثوليكيّين والأرثوذكسيّين على السواء. وإنّي أوكل إلى رحمة الله، كلّ عملٍ مخالفٍ لمشيئة الله، كان أبناء وبنات الكنيسة الكاثوليكيّة مسؤولين عنه... فلنكتب، خلال الألفيّة الثالثة، تاريخًا جديدًا، تاريخ حبٍّ أخويٍّ، واحترامٍ، وتعاونٍ**».

وفي ذلك اليوم عينه، وجّه رسالةً إلى مؤمني نابولي، عن دور العذراء في حياة المسيحيّين، جاء فيها:

«**في أثناء حجّنا الأرضيّ، مريم هي «عمود النار»، الذي ذكره الكتاب المقدّس، والذي ينير دربنا. إنّها النجمة التي تهدينا إلى الوطن السماويّ، المرفأ الآمن حيث نجد الملجأ والعزاء. إنّ المؤمنين الذين يسيرون بقيادتها، يتقدّمون بثقة، وهم مدركون حضورها العذب، الذي يفضي إلى المسيح. فنحن، من خلال الأُمّ، نلتقي ابنها يسوع، ومتشدّدين بأزره نتحرّر من الخوف حيال المصاعب، ونشعر أنّنا متأهّبون، دائمًا، للاستجابة بسخاءٍ، لعمل الروح القدس.**

«**إنّ مريم، أمّ الكنيسة، وأمّ الوحدة والرجاء، والحبّ، تسير معنا**».

المؤسّسات الخيريّة

يوم الرابع من تمّوز استقبل المسؤولين عن المؤسّسات الخيريّة الحبريّة، وقال: «**إنّنا نرحّب بالجهود الرامية إلى مساعدة البشر الذين يواجهون مصاعب، على استعادة كرامتهم الإنسانيّة. إنّ كلّ إسهامٍ في تقدّم أفرادٍ وشعوبٍ يسحقهم المرض والفقر، اجتماعيًّا، هو عملٌ حميدٌ. فعندما يأخذ مسيحيّون على عاتقهم، آلام ومشاكل إخوتهم وأخواتهم، الفقراء والمعوزين، هم يرغبون، على نحوٍ خاصٍّ، في مساعدتهم على الشعور بأنّ الله يحبّهم، ويريد أن يكونوا صنّاع نموّهم الذاتيّ. إنّ الذين يعملون، داخل الكنيسة، في مضمار المحبّة، هم أكثر من مجرّد مساعدين اجتماعيّين. إنّهم شهودٌ حقيقيّون**».

يوبيل الأطبّاء الكاثوليكيّين، حلّ يوم ٧ تمّوز. وكان الأطبّاء قد مهّدوا له بمؤتمرٍ عُقِد في روما، تحت شعار «الطبّ وحقوق الإنسان». واستقبلهم يوحنّا بولس الثاني، وخاطبهم قائلاً:

«**في النشاط الذي تمارسونه، تؤدّون، كلّ يومٍ، خدمةً نبيلةً للحياة. إنّ رسالتكم الطبّيّة تجعلكم على اتّصالٍ يوميٍّ مع حقيقة الحياة البشريّة، الحافلة بالسرّ والروعة، وتضع على عاتقكم آلام وآمال طائفةٍ عريضةٍ من الإخوة والأخوات.**

«**ومن خلال مهنتكم تلمسون أنّ العناية الطبّيّة، والخدمات التقنيّة لا تكفي، حتّى عندما تؤدّى بمهنيّةٍ مثاليّةٍ، إذ لا بدّ من تزويد المريض بطبٍّ روحيٍّ خاصٍّ، يتكوّن من حرارة علاقةٍ إنسانيّةٍ صادقةٍ، كفيلةٍ بأن تعيد للمريض حبّ الحياة، وتشجّعه على الكفاح لهذه الغاية، بواسطة جهدٍ داخليٍّ، قد يكون حاسمًا للشفاء.**

«**فالمريض لا يحتاج فقط إلى استعادة عافيةٍ جسديّةٍ، بل هو يحتاج، أيضًا، إلى عافيةٍ نفسيّةٍ، وهذا يستلزم من الطبيب، فضلاً عن الكفاءة المهنيّة، موقف عطفٍ واهتمامٍ مستوحًى من صورة السامريّ العطوف الإنجيليّة. وبالقرب من كلّ إنسانٍ متألّمٍ، الطبيب الكاثوليكيّ مدعوٌّ لأن يكون شاهدًا على هذه القيَم السامية، التي تستمدّ من الإيمان قاعدةً صلبةً.**

«**فيما ندخل إلى الألفيّة الثالثة، ما برح رجالٌ ونساءٌ، ولا سيّما في البلدان الفقيرة، يفتقرون إلى الخدمات الصحّيّة، وإلى العلاجات الأساسيّة. وبالتالي، يهلك العديدون من إخوتنا وأخواتنا، ضحايا أمراضٍ مختلفةٍ، وسط لامبالاةٍ عامّةٍ من قِبَل من يستطيعون،**

ويتوجّب عليهم، أن يمدّوا يد العون. فليتأثّر قلبكم بهذه النداءات الصامتة... مهمّتكم تفرض عليكم بذل ذواتكم بلا حسابٍ، لكي ينعم كلّ فردٍ بحقّه الأساسيّ بالعناية الصحّيّة الضروريّة، وبالمعونة الطبّيّة الملائمة، أيًّا كان وضعه الاجتماعيّ والاقتصاديّ».

تلبيةً لرغبة البطريرك الأرثوذكسيّ «برتلماوس الأوّل» تمّ احتفالٌ مسكونيٌّ في كنيسة «اللاتران» بروما، يوم عيد التجلّي، ٥ آب.

وفي الحادي عشر من آب، عُرض الكفن المقدّس، في مدينة «تورينو». وتقاطر لمشاهدته أكثر من مليونٍ وثلاث مئة حاجٍّ.

أيّام الشبيبة العالميّة، ١٨ حتّى ٢٠ آب ٢٠٠٠

يوم ١٤ آب افتُتحت أيّام الشبيبة العالميّة الخامسة عشرة، لعام ٢٠٠٠. وبهذه المناسبة التفّ حول يوحنّا بولس الثاني أكثر من مليوني شابٍّ وشابّةٍ. وبما أنّ ساحة القدّيس بطرس لم تكن تتّسع لكلّ هذا الحشد، فقد قسِّم المشتركون إلى فئتين، فئةٍ ضمّت الشبيبة الإيطاليّة، وأُخرى ضمّت الشبيبة الوافدة من مختلف أرجاء المسكونة.

واستقبل يوحنّا بولس الثاني، أوّلاً، الشبيبة الإيطاليّة، في فناء كاتدرائيّة القدّيس يوحنّا، باللاتران، وذكّرهم بقوله، يوم تنصيبه: «**لا تخافوا، افتحوا الأبواب واسعةً للمسيح! افتحوا قلوبكم، وحياتكم، وشكوككم، ومصاعبكم، وأفراحكم، وعواطفكم لقوّته المخلّصة، ودعوه يدخل إلى قلوبكم... أجل دعوا المسيح يملك على حيواتكم الفتيّة. اخدموه بحبٍّ. إنّ الحرّيّة هي خدمة المسيح.**

«**ولنستهلّ هذه الأيّام تحت أنظار العذراء مريم، كلّيّة القداسة، التي نتأمّلها، اليوم، صاعدةً إلى السماء. وليساعدكم مثال عذراء الناصرة الشابّة التي قالت «نَعَم» للربّ الذي يقرع بابكم، راغبًا في الدخول، والإقامة بين ظهرانيكم...**».

بعدئذٍ هرع للقاء شبيبة العالم الذين كانوا ينتظرونه في ساحة القدّيس بطرس، وسألهم: «**عمّن جئتم تبحثون؟ لا ريب أنّكم جئتم تبحثون عن يسوع المسيح. ولكنّ يسوع هو الذي يبادر، أوّلاً، باحثًا عنكم.**

«أمامكم، يا أصدقائي الشباب، أرغب في الشهادة لإيماني، عند قبر القدّيس بطرس... اليوم، أودّ أن أُقرّ أمامكم أنّني أومن، إيمانًا راسخًا، بالمسيح يسوع ربّنا. أجل، أؤمن به، وأتبنّى أقوال الرسول بولس: «إن كنت أحيا، الآن، في الجسد، فإنّي أحيا في الإيمان بابن الله الذي أحبّني، وبذل نفسه عنّي.

«أعزّائي الشبّان: شبابًا وشابّات، لا ترتضوا أن يكرّ الوقت الذي يهبكم الربّ إيّاه، ولكأنّ كلّ شيءٍ كان صدفةً. لقد قال القدّيس يوحنّا إنّ كلّ شيءٍ قد تمّ في المسيح. آمنوا، إذن، به، إيمانًا صامدًا. فهو يقود تاريخ الأشخاص، وتاريخ البشريّة. من المؤكّد أنّه يحترم حرّيّتنا، ولكنّه، في كلّ ظروف الحياة السعيدة أو المريرة، لا ينِي يطلب منّا أن نؤمن به وبكلامه، وبواقع الكنيسة، وبالحياة الأبديّة.

«ينبغي ألاّ يخطر ببالكم، أبدًا، أنّكم، في نظره مجهولون، وأرقامٌ وسط جماعةٍ مغفَلةٍ. فكلٌّ منكم ثمينٌ للمسيح، وكلٌّ معروفٌ لديه شخصيًّا، ومحبوبٌ برقّةٍ، حتّى إن لم يعِ ذلك... دعوا الروح القدس يصوغكم. واختبروا الصلاة، متيحين للروح أن يحدّث قلبكم. الصلاة تعني تكريس قليلٍ من وقتكم للمسيح، وإيكال ذواتكم له، والإصغاء الصامت إلى كلامه، وجعله يدوّي في قلبكم».

وحيّا الشبّان القادمين من مئةٍ وستّين دولةً، مسمّيًا كلاً من هذه الدول باسمها. وأنهى خطابه بقوله:

«أحيّي، بمحبّةٍ خاصّةٍ، مجموعة الشبّان القادمين من بلدانٍ، حيث ما زال الحقد والعنف والحرب تطبع بالألم حياة شعوبٍ بكاملها. بتضامنكم جميعًا، أصبح ممكنًا وجودهم هنا، هذا المساء. باسمكم، أيضًا، أؤكّد لهم قربهم الأخويّ من جميعنا، ومعكم أرجو لهم، ولشعوبهم، أيّام سلامٍ في العدل والحرّيّة».

يوم ١٨ آب احتفلت الشبيبة بدرب صليبٍ عملاقٍ في شوارع روما. وبلغت أيّام الشبيبة قمّتها ليلة **١٩** آب، بإحياء سهرة صلاةٍ في مكانٍ فسيحٍ، بمنطقة «تور ڤيرغاتا»، في ضاحية روما، حيث خاطب البابا مليوني شابٍّ وشابّةٍ، وكان موضوع عظته سؤال يسوع: «من تقولون، أنتم، إنّني هو؟» فقال:

«إنّ الإيمان هو جواب إنسانٍ عاقلٍ وحرٍّ على كلام الله الحيّ. جوابٌ يمتحن نضوج الإيمان.

«اليوم، أيضًا، الإيمان بيسوع، واتّباع يسوع على خطى بطرس وتوما والرسُل،

والشهود الأوائل يقتضيان الانتماء إليه، وليس نادرًا أن يكون هذا الانتماء استشهادًا، استشهادًا يُقدم عليه، اليوم كما في الأمس، كلّ مدعوٍّ إلى السير عكس التيّار، بغية اتّباع المعلّم الإلهيّ. قد لا يُطلب منكم سفك دمكم، ولكن من المؤكّد، يُطلَب منكم الوفاء للمسيح، في حياتكم اليوميّة.

«في عالمٍ مثل عالمنا، هل الإيمان صعبٌ؟ أجل، لا يمكن إنكار أنّه صعبٌ. ولكنّه ممكنٌ، بعون النعمة، كما فسّر يسوع لبطرس: «ليس اللحم والدم كشفا لك هذا، بل أبي الذي في السموات».

«إنّ يسوع هو من تبحثون عنه، عندما تحلمون بالسعادة، وهو الذي ينتظركم عندما لا شيء ممّا عثرتم عليه يرضيكم. هو الجمال الذي يجتذبكم بقوّةٍ. هو الذي يستثير عطشكم حتّى الحدود القصوى، ويمنعكم من اعتياد التسويات. هو الذي يدفعكم إلى إسقاط الأقنعة التي تشوّه الحياة، هو الذي يقرأ، في حياتكم، القرارات الأكثر جرأةً، التي يجهد الآخرون في خنقها، هو الذي يفجّر فيكم الرغبة في جعل حياتكم شيئًا عظيمًا، وإرادة الالتزام بمثلٍ أعلى، ورفض الخضوع والرداءة، وجرأة التصميم، بتواضعٍ ومثابرةٍ، على الترقّي في معارج الكمال، وعلى تحسين أوضاع المجتمع، بجعله أوفر إنسانيّةً، وإخاءً، هو، يسوع».

واختتم خطابه بقوله: «**ثمّة مثل بولونيٌّ يقول: «إن عشت مع الشباب، أصبحت أنت، أيضًا، شابًّا. وهكذا سأعود وقد استعدتُ شبابي».**

صباح الأحد، ٢٠ آب، ترأّس البابا الاحتفال بالقدّاس الختاميّ، حضره أكثر من مليوني شابٍّ وشابّةٍ، وشارك به ٣٤ كردينالاً، وستّ مئة أسقفٍ ورئيس أساقفةٍ، وأكثر من ستّة آلاف كاهنٍ، وتناولت عظته قول بطرس ليسوع: «إلى من نذهب، يا ربّ؟ إنّ عندك كلام الحياة الأبديّة!». فقال:

«أقوالٌ كثيرةٌ تدوّي من حولكم، ولكنّ المسيح، وحده، يملك الكلمات التي تقاوم اهتراء الزمن، وتصمد إلى الأبد...

«إنّكم تجيلون فكركم في خياركم العاطفيّ، وما يهمّكم في الحياة هو الشخص الذي تقرّرون اتّخاذه شريك حياةٍ. ولكن حذارِ! كلّ كائنٍ بشريٍّ هو، حتمًا، محدودٌ... وحده يسوع الناصريّ ابن الله وابن مريم، كلمة الآب الأزليّ، الذي

وُلد في بيت لحم منذ ألفي عامٍ، هو القادر على إرضاء أعمق تطلّعات القلب البشريّ...

«**في الذبيحة الإفخارستيّة يمكننا الاتّصال بشخص هذا المعلّم الإلهيّ، سرّيًّا، وواقعيًّا، وأن ننهل من حياة ذاك الذي قهر الموت. الإفخارستيّا هي سرّ حضور المسيح الذي يهبنا ذاته لأنّه يحبّنا، يحبّ كلاًّ منّا حبًّا شخصيًّا فريدًا. أجل، أيّها الأصدقاء الأعزّاء، إنّ المسيح يحبّنا، وحبّه لنا دائمٌ. يحبّنا حتّى عندما نخيّب رجاءه فينا، ولا نتوافق مع ما ينتظره منّا، ولا يغلق لنا، أبدًا، ذراعي رحمته. فكيف لا نعترف بجميل هذا الإله الذي افتدانا، بمضيّه حتّى جنون الصليب؟ هذا الإله وقف إلى جانبنا، وظلّ واقفًا حتّى نهاية الشوط.**

«**الاحتفال بالإفخارستيّا يعني قبول منطق الصليب والخدمة، أي الشهادة من خلال الجاهزيّة للتضحية بالذات عن الآخرين، مثل ما فعله هو نفسه.**

«**إنّ مجتمعنا يحتاج، حاجةً ملحّةً، لهذه الشهادة، والشبيبة تحتاج إليها أكثر من أيّ وقتٍ سالفٍ، لأنّها غالبًا ما تستسلم لإغراء سراب حياةٍ سهلةٍ ومريحةٍ، عن طريق المخدّرات والمتعة، ثمّ تجد ذاتها وسط دوّامة القنوط، والعبثيّ، والعنف. فلا مناص من تغيير النهج باتّجاه المسيح، أي باتّجاه العدل والتضامن والالتزام من أجل مجتمعٍ ومستقبلٍ جديرين بالإنسان...**

«**أنتم قلب الكنيسة الشابّ، انطلقوا إلى العالم، واجلبوا له السلام. المسيح قام، وهو يسير معكم. كونوا له شهودًا وسط أبناء جيلكم الشباب، عند فجر الألفيّة الجديدة**».

واختتم البابا خطابه بقولٍ مقتبسٍ من القدّيسة كاترينا السييناويّة: «**إن كنتم ما يجب أن تكونوا، فستضرمون العالم أجمع**».

مشاهد من سهرة «تور ڤيرغاتا»

حفلت سهرة صلاة الشبيبة العالميّة، ليلة ٨/١٩ بالرجاء، والبهجة، والروعة، والتأثّر، وألقى فيها يوحنّا بولس الثاني بعضًا من أعمق خطاباته معنًى، وأبعدها نفاذًا في النفوس.

وكان مليونا مصباحٍ كهربائيٍّ قد حوّلا مكان اللقاء إلى مهرجان أنوارٍ ساحرٍ، ودُوِّنت، على التوالي، عناوين كلّ موضوعٍ يناقش، وكلّ شهادةٍ تُؤدَّى، في سماء المكان بأحرفٍ من نورٍ.

أمّا «الإيقونة» الأبلغ تأثيرًا، فقد رسمها البابا، الذي ترجّل في منتصف مشواره وسط الساحة الفسيحة، وأمسك بأيدي خمسة شبّانٍ يمثّلون القارّات الخمس، واجتاز، سيرًا على الأقدام، «باب اليوبيل»، وتحت قوس ذلك الباب، الذي يعلوه تمثالٌ جسيمٌ للمسيح، مصنوعٌ من البرونز، حثّ البابا خطاه، ولكأنّه يجرّ الشبّان الخمسة في إثره، فخورًا باقتياد أبنائه من أيديهم. وخفقت قلوب مليوني شابٍّ وشابّةٍ، حيال القوّة المنبعثة من ذلك المشهد، والتمعت ملايين العيون دهشةً وتأثّرًا.

وحفلت تلك الليلة بالعناق، وكان أعمقها تأثيرًا عناق يوحنّا بولس الثاني لشابٍّ أنغوليٍّ، في الخامسة والعشرين، كان قد ترعرع، يومًا فيومًا، في جوّ حربٍ طاحنةٍ، وراء بيت ذويه؛ وكان قد فقد والديه، منذ عشر سنواتٍ، ومع ذلك خلا صوته من الحقد، عندما أعلن، أمام البابا، وأمام رفاقه المنصتين بصمتٍ: «لقد غفرت للقتلة». ولمّا دنا من البابا، شدّه الحبر الأعظم بين ذراعيه بقوّةٍ، فدوّى التصفيق. وفيما استمرّت لحظات العناق طويلةً، كثيفةً، مثقلةً بالتأثّر، رسمت الأضواء، في الجوّ لفظة «**غفران**».

ثمّ جاء دور الفتاة الرومانيّة، المنتمية إلى طائفة الروم الكاثوليك، التي ذكّرت بحقبة طفولتها، عندما كان الاضطهاد يمنعها من ممارسة إيمانها بحرّيّةٍ، ودوّنت الأضواء على صفحة السماء، لفظة «حرّيّة»، فيما عبّر راقصون، بحركاتهم، عن الحرّيّة. ثمّ روت الفتاة «ستيفاني» لقاءاتها ومراسلاتها مع عدّة محكومين بالإعدام. وقدّم الشهادة الأخيرة الشابّ الإيطاليّ «مسّيميليانو»، الذي تحدّث عن «القداسة»، بصفتها صبوّ حياةٍ واقعيّةٍ، وحينئذٍ واكب عشرة شبّانٍ حاملين مشاعل ومباخر، شابًّا آخر إلى المذبح، حيث تلا مقطعًا من إنجيل متّى حيث استوضح يسوع تلاميذه عمّن يقول الناس، وعمّن هم يقولونه إنّه هو، وجواب بطرس: «أنت هو المسيح ابن الله الحيّ».

وكانت عناقاتٌ غير متوقّعةٍ. فقد تسلّقت فتاةٌ سلّم المنصّة، وارتمت بين ذراعي البابا، وكذلك فعل صبيٌّ أرجنتينيٌّ في الخامسة عشرة، تسلّل إلى كرسيّ البابا، وارتمى إلى عنقه، وهمس بضع كلماتٍ في أُذنه، ثمّ التفت إلى الجمهور سعيدًا، معتزًّا.

وحينئذٍ تقدّم من البابا شابٌّ من بنغلاديش، وفتاةٌ من أوغندا، وشابٌّ مكسيكيٌّ وفتاةٌ دانمركيّةٌ، وشابٌّ أوستراليٌّ، وتسلّم كلٌّ منهم من يد الحبر الأعظم، إنجيل الحياة، وإثر ذلك، استخرج كلٌّ من الشبّان الحاضرين، من محفظته، نسخةً من الإنجيل ودوّن على صفحتها الأولى إهداءً للجالس إلى جانبه، وأعطاه إيّاه، وعانق الجميع بعضهم بعضًا، معانقةً إيمانيّةً.

ثم تقدّم من الحبر الأعظم خمسة شبّانٍ آخرين من «ماكّاو» و«بينان» و«كولومبيا» و«تشيكيا» و«نيوزيلاندا»، وبيد كلٍّ منهم مشعلٌ أشعله البابا بواسطة شمعةٍ، وفي الحال أُشعلت أكثر من مليوني شمعةٍ في الملعب الفسيح، الذي أمسى مرآةً للسماء المتلألئة بالنجوم.

وقد كتب شابٌّ فرنسيٌّ شارك في احتفالات تلك الليلة:

«إن كانت هناك كلمةٌ ملائمةٌ كفيلةٌ باختزال أيّام الشبيبة العالميّة، فهي كلمة الفرح. فرح اكتشاف إحدى أجمل مدن العالم، فرح التقاء شبّانٍ إيطاليّين، وفرنسيّين، وأفريقيّين، وكنديّين... قاسمُهم المشترك كونهم شبابًا، ومؤمنين، ومبتسمين؛ الفرح الغامر الجماعيّ بمشاركة الحشود هتافها للبابا، الذي بدا أنّ فرحنا قد لاشى تعبه؛ فرح نسيان المضايقة والازدحام مع عشرات ركّاب تراموايٍ مكتظٍّ، من خلال ترتيل، هلليويا»؛ الفرح الساجي المطمئنّ المنبعث، بعد ظهر أحد الأيّام، من صلاة جماعة «تيزيه»، الفرح المفعم سلامًا، المقتنص من لحظة نعمةٍ، لدى سماع نغمات أُرغن تملأ سماء كنيسةٍ...

«أجل، هذه الأيّام العالميّة هي أيّام الفرح العالميّ. اليوم، أنا سعيدٌ وفخورٌ بكوني مؤمنًا»...

وبعد بضعة أيّامٍ، صرّح البابا، في أثناء لقائه حجّاجًا:

«أعود بالفكر إلى هذا اللقاء المدهش حقًّا، والذي تخطّى كلّ توقّعٍ، وتساورني رغبةٌ حارّةٌ في أن أؤكّد، ثانيةً، لهؤلاء الشبّان فرحي باستقبالهم. وما زلت أحتفظ بالتأثّر العميق الذي خلّفته فيّ مشاركتي في «تور ڤيرغاتا»، بسهرة مساء السبت، وترؤّسي، في اليوم التالي، الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة الختاميّة. عندما حلّقتُ، بالمروحيّة، فوق تلك المنطقة، أُعجبتُ، من فوق، بمشهدٍ فريدٍ مؤثّرٍ: مسرحٍ فسيحٍ يضجّ بقومٍ مبتهجين، وسعيدين بكونهم معًا، ولن يسعني، أبدًا، نسيان اندفاعِ أولئك الشباب. ولكم وددتُ أن أقبّلهم جميعهم، وأعبّر لكلٍّ منهم عن المحبّة التي تشدّني إلى شبيبة حقبتنا، التي يوكل إليها الربّ رسالةً كبرى لخدمة حضارة الحبّ.

«لقد تميّزت تلك الأيّام باكتشاف حضورٍ صديقٍ ووفيٍّ، حضور المسيح...

هشاشة الشبيبة لا تخيفني، لأنّهم يعتمدون على حبّ الآب السماويّ، وعلى رحمته، فهو يؤازرهم في حياتهم اليوميّة. وفي ما يتخطّى الاعتبارات العرقيّة والثقافيّة، يشعرون أنّهم إخوةٌ يجمعهم إيمانٌ واحدٌ، ورجاءٌ واحدٌ، ورسالةٌ واحدةٌ: إلهاب العالم بحبّ الله. إنّهم ينشدون معنًى، وعلّة رجاءٍ، ويعانون جوعًا إلى خبراتٍ روحيّةٍ حقيقيّةٍ.

«أودّ أن أكرّر على مسامع جميع الشبّان: كونوا فخورين بالرسالة التي أوكلها إليكم الربّ، وأدّوها خير أداءٍ، بمثابرةٍ متواضعةٍ وسخيّةٍ، وليدعمكم عون مريم العذراء الأُموميّ! المسيح والكنيسة يعتمدان عليكم!».

طوباويّون جددٌ

يوم الأحد، الثالث من أيلول، طوّب البابا خمسة خدّامٍ للربّ: الباباوين پيّوس التاسع، ويوحنّا الثالث والعشرين، و«توماسّو ريجّيو» (Reggio)، رئيس أساقفة جنوى، ومؤسّس جمعيّة «الإخوة المريميّين» الأب «غيّوم جوزيف شاميناد»، والراهب البينيدكتيّ «كولومبا مارميون».

وجاء في عظة البابا قوله:

«لكلٍّ منهم طبعه ورسالته، ولكن يجمعهم الصبوّ إلى القداسة. والقداسة تُعاش في التاريخ. وما من قدّيسٍ يفلت من القيود والحدود المتعلّقة ببشريّتنا. وعندما تطوّب الكنيسة أحد أبنائها، فهي لا تشيد بخياراته التاريخيّة الشخصيّة، ولكنّها تشير إلى

طريقة الاقتداء به، وتكريمه من أجل فضائله، معبّرةً، بذلك، عن تمجيدها للنعمة الإلهيّة التي تسطع من خلال هذه الفضائل».

البابا پيّوس التاسع هو الذي أطلق المجمع الڤاتيكانيّ الأوّل، وهو الذي أعلن عقيدة «الحبل بلا دنسٍ»، وعنه قال يوحنّا بولس الثاني:

«**في مواجهة أحداث زمانه المضطربة، كان مثالاً في الالتزام اللامشروط بوديعة حقائق الوحي الثابتة. وقد أولى، دائمًا، الأولويّة المطلقة لله، وللقِيَم الروحيّة. حبريّته الطويلة لم تكن سهلةً، واضطرّ إلى معاناة الكثير من الألم في أداء رسالته لخدمة الإنجيل. أحبّ بعمقٍ، ولكنّه كان موضع بغضٍ وشتيمةٍ. غير أنّ وسط هذه التناقضات سطع نور فضائله، ودعمت المحن المتمادية ثقته بالعناية الإلهيّة التي لم يساوره، قطّ، شكٌّ في سيادتها على التاريخ البشريّ. ومن هذه الثقة نبع سجوّ نفسه العميق في مواجهته مواقف اللاتفاهم، وتهجّمات الأعداء العديدة... وفي ساعات المِحَن، حظي بدعم العذراء، التي كان يكرّمها تكريمًا عظيمًا**».

وعن البابا يوحنّا الثالث والعشرين، قال:

«**لقد أدهش العالم بدماثة طبعه، حيث تجلّت طيبة نفسٍ فريدةٌ. وكان قد دوّن، في يوميّاته، عام ١٩٥٩: «لا يغيب البابا پيّوس عن فكري. وفيما أتمثّل بتضحياته، أودّ أن أكون جديرًا بالاحتفال بتطويبه». لقد خلّف البابا يوحنّا الثالث والعشرون، في ذاكرة الجميع، صورة وجهٍ باشٍّ، وذراعين مشرعتين لمعانقة العالم أجمع. إنّ نفحة التجديد التي جاء بها لم تتعلّق بالعقيدة، بل بأسلوب عرضها. وكان لطريقة كلامه وسلوكه، أسلوبٌ جديدٌ، وموقف تعاطفٍ محبّبٌ جديدٌ، يقارب به عامّة الناس، وعظماء العالم، على السواء... ومدفوعًا بهذا الروح أطلق المجمع المسكونيّ الثاني، ودشّن به صفحةً قشيبةً في تاريخ الكنيسة. وكان المجمع، حقًّا، حدْسًا نبويًّا، افتتح به ذلك الحبر المسنّ، وسط مصاعب جمّةٍ، موسم رجاءٍ للكنيسة وللبشريّة**».

وأوجز رسالة الأُسقف «توماسّو ريجّيو» بكلمتين: «**حقيقةٌ ومحبّةٌ**».

وعن الأب «شاميناد» مؤسّس جمعيّة «الأخوة المريميّين» قال إنّه نموذجٌ للمؤمنين الذين يبتدعون طرقًا جديدةً في الشهادة للإيمان، فقد دعا كلّ مسيحيٍّ إلى التجذّر في عماده، كي يتمثّل بالربّ يسوع، ويتلقّى الروح القدس.

أمّا الراهب البينيدكتيّ الإيرلنديّ «كولومبا مارميون»، فقال عنه إنّه خلّف كنزًا

روحيًّا حقيقيًّا من التعليم الروحي. فقد أرشد إلى طريق قداسةٍ بسيطٍ ولكنّه كثير الاقتضاء.

وأشار الحبر الأعظم إلى تميّز المطوّبين الخمسة الجدُد، بتكريمهم الفائق للعذراء.

وفي اليوم التالي، خطب في الجموع التي توافدت للاحتفال بالتطويب، فقال عن البابا پيّوس التاسع:

«لقد أحبّ الجميع، بسبب طبيعته الأبويّة. كان يحبّ أن يعظ مثل أيّ كاهنٍ بسيطٍ، وأن يمنح الأسرار في الكنائس، والمستشفيات، والتقاء شعب روما في الطرقات. ولم يفهمه العالم دائمًا، وسرعان ما أعقبت هتافات «هوشعنا» التي قابلوه بها، أوّلاً، اتّهاماتٌ، وهجاءاتٌ، وافتراءاتٌ. ومع ذلك، لم يتقاعس أبدًا عن مسامحة أعدائه. وقد ساعده روح الفقر، والإيمان بالله، واستسلامه للعناية الإلهيّة، المقترنة بروح فكاهةٍ حادٍّ، على تجاوز أقسى اللحظات صعوبةً. وقد أَلِف القول: «إنّ سياستي هي «أبانا الذي في السماوات»»، مشيرًا، بذلك، إلى أنّ دليل خيارات حياته، في قيادة الكنيسة هو ثقةٌ كلّيّةٌ بالله. وقد مارس، أيضًا، استسلامًا بنويًّا بين يدي العذراء مريم، التي أعلن عقيدة الحبل بها بلا دنسٍ».

وعن البابا يوحنّا الثالث والعشرين قال: **«إنّه قرن الفضائل المسيحيّة بمعرفةٍ عميقةٍ للبشريّة، في أضوائها وظلالها. وقد دعمه، في هذا السياق، ولعه الطويل بالتاريخ... وقد كتب لذويه: «ما زال القليل الذي تلقّنته منكم في البيت هو الأثمن، والأهمّ، وهو يدعمني ويبعث دفئًا في كلّ ما تعلّمته لاحقًا»، وكلّما تقدّم في الحياة وفي القداسة، كان يزداد اكتسابًا لقلوب الجميع بفضل بساطته وحكمته... ولم تصبه المِحَن بالاضطراب، بل ما انفكّ ينظر بتفاؤلٍ إلى مراحل الوجود المختلفة، قائلاً: «حسبنا الاهتمام بالحاضر على خير وجهٍ»».**

وعن الأسقف «توماسّو ريجّيو»، قال: «إنّ سرّ نشاطه الكثيف كان اتّصاله الدائم والعميق بالله. وكان قد كتب: «إنّني إكليريكيٌّ، فلا بدّ من أن أكون قدّيسًا، وأن أستخدم كلّ الوسائل المؤدّية إلى هذه الغاية. ومهما كانت الكلفة ينبغي أن أبلغها»».

ثمّ عدّد فضائل الطوباويّين الآخرين، ودعا إلى الاقتداء بهما.

الأساتذة الجامعيّون

يوم السبت، التاسع من أيلول، استقبل البابا المشاركين في «ملتقى الأساتذة الجامعيّين»، وجاء في خطبته: «**لقد اضطلعت الكنيسة بدورٍ تاريخيٍّ رفيع المستوى في ولادة الجامعات، وهي تنتظر منكم مساهمةً فعّالةً، كي تدخل هذه المؤسّسة في الألفيّة الثالثة محقّقةً هدفها ومهمّتها تحقيقًا كاملاً، أي الانفتاح على المعرفة، وهوى الحقيقة، والاهتمام بمستقبل الإنسان**».

التبنّي

وكان، في الخامس من أيلول، قد استقبل ممثّلي الأُسَر المتبنّية، التي أطلقت حركتها مرسلات المحبّة، وأسّستها، قبل خمسين سنةً، الأُمّ تيريزا. وتوافق هذا اللقاء مع الذكرى الثالثة لوفاة الأُمّ تيريزا، فأشاد البابا بمنجزاتها، وقال عنها:

«**إنّها ابنةٌ مميّزةٌ للكنيسة، وقد بذلت ذاتها كلّيًّا لأعمال المحبّة. مع كرّ السنين تظلّ حيّةً أكثر من أيّ وقتٍ. إنّنا نتذكّرها ببسمتها، وعينيها العميقتين، ويُخيّل إلينا أنّنا ما زلنا نراها تذرع دروب العالم، بحثًا عن أكثر الفقراء فقرًا، متأهّبةً، دائمًا، لافتتاح مجالات محبّةٍ جديدةٍ، مرحّبةً بالجميع ترحيب أُمٍّ.**

«**إنّ إطلاق اسم «أمٍّ» على الراهبة، هو، إلى حدٍّ ما، طبيعيٌّ. غير أنّ إطلاقه على الأُمّ تيريزا يرتدي كثافةً فريدةً. فميزة الأُمّ بذل ذاتها. ومراقبة الأُمّ تيريزا في ملامحها، وفي موقفها وسلوكها، يساعد على فهم ما كانت تعني لها الأُمومة، في ما يتخطّى البعد الجدّيّ الصرف. وقد مكّنها ذلك من الغوص إلى أعماق الأُمومة الروحيّة.**

«**نحن نعلم سرّها: كانت ممتلئةً بالمسيح، فكانت ترمق كلّ إنسانٍ بعيني المسيح وقلبه. ولذلك لم تكن تجد مشقّةً في «تبنّي» الفقراء بمثابة أبناءٍ لها. وكانت محبّتها فعليّةً وفاعلةً، تدفعها إلى حيث قليلون، حقًّا، يجرؤون على المضيّ، إلى حيث كان الفقر من الإدقاع بحيث يخيف. ولا عجب إن افتتن بها كثيرون من معاصرينا، إذ إنّها جسّدت الدليل الذي اتّخذه يسوع على هويّة تلاميذه... «إنّ تبنّي الأطفال واعتبارهم أبناءً طبيعيّين يعني الاعتراف بأنّ العلاقة بين الآباء والأبناء لا تقاس فقط**

من خلال معايير جينيّةٍ، فالحبّ الذي يولّده التبنّي هو، في المقام الأوّل، بذل ذاتٍ، هو إنجابٌ يتحقّق من خلال التقبّل، والعناية، والتفاني. والعلاقة الناجمة عنه هي من الحميميّة والدوام بحيث لا تتدنّى عن الانتماء البيولوجيّ».

الأديان دعوةٌ إلى التآخي

وبمناسبة تسلّمه أوراق اعتماد سفير جمهوريّة مصر. قال البابا:

«من المفارقات المحزنة، في عالمٍ يدمغه العنف بعمقٍ، أنّ بعض أكثر الخلافات خطورةً، تنشب، حتّى اليوم، بين مؤمنين بإلهٍ واحدٍ، يعتبرون إبراهيم أبًا قدّيسًا مشتركًا، ويجهدون في اتّباع الشريعة التي أُعطيت في سيناء. إنّ كلّ فعل عنفٍ يشدّد على ضرورة أن يعترف المسلمون والمسيحيّون، في كلّ بقعةٍ من العالم، بما هو مشتركٌ بينهم، وأن يشهدوا بأنّنا، جميعنا، خلائق الله الرحيم، وأن يتّفقوا، اتّفاقًا نهائيًّا، على أنّ اللجوء إلى العنف، باسم الدين، هو أمرٌ مرفوضٌ كلّيًّا. وخاصّةً عندما تتوافق الهويّة الثقافيّة والإثنيّة، يتوجّب على المؤمنين أن يعلنوا، ويضمنوا، ألاّ يستخدم الشعور الدينيّ مبرّرًا للعنف والصراع. فالدين هو عدوّ الإقصاء والتمييز، وهو البحث عن خير كلّ فردٍ، وينبغي، إذن، أن يكون حافزًا نحو التضامن والتناغم بين الأشخاص والشعوب».

البابا والأرمن

ويوم ١٤ أيلول استقبل البابا أعضاء الحجّ اليوبيليّ الذي نظّمته البطريركيّة الأرمنيّة الكاثوليكيّة، برئاسة البطريرك «نرسيس بدروس التاسع عشر ترموني» ومرافقيه. وبما أنّ ذلك اليوم كان يوافق عيد الصليب، فقد تمحور خطاب البابا حول مفارقة صليب المدانين، الذي كان مرادفًا للعار الأقصى، وللعذاب المذلّ، وأصبح للكنيسة تاج مجدٍ. وقال:

«من ألم الحبّ الذي يتعذّر وصفه، وُلدت القدرة التي انتصرت على الموت...

«إنّ الشعب الأرمنيّ يعرف الصليب جيّدًا، ويحمله محفورًا في قلبه. إنّه رمز هويّته، ومآسي تاريخه، ومجد نهضته، في أعقاب كلّ اعتداءٍ. في كلّ زمنٍ امتزج دم شهدائكم

بدم المصلوب. إنّ أجيالاً كاملةً من الأرمن، لم تتردّد في تقديم حياتها لكي لا تنكر إيمانها الذي، على حدّ قول أحد مؤرّخيكم، يخصّكم مثلما يخصّ لون البشرة».

ولم يقصر البابا كلامه على الكاثوليكيّين، بل أضاف: «**متخطّيًا الكاثوليكيّين منكم تمضي أنظاري وتحيّاتي إلى أبناء الكنيسة الأرمنيّة الرسوليّة. فليتأكّدوا أنّ بابا روما يتابع، باهتمامٍ بالغٍ، جهودهم في أن يكونوا «ملح الأرض، ونور العالم»، لعلّ العالم يؤمن، ويستعيد قدرة الرجاء والكفاح. إنّ الكنيسة الكاثوليكيّة عازمةٌ على دعم هذا الجهد، كما لو كان جهده الخاصّ، بالحبّ الذي يجمعنا كلّنا في المسيح**».

يوبيل المسنّين

وكان قد حُدّد تاريخ السابع عشر من أيلول للاحتفال بيوبيل المسنّين، أو ما يُسمّى الجيل الثالث. وأشار البابا إلى تنامي عدد المسنّين في العالم، تناميًا مطّردًا، وقال: «**إنّ الاحتفال بهذا اليوبيل يحثّنا على الاغتناء من خبرة المسنّين وحكمتهم، إذ إنّ هذه المرحلة من الحياة هي للكثيرين منهم فرصةٌ فريدةٌ لإعادة تنظيم حياتهم، ولتثمير ما حصدوه من خبراتٍ وطاقاتٍ... حتّى العمر المتقدّم هو وقت نعمةٍ، يدعو إلى الاتّحاد، بحبٍّ أشدّ كثافةً، بسرّ المسيح الفادي، وإلى مشاركةٍ، أكثر عمقًا، بمشروع خلاصه...**».

أمّا عن الآلام التي غالبًا ما تواكب هذه المرحلة من الحياة، فقال: «**إنّ آلام المسيح الفدائيّة تتضمّن الردّ على تحدّي الألم، إذ إنّ المسيح، بأخذه آلامنا على عاتقه، أضاءها، من خلال صليبه وقيامته، بنور رجاءٍ وحياةٍ جديدٍ**».

وخاطب قداسته المسنّين قائلاً:

«**في عالمٍ مثل عالمنا، حيث ترقى القوّة والقدرة، غالبًا، إلى مرتبة الأسطورة، يتوجّب عليكم الشهادة لقِيَمٍ لها وزنٌ حقيقيٌّ، في ما يتخطّى المظاهر، قيمٍ باقيةٍ، لأنّها مدوّنةٌ في قلب كلّ كائنٍ بشريٍّ، وتضمنها كلمة الله. عليكم أن تقدّموا مساهمةً نوعيّةً تؤدّي إلى إنماء «حضارة حياةٍ» حقيقيّةٍ، بشهادتكم أنّ كلّ لحظةٍ من الوجود هي هبةٌ إلهيّةٌ، وكلّ موسمٍ من الحياة البشريّة ينطوي على ثرواتٍ نوعيّةٍ يتوجّب وضعها بتصرّف الجميع.**

«يمكنكم أن تخبروا كيف يصبح الوقت الذي يكرّ محرَّرًا من همّ نشاطاتٍ متعدّدةٍ، فرصةً مؤاتيةً لتفكيرٍ أكثر عمقًا، ولحوارٍ أكثر تواترًا مع الله، من خلال الصلاة، وفضلاً عن ذلك باقتسامكم الخبرة الّتي أكسبتكم إيّاها التجارب، مع الأصغر منكم سنًّا، وبمؤازرتكم لهم على تذليل مصاعب النموّ، وبتكريسكم لهم الوقت والعناية، حين ينفتحون على المستقبل، ويبحثون عن درب حياتهم، يمكنكم أن تضطلعوا، لأجلهم، بمهمّةٍ ثمينةٍ، حقًّا.

«إخوتي وأخواتي الأعزّاء جدًّا، إنّ الكنيسة تنظر إليكم بكثيرٍ من الاحترام والثقة. الكنيسة تحتاج إليكم. والمجتمع المدنيّ، أيضًا، يحتاج إليكم. أحسنوا استخدام الوقت المتاح لكم، والمواهب التي منّ بها الله عليكم، استخدامًا سخيًّا، بانفتاحكم على مؤازرة الآخرين ومساندتهم... وكرّسوا وقتًا وطاقةً للصلاة، ولمطالعة كلام الله، وللتأمّل به».

المؤتمر المريميّ

صباح يوم الأحد، ٢٤ أيلول، ترأّس الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة، بمناسبة اختتام المؤتمر المريميّ الدوليّ، ويوبيل المزارات المريميّة العالميّ، وممّا قاله، في هذا السياق:

«بما أنّ مريم هي أُمّ الله، أمّ ابن الله الوحيد، فلا عجب أن تحظى بعلاقةٍ فريدةٍ بالآب والروح القدس. ولكنّ هذه العلاقة لم تجعلها، خلال حياتها على الأرض، في مأمنٍ من متاعب الوضع البشريّ. فقد عاشت مريم، بالكامل، الواقع اليوميّ الذي كانت تواجهه عامّة الأُسَر الوضيعة في زمانها، وعانت الفقر، والوجع، والهروب، والنفي، واللاتفاهم. إنّ عظمتها الروحيّة لا تبعدها عنّا. لقد اجتازت طريقنا، وتضامنت معنا في حجّنا الإيمانيّ. ولكنّها على هذا الدرب الداخليّ، مارست وفاءً مطلقًا لمقاصد الله. وفي هوّة هذا الوفاء، بالتحديد، تجذّرت هوّة عظمتها التي جعلتها «أكثر الخلائق تواضعًا وسموًّا».

ووجّه قداسته رسالةً إلى رؤساء البرلمانات الأوروبّيّة، جاء فيها:

«كلّما استمدّت أوروبّا من جذورها المسيحيّة مبادئ رؤاها الكبرى، تمكّنت من مباشرة مستقبلها باطمئنانٍ».

شهداء صينيّون وطوباويّون آخرون

في اليوم الأوّل من شهر تشرين الأوّل، وفي أثناء قدّاسٍ في ساحة القدّيس بطرس، طوّب البابا الكاهن الصينيّ الشهيد «أوغستان زاو رونغ» (Augustin Zhao Rong)، و١١٩ رفيقًا له، كما طوّب الراهبة الإسبانيّة ماريّا جوزيف قلب يسوع، مؤسّسة جمعيّة معهد خادمات يسوع، والراهبة الأميركيّة الأُمّ كاترينا دركسيل، مؤسّسة جمعيّة أخوات القربان المقدّس، وجيوزيپّينا بخيتا السودانيّة، التي اختُطفت، وبيعت، عبدةً، مرّاتٍ عديدةً، قبل أن يشتريها قنصلٌ إيطاليٌّ، ويأتي بها إلى مدينة «سكيو» (Schio) حيث عُمّدت وانتمت إلى معهد أخوات المحبّة.

وقد أشاد قداسته ببطولة شهداء الصين، الذين بذلوا دماءهم بسخاء، وفاءً للمسيح، بين العام ١٦٤٨ والعام ١٩٣٠، وقد ضمّت مجموعتهم أساقفةً وكهنةً أوروپّيّين، وعلمانيّين وعلمانيّاتٍ صينيّين، وبعضهم استشهد مع المرسلين الذين كانوا يلقّنونهم مبادئ الدين المسيحيّ، فكان استشهادهم دليلاً على عمق العلاقات التي يؤسّسها الإيمان بالمسيح، جامعًا في إطار أُسرةٍ واحدةٍ، أشخاصًا وأعراقًا، وثقافاتٍ متنوّعةً، وفي دين يبشّر بالحبّ، والإخاء، والسلام والعدل.

ولا بدّ من التنويه أنّ ذلك التطويب قد أثار سخط حكّام بكّين.

وأشاد يوحنّا بولس الثاني، أيضًا، بسيرة القداسة التي انتهجتها الراهبات الثلاث المطوّبات.

يوبيل الأساقفة

احتُفل بيوبيل الأساقفة بين السادس والتاسع من شهر تشرين الأوّل، وخاطب البابا الأساقفة، قائلاً: «**علينا أن نستعيد اندفاع العنصرة**». وبهذه المناسبة أعلن البابا ثقة المسيحيّين بسيّدة الورديّة، والتمس حمايتها للكنيسة وللعالم. ونُظّم تطوافٌ بتمثال سيّدة فاطمة، الذي أدخل الحبر الأعظم في إصبعه خاتمًا راعويًّا كان قد تلقّاه هديّةً من رئيس أساقفة پولونيا «ڤيشينسكي»، يوم انتخابه، مؤكّدًا

بذلك، شعاره «إنّي بكلّيّتي لكِ»، وتكريس ذاته للأمّ السماويّة. وتلا الأساقفة المجتمعون، معًا، المسبحة الورديّة، في ساحة القدّيس بطرس.

يوبيل الأُسَر

ويوم ١٠/١٤، استقبل قداسته ألوف الأُسَر القادمة من القارّات الخمس، للمشاركة في يوبيل الأُسَر، الذي اتّخذ شعارًا: **«الأولاد: ربيع الأُسرة والمجتمع»**. **وممّا طرحه في هذا المجال: «ألا يُخضع الأولاد آباءهم إلى «امتحان» دائمٍ، ليس فقط من خلال سؤالاتهم المتكرّرة: «لماذا»، بل، أيضًا، من خلال ملامح وجوههم حيث ترتسم البسمة أحيانًا، ويخيّم الحزنُ، أحيانًا أُخرى؟ هذه الحالات تسفر عن استجوابٍ، يُعبَّر عنه بأساليب متنوّعةٍ... ويمكن ترجمته بأسئلةٍ مثل: «بابا، ماما، هل تحبّاني، حقًّا؟ هل أنا لكما، حقًّا، هبةٌ من الله؟ هل تتقبّلاني على ما أنا عليه؟ وهل تجهدان دائمًا لخيري الحقيقيّ؟».**

«هذه الأسئلة قد تُطرح من خلال النظرات أكثر ممّا تطرحه من خلال الكلمات، ولكنّها تلزم الآباء بمسؤوليّاتهم. وهي، نوعًا ما، صدى صوت الله.

«وماذا يعني شعار يوبيلكم القائل إنّ الأولاد هم «الربيع»؟ هذا الشعار يقودنا إلى أفق الحياة، والألوان، والأنوار، والأناشيد، الذي يميّز فصل الربيع. والأولاد هم، طبيعيًّا، كلّ ذلك. وإنّهم الرجاء المستمرّ في الإزهار، إنّهم مشروعٌ يتجدّد باطّرادٍ، ومستقبلٌ ينبثق بلا توقّفٍ. إنّهم يمثّلون أزهار الحبّ الزوجيّ، الذي بهم يتمتّن. عندما يظهرون إلى النور يأتون برسالة حياةٍ تُرجع، في نهاية المطاف، إلى مبدع الحياة نفسه. وباحتياجهم إلى كلّ شيءٍ، ولا سيّما في مراحل وجودهم الأولى، يمثّلون، تلقائيًّا، دعوةً إلى التضامن.

«اليوم، يا أرباب الأُسَر المحبوبين، تودّون أن تشكروا لله هبة أولادكم، وفي الآن عينه، تقبّل الرسالة التي ينفذها إليكم من خلال وجودهم.

«ومن دواعي الأسف أنّ وضع الأولاد في العالم، ليس دائمًا، كما ينبغي أن يكون. والمفارقة أنّ إنجاب الأولاد، في بلدانٍ تنعم بمستوى حياةٍ مرتفعٍ، قد بات خيارًا يتّسم بالارتباك، ولكأنّ الأولاد باتوا يُعَدّون تهديدًا، أكثر من كونهم عطيّةً.

«وما عسانا نقول عن الوجه الآخر المحزن للطفولة المهانة المستَغَلّة؟

«ولكنّكم أنتم هنا، في هذا المساء، لكي تشهدوا لقناعتكم المبنيّة على الثقة بالله، من أجل إثبات كم هو جوهريٌّ للأولاد أن يستطيعوا الاعتماد عليكم، على وجهيكم: الوجه الأبويّ، والوجه الأموميّ، من أجل تكامل العطاءات.

«ألا تكفي الأولاد الأضرار الناجمة عن آفة الطلاق؟... وكم منهم من يحملون إلى الأبد، الندوب النفسيّة الناتجة عن محنة افتراق والديهم!

«هذا، ولا يسعكم التملّص من رسالتكم التربويّة الأساسيّة...»

وختم البابا خطابه بنداء تشجيعٍ: **«لا تخافوا من الحياة! أعلنوا، معًا، قيمة الأُسرة، وقيمة الحياة. فبمعزلٍ عن هذه القِيَم لن يكون للإنسان مستقبلٌ جديرٌ به»**.

القدّيس غرينيون دي مونفور

صباح يوم ١٠/١٣، استقبل يوحنّا بولس الثاني المشاركين في المؤتمر المريميّ الثامن الذي بحث في موضوع: «القدّيس غرينيون دي مونفور والروحانيّة الثالوثيّة في علاقته بمريم العذراء»، وصرّح، في هذا السياق:

«إنّ القدّيس غرينيون... هو لي مرجعٌ بالغ الأهمّيّة، أضاء المراحل الهامّة في مسيرتي. فعندما كنتُ إكليريكيًّا متخفّيًا، عاملاً في مصنع «سولڤاي»، نصحني مرشدي الروحيّ بتأمّل كتابه «تكريم السيّدة العذراء الحقّ»، وقد قرأت مرّاتٍ عديدةً، ذلك الكتاب الصوفيّ الصغير، الثمين، وأعدت قراءته، كرّةً إثر كرّةٍ، بكثيرٍ من الاهتمام، حتّى تلوّث بالملح غلافه الأزرق. وقد ساعدني «مونفور»، من خلال إبرازه علاقة العذراء بالسرّ الثالوثيّ، على فهم أنّ العذراء هي جزءٌ من مخطّط الخلاص، بإرادة الآب، بصفتها أمّ كلمته المتجسّد، ولكونها حملت بفعل الروح القدس. وأدركت أنّ كلّ مداخلةٍ لمريم من أجل تجدّد المؤمنين، لا تضعها في موضع منافسةٍ مع المسيح، بل هي منبعثةٌ منه، وهي تخدمه. إنّ كلّ ما تفعله مريم في مجال الخلاص، هو، دائمًا، مرتكزٌ في المسيح، ويشير مباشرةً إلى وساطةٍ تتحقّق في المسيح. وأدركتُ، حينئذٍ، أنّ كلّ إقصاءٍ لأمّ الربّ من حياتي، إنّما هو عصيان الله الثالوثيّ، الذي ابتغى أن «يبدأ ويتمّم» أسرار تاريخ الخلاص الكبرى، بمساهمةٍ مسؤولةٍ وأمينةٍ، من قبل خادمة الناصرة المتواضعة».

وأوضح قداسته إلى أنّ تعليم «دي مونفور» يدعو إلى روحانيّةٍ معاشةٍ بكثافةٍ، ويشجّع تقديم الذات للمسيح بقرارٍ حرٍّ، نابعٍ من أعماق الضمير، وتقديم الذات، من خلال يسوع، للروح القدس، وللآب. وعلى ضوء هذا الواقع يتّضح أنّ تكريم العذراء مريم يرتقي بالمسيحيّ، في التزامه بمواعيد العماد، إلى مستوى الكمال، إذ إنّ مريم هي المخلوقة الأكثر توافقًا مع يسوع...

«ويُدهش «دي مونفور» بتشديده على عمل الأقانيم الإلهيّة حيال مريم. فالله الآب هو أعطى العالم ابنه الوحيد، فقط من خلال مريم، وهو يرغب في أن يكون له أبناءٌ من خلال مريم، حتّى نهاية العالم. والله الابن صار بشرًا من أجل خلاصنا، من خلال مريم، وبها، وهو راغبٌ في أن يتكوّن ويتجسّد في أعضائه، يومًا إثر يومًا، من خلال أُمّه الحبيبة. والله الروح القدس قد بلّغ مريم، عروسه الأمينة، مواهبه التي تندّ عن الوصف، ويرغب في أن يصوغ فيها، ومن خلالها، مختارين.

«وإذن، تتجلّى مريم مساحة حبٍّ وعملٍ للثالوث، وهي تقود إلى الثالوث. والإنسان بتأكيده لها، كلّ يومٍ: «إنّي بكلّيّتي لكِ»، وبالعيش في تناغمٍ معها، يستطيع اختبار الآب في الثقة وفي الحبّ اللامحدود، والخضوع للروح القدس، والتحوّل إلى صورة يسوع المسيح.

«وصلاة «دي مونفور» هي: «السلام يا مريم، ابنة الآب الأزليّ المحبوبة، وأمّ الابن الرائعة، وعروس الروح القدس الوفيّة،... وهيكل الثالوث المعظّم».

صباح يوم ١٠/١٧، استقبل البابا الملكة إليزابيت وزوجها، ودعا إلى المضيّ قدُمًا في مساعي توحيد المسيحيّين.

يوبيل الرسالات

ووافق يوم ١٠/٢٣ يوبيل الرسالات، واليوم العالميّ للرسالة الذي عدّه الحبر الأعظم «**بُشرى سعيدةً للبشريّة جمعاء، وبرنامج حياةٍ للكنيسة ولكلّ مسيحيٍّ**» وقال إنّ يسوع عرّف نفسه بأنّه إنّما جاء ليَخدُم، و«**في الخدمة، وفي بذل ذاته حتّى الصليب، أعلن محبّة الآب. إنّ وجه «الخادم» الذي أظهره لا يُنقص شيئًا من عظمته الإلهيّة، بل هو يضيئها بنورٍ قشيبٍ.**

«إنّ استذكار ألفي عامٍ لولادة المسيح يعني، أيضًا، ولادة الرسالة، فالمسيح هو

أوّل وأعظم رسولٍ للآب. والرسالة التي وُلدت مع تجسّد الكلمة، تستمرّ في الزمن من خلال الكرازة والشهادة. واليوبيل هو الوقت الملائم، كي تلتزم الكنيسة جمعاء، بمعونة الروح القدس، بزخمٍ رسوليٍّ جديدٍ.

«ولذلك أوجّه نداءً خاصًّا ومخلصًا إلى جميع المعمّدين، كي يصبحوا، بجرأةٍ متواضعةٍ، وتلبيةً لنداء الربّ، ولاحتياجات رجال حقبتنا ونسائها، مبشّرين بالإنجيل النبيلة... الجميع مدعوّون إلى المساهمة، انطلاقًا من أوضاعهم الشخصيّة في الحياة.

وأشار قداسته إلى أنّ خطر شأن الرسالة يستلزم إعدادًا مناسبًا، عقيديًّا، وروحيًّا ورسوليًّا. وتمنّى أن تولي الكنيسة جمعاء هذه المهمّة عنايةً خاصّةً، وانكبابًا على تثقيف معلّمي التربية المسيحيّة. فالمهمّة جسيمةٌ وتقتضي تعاون الجميع، وفي هذا المجال، لا أحد فقيرٌ بحيث لا يستطيع إعطاء شيءٍ. وتابع البابا قوله:

«إنّ الالتزام الرسوليّ يتفجّر من نار حبّ من أمعن التأمّل في يسوع، ومن الافتتان به. إنّ المسيحيّ الذي تأمّل يسوع المسيح، لا يسعه سوى الإعجاب ببهائه، والشهادة لإيمانه بالمسيح، مخلّص البشر الوحيد. يا لعظمة هذه النعمة التي تلقّيناها من العلاء، على غير استئهالٍ! هذه النعمة هي نبع مسؤوليّةٍ، وهي تجعل منّا مبشّرين ورسلاً... وسبق لي القول إنّ الرسالة هي معيار إيماننا، وأيضًا: «إن لم يكن المرسل متأمّلاً، فلن يقوى على إعلان المسيح إعلانًا يحظى بالمصداقيّة...

«إنّ بذل الذات يعني، في المقام الأوّل، الاعتراف بقيمة الآخر وباحتياجاته.

«تريد الكنيسة أن تكون متضامنةً مع أفراح معاصرينا وآمالهم، ومع أحزانهم وهواجسهم، ولا سيّما الفقراء منهم والمتألّمين.

«وترغب الكنيسة في التبشير بيسوع، منتهجةً الدرب الذي سلكه يسوع نفسه: الخدمة، والفقر، والتواضع، والصليب، نائيةً بنفسها عن مغريات الامتيازات، والتنافس على المناصب. لقد رسم كلام يسوع خطًّا فاصلاً بين روح السيطرة، وروح الخدمة. ومن ثمّ مهمّة تلميذ يسوع الأولى هي أن يكون خادمًا للجميع.

«إنّه انقلابٌ في المعايير، لا يمكن فهمه إلاّ بالتحديق إلى ابن الإنسان، المحتَقَر، المنبوذ من البشر، رجل الآلام... في العنصرة، فقط، نال الرسل قدرة الإيمان بأنّ القوّة تكمن في الضعف، وهذا الواقع يتجلّى في الصليب.

«الآن يطوف بخاطري المرسلون والكُثُر الذين، يومًا إثر يومٍ، في الصمت، وبمنأى

عن أيّ دعمٍ بشريٍّ، يبشّرون، لا بل يشهدون على حبّهم ليسوع، غالبًا حتّى بذل حياتهم... ويا لهذا المشهد الذي يتجلّى لعيون القلب!».

ودعا قداسته إلى أن يسهم كلّ مسيحيٍّ، حسب طاقاته، في عمل الرسالة، فهو عمل شعب الله كلّه، وفقًا لدعوة العناية الإلهيّة لكلّ فردٍ. واستطرد قائلاً:

«لا نفقدنّ الرجاء في ولادة عالمٍ أكثر إخاءً. إنّ التنافس بلا قيدٍ، والرغبة في السيطرة على الآخرين بأيّ ثمنٍ، والتمييز الذي يمارسه من يظنّون ذواتهم متفوّقين على الغير، والسعي الجامح إلى الثروة، كلّ هذه هي مصادر مظالم، وأعمال عنفٍ وحروبٍ. وفي هذا السياق تمثّل دعوة يسوع إلى الخدمة علاجًا لأوصاب المجتمع.

«وفضلاً عن ذلك، الرسالة هي دعوةٌ إلى السلام، فالرسالة هي تبشيرٌ بالله، والله هو أبٌ، ويسوع، وهو أخونا، وبالروح القدس، وهو حبٌّ. والرسالة هي مساهمةٌ متواضعةٌ ولكنّها مفعمة هوًى من أجل تحقيق مخطّط الله الذي يريد إنسانيّةً مخلَّصةً ومتصالحةً؟».

منظّمة التغذية

بمناسبة يوم التغذية العالميّ، بعث البابا برسالةٍ إلى منظّمة الأُمم المتّحدة للتغذية، أكّد فيها أنّ «حلّ مشكلة الجوع، وانعدام الأمن الغذائي، لا يقوم فقط على زيادة إنتاج الموادّ الغذائيّة. فثمّة ما يكفي لتغذية الجميع، لو تمّ توزيعه توزيعًا عادلا». وفي هذا الشأن ذكّر بقول القدّيس أوغسطينُس: «لقد ابتغى من لا يحتاجون إلى طعامٍ أن يغذّيهم الفقراء». وتمنّى قداسته أن يلتزم من ينعمون بفيضٍ من الخيرات المادّيّة بأسلوب تقشّفٍ معقولٍ، كي يمدّوا يد العون لمن يفتقرون إلى ما يأكلون. والمسيحيّ الذي يتلو، كلّ يومٍ، الصلاة التي علّمها يسوع، ملتمسًا الخبز اليوميّ، لن تكون صلاته صادقةً ما لم يلتزم بتضامنٍ حقيقيٍّ.

يوبيل الرياضيّين

احتُفل، يوم ١٠/٢٦، بيوبيل الرياضيّين، وألقى البابا خطابًا جاء فيه:

«**ترتدي الرياضة، اليوم، أهمّيّةً كبرى، لأنّها كفيلةٌ بحمل الشبيبة على تأكيد قِيَمٍ خطيرةِ الشأن، مثل الاستقامة، والمثابرة، والصداقة، والمشاركة، والتضامن... ولذلك أمست الرياضة إحدى علامات الأزمنة، ومعبّرةً عن مقتضياتٍ جديدةٍ، وتوقّعاتٍ جديدةٍ للإنسانيّة**».

غير أنّ الحبر الأعظم، مع دعوته إلى تشجيع النواحي الإيجابيّة في الرياضة، حذّر ممّا قد تؤدّي إليه من حالاتٍ محرّمةٍ، موضحًا: «**أنّ طاقات الرياضة التربويّة والروحيّة ينبغي أن تدفع المؤمنين، وأصحاب النوايا الطيّبة، إلى الاتّحاد من أجل مكافحةٍ حازمةٍ لكلّ نزعةٍ شاذّةٍ، فكلّ أنواع العناية هي ضروريّةٌ لوقاية الجسد من كلّ أذًى، ومن كلّ ما ينال من كماله، ومن كلّ استغلالٍ، وكلّ عبادة أوثانٍ**».

واستخلص البابا من الرياضة عبرةً روحيّةً، موضحًا أنّ النجاح في الحياة يقتضي المثابرة في الجهد، كما أنّ إحراز نتائج مرضيةٍ، في الرياضة، يستلزم المثابرة على التدريبات الصعبة. والرياضيّون يدركون أنّ دموع الجهد هي التي تؤهّل لحصاد الفوز. ومن ثمّ إنّ منطق الرياضة، في هذا السياق، هو منطق الحياة. فبمنأًى عن التضحية، لا نتائج ذات شأنٍ، ولا رضًى حقيقيٌّ.

واستشهد بقول القدّيس بولس في الرياضيّين، الساعين في حلبة السباق حيث «كلّ مجاهدٍ يضبط نفسه، في كلّ شيءٍ. أمّا أولئك فلكي ينالوا إكليلاً يفنى، وأمّا نحن فإكليلاً لا يفنى، وهكذا «**كلّ مسيحيٍّ مدعوٌّ إلى أن يكون بطلاً من أبطال المسيح، أي شاهدًا أمينًا وشجاعًا للإنجيل. غير أنّ النجاح في ذلك يقتضي مثابرةً على الصلاة، وتمرّسًا بالفضيلة، واتّباع يسوع في كلّ شيءٍ. فالمسيح هو بطل الله الحقّ... وهو يعلّمنا أنّ الدخول إلى مجده يمرّ عبر الآلام، وهو قد سبقنا على هذا الدرب كي نقتفي خطاه**».

«سيّدة الدموع»

وكان البابا قد بعث برسالةٍ إلى الشباب المشاركين في الحجّ اليوبيليّ إلى مزار «سيّدة الدموع» في مدينة «سيراكوزا» الصقلّيّة، قال لهم فيها:

«**يظنّ البعض أنّ الانتماء إلى المسيح يعني الإساءة إلى إنسانيّة الإنسان، والانتقاص**

من قيمتها. وما من خطإٍ أفدح من هذا الظنّ... فبقولكم «نعم» للمسيح، إنّما تقولون «نعم» لواحدٍ من أنبل مُثُلكم. لا ريب أنّ اختيار يسوع يعني نبذ الخطيئة. ولكنّ الخطيئة ليست تحقيقًا للطبيعة البشريّة، بل هي إفقارٌ لها. لم يبدعنا الله من أجل الشرّ، بل من أجل الخير، والحقيقة، والجمال، أي من أجله. والقدّيس أوغسطينُس كتب: «صنعتنا من أجلك، يا ربّ، ولن يعهد قلبنا السلام، حتّى يأنس فيك». ولذلك، أصدقائي الأعزّاء، لا تخافوا من إعلان «نعم» كلّيٍّ ليسوع... وانهجوا، بجرأة، درب القداسة الذاتيّة، متغذّين، باطّرادٍ، بكلام الله، وبالإفخارستيّا. وكلّما توغّلتم في القداسة، ازددتم قدرةً على المساهمة في بناء الكنيسة والمجتمع... كونوا حجارةً حيّةً في جماعاتكم الرعويّة... وتعلّموا الاضطلاع بمسؤوليّاتكم، وتدرّبوا على ذلك، في جماعاتكم، وضمن حركات العلمانيّين، والعمل الكاثوليكيّ.

«كونوا رسلاً! فالإيمان هبةٌ تنمو وتنضج عندما تُقتَسم مع مؤمنين آخرين... قاوموا المفاهيم السلبيّة، التي قد تصدفونها من حولكم... ولا تكتفوا بأن تكونوا خبزًا طازجًا، زكيّ الرائحة، بل كونوا الخمير الإنجيليّ في المدرسة والجامعة، وفي ميدان العمل، والرياضة، داخل الأُسرة، وبين الأصدقاء. شاركوا في الحياة العامّة، وفي المؤسّسات، حريصين على التجرّد من المصلحة الشخصيّة، وعاملين، دائمًا وحصرًا، من أجل الخير العامّ...

«وحافظوا على إرث بلدكم الطبيعيّ والثقافيّ الثمين. وتعلّموا معرفته، والاعتراف به، وتثميره. ولا ريب أنّ العنصر الأثمن، في هذا الإرث، هو الإيمان بيسوع، وبأمّه، كلّيّة القداسة...».

القدّيسون والعذراء

يوم ٢٠٠٠/١١/١، بمناسبة عيد جميع القدّيسين، والذكرى الخمسين لإعلان البابا «بيّوس الثاني عشر» عقيدة انتقال العذراء، احتفل يوحنّا بولس الثاني بقدّاسٍ في ساحة القدّيس بطرس، وجاء، في عظته، قوله:

«نشترك مع جميع القدّيسين الذين يحتفلون، أبديًّا بالليتورجيّا السماويّة، ونكرّر، معهم، آيات الشكر لإلهنا، عن الروائع التي يحقّقها في تاريخ الخلاص.

«تمجيدٌ وآيات شكرٍ لله، لأنّه استنهض في الكنيسة، طائفةً جسيمةً من القدّيسين،

لا قِبَل لأحدٍ على إحصائهم. ليسوا، فقط، القدّيسين والطوباويّين، الذين نكرّمهم في أثناء السنة الكنسيّة، بل هم، أيضًا، القدّيسون المُغفَلون، الذين يعرفهم الله وحده: أرباب وربّات أُسَر، ضحّوا، يوميًّا، في سبيل أبنائهم، وساهموا مساهمةً فعّالةً، في نموّ الكنيسة، و«في بناء المجتمع؛ كهنةٌ وراهباتٌ وعلمانيّون، مثل شموعٍ مشعلةٍ على هيكل الربّ، ذابوا في خدمة الغريب المحتاج إلى عونٍ ماديٍّ وروحيٍّ؛ مرسلون ومرسلاتٌ، تخلّوا عن كلّ شيءٍ كي يحملوا بشرى الإنجيل إلى كلّ أصقاع المعمورة. وقد تطول القائمة.

«تمجيدٌ وآيات شكر لله، خاصّةً، من أجل أسمى الخلائق قداسةً، مريم، محبوبة الله، والمباركة بسبب يسوع، ثمرة أحشائها، التي قُدّست، وأصبحت خليقةً جديدةً بفعل الروح لأنّها وضعت حياتها بتصرّف العليّ. وها إنّها تتألّق مثل علامة رجاءٍ أكيدٍ، وعزاءٍ، أمام شعب الله، في حجّه...

«ونحن، نتهلّل، يا مريم، التي أُصعدت إلى السماء، بتأمّل شخصك الممجّد، الذي أصبح، في المسيح الناهض من الموت، شريك الروح في منح الحياة الإلهيّة للبشر. وفيك نشهد هدف القداسة التي يدعو إليها الله كلّ أعضاء الكنيسة. وفي ممارسة إيمانك، نكتشف الدليل المنير إلى الطريق الذي يقود إلى النضج الروحيّ، وإلى القداسة المسيحيّة».

المسؤولون الحكوميّون

بعد ظهر يوم السبت ١١/٤، استقبل البابا، ممثّلي المسؤولين الحكوميّين، والبرلمانيّين، والسياسيّين، عشيّة الاحتفال بيوبيلهم، وأوجز ما ينتظره منهم:

«على العامل في ميدان السياسة والراغب في ممارستها ممارسةً مسيحيّةً، أن يعمل بتجرّدٍ، وألاّ ينشد منفعته الخاصّة، أو منفعة جماعته وحزبه، بل عليه السعي لخير الجميع، ولخير كلّ فردٍ، وفوق كلّ شيءٍ، لخير من هم، في المجتمع، الأكثر حرمانًا في معركة الوجود التي ترتدي، أحيانًا، صِيَغًا قاسيةً لا رحمة فيها. فكثيرون هم «المغلوبون» الذين يجدون أنفسهم مقصيّين بلا رحمةٍ.

«اهتمام السياسيّ الأساسيّ يجب أن ينصبّ على إقامة العدل، عدلٍ لا يقتصر على إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، بل على السعي إلى إيجاد، بين المواطنين، ظروف مساواةٍ

في الحظوظ، ومن ثمّ مساعدة المعرّضين، من جرّاء وضعهم الاجتماعيّ، أو ثقافتهم، أو صحّتهم، لأن يظلّوا متخلّفين عن الآخرين، وقابعين، أبدًا، في المواقع الأخيرة، بلا أيّ أملٍ في الخلاص.

«**إنّ فضيحة المجتمعات الثريّة، في عالم اليوم، تتمثّل في ازدياد الأغنياء غنًى، لأنّ الثروة تنتج غنًى، وازدياد الفقراء فقرًا لأنّ الفقر ينزع إلى خلق أصنافٍ أُخرى من الفقر... هذه الظاهرة غير محصورةٍ داخل البلد الواحد، بل هي تنتشر بين الدول، بفضل عولمة الأسواق**».

وعبّر البابا عن حزنه لما يحدث في بقاعٍ كثيرةٍ، حيث الحروب الأهليّة لا تنتهي، مولّدةً الجوع والأمراض. وأعلن «**أنّ هذا الوضع يمثّل، في النظرة الإنسانيّة المسيحيّة، أخطر خطيئة ظلمٍ في العصر الحديث، خطيئةٍ يجب أن تهزّ بعنفٍ ضمير المسيحيّين، بدءًا بالقابضين على مقاليد السياسة والاقتصاد والماليّة في العالم، والقادرين على توجيه مصير الشعوب نحو الخير، أو نحو الشرّ.**

«**في الواقع، ينبغي أن يسود روح التضامن في العالم، متغلّبًا على أنانيّة الأفراد والأُمم. ففي كونٍ معَوْلم، حيث ينزع السوق إلى الانعتاق من كلّ اعتبارٍ أخلاقيٍّ، مكتفيًا بشريعة الكسب الأقصى، بمثابة قاعدةٍ وحيدةٍ، المهمّة بالغة الصعوبة والضروريّة التي تقع على عاتق المسيحيّين المدعوّين إلى الحياة السياسيّة، تكمن في إخضاع شرائع السوق «المتوحّش» لشرائع العدل والتضامن. تلك هي الوسيلة الوحيدة لضمان مستقبلٍ سلميٍّ لعالمنا، باجتثاث أسباب الصدامات والحروب من جذورها. إنّ السلام هو ثمرة العدل**».

وذكّر البابا المكلّفين بالتشريع أنّه لا يجوز للقانون الوضعيّ مخالفة القانون الطبيعيّ، بل ينبغي أن تظلّ الشريعة الطبيعيّة المدوّنة في قلب الإنسان، هي المرجع والنبراس للشريعة المدنيّة.

وختم بقوله: «**نحن مسيحيّي هذا الزمن، الرهيب والرائع في آنٍ واحدٍ، وفيما نشارك أبناء عصرنا المخاوف والشكوك، والتساؤلات، لسنا متشائمين بشأن المستقبل، لأنّنا نمتلك اليقين بأنّ يسوع المسيح هو سيّد التاريخ، ولأنّ لنا، في الإنجيل، النور الذي يضيء دربنا، حتّى في الأوقات الصعبة والمظلمة.**

«**بفعل إيمانٍ صادقٍ وراسخ القناعة، جدّدوا التزامكم بيسوع مخلّص العالم، واتّخذوا من الإنجيل هاديًا لفكركم ولحياتكم. وحينئذٍ، ستكونون خمير الحياة الجديدة التي تحتاج إليها البشريّة، كي تبني مستقبلاً أوفر عدلاً وتضامنًا، مستقبلاً منفتحًا على حضارة الحبّ**».

وفي اليوم التالي، ١١/٥، احتفل البابا بقدّاسٍ خاصٍّ بيوبيل أولئك المسؤولين الحكوميّين والسياسيّين، وجاء، في عظته، قوله:

«**ليست العلاقة بين الإنسان والله علاقة خوفٍ، وعبوديّةٍ، وقمع. بل هي علاقة ثقةٍ مطمئنّةٍ، تتفجّر من خيار حبٍّ، دافعه الحبّ. إنّ حبّ الله ينتظر من شعبه ردًّا على حبّه الأمين والمبادر، الذي أظهره له، أوّلاً، على امتداد مراحل الخلاص.**

«**والشريعة البشريّة، عندما تكون عادلةً، ليست، أبدًا، مخالفةً للإرادة، بل هي في خدمتها. هذا ما قاله الحكيم الوثنيّ «شيشيروني»: «نحن عبيد القوانين، لكي نتمكّن من أن نكون أحرارًا». ولكنّ الحرّيّة التي يشير إليها «شيشروني» تندرج، أساسًا، في مستوى علاقات خارجيّةٍ بين المواطنين، ومن ثمّ قد تقتصر على كونها توازنًا مناسبًا بين مصالح خاصّة بكلّ طرفٍ، أو حتّى بين أنانيّاتٍ متناقضةٍ، في حين أنّ الحرّيّة التي يدعو إليها كلام الله، تتجذّر في قلب الإنسان، قلبٍ بوسع الله تحريره من الأنانيّة، وتأهيله للانفتاح على الحبّ المتجرّد**».

وذكّر قداسته بالوصيّة الكبرى: «**أحبب الله من كلّ قلبك، وأحبب قريبك كنفسك**». وقال: «**من أحبّ الله بكلّ قلبه، واعترف به إلهًا وحيدًا، ومن ثمّ، أبًا، لا يسعه أن يعدّ الذين يلتقيهم إلاّ إخوةً**».

وخاطب مستمعيه قائلاً: «**بأيّة طريقةٍ، من خلال خدمتكم الدولة والمواطنين، التي تقتضي دماثةً والتزامًا، يمكنكم تطبيق وصيّة المسيح؟ إنّ الجواب واضحٌ: بممارستكم الالتزام السياسيّ بصفته خدمةً. إنّها نظرةٌ مضيئةٌ، وفي الآن عينه، شديدة الاقتضاء. والخدمة السياسيّة تمرّ عبر التزامٍ واضحٍ ويوميٍّ، يستلزم كفاءةً كبرى في تنفيذ الواجب، وأخلاقيّةً لا ثغرة فيها، في إدارة الحكم بتجرّدٍ وشفافيّةٍ.**

«**ويحتاج التماسك الشخصيّ، لدى الإنسان السياسيّ، إلى فهمٍ صحيحٍ للحياة الاجتماعيّة والسياسيّة. فالسياسيّ المسيحيّ لا يسعه إلاّ الاسترشاد بمبادئ التعليم الاجتماعيّ، الذي أنضجته الكنيسة سحابة تاريخها. هذه المبادئ ليست «إيدولوجيا»،**

ولا هي «برنامجٌ سياسيٌّ»، ولكنّها توفّر حظوظًا قويّةً لفهم الإنسان والمجتمع، على ضوء الشريعة الأخلاقيّة الشاملة، الثاوية في قلب الإنسان، والتي عمّقها الوحي الإنجيليّ. ومن واجبكم، أيّها الإخوة والأخوات، المنخرطون في الحياة السياسيّة، أن تكونوا تراجمةً مقتنعين ونشيطين لهذه المبادئ».

وحذّر البابا من المعارضة العنيفة، مؤكّدًا «**أنّ الحوار يبقى أداةً لا غنى عنها من أجل مواجهةٍ بنّاءةٍ... ومن عساه قادرٌ على الاضطلاع بهذه المهمّة أفضل من السياسيّ المسيحيّ، الذي يتوجّب عليه، كلّ يومٍ، التوافق مع ما وصفه يسوع بأولى الوصايا، وصيّة المحبّة؟**».

وأهاب بالمسؤولين السياسيّين أن يتمثّلوا بالقدّيس الشهيد «توماس مور»، فهو «**الصورة المثاليّة لكلّ مدعوٍّ إلى خدمة الإنسان والمجتمع، في الإطار المدنيّ والسياسيّ، بصفته رجل دولةٍ، وقف ذاته على خدمة الإنسان وخاصّةً الضعيف والفقير. ولم تكن للأمجاد والثروات أيّة سطوةٍ على نفسه، لأنّه كان يسلك بشعور عدلٍ حادٍّ. وفوق كلّ ذلك، لم يتردّد قطّ، إلى تسوياتٍ مع ضميره، حتّى التضحية القصوى، التي آثرها على عدم الإصغاء لصوت ضميره. فابتهلوا إليه، وتمثّلوا به. ومن المؤكّد أنّ شفاعته ستوفّر لكم القوّة، والبهجة، والصبر، والثبات، حتّى في أكثر الحالات استعصاءً**».

وكان البابا قد أعلن يوم ٢٠٠٠/١٠/٣١، القدّيس «توماس مور» شفيعًا للمسؤولين الحكوميّين والسياسيّين.

البابا والشرق الأوسط

في ١١/٦، بعث البابا، الذي أخذ منه القلق على الوضع في الشرق الأوسط كلّ مأخذٍ، برسالةٍ إلى أساقفة الأراضي المقدّسة، جاء فيها:

«**إنّ المِحَن التي تشهدها، في هذه الأيّام، الأراضي المقدّسة، هي، لي، مصدر ألمٍ شديدٍ. وأودّ أن أُعبّر لكلّ فردٍ، بلا استثناءٍ، عن كلّ تضامني الحارّ.**

«**إنّ الانتقال القاسي من المفاوضات إلى الصدام، يمثّل، بلا ريبٍ، فشلاً للسلام. ولكن لا يجوز لأحدٍ الاستسلام للقدر، فالجغرافيا والتاريخ يدعوان الشعبين الفلسطينيّ**

والإسرائيليّ إلى العيش معًا، ولن يستطيعا ذلك إلاّ بضمان الحقوق الأساسيّة لكليهما، فلكلٍّ منهما الحقّ بالعيش مستقلّين، في كرامةٍ وأمانٍ.

«وإنّي، إذ أذكر حجّي إلى تلك الأراضي، لبضعة أشهرٍ خلت، أستحضر، بتأثّر، تلك الأماكن التي تحدّث عن تاريخ اللّه مع الإنسان، وتدعو إلى ألاّ يشوّه، أبدًا، بعد الآن، العنف والبغض، والشكّ، هذا الجزء من العالم».

البابا والبطريرك كاريكين الثاني

يوم ٢٠٠٠/١١/٩ استقبل يوحنّا بولس الثاني غبطة كاثوليكوس الأرمن، كاريكين الثاني. وفي ختام لقائهما وقّعا، معًا، بيانًا مشتركًا، بمناسبة مرور ١٧٠٠ سنةٍ على إعلان الدين المسيحيّ، دين دولة أرمينيا، وأكّدا اتّفاقهما على كلّ الأسرار المقدّسة، وعلى وحدة الكنيسة، وعلى مسؤوليّتهما المشتركة في مجال تعليم الإيمان الرسوليّ، والشهادة لحبّ اللّه لجميع البشر، ولا سيّما الذين يعانون ظروفًا عصيبةً، وعلى الاعتراف بأنّ تقاليد الكنيسة الكاثوليكيّة والأرمنيّة، لاهوتيًّا، وليتورجيًّا، وقانونيًّا، متكاملةٌ، وليست متعارضةً. وأكّدا على الرغبة في تكثيف التبادل بين الكنيستين، واغتناء إحداهما بالأُخرى.

وفي اليوم التالي، ١١/١٠، اشترك البابا والبطريرك، في الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة. وفي نهايتها قدّم البابا إلى الشعب الأرمنيّ، ذخيرةً من القدّيس «غريغوريُس المنوّر» المرسل الذي كان قد ردّ إلى الإيمان المسيحيّ ملك أرمينيا، عام ٣٠١. وكانت تلك الذخيرة محفوظةً، حتّئذٍ، في دير القدّيس غريغوريُس الأرمنيّ في مدينة نابولي.

وجاء في عظة البابا، أثناء ذلك القدّاس:

«في تاريخ الشعب الأرمنيّ، والكنيسة الأرمنيّة، تمتزج العظمة والاضطهاد، الفرح والألم. ولكم هتف أبناء أرمينيا وبناتها هذا الأقوال المحزنة التي وضعها القدّيس غريغوريُس الناريكيّ (St. Grègoire de Narek): «أتوسّل إليك، أيّها الربّ المعنيّ بالنفوس التي هدّها الحزن، بسبب المرض الخطير والمقلق، ألاّ تُضيف إلى تأوّهاتي ألمًا. إنّي جريحٌ، فلا تطعنّي؛ أنا معاقبٌ، فلا تدنّي؛ أنا مُهانٌ، فلا تعذّبني. ولا

تنفِني، فإنّي أُعاني الآن الاضطهاد». لقد دفعت الكنيسة الأرمنيّة ثمنًا باهظًا لوفائها لإنجيل يسوع المسيح».

الثقافة والقداسة

وفي صباح ١١/٩، خاطب يوحنّا بولس الثاني ممثّلي جامعة القلب الأقدس الكاثوليكيّة، في روما، وتركّز خطابه حول ثنائيّ الثقافة والقداسة، موضحًا أنّ كليهما متجذّران في الله، ومن ثمّ فالالتزام الثقافيّ، والالتزام الروحيّ لا يتعارضان، ولا توتّر بينهما، بل يدعم أحدهما الآخر. فللعقل قوانينه وطرقه، ولكنّه يغتني بقداسة الباحث، لأنّها توفّر فسحةً أكبر للحرّيّة الداخليّة، وتدعم جهده، بفضل الفضائل الأخلاقيّة التي تصوغ بشرًا ناضجين. وحبّ الله لا يُضعف قدرات الفكر، بل يسمو بها، ويدفع إلى انتهاج دروب الحقيقة.

ودعا الأساتذة والتلاميذ إلى مواصلة البحث العلميّ المشوّق، قارنين دقّة البحث بالتزام البعد الأخلاقيّ، ومقتضيات الإيمان، وكرامة الإنسان. وأكّد، مرّةً أُخرى، أنّ مهمّة الجامعة لا تقتصر على إنماء المعارف، بل هي تستهدف صوغ الإنسان. ولا ريب أنّ نقل المعرفة يستفيد من جوّ علاقاتٍ إنسانيّةٍ، تتّسم بقِيَم الصدق، والصداقة والمجّانيّة، والاحترام المتبادل. وعلى الأساتذة أن يكونوا «معلّمي حياةٍ». وأهاب بهم أن يقتدوا بمؤسّس جامعتهم، الذي دوّن في يوميّاته: «عليّ أن أُولي تلاميذي أكبر اهتمامٍ، وأن أَعدّهم وديعةً مقدّسةً، وأصدقاء لقلبي، ويتوجّب عليّ اقتيادهم على دروب الربّ».

يوبيل المزارعين

يوم ١١/١١، استقبل البابا ممثّلي المزارعين، بمناسبة يوبيلهم، وقال لهم: **«إليكم أُوكلت مهمّة تثمير الأرض. مهمّةٌ بالغة الأهمّيّة، يُكْتَشف، اليوم، أكثر فأكثر، مدى شأنها. قد تتباين آراء الاقتصاديّين في تقدير قيمة الزراعة. ولكنّ الواقع يثبت أولويّتها في علاقتها بمقتضيات الإنسان الحيويّة. فعندما يُستهان بهذا القطاع،**

أو يُهمَل، تتجلّى مخاطر هذا الإهمال على الحياة والصحّة، وتوازن البيئة، مخاطر تصعب معالجتها، على الأقلّ في أمدٍ قريبٍ.

«ليس الإنسان الحَكَم المطلق في التحكّم بالأرض. فهذا التحكّم يفرض قيودًا يؤدّي تخطّيها إلى عواقب وخيمةٍ. إنّ استغلال الأراضي بغية الربح يجب أن يخضع لرقابةٍ علميّةٍ وأخلاقيّةٍ تكفل الوقاية من كوارث تنال من صحّة الإنسان، ومن مستقبل الأرض».

وعن توزيع ثمار الأرض، قال قداسته: **«إنّ ما أعطاه الله للإنسان، أعطاه إيّاه، بمشاعر أبٍ يهتمّ بشأن كلّ أبنائه، بلا استثناء... يحقّ لكلّ إنسانٍ، ولكلّ شعبٍ، أن ينعم بثمار الأرض. وإنّه من غير المقبول، في مطلع الألفيّة الثالثة، أن يظلّ كثيرون ضحايا الجوع، ويعيشون في ظروفٍ لا تليق بالبشر. ولا بدّ من إزالة أسباب هذا العار المتعدّدة، ومنها: الصراعات داخل بلدانٍ كثيرةٍ، وحروب الفقراء، وتوزيعٌ مجحفٌ للثروة الوطنيّة. فلا بدّ من عولمة التضامن، ومن حلّ كلّ القضايا المتعلّقة بالزراعة، على أُسسٍ أخلاقيّةٍ».**

وحذّر الحبر الأعظم من الاستهلاك بلا حدودٍ، ومن هدر خيرات الأرض. ودعا إلى حياةٍ متّجهةٍ نحو الشراكة الأخويّة، موضحًا أنّ عالم المزارعين، بما عُهِد عنهم من تقشّفٍ وحكمةٍ، جديرٌ بالمساهمة في هذا المجال. وأسدى قداسته للمزارعين النصيحة التالية: **«امضوا في أثلام تقليدكم الخيّر، بانفتاحكم على التقنيات الحديثة، محافظين على القِيَم الخالدة التي طالما التزمتم بها. هذا هو الدرب الكفيل بتوفير مستقبلٍ غنيٍّ بالرجاء لعالم الزراعة».**

وفي اليوم التالي، **١١/١٢**، احتفل البابا بقدّاسٍ حضره وفد المزارعين والمؤسّسات المتعلّقة بالزراعة، وقال في عظته:

«لقد جئتم كي تقدّموا الشكر للربّ من أجل ثمار الأرض، ولكنّكم جئتم، أوّلاً، لكي تعترفوا به خالقًا، وفي الآن عينه، أجمل ثمار أرضنا، «ثمرة» أحشاء مريم، مخلّص البشريّة والكون».

وقال إنّ الزراعة قد واجهت، دائمًا، مخاطر الأحوال الجويّة غير المتوقّعة، وقد أُضيفت إليها، في زمننا مخاطر الصناعة التي تزري بالطبيعة، ومن ثمّ **«فما**

لم تتصالح التقنية المتقدّمة مع لغة الطبيعة البسيطة، في توازنٍ صحّيٍّ، لواجهت حياة الإنسان أخطارًا لا تني تتفاقم، وقد شرعنا نشهد علاماتها المقلقة».

وطالب البابا أن يحصل المزارعون على مكافأةٍ مجزيةٍ لقاء أتعابهم، ومخاطرتهم، لكي يمضوا قُدُمًا في مهمّتهم الأساسيّة لمستقبل العالم.

ونوّه البابا بأنّ الله أعطى الإنسان الأرض كي يستثمرها ويحفظها، فإن هو طغى عليها وقسا، تمرّدت عليه، وستتمرّد، عاجلاً أو آجلاً.

وأوضح أنّ واجب الحفاظ على الأرض متجذّرٌ في قلوب البشر، ومن ثمّ فهذه القلوب هي التربة التي يتوجّب استثمارها. ويسوع قد شبّه ملكوته ببذارٍ يُنثَر في تربة النفوس.

وأليست الذبيحة الإلهيّة تذكيرًا بالمعجزة اليوميّة التي تتحقّق من خلال البذرة التي تودع في التربة، فتنبت سنبلةً تحمل حبوبًا عديدةً تنضج، وتُطحَن، وتصبح خبزًا. وأليس العنقود المتدلّي من الكرمة معجزةً؟.

وفي ذلك اليوم عينه، استقبل البابا أعضاء جامعة «ياجلّون» البولونيّة، وأعرب عن رغبته في أن تكون المؤسّسة الأكّاديميّة، مولّدة الإنسان، مولّدة النفوس على المعرفة والحكمة، وصائغةً للعقول والقلوب... فعلى الجامعة ألاّ تقتصر على توفير العلم، بل عليها، في المقام الأوّل، أن تكون محرابًا للحكمة.

«حرّاس السلام»

ويوم ١١/١٩، أقام البابا قدّاسًا احتفالاً بيوبيل القوى المسلّحة، والشرطة، «حرّاس السلام»، وبعد أن استعرض المخاطر التي يتعرّضون لها، دعاهم إلى التدرّع بالثقة، **«فبذرة الثقة ينبغي ألاّ تموت أبدًا، في قلب الإنسان. بل كونوا، دائمًا متيقّظين لتبيّن وتشجيع كلّ علامةٍ إيجابيّةٍ على التجدّد الشخصيّ والاجتماعيّ. وكونوا متأهّبين لدعم بناءٍ شجاعٍ للعدل والسلام، بكلّ الوسائل. فالسلام هو حقٌّ أساسيٌّ لكلّ إنسانٍ. لا يضطرب، إذن، قلبكم، أبدًا، بل فليبقَ يقظًا وراسيًا بصلابةٍ على وعد يسوع بأزره وحمايته»**.

العلم ومستقبل البشريّة

يوم ١١/١٣، استقبل الحبر الأعظم أعضاء الأكّاديميّة الحبريّة للعلوم، وأعرب عن رغبته في التقدّم على درب تأكيد علاقة العلم بالأنسنة، وإخضاع المفاهيم الإنسانيّة لدقّة البحث العلميّ، لعلّ هذه الخطوات تفضي إلى توجيه إرشاداتٍ مضيئةٍ لتقدّم الإنسان والمجتمع تقدّمًا كلّيًّا، شاملاً، ولتأثير المعارف الجديدة المكتسبة على الأشخاص والجماعات. وخاطب مستمعيه، قائلاً:

«إنّ كلّ عالمٍ، من خلال درسه وأبحاثه الشخصيّة، يكمل ذاته، ويكمل إنسانيّته. كلٌّ منكم، عندما يُعمل الفكر في حياته، وفي تجاربه العلميّة، يمكنه الاعتراف بأنّ البحث قد بنى شخصيّته، إلى حدٍّ ما. فالبحث العلميّ يمثّل لكم السبيل إلى لقاءٍ شخصيٍّ مع الحقيقة، وربّما يمثّل الدرب الأمثل للقاء الله، خالق السماء والأرض. ومن ثمّ، فإنّ العلم، الذي يُفهَم على هذا الأساس، يتألّق، بكلّ قيمته، تألّق خيرٍ كفيلٍ بتوجيه الوجود، وتألّق اختبار حرّيّةٍ من أجل الحقيقة، وفعل خدمةٍ أساسيٍّ. ومن خلاله، يخبر كلّ باحثٍ القدرة على النموّ، ومساعدة الآخرين على إنماء إنسانيّتهم.

«الحقيقة، والحرّيّة، والمسؤوليّة متلازمةٌ، في مسيرة رجل العلم... الذي يترتّب عليه واجب الإمعان في خدمة البشريّة جمعاء. ومن ثمّ، يمكن اعتبار المسؤوليّات الأخلاقيّة والأدبيّة، المرتبطة بالبحث العلميّ، بمثابة مقتضى ملازمٍ للعلم، بصفته نشاطًا إنسانيًّا بالكامل. ويدرك رجل العلم جيّدًا أنّه لا يجوز المساومة على الحقيقة أو حجبها، أو التخلّي عنها، من أجل صفقاتٍ تُعقَد بين جماعات ضغطٍ، وشركاتٍ، ودولٍ... وحينئذٍ يستطيع العلم التطلّع، باهتمامٍ، إلى الوحي الإلهيّ الذي يكشف المعنى العميق لكرامة الإنسان المخلوق على صورة الله... والتقاء المسيح، ابن الله، وكلمته المتجسّد، السرّ الذي يجد فيه كلّ شيءٍ ملئه واكتماله، ومركز التاريخ وقمّته، والإنسان الكامل، الذي، بفضله، وباتّباعه، يصبح الإنسان أوفر إنسانيّةً...

«وفي المسيح تكتشف الكنيسة الشروط المثلى لكي يغدو التقدّم العلميّ تقدّمًا إنسانيًّا حقًّا. فالمحبّة والخدمة هما الشرطان اللذان يضمنان لجميع البشر حياةً إنسانيّةً حقّةً، كفيلةً بالارتقاء صوب المطلق، بانفتاحها لا على روائع الطبيعة فحسب، بل، أيضًا، على سرّ الله».

رسالة العلمانيّين

صبيحة ١١/٢٦، الذي يُحتفَل فيه بعيد المسيح ملك الكون، والذي حُدِّد موعدًا ليوبيل العلمانيّين، ترأّس البابا قدّاسًا، وجاء في عظته:

«اليوم، أكثر من أيّ يومٍ مضى، لا يمكن الاستغناء عن رسالتكم، لكي يكون الإنجيل نورًا وملحًا، وخميرةً لبشريّةٍ جديدةٍ. ولكن علامَ تقوم هذه الرسالة؟ وماذا يعني أن يكون الإنسان مسيحيًّا، هنا والآن؟

«لم يكن، يومًا، سهلاً أن يكون المرء مسيحيًّا، ولا هو سهلٌ اليوم. فاتّباع المسيح يقتضي جرأة اتّخاذ خياراتٍ أساسيّةٍ، هي، غالبًا، معاكسةٌ للتيّار. كان القدّيس أوغسطينُس يعلن: «نحن المسيح!». إنّ الشهداء، وشهود الإيمان، أمس واليوم، ومنهم عددٌ غزيرٌ من العلمانيّين، يُثبتون أنّه لا يجوز التردّد في بذل حتّى الحياة، من أجل يسوع المسيح، عندما يستلزم الأمر ذلك... إنّ اليوبيل يدعو كلّ فردٍ إلى فحص ضميرٍ جادٍّ، وإلى تجدّدٍ روحيٍّ ثابتٍ، تأهّبًا لعملٍ رسوليٍّ حاسمٍ، وأودّ هنا أن أستعيد ما كتبه سَلَفي الموقّر، البابا بولس السادس، في ختام السنة المقدّسة ١٩٧٥: «إنّ الإنسان المعاصر يؤثر الاستماع إلى شهودٍ على الاستماع إلى معلّمين. وإن هو أصغى إلى معلّمين، فلأنّهم شهودٌ».

«هذا القول ما زال صالحًا، اليوم، حيال بشريّةٍ حافلةٍ بالطاقات وبالتطلّعات، ولكنّها مهدّدةٌ بالعديد من المخاطر. ويكفي، في هذا المجال، التفكير بالفتوحات الاجتماعيّة، وبالثورة في مضمار الجينات، وبالتقدّم الاقتصاديّ، وما يقابله من تخلّفٍ في بقاعٍ شاسعةٍ من كوكبنا، ومن مآسي الجوع في العالم، ومن العوائق القائمة في وجه مساعي الحفاظ على السلم. ولا نغفلنّ اتّساع شبكة الاتّصالات، وما يقابله من مآسي الوحدة، والعنف الذي تكشفه الحوادث اليوميّة.

«إخوتي المؤمنين العلمانيّين الأعزّاء، أنتم، على نحوٍ خاصٍّ، مدعوّون إلى إدخال نور الإنجيل في مراكز المجتمع الحيويّة. أنتم مدعوّون إلى أن تكونوا أنبياء الرجاء المسيحيّ، ورسل «الكائن، والذي كان، والآتي، كلّيّ القدرة».

«ما زالت القداسة هي تحدّي المؤمنين الأكبر. ولا بدّ من الاعتراف بجميل المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، الذي ذكّرنا أنّ جميع المؤمنين مدعوّون إلى ملء الحياة المسيحيّة، وإلى الكمال في المحبّة.

«إخوتي وأخواتي الأحبّاء، لا تخافوا من مواجهة هذا التحدّي، وأن تكونوا قدّيسين وقدّيساتٍ. ولا تنسوا أنّ ثمار الرسالة تعتمد على عمق الحياة الروحيّة، وعلى كثافة الصلاة، وعلى تثقّفٍ مستمرٍّ، والتزامٍ صادقٍ بإرشادات الكنيسة. وأكرّر لكم ما سبق لي قوله للشبيبة، أي، إن أنتم كنتم ما ينبغي أن تكونوا، إي إن مارستم مسيحيّتكم، بلا تنازلاتٍ، فستلهبون العالم أجمع.

«قد تبدو الواجبات والأهداف التي تنتظركم تفوق الطاقات البشريّة. ولكن لا تدعوا ذلك يثبّط عزائمكم. «فالذي ابتدأ فيكم هذا العمل الصالح، سوف يواصل تتميمه» (فيليبّي ١: ٦). أبقوا، إذن، أبصاركم شاخصةً إلى يسوع. واجعلوا منه قلب العالم.

«وأنتِ، يا مريم، أُمّ الفادي، وتلميذته الأولى الكاملة، ساعدينا كي نكون شهود هذه الألفيّة الجديدة. واعملي كي يكون ابنك، ملك الكون والتاريخ، يملك على حياتنا، وفي جماعاتنا، وفي العالم أجمع».

صلاةٌ من أجل الدعوات

بمناسبة اليوم العالميّ للصلاة من أجلِ الدعوات، المقرّر الاحتفال به يوم ٢٠٠١/٥/٦، وجّه يوحنّا بولس الثاني رسالةً إلى أصحاب النوايا الحسنة، جاء فيها:

«إنّ لفظة «دعوة» تصف، خير وصفٍ، علاقات الله مع كلّ كائنٍ بشريٍّ، في حرّيّة الحبّ، لأنّ كلّ حياةٍ هي دعوةٌ، حسب قول البابا بولس السادس.

«لفظة «دعوة» هي مدخلٌ إلى فهم ديناميّات الوحي الإلهي، وهي تبيّن للإنسان حقيقة وجوده. وقد جاء في دستور المجمع الڤاتيكانيّ المتعلّق بالكنيسة أنّ «أسمى وجوه الكرامة الإنسانيّة يثوي في هذه الدعوة الموجّهة إلى الإنسان للتواصل مع الله. دعوة الله هذه التي يوجّهها للإنسان كي يحاوره، تبدأ مع الوجود البشريّ، فالإنسان موجودٌ، لأنّ الله خلقه بحبٍّ، ولا يكفّ عن منحه الوجود، بدافع الحبّ. ولا يعهد الإنسان ملء الحياة، وفقًا للحقيقة، إلاّ باعترافه الحرّ بهذا الحبّ، وبتسليمه أمره لخالقه. وعلى حوار الحبّ هذا مع الله، يتيسّر لكلّ شخصٍ أن ينمو وفقًا لتوجّهاته، وللخصال الخاصّة التي مُنحها، والكفيلة بإسباغ معنًى على وجوده اليوميّ، في أثناء مسيرته صوب ملء الحياة.

«في أصل درب كلّ دعوةٍ، يوجد «عمّانوئيل»، الله معنا، وبه نكتشف أنّنا لا نبني حياتنا وحيدين، إذ إنّ الله يواكب خطانا على امتداد الأحداث المتعاقبة. وإن نحن شئنا، فهو ينسج مع كلٍّ منّا، قصّة حبٍّ رائعةً، فريدةً، ومنقطعة النظير، وفي الآن عينه منسجمةً مع البشريّة، ومع الكون كلّه. إنّ اكتشافنا وجود الله في تاريخنا، يحرّرنا من الشعور باليتم، ويشعرنا بأنّ لنا أبًا يسعنا إيلاءه ثقةً كاملةً. ذلكم هو المفترق الكبير الذي يحوّل أفقنا البشريّ الصرف، ويقودنا إلى إدراك أن لا سبيل للإنسان لكي يجد ملء ذاته، إلاّ بتقديم ذاته، تقدمةً خالصةً. هنا يكمن سرّ الوجود المسيحيّ، وكلّ إنجازٍ إنسانيٍّ حقٍّ».

ولحظ قداسته أنّ الثقافة الغربيّة المعاصرة قد أقصت الله عن الحياة اليوميّة، فلا بدّ من تبشيرٍ جديدٍ بالإنجيل، تلتزم به كلّ الجماعة المسيحيّة، ويستند على شهادات رجالٍ ونساءٍ يبرهنون عن خصب الوجود الذي ينبع من الله، وعن القوّة التي يستمدّها هذا الوجود من الخضوع لعمل الروح. كلّ حياةٍ هي دعوةٌ، وكلّ مؤمنٍ مدعوٌّ للإسهام في بناء الكنيسة. وأكّد الحبر الأعظم على الحاجة الملحّة إلى أشخاصٍ متأهّبين لاتّباع المسيح في الحياة المكرّسة، وفي الالتزام بالمقتضيات الإنجيليّة، ويوفّرون ضمانةً لاستمرار منح أسرار المسيح الفادي، مع تنوّع الأزمان والأمكنة، من خلال الكرازة بالكلمة، والاحتفال بالإفخارستيّا، وبسائر الأسرار، ويواصلون اقتياد الجماعات المسيحيّة على دروب الحياة الأبديّة، ويُبقون قِيَم الإنجيل الأساسيّة حيّةً في ضمائر المعمّدين، وواجب الاستجابة لحبّ الله، بقداسة السيرة.

واتّجه فكر البابا إلى جموع الشباب المتعطّشين إلى القِيَم السامية، والذين لا يعثرون على السبيل الكفيل ببلوغها. فلا بدّ من وجود من يرشدونهم إلى من هو، وحده، الطريق والحقّ والحياة. وتلك هي مهمّة الرعاة الذين يتوجّب عليهم إفهام المؤمنين، بوعظهم، وبمثال سلوكهم، كم الكهنوت هامٌّ وضروريٌّ، وتوجيه من يتوسّمون فيهم إشاراتٍ إلهيّةً.

ورجا البابا أن يسهم وجودُ أشخاصٍ مكرّسين وخدمتهم، في فتح قلوب الشباب وأذهانهم على آفاق رجاءٍ مليئةٍ بالله، وفي حثّهم على فضائل التواضع، ومجّانيّة

المحبّة والخدمة، وفي إعدادهم للإصغاء إلى دعوة الربّ، والاستجابة لها بسخاءٍ. وناشد البابا الآباء أن يساعدوا خيارات أبنائهم المصيريّة، ويظهروا لهم أنّ، ثمّة، أفراحًا أسمى وأبقى من الرفاه والمتعة، مثل فرح الحبّ الطاهر المقدّس.

وناشد معلّمي التربية المسيحيّة أيضًا، أن يساعدوا الشباب على اكتشاف مقاصد اللّه فيهم، وإعدادهم لتلبية نداء اللّه، عندما يطرق باب قلوبهم وضمائرهم، ومساعدتهم على ممارسة الصلاة التي تؤهّل لسماع صوت اللّه.

وأنهى يوحنّا بولس الثاني رسالته بهذه الصلاة:

«أيّها الآب القدّوس، نبع الوجود والحبّ الذي لا ينضب، والذي يُظهر في الإنسان الحيّ بهاء مجدك، ويزرع في قلبه بذور دعوتك.

اجعل ألاّ يجهل أحدٌ أو يفقد هذه النعمة، من جرّاء إهمالنا، بل فليسِرْ الجميع، بسخاءٍ كبيرٍ، نحو تحقيق حبّك؟

أيّها الربّ يسوع، في أثناء حجّك على دروب فلسطين، اخترت ودعوت الرسل، وأوكلت إليهم مهمّة الكرازة بإنجيلك، ورعاية المؤمنين، والاحتفال بطقوسك الإلهيّة، فلا تسمح أن تفتقر كنيستك، اليوم، إلى كهنةٍ كُثُرٍ، يحملون إلى الجميع ثمار موتك وقيامتك.

وأيّها الروح القدس، الذي يقدّس الكنيسة، من خلال إغداق مواهبك، انفخ في قلب المدعوّين إلى الحياة المكرّسة، هوًى حميمًا وشديدًا للملكوت، لكي يقفوا وجودهم على خدمة الإنجيل، من خلال «نَعَمٍ» سخيٍّ غير مشروطٍ.

وأيّتها العذراء، كلّيّة القداسة، التي، بلا تردّدٍ، قدّمت ذاتها للعليّ، من أجلِ تحقيق مخطّط الخلاص، استنهضي الثقة في قلب الشباب، لكي يوجد، دائمًا، رعاةٌ غيورون، يقودون الشعب المسيحيّ على درب الحياة، ونفوسٌ مكرّسةٌ قادرةٌ على الشهادة، من خلال العفّة، والفقر، والطاعة، لوجود ابنك قاهر الموت، المحرّر».

شهودٌ للمسيح في الألفيّة الجديدة

بعث يوحنّا بولس الثاني إلى المشاركين في مؤتمر العلمانيّة الكاثوليكيّة المنعقد في روما، بين ٢٥ و١١/٣٠، رسالةً جاء فيها:

«شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين إزهار ربيعٍ روحيٍّ مشجّعٍ في الكنيسة. ولا يسعنا إلاّ أن نشكر للربّ، ما اكتسبه مؤمنون علمانيّون من وعيٍ لكرامة معموديّتهم التي جعلتهم «خلائق جديدةً»، ولدعوتهم المسيحيّة، التي تقتضي منهم النموّ في فهم الإيمان، وممارسته، بصفتهم تلاميذ حقيقيّين للمسيح، وانتمائهم إلى الكنيسة، وذلك في حين يسود جوٌّ من «الدنيويّة»، وينزع مؤمنون كُثُرٌ إلى النأي عن الكنيسة، ويستسلمون للاّمبالاة وللتيّارات الفكريّة الشائعة. من أجل إيقاظ المسيحيّين على وعيٍ أوفر حيويّةً لهويّتهم، لا بدّ من إجراء فحص ضميرٍ جادٍّ، والإجابة على أسئلةٍ جوهريّةٍ لا يجوز لأحدٍ الإعراض عنها: ماذا فعلتُ بعماديَ وتثبيتي؟ هل المسيح هو، حقًّا، مركز حياتي؟ وهل للصلاة مكانٌ أثناء أيّامي، وهل أسوق حياتي على أنّها دعوةٌ ورسالةٌ؟ وهل أستجيب لمقتضى يسوع بأن أكون ملحًا ونورًا؟...

«اليوم، أكثر من أيّ يومٍ مضى، لا بدّ للمسيحيّين الذي ينيرهم ويحدوهم الإيمان، من أن يعرفوا الكنيسة كما هي، بكلّ جمالها وقداستها، ويشعروا أنّها أمٌّ لهم، ويحبّوها لذلك.

«على عتبة الألفيّة الثالثة، يدعو الله المؤمنين، ولا سيّما العلمانيّين منهم، إلى زخمٍ رسوليٍّ متجدّدٍ. فالرسالة ليست ملحقًا مضافًا إلى الدعوة المسيحيّة، فالمجمع الڤاتيكانيّ الثاني يذكّر بأنّ الدعوة المسيحيّة هي، بطبيعتها، دعوةٌ إلى الرسالة، وأنّه ينبغي التبشير بالمسيح بشهادة الحياة، وبالقول... وكلّ شخصٍ، وكلّ جماعةٍ، ناضجين إنجيليًّا، يحدوهما هوًى رسوليٌّ كثيفٌ، يدفعهما إلى الشهادة للمسيح، في كلّ مناسبةٍ، وكلّ وضعٍ، وفي كلّ سياقٍ اجتماعيٍّ، أو ثقافيٍّ، أو سياسيٍّ.

«إنّ دعوة العلمانيّين الخاصّة بهم تتمثّل في نشدان ملكوت الله، تحديدًا، من خلال إدارة الأمور الزمنيّة، التي يديرونها حسب الله. إنّهم يعيشون وسط العالم، ملتزمين بكلّ واجبات العالم، وأعماله، على تنوّعها، في ظروف حياة الأسرة والمجتمع المألوفة، ولكأنّ وجودهم منسوجٌ بها. وفي هذا الموقع، يدعوهم الله إلى العمل، من الداخل، على تقديس العالم، كما يفعل الخمير.

«إخوتي وأخواتي الأعزّاء جدًّا، الكنيسة تحتاج إليكم، وتعتمد عليكم. إنّ تأكيد كرامة الشخص البشريّ، والدفاع عنها، وعن حقوقه، هما ضرورةٌ أشدّ إلحاحًا، اليوم، من أيّ وقتٍ آخر، ويستلزمان جرأة أفرادٍ يدفعهم الإيمان، مزوّدين بحبٍّ مجّانيٍّ حافلٍ بالعطف، ويحترمون حقيقة الإنسان المصنوع على صورة الله، والمعدّ

للنموّ حتّى ملء قامة المسيح. فلا يثبّطنّ عزيمتكم تعقيد الأوضاع، والتمسوا، في الصلاة، القوّة على النهوض بالرسالة، واستمدّوا من الإنجيل النور الذي يهدي خطاكم.

«**يجب ألاّ يثبّطكم تعقيد الأحوال، بل هو جديرٌ بأن يحثّكم على البحث، بحكمةٍ وجرأةٍ، عن حلولٍ مناسبةٍ للاحتياجات إلى الخبز والعمل، ولمقتضيات الحرّيّة، والسلام، والعدل، والمشاركة، والتضامن**».

ودعا قداسته العلمانيّين والعلمانيّات إلى الإسهام المجدي في نشاطات الكنيسة المتاحة لهم، كما أنّه نوّه بالشهادة الجريئة التي قدّمها مؤمنون علمانيّون شجعانٌ عن إيمانهم، والتي أدّت ببعضهم إلى الاستشهاد، وبفضلهم صمد الإيمان في حياة الشعوب.

وختم رسالته بقوله: «**أنتم شهود المسيح في الألفيّة الجديدة!**».

نداءٌ للوحدة

بمناسبة عيد القدّيس أندراوس، في ١١/٣٠، بعث قداسته برسالةٍ إلى البطريرك المسكونيّ برتلماوس الأوّل، ذكّر فيها بما ورد في رسالته العامّة: «**من الواضح أنّ انقسام المسيحيّين يناقض الحقيقة التي دُعوا إلى إعلانها ونشرها، ويشوّه شهادتهم تشويهًا خطيرًا**». وذكّر أيضًا بقول البابا بولس السادس: «**إنّ انقسام المسيحيّين، هو أمرٌ واقعٌ خطيرٌ، يفسد عمل المسيح نفسه**». وأضاف:

«**في ما يتعلّق بالكنيسة الكاثوليكيّة يمكنني أن أؤكّد لقداستكم أنّني عازمٌ على مواصلة حوار الحقيقة والمحبّة. وإنّي أُطلق نداءً إلى الكاثوليكيّين والأرثوذكسيّين، لكي يكثّفوا ويمتّنوا، باستمرارٍ، علاقاتهم الأخويّة، حريصين على الاحترام المتبادل والواثق. فهذا هو السبيل الوحيد الكفيل، مع نعمة الله، بشفاء النفوس من التحفّظات الطارئة، وبتوسيع القلوب حتّى تتوافق توافقًا تامًّا مع مشيئة الله التي تريد الوحدة...**

«**بقلبٍ طاهرٍ وحرٍّ، وخضوعًا لمشيئة الربّ الوحيد، يتوجّب علينا أن نمضي قُدُمًا في البحث الصادق، والأخويّ، والمحبّ، عن شراكةٍ تامّةٍ...**».

البابا والحقوقيّون

صباح يوم ١١/٢٤، استقبل البابا المشاركين في الحجّ اليوبيليّ الذي قام به أعضاء الاتّحاد العالميّ للحقوقيّين الكاثوليكيّين. وممّا قاله، بهذه المناسبة:

«يحتاج عالمنا إلى رجالٍ ونساءٍ يقاومون، بجرأةٍ وعلنًا، انتهاكات الحقوق العديدة، الدائبة على إهانة الأشخاص والبشريّة. ومن ثمّ، إنّ الحقوقيّين مدعوّون إلى التنديد بكلّ الأوضاع التي تتجاهل كرامة الشخص... فاليوم، غالبًا ما يتمّ تجاهل حرّيّة الفكر، وحرّيّة الدين... وفي عدّة بقاعٍ من العالم، بل حتّى عند أبوابنا، يُستهان بحقوق النساء والأولاد بطريقةٍ غير مبرّرةٍ، وتتكاثر الحالات التي يفقد فيها المشرّعون والقضاة وعيهم لقيمة الأسرة المميّزة، قانونيًّا واجتماعيًّا، ويساوونها بأشكالٍ أُخرى من الحياة المشتركة، ما يولّد العديد من الالتباسات في مضمار العلاقات الزوجيّة، والأُسرويّة والاجتماعيّة».

وحذّر الحبر الأعظم من النزعة المستشرية إلى إحلال تشريعٍ وضعيٍّ متنكّرٍ لكرامة الإنسان، محلّ الشريعة الطبيعيّة الثابتة. وخلص إلى القول:

«إنّ ما يميّز الحقوقيّين الكاثوليكيّين، ومن يقاسمونهم الإيمان عينه، هو الوعي بأنّ عملهم المفعم هوًى لصالح العدل، والمساواة، والخير العامّ، يندرج في مشروع الله الذي يدعو البشر أجمعين إلى التعارف بصفتهم إخوةً، وأبناء أبٍ واحدٍ رحيمٍ، ويوكل إلى كلّ امرئٍ رسالة الذود عن حياض كلّ إنسانٍ، وبخاصّةٍ الأكثر ضعفًا، ومهمّة بناء المجتمع الأرضيّ، بما يتوافق مع المقتضيات الإنجيليّة».

مؤتمر الأديان العالميّ

بمناسبة انعقاد مؤتمر الأديان العالميّ من أجل السلام، في «كيوتو»، باليابان، احتفالاً بالذكرى السنويّة الثلاثين لتأسيسه، بعث البابا برسالةٍ، قال فيها:

«لقد خلقنا الله، منشأ الجميع وغايتهم، لكي نحيا معًا بتناغمٍ. من الصائب، إذن، أن يجتمع أشخاصٌ ينتمون إلى تقاليد دينيةٍ مختلفةٍ، ويتضافروا، بروح صداقةٍ وتضامنٍ، على بناء عالم سلامٍ... إنّ تشجيع الحوار يعني حبك أواصر صداقةٍ بين الشعوب، وإرساء علاقاتٍ جديدةٍ بين الجماعات، وتعليم التفاهم والاحترام، بين

مؤمني التقاليد الدينيّة المختلفة... ليس الدين، وينبغي ألاّ يكون، ذريعةً للعداوة...

«حيال المشكلات الملحّة التي يواجهها مجتمعنا المعاصر بأكمله، لا بدّ من أن تعي الأديان دعوتها إلى تجديد جهودها في التعاون على الذود عن الحياة البشريّة وعن كرامتها، وعن الأُسرة، وفي التخفيف من وطأة الفقر، وفي إحلال العدل، والمساهمة في حماية بيئة أرضنا...».

وذكّر البابا بقرار مؤتمر الأديان الذي كان قد عُقِد في الڤاتيكان، عام **١٩٩٩**، والذي نصّ على أنّ «**التعاون بين الأديان المختلفة يجب أن يقوم على نبذ التعصّب والتطرّف، والعداوات المتبادلة التي تقود إلى العنف. إنّنا نعي، جميعنا، شأن التربية بصفتها وسيلةً لنشر التفاهم والتعاون والاحترام المتبادل**».

يوبيل المعاقين

صباح **٢٠٠٠/١٢/٣**، احتفل الحبر الأعظم بقدّاسٍ، احتفالاً بيوبيل «جماعة حاملي الإعاقة»، الذين خاطبهم بقوله:

«أيّها الإخوة والأخوات الأعزّاء جدًّا، أنتم تحملون في قلبكم، وفي حياتكم، رجاء تحريرٍ كبيرًا... حمله يسوع من خلال موته وقيامته... بمعزلٍ عن الإيمان، قد يرتدي هذا الانتظار مظهر خيبة رجاءٍ وقنوطٍ، ولكن عندما يدعمه قول المسيح، يتحوّل إلى رجاءٍ حيٍّ وفاعل...

«عندما نتعرّف المسيح، في أخينا، نستعدّ لأن يتعرّفنا يسوع يوم عودته النهائيّة... وهذا ما يحدث عندما نُحِلّ، في مركز اهتمامنا، الأشخاص الذين آثرهم يسوع، وغالبًا ما يهمّشهم المجتمع، ويستهين بهم.

«باسم المسيح، تلتزم الكنيسة بأن تصبح لكم، دائمًا، وأكثر فأكثر، «بيتًا يرحّب بكم»، ونحن نعلم أنّ حامل الإعاقة – وهو شخصٌ فريدٌ لا غنى عنه – يمتلك، مثل الجميع، كرامةً لا يجوز المساس بها. وهو لا يحتاج، فقط، إلى عنايةٍ، بل، قبل كلّ شيءٍ، إلى الحبّ الذي يتحوّل اعترافًا، واحترامًا، واندماجًا...

«ليست إعاقتكم، فقط، حالة احتياج، بل هي، أيضًا، تشجيعٌ ومساءلةٌ... وتحدٍّ للأنانيّات الفرديّة والجماعيّة، ودعوةٌ إلى صِيَغٍ من الإخاء، لا تني تتجدّد. إنّ

واقعكم يقتضي إعادة نظرٍ في مفاهيم الحياة المرتبطة فقط بالمتعة الشخصيّة، وبالمظاهر، والجدوى...

«تبتغي الجماعة الكنسيّة أن تكون أوثق قربًا منكم ومن ذويكم، وهي تعي أنّ غياب الاهتمام يضاعف الآلام والمعاناة والوحدة، في حين أنّ الإيمان الذي يشهد له الحبّ والمجّانيّة، يهب القوّة، ويُسبغ على الحياة معنًى».

ودعا قداسته المسؤولين الحكوميّين إلى إيلاء المعاقين مزيدًا من اهتمامٍ، ومزيدًا من الاعتراف بكرامتهم وحمايتها، وقال: **«في مجتمعٍ غنيٍّ بالمعارف العلميّة والتقنيّة، يمكن ويجب تحقيق المزيد: ... في مجال البحث الطبّيّ، لتلافي الإعاقة، وفي مجال العلاج والمؤازرة، وإعادة التأهيل، والدمج الاجتماعيّ، على أن تُصان العلاقة الإنسانيّة المتمثّلة في العون، والصداقة، والمشاركة، والنظرة الشاملة إلى الشخص البشريّ».**

وختم قداسته بهذا الدعاء: **«... فيك، يا ربّ الحياة والرجاء، كلّ حدودٍ بشريّةٍ تُفتدى وتُعتق. وبفضلك ليست كلمة الوجود الأخيرة للإعاقة، بل للحبّ، وحبّك هو الذي يضفي على الحياة معنًى. ساعدنا كي نوجّه قلوبنا نحوك، وكي نتوسّم وجهك الذي يشعّ في كلّ كائنٍ بشريٍّ يعاني مِحَنًا، ومصاعب، وألمًا».**

وبعد ظهر ذلك اليوم، استقبل المشاركين في احتفال الصباح، وجاء في كلمته لهم، حيث أشار إلى تطويبات يسوع:

«يذكّرنا المسيح أنّ السعادة، في ملكوت الله، تُعاش، «عكس التيّار»، ولا تقوم على النجاح والرفاه، ولكنّها تجد علّة وجودها العميقة في سرّ الصليب. لقد صار الله بشرًا، بدافع الحبّ. وأراد أن يقاسمنا بشريّتنا حتّى النهاية، واختار أن يكون، بمعنًى ما «معاقًا»، لكي يغنينا بفقره... إنّ مفارقة الرجاء المسيحيّ تكمن في أنّ ما يبدو بشريًّا، مصيبةً، هو، دائمًا، في مخطّط الله «مشروع خلاصٍ».

يوبيل معلّمي التربية الدينيّة

يوم ١٢/١٠، احتفل بقدّاس يوبيل معلّمي التربية الدينيّة، واستهلّ عظته بقول المعمدان: **«أعدّوا طريق الربّ، واجعلوا سبله قويمة»**. وأهاب بمستمعيه أن

يتّخذوا من المعمدان مرشدًا ونموذجًا، فهو «**أوّلاً، مؤمنٌ ملتزمٌ شخصيًّا، على دربٍ روحيٍّ شديد الاقتضاء، قائمٍ على إصغاءٍ يقظٍ ودائمٍ لكلمة الخلاص. وفضلاً عن ذلك، يشهد بأسلوب حياةٍ متجرّدٍ وفقيرٍ؛ وقد برهن عن جرأةٍ قصوى، بإعلانه عن إرادة الله للجميع، غير هيّابٍ من عواقب إعلانه الخطيرة. ولم يستسلم لغواية لعب الدور الأوّل، ملتزمًا التواضع كي يمجّد المسيح**».

ومن ثمّ، فواجب معلّم المبادئ الدينيّة هو الدعوة إلى التحديق في يسوع، وإلى اتّباعه، فهو، وحده المعلّم، والربّ، والمخلّص. وعلى معلّم مبادئ الدين أن يُغفل ذاته، ويبرز المسيح، ويوجّه كلّ شيءٍ نحوه: مجيئه، وحضوره، وسرّه. وعليه أن يكون «**صوتًا يرشد إلى الكلمة**»، وأن يكون مؤهّلاً لذلك، ومؤثّرًا. وعليه الإحجام عن الإدلاء بآراءٍ وأجوبةٍ شخصيّةٍ، وأن تكون آراؤه وأجوبته، دائمًا، متوافقةً مع تعليم الكنيسة الثابت، ومع ما لقّنه وعاشه القدّيسون.

«**ولكنّ معرفة المسيح وإنجيله، معرفةً عقليّةً، غير كافيةٍ. فالإيمان به يعني اتّباعه. ولذلك عليكم التتلمذ في مدرسة الرسل، ومعترفي الإيمان، وقدّيسي كلّ حقبةٍ، الذين ساهموا في نشر اسم يسوع وحبّه، من خلال شهادة حياةٍ، اندرجت، بسخاءٍ وفرحٍ، من أجله ومن أجل إخوتنا.**

«**وقد دعا المعمدان إلى ردم كلّ وادٍ، وخفض كلّ جبلٍ أو تلٍّ، وتقويم المسالك المتعرّجة، وتسهيل الشعاب المتوعّرة، وجعل كلّ بشرٍ يعاين خلاص الله (لوقا ٣: ٥–٦)**».

ورأى قداسته أنّ «الوديان»، اليوم، هي الفجوة بين الإيمان الذي يعلنه بعض المسيحيّين، وسلوكهم اليوميّ، والتي عدّها المجمع المسكونيّ «**من أخطر أضاليل زماننا. أمّا المسالك التي يتوجّب تقويمها، فتعني اجتزاء بعض المؤمنين من إرث الإيمان، الكامل والثابت، عناصر ينتقونها شخصيًّا، وفقًا للتيّارات الرائجة، والتي تنأى عن الروحانيّة الإنجيليّة... وعلى المسيحيّ، في كلّ ظرفٍ، وكلّ وسطٍ، أن يعلن، بجرأةٍ، إنجيل المسيح، فهو بشرى السعادة لكلّ إنسانٍ، أيّةً كانت سنّه، وطبقته، وثقافته، وموطنه...**».

يوبيل المسرحيّين

يوم ١٢/١٦، استقبل ممثّلي عالم المسرح، المحتفلين بيوبيلهم، وقال لهم:

«لدى الكنيسة، رسالةٌ خاصّةٌ بكم: في عملكم، فكّروا، دائمًا، بالأشخاص الذين تتوجّهون إليهم، واذكروا حقوقهم، وتوقّعاتهم المشروعة، ولا سيّما أولئك الذين ما برحوا في مرحلة التثقّف. لا تدعوا الهمّ الاقتصاديّ أو الإيديولجيّ الصرف يستحوذ عليكم. ذلك هو مبدأ التواصل الاجتماعيّ الأساسيّ والأخلاقيّ، الذي يتعيّن على كلٍّ منكم تطبيقه في مجال نشاطه الخاصّ... ولا ريب أنّ الذين يحظون بأوسع شهرةٍ، بينكم، هم الذين يتوجّب عليهم أن يعوا، دائمًا، مسؤوليّاتهم. أيّها الأصدقاء الأعزّاء، إنّ الجمهور ينظر إليكم بتعاطفٍ واهتمام، فكونوا له، دائمًا، نماذج إيجابيّةً، ومتماسكةً، كفيلةً بإيحاء الثقة، والتفاؤل، والرجاء...

«إنّكم تتعاملون بالصوَر، والحركات، والأصوات، أي بما هو خارجيٌّ؛ لذلك عليكم أن تمتلكوا داخليّةً منيعةً، قادرةً على التخشّع. إنّ الله يسكن فينا، وهو أوثق حميميّةً بنا من ذواتنا... فإن أحسنتم محاورته، تمكّنتم من تواصلٍ أمثل مع القريب. وإن برهنتم عن إحساسٍ مرهفٍ حيال الخير، والحقّ، والجمال، غدا إنتاج إبداعكم، حتّى أكثره بساطةً، عاليَ الجودة، فنّيًّا وأخلاقيًّا.

«إنّ الكنيسة قريبةٌ منكم، وتعتمد عليكم، وتنتظر منكم، في كلّ مجالات العرض، أن تبلّغوا الخميرة الإنجيليّة، التي تمكّن كلّ واقعٍ بشريٍّ من تنمية طاقاته الإيجابيّة، إلى أقصى مدًى».

غروب سنة اليوبيل

يوم ٢٠٠٠/١١/٢١، خاطب يوحنّا بولس الثاني الكرادلة، فقال: **«قريبًا سيوصد الباب المقدّس، ولكنّ باب المسيح الحيّ سيظلّ مشرعًا».**

وبمناسبة اختتام السنة اليوبيليّة، واقتراب عيدي الميلاد ورأس السنة، قال:

«... لا يسعنا إغفال أنّ ظلمات الموت تهدّد حياة الإنسان، في كلّ مرحلةٍ من مراحلها... فنزوع الإنسان إلى تنصيب نفسه ربّ الموت، ولكأنّه هو حَكَم حياته الخاصّة وحياة الآخرين، يتفاقم ويشتدّ.

«إنّنا نواجه نُذُر أعراض «ثقافة الموت»، التي تمثّل تهديدًا خطيرًا للمستقبل.

«ولكن، مهما بدت الظلمات كثيفةً ومدلهمّةً، فرجاء انتصار النور، الذي انبلج في ليلة بيت لحم المقدّسة، هو الأقوى.

«فكم من خيرٍ يتحقّق، في صمتٍ، من قِبَل رجالٍ ونساءٍ، يمارسون، يوميًّا، إيمانهم، وعملهم، وتفانيهم، حيال أُسرهم، ولصالح المجتمع!

«وكم هو، أيضًا، مبعث أملٍ، التزام الذين، في الحياة العامّة، يسعون لكي تُحترم حقوق كلّ فردٍ الإنسانيّة، ولكي ينمو التضامن، بين شعوبٍ تنتمي إلى حضاراتٍ مختلفةٍ، ولكي تُسامَح البلدان الأشدّ فقرًا، بما عليها من ديونٍ، ولكي يتمّ التوصّل إلى اتّفاقات سلامٍ مشرّفةٍ، بين بلدانٍ متورّطةٍ في خلافات مدمّرةٍ!

«أنت، أيّها الربّ يسوع، المولود في بيت لحم من أجلنا، تطلب من البشريّة التي تلج إلى ألفيّةٍ جديدةٍ، أن تحترم كلّ إنسانٍ، ولا سيّما الصغير والضعيف؛ وأن تنبذ كلّ أشكال العنف، والحروب، والاستبداد، وكلّ تعدٍّ على الحياة.

«أنت، أيّها المسيح، الذي نتأمّله، اليوم، بين ذراعي مريم، كن أساس رجائنا.

«ففيك، وفيك وحدك، تتوفّر للإنسان إمكانيّة أن يكون خليقةً جديدةً.

«فشكرًا، أيّها الطفل يسوع، لما تمنّ به علينا من نعمٍ».

وفي عظة قدّاس منتصف ليلة الميلاد، هتف:

«في هذه الليلة، يُشرَع الزمن على الأبديّة، لأنّك، أنت، أيّها المسيح، وُلدت في ما بيننا، آتيًا من العلاء. أنت، «ابن العليّ»، وُلدت في أحشاء امرأةٍ مباركةٍ بين جميع النساء، فقدّستْ قداستُك، وإلى الأبد، وقتنا: الأيّام، والقرون، والألفيّات. وبولادتك، جعلت من الزمان، «يوم» الخلاص الأبديّ.

«في هذه الليلة، نحتفل بسرّ بيت لحم، سرّ ليلةٍ مميّزةٍ، هي، في الزمن، وفي ما يتخطّى الزمن. ففي أحشاء العذراء وُلد طفلٌ، وغدا مذودٌ مهدًا للحياة الخالدة.

«عيد الميلاد هو عيد الحياة، لأنّك، أنت يا يسوع، بمجيئك إلى العالم، مثل كلٍّ منّا، باركت ساعة الولادة، الساعة التي ترمز إلى سرّ الوجود البشريّ، قارنًا آلام الولادة بالرجاء، والوجع بالفرح.

«الكلمة يبكي في مذودٍ. واسم الكلمة هو يسوع، أي «اللّه يخلّص»، فهو سيخلّص شعبه من خطاياه.

«لم يولد في قصرٍ، المخلّصُ القادمُ لكي يؤسّس ملكوتًا أبديًّا وشاملاً. وُلد في زريبةٍ. وبمجيئه أضرمَ، في العالم، نار حبّ اللّه، نارًا لن تعهد انطفاءً، أبدًا، فعسى أن تلهب هذه النار القلوب، مثل شعلة حبٍّ واقعيّةٍ، ولتصبح لمن يعانون الحاجة والألم، ترحيبًا وسندًا.

«أيّها الربّ يسوع، أنت الذي نتأمّله في فقر بيت لحم، اجعلنا شهود حبّك، الحبّ الذي دفعك إلى التحرّر من المجد الإلهيّ، كي تأتي وتولد بين ظهراني البشر، وتموت من أجلنا...

«واجعل نور هذه الليلة، الأشدّ سطوعًا من نور النهار، ينعكس على المستقبل، ويرشد خطى البشريّة، على درب السلام.

«أنت، أمير السلام، أنت المخلّص المولود، اليوم، من أجلنا، واكب مسيرة كنيستك، على الطريق المشرَع أمامها، في الألفيّة الجديدة!».

حصاد السنة اليوبيليّة

يوم ٢٠٠٠/١٢/٣١، الذي وافق عيد العائلة المقدّسة، دعا البابا إلى إعادة اكتشاف قيمة الأُسرة، وتضرّع إلى الأمّ السماويّة، هاتفًا: «**أيّتها العذراء القدّيسة، يا فخر الأزمنة الجديدة، ويا نجمة الألفيّة الثالثة، قودي خطانا صوب المسيح**».

ويوم عيد الظهور، ٢٠٠١/١/٦، اختتم السنة اليوبيليّة، بإغلاقه الباب المقدّس في كاتدرائيّة القدّيس بطرس. ومع أنّ الوهن والأمراض كانت قد أثقلت كاهله، ونالت من قواه، بدا يضجّ رضًى. وكان قد انتزع إعجاب الجميع بحرصه على الاضطلاع، أكمل اضطلاعٍ، بكلّ مراحل ذلك اليوبيل، الذي أراده كبيرًا، فجاء أكبر ممّا توقّع.

فقد لاقت دعوته إلى ذلك اليوبيل استجابةً مدهشةً، وأمّ الڤاتيكان خلال عام ٢٠٠٠ أكثر من سبعة وعشرين مليون حاجٍّ، ما أثلج صدر البابا الشيخ، الذي باح:

«غالبًا ما راقبت، من نافذتي، طوابير متمادية الطول، انتظم فيها مؤمنون كانوا ينتظرون، صابرين، دورهم لاجتياز الباب المقدّس. وفي كلٍّ منهم كنت أجهد في استشفاف تاريخ حياةٍ نسجت بالأفراح، والهواجس والآلام، تاريخًا استعاد درب الرجاء، عندما انضمّ إليه المسيح، وعقد معه حوارًا».

ويومها، دعا جميع المسيحيّين إلى انطلاقةٍ جديدةٍ «من المسيح»، الذي وضع التاريخ كلّه، تحت لواء قيامته.

وكان على امتداد تلك السنة المقدّسة قد زوّد كلّ فئةٍ من المؤمنين، وفقًا لرسالتهم الخاصّة، ولتوجّههم في الوجود، بكلمة الحياة، وبالإرشاد المضيء، كي يساعدهم على بلوغ هدف القداسة، الذي ذكّر كلّ معمّدٍ بواجب السعي إليه.

فتحه أبواب اليوبيل، التي ترمز إليها الأبواب المقدّسة في كاتدرائيَّات روما الأربع الكبرى، التي لا تفتح إلاّ في المناسبات الكبرى، إنّما كان تأكيدًا وصدًى للصيحة التي أطلقها يوم تنصيبه على سدّة بطرس، داعيًا إلى فتح الأبواب والقلوب ليسوع. وقد جهد، هو، في إبقاء أبواب الكنيسة مشرعةً، ساندًا مصراعيها بيديه الممدودتين صلاةً ودعاءً، وعلى منكبيه صليب الربّ، غير سامحٍ للسنين، والأمراض، والأوهان أن تنال من عزيمته، أو تثنيه عن غايته. وفي ختام اليوبيل أكّد: **«منذ عام ١٩٧٨، لم أكفّ عن مناشدة الجميع، بصوتٍ عالٍ: «افتحوا الأبواب، على مصاريعها، للمسيح. وما زلت راغبًا في إطلاق هذه الصيحة، في نهاية اليوبيل، وفي مطلع هذه الألفيّة الجديدة».**

وطيلة السنة اليوبيليّة، حرص على أن يكون اليوبيل سانحةً لإبراز عظمة الشهادة، والتذكير ببطولة الشهداء، ولا سيّما أنّ القرن العشرين زخر بأكبر عددٍ من الشهداء في تاريخ المسيحيّة. وفي هذا السياق صرّح قداسته: **«إنّ هذا الإرث يحدّثنا، بصوتٍ أعلى من أصوات جميع مسبّبي الانقسامات، أنّ المسكونيّة الأكثر قدرةً على الإقناع هي مسكونيّة الشهداء، وشهود الإيمان... إنّ إرث الصليب المعاش بنور الفصح، إرثٌ يُغني ويدعم المسيحيّين في رحلتهم على دروب الألفيّة الجديدة».**

وقد وفّر اليوبيل ليوحنّا بولس الثاني فرصةً لرفع لواء المحبّة الشاملة،

والتضامن، والمطالبة بإعفاء الدول الفقيرة من عبء الديون التي ترهق اقتصادها ومواطنيها، وللتذكير بمآسي الفقراء القابعين عند أبواب الأغنياء، مثل لعازر، حتّى في البلدان التي تفخر بازدهارها وبحبوحتها.

وبهذه المناسبة تمنّى ألاّ تكتفي الكنيسة بأن تكون كنيسةً من أجل الفقراء، بل أرادها أن تكون، هي ذاتها، فقيرةً، حقًّا، فقرًا كلّيًّا. فوحدها كنيسةٌ فقيرةٌ، قادرةٌ أن تكون كنيسةً مرسلةً، وفقط كنيسةٌ مرسلةٌ يسعها أن تكون كنيسةً فقيرةً.

وبعد أن همد الصخب الإعلاميّ حول الألفيّة الجديدة، ظلّت دعوة يوحنّا بولس الثاني إلى تعميق فكرة الفداء، التي رسّختها ولادة يسوع، وموته وقيامته، تتردّد وتتفاعل في الأذهان والقلوب. وقد أتاحت سنة اليوبيل لكثيرين تعميق حياتهم الروحيّة.

وبالإجمال، كانت احتفالات اليوبيل إعدادًا لمستقبلٍ أفضل، أكثر ممّا كانت استذكارًا للماضي. وكانت للبابا يوحنّا بولس الثاني تحقيقًا لحلمٍ متوهّجٍ، وتتويجًا لحبريّةٍ خصبةٍ فريدةٍ.

عام ٢٠٠١

كان يوحنّا بولس الثاني قد تخطّى الثمانين من العمر، وبهظت العلل كاهله، وأوهت الأمراض قواه، فانحنى ظهره، وتثاقلت خطاه، واعترت الرجفة يده، وشنّج الألم محيّاه، وفقد صوته رنّته ونبرته؛ غير أنّ جذوة الرسالة لم تفقد شيئًا من توقّدها، وما برح الشعور بالمسؤوليّة ينخسه بلا هوادةٍ. ولكم كانت مؤثّرةً رؤية ذلك الشيخ الواهن يتابع مسيرته، مستعينًا بعكّازه، مستنفدًا حتّى القطرة الأخيرة، بقايا الطاقة التي ما انفكّت تضجّ في أعماقه، كي يبلّغ كلّ ما كان يرغب في تبليغه.

وقد استهلّ العام الجديد بقدّاسٍ تكريمًا لأمّ الله، واحتفالاً بيوم السلام العالميّ الرابع والثلاثين. وفي عظته أشاد بالمجوس الذين قدموا من بعيدٍ، بحثًا عن الحقيقة، فاكتشفوها متخطّين حجاب ظاهر طفلٍ وليدٍ راقدٍ في فقرٍ مدهشٍ، وفي

بساطة مريم ويوسف. وقد غيّر هذا الاكتشاف مصيرهم، وجعل منهم رسُل خلاصٍ، فعادوا فرحين يمجّدون الله.

وبمناسبة السنة الجديدة، جدّد البابا دعوته إلى «**حوار الثقافات من أجل حضارة حبٍّ وسلامٍ**»، محرّضًا الجميع على انتهاج دروب الحوار، بثقةٍ ومثابرةٍ، في سبيل بناء حقبة تضامنٍ أخويٍّ.

وكان البابا، في الليلة السابقة، ٢٠٠٠/١٢/٣١، قد شدّد على شأن الأُسرة، ملاحظًا أنّ الأُسرة المسيحيّة هي انعكاسٌ للشركة الثالوثيّة، ولأُسرة الناصرة.

وفي يوم عيد الظهور، ٢٠٠١/١/٦، عمّد بيديه ثمانية عشر طفلاً، وهنّأ الآباء على منحهم أبناءهم أثمن هديّةٍ.

وفي اليوم عينه وقّع رسالة «إطلالةٌ إلى الألفيّة الثالثة» (Novo Millenio Ineunte)، وفيها لخّص تجربة السنة اليوبيليّة المنصرمة، ودعا إلى الانطلاق إلى العُمق، وإلى عُرض البحار. وإيذانًا باختتام السنة اليوبيليّة، قام بإغلاق الباب المقدّس في كاتدرائيّة القدّيس بطرس، وصرّح، بهذه المناسبة: «**يظلّ قلب المسيح مفتوحًا إلى الأبد، ولا ينفكّ يقول للبشريّة المحتاجة إلى رجاءٍ ومعنًى: «تعالوا إليّ، يا جميع المتعبين تحت ثقل أحمالكم، وأنا أوتيكم الراحة» (متّى ١١: ٢٨) وأكّد «إنّ خبرة اللقاء مع المسيح، الحيّة والمعزّية، هي الإرث الكبير الذي خلّفه لنا اليوبيل**». وأشار إلى أنّ الكنيسة كانت، خلال السنة اليوبيليّة، بمثابة النجم الذي اقتاد المجوس صوب يسوع.

ونوّه الحبر الأعظم باللقاءات التي جرت أثناء اليوبيل، لقاءات الأطفال الذين أضفوا جوّ عيدٍ، ولقاءات الشبيبة الذين فتنوا روما بحماسهم، وبشهاداتهم الجادّة، ولقاءات أرباب الأُسر الذين قدّموا رسالة وفاءٍ وشراكةٍ يحتاج إليها عالمنا، ولقاءات المرضى والمعاقين الذين أدلوا بشهادة رجاءٍ مسيحيٍّ بليغةٍ، ولقاءات عالم الثقافة والعلم، الذي برهن عن مثابرةٍ رائعةٍ في البحث عن الحقيقة.

وشبّه البابا الحجّاج الذين قدموا احتفالاً باليوبيل، بالمجوس الذين أتوا لمشاهدة الملك الوليد، ودعاهم إلى الركوع أمام الربّ، على غرار المجوس، وتسليم

ذواتهم له، وتوجيه حياتهم إلى ما يرضيه، والانطلاق بحماس العنصرة، في طريقٍ جديدٍ، طريق تبشيرٍ وشهادةٍ لحبّ المسيح.

وفي ١/١٣، استقبل الهيئة الدبلوماسيّة المعتمدة في الڤاتيكان، وقال له عميد الدبلوماسيّين: «نحن بحاجةٍ إلى سلطتكم». أمّا الحبر الأعظم فعبّر عن أسفه لما يجتاح بيت لحم والقدس، من مظالم وحروبٍ، وانتهاك حقوقٍ.

واختتم أُسبوع الصلاة من أجل وحدة المسيحيّين، بقدّاسٍ في كاتدرائيّة القدّيس بولس خارج الأسوار، ودارت عظته حول قول الربّ: «**أنا الطريق والحقّ والحياة**»، مؤكّدًا أنّه الردّ على تساؤلات الشبيبة القلقة، وداعيًا المسيحيّين إلى الشهادة، بسلوكهم، بأنّ المسيح هو قدرة اللّه وحكمته، وأنّ فيه ملء تطلّعات البشر.

وشكر قداسته للوفود، التي شاركت في هذا الاحتفال، حضورها، والتي تألّفت من وفد البطريركيّة الأرثوذكسيّة المسكونيّة، ممثّلاً البطريرك برتلماوس الأوّل، ومن ممثّلين لمعظم البطريركيّات الأرثوذكسيّة في العالم، وللاتّحاد الأنغليكانيّ، واللوثيريّة العالميّة، والاتّحاد العالميّ لكنائس الإصلاح. وصرّح، في الكلمة التي ألقاها بهذه المناسبة: «**إنّي أتوقّع الكثير من الأسفار التي ستقودني إلى سوريّة وأوكرانيا، وأرغب أن تساهم هذه الأسفار في المصالحة والوئام بين المسيحيّين. وسأجعل ذاتي، مرّةً ثانيةً، حاجًّا على دروب العالم، من أجل الشهادة للمسيح**». وأكّد أنّ التزامه المسكونيّ جزءٌ أساسيٌّ من رسالته، وأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة عازمةٌ على السعي إلى الوحدة المسكونيّة، وتجاوز الخلافات التي لا يمكن تجاهلها، لأنّ الانقسام يعارض إرادة الربّ، وينال من مصداقيّة الإنجيل؛ وأشاد قداسته بكلّ شهادات القداسة البطوليّة، التي تقدّمها الكنائس غير الكاثوليكيّة، وبكلّ مبادرات التقارب والمشاركة.

وبمناسبة يوم التواصل الاجتماعيّ الخامس والثلاثين، المقرّر الاحتفال به في ٢٠٠١/٥/٢٧، بعث برسالةٍ جاء فيها: «**لا يمكن لصوت المسيحيّين أن يصمت أبدًا، لأنّ الربّ أوكل إلينا كلمة الخلاص التي يصبو إليها كلّ إنسانٍ بحرارةٍ. إنّ**

الإنجيل يحتوي الجوهرة الثمينة التي يبحث الجميع عنها»، ولذلك لا يسع الكنيسة إلاّ أن تنخرط، انخراطًا كثيفًا، في عالم التواصل الذي يمرّ بأكثر مراحل نموّه نشاطًا؛ ولا بدّ من أن يمارس التواصل تأثيرًا جليًّا على الثقافة وعلى تعميمها. وإذن، على المسيحيّين المعنيّين بالتواصل، تقع «**مهمّةٌ نبويّةٌ، مهمّة الدعوة إلى التنديد بالآلهة الزائفة، وأصنام اليوم: المادّيّة، والمتعة، والاستهلاك، والتعصّب الوطنيّ الضيّق...، ومهمّة إعلان الحقيقة**».

ويوم ٢٠٠١/١/٣٠، استقبل أعضاء المجلس الأُسقفيّ الهنغاريّ، وذكّرهم بأنّ أُولى مهامّ رعاة الكنيسة هي إعلان حقائق الإيمان التي تتجلّى، على نحوٍ ساطعٍ، في التجسّد والسرّ الفصحيّ، وقال: «**إنّ رسالتنا تستمدّ قوّتها من تأمّل وجه المسيح، اللّه والإنسان، الذي مات وقام من أجلنا**». وحذّر قداسته من تنامي ثقافة الموت، ومن النهم إلى الاستهلاك الذي يحجب الأهداف الروحيّة، ويدفع بالناس إلى السلوك وكأنّ اللّه قد مات، ولم يعد له وجودٌ. وهنّأ الأساقفة بالشعار الذي رفعوه: «**ماضينا هو رجاؤنا، والمسيح مستقبلنا**»، وحرّضهم على إيلاء اهتمامٍ خاصٍّ بالشباب.

وبمناسبة يوم المريض العالميّ، في ٢٠٠١/٢/١١، قال: «**المتألّمون والذين يعنون بهم هم واحدٌ في المسيح**»، وشدّد على ضرورة أن يتناول التبشير الجديد كرامة الإنسان المتألّم.

وخصّ يوم الشبيبة الذي سيُعقد يوم أحد الشعانين في روما، برسالةٍ قال فيها: «**من أعماق قلبي أودّ أن أشكر للّه نعمة الشباب الذي يدوم، من خلالكم، في الكنيسة وفي العالم... إنّ يسوع يسير أمام خاصّته، ويدعو كلاًّ منهم إلى التمثّل به، قائلاً: «أنا لم آتِ لكي أُخدَم، بل لكي أخدُم، وأكون خادمًا للجميع. جئتكم كمن لا يملك شيئًا، ومن ثمّ يسعني أن أطلب منكم التخلّي عن كلّ ثروةٍ تحول دون دخولكم إلى ملكوت السماء. إنّ إنكار الذات الذي يقتضيه يسوع، يعني التخلّي عن المشروع الشخصيّ، وهو غالبًا محدودٌ، في سبيل تبنّي مشروع اللّه. هذا هو درب التحوّل الذي لا غنى عنه، في الحياة المسيحيّة... «لا يطلب يسوع التخلّي عن الحياة، بل نشدان جدّة الحياة وامتلاءها اللذين لا يوفّرهما سواه. في أغوار كيان كلّ إنسانٍ تثوي نزعةٌ إلى وضع ذاته في مركز اهتمامه، وإلى اعتبار**

ذاته معيار كلّ شيءٍ. وبالمقابل يأبى من يقتفي خطى المسيح هذا الانكفاء على الذات، ولا يقيس الأشياء بمقياس فائدته الشخصيّة. وهو يقيّم الحياة وفق معايير العطاء المجّانيّ، لا بمعايير الاستيلاء والامتلاك. وعندما يصبح اتّباع الربّ هو القيمة العليا، تجد جميع القِيَم الأُخرى مكانها الصحيح، ووزنها الفعليّ».

صباح يوم ٢٠٠١/٣/١١، طوّب **٢٣٣** شهيدًا من شهداء الحرب الأهليّة الإسپانيّة، قُتلوا بسبب وفائهم لإيمانهم. وفي العظة التي ألقاها بهذه المناسبة، قال:

«**ليست القداسة امتيازًا موقوفًا على فئةٍ ضئيلةٍ. إنّ دروب القداسة متعدّدةٌ، تمرّ عبر أحداثٍ يوميّةٍ واقعيّةٍ صغيرةٍ، وتؤدّي، في كلّ وضعٍ، فعل حبٍّ... نحن، جميعنا، مدعوّون إلى القداسة. إنّ هؤلاء الشهداء، من خلال حياتهم وموتهم، يعلّموننا أنّ لا شيء يعلو على حبّ الله لنا، الحبّ الذي أظهره من خلال يسوع المسيح... الشهادة واقعٌ لا يخصّ الماضي فقط، بل يخصّ الحاضر أيضًا... إنّ إرث شجاعة شهود الإيمان هؤلاء، هو سجلّ الحقيقة المدوّن بحروفٍ من دمٍ**».

يوم ٢٠٠١/٣/١٧، استقبل أعضاء مجلس الأساقفة اللاتينيّين في الدول العربيّة، وقال لهم: «**إنّي أعرف المشاكل الكبرى التي تواجهها شعوب منطقتكم، وأودّ أن أؤكّد قربي وتعاطفي مع جميع المتألّمين، وجميع ضحايا العنف. معكم تتألّم وتتوجّع الكنيسة كلّها... أتمنّى، بحرارةٍ، أن تُخدم كرامة كلّ إنسانٍ يحقّ له أن يعيش بسلامٍ وأمانٍ في أرضه**»، ودعا إلى الحوار والمساواة «**لكي لا يكون أحدٌ ضحيّة تمييزٍ وتهميشٍ، بسبب عقيدته الدينيّة، ولكي لا تنعم أيّة طائفةٍ دينيّةٍ بوضعٍ مميّزٍ، على حساب الطوائف الدينيّة الأُخرى...**».

وبهذه المناسبة ندّد بالمقاطعة المفروضة على العراق، والتي تقع نتائجها الوبيلة على الضعفاء والعزّل.

ودعا الأساقفة، أصدقاء حركات «فوكولاري»، المشاركين في مؤتمرهم السنويّ الخامس والعشرين، إلى «**أن يجعلوا من الكنيسة مكانًا للحياة، ومدرسةً لتعليم سرّ الحبّ الإلهي**». وقال: «**في صليب يسوع نجد نبع خلاصٍ حقيقيًّا، وإعلانًا ساميًا لحبّ الله، والجذور العميقة للتواصل مع الله، وفي ما بيننا**».

افتتاح «مركز يوحنّا بولس الثاني الثقافيّ» في واشنطن

يوم ٢٠٠١/٣/٢٢، تمّ، رسميًّا، افتتاح ذلك المركز، الذي تضافر على بنائه وتجهيزه ثلاثةٌ وخمسون ألفًا وخمس مئة متبرّعٍ، بحضور الرئيس جورج بوش وأعضاء مجلس الشيوخ، ورهطٍ من الكرادلة والأساقفة. وبهذه المناسبة، ترأّس البابا قدّاسًا، بمشاركة العديد من الكرادلة والأساقفة، وثمانين كاهنًا. وفي تلك الليلة، أضاء مهرجانُ أضواءٍ الصرحَ الجديد، الذي سيبثّ أضواءً روحيّةً وفكريّةً، تنير الأذهان والقلوب. وبهذه المناسبة ذكّر البابا أنّه قد شجّع، دائمًا، قيام حوارٍ خصبٍ وخلّاقٍ بين الإيمان والثقافة، وأكّد، مجدّدًا، «**أنّ سرّ يسوع المسيح، وحده، يلقي ملء الضوء على سرّ الإنسان، ويرسي قاعدةً متينةً لتقدّم الأُسرة البشريّة، تقدّمًا حقيقيًّا، في ميادين العدل والسلام، والتضامن. فابن الله المتجسّد يكشف للإنسان ذاته كشفًا كاملاً، ويوضح له دعوة البشريّة السامية في مخطّط الله الخلاصيّ**».

وألقى الرئيس بوش كلمةً قال فيها «إنّ يوحنّا بولس الثاني قد صاغ التاريخ، وإنّه، منذ تولّيه السدّة البابويّة، لم يكفّ عن تدوين أكثر صفحات حقبتنا تأثيرًا، قارنًا، دائمًا، التسامح بهوى الحقيقة»، معلنًا أنّ خيرات العالم ليست بشيءٍ ما لم تُقتسم بسخاءٍ. وأضاف: «**إنّ البابا يرشدنا، دائمًا، إلى الأمور التي تدوم، وإلى الحبّ الذي يخلّص. إنّنا نشكر لله هذا الرجل، فهو خادم الله، وبطل التاريخ. وشكرًا لبناء مركز الضمير والفكر هذا في عاصمة بلادنا**».

أحد الشعانين (٢٠٠١/٤/٨)، يوم الشبيبة الوطنيّ

في عظة القدّاس الذي احتفل به في ساحة القدّيس بطرس، أشار البابا إلى اقتران سعفة النصر بصليب الآلام. «**فيسوع قد سلّم نفسه للآلام طوعًا. وواجه الموت على الصليب بملء حرّيّته، وبالموت انتصر. لقد سبر مشيئة الآب، وأدرك أنّ الساعة آنت، فرحّب بها بطاعة الابن الحرّة، وبحبٍّ للبشر لامحدودٍ... لقد أعطانا الحياة من خلال الصليب. وبفضل موته وقيامته انتصر الإنجيل، ووُلدت الكنيسة...**».

وكان البابا قد استقبل، قبل ثلاثة أيّامٍ، وفد الشبيبة الإيطاليّة، وذكّرهم بأيّام

الشبيبة العالميّة في «تورڤرغاتا» التي عقدت في الصيف الماضي. وبما أنّ يوم الشبيبة الإيطاليّة، الذي سيُعقد يوم أحد الشعانين، تحت شعار: «**لننطلق إلى عُرض البحر**»، سأل قداسته: «**ننطلق إلى العُرض، لكي نذهب أين؟ لكي نلتقي الإنسان، ذلك السرّ الذي لا يُسبَر له غورٌ، وجميع البشر، ذلك المحيط اللامحدود. وهذا ممكنٌ في كنيسةٍ رسوليّةٍ قادرةٍ على مخاطبة البشر، وقادرةٍ، خاصةً، على النفاذ إلى قلب الإنسان، لكي يتحقّق، في هذا الموقع الحميم والمقدّس، اللقاء مع المسيح المخلّص**...

«**ليست الرسالة سهلةً. فإعلان الإنجيل والشهادة له، ينطويان على مصاعب جمّةٍ. فنحن نحيا في حقبةٍ تتأثّر مجتمعاتها بنماذج حياةٍ تضع، في المقام الأوّل من اهتماماتها، الامتلاك، والمتعة، والتظاهر، على نحوٍ أنانيٍّ... ولكن لا نخافنّ، فبوسع المسيح تغيير قلب الإنسان، وتحقيق «صيدٍ عجائبيٍّ»، من حيث لا نتوقّع... إنّ ثورةً ثقافيّةً وروحيّةً ضروريّةٌ لكي يتسرّب الإنجيل إلى مفاصل الحياة. فكونوا، أيّها الشباب، صنّاع هذه الثورة السلميّة، القادرة على الشهادة لحبّ المسيح نحو الجميع، بدءًا بالأكثر حاجةً، والأكثر ألمًا. بوسعكم فعل الكثير، إن بقيتم متّحدين، ودرأتم عنكم من يعرضون أهدافًا سهلةً، ويخفضون مستوى الحياة الأخلاقيّة وجودتها.**

«**إنّ من يحدّثكم هو بابا تخطّى الثمانين من سني عمره، ولكنّه يحتفظ بقلب شابٍّ، ابتغى دائمًا، وما زال يبتغي السير معكم، أنتم الشباب، فأنتم رجاء الكنيسة والمجتمع.**

«**تنبّهوا لما يُعرض عليكم. فعندما تُعرَض عليكم أقوالٌ وأنماط حياةٍ مخالفةٌ للإنجيل، فلتكن لديكم القدرة على قول «لا». إنّ الإبحار إلى العُرض يعني رفض كلّ ما هو سلبيٌّ، ووضع إبداعكم في خدمة المسيح**».

ويوم الجمعة المقدّسة، إثر احتفاله برتبة درب الصليب، أعلن: «**نريد أن نعلن أنّ ابن الله، من خلال الصليب، وبقبوله هذه المهانة، مهانة إدانةٍ موجّهةٍ إلى العبيد، قد أشرع للبشريّة الطريق إلى المجد**».

يوم ٤/٢٢، وكان الأحد الأوّل بعد الفصح، احتفل للمرّة الثانية بعيد الرحمة الإلهيّة الذي كان قد أسّسه لسنةٍ خلت، بمناسبة تطويبه الأُخت «فوستينا كوڤالسكا»، التي بلّغت قول يسوع لها: «**لن تعهد البشريّة السلام، حتّى تتوسّل**

الرحمة الإلهيّة، بثقةٍ». وأعلن البابا: «**هذه هي الهبة الفصحيّة التي تتلقّاها الكنيسة من المسيح الناهض من الموت، والتي يزفّها إلى البشريّة في فجر الألفيّة الثالثة**».

وأشار إلى ظهور يسوع القائم من الموت للتلاميذ، الذين أراهم ثقوب يديه ورجليه، وأرسلهم لتبشير العالم، وخوّلهم قدرةً على حلّ الخطايا وربطها. وعلّق على ذلك بقوله: «**نحن، أيضًا، نحيا هذه اللحظة، بكثافةٍ روحيّةٍ كبرى. فالربّ يُظهر لنا، اليوم أيضًا، جراحه المجيدة، وقلبه نبع النور والحقيقة، والحبّ والغفران، الذي لا ينضب**».

وكان قد استقبل وفد اتّحاد طلبةٍ جاؤوا يقضون الأسبوع المقدّس في روما، وتحدّث إليهم حول موضوع: «كيف عليّ أن أحيا إيماني المسيحي؟» ونصحهم بالسهر على ألاّ تحجب الأمور الاقتصاديّة، عن اهتمامهم، قِيَم الروح: «**فللحقّ الأولويّة على المفيد، وللخير الأولويّة على الرفاه، وللحرّيّة الأولويّة على الأزياء، وللشخص الأولويّة على البنى الاجتماعيّة**»، ودعاهم إلى عدم الاكتفاء بالنقد، بل حثّهم على إطلاق المبادرات اليوميّة الصغيرة الخلاّقة، التي تؤسّس لسلوكٍ مستقيمٍ جديدٍ، وإلى إدراك عظمة رسالتهم، وأهاب بهم أن يُعرِضوا عن السلبيّة، وأن يؤمنوا بأنّ الأحداث البشريّة خاضعةٌ ليد العناية الإلهيّة، التي تقتضي تعاون كلّ إنسانٍ معها، من أجل توجيه التاريخ نحو هدفٍ جديرٍ بالإنسان، موضحًا أنّ الإيمان ليس مجموعة عقائد وشعائر مسجونةٍ في إطارٍ مغلقٍ، بل يجب أن يكون قوّةً تترجَم إلى خيارٍ يؤثّر على علاقة الإنسان بالآخرين. وأنهى خطابه بدعوتهم: «**انطلقوا إلى أعالي البحار، حيث اللجّة أعمق، وحيث سرّ حبّ الله يفتح لكم مجالاتٍ رائعةً، لا تكفي حياةٌ بكاملها لاكتشافها**».

في **٢٠٠١/٤/٢٩**، أعلن خمسة طوباويّين جدُدٍ، منهم أُسقفٌ مؤسّسٌ لجمعيّة مرسلين، وعلمانيٌّ، وثلاث راهباتٍ مؤسِّساتِ رهبانيّاتٍ، اعتبرهم شهودًا للنعمة الفائقة، نعمة القداسة، التي يمنّ بها القائم من الموت على كلّ معمّدٍ، فطوبى لمن يستثمرون هذه النعمة، ويوفّقون حياتهم مع المسيح الذي مات وقام.

وكان قد استقبل، صباح يوم **٢٠٠١/٤/٢٦**، ممثّلين عن المؤسّسات والأُسر

التي استقبلت أولاد منطقة شرنوبيل الأوكرانيّة، التي تعرّضت للكارثة النوويّة، قبل خمس عشرة سنةً، وصرّح: «**مع اقتراب موعد سفري إلى أوكرانيا، تتنامى لديّ الرغبة في ضمّ جميع أبناء هذه الأُمّة الحبيبة جدًّا، وفي تقبيل تلك التربة التي عانت الكارثة النوويّة...**» وأعرب البابا عن شكره لجميع الذين تضامنوا مع أبناء تلك المنطقة المنكوبة.

على خطى القدّيس بولس

وأخيرًا حان ليوحنّا بولس الثاني أن يحقّق حلمًا عزيزًا آخر، هو الحجّ على خطى القدّيس بولس، بعد أن اقتفى، في العام الفائت، خطى الربّ والأنبياء في سيناء مصر، وفي فلسطين.

استهلّ هذه الرحلة من اليونان التي دعاه رئيس جمهوريّتها رسميًّا إلى زيارتها. غير أنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة اليونانيّة أعلنت عدم ارتياحها لتلك الزيارة، وهدّد رهبان جبل آثوس بالنزول إلى الشارع والتظاهر الصاخب، إعرابًا عن عدم ترحيبهم بالزائر. وادّعى متطرّفون يونانيّون أنّ زيارة رئيس الكنيسة الكاثوليكيّة هو بمثابة «تدنيس» لأرض اليونان «المقدّسة».

وهكذا في جوٍّ مشحونٍ بالعداء، وعلى رنّات أجراسٍ تقرع حزنًا، حطّت الطائرة البابويّة في مطار أثينا، قبل ظهر يوم الجمعة، ٢٠٠١/٥/٤. واستقبل رئيس الجمهوريّة «كوستيس ستيفانوپُلُس» الحبر الأعظم. وقدّم له فتًى وفتاةٌ غصن زيتونٍ، وحفنةً من تراب اليونان، قبّلهما، متجاهلاً معارضة المتشدّدين. ثمّ امتطى، برفقة رئيس الجمهوريّة سيّارةً مصفّحةً، اخترقت شوارع أثينا التي زُرعت برجال أمنٍ، وأقفرت من الجماهير. وفي القصر الجمهوريّ جرى الاستقبال الرسميّ. وقد ردّ البابا على ترحيب مضيفه منوّهًا بما يدين له الغرب، والكنيسة منذ نشأتها، والعالم بأسره، لليونان. ففي اليونان تمّ اللقاء الأوّل بين المسيحيّة الناشئة والحضارة اليونانيّة، ومن اليونان، استقى الآباء القدّيسون الأوّلون الثقافة، والبلاغة، والقدرة على إيصال البشرى إلى العالم المتمدّن.

ونوّه البابا بانثقاف الإنجيل في العالم اليونانيّ، متمنّيًا أن يُعتمَد مثالاً يُحتذى في أيّ انثقافٍ، ولا سيّما في حقبة «العولمة»، ومتمنّيًا، أيضًا، حلول التناغم والتناسق بين المسيحيّين أنفسهم، في الشرق والغرب، حتّى تتمكّن الكنيسة من التنفّس بملء رئتيها.

وبعد ظهر ذلك اليوم، استقبل الحبر الأعظم في مقرّ القصادة الرسوليّة في أثينا، أيضًا، المجلس الأُسقفيّ الكاثوليكيّ، وحرّضهم على مواصلة السعي من أجل وحدة المسيحيّين. ثمّ، عند الساعة السادسة والنصف، زار، والوفد المرافق له، المطرانيّة الأرثوذكسيّة، حيث استقبله رئيس أساقفة أثينا وكلّ اليونان، سيادة المطران «خريستوذولُس پارسكيڤاييدس»، الذي ألقى خطابًا ضمّنه كلّ ما يكنّه الأرثوذكسيّون اليونانيّون من مآخذ على الكنيسة الكاثوليكيّة، ومن أحقادٍ موروثةٍ من قرونٍ. وممّا جاء في ذلك الخطاب:

«للمرّة الأولى في التاريخ يزور أثينا بابا روما. إنّ هذا الحدث يملأنا فرحًا. غير أنّ فرحنا هذا تكدّره انقساماتنا. فالمسبّبات العقيديّة والكنسيّة التي حصلت منذ ألف سنةٍ، تسمّم الجوّ، وتعيق الشروط الضروريّة كي تثمر زيارتك، وتؤتي نتائج. لقد رُفعت الحرُمات، بنعمةٍ منه تعالى، ولكنّ المسبّبات ما زالت قائمةً.

«يا صاحب القداسة، لا يخفى عليك أنّ قسمًا كبيرًا من مجموع الكنيسة اليونانيّة يعارض وجودك هنا...» وذكّر الأُسقف بالموقف «اللاأخويّ» الذي وقفه العالم المسيحيّ في الغرب من الشعوب الأرثوذكسيّة، كما ذكّر «بهوَس الصليبيّين الهدّام والسيطرة اللاتينيّة»، و«الاقتناص»، وبشتّى الإساءات «التي لم يصدر أيّ استغفارٍ عنها».

ولكنّه اختتم خطابه بتمنّي «أن تؤسّس زيارتك لمبادئ تطوّرٍ إيجابيٍّ بشأن الموضوع العظيم، موضوع الوحدة للجميع».

وردّ الأب الأقدس بخطاب مصالحةٍ جاء فيه:

«إنّنا نشترك، معًا، بالإيمان الرسوليّ، في يسوع المسيح ربّنا ومخلّصنا. لدينا إرثٌ

رسوليٌّ مشتركٌ، ورباط سرّ المعموديّة، ومن ثمّ، نحن جميعنا أعضاء في أُسرة الله، ومدعوّون إلى خدمة الربّ الواحد، وإعلان الإنجيل في العالم.

«لا ريب أنّنا نحمل عبء خلافات قديمةٍ وحاضرةٍ، وسوء تفاهمٍ مستمرٍّ. ولكن بروح محبّةٍ متبادلةٍ، يمكن ويجب تخطّي هذه الخلافات، لأنّ تجاوزها هو ما يطلبه الربّ منّا. ومن الواضح أنّنا بحاجةٍ إلى مسيرة تنقية ضميرٍ محرِّرةٍ. فمن أجل كلّ الظروف الماضية والحاضرة، التي أخطأ فيها أبناء وبنات الكنيسة الكاثوليكيّة، بالفعل أو بالإهمال، إلى إخوتهم وأخواتهم الأرثوذكسيّين، فليهبنا الربّ الصفح الذي نلتمسه منه... إنّنا نوكل الماضي الباهظ إلى رحمة الله اللامحدودة، ونتوسّله شفاء الجراح التي ما انفكّت توجع قلب الشعب اليونانيّ...

«أودّ أن أعبّر لغبطتكم عن أملي بالسير معًا على دروب ملكوت الله... والعمل بطريقةٍ تزداد، باستمرارٍ، حرارةً، لصالح وحدتنا التي يريدها المسيح. فانقسام المسيحيِّين خطيئةٌ في عينَي الله، ومعثرةٌ للعالم، وعائقٌ دون التبشير بالإنجيل، لأنّه ينال من مصداقيّته.

«بروح محبّةٍ، وبرجاءٍ حيٍّ، أؤكّد لكم أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة ملتزمةٌ، بلا رجوعٍ، على درب وحدة جميع الكنائس...».

وفي مساء ذلك اليوم التقى البابا ورئيس الأساقفة اليونانيّ على تلّة «الآيروپاغُس» الشهيرة، حيث بشّر رسول الأُمم الوثنيّين «بالإله المجهول»، الذي أقاموا له نصبًا، وهم يجهلون هويّته. وهناك جلس الحبران على مقعدَيْن متقابلَيْن تفصل بينهما إيقونةٌ مهيبةٌ للقدّيس بولس، وكأنّه الشاهد على لقائهما، داعيًا كليهما إلى المصالحة والمحبّة، والإيمان، وانطلاقًا من نصح ذلك الرسول العظيم للكورنثيّين: «أطلب منكم، أيّها الإخوة، باسم ربّنا يسوع المسيح، أن تكونوا جميعكم على قلبٍ واحدٍ، ولا يكون في ما بينكم شقاقاتٌ، بل تكونوا ملتئمين بفكرٍ واحدٍ، ورأيٍ واحدٍ...» ووقّعا بيانًا مشتركًا انطوى على مبادئ أساسيّةٍ، وخطواتٍ عمليّةٍ كفيلةٍ بتمهيد السبيل إلى المصالحة والوئام. وقد عبّر فيها الجانبان عن أسفهما لعدم مواكبة التقدّم التقنيّ، تقدّمٌ في القِيَم الروحيّة ولحصر فوائد التقدّم التقنيّ على فئةٍ ضئيلةٍ، عوضًا عن تساوي الجميع في فوائده، وطالب الجانبان أن يفتح هذا التقدّم قلوب المحظيّين على معاناة المحرومين والمتألّمين، والمحتاجين.

وندّد البيان بتفاقم الحروب والمجازر في العالم، وأكّد التزام الموقّعين بالسعي إلى إقرار السلام، واحترام الحياة، والكرامة الإنسانيّة، والتضامن مع المحتاجين. وتمنّى ألاّ يغفل الاتّحاد الأوروپّيّ جذوره ومبادئه المسيحيّة.

وصباح يوم السبت ٥/٥/٢٠٠١، أقام البابا قدّاسًا، بمشاركة الأساقفة الكاثوليكيّين اليونانيّين، في قصر الرياضة التابع للمركز الأولومپيّ. وأشار، في عظته، إلى أنّ الرسول بولس استطاع النفاذ إلى عقول الأثينيّين، لأنّه خاطبهم بلغتهم، ولأنّه كان متمكّنًا من ثقافتهم. ومن ثمّ، فمن أجل تبليغ أبناء عصرنا بشرى الخلاص، على الكنيسة أن تلمّ بمختلف وجوه ثقافتهم، ووسائل اتّصالاتهم، على ألاّ يفضي ذلك إلى تشويه الرسالة، ولا إلى النيل من فحواها وأثرها.

زيارة يوحنّا بولس الثاني إلى دمشق

من جوّ أثينا المكفهرّ، انتقل يوحنّا بولس الثاني إلى محطّته الثانية في حجّه على خطى بولس الرسول، إلى دمشق مهد القدّيس بولس الروحيّ، ومهد المسيحيّة. وقد كان لهذه المحطّة وقعٌ مميّزٌ. فلدمشق مكانةٌ حاسمةٌ في مسيرة القدّيس بولس. فعلى أبوابها صعقه نور الربّ، وقلب كيانه، وفي أحد أحيائها تملّى من معرفة يسوع الحقّة، ونال سرّ العماد، ومنها انطلق، بكلّ غيرته، واندفاعه، وعبقريّته، كي يبشّر العالم بالإنجيل.

ودمشق هذه غمرت ضيفها الرفيع بدفء ضيافتها الزاخرة بالحفاوة والتكريم، والعابقة بالمودّة الصادقة، وسط إجماع السوريّين على الترحيب بضيفهم الجليل. وكانت الاستعدادات لهذه الزيارات قد انطلقت بحماسٍ، قبل أشهرٍ. وبذل عددٌ من المسلمين، في نطاقها، جهودًا سخيّةً، واندفعوا في سبيل إنجاحها اندفاعًا يستحقّ الإعجاب، ويستأهل أعمق شكرٍ. وكذلك كان موقف الطوائف المسيحيّة غير الكاثوليكيّة، التي أحاطت رئيس الكنيسة الكاثوليكيّة بأعظم تكريمٍ.

وقد وظّفت الدولة وسائل إعلامها لتغطية تلك الزيارة، وإبراز شأنها، وجهّزت مرافقها العامّة خير تجهيزٍ من أجل إضفاء أبهى حلّةٍ على ذلك الحدث الفريد.

حطّت طائرة الضيف الكريم في مطار دمشق الدوليّ، عند الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت ٢٠٠١/٥/٥. وقدّم فتّى وفتاةٌ للبابا حفنةً من تراب سوريّا، في صندوقٍ من الموزاييك، الذي طالما برع السوريّون في ابتداعه، وجرت حفلة استقبالٍ في صالون الشرف بالمطار، استهلّها الرئيس بشّار الأسد بكلمةٍ جاء فيها: «يا صاحب القداسة، إنّكم، وأنتم تزورون سوريّة، تطأون أرض التاريخ، والوطن الذي احتضن أقدم حضارات العالم، وكان منارةً من منارات المعرفة، أضاءت للبشريّة، خلال قرونٍ كثيرةٍ، كان العالم، خلالها، في معظم بقاعه، يسترشد بنورها. ومن سوريّا التي حمت الديانة المسيحيّة بعد السيّد المسيح، انطلق القدّيس بولس حاملاً مع تلامذة المسيح، الآخرين، الدين الجديد إلى العالم، مبشّرًا بالأُخوّة، والعدالة، والمساواة... إنّا، يا صاحب القداسة، نقدّر جهودكم من أجل خير الإنسانيّة، ونشر المحبّة بين الناس، ودفاعكم عن المظلومين. ونشعر أنّكم، في صلواتكم التي تتذكّرون فيها عذاب السيّد المسيح، ستتذكّرون أنّ، هناك، شعبًا في لبنان، والجولان، وفلسطين، يتعذّب ويعاني القهر والاضطهاد. ونتوقّع منكم أن تقفوا إلى جانبهم ضدّ الظالمين، لإعادة ما سُلِب منهم دون وجه حقٍّ...».

وردّ الحبر الأعظم بخطابٍ موجزٍ جاء فيه:

«لدى وصولي إلى دمشق، درّة الشرق، أعي بعمقٍ أنّي أزور أرضًا مغرقةً في العراقة، لعبت دورًا حيويًّا في تاريخ هذه البقعة من العالم... إنّي قادمٌ بصفتي حاجّ إيمانٍ... اليوم فكري وقلبي شاخصان صوب وجه شاول الطرسوسيّ، الرسول العظيم بولس، الذي تحوّلت سيرته تحوّلاً أبديًّا، على طريق دمشق.

«أنّى لي أن أنسى إسهام سوريّا وجوارها الرائع في تاريخ المسيحيّة؟... في الصحراء السوريّة، نما النسك المسيحيّ. وأسماء سوريّين، أمثال القدّيس أفرام، والقدّيس يوحنّا الدمشقيّ، محفورةٌ إلى الأبد في الذاكرة المسيحيّة. وبعض أسلافي وُلدوا في هذه البلاد.

«فيما ترنّ لفظة السلام في قلبنا، كيف لنا ألاّ نفكّر بالتوتّرات والخلافات التي تمزّق، منذ زمنٍ طويلٍ، منطقة الشرق الأوسط... كما أَعلنتُ في مناسباتٍ أُخرى، لقد حان الوقتُ للرجوعِ إلى مبادئ الشرعيّة الدوليّة، ومن أبرزها: منع الاستيلاء على الأرض بالقوّة، وحقّ الشعوب بتقرير أمورها، واحترام قرارات الأُمم المتّحدة، ومعاهدات جنيف...».

عقب هذا الاستقبال، قصد البابا ومرافقوه مقرّ القصادة الرسوليّة، في حيّ أبو رمّانة في دمشق، حيث نال الأب الأقدس قسطًا من الراحة. ثمّ قام بزيارةٍ بروتوكوليّةٍ إلى القصر الجمهوريّ، استغرقت نحو ثلاثةِ أرباعِ الساعة. ومن هناك انطلق إلى المنطقة الشرقيّة من دمشق القديمة، مجتازًا حيّ باب توما المزدان بالأعلام السوريّة والبابويّة، وبعبارات الترحيب، والذي ازدحمت أرصفته الضيّقة بحشود المؤمنين الجذلين الهاتفين بتأهيلهم بالضيف العزيز، وصولاً إلى «الزقاق القويم» حيث الكاتدرائيّة المريميّة، ومقرّ بطريركيّة الروم الأرثوذكس، حيث استُقبل البابا على وقع أناشيد الفصح الفرِحة، وحيث عُقد لقاءٌ مسكونيٌّ، جمع حول البابا يوحنّا بولس الثاني، بطريرك الروم الأرثوذكس إغناطيوس الرابع هزيم، وبطريرك السريان الأرثوذكس زكّا الأوّل عيواص، والقسّ رياض جرجور أمين عامّ كنائس الشرق الأوسط، وبطاركة الطوائف الكاثوليكيّة، للروم الملكيّين، والسريان، والأرمن، والكلدان والأقباط، والكردينال موسى الأوّل داود، رئيس مجمع الكنائس الشرقيّة، فضلاً عن رهطٍ من أساقفة الكنائس الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة، وممثّلين عن الجماعات الكنسيّة، وأعيان الكنيسة الأرثوذكسيّة ومدعوّيها، ورهبانٍ وراهباتٍ، وحشدٍ من المؤمنين.

افتتح اللقاء البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم بخطابٍ زخر بالصراحة، وبروحِ المصالحة، معًا، فبعد أن أكّد «أنّ الكنيسة التي أسّسها المسيح ما تزال باقيةً، بكلّ ملئها، في الكنيسة الأرثوذكسيّة»، وأنّه «لا يجوز التغاضي عن الانشقاقات التي مزّقت الرداء الأنطاكيّ»، أشار إلى العوائق التي ما برحت تنهض عثرةً في وجه الوحدة بين الكنيستين، محذّرًا من إعادة فتح جروحٍ لم تندمل بعدُ، ومن سياسة ما سمّاه «الاقتناص»، ومتمنّيًا ألاّ يعيق حجر العثرة هذا مواصلة الحوار بين كنائسنا».

إلاّ أنّ غبطته أكّد: «في هذه البلاد وفي لبنان، أقام المسيحيّون أنفسُهم على حوار تآخٍ يوميٍّ يعينهم على تخطّي العقبات الماضية. وقد وضعنا، منذ بضع سنواتٍ، أساساتٍ لتفاهم أكبر، ولتعاونٍ حقيقيٍّ في مجالات التعليم والرعاية. إنّ الحبّ الأخويّ يحرّكنا اليوم أكثر ممّا مضى. رغم التباعدات المشروعة المرتبطة بثقافاتنا المختلفة، فإنّنا نعتقد أنّ قراءةً واحدةً للتقليد لا تزال ممكنةً. إنّا، لهذا السبب، نشعر أنّا نشكّل حضورًا مسيحيًّا واحدًا في استقبال قداستكم، هنا، في ما بيننا. هذا الحضور المرتبط بحضور بطرس وبولس، وربوات القدّيسين الأنطاكيّين يجعل منكم، اليوم، حاجًّا أمام الله، وحاجًّا لأنّكم تحملون في شخصكم كاثوليك العالم إلى ينابيع إيمانهم، إلى أنطاكية هذه التي فيها، أوّلاً، «دُعي التلاميذ مسيحيّين».

«إنّ الإسلام، أيضًا يواكبكم في هذا الحجّ أمام الله... إنّا نريد العيش مع المسلمين في الطاعة للإله الواحد ذاته... إنّا معهم نستقبل قداستكم، ومعًا نستضيفكم، راجين اللقاء في المجد، يوم يعود المسيح، ثانيةً، ليدين الأحياء والأموات...

«يجب على المسيحيّين، على غرار معلّمهم، أن يغسلوا أرجل كلّ الناس، دون النظر إلى دينهم أو إلى عرقهم. إنّا مدعوّون إلى أن نمسح دموع كلّ الذين يبكون. يمكننا، بل علينا أن نقوم معًا بهذه المهمّة التي تشكّل شهادةً قويّةً، إلى جانب الشهادة التي تحاول كلّ كنيسةٍ من كنائسنا، أن تحملها في حضارة البلاد حيث تعيش...

«جعل الله مروركم بهذه الأرض، توجيهًا لفكرنا ووعينا نحو أُخوّةٍ أعمق وأصدق. نحن نعرف أنّكم شخصيًّا، تريدون أن تفهموا كنائسنا فهمًا أفضل. إنّكم تعرفون العقبات أمام الوحدة. على كلّ كنيسةٍ من كنائسنا أن تسهم في تجاوزها، كلّ واحدةٍ حسب المسؤوليّة التاريخيّة المتوجّبة عليها. المهمّ هو أن لا توصد أبوابنا في وجه نسائم الروح. إنّه يسرّنا أن تسهر كنيسة روما على المحبّة في الوحدة المستعادة، المحبّة، بالطبع، بين الإخوة الذين فرّقتهم خطايانا، بل

أيضًا، المحبّة لكلّ إنسانٍ في هذا الشرق العزيز على الله، وفي كلّ العالم، وذلك «حتّى يؤمن العالم...

«في هذا الرجاء الذي لا حدود له، مع المجمع الذي يحيط بنا، والكهنة والرهبان والمؤمنين، في محبّة الربّ يسوع، نقبّلكم.

«صاحب القداسة، أهلاً وسهلاً بكم».

وقد علّق سيادة المطران جورج خضر على خطاب البطريرك هزيم، من خلال مقالٍ في جريدة النهار اللبنانيّة، امتزجت فيه النظرة اللاهوتيّة، بالبلاغة الأدبيّة، والواقعيّة اليقظة، وممّا جاء فيه:

«ذُهل الكثيرون لشجاعة هذا البابا الخالد، الذي لم تحُلْ أوجاعه دون زيارتنا. وتأثّروا للكثير من طراوته، من طفولته، ومن حلمه بسقوط الحواجز بين الكنائس، وتلك التي تفصل الإنسان عن الإنسان. الحلم أن نكون بشرًا سويًّا، وأن نكون ذلك معًا. وفرح القوم جميعًا بإحساس سوريّة أنّ المسيحيّة قسمٌ رائعٌ من تراثها. أُسقف رومية كان هو الحدث. ولكن، ضمن الفرحة الكبرى، جاء كلام بطريرك الروم هو العمقُ اللاهوتيّ لهذه الزيارة، وأحسّ يوحنّا بولس الثاني بذلك. إغناطيوس الرابع، الجالس شرعيًّا على كرسيّ بطرس، كان هو الحدث اللاهوتيّ.

«في خطابه روحٌ، وفيه حبٌّ لأخيه الجالس، هو أيضًا، على كرسيّ بطرس، على الضفّة الأُخرى من الحضارة، وفيه ألمٌ وتعالٍ عن الجروح، وفيه تعلّقٌ بأرض المشرق، وتوجّعٌ لأطفال فلسطين وأطفال العراق، وفيه تطلّعٌ إلى الآتيات على رجاء القيامة، في أزمنة الناس والمصالحة الكبرى...».

وانتهى سيادته إلى القول: «لقد استقبل المسيحيّون العرب هذا الحبرَ الكبير بحضورهم أو حبّهم. والحبّ يبقى في القلب. بعد هذا يبقى محذورٌ أوّل هو السطحيّة التي يحسّ أصحابها أنّ الأمور قد ترتّبت لمجرّد تبادل القبل الأخويّة. والمحذور الثاني، في تقادم الزمان، هو التشدّد أو الغلوّ في التردّد، وهذا آتٍ من الخوف. ولا مجال للخوف في ملكوت المحبّة، وملكوت الفهم...

«إنّ مشوار البابا لم ينتهِ. لقد حقّقنا مشواره في قلوبنا. هل نحن وإيّاه نقوم

بمسيرةٍ واحدةٍ في قلب الله؟ نحن لا نريد استعادة الكنيسة الكاثوليكيّة إلينا. نتمنّى أن يستعيدنا المسيح معًا إليه».

وردّ قداسة البابا على خطاب البطريرك هزيم بكلمةٍ استهلّها مذكّرًا بما حدث للرسول برنابا الذي أوفدته كنيسة أورشليم إلى أنطاكية، لتفقّد أوضاع المسيحيّين فيها، فلمّا أقبل ورأى نعمة الله، فرح، وحثّهم جميعًا على الثبات في الربّ بعزيمة القلب» (أعمال ١١: ٢٣). وأعلن البابا:

«هذه هي، أيضًا، بهجتي اليوم ورسالتي. زيارتي هذه تعيدني، فعلاً، إلى فجر الكنيسة، إلى عهد الرسل والجماعات المسيحيّة الأولى. وهي تكمّل الحجّ إلى الأرض البيبليّة، الذي تسنّى لي القيام به في بداية السنة الألفين. إنّها تتيح لي، أيضًا، الفرصة السعيدة بالتقائكم في سوريّة، وبردّ الزيارات التي قمتم بها إلى كنيسة روما وإلى أُسقفها».

وبعد أن شكر لغبطة البطريرك هزيم، ضيافته الأخويّة، ونوّه بجهوده في سبيل وحدة شعب الله، استمطر عليه وعلى الكنيسة التي يرعاها بركات الله. ثمّ أضاف:

«إنّ كنيسة سوريّة المبنيّة على أسس الرسولين بطرس وبولس، لم تتأخّر في البرهنة عن ازدهارٍ مدهشٍ للحياة المسيحيّة. فكان لمجمع نيقية أسبابٌ مقنعةٌ للاعتراف بأسبقيّة أنطاكية على الكنائس القائمة في تلك المنطقة. وإذ نذكر، هنا، بنوعٍ خاصٍّ إغناطيوس الأنطاكيّ، ويوحنّا الدمشقيّ، وسمعان، كيف لنا ألاّ نتذكّر العديد من المعترفين والشهداء، الذين جعلوا بدايات الكنيسة، في تلك المنطقة، تتألّق، بفضل وفائهم للنعمة، حتّى بذل الدم. وكم من رهبانٍ وراهباتٍ اختلوا في الصحراء، فأهلت صحارى سوريّة وجبالها بالمناسك والأديرة، حيث تمارَس حياة صلاةٍ وتضحيةٍ، تمجيدًا لله! وكم من لاهوتيّين سوريّين ساهموا في ازدهار مدارس أنطاكية والرها اللاهوتيّة! وكم من مرسلين انطلقوا من سوريّة نحو الشرق، مواصلين حركة التبشير الكبرى الذي تحقّق في بلاد ما بين النهرين، وإلى أبعد منها حتّى كيرالا في الهند! أَوَليست كنيسة الغرب مدينةً، إلى حدٍّ كبيرٍ، للعديد من الرعاة سوريّي الأصل، تولّوا فيها مناصب أسقفيّةً، بل حتّى مرتبة أُسقف روما؟ فليُمجَّد الله من أجل شهادة كنيسة أنطاكية العريقة وإشعاعها!

«من دواعي الأسف أنّ بطريركيّة أنطاكية الشهيرة فقدت وحدتها، على مرّ العصور، وإنّنا لنرجو أن تستعيد البطريركيّات المختلفة الموجودة حاليًّا، أنسب الطرق الكفيلة بإيصالها إلى شراكةٍ كاملةٍ...».

وقد بارك البابا وشجّع كلّ المساعي المبذولة في هذا السبيل، وفي سبيل التقارب بين البطريركيّات الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة، استجابةً لرغبة الشعب المسيحيّ، ونتيجةً لحوار اللاهوتيّين، والعمل المشترك بين الأساقفة الرعاة، من الجانبيْن. وأضاف قداسته:

«لذا أحثّ جميع المعنيّين على مواصلة البحث عن الوحدة، بشجاعةٍ، وفطنةٍ، واحترامٍ ووضوحٍ...».

ومشيرًا إلى احتفال جميع المسيحيّين بعيد الفصح، معًا، في تلك السنة، قال قداسته:

«أبناء كنائسنا يطالبون، عن حقٍّ، بألاّ يكون الاحتفال بعيد الفصح عاملَ انقسامٍ. لقد أعلنت الكنيسة الكاثوليكيّة، منذ المجمع الڤاتيكانيّ، تأييدها لكلّ محاولةٍ قادرةٍ على إعادة الاحتفال المشترك بعيد الفصح. ولكن تبيّن أنّ هذه المحاولة هي أكثر صعوبةً ممّا كان متوقّعًا. ربّما علينا أن نفكّر بمراحل تمهيديّةٍ أو متعدّدةٍ، لتهيئة النفوس والقلوب، بغية تطبيق تقويمٍ يرضى به جميع مسيحيّي الشرق والغرب. يعود إلى البطاركة والأساقفة في الشرق الأوسط أن يتحمّلوا، معًا، هذه المسؤوليّة، تجاه كنائسهم في مختلف بلدان هذه المنطقة. وقد ينبعث، من الشرق الأوسط، وينتشر دفعٌ جديدٌ، وإيحاءٌ جديدٌ في هذا الموضوع...

«فلنضرع إلى الروح كي يجعلنا ننمو في القداسة، إذ لا وحدة ثابتةً إلاّ إذا بُنيت على التواضع، وعلى التوبة، وعلى الغفران، وإذن على الذبيحة.

«عندما حلّ روح العنصرة على الرسل، كانت العذراء مريم حاضرةً بينهم. فليساعدنا مثلها وحمايتها على الإصغاء لما يقوله الروح، اليوم أيضًا، للكنائس، وعلى تقبّل أقواله بفرحٍ وثقةٍ!».

وكان اليوم التالي، الأحد ٢٠٠١/٥/٦، قمّة تلك الزيارة، فمنذ الصباح الباكر تقاطر عشرات ألوف المؤمنين من كلّ أرجاء سوريّة، ومن بلدان الجوار،

للمشاركة في الذبيحة الإلهيّة التي ترأّس البابا الاحتفال بها، في ملعب العباسيّين، شرقيّ دمشق. وقد حضر الحبر الأعظم إلى الملعب، قادمًا من القصادة البابويّة، في الجانب الغربيّ من المدينة، مخترقًا شوارع دمشق التي غصّت أرصفتها بالمرحّبين البهجين، وكان إلى جانبه في السيّارة البابويّة غبطة بطريرك الروم الملكيّين الكاثوليك، غريغوريوس الثالث لحّام، الذي افتتح الاحتفال بكلمة ترحيبٍ، جاء فيها: «نحن، رؤساء الكنائس الكاثوليكيّة، المتّحدة اتّحادًا تامًّا مع كنيسة روما، ورؤساء الكنائس الأورذوكسيّة الوثيقة القربى، مثلما الإخوة والأصدقاء، نشكّل من حواليك دائرةً مرصوصةً، توثّق عراها المحبّة الأخويّة، فكأنّنا قيثارةٌ يحرّك الروح أوتارها الموسيقيّة.

«إنّ حضورنا جميعنا حول المذبح الواحد (مع أنّا لا نستطيع، بعد، المشاركة في الاحتفال معًا)، يبيّن أنّ ما يجمعنا أكثر ممّا يفرّقنا... صلِّ من أجل كنيستنا في سوريّة. صلِّ من أجل بلدنا الذي يحبّك، وأنت تحبّه. صلِّ لأجل السلام في الشرق الأوسط هذا الذي كثيرًا ما يعاني... يوحنّا بولس الثاني، إنّا نحبّك».

ودارت عظة البابا حول حدَث اهتداء القدّيس بولس في دمشق، وممّا قاله: **«الحدَث الخارق الذي جرى، ليس بعيدًا عن هنا، كان جازمًا لمستقبل بولس والكنيسة... هذا اللقاء مسّ بولس في صميم كيانه، وفتحه مليًّا على الحقيقة الإلهيّة. وعندما تلقّى النور الإلهيّ ونال العماد، صار كيانه العميق مطابقًا لكيان المسيح، فتحوّلت حياته، ووجد سعادته في الإيمان والثقة بمن دعاه من الظلمة إلى النور البهيّ... وتطوّع لتكريس نفسه ليسوع، ولنشر أنواره في العالم»**. وهتف قداسة البابا:

«أيّها المسيح، يا نور العالم، انشر علينا وعلى البشر أجمعين، نور السماء هذا الذي غمر رسولك. أنر وطهّر عيون قلبنا، لكي تعلّمنا أن نرى كلّ شيءٍ على ضوء حقيقتك، وحبّك للبشريّة.

«ليس للكنيسة نورٌ آخر تبلّغه للعالم سوى النور الذي يأتيها من الربّ. نحن الذين عُمّدوا في موت الربّ وقيامته، أُعطينا أن نكون أبناء النور... إنّ كلمة الله مصباحٌ ساطعٌ ينير دربنا، ويمكّننا من معرفة الحقيقة التي تحرّر وتقدّس».

ونوّه قداسته بالعمل الرسوليّ الجمّ الذي حقّقه الرسول بولس، «**الذي تبوّأ مكانةً أساسيّةً في إعلان الإنجيل خارج حدود بلاد يسوع... وحتّى أيّامنا هذه تحمل الكنيسة ثمار نشاطه الرسوليّ، وتستشهد، باستمرارٍ، بخدمة ذلك القدّيس الذي أمسى لأجيالٍ كاملةٍ من المسيحيّين، رائد كلّ رسالةٍ وملهمها.**

«**على غرار بولس يواجه تلاميذ يسوع تحدّيًا كبيرًا: فعليهم تبليغ البشارة بلغةٍ تناسب كلّ ثقافةٍ، على ألاّ تفقدها شيئًا من جوهرها، وألاّ تحوّر معناها. فلا تخافوا من أن تشهدوا، أنتم أيضًا، بأقوالكم وبحياتكم كلّها، لهذا النبأ البهيج، وسط إخوتكم وأخواتكم. إنّ الله يحبّ البشر أجمعين، ويدعوهم إلى تكوين أسرةٍ واحدةٍ في المحبّة، لأنّهم جميعهم إخوةٌ.**

«**ومن شأن هذه البشرى أن تحرّض جميع تلاميذ المسيح على البحث، بغيرةٍ، عن سبُل الوحدة، وعلى تبنّي صلاة الربّ «أن يكونوا جميعهم واحدًا»، كي يؤدّوا شهادةً تكتسب، دائمًا مزيدًا من أصالةٍ ومصداقيّةٍ...**

«**كونوا فخورين بتقاليد كنائسكم الشرقيّة، الليتورجيّة والروحيّة العظيمة. فهي جزءٌ من حياةٍ مسيحيّةٍ مزدهرةٍ. في إطار السلالة الروحيّة المتحدّرة من إغناطيوس الأنطاكيّ، وأفرام، وسمعان، ويوحنّا الدمشقيّ، ما برحت الكنيسة الجامعة تحمل، في ذاكرتها الحيّة، أسماء العديد من الآباء والرهبان، والنسّاك، والقدّيسين الكثُر الذين يمثّلون مجد كنائسنا. وأنتم أيضًا، بتمسّككم بأرض آبائكم، وبارتضائكم السخيّ عيش إيمانكم فيها، تشهدون لخصب الرسالة الإنجيليّة التي تناقلت من جيلٍ إلى جيلٍ.**

«**ومع جميع مواطنيكم، وعلى غير تمييز بسبب انتمائهم الطائفيّ، واصلوا، بلا هوادةٍ، جهودكم في سبيل بناء مجتمعٍ أخويٍّ عادلٍ ومتضامنٍ، حيث يحظى كلّ فردٍ باعترافٍ كاملٍ بكرامته الإنسانيّة، وبحقوقه الأساسيّة... ليكن، دائمًا، بين ظهرانيكم، الفقراء والمرضى والمعاقون، وجميع جرحى الحياة، إخوةً وأخواتٍ محترمين ومحبوبين! إنّ الإنجيل عاملٌ قويٌّ لتحويل العالم. فليتمكّن بشر اليوم، بفضل شهادة حياتكم، من اكتشاف الإجابة على أعمق تطلّعاتهم، وأسس التعايش في حضن المجتمع.**

«**فيا أيّتها الأُسر المسيحيّة، إنّ الكنيسة تعتمد عليكم، وتثق بكم، لكي تنقلوا إلى أبنائكم الإيمان الذي تلقّيتموه، عبر القرون، منذ الرسول بولس. فبحفاظكم**

على الاتّحاد والانفتاح على الجميع، وبذودكم الدائم عن حقّ الحياة، منذ تكوينها، كونوا بُؤر نور، متوافقةً توافقًا تامًّا مع مخطّط الله، ومقتضيات الإنسان. خصّصوا حيّزًا هامًّا للصلاة، ولسماع كلام الله، وللتربية المسيحيّة. ومن كلّ ذلك ستستمدّون دعمًا فعّالاً، يؤهّلكم لمواجهة مصاعب الحياة اليوميّة، وتحدّيات عالم اليوم... إنّ المشاركة المنتظمة في ذبيحة يوم الأحد، هي ضرورةٌ لكلّ حياةٍ مسيحيّةٍ وفيّةٍ ومتماسكةٍ. إنّها نعمةٌ مميّزةٌ تتحقّق بها وتعتلن الشركة مع الله ومع الإخوة.

«أيّها الإخوة والأخوات، لا تملّوا من نشدان وجه المسيح الذي يتجلّى لكم. فيه ستجدون سرّ الحرّيّة الحقيقيّة، وفرح القلب. دعوا رغبة الإخاء الحقّ بين جميع البشر تنبض في أعماق ذواتكم. بوقفكم ذواتكم، باندفاعٍ، على خدمة الآخرين، ستعثرون على معنًى لحياتكم. فالهويّة المسيحيّة لا تُحدّد بمقاومة الآخرين، بل بالقدرة على الخروج من الذات من أجل الانطلاق صوب الإخوة. إنّ الانفتاح على العالم، بتبصّرٍ وبلا خوفٍ، هو جزءٌ من رسالة المسيحيّ الواعي لهويّته الخاصّة، والمتجذّر في إرثه الدينيّ المعبّر عن غنى شهادة الكنيسة.

«أيّها الإخوة والأخوات، فلنرفع أبصارنا صوب صليب المسيح، كي نكتشف فيه نبع رجائنا، وطريق الحياة والسعادة الأصيل. ولنتأمّل وجه الله المحبّ الذي قدّم لنا ابنه، كي يجعل منّا قلبًا واحدًا، ونفسًا واحدةً...

«لنرحّب به في حياتنا كي نستلهم منه، ونحقّق سرّ الشركة التي تجسّد جوهر الكنيسة عينه، وتظهره.

«ينبغي أن يكون انتماؤكم للكنيسة، لكم ولإخوتكم، رجاءً مذكّرًا بأنّ الربّ يواكب مسيرة كلٍّ منكم. وهي غالبًا مواكبةٌ سرّيّةٌ، غير متوقّعةٍ، مثلما واكب بولس على طريق دمشق، وغمره بنوره الساطع.

«وليهبنا القائم من الموت الذي احتفل جميع المسيحيّين، معًا، بفصحه، هذه السنة، نعمة الشركة في المحبّة. آمين.»

وفي نهاية ذلك القدّاس، منح قداسة البابا المناولة، بيده، إلى حفنةٍ من المؤمنين، وقد نعمتُ بحظوة أن أكون أحدهم. ولا ريب أنّ من كبريات النعم التي منّ بها الله عليّ، أنّي تلقّيت جسد الربّ من يد القدّيس يوحنّا بولس الثاني.

ومن ملعب العبّاسيّين، انتقل البابا إلى مقرّ بطريركيّة الروم الملكيّين الكاثوليك، حيث التقى بطاركة سوريّة وأساقفتها، من مختلف الطوائف، ونخبةً من المدعوّين. وألقى غبطة البطريرك غريغوريوس الثالث خطابًا جاء فيه:

«يا صاحب القداسة، لقد أتيتَ حاجًّا إلى هذه المدينة المقدّسة، دمشق، مدينة القدّيس الرسول بولس، وحاجًّا إلى سوريّة، ملتقى الثقافات، ومهد المسيحيّة... إنّك تقوم بهذا الحجّ كي تعيش مثل بولس معنا، نحن كنيسة سوريّة، في هذه الأيّام القصيرة جدًّا، أيّام لقاءٍ وصلاةٍ، واختبارٍ مسيحيٍّ عميقٍ...

«في أثناء أسفارك الراعويّة إلى مختلف البلدان وإلى شرقنا... حملتَ وما زلتَ تحمل للعالم، للمسيحيّين وغير المسيحيّين، بدلاً من حضارة الموت والبغض والظلم، بشرى حضارة المحبّة، أي بشرى القيامة.

«كنيسة سوريّة هي كنيسة القدّيسين والشهداء. إنّها كنيسةٌ مؤمنةٌ تحافظ، بغيرةٍ، على تقاليد الآباء والمجامع، وجميع الذين أثرَوْا تراثنا الروحيّ، وكذلك قِيَم الأُسرة والعلاقات بين الأجيال...

«عسى زيارتك لسوريّة تساعدنا في السير قُدُمًا نحو الوحدة الضروريّة لشهادتنا بالمسيح الناهض من بين الأموات...».

وردّ قداسة البابا بخطابٍ جاء فيه:

«كلّ حجٍّ هو مناسبةٌ للعودة إلى ينابيع إيماننا، ولتأكيد حبّنا للمسيح وللكنيسة، وللانطلاق، بزخمٍ متجدّدٍ، في الرسالة التي أوكلها إلينا يسوع. هنا، على هذه الأرض التي باركها الله، من خلال شهودٍ ممتازين، على كرّ العصور، أصبحوا، بمثال حياتهم، وبكتاباتهم، جزءًا من تقليد الكنيسة جمعاء. هنا يُقرأ التاريخ المقدّس، وكأنّه كتابٌ مفتوحٌ، في المواقع الكتابيّة، وفي المزارات والمعابد المسيحيّة. غير أنّ هذا الحجّ يبتغي، بوضوحٍ، التقاء رجالٍ ونساءٍ يقطنون هذه الديار، ولا سيّما إخوتنا وأخواتنا في الإيمان بالربّ الواحد، الذي عاش، هو نفسه، في هذا الشرق الأوسط، والذي أعلن لنا وجه أبي كلّ حنانٍ. أوَليس على هذه الأرض، وفي مدينة أنطاكية، وهي إحدى منارات الشرق، سمّي تلاميذ يسوع الناصريّ، للمرّة الأولى، مسيحيّين، أي المعترفين بأنّ المسيح هو الربّ، مسيح الله، وبأنّهم هم أعضاء جسده؟

«إنّ واقع الكنيسة الكاثوليكيّة في سوريّة لكبير التنوّع، من جرّاء وجودٍ متزامنٍ لكنائس عديدةٍ متميّزةٍ، تمثّل ثروات تقاليد الشرق المسيحيّ الكبرى».

وأشاد قداسته بتكاثف جهود هذه الكنائس، مع حرصها على صون إرثها الكنسيّ الخاصّ، وعلى تنميته، وبما يمثّله مجلس بطاركة الشرق الأوسط، الذي شجّع ترسيخه، وتوسيع رقعة التعاون بين أعضائه، «**من أجل خدمةٍ راعويةٍ مثلى، ومشاركةٍ حقيقيّةٍ في الكنوز الروحيّة الكامنة في التقاليد الخاصّة بكلّ طائفةٍ**». وناشد هذه الكنائس بقوله: «**أدعوكم إلى الانطلاق، مجدّدًا، من المسيح، وإلى تأسيس كلّ حياتكم عليه. فالكنيسة، بعودتها إليه، وبنهلها، كلّ يوم، من نبع كلامه الحيّ وأسراره، تستمدّ قوّة الحياة، ودعمًا لشهادتها. إنّ مثال القدّيس بولس الذي قال: «لست أنا حيًّا، بعدُ، بل هو المسيح، يحيا فيّ. وإن كنت الآن أحيا في الجسد، فإنّي أحيا في الإيمان بابن اللّه الذي أحبّني وبذل ذاته عنّي». مثال بولس هذا، إذن، يجعلنا ندرك، أكثر فأكثر، وجود المسيح في حياتنا، وهو الذي قال: «أنا معكم كلّ الأيّام حتّى منتهى الدهر». إنّه حضورٌ يشيع العزاء والطمأنينة في مسيرتنا، لأنّ المسيح يواكبنا؛ وهو حضورٌ كثير الاقتضاء، يفرض علينا ألاّ نحتفظ لذواتنا بالكنز الذي تلقّيناه. الويل لي إن لم أبشّر بالإنجيل!**

«أيّها الإخوة الأعزّاء، هنا سنجد درب حياةٍ روحيّةٍ متينةٍ، ودرب قداسةٍ نقدّمه لجميع معمّدي جماعاتنا. إنّ المؤمنين الملتزمين بفرح الإفخارستيّا التي تؤلّف وتجمع الجماعة المسيحيّة، منذ قيامة الربّ، يجدون، في التفافهم حول مائدة الكلمة وخبز الحياة، غذاءً لإيمانهم، ويتخطّون تشتّت الاهتمامات اليوميّة، ويتقوّون، ويكتشفون، أكثر فأكثر، هويّة أبناء اللّه، ويدعمونها، لكي يكونوا شهودًا حقيقيّين في الكنيسة وفي العالم. وبقدر ما يتجذّرون في الصلاة، وفي الإصغاء اليقظ للكلمة، وبقدر ما يتذوّقون الليتورجيّا، تنفتح حياتهم على نداءات الروح، فينطلقون بعيدًا، كي يُعلنوا، بشجاعةٍ، إنجيل السلام، ويشهدوا له، في كلّ وقائع المجتمع البشريّ، الأُسرويّة، والثقافيّة، والاجتماعيّة. إنّ القدّيس بولس، بعد أن حلّت عليه نعمة دعوة المسيح، شهد أكثر من أيٍّ آخر، على جدّة المسيحيّة، وعلّمها بإسهابٍ، وانقاد، هو نفسه، إلى حياةٍ جديدةٍ بالكامل، مكرّسةٍ، كلّيّةً، للمسيح، وللتبشير بالإنجيل.

«وأودّ أن أعبّر، مرّةً أُخرى، عن كبير إعجابي لما أشهده من وئام بين مسيحيّي سوريّة. ونحن نذكر أنّ كنيسة المسيح اكتشفت، في سوريّة، طابعها الجامع، وأخذت على عاتقها خدمة المصالحة، والسعي إلى الوحدة. فليساعدكم هذا التقارب على

شهادةٍ تنعم بمصداقيّةٍ فضلى، ليسوع المسيح الذي مات وقام كي «يجمع في الوحدة أبناء اللّه المشتّتين». وليسهمْ هذا التعاون في جعل كنيسة المسيح تبدو أوفر جمالاً وأصالةً في عيون مؤمني الديانات الأُخرى.

«وسيقدّر المؤمنون، أرفع تقدير، المناسبات المتاحة لهم كي يشاركوا في صلاةٍ مسكونيّةٍ مشتركةٍ. على هذا الانفتاح أن يعمّ ويسود، أكثر فأكثر، وأن يستدعي مبادراتٍ تمكّن الكنائس من التعاون في جميع المجالات.

«فالانقسام، في الواقع، هو عائقٌ في وجه الإنجيل. و«الحركة المسكونيّة ليست مجرّد قضيّةٍ داخليّةٍ تخصّ الطوائف المسيحيّة، بل هي تخصّ الحبّ الذي يحمله اللّه للبشريّة جمعاء، في يسوع المسيح. وإنّما الحؤول دون هذا الحبّ هو إعاقةٌ لمشروعه الرامي إلى جمع كلّ البشر في المسيح». ومسيحيّو سوريّة، الذين عاشوا طيلة قرونٍ، بين ظهراني مؤمنين مسلمين، يدركون بيُسرٍ العلاقة القائمة بين وحدتهم والشهادة التي توفّرها الشراكة الأخويّة...

«إنّ أشدّ هموم الرعاة إيجاعًا، بلا ريبٍ، هي هجرة العديد من الأُسر المسيحيّة، والعديد من الشبّان. جميعهم يأملون بالعثور، في الخارج، على مستقبلٍ أيسر. إنّي متأكّدٌ أنّ كلاًّ منكم قد طرح، غالبًا، السؤال المقلق: ما يسعني فعله؟ يسعكم فعل الكثير. يسعكم، أوّلاً، المساهمة في بناء وطنٍ مزدهرٍ اقتصاديًّا، حيث ينعم كلّ مواطنٍ، أمام القانون، بالحقوق والواجبات عينها، وحيث يحرص الشعب كلّه على الحياة بسلامٍ عادلٍ داخل حدود بلده، ومع جيرانه. إنّ المساهمة في تنمية الثقة في مستقبل وطنكم، هي من كبرى الخدمات التي يسع الكنيسة أداءها للمجتمع. وثمّة وسيلة عملٍ أُخرى تتمثّل في تشجيع المسيحيّين على المشاركة في مِحَن شعبكم وآلامه. تأثيركم على الشبيبة بالغٌ. كلّموا قلوبهم السخيّة، اشرحوا، أصلحوا، شجّعوا، وبالأخصّ، رسّخوا، بمثالكم الشخصيّ، لديهم، اليقين بأنّ قيم القلب والروح المسيحيّة هي كفيلةٌ بإسعاد الإنسان، أكثر من كلّ الخيرات المادّيّة. قدّموا للشبيبة مثلاً أعلى، إنسانيًّا ومسيحيًّا...».

وعند الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم، انتقل البابا من بطريركيّة الروم الكاثوليك إلى بطريركيّة السريان الأرثوذكس، والمسافة بين البطريركيّتين لا تتعدّى خمس مئة مترٍ، حيث استقبله غبطة البطريرك زكّا الأوّل عيواص، وأساقفته وأعيان الطائفة. وكان قد سبقه إلى تلك البطريركيّة ممثّلون عن

الإكليروس المسيحي، أساقفةٌ وكهنةٌ، ورهبانٌ وراهباتٌ، وعلمانيّون ملتزمون بالعمل الرسوليّ من مختلف الطوائف المسيحيّة. وهناك أُقيمت صلاةٌ ارتدت طابعًا مسكونيًّا اشترك بها الجميع. وألقى قداسة البابا خطابًا عبّر فيه عن فرحه الغامر بهذا اللقاء، وممّا قاله:

«... إنّ قلبي يفيض فرحًا، لأنّي استطعت أن آتي إلى دمشق حاجًّا على خطى القدّيس بولس... هنا جمعنا الروح القدس الآن، في هذه الصلاة المشتركة، لنصغي إلى كلمة الله، ونسأله غفران الخطايا، والصفح عن الانقسامات، ونسبّح رحمته اللامتناهية. لنصلٍّ، بقلبٍ واحدٍ وفكرٍ واحدٍ، في سلام المسيح القائم من الموت، راغبين في الإصغاء إلى دعوة اللاهوتيّ والصوفيّ السريانيّ الكبير «أبي الفرج»، الذي يحثّ المؤمنين على «أن يسحقوا، في عمق قلوبهم، جذور العداوة بين المسيحيّين».

«... أنا سعيدٌ حقًّا بأن أكون بينكم!». «هنا، في دمشق أُعلم التلميذ حنانيا في رؤيا، بالذهاب إلى شاول، مضطهد الكنيسة. أطاع حنانيا الربّ، ورغم ريبته وخوفه، لم يتردّد في تحيّة عدوّ المسيحيّين بكلمة «الأخ». هنا نرى ميزتين أساسيّتين من ميزات رسالة الكنيسة: طاعةٌ شجاعةٌ لكلمة الربّ، واستعدادٌ للغفران والمصالحة. عندما يتدخّل الله، يصبح المستحيل ممكنًا...

«كان بولس يصلّي عندما أتاه حنانيا، وكأنّه، بذلك، يتهيّأ لتلقّي الرسالة التي سوف تلصقه أبدًا بالصليب... الصلاة والثبات في وجه التجارب هما ميزتان أخريان لدعوتنا، بصفتنا تلاميذ للمسيح. الصلاة وحمل الصليب، والخضوع لإرادة الله، واحترام كلّ إنسانٍ كأخٍ أو أُختٍ لنا، تضحي، ربّما اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى، صفات أمانتنا لله... عسى أن يعجّل الروح القُدس موعدَ يوم وحدتنا الكاملة!».

وكان لا بدّ لذلك النهار الحافل بالأحداث السعيدة، من أن يكتمل بلقاءٍ مميّزٍ مع ممثّلي المسلمين السوريّين، في واحدٍ من أشهر الجوامع وأكثرها عراقةً، الجامع الأمويّ، الذي يحضن، أيضًا، مقامًا للقدّيس يوحنّا المعمدان، الذي يجلّه المسلمون تحت اسم «النبيّ يحيى».

في الساعة السادسة والربع، وصل البابا إلى الجامع، وقد رافقه في سيّارته البابويّة البطريرك زكّا الأوّل عيواص، وواكبه بطريرك الروم الأرثوذكس

إغناطيوس الرابع، وبطريرك الروم الكاثوليك، غريغوريوس الثالث. واستقبله عند مدخل الجامع مفتي الجمهوريّة السوريّة الشيخ أحمد كفتارو، ورئيس مجلس الإفتاء الأعلى، ووزير الأوقاف، وعددٌ كبيرٌ من رجال الدين المسلمين والمسيحيّين.

وفي الحال اختلى قداسته، بعض الوقت، مع سماحة المفتي، الذي بادره بالقول: «لا يمكنك، يا قداسة البابا، أن تتصوّر كم أنا سعيدٌ اليوم. ما زلت أذكر الزيارتين اللتين التقيتك فيهما بالڤاتيكان. لكن لم أكن لأتخيّل أن ألقاك، يومًا، في هذا الجامع. هذه الزيارة تتخطّى معالم التاريخ، ولسوف تأتي بالثمار الوفيرة، أوّلها استتباب السلام في العالم. هذا الجامع هو رأس الجوامع كلّها. وهذه الزيارة مناسبةٌ للتسامح، وآمل، في الوقت عينه، أن تكون فسحة أملٍ للعرب أجمعين الذين يعانون في فلسطين، وجنوب لبنان والقدس».

واقتصر ردّ البابا على قوله: «**للمرّة الأولى، منذ ألفي سنةٍ، يدخل بابا جامعًا. إنيّ لفي غمرةٍ من السعادة!**».

إثر هذا اللقاء الوجيز، خلع البابا حذاءه، احترامًا لقدسيّة المكان، وانتعل جاربَيْن، واجتاز متّكئًا على عكّازه، يرافقه سماحة المفتي، الباب المؤدّي إلى مقام القدّيس يوحنّا المعمدان (النبيّ يحيى) وتوكّأ على إحدى زوايا المقام، وانقطع، وحيدًا، خاشعًا، لمناجاة ربّه، في صلاةٍ صامتةٍ، نابعةٍ من أعماق قلبه.

ثمّ عاد إلى ساحة الجامع حيث جرى حفل استقبالٍ استهلّه المفتي كفتارو بخطابٍ، جاء فيه: «لقد عشنا في هذه البلاد المباركة قرونًا طويلةً، مسلمين ومسيحيّين، واقتسمنا خيراتها، وتشاركنا في حلو الحياة ومرّها، ونعمنا بفضل الله فيها... وما الواقع الملموس الذي شاهدتموه بأمّ أعينكم، من التآخي والتعاون وتعانق المساجد مع الكنائس، إلاّ برهانٌ ساطعٌ على وحدةٍ إيمانيّةٍ، نفخر بها، بفضل الله تعالى... إنّ البشريّة، اليوم، تئنّ من مشكلاتٍ ومعضلاتٍ كثيرةٍ جدًّا، وكلّها بسبب ابتعاد الإنسان عن تعاليم الرسالات السماويّة، حتّى أصبح خطر الإنسان على الإنسان، أكثر من خطر الوحوش المفترسة على الإنسان...

إنّا جميعًا مسؤولون أمام اللّه تعالى، ولن ينجو من حسابه أحدٌ**...** فلا بدّ من حوارٍ فعّالٍ، ولا بدّ من لقاءٍ أخويٍّ مثمرٍ، لنضع أيادينا بعضها ببعضٍ...».

ثمّ ذكّر سماحته بمأساة فلسطين والفلسطينيّين، التي يتفرّج عليها العالم، لامباليًا، وخلص إلى القول: «إنّا نتطلّع إلى موقفٍ أكثر فعاليةً من الصلوات والدعاء والأمنيات. نتطلّع إلى موقفٍ عمليٍّ من قبل كلّ الشرفاء، ومحبّي السلام، وأتباع الأديان، لوقف هذه المجزرة الوحشيّة**...**

«لقد فتحنا قلوبنا وأذرعنا للتلاقي والتعانق بدافعٍ من إسلامنا وإيماننا. وإنّا، اليوم، لن نلتفت إلى الماضي ببعض أخطائه التي ارتكبها المنتسبون إلى الأديان آنذاك. إنّا، اليوم، نعود لنفتح هذه القلوب والأذرع حبًّا بالمسيح عليه السلام، لأنّ نبيّنا محمّدًا عليه السلام، يقول: «أنا أَوْلى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة»، أي أنا أكثر الناس حبًّا وصلةً بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة...».

واختتم البابا ذلك اللقاء بخطابٍ جاء فيه:

«أيّها الأصدقاء المسلمون، «السلام عليكم» (بالعربيّة)

«من أعماق قلبي، أشكر لكلّيّ القدرة نعمة هذا اللقاء. وأشكر لكم استقبالكم الحارّ وفق تقاليد الضيافة، العزيزة على قلوب شعوب هذه البقعة من العالم... لقد اتّسم حجّي اليوبيليّ بلقاءاتٍ هامّةٍ مع زعماء مسلمين في القاهرة، والقدس. وإنّي لشديد التأثّر الآن بكوني ضيفكم هنا، في الجامع الأمويّ الكبير، الزاخر بالتاريخ الدينيّ. إنّ أرضكم غاليةٌ على قلوب المسيحيّين. فقد عهدت ديانتنا هنا مراحل حيويّةً على درب نموّها وازدهار عقيدتها. هنا توجد الجماعات المسيحية التي عاشت بسلامٍ وتناغمٍ مع جيرانهم المسلمين، على امتداد قرونٍ.

«إنّ لقاءنا يتمّ على مقربةٍ من المكان الذي يكرّمه المسيحيّون والمسلمون، لكونه ضريح يوحنّا المعمدان، المعروف باسم يحيى في التقليد الإسلاميّ. إنّ ابن زكريّا وجهٌ يرتدي شأنًا عظيمًا في تاريخ المسيحيّة، لأنّه كان السابق الذي أعدّ الطريق للمسيح. سيرته المكرّسة بكاملها للّه كُلِّلت بالشهادة. فليستَنِرْ جميع من يكرّمون ذكراه هنا، بشهادته، كي يدركوا – وكي ندرك نحن أيضًا – أنّ مهمّة الحياة الكبرى هي نشدان حقيقة اللّه وعدله.

«إنّ لقاءنا في هذا المكان الشهير يذكّرنا بأنّ الإنسان كائنٌ حيٌّ، مدعوٌّ للاعتراف بأولويّة الله على جميع الأشياء، ولاحترام هذه الأولويّة. ولنا، نحن المسيحيّين والمسلمين، التقاء الله من خلال الصلاة، هو الغذاء الضروريّ لنفوسنا. وبمعزلٍ عن هذا الالتقاء تذبل قلوبنا، وتفقد إرادتنا القدرة على الكفاح من أجل الخير، وتخضع للشرّ.

«المسلمون والمسيحيّون، على السواء، يكرّمون أماكن عبادتهم، تلك الواحات التي يلتقون، فيها، إله الرحمة، في مسيرتهم نحو الحياة الأبديّة. وفي الأعراس والمآتم، والاحتفالات الدينيّة الأُخرى، يلتزم المسيحيّون والمسلمون صمتًا حافلاً بإجلال صلاة الآخر، فيشهدون على ما يجمعهم، من غير أن يحجب أو ينكر ما يفرّقهم.

«في المساجد والكنائس، صاغت الجماعات المسلمة والمسيحيّة هويّتها الدينيّة، وفي حضنها يتلقّى النشء القسم الأكبر من تربيته الدينيّة... أتمنّى، بحرارةٍ، أن يظهر المسؤولون الروحيّون، ومعلّمو الدين، المسلمون والمسيحيّون جماعتينا الدينيّتين الهامّتين، جماعاتٍ ملتزمةً بالحوار القائم على الاحترام المتبادل، وألاّ يظهروهما، أبدًا، جماعاتٍ متناحرةً. إنّه لحيويٌّ أن يُلقّن الشباب سبُل الاحترام والتفاهم، لكي لا يُساقوا إلى استخدامٍ سيّئٍ للدين عينه، من أجل إثارة أو تبرير الكراهية والعنف. إنّ العنف يدمّر صورة الخالق في خلائقه، وينبغي ألاّ يُعَدّ، أبدًا، ثمرة قناعاتٍ دينيّةٍ.

«أرجو أن يكون لقاؤنا، اليوم، في الجامع الأمويّ، مؤشّرًا إلى عزمنا على تقدّم حوار الأديان بين الكنيسة الكاثوليكيّة والإسلام... من الضرورة بمكانٍ أن يواصل المسلمون والمسيحيّون، معًا، بحث القضايا الفلسفيّة واللاهوتيّة، بُغية الوصول إلى معرفةٍ أكثر موضوعيّةً وعمقًا لقناعات كلٍّ منهم الدينيّة. ومن المؤكّد أنّ فهمًا أفضل سيقود، عمليًّا، إلى أُسلوبٍ جديدٍ يظهر أنّ دينَينا ليسا متعارضيْن، كما حدث غالبًا في الماضي، بل يظهرهما متعاضدَيْن من أجل خير الأُسرة الإنسانيّة.

«إنّ حوار الأديان يمسي أكثر جدوى، عندما ينبع من تجربة حياة «مقتَسَمةٍ مع الآخر»، يوميًّا، داخل جماعةٍ واحدةٍ. في سوريّة عاش المسيحيّون والمسلمون جنبًا إلى جنبٍ، طيلة قرونٍ، واستمرّ حوار حياةٍ غنيٌّ، بلا انقطاعٍ. كلّ أُسرةٍ تعرف فترات تناغمٍ، وفتراتٍ أُخرى ينقطع فيها الحوار. فينبغي أن تدعم الخبرات الإيجابيّة رجاء جماعاتنا في السلام، وألاّ تدمّر الخبرات السلبيّة هذا الرجاء. ولنلتمس من

كلّيّ القدرة الصفح عن كلّ إهانةٍ ألحقها مسلمون ومسيحيّون بعضهم ببعضٍ. ويسوع يعلّمنا أنّ علينا الصفح عن إساءات الآخرين، كي يغفر لنا الله خطايانا.

«بصفتنا أعضاء الأُسرة البشريّة الواحدة، وبصفتنا مؤمنين، نحن ملزمون حيال الخير العامّ، والعدل والتضامن. ومن شأن حوار الأديان أن يقودنا إلى طُرُق تعاونٍ متعدّدةٍ، ولا سيّما الاستجابة لواجب العناية بالفقير والضعيف. وتلك هي الدلالات على صدق عبادتنا لله.

«وفيما نشقّ طريقنا صوب مصيرنا السماويّ، نشعر، نحن المسيحيّين، بوجود مريم، أمّ يسوع. والإسلام أيضًا يكرّم مريم، كمصطفاةٍ «على نساء العالمين». وقد علّمتنا عذراء الناصرة، سيّدة صيدنايا، أنّ الله يحمي الودعاء المتواضعين، و«يبدّد المتكبّرين».

«فلتتوجّه قلوب المسلمين والمسيحيّين بعضها نحو بعضٍ، بمشاعر الإخاء والصداقة، كي يباركها كلّيّ القدرة، بالسلام الذي تستطيع السماءٌ وحدها منحه. لله الأوحد، كلّيّ القدرة، التسبيح والتمجيد إلى الأبد. آمين».

زيارة البابا إلى الجامع الأمويّ دامت ساعةً ونصف الساعة، غير أنّ تأثيرها انحفر في أعماق نفسه، ولم يبارحه حتّى مماته.

واستهلّ الحبر الأعظم يوم زيارته الثالث إلى دمشق – الإثنين ٢٠٠١/٥/٧ – بزيارة مقامَيْن يخلّدان ذكرى ما حدث للقدّيس بولس في دمشق. أوّلهما مقام القدّيس بولس على الأسوار، وهو المكان الذي يقول التقليد إنّ تلاميذ الربّ الدمشقيّين «دلّوا منه شاول في سلٍّ، هربًا من اليهود الذين ائتمروا عليه لكي يقتلوه، وكانوا يرصدون الأبواب نهارًا وليلاً قصد الإيقاع به»، حسب ما جاء في سفر أعمال الرسل. وفي هذا المكان كان الدمشقيّون المسيحيّون قد أشادوا، في منتصف القرن العشرين، كنيسةً على أنقاض القبو الخَرِب الذي كان يذكّر بذلك الحدَث بالغ الشأن في تاريخ المسيحيّة.

ومن هذا المقام انتقل، البابا، إلى مزارٍ آخر، يبعد عنه بضع مئاتٍ من الأمتار، كان البابا بولس السادس قد تبرّع ببنائه، تخليدًا لذكرى اهتداء القدّيس بولس، وأوكل إدارته إلى الرهبان الفرنسيسكانيّين.

وكان قد احتشد في المقام وفي المزار جمعٌ غفيرٌ من المؤمنين التوّاقين إلى رؤية الأب الأقدس، ونيل بركته.

وعقب هاتين الزيارتين قصد قداسته، في موكبٍ ضمّ العديد من رجال الدين المسيحيّين، ومن المؤمنين والرسميّين، مدينة القنيطرة المنكوبة، ضحيّة الهمجيّة الإسرائيليّة، الواقعة على بعد ٦٥ كليومترًا جنوبيّ غربيّ دمشق، في منطقة الجولان. وفي كنيسة القدّيس جاورجيوس للروم الأرثوذكس، القائمة وسط المنازل المهدّمة، والتي تحمل بصمات العدوان والحقد والتخريب الوحشيّ، جثا يوحنّا بولس الثاني، خاشعًا، واجمًا، وتعالت من صدره، صلاةٌ مؤثّرةٌ، نقتطف منها المقاطع التالية:

«طوبى لصانعي السلام، فسيُدعون أبناء الله». في هذا المكان الذي شوّهته الحرب تشويهًا جسيمًا، أرغب، من كلّ قلبي، وبصوتي، في رفع صلاةٍ من أجل السلام في الأرض المقدّسة، وفي العالم أجمع.

«إنّ السلام الحقيقيّ هو هبةٌ من الله. ولكي ننفتح على هذه الموهبة، لا بدّ من تحوّل قلوبنا، ووعيٍ مطيعٍ لشريعة الله. إنّنا نجيل فكرنا في أبناء الصراعات المحزنة، والأموات، التي وردتنا، اليومَ، من غزّة.

«يا الله، الذي لا حدّ لعطفه ومراحمه، بقلوبٍ مفعمةٍ شكرًا، ندعوك، اليوم، من هذه الأرض التي سار عليها، ذات يومٍ، القدّيس بولس، وأعلن للأمم هذه الحقيقة: «إنّ الله قد صالح العالم مع ذاته، بالمسيح».

«فليدوِّ كلامك في قلوب جميع الرجال والنساء، الذين تدعوهم إلى انتهاج درب المصالحة والسلام، وإلى أن يكونوا رحماء كما أنّك، أنتَ، رحيمٌ!

«أيّها الربّ، أنت تقول كلام سلامٍ لشعبك، ولجميع الذين، بقلوبهم، يلتفتون إليك. فساعدهم على تقويض جدران العداوة والفرقة، كي يبنوا عالم عدلٍ وتضامنٍ.

«يا ربّ، يا من يخلق سماواتٍ جديدةً، وأرضًا جديدةً، إليك نوكل شبيبة هذه البلدان، المتطلّعين إلى مستقبلٍ أكثر إشراقًا. فدعّم عزمهم على أن يكونوا رجال ونساء سلامٍ، ودعاة رجاءٍ جديدٍ لشعوبهم.

«يا ربّ، أنت تُنبت العدل من الأرض. ونحن ندعو من أجل المسؤولين المدنيّين

في هذه المنطقة، كي يجهدوا في تحقيق تطلّعات شعوبهم المشروعة، ولكي يربّوا الشبيبة على العدل والسلام، ولكي يعملوا، بسخاءٍ من أجل الخير العامّ، محترمين كرامة كلّ فردٍ التي لا يجوز سلبها، والحقوق الأُساسيّة النابعة من صورة الخالق ومثاله، والمدوّنة في كلّ كائنٍ بشريٍّ...

«أيّها الآب السماويّ، في هذا المكان الذي شهد اهتداء الرسول بولس، نصلّي من أجل جميع الذين يؤمنون بإنجيل يسوع المسيح. سدّد خطاهم على درب الحقّ والحبّ. فليكونوا واحدًا، كما أنت واحدٌ مع الابن والروح القدس. وليحملوا شهادة السلام التي تتخطّى كلّ فهمٍ، والنور الذي يتغلّب على ظلمة العداوة، والخطيئة والموت.

«يا ربّ السماء والأرض، خالق الأُسرة البشريّة الواحدة، نتوسّلك من أجل مؤمني جميع الديانات، كي ينشدوا إرادتك في الصلاة، وفي طهر القلب، ويسبّحوك، ويعبدوا اسمك القدّوس.

«أرشدهم كي يجدوا فيك القدرة على قهر الخوف والريبة، ويكبروا في المحبّة، ويحيوا، معًا، في وئامٍ.

«يا أبا الرحمة، هب جميع المؤمنين جرأة الصفح بعضهم عن بعض، لكي تلتئم جراح الماضي، ولكي لا تكون ذريعةً لآلامٍ أُخرى في الحاضر. وليتحقّق كلّ ذلك، في الأرض المقدّسة، الأرض التي باركتها من خلال إشارات عنايتك العديدة، والتي تجلّيتَ، من خلالها، إله المحبّة.

«وإنّنا نوكل إلى أمّ يسوع العذراء مريم المغبوطة، الرجال والنساء القاطنين في البلاد التي عاش فيها يسوع، كي يصغوا، على غرارها، إلى كلام الله، ويحملوا للآخرين الاحترام والعطف، ولا سيّما للمختلفين عنهم، وكي يبنوا جميعهم، في وحدة القلب والروح، عالمًا يكون منزلاً حقيقيًّا لجميع الشعوب!».

واختتم البابا صلاته هذه هاتفًا، بالعربيّة: «**سلام! سلام! سلام!**».

ثمّ خرج إلى فناء الكنيسة حيث بارك شتلة زيتونٍ، وسقاها قليلاً من الماء، كي تغرس، على اسمه، في «حديقة أصدقاء القنيطرة» عند مدخل الكنيسة.

وفي مساء ذلك اليوم عينه، كان للبابا لقاءٌ، في كاتدرائيّة سيّدة النياح للروم

الكاثوليك، في حارة الزيتون، مع شبيبة سوريّا الذين غصّ بألوفهم الصرح البطريركيّ وباحاته والشوارع المحيطة به، يحيط بهم البطاركة والأساقفة والكهنة. وقد استُقبِل الضيف العزيز بقرع أجراس الكنائس المجاورة المتهلّلة، وبأناشيد الفصح الحماسيّة.

وبعد كلمتي ترحيبٍ موجزتين ألقاهما شابٌّ وشابّةٌ، ألقى غبطة البطريرك غريغوريوس الثالث لحّام، خطابًا ترحيبيًّا حارًّا بالحبر الأعظم، الذي وصفه بأحلى الألقاب:

«أهلاً وسهلاً بك، أيّها البابا المريميّ، يا بابا الشباب، وبابا الدفاع عن الحياة بكلّ مراحلها، والبابا دليل الكهنة، وبابا الأولاد والأُسر، وبابا الكنيسة الواحدة الجامعة المقدّسة الرسوليّة، البابا الراعي والحاجّ...

«لقد اجتذبتَ الشباب بالآلاف، بل بمئات الآلاف، جاؤوا من كلّ أنحاء العالم، ليلاقوك في روما، وباريس، وحريصا وفلسطين... واليوم ها إنّ شباب سوريّا يستقبلونك...».

وأخيرًا خاطب الأب الأقدس الشباب قائلاً:

«عندما اختارني الكرادلة على سدّة القدّيس بطرس، خاطبتُ الشبيبة قائلاً: أنتم رجائي، أنتم رجاء الكنيسة. وها إنّي، بعد ثلاثٍ وعشرين سنةً، أكرّر لكم، بمزيدٍ من القناعة: أنتم رجائي، أنتم رجاء سوريّة، رجاء السلام، والوحدة، وحضارة الحبّ، أنتم الرجاء... يسعدني أن ألتقيكم في ختام حجّي على خطى الرسول بولس في سوريّة... أنتم تنتمون إلى طوائف مسيحيّةٍ مختلفةٍ، ولكنّكم، جميعًا، معًا، تريدون الإصغاء إلى الربّ الواحد، والسير نحوه. فليكن وجودكم هنا الدليل على التزامكم المشترك بالمشاركة، مع بركة المسيح، في تحقيق ملء الوحدة المرئيّة بين جميع المسيحيّين».

وبعد أن أشار قداسته إلى نصّ رسالة القدّيس بولس إلى تيموثيوس (٢ : ١١–١٣)، التي تليت في ذلك اللقاء، تابع خطابه قائلاً:

«أيّها الشبّان الأعزّاء، أنتم تحيون حقبةً حافلةً بالتساؤلات والشكوك. ولكنّ المسيح

يدعوكم، ويثير فيكم الرغبة في أن تجعلوا من حياتكم أمرًا عظيمًا وجميلاً، وإرادة اتّباع مثلٍ أعلى، ورفض الاستسلام للرداءة، وشجاعة الالتزام بصبرٍ ومثابرةٍ.

«من أجل الاستجابة لهذا النداء، انشدوا، باستمرارٍ، تواصلاً حميمًا مع ربّ الحياة، والإقامة بوفاءٍ في حضوره بالصلاة، وفَقْهِ الكتاب المقدّس، واللقاء الإفخارستيّ، وسرّ التوبة. وهكذا ستبنون وتدعّمون «كيانكم الداخليّ»، وفق قول بولس الرسول. إنّ العلاقة، قلبًا لقلبٍ، مع الربّ، تمثّل، أيضًا، سرّ وجودٍ مثمرٍ، لأنّها تنتظم حول ما هو مركزيٌّ لكلّ كائنٍ بشريٍّ، أي الحوار مع من هو خالقنا وربّنا. وهكذا لن تكون حياتكم سطحيّةً، بل ستكون متجذّرةً بعمقٍ في القِيَم الروحيّة والأخلاقيّة، والإنسانيّة، وهي العمود الفقريّ لكلّ كائنٍ وكلّ حياةٍ. واذكروا أنّه يستحيل أن يكون المرء مسيحيًّا، مع رفضه الكنيسة المبنيّةً على يسوع المسيح، كما يستحيل أن يعلن المرء ذاته مؤمنًا، من غير ممارسة شعائر الإيمان، ويستحيل وصف الذات بالروحانيّة، بمعزلٍ عن تمكين الله من صوغ الذات، بالإصغاء المتواضع والفرح لروحه، والجاهزيّة لإرادته.

«حينئذٍ، ستكونون قادرين على اتّخاذ خياراتٍ، وعلى الالتزام بكلّ قواكم. ربّما أنتم تطرحون، اليوم، تساؤلاتٍ مثل: «أيّ طريقٍ أنتهج؟ ما عليّ أن أفعل بوجودي؟ من أتبع؟ فلا تخافوا من منح ذواتكم فسحةً للتفكير مع راشدين، من أجل تصوّرٍ جادٍّ للخيار الذي يتعيّن اتّخاذه، والذي يفترض الإصغاء إلى المسيح الذي يدعوكم إلى اتّباعه على دروبٍ شديدة الاقتضاء، دروب شهادةٍ شُجاعةٍ في خدمة القِيَم التي تستأهل الحياة من أجلها، وبذل الحياة في سبيلها: الحقيقة، والإيمان وكرامة الإنسان، والوحدة، والسلام، والحبّ. بعون المسيح وكنيسته، ستصبحون، كلّ يومٍ، أكثر فأكثر، رجالاً ونساءً أحرارًا مسؤولين عن وجودهم، يريدون المشاركة بنشاطٍ في حياة كنيستهم، وفي العلاقات بين الجماعات الدينيّة والإنسانيّة، وفي بناء مجتمع لا يني يزداد عدالةً وأُخوّةً.

«يطلب الربّ يسوع من تلاميذه أن يكونوا دلالاتٍ في العالم، وأن يكونوا، حيثما يعيشون ويعملون، أدواتٍ مرئيّةً لحضوره الخلاصيّ. وستُمكّنون أترابكم الشباب من اكتشاف أنّ يسوع هو فرحكم وسعادتكم، ليس فقط بأقوالكم، بل، خاصّةً بأُسلوب حياةٍ مميّزٍ، بقلبٍ حرٍّ، وفكرٍ خلّاقٍ. وفي سبيل ذلك لا بدّ من تفادي الخطل الرائج اليوم، والذي يدّعي أنّ الإيمان لا ينسجم مع الحياة، وأنّ بقدرة الحياة الاستغناء عن الإيمان. فعلى كيان المسيحيّ ووجوده، أن يتوحّدا حول قطبهما

المركزيّ، أي الالتصاق بيسوع المسيح، وهكذا يستطيع أن يردّد، بلا انقطاعٍ، مع الرسول: «إنّي عارفٌ بمن آمنت».

«... إنّ ناس اليوم، في بحثهم المتلمّس، يريدون، وغالبًا من غير أن يدروا، أن يعرفوا المسيح، المخلّص الوحيد. وإنّي أدعوكم، أيّها الشبّان المحبوبون، أن تعلنوا يسوع المسيح، بشجاعةٍ وأمانةٍ، خاصّةً لأبناء جيلكم، وألاّ تقتصروا على إعلانه، بل العمل، أيضًا، بنحوٍ خاصٍّ، على إظهاره، بحيث يتساءل مواطنوكم، وهم يرون كيف تحيون، أن يتساءلوا ما الذي يحدوكم، ويولّد فرحكم. وحينئذٍ سيكون بوسعكم أن تجيبوا: «تعالوا، تروا». إنّ الكنيسة تعتمد كثيرًا عليكم، لكي يكون المسيح معروفًا ومحبوبًا على نحوٍ أفضل. أُسوةً بالرسل والنسوة، في صباح الفصح، رسالتكم هي، أيضًا، رسالة جميع المعمّدين، تولد من لقاء الربّ القائم من الموت. إنّ الحبّ يدفعنا إلى تبليغ هذه البشرى، التي تحوّل حياتنا ومصائر العالم.

«أيّها الشبّان الأحبّاء، إنّ مستقبل المسيحيّة في وطنكم يعتمد على التقارب والتعاون بين الكنائس والطوائف الكنسيّة التي تعيش فيه. هذا ما أدركتموه، وما تسعون من أجله.

«إنّ التعايش الذي تخبرونه وتمارسونه في حياتكم اليوميّة، في أحيائكم، ومدارسكم، ومعاهدكم التثقيفيّة، في فِرَقكم، ونشاطاتكم الشبابيّة، عزيزٌ عليكم، وهو يُعدّكم، منذ الآن، إلى تصوّرٍ مشتركٍ لمستقبلكم المسيحيّ في سوريّة. أمعنوا في تعميق ما يوحّدكم. تأمّلوا في الإنجيل معًا، واستغيثوا بالروح القدس، وأصغوا إلى شهادات الرسل، صلّوا بفرحٍ وشكرٍ؛ أحبّوا طوائفكم التي تورّثكم الإيمان والشهادة التي دفع لهما أجدادكم ثمنًا غالبًا ما كان باهظًا. وهي تعتمد على شجاعتكم، وعلى قداستكم، فهما أساس كلّ مصالحةٍ حقيقيّةٍ. ولتدوِّ صلاة المسيح: «ليكونوا كلّهم واحدًا» في قلوبكم، دويّ دعوةٍ ووعدٍ. بلادكم تتميّز، أيضًا، بالتعايش بين كلّ مكوّنات السكّان. وإنّي أُقدّر هذا التعايش المتضامن السلميّ، وأتمنّى أن يتمكّن الجميع من الشعور بأنّهم شركاء في الجماعة التي يحيون في أحضانها، وحيث تتاح لهم حرّيّة المساهمة في الخير العامّ.

«أيّها الشبّان الأحبّاء، ينبغي أن تقدّموا للعالم اللّه الذي اكتشفتموه. إنّ المنطق المسيحيّ فريدٌ، حقًّا. إذ يتعذّر على المرء الاحتفاظ بما أُعطيه، ما لم يقدّمه هو، بدوره. ذلك هو المنطق عينه الذي عاشه قبلكم المعلّم الإلهيّ، الذي تصاغر وتواضع

حتّى التضحية القصوى. ولذلك مُجّد، وتلقّى الاسم الذي يسمو فوق كلّ اسمٍ. إنّ خصب كلّ وجودٍ، الحقّ، يعبر من خلال هذه الخبرة الجوهريّة، خبرة سرّ الآلام والقيامة.

«مع بطاركتكم وأساقفتكم، ومع الكهنة والكنيسة جمعاء، أكرّر لكم القول، في هذا المساء: كونوا في محيط حياتكم شهودًا أوفياء لكلمة الحياة. إنّ حضوركم المثابر، وتعاونكم في الرعايا والحركات الكنسيّة، واهتمامكم الأخويّ والمتضامن بجميع المتألّمين في أجسادهم ونفوسهم، والتزامكم المسؤول ببناء مجتمعٍ يحترم حقوق الجميع، ويدعو إلى الخير العامّ وإلى السلام، تلك هي الالتزامات التي ينبغي أن تتقيّدوا بها، نتيجة انتمائكم إلى المسيح، وتصميمكم على خدمة الإنسان.

«أيّها الشبّان المسيحيّون الأعزّاء، اشهدوا «لإنجيل المحبّة»! يا شباب سوريّة الأحبّاء، ابنوا «حضارة الحبّ»! إنّي أوجّه إليكم هذه التوصيات برجاءٍ وثقةٍ كبيرين.

«وبمحبّةٍ أدعوكم، مثلما دعوت شبيبة العالم، بمناسبة اليوبيل الكبير!

«لا تخافوا من أن تكونوا قدّيسي الألفيّة الجديدة. مع الربّ يسوع، تصبح القداسة، وهي مشروع الله لكلّ المعمّدين، ممكنة التحقيق. إنّ يسوع يسير معكم، مجدِّدًا قلوبكم، ومقوّيًا إيّاكم بمنعة روحه».

في الساعة العاشرة والنصف من قبل ظهر يوم الثلاثاء ٢٠٠١/٥/٨، غادر البابا يوحنّا بولس الثاني دمشق قاصدًا مالطا، المحطّة الأخيرة في حجّه على خطى القدّيس بولس. وقد جرى له وداعٌ رسميٌّ في المطار، وبهذه المناسبة ألقى كلمةً، عبّر، من خلالها، عمّا حقّقت له تلك الزيارة من أسباب الرضى والبهجة، وممّا قاله:

«وأنا أُغادر أرض سوريّة العريقة، أفيض امتنانًا. قبل كلّ شيءٍ أشكر الله، كلّيّ القدرة، الذي أتاح لي مواصلة حجّي الإيمانيّ اليوبيليّ، بمناسبة الذكرى الألفيّة الثانية لولادة السيّد المسيح. وأشكر القدّيس بولس الذي كان رفيق سفري، في كلّ مرحلةٍ من رحلتي...

«طيلة إقامتي شعرتُ، أنا الحاجّ، أنّني في بيتي، ولن أنسى أبدًا هذه الحفاوة...

«وستبقى حيّةً في ذاكرتي زيارتي إلى الجامع الأمويّ، وحسن الاستقبال الذي

خصّني به سماحة المفتي وجموع المسلمين. وإنّي أُصلّي كي يستمرّ ويتوطّد تقليد العلاقات المتناغمة بين المسيحيّين والمسلمين، ذلك التقليد السوريّ العريق، الذي يشهد، للعالم أجمع، أنّ الدين، بصفته عبادة الله كلّيّ القدرة، يغرس بذور السلام في قلب الشعوب، وأنّه، بتلبية أعمق تطلّعات القلب البشريّ، يغذّي ويوحّد الأُسرة البشريّة في مسيرتها عبر التاريخ.

«إنّ سوريّة بلدٌ عريقٌ، ذو ماضٍ مجيدٍ. ونوعًا ما، أنتم ما زلتم أُمّةً شابّةً، ومع ذلك، في غضون وقتٍ قصيرٍ نسبيًّا، وفي ظروفٍ صعبةٍ، واجهتم تحدّيًا كبيرًا. وإنّي، في صلاة حجّي، أسألُ الله أن تتّجه سوريّة، بثقةٍ وسجوٍّ، صوب مستقبلٍ جديدٍ وواحدٍ، لكي يزدهر وطنكم على درب عهد رفاهٍ وأمانٍ لجميع مواطنيه.

«إنّ وجود سوريّة هو حيويٌّ من أجلِ حياة المنطقة كلّها، التي طالما عانت شعوبها مآسي الحرب والخلافات. ولكن لكي تُفتَح أبواب السلام، لا بدّ من إيجاد حلولٍ أساسيّةٍ وفقًا للحقّ والعدل، وبالتوافق مع الحقوق والمسؤوليّات...».

وأنهى البابا كلمته هاتفًا بالعربيّة: «شكرًا – السلام عليكم!»

لقد عاد يوحنّا بولس الثاني بجعبةٍ حافلةٍ بكلّ ما يثلج الصدر، وينحفر في الوجدان من ذكرياتٍ باقياتٍ. وهذا ما أعلنه في اللقاء العامّ مع الحجّاج، إثر عودته، يوم ٢٠٠١/٥/١٦، إذ صرّح:

«في كلّ مكانٍ زرته، حرصت على الشهادة لدى الكنائس الأرثوذكسيّة، عن محبّة الكنيسة الكاثوليكيّة وتقديرها، مؤكّدًا رغبتي في تطهيرٍ كاملٍ للذاكرة، من الأخطاء التي ارتُكبت في الماضي تجاه الشركة، إفساحًا في المكان للمصالحة والإخاء. وفضلاً عن ذلك، أُتيحت لي فرصة إعادة تأكيد انفتاح الكنيسة الصادق على مؤمني الإسلام، الذين تجمعنا بهم عبادة الله الواحد.

«وإنّي أعدّ نعمةً خاصّةً، التقائي الأساقفة الكاثوليكيّين، في اليونان وسوريّة ومالطا، وفي مواقع رسالتهم، ومعهم الكهنة والرهبان والراهبات، والعديد من المؤمنين العلمانيّين. على خطى القدّيس بولس، تمكّن خليفة بطرس من شدّ أزر هذه الجماعات وتشجيعها، وحضّها على الأمانة، وفي الآن عينه على الانفتاح على المحبّة الأخويّة.

«بعد زيارتي لليونان، مضيت إلى سوريّة، حيث، على طريق دمشق، ظهر يسوع القائم من الموت لشاول الطرسوسيّ، وحوّله من مضطهدٍ شرسٍ إلى مبشّرٍ بالإنجيل لا يملّ. وكان ذلك بمثابة عودةٍ إلى الأصول... إنّ تاريخ اللّٰه مع البشر ينطلق، دائمًا، من دعوةٍ إلى نسيان الذات، والتخلّي عن القناعات الشخصيّة، من أجل الاتّجاه صوب أرضٍ جديدةٍ، بوضع الذات بين يدي صاحب الدعوة. هكذا كان شأن إبراهيم، وموسى، ومريم، وبطرس، وسائر الرسل، وهكذا كان شأن بولس.

«سوريّة، اليوم، بلدٌ تقطنه أكثريّةٌ من المسلمين الذين يؤمنون باللّٰه الواحد، ويسعون إلى طاعته، أُسوةً بإبراهيم الذي يطيب لهم الاستشهاد به. إنّ الحوار الدينيّ مع الإسلام يرتدي، دائمًا، مزيدًا من الشأن في مطلع الألفيّة الثالثة. ولذلك، كان أمرًا مشجّعًا، حقًّا، الاستقبال الحارّ الذي أحاطتني به السلطات المدنيّة، ومفتي الجمهوريّة، الذي رافقني في زيارتي للجامع الأمويّ الكبير، حيث يوجد مزار القدّيس يوحنّا المعمدان، الذي يجلّه المسلمون، أيضًا.

«في دمشق ارتدى حجّي طابعًا مسكونيًّا عميقًا، ولا سيّما بفضل الزيارات التي قمت بها إلى كاتدرائيّات كلٍّ من غبطة إغناطيوس الرابع هزيم، بطريرك الروم الأرثوذكس، وقداسة مار إغناطيوس زكّا الأوّل، بطريرك السريان الأرثوذكس. وفي كاتدرائيّة رقاد السيّدة العذراء مريم التاريخيّة، احتفلنا، بعدئذٍ، علنيًّا، بلقاءٍ وصلاةٍ. وبذلك قُيِّض لي أن أشهد، بتأثّرٍ بالغ، تحقيق أحد أهداف حجّي اليوبيليّ الرئيسة، ألا وهو أن نجتمع في أماكن نشأتنا الأُولى، كي نشهد للمسيح، فهو وحدتنا، وأن نؤكّد التزامنا المشترك بإعادة ملء الشراكة.

«وفي دمشق لم أستطع سوى رفع صلاةٍ خاصّةٍ من أجل السلام في الشرق الأوسط، مدفوعًا، للأسف، بالوضع المأسويّ الراهن، الذي يزداد، كلّ يومٍ، إقلاقًا.

«وشخصتُ إلى القنيطرة، في هضبة الجولان، وزرت كنيسة القنيطرة، وهي شبه مدمّرةٍ، بفعل الحرب، وفيها رفعتُ صلاتي. ونوعًا ما، تلبّث فكري هناك، وما زالت صلاتي مستمرّةً، ولن تتوقّف، طالما لم يفسح الانتقام مكانه للمصالحة، وللاعتراف بالحقوق المتبادلة.

«هذا الرجاء يرتكز على الإيمان. وقد أوكلته إلى شبيبة سوريّة التي سعدتُ بلقائها، عشيّة مغادرتي دمشق. وما زلت أحتفظ، في قلبي، بحرارة تحيّتهم...».

زيارة البابا إلى مالطا

في الساعة الثانية بعد الظهر، حطّ قداسته في مطار «غودجا»، حيث استقبله رئيس الجمهوريّة. وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي، احتفل بذبيحةٍ إلهيّةٍ، بحضور حشدٍ من زهاء مئتي ألف مؤمنٍ، وفي خلالها طوّب كاهنين وراهبةً: الأب جورج بريكا، مؤسّس «جمعيّة العقيدة المسيحيّة»، والأب إغناطيوس فلزون، والأُخت ماري أديودات پيزاني. وهم المالطيّون الأوّلون الذي يُرفعون إلى المذابح.

وفي الساعة السادسة والنصف من مساء ذلك اليوم، عاد قداسته إلى روما، مختتمًا حجّه على خطى القدّيس بولس، الذي استغرق ستّة أيّامٍ. وقد علّق على تلك الرحلة بقوله: «**إنّ إرث القدّيس بولس نعمةٌ تستدعي مسؤوليّةً كبرى**».

مواصلة مسيرة قداسةٍ وتقديسٍ

صباح يوم **٥/١٣**، ترأّس قداسته الاحتفال بذبيحةٍ إلهيّةٍ في بازيليك القدّيس بطرس، رسم، خلالها، أربعةً وثلاثين شمّاسًا إنجيليًّا لرعيّة روما، وقال، بهذه المناسبة: «**إنّ الكاهن هو سرّ الرحمة الإلهيّة**».

ويوم الخميس، **٢٤** أيّار، الموافق لعيد الصعود، ترأّس الاحتفال بقدّاسٍ اشترك به مئةٌ وخمسةٌ وخمسون كردينالاً، في ختام مجمعهم الاستثنائيّ الذي دام ثلاثة أيّامٍ، والذي خُصّص لتقييم السنة اليوبيليّة. وفي عظته ذكّر الكرادلة بقول الربّ لتلاميذه قُبَيْل صعوده إلى السماء: «**ستنالون قدرة الروح القدس الذي سيأتي عليكم، فتكونون شهودي... إلى أقاصي الأرض**». وأكّد أنّ الروح القدس هو سرّ الكنيسة، اليوم، مثلما كان للكنيسة في ساعاتها الأولى، وأنّ أقوال الربّ القائم من الموت، ما برحت منذ ألفي سنةٍ تدفع بالكنيسة إلى عُرض التاريخ، وتجعلها معاصرةً لكلّ ثقافات العالم. وأوضح أنّ الربّ، بدعوته الكنيسة إلى اقتحام أعالي البحار، لم يدعُهم، فقط، إلى التزامٍ رسوليٍّ أكثر عمقًا، بل، أيضًا، إلى التزامٍ تأمّليٍّ أوفر كثافةً، موضحًا: «**نحن، أيضًا، مدعوّون، على غرار**

التلاميذ، الذين شهدوا صعود الربّ، إلى التحديق في وجه المسيح المغمور ببهاء المجد الإلهيّ»، وأضاف: «**تأمّل السماء لا يعني نسيان الأرض**»، «**نحن في حقبة فيض كلامٍ... ولكنّ الكلام الذي نحتاج إليه، هو الكلام الغنيّ بالحكمة والقداسة**»، فالغاية التي ينبغي أن تهدف إليها المسيرة الرسوليّة كلّها هي القداسة. ومن ثمّ، على الكنيسة أن تواجه، اليوم، تحدّياتٍ جسيمةً.

وكان قداسته، بمناسبة مرور ألفٍ وسبع مئة سنةٍ على عماد أرمينيا، قد بعث برسالةٍ إلى آرام الأوّل، كاثوليكوس كيليكية، وبذخيرةٍ من القدّيس غريغوريوس المنوّر، تمتينًا لعرى الوحدة بين الكنيستين.

وفي ختام الشهر المريميّ، صرّح البابا: «**حيث توجد مريم، يوجد يسوع، وحيث يوجد يسوع، هناك روحه القدوس. إنّ** «**نَعَم**» **العذراء يستجلب آلاء اللّٰه على البشريّة. هذا ما حدث في البشارة، وفي العنصرة، وهذا ما يحدث باستمرارٍ على دروب الكنيسة**».

إعلان قداسة الراهبة اللبنانيّة «رفقا»

يوم الأحد ٢٠٠١/٦/١٠، كان «عيد القداسة». ففيه طوّب الحبر الأعظم القدّيسة «رفقا شُبُق الريّس»، وأربعةً آخرين. وقد أشاد بمحبّة الأُخت رفقا، وباحتمالها الآلام المضنية، التي ما انفكّت تتفاقم، سحابة السنوات التسع والعشرين من وجودها الأرضيّ، والتي كانت تقدّمها للّٰه بسخاءٍ وشَغَفٍ، من أجل خلاص الآخرين، مستمدّةً من اتّحادها بالمسيح الذي مات على الصليب، القوّة على تقبّل إرادته بفرحٍ، وعلى حبّ الألم، الذي وفّر لها درب قداسةٍ حقيقيًّا.

وبعد أن حيّى الكردينال صفير، والوفد اللبناني أكّد: «**فليذكر الجميع أنّ الشهادة اليوميّة المبنيّة على حياةٍ معاشةٍ في اتّصالٍ حميمٍ بالمسيح، هي سبيلٌ للتبشير منقطع النظير**».

وفي اليوم التالي، لدى استقباله الوفود المشاركة في احتفالات التطويب، قال:

«إنّ القدّيسة رفقا هي داعي فرحٍ عميقٍ للكنيسة، ولا سيّما لجميع المسيحيّين اللبنانيّين. ففي الشرق الأوسط، الذي تدمّره الصراعات المميتة الكثيرة، والآلام غير المبرّرة، تبقى شهادة هذه الراهبة اللبنانيّة نبع ثقةٍ ورجاء لضحايا المِحَن. فلأنّها عاشت، دائمًا، في علاقةٍ وثيقةٍ مع يسوع، واستطاعت، أُسوةً به، ألاّ تيأس أبدًا من الإنسان، وأضحت علامةً خفيّةً، ولكن فاعلةً، على أنّ سرّ المسيح الفصحيّ ما زال يحوّل العالم، لكي ينبت فيه رجاء حياةٍ جديدةٍ مقدّمةٍ لجميع البشر حسني النوايا. بتقبّلها الألم على أنّه وسيلةٌ لحبّ يسوع وإخوته، على نحوٍ أفضل، عاشت، بطريقةٍ ساميةٍ، البعد الرسوليّ لحياتها المكرّسة، مستمدّةً من الثالوث الأقدس، القوّة على تقديم حياتها من أجل العالم، ومكمّلةً، في جسدها، ما كان ينقص من مضايق المسيح. فليجد المرضى، والمفجوعون، ومهجّرو الحروب، وجميع ضحايا حقد الأمس واليوم، في القدّيسة رفقا، رفيقةَ دربٍ، لكي يواصلوا، بشفاعتها، البحث، في الليل، عن أسباب رجاءٍ، ويتابعوا بناء السلام».

وفي ذلك اليوم عينه، أثناء صلاة التبشير، قال: **«فلنرفع أبصارنا صوب العذراء مريم، ملكة جميع القدّيسين. إنّ وجودها الذي قرن التواضع بالسموّ، هو تحفة الثالوث الأقدس، ويمثّل، لكلّ معمّدٍ، المعيار الأعلى للحياة المسيحيّة، التي يتعيّن عليه الصبوّ إليها، بالتزامٍ واثق».**

وما انفكّ قداسته، في كلّ مناسبةٍ، يُدلي بأقوالٍ مضيئةٍ، تنير، وتنعش، وتبثّ الرجاء.

فمساء يوم الخميس ٦/١٤، ترأّس الاحتفال بعيد «جسد الربّ»، وتطوافًا بالقربان المقدّس من كاتدرائيّة القدّيس يوحنّا، في «اللاتران»، إلى كاتدرائيّة القدّيسة مريم الكبرى، وجاء في عظته:

«تحدّق أنظار المؤمنين إلى السرّ الذي أُودع لنا يسوع فيه كلّ ذاته: جسدًا، ودمًا، وأُلوهةً. ولذلك عُدّ، دائمًا، هو السرّ الأقدس، «كلّيّ القداسة»، وذكرى التضحية الفدائيّة».

وبعد ثلاثة أيّامٍ، ٢٠٠١/٦/١٧، في أثناء صلاة التبشير قال: **«أصبحت الإفخارستيّا بدء البشريّة الجديدة، والعالم المتجدّد، الذي سيكتمل تجلّيه في نهاية التاريخ. غير أنّها، هي، الآن، تنمو بصفتها بذرة ملكوت الله وخميرته».**

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى أوكرانيا (٢٣ حتّى ٢٠٠١/٦/٢٧)

يوم السبت، **٢٠٠١/٦/٢٣**، باشر يوحنّا بولس الثاني رحلته الرسوليّة الرابعة والتسعين، وكانت أوكرانيا مقصدها.

في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا، حطّت طائرته في مطار كييف، حيث صرّح أنّه طالما تطلّع إلى هذه الزيارة، وشكر للّه تحقيقها؛ وعبّر عن رغبته في الحجّ إلى هياكل كييف الشهيرة، «مهد الثقافة المسيحيّة في الشرق الأوروبّيّ كلّه»، مؤكّدًا أنه جاء صديقًا لتلك الأمّة النبيلة، وأخًا في الإيمان، راغبًا في تقبيل المسيحيّين الكُثُر الذين حافظوا على وفائهم للمسيح، وسط أقسى المصاعب والاضطرابات. وأعلن: «**جئتُ حاجّ سلامٍ وإخاءٍ، كي أشهد للمسيح مع جميع المسيحيّين من كلّ الكنائس والطوائف، ولكي أدعو جميع أبناء وبنات هذه الأرض الكريمة، إلى رفع أبصارهم صوب من أعطى حياته من أجل خلاص العالم**».

ونوّه بأنّ «**العلاقات بين الكنيسة الأرثوذكسيّة والكنيسة الكاثوليكيّة، قد عرفت عهودًا مشرقةً، تبعث على الرجاء في استعادة الوفاق والإخاء، وأُخرى حزينةً، لُطّخت، فيها، إيقونة حبّ المسيح. ولذلك نحن نصلّي أمام ربّنا الواحد، معترفين بأخطائنا. وفيما نلتمس الصفح عن الأخطاء المرتكبة في الماضي القريب والبعيد، نصفح، من جانبنا، عن كلّ ما أصابنا من أذًى. والأمنيّة التي تتفجّر من قلبي هي ألاّ تتكرّر أخطاء الماضي، في المستقبل. فنحن مدعوّون إلى الشهادة للمسيح، وإلى هذه الشهادة، معًا.**

«**توجد في أوكرانيا دعوةٌ أوروبّيّة واضحةٌ، تؤكّدها جذور الثقافة المسيحيّة. وأتمنّى أن تدعم هذه الجذور وحدتكم الوطنيّة**».

في الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم، الموافق عيد القدّيس يوحنّا المعمدان، ترأّس الاحتفال بقدّاسٍ، حسب الطقس اللاتينيّ، وقال في عظته:

«**هنا حدث تعميد روسيّا. من كييف بدأ ازدهار الحياة المسيحيّة. ثمّ انتقل إلى أراضي أوروبّا الشرقيّة، وبعدئذٍ إلى ما وراء الأورال، في البلدان الآسيويّة. إذن، لعبت كييف، بمعنًى ما، دور سابق الربّ، بين الشعوب العديدة التي كان عليها أن تتلقّى بشرى الخلاص.**

«لقد تلقّى القدّيس ڤلاديمير، وسكّان الروسيّا، العماد، بيد مرسلين قادمين من القسطنطينيّة، أكبر مركزٍ للمسيحيّين في الشرق. وهكذا دخلت الكنيسة الفتيّة، في إطار إرث الإيمان والثقافة الغنيّ جدًّا، الخاصّ بالكنيسة البيزنطيّة...

«يا شعب الله الذي يرجو، ويحبّ، في هذا الوطن الأوكرانيّ، تذوّق مجدّدًا، بفرحٍ، نعمة الإنجيل التي تلقّيتها منذ أكثر من ألف عامٍ!

«يا أرض أوكرانيا، المضمّخة بدم الشهداء، شكرًا لشهادة الوفاء للإنجيل، التي قدّمتها للمسيحيّين، في كلّ أرجاء العالم!».

في اليوم التالي، الأحد ٦/٢٤، احتفل بقدّاسٍ وفق الطقس اللاتينيّ. وبعد الظهر، التقى ممثّلي مجلس كنائس كلّ أوكرانيا.

ويوم الإثنين ٦/٢٥، احتفل بقدّاسٍ وفق الطقس البيزنطيّ، وليتورجيّا القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم في مدينة «شيكا» (Chayka). وفي المساء، انطلق، بالطائرة، إلى مدينة «لڤيڤ»، حيث طوّب في صباح يوم ٦/٢٦ خادمَيْن لله، وقابل الأساقفة الكاثوليك. وفي المساء عقد لقاءً مع الشبيبة.

ويوم الأربعاء، ٦/٢٧، في أثناء قدّاسٍ وفق الطقس البيزنطيّ، طوّب خمسةً وعشرين شهيدًا، منهم تسعة أساقفةٍ، واثنا عشر كاهنًا، وثلاث راهباتٍ، وعلمانيٌّ. وفي المساء غادر عائدًا إلى روما.

جديرٌ بالتنويه أنّه، في لقائه مع الأساقفة الكاثوليكيّين، شدّد على واجب الحوار الجدّيّ مع الكنيسة الأرثوذكسيّة، سعيًا إلى تحقيق وحدة المسيحيّين. وفي كلّ عظاته كانت قضيّة هذه الوحدة هي موضوعه الأثير.

وفي لقائه مع الشبيبة قال لهم: «**الحرّيّة تستلزم ضمائر منيعةً، مسؤولةً، وناضجةً**».

وفي سياق السعي إلى وحدة المسيحيّين، أرسل البطريرك المسكونيّ برتلماوس، بطريرك القسطنطينيّة، وفدًا للمشاركة في عيد القدّيسَين بطرس وبولس، في روما، جريًا على تقليدٍ عمره سنواتٌ. وبهذه المناسبة ذكّر البابا بأنّ الربّ دعا الأخوين سمعان بطرس وأخاه أندراوس، كي يجعل منهما صيّادَي بشرٍ، فانطلقا على دروب العالم للتبشير بالإنجيل.

وقال قداسته: «**مثلما دعا الربّ «معًا» بطرس وأندراوس، كذلك الرسل، أيضًا، مدعوّون إلى إعلان بشرى الخلاص، لكي يؤمن العالم، بفضل أقوالنا، ووحدتنا الأخويّة**».

وأضاف: «**مع أنّ الكنيستين تشتركان في احتفالات روما والفنار، غير أنّ استحالة المشاركة في ذبيحة المسيح الواحدة، هي لنا، جميعًا، مبعث ألمٍ، ودعوةٌ للبحث عن سبُلٍ لتبديد الخلافات التي ما زالت قائمةً وحائلةً دون وحدتنا**».

وفي عظة قدّاس عيد القدّيسين بطرس وبولس قال: «**طوبى لكنيسة الألفيّة الثالثة التي تحفظ الإنجيل بنشره، باندفاعٍ متجدّدٍ... فالإيمان يُحفَظ عندما يُعطى... في الإيمان – وهو ثمرة اللقاء السرّيّ بين النعمة الإلهيّة والتواضع البشريّ المستسلم لهذه النعمة – يكمن سرّ السلام الداخليّ، وفرح القلب اللذين يشيعان شعورًا مسبّقًا بغبطة السماء**».

عطلةٌ صيفيّةٌ نشيطةٌ

في التاسع من شهر تمّوز، بدأ البابا عطلةً صيفيّةً، كان في حاجةٍ إليها. ولكنّه لم ينقطع عن مواكبة أحداث العالم، وإبداء رأيه فيها، كلّما اقتضت الظروف، ولم يتوقّف عن إلقاء تعاليم مستوحاةٍ من الكتاب المقدّس، على مسامع الحجّاج الذين يقصدونه.

فبمناسبة اقتراب يوم الرسالة العالميّ، بعث برسالةٍ كي تُتلى بهذه المناسبة، أكّد فيها أنّ على من تلقّى المسيح حقًّا، واجب التبشير به. ودعا المشاركين بهذا اليوم إلى انطلاقةٍ جديدةٍ، من المسيح، في اندفاع عنصرةٍ متجدّدةٍ، انطلاقةٍ من خلال جهودٍ يوميّةٍ نحو القداسة، والصلاة، والإنصات لصوت الربّ، من أجل الشهادة لحبّه.

وفي التاسع عشر من تمّوز، وجّه إلى المشاركين في قمّة الثمانية الكبار، في مدينة جنوى الإيطاليّة، رسالةً موجزةً، جاء فيها:

«**أتمنّى ألاّ تستبعدوا من اهتمامكم أيّ إنسانٍ أو أمّةٍ، في أثناء أيّام عملكم**

الكثيفة. وأتمنّى ألاّ يسحقكم عبء القضايا الشخصيّة، بل أن تلتزموا بتشجيع ثقافة التضامن، التي تتيح إيجاد حلولٍ واقعيّةٍ للمشاكل التي ترهق إخوتنا في حياتهم، وفي علاقاتهم مع الآخرين: السلام، والفقر، والصحّة، والبيئة». وشدّد على ضرورة أن تخضع العولمة لغايات الخير العامّ.

ولأعضاء جمعيّة الثالوث الأقدس الذين زاروه، قال: «**لن تحقّقوا الخدمة التي ينتظرها منكم الإنجيل والبابا، إلاّ إذا كنتم قدّيسين**».

ويوم **٧/٢٣**، استقبل، في مقرّه الصيفيّ، الرئيس جورج بوش، المنتخب حديثًا، والذي امتدح في البابا، كلّ ما يناقض سلوكه السياسيّ، وسلوك دولته:

«منذ شهر تشرين الأوّل ١٩٧٨، أظهرتم للعالم، ليس فقط «بهاء الحقيقة»، بل، أيضًا، قدرة الحقيقة على قهر الشرّ، وتحويل مجرى التاريخ. ودعوتم الرجال والنساء، حسني النوايا، إلى الركوع أمام الله، وإلى الوقوف، بلا وجلٍ، في وجه الطغاة. وهذا ما أسهم، إلى حدٍّ بعيدٍ، في تقدّم الحرّيّة في عصرنا.

«حيث يوجد قمعٌ، تدافعون عن حقوق الإنسان،

«وحيث يوجد الفقر، تتحدّثون عن العدل والأمل،

«وحيث تسود أحقادٌ دهريّةٌ، تبرهنون عن تسامحٍ يتخطّى كلّ حدود العرق، والجنسيّة، والعقيدة.

«وحيث توجد الوفرة، تذكّروننا بأنّ الثروة ينبغي أن يواكبها التضامن، والالتزام الأخلاقيّ.

«وللجميع جئتم، دائمًا، بإنجيل الحياة الذي يرحّب بالغريب، ويحمي الضعيف والبريء.

«لقد جئتم بحبّ الله إلى حياة البشر...

«وجديرٌ بكلّ أمّةٍ، وبأمّتي، أن تصغي إلى رسالة الضمير هذه!».

وليته أصغى، وليت دولته أصغت!

في ٨/٢ استقبل السيّد ياسر عرفات. وفي ٨/١٢، بمناسبة استمرار الاعتداءات الإسرائيليّة الوحشيّة، صرّح، في أثناء صلاة التبشير: «**ما انفكّت تنهال علينا صور الخراب، والقتل، والأجساد المشوّهة، والأُسَر الممزّقة. إنّ هيجان الفظائع اللامعقول هذا، يظهر، بمزيدٍ من الجلاء، وَهْم ادّعاء حلّ قضايا العدل والتعايش بين الشعوب، باللجوء إلى العنف**».

وبمناسبة عيد انتقال السيّدة العذراء، قال: «**إنّ ليتورجيّانا تظهر لنا مريم العذراء علامةً معزّيةً لرجائنا. فبتأمّلها، وهي مرتفعةٌ وسط تمجيد جموع الملائكة، ينفتح التاريخ البشريّ، بكلّ أنواره وظلاله، على رؤية السعادة الأبديّة. وإن كانت خبرتنا اليوميّة تسمح لنا بتبيّن أنّ حجّنا الأرضيّ يكتنفه الشكّ والصراع، إلاّ أنّ العذراء المرتفعة إلى مجد الفردوس تؤكّد لنا أنّنا لن نفقد أبدًا العون الإلهيّ**».

ويوم ٨/١٨، استقبل وفدًا من الشبّان المساهمين في حركة «شبّان نحو أسّيزي». وممّا قاله لهم:

«**أنتم للّه، واللّه لكم!... إنّ النفس أكبر من السماء. لقد استوعب فرنسيس وكيارا هذه الحقيقة، فانطلقا نحو قمّة القداسة. ليست القداسة ضربًا من المسيرة النسكيّة الفائقة، تمارسها، فقط، قلّةٌ من «العباقرة»، بل هي «الدرجة العليا» من الحياة المسيحيّة العاديّة. القداسة تعني فعل أمرٍ جميلٍ من أجل اللّه، كلّ يومٍ، وهي، أيضًا، الاعتراف بما فعل اللّه لنا، وبما لا ينفكّ يحقّق لنا. كونوا قدّيسين، أيّها الشباب، لأنّ الافتقار إلى القداسة هو ما يجعل العالم حزينًا**».

وأثناء لقائه مع عمداء الجامعات البولونيّة، دعا إلى «**أن تكون الجامعات أمكنةً لتربية الضمير وتعليم جرأة التخلّي عمّا هو، تقنيًّا ممكنٌ، وأخلاقيًّا مدانٌ**».

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى كازخستان وأرمينيا

كانت تلك رحلته الرسوليّة الخامسة والتسعين، وقد استهلّها يوم السبت ٢٠٠١/٩/٢٢. مساء ذلك اليوم، استقبله في مطار «أستانا» الرئيس «نور سلطان نازرباييف» فحيّى قداستُه المسؤولين والمؤمنين المسلمين، وجميع الأشخاص، حسني النوايا، الذين يسعون إلى إحياء القِيَم الأخلاقيّة والروحيّة، الكفيلة بتأمين

مستقبل سلامٍ للجميع. وحيّى الكنائس المسيحيّة، داعيًا مؤمنيها إلى ضفر جهودهم كي تشهد الألفيّة الثالثة تلاميذ المسيح يعلنون الإنجيل بصوتٍ واحدٍ، وقلبٍ واحدٍ، رسالة رجاءٍ للبشريّة جمعاء. وناشد الجمع، قائلاً:

«يا شعب كازخستان، إنّ رسالةً خطيرةً تنتظركم: بناء وطنٍ على أُسس التقدّم الحقيقيّ، وعلى التضامن والسلام.

«يا كازخستان، يا أرض الشهداء والمؤمنين، أرض المنفيّين والأبطال، أرض المفكّرين والفنّانين، لا تخافي! فإن كانت نُدُب الجراح التي أثخنت جسدك، ما زالت عميقةً ومتعدّدةً، وإن كانت أعمال إعادة الإعمار المادّيّ والروحيّ، ما زالت تتعثّر بمصاعب وعوائق، فلتكن أقوال شاعركم الكبير «آباي كوننباي» بلسمًا وتشجيعًا: «مبدأ الإنسانيّة الحبّ والعدل. فهما يتوّجان عمل العليّ»».

واستهلّ يوم الأحد **٩/٢٣**، بقدّاسٍ في ساحة العاصمة، وجاء في عظته:

«المسيحيّون هم، في آنٍ واحدٍ، من قاطني الأرض، ومواطنو ملكوت السماوات. وهم يلتزمون، بلا تحفّظٍ، ببناء مجتمعٍ أرضيٍّ، ولكنّهم يظلّون متطلّعين إلى الخيرات الخالدة، ويكاد لا يكون لهم مرجعٌ سوى نموذجٍ سامٍ، فائق الطبيعة، يجهدون، باستمرارٍ، إلى تحقيقه، على نحوٍ أفضل، في وجودهم اليوميّ... في الواقع، إنّ المسيحيّة المعاشة بصدقٍ هي بمثابة خميرةٍ للمجتمع، تنمّيه وتنضجه على المستوى الإنسانيّ، وتشرعه على بُعد ملكوت المسيح السامي، محقّقةً تحقيقًا كاملاً، البشريّة الجديدة».

وناشد قداسته الكاثوليكيّين قائلاً: **«فليجد فيكم «الوطن الأُمّ» كازخستان، أبناءً وَرِعين وغيورين، وأوفياء للإرث الروحيّ والثقافيّ الموروث من الآباء، وقادرين على توفيقه مع المقتضيات الراهنة.**

«تميّزوا، وفقًا للنموذج الإنجيليّ، بتواضعكم وتماسككم، وباستثمار مواهبكم في خدمة الخير العامّ، وبإيثاركم الأشخاص الأكثر ضعفًا وحرمانًا. إنّ احترام حقوق كلّ فردٍ، حتّى إن اختلفت القناعات الشخصيّة، هو شرط كلّ تعايشٍ إنسانيٍّ حقيقيٍّ.

«أُحيوا روح شراكةٍ عميقًا وفعليًّا في ما بينكم ومع الجميع، مستلهمين ما يذكره سفر أعمال الرسل عن جماعات المؤمنين الأولى، واشهدوا للمحبّة التي تغذّونها على المائدة الإفخارستيّة في المحبّة الأخويّة، وفي خدمة الفقراء والمرضى والمنبوذين..»».

وبمناسبة صلاة التبشير، قال: «**إنّي أُوكل إلى مريم العذراء كلّ فردٍ، مسيحيّين وغير مسيحيّين، مؤمنين وغير مؤمنين، فهي أمّ الجميع**».

وبعد ظهر ذلك اليوم، التقى، في مقرّ السفارة البابويّة، الأساقفة والمدبّرين الرسوليّين، والمسؤولين الكنسيّين، وشكر لهم جهودهم في سبيل نهضة الكنيسة، التي تعرّضت، سنين طويلةً، للاضطهاد الشيوعيّ، الذي أدّى إلى سقوط طائفةٍ من الشهداء، وإلى آلامٍ لا توصف. وذكّرهم بقول الربّ: «لا تخف، أيّها القطيع الصغير» وقوله لبطرس «تقدّموا نحو العُرض، وألقوا الشباك...».

وأضاف البابا: «**إنّ تاريخ الجماعة المسيحيّة الصغيرة، في آسيا الوسطى، التي خرجت حيّةً من براثن الشيوعيّة، والتي تمثّل أقلّيّةً ضئيلةً، تذكّر بمَثَل الخميرة الإنجيليّ، التي تخمّر العجين. إنّ الخميرة شيءٌ صغيرٌ، ولكنّها تملك قدرة تحويل كلّ شيءٍ. تلك هي القناعة التي ينبغي أن تحدّد عملكم الرسوليّ، وتدعم مهمّتكم الصعبة والمثيرة، على هذه الأراضي التي أُشرعت من جديدٍ للإنجيل...**

«**باسم معلّمنا، وربّنا المشترك، أدعوكم: «أحبّوا بعضكم بعضًا»، واسهروا دائمًا على إحياء هذه الوحدة في ما بينكم، التي أوصانا بها المسيح...**».

وأشار البابا إلى ضرورة إعادة ترميم النفوس، التي أوهنها الطغيان الشيوعيّ، بمحاولته الماكرة والخبيثة اجتثاث الله من قلوب البشر، ما أوهى القِيَم الأخلاقيّة، وجعل النفوس أكثر هشاشةً، وعرضةً للوقوع في شراك موجات الاستهلاك والمتعة المستوردة من الغرب. ولذلك دعا إلى السهر على إحياء ثقافة الصلاة، وروح الإخاء، والخدمة، ولا سيّما في الأوساط الجامعيّة، وإلى تشجيع الشبيبة على اعتناق الكهنوت، ودعم رسالة العلمانيّين، والحوار المسكونيّ، والحوار مع المسلمين، ومعتنقي الديانات الأُخرى.

ثمّ، عقب زيارةٍ لرئيس الجمهوريّة، التقى الشبيبة، في جامعة «أوراسيا»، وامتدح روح التعايش المتناغم بين الفئات المختلفة، الذي يجعل من كازخستان أرض تلاقٍ وتبادلٍ. وخاطب الشبيبة بقوله: «**أيّها الشابّ، أنت خاطرة الله، أنت خفقة قلبه. لك قيمةٌ لامتناهيةٌ. إنّ ما يجعل الإنسان جميلاً وعظيمًا هو دمعة الله التي يحملها في داخله**».

وصباح يوم الإثنين، **٩/٢٤**، ترأّس، في كاتدرائيّة «أستانا»، المكرّسة لسيّدة المعونة الدائمة، الاحتفال بقدّاسٍ، وجاء في عظته، قوله: «**على آلام شهدائكم، المتّحدة بصليب المسيح، أزهرت جماعتكم الجديدة**». وأوضح أنّ إعادة بناء الكنيسة يجب أن يقوم على أُسسٍ داخليّةٍ منيعةٍ. «**فعليكم أن تكونوا نجّارين، وحدّادين، وبنّائين، وعملةً في الهيكل الروحيّ الذي يتوجّب بناؤه**». وهذا يقتضي الشراكة والتعاون، والاهتمام بتثقيفٍ لاهوتيٍّ، ونسكيٍّ، ورسوليٍّ، لمن يدعوهم اللّه إلى خدمةٍ. «**ولتقترن صلابة شهادتكم بعذوبة الحوار**».

«**أيّها الإخوة والأخوات الأعزّاء، عندما يفيض عملكم الرسوليّ بالدموع، وعندما يصبح الدرب وعرًا وشاقًّا، فكّروا بالخير الذي يحقّقه الربّ من خلال أيديكم، وأقوالكم، وقلوبكم. فقد وضعكم هنا هديّةً للآخرين. فكونوا على مستوى هذه الرسالة**».

وبعد ظهر ذلك اليوم، التقى ممثّلي عالم الثقافة، والفنّ، والعلم، وممّا قاله: «**في قلب الإنسان تكمن تساؤلاتٌ لا مفرّ منها، إن هو تجاهلها لا يتحرّر، بل يزداد وهنًا، ويصبح فريسة غريزته، وأذيّةً للغير**». واستشهد بقول الشاعر والمفكّر الكازخستانيّ «آباي لوننباي»: «لا يمكن للمرء أن يكون إنسانًا ما لم يدرك أسرار الكون المرئيّة والخفيّة، وما لم يبحث عن تفسيرٍ لكلّ شيءٍ. من يُعرِض عن ذلك، لا يختلف، في شيءٍ، عن الحيوانات.

«**إنّ اللّه يميّز الإنسان عن الحيوان بمنحه نفسًا**»، «**إنّ قلب الشعب هو ثقافته... ومن عثر على الحقيقة، في بهاء جمالها، لا يستطيع إلاّ الشعور بالحاجة إلى إشراك الآخرين بها**». وحذّر من الانجرار في تيّار الثقافة الغربيّة، مذكّرًا بقوله: «**إنّ نماذج الغرب الثقافيّة، بسبب تلوّنها بالعلم والتقنية، تبدو فاتنةً ومغريةً. ولكنّها، للأسف، تُظهر بوضوحٍ متنامٍ، فقرًا متزايدًا في الميادين الإنسانيّة والروحيّة، والأخلاقيّة. فالثقافة التي تنتجها مطبوعةٌ بادّعاءٍ مأسويٍّ، يزعم تحقيق الخير للإنسان بالاستغناء عن اللّه، الخير الأسمى. على جميع المؤمنين أن يضفروا جهودهم، لكي لا يكون اللّه، أبدًا، رهينة مطامع البشر. فالحقد، والتعصّب، والإرهاب، تدنّس اسم اللّه، وتشوّه صورة الإنسان الأصيلة**».

أرمينيا

بعد ظهر يوم الثلاثاء، **٩/٢٥**، حطّت طائرة البابا في مطار ييريڤان، حيث استقبله رئيس الجمهوريّة «روبير كنشاريان»، وغبطة البطريرك «كاريكين الثاني»، كاثوليكوس جميع الأرمن، الذي رحّب به بالعبارات التالية:

«إنّها المرّة الأولى في تاريخ كنيستنا، التي يطأ فيها رئيس الكنيسة الكاثوليكيّة الأعلى، أرض أرمينيا. وقد أصبحت هذه الزيارة ممكنةً لأنّ زمن اليأس ولّى، ولأنّ دولة أرمينيا هي، اليوم، مستقلّةٌ، والكنيسة الأرمنيّة حرّةٌ. كان شعبنا ينتظر زيارتكم بفرحٍ منذ عدّة سنواتٍ...

«يا صاحب القداسة، إنّ زيارتكم لأرض نوح ترتدي شأنًا أعظم، في هذه السنة اليوبيليّة التي يحتفل فيها جميع الأرمن، في العالم، بمرور ألفٍ وسبع مئة سنةٍ على اعتناق أرمينيا الدين المسيحيّ، وعشر سنواتٍ على استقلال أرمينيا وناغورني كاراباخ. وإنّها لسعادةٌ كبرى لشعبنا أن تكونوا إلى جانبنا، في أيّام احتفالنا بهذه الأحداث... من المؤكّد أنّ زيارتكم ستمتّن العلاقة بين الكنيسة الأرمنيّة والكنيسة الكاثوليكيّة، وأنّ الأُخوّة بين الكنيستين ستزوّد المسيحيّة بمزيدٍ من زخمٍ...».

وردّ البابا على ترحيب البطريرك بقوله:

«يا صاحب القداسة، الكاثوليكوس كاريكين، أقبّلكم بمحبّةٍ أخويّةٍ في الربّ، وأُقبّل الكنيسة التي ترأسونها. لولا تشجيعكم، لما كنت، اليوم، هنا، حاجًّا، في رحلةٍ روحيّةٍ من أجل تكريم الشهادة الرائعة، شهادة حياةٍ مسيحيّةٍ قدّمتها الكنيسة الرسوليّة الأرمنيّة، على امتداد قرونٍ، ولا سيّما في القرن العشرين، الذي كان لكم قرن إرهابٍ لا يوصف، وآلامٍ جمّةٍ. في ذكرى مرور ١٧٠٠ سنةٍ على إعلان الدين المسيحيّ دينًا رسميًّا على هذه الأرض الحبيبة، تشارككم الكنيسة الكاثوليكيّة كلّها، فرح جميع الأرمن العميق. إنّ سجلاّت الكنيسة الجامعة ستؤكّد، للأبد، أنّ شعوب أرمينيا كانت الأولى – شعبيًّا – في اعتناق نعمة وحقيقة إنجيل ربّنا يسوع المسيح. ومنذ تلك الأزمان البطوليّة، لم تكفّ كنيستكم عن إنشاد تسابيح لله الآب، وعن الاحتفال بسرّ موت ابنه يسوع المسيح وقيامته، والتماس عون الروح القدس المعزّي.

إنّكم تحرصون، بغيرةٍ، على ذكرى شهدائكم العديدين. وفي الواقع كان الاستشهاد امتياز الكنيسة الأرمنيّة والشعب الأرمنيّ.

«**إنّ ماضي أرمينيا لا ينفصل عن إيمانها المسيحيّ. وبنفس الطريقة سيسهم وفاؤكم لإنجيل يسوع المسيح في المستقبل الذي ستبتنيه أمّتكم، بعد دمار القرن المنصرم**».

مساء **٩/٢٥**، قام البابا بزيارة صلاةٍ إلى كاتدرائيّة «إتشيميادزين»، المبنيّة في موقع ظهور المسيح لغريغوريُس المنوِّر، وجاء في كلمته:

«**تنهض مدينة إتشيميادزين مركزًا كبيرًا لإيمان أرمينيا بابن الله الوحيد الذي انحدر من السماء، ومات لكي يخلّصنا من الخطيئة، والذي استهلّت قيامته السماوات الجديدة والأرض الجديدة. إنّ إتشيميادزين تبقى لجميع الأرمن عربون الثبات في هذا الإيمان عينه، رغم الآلام، وسفك الدماء، أمسِ واليوم، التي اقتضاها تاريخها المضطرب، ثمنًا لهذا الوفاء**».

وفي ختام تلك الزيارة، قدّم البابا لهيكل القدّيس غريغوريُس، مصباحًا من فضّةٍ صنعه فنّانٌ إيطاليٌّ.

وصباح يوم **٩/٢٦**، زار الحبر الأعظم صرح «تزتزرناكابرد» (Tzitzernakaberd)، المقامِ تكريمًا لذكرى المجازر التي ارتكبها العثمانيّون، عام **١٩١٥**، وهناك رفع صلاةً، تفيض تأثّرًا... وبعد ظهر ذلك اليوم شارك البطريرك كاريكين الاحتفال بقدّاسٍ مسكونيٍّ في كاتدرائيّة ييريڤان الجديدة، المكرّسة للقدّيس غريغوريُس المنوّر. وجاء في الكلمة التي ألقاها بهذه المناسبة:

«**إنّ هذا البيت المقدّس الرائع يشهد على الإيمان الذي ورثتموه من آبائكم، ويحدّثنا، جميعًا، عن الرجاء الذي ما برح يحدو الشعب الأرمنيّ إلى التطلّع صوب المستقبل، بثقةٍ متجدّدةٍ، وعزيمةٍ شجاعةٍ**».

وأشاد قداسته بانفتاح الكنيسة الأرمنيّة على كنائس الشرق والغرب، وعلى مساعي وحدة المسيحيّين، وأطلق هذه الصرخة:

«**لا يكنْ، بعدُ، أبدًا، مسيحيّون ضدّ مسيحيّين، ولا كنيسةٌ ضدّ كنيسةٍ! بل فلنسرْ معًا، يدًا بيدٍ، كي يؤمن عالم القرن الحادي والعشرين، والألفيّة الثالثة!**

«يا صليب المسيح، يا رجاءنا الحقيقيّ، كلّما كانت الخطيئة والضعف سبب انقسامٍ، هبنا القدرة على الصفح والمسامحة مع الآخرين. يا صليب المسيح، كن سندنا عندما نعمل من أجل ترميم ملء الشراكة بين من يرون في الربّ المصلوب، مخلّصنا وإلهنا!».

صباح ٩/٢٧، أقام قدّاسًا في حديقة إتشيميادزين، بمشاركة البطريرك كاريكين الثاني، وأشاد بروح الإخاء السائد بين الأرمن الكاثوليك، والأرمن الأرثوذكس، وممّا قاله:

«إنّ جميع المسيحيّين الأرمن يلتفتون، معًا، صوب صليب يسوع المسيح، بصفته رجاء العالم الوحيد، والنور الحقيقيّ، وخلاص أرمينيا. إنّ الصليب عزيزٌ على قلوبكم، لأنّكم واثقون أنّه الحياة وليس الموت، وهو النصر وليس الهزيمة. لقد حملتم صليبكم، ولكنّه لم يسحقكم، بل إنّه أعاد خلقكم على نحوٍ سرّيٍّ رائعٍ».

وفي ذلك المساء وقّع مع الكاثوليكوس «كاريكين الثاني»، بيانًا مشتركًا في كاتدرائيّة إتشيميادزين، وهو المكان الأغلى على قلوب الأرمن، لأنّ فيه رأى القدّيس غريغوريُس المنوّر المسيح، بشكل نور. وقد ساد ذلك اللقاء جوّ فرحٍ وإخاءٍ، حافلٌ بالتراتيل، ورُفعت صلاةٌ خاصّةٌ التماسًا لحماية الضيف العائد إلى مقرّه.

وكان محور كلّ تلك الزيارة، الاحتفال بمرور سبعة عشر قرنًا على اعتناق أرمينيا الدين المسيحيّ.

صباح يوم ٩/٣٠، ترأّس يوحنّا بولس الثاني في روما، قدّاسًا افتتح به الجلسة العامّة العاشرة لسينودس الأساقفة تحت شعار: «الأُسقف خادم إنجيل يسوع المسيح، من أجل رجاء العالم». وأوصى قداسته بأن يكون الأُسقف: فقيرًا، وخادمًا، ونبيًّا.

وصباح يوم الأحد، ١٠/٧، أعلن، أثناء قدّاسٍ في ساحة القدّيس بطرس، سبعة طوباويّين جدُدٍ، منهم أُسقف ماردين، أغناطيوس مالويان، الذي استُشهد في دير الزور، وصحافيٌّ ألمانيٌّ ربّ أُسرةٍ، وكاهنان، وثلاث راهباتٍ.

ثمّ، يوم الأحد، **١٠/٢١**، طوّب زوجين إيطاليّين، بحضور ثلاثةٍ من أبنائهما، وقال عنهما: «**إنّهما أبقيا مصباح الإيمان مشعلاً، وساقا حياةً عاديّةً، بطريقةٍ غير عاديّةٍ، غنيّةٍ بالروحانيّة**»، تمثّلت في المناولة اليوميّة، وتكريمٍ حارٍّ لمريم العذراء، عبّرا عنه بتلاوةٍ جماعيّةٍ يوميّةٍ للمسبحة الورديّة، وبمواكبة أولادهما، وبمساعدتهم على إبقاء أنظارهم شاخصةً إلى السماء، ملبّيْن دعوة يسوع إلى القداسة والكمال، مقدّسين حياتهما بصفتهما زوجين ووالدين. وقد صرّح البابا بهذا الشأن:

«**لدينا، اليوم، دليلٌ فريدٌ على أنّ بوسع زوجين اجتياز سبيل القداسة معًا، وأنّ هذا السبيل ممكنٌ، وجميلٌ، وخصبٌ خصبًا فريدًا، لخير الأسرة، والكنيسة، والمجتمع**».

وبمناسبة اليوم العالميّ للتغذية، بعث برسالةٍ إلى المدير العامّ لـ «فاو»، مشدّدًا على ضرورة مكافحة الجوع، من أجل حدّ رقعة الفقر، وحاثًّا على تضامن الأفراد والدول، لمواجهة مأساة ثماني مئة مليون ضحيّة جوعٍ وسوء تغذيةٍ، منهم مئتا مليون طفلٍ.

وتوالت التطويبات التي كان يطيب ليوحنّا بولس الثاني إعلانها. فصباح يوم **١١/٤**، أعلن أسماء ثمانية طوباويّين جدُدٍ، منهم:

– أُسقفٌ وكاهنٌ، ولدا في العقد التاسع من القرن التاسع عشر ولقيا حتفهما في العقد السادس من القرن العشرين، وخدما بجرأةٍ قادتهما إلى الاستشهاد، كنيسة الروم الكاثوليك في سلوڤاكيا. الأُسقف، واسمه Pavel Peter Godjdiç (**١٨٨٠–١٩٦٠**)، كان «شوكةً في خاصرة الحكّام الشيوعيّين»، وكان قد كتب: «بعون الله أُريد أن أكون أبًا للأيتام، وحاميًا للفقراء، ومعزّيًا للحزانى»، ولقّبه الشعب بـ «رجل القلب الذهبيّ». واسم الكاهن Metod Dominik Trcka (**١٨٨٦–١٩٥٩**).

– الأُسقف الإيطاليّ Giovanni Antonio Farina (**١٨٠٣–١٨٨٨**)، خدم المحرومين بغيرةٍ وسخاءٍ، وأسّس رهبانيّة «أخوات القلبين الأقدسين».

– المرسل الإيطاليّ Luigi Tezza (١٨٤١–١٩٣٢).

– الكاهن Paolo Marina (١٨٧٢–١٩٥٢)، الذي أسّس رهبانيّةً نسائيّةً.

– الراهبة الإيطاليّة Gaetana Sterni (١٨٢٧–١٨٨٠)، التي كرّست نفسها للمحبّة والخدمة، وأسّست جمعيّة «أخوات الإرادة الإلهيّة».

– رئيس الأساقفة البرتغاليّ Bartolomeu Fernandes dos Martires (١٥١٤–١٥٩٠) الذي كرّس ذاته لخدمة الفقراء، وكان له تأثيرٌ بليغٌ في الكنيسة.

– الراهبة الإسبانيّة Maria Pilar Tzquierdo Allero (١٩٠٦–١٩٤٥)، التي قضت حياة آلام، لم تدم سوى تسعةٍ وثلاثين عامًا، ومع ذلك أسّست «جمعيّة مرسلات يسوع ومريم».

وبمناسبة انعقاد الجلسة العامّة لتنمية وحدة المسيحيّين، صرّح قداسته:

«اتّجاهان يقودان جهودنا: الحوار في الحقيقة، واللقاء في الإخاء... إنّ الإيمان بالمسيح يعني إرادة الوحدة، وإرادة الوحدة تعني إرادة الكنيسة».

وفي هذا السياق، استقبل، بتاريخ ٢٠٠١/١١/٢٢، في مكتبته الخاصّة، البطريرك إغناطيُس الرابع هزيم، ورحّب به بقول الرسول بولس لفيليمون: «لقد أصبتُ، في الواقع، فرحًا جزيلاً، وعزاءً جمًّا، من محبّتك». وتباحث الحبران في شؤون تحقيق الوحدة بين الكنيستين.

وظلّ همُّ إعلان قداسة خدّام الله يسكنه. ففي صباح يوم الأحد ٢٠٠١/١١/٢٥، طوّب أربعة قدّيسين هم: أُسقفٌ إيطاليٌّ أسّس «رهبانيّة القدّيس يوسف» للعناية بالشبيبة وبالتعليم الدينيّ. وهو Giuseppe Marello (١٨٤٤–١٨٩٥).

– الراهبة الإسبانيّة Paula M. Fornés de S. Jose de Calasanz (١٧٩٩–١٨٨٩)، التي أسّست جمعيّةً رهبانيّةً للتعليم الدينيّ، وبنت العديد من المدارس.

– الراهبة الألمانيّة Maria Crescentia Hoss (١٦٨٢–١٧٤٤).

– الراهبة الفرنسيّة Léone Françoise de Sales Aviat (١٨٤٤–١٩١٤)، التي أسّست جمعيّةً رهبانيّةً للعناية بالفتيات العاملات وبالتعليم في مختلف البلدان.

يوم ١٢/٨، تخشّع أمام تمثال سيّدة الحبل بلا دنسٍ في «ساحة إسبانيا» بروما، وتلا صلاةً، قال فيها:

«أظهري ذاتك أُمًّا لجميعنا، وقدّمي صلاتنا للذي جعل نفسه ابنك، كي يتقبّلها بعطف.

«أظهري ذاتك أُمًّا لنا، نحن الذين، أمام تمثالك، نشكر لله، بقلبٍ فرحٍ، نعمة حبلك البتوليّ،

«يا كلّيّة الجمال التي ألبسها العليّ قدرته،

يا كلّيّة القداسة، التي أعدّها الله لنفسه مسكن مجدٍ، لا شائبة فيه.

سلامٌ، يا هيكل الروح السرّيّ، سلامٌ يا ممتلئةً نعمةً، تشفّعي بنا...

إنّ سُحُبًا قاتمةً تتكدّس في أُفق العالم،

والبشريّة التي رحّبت، في الرجاء، بفجر الألفيّة الثالثة،

تشعر، الآن، بثقل صراعاتٍ خطيرةٍ ترين عليها.

إنّ سلام العالم يواجه مخاطر، ولذلك نلجأ إليك، أيّتها العذراء المنزّهة من الدنس، سائلينك، بصفتك أمًّا متفهّمةً وقويّةً،

تحرير النفوس من البغض، وانفتاحها على الغفران المتبادل، وعلى التضامن الذي يبني السلام».

وفي اليوم التالي ١٢/٩، أعلن من ساحة القدّيس بطرس، عن مبادرة تضامنٍ مع المسلمين من أجل السلام، فقال:

«لقد دعوتُ الكاثوليكيّين أن يحيوا يوم الجمعة القادم، ١٢/١٤، يوم صيامٍ، متوسّلين الله، إحلال سلامٍ ثابتٍ، مبنيٍّ على العدل.

«حيال الأوضاع الدوليّة المعقّدة، البشريّة مدعوّةٌ إلى حشد أفضل جهودها، لكي

يتغلّب الحبّ على البغض، والسلام على الحرب، والحقيقة على الكذب، والصفح على الانتقام.

«**إنّ الصوم يعبّر عن الألم الناجم عن مصيبةٍ كبرى، ولكنّه يعبّر، أيضًا، ونوعًا ما، عن المسؤوليّة، من خلال الاعتراف بالأخطاء الذاتيّة، والالتزام بتحوّل القلب والأعمال صوب مزيدٍ من العدل حيال الله والقريب. وبالصوم يعترف المرء بتواضعٍ، واثقًا أنّ تجدّدًا شخصيًّا وجماعيًّا، حقًّا، لا يأتي إلاّ من الله، الذي نخضع له جميعنا، خضوعًا أساسيًّا.**

«**ثمّ إنّ الصوم يتيح اقتسام الخبز اليوميّ مع المحرومين منه، بمعزلٍ عن كلّ حياءٍ باطلٍ، أو روح مساعدةٍ زائفٍ...**

«**إنّ تاريخ ١٢/١٤، يتوافق، أيضًا، مع نهاية شهر رمضان الذي يعبّر به المسلمون، من خلال الصوم، عن خضوعهم للّه الواحد الأحد. وإنّي لأتمنّى، بحرارةٍ، أن يسهم موقف توبةٍ دينيّةٍ مشتركٌ، في تنمية التفاهم المتبادل بين المسيحيّين والمسلمين، المدعوّين، أكثر من أيّ وقتٍ، في هذه الحقبة، إلى أن يكونوا، معًا، صنّاع عدلٍ وسلامٍ**».

وبمناسبة عيد الميلاد صرّح قداسته:

«**لقد اختار فادي العالم الأُسرة مكانًا لولادته ونموّه، وبذلك قدّس هذه المؤسّسة الإنسانيّة الأساسيّة لكلّ مجتمعٍ.**

«**في منزل الناصرة المتواضع، نشهد، بإعجابٍ، تحقيق المخطّط الإلهيّ الذي جعل من الأُسرة جماعة حبٍّ وحياةٍ حميمةٍ. وهنا نتعلّم أنّ كلّ خليّةٍ عائليّةٍ مسيحيّةٍ مدعوّةٌ لأن تكون كنيسةً صغيرةً منزليّةً، حيث تتألّق الفضائل الإنجيليّة**».

وقال أيضًا: «**لننقذ الأولاد كي ننقذ الرجاء في البشريّة!**».

ومختتمًا العام ٢٠٠١، قال للمؤمنين: «**إنّ معنى وغاية التاريخ وكلّ حدثٍ بشريٍّ يثويان في المسيح**».

وبما أنّ الأمم المتّحدة كانت قد أعلنت العام ٢٠٠١، عام التطوّع، وجّه قداسته، إلى جميع متطوّعي العالم رسالةً وصف فيها التطوّع بأنّه «**اندفاع القلب**

الفطريّ، وهبةٌ مجّانيّةٌ، تدفع كلّ كائنٍ بشريٍّ إلى مساعدة أخيه...» وأضاف: «**من خلال نشاطه، يبرهن المتطوّع أنّ المخلوق البشريّ لا يحقّق ذاته، تحقيقًا كاملاً، إلاّ بمنح ذاته للآخرين**».

وضرب أمثلةً على بذل الذات، القدّيس مكسيميليان كولبي، والطوباويّة الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة؛ ولكنّه أكّد أنّ يسوع هو المثال الأسمى لبذل الذات. والمسيحيّ، من خلال التطوّع، يمسي شاهدًا على المحبّة الإلهيّة، ويجعلها محسوسةً من خلال مبادراتٍ جريئةٍ ونبويّةٍ.

ونوّه بالعديد من المتطوّعين، الذين، بالتزامهم الشجاع مساعدة القريب، يكتشفون الإيمان. فالمسيح الذي طلب أن يُخدم في الفقير والضعيف، يخاطب مَن يخدم هذا القريب، ويجعله يكتشف فرح المحبّة المجرّدة، محبّةٍ هي نبع سعادةٍ حقيقيّةٍ.

واستعدادًا للاحتفال بيوم السلام العالميّ في مطلع العام ٢٠٠٢، بعث برسالةٍ أكّد فيها أنّ «**لا سلام بلا عدلٍ، ولا عدل بلا غفرانٍ**».

عام ٢٠٠٢

كان يوحنّا بولس الثاني قد بلغ الثانية والثمانين من سني عمره، وران عليه، بكلّ ثقله، وقر السنوات، وعبء الأمراض. ولكن، لا الأعوام ولا العلل ثلمت، قدرَ قلامة ظفرٍ، عزيمته على المضيّ في أداء رسالته حتّى الرمق الأخير؛ فلم يحجم، يومًا، عن حمل أوجاعه، والانطلاق إلى أيّ مكانٍ من المعمورة، حيث نفوسٌ متعطّشةٌ إلى سماع كلمة الحياة، والنهل من نبع الإنجيل.

كانت السنوات المنصرمة، والخبرات المتراكمة، والأوجاع المتفاقمة، والصلوات المتواصلة، قد أكملت صقل تحفة الله فيه، وأكسبت فكره نضوجًا وحكمةً، فجاءت خطاباته المسهبة التي واكبت، دائمًا، كلّ مناسبةٍ، وكلّ لقاءٍ، تقطر سموًّا، وتتوغّل عمقًا، فتأخذ بالألباب، وتخضّ الضمائر والنفوس؛ وباتت عباراته أكثر بساطةً ووضوحًا وإقناعًا، ونفاذًا إلى الأذهان والقلوب.

كان يواصل تصعيده، محقّقًا قول القدّيس غريغوريُس النيصيّ: «إنّ المصعّد لا يكفّ ينطلق من بدءٍ إلى بدءٍ».

جريًا على عادته، استهلّ السنة بدعوةٍ إلى السلام، وبمناسبة يوم السلام العالميّ الخامس والثلاثين، قال: «**باسم اللّه، أجدّد ندائي الملحّ للجميع، مؤمنين وغير مؤمنين، عسى أن تتّسم، دائمًا، العلاقات بين الأشخاص، والمجتمعات، والشعوب، بثنائيّ «العدل والغفران». هذا النداء موجّهٌ، أوّلاً، إلى المؤمنين باللّه الواحد: اليهود والمسيحيّين والمسلمين، المدعوّين، باستمرارٍ، إلى إعلان رفضهم القاطع والحازم للعنف. فلا يحقّ لأحدٍ، لأيّ سببٍ، أن يقتل باسم اللّه الأوحد والرحيم. إنّ اللّه حياةٌ ونبع حياةٍ، والإيمان به يعني الشهادة لرحمته وغفرانه، والإحجام عن استخدام اسمه ذريعةً.**

«**من مختلف أرجاء المسكونة يتعالى ابتهالٌ مؤثّرٌ للسلام، وهو يتعالى، بخاصّةٍ، من تلك الأرض التي باركها اللّه، من خلال عهده مع البشر، ومن خلال تجسّده، الأرض التي نصفها، من أجل ذلك، بالمقدّسة. إنّ «صوت الدم» يصرخ نحو اللّه، من تلك الأرض، دم إخوةٍ يسفكه إخوةٌ لهم، ينتمون جميعهم، للأب الواحد إبراهيم، وجميعهم أبناء الآب السماويّ الواحد**».

ويوم عيد الظهور الإلهيّ (الغطاس)، رسم عشرة أساقفةٍ جدُدٍ، وقال: «**لكلّ امرئٍ نجمٌ يرشد دربه. ومن منّا لا يشعر بالحاجة إلى نشدانه في المسيح؟**

«**بتجسّده، تجلّى ابن اللّه نورًا، ليس فقط في الخارج، بل في صميم تاريخ العالم، وداخل كلّ إنسانٍ، في تاريخه الذاتيّ. وهو، بصيرورته واحدًا منّا، أضفى على وجودنا الأرضيّ معنًى، وقيمةً جديدةً، وأصبح «نور العالم»**».

صباح يوم ١/١٣، عمّد البابا عشرين طفلاً في الكاپيلاّ السكستينيّة، منهم سبعة عشر إيطاليًّا، وطفلةٌ فرنسيّةٌ، وطفلةٌ أميركيّة، وطفلٌ إسبانيٌّ، وصرّح: «**ما أعظم هذا السرّ! هؤلاء الأطفال، بنيلهم سرّ المعموديّة، يصبحون أبناء اللّه. ذلكم هو سرّ «الولادة الثانية»**. ومشيرًا إلى عمادة المسيح قال: «**رسالته هي تعميد البشر في الروح القدس، أي بثّهم «نار الحياة الإلهيّة». وهذا سيتحقّق تحقيقًا كاملاً من خلال موته وقيامته**».

ولدى استقباله رؤساء البعثات الدبلوماسيّة، صرّح، بلا مواربةٍ: «**إنّي أعدّ تهميش الأديان التي أسهمت، وما زالت تسهم في الثقافة والأنسنة اللتين يحقّ لأوروبّا الافتخار بهما، ظلمًا ورؤيةً خاطئةً**».

وتطرّق إلى الأوضاع المأسويّة في فلسطين فقال:

«**ما برحت الأرض المقدّسة التي رأى فيها الفادي النور، من جرّاء خطإ البشر، أرض نارٍ ودماءٍ. لا يستطيع أحدٌ أن يبقى لامباليًا حيال الظلم الذي يئنّ تحت جوره الشعب الفلسطينيّ، منذ خمسين سنةً... لا أحد ينكر حقّ الشعب الإسرائيليّ في عيشٍ آمنٍ. ولكن لا أحد يستطيع أن يغفل الضحايا البريئة التي تسقط كلّ يومٍ. كما صرّحتُ مرّاتٍ عديدةً، فقط باحترام الآخر وتطلّعاته المشروعة، وتنفيذ الحقّ الدوليّ، وبالجلاء عن الأراضي المحتلّة، وبإقرار وضعٍ خاصٍّ للأماكن المقدّسة في القدس ينعم بضمانةٍ دوليّةٍ، يمكن البدء بإحلال السلامٍ في تلك البقعة من العالم، وكسر دائرة الكراهية والانتقام الجهنّميّة... طالما ظلّ الفريقان متحاربين لن يربح الحربَ لا الفلسطينيّون ولا الإسرائيليّون. ولكن بعملهما معًا سيربحان السلم**».

وناشد الدبلوماسيّين أن يذكّروا دولهم بالتزام المبادئ الأساسيّة، المتمثّلة في:

- الدفاع عن قدسيّة الحياة الإنسانيّة، في جميع الظروف والحالات.
- صون مكانة الأسرة، فهي خليّة المجتمع الأساسيّة.
- القضاء على الفقر.
- احترام حقوق الإنسان، وإيلاء اهتمامٍ خاصٍّ بالفئات الأكثر هشاشةً: الأولاد، والنساء واللاجئين.
- الحدّ من التسلّح، وتسوية الخلافات، وتوطيد السلام.
- مكافحة الأمراض الفتّاكة، وتوفير الأدوية الأساسيّة والعلاج للمعوزين.
- حماية البيئة.
- التقيّد بالمعاهدات الدوليّة.

ولخّص توصياته بالقول: «**لا تُطرد الظلمات إلاّ بالنور، ولا يُقهر البغض إلاّ**

بالحبّ. فلنُشرعِ قلوبنا للتحدّيات التي تنتظرنا، ولا ندعنّ قسوة هذا الزمان ترهقنا».

يوم ١/٢٤، أُقيمت، في مدينة أسّيزي، صلاةٌ مسكونيّةٌ، اشترك بها ممثّلون عن مختلف الديانات العالميّة، وصرّح قداسته:

«**لا تُبدّد الظلمات بالسلاح، بل بإشعال بُؤَر النور. باسم اللّه فلتستحضر كلّ ديانات العالم، العدلَ والسلام، والغفران والحياة، إلى الأرض**».

وذكّر بأنّ السلام يتّكئ على عمودين: الالتزام بالعدل، والاستعداد للغفران. فالغفران يشفي جراح القلوب، ويرمّم، في العمق، العلاقات الإنسانيّة المضطربة. ولا بدّ من شجاعةٍ وتواضعٍ لانتهاج هذا الدرب.

ولحظ قداسته أنّ معظم المشاركين في لقاء أسّيزي، كانوا يشتركون في قناعة أنّ على البشريّة أن تختار بين الحبّ والبغض، فأرسل إلى جميع رؤساء العالم، وحكوماتهم مقترح «وصايا عشر للسلام»، يتضمّن البنود التالية:

١ – نلتزم بإعلان قناعتنا الراسخة بأنّ العنف والإرهاب يتعارضان مع الروح الدينيّ الحقّ. وبإدانتنا كلّ لجوءٍ إلى العنف باسم اللّه أو باسم الدين، نلتزم بعمل كلّ ممكنٍ، من أجل اجتثاث كلّ أسباب الإرهاب.

٢ – نلتزم بتثقيف الأشخاص على الاحترام والتقدير المتبادلين، في سبيل بلوغ تعايشٍ سلميٍّ متضامنٍ بين أبناء إثنيّاتٍ وثقافاتٍ ودياناتٍ مختلفةٍ.

٣ – نلتزم بتشجيع ثقافة الحوار، من أجل تنمية التفاهم والثقة المتبادلَيْن بين الأفراد، وبين الشعوب، فهما شرطان لسلامٍ حقيقيٍّ.

٤ – نتعهّد بصون حقّ كلّ شخصٍ بشريٍّ في العيش الكريم، وفقًا لهويّته الثقافيّة، وفي حرّيّة تأسيس أُسرةٍ خاصّةٍ به.

٥ – نلتزم بالتحاور، بإخلاصٍ وصبرٍ، غير معتبرين ما يفرّقنا جدارًا يتعذّر تجاوزه، بل معترفين بأنّ مواجهة اختلاف الآخرين كفيلٌ بأن يصبح وسيلةً لمزيدٍ من التفاهم المتبادل.

٦– نتعهّد بالغفران المتبادل عن أخطاء وأذى الماضي والحاضر، وبتضافر

جهودنا على قهر الأنانيّة والخطإ، والكراهية والعنف، ولكي نتعلّم من خبرة الماضي أنّ السلام، بمعزلٍ عن العدل، ليس سلامًا حقيقيًّا.

٧ – نتعهّد بالوقوف إلى جانب من يعانون العوز والإهمال، وبأن نكون صوتًا للذين لا صوت لهم، وبالسعي، فعليًّا، في سبيل التغلّب على هذه الأوضاع، مدفوعين بقناعة تعذّر أن يسعد المرء، بمفرده.

٨ – نلتزم بتبنّي صرخة من لا يستسلمون للعنف وللشرّ مكرَهين، ونرغب في المساهمة، بكلّ قوانا، بتوفير رجاءٍ حقيقيٍّ بالعدل والسلام، لبشريّة زماننا.

٩ – نلتزم بتشجيع كلّ مبادرةٍ ترمي إلى إشاعة الصداقة بين الشعوب، مقتنعين بأنّ من شأن التقدّم التكنولوجيّ، في غياب تفاهمٍ متينٍ بين الشعوب، أن يقود العالم إلى مخاطر دمارٍ وموتٍ متناميةٍ.

١٠ – نلتزم بمطالبة مسؤولي الدول، ببذل كلّ الجهود الممكنة، وطنيًّا ودوليًّا، من أجل بناء وتمتين عالم تضامنٍ وسلامٍ قائمٍ على العدل.

بمناسبة اليوم السادس والثلاثين لوسائل التواصل الاجتماعيّ، صرّح قداسته أنّ الإنترنيت هو «فسحةٌ» جديدةٌ لإعلان الإنجيل في العالم. ولكنّه حذّر من إيلاء الأحداث التي تسرف الانترنيت في سردها، أكثر من اهتمامها بالقِيَم، ومن تغليب العابر على الجوهريّ، داعيًا إلى تفضيل تعميق الفكر والتمحيص، على إِيراد العَرَضيّ الذي يمكن استخدامه في الحال.

ودعا إلى استخدام الإنترنيت من أجل تشجيع ونشر ثقافة الحوار والتضامن والتصالح، وهي البيئة التي يزدهر فيها السلام، ولا سيّما في هذه الحقبة المضطربة المحتاجة إلى السلام أكثر من أيّ وقتٍ.

وفي يوم المريض العاشر، ٢٠٠٢/٢/١١، قال: «**لقد تبنّى المسيح الألم البشريّ، وهو جزءٌ أساسيٌّ من سرّ الخلاص. والإنسان المتألّم الذي يقاسم آلام يسوع، بإيمانٍ وحبٍّ، يساهم في الصراع المنتصر على الشرّ وعلى الموت، كما تثبت شهادة القدّيسين...**» وكان قداسته قد أوفد ممثّلاً عنه للاحتفال بهذه المناسبة في

مزار «ڤلانكاني» بالهند. وفي روما احتفل الكردينال «رويني» بهذا اليوم، بحضور الحبر الأعظم الذي صرّح: «**إنّ صليب المسيح هو مفتاح قراءة سرّ الألم**».

في التاسع من شباط استقبل ممثّلي حركة «السنة المئة» التي تضمّ مؤمنين علمانيّين ملتزمين بنشدان ملكوت الله من خلال إدارة الشؤون المادّيّة، وفق مشيئة الله. وممّا قاله لهم: «**عندما تحيا الأُسرة، بالكامل، مقتضيات الحبّ والغفران، تصبح قلعةً حصينةً لحضارة الحبّ، ورجاء مستقبل البشريّة**».

وفي السياق عينه، استقبل، بعد ثلاثة أيّامٍ، ألوف المؤمنين القادمين من ٥٧ بلدًا، للمشاركة في مؤتمر إحياء ذكرى مرور مئة سنةٍ على مولد الطوباويّ «خوسّيماريّا إسكريڤا دي بلاغِر» (Josèmaria Escriva de Balaguer)، مؤسّس حركة «عمل الله» (Opus Dei)، الذي كان قد شدّد على عظمة الحياة اليوميّة بصفتها سبيلاً إلى القداسة، وأكّد أنّ جميع المعمّدين مدعوّون إلى مِلء المحبّة، وأنّ الطريقة الأقرب لبلوغ هذا الهدف تكمن في الحياة اليوميّة. فالربّ يريد إقامة صلة محبّةٍ مع كلٍّ من أبنائه، في نسيج انشغالاته اليوميّة، وفي السياق الذي يندرج فيه وجوده. على ضوء هذه الاعتبارات تصبح النشاطات اليوميّة المعتادة، وسيلةً ثمينةً للاتّحاد بالمسيح، ومضمارًا ومادّةً للتقديس، وميدانًا لممارسة الفضائل، ولحوار حبٍّ يتحقّق في الأعمال. فالعمل يسمو ويتجلّى بروح الصلاة، الذي يمكّن من البقاء في وضع تأمّلٍ أمام الله، حتّى في زحمة الانشغالات المتعدّدة. وهكذا، لكلّ معمّدٍ يبتغي الوفاء للمسيح، يصبح المصنع، أو المكتب، أو المكتبة، أو المحترف، أو جدران المنزل، أمكنة لقاءٍ مع الربّ، الذي اختار العيش ثلاثين سنةً في الظلّ. وهل يمكن الشكّ بأنّ الفترة التي قضاها يسوع في الناصرة كانت جزءًا أساسيًّا من رسالته الخلاصيّة!

يوم ٢/٢٣ قال قداسته: «**على أوروبّا أن تثمّر إرثها المسيحيّ. «القارّة العجوز» تحتاج إلى المسيح لكيلا تخسر نفسها**».

وفي اليوم التالي، وهو أحد الصوم الثاني، علّق على صعود يسوع إلى السماء، بقوله:

«على جبل طابور، ندرك، على نحوٍ أفضل، أنّ درب الصليب ودرب المجد لا ينفصلان. ونحن عندما نحمل الصليب، كلّ يومٍ، بإيمانٍ مفعمٍ حبًّا، نشعر، ليس فقط بوقره ومشقّته، بل أيضًا بقدرته على التجديد والتعزية. مع يسوع نتلقّى هذا النور الداخليّ، خاصّةً، في الصلاة. عندما يستولي المسيح على القلب، تتغيّر الحياة. إنّ الخيارات الأوفر سخاءً، وبخاصّةٍ الأكثر مثابرةً، هي ثمرة اتّحادٍ عميقٍ وطويلٍ مع الله في صمت الصلاة».

وكان قداسته، في أثناء لقائه إكليروس روما، قد شدّد على العناية بالإكليريكيّات، وعلى التنشئة الكهنوتيّة السليمة. وممّا قاله: «**من الصعب أن تولد دعوةٌ كهنوتيّةٌ، ما لم تكن مرتبطةً بوجه كاهنٍ يكون مثالاً أعلى**».

يوم ٣/٦، حال ألمٌ في ركبته دون استقباله الحجّاج. ولكنّه، يوم ٦/١١، استقبل وفد الكنيسة الأرثوذكسيّة اليونانيّة في زيارته الأولى إلى الڤاتيكان، ممثّلاً رئيس الأساقفة «كريستودولُس»، ودعا إلى التعاون على إقامة جسر تواصلٍ ومصالحةٍ وثقةٍ بين الكنيستين، وممّا قاله: «... **إنّ ساعة التعاون قد دقّت. فنظرًا لضرورة تبشير أوروبّا تبشيرًا جديدًا، يتيح لها إعادة اكتشاف جذورها المسيحيّة، لا بدّ من أن يستند التقليدان الشرقيّ والغربيّ، اللذان يقومان، كلاهما، على التقليد المسيحيّ الوحيد العظيم، على الكاريسما المضيئة التي تميّز بها مكسيموس المعترف، الذي كان جسرًا بين التقليدين، بين الشرق والغرب. ومن واجبنا، نحن أيضًا، أن نواجه هذه القضايا مواجهةً ديناميّةً وإيجابيّةً، مدعومين برجاء أن يلهمنا الروح القدس، البرقليط، البحث عن حلولٍ لها**».

يوم ٣/١٦، استقبل المشاركين في الجلسة العامّة للمجلس الحبريّ للثقافة، والمحتفلين بالذكرى العشرين لتأسيس ذلك المجلس. وممّا قاله، في هذه المناسبة:

«إنّ تبليغ الرسالة الإنجيليّة إلى عالم اليوم، يعاني مشقّةً بالغةً، وخاصّةً لأنّ معاصرينا غارقون في حياةٍ بعيدةٍ عن كلّ مفهوم روحيٍّ وداخليٍّ، وفي أوضاعٍ تشوبها المظاهر المادّيّة. ولا مفرّ من الاعتراف بأنّ عمليَّة تناقل القِيَم الأخلاقيّة والدينيّة بين الأجيال، قد تباطأت في هذا الزمن أكثر ممّا حدث في أيّة حقبةٍ من التاريخ، ما أدّى إلى نوعٍ من التباين بين الكنيسة والعالم المعاصر. وهذا يوجب على مجلس الثقافة مهمّةً شاقّةً،

مهمّة استقراء تطوّر الحضارات المتنوّعة، وما يطرحه من مشاكل، ويوجب البحث عن العلاقات الممكنة بين الثقافة والإيمان المسيحيّ، وتقديم طرقٍ جديدةٍ للتبشير، تلبّي تطلّعات معاصرينا. فالمطلوب هو التقاء البشر في أماكن وجودهم، ومساعدتهم على اكتشاف نقاط استدلالٍ أخلاقيّةٍ وروحيّةٍ، ضروريّةٍ لكلّ وجودٍ يتوافق مع دعوتنا الشخصيّة، ويستمدّ من دعوة المسيح، الرجاء الذي لا يخيّب».

وبوحيٍ من عيد القدّيس يوسف – **٣/١٩** –، صرّح: «**إنّ الإيمان الذي تغذّيه الصلاة، هو أثمن كنزٍ خلّفه القدّيس يوسف لأجيالٍ من أرباب الأُسر**».

تميّز أحد الشعانين – **٣/٢٤** – بحشدٍ شبابيٍّ كثيفٍ في ساحة القدّيس بطرس. وخاطب الحبر الأعظم المحتشدين قائلاً:

«**أهلاً بكم، أصدقائي الأعزّاء. أوجّه تحيّةً من القلب إلى كلٍّ منكم. لقاؤنا اليوم يُعدّنا للقاء يوم الشبيبة العالميّ القادم في مدينة تورنتو الكنديّة، حيث يوجد الآن، صليب الشبيبة الذي سلّمه الشبّان الإيطاليّون لرفاقهم الكنديّين.**

«**إنّ الصليب ماثلٌ في مركز ليتورجيّا اليوم. أيّها الشبّان الأعزّاء جدًّا، بمساهمتكم اليقظة والحماسيّة في احتفال اليوم، تُظهرون أنّكم لا تخجلون بالصليب، بل أنّكم تحبّونه وتجلّونه، لأنّه إشارة الفادي الذي مات وقام من أجلنا. إنّ من يؤمن بيسوع الذي صُلِب وقام، يحمل الصليب، منتصرًا، دليلاً، لا ريب فيه، على أنّ اللّه حبٌّ. فمن خلال بذل ذاته الكلّيّ، أي من خلال الصليب، قهر مخلّصنا، نهائيًّا، الخطيئة والموت...**».

يوم الخميس العظيم، وجريًا على عادته، بعث برسالةٍ إلى كهنة العالم، فشدّد على سرّي التوبة والإفخارستيّا، وعلى واجب التواصل مع المؤمنين على غرار يسوع الذي دعا نفسه إلى بيت زكّا.

وبمناسبة الاحتفال برتبة العشاء الأخير، قال: «**كلّما شاركنا في الإفخارستيّا، نلتزم بما فعله المسيح، أي بغسل أرجل إخوتنا، وبتحوّلنا إلى صورةٍ مادّيّةٍ وشفّافةٍ لذاك الذي «لاشى ذاته، آخذًا صورة عبدٍ»، وإذن لا يمكن فصل المشاركة في مائدة الربّ عن واجب محبّة القريب. إنّ الحبّ هو أثمن إرثٍ يُخلّفه الربّ لمن يدعوهم إلى اتّباعه... والإفخارستيّا هبةٌ عظمى، ولكنّها، أيضًا، مسؤوليّةٌ كبرى لمن يتلقّاها...**».

واختتم البابا عظته بهتافه: «**متّحدين مع الكنيسة جمعاء، نعلن موتك يا ربّ. وممتلئين عرفاناً بجميلك، نتذوّق فرح قيامتك. ومفعمين ثقةً، نلتزم بالعيش في انتظار عودتك المجيدة**».

وكان قداسته، بسبب مرضه، قد كلّف الكاردينال إيتشيغاراي بغسل الأرجل نيابةً عنه. ولكنّه، في يوم الجمعة المقدّس، لم يتوانَ عن عادة سماع الاعترافات. وشارك في رتبة درب الصليب، في الكوليزيوم، غير أنّه لم يتمكّن من حمل الصليب الخشبيّ، كما أِلف حمله، سابقًا.

في قدّاس ليل السبت، عشيّة الفصح، قال: «**إنّه، بامتيازٍ، ليل الإيمان والرجاء، فيما كلّ شيءٍ غارقٌ في الظلمة، يسهر الله، النور، ومعه يسهر جميع الذين يوكلون إليه ذواتهم، ويثقون به**».

الڤاتيكان ومأساة فلسطين

في عدد عيد الفصح – ٢٠٠٢/٤/٢ – كتبت صحيفة «المراقب الرومانيّ»، الناطقة باسم الڤاتيكان، في صفحتها الأولى هذه الصيحة الجريئة:

«**بمنهجيّةٍ مأسويّةٍ، يشهد العالم تفاقم وضع الشرق الأوسط سوءًا. فقلّما استُهين بالتاريخ بمثل هذه الشراسة، وقلّما عُهِد مثل هذا الانحطاط المتّسم بتصميمٍ واضحٍ على انتهاك كرامة شعبٍ. إنّ أرض المسيح الناهض من الموت، يدنّسها الحديد والنار. وهي ضحيّة اعتداءٍ يتحوّل إبادةً. اليوم لم يخرس السلاح، أمام الشاهدين لكلمة الله، كما أنّه لم يتحرّج، لأسبوعين انصرما، من ضرب تمثال أُمّ المسيح**».

وصرّح الحبر الأعظم، في هذا الشأن:

«**تدلّ خبرة جميع الأزمنة، أنّ السلام، على طريقة العالم، هو، في الغالب، توازنٌ هشٌّ بين قوًى لا تلبث أن تتصادم من جديدٍ. وحده السلام الذي يهبه المسيح القائم من الموت، هو عميقٌ وتامٌّ، وقادرٌ على مصالحة الإنسان مع الله، ومع ذاته، ومع الخليقة**...

«**يبدو أنّ الحرب قد أُعلنت على السلام! ولكنّ الحرب لا تنتج أيّ حلٍّ، بل**

إنّ كلّ ما تنتجه هو مزيدٌ من الألم، ونشر الموت والردّ الانتقاميّ لا يفيد في شيءٍ. المأساة كبيرةٌ، ولا يمكن لأحدٍ أن يقف منها موقف المتفرّج الصامت...».

كانت مأساة فلسطين تؤرّق يوحنّا بولس الثاني. وقد دعا الحجّاج الذين استقبلهم يوم ٤/١٠، للانضمام إلى صلاته كي تنجلي المأساة عن الأراضي المقدّسة، وتنتهي معاناة السكّان، ويحلّ السلام.

وفي ٤/١١، تدخّل ممثّل الڤاتيكان في اجتماع «منظّمة الأمن والتعاون»، مستنكرًا أفعال الظلم والإذلال المفروضة على الشعب الفلسطينيّ، والردود الانتقاميّة التي لا تنتج إلاّ مزيدًا من إحباطٍ وحقد. وطالب باحترام قرارات الأمم المتّحدة، وبحماية الأماكن المقدّسة التي تمثّل إرثًا ثمينًا للديانات الثلاث المؤمنة بالله الواحد، وللبشريّة جمعاء.

ويوم ٤/٢١، في أثناء صلاة «ملكة السماء»، دعا البابا لكي تستعيد الأماكن المقدّسة مناخ الصلاة، والحجّ، ويستعيد الله والإنسان مكانهما فيها، ولكي تتحرّر تلك الأرض المقدّسة من دوّامة الحقد والعنف.

ويوم ٥/٢، أوفد الكردينال «إيتشيغاراي» إلى بيت لحم، لمساندة المسيحيّين الذين كانت دبّابات شارون تحاصرهم، وظلّت تحاصر كنيسة المهد حتّى يوم العاشر من أيّار. وفي أثناء قدّاسٍ مشتركٍ مع البطريرك صبّاح، قال الكاردينال المذكور: «يا ربّ، أنقذ سلام العالم، بإنقاذك السلام في الأرض المقدّسة». وقد وصف محاصرة كنيسة المهد من قبل جنود الاحتلال الإسرائيليّ، بأنّها «إهانةٌ للمسيحيّة جمعاء، وفضيحةٌ للبشريّة كلّها».

هاجس القداسة

وظلّ هاجس إبراز مُثُل القداسة يسكن خاطر يوحنّا بولس الثاني. فقبل ظهر ٤/١٤، ترأّس الاحتفال بذبيحةٍ إلهيّةٍ طوّب، في أثنائها، ثلاثة كهنةٍ، وراهبًا وراهبتين. وكان ثلاثةٌ منهم قد تأثّروا بالقدّيس «دون بوسكو»، وانضووا إلى صفوف المدرسة الساليزيّة. وفي أثناء استقباله حجّاجًا قدموا إلى روما للمشاركة

في هذا الاحتفال، قال لهم: «**القداسة هي ثمرة الروح القدس، الذي يعمل في الإنسان، من خلال تحويل قلبه**».

ثمّ، في عيد العنصرة – **٥/١٩** – أعلن خمسة طوباويّين آخرين.

وبمناسبة ذكرى مولده الثانية والثمانين، قال له عميد مجمع الكرادلة: «في قلب شهر أيّار، شهر مريم العذراء، وشهر قداستكم، بسبب الذكريات العديدة المرتبطة بكم في مثل هذا الشهر، اسمحوا لي أن أعبّر عن فرحنا، وحبّنا العميق، وشكرنا البنويّ... وإرادتنا مشاركتكم التزام القداسة الغالي على قلبكم...».

الرحلة الرسوليّة السادسة والتسعون: آزربيجان وبلغاريا (٢٢ حتّى ٥/٢٦)

عند الساعة السادسة عشرة من بعد ظهر **٥/٢٢**، حطّت طائرته في مطار «باكو»، حيث استقبله رئيس الجمهوريّة «حيدر أليف»، وممثّلون عن السلطات السياسيّة والمدنيّة والدينيّة. وفي ردّه على ترحيب رئيس الجمهوريّة، أشاد البابا بنضال آزربيجان في سبيل استقلالها، وبما عانته من آلامٍ، لكي تبني مستقبلاً أفضل في الحرّيّة. ونوّه بتعدّد مصادر ثقافتها، وبجوّ التسامح والتقبّل المتبادل السائد، ورجا زوال كلّ التوتّرات الطارئة التي كان لها تأثيرٌ عليها.

آزربيجان نقطة التقاء الشرق بالغرب، ومن ثمّ رمزٌ للانفتاح المتبادل. وتمنّى البابا أن يكتشف الغرب ضرورة احترام الشرق احترامًا أكمل، ورغبة التلاقي الثقافيّ والروحيّ معه ومع كلّ القِيَم التي يحملها، وواجب التزام الجميع بالسلام، سلامٍ حقيقيٍّ قائمٍ على احترامٍ متبادلٍ، وعلى رفض كلّ أصوليّةٍ، وكلّ أصناف الإمبرياليّة، وعلى اعتماد الحوار سبيلاً وحيداً للقضاء على كلّ التوتّرات، حؤولاً دون تعريض أُممٍ بأكملها لحمّامات دماءٍ بربريّةٍ. وأكّد قداسته أنّ الديانات ليست، وينبغي ألاّ تصبح ذريعةً مأسويّةً زائفةً، لصراعاتٍ تستمدّ

أسبابها من الخارج... وأنّه لا يحقّ لأحدٍ التذرّع بالله لتغطية مصالحه الأنانيّة... فكلّ عنفٍ هو إهانةٌ لاسم الله ولرحمته ومحبّته.

وفي مساء ذلك اليوم عينه، التقى في القصر الجمهوريّ، بحضور رئيس الجمهوريّة، ممثّلي الأديان، والحياة السياسيّة والثقافية والفنّيّة. وممّا قاله، في هذه المناسبة:

«**من هذا البلد الذي طالما اعترف بالتسامح قيمةً أساسيّةً لكلّ تعايشٍ سليمٍ، نودّ أن نصرخ على مسمع العالم أجمع: «لا للحرب باسم الله! لا لتدنيس اسمه المقدّس! لقد جئتُ إلى آزربيجان بصفة سفير السلام. وما دمت أستطيع التكلّم، سأظلّ أصرخ: «السلام باسم الله!» وإن ردّد كلّ إنسانٍ هذه الصيحة، ستولد جوقةٌ، وستنشأ سمفونيّةٌ تنفذ إلى الأذهان، وتطفئ الأحقاد، وتنتزع أسلحة القلوب**».

وهنّأ البابا جميع الديانات على ما حقّقته في هذا المضمار، وشكر، على نحوٍ خاصٍّ، للكنيسة الأرثوذكسيّة، احتضانها الكاثوليكيّين، بعد أن جرّدهم النظام الشيوعيّ من أماكن عبادتهم، وقضى على رعاتهم.

وتوجّه إلى عالم الفنّ بالقول: «**لكم يا شهود الثقافة والفنّ أقول: إنّ الجمال، كما تعلمون، هو نور الروح. وعندما تكون النفس ساكنةً، متصالحةً، متناغمةً مع الكون، ينبثق منها نورٌ هو الجمال. وما القداسة سوى ملء الجمال، لأنّها تعكس، بقدر استطاعتها، جمال الخالق الأسمى. أيّها الأصدقاء، أعيدوا لمن يتّصلون بكم ذوق الجمال. فكما يعلّمنا الأقدمون، الجمال، والحقّ، والخير، مرتبطةٌ بوثاقٍ لا ينفصل. فإن هُمّشت الثقافة، وإن أُهمل الفنّ، وتعرّض للازدراء، أمسى بقاء الحضارة في خطرٍ، إذ يُحال دون تبليغ القِيَم التي تكوّن هويّة الشعب الجوهريّة**».

وحذّر السياسيّين بقوله: «**إنّ السعي الأنانيّ إلى المصالح الشخصيّة يهدّد بالسيطرة عليكم، على حساب الالتزام بالخير العامّ. وقد قال شاعركم الكبير «نظامي»: «لا تأكل أمام الجياع، وإن أكلت فادعُهم إلى مائدتك». إنّ السياسة تحتاج إلى استقامةٍ وشفافيّةٍ، والشعب يحتاج إلى الشعور بأنّه يحظى بالفهم والحماية، وإلى التأكّد من أنّ قادته يسعون كي يوفّروا له مستقبلاً أفضل... الشعب لا ينسى. فمثلما هو يذكر بالشكر الذين يبذلون جهودهم، باستقامةٍ، في خدمة الصالح العامّ، كذلك هو ينقل إلى أبنائه وأحفاده، مرارة عار الذين استغلّوا السلطة من أجل اغتناءٍ حرامٍ**».

وأخيرًا أهاب بالجميع أن يولوا الشبيبة خير عنايةٍ، وأن يزوّدوهم بسلاح الإيمان، الكفيل باستنفار قواهم صوب الحقيقة والجمال والخير.

وأنهى البابا خطابه مستشهدًا بالشاعر الآزربيجانيّ «نظامي» الذي خاطب الله تعالى بهذه العبارات: «وإن أظهر خادمك، في صلاته، إسرافًا في الجرأة، غير أنّ ماءه يظلّ جزءًا من بحرك... وإن هو تكلّم بمئة لغةٍ، فهو، بكلٍّ منها يسبّحك، وإن هو صمت صمت المرذولين، فأنت تفهم لغة العاجزين عن الكلام».

وصباح اليوم التالي، الخميس **٥/٢٣**، احتفل الحبر الأعظم بقدّاسٍ في قصر الرياضة، قال فيه:

«لكم الكرامة، أنتم المؤمنين، أيّها الإخوة، أبناء الجماعة الكاثوليكيّة في «باكو»، وأبناء الجماعات الكاثوليكيّة القادمين من البلدان المجاورة. وأُحيّي، أيضًا، مؤمني الكنيسة الأرثوذكسيّة الذين انضمّوا إلى صلاتنا هذه مع أُسقفهم ألكسندر. إليكم، أيضًا، أُوجّه تحيّة القدّيس بطرس للمسيحيّين الأوّلين: «الكرامة لكم أنتم المؤمنين!».

«إنّ الكنيسة الجامعة تكرّم الذين حافظوا على وفائهم لالتزامات معموديّتهم. وإنّي أتوجّه، على نحوٍ خاصٍّ، إلى الذين مكثوا في هذه الديار، وعانوا الاضطهاد الماركسيّ، واحتملوا عواقب انتمائهم ووفائهم للمسيح. أيّها الإخوة والأخوات، لقد شهدتم كيف أصبحت عقيدتكم موضع سخريّةٍ، ولكأنّها مجرّد خرافةٍ، وكأنّها محاولة هروبٍ من مسؤوليّات الالتزام بالتاريخ. فاعتُبرتم مواطنين من درجةٍ ثانيةٍ، وأُهِنتُم، وهُمّشتُم بمختلف الطرق... وها إنّ البابا معكم اليوم. هو، أيضًا، يعرف آلامكم، وقد حملكم في قلبه طيلة سنوات حجّكم في صحراء الاضطهاد. وقد جاء إليكم، اليوم، لكي يقاسمكم فرح الحرّيّة المستعادة...».

وجديرٌ بالتنويه أنّ الجماعة الكاثوليكيّة في «باكو» تتألّف من مئةٍ وعشرين مؤمنًا، فقط، يخدمهم كاهنان، وعلمانيٌّ متطوّعٌ لخدمة الفقراء.

أمّا زيارة يوحنّا بولس الثاني إلى بلغاريا، التي كان يطأ ترابها للمرّة الأولى في حياته، فكانت مزدوجة الأهداف. فكنسيًّا، كان راغبًا في توطيد أواصر الوحدة بين المسيحيّين؛ وسياسيًّا كان يسعى إلى تبديد الشكوك التي حامت حول

تورّط المخابرات البلغاريّة في محاولة اغتياله، يوم ١٩٨١/٥/١٣، على يد التركيّ «محمّد علي أغشا»، ومحو ما رسخ في الأذهان عمّا سُمّي «الأثر البلغاريّ».

ولا بدّ من التنويه بأنّ بلغاريا تحضن أكثريّةً أرثوذكسيّةً، وحضورًا إسلاميًّا ملحوظًا، وأقلّيّةً كاثوليكيّةً تتألّف من رعيّتين تتبعان الطقس اللاتينيّ، وأُخرى تتبع الطقس البيزنطيّ السلافيّ. غير أنّ الحضور الكاثوليكيّ في بلغاريا، ما زال يحمل دمغة الكردينال «أنجيلو رونكالّي» – الذي أصبح البابا القدّيس يوحنّا الثالث والعشرين – الذي عيّنه البابا پيّوس الثاني عشر، عام **١٩٢٥**، زائرًا رسوليًّا، ثمّ موفدًا رسوليًّا، في بلغاريا، حيث مكث حتّى تعيينه قاصدًا رسوليًّا في إسطنبول، عام **١٩٣٤**. وقد جهد، طول إقامته في بلغاريا، على تمتين أواصر الأُخوّة بين الأرثوذكسيّين والكاثوليكيّين. وقد ربطته مشاعر محبّة بجميع البلغاريّين الذين بادلوه المحبّة عينها. وعندما حان موعد مغادرته البلاد إلى منصبه الجديد، ودّعهم بقوله: «أيًّا كان المكان الذي أمضي إليه، في العالم، إن اتّفق لأيّ بلغاريٍّ أن يمرّ قريبًا من مكان إقامتي، ليلاً، وهو يواجه مصاعب الحياة، فسيجد، دائمًا، عند نافذتي، مصباحًا مضاءً. فما عليه إلاّ أن يقرع الباب. ولن يُسأل عن انتمائه، إذ حسبه أنّه أخٌ بلغاريٌّ، وليدخل فيجد ذراعَيْن أخويّتيْن، وقلب صديقٍ دافئًا، سعيدًا باستقباله. تلك هي محبّة الربّ».

وكان الشبّان البلغاريّون الكاثوليكيّون قد دعوا أصدقاءهم الأرثوذكسيّين إلى مشاركتهم الاحتفال بأيّام الشبيبة العالميّة في روما، عام **٢٠٠٠**، ومن ثمّ شارك جميع البلغاريّين في استقبال البابا، عندما حلّ ضيفًا على بلادهم.

حطّت طائرته في مطار صوفيا، بعد ظهر يوم الخميس **٥/٢٣**، واستقبله حشدٌ غفيرٌ، على رأسه رئيس الجمهوريّة، والبطريرك الأرثوذكسيّ مكسيمُس. وفي ردّه على ترحيب الرئيس والبطريرك، أشار البابا إلى استقباله، كلّ سنةٍ، في روما، وفدًا يمثّل الحكومة والبطريركيّة البلغاريّتيْن، بمناسبة عيد القدّيسيْن الأَخوَيْن كيرلُّس وميتوديُس. وها قد جاء دور البابا كي يزور الشعب البلغاريّ العزيز في بلده الجميل. وذكّر بسلفه البابا يوحنّا الثالث والعشرين، الذي أمضى نحو عشر سنوات في بلغاريا، وارتبط، ارتباطًا وثيقًا، بأرضها وشعبها، وقال: «**فليكن حضوري، اليوم،**

في ما بينكم، تعبيرًا بليغًا عن مشاعر التقدير والمودّة التي أحملها لهذه الأُمّة الكريمة، ولجميع أبنائها. وأتمنّى أن تسهم زيارتي في تمتين تعارفنا المتبادل».

وحيّى البابا ممثّلي جميع الطوائف والديانات الأُخرى، وأشاد بوفائها لمبادئها وعقائدها، رغم قسوة الاضطهادات. ودعا المسيحيّين إلى تمتين روابط الوحدة بينهم. وحثّ الجميع على ممارسة الحرّيّة المستعادة بحكمةٍ، وتبصُّرٍ، والتزامٍ بالقِيَم التي تصنع عظمة الأُمّة الحقيقيّة: الاستقامة الأخلاقيّة والفكريّة، والذود عن الأُسرة، وعن الحياة في كلّ مراحلها، والحدَب على المعوزين. وأوضح:

«**إنّ درب التقدّم الحقيقيّ لأيّ شعبٍ، لا يمكن أن يكون سياسيًّا واقتصاديًّا فحسب، بل لا بدّ له من أن ينعم ببعد أخلاقيٍّ وروحيٍّ. إنّ المسيحيّة هي جذور تاريخ هذه البلاد، وثقافته، ولا سبيل لأيّة مسيرة نموٍّ جادٍّ صوب المستقبل، إغفالها.**

«**إنّ الكنيسة الكاثولكيّة تعتزم، من خلال التزام أبنائها اليوميّ، الإسهام في صون وتنمية إرث القِيَم الروحيّة والثقافيّة التي يعتزّ بها هذا البلد. وترغب في ضفر جهودها مع جهود المسيحيّين الآخرين، كي توضع، في خدمة الجميع، خمائر الحضارة التي يوفّرها الإنجيل لأجيال الألفيّة الجديدة.**

«**وبلغاريا، من جرّاء وضعها الجغرافيّ، مدعوّةٌ لتكون جسرًا بين أوروبّا الشرقيّة، وأوروبّا الجنوبيّة، وأرض تلاقٍ وتفاهمٍ متبادلٍ**».

قبل ظهر يوم الجمعة، **٥/٢٤**، زار قداسته البطريركيّة الأرثوذكسيّة، وتناقش مع البطريرك مكسيمُس وبعض أعضاء السينودس، عن المساعي الرامية إلى إعادة توثيق عرى الوحدة بين الكنيستين. وكانت الكنيسة البلغاريّة، تحتفل، في ذلك اليوم، بعيد القدّيسين كيرلُّس وميتوديُس، اللذين بشّرا الشعوب السلافيّة.

وبعد ظهر ذلك اليوم عينه، التقى قداسته ممثّلين عن عالم الثقافة والعلوم والفنّ في قصر الثقافة بصوفيا. واستشهد بالقدّيسيْن الأخويْن كيرلُّس وميتوديُس، اللذين ابتدعا الأبجديّة السلافيّة، وبها أسّسا حضارة الشعوب السلافيّة، مستلهمين وناشرين حضارة الإنجيل. وأكّد أنّ «الثقافة والإيمان لا يتعارضان بل يقيمان علاقاتٍ متبادلةً تحاكي علاقة الشجرة بالثمار». وبيّن أنّ الكنائس المسيحيّة، شرقًا وغربًا، قد شجّعت ونشرت، بين الشعوب، على كرّ العصور، حبّ الثقافة الخاصّة بها،

واحترام ثقافات الشعوب الأُخرى، وكان لها فضلٌ محقّقٌ في تفجير عبقريّات الهندسة المعماريّة، والرسم، والنحت، وأوحت كتاباتٍ أضفت على الهويّة الوطنيّة مزيدًا من إرهافٍ ونضوجٍ. وقال: «**إنّ الخبرة التاريخيّة أظهرت أنّ إعلان الإيمان المسيحيّ لم يضعف القِيَم الإنسانيّة والثقافيّة الأصيلة، التي تميّز عبقريّة البلدان التي تلقّت بشارة الإنجيل، بل انصهرت فيها، وسمت بها، وأسهمت في انفتاحها بعضها على بعض، وساعدتها على تخطّي الخلافات، وعلى خلق إرثٍ روحيٍّ وثقافيٍّ مشتركٍ، لا بدّ منه من أجل بناء علاقاتٍ ثابتةٍ يقوم عليها السلام**».

قبل ظهر يوم السبت ٥/٢٥، حجّ يوحنّا بولس الثاني إلى منسك القدّيس يوحنّا في مدينة «ريلا» (Rila)، التي تبعد نحو مئةٍ وخمسين كيلومترًا عن صوفيا، حيث أشاد بالحياة النسكيّة التي آتت الكنيسة جمعاء خيرًا جزيلاً. فالحياة النسكيّة هي قلب الحياة المسيحيّة، إذ إنّها تعني نبذ الخطيئة، والعالم، والأصنام، في سبيل الانتماء إلى الله والربّ الواحد، يسوع المسيح؛ وهي تقود إلى تخلٍّ كلّيٍّ عن البيت الخاصّ، الأُسرة، والمهنة، والخيرات الأرضيّة، وإلى سعيٍ دائمٍ إلى خيراتٍ أبديّةٍ. والنسك هو نبذ حبّ الذات، من أجل معرفة حبّ الله اللامحدود، وحبّ الآخرين.

وأوضح الحبر الأعظم أنّ «الكفاح الروحيّ» هو عنصرٌ آخر من عناصر الحياة النسكيّة، لا بدّ من تلقينه، اليوم، وإعادة توصية المسيحيّين به... إنّه صراعٌ قد يصبح صَلبًا، من أجل بلوغ نقاء القلب الذي يتيح رؤية الله، والمحبّة التي تؤهّل للمشاركة في حياة الله التي هي حبٌّ. اليوم، أكثر من أيّ يومٍ مضى، تتعرّض حياة المسيحيّ لإغواء الأصنام، وإلحاح الإغراءات. ومن ثمّ، لا بدّ من إتقان فنّ الصراع النفسيّ، والتمييز الروحيّ، وتوسُّل اسم الله يسوع ورحمته... هذا الصراع ضروريٌّ من أجل الانعتاق من التشتّت، والانشغالات الباطلة، والعيش في خشوعٍ دائمٍ مع الربّ... والنسك هو بيتٌ ومدرسةٌ للشراكة، والمجال الذي يصبح فيه الناسك خادم إخوته، كما شاء يسوع أن يكون خادم الجميع... إنكار الذات يقوده إلى المحبّة الكاملة، فيصبح وديعًا ومتواضع القلب، ويشترك في حبّ الله لجميع الخلائق.

وبتمكّنه من رؤية العالم بعيون اللّه، ينزع الناسك إلى تحقيق الغاية القصوى التي وُجد من أجلها، أي التألّه. وذلك لا يتحقّق إلاّ لمن ينفتح على استقبال الروح بالصلاة، والدموع، والتوبة، والمحبّة.

وصباح اليوم التالي، الأحد ٥/٢٦، توّج البابا حجّه إلى بلغاريا بتطويب ثلاثة كهنةٍ أعدمهم النظام الشيوعيّ، بسبب وفائهم لإيمانهم، وذلك في أثناء قدّاسٍ احتفل به في ساحة مدينة «پلوڤديـڤ» (Plovdiv).

وجاء في عظته قوله: «**فيما أشيد بهؤلاء الطوباويّين الجدُد الثلاثة، لا بدّ لي من الإشادة بمعترفي الإيمان الآخرين، أبناء الكنيسة الأرثوذكسيّة، الذين استشهدوا على يد النظام الشيوعيّ عينه. إنّ ضريبة الوفاء للمسيح قد وحّدت الجماعتين الكنسيّتين في بلغاريا، حتّى الشهادة القصوى. ولا ريب أنّ لهذا الواقع سمةً مسكونيّةً بارزةً. فمسكونيّة القدّيسين والشهداء هي، ربّما، الأكثر إقناعًا. فصوت شركة القدّيسين أشدّ وقعًا من صوت مفتعلي الشقاق**».

وبعد ظهر ذلك اليوم، التقى البابا شبّانًا كاثوليكيّين، وممّا قاله لهم:

«**منذ بدء خدمتي، خلفًا للقدّيس بطرس، توجّهتُ، دائمًا، إليكم، أيّها الشباب، باهتمامٍ ومحبّةٍ، لقناعتي بأنّ مرحلة الشباب ليست مجرّد انتقالٍ من المراهقة إلى النضوج، بل هي مرحلةٌ من الحياة يهبها اللّه لكلّ إنسانٍ، نعمةً ومهمّةً، وزمنًا ينبغي إنفاقه في البحث، على غرار شابّ الإنجيل، عن جوابٍ على التساؤلات الأساسيّة، من أجل اكتشاف، لا معنًى للوجود فحسب، بل، أيضًا، من أجل العثور على مشروعٍ ملموسٍ يجدر تحقيقه. إنّ الخيارات التي ستتّخذونها، خلال هذه السنوات، ستؤسّس لمستقبلكم الشخصيّ، والمهنيّ والاجتماعيّ. فالشباب هو مرحلة إرساء الأساسات، ولا يجوز تبديدها لأنّها لن تتكرّر.**

«**في هذه الحقبة المميّزة من حياتكم، يُسعد البابا أن يكون إلى جانبكم، لكي يصغي، باحترامٍ، إلى هواجسكم، وهمومكم، وتوقّعاتكم، وآمالكم. وهو، هنا، لكي يبلّغكم أنّ المسيح هو اليقين، والحقيقة، والحبّ، ولكي يؤكّد لكم أنّ الكنيسة تتطلّع إليكم، باهتمامٍ شديدٍ، لأنّها تتوسّم فيكم مستقبلها، وتضع فيكم رجاءها**».

وأسدى البابا للشبيبة نصيحتين: أولاهما: «**تعالوا وانظروا**». **ادنوا من يسوع**

وحاولوا أن تروا ما هو كفيلٌ بتقديمه لكم. لا تخافوا من اجتياز عتبة بيته، ومن التحدّث إليه، وجهًا لوجهٍ، تحدُّثكم إلى صديقٍ. لا تخافوا من «الحياة الجديدة» التي يقدّمها لكم.

«صحيحٌ أنّ يسوع صديقٌ كثير الاقتضاء، ويضع لكم أهدافًا ساميةً، ويطلب منكم الخروج من ذواتكم، للانطلاق إليه...

«قوّضوا جدران السطحيّة والخوف. تحدّثوا إلى يسوع بالصلاة، مصغين إلى أقواله، وتذوّقوا فرح المصالحة في سرّ التوبة، وتلقّوا جسده ودمه في سرّ الإفخارستيّا. لكي تحسنوا استقباله، بعدئذٍ، في إخوتكم. لا تُخدَعوا بتملّق العالم، وبأوهامه السهلة، التي سرعان ما تنقلب خيباتٍ مأسويّةً.

«والنصيحة الثانية التي أوجّهها لكلّ شبيبة العالم: «أنتم ملح الأرض، أنتم نور العالم، الملح هو رمز المعاهدة بين اللّه والإنسان. وهو رمز الضيافة. أن يكون المرء ملحًا هو أن يكون صانع سلامٍ، وشاهدًا على الحبّ. الملح يحفظ الطعام، ويسبغ عليه نكهةً، وبذلك يصبح رمز ثباتٍ وخلود... وللملح طاقةٌ شفائيّةٌ، وهو صورةٌ للتطهّر الداخليّ، وتحوّل القلب... والمسيحيّ هو، على الأرض، شاهدٌ على الخلاص الذي يؤتيه الصليب.

«ورمزيّة النور هي، أيضًا، زاخرةٌ بالمعنى: فالمصباح ينير، ويشيع الدفء والسرور. إنّ يسوع، كلمة الآب، هو النور الداخليّ الذي يطرد ظلمات الخطيئة، وهو النار التي تقضي على كلّ برودةٍ، وهو اللهب الذي يوفّر للوجود الفرح؛ وهو بهاء الحقيقة، وبتألّقه أمام عيوننا، يتقدّمنا على الدرب، ومن يهتدي به لا يسير في العتمة، بل ينعم بنور الحياة...

«من خلال سرّ التجسّد والفداء، يتّحد المسيح بكلّ مسيحيٍّ، ويودع نور الحياة، وملح الحكمة في أغوار قلبه، مزوّدًا من يتقبّله بقدرة أن يصبح ابن اللّه، وأن يشهد لهذا الحضور الحميم، ولهذا النور الخفيّ...

«إنّ اللّه، بقدرته الكلّيّة، وبحنانه، يدعوكم إلى أن تكونوا قدّيسين. وإن كان التباهي بهذه الدعوة حماقةً، إلاّ أنّ التغاضي عنها هو دليل لامسؤوليّة. وقد قال الكاتب الفرنسيّ «ليون بلوا»: «حزن الإنسان الوحيد هو ألاّ يكون قدّيسًا».

«باتّباعكم يسوع، سيسفر شبابكم عن كلّ غنى طاقاته، ويكتسب كلّ معناه؛

وباتّباعكم يسوع ستكتشفون جمال حياةٍ معاشةٍ على أنّها عطاءٌ مجّانيٌّ، لا يحدوه سوى الحبّ. وباتّباعكم يسوع ستخبرون، منذ الآن، شيئًا من الفرح الذي سيكون فرحكم الأبديّ، الذي لا نهاية له».

وفي المساء غادر الحبر الأعظم بلغاريا، من مطار «پلوڤديڤ»، معبّرًا عن فرحه الغامر بما خبره في أثناء تلك الزيارة، ومردّدًا كلمات سلفه البابا يوحنّا الثالث والعشرين.

حياة قداسةٍ، وإعلان قدّيسين، ووحدةٌ

عاد يوحنّا بولس الثاني إلى روما؛ وانصرف، بكلّ همّته، إلى المهامّ التي كانت نسيج حياته ورسالته.

فصباح يوم الخميس، **٥/٣٠**، ترأّس احتفالاً بعيد «الجسد الإلهيّ»، وتطوافًا بالقربان المقدّس، وصرّح، بهذه المناسبة: «**الإفخارستيّا هي ذاكرتنا الحيّة، وهي تحتوي كلّ كنز الكنيسة الروحيّ، أي المسيح ذاته**».

وصباح يوم ٦/١٦، في ساحة القدّيس بطرس، أعلن قداسة الطوباويّ الأب «پيّو» (Padre Pio). وممّا قاله، بهذه المناسبة: «**إنّ سيرة الأب «پيو» ورسالته تشهدان أنّ المصاعب والآلام، عندما يُرَحَّب بها بحبٍّ، تتحوّل إلى درب قداسةٍ مميّزٍ، ينجلي على رؤى خيرٍ أسمى، لا يعرفه إلاّ الربّ. إنّ زماننا يحتاج إلى اكتشاف قيمة «الافتخار بصليب الربّ يسوع» الذي طبع بدمغته روحانيّة الأب الكبّوشي المتواضع «پيّو»، من أجل انفتاح القلب على الرجاء**».

وشدّد البابا على تكريس القدّيس «پيّو» ذاته لخدمة سرّ التوبة. وباح: «**إنّ الأب «پيّو» هو موزّعٌ سخيٌّ للرحمة الإلهيّة... من خلال ممارسة سرّ التوبة. وقد نعمتُ، أنا شخصيًّا، في شبابي، بحظوة جاهزيّته حيال التائبين. وكان يطيب له أن يردّد أنّ الصلاة هي خير سلاحٍ، يسعنا امتلاكه، وهي مفتاح قلب الله**».

وبعد ظهر العاشر من حزيران، وقّع قداسته، من مكتبه، بواسطة الاتّصال عن بعدٍ، بيانًا مشتركًا، كان ثمرة ندوةٍ دعا إليها، وأشرف عليها البطريرك المسكونيّ

الأرثوذكسيّ، برتلماوس الأوّل، بعنوان: «الدين، والعلم، والبيئة». وبذلك عبّر البطريرك والبابا عن «وحدة النوايا». وقد اعتبر البابا هذا التبادل نعمةً من الربّ؛ ومن جانبه، قال البطريرك: «نحيّي، مجدّدًا، تحيّةً أخويّةً صادقةً، قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني، أخانا الأكبر، ونشكره... هذه المبادرات تعبّر عن رغبة كنائسنا ورعايانا في مواصلة التزامنا بالسلام في العالم أجمع، من أجل وحدة الجميع».

وبعد ظهر يوم السبت **٦/٢٩**، تمّ في ساحة القدّيس بطرس، الاحتفال بعيد القدّيسين بطرس وبولس، بحضور وفود البطريركيّة القسطنطينيّة المسكونيّة، وبطريركيّة بلغاريا الأرثوذكسيّة. وممّا قاله البابا، بهذه المناسبة: «**بنعمة الله، كلّ إنسانٍ مؤهّلٌ ليصبح علامةً بليغةً على القدرة الإلهيّة... في روما التقى «الصخرة»، و«الأداة المصطفاة»، لقاءً نهائيًّا، وأكملا مهمّتهما الرسوليّة التي دمغاها بدمهما**».

وفي أثناء لقاء البابا بالمتروپوليت «بندليمون»، موفد البطريرك برتلماوس، صرّح الحبر الأعظم: «**إنّ هشاشة السلام العالميّ تقتضي تضافر جهودنا، وتعاضدنا، وعملنا معًا**». وتمنّى أن يكتمل «حوار الحقيقة» «بحوار المحبّة»، وصولاً إلى شركةٍ كاملةٍ. وردّ المتروپوليت بالقول: «إنّ حبريّتكم التي اتّسمت، حتّى الآن، بالتاريخيّة، وقد وسمت ختام الألفيّة المنصرمة، بفضل اهتماماتكم المتكرّرة بالمهمّشين والمحرومين، والمقموعين، وأيضًا بسعيكم الدؤوب في سبيل تقارب الكنائس. وها إنّ حبريّتكم تدمغ فجر الألفيّة الجديدة التي نرجوها أوفر أخويّةً، واتّسامًا بالتعاون في محبّة المسيح، وبنشدان ملكوت السماوات. لقد اجتزنا طريقًا طويلاً، غير أنّ ما لا يزال علينا إنجازه ما برح جسيمًا. فعلينا أن نسبر أعماق ماضي وحدة الكنيسة الأرضيّة، والتأكيد على أصولها الإلهيّة، والعودة إلى رئيسها الأوحد، أي المسيح، وتكريس جهودنا من أجل رسالتها المتمثّلة في خلاص الإنسان ومجد الله، متّكئين على تقليد الآباء المشترك، وواضعين في المقدّمة كلّ ما يجمعنا».

وكان قداسته قد ناشد المشاركين في الجلسة العامّة الثالثة لأكاديميّة القدّيس توما الأكوينيّ الحبريّة، بقوله: «**حيال مأساة الأنسنة الملحدة، من واجب المؤمنين إعلان أنسنةٍ مسيحيّةٍ حقّةٍ، والشهادة لها**».

وأوصى المشاركين في مؤتمر مؤسّسات مساعدة الكنائس الشرقيّة: «**أوصيكم بحرارةٍ أن تُعنوا بإخوتكم في الإيمان، الذين يعيشون في الأراضي المقدّسة**».

وقد بعث برسالةٍ إلى الذين سيشاركون في اليوم العالميّ للسياحة الثالث والعشرين وإلى جميع أصحاب النوايا الطيّبة، قال فيها: «**إنّ الجشع الجامح إلى تكديس الثروة يحول دون الإصغاء إلى صيحات فقر شعوبٍ بأكملها**».

بمناسبة الاحتفال بالذكرى السنويّة العاشرة لمؤسّسة «تقدّم الشعوب»، قال البابا: «**إنّ أعمال المحبّة، والالتزام بالعدل، تُضفي مزيدًا من المصداقيّة على التبشير بالإنجيل**».

وبمناسبة إعادة افتتاح كاتدرائيّةٍ إيطاليّةٍ، صرّح: «**الكاتدرائيّة هي، أيضًا، الهيكل الروحيّ الذي يُبنى، داخليًّا، في كلّ نفس**».

وفي أثناء صلاة التبشير، يوم الأحد ٦/٣٠، التمس صلاة الحاضرين والمستمعين:

«**في كلّ يومٍ، أتبيّن أنّ صلاة شعب الله المتواصلة تدعم خدمتي. إنّها صلاة عددٍ غفيرٍ ممّن أجهلهم، ولكنّهم قريبون جدًّا من قلبي، يقدّمون لله تضرّعاتهم وتضحياتهم، تناغمًا مع نوايا البابا. في أقسى لحظات الصعوبات والآلام، هذه القوّة الروحيّة تمثّل عونًا ثمينًا، وعزاءً عميقًا. إنّي بحاجةٍ دائمةٍ إلى صلواتكم، أيّها المؤمنون الأعزّاء في روما، وفي العالم أجمع. فلولاها كيف لي أن أستجيب للدعوة التي وجّهها الربّ إلى سمعان بطرس: «تقدّم نحو العُرض»؟**».

يوم ٧/٧، قبل نحو أسبوعٍ من أيّام الشبيبة العالميّة التي كانت ستُعقد في «تورنتو»، توخّى البابا أن يذكّر الشبيبة بمثال بطولة القدّيسة «ماريّا غوريتّي»، التي استُشهدت في سنّ الثانية عشرة، دفاعًا عن عفّتها، عسى أن يكون مثالها قدوةً مضيئةً في الطهارة، والوفاء، والغفران، للأجيال الجديدة، التي تهدّدها عقليّة عدم الالتزام، العاجزة عن فهم عظمة شأن القِيَم، التي لا تجوز، أبدًا، المساومة عليها. فاستشهادها يؤكّد أنّ الكائن البشريّ لا يحقّق ذاته، بتلبية غرائز المتعة، بل بالعيش بمسؤوليّةٍ. وأهاب البابا بالشبيبة: «**لا تدعوا ثقافة الامتلاك والمتعة**

تغرق ضمائركم في سباتٍ. بل كونوا حرّاسًا يقظين، لكي تكونوا، بحقٍّ، صانعي إنسانيّةٍ جديدةٍ».

أيّام الشبيبة العالميّة السابعة عشرة في تورنتو (٢٣–٢٨ تمّوز ٢٠٠٢)

في ٧/٢٣، باشر يوحنّا بولس الثاني رحلته الرسوليّة السابعة والتسعين، التي شملت تورنتو (كندا) وغواتيمالا والمكسيك، وامتدّت حتّى الأوّل من شهر آبٍ.

في الساعة الثالثة عشرة من يوم الثلاثاء ٧/٢٣، حطّت طائرة البابا في مطار تورنتو، حيث استقبله رئيس وزراء كندا، الذي شكر له الحبر الأعظم دعوته واستقباله، مذكّرًا بزياراته السابقة إلى البلاد. ثمّ أشار إلى غاية هذه الزيارة، فقال:

«ها إنّ شبيبةً من كلّ أرجاء العالم، يجتمعون هنا للمشاركة في أيّام الشبيبة العالميّة. هؤلاء، بما يحملونه من مواهب عقلٍ وقلبٍ، هم مستقبل العالم. ولكنّهم يحملون، أيضًا، دمغة بشريّةٍ لا عهد لها، في الغالب، بالسلام والعدل.

«حيواتٌ كثيرةٌ تبدأ وتنتهي بلا فرحٍ ولا رجاءٍ. وإحدى أهمّ الغايات التي ترمي إليها أيّام الشبيبة العالميّة، هي التجمّع من أجل الالتزام، بقوّة إيمانهم بيسوع المسيح، لخدمة قضيّةٍ كبرى: قضيّة السلام والتضامن الإنسانيّ.

«شكرًا لك يا تورنتو، وشكرًا لك يا كندا، شكرًا لذراعيك الرحبتين المفتوحتين لجميع الشباب!

«إنّ الكنديّين هم ورثة إنسانيّةٍ تتّسم بغنًى فريدٍ، بفضل اقتران العديد من العناصر الثقافيّة المختلفة. بيد أنّ نواة إرثكم هي مفهوم الحياة الروحيّ، فائق الطبيعة، مفهومٌ مبنيٌّ على الوحي المسيحيّ، الذي يزوّد نموّكم بدفعٍ حيويٍّ، بصفتكم مجتمعًا حرًّا، ديمقراطيًّا، متضامنًا، يعرفه العالم أجمع داعيةً إلى حقوق كلّ كائنٍ بشريٍّ وإلى كرامته».

إثر مراسم الاستقبال، انتقل البابا إلى «جزيرة الفريز» (Strowberry Island)، وهي موئل صلاةٍ، وخشوعٍ، حيث نَعِم، في بقيّة ذلك اليوم، وفي اليوم التالي، بقسط نقاهةٍ وتأمّلٍ؛ واستمرّ يعود مساءً إلى تلك الجزيرة حتّى يوم ٧/٢٧، ولكنّه،

منذئذٍ، بات يقيم في «مورّو پارك» (Morrow Park)، حيث مركز أخوات القدّيس يوسف، وحيث مكث حتّى يوم الإثنين، **٧/٢٩**، ولا سيّما أنّ ذلك المكان يقع على مسافةٍ معقولةٍ من مسرح أحداث أيّام الشبيبة العالميّة، ومن المراكز الرسميّة.

بعد ظهر يوم الخميس **٧/٢٥**، ترأّس البابا الاحتفال بافتتاح أيّام الشبيبة العالميّة السابعة عشرة، في «ساحة العرض» (Exhibition Place)، تحت شعار: «طوبى لصانعي السلام، لأنّهم سيُدعون أبناء الله».

وقد رحّب بالحبر الأعظم ممثّلٌ عن الشبيبة، لدى افتتاح الاحتفالات، بقوله:

«نحن مقتنعون بأنّ كنيسة كندا لن تبقى، بعد زيارتكم لها، كما كانت. أنتم لنا مثالٌ منقطع النظير لما يمكن للمرء أن يفعله في العالم، عندما يضع ثقته في يسوع.

«إنّنا نعلم ما تعانونه من مشقّةٍ في سبيل مجيئكم إلى هنا، كي تكونوا معنا اليوم. ولكنّ الملح جعل ذلك ممكنًا. وهذا يملأنا شجاعةً من أجل اتّباع رسالة يسوع.

«نشكر لكم حضوركم بين ظهرانينا، وثقتكم بنا.

«لن نخيّب رجاءكم، لأنّ يسوع معنا، ومعه كلّ شيءٍ ممكنٌ. نشكركم كثيرًا، كثيرًا، كثيرًا».

وخاطب البابا وفدًا من الشبيبة، فقال:

«لكم أوجّه تحيّتي الفرحة والقلبيّة. لقد انتظرت بتوقٍ هذا اللقاء، فيما كانت تتوارد إلى مكتبي في الڤاتيكان أصداءٌ مشجّعةٌ وعديدةٌ، للمبادرات التي واكبت مسيرتكم حتّى هذا اليوم. وغالبًا ما قدّمتكم للربّ في صلواتي، فردًا فردًا، وحتّى وأنا لم أكن أعرفكم، ولكنّ الله يعرفكم منذ زمنٍ بعيدٍ، ويحبّكم شخصيًّا.

«لدى استماعي إلى لائحة البلدان التي قدمتم منها، كدت أطوف حول العالم أجمع. وقد تخيّلتكم سائرين في ظلّ صليب اليوبيل، في الحجّ الكبير الذي قامت به الشبيبة، التي بعبورها من قارّةٍ إلى قارّةٍ، رغبت في ضمّ العالم أجمع في عناق إيمانٍ ورجاءٍ.

لقد قدم البابا من روما، لكي نسمع، معًا، كلام يسوع الذي يسعه، اليوم أيضًا، مثلما فعل، ذات يومٍ بعيدٍ، إلهاب قلب الشباب، وإيجاد علّةٍ ودافعٍ لوجودكم».

أمّا الخطاب الذي توجّه به البابا إلى حشود الشباب، فقد جاء فيه:

«لقد سمعتُ أصواتكم الفرحة، وصيحاتكم، وأناشيدكم، ولمستُ تطلّعات قلوبكم العميقة: تريدون أن تكونوا سعداء.

«أيّها الشبّان الأعزّاء، إنّ العروض الموجّهة لكم من كلّ صوبٍ، عديدةٌ ومغريةٌ. كثيرون يحدّثونكم عن فرحٍ يمكن الحصول عليه بالمال، والنجاح، والسلطة. ويحدّثونكم، بخاصّةٍ، عن فرحٍ يتوافق مع متعة الحواسّ السطحيّة وسريعة الزوال.

«أيّها الشبّان الأعزّاء، إنّ البابا العجوز، يجيب على رغبة شبابكم في السعادة، بقولٍ ليس قوله، بل بقولٍ دوّى لألفي سنةٍ خلت، واستمعنا إليه هذا المساء: «الطوبى...» إنّ مفتاح تعليم يسوع هو إعلان فرحٍ: «الطوبى... هنيئًا!».

«لقد خُلق الإنسان كي ينعم بالسعادة. إنّ عطشكم إلى السعادة هو مشروعٌ. ولدى المسيح الجواب على تطلّعاتكم، وهو يطالبكم بأن تثقوا به. إنّ الفرح الحقيقيّ هو نصرٌ لا يُنال إلاّ بفضل صراعٍ طويلٍ وشاقٍّ. وإنّ لدى المسيح سرّ النصر.

«لقد خاض يسوع صراعًا حتّى الموت، لا من أجل ذاته، بل من أجلنا. ومن موته تفجّرت الحياة، وأصبح ضريح الجلجلة هو مهد بشريّةٍ جديدةٍ تسير صوب السعادة الحقيقيّة.

«إنّ «عظة الجبل» ترسم خريطة طريق. والتطويبات الثماني هي علامات الاستدلال التي ترشد إلى الوجهة التي يتعيّن انتهاجها، وهي طريق تصعيدٍ كان يسوع أوّل مجتازيه، وهو متأهّبٌ لاجتيازه مجدّدًا معكم. وقد صرّح ذات يوم: «من تبعني لا يمشي في الظلام، بل يكون له النور الذي يقوده إلى الحياة». وقال، أيضًا، في مناسبةٍ أخرى: «قلت لكم هذا ليكون فرحي فيكم، فيكون فرحكم كاملاً».

«بالسير مع المسيح، يمكن الظفر بالفرح، الفرح الحقيقيّ».

وبعد طواف الشباب بالصليب الخاصّ بأيّام الشبيبة العالميّة، تابع البابا خطبته، فقال:

«فيما نحن ملتئمون حول صليب الربّ، نحدّق إليه. فيسوع لم يقتصر على إعلان

التطويبات: بل عاشها... وما التطويبات سوى وصف وجهٍ، وجه يسوع... وهي، أيضًا، صورةٌ لتلميذ يسوع، الذي يبتغي إقامة تناغمٍ بين حياته ومقتضيات الإنجيل. ويسوع يتوجّه إلى هذا الإنسان بقوله: «طوبى، هنيئًا لك!».

«إنّ الفرح الذي تعد به التطويبات هو فرح يسوع عينه، فرحٌ يُنشَد ويُكتشَف في الخضوع للآب، وفي بذل الذات للإخوة... بتحديقكم إلى يسوع تتعلّمون معنى أن يكون المرء فقير الروح، متواضعًا، ورحيمًا، وكذلك معنى نشدان الحقّ والبرّ، ونقاء القلب، وصنع السلام.

«إنّ صوت السلام يدوّي، اليوم، وسط جمعكم. إنّه صوت حياةٍ، ورجاءٍ، وغفرانٍ، فلنصغِ إليه. وهو، اليوم، يدعوكم إلى أن تكونوا للعالم ملحًا ونورًا، وإلى اختيار الطيبة، والحياة في البرّ والعدل، وإلى أن تكونوا أدوات محبّةٍ وسلامٍ. لقد كانت دعوته، دائمًا، موجّهةً إليكم اليوم.

«فأيّ نداءٍ ستلبّون، يا حرّاس الصباح؟ إنّ الإيمان بيسوع يعني الترحيب بأقواله، حتّى إن كانت مناقضةً لأقوال الآخرين، ويعني إغفال وسوسات الخطيئة، أيّةً كانت إغراءاتها، والسير على درب الفضائل الإنجيليّة، كثيرة الاقتضاء.

«أيّها الشباب المستمعون إليّ، لبّوا دعوة الربّ بعزيمة قلبٍ وسخاءٍ، فهو يعتمد عليكم؛ ولا يغربنّ عن بالكم أنّ المسيح يحتاج إليكم، من أجل تحقيق مخطّطه الخلاصيّ. إنّ المسيح يحتاج إلى شبابكم، واندفاعكم السخيّ، لكي يدوّي إعلان فرحه في أرجاء الألفيّة الجديدة. استجيبوا لدعوته، بتكريس حياتكم لخدمته من خلال خدمة إخوتكم. ثقوا بالمسيح، لأنّه، هو، يثق بكم...»

يوم الجمعة، ٧/٢٦، نال البابا قسط راحةٍ في «جزيرة الفريز»، حيث دعا إلى مشاركته الغداء أربعة عشر شابًّا وشابّةً، من بلدان مختلفةٍ. وفي مساء ذلك اليوم، ترأّس رتبة درب صليبٍ حاشدٍ امتدّ على مدى ثلاث ساعاتٍ، وشارك به جمعٌ غفيرٌ من الحجّاج والشبّان، الذين طافوا معظم أحياء وسط المدينة، على وقع التأمّل الخاشع، والصلوات والأناشيد بمختلف لغات العالم، حاملين على الأكتاف صليبًا جسيمًا، صليبًا مرسومًا في القلوب، وكفيلاً بأن يزوّد شبيبة الألفيّة الثالثة بالرجاء في مستقبلٍ مشرقٍ. مشهدٌ فريدٌ لم تعاين له «تورنتو»، قطّ، نظيرًا؛ وقد أضفى وجود الشبيبة المندفعة الخاشعة، المتأمّلة، على المدينة،

وعلى كندا كلّها، وجهًا قشيبًا، طاهرًا، منفتحًا، وديناميًّا. فقد أحاق بحاملي الصليب فريقٌ من اثنين وسبعين شابًّا وشابّةً يمثّلون البلدان المشاركة في تلك التظاهرة، ولفيفٌ من رجال الإكليروس، على رأسهم كردينال تورنتو، وكردينال مونتريال، والكردينال «ساتفورد»، رئيس المجلس الحبريّ للعلمانيّين.

واستهلّ الحبر الأعظم الاحتفال بخطابٍ تساءل فيه:

«على أيّة أُسسٍ، وعلى أيّة قناعاتٍ، ينبغي أن يبني المرء وجوده، ووجود الجماعة التي ينتمي إليها؟».

«أيّها الأصدقاء الأحبّاء، إنّكم تشعرون، فطريًّا، في داخلكم، وفي اندفاع سنواتكم الفتيّة، وتؤكّدون، من خلال حضوركم هنا، في هذا المساء، أنّ المسيح، وحدَه، هو حجر الزاوية التي يمكن أن يرسي عليها الإنسان بناء وجوده، إرساءً متينًا. وحده المسيح المعروف، والمتأمّل، والمحبوب، هو الصديق الوفيّ، الذي يتطوّع ليكون رفيق دربنا، والذي يضرم كلامُه قلوبنا.

«لطالما زعم القرن العشرون الاستغناء عن حجر الزاوية هذا، وبناء مدينة البشر، بمعزلٍ عنه، فانتهى ببنائها ضدّ مصلحة الإنسان. غير أنّ المسيحيّين موقنون أنّه بات مستحيلاً رفض الله أو إقصاؤه، من غير التعرُّض لإذلال الإنسان.

«إنّ ما تصبو إليه البشريّة، وسط سيل المظالم والآلام، هو حضارةٌ جديدةٌ ترفع راية الحرّيّة والسلام. بيد أنّ هذا المشروع يستلزم جيلاً جديدًا من البنّائين، لا يحدوهم الخوف ولا العنف، بل ضرورةٌ ملحّةٌ إلى حبٍّ حقيقيٍّ، ويحسنون وضع حجرٍ بعد آخر، لكي يبنوا، في دنيا البشر، مدينة الله.

«أصدقائي الشبّان، ينبغي أن تكونوا بنّائين. أنتم رجال الغد ونساؤه. إنّ المستقبل يثوي في قلوبكم وأيديكم، وهو يوكل إليكم مهمّة بناء حضارة الحبّ الشاقّة والضاجّة بالحماس.

«لقد كتب الرسول يوحنّا، وكان أكثر الرسل شبابًا: «إنّ الله نورٌ، وليس فيه ظلمةٌ البتّة». إنّ المسيح، بمجيئه إلى العالم، قد أنار كلّ إنسانٍ. فدعوا نور المسيح يجتذبكم، وانشروه في الأوساط التي تعيشون فيها. وبقدر ما تكون صداقتكم للمسيح، وفقهكم لسرّه، وإعطاء ذاتكم له، صادقةً وعميقةً، ستكونون «أبناء النور»، وتضحون، أنتم أيضًا «نورًا للعالم».

«في هذا المساء، معكم، يؤكّد البابا، من جديدٍ، الإيمان الذي يدعّم حياة الكنيسة. إنّ المسيح هو نور الأمم. وقد مات وقام لكي يعيد للبشر السائرين على دروب التاريخ، رجاء الأبديّة. إنّ إنجيله لا يذلّ الإنسان... والمسيحيّ الذي يعي هذا الواقع لا يسعه إلاّ أن يطرب ويهتزّ فخرًا ومسؤوليّةً، لكونه، شاهد النور والإنجيل.

«لذلك أناشدكم، هذا المساء: اجعلوا نور المسيح يتألّق في حياتكم. لا تنتظروا أن تتقدّموا في السنّ لكي تلتزموا على دروب القداسة. فالقداسة هي، دائمًا، شابّةٌ، كما أنّ شباب الله هو أبديٌّ.

«أطلعوا الجميع على روعة اللقاء مع الله، الذي يُضفي على وجودكم معنًى!».

وليلة السبت ٧/٢٧، شارك قداسته الشبيبة سهرة صلاةٍ، استهلّها بتحيّتهم قائلاً:

«يا شبّان العالم، أيّها الأصدقاء الأعزّاء، يا شعب التطويبات...

«أنتم المجتمعين في تورنتو، القادمين من جهات العالم الأربع، فيكم تقرأ الكنيسة مستقبلها... إنّ الحماس والفرح اللذين تظهرانهما هما دليل حبّكم للربّ، ورغبتكم في خدمته في الكنيسة وفي إخوتكم.

«أقبّلكم بكلّ قلبي، وأُصلّي من أجلكم لتكونوا، الآن ودائمًا، ملح الأرض ونور العالم...

«أدعوكم لأن تكونوا صوت شبيبة العالم، وصوت أفراحهم، وإحباطاتهم، وآمالهم.

«حدّقوا إلى يسوع، الحيّ، وردّدوا طلب الرسل: «يا ربّ علّمنا أن نصلّي«، وستكون الصلاة كالملح الذي يضفي نكهةً على وجودكم، والذي يجعلكم تلتفتون إليه، إلى من هو نور البشريّة الحقيقيّ».

ثمّ تمنّى للجميع ليلةً طيّبةً، وضرب لهم موعدًا في صباح الغد.

وبلغت احتفالات أيّام الشبيبة العالميّة ذروتها، صباح يوم الأحد، ٧/٢٨، من خلال قدّاسٍ أُقيم في «حديقة دَوْنسڤيو» (Downsoview Park)، حيث احتشد أكثر من مليونَ شابٍّ، وآلاف الكهنة، ومئات الأساقفة القادمين من ١٧٢ بلدًا،

ودارت عظة البابا حول قول الربّ لتلاميذه: «أنتم ملح الأرض، وأنتم نور العالم»، وقال فيها:

«إنّ يسوع يوجّه لكم، اليوم، هذا القول عينه. وقوله يبيّن لكم مَن أنتم، بصفتكم مسيحيّين، ويعلّمكم ما يتوجّب فعله لكي تمكثوا في حبّه.

«يسوع يقدّم لكم شيئًا، و«روح العالم» يقدّم شيئًا آخر. يسوع ينقلكم من العتمة إلى النور، النور الذي قلب مصير بولس عند أبواب دمشق.

«أمّا روح العالم، فيقدّم لكم طائفةً من الأوهام، ومن مهازل السعادة. ولا ريب أنّ ما من ظلماتٍ أكثف من تلك التي تغشى نفس الشبيبة، عندما يطفئ فيها الأنبياء الزائفون نور الإيمان والرجاء والمحبّة. إنّ الخديعة العظمى، ومصدر البؤس الأقسى، يتمثّلان في توهّم العثور على الحياة، بمنأًى عن الله، وتوهّم بلوغ الحقيقة، مع إغفال الحقائق الأخلاقيّة.

«إنّ الربّ يدعوكم إلى الخيار بين هذين الصوتين، اللذين يتنافسان على امتلاك نفوسكم. هذا الخيار يمثّل جوهر أيّام الشبيبة العالميّة، وتحدّيها. علامَ اجتمعتم هنا من كلّ أمصار العالم؟ لكي تقولوا، معًا، للمسيح: «يا ربّ، إلى أين نمضي؟ فعند من سواك كلام الحياة الأبديّة؟»».

«إنّ العالم الذي ترثونه يحتاج، حاجةً حارقةً، إلى معنًى متجدّدٍ للإخاء والتضامن الإنسانيّ. يحتاج إلى أن يتأثّر ويشفى بجمال حبّ الله وغناه. إنّ العالم الراهن بحاجةٍ إلى شهود هذا الحبّ، وهو بحاجةٍ إلى أن تكونوا ملح الأرض، ونور العالم.

«واجبكم أن تُبقوا حيّةً ذكرى الأقوال التي تلفّظ بها يسوع، وأعمال الرحمة والعطف التي صنعها. واجبكم أن تذكّروا العالم، بلا هوادةٍ، أنّ الإنجيل هو قوّة الله التي تخلّص.

«الملح يتبّل الطعام ويعطيه نكهةً. وأنتم، باتّباعكم يسوع، يتعيّن عليكم أن تصلحوا نكهة التاريخ البشريّ. بإيمانكم، ورجائكم، ومحبّتكم، وبذكائكم، وشجاعتكم، ومثابرتكم، يجب أن تؤنسنوا العالم الذي نعيش في أحضانه...

«الشبّان هم رجاؤنا، فلا تدعوا هذا الرجاء يموت. راهنوا عليه بحياتكم. نحن لسنا مجموعة أوهاننا وخيباتنا. بل على نقيض ذلك، نحن مجموعة حبّ الله لنا، وقدرتنا الحقيقيّة على أن نصبح صورة ابنه...».

وأنهى البابا مداخلته بالصلاة التالية:

«أيّها الربّ يسوع المسيح، احفظ هؤلاء الشبّان في حبّك،

اجعلهم يسمعون صوتك، ويؤمنون بما تقول، فلديك، أنت وحدك، كلمات الحياة الأبديّة.

علّمهم كيف يعلنون إيمانهم، وكيف يبلّغون الآخرين رجاءهم.

اجعل منهم شهودًا لإنجيلك ينعمون بالمصداقيّة، في عالمٍ يحتاج أشدّ حاجةٍ إلى نعمتك الخلاصيّة.

اجعل منهم شعب التطويبات الجديد، لكي يكونوا ملح الأرض ونور العالم، في مطلع الألفيّة المسيحيّة الثالثة.

ويا مريم، أمّ الكنيسة، احمي وأرشدي شبّان وشابّات القرن الحادي والعشرين هؤلاء، وضمّيهم، بشدّةٍ، إلى صدرك الأموميّ».

وفي نهاية الاحتفال ضرب للشبيبة موعدًا للاحتفال بأيّام الشبيبة العالميّة القادمة، في مدينة «كولن» الألمانيّة، أيّامٍ لم يُقيَّض له مشاهدتها على هذه الأرض.

غواتيمالا

وقبل ظهر يوم الإثنين ٧/٢٩، غادر تورنتو إلى غواتيمالا التي حطّ في مطارها بعد الظهر، وكان في استقباله رئيس جمهوريّتها، وإلى جانبه رؤساء ستّ دولٍ أُخرى من دول أميركا الوسطى.

وصباح اليوم التالي ترأّس احتفالاً بقدّاسٍ، في مضمار خيلٍ، بحضور الرؤساء السبعة، ووفدٍ إسبانيٍّ، أعلن، في أثنائه، قداسة الأخ «پدرو دي سان خوسّيه بيتانكور» (Pedro de San José de Betancour)، الذي وصفه البابا بأنّه التعبير عن حبّ الله حيال شعبه. وكان ذلك القدّيس، بدافع روحٍ رسوليٍّ، قد هجر وطنه «تينيريف»، في جزر الكناري الإسبانيّة، لكي يكرّس نفسه لخدمة الفقراء في غواتيمالا. وقال عنه البابا إنّه «**اجتاز المحيط الأطلسي، ولا متاعَ له سوى إيمانه**

وثقته بالله، لكي ينصرف إلى خدمة الفقراء، وأهل البلاد الأصليّين، بدءًا من كوبا، ثمّ في هوندوراس، انتهاءً بغواتيمالا، التي كانت له «أرض الميعاد». وأشاد الحبر الأعظم بإتقان ذلك القدّيس «فنّ الصلاة» الذي اقتاده إلى القداسة. ودعا المؤمنين إلى جعل الصلاة مركز كلّ نشاطٍ، «فحياة الخشوع الكثيفة، تؤتي، دائمًا، ثمارًا وفيرةً». وقال إنّ ذلك القدّيس قد صاغ روحانيّته بتأمّله أسرار بيت لحم، حيث توغّل في تأمّل سرّ تجسّد كلمة الله، فاكتشف، في كلّ إنسانٍ وجه الله. وبتأمّله الصليب استمدّ القوّة على ممارسة الرحمة حيال الأشدّ ضعفًا وحرمانًا، ممارسةً بطوليّةً، بروح تواضعٍ وتقشّفٍ. فكان، بحقٍّ، أخًا، والتزم بحنانٍ وحبٍّ جمّين، من أجل خلاصهم. وما أكثر المحتاجين، اليوم، إلى أيدٍ تمتدّ لتخفيف أعبائهم! وتمنّى قداسته أن يبقى إرث الأخ القدّيس كنزًا ثمينًا كفيلاً بتحويل الجماعة البشريّة، إلى أُسرةٍ كبيرةٍ.

المكسيك

من غواتيمالا، انتقل يوحنّا بولس الثاني إلى محطّته الأخيرة في رحلته الرسوليّة السابعة والتسعين. حطّت طائرته في مطار مكسيكو مساء يوم الثلاثاء، ٧/٣٠، ورحّب به، في المطار، رئيس الجمهوريّة «ڤيشينتي فوكس» (Vicente Fox). وعبّر البابا عن سروره بزيارة ذلك البلد، للمرّة الخامسة؛ فهو كان قد استهلّ سلسلة رحلاته الرسوليّة، إلى شتّى أقطار العالم، من المكسيك، إثر تولّيه السدّة البطرسيّة، ولا سيّما أنّ هذه الزيارة ستوفّر له مناسبةً لإضافة ثلاثة أسماء إلى سجلّ شهود الإيمان الرائعين، الذين يزيّنون وجه الكنيسة والبشريّة.

صباح يوم ٧/٣١، أعلن البابا قداسة الطوباويّ «خوان دييغو» الذي كانت سيّدة «غوادالوپّي» قد ظهرت له، عام ١٥٣١، وطبعت صورتها على معطفه المليء بورودٍ فوّاحةٍ، اقتطفها من قمّة تلّةٍ يكسوها الجليد، كي يقدّمها للأُسقف، دليلاً على مصداقيّة الرسالة التي أوكلتها إليه السيّدة العذراء. وقد تمّ إعلان قداسته في البازيليك الكبرى المشيّدة في مدينة مكسيكو تخليدًا لهذا الحدَث الجلَل. وفي أثناء القدّاس، شكر يوحنّا بولس الثاني الله لتمكينه من تطويب

أوّل قدّيسٍ من سكّان القارّة الأميركيّة الأصليّين، ذلك الهنديّ البسيط والمتواضع، الذي حظي بمشاهدة محيّا عذراء «تيپياك»، العذب والساحر، والغالي على قلوب المكسيكيّين وملايين المسيحيّين.

وفي إشارةٍ إلى بساطة القدّيس «خوان دييغو» وتواضعه، استشهد البابا بقول الرسول بولس، في رسالته الأولى إلى الكورنثيّين: «**إنّما اختار الله ما هو جاهلٌ في العالم ليخزي الحكماء، واختار ما هو ضعيفٌ ليخزي ما هو قويٌ، واختار الله ما هو خسيسٌ في العالم وحقيرٌ، وغير الموجود ليعدم الموجود، ولكي لا يفتخر ذو جسدٍ أمام الله**».

وأكّد البابا أنّه كان لذلك الحدَث أثرٌ حاسمٌ على نشر الإنجيل في القارّة الأميركيّة، ويسّر التلاقي بين عالمين: العالم الهنديّ الأميركيّ، والعالم الأوروپيّ، ورسّخ الهويّة المكسيكيّة في محبّة أمّ الله، التي أثبتت، بجلاءٍ، محبّتها للشعب المكسيكيّ.

وعقب القدّاس خاطب البابا المكسيكيّين بقوله: «**مع هذا القدّيس، لديكم مثالٌ رائعٌ لرجلٍ طيّبٍ، فاضل السلوك، ابنٍ وفيٍّ للكنيسة، مطيعٍ للرعاة، عاشقٍ للعذراء، وتلميذٍ جيّدٍ ليسوع**».

وفي اليوم التالي، الأوّل من آبٍ، وفي بازيليك سيّدة غوادالوپّي عينها، طوّب البابا الشهيدين المكسيكيّين «خوان بَوْتيستا» و«ياسنتو دي لوس أنجيليس»، اللذين كانا موظّفين رفيعيْن، نبيلَي المحتد، وأُعدما، بعد عذاباتٍ مبرّحةٍ، عام ١٧٠٠، لرفضهما عبادة الأصنام. وذكّر البابا بتطويب يسوع، «المضطهدين من أجل البرّ، فإنّ لهم ملكوت السماوات»، وقول القدّيس بطرس، في رسالته الأولى (٤: ١٣): «افرحوا بمقدار ما تشتركون في آلام المسيح، حتّى تفرحوا، أيضًا، في تجلّي مجده».

وعن الشهيديْن اللذين طوّبهما قال إنّهما «**فيما كانا يكابدان العذابات، ردّا، بعزيمةٍ على الدعوة الموجّهة إليهما لحنث إيمانهما المسيحيّ كي يخلصا، «وبما أنّنا نلنا المعموديّة، فسنظلّ مواظبين على اتّباع الدين الصحيح». إنّهما مثالان مضيئان على**

أنّ لا شيء يتفوّق على وعد المعموديّة حتّى الحياة ذاتها، على غرار المسيحيّين الأوّلين، الذين، بعد أن وُلدوا مجدّدًا بالعماد، تخلّوا عن كلّ عبادة وثن.

«ذانك المسيحيّان اللذان لم تشُبْ حياتهما الشخصيّة والأُسرويّة أيّة شائبةٍ، هما مثالٌ للمؤمنين العلمانيّين المدعويّن إلى تقديس ذواتهم في إطار ظروف حياتهم العاديّة... وهما نموذجٌ للطريقة التي يمكن لها، بمعزلٍ عن التنكّر للثقافة الخاصّة، ولتقاليد السلف، والاستنارة بنور المسيح، الذي يجدّد الروح الدينيّ، الخاصّ بأفضل تقاليد الشعوب.

«أعلنوا الإنجيل، بعقدكم وشائج شراكةٍ أخويّةٍ، وبالشهادة لإيمانكم من خلال حياةٍ مثاليّةٍ، داخل أُسركم، وعملكم، وعلاقاتكم الاجتماعيّة. ومنذ الآن، انشدوا، على الأرض، ملكوت الله وبرّه، من خلال تضامنٍ أخويٍّ، فعليٍّ، مع منكودي الحظّ، والمهمّشين...».

وكان رئيس أساقفة مكسيكو قد رحّب بالأب الأقدس، عند بدء الاحتفال، وقال له: «لا أحد في التاريخ بشّر بالإنجيل، كما فعلتم. فقد حملتم بشراه، شخصيًّا، إلى جميع بقاع العالم، حتّى إلى البيئات والثقافات الأكثر تنوّعًا».

تعاطف يوحنّا بولس الثاني مع الشعب الفلسطينيّ

يوم ٢٠٠٢/٨/١١، أطلق البابا، من مقرّه الصيفيّ في كاستل غوندولفو، هذه الصيحة:

«إنّي لا أكفّ أُفكّر، بقلقٍ بالغٍ، بالأراضي المقدّسة، حيث، للأسف، أفعال العنف المريعة، التي تكاد تكون يوميّةً، لا تعرف هدنةً، وتقضي على حياة العديد من إخوتنا وأخواتنا، ضحايا دوّامةٍ قاتلةٍ من العمليّات الثأريّة المتواصلة.

«متى سيدرك الجميع أنّ التعايش بين الشعبين الفلسطينيّ والإسرائيليّ لا يمكن أن يتحقّق بقوّة السلاح؟ لا الاغتيالات، ولا جدران الفصل، ولا عمليّات الاثّثار، ستفضي، يومًا، إلى حلٍّ عادلٍ للصراع الراهن.

«إنّ البابا يبكي مع جميع المفجوعين، والذين يعانون الدمار. وهو قريبٌ، خاصّةً من الأبرياء الذين يدفعون ثمن هذا العنف. وهو يرغب في أن يردّد على مسامع

الجميع، أيًّا كان انتماؤهم الإثنيّ، أنّ لا شيء يبرّر قتل مدنيّين عُزّلٍ، بلا تمييزٍ...

«منذ عام ١٩٦٧ حتّى اليوم، استمرّت سلسلة آلامٍ رهيبةٍ، يتعذّر وصفها: آلام فلسطينيّين طُردوا من أراضيهم، وأُخضعوا، في الآونة الأخيرة، لحالة حصارٍ دائمٍ، وآلام إسرائيليّين يعيشون في رعبٍ يوميٍّ من اعتداءات مجهولة المصدر...

«حيال هذه المأساة الإنسانيّة التي لا يبدو بصيص أملٍ في إنهائها، لا يستطيع أحدٌ أن يبقى لامباليًا».

رحلة يوحنّا بولس الثاني الأخيرة إلى وطنه، پولونيا

بين ١٦ و١٩ آبٍ قام يوحنّا بولس الثاني برحلته الرسوليّة الثامنة والتسعين، التي اقتادته، للمرّة الأخيرة، إلى مسقط رأسه: پولونيا.

في الساعة السادسة والنصف من مساء يوم الجمعة، ٨/١٦، حطّت طائرته في مطار كراكوڤيا، حيث رحّب به كلٌّ من رئيس الجمهوريّة الپولونيّة، ورئيس أساقفة كراكوڤيا. وقد عدّ رئيس الجمهوريّة هذه الزيارة «عيدًا وطنيًّا»، وخبرةً روحيّةً، وأكّد أن پولونيا بحاجةٍ إلى دعم البابا، وإلى الرجاء الذي ما انفكّ يبثّه في مواطنيه منذ سنواتٍ.

وفي ردّه، أوضح البابا أنّ زيارته تندرج تحت شعار «اللّه غنيٌّ بالرحمة»، ولا سيّما أنّ هذه الحقيقة تجلّت، على نحوٍ خاصٍّ، في پولونيا، بفضل شهادة الأخت القدّيسة «فوستينا». فمن خلالها، دوّت رسالة حبّ اللّه الرحيم، الإنجيليّة. ولذلك سيكون هدف زيارة البابا الأوّل، الحجّ إلى مزار الرحمة الإلهيّة، ومباركة المعبد الذي سيكون المركز العالميّ الأوّل لتكريم يسوع الرحيم.

وسيكون الهدف الثاني للزيارة، تطويب شهود محبّةٍ، كانت محبّتهم انعكاسًا لرحمة اللّه.

أمّا الهدف الثالث، فهو صلاة شكرٍ لمرور أربع مئة سنةٍ على تأسيس مزار «كلڤاريا زبجيدوڤسكا»، الذي يحتلّ في قلب البابا، منذ صباه، مكانةً أثيرةً. ففيه، على دروب الصلاة، استمدّ النور والإلهام من أجل خدمة كنيسة

كراكوڤيا، وكنيسة پولونيا؛ وفيه اتّخذ قراراتٍ راعويّةً خطيرةً، وتعلّم، وسط الشعب المؤمن المصلّي، الإيمان الذي ما برح يقوده.

وأنهى خطابه بقوله: «**جئت، اليوم، حاملاً لوطني ولمواطنيّ إعلان الرحمة الإلهيّة. لا تخافوا: ثقوا بالله، فهو غنيٌّ بالرحمة. المسيح معكم، وهو مغدق الرجاء الذي لا يخطئ**».

صباح يوم السبت ٨/١٧، ترأّس احتفالاً إفخارستيًّا، كرّس، خلاله، مزار الرحمة الإلهيّة الجديد، في ضواحي كراكوڤيا، واستهلّ عظته بأسطرٍ دوّنتها القدّيسة «فوستينا» قالت فيها: «يا رحمة الله التي لا تُدرك، ولا يُسبر غورها، من يستطيع عبادتك وتمجيدك، عبادةً وتمجيدًا لائقين بك؟ يا صفة كلّي القدرة، العليا. أنت رجاء الخطأة العذب!». وأضاف البابا قوله: «**أُسوةً بالأخت فوستينا، نريد أن نعترف بأنّه لا يوجد للإنسان منبع رجاءٍ سوى رحمة الله. ونودّ أن نردّد، بإيمانٍ: «يا يسوع إنّي أثق بك». إنّنا بحاجةٍ ماسّةٍ إلى هذا الإعلان المعبّر عن حبّ الله كلّيّ القدرة، في هذا الزمن، إذ تعتري الإنسان مشاعر ضياع، حيال مظاهر الشرّ العديدة. ينبغي أن يتفجّر التماس رحمة الله من أعماق القلوب التي تفيض ألمًا، وهواجس، وشكوكًا، والتي تنشد، في الآن عينه، منبع رجاءٍ لا يخيب. ولذلك، نأتي، اليوم، إلى هذا المزار، كي نكتشف، من جديدٍ، وجه الآب، أبي المراحم، وكلّ تعزيةٍ...**

«**أُريد أن أوكل العالمَ، علنًا، للرحمة الإلهيّة، راغبًا في أن تتنامى رسالة حبّ الله الرحيم، التي أُعلنت من خلال القدّيسة «فوستينا» إلى جميع سكّان المعمورة، وأن تملأ قلوبهم رجاءً... في رحمة الله سيجد العالم السلام، وسيجد الإنسان السعادة**».

واختتم الأب الأقدس عظته بهذه الصلاة:

«**يا الله، الآب الرحيم، الذي أعلن حبّه في ابنه يسوع المسيح،**
وسكبه علينا في الروح القدس،
إنّنا نوكل إليك، اليومَ، مصيرَ العالم، ومصيرَ كلّ إنسانٍ.
انحنِ على خطايانا، واشفِ ضعفنا، واقهر كلّ شرٍّ.

وليخبَر جميع سكّان الأرض رحمتَك، لعلّهم يجدون فيك، يا الله الواحد والثالوثيّ، منبع رجاءٍ،

أيّها الآب الأزليّ، بشفاعة آلام ابنك وقيامته، هبنا، وهب العالم اجمع، الرحمة!».

جديرٌ بالتنويه أنّ المزار المذكور ملحقٌ بدير راهبات العذراء مريم سيّدة الرحمة، الذي كان «كارول ڤويتيووا» يختلف إليه للصلاة، عندما كان عاملاً في مصنعٍ كيميائيٍّ، والذي خلّف، في نفسه، أثرًا عميقًا. ومن جوّه استمدّ موضوع رسالته العامّة الثانية، بعنوان «الآب الغنيّ بالرحمة» (Dives in Misericordia)، واستمدّ أيضًا من روحانيّة الأخت فوستينا التي أعلنها، بنفسه، طوباويّةً، عام ١٩٩٣، ثمّ أعلنها قدّيسةً بتاريخ ٢٠٠٠/٤/٣٠، وقرّر أن يكون الأحد الأوّل بعد الفصح، عيد الرحمة الإلهيّة.

وصباح يوم الأحد، ١٨ آب، ترأّس احتفالاً إفخارستيًّا في حديقةٍ بكراكوڤيا، حيث أعلن طوباويّة أربعةٍ من شهود المحبّة والرحمة هم الأُسقف «زيغمونت فيلينسكي» (Zygmont Scezesny Felinsky)، والأب «يان أدالبير باليكي» (Jan Adalbert Balicki) والأب «يان بيزيم» (Jan Beyzym)، والأُخت «سنكيا شيموكوڤياك» (Sancia Szymkowiak). وتمحورت عظة البابا حول قول الربّ: «**إليكم وصيّتي: أحبّوا بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم**». وقال إنّ ملء هذا الحبّ قد تجلّى في تضحية الصليب، «فليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من أن يبذل نفسه عن أحبّائه». هذا هو معيار حبّ الله، وذلك هو معيار رحمته.

وعن المطوّبين الأربعة قال إنّهم عاشوا في حِقَبٍ مختلفةٍ، وتباينت مسيراتهم، ولكنّهم تلاقوا في ميزة قداسةٍ واحدةٍ هي التفاني من أجل قضيّة الرحمة. وأضاف: «**حيال حالات الفقر الحديثة التي لا تخلو منها بلادنا، نحن نحتاج اليوم إلى «مخيّلة محبّةٍ خلاّقةٍ، يحدوها روح تضامنٍ مع القريب، لكي تكون المساعدة شهادة مشاركةٍ أخويّةٍ». فلتنعكس رسالة رحمة الله، دائمًا، أعمال رحمة الإنسان!...**

«**لا بدّ من نظرة الحبّ هذه من أجل تبيّن أوضاع الأخ المقيم إلى جانبنا، والذي، من جرّاء فقدانه عمله وبيته، وقدرته على إطعام عيلته إطعامًا لائقًا، وتوفير التعليم لأبنائه، يعتريه شعورٌ بالتخلّي، والضياع، وفقدان الثقة.**

«إنّ «مخيّلة محبّةٍ» ضروريّةٌ من أجل مساعدة ولدٍ محروم، ماديًّا وروحيًّا؛ ولكي لا نديرَ الظهر لفتًى أو فتاةٍ يختطفهما عالم إدمانٍ من كلّ نوعٍ، أو عالم إجرام؛ ومن أجل تقديم المشورة والسند، والدعم الروحيّ والأخلاقيّ للذين يخوضون صراعًا داخليًّا ضدّ الشرّ. فلتتوفّر مخيّلة المحبّة الخلاّقة، في كلّ مكانٍ يتوسّل فيه إنسانٌ محتاجٌ: «أعطنا، اليوم، خبزنا اليوميّ». وليتوفّر، دائمًا، هذا الخبز، بفضل المحبّة الأخويّة. «وطوبى للرحماء، فإنّهم سيُرحمون»».

وذكّر الحبر الأعظم بما سبق له قوله للپولونيّين، في أثناء زيارته الأولى إلى موطنه، عام ١٩٧٩: «لا تستهينوا شأن المحبّة، فهي أعظم ما تجلّى في الصليب، وبمعزلٍ عنها تفتقر الحياة البشريّة إلى الجذور والمعنى».

«اليوم، بكلّ قواي، أرجو رعاة الكنيسة وأبناءها، ألاّ يفصلوا، تحت أيّ ظرفٍ، «قضيّة الإنسان» عن محبّة الله. ساعدوا الإنسان المعاصر، كي يختبر حبّ الله الرحيم. وليخلّص حبّ الله الإنسانيّة، ببهائه وحرارته».

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ يوحنّا بولس الثاني، طيلة مدّة إقامته في كراكوڤيا، أثناء هذه الزيارة، كان يطيب له، في كلّ مساءٍ، أن يطلّ من نافذة مقرّه، ويتحدّث إلى الشباب الذين كانوا يتوافدون، ويحتشدون، أُلوفًا، لرؤيته والاستماع إليه. ورغم تعبه، لم يخيّب انتظارهم، قطّ. ففي كلّ ليلةٍ، بين الساعة الثامنة والنصف والتاسعة، كان يرتجل لهم خطابًا، ويحدّثهم عمّا فعل في ذلك النهار، وعمّا ينوي فعله في الغد، ثمّ يباركهم. وفي الليلة الأخيرة، ردّ على الجوقة بترتيلة «هلليلويا».

وصباح يوم زيارته الأخير، الإثنين ٨/١٩، ترأّس احتفالاً إفخارستيًّا بمناسبة مرور أربع مئة سنةٍ على تأسيس مزار «كالڤاريا زبجيدوڤسكا»، الذي يكرّس مشاركة العذراء ابنها في آلامه الخلاصيّة. واستهلّ عظته بتحيّة أمّ الله:

«سلامٌ يا ملكة، يا أمّ الرحمة، يا حياتنا وعذوبتنا، ورجاءَنا، سلامٌ لك!

«إنّي آتي، اليوم، إلى هذا المركز، مثلما كنت أقصده، فتًى، ثمّ شابًّا، وإنّي أمثل أمام سيّدة كلڤاريا، مثلما كنت أمثل، وأنا أُسقف كراكوڤيا، موكلاً إليها مشاكل الأبرشيّة، والأشخاص الموكلين إلى رعايتي.

«ولكم اختبرتُ أنّ أمّ الله تحطّ أنظار رحمتها على هواجس الإنسان المنكوب، وتنال له، نعمة حلّ معضلاتٍ مستعصيةٍ!

«إنّ هذا المكان يساعد القلب والفكر، مساعدةً مدهشةً، على استيعاب سرّ الرباط الذي يجمع الآلام التي كابدها المخلّص بما عانته أُمّه المتعاطفة مع هذه الآلام. وفي صميم سرّ الحبّ هذا، يكتشف الآتي إلى هنا حقيقة حياته اليوميّة، ووهنه، ويكتشف، أيضًا، قوّة الإيمان والرجاء، هذه القوّة التي يولّدها اليقين بأنّ الأُمّ السماويّة لا تتخلّى عن أبنائها الواقعين في مآزق، بل تقتادهم إلى ابنها الإلهيّ، وتوكلهم إلى رحمته.

«تلك التي كانت تربطها بابن الله وشائج الدم والحبّ الأُموميّ، كانت تحيا، عند أقدام الصليب، الوحدة في الآلام. وهي، وحدها، رغم وجع قلب الأُمّ، كانت تعرف أنّ لهذه الآلام معنًى».

وختم البابا عظته بصلاةٍ مؤثّرةٍ من أجل وطنه ومواطنيه، ولا سيّما المحتاجين إلى عونٍ مادّيٍّ وروحيٍّ، وبهذا الابتهال:

«يا سيّدة كالفاريا، نالي لي قوى الجسد والروح، لكي أتمكّن من أن أُحقّق، حتّى النهاية، الرسالة التي كلّفني بها القائم من الموت. وبين يديك أُودع كلّ ثمار حياتي وخدمتي. لكِ أوكلُ مصير الكنيسة، بكِ أثق، ولكِ أُعلن، مجدّدًا: «إنّي بكلّيّتي لكِ».

ومساء ذلك اليوم، الإثنين ٨/١٩، جرى لقداسة البابا وداعٌ رسميٌّ في مطار كراكوڤيا. وفي أثنائه قال كبير أساقفة پولونيا، الكردينال «غلمپ» (Glemp): «عندما تتكلّم ملايين القلوب والأرواح، بالدموع، والضحكات، والإشارات، والأيادي المرفوعة، يتعذّر على الكلمات التعبير عن هذه اللغة المشتركة، لغة المشاعر والأحاسيس...

«وأودّ أن أقول لك إنّنا، بحبّنا لك، نكبر في كرامتنا الپولونيّة والإنسانيّة...».

وشكر الحبر الأعظم للجميع حفاوتهم، وقال: «**ما عساي أقول، في الختام؟ إنّي حزينٌ لمغادرتكم!**».

ولكأنّ حدْسه كان يوحي له أنّه لن يطأ، من بعد، أرض وطنه.

دليل قداسةٍ

لم يكفّ يوحنّا بولس الثاني، يومًا، عن دعوةٍ كلّ معمّدٍ إلى القداسة، وعن إبراز مثُل القداسة. فأثناء صلاة التبشير، في الأوّل من أيلول، قال: «**تُكتَسَب القداسة باتّباع يسوع، لا بالهروب من الواقع والمِحَن، بل بمواجهتها بنور الروح القدس وقوته**».

ومع دنوّ شهر تشرين الأوّل المكرّس لتكريم سيّدة الورديّة، قال: «**الورديّة هي السبيل إلى تأمّل وجه يسوع بعيني مريم**». وناشد الأفراد، والأُسَر، والجماعات المسيحيّة إلى تلاوة الورديّة، وإلى اكتشاف جمال هذه الصلاة وعمقها، وإيكال قضيّة السلام إليها.

ولدى استقباله، يوم **٩/٢٣**، أساقفةً جرى تعيينهم في غضون الاثني عشر شهرًا المنصرمة، قال لهم: «**إنّ واجب الراعي الأوّل، هو أن ينمّي، لدى المؤمنين، رغبةً حقيقيّةً في بلوغ القداسة**».

وتسنّت له فرصةٌ فريدةٌ للتشديد على تلك الدعوة، من خلال إعلانه قداسة الطوباويّ الأُسقف «خوسّيماريا إسكريڤا دي بالاغير»، قبل ظهر يوم الأحد، ٢٠٠٢/١٠/٦، في ساحة القدّيس بطرس، بحضور أكثر من ثلاث مئة ألف مؤمنٍ.

وُلد القدّيس الجديد، في ١٩٠٢/١/٩، في مدينة «بورباسترو» (Berbastro) الإسپانيّة، وتوفّي في روما، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٢٦. سيم كاهنًا عام ١٩٢٥، وبدأ خدمته في رعايا ريفيّة، ثمّ في أحياء مدريد الفقيرة، وفي المستشفيات. في غروب عام ١٩٢٨ أسّس حركة «عمل الله» (Opus Dei)، ومنذئذٍ لم تنفصل حياته عن هذه المؤسّسة، التي أصبح لها، لدى وفاته، أكثر من ستّين ألف عضوٍ، من ثمانين جنسيّةً مختلفةً، في القارّات الخمس.

وكان قد حصل على دكتورا في الحقوق من جامعة مدريد، ودكتورا في اللاهوت من جامعة اللاتران، بروما، ودرّس الأخلاق والآداب المهنيّة في معهد الصحافة بمدريد، وتولّى مناصب هامّةً في جامعاتٍ إسبانيّةٍ، وفي الپيرو. وكان

رئيس إكليريكيّةٍ في سراغوسا، وعضوًا في الأكاديميّة اللاهوتيّة الحبريّة الرومانيّة، وله العديد من المؤلّفات التي تُرجمت إلى لغاتٍ عديدةٍ.

سمعة القداسة التي رافقته في حياته، امتدّت، إثر وفاته، إلى أقاصي المسكونة، وقد نُسبت له عجائب عديدةٌ.

وانتهز البابا يوحنّا بولس الثاني مناسبة إعلان قداسته، كي يبيّن سرّ القداسة في حياته وفي تعليمه، ويرشد إلى وسائل تحقيقها في حياة كلّ مؤمنٍ، فقال عنه:

«لم يكن يملّ من دعوة أبنائه الروحيّين إلى توسّل الروح القدس، كي يجعلِ حياتهم الروحيّة، أي علاقتهم بالله، وحياتهم العيليّة والمهنيّة والاجتماعيّة، منسوجةً بوقائع أرضيّةٍ صغيرةٍ، وغير منفصلةٍ، بل مكوّنةً وجودًا واحدًا، مقدّسًا ومليئًا بالله. وقد أَلِف أن يقول:

«فلنكتشف الله في الأشياء الأكثر مادّيّةً وظهورًا». وكان يردّد: «إنّ حياة المسيحيّ المؤمن، سواءٌ كان يعمل أو يستريح، يصلّي أو ينام، وفي كلّ لحظةٍ، هي حياةٌ يحضر الله فيها دائمًا». وما برح تعليمه، اليوم، معاصرًا وملحًّا. فالمؤمن، بفعل المعموديّة التي تطهّره بالمسيح، مدعوٌّ إلى إقامة علاقةٍ مستمرّةٍ وحيويّةٍ مع الربّ. إنّه مدعوٌّ لأن يكون قدّيسًا، وأن يسهم في خلاص البشريّة.

«إنّ العمل، وكلّ نشاطٍ يُنجَز بمساعدة النعمة، يتحوّلان إلى أدوات تقديسٍ يوميٍّ.

«هذه النظرة، فائقة الطبيعة، للوجود، تشرع أُفقًا مدهشًا للرؤية الخلاصيّة. فحتّى في الأحداث الأرضيّة العاديّة، الرتيبة ظاهريًّا، يقيم الله على مقربةٍ منّا، ويتيح لنا المساهمة في مشروعه الخلاصيّ. ومن ثمّ يصبح من السهل فهم تأكيد المجمع الفاتيكانيّ الثاني: «الرسالة المسيحيّة لا تصرف البشر عن بناء العالم، بل تجعل منه واجبًا أشدّ إلحاحًا».

«إنّ الارتقاء بالعالم صوب الله، وتحويله من الداخل، هما الهدف الذي يرشدنا إليه القدّيس المؤسّس، وهو ما انفكّ يذكّركم ألاّ تثبّط عزيمتَكم ثقافةٌ مادّيّةٌ تهدّد بإذابة هويّة تلاميذ المسيح الأشدّ أصالةً. وكان يطيب لذلك القدّيس أن يردّد أنّ الإيمان المسيحيّ يقاوم الخضوع للتقاليد البالية، والخمول الداخليّ».

وناشد البابا المنضوين إلى الحركة التي أسّسها القدّيس الجديد، بقوله:

«اجهدوا في أن تكونوا، أنتم أنفسكم، في المقام الأوّل، قدّيسين، منتهجين أسلوبًا إنجيليًّا في التواضع والخدمة، والاستسلام للعناية الإلهيّة، والإصغاء الدائم لصوت الروح القدس. إنّ الربّ يطهّر ويصوغ، بقوّة الصليب السرّيّة، الذي يدعوهم إلى اتّباعه. وكان القدّيس الجديد لا ينِي يردّد إنّنا، في الصليب، نجد النور، والسلام، والفرح.

«في سبيل إنجاز رسالةٍ كثيرة الاقتضاء، لا بدّ من نموٍّ داخليٍّ دائمٍ، تغذّيه الصلاة. وكان القدّيس «خوسّيماريا» مجلّيًا في ممارسة الصلاة التي كان يعدّها سلاحًا مدهشًا لافتداء العالم. وكانت نصيحته الدائمة: «أوّلاً الصلاة؛ ثمّ التوبة والتكفير عن الخطايا؛ وفي المقام الثالث، فقط الثالث، العمل». وليس هذا القول مفارقةً، بل هو حقيقةٌ خالدةٌ. فخصب الرسالة يكمن، قبل كلّ شيءٍ، في الصلاة، وفي ممارسةٍ كثيفةٍ للأسرار المقدّسة. هذا هو، جوهريًّا، سرّ القداسة، ونجاح القدّيسين الحقّ».

وخليقٌ بناء، في هذا السياق، أن نورد بعض الشعارات التي أطلقها واستهدى بها القدّيس «خوسّيماريّا»:

«في الأوضاع العاديّة جدًّا، يكمن شيءٌ إلهيٌّ، ويتعيّن على كلٍّ منّا اكتشافه: هو شهادة بطولةٍ مسيحيّةٍ فائقةٍ، في ممارسة نشاطاتٍ بشريّةٍ يوميّة».

«عمل المسيحيّ أن يشهد لإيمانه، داخل أُسرته، وفي العمل، وفي الشارع.

«العمل هو مساهمةٌ في القدرة الإلهيّة». «اجعل من العمل صلاةً». «اعمل كلّ شيءٍ بحبٍّ».

«ليست القداسة في إنجاز أعمالٍ أكثر فأكثر مشقّةً، بل في إنجازها، كلّ مرّةٍ، بمزيدٍ من الحبّ».

وفي إطار إبرازه وجوه القداسة المشرقة، أعلن طوباويّة ستّةٍ من الشهود الذين أضرم نفوسَهم روحُ الرسالة، وذلك يوم الأحد ١٠/٢٠، الموافق ليوم الرسالة العالميّ. والطوباويّون الجدُد هم:

– شابّان أوغنديّان: «دودي أوكيلو» (Doudi Okelo) و«جيدو إِرْوا» (Jido Irwa)، اللذان كرّسا ذاتيهما لتعليم الدين الميسحيّ في بلادهما، واستُشهدا في سبيل إيمانهما، عام ١٩١٨.

– الأُسقف الإيطاليّ «أندريا جياسنتو لونغهين» (Andrea Giacinto Longhin)، الذي كان كاهنًا فرنسيسكانيًّا، ورقّاه البابا القدّيس بيّوس العاشر، أسقفًا على رعيّة «تريبيرا»، عام ١٩٠٤، فسهر على رعيّته بغيرةٍ، ولا سيّما في أثناء الحرب. وقد طبعت سيرتَه الروحانيّةُ الفرنسيسكانيّة، فتميّز بالتقشّف، والتفاني في الخدمة، وبالقداسة. وأرداه المرض عام ١٩٣٦، وجرت أشفيةٌ عجيبةٌ بشفاعته.

– الكاهن «ميركنتينو دورَندو» (Mercantino Durando)، المولود في إيطاليا عام ١٨٠٦، والذي أبدى، منذ صغره، رغبةً في أن يكون مرسلاً في الصين. ولكنّه كُلّف بالرسالة الشعبيّة، وأسّس معهدًا للرسالات الخارجيّة، وبشّر بالرحمة الإلهيّة، وتفانى في خدمة الفقراء، وأسّس، عام ١٨٣٣، معهد «بنات المحبّة» اللواتي كُلّفنَ بخدمة المشافي. وقد نشط في نشر تكريم «الإيقونة العجائبيّة»، وأسّس العديد من المياتم، والمدارس التي تعلّم الأطفال الفقراء، وكان مرشدًا روحيًّا للعديد من الرهبانيّات. وأسّس، عام ١٨٦٥ جمعيّة «آلام يسوع الناصريّ» من أجل خدمة المتألّمين، ومواكبة المحتضرين. وتوفّي في ١٨٨٠/١٢/١٠.

– الأخت الفرنسيّة «ماري الآلام» (١٨٣٩–١٩٠٤)، مؤسّسة جمعيّة «مرسلات مريم الفرنسيسكانيّات».

– الراهبة الإيطاليّة المرسلة «ليدوينا مينيغوتزي» (Liduina Meneguzzi) (١٩٠١–١٩٤١)، التي خدمت المرضى، في إيثيوبيا، بغيرةٍ وحبٍّ، وبمنأًى عن كلّ تمييزٍ دينيٍّ أو طائفيٍّ، فاستحقّت لقب «الشعلة المسكونيّة».

وقد أشاد الحبر الأعظم بالروح الرسوليّ الذي جمع هؤلاء المطوّبين الستّة، وأهاب بجميع الذين يحدوهم روح الرسالة: «اذهبوا، وكونوا شجعانًا»، مثلما أهاب يسوع بتلاميذه، قبل صعوده: «اذهبوا وبشّروا»، مشيرًا إلى أنّ دعوة يسوع هذه كانت «وعدًا، ووصيّةً والتزامًا»، وموضحًا أنّه لا يسعنا الشهادة للإنجيل، بصدقٍ، ما لم نكن نحيا الإنجيل بوفاءٍ.

همّ وحدة المسيحيّين

قبل ظهر يوم الأحد، ١٠/١٣، ترأّس يوحنّا بولس الثاني احتفالاً إفخارستيًّا، بحضور بطريرك رومانيا الأرثوذكسيّ «ثيوكتيست». وكان البابا قد حرص على استقبال ضيفه، لدى وصوله إلى روما، في ساحة القدّيس بطرس، في نهاية لقائه العامّ مع الحجّاج، كي يكون لقاؤهما علنيًّا، ودليلاً جليًّا على رغبتهما المشتركة في إعادة توثيق عرى الوحدة بين الكنيستين.

وقد أعلن البابا، بهذه المناسبة: «**إنّ لقاءنا عند ضريحي الرسولَيْن بطرس وبولس، هو دليلٌ على إرادتنا المشتركة بتخطّي العقبات التي تحول دون ملء الشراكة ما بيننا. وما زيارتكم اليوم، يا صاحب الغبطة، والأخ الحبيب، سوى تطهيرٍ لذاكرتنا المشتركة حيال الانقسامات، والصدامات الحادّة، أحيانًا، وحيال الأقوال والأعمال التي أفضت إلى انقسامٍ مؤلمٍ. غير أنّ المستقبل لا يبدو على شكل نفقٍ مظلمٍ، بل هو، الآن، مضاءٌ بنعمةٍ اللّه. وقد انعكس عليه نور الروح القدس المُحيي انعكاسًا مشجّعًا.**

«**إنّنا شاهدان على الوحدة المتنامية، والرغبة في شراكة كنيستَينا**».

وتمّ لقاءٌ ثانٍ بين الحبرين، في اليوم التالي، في مكتبة البابا الخاصّة. وأكّد الجانبان رغبتهما الصادقة في إعادة الوحدة بين الكنيستين. وقد تجسّدت هذه الرغبة، في بيانٍ مشتركٍ وقّعه الحبران معًا.

هذه المبادرة كانت، في الواقع، دعمًا للتقليد المبارك القائم منذ سنواتٍ، والذي كان، بموجبه، البطريرك المسكونيّ في الفنار، يكلّف، كلّ سنةٍ، وفدًا يمثّله للمشاركة في الاحتفال بعيد القدّيسين بطرس وبولس في روما، وبالمقابل يكلّف البابا وفدًا بتمثيله في الاحتفال بعيد القدّيس أندراوس في استنبول. وكان لهذا التبادل مغزًى غنيٌّ بالمعاني، يترجم مشاركة الأخوين البطريرك والبابا في الاحتفالات بعيدي الرسولين الأخوين بطرس وأندراوس.

وفي ذلك العام أيضًا (٢٠٠٢)، تألّف وفد الڤاتيكان من الكردينال «وولتر كاسپر»، ومن ثلاثة أساقفةٍ. وفي نهاية القدّاس الذي احتفل به غبطة البطريرك برتلماوس الأوّل، تلا الكردينال رسالة البابا، التي جاء فيها:

«إنّ أُخوّة الرسولين بطرس وأندراوس، ووحدة الرسالة التي بشّرا بها، كلاهما، تدعواننا إلى البحث، معًا، يومًا إثر يومٍ، عن ملء الشراكة، في سبيل تحقيق رسالتنا المشتركة، بالمصالحة في الله، وإطلاق روح سلامٍ مسيحيٍ حقيقيٍّ، في العالم الذي يعاني تمزّقاتٍ مأسويّةً، وخلافاتٍ مسلّحةً».

البابا يوحنّا بولس الثاني يباشر سنة حبريّته الخامسة والعشرين

في **١٠/٢٢**، استهلّ يوحنّا بولس الثاني السنة الخامسة والعشرين لتولّيه مهامّ خليفة بطرس، برسالةٍ حول المسبحة الورديّة. ثمّ، في أثناء صلاة التبشير، يوم الأحد، **١٠/٢٧**، أعلن: «**لقد وضعت السنة الخامسة والعشرين من حبريّتي، تحت شعار صلاة الورديّة**».

وكان قد أعلن السنةَ الممتدّة بين تشرين الأوّل **٢٠٠٢** وتشرين الأوّل **٢٠٠٣**، سنة الورديّة، ليقينه بأنّ هذه الصلاة هي وسيلةٌ ثمينةٌ لحثّ المؤمنين على الالتزام بتأمّل وجه المسيح. «**فوجه مريم العذراء هو النموذج الأسمى للتأمّل المسيحيّ. فمنذ حبلها بيسوع حتّى قيامته وصعوده إلى السماء، ثبّتت الأُمّ على ابنها الإلهيّ نظر قلبها الطاهر، نظرًا يفيض تساؤلاً، واستقراءً نفّاذًا، وألمًا وإشعاعًا. هذه النظرة المريميّة المفعمة إيمانًا وحبًّا، هي التي يتبنّاها المسيحيّ، والجماعة الكنسيّة، أثناء تلاوة الورديّة**».

وأعلن قداسته، بهذه المناسبة، أنّه، بُغية إضفاء طابعٍ أكمل مسيحانيّةً على الورديّة، أضاف إلى الأسرار الثلاثة المعهودة – الفرح، والألم، والمجد – حلقةً رابعةً هي حلقة «الأسرار المضيئة»، التي تتعلّق بحياة يسوع العلنيّة.

وحثّ قداسته على تلاوة الورديّة من قِبَل الأُسرة مجتمعةً، فمن شأن هذه التلاوة ترسيخ وحدة الأُسرة.

ويوم **١١/٢٣**، وجّه البابا رسالةً إلى المجلس الحبريّ من أجل العلمانيّين، حدّد فيها أربع بوصلاتٍ كفيلةٍ بهداية العلمانيّين: المجمع الڤاتيكانيّ، والرعيّة، والإفخارستيّا، والمسبحة الورديّة.

وقد أجمع المراقبون على أنّ سنوات حبريّته الأربع والعشرين، قد اتّسمت بطابع «حكمة الصليب»، وحداها «الرجاء».

صباح يوم الخميس ١٠/٣١، سلّم عمدة روما، وممثّلون عن المدينة الخالدة، للبابا وثيقة مواطن شرفٍ في روما، ومفاتيح المدينة.

واستمرّ قداسته يدلي، في كلّ مناسبةٍ، بتصريحٍ خليقٍ بأن يكون منارةً للأجيال. فبمناسبة بدء السنة الأكّاديميّة للجامعات الكنسيّة الرومانيّة، قال: «**إنّ التوازن بين معرفة الإيمان، وقداسة الحياة، هو ضروريٌّ لمقاومة حكمة هذه الحقبة الزائفة**».

وللمشاركين في الهيئة العامّة للمجلس الحبريّ للأُسرة، قال: «**إنّ غنى حياة الأسرار هو، للأُسرة، الترياق الأنجع لمقاومة العقبات والتوتّرات**».

وبمناسبة صلاة التبشير، يوم ١٢/١، قال: «**إنّ الله هو مستقبل الإنسان والعالم. وإن فقدت البشريّة معنى الله، لأغلقت، دونها، باب المستقبل، ولفقدت، حتمًا، وجهة حجّها في الزمن**».

ولدى استقباله اتّحاد المنظّمات المسيحيّة للمتطوّعين، قال: «**من خلال تفانيه في خدمة إخوته، يظهر المسيحيّ حنان الله وعطفه**».

وقبل ظهر يوم السبت ٢٠٠٢/١٢/٢١، استقبل البابا الكرادلة والأساقفة العاملين في إدارة الڤاتيكان، من أجل تبادل التهاني بعيد الميلاد، وألقى، بهذه المناسبة، خطابًا جاء فيه:

«**عيد الميلاد هذا يرتدي معنًى خاصًّا، فهو يتوافق مع السنة الخامسة والعشرين من حبريّتي. وهذا ما يدفعني إلى إشراككم معي في تقديم الشكر لله عن النعم التي أغدقها، خلال هذه الفترة الطويلة التي قضيتُها في خدمة الكنيسة...**

«**كيف لنا أن ننسى أنّ وجه المسيح ما زال متوجّع القسمات، معانيًا آلامًا حقيقيّةً، من جرّاء الصراعات التي تدمي مناطق عديدةً من العالم، والخلافات التي تنذر بانفجاراتٍ متزايدة العنف؟... إنّ الوضع في الأراضي المقدّسة هو أحد هذه الخلافات... وما انفكّ الإرهاب، أيضًا، يحصد ضحايا، ويحفر مزيدًا من قبورٍ.**

«**حيال هذا الأُفق الملطّخ بالدماء، ما انفكّت الكنيسة تُسمع صوتها، وترفع صلواتها...**».

وعدّد البابا منجزات الكنيسة ومبادراتها في مختلف المجالات.

وكان الكردينال «رتسنغر»، في مستهلّ اللقاء قد عدّد أهمّ هذه الإنجازات، وأشار، بوجهٍ خاصٍّ، إلى رسالة البابا عن «ورديّة مريم العذراء»، وإلى ابتكاره مجموعة «الأسرار المضيئة»، التي تظهر لنا، في ضوءٍ جديدٍ، وجه يسوع، لكي، «مفتونين ببهاء المخلّص»، نبلغ إلى حياةٍ متجلّيةٍ بالروح القدس. وأنهى الكاردينال خطابه بقوله: «شكرًا، أيّها الأب الأقدس، للنور الذي ينبعث من هذه الصفحات، والذي يأتينا من حياة الصلاة التي تحيونها، والتي تتألّق في هذه الأقوال».

وفي عظة عيد الميلاد، قال البابا: «**إنّ سرّ الميلاد هو سرّ فرحٍ، وسرّ حبٍّ، وسرّ سلامٍ، وبالإجمال هو سرّ الكلمة المتجسّد**».

العام ٢٠٠٣

يوحنّا بولس الثاني في الثالثة والثمانين من عمره، وقد أخذ المرض والوهن من قواه الجسديّة كلّ مأخذٍ، ولكنّهما عجزا عن إيهان عزيمته، وعن إنضاب ينابيع غيرته الرسوليّة. وهو كان قد صرّح: «**في كلّ سنٍّ يطلب الربّ من كلٍّ منّا استثمار وزناته. فالرسول، حتّى عندما تطاله شيخوخة الجسد، يحتفظ، بمعنًى ما، بشبابه، طالما هو ظلّ محدّقًا إلى الله الأزليّ**». وقد باح أيضًا: «**رغم قيود السنّ، ما زلتُ أتذوّق الحياة. وإنّي أشكر الله، من أجل ذلك. إنّه لرائعٌ أن يظلّ المرء قادرًا على بذل حياته، حتّى النهاية، في سبيل قضيّة الملكوت**».

ولأصدقائه ومعاونيه الذين كانوا ينصحونه بالحدّ من وتيرة عمله، حرصًا على صحّته، كان يجيب، دائمًا، أنّه لم يُكلّف بتخصيص جزءٍ من وقته، فقط، لرعاية الكنيسة، فالكنيسة تحتاج إلى بابا يكرّس لها وقته كلّه.

وللذين كانوا يوسوسون له بفكرة التقاعد، كان يذكّر بمثال بطرس الرسول، الذي لم تحُلْ الشيخوخة دون مضيّه قُدُمًا في النهوض بالرسالة التي انتدبه لها المسيح، حتّى الاستشهاد. ولذلك هو، أُسوةً بالرسول بطرس، لم يسعَ، يومًا

إلى تمويه مرضه، وأوهانه، ولا إلى وقاية نفسه من التعب. وقد فسّر للكرادلة موقفه هذا بقوله إنّ القدرة على «تثبيت إخوته» ليست مرتبطةً بقواه الذاتيّة، بل بقدرة المسيح، وبفضل هذه القدرة يستطيع خليفة بطرس، رغم أوهانه الشخصيّة، القيام بهذه المهمّة.

ولا ريب أنّ شتاء عمر البابا يوحنّا بولس الثاني قد أثبت قدرته على إنبات أزاهير فوّاحةٍ، رغم كلّ شيءٍ.

في ١/٦، أقام قدّاسًا لمجموعةٍ من الأولاد القادمين من القارّات الخمس، وحثّهم على تلاوة المسبحة الورديّة من أجل سلام العالم.

وفي ١/١٢، قام، للمرّة الأخيرة، بمنح سرّ المعموديّة لأطفالٍ من شتّى بقاع العالم. وفي اليوم التالي استقبل ممثّلي الهيئات الدبلوماسيّة المعتمدة في الڤاتيكان، وقال لهم، بنبرةٍ عاليةٍ: «**لا للموت! لا للأنانيّة! لا للحرب! نعم للحياة، نعم للسلام!**».

وردّ عميد السلك الدبلوماسيّ: «**أيّها الأب الأقدس، أنت مرجعٌ لا غنى عنه لجميع شعوب الأرض**».

وبعث قداسته برسالةٍ إلى اللقاء العالميّ الرابع للأُسرة، المنعقد في «مانيلاّ» بالفيليپّين، بين ٢٥ و١/٢٦، أوضح في مطلعها:

«**في الرؤية المسيحيّة للزواج، إنّ العلاقة بين رجلٍ وامرأةٍ – علاقةٌ متبادلةٌ وكلّيّةٌ، فريدةٌ وغير قابلةٍ للانحلال – هي استجابةٌ لتدبير اللّه الأصليّ، الذي حجبته، عبر التاريخ، «قسوة القلوب»، وقد جاء المسيح كي يعيد له بهاءه الأصليّ، بإعلانه ما أراده اللّه، منذ البدء. فالزواج الذي رُقّي إلى كرامة سرٍّ مقدّسٍ، يعبّر، أيضًا، عن «السرّ الكبير»، سرّ حبّ المسيح لكنيسته.**

«**يجب العمل على تثقيفٍ إنجيليٍّ أكمل، لكي تضحي الأسر المسيحيّة مثالاً مقنعًا لإمكانيّة عيش الزواج بطريقةٍ تتوافق، كلّيًّا، مع مشيئة اللّه، ومع مقتضيات البشر: الأزواج، والأشخاص الأكثر هشاشةً، أي الأولاد...**».

أمّا المواضيع التي اقترح بحثها في هذا اللقاء، فهي:

١ - الأُسرة تتقبّل وتعلن البشرى الجديدة.

٢ - الأسرة المسيحيّة شاهدة المُعاهدة الفصحيّة.

٣ - الأُسرة قلب التبشير بالإنجيل.

٤ - الأُسرة المسيحيّة كنيسةٌ منزليّةٌ.

٥ - قداسة الأُسرة في خدمة الإنجيل.

٦ - الإفخارستيّا دليلٌ وغذاءٌ لحبٍّ زوجيٍّ لامحدودٍ.

٧ - مصالحةٌ وغفرانٌ في الأُسرة.

٨ - الأُسرة جماعة صلاةٍ.

٩ - الأُسرة مركزٌ ونبعٌ لخيرٍ اجتماعيٍّ.

١٠ - الأُسرة وحبّ الأكثر ضعفًا.

١١ - الأُسرة تُعِدّ وتواكب الأُسر الفتيّة.

١٢ - الأُسرة محراب الحياة.

في الأوّل من شهر آذار، زار البابا إكليريكيّةً في روما وأوصى: «**في مدرسة مريم تعلّموا الفنّ السامي: فنّ الثقة بالله**».

ولأساقفةٍ إسكتلانديّين قال: «**بشّروا الثقافات بواسطة كهنةٍ قدّيسين**».

وقد أعلن قداسته يوم أربعاء الرماد، ٣/٥، يوم صومٍ من أجل السلام، ولا سيّما في الشرق الأوسط. واتّصل بالعديد من مسؤولي العالم، ووجّه نداءاتٍ ملحّةً، داعيًا إلى تفادي حربٍ في العراق، وأوفد كردينالاً إلى بغداد، وآخر إلى واشنطن لهذه الغاية.

في السادس من آذار قدّم الكردينال رتستغر مجموعةً شعريّةً من نظم يوحنّا بولس الثاني بعنوان: «ثلاثيّةٌ رومانيّةٌ: تأمّلاتٌ».

وفي السابع عشر من آذار، أصدر البابا رسالته العامّة الرابعة عشرة والأخيرة بعنوان Ecclesia in Eucharistia، عن علاقة الكنيسة بسرّ الإفخارستيّا.

الرحلة الرسوليّة التاسعة والتسعون: إسبانيا، ٣ و٤ أيّار

مساء يوم زيارته الأوّل، التقى الشبيبة، وتأمّل معهم أسرار الورديّة، عملاً بالقول المأثور: «إلى يسوع عبرَ مريم». وقال: «**لا ريب أنّنا نتعلّم من مريم تأمّل جمال وجه المسيح، والشعور بعمق حبّه. في بدء هذه الصلاة، فلنحدّق إلى أُمّ الربّ، ولنرجُها أن تقودنا إلى ابنها يسوع**». ثمّ قال: «**إنّ مأساة الثقافة المعاصرة هي خلوّها من الحياة الداخليّة، وافتقارها إلى التأمّل. فبمعزلٍ عن الحياة الداخليّة تخلو الثقافة من محتوًى، مثل جسدٍ لم يعثر على روحه. وعندما يغيب روح التأمّل، تفقد الحياة الحماية. وبمنأًى عن الحياة الداخليّة، يخاطر الإنسان المعاصر بسلامته.**

«**أيّها الشباب، أدعوكم إلى التتلمذ في مدرسة مريم. فهي مثالٌ فريدٌ للتأمّل، وقدوةٌ مثمرةٌ ومليئةٌ فرحًا لحياةٍ روحيّةٍ غنيّةٍ. وهي ستعلّمكم ألاّ تفصلوا، أبدًا، العمل عن التأمّل...**

«**انطلقوا بثقةٍ إلى لقاء المسيح. ولا تخافوا من التحدّث عنه. فهو الجواب على كلّ التساؤلات حول الإنسان ومصيره**».

ويوم الأحد ٥/٤، في أثناء قدّاسٍ في إحدى ساحات مدريد، أعلن قداسة كلٍّ من الكاهنَيْن الإسبانيَّين:

– بيتر پوڤيدا» (Peter Poveda) (١٨٧٤–١٩٣٦)، الذي كرّس حياته للتعليم، ولإثبات أنّ الإيمان والعلم لا يتناقضان. وقد آثر بتعليمه المهمّشين والفقراء. كان أُستاذًا في الصلاة والحياة المسيحيّة، ومقتنعًا بأنّ على المسيحيّ أن يزوّد العالم بالقِيَم الجوهريّة الكفيلة ببناء عالم عدلٍ وتعاونٍ. وتوّج حياته بالشهادة لإيمانه.

– الكاهن «خوسّي ماريا روبيو» (José Maria Rubio) (١٨٦٤–١٩٢٩)،

الذي كرّس كلّ وقته لخدمة الأسرار المقدّسة وللوعظ، وأعدّ كثيرين للشهادة. وكان شعاره: «افعل ما يريده الله، وأرِد ما يفعله».

والراهبات الإسپانيّات:

– «جينوڤيڤا تورّس» (Genoveva Torres) (١٨٧٠–١٩٥٦)، التي كانت أداة الله لعون الفقراء والمعوزين، وقد أغدقت عليهم الغوث المادّيّ والروحيّ. وألِفت أن تغذّي روحانيّتها بالإفخارستيّا.

– «أنجيلا الصليب» (Angela de la Cruz) (١٤٨٧–١٥٦٠)، مؤسِّسة «جمعيّة الصليب» لخدمة المحرومين، التي كان لها تأثيرٌ عميقٌ على منطقة إشبيليا. وقد تميّزت بالبساطة، والتمست القداسة بالتضحية وخدمة الله والمحتاجين.

– «ماراڤيّاس يسوع» (Maravillas de Jesus) (١٨٩١–١٩٧٤)، التي تميّزت بإيمانٍ بطوليٍّ، وجعلت من الإيمان مركز حياتها. وقد أسّست فروعًا جديدةً للكرمل، مشبعةً بروح القدّيسة تيريزا الأڤيلاّويّة، ولم تمنعها حياة النسك التأمّليّة من تلبية الأشخاص المحيقين بها، ومن إطلاق مبادراتٍ اجتماعيّةٍ وخيريّةٍ.

وقد أكّد البابا أنّ القاسم المشترك بين هؤلاء هو ولاؤهم الذي لا يتزعزع للمسيح المصلوب والقائم من الموت. وأنهى عظته برجاء أن «**يصغي الناس فيؤمنوا، وأن يولّد الإيمان لديهم الرجاء، ويولّد الرجاء المحبّة**»، حسب قول القدّيس أوغسطينُس.

إثر عودته من إسبانيا عيّن البابا، للمرّة الأولى، امرأةً في إدارة الڤاتيكان (الكوريّة) بصفة رئيسة الأكّاديميّة الحبريّة للآثار.

وبين الثامن والعاشر من أيّار، عقدت جامعة اللاتران مؤتمرًا عالميًّا، بعنوان «يوحنّا بولس الثاني: **٢٥** سنةً من الحبريّة – الكنيسة في خدمة الإنسان».

وفي **٥/١٧**، منحت جامعة الحكمة (La Sapienza) يوحنّا بولس الثاني دكتورا فخريّةً في الحقوق، عن مجمل إنجازاته في خدمة الحقّ، وحقوق الإنسان. وقد عدّ البابا هذه المبادرة تكريمًا للكنيسة. وممّا قاله، بهذه المناسبة:

«إنّ الكائن البشريّ هو أساس الحياة الاجتماعيّة وغايتها، وعلى الحقّ أن يخدمه».

يوم ٥/١٨، هنّأه الكرادلة بذكرى ميلاده الثالثة والثمانين. ولخّص الكردينال رتسنغر حبريّته بكلمتَيْ: «إيمانٌ ومحبّةٌ».

الرحلة الرسوليّة المئة: كرواتيا – ٥ حتّى ٩ حزيران

يوم ٦ حزيران، صباحًا، احتفل بقدّاسٍ في ساحة المرفأ، في مدينة «دوبروڤنيك» (Dobrovnik)، حيث طوّب «ماريّا پيتكوڤيتش» التي اعتنقت، في الرهبنة اسم «الأُخت ماريّا يسوع المصلوب» (١٨٩٢–١٩٥٦)، والتي، منذ حداثة سنّها، دأبت على أعمال الخدمة، ثمّ كرّست حياتها كلّها للربّ، في هذه الخدمة، وأسّست جمعيّة «بنات الرحمة»، ذات الطابع الفرنسيسكانيّ، التي اهتمّت بنشر معرفة حبّ الله، من خلال أعمال الرحمة الروحيّة والمادّيّة، وسط جمٍّ من التضحيات. وقد أدارت الطوباويّة تلك الجمعيّة أربعين سنةً، بحكمةٍ، مشجّعةً أعمال الرسالة في مختلف بلدان أميركا اللاتينيّة.

وفي اليوم التالي، احتفل بقدّاسٍ في مطارٍ رياضيٍّ، وكانت الكنيسة المحلّيّة تختتم سينودسها الثاني، فقال في عظته: «**إنّ كلّ مسيحيٍّ مدعوٌّ إلى القداسة وإلى الرسالة**».

يوم ٦/٨، كان أحد العنصرة. وقد احتفل البابا بقدّاسٍ من أجل الأُسَر. وممّا قاله في عظته: «**إنّ الكنيسة في حالة «عنصرةٍ دائمةٍ»... والأُسرة تحتاج، اليوم، إلى اهتمامٍ خاصٍّ، وإلى سياسةٍ واقعيّةٍ تهدف إلى صون طبيعتها، ونموّها، وثباتها، وإيلاء عنايةٍ خاصّةٍ بمشاكل السكن والعمل، وتربية الأولاد تربيةً مسيحيّةً**».

ثمّ، في أثناء صلاة التبشير، توجّه إلى الشبيبة قائلاً: «**إنّ البابا يتطلّع إليكم بثقةٍ ورجاءٍ، ويطلب منكم، مرّةً أُخرى، أن تكونوا حرّاس الفجر، وشعب التطويبات**».

وفي يوم زيارته الأخير، أقام، عند الظهر، صلاةً في ساحة «زادار» (Zadar). وقد اعتاد الكرواتيّون الاحتفال، غداة أحد العنصرة، بتكريم العذراء، أُمّ

الكنيسة؛ فألقى الحبر الأعظم عظةً قال فيها: «**مثلما كانت السيّدة العذراء، مع التلاميذ، يوم العنصرة، فهي باقيةٌ، روحيًّا، وسط المؤمنين المسيحيّين، عبر العصور، ملتمسةً حلول مواهب الروح على الكنيسة، التي تواجه التحدّيات، خلال حِقَب تاريخها. إنّها أمٌّ لأنّها «عذراء أضحت كنيسةً»**.

«**أقوال العذراء ومثالها هي مدرسة حياةٍ ساميةٌ. وهي تبقى قدوةً لجميع من يسمعون كلمة اللّه ويعملون بها**».

الرحلة الرسوليّة الواحدة بعد المئة إلى البوسنا وهيرزيغوڤين: ٢٢ حزيران

ما كاد البابا يرتاح من رحلته إلى إسبانيا حتّى انطلق، يوم **٢٢** حزيران، في رحلته الرسوليّة الواحدة بعد المئة إلى البوسنا وهيرزيغوڤين، حيث طوّب الأكاديميّ العلمانيّ الكرواتيّ «إيڤان ميرز» (Ivan Merz) (١٨٩٦–١٩٢٨) الذي قال عنه الحبر الأعظم:

«**لقد غمره النور الإلهيّ، فأمسى شعلةً تضيء وتدفئ. كان من دعاة التجديد الليتورجيّ في موطنه. وبمشاركته بالقدّاس، وبتغذّيه بجسد المسيح وكلمة اللّه، عثر على دافعٍ ليكون رسول الشباب. ولم يكن من باب الصدفة اختياره شعار «تضحية، إفخارستيّا – رسالة». لقد وعى الرسالة التي جاءته بها المعموديّة، فجعل من حياته جريًا نحو القداسة.**

«**كان شابًّا لامعًا، ونجح في تنمية المواهب الوفيرة التي حباه بها الخالق، وأحرز الكثير من النجاحات البشريّة. ويمكن وصف حياته بالناجحة. ولكن ليس هذا النجاح هو علّة إدراج اسمه في سجلّ الطوباويّين. بل إنّ ما يُدخله في جوقة الطوباويّين هو نجاحه أمام اللّه. فقد كان صبوّ كلّ حياته ألاّ ينسى اللّه أبدًا، وأن يرغب، دائمًا، في الاتّحاد به. وفي كلّ نشاطاته نشد سموّ معرفة يسوع الذي أتاح له الاستيلاء على ذاته.**

«**إنّ اسم «إيڤان ميرز» يمثّل برنامج حياةٍ لجيلٍ كاملٍ من الشبّان الكاثوليكيّين**».

وناشد البابا الشبيبة قائلاً: «**إنّ مستقبل هذه المناطق متعلّقٌ بكم. لا تبحثوا في**

مكانٍ آخر، عن حياةٍ أكثر يُسرًا، ولا تهربوا من مسؤوليّاتكم، بانتظار أن يحلّ آخرون مشاكلكم، بل، بعزيمةٍ، تداركوا الشرّ بقوّة الخير.

«**وعلى غرار الطوباويّ** »**إيڤان**«، **انشدوا لقاءً شخصيًّا مع المسيح الذي يضيء الحياة بنورٍ جديدٍ. وليكن الإنجيل معيار توجّهاتكم وخياراتكم الأوّل. وبذلك ستصبحون رسُلاً من خلال سلوككم وأقوالكم، ودلالاتٍ على حبّ الله، وشهودًا جديرين بالثقة على رحمة المسيح**».

في الثامن والعشرين من حزيران، أصدر البابا إرشادًا رسوليًّا بعنوان: «كنيسة في أوروپّا». ولوحظ في غضون الأشهر التالية، دأب الأب الأقدس على دعوة أوروپّا للعودة إلى جذورها المسيحيّة، مردّدًا: «**جذور أوروپّا المسيحيّة هي ضمان مستقبلها**»، ومحذّرًا: «**يا أوروپّا، لا تنسي تاريخك!**».

وعُقدت، في الأوّل من شهر تمّوز، ندوةٌ في سترسبورغ، موضوعها: «يوحنّا بولس الثاني أبو أوروپّا». وقد أُطلق على البابا لقب «مهندس أوروپّا»، واعتُبرت أقواله نبوءةً حقيقيّةً للقارّة الأوروپّيّة، فهو لم يكفّ عن المطالبة «**ببناء أوروپّا بآجرّ ضميرنا الذي أنضجته نار الإنجيل**».

وأيّد الأساقفة الپولونيّون هذه النظرة، بإعلانهم أنّ «خبرات التاريخ قد أكّدت نبويّة صوت يوحنّا بولس الثاني».

ولدى استقبال البابا لأساقفةٍ أقباطٍ، شدّد على أنّ «**واجب ديانات العالم هو التنديد بالإرهاب**».

وبمناسبة مرور خمسين سنةً على دموع العذراء في «سيراكوزا»، صرّح قداسته: «**إنّها دموع ألمٍ، وحنانٍ، وتعاطفٍ، ورحمةٍ، تلتمس عودة البشر إلى الله... يا عذراء الدموع العذبة، نقدّم لك الكنيسة والعالم أجمع**».

الرحلة الرسوليّة الثانية بعد المئة إلى سلوڤاكيا (١١ حتّى ١٤ أيلول)

وما انفكّ البابا العجوز يخفّ حاجًّا إلى كلّ مكانٍ تدعوه إليه واجبات الرسالة. ففي الحادي عشر من أيلول، باشر رحلةً إلى سلوڤاكيا.

في اليوم الأوّل من الرحلة، زار كاتدرائيّة TRNAVA المكرّسة للقدّيس يوحنّا المعمدان. وهناك خاطب المؤمنين بهذه العبارات: «**أرجو أن تنمّوا معنى الله وحضوره، من خلال الإصغاء إلى كلام الله، والصلاة، والاحتفال بالأسرار، وخدمة إخوتكم. وهكذا ستصبحون، في حياتكم اليوميّة، على غرار يوحنّا المعمدان، مرسلين وشهودًا على حضور الله المحبّ والمخلّص، في عالم اليوم**».

صباح يوم رحلته الثاني، **٩/١٢**، احتفل البابا بقدّاسٍ في ساحة الانتفاضة الوطنيّة في «بانسكا بيستريكا»، وقد جاء في عظته قوله:

«**بالتجسّد ابتغى الله منح البشر حياته ذاتها، بدعوتهم إلى أن يصبحوا أبناءه. هذه الدعوة تنتظر استجابةً، لأنّ الله لا يفرض الخلاص، بل يقدّمه بمثابة مبادرة حبٍّ، ويريد أن تُقابل باختيارٍ حرٍّ، دافعه الحبّ، أيضًا**».

ودعا إلى التمثّل بالعذراء، عندما بشّرها الملاك:

«**فلنفسح مكانًا لله! وسط تنوّع الدعوات وغناها، كلّ إنسانٍ مدعوٌّ، مثل مريم، إلى تقبّل الله في حياته، وإلى جوب دروب العالم معه، مبشّرًا بإنجيله، وشاهدًا على حبّه**».

ثمّ كان له لقاءٌ مع أعضاء المجلس الأُسقفيّ السلوڤاكيّ، وحرّضهم على تنشيط الحياة المسيحيّة، وعلى تنمية الإكليريكيّات والرهبانيّات، وازدهار الدعوات الكهنوتيّة والرهبانيّة، وعلى التعاون مع العلمانيّين الملتزمين، والعناية بالشبيبة، ورعاية الضعفاء والفقراء، والاهتمام بالعاطلين عن العمل، والإنماء الإنسانيّ، وعلى إقامة حوارٍ بين الإيمان والعلم.

وفي اليوم التالي، **٩/١٣**، أقام قدّاسًا في مدينة «روزناڤا» (Roznava)، وحثّ على التبشير بمثال السلوك. وشجّع المزارعين وبارك جهدهم، موضحًا ما للجهد من تأثير على الموسم، كما أنّ الكلمة وحدها، لا تؤتي ثمرًا ما لم تلقَ التربة الطيّبة المعدّة لها.

ويوم الأحد **٩/١٤**، احتفل بعيد الصليب، وجاء في عظته:

«**في الصليب يلتقي بؤس البشر ورحمة الله... بواسطة الصليب هُزِم الشرّ، وقُهر**

الموت، ونلنا الحياة، واستعدنا الرجاء، وانتشر النور. سلامٌ أيّها الصليب، أيّها الرجاء الوحيد!».

وفي أثناء القدّاس، طوّب البابا الشهيدين: الأسقف «ڤاسيل هوپكو» (Vasil Hopko) (١٩٠٤ – ١٩٧٦)، والأخت «زدينكا شيلينغوڤا» (Zdenka Shelingova) (١٩١٦ – ١٩٥٥)، اللذين لم يخشيا إعلان إيمانهما، معرّضين حياتهما للموت، فحوكما محاكمةً ظالمةً أسفرت عن إدانةٍ جائرةٍ، أفضت بهما إلى التعذيب، والإهانة، والوحدة، والموت... ولكنّ الصليب كان لهما سبيلاً إلى الحياة الحقّة، ومنبع قوّةٍ، ودليلاً على حبّ اللّه، وحبّ الإنسان.

ومن أبرز أقوال البابا، في أثناء هذه الرحلة:

«إنّ تثقيف الحرّيّة أمرٌ ملحٌّ».

«اهتمّوا بالأُسرة بعنايةٍ، فهي محراب الحبّ والحياة».

«الإنسان هو التربة التي يغرس فيها اللّه، باستمرارٍ، بذرة كلامه وحبّه».

بين ٢ و٥ تشرين الأوّل، قام رئيس أساقفة كانتربري «روان دوغلاس وليمس» (Rowan Douglas Williams)، بزيارة الڤاتيكان، وصرّح البابا، بهذه المناسبة:

«واجبنا أن نؤكّد، من جديدٍ، التزامنا بالإصغاء، بانتباهٍ واستقامةٍ، إلى صوت المسيح، كما انتهى إلينا من خلال الإنجيل، وتقليد الكنيسة الرسوليّ. وحيال تيّار العلمنة المتنامي في عالم اليوم، يتعيّن على الكنيسة أن تضمن إعلان وديعة الإيمان بكمالها، مصانةً من كلّ تأويلٍ خاطئٍ أو شاذٍّ...

«إنّ وفاءنا للمسيح يفرض علينا مواصلة البحث عن الوحدة المرئيّة، الكاملة، وإلى إيجاد الوسائل الملائمة للالتزام بالشهادة والرسالة، كلّما تيسّر ذلك.

«إنّنا نقتسم الرغبة في تعميق شراكتنا... وفي عيد القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، رسول السلام والمصالحة، الذي نحتفل به اليوم، فلنصلِّ معًا، لكي يجعلنا اللّه أدوات سلامه، فنُحلّ الغفران محلّ الجراح، ونزرع الحبّ محلّ الكراهية، ولكي يؤتي بحثنا المتواضع عن الوحدة ترسيخ الرجاء، حيث يطغى القنوط».

بين ١٥ و١٨ تشرين الأوّل، عقد البابا مجلس كرادلة، عيّن، في أثنائه،

واحدًا وثلاثين كردينالاً جديدًا، أبقى اسم أحدهم مكتومًا، وألقى خطابًا جاء فيه:

«إنّ إنسان اليوم يحتاج إلى المسيح، وإلى كلام خلاصه، فوحده الربّ يعرف أن يقدّم أجوبةً حقيقيّةً على هواجس معاصرينا، وعلى تساؤلاتهم. لقد أُرسلنا إلى العالم، جماعةً واحدةً متماسكةً، لكي نشهد، بصوتٍ واحدٍ، لشخصه وأقواله، وسرّه القدسيّ. وعلى هذه الوحدة تقوم مصداقيّتنا.

«وبقدر ما يكون عملنا حازمًا، يتألّق وجه الكنيسة مُحبّة الفقراء، البسيطة، والذائدة عن حياض الضعفاء. ولنا مثالٌ يرمز إلى هذا الموقف الإنجيليّ، في الأُمّ تيريزا الكلكتّاويّة، التي سيسعدني، غدًا، تدوين اسمها في سجلّ الطوباويّين...

«إنّ القداسة هي سرّ التبشير بالإنجيل، وسرّ كلّ تجدّدٍ راعويٍّ حقٍّ».

وردّ عليه عميد الكرادلة:

«أكثر من أيّ وقتٍ مضى، نخبر أنّ تاريخ العالم هو صراعٌ بين نوعيْن من الحبّ: حبّ الذات حتّى نبذ الله، وحبّ الله حتّى الاستعداد للتضحية بالذات في خدمته وخدمة القريب. ولئن كانت علامات اعتداد الإنسان بذاته، ونأيه عن الله قد طغت على شهادات الحبّ، فإنّنا، بفضل الله، نرى، اليوم، أنّ نور الله، في التاريخ، لم ينطفئ. فإنّ عدد القدّيسين والطوباويّين الذين رفعتَهم، أيّها الأب الأقدس، إلى أمجاد الهياكل، هو الدليل الساطع على ذلك. ويسعدنا أن نتبيّن، من خلال ذلك، نور الله في التاريخ، وانعكاس حبّه على وجه بشرٍ باركهم الله».

وفي ما يشبه بيانًا بإنجازات يوحنّا بولس الثاني، قال عميد الكرادلة:

«طيلة السنوات الخمس والعشرين من حبريّتك، لم تكفّ، أيّها الأب الأقدس، عن تشديد عزائمنا، بحضور أمّ يسوع الطافح حبًّا، وقدتنا، في فرحٍ وإيمانٍ، بشجاعة الرجاء، والاندفاع والحبّ، التي لا عهد لها بخوفٍ. وجعلتنا نشاهد نور الله، رغم كثافة السُّحُب، وحميتَنا من طغيان ضعفنا، الذي يجعلنا، بسهولةٍ، نهتف: «أغثنا يا ربّ، فإنّنا نهلك». عن كلّ ذلك نشكرك اليوم، بكلّ قلوبنا.

«إنّك، على غرار الرسل، وبصفتك حاجّ الإنجيل، انطلقت وذرعت القارّات، حاملاً بشرى المسيح، بشرى ملكوت الله، بشرى الغفران، والحبّ، والسلام. وفي كلّ وقتٍ، أذعتَ الإنجيل، بلا كللٍ، ونشرتَ نوره، وذكّرتَ كلّ فردٍ بالقِيَم الإنسانيّة الأساسيّة: أي احترام كرامة الإنسان، والذود عن الحياة، وإشاعة العدالة والسلام. وفوق كلّ شيءٍ، انطلقت للقاء الشبيبة، باثًّا نار إيمانك، وحبّك ليسوع، متأهّبًا لتكريس ذاتك له، جسدًا ونفسًا. وعُنيتَ بالمرضى والمتألّمين، وأطلقتَ صرخةً مؤثّرةً للعالم، كي تُوزَّع خيرات الأرض توزيعًا منصفًا، وكي ينعم الفقراء بالعدالة والحبّ. وأدركتَ أنّ وصيّة الربّ لتلاميذه بأن يكونوا واحدًا، هي واجبٌ مطلوبٌ منك شخصيًّا، فقمتَ بكلّ مستطاعٍ من أجل وحدة المؤمنين بالمسيح... وسعيتَ نحو أتباع دياناتٍ أُخرى، موقظًا في الجميع الرغبة في السلام، والاستعداد ليكونوا أدوات سلامٍ. وبذلك أصبحتَ للبشريّة جمعاء، في ما يتخطّى كلّ السدود والانقسامات، رسول سلامٍ عظيمًا... ومن خلال كلّ ذلك، لم تدَعْ مجالاً لتسرّب أيّ شكٍّ بأنّ المسيح هو الحبّ الذي صار بشرًا، وابن الله الوحيد، ومخلّص الجميع...».

في ذكرى تولّيه السدّة البابويّة، الخامسة والعشرين، يوم ١٠/١٦، وقّع البابا آخر إرشادٍ رسوليٍّ له بعنوان: Partores Gregis، الذي تناول فيه مهمّة «الأُسقف في الكنيسة».

تطويب الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة

ويوم ١٠/١٩، أعلن الأُمّ تيريزا الكلكتّاويّة طوباويّةً. وألقى، بهذه المناسبة، عظةً تناولت قول الربّ: «من أراد أن يكون فيكم الأوّل، فليكن للجميع خادمًا». وأكّد أنّ هذا هو السبيل إلى «العظمة» الإنجيليّة، وهذا هو المنطق الذي قاد الأُمّ تيريزا...

«إنّني، شخصيًّا، مدينٌ لهذه المرأة الشجاعة، التي لمستُ، دائمًا، حضورها إلى جانبي. إنّها إيقونة السامريّ الرحيم، التي لم تتوانَ عن المضيّ إلى كلّ مكانٍ، من

أجل خدمة المسيح في أشخاص أفقر الفقراء، ولم تفلح، في ردعها، لا الخلافات ولا الحروب.

«تذكّر الأُمّ تيريزا الجميع بأنّ رسالة الكنيسة الإنجيليّة تمرّ عبر محبّةٍ تغذّيها الصلاة، والإصغاء إلى كلام الله. إنّ الصورة التي تظهرها ممسكةً، بإحدى يديها، يد طفلٍ، وباليد الأُخرى، مسبحةً تكرّ حبّاتها، تمثّل أُسلوبها الرسوليّ.

«إنّ الأُمّ تيريزا تعلن الإنجيل، بحياتها المقدّمة بكلّيّتها للفقراء، وفي الآن عينه، المغمورة بالصلاة.

«إنّها خادمةٌ كبيرةٌ للفقراء والكنيسة وللعالم أجمع. حياتها هي شهادةٌ على كرامة الخدمة المتواضعة وتميّزها. فقد اختارت أن تكون لا الأخيرة، فحسب، بل خادمة الأخيرين. كانت أُمًّا حقيقيّةً للفقراء. وركعت أمام من كانوا يعانون مختلف أصناف الفقر. عظمتها تكمن في قدرتها على العطاء بلا حسابٍ، و«حتّى يوجع العطاء». وكانت حياتها طريقةً جذريّةً لعيش الإنجيل، ولإعلانه بجرأةٍ.

«صيحة يسوع المصلوب «أنا عطشان»، المعبّرة عن عمق عطش الله إلى الإنسان، اخترقت نفس الأُمّ تيريزا، ووجدت، في قلبها، تربةً خصبةً...

«إنّ فقرة الإنجيل القائلة: «كلّ مرّةٍ صنعتم ذلك إلى أحد هؤلاء الصغار، الذين هم إخوتي، فإليّ قد صنعتموه»، ترتدي أهمّيّةً جوهريّةً لفهم خدمة الأُمّ تيريزا للفقراء. فقد كان ذلك القول أساس قناعتها المفعمة إيمانًا بأنّها، بلمسها أجساد الفقراء المحطّمة، إنّما كانت تلمس جسد المسيح. خدمتها كانت موجّهةً ليسوع نفسه، المحتجب في آلام أفقر الفقراء، وهي تؤكّد المعنى الأعمق للخدمة: فعل الحبّ نحو كلّ جائعٍ، وعطشانٍ، وغريبٍ، وعارٍ، ومريضٍ، وسجينٍ، هو فعل حبٍّ ليسوع نفسه.

«كانت الأُمّ تيريزا تقتاد النفوس إلى الله، وتأتي بالله إلى النفوس، وتروي عطش المسيح، ولا سيّما لدى الأشدّ فقرًا، أولئك الذين حجب الألم والوجع عنهم رؤية الله...

«في أشدّ الأوقات قتامًا، كانت تتشبّث بالصلاة أمام القربان المقدّس. وقد قادها هذا العمل الروحيّ الشاقّ إلى مزيدٍ من التماهي مع الذين كانت تخدمهم كلّ يومٍ، وإلى اختبار بؤسهم وشعورهم بالنبذ. وكان يطيب لها أن تردّد أنّ الفقر الأكبر هو شعور الإنسان بأنّه غير مرغوبٍ فيه، وبأنّ لا أحد يكترث به.

«فلنكرّم هذه المرأة الصغيرة التي أحبّت الله، رسولة الإنجيل المتواضعة، المحسنة إلى البشريّة، التي لا تكلّ. إنّنا نكرّم، فيها، واحدةً من أعظم شخصيّات زماننا. فلنرحّب برسالتها، ولنقتدِ بمثالها!».

يوم ١١/١٦، في أثناء صلاة التبشير، أشار البابا إلى جدار الفصل العنصريّ، الذي كانت إسرائيل تبنيه، وقال: «إنّ الأرض المقدّسة تحتاج إلى جسورٍ، لا إلى جدرانٍ فاصلةٍ!».

وفي ١١/٢٥، أحدثت جامعة اللاتران «كرسيّ كارول ڤويتيووا» لدراسة فكره الفلسفيّ واللاهوتيّ، في خدمة الإنسان.

ويوم عيد الميلاد أطلق يوحنّا بولس الثاني هذه الصرخة: «يا يسوع، خلّصنا من الشرور الكبرى التي تمزّق البشريّة!».

عام ٢٠٠٤

كان يوحنّا بولس الثاني قد شارف غاية شوطه، وبلغ قمّة نضاله، وذروة تضحياته، ورغم وهنه المتفاقم، ما برح يجهد في استنفاد قواه حتّى القطرة الأخيرة، لكي لا يتخلّف عن أيٍّ من واجباته، ساعيًا إلى أداء مهمّاته كلّها حتّى الكمال.

غير أنّ عجزه الموجع كان يقعده عن بعض المهامّ، وتباطؤ حركته يمنعه، أحيانًا، عن أعمالٍ يرغب في الاضطلاع بها. ولا ريب أنّه كان يؤلمه الشعور بفقدان القدرة عن القيام ببعض المبادرات التي طالما سعد بأدائها، أو بأنّه يقوم بها للمرّة الأخيرة؛ ولكأنّه كان يودّع، في كلّ خطوةٍ، وكلّ لحظةٍ، رسالةً أنفق كلّ عمره في هوى خدمتها.

ولكن، رغم تلك الإعاقات الجسديّة، ما انفكّ متيقّظ الذهن، متوقّد الفكر، وقادرًا على إفادة العالم من غنى خبرته، ومن ثمار روحانيّته التي سمت به إلى قِممٍ شامخاتٍ، متمكّنًا، وفق شهادة الكردينال رتسنغر، من اتّخاذ قراراتٍ مصيريّةٍ.

وظلّت أقواله، في كلّ مناسبةٍ، نبراسًا للأجيال وهاديًا.

فبمناسبة يوم السلام العالميّ، دعا إلى أن «**تحلّ أسلحة الحوار، محلّ حوار الأسلحة**». ولا عجب إن اعتبر عميد الهيئة الدبلوماسيّة في الڤاتيكان، أنّ «**يوحنّا بولس الثاني هو رمزٌ حيٌّ للسلام الحقيقيّ**». وكان قداسته قد دعا إلى «**ثقافةٍ من أجل السلام**»، مؤكّدًا أنّ «**للمسيحيّ إعلان السلام يعني إعلان المسيح الذي هو سلامنا، وإعلان إنجيله، الذي هو إنجيل سلامٍ**».

وعن التزامه المسكونيّ صرّح: «**إنّني لعلى يقينٍ بأنّه لو تمكّن المسيحيّون من تخطّي خلافاتهم، لأضحى العالم أكثر تضامنًا. نحن، المسيحيّين، مسؤولون عن «إنجيل السلام»؛ وبوسعنا، متضافرين، الإسهام إسهامًا مجديًا، في تحقيق احترام الحياة، والحفاظ على كرامة الشخص البشريّ، وعلى حقوقه التي لا يجوز استلابها منه، وعلى العدالة الاجتماعيّة، وحماية البيئة.**

«**وفضلاً عن ذلك، إنّ ممارسة أُسلوب حياةٍ إنجيليٍّ، يمكّن المسيحيّين من مساعدة إخوتهم في الإنسانيّة على تجاوز غرائزهم، وعلى القيام بمبادرات تفاهمٍ وصفحٍ، وغوث المحتاجين. ولا ريب أنّه لم يتمّ حتّى الآن تقدير مدى تأثير المسيحيّين المتّحدين على إحلال السلام، وسط جماعتهم الخاصّة، ووسط المجتمع المدنيّ.**

«**في عالمٍ متعطّشٍ إلى السلام، ثمّة حاجةٌ ملحّةٌ إلى أن يعلن المسيحيّون، الإنجيل، بالإجماع، ولا بدّ لهم من أن يشهدوا معًا للحبّ الإلهيّ الذي يجمعهم، لكي يؤتوا الفرح والرجاء والسلام، ويصبحوا خميرة بشريّةٍ جديدةٍ...**

«**أجل، ينبغي أن نجد في ذواتنا جرأة السلام، وأن نلتمس من العليّ نعمة السلام. وسيتفشّى السلام مثل الزيت الذي يليّن، إن نحن انتهجنا، بلا هوادةٍ، سبيل المصالحة، وستصبح الصحراء حديقة عدالةٍ تثمر سلامًا**».

ولأعضاء محكمة «الروتا»، في الڤاتيكان، المكلّفة بفصل قضايا الزواج، أوضح: «**إنّ الزواج، غير القابل للانحلال، هو رباط حقٍّ وحبٍّ، رُقّي إلى كرامة سرٍّ مقدّس**».

ولأساقفةٍ فرنسيّين أوصى: «**ادعموا علمانيّيكم**».

وعن مزار «لورد» المريميّ قال: «**إنّه قلعة الحياة والرجاء**»، و«**الحبل بلا دنسٍ**

هو انتصار الحياة على الموت، وانتصار الخلاص على كلّ العلل». وقد أوكل كلّ المتألّمين إلى مريم.

وعن أوروبّا، قال: «**إنّها مختبر قِيَمٍ صاغها لقاء الإنجيل بالحضارات**».

وقد جاء في رسالةٍ وجّهها إلى مؤتمر مجمع العقيدة والإيمان، حول «كرامة وحقوق الشخص المصاب بإعاقةٍ ذهنيّةٍ»:

«**إنّ الشخص المعاق، عندما يبدو مجروحًا في روحه، وفي طاقاته الحسّيّة والذهنيّة، هو كائنٌ بشريٌّ بالكامل، ويملك حقوقًا مقدّسةً لا يجوز استلابها منه، شأنه شأن كلّ مخلوقٍ بشريٍّ. فالكائن البشريّ، بصرف النظر عن ظروف حياته، وعن قدراته، يملك كرامةً خاصّةً، منذ بدء وجوده حتّى موته الطبيعيّ. إنّ حامل الإعاقة نفسه، مع كلّ الحدود والآلام التي يتّسم بها، يجبرنا على التساؤل، باحترامٍ وحكمةٍ، عن سرّ الإنسان. فكلّما أمعنّا في تأمّل مواطن الواقع البشريّ، المظلمةً والمجهولة، أدركنا، على نحوٍ أفضل، أنّ كرامة وعظمة الكائن البشريّ تتجلّيان خير تجلٍّ في الحالات الصعبة والمقلقة.**

«**إنّ البشريّة الجريحة في الشخص المعاق، تدعونا إلى الاعتراف بقيمة الكائن البشريّ الفائقة، وإلى تقبّلها وتنميتها في كلٍّ من إخوتنا وأخواتنا المعاقين، لأنّ اللّه خلقهم لكي يكونوا له أبناء، من خلال ابنه.**

«**وإنّما صفة الحياة في قلب الجماعة، تقاس، إلى حدٍّ كبيرٍ، بالالتزام بمساعدة الأكثر وهنًا، والأكثر عوزًا، وفي احترام كرامتهم الإنسانيّة. وإنّما نحن، عندما نعترف بكرامة الإنسان المعاق، ونسهم بتنميتها، نعترف بكرامة حقوقنا جميعًا، وحقوق كلّ فردٍ منّا، وننمّيها**».

ولدى استقباله أعضاء مجمع العقيدة والإيمان، يوم ٦ شباط، قال:

«**إنّ الوضع الثقافيّ الراهن يقتضي زخمًا تبشيريًّا بالإنجيل، وإعلانًا جريئًا للحقائق التي تخلّص الإنسان**».

وفي اليوم التالي، استقبل أعضاء وأصدقاء جماعة «القدّيس إيجيديو»، وصرّح:

«**الفقراء هم، أيضًا، «معلّمونا»، فهم يجعلوننا ندرك أنّنا، جميعنا، أمام اللّه، متسوّلو حبٍّ وخلاصٍ**».

ويوم ١٣ شباط دعا أساقفةً فرنسيّين زاروه، إلى مواكبة الشبيبة روحيًّا، وقال:

«**تتطلّع الشبيبة إلى العيش في جماعاتٍ تلقى فيها الاعتراف والحبّ. فما من فتًى يستطيع الحياة، أو بناء ذاته، بلا حبٍّ، وبمنأًى عن نظرة عطفٍ يلقيها عليه الكبار. هذا هو معنى الرسالة التربويّة...**».

ودعاهم إلى العناية بتثقيف الأهالي، ومعلّمي الدين المسيحيّ، على التوغّل في صميم الإيمان الذي يتعيّن عليهم تلقينه.

ويوم ٣/٢٠، في أثناء زيارته إلى رعايا إيطاليّةٍ، ناشد الشبيبة:

«**اجعلوا من الصليب مرجعكم الأساسيّ، وانهلوا من المسيح المصلوب والقائم من الموت جرأة تبشير عالمنا الذي تمزّقه شرّ تمزيقٍ، الشقاقات، والكراهية، والحروب، والإرهاب، والغنيّ، مع ذلك، بموارد بشريّةٍ وروحيّةٍ وفيرةٍ**».

في السادس من آذار، عيّن السيّدة ميري آنّ غليندن» (Mary-Ann Glenden)، أستاذة الحقوق في جامعة هارڤارد الأميركيّة، رئيسةً للأكّاديميّة الحبريّة للخدمات الاجتماعيّة، والأخت «ساره بوتلر» (Sr. Sara BUTLER)، أُستاذة لاهوتٍ في جامعة شيكاغو.

وفي أثناء تلاوته المسبحة، مع طلاّب عشر جامعاتٍ أوروپّيّاتٍ، يوم ١٣ آذار، صرّح: «**المسيح رجاءٌ لأوروپّا**».

وبمناسبة التاسع عشر من آذار، قدّم خاتمه البابويّ لدير كرمليّاتٍ في قريته الپولونيّة ڤادوڤيتس»، تكريمًا للقدّيس يوسف.

واستمرّ يعلن طوباويّين وقدّيسين جُددًا. وأثناء لقائه إكليروس روما، يوم ٢٦ شباط، دعاهم إلى «إعلان الحقيقة والشهادة لها، وللحبّ في الزواج المسيحيّ»، واختزل هذا الزواج بأنّه «حبٌّ ومسؤوليّةٌ».

وبمناسبة بدء الصوم، دعا إلى التصعيد في الدرب الوعر الذي يقود إلى القداسة.

ودعا شبيبة العالم التي ستحتفل بأيّامها العالميّة في كلّ بقاع العالم، يوم **٤/٤/٢٠٠٤**، إلى تبنّي شعار «**نريد أن نرى يسوع**».

يوم **٢٤** آذار، منحته مدينة «إكس لاشاپيل» (Aix-la-Chappelle) جائزة «شارلمانيي» (Charlemagne) الدوليّة، «اعترافًا بالتزام البابا الشخصيّ، والتزام الكرسيّ الرسوليّ، لصالح وحدة شعوب أوروبّا، على أساس القِيَم المتجذّرة في الطبيعة البشريّة، والتي نمّتها المسيحيّة، بنجاعة». وبهذه المناسبة أفصح يوحنّا بولس الثاني عن أوروبّا التي يتطلّع إليها، ويتمنّاها. فهي:

«أوروبّا محرّرةٌ من التعصّب الوطنيّ الأنانيّ، حيثُ تُعَدّ الأُمَم مراكز حيّةً لثقافةٍ غنيّةٍ، تستأهل الحماية والتنمية، لمصلحة الجميع.

«أوروبّا حيث إنجازات العلم والاقتصاد والرفاهية، ليست موجّهةً نحو استهلاكٍ فرديٍّ لا معنى له، ولكنّها موظّفةٌ لخدمة كلّ إنسانٍ معوزٍ، ولمساعدةٍ متضامنةٍ مع البلدان الباحثة عن أمانٍ اجتماعيٍّ. فعسى أن تصبح أوروبّا التي طالما عانت، خلال تاريخها، حروبًا داميةً، عاملاً فاعلاً في إحلال سلام العالم.

«أوروبّا تقوم وحدتها على الحرّيّة. إنّ حرّيّة الدين والحرّيّات الاجتماعيّة، تنضج مثل ثمارٍ ثمينةٍ في تربة المسيحيّة. فما من مسؤوليّةٍ، بمعزلٍ عن الحرّيّة، لا أمام الله، ولا أمام البشر...

«أوروبّا متّحدةٌ، بفضل التزام شبيبتها. فالشباب يتفاهمون، بسهولةٍ، في ما بينهم، متخطّين الحدود الجغرافيّة. ولكن كيف لجيلٍ من الشباب، منفتحٍ على ما هو حقيقيٌّ، وجميلٌ، ونبيلٌ، وجديرٌ بالتضحية، أن يولَدَ في أوروبّا، حيثُ لم تعد الأُسرة تمثّل مؤسّسةً منفتحةً على الحياة والحبّ، وحيث لم يعُد المسنّون جزءًا أساسيًّا من الأُسرة، يورّثون القِيَم، ومعنى الحياة، توريثًا حيًّا؟

«أوروبّا، التي أتصوّرها، هي وحدةٌ سياسيّةٌ، ولكنّها، أكثر من ذلك، وحدةٌ روحيّةٌ، حيث السياسيّون المسيحيّون يعملون، وهم واعون للثروات البشريّة التي يحملها الإيمان: رجالٍ ونساءٍ ملتزمين بتثمير هذه القِيَم، ووواقفين ذواتهم على خدمة الجميع، من أجل أوروبّا الإنسان حيث يشعّ وجه الله.

«ذلكم هو الحلم الذي أحمله في قلبي، وأودّ، بهذه المناسبة، أن أوكله لكم، وللأجيال القادمة».

واستمرّ الأب الأقدس يغدق نصائحه على شتّى الفئات. فللأساقفة الأوستراليّين أوعز: «**قودوا الرجال والنساء بعيدًا عن الفوضى الأخلاقيّة، نحو بهاء الحقيقة، وحبّ المسيح**».

وللشبيبة، يوم أحد الشعانين، في الرابع من نيسان، قال: «**اجعلوا قوّة إيمانكم تسطع في العالم**». وذكّرهم بما كان قد سبق له أن أوصاهم به: «**أُوكل إليكم صليب المسيح! احملوه في العالم، علامةً على حبّ الربّ يسوع للبشريّة، وأعلنوا للجميع أنّ الخلاص والفداء لا يكمنان إلاّ في المسيح الذي مات وقام**».

وفي يوم الخميس المقدّس، ووفقًا لما درج عليه، مدى سنواتٍ، بعث برسالةٍ إلى كهنة العالم. وشارك في رتبة درب الصليب في الكوليزيوم، ولكنّه ظلّ جالسًا. ومنح بركته للمدينة وللعالم، يوم الفصح، ٤/١١، داعيًا إلى «**بناء عالمٍ جديدٍ، بالثقة**».

بمناسبة أحد الرحمة الإلهيّة، ٤/١٨، طلب البابا الغفران لعالمٍ أثبت أنّه أكثر عنفًا من أيّ زمنٍ. وفي الأحد الذي تلاه أعلن ستّة طوباويّين جددٍ.

ويوم الأحد الواقع في الثاني من أيّار، رسم ستّةً وعشرين كاهنًا، وكانت تلك رتبة الرسامة الأخيرة التي يضطلع بها.

وفي أثناء صلاة ملكة السماء، أعلن: «**لا يمكن لوحدة أوروپّا أن تكون اقتصاديّةً وسياسيّةً فحسب... ستظلّ روح أوروپّا متّحدةً، طالما بقيت القِيَم الإنسانيّة والمسيحيّة المشتركة هي مرجعها. وستبقى هوّيتها غير مفهومةٍ، بمعزلٍ عن المسيحيّة**».

وقد استجاب لهذه الدعوة أكثر من عشرة آلاف مسيحيٍّ، من آفاقٍ مختلفةٍ، تظاهروا في مدينة شتتغارت الألمانيّة، وقد انضمّ إلى صفوفهم ملكة بلجيكا «فابيولا»، وسياسيّون كثُرٌ، منهم «رومانو پرودي» رئيس وزراء إيطاليا، ورئيس الاتّحاد الأوروپّيّ السابق. وكانوا قد جمعوا أكثر من مليون توقيعٍ مؤيّدةٍ لدعوة البابا، ومؤمنةٍ بأنّ «**أوروپّا ستكون روحيّةً أو لن تكون**».

في مطلع شهر أيّار، المكرّس لتكريم العذراء، قال:

«وهو على الصليب ابتغى يسوع أن يعمّم أمومة مريم الروحيّة، بطريقةٍ سهلة المنال، فوهبها تلميذه الحبيب، ابنًا، ومنذئذٍ غدت أجيالٌ متتاليةٌ من المؤمنين تتوسّلها، وتلجأ إليها بحبٍّ ورجاءٍ. والعذراء تعبّر عن أمومتها بقربها الوثيق من الإنسان ومن كلّ حياته.

«آه! لو استطاع البشر تقدير هذه الهبة الفائقة، وإذن، لسهُل عليهم تحسُّس علاقات الأخوّة التي تجمعهم، والإقلاع عن البغض والعنف، وإشراع قلوبهم على غفران الإهانات التي يتلقّونها، وعلى احترام «كرامة كلّ إنسانٍ، بلا تحفّظٍ»».

وفي رسالةٍ كان قدّ وجّهها، بتاريخ **٢٠٠٤/٤/٢٩** إلى مؤتمرٍ يعالج قضايا العولمة، قال:

«يبقى التحدّي الأكبر هو إيجاد عولمة تضامنٍ، تتبيّن أسباب اختلال التوازنات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وتتصوّر وسائل عملٍ تسعى إلى أن توفّر للجميع مستقبلاً يسوده التضامن والرجاء. ولا بدّ من أن تحدو المبادئ الأخلاقيّة الأساسيّة، عمليّة العولمة الجارية، وتطلّعٌ إلى إنماءٍ شاملٍ يطال كلّ إنسانٍ، والإنسان كلّه. وينبغي أن تُثقَّف الضمائر على مفهومٍ رفيعٍ للمسؤوليّة، وعلى اهتمامٍ بخير البشريّة جمعاء، وبخير كلٍّ من مكوّناتها».

في السادس عشر من شهر أيّار، أعلن البابا قداسة ستّة مطوّبين، منهم الراهب اللبنانيّ نعمة الله الحردينيّ، وطبيبةٌ إيطاليّةٌ خاطرت بحياتها إنقاذًا لجنينها. وبذلك بلغ عدد الذين أعلن قداستهم منذ تولّيه السلطة البابويّة، **٤٨٣** قدّيسًا.

وعن القدّيس نعمة الله كسّاب الحردينيّ قال:

«كان رجل صلاةٍ، عاشقًا للإفخارستيّا، التي كان يطيب له الإغراق في عبادتها. وكان قدوةً للرهبان اللبنانيّين الموارنة، ولإخوته اللبنانيّين ولجميع مسيحيّي العالم. لقد وهب ذاته، كلّيّةً للربّ، في حياة تجرّدٍ تامٍّ، مظهرًا أنّ حبّ الله هو النبع الحقيقيّ الأوحد لفرح الإنسان وسعادته. ودأب على نشدان المسيح معلّمه وربّه، وعلى اتّباعه.

«وكان عطوفًا بإخوته، وشفى العديد من الجراح في قلوب معاصريه، وكان لهم شاهدًا على رحمة الله. فعسى أن يضيء مثاله طريقنا، وأن يثير لدى الشبيبة، خاصّةً، رغبةً حقيقيّةً في الله وفي القداسة، من أجل إعلان نور الإنجيل لعالمنا».

وبمناسبة بلوغه الرابعة والثمانين من العمر، صدر كتابٌ ضمّ مجموعةً من أحاديثه وكتاباته، بعنوان «انهضوا، فلننطلق!».

في الرابع من حزيران، عُرِض، للمرّة الأولى، في مزار «هنستوكوڤا» الپولونيّ، زنّار البابا الأبيض، المضرّج بدمه، إثر محاولة اغتياله، يوم ١٣/٥/١٩٨١.

وبين الخامس والسادس من حزيران، قام يوحنّا بولس الثاني برحلته الرسوليّة الثالثة بعد المئة، إلى العاصمة السويسريّة «بيرن»، من أجل رعاية تجمّع الشبيبة السويسريّة الوطنيّ الأوّل، تحت شعار: «انهض، أصغِ، وانطلق!».

الرحلة الرسوليّة الثالثة بعد المئة إلى سويسرا

كان التنقّل قد أضحى ليوحنّا بولس الثاني جلجلةً حقيقيّةً، ومصدر آلامٍ وإحراجٍ، إذ كان عليه، غالبًا، التنقّل على كرسيٍّ بعجلاتٍ.

ومع ذلك، لم يكن يتوانى عن الاضطلاع بالقليل من الرحلات التي تدفعه إليها غيرته الرسوليّة. وأمسى صوته خافتًا مبهمًا، وارتدى وجهه قناعًا قاسيًا من الألم، وشخصت أبصاره إلى آفاقٍ قصيّةٍ.

صباح الخامس من حزيران، وصل البابا إلى العاصمة السويسريّة «بيرن». واستقبلته في المطار السلطات الدينيّة، والسياسيّة، والمدنيّة. وردّ على ترحيب رئيس الاتّحاد السويسريّ، بخطابٍ باللغات الثلاث: الألمانيّة، والفرنسيّة، والإيطاليّة. وقد وصف سويسرا بأنّها ملتقى لغاتٍ وثقافاتٍ، ووصف الشعب السويسريّ بأنّه محافظٌ على تقاليد عريقةٍ، وفي الآن عينه منفتحٌ على الحداثة، وأعلن: «**إنّ واجب إعلان الإنجيل، وتقديمه مجدّدًا لرجال ونساء الألفيّة الثالثة، وبخاصّةٍ للأجيال الجديدة، هو الذي يدفعني على دروب العالم. إنّ المسيح هو فادي الإنسان. ومن يؤمن به ويتبعه، يصبح باني حضارة الحبّ والسلام**».

وأكّد البابا أنّ غاية زيارته هي لقاء الشبيبة الكاثوليكيّة في سويسرا. وقد تمّ اللقاء، فعلاً، مساء ذلك اليوم عينه. فبثّهم ما كان يخفق قلبه به من حبٍّ

وغيرةٍ، وذكّرهم بما ينطوي عليه عمرهم من غواياتٍ، ومخاطر، وطاقاتٍ وآفاقٍ رائعةٍ. وقد تمحور خطابه حول قول يسوع لابن أرملة «نائين»، الشابّ المتوفّى: «انهض». فقال:

«اليوم أيضًا، قد يتّفق لكم أن تنضووا إلى موكبٍ جنائزيٍّ. وذلك يحدث لكم عندما تستسلمون لليأس، وعندما يغويكم سراب مجتمع الاستهلاك، ويصرفكم عن الفرح الحقيقيّ، وتستحوذ عليكم الملذّات العابرة، وعندما تحيق بكم اللامبالاة والسطحيّة؛ وعندما ينتابكم الشكّ بحضور اللّه وحبّه لكلّ إنسانٍ، حيال مشاهد الشرّ والآلام، وعندما تنشدون، في متاهة عواطف مضطربةٍ، إرواء عطشٍ داخليٍّ إلى حبٍّ صادقٍ طاهرٍ.

«في هذه اللحظات بالذات، يقترب المسيح من كلٍّ منكم، مثلما اقترب من شابّ «نائين»، ويوجّه لكم القول الذي يصدم ويوقظ: «انهض»، «تقبّل الدعوة إلى الوقوف».

«وهذه ليست مجرّد أقوالٍ. بل يسوع، كلمة اللّه الذي صار بشرًا، هو الذي يقف أمامكم. إنّه «النور الحقيقيّ الذي ينير كلّ إنسانٍ»، إنّه الحقّ الذي يحرّر، إنّه الحياة التي يغدقها اللّه علينا بغزارةٍ. فالمسيحيّة ليست مجرّد كتاب ثقافةٍ، أو إيديولوجيا، أو مبادئ قد تكون بالغة السموّ. بل المسيحيّة شخصٌ، حضورٌ، وجهٌ، المسيحيّة هي يسوع الذي يضفي معنًى وامتلاءً على حياة الإنسان.

«وأنا أقول لكم: «لا تخافوا من لقاء يسوع!». ابحثوا عنه باهتمامٍ وجاهزيّةٍ بمطالعة الكتاب المقدّس، بالصلاة الشخصيّة والجماعيّة، بالمشاركة النشيطة في الإفخارستيّا، وفي سرّ المصالحة، في الخدمات الكنسيّة، والحركات المسيحيّة، وفي وجه إخوتكم المتألّمين، والمحتاجين، والغرباء.

«إنّ زمن الشباب هو المرحلة التي تتساءل فيها، أنت أيضًا، أيّها الشابّ، عمّا تفعل بالحياة، وكيف تسهم في جعل العالم أفضل حالاً، وكيف تنمّي العدالة، وتبني السلام.

«ولذلك دعوتي الثانية هي «أصغِ»، بلا كللٍ، لصوت الربّ الذي يكلّمك عبر الأحداث اليوميّة، وما يواكبها من أفراحٍ، وآلامٍ، وعبر القريبين منك، وعبر صوت الضمير المتعطّش إلى الحقيقة، والسعادة، والطيبة، والجمال.

«وإن أحسنت فتح قلبك وفكرك، وكنت جاهزًا، فستكتشف دعوتك، والمشروع الذي أعدّه لك الله، في حبّه، منذ الأزل...

«ودعوتي الثالثة لك، أيّها الشابّ: «انطلق!». لا تكتفِ بالنقاش. ومن أجل فعل الخير، لا تنتظر الفُرَص المؤاتية، التي قد لا تظهر أبدًا. لقد حان وقت العمل...

«في مطلع هذه الألفيّة الثالثة، أنتم أيضًا، أيّها الشباب، مدعوّون إلى إعلان رسالة الإنجيل، بشهادة حياتكم. إنّ الكنيسة بحاجةٍ إلى طاقاتكم، واندفاعكم، ومُثُلكم الشابّة، لكي يخترق الإنجيل نسيج المجتمع، ويولّد حضارة عدلٍ حقٍّ، وحبٍّ بلا تمييز. اليوم، أكثر من أيّ وقتٍ، في عالمٍ يفتقر، غالبًا إلى النور، ويتخاذل دون المُثُلِ العليا النبيلة، ليس الزمن زمن استحياءٍ بالإنجيل. بل قد حان الوقت لإعلانه من فوق الأسطحة...

«فأيّها الشباب السويسريّون، انطلقوا والمسيح رفيق دربكم، حاملين في أيديكم الصليب، وعلى شفاهكم كلمات الحياة، وفي قلبكم نعمة الربّ القائم من الموت المخلّصة.

«المسيح هو الذي يكلّمكم. فأصغوا إليه».

وانتهز يوحنّا بولس الثاني زيارته هذه إلى سويسرا، كي يلتقي، بعد ظهر الأحد، ٦/٦، قدامى الحرس السويسريّ، المكلّفين بالحراسة في الڤاتيكان، مع أُسرهم، وشكر لهم كلّ ما برهنوا عنه من وفاءٍ، كما أنّه حضر قَسَم يمين دفعةٍ جديدةٍ منهم، ووصفهم بأنّهم ورثة خمس مئة سنةٍ من التاريخ.

وكان، قبل ظهر ذلك اليوم، الذي يُحتفَل فيه بتكريم الثالوث الأقدس، قد ألقى موعظةً أثناء القدّاس، دعا فيها إلى وحدة المسيحيّين، على غرار وحدة الثالوث الأقدس، وبيّن أنّ شرط تحقيق هذه الوحدة هو «**التطهّر المستمرّ من سموم الأنانيّة التي تولّد الحسد، وانعدام الثقة، والانعزاليّة، والمعارضات الوبيلة**».

وتعليقًا على قول الربّ: «أنا الطريق والحقيقة والحياة»، قال: «**إنّ التساؤل الصحيح ليس «ما هي الحقيقة؟» بل «من هو الحقيقة؟»**، وهتف: «**لا يسعنا أن نصمت، بل فلنعلن: الحقيقة هي يسوع المسيح!»، وليشهد المسيحيّون لهذه الحقيقة، لا بأقوالهم فحسب، بل بحياتهم! ولذلك، لا بدّ من تنشئة أجيالٍ جديدةٍ من المرسلين**».

وفي العاشر من حزيران، اشترك للمرّة الأخيرة بتطواف «جسد الربّ» في روما، وأعلن «**سنةً إفخارستيّةً استثنائيّةً**»، وأكّد: «**الإفخارستيّا ماثلةٌ في صميم حياة الكنيسة**».

وقد أعلن، بهذه المناسبة: «**ثمّة علاقةٌ وثيقةٌ جدًّا بين «الاحتفال بالإفخارستيّا» و«إعلان المسيح». فالتواصل مع يسوع من خلال ذكرى الفصح، يعني، في الآن عينه، أن نصبح مبشّرين بالحدث الذي تُجدّد ذكرَه هذه الرتبة الكنسيّة، وتجعله معاصرًا لكلّ حقبةٍ**».

وأسف البابا بسبب إغفال بيان مجموعة الخمسة والعشرين الأوروبّيّة، ذكر جذور أوروبّا المسيحيّة، في حين أثلج هذا الإغفال صدر المسؤولين الأتراك التوّاقين إلى الانضمام إلى الاتّحاد الأوروبّيّ. ولكنّه، بالمقابل، سعد باجتياز خطوةٍ جديدةٍ هامّةٍ على درب وحدة المسيحيّين، تمثّلت في الزيارة التي قام بها إلى الڤاتيكان البطريرك الأرثوذكسيّ المسكونيّ، برتلماوس الأوّل، بمناسبة الذكرى الأربعين للّقاء المسكونيّ الذي جرى، قبل أربعين سنةً، في القدس، بين البابا بولس السادس والبطريرك أثيناغوراس. وقد انتهى هذا اللقاء بتوقيع بيانٍ مشتركٍ بين الجانبين. وقد صرّح البابا، عقب هذا اللقاء: «**لا رجوع عن التزام الكنيسة الكاثوليكيّة بالوحدة المسكونيّة، التي أقرّها المجمع الڤاتيكانيّ الثاني**». وتدليلاً على هذا التصميم، ورغم معارضة بطريرك روسيّا، ألكسي، لزيارة البابا لروسيّا، أعاد يوحنّا بولس الثاني إيقونة «سيّدة قازان» إلى الكنيسة الروسيّة.

وبمناسبة زيارة البطريرك برتلماوس الأوّل هذه، وضع يوحنّا بولس الثاني بتصرّف الكنيسة الأرثوذكسيّة، كنيسة القدّيس ثيودورُس، في روما، التي يعود تاريخ بنائها إلى أواسط القرن السادس، وذلك وفاءً لوعدٍ كان قد قطعه البابا بولس السادس للبطريرك أثيناغوراس.

في الخامس من شهر تمّوز، باشر البابا آخر فترة نقاهةٍ صيفيّةٍ له في «ڤال داوستي» (Val d'Aoste). ولكن كانت تحزنه أنباء التعدّيات على الكنائس في العراق.

الرحلة الرسوليّة الأخيرة إلى لورد

وبما أنّ كلّ شيءٍ عنده كان يبدأ وينتهي بالعذراء مريم، فقد استخدم يوحنّا بولس الثاني آخر رمقٍ من قواه، لكي يقوم برحلته الرابعة بعد المئة، والأخيرة في هذا العالم، والتي أخذته، يومي **١٤** و**١٥** آبٍ إلى لورد، في زيارة شكرٍ ووداعٍ إلى سيّدة الحبل بلا دنسٍ. وقد أظهر هذا الحجّ للعالم بدء احتضار يوحنّا بولس الثاني.

وصل قداسته إلى مطار «تارب لورد»، ظهر يوم السبت **١٤** آبٍ، وكان في استقباله، إلى جانب رهطٍ من الكرادلة والأساقفة، الرئيس الفرنسيّ جاك شيراك، الذي قال له في كلمة الترحيب: «بصفتكم حاجًّا لا عهد له بكللٍ، إنّكم تجسّدون كفاحاتٍ جمّةً، كما تجسّدون الجرأة والقوّة التي تجعل منكم، أيّها الأب الأقدس، راعيًا شاملاً ورجل سلامٍ...».

وقد ردّ الحبر الأعظم موضحًا: «**إنّ سبب مجيئي إلى لورد هو الاحتفال بمرور مئةٍ وخمسين سنةً على إعلان عقيدة الحبل بمريم العذراء، بلا دنس. وبمبادرةٍ شخصيّةٍ، رغبت في الاتّحاد بملايين الحجّاج الذي يتوافدون إلى لورد، كلّ سنةٍ، من كلّ جهات العالم، كي يوكلوا إلى أمّ الربّ نوايا قلوبهم، ويلتمسوا عونها وشفاعتها**».

ثمّ شخص إلى مغارة الظهور، وبعد أن استغرق في صلاةٍ خاشعةٍ، صامتةٍ، أعلن: «**بركوعي هنا قرب مغارة مسّابييل، ينتابني شعورٌ مؤثّرٌ بأنّني بلغت غاية شوط حجّي الأرضيّ...**

«**هنا علّمت السيّدة العذراء بيرناديت سوبيرو تلاوة الورديّة... وبذلك أضحت هذه المغارة مدرسة صلاةٍ مدهشةً، حيث تعلّمنا مريم جميعًا أن نتأمّل، بحبٍّ مضطرمٍ، وجه يسوع...**».

ثمّ قاد البابا تلاوة مسبحة الأسرار المضيئة، التي يعود إليه فضل إضافتها إلى أسرار المسبحة الورديّة، مستهلاًّ كلّ بيتٍ بدعاء إلى العذراء التي سمّاها، على التوالي: «**المرأة الفقيرة والمتواضعة التي باركها العليّ**»، و«**خادمة الربّ المتواضعة،**

أُمّ المسيح المجيدة» و«**امرأة الألم وأمّ الأحياء**»، و«**امرأة الإيمان، الأولى بين التلاميذ**»، و«**القدّيسة مريم، أمّ المؤمنين**».

وعند مطلع بيت المسبحة الثالث، هتف السيّد «جان ڤانييه»، الذي كان قد انضمّ إلى تلك الرحلة، في اندفاع حبٍّ وعرفان جميلٍ: «**نشكرك، يا يسوع، من أجل أبينا الأقدس، الذي، في وهنه الجسديّ، يعلن مجد الله، وفي فقره يعلن حبّ يسوع. إنّنا نشكرك، يا يسوع، من أجل وجود أبينا الأقدس، في قلب الكنيسة**».

وبعد الفراغ من تلاوة المسبحة، قدّم الحبر الأعظم، «الوردة الذهبيّة، لتمثال سيّدة لورد، وبغتةً، خارت قواه، ولو لم يتداركه أمين سرّه، الذي هرع إلى مساندته، لهوى من مركعه، أرضًا.

ولاحقًا، علّق عمدة لورد على هذا الحجّ بقوله: «هل كان إنسانًا ذاك الذي حلّ بين ظهرانينا، أثناء رحلته الأخيرة في عالم الأحياء؟ أم إنّه انتقل إلى الأبديّة، حيث سجّل تاريخ الكنيسة؟ كان المرض قد أحنى ظهر الإنسان فيه، ولكنّ الكاهن فيه ما زال مستقيمًا، في إيمانٍ لا يتزعزع. ولا ريب أنّ ذلك هو الذي أدهش العالم. فحتّى عندما تنتابنا أفدَح عِلَل الأرض، لا ننفكّ نحمل رجاءً جمًّا يسمو بنا فوق الأرض».

ثمّ استقى البابا من ماء نبع لورد، أُسوةً بجميع الحجّاج، وتلا صلاة التبشير مع المرضى أمام المغارة، ووجّه لهم الكلمات التالية:

«**أودّ أن أوجّه تحيّتي الأولى إلى المرضى الذين يتوافدون إلى هذا المزار بأعدادٍ تتنامى باطّرادٍ، وإلى مرافقيهم، وإلى من يعنون بهم، وإلى أُسَرهم.**

«**أنا معكم أيّها الإخوة والأخوات، حاجًّا إلى العذراء، وإنّي أتبنّى صلواتكم ورجاءكم، وأُقاسمكم فترة حياةٍ طبعها الألم الجسديّ، ولكنّه لم ينلْ من خصبها الذي تؤتيه مرامي الله الرائعة.**

«**لقد اعتمدتُ، من أجل خدمتي الرسوليّة، اعتمادًا كبيرًا على التقدمة، في صلاة المتألّمين وتضحياتهم. وأرجوكم أن تتّحدوا معي، خلال هذا الحجّ، كي نقدّم معًا، بشفاعة مريم العذراء، كلّ نوايا الكنيسة والعالم.**

«إخوتي وأخواتي المرضى، أودّ أن أضمّكم بين ذراعيّ، فردًا فردًا، بمحبّةٍ، وأؤكّد لكم كم أنا قريبٌ منكم، ومتضامنٌ معكم! وهذا ما أفعله روحيًّا، موكلاً إيّاكم إلى حبّ أمّ الربّ الأموميّ، سائلاً إيّاها أن تحصل لكم على بركات ابنها يسوع وتعزياته».

وفي المساء قبل التطواف المألوف بالشموع في الساحة الفسيحة الممتدّة أمام المغارة، خاطب الأب الأقدس الحجّاج قائلاً:

«عندما ظهرت السيّدة العذراء لبيرناديت سوبيرو، في مغارة مسّابييل، استهلّت حوارًا بين السماء والأرض، تمادى في الزمن، وما زال مستمرًّا. وقد طلبت العذراء أن يُؤتى إلى هنا في تطوافٍ، ولكأنّها تعني أنّ الحوار لا يمكن أن يقتصر على أقوالٍ، بل ينبغي أن يُترجم من خلال مسيرةٍ معها، في حجّ إيمانٍ، ورجاءٍ، وحبٍّ».

وطلب البابا من الحجّاج أن يشاركوه التماس العذراء، كي تحصل للعالم على نعمة السلام الذي طال انتظاره، و**«لكي يرى كلّ إنسانٍ في الآخر، لا عدوًّا تتعيّن محاربته، بل أخًا يجب الترحيب به وحبّه، من أجل بناء عالمٍ أفضل»**.

وفي صباح اليوم التالي، الأحد ١٥ آب، الذي يُحتفَل فيه بعيد انتقال العذراء إلى السماء، شارك قداسته في قدّاسٍ أُقيم في الهواء الطلق، وحضره زهاء ثلاث مئة ألف مؤمنٍ. وفي عظته وصف الحبل بالعذراء بلا دنسٍ، **«حدثًا ما زال يمجّد الثالوث الواحد، وغير المنقسم. فهو دليلٌ على حبّ الله الآب المجّانيّ، وتعبيرٌ كاملٌ عن الفداء الذي حقّقه الابن، وبدء حياةٍ جاهزةٍ كلّيًّا لعمل الروح القدس»**.

وعن زيارة العذراء لنسيبتها إليصابات، قال:

«ما يؤثّر فينا، لدى مريم، في المقام الأوّل، هو اهتمامها المفعم رقّةً، حيال نسيبتها المسنّة. إنّه حبٌّ حسّيٌّ لا يقتصر على الأقوال، بل يلتزم، شخصيًّا بخدمةٍ حقيقيّةٍ. فالعذراء لم تعطِ نسيبتها، فقط، شيئًا يخصّها، بل إنّها أعطت ذاتها، بلا مقابل. فقد أدركت، إدراكًا كاملاً، أنّ امتياز النعمة التي نالتها من الله، هي واجبٌ يَلزمها حيال الآخرين، في المجّانيّة التي تميّز الحبّ».

وبعد أن تحدّث عن «تمجيدة» العذراء لله، التي أكّدت، بها، ثقتها المطلقة في مواعيد الله، ثقةً غمرتها فرحًا، أشار إلى أنّ الصمت المطبق قد عَقِب

التمجيدة. وخلُص إلى القول إنّ العذراء، بكلّ وجودها، تثبت أنّ الكلمة الأخيرة ليست للشرّ والموت، بل إنّها تشهد لانتصار يسوع. وأردف:

«**من مغارة مسّابييل تحدّثنا العذراء المنزّهة من الدنس، نحن، أيضًا، مسيحيّي الألفيّة الثالثة. فلنصغِ إليها. أصغوا، أوّلاً، أنتم، أيّها الشباب، الباحثون عن جوابٍ كفيلٍ بإسباغ معنًى على حياتكم. هذا الجواب تجدونه هنا. وهو جوابٌ كثير الاقتضاء، ولكنّه الجواب الذي يستحقّ الاهتمام، لأنّه ينطوي على سرّ الفرح والسلام الحقيقيَّين...**».

وفي ختام الاحتفال، أهاب بالشباب أن يكونوا للعالم «**نسمة تفاؤل**».

وقد انتاب الحضور، وهم يستمعون إلى عظته عن قداسة الحياة، شعورٌ بأنّ حياته الأرضيّة كانت تنعتق من قفص صدره.

وفي أثناء القدّاس، اتّضح للعيان وهن البابا الأقصى، والمشقّة التي كان يعانيها في الكلام، وقناع الألم الذي كان يكسو وجهه. وكانت الجموع تقاسمه آلامه، حابسةً أنفاسها فَرَقًا عليه، ومصلّيةً من أجله. وأيقن الجميع أنّ تلك كانت رحلته الأخيرة، التي اختتمها، مساء ذلك اليوم، بوداعٍ أخيرٍ للأُمّ السماويّة، قبل عودته إلى روما.

وقُيّض له أن يودّعها، مرّةً أُخرى، بمناسبة احتفاله بالذكرى المئة والخمسين لإعلان عقيدة الحبل بلا دنسٍ، الذي أُقيم أمام تمثالها في «ساحة إسبانيا» بروما، يوم ٢٠٠٤/١٢/١. وكان وداعه العلنيّ الأخير لها، في مطلع عام ٢٠٠٥، عندما أَودع السلام العالميّ بين يدي أمّ الله، وأُمّ السلام.

في الخامس من شهر أيلول، احتفل الأب الأقدس بقدّاسٍ في مزار «لوريتّو» الإيطاليّ، بمناسبة اختتام المؤتمر الدوليّ للعمل الكاثوليكيّ. وفي أثناء القدّاس رفع إلى الهياكل ثلاثة طوباويّين جدُدٍ، هم:

– «پيدرو تارّس إي كلاريت» (Pedro TARRES I CLAERET) (١٩٠٥–١٩٥٠)، الذي مارس العمل الكاثوليكيّ بصفته طبيبًا خادمًا للفقراء، وقضى نحبه من

جرّاء إصابته بالسرطان التي احتملها بصبرٍ وإيمانٍ. وكان قد سيم كاهنًا عام ١٩٤٢.

– الإيطاليّ «ألبيرتو مارڤيلّي» (Alberto MARVELLI) (١٩١٨–١٩٤٦)، الذي، منذ نشأته، اتّخذ من القداسة هدفًا لحياته، ومن المحبّة والمساعدة وسيلةً. ولم يكن يتوانى عن التبرّع بأحذيته ودرّاجته للمحتاجين، وغالبًا ما عاد إلى البيت حافيًا، سيرًا على أقدامه العارية. ولطالما خاطر بحياته، أثناء الحرب، من أجل تحرير أسرى. وكانت الإفخارستيّا منبع قوّته للاضطلاع بأخطر المهامّ وأشدّها مشقّةً. وكان قدوةً للعلمانيّين الملتزمين. وقضى نحبه في سنّ الثامنة والعشرين إثر صدم شاحنةٍ لدرّاجته الهوائيّة.

– الإيطاليّة «پينا سوريانو» (Pina SURIANO) (١٩١٥–١٩٥٠)، التي انضوت إلى حركة العمل الكاثوليكيّ منذ حداثتها، وأسّست، عام ١٩٤٨، «اتّحاد بنات مريم». وقامت رسالتها على الصلاة، والتضحية، والتأمّل، والقدّاس، والمناولة اليوميّة. وكانت قد نذرت العفّة منذ عمر السابعة عشرة، وجدّدت هذا النذر كلّ شهرٍ. وقد اصطدمت محاولاتها المستمرّة للانضواء إلى رهبانيّاتٍ، بعقباتٍ وعوائق، فقدّمت ذاتها ضحيّةً من أجل تقديس الكهنة، وقضت نحبها، من جرّاء علّةٍ في القلب.

وقد جاء في عظة الأب الأقدس، في هذه المناسبة:

«وحده يسوع المسيح، الذي تأنّس في أحشاء مريم البتوليّة من أجل خلاصنا، يستطيع أن يكشف لنا مرامي الله. وهو وحده يعرف الطريق إلى «حكمة العقل». هذا الطريق هو طريق الصليب...

«إنّ حمل الصليب إثر يسوع، يعني التأهّب لكلّ تضحيةٍ، حبًّا به، ورفض تفضيل أيّ شيءٍ أو أحدٍ عليه، حتّى أعزّ الأشخاص، وحتّى الحياة ذاتها...

«الانتماء إلى يسوع هو خيارٌ كثير الاقتضاء. فالمسيح لا يتحدّث عن الصليب اعتباطًا. ولكنّه يسارع إلى الإيضاح: «في إثري». وهذا الإيضاح الهامّ يعني أنّنا لسنا وحيدين في حمل الصليب، إذ إنّ يسوع يسير أمامنا، فاتحًا لنا الدرب بنور مثاله، وقدرة حبّه.

«والصليب المُتَقبَّل بحبٍّ يولّد الحرّيّة، كما أكّد الرسول بولس الذي مع كونه «شيخًا وأسير يسوع»، كان ينعم بحرّيّةٍ داخليّةٍ تامّةٍ. كان راسفًا في القيود، ولكنّ قلبه كان طليقًا، لأنّ حبّ يسوع كان يسكنه.

«إنّ أعظم هبةٍ يمكنكم تقديمها للكنيسة وللعالم، هي القداسة... فليُفتَن العديد من الرجال والنساء بالمسيح، وليسطع إنجيله من جديدٍ، نورَ رجاءٍ للفقراء، والمرضى، والجياع إلى العدالة! ولتكن الجماعات المسيحيّة، دائمًا، أوفر حيويّةً، وانفتاحًا، وجاذبيّةً! ولتكن مدنكم مضيافةً، يطيب للجميع العيش فيها، ولتنهج البشريّة دروب السلام والإخاء!».

وفي ختام عظته، توجّه إلى العلمانيّين بالقول:

«إنّ واجبكم الشهادة لإيمانكم، من خلال الفضائل التي تتميّزون بها: الوفاء والرقّة داخل أُسَركم، والكفاءة في العمل، والمثابرة في خدمة الصالح العامّ، والتضامن في العلاقات الاجتماعيّة، والإنماء الإنسانيّ.

«وواجبكم، أيضًا، بالتعاون مع رعاتكم، أن تُثبتوا أنّ الإنجيل ما زال معاصرًا، وأنّ الإيمان بيسوع لا ينتزع المؤمنين من تاريخهم، بل يغمسهم فيه بعمقٍ».

في الثاني عشر من شهر أيلول، أعلن يوحنّا بولس الثاني:

«وفقًا لتقليد قديمٍ يُحتَفَل، اليوم، باسم «مريم». إنّ هذا الاسم المرتبط ارتباطًا لا فكاك له باسم يسوع، هو الأعذب للمسيحيّين، لأنّه يذكّر الجميع بأُمّنا المشتركة، التي أوكل يسوع جميعنا إليها، لنكون لها أبناءً.

«فلتسهر مريم على البشريّة، في هذه الساعة المتّسمة بتفجّرات عنفٍ رهيبةٍ، ولتسهر، بنوعٍ خاصٍّ، على الأجيال الجديدة الراغبة في بناء مستقبل رجاءٍ للجميع».

وقد بعث الحبر الأعظم إلى اللقاء الدوليّ المقرّر عقده في ميلانو بين الخامس والسابع من أيلول، تحت شعار «بشرٌ وديانات» برسالةٍ قال فيها:

«الحرب هي إفلاس العقل والإنسانيّة. إنّني أتوسّل الله، كلّ يومٍ، أن يمنّ على الشعب العراقيّ بالسلام الذي لا قِبَل للبشر على توفيره لأنفسهم.

«من دواعي الأسف أنّ خلافاتٍ جديدةً ظهرت، وانتشرت عقليّةٌ تزعم أنّ الخلاف بين الديانات والحضارة هو إرثٌ تاريخيٌّ لا مفرّ منه.

«ولكن ليس هذا هو الواقع. فالسلام هو، دائمًا، ممكنٌ. ولا بدّ من التعاون الدائم لكي تُقتَلع من الثقافة ومن الحياة بذور المرارة واللاتفاهم الكامنة فيهما، وكذلك إرادة التقدّم على الآخر، وغطرسة المصلحة الشخصيّة، وازدراء هويّة الآخر.

«ليس الخلاف حتميًّا، أبدًا!».

وبوحيٍ من عيد الصليب، قال البابا، أثناء صلاة التبشير، يوم ١٩ أيلول:

«حيال الشرّ الذي يظهر تحت أشكالٍ متعدّدةٍ في العالم، يتساءل الإنسان بحزنٍ وإحباطٍ: «لماذا؟».

«في فجر هذه الألفيّة الثالثة... تتدفّق على البشريّة موجات إرهابٍ مريعةٌ. إنّ تعاقب جرائم بشعةٍ بحقّ الحياة الإنسانيّة، يقلق الضمائر ويهزّها، مستفزًّا، لدى المؤمنين، التساؤل الوجيع: «لماذا، يا ربّ، وحتّى متى؟».

«وقد أجاب الله على هذا التساؤل القلق، الناشئ من معثرة الشرّ، لا بتفسيرٍ مبدئيٍّ، يحاكي نوعًا من التبرير، بل من خلال التضحية بابنه الخاصّ على الصليب. في موت يسوع على الصليب، يقترن أشدّ ساعات التاريخ قتامًا، بتجلّي المجد الإلهيّ، ونقطة البتر بمركز الجذب، وإعادة جمع الكون. ألم يقل يسوع: «وأنا متى رُفعتُ عن الأرض، اجتذبت إليّ الجميع»؟

«إنّ صليب يسوع هو للمؤمنين إيقونة رجاءٍ، فبه تحقّق قصد حبّ الله الخلاصيّ».

في هذه الأثناء ما انفكّت تقلق يوحنّا بولس الثاني، الأوضاع المأسويّة في العراق وفلسطين، وكان يعبّر عن هذا القلق في كلّ مناسبةٍ.

وقد بعث برسالةٍ إلى المؤتمر المريميّ العالميّ المنعقد في مدينة «روڤيغو» (Rovigo) الإيطاليّة، بين ١٠ و١٢ أيلول، قال فيها:

«إنّ عينَي مريم تحدّقان، قبل كلّ شيءٍ، إلى الثالوث الأقدس، وإلى سرّ الحبّ المدهش الذي يجمع، بلا فكاكٍ، الآب والكلمة والروح القدس، فتشعر العذراء أنّها مرسلةٌ إلى العالم، في مهمّةٍ أُموميّةٍ، انتدبها لها ابنها المصلوب. إنّ مريم العذراء تسهر على العالم، حيث أبناؤها الساعون إلى وطن السعادة، يجتازون طريق الإيمان، وسط ألف خطرٍ ومحنةٍ. إنّها حاضرةٌ حضور أمٍّ عطوفٍ... وما من حالةٍ من حالات الكنيسة، وحالات كلّ مؤمنٍ، والأسرة البشريّة جمعاء، غائبةٌ عن نظرها الأُموميّ».

يوم ١٠/٢، تلقّى يوحنّا بولس الثاني جائزة «الشجاعة السياسيّة»، المقدّمة من قبل مجلّة «السياسة الدوليّة» ومحطّة التيليفزيون الكاثوليكيّة KTO، واتّحاد السياسة الخارجيّة في جامعة السربون.

وقد أعلن بهذه المناسبة: «**إنّ درب العنف طريقٌ مسدودٌ**»، ودعا جميع البشر إلى احترام الحياة.

أمّا مدير المحطة التيليفزيونيّة الكاثوليكيّة (KTO)، فقال للحبر الأعظم:

«لقد شهدنا، طيلة حبريّتك، كم كنت حرًّا، حرّيّةً تامّةً، وكم أبديت من الجرأة التي جعلت متعذّرًا تصنيفك في ساحةٍ غير ساحة الربّ.

«وكان لعملك أصداءٌ واسعةٌ لأنّك استخدمت الإعلام وسيلةً لنشر الفكر المسيحيّ».

وقال رئيس مجلس إدارة مجلّة «السياسة الدوليّة»:

«إنّك لجميعنا، أيّةً كانت معتقداتنا وقناعاتنا الفلسفيّة، نجمٌ هادٍ في الليل، ومرجعٌ أخلاقيٌّ، ومنارةٌ تطرد عتمة المحيط. إنّك:

– مَن، بجرأته السياسيّة، أثبت لنا أنّ لا حدود لما تقوى الإرادة على تحقيقه.

– مَن روّض المستحيل.

– مَن برهن أنّ الظلم ليس قدرًا محتومًا.

– مَن فسّر، بلا كللٍ، أنّ الحرّيّة والنصر هما من نصيب من يحلم بهما.

– مَن، كلُّ مسعًى من مساعيه، وكلّ مبادرةٍ من مبادراته، تذكّر بأنّ كلمة شجاعة (Courage) هي مشتقّةٌ من لفظة «قلب» (Cœur)».

واحتفالاً بمباشرته السنة السابعة والعشرين لحبريّته، كتبت صحيفة الڤاتيكان:

«رغم الأهوال والدماء التي دمغت هذه الأيّام الطويلة، ثمّة من سرّب، كلّ يومٍ، نسمة حبٍّ، وخفقة سلامٍ... إنّه هو، يوحنّا بولس الثاني، رسول السلام على دروب العالم، حاملاً صليبه، إثر يسوع، غير مقدّمٍ على يسوع شيئًا ولا أحدًا، «حتّى حياته الخاصّة».

«هذا هو المعنى الحقيقيّ والأصيل، والعميق لهذه السنة السادسة والعشرين: «حتّى حياته الخاصّة»، وهذا ما يفسّر تقدمة ذاته الكلّيّة، والقناعة السامية بأنّه لم يعد يخصّ ذاته،

«وهذا ما يفسّر قدرته الأبويّة على مسّنا بنظره وقلبه، نظره الحادّ، النفّاذ، الرقيق، وشبه فائق الطبيعة.

«وما قلبه سوى حرارةٍ، وحبٍّ، وهو لا ينبض من أجل ذاته، بل من أجل كلّ خليقةٍ، في مطلع هذه الألفيّة الثالثة».

ولدى استقباله أساقفة نيو زيلاندا، صرّح البابا: «**إنّ تفكّك الأُسرة، والإجهاض، ونشدان المتعة والنجاح، هي النتائج المأساويّة لفقدان معنى الله**».

وصباح يوم الأحد ١٠/٣، مدفوعًا بحرصه الدائم على إبراز مثال من نفّذوا وصايا يسوع، فكانوا «غارسي بذور الإنجيل»، وأمسوا للأرض ملحًا، وللعالم نورًا، رفع إلى مجد الهياكل، للمرّة الأخيرة، خمسة طوباويّين، جاعلاً مجموع من أعلنهم طوباويّين في أثناء حبريّته ١٣٣٨ خادماً للمسيح. والطوباويّون الجدُد هم:

– الكاهن الفرنسيّ «پيير ڤينيي» (Pierre VIGNE) (١٦٧٠–١٧٤٠) مؤسّس جمعيّة راهبات القربان المقدّس.

– الراهب الفرنسيّ «جوزيف ماري كاسّان» (Joseph-Marie CASSANT) (١٨٧٧–١٩٠٣).

– الراهبة الألمانيّة «أنّا كاتارينا إيمّيريك» (Anna Katharina EMMERICK)، (١٧٧٤–١٨٢٤) التي كُرّمت بسِمات الصلب، وتلقّت رسائل سماويّةً هامّةً.

– الراهبة الإيطاليّة «ماريّا لودوڤيكا دي أنجيليس» (Maria Ludovica de ANGELIS) (١٨٨٠–١٩٦٢) التي تميّزت بأعمال المحبّة «للجميع ولأيٍّ كان».

– الإمبراطور النمساويّ «شارل» (١٨٨٧–١٩٢٢)، الذي، منذ صباه، كَلِف بالإفخارستيّا، وبتكريم قلب يسوع، وحرص على إحلال السلام، في غمرة

الحرب العالميّة الأولى، وارتضى المنفى تفاديًا لحربٍ أهليّةٍ، فقضى سنواته الأخيرة في عزلةٍ، وعَوَزٍ، ووجعٍ وأمراضٍ، ولكنّه لم يتخلّ، يومًا، عن شعاره: «ألتزم دائمًا في كلّ أمرٍ، باستيضاح مشيئة الله، وباحترامها على أكمل وجهٍ». وعقب وفاته، نشأت «رابطة صلاة الإمبراطور شارل من أجل سلام الشعوب».

ومساء ١٠/١٧، شارك البابا بقدّاسٍ افتتح به سنةً إفخارستيّةً. وقد جاء في عظته:

«الإفخارستيّا هي سرّ نورٍ، النور الذي يحتاج إليه قلب الإنسان الذي تسحقه الخطيئة، التائه بلا دليلٍ، والمتعب الذي يعاني آلامًا من كلّ نوعٍ، هذا هو النور الذي يفتقر إليه العالم في بحثه المضني عن سلامٍ يبدو بعيد المنال، في مطلع هذه الألفيّة التي يبلبلها ويذلّها العنف والإرهاب، والحروب...

«والإفخارستيّا سرّ حياةٍ. على التطلّع الإنسانيّ الشامل إلى الحياة تخيّم ظلالٌ مخيفةٌ: ظلّ ثقافةٍ تتنكّر لاحترام الحياة في كلّ مراحلها؛ وظلّ لامبالاةٍ تقضي على جماعاتٍ غفيرةٍ بالجوع، والتخلّف؛ وظلّ بحثٍ علميٍّ خاضعٍ، أحيانًا، لخدمة أنانيّة الأقوى...

«على غرار تلميذي عمّاوس نتوسّل الربّ: «ابقَ معنا».

«أنت أيّها المرتحل الإلهيّ الخبير بدروبنا، والعليم بقلوبنا، لا تدعنا أسرى ظلام الليل. آزرنا في تعبنا؛ واغفر خطايانا، وسدّد خطانا على دروب الخير...

«في الإفخارستيّا جعلتَ ذاتكَ «دواء خلودٍ». فهبنا أن نتذوّق حياةً معاشةً بامتلاءٍ، تجعلنا نعبر هذه الأرض، حجّاجًا مفعمين ثقةً وفرحًا، متطلّعين، دائمًا، إلى الحياة التي لا نهاية لها.

«ابقَ معنا، يا ربّ، ابقَ معنا!».

ولوحظ، بعدئذٍ، أنّ معظم خطاباته وتوجيهاته غدت تحمل دعوةً إلى التغذّي بالإفخارستيّا، والاستقواء بها.

وفي رسالةٍ إلى البرلمانيّات العاملات في ميدان حماية الأطفال والمراهقين، قال البابا عن هؤلاء: **«إنّهم كنز الأُسرة البشريّة الأثمن، وفي الآن عينه، الأكثر**

هشاشةً وعطوبيّةً. ومن ثمّ ينبغي إيلاء التيقّظ والاهتمام لكلّ متطلّباتهم وتطلّعاتهم المشروعة. ولا يجوز لأيٍّ كان أن يتدرّع بالصمت واللامبالاة حيال أولادٍ أبرياءَ متألّمين، أو مهملين، أو مجروحين في كرامتهم الإنسانيّة».

واستمرّ البابا يستقبل الوفود، ولكلّ وفدٍ يسدي التوجيه السديد، كما استمرّ يتابع أحداث العالم، ويلقي عليها أضواء الإنجيل مصحّحًا مواطن خطئها، ومنيرًا لها سبُل الصواب.

فيوم ١١/١٣، استقبل المعنيّين بالمعاقين، وقال لهم:

«بعنايتكم بمن يعانون إعاقةً، تذكّرون معاصرينا أنّ الإنسان لا يُقاس بطاقاته الجسديّة، وبمكانته في الحياة الاقتصاديّة؛ فهو خليقة الله التي يحبّها من أجل ذاتها، لا من أجل إنجازاتها».

وعن المسكونيّة أكّد: «**ما من مسكونيّةٍ حقّةٍ إلاّ بالتحوّل الداخليّ**». وللمشاركين في سينودس الأساقفة، قال: «**إنّ الكنيسة تنهل من الإفخارستيّا طاقاتها الحيويّة**». وناشد مختلف الوفود التي التقاها، بالوحدة حول الإفخارستيّا، واستمداد الطاقة والجرأة منها، مؤكّدًا: «**لنا، نحن المسيحيّين، الإفخارستيّا هي كلّ شيءٍ: مركز إيماننا، ونبع حياتنا الروحيّة**».

وللمشاركين في المؤتمر الدوليّ حول الحياة المكرّسة، المنعقد في روما، خلال شهر تشرين الثاني ٢٠٠٤، بعث برسالةٍ، جاء فيها:

«لقد بلغ الفقر الروحيّ ببشر زماننا، ما جعلهم يفقدون القدرة على سبر عمق فقرهم. إنّ حقبتنا تضعنا في مواجهةٍ مع أشكال ظلمٍ واستغلالٍ، وانتهاكاتٍ للواجب، يقترفها أفرادٌ وجماعاتٌ، ترتدي صِيَغًا يتعذّر تخيّلها، ويفضي إلى حجب الرجاء عن عيون الكثيرين.

«في هذه الأوضاع، يترتّب على المكرّسين، رجالاً ونساءً، أن يقدّموا للبشريّة التائهة، وفاقدة الذاكرة، شهادة رجاءٍ مسيحيٍّ، تتّسم بالمصداقيّة، وتسهم في إظهار حبّ الله الذي لا يتخلّى عن أحدٍ، وتوفّر للإنسان التائه أسبابًا حقيقيّةً للاستمرار في الرجاء...

«وحيال مجتمعٍ لم يدع للحبّ مجالاً للتعبير المجّانيّ عن ذاته، رسالةُ المكرّسين هي الشهادة الشخصيّة لمنطق العطاء المتجرّد...».

وحذّر المحتفلين بالذكرى الخمسين لتأسيس الاتّحاد الإيطاليّ لمستمعي الإذاعة ومشاهدي التليفزيون، والساهرين على سلامة البثّ من كلّ ما يسيء إلى كرامة الإنسان، أو يُلحق أذًى بنفوس القاصرين، من مخاطر الخلط بين الحقيقة والرأي العامّ السائد، الذي قد يكون خاطئًا أو مفسدًا.

وفي الثامن من شهر كانون الأوّل، احتفل، في بازيليك القدّيس بطرس، بالذكرى المئة والخمسين لإعلان عقيدة الحبل بالعذراء، بلا دنسٍ، وجاء في عظته قوله:

«باسم «الممتلئة نعمةً» خاطب الملاك مريم. هذا هو الاسم الذي أراد الله أن يصف به العذراء، وبهذه الصورة نظر إليها منذ الأزل.

«إنّها، حقًّا، المباركة بين النساء.

«المنزّهة من الدنس هي علامة رجاءٍ لجميع الأحياء الذين قهروا إبليس بدم الحمل.

«لكِ، أيّتها العذراء المنزّهة من الدنس، التي اصطفاها الله، فوق كلّ خليقةٍ، لتكون محامية نعمةٍ، ونموذج قداسةٍ، من أجل شعبه، لكِ أُجدّد، اليوم، على نحوٍ خاصٍّ، فعل تكريس الكنيسة جمعاء.

«فقودي أبناءها في حجّهم الإيمانيّ، واجعليهم ينمون باطّرادٍ في الخضوع لكلام الله والوفاء له؛ وواكبي كلّ مسيحيٍّ على درب التحوّل الروحيّ والقداسة، في صراعه ضدّ الخطيئة، وفي نشدانه للجمال الحقيقيّ، الذي، يمثّل، دائمًا، دمغة الكمال الإلهيّ وانعكاسه. ونالي لجميع الشعوب السلام والخلاص».

في ذلك اليوم عينه، قام البابا بحجٍّ إلى «ساحة إسبانيا»، وسط روما، حيث كان قد نُصب، منذ عام ١٨٥٦ تمثالٌ لسيّدة الحبل بلا دنسٍ، تخليدًا لهذه العقيدة التي كانت قد أُعلنت قبل سنتين، وأمام نحو عشرين ألف مؤمنٍ، وجّه إلى الأُمّ السماويّة، صلاةً مؤثّرةً، ملتمسًا منها، أن يحترم البشر الحياة، وينبذوا العنف، وينشدوا السلام للجميع بإصرارٍ.

قُبَيْل عيد الميلاد، هنّأه الكرادلة والأساقفة العاملون في الإدارة الڤاتيكانيّة، وتكلّم باسمهم الكردينال «رتسنغر»، الذي قال: «أيّها الأب الأقدس، إنّنا نشكر لقداستك إيمانك الصامد، ووفاءك لرسالتك المتمثّلة في تثبيت إخوتك، وسخاءك وجرأتك في اقتفاء خطى الربّ، يومًا إثر يومٍ، وصبرك في حمل نير المسيح متمّمًا، في جسدك «ما ينقص من مضايق المسيح، من أجل جسده الذي هو الكنيسة»».

وجاء في ردّ البابا: «**لا تخامر قلوبنا أيّة خشيةٍ من المصاعب، لأنّها واثقةٌ فيك، يا طفل بيت لحم، الآتي حبًّا بنا. فاجعل أن يعترف بك الجميع، ويرحبّوا بك فاديًا، ورسول سلامٍ**».

وفي عظة قدّاس الميلاد، قال الأب الأقدس: «**إنّ لفظة بيت لحم تعني «بيت الخبز». وفي هذه المدينة وُلدَ من قال: «أنا خبز الحياة».... إنّ عبادة الطفل يسوع، تصبح، في هذه الليلة، عبادةً إفخارستيّةً.**

«**وُلدتَ في مثل هذه الليلة، يا فادينا الإلهيّ، وأضحيتَ لنا، نحن السائرين على دروب التاريخ، غذاء حياةٍ أبديّةٍ.**

«**إنّ البشريّة جمعاء، التي تواجه جمًّا من المِحَن والمصاعب، تحتاج إليكَ. فابقَ معنا، أيّها الخبز الحيّ النازل من السماء من أجل خلاصنا**».

كان ذاك هو احتفاله الأخير بعيد الميلاد، على هذه الفانية. أمّا بركته الأخيرة «للمدينة وللعالم»، فقد أطلقها بهذه العبارات:

«**إنّنا نأتي إليكَ، في هذا النهار المبارك، يا طفل بيت لحم العذب.**

«**بولادتكَ أخفيتَ ألوهتك، كي تقاسمنا هشاشة وضعنا البشريّ. ولكنّنا، بنور الإيمان، نعترف بك إلهًا حقًّا متأنّسًا حبًّا بنا، وفادي البشر الوحيد.**

«**أمام المذود الذي ترقد فيه، أعزلَ، فلتتوقّف كلّ أشكال العنف الزاحفة، مسبّبةً آلامًا يتعذّر وصفها. ولنطفئ بؤر التوتّر التي تنذر بالتحوّل إلى صراعاتٍ مفتوحةٍ!**

«**ولتتوطّد إرادة البحث عن حلولٍ سلميّةٍ، تحترم تطلّعات الناس والشعوب المشروعة!**

«يا طفل بيت لحم، ونبيّ السلام، شجّع مبادرات الحوار والمصالحة، وادعم جهود السلام التي ما برحت خجولاً، ولكنّها غنيّةٌ بالرجاء، والتي تتنامى حاليًّا، من أجل حاضرٍ ومستقبلٍ أوفر هدوءًا، ومن أجل العديدين من إخوتنا وأخواتنا في العالم.

(وهنا أشار قداسته إلى مآسي دارفور في السودان، وساحل العاج، والبحيرات الكبرى، والعراق وفلسطين)

«في كلّ مكانٍ نحن بحاجةٍ إلى سلامٍ. فأنت، يا أمير السلام الحقّ، ساعدنا كي ندرك أنّ السبيل الوحيد الكفيل بتحقيقه هو نبذ الشرّ، والنفور منه، والسعي الدائم إلى الخير بشجاعةٍ.

«فيا جميع البشر، حسني النوايا، من كلّ شعوب الأرض، تعالوا، بثقةٍ، إلى مذود الربّ. هلمّوا إلى لقاء من يأتي لكي يرشدنا إلى طريق الحقيقة، والسلام، والمحبّة!».

وكان الحبر الأعظم قد ناشد شبيبة العمل الكاثوليكيّ الإيطاليّة بقوله: «**إنّه لمن الأهمّيّة بمكانٍ أن ينمو كلٌّ منكم في معرفة يسوع وفي صداقته**».

يوم ١٠/٧، عُرِض في فرنكفورت كتابه الأخير، الذي حمل عنوان «ذاكرةٌ وهويّةٌ»، والذي تضمّن «أحاديث عند مفصليّة ألفيّتين».

وقد وافق يوم ١٠/١٦ الذكرى السادسة والعشرين لانتخابه حبرًا أعظم، وبدء السنة السابعة والعشرين من حبريّته.

يوم ١٠/٢٣، خاطب خمسةً وثلاثين ألف كشّافٍ إيطاليٍّ، وناشدهم: «**اجعلوا المستحيل ممكنًا**».

وبمناسبة عيد الرسول القدّيس أندراوس، أعاد إلى البطريرك الأرثوذكسيّ، برتلماوس الأوّل، ذخائر القدّيسَيْن غريغوريُس النازينزي، ويوحنّا الذهبيّ الفم، التي كانت قدّ هُرّبت وحُفظت في روما، أثناء حملة تحطيم الإيقونات. وقد بعث البابا إلى البطريرك، بهذه المناسبة، برسالةٍ أكّد له فيها: «**أيّها الأخ الحبيب، لن أكلّ أبدًا من أن أكون خادم الشراكة**».

وشهد العالم بأسًى المشقّة التي كان يعانيها البابا يوحنّا بولس الثاني،

والتضحيات المضنية التي كان يبذلها، في سبيل الاحتفال بعيد الميلاد عام ٢٠٠٤.

ومنذئذٍ راحت آلامه وأمراضه تتفاقم، وانتزعت منه هذا الاعتراف: «**لقد بات كلّ شيءٍ يوجعني. ولكن لا بدّ من أن يكون الأمر كذلك!**». وهكذا، بعد عمرٍ حافلٍ بنشاطٍ جبّارٍ، أطلّت النهاية، وأمست حياته، أكثر من أيّ وقتٍ، بين يدي العذراء الطاهرتين، الأُمّ الفاتحة ذراعيها للترحيب بالنفس الملتهبة التي كانت «بكلّيّتها لها».

يوحنّا بولس الثاني والألم

للبابا يوحنّا بولس الثاني، مع الألم، بكلّ وجوهه وأشكاله، رفقة عمرٍ طويلةٌ، وله به خبرةٌ راسخةٌ. ولئن تأثّر العالم بمعاناة ذلك الحبر الجليل، في أيّامه الأخيرة، وتوسّموا فيه صورة «رجل الآلام»، فلا يمكن إغفال أنّه تنكّب الصليب منذ طراوة عوده، ومنذئذٍ لم يحِدِ الصليب عن منكبيه.

فمنذ طفولته خبر الألم النفسيّ الذي ينحفر في أغوار القلب، ويطبع فيه أثرًا لا يمّحي، لأنّه مرتبطٌ بفقدان أحبّ الناس، قبل الأوان.

ففي سنّ التاسعة، فقد الأُمّ التي كانت تغدق عليه حبّها ودلالها؛ وبعد أربع سنواتٍ فقد أخاه الوحيد الذي كان يجهد في ردم فراغ الأُمّ، ويعوّض بعضًا من حنانها. وطُبعت في ذاكرته صورة أبيه المحطّم، المتهاوي أمام نعش ابنه الطبيب الشابّ، الذي لم يتخطَّ السادسة والعشرين، مردّدًا، في لجّةٍ من الألم والاستسلام: «لتكن مشيئتك، يا ربّ».

ولم يكن كارول قد تخطّى الحادية والعشرين، عندما أطاحت المنيّة بالإنسان الحبيب الوحيد الذي بقي له في هذه الدنيا. وكم حزّ في نفسه أن يغادره هذا الأب النبيل، الذي كان دنياه كلّها، وهو ما زال في الثانية والستّين من العمر، وحيدًا في منزله الوضيع، فيما كان، هو، مضطرًّا للعمل في مصنعٍ حكوميٍّ!

ومنذ شبابه، بدأت رحلته مع الآلام الجسديّة، عندما صدمته شاحنةٌ ألمانيّةٌ

وتركته جريحًا، طريحًا، مصابًا بعدّة جراحٍ في رأسه، ما ألزمه بالإقامة مدى أسبوعين في المستشفى... ثمّ عانى هواجس القلق عندما اضطرّ إلى سوق عيشة الفارّ من السلطات، بعد أن هجر العمل الإلزاميّ في المصنع الحكوميّ، كي يتابع، خفيةً، دراساته الإكليريكيّة، متوقّعًا، في كلّ لحظةٍ، الاعتقال، كما حدث للكثيرين من رفاقه.

وفضلاً عن آلامه ومخاوفه الشخصيّة، قاسى آلام أمّته ووطنه ومخاوفهما، اللذين كانا، على التوالي، ضحايا الاحتلالين النازيّ والستالينيّ، مع مواكبهما من القمع والإذلال. ثمّ اندرجت بدايات مسيرته الكهنوتيّة، في مناخ إرهابٍ دائبٍ على اضطهاد كلّ عقيدةٍ أو ممارسةٍ دينيّةٍ.

هذه الآلام وثّقت علاقته بكلّ متألّمي العالم، الذين كانوا يلاقون في قلبه إصغاءً وفهمًا وتعاطفًا. كما أنّ معاناته أخصبت إيمانه وتبشيره، فمضى قدُمًا في النهوض برسالته، متحدّيًا الوهن الزاحف مع السنين، والأوجاع المتفاقمة، ومقدّمًا آلامه تضحيةً عن المؤمنين والبشر أجمعين.

ويوم مباشرته مهمّته، بصفته رئيس أساقفة «كراكوفيا»، بعث برسالةٍ طويلةٍ، وشخصيّةٍ إلى المرضى، مؤكّدًا لكلٍّ منهم أنّه قريبٌ منهم جدًّا، إنسانيًّا وإيمانيًّا، وأنّ مكانتهم في الكنيسة عظيمة الشأن. واستمرّ يبعث برسائل مماثلةٍ سنويّةٍ لهم، مهيبًا بهم أن يقدّموا تضحياتهم وصلواتهم عن نوايا الكنيسة والوطن الهامّة.

وفي أثناء زياراته الأسقفيّة للرعايا، كان حريصًا على زيارة المرضى، والوحيدين، في بيوتهم، وفي المستشفيات، وفي المآوي. وقد اعترف أنّ هذه الزيارات كانت تخضّه بمحتواها الإنسانيّ، وتخلّف في نفسه أثرًا عميقًا، وتؤكّد له أنّ الإيمان هو مصدر فيضٍ من القوّة، التي تتجلّى في الضعف. وكان يؤكّد: «**لو سئلتُ عمّا تستند مهمّتي الراعويّة، لأجبت أنّها تستند، إلى حدٍّ كبيرٍ، على الألم والمِحَن التي يعانيها العديد من الإخوة والأخوات. فهي ملك الكنيسة، وهي خيرٌ. وهذا ما علّمنا الربّ يسوع: مع أنّ الألم شرٌّ، إلاّ أنّه، بالمسيح وفي المسيح، يصبح خيرًا. فالمسيح قد تقبّل الألم، وترك لنا عليه علاماتٍ ليست، فقط، خارجيّةً ودامية، بل هي أيضًا، داخليّةٌ. ففي بستان الزيتون، وفي نزاعه على الصليب،**

أظهر دلائل على معاناة التخلّي الروحيّ... تذكّروا، إذن، أنّكم تشبهونه، وأنّنا، جميعنا راغبون في التشبّه به، ونحن نراقبكم وننهل من نبعكم».

وكان يدعو دائمًا إلى إحاطة الألم البشريّ بالعطف، والتضامن، والطيبة. وفي إحدى زياراته الراعويّة، خاطب المرضى قائلاً: «**إنّنا ننظر إليكم نظرة حبٍّ في جماعتنا المسيحيّة، ونرغب في أن نشهد لكم على هذا الحبّ. وفي الآن عينه، يتوجّب على كلّ رعيّةٍ أن تُعنى بمرضاها وبمتألّميها. إنّه واجبٌ على الكهنة، وعلى الراهبات المكرّسات لهذه المهمّة. وهو، أيضًا، واجب العلمانيّين. فإنّ أبسط رسالة العلمانيّين تقوم على التعاطف مع المرضى، والمتألّمين، والمهملين، والمعوزين**».

هذه القناعات بسطها يوحنّا بولس الثاني في رسالةٍ رسوليّةٍ، بتاريخ ١٩٨٤/٢/١١، بعنوان «Salvifici doloris»، بيّن فيها دور الألم في الخلاص، وأفرد فيها فصلاً عن السامريّ الرحيم، الذي عرّفه بأنّه كلّ من يستوقفه ألم إنسانٍ، فيتعاطف معه، ويتأثّر به، ويبادر إلى مدّ يد العون له؛ وهو كلّ متأهّبٍ للتعبير عن المحبّة المسيحيّة الصادقة، من خلال العطاء المتجرّد من كلّ غايةٍ شخصيّةٍ. وأوضح أنّ الألم يحرّر طاقات الإنسان على الحبّ، وأنّ عالم الألم يستدعي عالم المحبّة، بموجب شريعة التضامن الإنسانيّ، والمحبّة الأخويّة.

وأهاب بممتهني العلاج والعناية الصحيّة أن يجعلوا من مهنتهم رسالةً، موضحًا أنّ هذه الرسالة تندرج في إطار رسالة المسيح، الذي تأنّس كي يبشّر الفقراء، ويحرّر الأسرى، ويعيد البصر للعميان، ويطلق المرهقين أحرارًا؛ وأنّ أداء هذه الرسالة يمهّد للسعادة الأبديّة. فالدينونة تعتمد المحبّة، معيارًا، والخدمة المجّانيّة، مقياسًا، إذ إنّ كلّ عونٍ لمحتاجٍ هو عونٌ للمسيح، وهو إسهامٌ في عمله الفدائيّ، كما أنّ الألم المحتمل إسهامًا مع آلام الفادي، هو إسهامٌ في عمل الفداء.

وواكبت مسيرة «كارول ڤويتيووا»، دائمًا، فكرة الألم والصليب، وزوال الحياة، والموت. وهذا ما عبّرت عنه قصائده، ولكن بمنأًى عن مظاهر الحزن والتشاؤم، والإحباط والتظلّم. بل، على نقيض ذلك، كانت تلك الفكرة له، دعوةً إلى حياةٍ داخليّةٍ أكثر كثافةً، وإلى العمل الرسوليّ، وإلى اتّحادٍ أشدّ

التصاقًا بالله، اتّحادٍ لا يمكن، بمعزلٍ عنه، إدراك مأساة الوجود البشريّ إدراكًا كاملاً.

وبديهيٌّ أن تستأهل هذه المواقف ليوحنّا بولس الثاني، لقب **بابا المرضى والمتألّمين**. وهو، في بركته الأولى «للمدينة وللعالم»، يوم ١٩٧٨/١٠/١٧، وجّه كلمةً خاصّةً إلى المرضى، قال لهم فيها: «**إنّ خليفة بطرس غير المستحقّ، الساعي إلى اكتشاف غنى المسيح، الذي يتعذّر سبر أعماقه، يحتاج، حاجةً شديدةً، إلى أزركم وتضحيتكم. وهو يلتمس منكم العون، بكلّ تواضعٍ**». ولم تكن تلك عبارات مجاملةٍ، بل كانت كلماتٍ مفعمةً حبًّا وثقةً، تعبّر عن قناعته العميقة، بما للألم المعاش مع المسيح، من قيمةٍ جُلّى، في نظر الله.

وفي ذلك اليوم عينه، يوم تنصيبه، أدهش ذلك البابا المنتخب حديثًا، العالم أجمع بشخوصه إلى المستشفى لعيادة أُسقفٍ صديقٍ له، كان قد أصيب بفالجٍ. وبعد أن صلّى عند سريره، التقى مرضى المستشفى الذين اجتمعوا في قاعةٍ كبيرةٍ مع الأطبّاء والممرّضين، فأعاد على مسامعهم ما كان قد قاله، صباحًا. وفي خطابٍ مرتجلٍ، ذكّر المرضى بمعنى الألم البشريّ، مؤكّدًا لهم أنّهم، مع ما منيوا به، من جرّاء المرض، ومن وهنٍ وعجزٍ، غير أنّهم «**أقوياء جدًّا، أقوياء بمثل قوّة يسوع المصلوب. هنا يكمن وجه شبهكم به، فاسعوا إلى استخدام هذه القوّة من أجل خير الكنيسة، وخير أقربائكم، وأسركم، ووطنكم، والبشريّة جمعاء، وأيضًا من أجل رسالة البابا، الذي يعاني، في مجالاتٍ أُخرى، من ضعفٍ شديدٍ**».

وقد عُهد عن يوحنّا بولس الثاني أنّه كان يولي، في كلّ لقاءٍ عامٍّ، اهتمامًا خاصًّا بالمعاقين، والمقعدين الذين يتحرّكون على كراسٍ بعجلاتٍ، وبالمسنّين، والمرضى. وكان يأتي إليهم، ويصافحهم، ويباركهم، ويحدّثهم، ويلتمس عونهم الروحيّ في خدمته الرسوليّة. ولم يكن أيّ شخصٍ متألّمٍ غريبًا عنه، بل كان يخصّ كلاً منهم بكلمةٍ طيّبةٍ، وبمبادرة عطفٍ. وغالبًا ما أكّد حضور الله في المتألّمين. هذا اليقين كان متجذّرًا في أعماق نفسه، مثل يقينه بأنّ خلاص العالم يمرّ عبر الصليب، والألم البشريّ.

وفي عام **١٩٧٩**، في أثناء زيارة «پومپيي» الإيطاليّة، خاطب مجموعةً من المرضى: «**تعلمون أنّ البابا، على مثال يسوع،... يؤثر المرضى والمتألّمين، وهو يعتبر هذا الاهتمام الخاصّ، واحدًا من أسمى واجباته الراعويّة**».

وفي جميع رحلاته، كان يقتضي أن يلحظ البرنامج لقاءً مع المرضى والمتألّمين. وكان مؤمنًا بجدوى عونهم الروحيّ: «**إنّني أعتمد كثيرًا على صلوات المرضى والمتألّمين. فهم على مقربةٍ وثيقةٍ بالمسيح. وأنا أدنو منهم واعيًا أنّ المسيح حاضرٌ فيهم**».

وكان واقع المرضى والألم يعني له واجب التضامن: «**إنّ سؤالاً تلقائيًّا يفرض ذاته علينا: «لمَ هو، وليس أنا؟». لا يجوز استبعاد هذا التساؤل، فهو تعبيرٌ طبيعيٌّ عن التضامن الإنسانيّ. وأظنّ أنّ هذا التضامن الجوهريّ هو الذي أوجب الطبّ، وشتّى الخدمات الصحّيّة... يجب علينا أن نتوقّف أمام الإنسان المتألّم، لكي نشهد أمامه، وبقدر المستطاع، معه، عن كرامة الألم الكبرى، بل أكاد أقول عن جلالة الألم. يجب أن ننحني أمام إخوتنا وأخواتنا الضعفاء والعزّل، المحرومين ممّا ننعم نحن به، ونتمتّع به كلّ يوم**».

منذ رحلته الرسوليّة الأولى إلى المكسيك، حتّى رحلته الأخيرة إلى لورد، كان المرضى والمتألّمون يحتلّون الحيّز الأكبر من اهتمامه. وكان يوكل كلّ رحلةٍ من رحلاته، إلى صلواتهم وتضحياتهم، مؤكّدًا: «**إنّ حكمة المسيح وقدرته تتجلّيان في ضعف من يقاسمونه آلامه**». وكانت أقواله، في هذا السياق، توحي الحبّ، وتشيع العزاء والرجاء، وتظهر، على ضوء الإيمان، بُعد الألم المسيحيّ، الذي لا يندرج في إطار قدَرٍ أعمى، بل يثوي في صميم سرّ مخطّط الخلاص الإلهيّ، هذا السرّ الذي تبسّط البابا فيه تأمّلاً، من خلال رسالته عن الألم (Salvifici doloris) التي أتينا على ذكرها، مبرزًا ما ينطوي عليه معنى الألم المعاش مع المسيح المصلوب والقائم من الموت، وما يكتسبه من قيمةٍ روحيّةٍ جُلّى للكنيسة وللعالم، ويفتح أمام الإنسان كنوز الفداء والنعمة. ومن خلال هذه النظرة، كان يرى أن المُقعد القابع على كرسيّه المتحرّك، ضروريٌّ للبشريّة بقدر ما هو ضروريٌّ المهندس الذي يبنى الجسور، والبيوت، والمركبات الفضائيّة، وأنّ

الإنسان المتألّم ضروريٌّ لخلاص إخوته وأخواته، بقدر ما هو المسيح ضروريٌّ. فهو ليس فقط مفيدًا للآخرين، بل هو، أيضًا، يُسدي خدمةً لا غنى عنها. ففي جسد المسيح، الذي يكبر باستمرارٍ، انطلاقًا من صليب المخلّص، يمثّل الألم المشبع بروح تضحية المسيح، بطريقةٍ لا يمكن الاستغناء عنها، واسطة الخيرات اللازمة لخلاص العالم ومصدرها. هذا الألم، أكثر من أيّ شيءٍ آخر، يُشرع الطريق للنعمة التي تحوّل النفوس. فبقدر ما يضيف الإنسان صليبه إلى صليب يسوع، يكتشف، بمزيدٍ من العمق، معنى الألم، ويحوّله إلى قوّة خلقٍ. وهكذا يمكّن الألم من عقد علاقةٍ خاصّةٍ بالله، ويصبح صلاةً.

وعلى ضوء هذا المفهوم، لا يبقى الألم حدثًا سلبيًّا صرفًا، بل يضحي «زيارة الله»، التي تولّد أعمال حبٍّ تجاه الغير، وتحوّل كلّ الحضارة الإنسانيّة إلى حضارة حبٍّ، وتفتح لعالم الألم البشريّ السبيلَ إلى عالم الحبّ الإنسانيّ.

ولم يكتفِ البابا بإبراز معنى الألم وبُعده الروحيّ، بل دعا إلى إطلاق حملات حبٍّ تستهدف تخفيف الألم؛ وألّف مجلسًا حبريًّا يتولّى رسالة الأعمال الصحيّة، وتطوير وتوسيع مشاريع العناية الطبيّة. ولهذا السبب أيضًا، أسّس يومًا عالميًّا للمرضى، كان يستقبل، بمناسبته، المرضى في كاتدرائيّة الڤاتيكان.

كان يؤمن أنّ الحياة البشريّة هبةٌ، ولا تفقد شيئًا من ثمنها عندما يطبعها الوهن والعجز الجسديّان.

وبالإجمال، كان بتأكيده كرامة المريض، وبدعوته إلى مدّ يد العون له، على توافقٍ مع ما طالب به، دائمًا، من احترامٍ لكلّ إنسانٍ، وبالأخصّ لمن لا يملك من القوّة ما يؤهّله للدفاع عن نفسه، والذي به تماهى المسيح. وكان يوحنّا بولس الثاني قد كتب، في رسالته العامّة «فادي البشر»: **«الإنسان هو الدرب الأوّل الذي يتعيّن على الكنيسة انتهاجه، في سياق أدائها رسالتها. هو درب الكنيسة الأوّل والأساسيّ، الدرب الذي رسمه المسيح نفسه، والذي يمرّ، حتمًا، عبر سرّ التجسّد والفداء»**.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، لم يكن الأب الأقدس يضنّ بذرّةٍ من قواه، ومن قلبه، ومن صلواته وتضحياته.

وتوثّقت علاقة يوحنّا بولس الثاني بالمتألّمين، يوم اخترقت أحشاءه رصاصة الغدر، على يد محمّد علي أغشا، وأدخلته إلى محراب الأوجاع، وأقحمته في دوّامة المشافي، والمداخلات الجراحيّة المتلاحقة، والآلام المتفاقمة باطّرادٍ، وبلا هوادةٍ، وفي حاجة الاعتماد على الغير، فاختبر، في جسده، ما كان يوجعه في الآخرين، مستمدًّا العزاء والصمود والعزيمة من إيمانه، وتصميمه على مشاركة الفادي آلامه، ومن الصلوات التي كانت ترتفع من ملايين مسيحيّي العالم. ومنذئذٍ سلك درب صليبٍ، صامتًا، على مدى سنواتٍ، لم ينتهِ حتّى **٢٠٠٥/٤/٢**. وأصبح مستشفى «جيميلّي» بمثابة ملحق للڤاتيكان، وأَلِف، هو، أن يُسمّيه، مازحًا، الڤاتيكان الثالث. وفي أتّون تلك المِحَن، أدهش الجميع بالسجوّ النفسيّ السحيق، الذي كان يواجه به كلّ ما يأتيه من الله. وكان يؤلمه منعُه زحف العجز عن العمل والحركة، بقدر ما يؤلمه الوجع الجسديّ. ومع ذلك، لم تنثلم عزيمته على المضيّ في أداء رسالته، كاملةً، حتّى آخر الشوط. وظلّ دائبًا على تبشير جميع الأُمم بالإنجيل، وعلى تثبيت إخوته في الإيمان، وعلى غوث كلّ متألّمٍ.

لقد أدخلت رصاصة الغدر إلى جسده، على نحوٍ دائمٍ، بذور ألمٍ ما انفكّ ينمو فيه، على مدى ربع قرنٍ، وحتّى لحظة موته. ولا ريب أنّ هذا الألم أطفأ شيئًا من وهج بسمته، وقيّد اندفاع حركته، ولكنّه لم يقوَ على النيل من سجوّه المدهش، ومن عذوبة العلاقات التي لم ينِ ينسجها مع الشبيبة، والفقراء، والمسنّين، والمرضى، وجرحى الحياة، والتي ما انفكّت عراها تتوثّق، فيما كان هو يتجرّع كؤوس الأوجاع.

يوم غادر المستشفى للمرّة الأولى، عقب محاولة اغتياله، أعلن شكره لله الذي أنقذ حياته، «**وأعطاه، خلال هذه الأشهر الثلاثة، أن ينضوي إلى جماعة المرضى المتألّمين... والذين يؤلّفون جهازًا خاصًّا داخل الكنيسة، وفي جسد المسيح السرّي**».

وقد دهش الذين عادوه في المستشفى لرؤيته ساجيًا سجوًّا كاملاً، خاشعًا، معملاً الفكر في الطريقة، غير المتوقّعة التي شاء الله، من خلالها، إشراكه في آلام ابنه الخلاصيّة. وقد أدرك أنّ مثل تلك الأحداث الرهيبة، عندما يتقبّلها

المرء، لا على أنّها قدرٌ محتومٌ، بل بمثابة دليلٍ على اصطفاءٍ ودعوةٍ، فهي كفيلةٌ بتوفير السلام الداخليّ، لا بل البهجة التي يعهدها الإنسان الذي يكتشف معنى حياته وهويّته، أي الاسم الذي يدعوه به الله. وقد قرأ يوحنّا بولس الثاني، في ما حدث له، جدوى الألم، منقطعة النظير، من أجل تحقيق تدابير الله، ووسيلةً لكي يتحقّق، في جسده، ما ينقص من آلام المسيح، فتحوّلت جراحه وآلامه إلى شهادة إيمانٍ واستسلامٍ للمشيئة الإلهيّة.

وكان قد صرّح أمام الحجّاج، إثر خروجه من المستشفى: «**لقد أتاح لي الله أن أخبر، خلال الأشهر الماضية، الألم، وخشية فقدان الحياة. وفي الآن عينه سمح لي أن أُدرك، بوضوحٍ وعمقٍ، أنّ الربّ حباني نعمةً شخصيّةً بصفتي إنساناً، وأيضًا من أجل المهمّة الموكلة إليّ بصفتي أُسقف روما، وخليفة القدّيس بطرس، وهي، من ثمّ، نعمةٌ للكنيسة...**».

ومشيرًا إلى توافق توقيت محاولة اغتياله، مع ذكرى مرور ستّين سنةً على ظهور العذراء في محلّة «فاطمة» البرتغاليّة، قال: «**في كلّ ما حدث لي، ذلك اليوم، شعرتُ بحماية أُمّ المسيح المدهشة، وبعنايتها التي أثبتت أنّها أقوى من رصاصة القتل... إنّ اختباري الشخصيّ للعنف، جعلني أشعر أنّني بتّ أوثق قربًا من الذين، في كلّ بقعةٍ من العالم، وبطرقٍ مختلفةٍ، يعانون الاضطهاد باسم المسيح، وكلّ الذين يقاسون القمع، من أجل قضيّة الإنسان المقدّسة وكرامته، ومن أجل العدل والسلام في العالم، وأخيرًا مع الذين دمغوا هذا الوفاء بموتهم**».

وكلّما تعيّن عليه قضاء فترة استشفاءٍ، أو الخضوع لمداخلةٍ جراحيّةٍ، لم يكن يمسكه الحياء عن إعلان ذلك للجماهير. وكم كان شاقًّا على حبرٍ يُعدّ رمزًا للمتانة الجسديّة، وللنشاط الجبّار، الإعلان عن تهاوي متانته!

وكان حريصًا على شكر المؤمنين لصلواتهم التي كان يعدّها، «**أثمن عطيّةٍ، وأجدى وسيلةٍ لعيش أوقات الوجود الأليمة والخطيرة، بإيمانٍ وسجوّ نفس**».

وألِف أن يعدّ فترات إقامته في المستشفيات «**محرابًا آخر... حيث تُسكب، كلّ يومٍ، دموع ألمٍ ورجاءٍ**».

كان يستخلص من كلّ ألمٍ عبرةً، ويقرن، دائمًا، معاناته الآلام بأحداث الكنيسة الكبرى. فلدى خروجه من المستشفى، عام **١٩٩٤**، بعد خضوعه لجراحةٍ من جرّاء كسر عظم فخذه، صرّح: «**لقد أدركتُ أنّ عليّ إدخال كنيسة المسيح إلى الألفيّة الثالثة بالصلاة، وبمختلف المبادرات؛ ولكنّني رأيتُ أنّ ذلك لم يكن كافيًا، بل عليّ، أيضًا، أن أُدخلها بالألم... لمَ الآن، لمَ في هذه السنة، تحديدًا، لمَ في سنة الأسرة هذه؟ في الواقع لأنّ الأُسرة مهدّدةٌ ومهاجمةٌ! وينبغي أن يتعرّض البابا للهجوم، وأن يتألّم، لكي يدرك العالم، وتدرك كلّ أُسرةٍ، أنّ هناك إنجيلاً أسمى: إنجيل الألم، وأنّ به ينبغي إعداد المستقبل، وألفيّة الأَسَر الثالثة، ألفيّة كلّ أُسرةٍ، وجميع الأسر**».

وعشيّة خضوعه لمداخلةٍ جراحيّةٍ، أشار أحد المقرّبين منه إلى ما قد تسبّبه هذه المداخلة من آلامٍ، فأجاب البابا، بكلّ سكونٍ: «**والكنيسة تحتاج إلى ألمٍ!**».

وفي كتابه الأخير: «الذاكرة والهويّة»، أكّد إيمانه بخصب الألم، بقوله:

«**بتألّمه من أجل جميعنا، أضفى المسيح على الألم معنًى جديدًا، وأدخله في بُعدٍ آخر ونطاقٍ آخر: بُعد الحبّ ونطاقه... إنّه الألم الذي يحرق الشرّ ويلاشيه بلهب الحبّ، والذي يستخلص من الخطيئة إزهار خيرٍ متعدّد الأشكال**».

قال الكاتب الفرنسيّ رينان: «أخطر مهمّةٍ في حياة المرء هو إعداده لموته...» وقد استعدّ «كارول ڤويتيووا»، لموته منذ حداثته، واكتسب هذا الاستعداد كثافةً منذ محاولة اغتياله، عام **١٩٨١**، وما جرّته في إثرها من عللٍ وأوجاعٍ، اضطرّته إلى الإقامة في المستشفى، والخضوع لمداخلاتٍ جراحيّةٍ، لا أقلّ من ثماني مرّاتٍ. وضاعفت حدّة مِحَنه الصحّيّة إصابته بداء پاركنسون، منذ عام **١٩٩١**، الذي أوهى قسطًا كبيرًا من طاقاته، وسمّره على صليبٍ دائمٍ.

وكتب طبيبه الشخصيّ «بوتزونيتّي» (Buzzonetti) في هذا السياق: «أدهى من ألمه الجسديّ الحادّ، كان ألمه النفسيّ والروحيّ. ولكنّه احتمله ببسالةٍ وصبرٍ. فلم يطلب مسكّن ألمٍ، أبدًا، حتّى في المرحلة النهائيّة. وآلمه، فوق كلّ شيءٍ، فقدانه الاستقلال الجسديّ. شيئًا فشيئًا كانت تنطفئ قدراته البدنيّة، وتتلاشى

طاقاته... وعندما حانت ساعة الصليب، عانقها بلا تردّدٍ مقدّسًا كلّ وهنٍ باستسلامه بين يدي مريم...».

كان صعود سلالم الطائرات يرهقه، على نحوٍ خاصٍّ، ولا سيّما بعد أن أُصيبت مفاصل ركبته اليمنى إصابةً بالغةً. وقد أجبرته رجفة يده اليسرى على الاكتفاء بيده اليمنى لرفع الكأس، أثناء التقديس. ومع ذلك استمرّ في الركوع، رغم الآلام الرهيبة، كلّما استطاع إلى الركوع سبيلاً.

لقد أيقن يوحنّا بولس الثاني أنّ من شأن المرض والألم، أن يصبحا دعوةً صوفيّةً مميّزةً في سرّ المسيح والكنيسة، وأنّ النعمة تتدفّق في الأجسام العليلة، وتجعل منها أجسادًا نورانيّةً.

وقد اصطبغت أيّام يوحنّا بولس الثاني الأخيرة بآلامٍ مضنيةٍ، وبعجزٍ عن الكلام، وعن السير، وبصليبٍ كان يتنكّبه بسجوٍّ، وعزيمةٍ، وصبرٍ، وحبٍّ، وبإيمانٍ مدهشٍ بيسوع وأمّه. ومن خلال الألم والصليب، كان يسهم في صراعات الكنيسة ضدّ كل ما يقاوم رسالتها في العالم المعاصر: الإلحاد، واللامبالاة الدينيّة، والعلمنة، ومجتمع الاستهلاك، ومقاومة حضارة الحبّ.

لقد ابتغى، في أيّامه الأخيرة، أن يشهد أنّ حتّى للشيخوخة رسالةً، وللألم كرامةً وقدرةً خلاصيّةً خاصّةً.

وبآلامه أضحى الداعية الصادق لرحمة الله، والمناشد المقنع لرحمة البشر.

وقد أسفر مرض الحبر الأعظم للعالم عن حقيقة شخصيّته، وجمع ألمُه الكنيسةَ كلَّها حول خليفة بطرس.

وباح هو نفسه: «**بتحديقنا إلى المسيح، وباتّباعه بثقةٍ صابرةٍ، نتمكّن من إدراك أنّ كلّ نوعٍ من الآلام البشريّة، ينطوي على وعدٍ إلهيٍّ بالخلاص والفرح. وإنّي أودّ تبليغ رسالة العزاء والرجاء إلى الجميع، ولا سيّما إلى من يجتازون أوقاتًا عصيبةً، والذين يتألّمون في أجسادهم وفي أرواحهم**».

رسالة البابا المتألّم هذه تقبّلها المتألّمون، لأنّها صدرت عن شخصٍ عانى

الآلام مثلهم، ومن ثمّ هو يفهمهم، ويحبّهم، ويقدّم آلامه من أجلهم. وقد قيل، بحقٍّ، إنّ البابا، في مرضه، كان يدبّج «رسالةً عامّةً بلا كلامٍ»، تعلن للجميع حبّ المسيح الذي، بموته على الصليب، نفّذ مخطّط اللّه، وأنقذ العالم.

وهذا ما أكّده الكردينال «جوزف رتسنغر»، الذي خلفه على السدّة البابويّة، عندما خاطبه، بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاعتلائه سدّة بطرس، فقال: «... **لم تكن لفظة الصليب، في حياتك، باطلةً، بل تلقّيتَ جراح الصليب في نفسك وجسدك. وعلى مثال بولس، مرّةً أُخرى، أنت تقاسي الألم، كي تتمّم، بحياتك الأرضيّة لجسد المسيح، وهو الكنيسة، ما ينقص من آلام المسيح**».

وعقب وفاة يوحنّا بولس الثاني، صرّح البابا بينيدكتس السادس عشر، بمناسبة زيارته لمستشفى «جيميلّي»: «**بوجودنا هنا، لا يسعنا سوى تذكّر الأوقات المثقلة بالقلق والتأثّر، التي عشناها، أثناء استشفاءات يوحنّا بولس الثاني الأخيرة... فهو، من غرفة مشفاه، قد بلّغ الجميع درسًا فريدًا، عن معنى الحياة والألم، في المفهوم المسيحيّ**».

وصرّح أيضًا في مناسبةٍ أخرى: «ما من حبرٍ أعظم ترك لنا من النصوص، بقدر ما ترك لنا يوحنّا بولس الثاني. وما من بابا، قبله، استطاع أن يزور، كما هو فعل، العالم أجمع». والتحدُّث مباشرةً إلى أقوام القارّات جمعاء. ولكنّه في نهاية الشوط، اضطرّ إلى معاناة درب ألمٍ صامتٍ... لقد أعطانا الأب الأقدس، من خلال أقواله وأفعاله، أشياءً كبيرةً. غير أنّ الدرس الذي لقّننا إيّاه من فوق منبر الألم والصمت، لا يقلّ أهمّيّةً. وفي كتابه الأخير، «الذاكرة والهويّة»، ترك لنا تفسيرًا للألم، ليس نظريّةً لاهوتيّةً أو فلسفيّةً، بل هو ثمرةٌ نضجت في أثناء مسيرة ألمه الشخصيّة، التي اجتازها مدعومًا بإيمانه في المسيح المصلوب. هذا التفسير الذي كوّنه في الإيمان، والذي أضفى معنًى على الألم المُعاش بالمشاركة مع ألم الربّ، كان يخاطبنا من خلال ألمه الصامت الذي حوّله إلى رسالةٍ كبرى».

«لقد انتهى يوحنّا بولس الثاني إلى اليقين بأنّ ما يحدّ قدرة الشرّ، وبأنّ القوّة

التي تقهره في نهاية المطاف، هما ألم ابن الله على الصليب، على حدّ قوله: **«ليس ألم الله المصلوب مجرّد شكلٍ من أشكالٍ أخرى. فبتألّمه من أجلنا جميعًا، أضفى المسيح على الألم معنًى جديدًا، وأدخله في بُعدٍ آخر، وفي مجالٍ آخر: مجال الحبّ... إنّ آلام المسيح على الصليب قد أسبغت على الألم معنًى جديدًا جدّةً جذريّةً، وحوّلته من الداخل... إنّه الألم الذي يحرق، والذي يقضي على الشرّ بلهيب الحبّ... كلّ ألمٍ بشريٍّ، كلّ وجعٍ، كلّ عاهةٍ، تنطوي على وعدٍ بالخلاص... وعدٍ بالفرح...**

«إنّ الشرّ، أيضًا، موجودٌ في العالم، كي يوقظ فينا الحبّ، والحبّ هو بذل ذاتٍ في خدمةٍ سخيّةٍ، ومتجرّدةٍ لمن يزوره الألم...

«من المؤكّد، علينا أن نعمل كلّ ممكنٍ لتخفيف وطأة الألم، ومنع الظلم الذي يؤلم الأبرياء. غير أنّه علينا، أيضًا، بذل كلّ جهدٍ ممكنٍ كي يكتشف البشر معنى الألم، لكي يقبلوا آلامهم الخاصّة، ويشركوها بآلام المسيح، وبذلك تنصهر في حبّ الفادي وتصبح قوّةً في وجه الشرّ، في العالم».

أيّام يوحنّا بولس الثاني الأخيرة

لقد قُيّض ليوحنا بولس الثاني أن يحيا، واقعيًّا، ما طالما علّمه عن الألم، في الشهور الثلاثة الأولى من عام ٢٠٠٥، والأخيرة من حياته الأرضيّة. ففيها تسنّم البابا ذروة التمثّل بالمسيح. وعاش جلجلةً حقيقيّةً، من خلال انهيار قواه، وتجرّده التامّ، وجهده، مع ذلك، وحتّى اللحظة الأخيرة، في سبيل النهوض بواجباته الراعويّة، ومواصلته إعلان تعاليم الإنجيل، ومبادئ الأخلاق، بجرأةٍ فريدةٍ، محتفظًا بقوّةٍ روحيّةٍ مدهشةٍ، وبالغًا أقصى تخوم الحبّ والقداسة.

ففي اليوم الأوّل من عام ٢٠٠٥، وهو اليوم المكرّس لتكريم أُمّ الله، وللدعوة إلى السلام العالميّ، خاطب المسؤولين الحكوميّين في العالم، قائلاً: **«إنّ يوم السلام العالميّ، يمثّل دعوةً للمسيحيّين، ولجميع البشر حسني النوايا، التزامًا ببناء السلام. إنّ قهر الشرّ بأسلحة الحبّ أمسى الوسيلة التي يسع كلّ إنسانٍ أن يساهم بها، في سلام الجميع... إنّ السلام على الأرض هو رسالتنا المشتركة».**

وفي اليوم التالي، أعلن، في أثناء صلاة التبشير: «**إنّ كلمة الله هو الحكمة الأبديّة العاملة في العالم. وفي التاريخ، حكمةٌ تجلّت في سرّ التجسّد، لكي تؤسّس ملكوت حياةٍ، وحبٍّ وسلامٍ... الله لا يتخلّى عنّا أبدًا. وهو، في سرّ الميلاد، جاء لكي يقاسمنا وجودنا. إنّ طفلَ بيت لحم، عشيّة موته الفدائيّ، ترك لنا وصيّة حبّ بعضنا بعضًا. وبتنفيذنا وصيّته هذه، نشعر بحضوره**».

وفي ١/١٠، أكّد للهيئة الدبلوماسيّة المعتمدة في الڤاتيكان، أنّ تحدّيات البشريّة، اليوم، تتمثّل في: الحياة، والخبز، والسلام، والحرّيّة.

وبما أنّ همّ وحدة المسيحيّين كان يختلج، بلا انقطاعٍ، في صدره، فقد أعلن، في أثناء صلاة التبشير، يوم ١/١٦، وبمناسبة اقتراب أسبوع الصلاة من أجل وحدة المسيحيّين: «**فلتساعد وساطة العذراء الأموميّة المسيحيّين على أن يكونوا قلبًا واحدًا، ونفسًا واحدةً. وجميع البشر على النموّ في التضامن من أجل بناء عالم سلامٍ**».

وكرّر دعوته إلى وحدة المسيحيّين، يوم ١/٢٣، فدعا جميع المسيحيّين إلى مواصلة الالتزام بالسعي إلى تحقيق هذه الوحدة، مؤكّدًا «**أنّ الوحدة عطيّةٌ من الله ينبغي التماسها بلا كللٍ**».

ولكن يوم ١/٣٠، أطلّ من نافذته، مع فتاةٍ صغيرةٍ، من أجل إطلاق حمامتين بيضاوين، بمناسبة اختتام شهر السلام. وفيما كان يهمّ بإلقاء كلمةٍ، اعترته، بغتةً، نوبة اختناقٍ. ومضت هذه النوبة في تفاقمٍ، إلى أن اضطرّ أطبّاؤه إلى نقله إلى مستشفى «جيميلّي» في الأوّل من شباط.

واستحوذ القلق على المؤمنين، الخاشين على حياته. ولكن، ظُهرَ الأحد، ٢/٦، في موعد صلاة التبشير، حُسِرت الحجب عن نافذة غرفته في المستشفى، وظهر للملأ، مثل «قلعة رجاء»، مذكّرًا بقيمة المرض الذي يُعاش مسيحيًّا، وأعلن: «**هنا، أيضًا، في المستشفى، ووسط المرضى الآخرين الذين أوجّه لهم تحيّة مودّةٍ، ما برحتُ أخدم الكنيسة والبشريّة جمعاء**». وناشد مستمعيه أن يثقوا بالحياة، فكان لندائه أصداءٌ بعيدةٌ، بدّدت مخاوف المؤمنين وهواجسهم، وتساؤلاتهم. واستعاد المسيحيّون قائدهم، وتحوّل القلق إلى دموع فرحٍ، دموع أبناءٍ ملتصقين بأبيهم.

وكان اليوم السابق، السبت ٢/٥، قد شهد توافد مئة أسقفٍ، بينهم كاثولكيّون وأرثوذكسيّون، وأنغليكانيّون، قادمون من أربعين بلدًا، إلى المستشفى، حيث صلّوا، معًا، من أجل شفاء البابا. وانضمّ إليهم، روحيًّا، ملايين محبّي ومقدّري يوحنّا بولس الثاني. وقد حرصوا جميعهم على التعبير للبابا عن محبّتهم وتضامنهم، ووقّعوا رسالةً مشتركةً قالوا له فيها: «... نودّ أن نبلّغكم صلاتنا وإخاءنا. قبلة محبّةٍ جماعيّةٍ، أيّها الأب الأقدس الذي لا عهد له بكللٍ. لقد التمسنا، معًا، وما زلنا نلتمس، بإلحاحٍ وثقةٍ، أن يهبكم الربّ شفاءً عاجلاً، فتعودوا، في أقرب موعدٍ، إلى التزامكم الحاسم من أجل كنيسة المسيح جمعاء. في الوهن والهشاشة أسكنتم قوّة الروح وشهادة الإنجيل. ونحن، بصفتنا أساقفةً، نشعر أنّ مثالكم يحرّضنا على إبداء مزيدٍ من الحبّ والعمق لهذه الشراكة التي تتغذّى بكلمة الله، والتي استنهضتموها، وسعيتم إليها بشتّى الوسائل، وفي كلّ مكانٍ من العالم».

بعد ظهر يوم الجمعة، ٢/١١، الموافق لعيد سيّدة لورد، ويوم المريض العالميّ الثالث عشر، نُظّم احتفالٌ في كاتدرائيّة القدّيس بطرس، حضره أكثر من عشرة آلاف مريضٍ ومعاقٍ، وفيه تلا الكردينال «روينيي»، نائب البابا في رعيّة روما، خطابًا أعدّه يوحنّا بولس الثاني، وقال فيه: **«إنّ لجوء المتألّمين إلى العذراء يمثّل تحريضًا دائمًا على الثقة بالمسيح وبأمّه السماويّة، التي لا تتخلّى عمّن يتوجّهون إليها في لحظات الألم وفي المِحَن. إنّ المسيح، رجل الآلام، بموته على الصليب، قد نفّذ مخطّط حبّ الآب، وافتدى العالم. أيّها المرضى الأحبّاء، إن أنتم وحّدتم أوجاعكم بمضائقه، أصبحتم معاونيه المميّزين، في خلاص النفوس. هذا هو واجبكم في الكنيسة، التي تعي جيّدًا ودائمًا، دور المرض المستنير بالإيمان وقيمته. ألمكم، إذن، ليس، أبدًا، نافلاً، بل هو ثمينٌ لأنّه يمثّل مشاركةً سرّيّةً، ولكنّها واقعيّةٌ، في رسالة ابن الله الخلاصيّة عينها.**

«ولذلك يعتمد البابا، اعتمادًا كبيرًا، على صلواتكم وتضحياتكم الغالية: قدّموها للكنيسة وللعالم، وقدّموها، أيضًا، من أجلي، ومن أجل رسالتي، بصفتي راعي الشعب المسيحيّ».

يوم ٢/١٣، انتقلت إلى الديار السماويّة الأخت لوسيّا، رائية فاطمة، وبهذه

المناسبة، بعث يوحنّا بولس الثاني برسالةٍ إلى أسقف كويمبرا، الذي تولّى مراسم جنازتها، جاء فيها: «**من خلال موته على الصليب، فتح لنا يسوع أبواب الحياة الخالدة... إنّنا نرسل التحيّة الأخيرة إلى تلك الكرمليّة المتواضعة والورعة، التي كرّست حياتها للمسيح، مخلّص العالم. إنّ زيارة السيّدة العذراء التي تلقّتها لوسيّا الصغيرة في فاطمة، مع ابني عمّتها، فرنسيسكو وياسنت، عام ١٩١٧، كانت لها بداية رسالةٍ خاصّةٍ، وفت لها حتّى أيّامها الأخيرة. وقد خلّفت لنا الأخت لوسيّا مثالاً لأمانةٍ كبرى للربّ، ولالتزامٍ فرِحٍ بإرادته الإلهيّة.**

«إنّي أذكر، بتأثّرٍ، المحادثات المتعدّدة التي أجريتها معها، وأواصر الصداقة الروحيّة التي توثّقت مع الزمن. وقد شعرت نفسي، دائمًا، مدعومًا بهبة صلاتها اليوميّة، ولا سيّما في أوقات المحنة والألم الشاقّة. فليكافئها الربّ عن الخدمة الجليلة والخفيّة التي قدّمتها للكنيسة».

صباح الجمعة، ٢/٢١، التقى أعضاء المجلس الحبريّ للخدمات الصحّيّة، وممّا قاله لهم: «**عندما ينير المرافق والكاهن نفسَ المريض، إنارةً وافيةً ومناسبةً، يمكّنانه من أن يكتشف فرح الرسالة الخاصّة، الموكلة إليه في جسد الكنيسة السرّيّ. فهو باتّحاده مع يسوع المتألّم، يتأهّل للإسهام في خلاص البشريّة بقرنه صلواته بآلامه... في الإيمان بالمسيح الذي مات وقام، يستطيع المريض نهل العزاء والرجاء الذي لا يخيب...**».

وأهاب بأعضاء المجلس «أن يركّزوا أفكارهم على تقديس لحظة المرض، وعلى الدور الذي يلعبه المريض، بموجب حضور المسيح الحيّ في كلّ إنسانٍ متألّم».

يومي ٢٠ و٢٣ شباط، أطلّ من نافذة مركزه في الڤاتيكان، ولكنّه ظلّ صامتًا عاجزًا عن التفوّه بكلمةٍ. ويوم ٢/٢٣، انتابته نوبة اختناقٍ ثانيةٌ، وكانت من الحدّة، بحيث سارع صديقه الكردينال «ياڤوسكي» إلى منحه مسحة المرضى، وأعيد إلى المستشفى حيث أُجريت له مداخلةٌ جراحيّةٌ مكّنته من التنفّس من حنجرته، ولكنّها أفقدته القدرة على الكلام. ولمّا صحا، طلب ورقةً دوّن عليها: «**ما الذي فعلوه لي؟**» **ولكن** «**إنّي بكلّيّتي لكِ!**». وخلال إقامته في المستشفى، لم يهمل صلواته الطقسيّة اليوميّة، ومسؤوليّاته الكنسيّة.

وكان قداسته قد وجّه، يوم ٢/٢٣، بواسطة الڤيديو، إلى الحجّاج القادمين من أجل اللقاء العامّ معه، رسالةً قال فيها: «**فلنفتح قلوبنا لإلهامات النعمة، وليحلّ الحبّ محلّ الأنانيّة، لكي نَخبَر فرح المسامحة والمصالحة الحميمة مع الله ومع إخوتنا**».

وفي الآن عينه، وجّه رسالةً إلى المؤتمر المعقود بإشراف الأكاديميّة الحبريّة من أجل الحياة، تحت شعار «جودة الحياة، وأخلاقيّات الصحّة»، ورسالةً أُخرى إلى المسؤولين عن التواصل الاجتماعيّ، مذكّرًا هؤلاء وأولئك بالمعايير الإنجيليّة.

يوم ٢/٢٧، كان البابا ما برح في مستشفى «جيميلّي». وفي ساعة الظهر، افتتح الكردينال ليوناردو ساندري صلاة التبشير، بمشاركةٍ روحيّةٍ مع الحبر الأعظم، فقال: «إنّ الأب الأقدس يواكبنا من مستشفى «جيميلّي»، ويقدّم صلواته وآلامه من أجلنا، ومن أجل العالم أجمع. ونحن، من ساحته، ومتّحدين معه بحبّنا العميق له، نصلّي معه ومن أجله». ثمّ تلا رسالة البابا الموجّهة إلى الحجّاج والتي، جاء فيها:

«**... إنّ مناخ التوبة التي يوحيها الصوم، يساعدنا على فهمٍ أفضل لقيمة الألم، الذي، على نحوٍ أو آخر، يمسّنا جميعًا، فنحن، بتحديقنا إلى المسيح، وباتّباعه بثقةٍ صابرةٍ، سنتمكّن من إدراك أنّ كلّ شكلٍ من أشكال الألم البشريّ، ينطوي على وعدٍ إلهيٍّ بالخلاص والفرح. وإنّي أودّ أن تصل رسالة العزاء والرجاء هذه إلى الجميع، وخاصّةً إلى الذين يجتازون أوقاتًا عصيبةً، إلى الذين يتألّمون في جسدهم وفي روحهم.**

«**وإنّي أُجدّد هبة ذاتي لمريم، أمّ الكنيسة: «إنّني بكلّيّتي لكِ». فلتساعدنا في كلّ لحظةٍ من حياتنا على تنفيذ مشيئة الله المقدّسة**».

وإلى الشبيبة الجامعيّة المحتفلة بيومها العالميّ الثالث عشر في روما، بعث، يوم ٣/٥، برسالةٍ أكّد لهم، فيها، أن لا تضارب بين الإيمان والعقل. وضرب مثلاً المجوس الذين قدموا من بعيدٍ، يبحثون عن المسيح، «**مستخدمين بُعدي الروح الإنسانيّ: العقل الذي يستجلي العلامات، والإيمان الذي يقود إلى عبادة السرّ. فمن أجل الإقدام على السفر الطويل والشاقّ، بحثًا عن رجاء المسيح، لم يكن**

العقل كافيًا، بل كان لا بدّ، أيضًا، من الإيمان بما أشار إليه النجم... ولم يكن رجاء المجوس ورغبتهم العارمة باطلين. وفي بيت لحم احتاج العقل إلى الإيمان لكي يتوسّم المسيح المنتظر، في وضاعة ابن البشر...

«**أيّها الأصدقاء الشباب الأحبّاء، فلتحدُكم، دائمًا، الرغبة في اكتشاف حقيقة وجودكم. وليكن الإيمان والعقل الجناحين اللذين يقتادانكم إلى المسيح، حقيقة اللّه، وحقيقة الإنسان، وفيه ستجدون السلام والفرح، وليكن المسيح مركز وجودكم كلّه...**».

في اليوم التالي بعث ببركته من المستشفى، معبّرًا عن فرحه العميق بمشاركة أبناء دياناتٍ أُخرى في الصلاة من أجله، وأنهى رسالته بقوله: «**فلتساعدنا مريم العذراء القدّيسة، كي ننال من المسيح نعمة إيمانٍ يتنامى صفاءً ومنعةً، لكي نكون شهودًا لإنجيله، متماسكين وشجعانًا**».

يومًا فيومًا، كانت تتفاقم صعوباته التنفّسيّة، وأعراض الاختناق، ويؤلمه عجزه عن النهوض بما كان يتحرّق رغبةً في تحقيقه. غير أنّه، من سرير المستشفى، كان يبذل جهودًا مضنيةً من أجل مواصلة الاضطلاع بالمهامّ الأساسيّة، فيستمع إلى التقارير المقدّمة له، ويوقّع الوثائق الهامّة، ويملي نصوصًا ورسائل، ويستقبل معاونيه. وفي هذه الأثناء زاره الكردينال رتسنغر، وشهد: «كان يتألّم على نحوٍ ظاهرٍ، ولكنّه كان يتمتّع بصفاء ذهنٍ وحضورٍ كاملين. زرته من أجل اجتماع عملٍ، وكنت بحاجةٍ إلى معرفة بعض قراراته. وقد زوّدني ببركته، وحيّاني باللغة الألمانيّة، مؤكّدًا كلّ ثقته وصداقته».

يوم السادس من آذار، ارتدى الزيّ الكنسيّ، واحتفل بقدّاس يوم الصوم الرابع، في المصلّى الصغير الملحق بغرفته في المستشفى، وألقى البركة الأخيرة بصوتٍ خفيضٍ مبهمٍ.

وبعد ثمانية عشر يومًا قضاها في المستشفى، أُعيد إلى الڤاتيكان، يوم الأحد ٣/١٣. وكان في استقباله جمهورٌ حاشدٌ يضجّ بهجةً. وقبل مغادرته، شكر للإعلاميّين إسهامهم في إبقائه على مقربةٍ من الجماهير، وأشاد بعظمة دور

الإعلام، وبمسؤوليّته في تقديم معلوماتٍ دقيقةٍ تحترم كرامة الشخص البشريّ، وتحرص على الصالح العامّ. فهو لم يمانع في اطّلاع الإعلام، ومن ثمّ العالم أجمع، على معاناته، إذ لم يكن يستحي بآلامه التي يرى فيها مشاركةً بآلام يسوع من أجل خلاص العالم. وفي الواقع كانت جلجلته درسًا بليغًا في الإيمان والشجاعة.

ولدى مغادرته المستشفى أكّد عزمه المضيّ في خدمة الكنيسة حتّى الرمق الأخير، فبدّد بذلك الشائعات التي رُوّجت حول احتمال استقالته.

وكان قد أكّد إرادته الحازمة ألاّ يُعاد إلى المستشفى، في أيّة حال، ورغبته في الموت داخل الڤاتيكان، إلى جانب ضريح القدّيس بطرس. وقد أُعدّ له فريق سهرٍ دائمٍ عليه، زُوّد بمنظومةٍ علاجيّةٍ وإسعافيّةٍ متكاملةٍ، وبمجموعةٍ من أصحاب الاختصاصات الطبّيّة المتأهّبين، أُسوةً بسمعان القيروانيّ، لمساعدة الأب الأقدس في حمل صليبه.

وكان، منذ وصوله إلى الڤاتيكان قد هرع إلى المصلّى، كي يشارك في مراثٍ باللغة الپولونيّة، تذكّر بآلام الربّ.

للمرّة الأولى، في عهد حبريّته، لم يرأس البابا الاحتفال بأحد الشعانين؛ غير أنّه وجّه رسالةً إلى الشبيبة التي أحيت فترة عبادةٍ إفخارستيّة، استعدادًا ليوم الشبيبة العالميّ المقرّر عقده في مدينة كولونيا الألمانيّة. وقد جاء في هذه الرسالة التي تليت في صلاة التبشير:

«إنّكم، اليوم، تعبدون صليب المسيح الذي تحملونه إلى العالم أجمع، لأنّكم آمنتم بحبّ الله الذي اعتلن كلّيًّا في المسيح المصلوب... تابعوا، بلا كلَلٍ، الدرب الذي سلكتموه، لكي تكونوا، في كلّ مكانٍ، شهودًا لصليب المسيح المجيد. ولا تخافوا. وليكن فرح الربّ المصلوب والقائم من الموت، قوّتكم، ولتكن مريم العذراء كلّيّة القداسة إلى جانبكم، دائمًا.

«يا يسوع الإفخارستيّا، إنّي أوكل إليك شبيبة روما والعالم أجمع، أحاسيسهم ومشاعر حبّهم، ومشاريعهم، وأقدّمهم لك بين يدي مريم أمّك وأمّهم.

«يا يسوع، أنت الذي قدّم ذاته للآب، أحببهم، واشفِ جراح روحهم.

«يا يسوع، أنت الذي قدّم ذاته للآب، ساعدهم كي يعبدوك في الحقيقة، وباركهم الآن ودائمًا».

ومع اقتراب أسبوع الآلام، تسارع تدهور حالته الصحّيّة، ومع ذلك استمرّ في توجيه رسائل إلى جهاتٍ مختلفةٍ.

وتمحورت بركته الفصحيّة حول توسّل تلميذي عمّاوس: «ابقَ معنا، يا ربّ»، وأنهاها بهذا الدعاء:

«نحن أيضًا، رجال ونساء الألفيّة الثالثة، نحتاج إليك، أيّها الربّ، الناهض من الموت: ابقَ معنا الآن، وإلى آخر الأزمان. واجعل ألاّ يحجب، أبدًا، تقدّمُ الشعوب المادّيّ، القيمَ الروحيّة التي تمثّل روح حضارتهم. كن لنا سندًا في مسيرتنا. بك نؤمن، وفيك نرجو، لأنّك تملك وحدك، كلام الحياة الأبديّة. ابقَ معنا، يا ربّ!».

يوم الخميس المقدّس، لم يتخلَّ عن عادة إنفاذ رسالةٍ إلى كهنة العالم. وفي رسالته، يومئذٍ، ذكّر بغنى سرّ الكهنوت وبواجباته، فهو يعني حياةً موهوبةً، مخلَّصةً ومخلِّصةً، حياة استذكارٍ وتذكيرٍ، حياةً مكرّسةً، مشدودةً صوب المسيح، حياةً إفخارستيّةً، في مدرسة مريم.

يوم الجمعة العظيمة، تابع من مصلاّه، على شاشة التلفزيون، درب الصليب الذي جرى، وفقًا للتقليد، في الكوليزيوم، وتلا الكردينال «ري» (Re) رسالة البابا، حيث ورد:

«إنّي، روحيًّا معكم في الكوليزيوم، ذلك المكان الذي يثير فيّ جمًّا من الذكريات والتأثّرات، في إطار طقوس درب الصليب المعبّرة، وفي مساء يوم الجمعة المقدّس هذا.

«إنّي أتّحد معكم في هذا الدعاء الحافل بالمغزى. إنّنا نعبد ونبارك سرّ صليب ابن الله، فمن موته، بالتحديد، تفجّر رجاءٌ جديدٌ للبشريّة.

«إنّ عبادة الصليب ترجعنا إلى التزام لا يسعنا الإفلات منه، إلى الرسالة التي عبّر عنها الرسول بولس بقوله: «إنّي أتمّ في جسدي ما ينقص من مضايق المسيح،

من أجل جسده الذي هو الكنيسة». وأنا، أيضًا، أُقدّم آلامي، لكي يتحقّق مرمى اللّه، ولكي تتغلغل كلمته إلى نفوس الشعوب. وأنا، بدوري، قريبٌ من جميع من يُمتحنون، الآن، بالألم، وأصلّي من أجل كلّ واحدٍ منهم.

«وفي هذا اليوم الذي يذكّر بيسوع المصلوب، أحدّق معكم إلى الصليب وأعبده، مردّدًا العبارة الطقسيّة: «أحيّيك، أيّها الصليب، يا رجاءنا الوحيد». أجل، أيّها الصليب، الرجاء الوحيد، هبنا الصبر والجرأة، وهب العالم السلام...».

وقد تابع طقوس درب الصليب، على شاشة تيليفزيونٍ، جالسًا على كرسيٍّ بعجلاتٍ في مصلاّه الخاصّ، مجدّدًا في جسده وفي نفسه، آلام معلّمه، منصهرًا فيه، متأهّبًا للغرق في مجده الأبديّ، حاملاً بين يديه صليبًا كبيرًا، قبّله بحرارةٍ، عندما انتهى التطواف إلى المرحلة الرابعة عشرة، وشدّه بقوّةٍ إلى وجهه الذي انطبعت عليه أمارات الألم، ولكأنّه كان يودّ ترديد قول بطرس: «**يا ربّ أنت تعلم كلّ شيءٍ، وتعلم أنّي أحبّك!**».

وليلة السبت **٣/٢٦**، وجّه إلى آلاف المؤمنين المحتشدين في كاتدرائيّة القدّيس بطرس للاحتفال بالسهرة الفصحيّة، رسالةً تلاها الكردينال «رتسنغر»، جاء فيها:

«مدهشةٌ، حقًّا، هي الليلة التي فيها قهر نور المسيح الساطع قهرًا نهائيًّا، ظلمات الشرّ والموت، وأنعش في قلوب المؤمنين الرجاء والفرح. أيّها الأصدقاء المحبوبون، فلنسأل الربّ يسوع أن يرى العالم ويعترف أنّه، بفضل آلام المسيح وموته وقيامته، أُعيد بناء كلّ ما كان مهدّمًا، وجُدّد ما كان قد شاخ، وكلّ شيءٍ عاد أبهى رونقًا، إلى كماله الأصليّ...».

بعد قدّاس أحد الفصح، شخصت أبصار الجماهير إلى البابا، الذي كان يطلّ من نافذته. ولكم رغب في أن يؤكّد للجماهير المحتشدة أنّ حبّ المسيح هو أقوى من الموت! ولكنّه لمّا أطلّ من نافذة مكتبه، حال التأثّر والألم دون انطلاق أيّة لفظةٍ من شفتيه، ورغم الجهود المضنية التي بذلها، لم تُسمع منه سوى حشرجةٍ وجيعةٍ. ذلك الصوت الذي دوّى طيلة ربع قرنٍ في آفاق العالم أجمع عجز عن التلفّظ بالبركة، فاكتفى برسم إشارة صليبٍ صامتةٍ، وبالردّ على تحيّات الجماهير

بإيماءةٍ من يده. وقد خلّف منظر ذلك الحبّ الأبوي العاجز عن التعبير، وعيّ خليفة بطرس المؤثّر، في قلوب من تابعوه شخصيًّا، أو على شاشات تيليفزيوناتهم، انطباعًا لا يمّحي. وقد خضّه عجزه حتّى أعماقه، وبعد أن نأى عن النافذة، باح بأسًى: «**إن لم تعُدْ لديّ قدرةٌ على أداء الرسالة الموكلة إليّ، فقد يكون من الخير لي أن أموت!**». ولكنّه سرعان ما استدرك مؤكّدًا ما التزم به كلّ حياته: «**لتكن مشيئتك. إنّني بكلّيتي لكِ**». ومن المحقّق أنه لم يكن يخشى الموت الكفيل باقتياده إلى معلّمه الحبيب، الذي كرّس لخدمته كلّ كيانه.

كانت تلك بركته الأخيرة للمدينة وللعالم، وقد رسمها بيديه، بلا كلامٍ؛ وشاءت العناية الإلهيّة أن تتزامن أيّامه الأخيرة على هذه الفانية، مع ذكرى آلام الربّ وصلبه وقيامته.

في يوم الاحتفال بقيامة المسيح، لوَّن الحزن أعظم يوم فرحٍ في الروزنامة المسيحيّة.

ويوم **٣/٣٠** بذل جهدًا مضنيًا كي يخاطب الجموع المحتشدة في ساحة القدّيس بطرس، ولكنّ جهده انتهى إلى فشلٍ، وشهدت الجموع، بلوعةٍ، شعلة حياته النائسة، مشرفةً على الانطفاء.

يوم الخميس **٣/٣١** اعترته رعشةٌ عنيفةٌ، واكبها ارتفاع حرارةٍ حادٌّ، ناجمٌ عن نوبةٍ قلبيّةٍ، والتهاب المسالك البوليّة. وبات جليًّا أنّ النهاية أمست وشيكةً. ومنحه صديقه الكردينال «ياڤورسكي» مسحة المحتضرين للمرّة الثانية. وشرع البابا يودّع معاونيه واحدًا، واحدًا.

وبعد ظهر ذلك اليوم، احتُفِل بالقدّاس في غرفته، فتابعه مغمض العينين، غير أنّه، في لحظة التكريس، رفع، برفقٍ، ذراعه اليمنى، مرّتين، لتكريس الخبز والخمر، وحاول قرع صدره توبةً. وبعد القدّاس تعاقب معاونوه والراهبات المكلّفات بخدمته، على تقبيل يده وتوديعه، وكان يدعو كلاً منهم باسمه، مضيفًا: «للمرّة الأخيرة». وتبعهم الأطبّاء والممرّضون، وقد أخذ بجميعهم تأثّرٌ بالغٌ، فأكّدوا له حبّهم وتضامنهم.

وفي الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة الأوّل من نيسان أُقيم في غرفته، قدّاسٌ أُتبع برتبة درب الصليب، فتابعهما بعد أن وضع في عنقه البطرشيل والصليب الحبريّ، وواكب بخشوعٍ سحيقٍ مراحل درب الصليب، راسمًا، لدى كلّ مرحلةٍ، إشارة صليبٍ.

وفي هذه الأثناء، كانت تتأكّد وتتفاقم أعراض انهيار وظائف أوعيته الدمويّة، وقلبه، وكلاه، ومع ذلك كان يشترك بمشقّةٍ، بوشوشةٍ تكاد تُسمع بالصلوات المستمرّة من حوله.

يوم ٢٠٠٥/٤/٢، كان السبت الأوّل من شهر نيسان، واليوم الأخير في حياة يوحنّا بولس الثاني على الأرض. في الصباح، احتفل بالقدّاس، في غرفته، أمينا سرّه، بحضور طبيبه الشخصيّ، والراهبات الخمس اللائي سهرنَ على خدمته في أثناء حبريّته. وفي نهاية القدّاس، طلب أن تتلى على مسامعه مقاطع من إنجيل يوحنّا؛ ثمّ حرص على شكر كلّ من عمل معه، وطلب استدعاء مصوّره الخاصّ، وهو مصوّر الفاتيكان الرسميّ، فحضر ووقف عند الباب، وَجلاً، متردّدًا، غير أنّ أمين سرّ البابا أكّد له أنّه راغبٌ في رؤيته. ولّما جثا أمام سريره، أعلمه أمين سرّه بحضور المصوّر، ففتح عينيه وحدّق إليه، وداعب يده وباركه وشكره. ومع أنّ ذلك المصوّر كان قد عمل مع خمسة باباواتٍ آخرين، كانت مبادرة يوحنّا بولس الثاني تلك هي الوحيدة من نوعها.

عند الساعة ١٥:٣٠، أدركت الراهبة المكلّفة بخدمته الشخصيّة، أنّه راغبٌ في الكلام. وعندما أدنت أذنها من فمه، همس: «**دعوني أمضِ إلى الآب. آمين**».

وشهد جميع الحاضرين، آنذاك، أنّه احتفظ، حتّى اللحظات الأخيرة بهدوئه وسجوّ نفسه، وظلّ مبتسمًا لزائريه، محاولاً التعبير بالإيماء عندما كانت تحتبس الكلمات. وكان، طيلة ساعات احتضاره شاخص البصر إلى لوحةٍ معلّقةٍ أمامه، تمثّل المسيح مقيّدًا، وإلى إيقونة العذراء السوداء، سيّدة «تشينستوهوڤا». فقد أوكل نهايته إلى سرّ آلام الربّ، وشراكة العذراء في الفداء.

لقد انتهى البطل إلى غاية الشوط، وتسنّم القمّة، بعد تصعيدٍ شاقٍّ، وآن له أن ينعم براحةٍ أبديّةٍ.

في هذه الأثناء، كانت ساحة القدّيس بطرس تمتلئ، ولا سيّما بالشبيبة، وأحاط الكردينال «دزيڤيتش» الحبر الأعظم علمًا بأنّ حشود الشبيبة تتراصّ في الساحة، فطلب منه تبليغهم: «**طالما سعيتُ إليكم، وها أنتم، الآن، تأتون إليّ. فشكرًا لكم**».

عند الساعة السابعة مساءً، دخل البابا في غيبوبةٍ، فأقام أصدقاؤه الأساقفة البولونيّون قدّاس الرحمة الإلهيّة، وللمرّة الأخيرة مسحه الكردينال «ياڤورسكي» مسحة المحتضرين، وعند موعد المناولة، بلّل أمين سرّه شفتيه بدم الربّ المقدّس. وحينئذٍ أطلق نفَسَه الأخير. وكانت الساعة ٢١:٣٧. كان قد وفّى قسطه من مشاركة الربّ آلامه الفدائيّة، فانتقل، في نهاية أسبوع الفصح إلى مجد القيامة، وارتمى بين ذراعي يسوع وأُمّه، اللذين كرّس لهما حياته كلّها، في يوم سبتٍ مكرّسٍ لتكريم أمّ اللّه.

وكان موته الدرس الأخير الذي لقّنه، وأكّد، من خلاله، أنّ مراحل الألم والموت ينبغي أن تُعاش على ضوء الإيمان، بحبّ المسيحيّ ورجائه، وفي المثابرة على خدمة الكنيسة، والإسهام في خلاص البشر.

لحظة مجدٍ ليوحنّا بولس الثاني، وألمٍ لملايين محبّيه الذين أرهقهم شعور اليتم، وفداحة خسارة الأب والربّان.

في ساحة الڤاتيكان كانت تُتلى، بلا انقطاعٍ، أبيات المسبحة، وتنشد أناشيد لسيّدة فاطمة.

في الساعة التاسعة، استهلّ كردينالٌ تلاوة الورديّة، بصوتٍ هدّجه الحزن والتأثّر. وممّا قاله: «في الواقع، إنّ أمّ اللّه هي التي ترأس هذه الصلاة من العلاء، وتهيمن على هذه الساحة، وتداعب جماعة شعب اللّه هذه، التي تصلّي بجانب قلب ابنها المدعوّ يوحنّا بولس الثاني، الذي كرّس كلّ ذاته لها، وما انفكّ يردّد، في كلّ لحظةٍ: «**إنّي بكلّيّتي لكِ، يا مريم**».

وفجأةً، سرى نبأٌ مثل رعشةٍ: «مات البابا». وفيما أطلقت أجراس العالم رنّاتٍ بطيئةً، مثل قطرات حزنٍ متساقطةٍ، متجاوبةً مع أنّات ملايين القلوب الجريحة، راح آلاف المحتشدين، القادمين من شتّى أرجاء المسكونة، يصافحون بعضهم بعضًا، باكين أبًا غاليًا، وحّدهم غيابه.

حدث، إذن، ما كان يخشاه ملايين المؤمنين. وتمكّنت الأمراض، والأتعاب، والتضحيات من متانة «كارول ڤويتيووا» وصموده، وصرعت ذلك الحبر الفذّ الذي كان يصعب على الناس تخيّل غيابه، بعد أن فرض حضوره على الساحة العالميّة. وكان غيابه شاقًّا على الجميع، ولا سيّما على شبيبة العالم، التي بثّها الرجاء والثقة، فوثقت به، واستمدّت منه الرجاء. بكاه ملايين البشر، وبخاصّةٍ في العالم الثالث، كما يبكون أبًا يعتمدون عليه. بكاه مؤمنون وغيرمؤمنين، بكاه علماء وفنّانون، وأساتذة، وبكته عامّة الناس، في كلّ مكانٍ.

ورافق إجماع الصدمة والأسى إجماع إعجابٍ وتقديرٍ واعترافٍ بالجميل، تجلّى في مطالبةٍ جماهيريّةٍ بتطويبه في الحال، لكي تمجّد أعمال اللّٰه من خلال مثال ذلك الراعي، منقطع النظير، الذي أسدى أجلّ الخدمات للكنيسة، وللبشريّة كلّها.

وفي لجّة الوجوم، استأنف الشعب الساهر صلاته، لأنّ أباه الروحيّ علّمه السهر والصلاة. وصدحت أناشيد تهتف: «هلّيلويا، سيقوم من الموت!». ولم يُطِقْ أحدٌ من الساهرين العودة إلى بيته، والبعاد عن الأب الحبيب.

لقد واكبت خطوات يوحنّا بولس الثاني صوب السماء، صلاة الورديّة، التي درجت على وقعها كلّ لحظةٍ من مسيرته الأرضيّة؛ صلاةٌ تفجّرت من قلوب أكثر من مئة ألفٍ من أبنائه ومحبّيه، الذي لوّعهم ويتّمهم غيابه، والذين غصّت بهم ساحة القدّيس بطرس، والشوارع العريضة المؤدّية إليها، والتي تحوّلت، في تلك الليلة، كاتدرائيّةً مهيبةً، في الهواء الطلق، وقلبًا ينبض بعنفٍ. وعلى وقع الترانيم المريميّة الشجيّة، المتصاعدة من ساحة القدّيس بطرس، انطلقت نفس يوحنّا بولس الثاني إلى خالقها، وإلى ذراعي الأمّ السماويّة.

ليلةٌ لا يمكن نسيانها، ليلة عيونٍ دامعةٍ شاخصةٍ إلى نافذة الراحل المضاءة، وقد خيّم على عاصمة الكثلكة ألمٌ وقورٌ وجارحٌ، في آنٍ واحدٍ، ألَمٌ لم يلطّفه سوى الإيمان بالقيامة وبالمجد الذي يكلّل أصدقاء يسوع، وأبناء العذراء البررة. هذا الشعور عبّر عنه أُسقفٌ كان يصلّي مع الجموع، وأعلن: «إنّنا نشعر باليتم هذا المساء، ولكنّ إيماننا يعلّمنا أنّ المؤمنين بالربّ يحيون به».

وفي وسط تلك اللجّة، برزت أعلام پولونيّةٌ بحواشٍ سوداء، إلى جانب لافتاتٍ تعلن «يوحنّا بولس الثاني، أنت في قلبنا»، وتلالٍ من باقات الزهور، وآلاف الشموع المضاءة، أمام صُوَر الراحل، وجموع المؤمنين الراكعين على الحضيض، والذين ظلّوا راكعين، عندما بدأ الاحتفال بقدّاس منتصف الليل، احتفالٌ بسبتٍ لا تغرب شمسه، وبفصحٍ أبديٍّ.

وعندما كرّت دقّات الساعة الاثنتا عشرة، هطلت الصلاة التي كان قد أعدّها الراحل العظيم للاحتفال بعيد الرحمة الإلهيّة، الذي أسّسه، هو، عام ٢٠٠٠، هاتفةً: «واليوم نكرّر بثقةٍ: يا يسوع أثق بك، فارحمنا وارحمِ العالم أجمع»... كلماتٌ رقيقةٌ، نابضةٌ، خفقت لها القلوب، واستدرّت وابلاً من الدموع.

الرجاء راسخٌ في النفوس، والإيمان بأنّ البطل ينال الآن إكليل الفوز، وطيدٌ، غير أنّ غياب الأب يثخن الأفئدة بالجراح، وساحة القدّيس بطرس أمست «بيت العالم».

وقد اشترك بهذا القدّاس الليليّ ثلّةٌ من الكرادلة والأساقفة وحضره كبار المسؤولين الحكوميّين الإيطاليّين، والدبلوماسيّين، وحشدٌ كثيفٌ من الكهنة والراهبات والمؤمنين.

أمّا في غرفة الراحل الكبير، فقد امتزجت مشاعر الأسى الهاصر بالتجلّة أمام محيًّا ارتدى، بغتةً، منظرًا ملائكيًّا، وطافت عليه مخايل السجوّ وسلام الأبرار. وقد شهد الكردينال «ياڤورسكي»: «امّحت تغضّنات وجهه. وزال شحوبه، والانقباض الذي كان يسبّبه الألم، وتجلّى وجهٌ مشعٌّ». وعبّر طبيب البابا الشخصيّ عن انطباعاته بقوله: «للطبيب المسيحيّ، احتضار أيّ إنسانٍ هو

احتضار الربّ. فلكلّ امرئٍ جراحه، وإكليل شوكٍ... وقد خصّني موت يوحنّا بولس الثاني أكثر من أيّ موتٍ. كان موت رجلٍ تجرّد من كلّ شيءٍ، بعد أن عاش ساعات النضال والمجد، وظهر، في عريه الداخليّ، فقيرًا وحيدًا، ملاقيًا ربّه الذي سيسلّمه مفاتيح الملكوت. في تلك الساعة المثقلة ألمًا ورهبةً، انتابني شعورٌ بأنّني على ضفاف بحيرة طبريّة، حيث بدا أنّ التاريخ ينطلق مجدّدًا من الصفر».

في تلك الليلة سُجّي الجثمان في مصلّى البابا الخاصّ، حيث كان يقيم، كلّ صباحٍ، الذبيحة الإلهيّة، ويتأمّل، ويفكّر ويكتب، أمام مخبإ القربان، ويرفع صلواته اليوميّة، وينهج درب الصليب. في وسط هيكله كان ينتصب صليبٌ، وإلى جانبه إيقونةٌ للعذراء السوداء، سيّدة «تشينستوهوڤا»، وعلى الجوانب صور الإنجيليّين الأربعة، وعلى الحائط محطّات درب الصليب. على بعد خطواتٍ من الجثمان المتّشح بثيابه الحبريّة، وقد التفّت حول راحتيه المسبحة التي واكبت كلّ مسيرته، ركعت الراهبات الپولونيّات اللواتي تفانين في خدمته مدى سبعةٍ وعشرين عامًا، وبضع راهباتٍ أخرياتٍ، وطغمةٌ من الكرادلة والأساقفة.

في الصباح تلا الأُسقف المكلّف بإدارة المسكن البابويّ، مقطعًا من رسالة القدّيس بولس إلى الرومانيّين يقول: «**إذ كنّا قد صرنا متّحدين مع المسيح بشبه موته، نصير، أيضًا، بشبه قيامته**». وإثر توقيع وثيقة وفاته، المكتوبة باللغة اللاتينيّة، بحضور رهطٍ من الكرادلة، أودعه الحاضرون قبلة الوداع. ثمّ نقل الجثمان، في تطوافٍ مهيبٍ إلى الصالة «الكليمانتيّة»، حيث سُجّي كي يتخشّع أمامه، ويودّعه الراغبون في اختزان ذكرى أخيرةٍ منه. وكان من أوّل مودّعيه رئيس الجمهوريّة الإيطاليّة «شيامپي» (Ciampi) وزوجته، وكبار مسؤولي الدولة.

وأمام جمهورٍ مزّقته الفاجعة، أُقيم قدّاسٌ، تلا، في نهايته، أحد الكرادلة صلاةً للعذراء، وتلا كردينالٌ آخر نصًّا كتبه البابا الراحل قال فيه: «**الرحمة هي سرّ حبٍّ؛ والحبّ هو الذي يحوّل القلوب، ويهب السلام. وكم العالم بحاجة إلى فهم الرحمة الإلهيّة، وإلى تقبّلها!**».

وبما أنّ يوم الأحد ذلك كان أحد الرحمة الإلهيّة، الذي أسّسه يوحنّا بولس الثاني، احتفل أمين سرّ دولة الڤاتيكان، الكردينال «أنجيلو سودانو»، بالذبيحة الإلهيّة في ساحة القدّيس بطرس، وقد جاء في عظته: «لا ريب أنّ نفوسنا مضطربةٌ... بعد أن غادرَنا أبونا وراعينا، يوحنّا بولس الثاني. غير أنّه، سحابة ستٍّ وعشرين سنةً، لم يكفّ عن دعوتنا إلى الالتفات نحو المسيح، مصدر الرجاء الوحيد. سحابة ستٍّ وعشرين سنةً، حمل إلى كلّ مواقع العالم، إنجيل الرجاء المسيحيّ، معلّمًا كلاً منّا أنّ موتنا ليس سوى عبورٍ إلى وطن السماء...».

وذكّر الكردينال أنّ البابا الراحل كان قد أهدى الكنيسة، عام ١٩٨٠، رسالته العامّة المتعلّقة بالرحمة الإلهيّة، ودعا المسيحيّين إلى التطلّع نحو أبي كلّ رحمةٍ وعزاءٍ، ونحو أُمّه، أمّ الرحمة؛ وطالب الكنائس بأن تكون بيوت رحمةٍ، فاتحةً أبوابها وقلبها لكلّ محتاجٍ إلى عونٍ، وصفحٍ، وحبٍّ.

وختم عظته بقوله: «إنّ يوحنّا بولس الثاني الكبير، كان داعية حضارة الحبّ، وهي مرادفةٌ للحضارة المسيحيّة... فليسهر علينا دائمًا من سمائه، وليساعدنا على اجتياز عتبة الرجاء الذي طالما حدّثنا عنه... ولتظلّ رسالته، إلى الأبد، محفورةً في قلب بشر اليوم...».

في الساعة السابعة عشرة من بعد ظهر يوم الإثنين، الرابع من نيسان، أُنزل الجثمان، في تطوافٍ مهيبٍ، إلى ساحة القدّيس بطرس، الساحة التي طالما تردّدت في أرجائها تعاليمه وعظاته، والتي ضرّجها بدمه. وعُرض، للمرّة الأخيرة، محيّاه ويداه لأنظار لجّةٍ بشريّةٍ، استقبلته برعدٍ من التصفيق، وبوابلٍ من الدموع.

ومدى أربعة أيّامٍ، لم ينقطع تدفّق الجماهير المعبّرة عن تقديرها وحبّها وعرفانها بجميل ذلك الحبر الذي طالما كان حاجّ الإنجيل، مذكّرًا كلّ إنسانٍ بكرامته، ومدافعًا عنها، ومرشدًا إلى سبُل الخلاص، والسعادة الأصيلة التي لا تخدع. أكثر من مليون شخصٍ، كثيرون منهم قدموا من بعيدٍ، انتظروا بصبرٍ أن يتاح لهم وداع ذلك العظيم، الذي بثّ نفحة رجاءٍ في عالم يمضّه الخوف، ويؤرّقه القلق.

أشخاصٌ من كلّ مستوًى، وكلّ طبقةٍ، مرّوا خُشَّعًا أمام جثمان البابا العظيم، رؤساء جمهوريّات، منهم ثلاثة رؤساء أميركيّون، ورؤساء وزراء، ووزراء، ودبلوماسيّون، ومسؤولون من كلّ رتبةٍ، وممثّلو دياناتٍ أُخرى، وفنّانون، وكتّابٌ، وفقراء كان لهم الراحل السندَ والنصير؛ وقد طغت نسبة الشبّان الذين كان البابا الراحل يؤثرهم بمحبّته وعنايته. ولكن برز غياب الحضورَيْن الروسيّ والصينيّ، في حين أعلنت كوبا حدادًا رسميًّا مدّة ثلاثة أيّامٍ.

كان قد وُضع حاجزٌ، يمنع الازدحام، ويحول دون اقتراب الجموع من جثمان البابا، وربّما انقضاض البعض عليه. فكانت الجموع تمرّ صامتةً، إلى جانب هذا الحاجز، وتلقي عليه نظرة وداعٍ. ويروي الأُسقف «كومستري»، الذي كان نائب البابا لشؤون رعيّة روما، أنّ أحد المؤمنين ناداه، وتشبّث به، وتوسّل إليه أن يمكّنه من الاقتراب والتخشّع أمام الجثمان، فبيّن له الأُسقف استحالة ذلك، نظرًا لكثافة الجموع، وما قد يحدثه هذا الاستثناء من بلبلةٍ وفوضى. ولكنّ الرجل ظلّ متشبّثًا به، ملحًّا، ومتوسّلاً، باكيًا، ومردّدًا: «ينبغي أن أركع أمامه، وأقول له شكرًا. فكنت قد فقدت الإيمان، وبعدتُ، كلّيّةً، عن الكنيسة، غير أنّ إيمان هذا الرجل – وأشار إلى الجثمان – أعاد لي إيماني». واستسلم الأُسقف، بعد لأيٍ، وركع الرجل، ووقف الأُسقف وراءه، ولحظ ارتجافه، ونحيبه، وتأثّره السحيق.

وبعد يومين دعا رجلٌ آخر الأُسقفَ بإلحاحٍ شديدٍ، وخشي الأُسقف أن يتكرّر الحدث، ولكنّ الرجل اكتفى بالكشف عن ذراعه، حيث ظهرت بوضوح آثار حقن المخدّرات. واعترف الرجل: «أنا الآن شيخٌ، في حين كان هذا الشيخ شابًّا. أنا لا أطلب منك أن أقترب منه، بل أن تقبّل قدميه عنّي. وبذلك تقول له، عنّي: شكرًا. ونفّذ الأسقف ما طُلب منه، مذرِّفًا دموع التأثّر الحارّة.

يوم ٦ نيسان تلا الكردينال رتسنغر وصيّته التي كان قد دوّنها على فتراتٍ، بدءًا من ١٩٧٩/٣/٦، وتابعها عام ١٩٨٠، و١٩٨٢، ودوّن القسم الأكبر منها عام ٢٠٠٠. هذه الوصيّة هي، نوعًا ما، تأمّلٌ وفحص ضميرٍ، وحوارٌ مع الكنيسة والبشريّة، وهي مشبعةٌ بشعار يوحنّا بولس الثاني: «**إنّي بكلّيّتي لكِ، وكلّ ما لي هو لكِ**».

وبدأت شعائر الجنازة في الساعة السابعة والنصف من صباح يوم الجمعة الثامن من نيسان، عندما وُضع الجثمان في تابوتٍ من خشب السرو، وسجّي أمام الهيكل، وقد أحاط به من كانوا معاونيه الأقربين، وطبيبه الشخصيّ، والراهبات البولونيّات اللواتي تولّين خدمته بغيرةٍ، طيلة مدّة حبريّته، وثلاثة شبّانٍ يمثّلون الشبيبة العالميّة، التي احتلّت من نفسه وقلبه حيّزًا أثيرًا.

وبعد تلاوة نبذةٍ عن حياته وفعاله، أسبل أمين سرّه وأُسقفٌ آخر منديلاً حريريًّا أبيض على محيّاه، وقالا: «هذا الوجه لن نراه بعد، ولكنّنا سنحتفظ به جميعنا في قلبنا، وسيظلّ هو يشهد وجوهنا». وتلا الكردينال الذي يتولّى نيابة الراحل المؤقّتة، صلاةً جاء فيها: «فليشهد الآن وجهك الأبويّ، ذاك الذي سبر طرقك كي يظهرها للكنيسة». وبعد أن أُغلق النعش، وقبّله أمين سرّه، بدأت طقوس الجنازة الرسميّة، التي حضرها نحو مئتي وفدٍ يمثّلون دولاً ومنظّماتٍ دوليّةً، ورؤساء دولٍ، وممثّلون عن الطوائف المسيحيّة، والديانات الأُخرى. واحتشد خارج الكاتدرائيّة من المؤمنين المتأثّرين ما لم يُشاهد مثله عددًا، قطّ.

ترأّس مراسم الجنازة عميد الكرادلة، الكردينال رتسنغر، وأحاط به ١٥٦ كردينالاً، وثلاث مئة رئيس أساقفةٍ وأُسقف. وألقى الكردينال تأبينًا مؤثّرًا، زاخرًا بمشاعر الأسى والرجاء، والعرفان بجمائل الراحل الجليل. وقد أوجز صفاته، موضحًا أنّه كان: مرسلاً باسلاً لا يكلّ، وكاهنًا مثاليًّا أنفق حياته، يوميًّا، في خدمة المسيح وإخوته، والأسرة البشريّة جمعاء، وبرهن عن حبٍّ لامحدودٍ، فاتحًا قلبه لكلّ إنسانٍ، دلالةً على الرحمة الإلهيّة. وكان حبّ المسيح هو قوّته الطاغية، وهذا ما تبيّنه الذين شاهدوه يصلّي، وسمعوه يكرز. وهكذا بفضل تجذّره في المسيح، استطاع أن ينهض بعبءٍ تعجز عنه القوى البشريّة المجرّدة. كما أشار رتسنغر إلى شغف يوحنّا بولس الثاني بالعذراء، وعيشه شعاره: «إنّي بكلّيّتي لكِ» بكلّ حذافيره، وفي كلّ لحظةٍ. وختم بقوله: «إنّ يوحنّا بولس الثاني لم يغادرنا، ونحن متأكّدون أنّ حبرنا الأعظم الحبيب يطلّ علينا الآن من نافذة بيت الآب، ويرانا ويباركنا. أجل، أيّها الأب الأقدس، إنّنا نوكل نفسك الغالية إلى أُمّ الله، أمّك التي اقتادتك إلى مجد ابنها الأزليّ».

وفيما كان الكردينال يلقي كلمته، هبّت الريح، وقلّبت صفحات الإنجيل الموضوع فوق النعش، ولكأنّ يد الروح كانت تدعو المؤمنين إلى اقتفاء خطى القدّيس الراحل، بالوفاء لجميع تعاليم الإنجيل.

وفي أثناء حمل النعش إلى الضريح المحفور في الأرض العارية، تعالى نشيد تعظيمة العذراء: «**بعد الآن تطوّبني جميع الأجيال، لأنّ القدير صنع فيّ عظائم**».

وقد أوجز البابا بينيدكتس السادس عشر أصداء وفاة يوحنّا بولس الثاني بقوله: «إنّ موقف العالم أجمع من وفاة يوحنّا بولس الثاني، كان تظاهرة عرفان جميلٍ شديدةَ التأثير، لكونه، في أداء رسالته، قدّم ذاته، كلّيّةً لله، من أجل العالم؛ وكان تعبير شكرٍ، لأنّه علّمنا، مجدّدًا، في عالمٍ زاخرٍ بالحقد والعنف، أن نحبّ ونتألّم في خدمة الآخرين، ولأنّه أعطانا، إلى حدٍّ ما، الفادي الحيّ والفداء، ومن ثمّ اليقين بأنّ الكلمة الأخيرة، في العالم، ليست للشرّ».

وقد وصفت الصحافة العالميّة جنازة البابا يوحنّا بولس الثاني بأنّها أعظم جنازةٍ في التاريخ.

أصداء غيابه

إثر إذاعة نبإ وفاة يوحنّا بولس الثاني، انهالت على الڤاتيكان برقيّات التعزية من كلّ صوبٍ، مشيدةً بفضائله وفعاله. فقد وصفته المنظّمات العالميّة بأنّه «قوّة إلهامٍ خارقةٌ للبشريّة جمعاء». ووصفه الرئيس الدوريّ لجمعيّة الأمم بأنّه «الداعية إلى السلام والإخاء الذي لا يملّ، الممتلئ جرأةً وتواضعًا، والساعي إلى إحلال الحقّ والتشاور».

وقال ممثّل الاتّحاد الأوروپّيّ: «إنّه قاد التاريخ الأوروپّيّ، طيلة ثلاثة عقودٍ»، وأشاد بدوره الإنسانيّ، وذوده عن حقوق الإنسان.

وقال «كوفي أنان»: «لقد صمت صوتٌ لا عوض عنه، صوتٌ كان يذود عن السلام والحرّيّة والدين، والاحترام المتبادل، والتسامح بين الشعوب والديانات».

ونعته الحكومة البولونيّة بقولها: «انطفأ رمز التحوّلات الكبرى على كوكبنا، شخصٌ وفّر دائمًا القوّة والرجاء لمواطنيه، وساندهم في مسيرتهم صوب الحرّيّة، وساعدهم على اتّخاذ الخيار السليم».

وكتب صحافيٌّ: «اليوم تسلّم الكنيسة للتاريخ أحد أعظم رعاتها في جميع الأزمنة، يوحنّا بولس الثاني الكبير».

وقد أضحى ضريحه، منذ فتحه للجمهور، يوم **٢٠٠٥/٤/١٣**، محجًّا ومزارًا تتدفّق إليه زرافات المؤمنين القادمين لالتماس شفاعته، وإيكال نواياهم الغالية إلى عنايته. والذين تعذّر عليهم الحضور إلى روما، كانوا يصلّون، في بيوتهم أمام صورته، ويرون فيه شفيع الشباب والأُسر.

وكثيرون كانوا ينثرون فوق ضريحه قصاصات ورقٍ، أودعوها استشفاعاتٍ وتنهّداتٍ، وهتافات رجاءٍ، نورد، في ما يلي، باقةً منها:

احتوت بطاقة شابٍّ هذا الطلب: «أرشد جميع الشباب الذين فقدوا إيمانهم بالحبّ، واستسلموا لأهواءٍ عابرةٍ، غير مقيمين قيمةً أو معنًى لما يقومون به، وبمنأًى عن الحبّ الحقيقيّ».

وكتب شابٌّ آخر: «لقد غدوتُ أرمق العالم، وأرى حياتي بعيونٍ أُخرى. وأدركت أنّ عليّ تعلّم تقبّل مشاكل الوجود، على نحو ما حمل يسوع صليبه: بلا حقدٍ، ولا غضبٍ، بل بحبٍّ ونضوجٍ... وكما فعل يوحنّا بولس الثاني الذي أثبت لنا أنّ ملكوت الله قائمٌ حقًّا. ولم يعدْ لي ذلك سرًّا. شكرًا أيّها البابا يوحنّا بولس الثاني».

وكتبت فتاةٌ: «لقد أعطيتَ الكنيسة كلّ شيءٍ، وفتحتَ لنا باب قرنٍ جديدٍ. فكيف لنا ألاّ نحبّك؟».

طلاّبٌ عديدون التمسوا النجاح في امتحاناتهم، وأمّهاتٌ التمسنَ عملاً لأبنائهنّ، وشكرنَ إثر تحقيق ملتمسهنّ.

وكتب رجلٌ نيجيريٌّ بالإنكليزيّة: «أيّها البابا المحبوب جدًّا، يوحنّا بولس

الثاني، أعتقد أنّك ترمق من السماء كلّ أولاد الأرض الذين يبكون... وأنّك تحمل دموعهم للآب، وأنّك ستفعل كلّ شيءٍ لمساعدتهم. ساعدني على تقديس نفسي، كما فعلت أنت».

وكتب كاهنٌ: «ألتمس منك نعمة ارتدادي الدائم. وليلتهب قلبي، دائمًا، بالحبّ الوحيد اللائق: يسوع المسيح!».

وما أحرانا بأن نوكل إلى القدّيس يوحنّا بولس الثاني، أن يرفع إلى الربّ هتاف من أصبح خليفته، في أثناء الاحتفال بدرب صليب عام ٢٠٠٥: «ياربّ، غالبًا ما تبدو لنا كنيستك سفينةً موشكةً على الغرق، تتسلّل إليها المياه من كلّ صوبٍ. وفي حقلك نرى الزؤان متغلّبًا على البذار الطيّب. إنّ القذارة التي تلطّخ ثياب كنيستك ووجهها، تريعنا، ولكنّنا نحن من يوسّخها. نحن نخونك، مرّةً إثر مرّةٍ، بعد أن نكون قد أطلقنا التصريحات المدوّية، والإشارات الكبيرة. أشفق على كنيستك، فما زال آدم يسقط، دائمًا، في الخطيئة من جديدٍ. ونحن بسقوطنا نجرّك إلى الحضيض، فيبتهج إبليس، راجيًا ألاّ تستطيع، من بعدُ، النهوض من كبوتك، وأن تبقى طريح الأرض، بعد أن جرّتك كنيستك، في سقوطها. غير أنّك ستنهض، ولقد نهضت، وقمت من القبر، وبوسعك، أيضًا إنهاضنا، فخلّص كنيستك وقدّسها. وخلّصنا وقدّسنا!».

لقد كانت وفاة يوحنّا بولس الثاني مناسبةً لاستقراء مسيرته الفذّة، وإنجازاته الجبّارة. فأقبل كثيرون ممّن عملوا معه، ومن عرفوه عن كثبٍ، على تدوين مؤلّفاتٍ تخلّد ذكراه، وصورته السنيّة، ومآتيه الجليلة.

وأفرزت وفاته إجماعًا عالميًّا على تقديره أرفع تقديرٍ، وعلى الاعتراف بجمائله. ومنذ اليوم الأوّل، انطلقت الجماهير تطالب بتطويبه قدّيسًا في الحال. وقد أجرت مجلّة «الأُسرة المسيحيّة» الإيطاليّة، استقصاءً لتبيان أسباب المطالبة بتقديسه، فانهالت عليها أجوبةٌ تضجّ اندفاعًا وتقديرًا، نقتطف منها الباقة التالية:

«أرغب في أن يُعلن قدّيسًا، لأنّه كان، في نظري، إنجيلاً معاشًا ببطولة» (قارئٌ لبنانيٌّ).

«لأنّه غيّر التاريخ، وكان أبًا وأُمًّا في آنٍ واحدٍ، وأعطانا حياة يسوع الحقيقيّة» (من تشيكيا).

«لأنّه كان صورة المسيح الحقيقيّة على الأرض» (من فلسطين).

«لأنّه أظهر لنا، بحياته، حنان الآب، وحبّ يسوع، وجمال مريم» (من الصين).

«لأنّه التقط علامات الأزمنة، وقرّب الله من كلّ البشر حيثما كانوا: في العمل، في الأُسرة، وفي الحياة الاجتماعيّة» (من سويسرا).

«لأنّه كان، بعمقٍ، رجل صلاةٍ، ويحبّ الجميع، مؤثرًا الأصاغر والأشدّ فقرًا؛ ولم يكفّ عن التنديد بالحرب، وكان، دائمًا، مصغيًا إلى الروح القدس» (من إنكلترا).

«إعلانه قدّيسًا يعني أن نقول له «شكرًا»، ومقابلة الحبّ الذي أغدقه علينا جميعًا» (من مالطا).

مسيرة تطويبه

استجاب البابا بنيدكتس السادس عشر، الذي خلف يوحنّا بولس الثاني، على السدّة البابويّة، لصوت الشعب، ولا سيّما أنّه كان شاهد عيان على قداسة الراحل، فاستثناه من مهلة السنوات الخمس، اعتبارًا من تاريخ الوفاة، المفروضة قانونًا، قبل مباشرة إجراءات التطويب، وأعلن، في ٢٠٠٥/٥/١٣، أي بعد انقضاء واحدٍ وأربعين يومًا، فقط، على وفاته، الشروع في دعوى تطويبه. وفي ٢٠٠٥/٥/١٨، طلب الكردينال «رويني» (Ruini) أن يتقدّم كلّ من يملك دليلاً على نعمٍ خاصّةٍ تحقّقت بشفاعته، بوثائق تثبتها.

ويوم ٢٠٠٥/٦/٢٨، أعلن الكردينال «رويني»، من كاتدرائيّة القدّيس يوحنّا في اللاتران، افتتاح دعوى التطويب، بحضور حشدٍ كثيفٍ ضمّ عددًا غفيرًا من الأساقفة، وكان بينهم «ستانسلاس دزيڤيش»، الذي عمل سنواتٍ طويلةً أمين

سرّ الراحل، مذ كان أسقفًا، وكان، في هذه الأثناء، قد عُيّن رئيس أساقفةٍ لكراكوڤيا، وقد ترأّس بنفسه الاحتفال ببدء التحقيق الرعويّ في فضائل «كارول ڤويتيووا»، بتاريخ ٢٠٠٥/١١/٤.

وكانت قد ذُكرت أشفيةٌ عجيبةٌ تحقّقت بشفاعته، ودُوّنت في كتابٍ. وأبرز تلك الأشفية هي تلك التي حدثت، في فرنسا، لراهبةٍ في الرابعة والأربعين من عمرها، كانت عاجزةً عن الحركة. ومنذ وفاة يوحنّا بولس الثاني، أخذت رفيقاتها يستشفعنَ به من أجل شفائها، ولا سيّما أنهنّ كنّ مطّلعاتٍ على إعجابها به وبفضائله. وشهرين بعد وفاته، ليلة عيد قلب يسوع، في ٢٠٠٥/٦/٣، استيقظت تلك الراهبة، ليلاً، بعد أن سمعت مَن يدعوها للشخوص إلى المصلّى، فقفزت، وأمّت المصلّى، وتلت المسبحة الورديّة، مؤكّدةً، خاصّةً، على الأسرار المضيئة، التي وضعها يوحنّا بولس الثاني نفسه، ثمّ عادت إلى حجرتها، حيث استغرقت، ثانيةً، في النوم. وعندما أفاقت، صباحًا، كانت قد نعمت بشفاءٍ كاملٍ، فانطلقت تهتف: «لقد شفاني يوحنّا بولس الثاني! شفاني كي أواصل عملي في خدمة الحياة، التي طالما ذاد عن حياضها». وأُرسلت كلّ الوثائق المتعلّقة بمرضها وعجزها وشفائها، إلى روما، بعد تحقيقٍ طبّيٍّ، أشرف عليه الأسقف المحلّيّ.

بتاريخ ٢٠٠٧/٤/٢، انتهى التحقيق الأبرشيّ في سيرة وفضائل خادم الله «كارول ڤويتيووا»، في احتفالٍ كنسيٍّ أُقيم في كاتدرائيّة القدّيس يوحنّا في اللاتران. وفي نهايته، ختمت بالشمع الأحمر خمسة صناديق، تحتوي آلاف الشهادات. وكان في طليعة المشاركين في هذا الاحتفال، رئيس الجمهوريّة البولونيّة، والكردينال «دزيڤيش» رئيس أساقفة كراكوڤيا، والراهبة الفرنسيّة الأُخت «ماري سيمون پيير» التي نعمت بالشفاء العجيب.

في ٢٠٠٩/١١/١٦، التأمت لجنة أساقفةٍ، وأجرت تصويتًا إيجابيًّا بشأن تطويب خادم الله «كارول ڤويتيووا». وفي ٢٠٠٩/١٢/١٩، عقد البابا بينيدكتس السادس عشر مجلس كرادلةٍ، أعلن فيه «كارول ڤويتيووا» مكرّمًا، وحدّد موعد إعلانه طوباويًّا في العام التالي. غير أن تشكيكًا بصحّة طبيعة معجزة الراهبة

الفرنسيّة، استوجب تحقيقاتٍ جديدةً، أثبتت حدوث هذا الشفاء، بتدخّلٍ إلهيٍّ، وتعذّر تفسيره طبّيًّا. فقرّر البابا بينيدكتس إعلان يوحنّا بولس الثاني طوباويًّا، يوم الأحد الأوّل من أيّار ٢٠١١، وهو موعد الاحتفال بالرحمة الإلهيّة. وهكذا، للمرّة الأولى، في تاريخ الكنيسة، طوّب حبرٌ أعظم سلفَه المباشر، مع الحرص على إتمام كلّ إجراءات التطويب التي يفرضها القانون الكنسيّ. وقد اعتمد التطويب على فضيلتين بطوليّتين: إيمانٍ راسخٍ بحضور الله في التاريخ، وروحٍ رسوليٍّ متّقدٍ. هاتان الفضيلتان، وباقةٌ عامرةٌ من الفضائل الأُخرى، جعلت من يوحنّا بولس الثاني بابا رسوليًّا كبيرًا، خاض معه الربع الأخير من القرن العشرين مغامرةً منقطعة النظير.

وقد سعد العالم بإعلان البابا فرنسيس الأوّل قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني، يوم ٢٧ نيسان ٢٠١٤، يوم عيد الرحمة الإلهيّة الذي أسّسه البابا الراحل بنفسه، وقبل انقضاء عشر سنواتٍ على وفاته. ومن اللافت أنّ إعلان قداسته قد ترافق مع إعلان قداسة حبرٍ أعظم آخر هو يوحنّا الثالث والعشرون، وقد اشترك في إعلان قداسة ذيْنك البابوين، باباوان، أحدهما هو خليفته المباشر، بينيدكتوس السادس عشر.

فهنيئاً لنا بك، شفيعًا وقدوةً، أيّها القدّيس يوحنّا بولس الثاني!

آية مقاومة

وُصف يوحنّا بولس الثاني بالفاتن وبالمزعج، ومع أنّ سحره كان هو الطاغي، إلاّ أنّ بعض المنزعجين منه لم يتوانوا عن إعلان أسباب استيائهم، وتبيان مآخذهم. ومثل كلّ عظيمٍ، لم ينجُ يوحنّا بولس الثاني من سهام النقد والافتراء، والاتّهام الباطل. ولا عجب أن يكون هدفًا للنقد من قيل فيه إنّه أكثر شبابًا من أن يستوعبه عالمٌ ممعنٌ في الشيخوخة. وقد أتته الاتّهامات من داخل الكنيسة ومن خارجها، وغالبًا ما كانت متناقضةً، يدحض بعضها بعضًا.

ففي مجال الإدارة، اتّهمه بعضهم بالتراخي في مجال الانضباط الكنسيّ،

وبعجزه عن ترميم النظام الصارم القديم، والحفاظ على الطقوس التقليديّة، وبالمقابل اتّهمه آخرون بالسلطويّة، وبمركزيّة القرار، وبقمع حرّيّة التفكير.

وفي الواقع لا يمكن إنكار الجهود المضنية التي بذلها، في سبيل إعادة تنظيم الإدراة الفاتيكانيّة، ومقاومته الصارمة لمروّجي ما سُمّي «لاهوت التحرير»، البعيد عن الإنجيل؛ ولم يتوانَ عن كفّ يد أساقفةٍ وكهنةٍ، تمادوا في الدعوة إلى حرّيّةٍ أخلاقيةٍ تلامس الإباحيّة، وشدّد على واجب التأنّي في انتقاء أساقفةٍ جدُدٍ، وفي تزويد طلاّب الكهنوت بثقافةٍ روحيّةٍ، واجتماعيّةٍ، وعلميّةٍ، متينةٍ. ولئن حدثت تجاوزاتٌ، فلا ننسينّ أنّ بين تلاميذ يسوع الاثني عشر، وُجد خائنٌ.

ومن جانب آخر كان يوحنّا بولس الثاني من روّاد العمل المجمعيّ في الكنيسة (Collégialité). وقد عدّ نفسه دائمًا ابن المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وأنفق من الوقت في محاورة أساقفة الكنيسة، أكثر من أيّ بابا آخر، وبذل طاقاتٍ قصوى في سبيل عقد سينودسات الأساقفة، وحرص على أن يبدي لإخوته في الأسقفيّة، جاهزيّةً دائمةً، قلّما جاراه في ميدانها آخرون.

ومن المحقّق أنّه لم يجُلْ، قطّ، بخاطره أن يسحق معارضيه، أو أن يتصرّف تصرّف ملكٍ، ولم ينخرط في عقليّة الإدارة الفاتيكانيّة القديمة (الكورِيا)، وفي بيروقراطيّتها.

وأمّا عن حرّيّة التفكير، فقد أثبتت رسائله جميعها، وكتاباته العديدة، إبداعًا لاهوتيًّا وفكريًّا فريدًا، وانفتاحًا على الأساليب والمفاهيم الحديثة، قلّما جاراه فيها أحدٌ من الباباوات. غير أنّ انتقاده لبعض التيّارات اللاهوتيّة والفلسفيّة والاجتماعيّة، التي انطلقت في أعقاب المجمع الفاتيكانيّ الثاني، لم يستسغه بعض المفكّرين الكاثوليكيّين، الذين غازلوا الماركسيّة. ولا بدّ من التنويه بأنّ أبرز منتقديه، والذين أعلنوا جهارًا معارضتهم له، ما زالوا يُشرفون على كبريات جامعات اللاهوت، فهل هكذا يكون القمع الفكريّ؟

ومن الواضح أنّ الذين انتقدوه لم يدركوا العلاقة التي كان يقيمها بين التقليد والتجديد، بين الثابت والديناميكيّ. فما يبدو في الكنيسة ثابتًا أو جامدًا،

يعكس ديناميّتها الكمينة، ويزوّد بالزخم الأحداث الجديدة في الحياة المسيحيّة. وليس الإنجيل سجلّ محفوظاتٍ ميّتةٍ لماضٍ غابرٍ، بل هو يتيح تلقّي كلام الله، بكلّ طلاوته، وجدّته، في كلّ جيلٍ. وليست الأسرار مجرّد طقوسٍ تكرّر، لأنّ أجيالاً سابقةً مارستها، بل هي ما برحت تتيح لمسيحيّي اليوم، أن يعيشوا أسرار الإيمان الكبرى: حياة يسوع، وموته، وقيامته. وسلطة الكنيسة ليست عائقًا دون الإبداع، بل هي تقيهم من الوقوع في الرداءة. والعقيدة المسيحيّة ليست عبئًا إضافيًّا يعيق السفر، بل هي وسيلة السفر المثلى، ولذلك حرص يوحنّا بولس الثاني على وقاية نقاء عقيدة الكنيسة وتقليدها. وقد فهم البابا التقليد إرثًا، أي عطاءً يشرّف المعطي والمتلقّي، يتجسّد في حياة المسيح، ويستمرّ في الكنيسة بعطاء الروح القدس. وبهذا المعنى يتميّز التقليد، بكونه إيمان الأقدمين الحيّ، عن التقليديّة التي هي إيمان الأحياء الميت. ومن الواضح أن بابويّة يوحنّا بولس الثاني تجذّرت في التقليد الحيّ، ونأت عن مستنقع التقليديّة.

وكانت فئةٌ ممّن دعوا أنفسهم تقدّميّين، قد بنوا آمالاً عراضًا على إطلاق موجةٍ جديدةٍ في الكنيسة، تتخلّى عن الكثير من التعاليم المألوفة. ولكنّهم صُدموا برفض يوحنّا بولس الثاني التخلّي عن أيٍّ من ثوابت الكنيسة. ولقد تأخّر كثيرون من المسؤولين الكنسيّين، في تبنّي رؤيته إلى كنيسة رسلٍ، ملتزمةٍ بالإنجيل، وبثقافةٍ إنجيليّةٍ تدعو إلى القداسة، كي تشهد ليسوع أمام العالم أجمع، ويدعم رسالتها مكرّسون مدركون أنّ دعوتهم هي الخدمة، وليست السلطة.

ولئن ادّعى البعض، افتئاتًا، أنّ ما برع فيه وجلّى «كارول ڤويتيووا»، الكاهن و«النبيّ»، فشل فيه يوحنّا بولس «القائد»، وأنّ ما نجح فيه أُسقف كراكوڤيا، أخفق فيه أُسقف روما، إلاّ أنّ الواقع الذي لا يمكن إنكاره، هو أنّ البابا يوحنّا بولس الثاني قد آتى الكنيسة خيرًا عميمًا، وأشرع فسحةً واسعةً لبابويّةٍ إنجيليّةٍ، برهنت عن إبداعٍ فكريٍّ فريدٍ، وكان له تأثيرٌ واسعٌ وعميقٌ، ووضع صوًى ومعالم دائمةً للكاثوليكيّة في القرن الحادي والعشرين، كان قد فصّله في رسائله العامّة والرسوليّة، والتي أمست مرجعًا لا غنى عنه، وعنصرًا أساسيًّا من تقليد الكاثوليكيّة الحيّ.

وقد دحض أحد معاونيه المقرّبين ادّعاءات منتقديه بقوله: «إنّه يكنّ للناس احترامًا عميقًا، وهو صبورٌ. وفي أوضاعٍ محدّدةٍ، ينتظر اللحظة التي لا يسبّب تدخّله إهانةً، ويخطئ من يعدّ احترامه للآخرين ضعفًا. وهو يحترم، أيضًا، الكفاءات، وعندما يكلّف مكتبًا، أو مجمعًا، أو شخصًا بمسؤوليّةٍ، يدعهم يعملون، وهذا لا يعني أنّه ضعيفٌ. وهو يثق، ولا يقلق، ولا يخشى اتّخاذ قرارٍ، ولكنّه لا يستعجل الأمور، بل ينتظر نضجها. وربّما لم تخدمه، في جميع الأحوال، ثقته بمعاونيه، وكان أوّل من خاب رجاؤه في بعضهم».

وربّما لم ترضَ فئةٌ من منتقديه عن نزعته إلى الحوار والتشاور، وآثروا أن يفرض إرادته فرضًا. ولكنّه استمرّ في أسلوب التشاور، والإقناع حتّى الإنضاج. وقد عبّر فيلسوفٌ إيطاليٌّ عن رأيه في مواقف يوحنّا بولس الثاني، فكتب: «المثال الأعلى للبابا هو الاستشهاد والشهادة. هو حياةٌ متوافقةٌ مع الحقيقة. هكذا هو فهم خدمته الحبريّة. وهذا ما عبّر عنه في إحدى قصائده، عندما قال: «ما لم يُفلح اللسان في تحويله، سيفلح فيه الدم». وقد آثر، دائمًا، أن يكون المُهانَ لا المهين، ولم تدفعه الإهانة إلى ارتضاء ما يعدّه خطأً، هكذا شهد يسوع للحقيقة، لا بسفك دم من أهانوه، بل ببذل دمه. وهكذا اعتمد يوحنّا بولس الثاني أسلوب الشهادة والإقناع».

وعلى أيّة حالٍ، لا ريب أنّه دمغ البابويّة بطابع الإنجيل، والحضور الحيّ، الذي لن يتمكّن خلفاؤه من تجاهله. فقد دفع البابويّة في توجّهٍ يصعب عكسه. ومن المحقّق أنّ تنظيمه لأسلوب الانتخاب، وتعيينه العديد من الكرادلة من كلّ بقاع العالم، سيساعدان على المضيّ قُدُمًا في هذا الاتّجاه. لقد خطّ منعطفًا في تاريخ الكنيسة. وهو كان قد كتب: «المنعطف هو الأمر المهمّ، مثلما يُغيِّر درب القطار، ويحدّد سنتمترٌ واحدٌ اتّجاهه».

وربّما كان انتخاب البابا فرنسيس الأوّل هو من براعم ثمار تجديده.

ومن التهم الباطلة التي وُجّهت إليه إفراطه في الديمقراطيّة، وإيلاؤه حقوق الإنسان من الاهتمام أكثر من اهتمامه بحقوق الله. ومع سخافة هذا الاتّهام

وبُعده السحيق عن الواقع، لا مفرّ من التذكير بأنّ المحبّة هي وصيّة الله الأولى، وأنّ خدمة الإنسان هي خدمة الله، وفق تعليم يسوع.

وأُخذ عليه إمعانه في السعي إلى وحدة المسيحيّين، ومسكونيّة الكنيسة، بدافع الخشية على سلامة العقيدة، وتناسى منتقدوه قرنه المحبّة المتمثّلة في مدّ اليد إلى الإخوة، بحرصه على مصداقيّة التبشير بالإنجيل، وعلى نقاء العقيدة، وصفاء روحها، بمنأًى عن كلّ مساومةٍ أو تنازلٍ جوهريٍّ. من المؤكّد أنّه أقدم، في مجال وحدة المسيحيّين، على مبادراتٍ جريئةٍ، لم يكن من الممكن تخيّلها، من قَبْله، ولكنّه، بالمقابل، كان شديد الحرص على إصدار كتاب «التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة»، لكي تبقى العقيدة جليّةً، خالدةً، ثابتةً، في منجاةٍ من كلّ محاولة تلاعبٍ أو تشويهٍ، أو حيادٍ عن سواء السبيل.

ولم يُرقْ لبعض منتقديه استغفاره عن أخطاء أبناء الكنيسة، عبر العصور، ولم يستسيغوا إيقاظ ذكرياتٍ موجعةٍ. ولكن، ألم يكن استغفاره توافقًا مع تعاليم الإنجيل الأساسيّة؟ وهل كان للبابا أن يُدخل الكنيسة إلى ألفيّةٍ جديدةٍ، إلاّ وهي متخفّفةٌ من أخطاء أبنائها وخطاياهم، نقيّة الضمير، وهو الذي كان مثالاً للاستقامة، والذي لم يستحيِ من الاعتراف بهفواته، كلّ أُسبوعٍ؟

وأُخذ عليه موقفه الصارم في ميدان الأخلاق، مع أنّه كان أوّل من تطرّق، في كتاباته، إلى لاهوت الجسد، مع حرصه على تفادي الحياد عن وصايا الله، وتعليم الإنجيل. وكيف لا يكون البابا صارمًا، في حقبةٍ بلغت الإباحيّة والتراخي، قمّةً مقلقةً، ولا سيّما أنّ بعض المسؤولين عن نقاء السلوك، والوفاء للإنجيل، تغاضوا عن هذه النزعة الوبيلة، وتواطؤوا معها أحيانًا، وانزلقوا إلى مستنقعاتها؟ وكيف لا يقتضي الكثير، لكي يُصان الجوهريّ؟

وفي هذ السياق عزا إليه بعض منتقديه بغضه للنساء، واستهانته بشأنهنّ، في حين أنّ كلّ الوقائع تثبت نقيض ذلك. فكيف لمن بلغ شغفه بالسيّدة العذراء، وتكريمه لها ذرًى شامخاتٍ، أن يستهين بشأن امرأةٍ تذكّره بالأمّ السماويّة؟ وقد أجمعت النساء اللواتي تعاونّ معه عن كثبٍ، في أثناء خدمته الكهنوتيّة

والأُسقفيّة، على اعتبار هذا الادّعاء حماقةً. وأكّدت كتابات البابا العديدة عن النساء، ومواقفه الجريئة والحازمة الذائدة عن كرامتهنّ في المؤتمرات الدوليّة، كما جرى في مؤتمري بكّين والقاهرة، أنّ اهتمامه بشأنهنّ قلّما جاراه فيه حبرٌ أعظم آخر؛ وقلّما أشاد أحدٌ مثله بما سمّاه «العبقريّة النسائيّة». وهو، من خلال بحثه في لاهوت الجسد، تخطّى، بلا قياسٍ، دفاعًا عن كرامتهنّ، واهتمامًا بهواجسهنّ، كلّ ما سُمِّي «الثورة الجنسيّة». وهل أحدٌ سواه، شبّه الحبّ البشريّ الصادق، بحياة الله الثالوثيّة؟ وهل يمكن إغفال تعيينه امرأتين على رأس مؤسّستين حبريّتين هامّتين، داخل الڤاتيكان؟

ولا مراء أنّ يوحنّا بولس الثاني كان يداعب تطلّعاتٍ طَموحًا، لم يتمكّن من تحقيقها، في غضون فترة حبريّته، على نحو ما رغب، لأسبابٍ خارجةٍ عن إرادته أو طاقته، غير أنّه رسم السبيل إلى بلوغها.

ومن أبرز مواطن فشله توحيد المسيحيّين. ولكنّه أرسى أُسُس مصالحةٍ لم يشهد تحقيقها في حياته، وأشرع ثغراتٍ مضيئةً في جدران الخلافات الدهريّة، وأوجد قواسم مشتركةً في عدّة ميادين. ومن جانبٍ آخر أوجد قواسم مشتركةً مع المسلمين، وكان للقائه بالشبيبة المسلمة في الدار البيضاء، عام ١٩٨٥، أصداءٌ إيجابيّةٌ. غير أنّه لم يجد السبيل إلى الاتّفاق على مبدإ الحرّيّة الدينيّة.

ولم يفلح في بثّ روحٍ مسيحيّةٍ في جميع الديمقراطيّات التي انبثقت، إثر انهيار الشيوعيّة الستالينيّة. ولم يتحقّق حلمه في حمل أوروبّا على الاعتراف بجذورها المسيحيّة، والوفاء لها. ولكن، إن لم تتلقّ دعواته، دائمًا، استجابةً مرضيةً، فقد دسّ في العجين البشريّ خميرةً تحمل بذور الإنضاج والإخصاب.

ومن خيباته، إخفاقُه في إقامة علاقاتٍ طبيعيّةٍ مع الحكومات الصينيّة، التي لا تؤمن بتعايش حكمٍ توتاليتاريٍّ مع كنيسةٍ حيّةٍ.

وبالإجمال، مع الإجماع على اعتبار يوحنّا بولس الثاني من أعظم الشخصيّات العالميّة، إلاّ أنّه كان من أقلّها تفهّمًا، ومن أكثرها إثارةً لأحكام متناقضةٍ.

فعام **١٩٩٤** اختارته مجلّة «تايم» الأميركيّة رجل السنة؛ واعترف ميخائيل غوربتشيف أنّه لعب دورًا جوهريًّا في إنهاء الحرب الباردة؛ وأسرّ فيدل كاسترو أنّه شعر معه بوجوده مع قريبٍ، وأجمع المتعاملون معه، والذين لم يؤيّدوا، دائمًا، آراءه وأسلوب ممارسته لحبريّته، على الاعتراف بورعه، ورقّته، وقدرته اللامحدودة على الإصغاء.

ومع ذلك لم يتحرّج صحافيّون وكتّابٌ ذائعو الصيت، من إعلان كرههم له، وتمنّيهم موته، وكالوا له الهجاء المقذع، وألصقوا به أسخف التهم، حتّى إنّ أحدهم اتّهمه بعقد معاهدةٍ إسلاميّةٍ كاثوليكيّةٍ لنشر الظلاميّة، وشنّ «جهادٍ» مشتركٍ على الكفّار! واتّهمه آخرون بإحاطة الكنائس بشرطانٍ حديديّةٍ شائكةٍ. وبعد أن أعلنته صحيفة «انديپاندنت» اللندنيّة، عام **١٩٩٥**، آخر الزعماء العالميّين، نعتت، بعد ثمانية عشر شهرًا، حبريّته بالتعصّب، ووصفته بالتسلّط الذي عزله عن معظم الكاثوليكيّين الغربيّين، كما عزت إليه هرطقاتٍ عقائديّةً تعجز عن تخيّلها أكثر المخيّلات جموحًا.

ولا مراء أنّ من عوامل إساءة فهمه، خَفَره في التحدّث عن ذاته، وميوله الصوفيّة، فضلاً عن أُصوله الپولونيّة التي لا يعرف الغربيّون عنها سوى النزر اليسير، وعن جوّ الصمت والكتمان الشائع في الڤاتيكان.

ولا ريب أنّ من أسباب التنكّر له ومحاربته، قناعاته، وتعاليمه، وسيرته التي كانت تحدّيًا صريحًا للعديد من تعاليم عصره وأساليب سلوكه. ففي صميم ثقافةٍ تؤكّد أنّ السعادة تكمن في تأكيد المواهب، أعلن أنّ السعادة تثوي في خضوع المواهب والإرادة، المطلق، لحقيقةٍ وحبٍّ فائقين. وحيال النزعة إلى اعتبار الجدوى هي معيار القيمة الشخصيّة، أعلن أنّ كلّ كائنٍ بشريٍّ يمتلك كرامةً وقيمةً ذاتيّةً لا تُسلَب منه.

وفي عصرٍ لا يقيم وزنًا إلاّ للمصلحة الذاتيّة، ألحّ في الدعوة إلى إجلال الله، والجهد نحو القداسة، لأنّ ذلك هو النهج الصحيح.

وفي عصرٍ يؤمن أنّ السعادة تكمن في الثروة، والمتعة، والامتلاك، لم يكلّ

من التأكيد أنّ السعادة هي، قبل كلّ شيءٍ، كيانٌ نفسيٌّ غنيٌّ، وخدمةٌ ومحبّةٌ، وتضحيةٌ.

وفي عالمٍ يعتبر التاريخ نتيجة قوًى سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ بحتةٍ، دافع عن أولويّة الثقافة، وعن قدرة الروح البشريّ على تحويل مجرى التاريخ.

لكلّ هذه الأسباب كان يوحنّا بولس الثاني آية مقاومة.

ولكن، في كلّ مراحل التاريخ الحرجة، كلّما كانت بربريّاتٌ من كلّ نوع تهدّد الحضارة الإنسانيّة، كانت وجوهٌ مشرقةٌ بالبطولة تنبثق من صلب الكنيسة لدرء الكارثة.

ومن المؤكّد أنّ التاريخ سيذكر ليوحنّا بولس الثاني، درءه أخطار كتلة إيديولوجياتٍ ولّدت سياساتٍ بربريّةً، وتعاليم اجتماعيّةً وبيلةً فاشلةً، أنجبت أنماط طغيانٍ جديدةً، أسهمت في مضاعفة آلام البشر، وأودت بالحضارة إلى حافّة الدمار.

ومن ثمّ يمكن القول، في يوحنّا بولس الثاني، ما قاله شيسترتن في «توماس مور»: «**لو لم يوجد هذا الرجل في هذا الزمن، لكان التاريخ كلّه مختلفًا**».

شهاداتٌ

لا مناص من الإقرار بأنّ عدد منتقدي البابا الضئيل، يكاد لا يكون له ذكرٌ، قياسًا إلى شبه الإجماع على الإشادة والإعجاب به، وإلى فيض المديح الذي كيل له.

وكان الفيلسوف الفرنسيّ «إيتيين بورن» لسان حال الأغلبيّة العظمى من عارفيه ومحبّيه، عندما أوجز ردّه على منتقديه بقوله: «**إنّ يوحنّا بولس الثاني فائق العظمة**».

ووصف الكردينال لوستيجيه مسيرته بأنّها «مسيرة ماردٍ». وصرّح رئيس أساقفة مكسيكو: «**لم ينشر أحدُ الإنجيل، على مدى التاريخ، مثلما هو نشره**». وسمّاه رئيس أساقفة ميلانو بأنّه «مهندس أوروبّا». واعترفت الهيئة الدبلوماسيّة المعتمدة

في الڤاتيكان، عام **٢٠٠٤**، أنّه «**الرمز الحيّ للسلام الحقّ**». ومنحته جامعة «لاساپينزا» الإيطاليّة، دكتورا فخريّةً عن جهوده في الدفاع عن حقوق الإنسان في العالم.

وبمناسبة يوبيله الكهنوتيّ الذهبيّ، عبّر الكردينال «هويوس»، باسم الكنيسة والعالم، عن حقيقة نظرتهما إليه، بقوله: «**إنّنا نشعر بأنّ من يقودنا هو رجل اللّه، محبوبٌ، ومقدّرٌ في ما يتخطّى كلّ حدٍّ بشريٍّ... إنّنا نرى فيك عاشق الإنسانيّة، المتمرّس خبرةً، والراعي النموذجيّ، والبحّار المتمكّن في بحار الثقافات المختلفة...**

«**شكرًا من أجل تعليمك الراعويّ... من أجل رسالتك، بصفتك وكيل المسيح... شكرًا يا مسيح الأرض الوديع، لهذا الشعر الأبيض، وللألم الذي ضاعف حبّك في قلوبنا...**».

وفي غروب سنة اليوبيل (**٢٥/١١/٢٠٠٠**)، قال الكردينال «ري» (Re) أمام وفد حقوقيّين عالميّين: «**في فجر الألفيّة الثالثة، يبرز البابا يوحنّا بولس الثاني على الساحة الدوليّة، بصفته الشخصيّة الكبرى بين كبار هذا العالم، متميّزًا بسلطته الأدبيّة، وبشهادته المستمرّة، وبقدرته على مخاطبة كلّ إنسانٍ... لقد مارس هذا البابا العظيم تأثيرًا عميقًا على التاريخ، لأنّ العناية الإلهيّة أوكلت له مهامّ خطيرةً في العالم المعاصر**».

وفي أثناء زيارة يوحنّا بولس الثاني الثامنة إلى موطنه پولونيا، بتاريخ **١٧/٦/١٩٩٩**، قال له أُسقف «غلينڤيش»: «**أنت، اليوم، أيّها الأب الأقدس، شاهد الحبّ السخيّ... أنت أعظم شاهدٍ في العالم**».

ووصفه الكردينال «غرانتان» (Grantin) بأنّه «قائد الشعوب المذهل». وفي تأبينه قال الكردينال «سودانو»: «**أصبح يوحنّا بولس الثاني العظيم، هو داعية حضارة الحبّ**»، وعدّه رئيس أساقفة إنكلترا: «**أحد عظماء المسيحيّين في التاريخ**».

وعن انفتاحه الذهنيّ والروحيّ، شهد اللاهوتيّ الپروتستانتيّ الكونغوليّ «ما مپولو موزامبا» (Ma Mpolo Mosamba)، الذي كان مسؤولاً عن الأُسرة، في مجلس الكنائس العالميّ:

«... إنّه رجلٌ منفتح الذهن على سائر الكنائس، المؤلّفة ليس فقط من إخوةٍ منفصلين، بل عن مسيحيّين يرفدون المسيحيّة بأبعادٍ روحيّةٍ أُخرى، رجلٌ مفعمٌ مودّةً وحرارةً إنسانيّةً حيال أشخاصٍ منتمين إلى ثقافاتٍ وأجناسٍ أُخرى، رجلٌ تمتّع بروح الحوار والمصارحة، متأهّبٌ للتوسّط بين أشخاصٍ ودولٍ، وأنظمة فكرٍ ورؤًى سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ متناقضةٍ، أحيانًا؛ رجلٌ نشأ في تقليد الكنيسة، ولكنّه حرٌّ، لأنّه يؤمن بقدرة الروح الإلهيّ على الإصلاح...».

وصرّح البروفسّور «غوساڤ مرتيليه» (Gustave Martelet):

«مع يوحنّا بولس الثاني تولّت الكلامَ ومقاليد الدفّة، كنيسةُ الصمت والفقر، كي تخدم المسيح في كنيسة بطرس. وهكذا تعود قيادة سفينة الصيّاد، مرّةً ثانيةً، حسب التعبير البشريّ، إلى أيدي ابن عاملٍ، لا بلٍ يتولّاها للمرّة الأولى، ابن كنيسة تجرّدت زمنيًّا، وأضحت كنيسةً إنجيليّةً، إلى حدٍّ كبيرٍ. وهل من يستطيع التأكيد أنّنا لسنا بحاجةٍ، ولا سيّما في الغرب، إلى أن نرتعشَ لسماع ذلك الصوت الجديد الذي يذكّرنا بعظمتنا، وبواجباتنا المسيحيّة؟».

في ٢٠/١٠/٢٠٠٤، منحته محطّة التيلفيزيون الكاثوليكيّة KTO، ومجلّة السياسة الدوليّة، بمشاركة «اتّحاد السياسة الخارجيّة في السوربون»، جائزة «الشجاعة السياسيّة»، لأنه «**بجرأته السياسيّة أثبت أن لا حدود لما تستطيع الإرادة تحقيقه، وروّض المستحيل، وبرهن أنّ الظلم ليس قدرًا... ولأنّه النبيّ الأعزل الذي أعاد للشعوب المأسورة، وإلى منسيّي التاريخ، أسباب الرجاء، النبيّ الأعزل الذي أنضج روح المقاومة في مواجهة أوضاعٍ كانت تُعَدّ غير قابلةٍ للتغيير... إنّك، يا صاحب القداسة، فضحت، في كلّ مكانٍ، كلّ أصناف الديكتاتوريّات والطغيان، وأكّدت أنّ شرعيّة الحكم الوحيدة هي الإنسان...**».

وقال، فيه، المطران جورج خضر: «**يبقى وجهاً كثير البهاء، بما فيه من رهبانيّةٍ حقٍّ، وألمٍ خلاصيٍّ، وفصحيّةٍ نيّرةٍ. وهو لا يزال، من بعد احتجابه، يدعو ويلحّ. نشأ الرجل محافظاً، ومات محافظاً، ولكنّه اقتحم الدنيا اقتحام القدّيسين... ذهب إلى الرحمة حاملاً سجلاً حافلاً بالمآثر**».

وأوجز الكردينال رتسنغر حصاد حبريّة يوحنّا بولس الثاني، بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتولّيه السدّة البابويّة، فقال:

«خلال هذه السنوات الخمس والعشرين، ذرعتَ العالم، بلا كللٍ، ليس فقط كي توفّر للبشر إنجيل حبّ الله الذي تجسّد في يسوع المسيح، في ما يتخطّى كلّ الحدود الجغرافيّة، بل إنّك، أيضًا، اجتزت قارّات الفكر، وهي، غالبًا، متباعدةٌ بعضها عن بعضٍ، بل متنابذةٌ، لكي تجعل من الغرباء جيرانًا، ومن المتباعدين أصدقاءَ، ولكي تُشرِعَ فسحةً لسلام المسيح في العالم. لقد خاطبت الشبّان والمسنّين، الأغنياء والفقراء، الأقوياء المتنفّذين والبسطاء المتواضعين؛ وأظهرت، دائمًا، على غرار يسوع المسيح، حبًّا خاصًّا للفقراء وللعزّل، مقدّمًا للجميع قبسًا من حقيقة الله وحبّه. وبلا خوفٍ أعلنت مشيئة الله، حيث كانت على تعارضٍ مع أفكار البشر ورغباتهم. على مثال الرسول بولس، يمكنك تأكيد أنّك لم تسعَ، أبدًا، إلى تملّق أحدٍ، ولا التمست تمجيد البشر، بل سهرت على أبنائك سهر أمٍّ... لقد احتملت الانتقادات والشتائم، في حين كنت تستأهل العرفان بالجميل والمحبّة، لهدمك جدران البغض والتمييز. وبوسعنا، اليوم، أن نقدّر كم وقفتَ كلّ ذاتك، وبذلتها، في خدمة الإنجيل.

«ليست لفظة الصليب، في حياتك، باطلةً، فقد تقبّلت جرح الصليب في نفسك وفي جسدك. ومرّةً أُخرى، على غرار بولس، أنت أيضًا، احتملت الألم، كي تضيف، بحياتك الأرضيّة، لجسد المسيح المتمثّل في الكنيسة، ما لا يزال ينقص من آلام المسيح».

ومن شهادات السياسيّين، نذكر شهادة الرئيس جورج بوش الابن:

«هذا البابا، منذ مجيئه، لا من پولونيا بل من الجليل، دوّن بعضًا من أكثر صفحات تاريخ زماننا إدهاشًا. لا ريب أنّ هذا الرجل يأتي بالرسالة التي يحتاج عالمنا إلى سماعها (وليت جورج بوش سمعها والتزم بها!): **رسالة عدلٍ وسلامٍ. إنّه لا يستمدّ سلطته إلاّ من هشاشة طفلٍ في مذودٍ، ومن رجلٍ ممدّدٍ على الصليب، ومن صيّادٍ بسيطٍ. جاء كي يوفّر للعالم أسباب الرجاء... إنّ البابا يرشد، دائمًا، إلى الأمور التي تبقى وتدوم، وإلى الحبّ الذي ينقذ. إنّنا نشكر الله من أجل هذا الإنسان نادر المثال، أحد خدّام الله، وأبطال التاريخ...»**.

وعندما زار الرئيس بوش البابا، في **٢٠٠٠/٧/٢٣**، قال له: **«منذ عام ١٩٨٧، لم تكتفِ بإظهارك للعالم «بهاء الحقيقة»، بل أظهرت، أيضًا، قدرة الحقيقة على قهر الشرّ، وتغيير مجرى التاريخ. فقد دعوتم الرجال والنساء إلى الركوع أمام الله، وإلى الوقوف، بلا وجلٍ، في وجه الطغاة. ويحسن بكلّ أمّةٍ أن تصغي إلى رسالة الضمير**

هذه والعمل بها. وبخاصّةٍ لقد جئتم البشر بالإنجيل، وبحبّ الله الضروريّين لجميع الأمم، ولجميع الحقب...».

وليت الرئيس بوش سمع رسالة يوحنّا بولس الثاني، وعمل بموجبها، عوضًا عن الانقياد لمن أوصلوه إلى سدّة الرئاسة، وثبّتوه فيها، لكي ينفّذوا، من خلاله، مآربهم الأثيمة!

أمّا الشهادة الأصدق، فهي التي صدرت عن الزعيم الروسيّ ميخائيل غوربتشيف، الذي قال: «**اكتشفتُ، في يوحنّا بولس الثاني، فيلسوفًا، وإنسانًا حانيًا على آلام الغير، وداعيةً إلى الوئام والتسامح، من أجل قلب الأوضاع الراهنة، واستنفار العالم من أجل إعادة تنظيمه على نحوٍ أفضل، وإزاحة تهديد الحرب العالميّة، والقضاء، أيضًا، على الفقر والمرض، وكلّ ما يودي بالإنسان إلى الانحطاط. إنّي أكنّ تقديرًا رفيعًا لبابا روما، ممثّل الدين الكاثوليكيّ. فهو أرفع سلطةٍ أدبيّةٍ على الأرض. وهو يمضي إلى كلّ مكانٍ يحتاج إلى الإصغاء لصوته... وإنّي لعلى قناعةٍ راسخةٍ بأنّ العالم قد وجد في شخص يوحنّا بولس الثاني، رجلاً عظيمًا جدًّا... ولا ريب أنّ حبريّته هي جزءٌ أساسيٌّ ليس فقط من التاريخ الكاثوليكيّ، بل من تاريخ البشريّة جمعاء**».

وصرّح غوربتشيف، أيضًا، لصحيفة الڤاتيكان، «أوسّيرڤاتوري رومانو»:

«**لقد تأثّرت حياتي واختياراتي بشهادة البابا الشخصيّة، ولا سيّما أنّه ابن شعبٍ سلاڤيٍّ. إنّ استعماله عبارة «رئتين»، في التحدّث عن أوروپّتين، نفذ إلى قلبي. فمع نهاية الحرب الباردة، صرّح يوحنّا بولس الثاني أنّ على أوروپّا أن تشرع تتنفّس برئتيها كلتيهما، الغربيّة والشرقيّة. هذا الحدْس أشرع مفترقًا حاسمًا. وإنّي متّفقٌ مع قناعته بأنّه يتعذّر على السياسة الأوروپّيّة النجاح، ما لم تتوافق مع مبادئ الأخلاق. وإنّي، في حياتي، أولي شأنًا عظيمًا للعلاقة بين السياسة والثقافة والمبادئ الأخلاقيّة، من أجل بناء البيت الأوروپّي. إنّ الروحانيّة هي سياسةٌ حقيقيّةٌ بالمعنى الأسمى. فبمعزلٍ عن الثقافة والمبادئ الأخلاقيّة، تتعرّض السياسة للتردّي، وللانقلاب ضدّ الشعوب، كما يعلّمنا التاريخ، من خلال أحداثٍ مأسويّةٍ جرت في فترةٍ قريبةٍ. إنّ الفكرة المسيحيّة لا تبارح فكري. ولولا البعد الروحيّ المسيحيّ لما وُجدت**

«البيريسترويكا»، أي التغيير في الحرّيّة. من أجل تدمير جدار الفقر اللامرئيّ والواقعيّ، حتّى في أوروبّا، لا يوجد أيّ صوتٍ أكثر أهليّةً من صوت البابا.

«هناك رجالٌ يبصرون أبعد من الآخرين، ويتميّزون بفكرٍ أوفر عمقًا، ويتميّز عملهم بالإدهاش. ويوحنّا بولس الثاني هو أحد هؤلاء».

يوحنّا بولس الثاني «الكبير»

ثلاثة باباواتٍ في تاريخ الكنيسة وُصفوا بالكبار، هم لاون الأوّل (٤٤٠–٤٦١)، وغريغوريُس الأوّل (٥٩٠–٦٠٤)، ونيقولا الأوّل (٨٥٨–٨٦٧).

ومنذ وفاة يوحنّا بولس الثاني أطلق عليه خلفه بينيدكتُس السادس عشر، ورهطٌ من الكرادلة، لقب «الكبير».

وهو كان كبيرًا، حقًّا، لا بقول البشر، وبنبوءة أُمّه، بل بفعل الروح القدس، لأنّه استسلم، كلّيّةً، لمشيئة الله، لحظةً فلحظةً، وخطوةً فخطوةً، ومحنةً فمحنةً. وقد قام تطابقٌ تامٌّ بين إرادة الله، واستجابته لها، مثلما قام تطابقٌ بين ما كان داخليًّا، وما قال، وما فعل. ولم يغب الله لحظةً عن فكره، وقلبه، وعمله. فكان كبيرًا في قلبه وعقله، وفي ما فعل، وقال، وكتب.

كان كبيرًا في فضائله، وفي حياته الروحيّة، وفي أخلاقه، وفي تعليمه الأخلاقيّ، وفي معاناته، وجرأته، ونضاله، وصموده في مقارعة المؤامرات الشيطانيّة، والأخطار التي تهدّد الكنيسة والمجتمع.

وكان كبيرًا في تواضعه السحيق، وبساطته المدهشة، وفي محبّته الحارّة، الصادقة، الشاملة، وفي تعامله مع الصغار ومع الشبيبة، والذي تجلّى على أروع صورةٍ، وأشدّها سطوعًا، من خلال أيّام الشبيبة العالميّة، وبها وفّر لكثيرين من شبّان العالم، صوى طريقٍ، وعلّة حياةٍ، وعلاجًا لهواجسهم حيال المستقبل.

وكبيرًا كان لأنّه جمع، في شخصه، خصالاً تؤهّله لتلبية مقتضيات زماننا المعقّد، ومواجهة أوضاعٍ حادّةٍ من كلّ نوعٍ، في سبيل مصالحة الإنسان مع ذاته، ومع الله.

ولأنّه كان أبًا للبشريّة التي أشرع لها أبواب السماء والحقيقة، وباب قلبه. وسنةً إثر سنةٍ، تأكّد العالم أنّ اختياره على السدّة البابويّة كان هبةً من العناية الإلهيّة.

كان كبيرًا لأنّه استعصى على كلّ تصنيفٍ، ولم يستطع أحدٌ سجنه في فئةٍ، أو في نزعةٍ محدّدةٍ، ولم يكن له مرجعٌ ولا انتماءٌ غير يسوع المسيح، ولا عقيدةٌ سوى الإنجيل.

ولأنّه كان رجل حوارٍ، استطاع أن يجمع من حوله ممثّلي معظم أديان العالم، كي يصلّوا معًا من أجل السلام، كلٌّ على طريقته وبأسلوبه. وأكثر من ذلك، كان رجل لقاءٍ مع الجميع، كما أثبتت رحلاته إلى كلّ بلدان العالم، ولقاءاته مع الشبيبة، والعلماء، والأطبّاء، ومختلف طبقات المجتمع، وتحاوره مع الجميع بانفتاحٍ ومحبّةٍ، وإصغاؤه إليهم باهتمامٍ، لأنّ كلّ إنسانٍ كان عظيمًا في عينيه.

ولأنّه قام بمبادراتٍ غير مسبوقةٍ في سعيه إلى توحيد المسيحيّين، وفي الانفتاح على الأديان الأُخرى. ومع ذلك كان شديد الحرص على وحدةٍ مسيحيّةٍ متجذّرةٍ في الإيمان المشترك، وفي الحقيقة التي ورّثها يسوع؛ ومحذّرًا من أن يكون فشل الكنيسة في عيش وحدتها، عائقًا دون وحدة الجنس البشريّ التي تدعو إليها المسيحيّة. ومع يقينه بأنّ الشركة بين الكنائس لم تنقطع، يومًا، انقطاعًا كاملاً، دعا بإلحاحٍ إلى اكتمال تلك الشركة، وإلى مواصلة الحوار في هذا السبيل.

ولا ريب أنّ اليوم العالميّ للصلاة من أجل السلام، الذي دعا إليه يوحنّا بولس الثاني في أسّيزي، كان تعبيرًا جليًّا عن قناعته بأنّ كلّ أشكال الحقيقة مرتبطةٌ بحقيقةٍ واحدةٍ هي الله. كان يحترم كلّ العقائد الدينيّة، وفي الآن عينه، لا يتنازل عن أيّةٍ من عقائده. وكان من شأن الانفتاح الذي أشرعه على سائر الديانات، الحؤول دون صداماتٍ قد تنتجها التشنّجات الدينيّة التي شرعت نُذُرها تطلّ في مختلف أنحاء العالم.

كبيرًا كان، لأنّه كان صاحب شخصيّةٍ مشعّةٍ. وقد اكتشف العالم كلّه، من خلال رحلاته الرسوليّة، بسمته المضيئة، وترحيبه الكريم، وطيبته المرحة، وجبين المفكّر، وذقن المصارع.

لأنّه أقنع قبل أن يفتح فاه، وبفضل مصداقيّته الشخصيّة، أصغى إليه حتّى الذين لم يتبنّوا، دائمًا، كلّ آرائه.

ولأنّه أثار عاصفة حبٍّ هزّت العالم، وخلّف إرث فكرٍ وعملٍ فريدًا.

ولأنّه تميّز بفكرٍ واضحٍ، وتعليمٍ لا مواربة فيه ولا التباس، وبجرأةٍ مدهشةٍ، وعزيمةٍ لا خَوَر فيها، وبمثابرةٍ لا تملّ ولا تهاود العوائق، والالتباسات وسوء الفهم.

كان كبيرًا لأنّه، على نقيض العديد من الزعماء ذوي الفكر المائع، والقلوب القاسية، كان صامد الفكر، ومائع القلب، وفي جمعه بينهما كَمَنَ سرّ سحره الفريد، ولا سيّما في أوساط الشبيبة. فرقّة نظرته العذبة، وسجوّ جدّيّة وجهه، كانا يضفيان على رسالته قوّة إغراءٍ تفعل فعل المغنطيس. وكانت صلابة منطقه، النابض بهوى الحقيقة والمحبّة، تنفذ إلى مكامن الإقناع، وتبثّ الرجاء في نفوس المفكّرين والعمّال، رجالاً ونساءً، شيوخًا وشبابًا، أُسَرًا وأُمَمًا.

لأنّ المآسي التي واكبت نشأته، كانت كفيلةً بدفعه إلى اعتبار الوجود الإنسانيّ عبثيًّا، ولكنّها، في الواقع، أفضت به إلى استنتاجٍ مخالفٍ. وشيئًا فشيئًا، انتهى إلى قناعةٍ بأنّ أزمة العالم المعاصر هي أزمة آراءٍ، ولا سيّما في ما يتعلّق بالكائن البشريّ، وأنّ التاريخ هو صنيعة الثقافة، والثقافة هي ثمرة الآراء.

وهو، منذ مرحلةٍ مبكّرةٍ من حياته، أعمل الفكر في قضيّةٍ أساسيّةٍ: كيف يمكننا تحقيق إنسانيّتنا، حيث منتجات ابتكاراتنا التقنيّة تهدّد وجود المشروع الإنسانيّ. وفيما كان مستغرقًا في بحث هذه المعضلة، نمت لديه قناعاتٌ جوهريّةٌ، جعلت منه علَمًا ومنارةً، ستظلّ أنوارها تضيء المستقبل.

ولأنّه كان نبيّ رجاءٍ في عالمٍ يلتهمه القلق، ولأنّ صرخته الأولى، إثر تنصيبه، كانت «**لا تخافوا**»، في أعقاب عقودٍ سيطرت عليها مخاوف من كلّ لونٍ، هذه الصرخة كانت صدًى لصرخة يسوع مطمئنًا تلاميذه، وهي ما زالت تدوّي في آذان عالمٍ يحتاج أشدّ حاجةٍ إلى من يطرد عنه الخوف، عالمٍ يواجه كلّ أسباب القنوط، وقد أشاع فيه يوحنّا بولس الثاني نفحة رجاءٍ، بإسهامه في

تغيير مجرى التاريخ، وفي إزالة أنظمةٍ جائرةٍ مجرمةٍ، مبرهنًا أنّ الرجاء متاحٌ عندما ينبع من ثقةٍ وطيدةٍ بالله. وإن بدت صرخة يوحنّا بولس الثاني هذه، للبعض، خياليّةً، إلاّ أنّ عيشه لها طيلة مسيرته البطوليّة، أحدث تأثيرًا عميقًا في نفوسٍ كثيرةٍ، وأسهم في تحوّلاتٍ عالميّةٍ جسيمةٍ، وأفضى إلى تحرّرٍ مسيحيٍّ من الخوف. فالإيمان المسيحيّ لا يلغي الخوف، ولكنّه يحوّله بفضل لقاءٍ شخصيٍّ مع المسيح وصليبه. فبالصليب قدّم الله الابن إلى أبيه كلّ خوفٍ، وحرّرنا جميعًا من الخوف. وقد كان التقاء «كارول ڤويتيووا» بالسرّ الإلهيّ، وبحقيقة الوجود المتجلّيّة في حياة يسوع وموته وقيامته، نبع الرجاء الذي أعلنه يوحنّا بولس الثاني، وبه بشّر بربيعٍ روحيٍّ جديدٍ. ويروى أنّ أصدقاء قدامى للبابا استفسروه عن سبب نهوضه باكرًا، كلّ يومٍ، فأجاب: «لأنّ البابا الذي يحمل الرقم المتسلسل **٢٦٤**، يحبّ مشاهدة شروق الشمس».

وكان كبيرًا لأنّه كان صانع مستقبلٍ، حريصًا على تشجيع الآخرين ودعمهم، وعلى منح الخير حظوظًا للنموّ، وعلى قهر الشرّ بالخير، بمنأًى عن كلّ موقفٍ ملتبسٍ، وعن كلّ خشيةٍ، وبثقةٍ في الآخرين. وكان متفائلاً رغم معرفته الأكيدة لهشاشة الإنسان الغربيّ، ولمشاكل الإنسان الشرقيّ، ولآلام أهل الجنوب. وللجميع كان يحبّ ترديد قول يسوع الناهض من الموت: «**لا تخافوا**». ومن المؤكّد أنّه ما انفكّ يناشدنا من أبديّته: «**لا تخافوا**».

وكان كبيرًا بمحبّته اللامحدودة، وحدبه على الأكثر صغرًا، وفقرًا، وتألّمًا، والذين عدّهم «كنز الكنيسة».

كان كبيرًا لأنّه، بتصميمٍ ناضجٍ ومثابرٍ، ورغم محاولة اغتياله التي أعاقته، وضع الكنيسة في صلب التاريخ، كي تسجّل دمغتها الخالدة والحاسمة على مصير العالم، روحيًّا، واجتماعيًّا، وسياسيًّا. وحتّى بعد أن أثقلت السنون خطاه الجبليّة الواثقة، لم تفلح في ثلم مناعة فكره، وثبات تصميمه، واضطرام رجائه، تصميم محاربٍ متمرّسٍ دخل التاريخ بقدمٍ ثابتةٍ، ورجاء مارد إيمانٍ.

كان كبيرًا في الألم والموت، ونموذج الاستسلام لله، والشجاعة والإيمان

والرجاء، وبذل الذات الكلّيّ للجميع، بعد أن وهب ذاته كلّها ليسوع بواسطة العذراء. وبفضل متانة إرادته، وإثباته أنّه حيث توجد إرادةٌ، يوجد طريقٌ؛ وتقبّله المرض والألم، وإيكال حياته للعناية الإلهيّة، جعل من ذاته درسًا لا يمكن إغفاله أو نسيانه، وأثبت أنّه، حقًّا، «هبة اللّه».

وكان كبيرًا لأنّه أعاد قراءة التاريخ، ودوّن تاريخًا جديدًا، مستبعدًا الأخطاء التي استصفح عنها باسم الكنيسة، وتطلّع إلى حضارةٍ جديدةٍ قائمةٍ على أُسسٍ إنجيليّةٍ سمّاها «حضارة الحبّ».

ولأنّه عاش إحدى أكثر الحقب قتامًا، وكآبةً، وهولاً، ولاإنسانيّةً، في تاريخ أوروبّا، حقبة الحرب العالميّة الثانية، حقبة النازيّة والشيوعيّة الستالينيّة. وعندما أسندت إليه العناية الإلهيّة سلطةً عليا، انبرى لقلب ذلك الواقع المريع، مخاطرًا بحياته التي استهدفتها قوى الظلام، وحاولت القضاء عليها.

ولأنّه عندما انتُخب على رأس الكنيسة الكاثوليكيّة، لم يطمح في الظهور بمظهر «حبرٍ أعظم»، مؤثرًا أن يظلّ الكاهن والأُسقف، والراعي الدائب على فهم كلّ إنسانٍ، وعلى مصافحة الجميع بمحبّةٍ، وعلى استبيان علامات الأزمنة، ولأنّ «كارول ڤويتيووا» لم يمُتْ، عندما وُلد يوحنّا بولس الثاني». ومع عزوفه عن لقب الإصلاحيّ، قلّما جدّد بابا في الكنيسة بقدر ما هو جدّد، ونفث في الكنيسة روحًا جديدًا. وكانت التغييرات التي أحدثها عميقة الجذور، ومصدر خصبٍ للمستقبل.

ولأنّه، بانغماسه في الحياة الروحيّة وتنميتها، أجرى تطوّراتٍ جوهريّةً في مفاهيم العالم، وبتجذّره في مسيحيّته، أحدث أوسع انفتاحٍ على العالم غير المسيحيّ، و«نادرًا ما تمتّع بابا، ومعه الكنيسة الكاثوليكيّة، بهذا الوزن الأدبيّ في العالم».

ولأنّه، في أيّامه الأخيرة، برهن على القوّة القصوى التي تثوي في الوهن، وعن قيمة الحياة، حتّى عندما تفقد ديناميّة الشباب.

ولأنّه أسال في أوصال الكنيسة، التي تسرّب التعب إليها، شبابًا قشيبًا. فمنذ

رسالته العامّة الأولى، «فادي البشر»، التي أصدرها عام **١٩٧٩**، أسفر عن غايته المتمثّلة في أنسنةٍ مسيحيّةٍ، تواجه بها الكنيسة أزمة الحضارة العالميّة، في غروب القرن العشرين، وبها تلج الألفيّة الثالثة.

لأنّه أعاد إلى البابويّة حيويّتها، بمباشرته أسفارًا راعويّةً إلى جميع جهات العالم، وباستخدامه وسائل الاتّصال الحديثة، وبإصداره طائفةً ثرّةً من النشرات، التي تناول بها شتّى وجوه الحياة الكاثوليكيّة، بل حتّى أكثر القضايا الحارقة التي تثير اهتمام سكّان الكرة الأرضيّة.

ولأنّه عاد بالبابويّة إلى جذورها الإنجيليّة، فلم يعُد البابا مديرًا عامًّا لمؤسّسةٍ، بل استرجع دوره: راعيًا ومبشّرًا مثلما كان بطرس، وشاهدًا على الحقائق التي أثبتها يسوع بحياته، وصليبه، وقيامته، جاعلاً من التبشير بالإنجيل مهمّة البابا الأولى.

ولأنّه، بدأبه على تنفيذ مقرّرات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني، مكّن الكنيسة من مواجهة الحداثة، بتأكيدها أنّ معنى الحياة البشريّة هو بذل الذات، لا إثبات الذات، والحبّ على غرار الحبّ المجرّد القائم بين الآب والابن والروح القدس. وبذلك تؤكّد الكنيسة، أيضًا، أنّ العطاء يرقى بمصير الإنسان إلى أسمى ممّا يتصوّر. ومن ثمّ كان موضوعا يوحنّا بولس الثاني الرئيسان هما:

– المسيح، فادي العالم، يُظهر حقيقة الإنسان المذهلة، ومصيره الإلهيّ.

– الحبّ الذي يهب ذاته هو السبيل الذي به تحقّق الحرّيّة امتلاءها واكتمالها. فالحرّيّة مقصدُ البشريّة الأكبر، هي، في الآن عينه، خيارٌ ذو حدّين. والجواب الإنجيليّ على قضيّة الحرّيّة هو الخدمة. وإذن، تخضع الحرّيّة الصحيحة للحقيقة، وتكتمل في عمل الخير. وهذا ما عناه يسوع بقوله إنّ الحقّ يحرّر البشر. وهذا ما يتعيّن على الكنيسة إعلانه للعالم، لتمكينه من تحقيق تطلّعاته الكبرى.

لأنّ كلمة «الحقيقة» احتلّت المرتبة الأولى من كتاباته، واحتلّت منها كلمة «السلام» المرتبة الثانية.

ولأنّه كان حسب قول «جيسكار ديستان»: رجل عملٍ أصبح قدّيسًا، ولم يفعل أيّ قدّيسٍ ما هو فعله».

ولأنّه كان موسوعةً حيّةً، فريدةً. ولأنّه نقل البابويّة التي كانت منكفئةً على ذاتها إلى العالم الرحب، وزار من الدول ما لم يزره أيّ بابا، لا بل أيّ رئيس دولةٍ قبله.

ولأنّه كان مزيجًا من براغماتيّةٍ، وشجاعةٍ، وروحٍ رسوليٍّ، ولاهوتٍ مستنير، وحياةٍ روحيّةٍ كثيفةٍ. وكان في المقام الأوّل، رسولاً وصفه مبشّرٌ بروتستانتيٌّ بأنّه «ضمير الغرب الأخلاقيّ»، الذي لم يخشَ الجهر بالحقيقة في وجه سلاطين العالم. ففي ملعب «يانكي» الكبير قال للجماهير الأميركيّة: «**أنتم الرجل الغنيّ، ولعازر ثاوٍ عند بابكم، وهو العالم الثالث**»، وللأساقفة الأميركيّين قال إنّ الشعب الأميركيّ «**يجري تنويمه مغنطيسيّاً، وهو يترنّح أمام مشهد عالمٍ بلا سلاحٍ**».

لأنّه أزرى بسخريّةٍ ستالين الذي تساءل، هازئاً: «كم هي كتائب البابا؟»، وعقب تهاوي الشيوعيّة الملحدة، بات همّه بناء مجتمعٍ سليمٍ، محصّنٍ ضدّ دعاوات الرأسماليّة الغربيّة، النهمة إلى الاستهلاك، والمتعة الإباحيّة، مجتمعٍ ضنينٍ بكرامة كلّ فردٍ، وحصانته من الفقر والإهمال والاستغلال، مجتمعٍ يحدوه الهمّ الإنسانيّ والاجتماعيّ، وبخاصّةٍ الروحيّ.

لأنّه منح العالم حياته كي يضفي على حياة العالم معنًى.

لأنّه كان كتلةً متجانسةً متماسكةً؛ وعلى حدّ قول أندريه فروسّار: «عنده الإنجيل، والدعوة، والشخص، كلّهم واحدٌ. وهذا التماسك الداخليّ الذي يمكن وصفه بالنوويّ، يجعله مُشعًّا».

كان كبيرًا، لأنّه بفضل إيمانه الراسخ بحضور الله في التاريخ، وروحه الرسوليّ المتّقد، برز حبرًا رسوليًّا عظيمًا، مستنهضًا الهمم، ولا سيّما همم الشبيبة، وأقحم القرن العشرين في مغامرةٍ منقطعة النظير.

ولأنّ ذلك البابا الذي أعلن أنّ، في مرامي العناية الإلهيّة، لا شيء يبدو

وليد الصدفة، خاض مسيرةً تبدو خياليّةً، وكانت بابويّته الأعمق والأوسع تأثيرًا منذ قرون، بحيث عدّه كثيرون أعظم البابوات شأنًا، منذ القرن السادس عشر، وأبرز حبرٍ أعظم في التاريخ، بل من أبرز الشخصيّات التي عرفها التاريخ.

وكان كبيرًا، لأنّه، مع تقدّمه في السنّ، أمعن في التأمّل، وتوغّل في الحياة الروحيّة. ولأنّه، حيال الحماقات التي ولّدتها الحداثة، كان ترياقه ضدّ اليأس، التواصل مع الله الثالوثي؛ ولأنه كان راسخ اليقين بأنّ الله هو درب التاريخ، وما انفكّ يحيي في العالم الرجاء في الحياة المستقبليّة. ومع وعيه لقدرات الشرّ الرهيبة، كان راسخ القناعة بأنّ الشرّ ليس أساسيًّا ولا نهائيًّا، وقد تذوّق الفرح الذي يغمر نفس المسيحيّ، عندما يدرك انتصار المسيح الحاسم على الشرّ.

وكان كبيرًا، لأنّ حدْسه الصوفيّ وطّد لديه اليقين بأنّ كلّ دروب الحقيقة تمرّ، عاجلاً أو آجلاً، من خلال الصليب، فقدّم لله آلامه، من أجل تخفيف آلام العالم، والتكفير عن شروره.

وكان كبيرًا لأنّ يسوع زار كوكبنا، ثانيةً، من خلاله، ولأنّ مثال سيرته كان شعاع نورٍ يهدي كلّ حاجٍّ في هذا العالم المدلهمّ، وكان مثالاً مثقلاً بتحدّي كلّ طامحٍ في التمثّل به، مثالاً يسبقنا دائمًا.

كم ممّن كان لوجودهم دويٌّ مرعبٌ يملأ الآفاق، ولكنّ الزمن محا ذكرهم! أمّا أمثال يوحنّا بولس الثاني، فذكرهم يعظم مع كرّ الأيّام، وحبّهم يزداد اضطرامًا في القلوب، والإعجاب بهم ينمو باطّرادٍ، وكذلك العرفان بجمائلهم.

لكلّ هذه الأسباب، يوحنّا بولس الثاني هو كبيرٌ، أمام التاريخ، إلى الأبد.

يوحنّا بولس الثاني القدّيس

قبل دفن يوحنّا بولس الثاني هتف المؤمنون، بحماسٍ، «قدّيسٌ، فورًا» (Santo subito). ومع أنّ مسؤولين كنسيّين اقترحوا تحويل هذا الهتاف إلى «قدّيسٌ مؤكّدٌ» (Santo securo)، وأيّةً كانت صيغة الهتاف يبقى واقع أنّ يوحنّا بولس الثاني قد استوفى كلّ معايير القداسة، وأنّه قدّيسٌ من طرازٍ فريدٍ.

إنّه قدّيسٌ لأنّه مارس الفضائل اللاهوتيّة والإنسانيّة، ممارسةً بطوليّةً. فقد كان رجل إيمانٍ رفيعٍ غرسه فيه والداه ومربّوه ومجتمعه، ثمّ أشبعه، هو، بحثًا، وتساؤلاً، وإنضاجًا، وتمثّلاً، حتّى غدا الإيمان قوام كيانه، ومادّة حياته، والتزم بكلّ مقتضياته التزامًا صارمًا، لا مساومة فيه ولا تنازل، و«كان إيمانه أساس بذل ذاته الكلّيّ، وخصب عمله»، حسب قول الكردينال رتسنغر.

عندما انتُخب حبرًا أعظم كاد يكون مجهولاً في الأوساط الإيطاليّة والأوروپّيّة عمومًا، خارج بعض الأوساط الكنسيّة. وراجت التساؤلات عن لونه، وعن الفئة التي يمكن إدراجه في إطارها؛ وأثبتت الأيّام، سريعًا، أنّه أوسع من أن يُسجن في حيّزٍ بشريٍّ واحدٍ. ورأى فيه كثيرون شخصًا قادمًا من بعيدٍ، وهذا صحيحٌ. غير أنّ بُعده لم يكن جغرافيًّا، فپولونيا ليست بعيدةً عن روما وسائر العواصم الأوروپّيّة، لا جغرافيًّا ولا تاريخيًّا. ولكنّه كان بعيدًا عن المناخ الفكريّ والروحيّ السائد في أوروپّا، لأنّه كان متجذّرًا في مناخ الإيمان والصلاة. وسرعان ما اتّضح للذين تساءلوا عن الخطّ الذي سينتهجه، ويدفع فيه الكنيسة، أنّه خطّ الإيمان الواضح والصريح، خطّ الإنجيل، والإمعان في الإيمان، والتوغّل في الحياة الروحيّة. وطالب الكنيسة بالارتكاز على الإنجيل، وبنشره، مستوحيًا سلوكه من البابا الأوّل، بطرس، الذي أجاب سائليه: «من الفضّة والذهب لا أملك شيئًا، ولكنّي أعطيك ما أملك: باسم يسوع الناصريّ، امش»، وحسب قول المطران جورج خضر: «ما كان يهمّه، حقيقةً، هو اقتحام المسيحيّة بالإنجيل، بعدما باتت مسيحيّتها باهتةً».

الإيمان، إذن، هو مفتاح فهم شخصيّته، وهو الذي ولّد لديه رجاءً عظيمًا للبشريّة جمعاء، ولا سيّما أنّه تقلّد دفّة سفينة بطرس، في زمنٍ توهّم كثيرون أنّهم بلغوا سنّ النضج، وأنّ العلم حرّرهم من الحاجة إلى عكاكيز الدين. وإذ بذلك البابا الپولونيّ، الذي لم يكن، جوهريًّا، سوى مسيحيٍّ كاملٍ، ومؤمنٍ إيمانًا واثقًا بحقيقة ما تحمله المسيحيّة، يبدّد الأوهام، ويميط الغشاوات عن العيون، طارحًا تساؤلاتٍ حارقةً على الوجدان البشريّ، حاملاً رؤيةً متكاملةً عن المصير البشريّ، مثبتًا، بحياته، أنّ الإيمان بالله، على نقيض ما يُراد ترويجه، قادرٌ، وحده، على جعل الإنسان أكثر إنسانيّةً، وحرّيّةً، وكرامةً.

لم يكن إيمان يوحنّا بولس الثاني أحد وجوه شخصيّته، أو أحد أبعاد ذهنه، بل كان كيانه كلّه، وتغلغل إلى أعمق أغوار ذاته، بحيث تتعذّر معرفته إلاّ بالنظر إليه كرجل إيمانٍ كوّن الإيمان شخصيّته، وولّد لديه رجاءً عظيماً للبشريّة جمعاء.

آمن باللّه، وآمن بالإنسان، وأيقن أنّ سرّ الإنسان لا يفسّره تفسيرًا حقيقيًّا إلاّ سرّ الكلمة المتجسّد. وقد قام تعليم يوحنّا بولس الثاني ورسالته على إيمانه بأنّ اللّه خلق الإنسان على صورته، ومن ثمّ فالإنسان يتمتّع بكرامةٍ ساميةٍ، وهو مدعوٌّ إلى تخطّي ذاته، والسموّ فوق بشريّته. ولا بدّ من أن يدرك العالم أجمع أنّ الإنسان أكبر ممّا هو يتخيّل، وأعظم ممّا يوحي به العالم المعاصر، وأنّ بوسع الإيمان تغيير وجه العالم.

آمن أنّ اللّه هو سيّد التاريخ، فأضفى بعدًا روحيًّا على التاريخ الذي تردّى إلى السطحيّة، والقسوة، والبهتان. وبإيمانه صنع تاريخًا.

آمن أنّ يسوع، بتجسّده، وصليبه الفادي، وقيامته، رسم للبشريّة نهج الخلاص، وسلّم الإنسان مفتاح سرّ ذاته.

رأى يسوع في كلّ إنسانٍ، فأحبّه وخدمه، مثلما أحبّ يسوع وخدمه، و«بقي وجهه مرآةً تعكس وجه المسيح، والإيقونة التي تستمدّ سرّها من اللّه الذي يشرف على الكون، وعلى الناس أجمعين» (أنيس مسلّم).

تجرّد من كلّ متاعٍ شخصيٍّ، لكي يكون بأكمله للّه، فلم تقوَ أيّة غايةٍ أنانيّةٍ على التأثير في فكره وسلوكه.

ودأب على تغذية إيمانه ودعمه بالصلاة، فكان «كتلة صلاة»، أو «بئر صلاة» كما وصفه من عرفوه عن كثبٍ. وكما فصّلنا في فصلٍ سابقٍ.

وقد روت الصحافيّة البرتغاليّة «أورا ميغيل» (Oura Miguel)، التي دُعيت، ذات صباحٍ، إلى حضور قدّاس يوحنّا بولس الثاني في مصلاّه الخاصّ، فشهدت: «إنّه يحيا الصلاة على مهلٍ، ولكأنّه يتذوّق كلّ كلمةٍ من صلاته، حريصًا على الاحتفاظ بها طيلة النهار. لكلّ توقّفٍ، ولكلّ فترة صمتٍ مغزًى،

وحضورٌ فائقٌ. إنّ رؤية يوحنّا بولس الثاني مصلّيًا، هي رؤية جمالٍ يخصّ آخر ساميًا، هو انتقاه، لدعم إيماننا. فعلى كتفي هذا الرجل تقع مسؤوليّة الكنيسة».

ويقول أندريه فروسّار الذي حضر أيضًا قدّاس البابا الصباحيّ: «إنّه الوسيط الأخير بين العالم والله».

في أثناء رحلاته جوًّا، لم تكن المسبحة تفارق يده. وعندما كان يتعيّن عليه عقد مقابلاتٍ صحافيّةٍ أو بروتوكولوريّةٍ، كان يؤدّيها بلطفٍ جمٍّ، وما إن يفرغ منها حتّى يعود ثانيةً إلى الانغماس في الصلاة؛ ولا تأخذ به رغبةٌ في إلقاء نظرةٍ من النافذة، ولا يستيقظ على الواقع حتّى تتوقّف الطائرة على مدرج المطار.

وشهد أمين سرّه «ستانسلاس دزيڤيش»: «إنّه متأمّلٌ ورسولٌ، وغائصٌ بكلّيّته في الله... وهو يؤمن أنّ أخطر واجبات البابا هو الصلاة من أجل الكنيسة ومن أجل العالم».

أثناء رحلاته الرسوليّة المرهقة، كان، دائمًا، أوّل المستيقظين. وغالبًا ما بحث عنه معاونوه، فوجدوه راكعًا أمام مخبإ القربان، ذائبًا في حوارٍ مع الربّ، وقد أشعّ محيّاه نورًا سماويًّا. وقد اضطرّ أُسقفٌ صديقٌ له، حرصًا على صحّته، إلى استبدال رخام المصلّى في المقرّ الرومانيّ الذي كان يقيم فيه الكاردينال «ڤويتيووا» قبل انتخابه، بأرضيّةٍ من خشبٍ، بعد أن فاجأه، المرّة تلو المرّة، ممدّدًا على الحضيض البارد.

إيمانه، المدعّم بقناعاتٍ راسخةٍ، ومعارف موسوعيّةٍ، وفلسفةٍ مستنيرةٍ، لامس الصوفيّة. فقد كان الله دائم الحضور في فكره، وقلبه، وكلّ حركةٍ يقوم بها. وقد حرص على إنضاج آرائه ومقرّراته الخطيرة، وتدبيج مؤلّفاته القيّمة، خاشعًا أمام القربان، وحيدًا مع الله، في مصلاّه.

ورعه كان صوفيًّا، وقد تبيّن الذين حضروا قدّاسه الصباحيّ في مصلاّه الخاصّ، أنّ الصلوات التي كان يتمتمها، كانت تشيع انطباعًا بأنّ الله هو رفيق حياته، ومحاوره الحميم. وشهد الناطق الرسميّ باسم الڤاتيكان: «لم يكن له

حضور الله في حياته واجبًا، بل كان حاجةً وجوديّةً، والواقع الأكثر طبيعيّةً، وسرّ إشعاعه».

وكان إيمانه معديًا. وفي هذا السياق كتب «أندريه فروسّار»: «لدى هذا البابا من الإيمان بالبشر ما يجعلهم يؤمنون بهم، هم أيضًا، ولديه من الإيمان بالله، ما يبثّهم الرغبة في الإيمان به». وقد حدا به إيمانه إلى إطلاق حوارٍ مع سائر الأديان، عسى أن يكون الدين سدًّا في وجه الإلحاد المتفشّي، وفي وجه تيّارات الإباحيّة، والفسق والعنف.

يقول البابا بينيدكتس السادس عشر: «لقد هال يوحنّا بولس الثاني تفاقُم مآسي الشرّ في القرن العشرين، ، فهو «شرٌّ جسيم الأبعاد، استخدم البنى الحكوميّة لتحقيق فعاله الوبيلة، إنّه شرٌّ أصبح نظامًا». فتساءل هل الشرّ لا يُقهر، وهل هو قدَر التاريخ الحاسم؟ غير أنّ اختباره للشرّ جعل من الفداء قضيّة حياته الجوهريّة، ومركز تفكيره المسيحيّ، وقاده إلى اليقين بأنّ القوّة الكفيلة بوضع حدٍّ للشرّ هو الرحمة الإلهيّة. فالعنف، وتبجّح الشرّ يقابلهما، في التاريخ، قدرة الله الخاصّة، ورحمته الإلهيّة، اللتان تؤكّدان رجاحة قوّة الحَمَل على قوّة التنّين، كما جاء في سفر الرؤيا.

«واتّضح له أنّه، رغم الأضاليل التي شاعت، وقوى الظلم التي طغت في عصرنا، لم تكن الكلمة الأخيرة للشرّ، لأنّ، في صميم المأساة البشريّة يقوم المسيح، صورة الله غير المرئيّ، الذي، بمجيئه إلى دنيانا، وبقهره الموت، أثبت أنّ الرجاء ليس وهمًا باطلاً، ولا هو خدعةٌ يُقصد منها طرد الخوف الكامن في قلب الظلمات الحديثة. وقد أعلن، عام ١٩٩٥، من فوق منبر الأمم المتّحدة:

«بصفتي مسيحيًّا، رجائي وثقتي مرتكزان على يسوع المسيح... الذي هو لنا، إلهٌ تجسّد، وحوّل تاريخ البشريّة. لهذا السبب، بالتحديد، يشمل الرجاء المسيحيّ للعالم ولمستقبله، كلّ كائنٍ بشريٍّ. فبسبب إنسانيّة المسيح المشعّة، كلّ ما هو إنسانيٌّ، حقًّا، يمسّ قلوب المسيحيّين. إيماننا بالمسيح لا يدفعنا إلى التصلّب والتعصّب، بل، على نقيض ذلك، يُلزمنا بعقد حوارٍ متّسمٍ باحترام الآخرين. وحبّنا للمسيح لا يصرفنا عن الاهتمام بالآخرين، بل هو، بالحريّ، يدعونا إلى تحمّل مسؤوليّاتنا تجاههم، غير مستثنين أحدًا...».

هذا الإيمان الراسخ هو الذي أتاح له أن يهتف، بلا تردّدٍ، بثقةٍ راسخةٍ: «**لا تخافوا**». وكانت حياته التي صهرت في أتّون صراعات القرن العشرين الكبرى، السياسيّة والفكريّة، تجسيدًا لهذا الهتاف. وكذلك كان تعليمه تفسيرًا لمصدر الجرأة التي كانت مسيرته تطبيقًا لها.

هذا الإعلان الذي ابتغاه شاملاً يستند على قناعةٍ بأنّ يسوع المسيح هو الجواب على تساؤلات كلّ حياةٍ بشريّةٍ.

وإن كان مقياس القداسة هو مدى التشبّه بابن الله، فقد بلغ تشبّه يوحنّا بولس الثاني بمعلّمه ذروته، إثر محاولة اغتياله، بسبب إيمانه بيسوع، ووفائه له، ودخوله، من جرّاء هذا الاعتداء، في محراب الألم. فتنكّب الصليب بحبٍّ، وصبرٍ، وبطولةٍ، مشاركًا الفادي في عمله الفدائيّ.

ولا ريب أنّ ما أضفى على قداسته مناعةً وسموًّا، تكريسُ ذاته، منذ طفولته وحتّى آخر لحظةٍ في مسيرته الأرضيّة، لأُمّ الله وأُمّه. فقد كان شعاره: «**إنّي بكلّيّتي لكِ**» (Totus Tuus) نبراس حياته، وهاديها، ومنبع طاقاتها، وملجأه في كلّ محنةٍ تُلمّ به، وبالكنيسة أو بالبشريّة. لقد وهبها، كما وهب ابنها، ذاته كلّها، وحرص على أن تظلّ تلك الذات ناصعةً، مشرقةً، منزّهةً من كلّ عيبٍ.

من الصلاة والتأمّل، والاستسلام الكلّيّ للربّ وللأمّ السماويّة، استمدّ يوحنّا بولس الثاني القوّة والصمود والجرأة في مواجهة أعتى الصعاب، واستطاع تجاوز مآسي صباه، وصحراء عزلته في مطلع شبابه إثر فقدان والده، سنده الوحيد في هذه الدنيا، ونجا من الانهيار والضياع؛ وأفلت من شباك الغوايات، فاعترف: «**تلقّيتُ من النِعَم أكثر ممّا كنت أحتاج إليه، من أجل مواجهة الصراعات التي كان عليّ خوضها**».

استسلم بين ذراعي العذراء، التي تقبّلت تكريس ذاته لها، فآزرته، وناصرته، وأنقذته، وكانت له تجسيدًا لرحمة الله وحبّه، وكافأت ثقته اللامحدودة.

لقد خاض لجّةً صاخبةً من المصاعب، ومن الأوضاع الشائكة من كلّ لونٍ، ولكنّه، في حضن إيمانه، وأُمّه العذراء، ظلّ صامدًا، ساجيًا، قويًّا، وواجه

الأحداث العصيبة بأيدٍ عاريةٍ إلاّ من سلاح الإيمان. وفي وهن أيّامه الأخيرة تجلّت قوّته في ضعفه وصليبه.

لقد دأب على استرشاد مريم والاستعانة بها، في مسيرته على خطى يسوع. ومنذ مطلع حبريّته، كان البابا الأوّل الذي يحجّ إلى المزار المريميّ «ياسنا غورا» ببولونيا، سيّدة «تشنستوهوڤا»، لكي يوكل إليها الكنيسة كلّها، ويودعها في قلبها الأُموميّ.

وسحابة عهد حبريّته، كانت أنظاره شاخصةً إلى مريم. ومن تعظيمتها استمدّ ونشر الرجاء، وبهديٍ من نصحها: «افعلوا كلّ ما يقول (يسوع) لكم»، قاد كلّ نشاطه الرسوليّ.

وإثر محاولة اغتياله، وافى مزار العذراء في فاطمة، وقدّم لها الرصاصة الغادرة التي منعتها بيدها الأُموميّة من القضاء عليه. وقد أَلِف الاختلاف إلى المزارات المريميّة في العالم، حيث كان يتلقّى «عدوى إيمان مريم».

وأَلِف لفّ المسبحة حول يده، كي يشعر بصلابة عون الأُمّ وحنانها. فكانت المسبحة له قيدًا عذبًا يضمن بقاء ارتباطه بالأُمّ السماويّة وثيقًا في كلّ لحظةٍ. وأبى إلاّ أن يدمغ بحبّه البنويّ المسبحة الورديّة، فأضاف إلى أسرارها، أسرار النور.

وأَلِف أيضًا أن يختم كلّ خطاباته بدعاءٍ إلى الأُمّ السماويّة، وهي عبّرت له عن رضاها بوفائه لها، وعن رقّة أمومتها، بحمايته، وبتأكيد حبّها له، في الكثير من ظهوراتها التي جرت أثناء العقود الأخيرة، حيث وصفته بحَمَلها الحبيب، وبأعذب النعوت، وأبلغها تعبيرًا عن إيثارها له. ويذكر الأب «غوبّي» (Gobbi)، مؤسّس الحركة الكهنوتيّة المريميّة، أنّ العذراء أوحت له أنّها هي التي انتقت يوحنّا بولس الثاني، وأعدّته للمهمّة الجسيمة التي اضطلع بها، وأكّدت أنّه «العطيّة الكبرى التي نالها قلبي الطاهر من قلب يسوع، لزمانكم».

ولم يضنّ يوحنّا بولس الثاني بجهدٍ في سبيل مقاومة التخرّصات المدّعية أنّ الإمعان في تكريم العذراء يحجب الربّ، والمطالبة بإغفال العذراء من أجل

التركيز على يسوع المسيح. فشدّد على التركيز بالعلاقة الوثيقة بين يسوع وأُمّه، التي لا همّ لها، ولا رغبة لديها سوى استقدام البشر إلى ابنها. وأوضح أنّ يسوع يقود إلى أُمّه كلّ من يجهد في معرفته وحبّه، مثلما فعل مع تلميذه الحبيب يوحنّا. وقد اعترف يوحنّا بولس الثاني: «**بقدر ما ارتكزت حياتي الداخليّة على واقع العذراء، بنفس القدر بدا لي أنّ الاستسلام لمريم هو الوسيلة المثلى للمساهمة مساهمةً مجديةً وفعّالةً في ثمار الفداء، وللنهل منه، ولاقتسام ثرواته، التي يتعذّر وصفها، مع الآخرين... إنّ تكريمي لمريم هو جزءٌ أساسيٌّ من حياتي الداخليّة، ومن لاهوتي الروحيّ**».

ولا ريب أنّ الإرث المريميّ الذي خلّفه يوحنّا بولس الثاني هو من أثمن ما خلّفه.

وكان شعاره، بمثابة هويّته، وقد برز فيه حرف M كبيرًا، دالاً على تلك التي كرّس لها كلّ ذاته.

ولم يحتفظ يوحنّا بولس الثاني لنفسه بنِعَم الإيمان، بل انطلق، بكلّ طاقاته، من أجل إفادة جميع البشر من فوائده الخلاصيّة. وقد جعل منه الإيمان مرسلاً مقدامًا، لا يملّ ولا يتوانى، فجاب المسكونة، من أقصاها إلى أقصاها، كي ينشر تعاليم الإنجيل ويرسّخها، ويُشرك بما فاضت به نفسه. لقد علم وعمل وعلّم، فكان عظيمًا في ملكوت السماوات.

بصفته تلميذًا ليسوع، استجاب لرغبته في أن يذرع تلاميذه العالم أجمع، ويبشّروا الخليقة كلّها بالإنجيل. وبصفته خليفة بطرس حقّق رغبة يسوع في «تثبيت إخوته». واستجاب لدعوة الرسول بولس الذي أوصى تيموثييوس: «اكرز بالكلمة، واعكف على ذلك في وقته، وفي غير وقته، حاجج، ووبّخ، وعظ بكلّ أناةٍ، وبجميع وسائل التعليم».

وقد دفعه إلى الرسالة، أيضًا، إيمانه بأنّ الحقيقة للمسيحيّ هي شخص يسوع المسيح الذي يخلّص الإنسان، ويقيه من الشرّ والموت، ويمنحه مصيرًا أبديًّا، يتخطّى ما يربطه بالأرض.

كان نبيًّا جاب أرجاء المسكونة مبشّرًا بكلمة الخلاص كلّ البلدان، وجميع البشر، ولا سيّما الشبيبة التي توسّم فيها مستقبل العالم. ولم ينتظر أن يأتي المؤمنون إلى الكنيسة، بل انطلق هو بالكنيسة إليهم.

فقد قام بمئةٍ وأربع رحلاتٍ دوليّةٍ، شملت القارّات الخمس، وحملته إلى أقصى جزر العالم ومدنها، اجتاز، خلالها، نحو مليونٍ وثلاث مئة ألف كيلومترٍ، أي ثلاثين مرّةً مسافة الجولة حول الأرض، وثلاث مرّاتٍ المسافة بين الأرض والقمر، وقضى ستّ مئة يومٍ خارج روما، وقابل ثماني مئة مليون نسمةٍ، في **١٣٤** بلدًا، ومنها ما زاره أكثر من مرّةٍ. وبما أنّ قسمًا من عام **١٩٨١** قضاه في المستشفى، عقب محاولة اغتياله، فقد استدرك ضآلة أسفاره، في تلك السنة، بسبع رحلاتٍ، في عام **١٩٨٢**.

وبغيةَ ضمان تبشيرٍ جديدٍ يلائم الأوضاع المستجدّة، واحتياجات كلّ منطقةٍ من العالم، دعا يوحنّا بولس الثاني إلى عقد سينودساتٍ، تجمع أساقفة تلك المناطق، للتباحث في القضايا الملحّة. وكان يواكبها، عن كثبٍ، ويستخلص من مباحثاتها ومقرّراتها «إرشاداتٍ رسوليّة»، كفيلةً بتصويب مسيرة الرعايا في العالم.

ولم يكتفِ بالسفر والكرازة، بل عملاً بنصيحة الرسول بولس، استخدم «جميع وسائل التعليم»، ووضع من الوثائق التعليميّة الكفيلة بتغذية عالمنا المتخم بالأوهام والأغذية المصنّعة، الزائفة، والمميتة غالبًا.

والذين كان يصعب عليهم فهم كتاباته العميقة، كان يكلّمهم بلغةٍ بسيطةٍ، تنفذ بيُسرٍ إلى قلوبهم وأذهانهم، من خلال عظاته، أثناء تكريم طوباويّين، أو إعلان قداسة أبطال إيمانٍ، ومن خلال أحاديث كان يدلي بها أثناء اللقاءات العامّة الأُسبوعيّة، واللقاءات اليوميّة مع الجماهير، والزيارات الراعويّة، وصلوات التبشير و«ملكة السماء».

وقد ساعده على تبليغ رسائله أنّه أعاد للمفردات المستخدمة في خطاباته، قوّة وقعها، ونكهتها وديناميّتها، التي أفقدها إيّاها استعمالٌ سطحيٌّ شائعٌ، بعد أن ضمّخها، هو، بعبير الصلاة والتأمّل، مشركًا مستمعيه بثمار انغماسه في الله.

وقد كلّل تعليمه بكتاب «التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة» الذي واكب وضعه وإصداره، خطوةً خطوةً.

هذا، فضلاً عن كتبٍ قيّمةٍ دبّجها بصفته الشخصيّة، تناولت مواضيع فلسفيّةً واجتماعيّةً، وفضلاً عن مجموعات قصائد كان قد نظم معظمها في فترة شبابه، ونصوصٍ مسرحيّةٍ تعود، أيضًا، إلى تلك المرحلة.

وكان قد بسط آراءه في شتّى المواضيع الإيمانيّة والاجتماعيّة في كتابين وضعهما مع صحافيّين، هما:

– «لا تخافوا»، مع الكاتب الفرنسيّ أندريه فروسّار (تشرين الأوّل ١٩٨٢)

– «ادخلوا في الرجاء»، مع الصحافيّ الإيطاليّ ڤيتوريو ميسّوري (تشرين الأوّل ١٩٨٤)، ولم يكفّ عن إصدار مؤلّفاتٍ حتّى مماته. فعام ٢٠٠٥ أصدر كتابه الأخير «الذاكرة والهويّة»، وكان قد أصدر عام ٢٠٠٤ كتاب «هيّا فلننطلق». وفي عام ١٩٩٦: «دعوتي: هبةٌ وسرٌّ».

وكان إنتاجه من الغنى بحيث صرّح خَلَفه بينيدكتس: «إنّ مهمّتي الأساسيّة والشخصيّة لا تتمثّل في إصدار العديد من الوثائق الجديدة، بل في العمل على أن يتمّ استيعاب وثائق يوحنّا بولس الثاني، وتمثّلها، فهي كنزٌ ثرٌّ». وقال أيضًا: «فلنشكر الله الذي وهب الكنيسة والعالم خلَفًا للرسول بطرس جديرًا به. ولتساعدنا العذراء على صون إرثه!».

ومن المؤكّد أنّه أسدى للكنيسة خدماتٍ جلّى، بالتزامه التبشير الجريء بالحقيقة المسيحيّة، وبإغداقه تعليمًا عقائديًّا وأخلاقيًّا كثيفًا، غنيًّا، مستمرًّا. وتلبيةً لاحتياجات الحقبة الراهنة، شدّد على التعليم المتعلّق بالأُسرة، وبالحياة، وباستقامة الأخلاق. وأولى اهتمامًا شديدًا بالشخص البشريّ، وبحياته الأرضيّة، وبمصيره الأبديّ، وأعلن رسالة محبّةٍ غير مشروطةٍ منفتحةً على جميع البشر، في مواجهة كرهٍ شيطانيٍّ كاسحٍ يلتهم العالم. وجهد في ترميم أنسنة العالم، بإرجاعه إلى نفسه الخالدة وإلى الله، ولم يكفّ عن تذكيره بأنّ «علمًا خاليًا من

الضمير هو دمارٌ للنفس»، محذّرًا كلّ مغرورٍ بعلمه، مردّدًا قول «ماليرب» (Malherbe): «أن نريد ما يريده الله، هو العلم الوحيد الذي يريحنا».

بلا هوادةٍ، صاح في صحراء عالمٍ أصمّ أُذنيه عن كلام الله. وأُسوةً بالأنبياء أدهش، وخضّ، وأقلق، وهدّد مراكز المتجبّرين، وأزعج المتكبّرين، فحاولوا إخراسه، وإقصاءه، وإزالته.

وقد ساعد الكنيسة على استعادة صفاء رؤيتها، وسداد مسيرتها، على حدّ ما أوضح أندريه فروسّار بقوله: «في نهاية العقد الثامن من القرن العشرين، كان كثيرون من المسيحيّين يتوجّسون خشيةً على كنيستهم المهدّدة في وحدتها العقائديّة، والتي هجرتها جموعٌ من مؤمنيها ما عادوا يدرون ما الذي عليهم أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا به، والذين أخذ منهم الضياع بحيث باتوا عاجزين عن الإدلاء بالجواب الجوهريّ حول إيمانهم، وبالردّ على سؤال يسوع لتلاميذه: «وأنتم من تقولون إنّي هو؟»، فالتمسوا النجاة في الهرب.

«وحينئذٍ، جاء ذلك الرجل المتمكّن من إيمانٍ واثقٍ، وخاطب المسيحيّين بلغةٍ ألهمتها رؤيةٌ مشرقةٌ للكنيسة، فأشاعت الدفء في قلوبٍ كثيرةٍ. وشرع يعيد الحيويّة إلى النسيج المسيحيّ، خليّةً خليّةً، ويحيك، حول العالم، شبكة إراداتٍ طيّبةٍ، جعلت منه، هو الأعزل، قوّةً تعادل أعظم القوى التي سيلفّها التاريخ في ثنايا ليله، في حين ستظلّ الكنيسة تتألّق من وراء شواطئ الزمن. ... لقد جاء في الوقت المناسب لكي يطلق صيحته المدوّية: «لا تخافوا»، التي أصابت، مباشرةً، أعماق الضمائر، في قرنٍ التقى، مجدّدًا، عند مشارف الألفيّة الثانية، أهوالاً تحاكي أهوال بدء الألفيّة الأولى، فضلاً عن الخوف من نهايةٍ عالميّةٍ مريعةٍ، مقصودةٍ أو عرضيّةٍ.

«دعوة يوحنّا بولس الثاني هذه، في فجر حبريّته، رأى فيها كثيرون تشجيعًا على المقاومة الأدبيّة وعلى الشهادة؛ ورأى فيها بعضهم محاولةً أبويّةً لطمأنة الأذهان القلقة... في جميع الأحوال ما من قولٍ كان أكثر مناسبةً لزماننا. فقرننا يرتعد خوفًا، ومخاوفه العديدة تدفعه إلى كلّ ألوان التجاوزات. إنّه يخاف

الحرب، ويبرّر خوفه هذا عالمٌ جَدَليٌّ، لا يعرف من الشرائع سوى شريعة تصادم الأضداد.

«معه دعت الكنيسة إلى السلام، ولكنّها لم تفصل السلام عن احترام حقوق الإنسان، وحقوق الشعب...».

ولا جرم أنّ الإيمان الواثق والثابت حرّر يوحنّا بولس الثاني من كلّ خوفٍ، فكان من أبرز الشهود على الرجاء. وقد وصفه البابا بينيدكتس السادس عشر بأنّه «نبيّ الرجاء». وهو نفسه كان قد قال: «**الإيمان والرجاء يسيران على دربٍ واحدٍ، ولكنّ الرجاء يتقدّم رفيق دربه خطوةً**». وهو آمن بأنّ الله هو سيّد التاريخ، فآمن أنّ المستقبل للرجاء، وآمن بمستقبل الرجاء.

صرخته «**لا تخافوا**»، التي أطلقها يوم تنصيبه، كانت صدًى لصرخة يسوع، وما زالت تدوّي، وما برح العالم في أشدّ حاجةٍ إلى سماعها، فهو يواجه، كلّ يومٍ، شتّى دواعي القنوط. ولكنّ يوحنّا بولس الثاني نفث في أوصاله نفحة رجاءٍ ثابتٍ، لأنّه مبنيٌّ على ثقةٍ راسخةٍ بالذي قهر الموت. وبإسهامه في تحويل مجرى التاريخ، وفي زوال أنظمةٍ ظالمةٍ مجرمةٍ، أثبت أنّ الرجاء متاحٌ.

وقد كان اهتمامه المندفع للاحتفال باستقبال الألفيّة الثالثة، دليلاً ساطعًا على تفاؤله بالمستقبل، وعلى تأهّبه لمجابهة أكثر التحدّيات طموحًا، وعلى عزمه خوض لجج التبشير الجديد، والانطلاق بالكنيسة إلى أعالي البحار، مؤكّدًا، في الآن عينه، أنّ رسالة الكنيسة هي خدمة الإنسان، وإعلان حبّ الله للبشر، وجبر كلّ الكسور التي تقسّم البشريّة، ولأم جراحها.

آمن بالرجاء، وبشّر به، لأنّه آمن أنّ صبر الله سينتصر حتمًا، وأنّ القداسة ستتغلّب على الكذب والبغض. وكان رجاؤه منيعًا لا يتزعزع، لأنّه مبنيٌّ على المسيح، والمسيح سيّد التاريخ، وهو خلاص البشريّة، وهذا ما أكّده، عندما كتب: «**المسيح هو ربّ الأزمان، وهو البداية والنهاية. تجسّده وقيامته يتضمّنان كلّ سنةٍ، وكلّ يومٍ، وكلّ لحظةٍ، ويفضيان بها إلى «ملء الزمان»**».

في زمن انهيار فلسفاتٍ كبرى دمغت القرنين المنصرمين، وانهيار كلّ ما بشّرت

به، جهر يوحنّا بولس الثاني بإيمانه بمسيح التاريخ الخالد، وبالرجاء المبنيّ عليه.

وكان رجاؤه منيعًا لأنّه مبنيٌّ على يقينٍ بأنّ أنظمة العنف والجوْر التي اختطفت فترةً من التاريخ، ستعلن، حتمًا إفلاسها، وستثبت أن لا معنى للتاريخ إلاّ في تطلّعه إلى ما يتجاوز الأرضيّ الزائل؛ ولأنّه آمن أنّ الإنسان تاريخٌ مقدّسٌ، مخلوقٌ على صورة اللّه، وأنّ المسيح تجسّد لكي يحفر اللانهائيّ في قلوب البشر، وفي تاريخهم.

كان يرى أنّ قسط البشريّة من الألم والشرّ يتعذّر قياسه، وأنّه سرٌّ أكبر من الإنسان، وأعمق من قلبه، سرٌّ تُحدّثُنا عنه الجتسماني وجلجلة يسوع، اللتان تشهدان، أيضًا، وفي الآن عينه، على سرٍّ آخر هو سرّ الفداء الذي سيعمل، حتّى النهاية على اجتثاث الألم والشرّ. وفي سرّ الفداء هذا تنضج سماواتٌ جديدةٌ، وأرضٌ جديدةٌ، حيث «يسكن العدل»، وحيث، وفق ما جاء في سفر الرؤيا، «سيسكن اللّه مع الناس، فيكونون له شعبًا، وهو – اللّه معهم – يكون إلههم، ويمسح كلّ دمعةٍ عن عيونهم، ولا يكون، بعدُ، موتٌ ولا نوْحٌ، ولا نحيبٌ ولا وجعٌ».

وقد اختتم يوحنّا بولس الثاني كتاب «ادخلوا في الرجاء» بقوله:

«كي يتجرّد الإنسان المعاصر من خوفه من ذاته ومن العالم، ومن الآخرين، ومن سلطات العالم، ومن أنظمة القمع، ومن خشية كلّ عبوديّةٍ حيال هذه «القدرة العليا» التي يدعوها المؤمن اللّه، حسبُه أنّ يحمل في قلبه، وينمّي «مخافة اللّه» الحقيقيّة، التي تمثّل بدء الحكمة. وما مخافة اللّه سوى قدرة الإنجيل الخلاصيّة. وهي ليست، أبدًا، مدمّرةً، بل هي، دائمًا، بنّاءةٌ. وهي تستنفر بشرًا ينقادون لمقتضيات المحبّة، وتستنهض قدّيسين، أي مسيحيّين حقيقيّين، وهؤلاء هم صانعو المستقبل».

وأكّد ذلك البابا الذي استهلّ حبريّته بهتاف «لا تخافوا»، سعيه إلى البقاء وفيًّا، دائمًا، لهذا الهتاف، وتأهّبه الدائم لخدمة الإنسان والأمم، والبشريّة جمعاء، وفقًا لتعاليم الإنجيل. ومن ثمّ، ما انفكّ يدعو إلى الدخول في الرجاء الوحيد الذي لا يخيّب، والذي، من خلاله، لا يكفّ اللّه يؤكّد لنا حبّه.

وهو، بدعوته الملحّة إلى الرجاء، قضى على أوهام الحداثة الزائفة، وأضفى على حياتنا معنًى، وحرّر القيامة التي احتلّت، دائمًا، صلب الإيمان المسيحيّ ومركزه، من خيوط العنكبوت التي نسجها الزمن حول مفهومها، وقدّمها لحقبتنا تحدّيًا ورجاءً جديدًا. وما برحت رسالته هذه تنير السبيل إلى مواجهة القضايا الكبرى التي تواجه زماننا: السلام، والحرب، والوحدة، والهواجس، والاستخفاف بكرامة الإنسان المتفشّي في كلّ مكانٍ؛ والأوهام والتناقضات التي تغشى القسم الغنيّ من العالم، والبؤس المريع، في القسم الآخر من الكرة الأرضيّة، واحتضار ملايين المحرومين، وما تتمخّض عنه هذه المآسي من ثقافة قتلٍ، وإرهابٍ، وانتقامٍ، وتدميرٍ.

ومع تفاقم أسباب القنوط، في عالمٍ فاقد التوازن، ثابر يوحنّا بولس الثاني على الكفاح والدعوة إلى الرجاء، جاهدًا في احتواء الشرّ، بعطفه، وصفحه، وصبره، وحواره، وبيده الممدودة.

وعلى إيمان يوحنّا بولس الثاني بيسوع الذي تجسّد وصُلب، افتداءً للإنسان، وحبًّا به، وعلى الرجاء المرتكز على حبّ الله للإنسان، قامت محبّة يوحنّا بولس الثاني البطوليّة. فبمعزلٍ عن المحبّة لا يكتمل إيمانٌ، ولا يصمد رجاءٌ، إذ إنّ كلّ فعلٍ بشريٍّ، يمرّ عبر يسوع، ومن خلاله يطال كلّ إنسانٍ حتّى أقاصي المسكونة. ومنذ تجسّد ابن الله، اكتسبت الأفعال البشريّة صدًى لامحدودًا.

لقد أحبّ يوحنّا بولس الثاني يسوع حبًّا مضطرمًا، صافيًا، مطلقًا، وأكّد مصداقيّة هذا الحبّ، بحبّه كلّ إنسانٍ، ولا سيّما الأصاغر، والأكثر ضعفًا وحرمانًا، أولئك الذين تماهى يسوع بهم.

لقد أسهبنا، سابقًا، في تبيان تمرّسه بفضيلة المحبّة، ولا بدّ من أن نضيف أنّ شعاره: «إنّي بكلّيّتي لكِ، يا مريم»، لم يحصره ولم يحدّ من آفاقه، بل هو أشرعه على كلّ نداءٍ صادرٍ عن أبناء وبنات يسوع ومريم، ودفعه إلى غوثهم، ونصّبه محاميًا ذائدًا عن كلّ ما يطالهم من ظلمٍ وبؤسٍ وحرمانٍ. أحبّهم حبّ أبٍ يفهم أبناءه ويتحوّل حبّه حنان أُمٍّ على الصغار والضعفاء والمتألّمين؛ وحبّ

راعٍ يعرف كلاًّ من خرافه باسمه، وحبّ صديقٍ يأخذ بيدهم ويواكبهم، وحبّ قيروانيٍّ يحمل معهم صليبهم.

لقد نفّذ وصيّة المعلّم بأن يكون خادمًا لجميع إخوانه. وأشعّ الحبّ، الذي طالما تحرّق لنشر حضارته، من كلّ أعطافه ومبادراته. ولم يكن هذا الحبّ سوى قبسٍ من الحبّ الإلهيّ. ولكم من مبادراته، ومن لجوء الصغار والمستضعفين إليه، ذكّرت بعبور يسوع على كوكبنا وبعطفه ورقّته!

لقد رأى يسوعَ في كلّ إنسانٍ، وأولاه ثقةً بلا حدودٍ، وجهد لإعتاقه من كلّ عبوديّاته. ولم يميّز بين مختلف الثقافات والحضارات والتقاليد، بل رأى وجه المخلّص في كلّ إنسانٍ، وتعذّر عليه إشاحة نظره عنه.

وكان وطيد اليقين بأنّ كلّ عملٍ لا يكون الحبّ دافعه، يحمل في ذاته عوامل الفساد؛ وأنّ الإنسان لا يدرك حقيقة ذاته إلاّ من خلال علاقته بالآخرين، وتقبّلهم في كلّ ما يختلفون به عنه؛ وأنّ الحرّيّة لا تكتمل إلا بهبة الذات بدافع الحبّ. وكان مثالاه الفذّان على ذلك هما الأب «مكسيميليان كولبي»، والراهبة «إيديث شتاين»، اللذان جعلا من معتقلات الإلغاء ساحات انتصارٍ للإنسانيّة، بقولهما «لا» حازمةً في وجه الجلاّدين، واختيارهما الموت طوعًا، عوضًا عن الخضوع الذليل له، فأثبتا حماقة أنظمة الإعدام والإلغاء، وثقافة القتل والموت.

بدافع المحبّة، خاض يوحنّا بولس الثاني معركة حضارة المحبّة ضدّ ثقافة الموت، وتصدّى ببسالةٍ لمعظم التيّارات الفكريّة والسياسيّة التي تجاهلت أو انتهكت حقوق الإنسان الأساسيّة. ولم يقتصر على فضح الأنظمة التوتاليتاريّة والديكتاتوريّة بل ندّد، أيضًا، بالديمقراطيّات الجوفاء المجرّدة من الأخلاق، التي أوصلت هتلر وموسوليني إلى سدّة الحكم، في انتخاباتٍ اعتُبرت ديمقراطيّةً؛ مثلما ندّد بجموح الرأسماليّة وانفلاتها من قيود الأخلاق الأساسيّة، وأنذر من جرائم توحّشها؛ وأرشد إلى السبيل الذي يضمن كرامة الإنسان وسلامة البشريّة، سبيلٍ يسترشد بمبادئ الأخلاق، وبأنوار الروح، ويفضي إلى «حضارة المحبّة»، التي يعجز عن بلوغها كلّ نظامٍ يهتدي بمفاهيم وغاياتٍ أُخرى.

وبدافع المحبّة دأب على الدعوة إلى السلام، وعلى صنعه، ولا سيّما أنّه، منذ صغره، رأى العالم غائصًا في بحيرات دماءٍ، وعلاقات الدول مبنيّةً على مصالح أنانيّةٍ، وعلى شهوة السلطة. وقد زاد من أخطار هذا الواقع أنّ تطوّر صنع الأسلحة الفتّاكة أهّل العالم لتدمير ذاته بذاته، وأنّ لا حائلَ دون هذا الفناء سوى تبنّي حضارة الحبّ.

وفيما توانى أو أحجم مفكّرو العالم، وزعماؤه الاجتماعيّون والدينيّون عن الجهر بهذا الواقع، أعلن يوحنّا بولس الثاني، بصوتٍ جهيرٍ، وبنبرةٍ حازمةٍ، وبصراحةٍ لا مواربة ولا لَبْسَ فيها، أنّ اللّه ليس إله قتلٍ وانتقامٍ، وانحيازٍ لفئةٍ دون فئةٍ، بل هو إله محبّةٍ تشمل الخلائق قاطبةً.

لقد آمن أنّ يسوع جاء كي يحرّر الإنسان، وأنّ أداة تحريره كانت الحبّ والتضحية؛ والحبّ يطرد الخوف، إذ «لا خوف مع المحبّة»، كما جاء في رسالة القدّيس يوحنّا. وقد علّم يسوع أنّ علاقة اللّه بالبشر ليست علاقة سيّدٍ بعبيده، بل هي علاقة محبّةٍ، على غرار الحبّ المتبادل بينه وبين أبيه. وإنّما ارتكب الأبوان الأوّلان المعصية الأولى، لأنّهما أنكرا حبّ اللّه، وتوهّما أنّه يبتغي التسلّط عليهما.

وبالإجمال، نهج يوحنّا بولس الثاني درب المحبّة المسيحيّة، التي وصفها بولس الرسول بكونها موهبةً روحيّةً. وكانت تلك الحقيقة له هي الكفيلة بتقديس الوجود، فكرّس لترسيخها ونشرها حياته كلّها، ولا شيء في حياته حدث خارج هذه الحقيقة. فاستأهل لقب «**نبيّ المحبّة، ومنشد الحياة**».

وقد تميّزت ممارسة يوحنّا بولس الثاني **بالشجاعة**.

كان شجاعًا في حقبةٍ زاخرةٍ بمخاوف كبرى. وكان صاحب قرارٍ حازمٍ، ونظرةٍ جريئةٍ متكاملةٍ، في حقبة مساوماتٍ، وتردّدٍ، وتقاعسٍ، وتقلّباتٍ في المواقف. ونفّذ بحذافيره قول الربّ: «**ما تسمعونه همسًا في الأذن، نادوا به على السطوح. ولا تخافوا من يقتلون الجسد، ولا قدرة لهم على قتل الروح... من اعترف بي قدّام**

الناس، أعترف به، أنا أيضًا، قدّام أبي الذي في السماوات» (متّى ١٠: ٢٨ و٣٢).

لقد أبدى شجاعةً نادرة المثال في الدفاع عن حقوق الإنسان الأساسيّة، حقوق كلّ إنسانٍ في كلّ مكانٍ، ولم يفوّت فرصةً، أو سانحةً، أو منبرًا كي يشدّد على واجب الالتزام بهذه الحقوق، ويدين كلّ انتقاصٍ منها أو انتهاكٍ لها.

ولم يكن دفاعه عن حقوق الإنسان، من فوق المنابر، أو من خلال رسائله، عباراتٍ اجتماعيّةً، ولا أقوال مناسباتٍ، بل كان نابعًا من قناعةٍ راسخةٍ بأنّ اللّه خلق الإنسان على صورته. ومن ثمّ فالإنسان مدعوٌّ إلى تخطّي ذاته، والسموّ فوق بشريّته؛ وبالتالي فإنّ كلّ ما من شأنه إيذاء الإنسان، ومنعه من المضيّ قدُمًا في تحقيق مصيره، مرفوضٌ، وكلّ ما يعيق الإنسان هو عائقٌ لعمل اللّه، وكلّ ما يحطّم الإنسان يستحقّ الإدانة والنبذ.

لقد دأب على التأكيد في كلّ المناسبات، وبكلّ الوسائل أنّ حقوق اللّه هي حقوق الإنسان التي لا يجوز استلابها أو العبث بها. ولم يملّ، قطّ، من الدعوة إلى أولويّة مبادئ الأخلاق على التقنية، وإلى أفضليّة الشخص على الأشياء، وأفضليّة الإنسان على المادّة، مؤكّدًا أنّ قضيّة الإنسان ستُخدَم عندما يتحالف العلم مع الضمير، وسيساعد العلم البشريّة، حقًّا، طالما التزم بإيمان أنّ الإنسان أسمى من العلم، وأنّ اللّه أسمى من الإنسان.

ودافع يوحنّا بولس الثاني، بجرأةٍ، عن السلام، عندما كانت طبول الحرب تُقرَع بعنفٍ. ومع أنّ جهاتٍ نافذةً جهدت في خنق صوته، لم يكفّ عن التنديد بالدعوة إلى الحرب. وغالبًا ما بدا نبيًّا يصرخ في قفار النوايا الشرّيرة، غير أنّه لم يتوانَ عن تكرار ما كان ضميره يملي عليه قوله، محذّرًا، بلا هوادةٍ، دعاة الحرب:

«**أنا أعرف ما هي الحرب، وواجبي أن أقول إنّ الحرب تنمّي الأحقاد، ولا تحلّ المشاكل**».

وبذلك كان يسبح، بلا وجلٍ، وعكس التيّار الجارف، متحدّيًا المخاطر، وكان بوسعه أن يتبنّى أقوال الرسول بولس (٢ كو١١: ٢٦-٢٩): «كثيرًا ما كنت...

في أخطارٍ من أُمّتي. وأخطارٍ من الأُمم... وما عدا هذه، ما يتراكم عليّ كلّ يومٍ، والاهتمام بجميع الكنائس. فمن لا يضعف ولا أضعف أنا! ومن يعثر ولا أحترق أنا!».

كان شجاعًا في الدفاع عن الأُسرة، وفي مكافحة الإجهاض والطلاق.

وشجاعًا كان في دفاعه عن حياة كلّ إنسانٍ: المعافى، والمريض، والمعاق، الأبيض، والأسود، والأصفر، منذ تكوّنه جنينًا حتّى موته.

وكان جريئًا في مكافحة الجريمة، ولم يخشَ السير فوق أوكار الأفاعي. وأيّة رعشةٍ أخذت بمستمعيه، يوم خاطب عصابات المافيا الصقلّيّة، هاتفًا: «يا رجال المافيا، ارتدّوا عن غيّكم، فعليكم أن تمثلوا، يومًا، أمام الله، وأن تؤدّوا حسابًا عمّا تفعلونه الآن!» وكم خشي عليه المؤمنون من انتقام القتلة!

وكان شجاعًا في طريقة مخاطبته الشبيبة. فمنذ تولّيه السدّة البابويّة، أدرك أنّ الكنيسة عاجزةٌ عن التفاهم مع الأجيال الطالعة، وأنّها فقدت مصداقيّتها لديهم. غير أنّه كان راسخ اليقين بأنّ الشباب، بمنأًى عن المسيح، لن يعرفوا، يومًا، للحياة معنى، ولن يتذوّقوا أبدًا طعم الحبّ الحقيقيّ، القائم على عطاء الذات، لا على نزواتٍ تسيء إلى الذات وتدمّرها. فسعى وراء الشبيبة وخاطبها، واكتشفت فيه الشبيبة صديقًا حقيقيًّا، مخلصًا، لا يساوم، ولا يتنازل، طمعًا في شعبيّةٍ زائفةٍ، ولا يميّع الإنجيل لكي يطرب بالتصفيق. ومع ذلك صفّق له الشباب بحرارةٍ، وعفويّةٍ، وبمظاهر تعاطفٍ أذهلت من توهّموا أنّ الكنيسة دُفنت، وأنّ المسيحيّة باتت أطلالاً دارسةً. أحبّته الشبيبة بصدقٍ، كما يُحَبّ أبٌ عطوفٌ، لا يتوانى عن الإصلاح الحازم، لأنّه يحبّ بإخلاصٍ وتجرّدٍ. لم يتنازل إلى ما يدغدغ أهواءهم، بل دعاهم، بجرأةٍ، إلى التسامي كي يسبغوا على حياتهم معنًى وكرامةً. وهم أدركوا أنّ ذلك الشيخ أكثر إلمامًا منهم بأسرار الشباب، فأعملوا الفكر في أقواله.

وكان بطل جرأةٍ وبسالةٍ وصمودٍ، إلى جانب ضحايا الظلم والعنف، لا يتوانى عن فضح الفاسدين والمفسدين، والطغاة، وتجّار الأسلحة، والمخدّرات،

والأطفال، ولا سيّما المسيحيّين منهم، الذين، بسلوكهم المشين والمجرم، يلطّخون صورة المسيحيّة.

وكان ذوده عن الأبرياء وضحايا الظلم، حازمًا، بقدر ما كان قاسيًا اختباره لأهوال النازيّة والستالينيّة، ولاستغلال الأفراد والدول للإنسان. وهو لم يتعلّم الدفاع عن الكرامة الإنسانيّة من الكتب، بل ممّا خبره شخصيًّا، وممّا عاناه شعبه.

وكان مثالاً للشجاعة في لحظات المرض والموت. ولم يخشَ إظهار انهيار قواه، بل عاش احتضاره علنًا، وجعل منه منبرًا لتعليم مشاركة المسيح آلامه الفدائيّة. وعندما حاول، للمرّة الأخيرة، التحدّث إلى الجماهير من نافذة مكتبه، وأبت الكلمات أن تتخطّى شفتيه، كان صمته أبلغ من كلّ كلامٍ.

ولا ريب أنّه كان يستمدّ الشجاعة من إيمانه المنيع، ومن عزمه على النهوض بواجبات مسؤوليّته حتّى النهاية، وأيًّا كان الثمن. فتجلّى رجل إيمانٍ، وحقيقةٍ، ونورٍ، وشجاعةٍ، لا يخشى أحدًا، ولا يخاف إلاّ من التقصير في أداء رسالته على أكمل وجهٍ.

وفوق كلّ ذلك، لم يغِب عن خاطر يوحنّا بولس الثاني، أنّه، في المقام الأوّل إنسانٌ مكرّسٌ لله: كاهنًا، وأسقفًا، وحبرًا أعظم. فحرص على الاضطلاع برسالته، في كلّ تلك المواقع، ساعيًا، دائمًا، إلى الكمال.

لقد دمغ «كارول ڤويتيووا» كلّ مرحلةٍ من مراحل حياته، بطابعه الخاصّ، وهو طابع يسوع، فمارس كهنوته، حتّى في القرى النائية، الفقيرة، بغيرةٍ متّقدةٍ، وبقداسةٍ وإبداعٍ. وكان الراعي الساهر بقلقٍ وحبٍّ، على كلّ فردٍ من رعيّته، ولا سيّما الشباب.

ولم تغيّر الأُسقفيّة ولا الكردياناليّة شيئًا من مودّته لإخوته الكهنة، ومن صداقته لأبناء رعيّته، الذين واكب أفراحهم وأحزانهم وهواجسهم، وشجّع مشاريعهم وتطلّعاتهم، ولم يتردّد في مشاركتهم بعض رحلاتهم. غير أنّ ثقل المسؤوليّة جعله أشدّ حزمًا، في مجابهة كلّ ضلالٍ من شأنه النأي عن نهج الإنجيل، وانتهاك حقوق الإنسان وكرامته.

وفي حبريّته شقّ نهجًا جديدًا، وأظهر البابويّة بوجهٍ قشيبٍ، رسوليٍّ، متيقّظ لأنّات المؤمنين، أينما كانوا؛ وأمعن في إشراع الكنيسة على المؤمنين والعالم، وألحّ في الدعوة إلى تبشيرٍ جديدٍ، يتكلّم لغة العمّال، والأجيال الجديدة، لغةً يفهمها ويتمثّلها كلّ إنسانٍ من كلّ لونٍ وكلّ قطرٍ. وبعد أن كان البابا، في نظر الكثيرين، طيفًا قصيًّا لا يُطال، أتاح لملايين الناس أن يروه، ويلمسوه، ويستمعوا إليه عن كثبٍ. وقد تحدّث في كنائس أرثوذكسيّةٍ، وبروتستانتيّةٍ، وحاور مسلمين في كازابلانكا، وفي الخرطوم وفي دمشق، وسافر إلى كلّ مكانٍ ملتهبٍ كي يطفئ نيران الحروب.

ولم يتكلّم أحدٌ، مثله، بلسان ضحايا الشيوعيّة والرأسماليّة. وعانى، في نفسه، آلام العالم، فأصغى إليه الجميع حتّى الذين خالفوه الرأي.

أرسى أسس تحوّلاتٍ خطيرةٍ في إدارة الكنيسة، يتعيّن على خلفائه البناء عليها، وإجراء إصلاحاتٍ أوفر جرأةً، وأبعد أفقًا، أخذت بوادرها تتجلّى مع البابا فرنسيس الأوّل.

وكان البابا الملائم لحقبته، ولكلّ فئات الناس. فبارك شعور الشبيبة بفرح الحياة، على أنّه علامة فرح الخالق بخلقه، وبذلك اكتسب قلوب الشبيبة، وأثّر فيها، وأشاد بعبقريّة النساء، فخفّف من غلواء مطالبتهنّ بما لا قِبَل للكنيسة على منحهنّ إيّاه، وكان للجميع الصديق المتفهّم.

وكان، في آنٍ واحدٍ، التلميذ الحبيب، يوحنّا، الذي اتّكأ على صدر يسوع، وسمع خفقات قلبه، وبشّر العالم بحبّه. وكان بولس الرسول، الذي جاب العالم، بلا كللٍ، كي ينشر تعاليم المسيح، بكلّ الوسائل، وذكّر بها بلا مللٍ، ودافع عنها بجرأةٍ بطوليّةٍ. وكان بطرس الذي تقلّد إدارة دفّة الكنيسة، بدافع حبّه المطلق ليسوع، واقتاد سفينتها إلى أعالي البحار.

وبذل جهودًا حثيثةً في سبيل تحقيق وحدة المسيحيّين. ولئن أحزنه الفشل في بلوغ النتائج التي طمح فيها، إلاّ أنّه مهّد السبل إلى هذا الهدف الذي كان يحتلّ من قلبه حيّزًا مركزيًّا.

وعقد حواراتٍ مع رؤساء الديانات الأُخرى، عسى أن يكون الدين سدًّا في وجه الإلحاد المستشري، وفي مواجهة تيّارات الإباحيّة، والعنف، والظلم.

ولا ريب أنّ الخبرة والممارسة رسّختا إلهاماته. إذ قلّما أكسب حبرٌ أعظم مهمّته الراعويّة، بمثل ما أكسبها هو من خبراتٍ واسعةٍ في دنيا الرعاية، وفي قضايا الناس الواقعيّة، وأيضًا، في ميدان الفكر، حيث سعى إلى إعادة بناء أسس ثقافةٍ جديدةٍ عصريّةٍ.

الساعات التي لا تحصى التي أمضاها في كراسيّ الاعتراف، ومقاومته الاحتلال والقمع في وطنه، ومئات المحاضرات، والمقالات، والرسائل، والمطالعات التي أتاحت له التوغّل في أعماق القضايا البشريّة، مكّنته من فضح الفظائع المرتكبة في القرن العشرين، من قِبَل حركاتٍ لاإنسانيّةٍ، عرقيّةٍ، متعصّبةٍ في وطنيّتها، أو ليبيراليّةٍ جامحةٍ، تجاهلت، جميعها، مصلحة الشخص البشريّ الفعليّة.

وقد زاده وعيه العميق لكونه وكيل المسيح على الأرض، ووجهه المرئيّ في عيون المؤمنين، صرامةً في الالتزام بسيرة قداسةٍ لا تشوبها شائبةٌ.

وزادته اندفاعًا وتضحيةً، الأوضاع الحرجة التي كانت تجتازها الكنيسة، التي طالما جابهت، على امتداد تاريخها، أعتى الهجمات، الشرّيرة، وأشدّ العلل وبالاً، وأعتى الأزمات استعصاءً، وليس أقلّها انزلاقها إلى مستنقعات السلطة والمال؛ غير أنّها واجهت في القرن العشرين، وما زالت تواجه صراعًا من نوعٍ جديدٍ، يتمثّل في مقاومة الضغوط الممارسة عليها، كي تساير تيّار التنكّر لكلّ ما يمتّ إلى الروح بصلةٍ. هذا الصراع شخّصه يوحنّا بولس الثاني بقوله:

«إنّ الكنيسة تستأنف، كلّ يومٍ، نضالها ضدّ روح العالم، وما هو، في الواقع، إلاّ نضالٌ من أجل روح هذا العالم. فإن وُجد، من جانبٍ، الإنجيل واستمرار التبشير به، إلاّ أنّ هناك، من جانبٍ آخر، قوّةً معاديةً للإنجيل، دائبةً على مناوأته. وهي مزوّدةٌ بوسائل وبرامج طموحٍ، تستهدف مقاومة الإنجيل والتبشير به، مقاومةً مصمّمةً شرسةً. ويبلغ النضال من أجلِ روح هذا العالم ذروته، حيث يبدو روح هذا العالم هو الأقوى».

وقد أولى ربّان سفينة الكنيسة اهتمامًا دؤوبًا، باستنفار بحّارةٍ يتّصفون بالكفاءة والبسالة، ويتأهّلون لمواجهة أزمة التناقص المقلق في عدد الكهنة المكرّسين، وأزمة تردّي استعداداتهم الروحيّة والرسوليّة. فعكف على بثّ روح الرسالة في نفوس الشباب، وعلى إقناعهم بعظمة هذه الرسالة وبضرورتها. وشدّد على واجب تزويد الإكليريكيّين المتأهّبين للكهنوت، بمستوًى روحيٍّ يقيهم من أوصاب العالم المعاصر ومغرياته، وتزويدهم، أيضًا، بمعرفةٍ لاهوتيّةٍ وعلميّةٍ واسعةٍ وراسخةٍ، تؤهّلهم لدحض تيّارات الضلال المتنامية، وسريعة الانتشار. كما أنّه جهد في بثّ المؤمنين معرفةً روحيّةً منيعةً، وحرّضهم على إتقان استخدام وسائل التواصل الحديثة، التي يستخدمها أعداء المسيحيّة.

وهكذا أعدّ جيلاً جديدًا من الكهنة، يجمعون إلى روحانيّةٍ عميقةٍ ومتينةٍ، علمًا واثقًا مقنعًا. وقد شاع وصف هذا الجيل «بجيل كارول ڤويتيووا»، جيلٍ كفيلٍ، على غراره، بمواجهة العاصفة الروحيّة الهوجاء، الجاهدة في زعزعة أركان الكنيسة. وقد غرب عن بال مثيري هذه العاصفة، أنّ الكنيسة تتجلّى، في أبهى وجهٍ، من خلال انتصارها في المعارك التي تُشَنّ عليها، وقد ثبُت لمسيحيّين كُثُرٍ أنّ محنة الصليب تعني الدخول في الرجاء.

ولكي تعمل الكنيسة بكلّ طاقاتها، ولكي يسهم جميع المؤمنين بعملها، سعى إلى أن تستعيد القاعدة – قاعدة المؤمنين – دورها في مسيرة الكنيسة، عوضًا عن حصرها بالقمّة. فأكّد شأن العلمانيّين. وفي الآن عينه، لم يتراخَ في تأييد سلطة الكنيسة التي أوكلها يسوع لبطرس وخلفائه.

ومن المحقّق أنّ ذلك الكاهن والأُسقف والبابا الپولونيّ، رغم تدهور حالته الصحيّة، في سنواته الأخيرة، قد مارس تأثيرًا بليغًا على وجود إخوته البشر، أكثر من أيٍّ من معاصريه، وطبع بدمغته أحداث زماننا، ونفث في من عرفوه وسمعوه وقرأوه، الرغبة في مسيرةٍ فضلى.

وجديرٌ بالتنويه أنّه لم يسعَ، قطّ، إلى إخفاء انهيار قواه، في أيّامه الأخيرة، ولم تسبّب له هشاشته الجسديّة حرجًا؛ وأنّه، حتّى الدقيقة الأخيرة، كان وفيًّا

لالتزامه بتثبيت إخوته؛ وأظهر، بحياته كلّها، وجه المسيحيّة الجذّاب. ومعه، اكتسبت البابويّة بُعدًا عالميًّا، بعد أن أمسى، هو، رمزًا للأمل في مستقبل الإنسانيّة.

وقد وضع الكنيسة أمام تحدّي التقدّم إلى عرض البحار، واقتحام لجج التبشير الجديد بالإنجيل: مؤكّدًا أنّ الكنيسة لا تعيش من أجل ذاتها، بل من أجل تحقيق رسالتها، وأداء واجب الخدمة، وإعلان حبّ الله للبشر، والتحاور مع الآخرين، مدفوعًا بإيمانه أنّ يسوع يخصّ البشريّة جمعاء.

لقد قاد ثورةً سلميّةً قلبت أوضاع قطاعٍ واسعٍ من العالم. وكان شاهدًا مسيحيًّا كبيرًا في الربع الأخير من القرن العشرين، والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين. وقد أغنى الكنيسة بمواهبه الشخصيّة، وكان، دائمًا، بهوًى وشغفٍ، تلميذًا وفيًّا للمسيح، فكان تأثيره عميقًا وواسعًا، واستنهض طائفةً من النفوس السخيّة التي تمثّلت به، واعتزمت مواصلة مسيرته.

وقد خاطب جميع الديانات والملل والمذاهب، وكان شاهدًا للرجاء، ودعا العالم كلّه إلى تطهير وجدانه، على عتبة الألفيّة الثالثة.

ولا ننسينّ مجموعة الفضائل الأُخرى التي مارسها جميعها ببطولةٍ. فتواضُع ذلك البابا، الذي كان يعترف أُسبوعيًّا، كان أُسطوريًّا. وكذلك كان ورعه، وتجرّده، وصبره، وبساطته، واستقامته، ومثابرته. وهو، في كلّ ما كان، وما فعل، كان ينفّذ طلب يسوع: «كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ هو كامل».

وقد أوجز المطران جورج خضر بعض فضائله ومناقبه، فقال: «لم يذهلني أحدٌ بتواضعه كما أذهلني يوحنّا بولس الثاني... بساطة الحياة فيه كانت أقوى من الدور... بقي إنسانًا، وبقي كاهنًا... كان إنسانًا، وهذا لا يكونه أحدٌ بتصنّعٍ... كان مؤمنًا بالصلاة من أيّ فمٍ خرجت». وعن حبريّته قال: «عرف كيف يعولم الكنيسة، ويبقيها، في الوقت ذاته، رعيّته الصغيرة. لم يعوْلمها ليكبّرها، ويضيع هو فيها، ولكن لكي تصبح قريته المفضّلة التي يطيب له أن يسكن فيها بفكره، ويتعرّف إلى كلّ زواياها وأسرارها، ثمّ يعتني بها، فيحلّ مشاكلها، ويزورها، لا

عن هوايةٍ في السياحة، بل ليحمل همومها، ويساعدها»، «كان كاهنًا ورعيّته هي العالم».

حتّى مِحَنه العتيّة، وآلامه المضنية لم تخلّف في نفسه مرارةً، بل وسّعت قلبه، وسمت به، في سعيه البطوليّ إلى القداسة، فحمل، ببسالةٍ وفرحٍ، صليبه الباهظ، وصليب العالم الجسيم، معزّيًا قلب معلّمه المهان في خليقته، الجريح في أبنائه المتألّمين، المُساء إليه داخل كنيسته، المُهمَل في هياكله المقفرة، المنبوذ في إفخارستيّته، المصلوب في خدّامه المضطهَدين، المشوّه في تعليمه الذي أُفرِغ من زخمه.

وفي أيّامه الأخيرة على الأرض، حين كان مقيّد الحركة بالإعاقة الجسديّة، لحظ المقرّبون منه أنّه كان يحيا أعظم أيّام سيرته المدهشة، قائدًا للكنيسة من فوق صليبه. وكان تمثّله بالمصلوب هو خاتم عظمته وقداسته.

لقد وعى، باستمرار، ثقل مسؤوليّته في أن يكون مثالاً منزّهًا من كلّ عيبٍ. ولذلك ما انفكّ، لحظةً، عن التصعيد نحو القمم، جاهدًا في بلوغها.

قال البابا پيّوس الحادي عشر: «القدّيس هو كلمة اللّه». وهل كان يوحنّا بولس الثاني سوى هذه الكلمة؟

وعرّف يوحنّا بولس الثاني نفسه القدّيس بأنّه «بحياته وموته، ترجمةٌ للإنجيل، من خلال أفعاله من أجل بلده وزمانه». وهل من ترجم الإنجيل، بكلّ حياته وحتّى بموته، لزماننا، ولأجيالٍ عديدةٍ قادمةٍ، خيرًا من يوحنّا بولس الثاني؟

لكلّ ذلك، كان قدّيسًا حقًّا، وقدّيسًا عظيمًا!

ملحق

بــذورٌ روحيّــةٌ

كان يوحنّا بولس الثاني رسولاً مقداماً، وواعظًا لا يكلّ، ولا يكفّ عن الوعظ، «في وقته وفي غير وقته». وفي كلّ مناسبةٍ كان يدبّج المقالات الزاخرة بالعمق اللاهوتيّ، والفلسفيّ، والإنسانيّ، والمضطرمة بالروح الرسوليّ المتوقّد، أو كان يدلي بالقول المناسب الذي يسدّد الخطى، ويرشد السلوك، وينير الطريق، ويذكّر بتعاليم الإنجيل الخالدة. وقد ألّف مجموع كتاباته وأقواله المسجّلة كنزًا ثرًّا منقطع النظير، أوردنا منه، في متن هذا الكتاب نصوصًا مسهبةً.

وفي الصفحات القليلة التالية مقاطع مختارةٌ من أقواله وكتاباته، الكفيلة بأن تكون مواضيع تأمّلٍ وتمعّنٍ، عسى أن يجد فيها كلّ إنسانٍ، أيّةً كانت مهنته أو وضعه الاجتماعيّ، سواءٌ كان علمانيًّا أو إكليريكيًّا أو مسؤولاً دينيًّا، الدرب الإنجيليّ الذي يقود إلى الكمال الروحيّ، وإلى القداسة المطلوبة من كلّ إنسانٍ؛ ويجد فيها كلّ ناشطٍ في ميدان المجتمع والسياسة السبيل إلى إنسانيّةٍ حقّةٍ، وإلى وطنيّةٍ نبيلةٍ منزّهةٍ من العنصريّة والتعصّب، نابذةٍ لكلّ أشكال العداوة، والعنف، والطمع.

وقد كان سلوك ذلك البابا القدّيس الملتزم بالقداسة مصداقًا لكلّ أقواله، فعسى أن يكون مثاله نبراسًا يهتدي به كلّ إنسانٍ، وأن تكون أقواله خميرةً تنضج نفوس من يتمثّلونها، وبذورًا تنبت ثمارًا وفيرةً، وبيادر خيرٍ.

المسيح والمسيحيّة

– إنّ إنجيل الرجاء الذي تسلّمته الكنيسة وتمثّلته، يقتضي أن يُعلنَ ويُشهَد له، كلّ يومٍ. هذه هي رسالة الكنيسة الخاصّة، في كلّ وقتٍ وكلّ مكانٍ. فلنمسك هذا الكتاب المقدّس بين أيدينا. لنتسلّمه من الربّ الذي يقدّمه لنا باستمرارٍ، بواسطة الكنيسة، ولنلتهمه حتّى يصبح حياة حياتنا. لنتذوّقه بعمقٍ. وهو قد يفاجئنا، ولكنّه، أيضًا، سيهبنا الفرح، لأنّه عذبٌ كالعسل. وسيغمرنا بالرجاء، وسيؤهّلنا لاقتسام هذا الرجاء مع كلّ رجلٍ، وكلّ امرأةٍ، نصدفهما في طريقنا.

– الإيمان يُحفَظ عندما يُعطى ويُنشَر.

– المسيح هو سيّد الزمن، هو بدؤه ونهايته. تجسّده وقيامته يحتويان كلّ سنةٍ، وكلّ يومٍ، وكلّ لحظةٍ، ويقيمانها في «ملء الزمان».

– لم يقُم المسيح من أجل ذاته، فقط. بل من أجل جميعنا. ولجميعنا قسطٌ من قيامته، ومن الشراكة التي تولّدها؛ وجميعنا نؤلّف جسده السرّيّ، أي الكنيسة.

– على المسيحيّ أن يشهد أنّ المسيح قام حقًّا، في أوقات حياته الفرحة والموجعة، في عمله وفي مدرسته. وعليه أن يقتفي خطاه، بجرأةٍ وحبٍّ، واضعًا فيه كلّ ثقته ورجائه.

– المسيح هو المعلّم بامتيازٍ، هو الوحي والموحي. والمطلوب منّا ليس فقط أن نتعلّم ما علّمنا، بل أن نتعلّم معرفته هو. وفي هذا المجال، هل من معلّمٍ أفضل من مريم؟ إنّ السير مع مريم، عبر مشاهد المسبحة الورديّة، يعني التتلمذ في مدرسة مريم من أجل قراءة يسوع واكتناه أسراره، وإدراك رسالته.

– لقد أعطى اللّه الإنسان، خليقته، ذاتَه، بواسطة ابنه الذي تأنّس، وبواسطة روحه القدّوس، العامل في قلوب البشر.

– إنّ المسيحيّة، قبل أن تكون عقيدةً، هي حَدَثٌ، وبالحريّ، شخصٌ: يسوع الناصريّ. هذا هو صميم الإيمان المسيحيّ. طغماتٌ من القدّيسين والنسّاك والرهبان يهجرون، كلّ شيءٍ لكي ينعموا بعلاقةٍ وثيقةٍ معه. ولكن يمكن، أيضًا، التقاء المسيح على دروب العالم.

– روحيًّا لا يخصّ حدَث العنصرة الماضي فحسب. فالكنيسة هي، دائمًا، في العلّيّة الثاوية في قلبها. وهي مثابرةٌ على الصلاة، مثل التلاميذ، مع مريم أُمّ يسوع، ومع الذين كانوا، في أورشليم، يكوّنون نواة الجماعة المسيحيّة، وينتظرون، بالصلاة، حلول الروح القدس.

عندما يستحوذ المسيح على القلب، تتغيّر الحياة. إنّ الخيارات الأوفر سخاءً، وبخاصّةٍ الأكثر مثابرةً، هي ثمرة اتّحادٍ وثيقٍ وطويلٍ مع الله، في صمت الصلاة.

– اليوم، أيضًا، يطرح المسيح على كلٍّ منّا سؤاله: «هل تحبّني». لا يطلب منّا أن نجيد التحدّث إلى الجموع، ولا أن نبرع في إدارة مؤسّسةٍ، أو استثمار إرثٍ، إنّما يطلب منّا أن نحبّه. وكلّ ما سوى ذلك، سيتحقّق تلقائيًّا. ففي الواقع إنّ اقتفاء خطى يسوع لا يُتَرجَم، فورًا، أمورًا ينبغي فعلها أو إعلانها، بل يُترجَم، قبل كلّ شيءٍ، في أن نحبّه، ونمكث معه، ونستضيفه، كلّيّةً، في حياتنا.

– بما أنّ الكنيسة لا تملك القوّة المادّيّة الكفيلة بتغيير الوضع السياسيّ والاقتصاديّ في عالم اليوم، فعليها أن تستمدّ، دائمًا، من ذاتها، القوى الأخلاقيّة، وعليها ألاّ تكفّ عن إعلان الكلمة «في وقته، وفي غير وقته». وعليها أن تندّد بالشرّ، مسمّيةً إيّاه باسمه، وساعيةً إلى مقاومته، حتّى إن لم يكن ذلك دائمًا سهلاً.

– يقتضي الكهنوت نزاهة حياةٍ، وخدمةً لا شائبة فيها، تعبّر، في آنٍ واحدٍ، عن عظمة كرامتها، وما تستلزمه من جاهزيّةٍ، أي موقف إنسانٍ جاهزٍ لتقبّل مواهب الروح القدس، بتواضعٍ، ولمنح الآخرين ثمار الحبّ والسلام، وكذلك يقين الإيمان الذي ينتج فهمًا عميقًا لمعنى الوجود الإنسانيّ، والقدرة على إدخال النظام الأخلاقيّ في حياة الأفراد والجماعات البشريّة.

وحده ضروريٌّ للبشر الكاهن الذي يعي كامل معنى كهنوته، الكاهن الذي يؤمن بعمقٍ، ويعلن إيمانه بشجاعةٍ؛ يصلّي بحرارةٍ، ويعلّم بقناعةٍ راسخةٍ؛ يخدم، ويحقّق، بسلوكه، برنامج التطويبات، يحبّ بتجرّدٍ، وهو قريبٌ من الجميع، وخاصّةً من المحتاجين.

– اليوم، غالبًا ما يجهل الإنسان ما الذي يحمله داخل ذاته، في أعماق فكره وقلبه. وغالبًا ما تساوره الريبة في معنى حياته على الأرض، وينتابه الشكّ الذي سرعان ما يتحوّل يأسًا. أرجوكم، إذن، أتوسّل إليكم، بتواضعٍ وثقةٍ، أن تتيحوا للمسيح أن يكلّم الإنسان، فهو، وحده، يملك أقوال الحياة، أجل، الحياة الأبديّة.

– من صلب عالمٍ مُعَلمنٍ بعمقٍ، ظهر تيّار «علمنةٍ مطّردةٍ للخلاص»، بحجّة الكفاح من أجل الإنسان، ولكنّ هذا الإنسان مشوّهٌ، ومحصورٌ في بُعده الأُفقيّ، في حين نحن نعلم أنّ يسوع قد جاء بالخلاص الشامل للإنسان، ولجميع البشر، بفتح نفوسهم على رؤية البنوّة الإلهيّة الرائعة.

– الكنيسة بحاجةٍ إلى «مجانين الله» الذين يجرؤون على الحبّ، ولا يتوانون عن أيّة تضحيةٍ قد تؤتي ثمارًا وفيرةً.

– بالتجسّد لم يعُد الإنسان، فقط، هو الذي يبحث عن الله، بل الله هو الذي يأتي بذاته، كي يكلّم الإنسان ويرشده إلى السبيل الذي يتيح له الوصول إليه تعالى. وبالمسيح، لم يعُد الدين تلمّسًا في الظلمة، بحثًا عن الله، بل هو جواب الإيمان على الله المعتلن، جوابٌ يكلّم به الإنسان الله، كما يحدّث خالقه وأباه، جوابٌ جعله ممكنًا الإنسان الفريد، الذي هو، في الآن عينه، من جوهر الآب نفسه، والذي به يكلّم الله كلّ إنسانٍ، وبه يتأهّل الإنسان لإجابة الله. وأكثر من ذلك، من خلال هذا الإنسان تستجيب الخليقة كلّها لله.

– إنّ يسوع المسيح هو بدءٌ جديدٌ لكلّ شيءٍ. فيه كلّ شيءٍ يوجد مجدّدًا، ويُرحّب بكلّ شيءٍ، ويُعاد إلى الخالق الذي استمدّ منه مبدأه. وبذلك، المسيح هو تحقيقٌ لتطلّعات جميع ديانات العالم، وبالتالي هو الغاية القصوى الوحيدة والنهائيّة. فمن جانبٍ، يكلّم الله البشريّة من خلال المسيح، ومن جانبٍ آخر، في المسيح ، تتكلّم البشريّة جمعاء، والخليقة كلّها عن نفسها، إلى الله، وتهبه ذاتها. وبذلك يعود كلّ شيءٍ إلى مبدئه. إنّ يسوع المسيح هو خلاصة كلّ شيءٍ، وفي الآن عينه، هو تحقيق كلّ شيءٍ، في الله، ولمجد الله.

– الدين القائم على يسوع المسيح هو دين المجد... في الواقع، الخليقة كلّها هي تجلّي مجد الله. والإنسان، على نحوٍ خاصٍّ، هو تجلّي مجد الله، وهو مدعوٌّ إلى أن يحيا، في الله، ملء الحياة.

– في يسوع المسيح، لا يُكلّم الله الإنسان فحسب، بل هو يبحث عنه، بحثًا يولد في قلب الله، ويبلغ ذروته في تجسّد كلمة الله. وإنّما يبحث الله عن الإنسان الذي خلقه على صورته ومثاله، لأنّه يحبّه حبًّا أبديًّا في كلمته، ويريد أن يرقى به، في المسيح، إلى رتبة ابنٍ بالتبنّي.

والله يبحث عن الإنسان، لأنّ هذا الأخير نأى عنه... واستسلم لغواية عدوّ الله، الذي أوهمه أنّه إلهٌ، وبوسعه حكم العالم، كما يحلو له، وعلى غير اضطرارٍ إلى الالتزام بالمشيئة الإلهيّة.

– ليست المسيحيّة ديانة «المطلق الصرف»... فالله الذي نؤمن به هو إلهٌ حيٌّ، إله التاريخ. لا نلقاه، فقط، فوق التاريخ، وفوق خضمّ عالم البشر الزائل، بل هو إلهٌ اقتحم التاريخ، والتزم بتاريخ الإنسان، في صميم مأساة البشريّة. ولذلك هو أضحى «عثرةً لليهود» و«جنونًا للوثنيّين». وهو، أيضًا، يضفي على تاريخ البشر المعنى الأكثر حميميّةً، والأكثر نهائيّةً.

– إنّ تاريخ الخلاص هو بُعد تاريخ الإنسان الوحيد، حيث لا يقيّد الماضي المستقبل، بل حيث يستوعب المستقبل الماضي، ويقحمه في العمر القادم، ويجعل منه مادّته.

– حيث توجد مريم، يوجد يسوع، وحيث يوجد يسوع، هناك روحه القدّوس. إنّ «نَعَم» العذراء تستجلب آلاء الله على البشريّة. هذا ما حدث في البشارة وفي العنصرة. وهذا ما يحدث باستمرارٍ على دروب الكنيسة.

– يُعِدّ الله للمسيحيّة ربيعًا عظيمًا نشهد، الآن، انبلاجه.

– يحزنني سماع بعض الناس يقولون «لا» لمحبّة يسوع. إنّ هذا، في رأيي، أصعب ما في الوجود.

– إنّ الغفران هو فرح الله، قبل أن يكون فرح الإنسان.

الغفران هو خيار القلب الذي يعارض الغريزة الفطريّة، التي تدفع إلى الردّ على الشرّ بالشرّ.

– عندما يركع الإنسان في كرسيّ الاعتراف، لأنّه أخطأ، ففي تلك اللحظة، بالتحديد، تتعاظم كرامته الإنسانيّة. وأيًّا كان وقر الخطايا الذي يبهظ وجدانه، حتّى وإن كانت الخطايا قد نالت من كرامته، فإنّ مجرّد عودته إلى الله هو دليلٌ على كرامة الإنسان المميّزة، وعلى عظمته الروحيّة.

– أيّها الشابّ، أنت خاطرة الله، أنت خفقة قلبه. لك قيمةٌ لامتناهيةٌ. إنّ ما يجعل الإنسان جميلاً وعظيمًا، هو دمغة الله التي يحملها في داخله.

– أيّها الشباب: إنّ يسوع هو مَن تبحثون عنه عندما تحلمون بالسعادة، وعندما لا شيء ممّا عثرتم عليه يرضيكم.

– احفظوا يسوع المسيح في قلوبكم، فتعاينون صورته في كلّ إنسانٍ تتبيّنون ضيقاته.

– فلتقترن صلابة شهادتكم بعذوبة الحوار!

– عندما يوجّه الله كلامه إلينا، فهو، عندئذٍ، لا يخبرنا عن أُمورٍ أو عن أشخاصٍ سواه، ولا يطلعنا على شيءٍ ما، بل يكشف لنا عن نفسه.

يسوع هو كلمةُ كشف الله عن ذاته، الكلمة التي لا يمكن تخطّيها. وهو، في الآن عينه، إلهٌ. وكلمة الله تستلزم إجابةً من قبلنا، علينا أن ندلي بها، بكلّ ذواتنا.

– يرعانا المسيح بحنانٍ، ويحبّنا دائمًا، حتّى إن نحن خيّبنا أمله فينا. إنّه يضمّنا، دائمًا إلى صدره برحمته. وأليس من واجبنا أن نكون شاكرين لهذا الإله الذي خلّصنا؟

– أن نحبّ المسيح يعني أن نحبّ الذين يحبّهم هو، وأن نحبّهم كما أحبّهم هو.

– لقد قام يسوع من الموت لكي يكتشف المعنى الحقيقيّ لوجوده ويحيا ملء حياته، أي لكي يتمكّن الإنسان، الآتي من الله، من أن يحيا في الله.

– إنّ يسوع هو العرض النهائيّ لحبّ الآب، وفي الآن عينه، هو جواب الإنسان الكامل، والذي لا رجوع عنه، عمّا ينتظره الله منه.

– لنا نحن المسيحيّين، الإفخارستيّا هي كلّ شيءٍ: إنّها مركز إيماننا، ونبع حياتنا الروحيّة.

– إن أصبحتم ما يجب أن تكونوا، أي إن حييتم المسيحيّة بلا مساومةٍ، ولا تسوياتٍ، ستستطيعون إلهاب العالم أجمع.

– لا يقوى أحدٌ على إقصاء المسيح عن تاريخ البشر، في أيّة رقعةٍ من الكرة الأرضيّة.

– ثمّة من يحمل بيديه مصير هذا العالم الزائل، ومن يمسك هذا المصير، ويقبض على مقاليد الموت، ومسكن الأموات، من هو ألف التاريخ وياؤه، الجماعيّ والفرديّ. وهذا الكائن هو حبٌّ. والحبّ تجسّد إنسانًا، الحبّ المصلوب والقائم من الموت، الحبّ الذي يثبت وجوده دائمًا بين البشر... هو وحده يستطيع منح الطمأنينة الكبرى بقوله: «لا تخافوا». إنّ التقاء هذا الحبّ يعني عبور عتبة الرجاء.

– سألتموني كم من الدروب على الإنسان أن يسلك كي يُدعى إنسانًا، وأنا أجيبكم: دربٌ واحدٌ هو المسيح الذي أعلن: «أنا الطريق». إنّه طريق الحقيقة، وطريق الحياة.

– ثورة المسيح هي ثورة حبٍّ، فيما ثوراتٌ أُخرى تقوم على البغض والانتقام.

– نحن مدعوّون إلى بناء مستقبلٍ قائمٍ على حبّ الله والقريب، من أجل بناء حضارة الحبّ. عالم اليوم يفتقر إلى بشرٍ كبار القلوب، يخدمون بتواضعٍ وحبٍّ، يباركون ولا يلعنون، ويفتتحون الدنيا بالمباركة. يستحيل بناء المستقبل من

غير الرجوع إلى نبع الحبّ، أي اللّٰه الذي بلغ من العظمة أن وهب ابنه من أجل خلاص العالم.

– إنّ الإيمان لا يخشى العقل، بل ينشده ويثق به. وكما أنّ النعمة تقود الطبيعة إلى اكتمالها، كذلك الإيمان يدفع العقل إلى الكمال. هما الجناحان اللذان يتيحان للفكر البشريّ التحليق صوب تأمّل الحقيقة. وليست الحقيقة شأنًا شخصيًّا فحسب، بل إنّ لها بعدًا اجتماعيًّا يقتضي تبليغها للآخرين. فعلى العلماء أن يقتسموا علمهم مع الآخرين... العقل هو أعظم عطايا اللّٰه.

– في مسيرة حجّنا الأرضيّ، مريم هي «عمود النار» الذي ذكره الكتاب المقدّس، والذي ينير دربنا. إنّها النجمة التي تهدينا إلى الوطن السماويّ وهي المرفأ الآمن حيث نلقى الملجأ والعزاء. إنّ المؤمنين الذين يهتدون بقيادتها يتقدّمون بثقةٍ، وهم مدركون حضورها العذب، الذي يفضي إلى المسيح. فنحن، من خلال الأُمّ، نلتقي ابنها يسوع. ومدعومين بأزره، نتحرّر من الخوف حيال المصاعب، ونشعر أنّنا متأهّبون، دائمًا، للاستجابة، بسخاءٍ، لعمل الروح القدس.

إنّ مريم، أُمّ الكنيسة، وأُمّ الوحدة والرجاء والحبّ، تسير معنا.

– كلّما اقتربت الكنيسة من اللّٰه، ازدادت قربًا من البشر.

القداسة

– القدّيس هو الذي، بحياته وبموته، يترجم الإنجيل أعمالاً من أجل وطنه ومن أجل زمانه... إنّ عظة الجبل هي تعليمٌ مثاليٌّ في موضوع القداسة. لا تخافوا من هذه الأقوال، لا تخافوا من حقيقة حياةٍ مقدّسةٍ. لا ريب أنّ الكنيسة تحتاج إلى مؤسّساتكم الكبيرة، وإلى بُناكم، ووسائلكم الماليّة. غير أنّ حياة الكنيسة تستمدّ نبعها من روح اللّٰه، الذي يسعى إلى التجلّي داخل الإنسان، وعلى نحوٍ محسوس. لا تهملوا الصلاة، إذن، وخاصّةً الصلاة الشخصيّة. كثيرةٌ من كنائسكم «هي تُحف» فنّيّةٌ رائعةٌ، ولكن حذارِ من أن تتحوّل إلى متاحف.

إنّ الإيمان الثابت لدى كثيرين ممّن يعبّرون عنه بصلاتهم الثابتة أمام مخبإ القربان، هو الذي يضمن لهذه الكنائس الحفاظ على غايتها وكرامتها الحقّة.

– احيوا كلّ حياتكم الشخصيّة بشجاعةٍ، حتّى إن هي بدت تافهةً. إنّ معلّمة الأمور الصغيرة الكبرى، القدّيسة تيريز الطفل يسوع، أظهرت لنا بحياتها القصيرة، كم المهامّ الصغيرة، العاديّة، المبتذلة، هي عظيمةٌ في نظر الله...

وإن كانت قداسة بعض الأشخاص لا تطالها ريبةٌ، فلا ننسينَّ قداسة الحياة اليوميّة المجهولة.

– إن كانت المعموديّة هي، حقًّا، الانغماس في المسيح، والسكن في روحه القدّوس، فإنّه من اللامنطقيّ الارتضاء، بحياةٍ رديئةٍ، معاشةٍ وفق الحدّ الأدنى من المقتضيات الأخلاقيّة، وتديّنٍ سطحيٍّ.

– القداسة هي القوّة الحقيقيّة القادرة على تحويل العالم.

– عندما يلفّنا الليل بظلامه، علينا ترقّب الفجر، موقنين أنّ الكنيسة تُبعَث، كلّ صباحٍ، إلى حياةٍ جديدةٍ، من خلال قدّيسيها.

– الافتقار إلى القداسة هو ما يجعل العالم حزينًا.

– القداسة تعني فعل أمرٍ جميلٍ من أجل الله، كلّ يومٍ؛ وهي الاعتراف بما فعل الله لنا، وبما لا ينفكّ يحقّقه لنا.

– لا تُقاس القداسة الشخصيّة بالمرتبة التي يتبوّأها الإنسان في المجتمع أو في الكنيسة، بل، فقط، بمقدار محبّة القريب التي يمارسها في حياته.

– لا قداسة بلا تضحية.

الصلاة

– الصلاة هي الوسيلة الأكثر بساطةً وشيوعًا التي يعبّر بها الروح القدس، أي نسمة الحياة الإلهيّة عن ذاته.

إنّه لجميلٌ وخلاصيٌّ التفكير بأنّ الروح القدس، أي روح الصلاة الحيويّ، موجودٌ في كلّ مكانٍ من العالم تقام فيه الصلاة...

والصلاة هي، أيضًا، اعتلان هوّة القلب البشريّ، وعمقه الآتي من اللّه، والذي بوسع اللّه وحده ملؤه بواسطة الروح القدس.

الروح القدس هو النعمة التي تحلّ في قلب الإنسان وترافق الصلاة؛ وهو، في الصلاة، يتجلّى، فوق كلّ شيءٍ، نعمةً تهرع إلى نجدة ضعفنا. ومن ثمّ، لا يقتصر الروح القدس على اقتيادنا إلى الصلاة، بل إنّه يرشدنا، داخليًّا، في الصلاة، معوّضًا عجزنا عن الصلاة. إنّه حاضرٌ في صلاتنا التي يضفي عليها بعدًا إلهيًّا.

بفضل الروح القدس تضحي الصلاة، دائمًا، التعبير الأوفر نضجًا عن الإنسان الجديد، الذي يشارك، بواسطتها، في الحياة الإلهيّة...

لقد وصف لاهوتيٌّ روسيٌّ الروح القدس بأنّه نفس النفس البشريّة، وارتأى أنّ غاية الحياة الروحيّة تتمثّل في «روْحَنة الروح والجسد».

– يعرف المسيحيّ أنّ الصلاة هي ضروريّةٌ له مثل ضرورة التنفّس. وهو عندما يتذوّق عذوبة الحوار الحميم مع اللّه، يستسلم له، طوعًا وبكلّ ثقةٍ.

– بتجسّد كلمة اللّه، عهد تاريخ الخلاص مفترقًا حاسمًا. فبالمسيح يسوع تلاقت السماء والأرض، وتصالح اللّه مع البشريّة، وأُعيد وصل الحوار بين الخليقة وخالقها، وصلاً كاملاً.

– الإفخارستيّا هبةٌ عظمى، ولكنّها، أيضًا، مسؤوليّةٌ كبرى لمن يتلقّاها.

– القدّاس هو، على الإطلاق، محور حياتي، ومحور كلّ يومٍ من أيّامي.

– المسبحة هي صلاتي المفضّلة التي تتيح لي تأمّل وجه المسيح، مع مريم.

– غذّوا حياتكم اليوميّة بالصلاة المتواترة. وهيّئوا لأنفسكم أوقات اتّصالٍ حميمٍ بالربّ. فإنّ الاتّصال الدائم به، وحده، يستطيع أن يحوّلنا، داخليًّا، إلى تلاميذه.

– بصلاة «أبانا» وفّر لنا يسوع مثالاً حسّيًّا وشاملاً، في آنٍ واحدٍ. فطلباتها السبع تتضمّن كلّ ما يمكن أن يقال، وينبغي أن يقال للآب الذي في السماوات. وهي من البساطة بحيث يتعلّمها طفلٌ بلا صعوبةٍ، وهي من العمق بحيث يلزمنا إنفاق عمرنا كلّه كي نفقه كلّ معناها.

– في الصلاة يتجلّى الله، قبل كلّ شيءٍ، رحمةً، أي محبّةً تبادر إلى لقاء الإنسان المتألّم، محبّةً تساند، وتُنهض، وتشيع الثقة.

– من شأن تخشّعٍ عميقٍ، واستسلامٍ داخليٍّ، مقترنين بحرارة الصلاة فتح أعماق النفس على قدرة حبّ الله المطهّرة.

صلاة البابا يوحنّا بولس الثاني لسيّدة لورد

(تلاها في زيارته الأخيرة والوداعيّة لمزارها في ٢٠٠٤/٨/١٤)

«أحيّيكِ، يا مريم، أمَة الربّ المتواضعة وأُمّ المسيح المجيدة،

أيّتها العذراء الوفيّة، ومسكن الكلمة المقدّس،

علّمينا المثابرة على الإصغاء لكلمته، والخضوع لصوت الروح، متيقّظين لدعواته المدوّية في صميم ضميرنا، ولتجلّياته في أحداث التاريخ.

أُحيّيكِ، يا امرأة الألم، وأُمّ الأحياء،

أيّتها العروس العذراء أمام الصليب، يا حوّاء الجديدة.

كوني دليلتنا على دروب العالم،

وعلّمينا أن نحيا، وننشر حبّ المسيح. علّمينا أن نبقى معك، أمام الصلبان العديدة التي ما زال ابنك مصلوبًا عليها.

أُحيّيكِ، يا مريم، امرأة الإيمان، الأولى بين التلاميذ.

أيّتها العذراء، أُمّ الكنيسة، ساعدينا على أن نؤدّي، دائمًا، حسابًا عن الرجاء الذي يسكننا، وعن ثقتنا في طيبة الإنسان، وحبّ الله الآب.

علّمينا كيف نبني العالم من الداخل، في فرح المحبّة الأخويّة، وفي عمق الصمت والصلاة، وفي خصب الصليب الذي لا بديل عنه.

يا مريم القدّيسة، يا أُمّ المؤمنين،

يا سيّدة لورد، صلّي لأجلنا، آمين.

الصليب

– ليس المهمّ مجرّد فعل حمل الصليب، فالذين يعانون آلامًا مأسويّةً لا يُحصى عديدهم. وعلى كاهل كلّ شعبٍ، وكلّ أُسرةٍ، ترين أوجاعٌ وأثقالٌ. إنّ ما يُضفي معنًى هو حمله على خطى يسوع، لا على درب وحدةٍ قلقةٍ، أو على درب تمرُّدٍ، بل على دربٍ يسانده ويحييه حضور الربّ الإلهيّ.

– مريم العذراء هي الكفيلة بتعليمنا تقبّل الألم، بحبٍّ طوعيٍّ، وهي التي تعلّمنا، أيضًا، رفع نفسنا صوب الله، بالصلاة اليوميّة. فلنكن في مدرستها تلاميذ يقظين.

– يقول لنا الصليب إنّ الإنسان العامل ليس مجرّد أداةٍ، بل هو يبقى شخصًا. لم يوجد الإنسان من أجل العمل، بل إنّ العمل هو لخدمة الإنسان... فالإنسان لا يعمل فقط لكي ينتج، بل لكي يؤكّد كرامته الإنسانيّة. إنّ العمل الذي ينيره سرّ الصليب، هو الذي ينير ويبرّر عمل الإنسان.

– إنّ العامل المسيحيّ، بتحمّله مشقّة العمل، متّحدًا مع المسيح المصلوب من أجلنا، يساهم، نوعًا ما، مع ابن الله في فداء البشريّة، ويثبت أنّه تلميذٌ حقيقيٌّ ليسوع، بحمله، هو أيضًا، الصليب، كلّ يومٍ، في نطاق نشاطه الخاصّ...

– الحياة تموت على الصليب، لكي، من موتها، تتفجّر الحياة. إنّ الصليب درس حبٍّ، ومن يتلقّنه لن يسقط. وإن هو سقط فسينهض، مهما كلّف الأمر، لأنّ في الصليب، تكمن القوّة التي تُنهض الإنسان، بأيّ ثمنٍ.

– من الصليب تتدفّق بغزارةٍ مجاري محبّة الله التي تغفر وتصالح. فبدم المسيح يتغلّب الخير على الشرّ.

– الصليب يعني أنّه ما من إخفاقٍ لا يرافقه رجاءٌ. وما من ظلمةٍ لا يضيئها نجمٌ، وما من عاصفةٍ لا يقابلها ميناء نجاةٍ.

– بواسطة الصليب هُزِم الشرّ، وقُهِر الموت، ونلنا الحياة، واستعدنا الرجاء، وانتشر النور. سلامٌ أيّها الصليب، أيّها الرجاء الوحيد!

– تبقى قدرة الصليب مفتاح تفسير السرّ الكبير، سرّ الألم، الذي يرتبط، عضويًّا، بتاريخ البشريّة.

– صليب يسوع هو مدرسة الحبّ المثلى، لا بل هو نبع الحبّ.

– تحت الصليب، يتعلّم الإنسان الحبّ.

– من ألم الحبّ الذي يتعذّر وصفه، وُلدت القدرة التي انتصرت على الموت.

– من يؤمن بيسوع الذي صُلب وقام، يحمل الصليب منتصرًا، دليلاً لا ريبة فيه على أنّ الله حبٌّ.

– إنّ صليب المسيح هو مفتاح قراءة سرّ الألم.

– في الصليب يلتقي بؤس البشر ورحمة الله.

– ما من حبٍّ أعظم من حبّ الصليب؛ وما من حرّيّةٍ أصدق من حرّيّة الحبّ؛ وما من إخاءٍ أكمل من ذاك الذي يولد من صليب يسوع.

الله وسرّ الوجود

– يتحدّث القدّيس توما الأكوينيّ عن «نكهة الله»، مؤكّدًا أنّ الحكيم الحقيقيّ ليس هو فقط من يعرف شؤون الله، بل هو من يختبرها ويحياها.

– عندما يصبح اتّباع الربّ هو القيمة العليا، تحظى كلّ القِيم الأخرى بمكانها الحقّ وبأهمّيّتها. فالإنسان الذي يراهن على الخيرات الأرضيّة، سيكون خاسرًا،

رغم مظاهر النجاح، إذ إنّ الموت سيجيء وسيطيح به وسط كلّ ما سبق له تكديسه، ولكن مع حياةٍ فاشلةٍ. الخيار، إذن، هو بين الكيان والامتلاك، بين حياةٍ مليئةٍ ووجودٍ فارغٍ، بين الحقيقة والكذب.

– لقد أثبت انهيار الأيديولوجيات الكبرى، أنّ الإنسان، عندما يصبح «يتيم اللّٰه»، يفقد، أيضًا، معنى وجوده، ويصبح، نوعًا ما، «يتيم» ذاته.

– تحرير الإنسان الأوّل، هو تحرّره من الشرّ الأخلاقيّ المعشّش في قلبه. هنا يكمن سبب «الخطيئة الاجتماعيّة»، وكلّ أنظمة القمع.

– الموت انتقالٌ «من الحياة إلى الحياة».

– الإيمان هو طريقةٌ لرؤية الحياة والتاريخ على ضوء الروح القدس، وفي الآن عينه، طريقةٌ لرؤية ما يتخطّى التاريخ. به نتمعّن أعماق الواقع، في ما وراء الأشياء، وداخل الأشياء، وبه تتمكّن العيون من رؤية جمال وتماسك كلّ ما يحيا في العالم. وبنور اللّٰه الساطع، تكتسب كلّ أنوار الخليقة ألقًا قشيبًا، وستضيء الخبرة الإنسانيّة: الولادة، والحبّ، والألم، والموت، بنورٍ جديدٍ نابعٍ من حياة المسيح.

– في الواقع إنّ الإنسان، الخليقة الناقصة والفقيرة في ذاتها، يلتفت تلقائيًّا نحو من هو نبع كلّ عطاءٍ، لكي يمجّده، ويتوسّله، ويروي فيه التوق الذي يلهبه، ويضرم قلبه. هذا ما أَدركه القدّيس أوغسطينُس، فكتب: «صَنعتَنا من أجلك، يا ربّ، ولن يعهد قلبُنا الراحة حتّى يستريح فيك».

– العقل المفتقر إلى معطيات الوحي، ينتهج دروبًا جانبيّةً، تعرّضه لفقدان رؤية هدفه النهائيّ. والإيمان المفتقر إلى العقل يعتمد على الشعور والتجربة فيتعرّض لفقدان شموليّته.

من الوهم الاعتقاد أنّ الإيمان ينعم بمزيدٍ من القوّة حيال عقلٍ واهنٍ، إذ إنّه، حينذاك، يتعرّض لخطر التحوّل إلى أُسطورةٍ أو خرافةٍ. وكذلك الأمر عندما لا يواجه العقل إيمانًا ناضجًا، إذ إنّه يفقد الدافع إلى الاهتمام بجدّة الكيان وبجوهره.

– اللامسؤوليّة البيئيّة، مشكلةٌ أخلاقيّةٌ. فعلى الإنسان واجب حماية العالم الذي يعيش فيه.

– السعادة تكمن في التضحية. فلا تبحثوا، في الخارج، عمّا هو في داخلكم. ولا تنتظروا من الآخرين ما يمكنكم وما يجب عليكم أن تعملوه بأنفسكم. ولا ترجئوا بناء مجتمعٍ جديدٍ حيث أكثر الأحلام نبلاً لن تُمنى بخيبةٍ، وحيث ستكونون صانعي مصيركم.

– قدرة الله تتجلّى من خلال ضعف البشر.

– العقل هو أعظم عطايا الله.

– علّة رجائنا أنّ الله حبٌّ.

– عندما يتدخّل الله يصبح المستحيل ممكنًا.

– سكون الجبل وبياض الثلوج يحدّثاننا عن الله. ويدلاّننا إلى طريق التأمّل، طريقٍ لا بدّ منه من أجل أنسنة حياتنا وعلاقاتنا المتبادلة.

– بمعزلٍ عن الله يفقد الإنسان مفتاح فهم ذاته، ومفتاح فهم تاريخه. فإنّه، منذ بدء الخليقة، يحمل، في ذاته، صورة الله. وهذه الصورة تبقى فيه توقًا لا يمكن التعبير عنه، وحاجةً باطنةً، وذلك رغم عبء الخطيئة.

إنّ مصير الإنسان أن يحيا مع الله.

– معيار حرّيّة الإنسان الوحيد هو شريعة الله التي أُعطيت لنا في إنجيل المسيح.

– الله هو مستقبل الإنسان والعالم. عندما يغيب عن البشريّة وعيها لله، تغلق أمامها سبل المستقبل، وتفقد وجهة حجّها على دروب الزمن.

– بوسع الإنسان والبشريّة النموّ في المجال التقنيّ، وعلى المستوى الكونيّ. بيد أنّ هذه الفتوحات كلّها عاجزةٌ عن تعويض ما يثوي في داخل الإنسان. فالروح البشريّ سيظلّ يبحث عن الفرح الأقصى، وعن الهدوء والسكون اللذين لن يجدهما إلاّ في الله.

ثقافة

– الثقافة هي ما يجعل الإنسان أوفر إنسانيّةً، وما يزيده «كينونة». على الثقافة يقوم التمييز بين ما «هو» الإنسان، وما يملك. الثقافة هي العامل الجوهريّ والضروريّ لتحديد هويّة الإنسان، في حين أنّ ما يملكه هو ثانويٌّ ونسبيٌّ. ليس لكلّ ما يملكه الإنسان من أهمّيّةٍ في ثقافته، وليس هو عامل خلقٍ للثقافة، إلاّ بقدر ما يستعين الإنسان بما يملك، لكي يكون «إنسانًا كاملاً، في كلّ أبعاد وجوده، وكلّ ما يميّز إنسانيّته».

وحده الإنسان هو صانع الثقافة، ووحده الإنسان يعبّر عن ذاته بالثقافة، ويجد فيها توازنه الخاصّ.

– في صميم كلّ ثقافةٍ يثوي موقف المرء من السرّ الأكبر، سرّ الله. وفي الواقع، ليست ثقافات الأُمم المختلفة سوى طرق مقاربتها لقضيّة معنى الوجود الشخصيّ. وعندما تُستبعَد هذه القضيّة، تتهاوى ثقافة الأُمم وأخلاقيّاتها.

– إنّ عالمًا خاليًا من الفنّ يتعرّض لأن يكون عالمًا موصدًا دون الحبّ. وفي أفضل لحظات إبداع الفنّان، يمكن استنتاج أنّ الطبيعة هي انعكاسٌ للجمال الإلهيّ، وأنّ وجه الإنسان هو أجمل إيقونةٍ للّه الحيّ. فبهاء الوجه البشريّ لا يتجلّى، مثلما يتجلّى، عندما يعكس وجود مَن يستمدّ منه الحياة.

– يحتاج البشر، فرديًّا وجماعيًّا، للفنّ، لكي يترجموا العالم والحياة، ولكي يلقوا الضوء على الأحوال الراهنة، وعلى سبر علوّ وعمق الوجود. إنّهم يحتاجون للفنّ لكي يلتفتوا إلى ما يتخطّى المجال المفيد الصرف، وإلى ما يجعل الإنسان كبيرًا. إنّهم يحتاجون إلى الأدب والفنّ، وإلى كلماتهما التي تتّصف، أحيانًا، بالرقّة والرهافة، وإلى تلك التي يمليها، أحيانًا أُخرى، غضبٌ نبويٌّ، ينضج خير نضجٍ في الوحدة والألم.

– لا يمكن لدرب التقدّم الحقيقيّ لأيّ شعبٍ أن يكون سياسيًّا واقتصاديًّا فحسب، بل لا بدّ له من أن ينعم ببُعدٍ أخلاقيٍّ وروحيٍّ.

– قلب الشعب هو ثقافته.

– وسائل الاتّصال هي أدواتٌ تستخدمها الخطيئة، كي تفرض على الرأي العامّ نماذج سلوكٍ شاذّةً.

– ينبغي أن تكون الجامعات أمكنةً لتربية الضمير، ولتعليم جرأة التخلّي عمّا هو تقنيًّا ممكنٌ، وأخلاقيًّا مدانٌ.

– من ثقافة الحياة أن نشكر للّٰه، كلّ يومٍ، عطيّة الحياة، ونشكر له قيمتنا وكرامتنا ككائناتٍ بشريّةٍ، والصداقة التي يقدّمها لنا في حجّنا صوب غايتنا الأبديّة.

سلامة المجتمع

– الحرّيّة تستلزم ضمائر منيعةً، مسؤولةً، وناضجةً.

– يجب ألاّ يكون الدين مبرّرًا لأيّ نزاعٍ وعنفٍ.

– كلّما كثرت الواحات، تضاءلت مساحة الصحارى.

– لا حرّيّة بلا تضامنٍ، ولا تضامن بلا حبٍّ.

أعظم الوطنيّين هم الذين يلتزمون بشريعة اللّٰه، ويعملون بهديها.

– السلام هو رسالتنا.

– السلام هو ثمرة العدل.

– درب العنف لا مخرج منه.

– ليس تاريخ العالم تاريخ شعوبٍ ودولٍ فحسب، بل هو تاريخ الخلاص.

– فلتحلّ أسلحة الحوار محلّ حوار الأسلحة.

– حوار الحضارات هو شرطٌ ضروريٌّ للسلام.

– لا سلام بلا عدلٍ، ولا عدل بلا غفرانٍ.

– إن ابتغيتم السلام، فاهتمّوا بالفقراء.

– العدالة والحرّيّة لا تنفصلان، ولا تعتبران موجودتين إلاّ عندما تتوفّران للجميع.

– العمل هو من خيرات الإنسان، وهو ليس خيرًا يمكن الاستفادة منه، فحسبُ، بل هو خيرٌ نبيلٌ، أي إنّه يتناسب مع كرامة الإنسان، ويعبّر عن هذه الكرامة وينمّيها. إنّه خيرٌ من أجل إنسانيّة الإنسان. فبالعمل لا يقتصر الإنسان على تحويل الطبيعة بتطويعها وفق احتياجاته، بل هو، أيضًا، يحقّق ذاته بصفته إنسانًا، وإلى حدٍّ ما، يضحي أكثر إنسانيّةً.

في العمل، بفضل النور الذي تضيئنا به قيامة المسيح، نجد دائمًا شعاعًا من الحياة الجديدة، ومن الخير الجديد، وشبه إعلانٍ عن «سماواتٍ جديدةٍ وأرضٍ جديدةٍ» التي يسهم بها الإنسان والعالم، من خلال مشقّة العمل. وهذه المشقّة تؤكّد أن لا غنى عن الصليب في روحانيّة العمل.

– شريفةٌ هي اليد التي تعمل، التي تحوّل العالم، اليد التي تقيم واقعًا جديدًا من أجل مجتمعٍ أكثر إنسانيّةً. وشريفةٌ هي اليد المحسنة التي تعمل من أجل البشريّة وخيرها.

– إحدى كبرى مظالم العالم الراهن تتمثّل في كون أقلّيّةٍ، نسبيًّا، تملك الكثير، في حين أنّ كثيرين يكادون لا يملكون شيئًا. إنّه ظلم التوزيع السيّئ للخيرات والخدمات، المعدّة، أصلاً، للجميع.

– البشر هم صانعو الإنماء الحقّ، وهم، أيضًا، هدف الإنماء الحقّ. إنّ تطوّر البشر الشامل هو هدف جميع مشاريع الإنماء ومعيارها.

– تتعذّر حماية الشخص البشريّ ما لم يُعتبَر هذا الشخص، منذ تكوّنه حتّى موته، قيمةً لا يجوز النيل منها. ولا يجوز أن يُحَطّ الإنسان إلى رتبة وسيلةٍ أو أداةٍ.

– لننقذ الأولاد كي ننقذ الرجاء في البشريّة.

– الإنسان مدعوٌّ إلى الحرّيّة. والحرّيّة لا تعني حقّ التصرّف الاعتباطيّ. ومن يحوّل الحرّيّة إلى إباحةٍ، فإنّما هو يقضي على الحرّيّة.

الإنسان الحرّ يلتزم بالحقيقة، وإلاّ فقدت حرّيّته صمودها، وباتت حلمًا جميلاً يتبدّد عند الاستيقاظ. وليس الإنسان صانع نفسه، بل هو خليقة الله.

– كلّ شخصٍ، مهما ضؤل شأنه، يجب أن يُقبَل ويُحَبّ من أجل ذاته.

– إنّ عالم الآلام البشريّة، يفرض، دائمًا، قيام عالم المحبّة البشريّة، بالمقابل.

– إنّ بنية الأُسرة – أكثر من أيّة جماعةٍ أُخرى، مرتكزةٌ على الشخص البشريّ. فلكلّ فردٍ من أعضائها شأنه الهامّ، لا بسبب المهمّة التي يضطلع بها، ولا بسبب الكنوز التي يؤتيها، ولا لأيّ سببٍ آخر، بل لمجرّد كونه موجودًا.

– لا تمكن المحافظة على الأُسرة، والبلوغ بها إلى كمالها إلاّ بتأهّبٍ جمٍّ للتضحية فهي تقتضي من الجميع استعدادًا نبيلاً للتفهّم والمسامحة والغفران والمصالحة. وكلّ أُسرةٍ تعلم كم أنّ الأنانيّة، والتفرقة، والتوتّرات، والنزاعات، تثخنها بالجراح، وغالبًا ما تقضي عليها.

– لا تكون الحرّيّة هبةً عظيمةً إلاّ عندما نحسن استعمالها في سبيل كلّ ما هو خيرٌ حقيقيٌّ. والمسيح يعلّمنا أنّ خير استخدامٍ للحرّيّة هو المحبّة التي تتحقّق في التضحية والخدمة. فمن أجل هذه الحرّيّة حرّرنا المسيح، وما انفكّ يحرّرنا بلا انقطاعٍ.

– الحرب تعني إفلاس العقل، وفشل الإنسانيّة.

– الأولويّة هي للحقّ على المفيد، وللخير على الرفاه، وللحرّيّة على الأزياء، وللشخص على البنى الاجتماعيّة.

المحبّة

– لا يقوى الإنسان على الحياة بلا محبّةٍ، إذ لا معنى لحياته ما لم يكتشف المحبّة، وما لم يصادفها، ويختبرها، ويتبنّها.

– أعظم دعوةٍ موجّهةٍ إلى الإنسان هي دعوته إلى الحبّ. المحبّة هي معنى الحياة البشريّة؛ هي أساس كرامة الإنسان، ودليل نبل نفسه.

– الحبّ مقترنٌ بالفقر، وقدرته كامنةٌ في وهن كلمة الله المتجسّد في مذود بيت لحم، وعلى صليب الجلجلة، والذي لم ينشد سوى خير البشر، «لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة». إنّ الحبّ هو طاقة الخلاص الرئيسة، ومحتواه الأساسيّ.

– إنّ العالم الحديث يحتاج، حاجةً قصوى إلى الصداقة، والتفهّم، والحبّ والمحبّة. قدّموا، إذن، محبّتكم، وحبّكم، وعونكم، بمثابرةٍ وعطفٍ. المحبّة هي التي تخلّص، وتفتح الطريق للحقيقة.

– مفارقة الوجود الإنسانيّ الكبرى والرائعة، تكمن في كونه وجودًا مدعوًّا إلى خدمة الحقيقة، في الحبّ. الحبّ يدفع الإنسان على تحقيق ذاته بإعطائها عطاءً متجرّدًا. الحبّ يعني منح وتلقّي ما لا يمكن لا شراؤه ولا بيعه، بل فقط منحه وتبادله بحرّيّةٍ.

– من عثر على بهاء الحقيقة، لا يستطيع إلاّ الشعور بالحاجة إلى إشراك الآخرين بها.

– لا تُطرَد الظلمات إلاّ بالنور، ولا يُقهَر البغض إلاّ بالحبّ.

– لا حبّ بلا مسؤوليّةٍ.

– ضعوا المحبّة فوق كلّ شيءٍ.

– إنّ العاملين، داخل الكنيسة، في مضمار المحبّة، هم أكثر من مساعدين اجتماعيّين. إنّهم شهودٌ حقيقيّون.

الفهرس

مقدّمة بقلم الأب الياس زحلاوي ٩

الجزء الأوّل ١٥

«كارول ڤويتيووا» ١٥

البيئة اليولونيّة ١٧

طفولةٌ شاقّةٌ ١٩

وفاة أخيه، ومثال أبيه ٢١

مواهب تتفتّح، وشخصيّةٌ تكتمل ٢٤

الطالب الجامعيّ ٢٧

حربٌ ومقاومةٌ ٢٩

مقاومةٌ ثقافيّةٌ: المسرح الملحميّ ٣٣

«كارول» يكسب خبزه بعرق جبينه ٣٥

مرشدٌ علمانيٌّ صوفيٌّ ٣٨

دعوةٌ كهنوتيّةٌ تتأكّد ٤١

إكليريكيٌّ في حماية الربّ ٤٤
تأهّبٌ للكهنوت ٥٠
الكاهن ٥٣
في روما ٥٥
الراعي ٥٩
المرشد الجامعيّ ٦٤
«عمّو» المرشد ٦٩
«سرودوڤيسكو» Srodowesko ٦٩
الكاتب الدراميّ ٧٣
الشاعر ٧٦
المتقشّف الملتزم ٧٦
الذائد عن حقوق الإنسان ٧٧
دكتورا في الفلسفة ٧٨
أستاذ الفلسفة ٨٠
«الحبّ المسؤول» ٨٥
«الشخص والفعل» ٨٨
«كارول ڤويتيووا» أسقفًا ٨٩

صلاة الأسقف ﭬويتيووا ٩٥

الألم المقدّم ٩٦

الذكرى الألفيّة لمعموديّة پولونيا ٩٧

الأسقف ﭬويتيووا في المجمع الفاتيكانيّ الثاني ٩٩

جلسة المجمع الأولى ١٠٣

جلسة المجمع الثانية ١٠٥

خليفة القدّيس ستانسلاس ١٠٧

جلسة المجمع الثالثة (١٩٦٤) ١١٠

جلسة المجمع الرابعة والأخيرة ١١١

مصالحةٌ تثير سجالاً ١١٣

رئيس أساقفةٍ من نمطٍ فريدٍ ١١٥

أولويّات رئيس الأساقفة ١٢٣

احتفال پولونيا باليوبيل الألفيّ ١٤١

«كارول ﭬويتيووا» كاردينالاً ١٤٣

وظلّ الكردينال «عمًّا» ١٤٥

سينودُس كراكوﭬيا: تنفيذ مقرّرات المجمع الفاتيكانيّ ١٤٨

نجم السينودسات الأُسقفيّة ١٥٠

غزو العالم ١٥٣

رحلاتٌ عالميّةٌ ١٥٥

المؤتمر القربانيّ في فيلادلفيا – ١٩٧٦ ١٥٨

«ڤويتيووا» المقاوم ١٦١

حضورٌ مؤثّرٌ ١٦٩

الجزء الثاني ١٧١

البابا يوحنّا بولس الثاني ١٧١

١٩٧٨ : عام الباباوات الثلاثة ١٧٣

صورة البابا العتيد تكتمل ١٧٦

طريقٌ إلى مصيرٍ لا عودة منه ١٧٧

إشاراتٌ وتوقّعاتٌ ١٨١

البابا السلاڤيّ الأوّل، «من؟» ١٨٣

كيف استقبلت پولونيا انتخاب ابنها البارّ ١٩٢

حفلة التنصيب ١٩٤

أسلوبٌ جديدٌ ٢٠١

شعار حبريّته ٢٠٤

توجّهاتٌ وأدواتٌ ٢٠٥

برنامجٌ يتّضح ٢٠٨

«ثورةٌ صامتةٌ» ٢١٢

ملامح البابا يوحنّا بولس الثاني ٢٢٥

روحانيةٌ كثيفةٌ وجهدٌ نحو القداسة ٢٤٤

انغماسٌ في الصلاة والتأمّل ٢٤٧

محيطه الشخصيّ ومعاونوه ٢٥٥

برنامج عمل البابا اليوميّ ٢٥٧

على كرسيّ بطرس ٢٦٢

يوحنّا بولس الثاني والسياسة ٢٧٣

مقاومةٌ بسلاح الثقافة ٢٩٥

سلاح الثقافة والروح ٢٩٩

أسفار يوحنّا بولس الثاني ٣٠٤

المكسيك: هدف رحلته البابويّة الأولى ٣١٠

الرسالة العامّة: «فادي الإنسان» (Redemptor Hominis) ٣١٦

عودةٌ إلى الوطن: الملحمة البولونيّة ٣١٧

تسعة أيّامٍ غيّرت مسار التاريخ ٣٢٣

٣ حزيران: غنييزنو (Gniezno) ٣٢٧

٤–٦ حزيران: تشينستوهوڤا (Czestochowa) ٣٢٨

٦–١٠ حزيران: كراكوڤيا ٣٣١

استنفار مملكة الظلمات ٣٤١

زيارةٌ تاريخيّةٌ إلى الولايات المتّحدة ٣٤٢

همٌّ جميع الكنائس ٣٥٢

كنائس شابّة: زيارة إلى أَفريقيا ٣٥٥

زيارة إلى فرنسا ٣٥٩

زيارة إلى البرازيل ٣٧٠

زيارة إلى ألمانيا الغربيّة: ١٥–١٩ تشرين الثاني ١٩٨٠ ٣٧٤

هاجس حقوق الإنسان ٣٧٥

نظرة يوحنّا بولس الثاني إلى الأسرة ٣٧٦

أبوّة ورحمةٌ ٣٧٧

رحلةٌ آسيويّةٌ بين ١٦ و٢٧ شباط ١٩٨١ ٣٧٩

محاولة اغتيال: ١٣/٥/١٩٨١ ٣٨٥

حماية «سيّدة فاطمة» ٣٩٨

في أتون الألم ٤٠١

مَن وراء جريمة «محمّد علي آغشا»؟ ٤٠٤

محاولات اغتيالٍ أُخرى ٤٠٦

تعيين الكردينال جوزف رتسنغر رئيسًا لمجمع العقيدة والإيمان ٤٠٧

تحوّلاتٌ حاسمةٌ في پولونيا ٤١٠

مداخلة البابا يوحنّا بولس الثاني ٤١٤

هموم الكنيسة والعالم ٤١٩

قانون الحقّ الكنسيّ ٤٢٣

زيارةٌ إلى نيكاراغوا ٤٢٤

صوب «لاهوت تحريرٍ» حقٍّ ٤٢٩

زيارةٌ أُخرى إلى پولونيا: ١٦–٢٣ حزيران ١٩٨٣ ٤٣٠

لعبة السلم والحرب ٤٣٤

حوارٌ مع المفكّرين ٤٣٤

السنة المقدّسة: ١٩٨٣–١٩٨٤ ٤٣٥

التوبة والمصالحة ٤٣٧

«الألم الفادي» ٤٣٨

مبادراتٌ في كلّ اتّجاه ٤٣٩

رحلةٌ آسيويّةٌ إلى آسيا وأوقيانيا ٤٤٠

ورحلةٌ إلى سويسرا ٤٤٠

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى كندا ٤٤١

مأساةٌ هزّت پولونيا ٤٤٢

العالم كلّه رعيّته ٤٤٣

رحلةٌ رسوليّةٌ سادسةٌ إلى أميركا اللاتينيّة ٤٤٣

تقييمٌ للمجمع الڤاتيكانيّ الثاني ٤٤٧

يوحنّا بولس الثاني والإعلام ٤٤٨

«أيّام الشبيبة العالميّة» ٤٤٩

السعي المسكونيّ ٤٥٣

غيومٌ وعواصف ٤٥٣

مع الشبّان المسلمين في كازابلانكا ٤٥٥

اشتداد المقاومة في تشيكوسلوڤاكيا ٤٥٧

سينودُس الأساقفة الاستثنائيّ ٤٥٩

أداة مصالحةٍ ٤٦٠

ثورةٌ في الفيليپّين، وفق النموذج الپولونيّ ٤٦١

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى الهند: ١/٣١ حتّى ١٩٨٦/٢/١١ ٤٦٥

«الربّ والمحيي»... ومساعٍ مسكونيّةٌ، ورحلاتٌ رسوليّةٌ ٤٦٨

استمرار المساعي المسكونيّة ٤٦٩

مواصلة الرحلات الرسوليّة ٤٧٠

لقاءٌ دينيٌّ عالميٌّ للصلاة من أجل السلام ٤٧١

تحوّلاتٌ في الحكم الشيوعيّ ٤٧٣

رحلة يوحنّا بولس الثاني الثامنة إلى أميركا اللاتينيّة:
الكنيسة وحقوق الإنسان ٤٧٦

الأرجنتين ٤٨٠

زيارة راعويّة إلى ألمانيا الغربيّة ٤٨٣

رسالةٌ عامّةٌ: «أمّ الفادي» (Redemptoris Mater) ٤٨٤

دعمٌ لكنيسة ليتوانيا ٤٨٦

زيارةٌ ثالثةٌ إلى موطنه پولونيا ٤٨٧

تحدٍّ للمعارضة اليهوديّة، وعطلةٌ رياضيّةٌ ٤٩١

زيارةٌ رسوليّةٌ إلى الولايات المتّحدة وكندا ٤٩١

حوار العلم واللاهوت ٤٩٣

سينودس حول رسالة العلمانيّين ٤٩٤

البطريرك ديمتريُس الأوّل في روما ٤٩٦

راعي الفقراء والمشرّدين ٤٩٨

مواجهةٌ في الپاراغواي ٥٠٠

زيارات الأساقفة «على خطى الرسل» ٥٠١
يوحنّا بولس الثاني وروسيّا ٥٠٣
مهامّ كنسيّة سبقت عطلته الصيفيّة ٥٠٦
رسالة رسوليّة: «كرامة المرأة» ٥٠٦
رحلةٌ رسوليّةٌ إلى بلدانٍ في جنوب أفريقيا ٥١٠
خطابٌ أوروبّيّ في «ستراسبورغ» ٥١١
الاتّحاد السوفييتيّ يتهاوى ٥١٣
رحلةٌ خامسةٌ إلى أفريقيا ٥١٥
رحلةٌ إلى سكاندينافيا ٥١٧
يوم الشبيبة العالميّة في إسبانيا ٥١٨
رحلةٌ رسوليّةٌ إلى الشرق الأقصى ٥١٩
عِبَرٌ من الحرب العالميّة الثانية ٥٢١
غليانٌ، وتطويبٌ، وتحرّرٌ ٥٢٢
١٩٨٩/١٢/١: لقاءٌ تاريخيٌّ، ونهاية عهدٍ ٥٢٤
تهاوي آخر قلاع الشيوعيّة في أوروبّا ٥٢٨
رحلةٌ رسوليّةٌ إلى أفريقيا ٥٣٣
رحلةٌ ثانيةٌ إلى المكسيك ٥٣٣

يوحنّا بولس الثاني وحرب الخليج ٥٣٥
يوحنّا بولس الثاني والجامعات الكاثوليكيّة ٥٤١
رحلةٌ رسوليّةٌ إلى أفريقيا ٥٤١
رسالة الكنيسة ٥٤٣
الرسالة العامّة: السنة المئة ٥٤٧
رحلةٌ فاشلةٌ إلى پولونيا ٥٥٠
السينودُس الأوروپّيّ ٥٥٢
حجٌّ، ولقاءاتٌ بالشبيبة، وقضايا مسكونيّةٌ ٥٥٦
كهنةٌ للألفيّة الثالثة ٥٥٨
رحلةٌ رسوليّةٌ إلى البرازيل ٥٦٢
المعيار الصحيح ٥٦٣
أفريقيا في القلب ٥٦٣
يوم المرضى، والبابا في المستشفى ٥٦٦
الذكرى المئويّة الخامسة لتبشير أميركا ٥٦٧
«سمفونيّة الإيمان» ٥٦٩
قضايا أوروپّيّة وإنسانيّةٌ ٥٧٠
يوحنّا بولس الثاني والعلم ٥٧١

صلاةٌ للسلام، وساعة للعلمانيّين ٥٧٢
رحلةٌ عاشرةٌ إلى أفريقيا ٥٧٤
يوحنا بولس الثاني في ألبانيا ٥٧٦
حربٌ على الإرهاب ٥٧٦
رحلةٌ إلى بلدانٍ بلطيّةٍ متحرّرةٍ ٥٧٧
المفاجأة الكبرى: أيّام الشبيبة العالميّة في «دنڤر» ٥٧٨
«بهاء الحقيقة» ٥٨٦
كبوةٌ ومنهجٌ جديدٌ ٥٨٩
دعوةٌ للإخاء ٥٩٠
مواجهةٌ بين الڤاتيكان والولايات المتّحدة الأميركيّة، ومؤتمر القاهرة ٥٩١
خلافاتٌ، وخيباتٌ، وإنجازاتٌ ٦٠١
مجلس كرادلةٍ استثنائيٌّ ٦٠٣
الألفيّة الثالثة القادمة ٦٠٥
رحلةٌ إلى كرواتيا ٦٠٩
خطواتٌ مسكونيّةٌ، وكرادلةٌ جدُدٌ ٦١٠
رحلةٌ راعويّةٌ إلى القارّة الآسيويّة ٦١١
«إنجيل الحياة» (Evangelium Vitae) ٦١٤

من أجل وحدة المسيحيّين ٦١٦
مؤتمر حقوق المرأة في پكّين ٦١٩
عودةٌ إلى أفريقيا ٦٢٢
«شاهدٌ على الرجاء». رحلةٌ إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة. ٦٢٤
مواقع ساخنةٌ ٦٢٨
كيف حال صحّة البابا؟ ٦٣٠
إرشادٌ رسوليٌّ: «الحياة المكرّسة» ٦٣١
أولويّة الثقافة ٦٣٢
مفاجآتٌ في فرنسا ٦٣٤
اليوبيل الكهنوتيّ الخمسينيّ ٦٤١
وأخيرًا «سراييڤو» ٦٤٢
رحلةٌ رسوليّةٌ إلى لبنان ٦٤٥
پولونيا: التناغم المستعاد ٦٤٩
وفي إيطاليا أيضًا ٦٥٣
منارات بشريّةٌ ٦٥٤
نشاطٌ لا يفتر ٦٥٥
وأخيرًا البابا في كوبا ٦٥٦

رحلةٌ راعويّةٌ إلى نيجيريا ٦٧٠

شيخوخةٌ نشطةٌ ٦٧٤

مواهب روحيّةٌ ٦٧٦

زيارةٌ راعويّةٌ إلى النمسا ٦٧٧

رحلةٌ راعويّةٌ إلى كرواتيا ٦٧٨

«عشرين سنةً، بابا، وأربعين سنةً، أسقفًا» ٦٨٠

«الإيمان والعقل» ٦٨١

أرقامٌ قياسيّةٌ ٦٨٣

الرحلة الراعويّة الخامسة والثمانون: المكسيك والولايات المتّحدة ٦٨٤

«رسالةٌ إلى الفنّانين» ٦٨٨

قدّيسون جُدُدٌ ٦٩١

رحلةٌ رسوليّةٌ إلى رومانيا ٦٩٢

زيارةٌ رسوليّةٌ سابعةٌ إلى پولونيا: ٥ حتّى ١٧ حزيران ١٩٩٩ ٦٩٦

رسائل في كلّ اتّجاهٍ ٧٠٧

زيارةٌ راعويّةٌ إلى سلوڤينيا ٧٠٨

إلغاء الديون، والأديان وسيلة سلامٍ ٧٠٩

الرحلة الرسوليّة الثامنة والتسعون: الهند وجورجيا (٥ حتّى ١٩٩٩/١١/٩) ٧١٠

تطويبٌ وتوجيهٌ ٧١٢

الألفيّة الثالثة: اليوبيل الكبير ٧١٤

مسار اليوبيل ٧١٨

بابٌ مسكونيٌّ ٧١٩

حجٌّ إلى مواقع الخلاص ٧٢١

توبةٌ واستغفارٌ ٧٢٤

حجٌّ إلى الأراضي المقدّسة ٧٢٨

شؤون الكنيسة والمجتمع ٧٣٥

يوبيل العمّال ٧٣٧

تكريمٌ لشهود الإيمان ٧٣٨

ذكرى مولده الثمانين ٧٤٠

واستمرّ اليوبيل ٧٤١

مائدة المحبّة ٧٤٣

المؤتمر الإفخارستيّ ٧٤٤

يوبيل السجون ٧٤٥

المؤسّسات الخيريّة ٧٤٧

أيّام الشبيبة العالميّة، ١٨ حتّى ٢٠ آب ٢٠٠٠ ٧٤٨
مشاهد من سهرة «تور ڤيرغاتا» ٧٥١
طوباويّون جددٌ ٧٥٤
الأساتذة الجامعيّون ٧٥٧
التبنّي ٧٥٧
الأديان دعوةٌ إلى التآخي ٧٥٨
البابا والأرمن ٧٥٨
يوبيل المسنّين ٧٥٩
المؤتمر المريميّ ٧٦٠
شهداء صينيّون وطوباويّون آخرون ٧٦١
يوبيل الأساقفة ٧٦١
يوبيل الأُسَر ٧٦٢
القدّيس غرينيون دي مونفور ٧٦٣
يوبيل الرسالات ٧٦٤
منظّمة التغذية ٧٦٦
يوبيل الرياضيّين ٧٦٦
«سيّدة الدموع» ٧٦٧

القدّيسون والعذراء ٧٦٨
المسؤولون الحكوميّون ٧٦٩
البابا والشرق الأوسط ٧٧٢
البابا والبطريرك كاريكين الثاني ٧٧٣
الثقافة والقداسة ٧٧٤
يوبيل المزارعين ٧٧٤
«حرّاس السلام» ٧٧٦
العلم ومستقبل البشريّة ٧٧٧
رسالة العلمانيّين ٧٧٨
صلاةٌ من أجل الدعوات ٧٧٩
شهودٌ للمسيح في الألفيّة الجديدة ٧٨١
نداءٌ للوحدة ٧٨٣
البابا والحقوقيّون ٧٨٤
مؤتمر الأديان العالميّ ٧٨٤
يوبيل المعاقين ٧٨٥
يوبيل معلّمي التربية الدينيّة ٧٨٦
يوبيل المسرحيّين ٧٨٨

غروب سنة اليوبيل ٧٨٨
حصاد السنة اليوبيليّة ٧٩٠
عام ٢٠٠١ ٧٩٢
افتتاح «مركز يوحنّا بولس الثاني الثقافيّ» في واشنطن ٧٩٧
أحد الشعانين (٢٠٠١/٤/٨)، يوم الشبيبة الوطنيّ ٧٩٧
على خطى القدّيس بولس ٨٠٠
زيارة يوحنّا بولس الثاني إلى دمشق ٨٠٣
زيارة البابا إلى مالطا ٨٢٩
مواصلة مسيرة قداسةٍ وتقديسٍ ٨٢٩
إعلان قداسة الراهبة اللبنانيّة «رفقا» ٨٣٠
رحلةٌ رسوليّةٌ إلى أوكرانيا (٢٣ حتّى ٢٠٠١/٦/٢٧) ٨٣٢
عطلةٌ صيفيّةٌ نشيطةٌ ٨٣٤
رحلةٌ رسوليّةٌ إلى كازخستان وأرمينيا ٨٣٦
أرمينيا ٨٤٠
عام ٢٠٠٢ ٨٤٧
الڤاتيكان ومأساة فلسطين ٨٥٥
هاجس القداسة ٨٥٦

الرحلة الرسوليّة السادسة والتسعون: آزربيجان وبلغاريا (٢٢ حتّى ٥/٢٦) ٨٥٧
حياة قداسةٍ، وإعلان قدّيسين، ووحدةٌ ٨٦٥
أيّام الشبيبة العالميّة السابعة عشرة في تورنتو (٢٣–٢٨ تمّوز ٢٠٠٢) ٨٦٨
غواتيمالا ٨٧٥
المكسيك ٨٧٦
تعاطف يوحنّا بولس الثاني مع الشعب الفلسطينيّ ٨٧٨
رحلة يوحنّا بولس الثاني الأخيرة إلى وطنه، پولونيا ٨٧٩
دليل قداسةٍ ٨٨٤
همّ وحدة المسيحيّين ٨٨٨
البابا يوحنّا بولس الثاني يباشر سنة حبريّته الخامسة والعشرين ٨٨٩
العام ٢٠٠٣ ٨٩١
الرحلة الرسوليّة التاسعة والتسعون: إسبانيا ٣ و٤ أيّار ٨٩٤
الرحلة الرسوليّة المئة: كرواتيا – ٥ حتّى ٩ حزيران ٨٩٦
الرحلة الرسوليّة الواحدة بعد المئة إلى البوسنا وهيرزيغوڤين: ٢٢ حزيران ٨٩٧
الرحلة الرسوليّة الثانية بعد المئة إلى سلوڤاكيا (١١ حتّى ١٤ أيلول) ٨٩٨
تطويب الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة ٩٠٢
عام ٢٠٠٤ ٩٠٤

الرحلة الرسوليّة الثالثة بعد المئة إلى سويسرا ٩١١

الرحلة الرسوليّة الأخيرة إلى لورد ٩١٥

يوحنّا بولس الثاني والألم ٩٢٩

أيّام يوحنّا بولس الثاني الأخيرة ٩٤٠

أصداء غيابه ٩٥٨

مسيرة تطويبه ٩٦١

آية مقاومة ٩٦٣

شهاداتٌ ٩٧٠

يوحنّا بولس الثاني «الكبير» ٩٧٥

يوحنّا بولس الثاني القدّيس ٩٨٢

ملحق ١٠٠٧

بـــذورٌ روحيّـــةٌ ١٠٠٧

المسيح والمسيحيّة ١٠٠٩

القداسة ١٠١٦

الصلاة ١٠١٧

صلاة البابا يوحنّا بولس الثاني لسيّدة لورد ١٠١٩

الصليب ١٠٢٠

اللّه وسرّ الوجود ١٠٢١
ثقافة ١٠٢٤٣
سلامة المجتمع ١٠٢٥
المحبّة ١٠٢٧
الفهرس ١٠٢٩

المراجع

المسرّة: العدد ٨٢٩ لعام ١٩٩٧
والعددان ٨٥١ و ٨٥٢ لعام ٢٠٠١

- **Maria WINOWSKA :Jean-Paul II, tout à tous,** *Apostolat des éditions, 1979*

- **Mieczylaw MALINSKI: Mon ami Karol Wojtyla,** *Le Centurion, 1980*

- **André FROSSARD: «N'ayez pas peur» . Dialogue avec Jean-Paul II**, *Laffont 1982*

- **André FROSSARD: Portrait de Jean-Paul II,** *Laffont 1988*

- **Jean OFFREDO: Jean-Paul II, le rouge et le blanc,** *Cana, 1986*

- **Gérard LECLERC: Jean -Paul II, Le resistant,** *Bartillat 1996*

- **Luigi ACCCATTOLI: Karol Wojtyla, l'homme du siècle,** *Bayard, Centurion 1996*

- **JEAN PAUL II (avec la collaboration de Vittorio Messori): «Entrez dans l'espérance»,** *Plon Mame 1994*

- **JEAN-PAUL II: Ma vocation, don et mystère,** *Bayard, Cerf, Mame, Téqui, 1996*

- **Card. J. RATZINGER: Jean-Paul II, vingt ans dans l’histoire,** *Bayard, Centurion,1999*

- **George WEIGEL: Jean-Paul II, Témoin de l’espérance,** *JC Lattes, 1999 et 2005*

- **Aura MIGUEL: Le secret de Jean-Paul, Mame-Plon,** *Paris, 2000*

- **Bernard BALAYN: Jean-Paul II Le Grand,** *Paris, 2000 et 2011*

- **Jean-Bernard RAIMOND: Jean-Paul II, un Pape au cœur de l’histoire,** *Le Cherche midi, Paris, 1999-2005*

- **Card. P. POUPARD: Ce Pape est un don de Dieu,** *Plon, Mame 2001*

- **Bernard LECOMTE: Jean-Paul II,** Gallimard 2003, 2006

- **Joseph VANDRISSE: Ce jour-là: Jean-Paul II,** *Perrin Mame, 2003*

- **Card. Stanislas DZIWISZ (et autres): laissez-moi m’en aller,** *Parole et Silence, 2006*

- **Card. Stanislas DZIWISZ: Une Vie avec Karol,** *DDW Seuil 2007*

- **Card. Stanislas DZIWISZ (et autres): N’ayez pas peur,** *Parole et Silence, 2010*

- **Angela AMBROGETTI: Jean-Paul II, Paroles en liberté,** *Presses de la Renaissance, Paris, 2012*

- **OSSERVATORE ROMANO**, *2001 - 2005*

- *http://w2.vatican.va/content/vatican/fr.html*

صدر للمؤلّف

أ – من منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان

مؤلّفات متفرّقة

١ – قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – **١٩٩٠**

٢ – يسوع في إنجيله – **٢٠٠٦**

٣ – يسوع في حياته – الجزء الأوّل – **٢٠٠٦**

٤ – يسوع في حياته – الجزء الثاني – **٢٠٠٦**

٥ – أمّ الله أمّنا – **٢٠٠٩**

٦ – مختارات مريميّة – **٢٠٠٩**

٧ – أمّ الرحمة – **٢٠١١**

سلسلة النوابغ

١ – السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – **١٩٩٢**

٢ – فرنسيس... أصلح كنيستي – **١٩٩٢ و ٢٠٠٨**

٣ – صوت من لاصوت لهم: الأب پيير – **١٩٩٧**

٤ – حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – **١٩٩٨ و ٢٠٠٣**

٥ – أنا الأخت إيمّانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦ – سيرة المسيح (مترجم عن جيوڤانّي بابيني) – ٢٠٠٣

٧ – بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٨ – جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

سلسلة الظهورات

١ – ظهورات لورد – ٢٠١١

٢ – ظهورات فاطمة – ٢٠١١

٣ – ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١

٤ – ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١

٥ – ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢

٦ – ظهورات كيبيهو وظهورات غوادالوبّي – ٢٠١٢

٧ – ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (الأيقونة العجائبيّة) وألفونس راتسبون – ٢٠١٢

٨ – ظهورات لوس وغيتشڤاود – ٢٠١٢

٩ – لمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢

١٠ – الأمّ السماويّة تجوب العالم – ٢٠١٢

١١ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (الجزء الثاني) ٢٠١٣

١٢ – ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو ٢٠١٣

١٣ – ظهورات في فرنسا ٢٠١٣

سلسلة صفحات روحيّة

١ – أبانا – **٢٠٠٥**

٢ – كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – **٢٠٠٧**

٣ – العذراء في حياتنا **٢٠٠٥** (مترجم) – **٢٠٠٧**

كتب مترجمة

١ – يد اللّه – **١٩٨٨** سلسلة الشهود

٢ – ثلاث عشرة قصّة – **١٩٩٠** سلسلة الوداع

٣ – أيدٍ ملطّخة بالدم – **١٩٩٥** سلسلة الوداع

٤ – اذكروا اللّه: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – **١٩٩٥**

٥ – حدّثني عن الحبّ – (طبعة ثالثة) **٢٠٠٥** – سلسلة الشباب مستقبل الغد

ب – دور نشر أخرى

١ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) **١٩٨٤** و**٢٠٠٠**

٢ – حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجي – دمشق) **١٩٩٨** و **٢٠٠٠**

المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
isppress@inco.com.lb